سترابون



الجغرافيا

في سبعة عشر كتاب

كتاب X-I



ترجمة
د. حسان مخائيل اسحق





الجغـرافيـا

سبعة عشر كتاباً في جزأين

ـــــ الجزء الأول ـــــ

1- 10

Στράβων

Γεογραφικά

I-XVII

سترابون

الجغرافيا

سبعة عشر كتاباً في جزأين

الجزء الأول

1- 10

ترجمة

د. حسان مخائيل إسحق

♦ **الجغــرافيـا.**
سبعة عشر كتاباً في جزأين.
الجزء الأول 1- 10.

- تأليف: **سترابون.**
- ترجمة: **د. حسان مخائيل إسحق.**
- الطبعة الأولى: 2017.
- عدد النسخ: 1000 نسخة.
- الترقيم الدولي: 978-9933-18-765-1 :**ISBN**

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598 جرمانا
www.zoyaala-addin.com
ala-addin@mail.sy

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
www.darrislan.com
darrislansyria@gmail.com

وفـاءً لذكرى
السيدة زويـــا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

الكتـاب الأول

الفصل الأول

1- أرى أن علم الجغرافيا[1] ، الذي عزمت الآن على دراسته، هو مثله مثل كلّ علم آخر، يدخل في دائرة أشغال الفيلسوف. وصحّة رؤيتنا هذه تستند إلى أسس كثيرة[*]. فأوّل الذين تشجّعوا على الاشتغال بهذا العلم كانوا بحسب إيراتوسفين، فلاسفة بمعنى ما: هوميروس، وأناكسيماندرس الميلتوسي، ومواطنه هيكاتيوس، ثمّ تلاهم ديموقريط، وإفدوكس، وديكيارخ، وإيثور، وبعض معاصريهم الآخرين. كما كان خلفاؤهم فلاسفة أيضاً: إيراتوسفين، وبوليبيوس، وبوسيدونيوس. ومن جهة أخرى فإن الضلوع في العلم وحده الذي يعطي إمكانية لدراسة الجغرافيا. والضلوع في العلم، هو حصراً من سمات الإنسان القادر على معالجة الأشياء الإلهية والبشرية على حدّ سواء، فهم يؤكّدون على أن الفلسفة هي معرفة هذه الأشياء. وللجغرافيا منافع متنوّعة، فهي لا تستخدم في أعمال رجال الدولة أو الحكّام وحسب، إنّما تستخدم كذلك في علم الظاهرات السماوية، والظاهرات الأرضية، والبحرية، وظاهرات عالم الحيوان، والنبات، والثمار، وما إلى ذلك مما يمكن أن نصادفه في مختلف البلدان[2]. ومنفعة الجغرافيا تفترض في الجغرافيّ فيلسوفاً أيضاً، أي إنساناً كرّس نفسه لدراسة فنّ العيش، أي السعادة.

2- ولنعالج الآن بتفصيل أكثر كلّ نقطة من النقاط التي طرحناها، وهاأنذا أقول قبل كلّ شيء، إننا وأسلافنا (وكان هيبارخ واحداً منهم)، كنّا على حق عندما قلنا إن هوميروس هو من أسّس علم الجغرافيا. فهوميروس لم يتفوّق على القدماء والمعاصرين كلّهم بسمو قيمة شعره فقط، بل، وكما أرى، بمعرفته شروط الحياة

---

*- إن الأرقام المدوّنة في الحقول تشير إلى صفحات إصدار كازوبون النقدي (باريس، 1587م)، الذي يقتبسون منه نص «جغرافيا» سترابون عادة.

الاجتماعية أيضاً. ولذلك فهو لم يهتم بتصوير الأحداث فقط، إنّما، ولكي يطلع على أكبر قدر ممكن من الحقائق ويروي للأحفاد عنها، سعى لكي يعرّف بجغرافيا بلدان بعينها، كما بجغرافيا المعمورة كلّها، جغرافيا الأرض كما جغرافيا البحر. ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاع أن يبلغ أطراف المعمورة، إذ جابها كلّها في وصفه.

3- لقد أعلن هوميروس بادئ ذي بدء، أن المعمورة محاطة بمياه المحيط من جهاتها كلّها، وهذا هو واقع الحال فعلاً. ثمّ دعا بعض البلدان بأسمائها، وترك لنا فرصة الاستنتاج فيما يتعلّق بالأخرى بعد أن زوّدنا ببعض الإشارات؛ فقد ذكر على سبيل المثال اسم ليبيا، وإثيوبيا، والصيدونيين، والإريمبيين (لقد قصد بهؤلاء الأخيرين إلى العرب الساكني الكهوف) بدقّة ووضوح، بينما ترك وصفاً مبهماً للشعوب التي تقطن أقصى الشرق وتلك التي تقطن أقصى الغرب، إذ قال إن بلدانهم تشاطئ مياه المحيط. لقد صوّر الشمس وهي خارجة من المحيط، ووصفها وهي تغوص فيه؛ وقال الشيء نفسه عن مجموعات النجوم.

الشمس بالكاد تخترق الوادي بأشعتها الفتية،

خارجة من أعماق تموجات المحيط المتهادية

(الإلياذا VII، 421)

في غضون ذلك سقط شعاع الشمس المتألق، في المحيط،

وهبط الليل الحالك.

(الإلياذا VII، 485)

ويعلن أيضاً أن النجوم تشرق من المحيط كذلك، «بعد أن تستحم في أمواج المحيط» (الإلياذا، V، 6).

4- أمّا فيما يخصّ شعوب الغرب، فإنّ هوميروس يشير إلى ازدهارها وإلى أنها عاشت في مناخ معتدل. (من المؤكّد أنه سمع عن غنى إيبيريا، وبسبب ذلك شن هرقل حرباً عليها، ثمّ حذا الفينيقيون حذوه بعد حين، واستولوا في أقدم الأزمنة على شطر كبير من البلاد، ثمّ استولى الرومان عليها فيما بعد). لأنّ نسائم تهبّ على الغرب؛ وهنا وضّع هوميروس سهل الإيليزيه، الذي سوف يرسل الآلهة منيلايوس إليه، بحسب قوله:

إلى خارج حدود الأرض، إلى حقول الإيليزيه سوف

يرسلك الآلهة - إلى هناك حيث يعيش رادامانثوس

الذهبي الشّعر،

حيث تجري وضّاءة من غير كدر، أيام الإنسان،

حيث لا عواصف، ولا شآبيب، ولا صقيع الشتاء،

حيث نسيم المحيط يتهادى لطيفاً، حلواً.

(الأوذيسا IV، 565)

5- وكذلك جزر النعيم تتوضّع إلى الغرب أيضاً، عند أقصى الشطر الغربي من ماوروسيا، وهو شطرها الذي يتجاور مع حدود إيبيريا. وتدلّ تسميتها نفسها على أن هذه الجزر عدّت نعيماً بسبب مجاورتها لمثل هذه البلدان.

6- زد إلى هذا أن هوميروس يقول بوضوح، إن الإثيوبيين يقطنون على أطراف الأرض، عند شواطئ المحيط. وقد قال إنهم يقيمون على أطراف الأرض في بيت الشعر الآتي:

... الإثيوبيين

الناس الطرفيين، الذين استوطنوا فريقين

(الأوذيسا I، 23)

(ويقينا إن قوله «استوطنوا فريقين»، هو قول صحيح، كما سنبين لاحقاً). أمّا أنهم يقطنون على شاطئ المحيط، فهذا ما يؤكّده بكلماته الآتية:

أمس مضى زيوس، حامل الصواعق، طاهراً إلى أمواج المحيط النائية

... إلى وليمة عند الإثيوبيين

(الإلياذا I ، 423)

وقد ألمح لدى حديثه عن مجموعة نجوم الدب، إلى أن أقصى بلاد في الشمال تشاطئ المحيط:

وحيداً يتحاشى الاغتسال في مياه المحيط.

(الإلياذا XVIII ، 489)

فهوميروس عنى بكلمتيّ مجموعة «الدب» و«المركبة»، «الدائرة القطبية»[3]، وإلاّ لما قال عن مجموعة الدب إنها «وحدها تتحاشى الاغتسال» في المحيط، لأنّ كثيراً من النجوم يتمّ دورته اليومية في ذلك الشطر من السماء الذي يراه دائماً. وعليه فإنه لا يصحّ اتهامه بالجهل لأنه لم يعرف سوى مجموعة دبّ واحدة بدلاً من مجموعتين. فربّما لم تكن مجموعة الدب الثانية قد عدّت في زمن هوميروس مجموعة معترفاً بها، فالإغريق لم يعرفوا بوجودها إلاّ بعد أن حدّدها الفينيقيون وأخذوا يستخدمونها في إبحارهم، والواقع نفسه ينسحب على كوكب سهيل وكوكبة بيرنيسيس كوما، ونحن نعرف أن هاتين المجموعتين لم تحملا اسميهما إلاّ منذ وقت قريب، وثمّة كثير من مجموعات النجوم الأخرى لم تدع بأسماء حتّى الآن، وهذا ما تحدّث عنه آرتوس

أيضاً. وعليه فإنّ كراتيت ليس محقّاً عندما سعى لينقض ما لا ينبغي أن يُنقض، فقد حوّر نصّ هوميروس ليصبح على النحو الآتي:

والدائرة القطبية تتحاشى أن تغتسل

أمّا هيراقليط فيسلك طريقاً أفضل وأكثر قرباً إلى روحية هوميروس، فهو يستخدم أيضاً كلمة مجموعة «الدب» بدلاً من «الدائرة القطبية»: «إن مجموعة الدب هي حدّ الصباح والمساء، ومن السماء الصافية تهب على مجموعة الدب ريح»[4]. فالدائرة القطبية، وليست مجموعة الدب، هي الحدّ الذي لا تغرب النجوم خلفه ولا تشرق. وعليه فإن هوميروس يقصد باسم مجموعة «الدب» (التي يدعوها أيضاً «المركبة» ويقول، إنها تحرس الجوزاء)، «الدائرة القطبية»؛ ويرى في المحيط دائرة الأفق التي ينتهي عندها غروب الكواكب ويبدأ منها شروقها. وعندما يقول هوميروس إن مجموعة الدب تدور في هذه الرّقعة من السماء، من غير أن تغوص في المحيط[5]، فإنه يعرف أن الدائرة القطبية تمرّ عبر أقصى نقطة في شمالي دائرة الأفق. وإذا ما أوّلنا بيت قصيدة الشّاعر على هذا النحو، فينبغي أن نقرّ بأنّ دائرة أفق الأرض تتطابق تماماً مع المحيط، وأن الدائرة القطبية تتماسّ مع الأرض (بالقدر الذي نثق فيه بحواسّنا) في أقصى نقطة من شمالي المعمورة[6]. ولذلك فإن هذا الشطر من الأرض، يتشاطأ بحسب هوميروس، مع الأرض. وهوميروس يعرف الناس الذين يعيشون في أقصى الشمال، مع أنه لا يدعوهم بأسماء (وليس لهم حتّى في يومنا هذا تسمية واحدة)؛ بل يطلق عليهم أسماء تتوافق ونمط عيشهم، فيدعوهم «أهل البداوة، الرّحل»، و«الرجال الغربيين الهيبيمولوغيين، الفقراء الذين يقتاتون على الحليب» (الإلياذا XIII، 5، 6).

7- كما يشير هوميروس في أماكن أخرى إلى أن المحيط يحيط بالأرض، فهيرا تقول عنده:

إني أمضي بعيداً، إلى أطراف الأرض المعطاءة

لأرى الخالدين أبي، والمحيط.

(*الإلياذا* XIV، 200)

فبهذه الكلمات يريد هوميروس أن يقول، إن المحيط يتماسّ مع حدود الأرض كلّها، وهذه الحدود في كلّ مكان. في الأغنية التي تتحدّث عن «صناعة درع أخيل»، يرسم هوميروس صورة للمحيط الذي يلفّ الطرف الخارجي للدرع[7]. والبرهان الآخر على محبة هوميروس هذه نفسها للمعرفة، هو معرفته الجيّدة بظاهرة المدّ والجزر التي تحدث في المحيط، وهذا واضح من حديثه عن «المحيط الذي يتدحرج حول نفسه» (الإلياذا XVIII، 399)، كما عن المحيط الذي:

يبتلع ثلاث مرّات في اليوم، ويردّ ثلاث مرات في اليوم

(*الأوذيسا* XII، 105)

ولكن بما أن المدّ لا يحصل «ثلاث مرات» بل مرتين، لذلك قد تكون معطيات هوميروس خاطئة، أو ينبغي أن نجيز إمكانية تعرّض نصّه للتحريف، لكنّ أسس زعمه تبقى هي نفسها[8]. وحتّى تعبيره «من تموجات المحيط المتهادية» (الإلياذا VII، 422)، يتضمّن إشارة ما إلى ظاهرة المدّ التي تتصاعد رويداً رويداً، ولا تندفع اندفاعة واحدة أبداً. وعلى أساس معطى هوميروس الذي قال فيه، إن الأمواج تغطّي الصخور تارة، وأن هذه تظهر عارية تارة أخرى، واستناداً إلى أن هوميروس يدعو المحيط نهراً، افترض بوسيدونيوس أن هوميروس رأى في حركة المحيط حركة مدّ. وفرضية بوسيدونيوس الأولى صحيحة تماماً، أمّا فرضيته الثانية فهي خالية من كلّ مغزى. فحركة المدّ المتصاعدة لا تشبه جريان النهر، كما أن الشبه بينها وبين حركة الجزر أقلّ. ويأتي تأويل كراتيت أكثر صواباً في هذا السياق. فهوميروس يدعو المحيط كلّه «بالجاري عميقاً»، و«الجاري القهقرى» (الأوذيسا 65، XX، 13، XI)، كما يدعوه نهراً كذلك. وهو يتحدّث عن شطر من المحيط حديثه عن نهر، أو كأنه «جريان نهر»، ولا يتحدّث في هذا السياق عن المحيط كلّه، إنّما عن شطر منه فقط، فيقول:

لقد شقّ التيار المحيط بسفينته مسرعاً،

ومرّة أخرى جئنا إلى البحر الذي طالما عاموا في مياهه

(*الأوذيسا* XII، 1)

وعليه فإن هوميروس لم يقصد المحيط كلّه، بل مجرى النهر الذي يصبّ في المحيط، ويشكّل جزءاً منه؛ ويقول كراتيت، إن هذا المجرى ليس سوى شيء ما يشبه الغور أو الخليج الذي يمتدّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب الجنوبي. وواقع الحال، هو أنك ما إن تغادر هذا الخليج حتّى يمكنك أن تدخل مياه المحيط، ولكن من البدهي إنك عندما تغادر المحيط، فإنه لا يمكنك في أيّ حال أن تكون في المحيط. وعلى أيّ حال فإن هوميروس يقول:

لقد ترك مجرى النهر، ووصل إلى أمواج البحر،

وليس «البحر» هنا شيئاً آخر طبعاً، سوى المحيط، وإذا ما أوّلنا هذا تأويلاً مغايراً، فإن الأمر سيكون على النحو الآتي: «بعد أن خرج أوديسيوس من المحيط، جاء إلى المحيط». بيد أنه ينبغي أن نناقش هذه المسألة بالتفصيل.

8- إننا نستطيع بناء على معطيات أحاسيسنا وتجربتنا أن نستنتج أن المسكونة عبارة عن جزيرة. ففي أيّ مكان يبلغ الإنسان فيه أطراف الأرض، ثمّة بحر، ونحن

ندعو هذا البحر محيطاً. وحيث لا يمكن إدراك هذا بالإحساس، فإن العقل يشير إلى الطريق. فالشطر الشرقي من المسكونة (الشطر الهندي) مثلاً، والشطر الغربي منها (الشطر الإيبيري والماوروسي)، يمكن أن ندور حولهما ونمضي في رحلتنا إلى مسافات بعيدة عبر شطريها الشمالي والشرقي. أمّا فيما يخصّ باقي أجزاء الأرض المسكونة التي لا تزال عصيّة علينا (لأن البحارة الذين يبحرون في اتجاهات متعاكسة، لم يلتق بعضهم بعضاً أبداً)، فإنها ليست كبيرة، إذا ما أجرينا حساباتنا على أساس المسافات المتوازية المعروفة لنا. فمن المستبعد أن يكون المحيط الأطلسي قد انقسم إلى بحرين تفصل بينهما برازخ قليلة الاتساع إلى درجة تعيق الإبحار الدائري حولهما؛ ولكنّ الأكثر احتمالاً، هو أن يكون هذا عبارة عن بحر مفتوح شكّل بالاندغام كلاً واحداً. لأنّ أولئك الذين أبحروا حول العالم ثمّ عادوا أدراجهم قبل أن يحقّقوا هدفهم، قالوا إنهم عادوا لا لأنّ يابسة ما أعاقت تقدّمهم، فالبحر بقي مفتوحاً لكنّ نفاد المواد التموينية وشحّ المكان، هو ما أرغمهم على العودة. وهذا الاستنتاج يتوافق بطريقة أفضل، مع الظاهرات التي تحدث في المحيط أثناء المدّ والجزر. فالمبدأ عينه (مع شيء من الاختلاف البسيط)، يرصد في كلّ مكان، وهو الذي يفسّر تغيّر مستوى المياه (ارتفاعاً أو هبوطاً)، لأنه يبدو كأن حركتها تنتج عن البحر وحده، ولسبب واحد.

9- وليس اعتراض هيبارخ على هذا الرأي مقنعاً. أولاً، لا تُرصد الظاهرات عينها في كلّ مكان من المحيط، ثانياً، وحتّى لو أجزنا هذا، فإنه لا يعني بعد أن المحيط الأطلسي يجري حول الأرض في حلقة متصلة لا انقطاع فيها. ولكي يبرهن على صحّة رأيه، يستعين هيبارخ بسمعة سلوقس البابلي. وفيما يخصّ دراسة مسألة المحيط ومدّه بعد ذلك، فإننا نحيل القارئ إلى أبحاث بوسيدونيوس وأثينودوروس اللذين درسا هذه المادّة دراسة دقيقة وافية. ويكفي بالنسبة لبحثنا هذا أن نقول، إنه من الأفضل أن نعتمد الرأي القائل بالظاهرات المتماثلة في المحيط؛ لأنه بقدر ما تكون الكتلة المائية زاخرة حول الأرض أكثر، بقدر ما تتماسك الأجرام السماوية تماسكاً أفضل بفعل الأبخرة البحرية[9].

10- وعلى هذا النحو يتبيّن لنا أن هوميروس يعرف أقصى أطراف المسكونة وما يحيط بها، ويصفها بدقّة؛ كما يعرف بالدّقّة نفسها أقاليم البحر المتوسّط. لأننا إذا بدأنا الوصف من أعمدة هرقل[10]، فسوف يتبيّن أن البحر المتوسّط محاط بليبيا، ومصر، وفينيقيا، وبعد ذلك بشطر القارّة المتوضّع قبالة قبرص، ثمّ بإقليم السولميين، وليكيا، وبلاد الكاريين؛ وأخيراً بالساحل المتوضّع بين ميكال وطروادا والجزر القائمة أمامهما. فقد أتى هوميروس على ذكر هذه البلدان كلّها واتبعها بذكره

للأقاليم المحيطة ببروبونتيدا والبونتس الإيفكسيني وصولاً حتّى كولهيدا وحدود حملة ياسون. زد إلى هذا أن هوميروس يعرف أيضاً البسبور الكيميري، لأنه يعرف الكيميريين (فمن غير الممكن أن يعرف اسم الكيميريين من غير أن يعرف هذا الشعب نفسه)، وكان هؤلاء قد نهبوا في زمن هوميروس أو قبل ذلك بقليل، كلّ الإقليم الممتدّ من البسبور إلى إيونيا. وقد ألمح هوميروس في كلماته الآتية إلى مناخ بلادهم الضبابي:

الضباب الرّطب وسديم الغيم، لا يظهر هناك

للعين أبداً وجه هيليوس المشرق،

فمنذ الأزل يحيط الليل الكئيب بالمكان.

(*الأوذيسا* XI، 15، 19)

كما يعرف هوميروس أيضاً نهر إيستر، لأنه يذكر الميسيسيين، والشعب التراقي الذي يستوطن ضفاف إيستر. وعلاوة على ذلك فإن هوميروس على معرفة بالساحل البحري الواقع على مقربة من إيستر على الجانب التراقي وصولاً حتّى نهر بينييوس؛ فهو يذكر البيونيين، والأفون، والأكسي والجزر المتوضّعة قبالتهم. ويلي بعد ذلك ساحل اليونان الذي يذكره كاملاً حتّى ثيسبروتيا. بل لقد كان هوميروس على اطلاع على أطراف إيطاليا العالية، لأنه يتحدّث عن تيميس وصقليا؛ كما يعرف أيضاً رؤوس الساحل الإيبيري، وثراء إيبيريا، كما أشرنا من قبل. وإذا كان ثمّة بلدان بين هذه البلدان أغفلها هوميروس، فهو معذور، لأنه حتّى المشتغلين بالجغرافيا يغفلون كثيراً من التفاصيل. ونحن يمكننا أن نسامح الشّاعر إذا ما ساق في روايته التاريخية التعليمية بعض سمات الحكايات الخرافية. إن هذا لا يستحق اللوم؛ فإيراتوسفين ليس محقّاً في قوله، إنّ كلّ شاعر يسعى لكي يحمل الغبطة، لا لكي يحمل العبرة التعليمية. وفي واقع الحال أن الأكثر حكمة من أولئك الذين كتبوا عن الشعر، قالوا، إنه ضرب ما من ضروب الفلسفة البدئية. ولكنّني سوف أدحض إيراتوسفين مرّة أخرى وبالتفصيل، عندما سيأتي الحديث مرّة ثانية عن هوميروس.

11- والآن أرى، أنه قد قيل ما يكفي للبرهان على أن هوميروس كان أوّل جغرافيّ[11]. ومن المعروف أيضاً أن خلفاء هوميروس كانوا أناساً أفذاذاً وعلى معرفة جيّدة بالفلسفة. ويقول إيراتوسفين، إن أوّل اثنين ممن خلفوا هوميروس هما أناكسيماندرس، تلميذ فاليس وابن مدينته، وهيكاتوس الميلتوسي؛ ويقول أيضاً، إن أناكسيماندس أوّل من أصدر خريطة جغرافية[12]، وأنّ هيكاتوس ترك لنا بحثاً في الجغرافيا، نُسب إليه بناء على تشابهه مع مؤلّفاته الأخرى.

12- لقد أكّد كثيرون أن الاشتغال بالجغرافيا يتطلّب امتلاك ثقافة واسعة ومتنوّعة. ففي مؤلّفه «ضدّ إيراتوسفين»[13]، يبيّن هيبارخ بحق، أنه لا يمكن لأي شخص (عالماً كان أم جاهلاً) أن يحصل على المعارف الضرورية في الجغرافيا إذا لم يكن قادراً على تحديد الظاهرات السماوية وحساب الكسوفات التي يرصدها. فمن غير البحث بمساعدة «الأقاليم»[14] مثلاً، لا يمكن تحديد ما إذا كانت إسكندرية مصر تقع شمالي بابل أم جنوبها، وعلى أي مسافة إلى الشمال منها أو إلى الجنوب منها. وعلى هذا النحو نفسه فإننا لا نستطيع أن نحدّد بدقّة النقاط الواقعة على مسافات مختلفة إلى الشرق من موقعنا أو إلى الغرب منه، إلاّ بالمقارنة بين الكسوف الشمسية والخسوف القمرية[15]. هكذا يقول هيبارخ عن هذا.

13- إنّ كلّ من يتصدّى لوصف السمات الفريدة التي تتسم بها البلدان، يدرس على وجه الخصوص علم الفلك، والهندسة لكي يحدّد الأشكال، والأحجام، والمسافات بين المواقع، كما يدرس «الأقاليم»، والدفء والبرودة، وسمات الجوّ المحيط على وجه العموم[16]. وفي الواقع أن البنّاء إذ يبني المبنى، أو المعماري عندما يضع خطّة بناء المدينة، فإنه ينبغي عليه أن يستشفّ هذه الشروط كلّها، والأمر أكثر أهمية بالنسبة لمن يدرس المسكونة كلّها؛ فهذا يليق به أكثر من أي شخص آخر. وفي نطاق أمداء ليست كبيرة، ليس ثمّة أهمية كبيرة لكون المنطقة المعنية تقع إلى الشمال أو إلى الجنوب؛ ولكن إذا كان المدى هو دائرة المسكونة كلّها، فإن الشمال يمتدّ إلى أقصى أطراف سيكثيا أو سلتيا، ويمتدّ الجنوب إلى أقصى أطراف إثيوبيا، ويشكل هذا اختلافاً كبيراً. ويبقى الأمر عينه صحيحاً فيما يتعلّق بسكّان الهند أو بسكّان إيبيريا؛ فأحد هذين البلدين يقع كما نعرف في أقصى الشرق، بينما يقع الآخر في أقصى الغرب، وهما يعدّان كما هو معروف، نقيضين بمعنى ما.

14- إنّ كلّ الظاهرات التي تنتمي إلى هذا النوع، لأنها ناتجة عن حركة الشمس والنجوم الأخرى، وسعيها نحو المركز[17]، ترغمنا على أن نتجه بأنظارنا إلى السماء ونراقب الظاهرات السماوية في كلّ مكان نحن فيه. وثمّة في هذه الظاهرات اختلافات كبيرة جدّاً، تبعاً لوضعية الأماكن المسكونة. ولذلك إذا عزم المرء على عرض الاختلافات بين الأقاليم، فهل يستطيع أن يؤوّل هذه المادّة تأويلاً صحيحاً من غير أن يولي اهتماماً حتّى لو سطحياً، لهذه الظاهرات؟ ولكن إذا كان الالتزام بالدّقّة العلمية غير ممكن في مثل هذه الأعمال (لأنها تمسّ أكثر ما تمسّ قضايا الدولة)، فإنه ينبغي فعل ذلك حتّى لو إلى الحدّ الذي يستطيع عنده رجل الدولة أن يفهم اتجاه أفكارنا.

15- حتّى الإنسان الذي يكون قد سما بأفكاره عالياً إلى السماء، لن يمتنع عن وصف الأرض ككل. لأنه سيكون من المضحك، إذا ما عزم المرء على أن يصف المسكونة وصفاً دقيقاً، أن يقرر دراسة الظاهرات السماوية ويستخدمها للدراسة، من غير أن يولي انتباهاً للأرض ككل (تؤلّف المسكونة جزءاً منه)، لا لحجمها، ولا لطابعها، ولا لوضعها في الكون، ولا حتّى لكون المسكون هو جزء من العالم فقط، وهو الجزء الذي نعيش فيه، أم أن المسكون هو أجزاء أخرى كثيرة (إذا كان الأمر كذلك)، وكم عدد تلك الأجزاء. ما مدى كبر الشطر غير المسكون من العالم، وما هو طابعه، ولماذا هو غير مسكون؟ ولذلك فإن هذا القسم الخاص من الجغرافيا، هو كما نرى عبارة عن اتحاد يجمع بين علم الأرصاد الجوية[18]، والجغرافيا، وعلم الهندسة؛ لأنه يجمع بين الظاهرات الأرضية والسماوية بصفتها ظاهرات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه:

كم تبدو السماء مشرقة من الوادي

(الإلياذا VIII، 16)

16- ثمّ نزيد على هذه المعارف المتنوّعة، تاريخ الأرض نفسها، أي تاريخ الحيوانات، والنباتات، وكلّ ما هو نافع أو ضارّ مما تنتجه الأرض أو ينتجه البحر (وأنا أرى أن هذا التحديد يجعل ما أقصد به بتعبير «تاريخ الأرض»، أكثر وضوحاً). وفي الحقيقة أن مثل هذه الدراسات كلّها، لها أهميتها كدراسات تمهيدية تحقّق الفهم الكامل؛ كما تحقّق معرفة طبيعة البلاد، وأنواع الحيوانات، والنباتات، وينبغي أن نضيف أيضاً كلّ ما له صلة بالبحر. فنحن بمعنى ما نعيش حياة ذات نمط مزدوج، ولا نعدّ كائنات برّية أكثر من كوننا كائنات بحرية. إنّ هذا النوع من المعارف يحقّق فائدة عظيمة لكلّ من يحصل عليه، وهذا واضح من الحكايات الخرافية القديمة، كما هو واضح على أساس الحجج العقلية. وفي الأحوال كلّها فإنّ الشعراء يعلنون أن الأحكم بين أبطالهم هم الأبطال الذين زاروا أراضيَ كثيرة وطافوا في الأرض طويلاً، فعلامة المجد العظيم عندهم هي

... زار كثيراً من ناس المدن ورأى عادات وعادات.

(الأوذيسا I، 3)

وحتى نسطور نفسه يتفاخر بأنه أقام بين اللابيثيين إذ دعي لزيارتهم كضيف:

[التارك بيلوس]

أرض أبي النائية: دعوني هم أنفسهم.

(الإلياذا I، 270)

وعلى هذا النحو نفسه تفاخر منيلايوس قائلاً:

رأيت قبرص، وزرت فينيقيـا، وبلغـت مصـر،

وأوغلت إلى السود الإثيوبيين، وحللت ضيفاً.

على الصيدونيين، والإيريمبيين، وكنت في ليبيا...

(الأوذيسا IV، 83)

ثم يضيف فيذكر السمة التي تتميّز بها البلاد،

... حيث تولد الشياه ذات القرون

حيث مرات ثلاث في كلّ عام تضع الماعز والشياه

(الأوذيسا IV، 86)

ويقول منيلايوس عن طيبة المصرية:

... الأرض هناك فيها وفرة وغنى

وتلد محاصيل كثيرة

(الأوذيسا IV، 229)

المدينة التي لها مئة باب، يخرج منها، من كلّ منها

مائتـا رجـل معـوار في مركبات تجـرها خيل عدّاءة

(الإلياذا IX، 383)

ولا يفوت هوميروس، بسبب الخبرة الكبيرة والمعطيات الكثيرة، أن يذكر هرقل **الذي أتى مآثر فريدة**

(الأوذيسا XXI، 26)

حتّى كلماتنا التي قلناها في البداية، تؤكّدها الحكايات الخرافية القديمة، وحجج العقل. لكنّي أرى أيضاً أن الرأي الآخر مهمّ على وجه الخصوص لاستنتاجي الراهن، أي أن القسم الأعظم من الجغرافيا يخدم احتياجات الدولة، لأنّ مسرح نشاط الدول، هو الأرض والبحر، أي مكان سكن الإنسان. ويكون المسرح صغيراً ومحدوداً إذا كان النشاط ضعيفاً، لكنّه يغدو عظيماً ورحباً إذا كان هذا مهمّاً. والمسرح الأعظم يشمل الأرض كلّها (ونحن ندعوها باسم خاص، «المسكونة»)، ولذلك فإنها ينبغي أن تكون مسرحاً للنشاط الأهمّ.

ثمّ الحكّام العظام، وهؤلاء أشخاص استثنائيون يمكن أن يسودوا في البرّ والبحر ويوحّدوا الشعوب والمدن تحت سلطة واحدة وإدارة سياسية واحدة. ولذلك من الواضح أن الجغرافيا ككل لها علاقة مباشرة بنشاط الحكّام، فهي تبسط القارّات

والبحار على الخريطة، ولا يقتصر الأمر هنا على البحار الموجودة في نطاق المسكونة، إنّما أيضاً البحار الواقعة خارج حدودها. ولهذا البسط الذي تعطيه الجغرافيا، أهميته بالنسبة للمهتمين بمعرفة كيفية توضّع البلدان والبحار، وهل هي معروفة أم لا تزال خارج نطاق البحث. فالحكّام يستطيعون إدارة كلّ بلد على حدة، إذا ما عرفوا حجمه، وموقعه، وخاصيات مناخه وتربته. ولكن بما أن حكّاماً كثراً يحكمون في شتّى أرجاء العالم، يحقّقون نشاطاتهم وينشرون حدود دولهم انطلاقاً من مراكز مختلفة، فإنّهم مثلهم مثل الجغرافيين، لا يمكنهم أن يعرفوا بدرجة واحدة أجزاء العالم كلّها. بيد أنه غالباً ما تتكشّف لأولئك وهؤلاء معارف «أكثر أو أقلّ». لأنه حتّى لو شكّلت المسكونة كلّها دولة عظمى واحدة، فإنه حتّى عندئذٍ بالكاد يمكن معرفة أجزاء هذه الدولة كلّها بدرجة واحدة. فالأمر مستحيل حتّى في مثل هذه الحالة أيضاً؛ لأنّ الأجزاء الأقرب إلى المركز ستكون مدروسة بصورة أفضل. وسيكون صحيحاً تماماً إعطاء وصف أكثر تفصيلاً لهذه الأجزاء لكي تغدو معروفة تماماً، فهي تقع على مقربة، ويمكنها من حيث موقعها أن تلبي حاجات الدولة بطريقة أفضل. ولذلك فليس ثمّة ما هو مستغرب في ضرورة وجود جغرافيّ خاص للهنود، وآخر للإثيوبيين، وثالث للإغريق والرومان. فعلى سبيل المثال، لماذا يكون الجغرافيّ الهندي مضطرّاً لإضافة تفاصيل عن بيوتيا كتلك التي يسوقها هوميروس:

مقاتلون من القبائل التي تستوطن غيريا، في أوليدا الوعرة

وسخوينوس، والقاطنون سكولوس

(الإلياذا II، 496)

إن هذه التفاصيل لها أهميتها بالنسبة إلينا، لكنّ مثل هذا الوصف التفصيلي لبلاد الهند ينبغي ألاّ يثير اهتمامنا. وفي واقع الحال، إن اعتبارات المنفعة لا تحرّضنا على هذا: إن المنفعة هي المعيار الحقيقي لاطلاعنا على مثل هذه الأشياء.

17- ومنفعة الجغرافيا في الشؤون القليلة الأهمية، واضحة بيّنة، كما في الصيد على سبيل المثال. فالتوفيق في الصيد سوف يحالف الصياد أكثر إذا كان هذا يعرف خاصيات مدى الغابة واتساعه. وعلى النحو عينه سوف تكون حال من يعرف المكان معرفة جيّدة، إذ يمكنه أن يوفّق في إقامة معسكر، أو ضرب حصار، أو أن يكون دليلاً. وتظهر منفعة الجغرافيا جليّة في التدابير الكبرى، لأنّ أوسمة النصر وعقاب الهزائم اللذين يعدّان نتيجة للمعرفة أو الجهل، سوف يكونان أعظم. فآغاممنون مثلاً، ومعه أسطوله، دمّر ميسيا ونهبها، ظنّاً منه إنها إقليم من أقاليم طروادا، وعاد من هناك مجلّلاً بالعار. أمّا الفرس والليبيون فقد ظنّوا أن المضائق ليس لها مخارج،

فوضعوا بذلك أنفسهم تحت خطر داهم، وليس هذا وحسب، إنّما تركوا شواهد على جهلهم أيضاً؛ فالفرس شيّدوا هضبة - مدفناً في يوريبا على مقربة من خلكيديا، على شرف سالغانيوس الذي زعموا أنهم قتلوه لأنه خدعهم وقاد أسطولهم من مضيق آسيا الصغرى إلى يوريبا، والليبيون[19] أيضاً أقاموا أنصاباً تذكارية على شرف بيلور، الذي أعدموه للسبب نفسه. واليونان بدورها، كانت مغطاة بكسرات من حطام السفن في أثناء حملة كسيراكس. ويقدّم لنا تاريخ المستعمرات الأيولية والإيونية كثيراً من الأمثلة على مثل هذه المآسي. بيد أنه كانت ثمّة حالات من التوفيق انتهت بتحقيق النجاح بفضل معرفة المكان. فيحكى على سبيل المثال أن إيثالس أرشد الفرس إلى درب جبلية في ثغور ثرموبل، فقدم بذلك فصيل ليونيد لقمة سائغة للفرس، وقاد البرابرة إلى عمق اليونان جنوبي ثرموبل. ولكن إذا تركنا التاريخ القديم إلى المعاصر، فإني أرى أن حملة الرومان على بارثيا[20]، تعدّ تأكيداً كافياً على صحّة ما أقول، وكذلك هي حال حملاتهم ضدّ الجرمان والسلت[21]، لأنّ البرابرة أداروا في هذه الحالة الأخيرة حرب عصابات، فتخفوا في المستنقعات، وثغور الغابات والصحارى غير المطروقة، فجعلوا الرومان الذين لا يعرفون المكان يظنّون المكان القاصي دانياً، وهكذا أبقوهم في حال من الجهل حيال الطرق، واحتياطات التموين، وما إلى ذلك.

18- وعلى هذا النحو فإن القسم الأكبر من الجغرافيا يخدم، كما قلنا من قبل، حاجات الحكّام؛ ومثله أيضاً القسم الأعظم من التعاليم الأخلاقية والسياسية، له صلة بحياة الحكّام. والبرهان على هذا، هو أننا نقيم الاختلاف في شكل حكم الدول بحسب السلطة العليا؛ فندعو سلطة عليا ما بالسلطة الملكية أو القيصرية وندعو أخرى بالسلطة الأرستقراطية، وندعو ثالثة بالسلطة الديمقراطية. وبين أيدينا عدد مماثل من أشكال إدارة الدولة التي ندعوها بأسماء حكّامها، لأنّ الدول أخذت منهم السمات الأساسية لأشكال إداراتها. وفي بلد ما تكون إرادة الملك هي القانون، وفي بلد آخر تكون إرادة الشخصيات التي تحمل ألقاباً عالية، هي القانون، وفي بلد ثالث تكون إرادة الشعب، هي القانون. فالقانون هو الذي يمنح بناء الدولة نمطه وشكله، ولذلك يعرّف بعضهم «العدالة» بأنها «مصلحة الأقوى»[22]. وهكذا إذا كانت الفلسفة السياسية تتعامل في جزئها الأكبر مع الحكّام، وإذا كانت الجغرافيا في خدمة هؤلاء أيضاً، فإن لهذا العلم الأخير، كما أرى، بعض الأفضلية على الفلسفة السياسية. لكنّ هذه الأفضلية ترتبط بالحياة العملية.

19- تتضمّن دراسة الجغرافيا نظرية ليست قليلة الأهمّية، هي نظرية الفنون، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، والنظرية التي تقوم في أساس التاريخ والأساطير (مع أنه

ليس للأساطير أي صلة بالحياة العملية). فإذا ما روى أحدهم على سبيل المثال، قصة ترحال أوديسيوس، ومنيلايوس، أو ياسون، فيجب ألاّ يظنّن أحد أن الراوي يغني بذلك الحكمة العملية لدى مستمعيه (هذا ما يسعى إليه الشخص العملي)، إلاّ إذا ألحق بروايته دروساً مفيدة يستخلصها من المآسي التي عاناها هؤلاء الأبطال. ومع ذلك فإن هذه الروايات يمكن أن تمنح قدراً كبيراً من المتعة للمستمعين الذين يهتمّون بالمواقع التي ولدت الأساطير فيها. فالأشخاص العمليون شغفون بمثل هذه الأعمال، لأنّ مثل هذه المواقع مواقع شهيرة، أمّا الأساطير فهي مليئة بما هو ممتع. ولكن اهتمام مثل هؤلاء الأشخاص بمثل هذا كلّه، لا يطول، لأنهم يهتمّون بما هو عملي ونافع أكثر ممّا يهتمّون بالأشياء الشهيرة والمليئة بالمتعة، وهذا أمر طبيعي. ويبقى هذا المبدأ عينه فاعلاً بالنسبة للتاريخ، وعلوم الرياضيات أيضاً، ففي هذه العلوم ينبغي أن تعطى الأفضلية دائماً لما هو نافع وأكثر يقينية.

20- وكما نوّهنا سابقاً فإن مادّة كالجغرافيا تحتاج بالضرورة إلى علميّ الهندسة والفلك. وهما فعلاً ضروريان لها. فبغير استخدام طرائق هذين العلمين يتعذّر تحديد التكوينات الهندسية للبلدان، و«الأقاليم»، والأحجام وما شابه من المفاهيم الأخرى. ولكن بما أن كلّ ما يمتّ لقياس الأرض قد جرى البرهان عليه في مؤلّفات أخرى، فإنه ينبغي عليّ في هذا البحث أن أسلّم بصحّة الموضوعات التي أقرّت هناك بصدد الشكل الكروي(23) للعالم، وأن أقبل كذلك موضوعة كروية سطح الأرض؛ عدّاك عن هذا أنه كان يجب عليّ أن أسلّم قبل ذلك بحقيقة وجود قانون الجاذبية المركزية لحركة الأجسام(24). لكنّني ملزم على أن أعرض بإيجاز السمات العامّة للموضوعة الآتية: هل ينشأ هذا التسليم - إذا كان ينشأ فعلاً - في ميدان إدراكنا الحسّي، أم أنه متجذّر في المعرفة الافتراضية للناس جميعهم؟ لنأخذ على سبيل المثال، التسليم بأن الأرض كروية الشكل: يقوم البرهان على صحّة هذه المقولة استنتاجياً، في حركة الجاذبية المركزية، كما في حقيقة أنّ كلّ جسم يميل نحو مركز ثقله؛ ويقوم مباشرة في الظاهرات التي يجري رصدها في البحر والسماء. فإدراكنا الحسّي، وكذلك الاعتقاد البشري البسيط يمكن أن يؤكّدا صحّة ذلك. فمن المعروف مثلاً، أن انحناءات البحر تعيق البحارة عن رؤية الضوء النائي [النيران] على مستوى نظرهم. وعلى أيّ حال فإن النيران الأعلى من مستوى النظر تغدو مرئية، حتّى لو كانت على مسافة قاصية عن موقع المراقب. وعلى هذا النحو عينه إذا كانت العينان مرتفعتين فإنهما تريان ما كان غير مرئي قبل ذلك. وهذا ما أشار إليه هوميروس أيضاً، لأنّ لكلماته الآتية مثل هذا المغزى:

إذ رفعته الموجة إلى فوق، وتطلّع إلى الأمام حالاً

[رأى الأرض أمامه على مقربة].

(*الأوذيسا* V، 393)

عدا عن هذا، حينما يقترب البحارة من اليابسة، تظهر لأنظارهم بالتدرّج أجزاؤها القريبة، وما بدا في الأوّل منخفضاً، يتعالى بعد ذلك بالتدرّج أعلى فأعلى. والدوران الدائري للأجرام السماوية واضح من حقائق كثيرة، لكنّه واضح على وجه الخصوص بمراقبة الساعات الشمسية(25). ومن هذه الظاهرات يتوصل عقلنا البشري إلى خلاصة مفادها، أن هذا الدوران الدائري ما كان ليحصل لو أن الأرض راسخة على أسس تمتدّ إلى أعماق لا نهاية لها. ونحن عرضنا دراستنا عن «الأقاليم» في باب الأقاليم المسكونة(26).

21- وينبغي علينا الآن فوراً أن نأخذ من هذه العلوم بعض المعطيات، خاصة ما يفيد منه رجل الدولة، والقائد العسكري. فلا يمكن أن يكون المرء جاهلاً بشؤون الظاهرات السماوية وتوضّع الأرض إلى حدّ يجعله يرتبك إذا ما حلّ في بلاد تتغيّر فيها بعض الظاهرات السماوية ويهتف متعجباً:

إننا لا نعرف، أيها الأصدقاء، أين يتوضّع الغرب، أين يظهر إيوس،

أين يهبط هيليوس حامل النور [تحت الأرض]، أين يصعد السماء.

(*الأوذيسا* X، 190)

ومن جهة أخرى، ليس من الضروري أن يمتلك المرء مثل هذه المعارف العلمية الدقيقة، لكي يفهم كيف تشرق مجموعات النجوم وتغرب وخطوط الطول تعبر في الوقت عينه كلّ مكان، أو أن يعرف ارتفاع «القطبين»(27)، ومجموعات النجوم، الواقعة في السمت، وما إلى ذلك من الظاهرات المتغيّرة التي ترتبط بتغيّر دوائر الأفق والدوائر القطبية، وقد تكون إمّا افتراضية وإمّا حقيقية. وينبغي علينا على وجه العموم ألاّ نعير انتباهاً لبعض مثل هذه الظاهرات، لكن ليس إذا ما نظرنا إليها من زاوية نظر الفيلسوف. أمّا باقي الظاهرات فينبغي أن نأخذها على وجه اليقين كما هي، حتّى لو لم نر أسساً لهذا. فالمسألة المتصلة بأسباب الظواهر، هي في متناول أهلية الأشخاص الذين يدرسون الفلسفة وحسب، وليس لدى رجل الدولة الوقت الكافي لهذا، أو في أقل تقدير لا يجده دائماً. ومع ذلك فإن قارئ الكتاب ينبغي ألاّ يكون بسيطاً وبعيداً إلى درجة أنه لم يكن قد رأى من قبل مجسّماً للكرة الأرضية أو الدوائر المرسومة عليه وبعضها متواز، بينما بعضها الآخر مرسوم بزوايا قائمة على الدوائر المتوازية، وبعضها الثالث ينحني نحوها. كما يجب ألاّ يكون القارئ جاهلاً إلى درجة أنه لا يمتلك فكرة

عن وضع المدارات، وخطّ الاستواء ودائرة البروج، وهـي المنطقـة الـتي تعبرهـا الشـمس في أثناء حركتها فتنشئ بذلك تباين المناطق المناخية والرياح. وإذا كـان المرء يفتقـر حتّـى إلى الاطلاع السطحي على هذا كلّه، كما على تعاليم دوائر الأفق والدوائر القطبية وما إلى ذلك مما يعرض في كتب الرياضيات الابتدائية، فإنه سوف يكون عاجزاً عن فهم ما جاء في هذا الكتاب. لكن من لا يعرف حتّى ماذا يعني الخطّ المستقيم أو الخطّ المنحني أو الدائرة، ولا يفرّق بين السطح الكروي والسطح المستوي، ولا يميّز نجوم الدب الأكبر السبعة في السماء، أو ما شابه ذلك، فإن هذا الكتاب لن يكون ضرورياً له (أو ليس ضرورياً الآن)، قبل أن يطّلع على المواد التي لن يستطيع معرفة الجغرافيا من غيرها. وعلى هذا النحو أيضاً، فإن الذين وضعوا مؤلّفات بعنوان «الموانئ» و«الطواف»[28]، فإن أبحاثهم تبقى غير مكتملة إذا لم يضيفوا كلّ المعطيات في الرياضيات والفلك، التي ينبغي أن تتضمّنها كتبهم.

22- قصارى القول، إن هذا الكتاب ينبغي أن يكون ذا نفع على وجه العموم، ذا فائدة لرجل الدولة ولأيّ قارئ آخر على حدّ سواء مثله في هذا مثل كتابي الآخر في التاريخ. ونحن عندما نقول رجل الدولة، فإننا في هذا الكتاب والكتاب الآخر، لا نقصد الإنسان الجاهل تماماً، بل نعني ذلك الذي تلقّى معارف في دائرة معروفة من العلوم[29] المعتادة بالنسبة لمن ولدوا أحراراً، أو يشتغلون في الفلسفة. فالإنسان الذي لا تشغله مسائل الفضيلة، والحكمة العملية، وما كتب في هذا السياق، لن يكون بمقدوره أن يعبّر تعبيراً صحيحاً عن تنديده، أو مديحه، أو أن يقرر أيّ الحقائق التاريخية تستحق الذكر في هذا العمل.

23- وهكذا بعد أن أصدرت «مذكراتي التاريخية» التي كما أظنّ، حقّقت فائدة للفلسفة الأخلاقية والسياسية، عزمت على كتابة المؤلّف الحالي. فلهذا العمل خطّة مماثلة لخطّة سابقة، وهو معدّ للدائرة عينها من القرّاء، في الغالب للذين يشغلون مكانة مرموقة. ثمّ كما أني لم آت في «مذكراتي التاريخية» إلاّ على ذكر الأحداث التي حفلت بها حياة الشخصيات البارزة، وأغفلت الأعمال الصغيرة والمخزية، كذلك الأمر في هذا العمل، إذ يجب عليّ ألاّ أتطرّق فيه إلى الظاهرات العادية وغير الملحوظة، بل ينبغي أن أنشغل بالمواد الشهيرة والعظيمة، التي تحتوي على ما هو نافع عملياً، ومشهود أو مُرض. ومثلما نتعامل في حكمنا على وقار التماثيل الكبرى وجدارتها، إذ لا نتفحّص تفاصيلها، بل على الأغلب أننا نقوّم الانطباع العام ونحاول أن نرى ما إذا كان التمثال جيّداً ككل، كذلك، على هذا النحو نفسه يجب أن نتعامل مع كتابي هذا، لأنه يعدّ على وجه ما عملاً عمّا هو عظيم ومهول، ويتطرّق إلى الظاهرات التي لها

أهمية كبرى، وعلى مستوى العالم كلّه، ما عدا حالات يمكن أن تثير فيها المواد الصغيرة الشأن اهتمام الشخص الفضولي أو الشخص العملي. وقد قيل هذا كله لبيان مدى أهمية هذا العمل بالنسبة للفيلسوف.

الفصل الثاني

1- إذا كنت قد عزمت على أن أكتب في مادّة كتب فيها كثيرون قبلي، فإني في أي حال لا أستحقّ اللوم إذا ما عجزت عن البرهان على أني عرضت المادّة على الوجه نفسه، كما فعل الذين سبقوني. ومع أن مختلف أسلافنا كتبوا أعمالاً لامعة في شتّى ميادين الجغرافيا، إلاّ أنني أزعم أن الجزء الأكبر من العمل لا يزال ينتظر من ينجزه. وإذا ما نجحت في أن أضيف لو قليلاً إلى ما جاؤوا به، فإن هذا بحدّ ذاته سيكون برهاناً كافياً على صحّة مبادرتنا. والحقيقة أن امتداد الإمبراطوريتين الرومانية والبارثية، منح الجغرافيين المعاصرين فرصة لتقديم إضافات مهمّة تزيد من معطياتنا العملية في ميدان الجغرافيا، تماماً مثلما ساعدت حملة الإسكندر على حدّ قول إيراتوسفين، جغرافييّ الزمن السابق في هذا الميدان. فالإسكندر فتح لنا نحن الجغرافيين الشطر الأكبر من آسيا، وكلّ الشطر الشمالي من أوروبا وصولاً إلى نهر إيستر، أمّا الرومان فقد فتحوا الأجزاء الغربية من أوروبا كلها وصولاً إلى نهر ألبيس (الذي يشطر جرمانيا إلى شطرين)، والأقاليم الواقعة وراء إيستر حتّى نهر تيراس، وعرّفنا ميتريدات الملقب يفباتور، وقادة جيوشه، بالبلدان الواقعة وراء نهر تيراس حتّى بحيرة ميوتيا والساحل البحري الذي ينتهي عند كولهيدا. ومن جهة أخرى أغنى البارثيون معطياتنا عن هركانيا وباكتريانا وعن السكيثيين، الذين يستوطنون إلى الشمال من هركانيا وباكتريانا. فهذه الأقاليم كلها لم تكن معروفة إلاّ قليلاً لدى الجغرافيين السابقين، ولذلك يمكنني أن أقول عنها أكثر مما قاله الذين سبقوني. ويتّضح هذا على وجه الخصوص مما سأقوله معارضاً أسلافي هؤلاء. لكنّ معارضتي تنسحب على جغرافيي الزمن الأقدم بدرجة أقل مما تنسحب على أسلاف إيراتوسفين وعلى إيراتوسفين نفسه. فبما أن إيراتوسفين وأسلافه توفّروا على معطيات أكثر اتساعاً مما توفّر لأكثر الجغرافيين، لذلك فإن الجغرافي المتأخر سوف يجد صعوبات أكبر في الكشف عن أخطائهم، اللهمّ إذا كانوا قد أصدروا أحكاماً غير صحيحة. وإذا ما ألفيت نفسي مرغماً على أن أعارض في بعض المسائل من أنا أقرب إليهم في المسائل الأخرى، فإني أستحقّ العذر. وأنا لا أنوي أن أنتقد الجغرافيين جميعهم (أكثر أعمالهم لا تستحق أن تقتدى فصرفت النظر عنها)، لكنّني سأتحدّث فقط عن أولئك

الذين لهم في أكثر الأحيان آراء سديدة. ومن البدهي أنه من غير المستحسن الدخول في مماحكات فلسفية مع جميعهم، بيد أنه يكفي تماماً انتقاد إيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، وبوليبيوس وما شابههم من المؤلّفين.

2- وينبغي عليّ أن أدرس آراء إيراتوسفين أولاً، وسأعرض في السياق معارضاته لهيبارخ. ولكن ليس من السهل الإيقاع بإيراتوسفين عبر المعارضات، لكي يمكن أن تؤكّد على سبيل المثال، وكما حاول أن يفعل بوليمون[2]، أنه لم ير أثينا حتّى مجرّد رؤية، بيد أنه من جهة أخرى، لا يستحقّ أن يوثق به إلى الدرجة التي يمنحه إياها بعضهم[3]، مع أنه تواصل، كما يقول، مع كثير من الشخصيات البارزة. فقد أكّد أنه «في ذلك الزمن، وكما لم يحصل من قبل، اجتمع تحت قبّة واحدة وفي مدينة واحدة، فلاسفة كانوا في قمّة ازدهار نشاطهم زمن أريستون، واركيسيلايوس». لكنّني أرى أن هذا الزعم غير كاف بالنسبة إلينا: يجب أن نقرر على وجه صحيح، مَنْ مِنَ المعلّمين يستحق أكثر من سواه أن نتبع خطاه. لكنّ إيراتوسفين يضع أركيسيلايوس، وأريستون على رأس العلماء الذين ازدهروا في زمنه، ورأى في أبيلليس شخصية مشهورة، ومثله بيون، الذي قال عنه: «بيون أوّل من خلع على الفلسفة ثياباً مزركشة»، ولكن مع ذلك غالباً ما استخدموا في الحديث عن بيون، الكلمات الآتية:

أيّ [ورك] لدى بيون تحت الأسمال[4]

(*الأوذيسا* XVIII، 74)

وواقع الحال هو أنّ إيراتوسفين يكشف في هذه الآراء عن الجانب الضعيف في زعمه. ونتيجة لهذا الضعف، لم يأت على ذكر أيّ من خلفاء زينون على الرغم من أنه درس في أثينا على يديّ زينون الكيتيوسي هذا نفسه، بل فعل العكس وتحدّث عن الفلاسفة الذين ابتعدوا عن تعاليم زينون ولم ينشؤوا مدرستهم الخاصة، وقال إنهم ازدهروا في زمنه شخصياً. ويتّضح اتجاه إيراتوسفين في مؤلّفيه، «المنافع»، و«تمارين في الإنشاد»[5]، ومن كلّ ما كتبه في هذا السياق: لقد تأرجح بين طموحه نحو الفلسفة وخوفه من أن يكرّس نفسه لهذه المهنة، لكنّه لم يبلغ سوى أنه توّهم أنه فيلسوف أو جعل لنفسه من الفلسفة، بمعنى ما وحسب، مجرّد تسلية انصرف بها عن مشاغل الحياة اليومية ليملأ وقته الفارغ. وحتّى في مؤلّفاته الأخرى يكشف إيراتوسفين بمعنى ما عن هذا التوجّه نفسه. لكنّنا نترك هذا. فتحقيق هدفي يتطلّب الآن مني أن أحاول قدر الإمكان تصحيح جغرافيا إيراتوسفين، وقبل كلّ شيء، بالاتجاه الذي حدّدته منذ قليل.

3- يقرر إيراتوسفين أن غاية كلّ شاعر، هي أن يحقّق المتعة، لا الوعظ

والإرشاد. أمّا القدماء فقد أكّدوا على الضدّ من هذا، أن الشعر هو شيء ما يشبه الفلسفة البدئية التي تقودنا منذ الطفولة لتلج بنا أبواب الحياة، وهو إذ يحقّق لنا المتعة، فإنه يشكّل طباعنا، وأحاسيسنا، وسلوكنا. وتؤكّد مدرستنا[6]، علاوة على هذا أن «الحكيم هو وحده الشاعر»[7]. ولذلك فإن مختلف دول اليونان تربّي شبابها في الأوّل على الشعر؛ وغني عن البيان القول: إنهم لا يفعلون هذا للتسلية واللهو، إنّما للموعظة والإرشاد الأخلاقي. ولذلك فإن الموسيقيين أيضاً عندما يعلّمون الغناء، والعزف على الناي أو القيثارة فإنهم يدّعون فهم هذا الفنّ؛ فهم يؤكّدون على أن لهذه النشاطات مغزى تربوياً، وأنها تمهّد سبيل الكمال الأخلاقي. ونحن يمكننا أن نسمع مثل هذه التأكيدات لا من الفيثاغورسيين فقط، فبالروحية نفسها يتحدّث إريستوكسين أيضاً. وحتّى هوميروس يدعو الآييديين، قادة أخلاقيين، عندما يتحدّث عن حراسة كليتيمنيسرا.

[الحرس]... الذين أمرهم الملك آغاممنون
بمراقبة عقيلته، وهو يستعد للإبحار إلى طروادا

(*الأوذيسا* III، 267)

ثمّ يضيف، إن إيجيستوس لم يستطع أن يمتلك كليتيمنيسرا إلاّ بعد أن
لم ينف ذلك المغنيّ إلى جزيرة قاحلة،
حيث ترك.
فدعاها إلى منزله، هي التي تريده وحده.

(*الأوذيسا* III، 270)

ولكن علاوة على هذا كلّه، فإن إيراتوسفين يناقض نفسه؛ فقبيل الظاهرة المذكورة بقليل وفي بداية بحثه الذي كرّسه للجغرافيا يقول، في الأزمنة الأقدم نزع الشعراء كلّهم إلى إظهار معارفهم في الجغرافيا. ثم يقول: وفي واقع الحال فإن هوميروس أدرج في ملحمتيه كلّ ما كان يعرفه عن الإثيوبيين، وسكّان مصر وليبيا، وعند وصفه لليونان استغرق حتّى بالتفاصيل التي لا لزوم لها، فدعا تيسبا «بالعزيزة على قلب القطعان الوديعة» (الإلياذا II، 502) وهاليارتوس «بالكثيرة الأعشاب» (الإلياذا II، 503)، وأنثيدون «بالنائية» (الإلياذا III، 508)، وليلييا بالواقعة «عند المخرج الصاخب للتيار الكيثي) (الإلياذا III، 523). ويزيد إيراتوسفين قائلاً:

إن هوميروس لا يطلق الصفات جزافاً قط. وأنا أسأل في هذه الحال، هل يشبه الشّاعر هنا الشخص الذي يسلّي أم الذي يعلّم[8]؟ وسوف يجيب إيراتوسفين: «أقسم

بزيوس أن الأخيرة هي الأصح طبعاً، ولكن على الرغم من أن هوميروس استخدم هذه الصفات بغرض التعليم، فإنه والشعراء الآخرين ملؤوا كلّ ما يقع خارج ملاحظتهم المباشرة بخوارق خرافية». وعندئذٍ كان ينبغي على إيراتوسفين أن يقول، إن «كل شاعر يكتب في أحوال ما للتسلية، وفي أحوال أخرى للتعليم». ولكنّ إيراتوسفين يحاول عبثاً تماماً إذ يتساءل: ما الجديد الذي يضاف إلى أهلية الشّاعر الرفيعة إذا ما صار ضليعاً في الجغرافيا، والشؤون العسكرية، والعمل الزراعي، والبلاغة، أو أي ميدان آخر من ميادين المعرفة التي شاء بعضهم أن ينسبها إليه؟ وعليه فإن النزوع إلى منح هوميروس معارف في الميادين كلّها، يمكن النظر إليه كسمة إنسان تخطى حب الذات عنده حدود اللياقة؛ إذ يبدو الأمر على حدّ قول هيبارخ، كما لو أن أحدهم علّق على إيرسيونة أتيكا[9] تفاحاً وكرزاً، أو أي شيء آخر لا يمكنها أن تثمر من ثمره؛ وعلى هذا النحو فإنه من الغباء أن تنسب لهوميروس المعارف كلّها والفنون كلّها. وفي هذه الحالة قد تكون أنت يا إيراتوسفين محقّاً، بيد أنك لست محقّاً عندما تسلب هوميروس سعة علمه وتعلن الشِّعر حكايات عجائز، ويجوز فيها، كما تقول، اختلاق كلّ شيء يلائم بلوغ هدف تزجية الوقت بما هو مسلّ؛ فهل حقّاً أن الشعر لا يضيف شيئاً إلى الأهلية الرفيعة لأولئك الذين يسمعون الشعراء؟ وأنا أقصد مرّة أخرى إلى أن الشّاعر ضليع في الجغرافيا، والشؤون العسكرية، والعمل الزراعي أو البلاغة، أي كلّ المواد التي ينسب مستمعو الشّاعر معرفتها له.

4- ولكنّ هوميروس نسب إلى أوديسيوس المعارف كلّها في هذه الميادين؛ فوشى البطل بشتّى ضروب المروءة التي تفوّق بها على الأبطال الآخرين كلّهم. فأوديسيوس عنده

زار كثيراً من الناس والمدن، ورأى عادات.

(الأوذيسا I، 3)

وهو:

رجل عارف بشتى الدسائس والنصائح الحكيمة.

(الإلياذا III، 202)

وهو يدعى دائماً «بمقارع المدن»، الذي استولى على إيليون:

بكلمته، ونصحيته ومهارة حيلته[10].

ويقول عنه ديوميدس:

إذا كان هو رفيق دربي، فإننا سنعود إليكم

معاً من قلب النار المستعرة

(الإلياذا X، 246)

وعلاوة على هذا يفخر أوديسيوس ببراعته في حراثة الأرض، فقد قال فيما يخصّ الحصاد، على سبيل المثال:

في الربيع... إذا ما أعطي كلّ منّا منجلاً

حاداً بالدرجة نفسها.

(الأوذيسا XVIII، 368)

وبصدد حراثة الأرض:

فسوف ترى بأم عينك، كيف يشقّ محراثي

الحقل مسرعاً بثلوم طويلة

(الأوذيسا XVIII، 375)

ولكن لم يكن هوميروس وحده الذي يملك الحذق والمهارة في هذه الأعمال، فالمثقفون كلّهم كانوا يستندون إلى الشّاعر بصفته شاهداً قوله صحيح في البرهان على أن مثل هذه المعرفة العملية تمهّد إلى حدّ كبير، سبيل بلوغ الحكمة.

5- ولا ريب كذلك في أن البلاغة معرفة لها صلة بالكلام. ويظهر أوديسيوس هذه المعرفة على امتداد الملحمة كلّها: «في المحن»، و«والتوسلات»، و«السفارات»[11]، حيث يقول هوميروس:

لكنّه حين أطلق صوته الجبّار من صدره،

اندفع الكلام من بين شفتيه كعاصفة ثلجية!

كلا، لا يجرؤ أحد على مجاراة أوديسيوس

(الإلياذا III، 221)

فمن يفكر إذن، أن الشّاعر الذي استطاع أن يطلق الآخرين في تأدية أدوار الخطباء أو القادة العسكريين أو سوى ذلك من أدوار المهارة في فن البلاغة، يعدّ هو نفسه مجرّد ثرثار ومشعوذ دجال ليس قادراً إلا على أن يخدع مستمعيه بالبلهوانيات، ولا يقدّم لهم أي عون أو فائدة. ونحن لا نستطيع أن نقول، إن أي أهلية رفيعة أخرى يتمتّع بها الشّاعر (كائنة ما كانت)، تفوّق تلك التي تمكّنه من محاكاة الحياة بوسائل الكلام. وكيف يستطيع إنسان لا يمتلك تجربة في الحياة، وغبي، كيف يستطيع مثل هذا الشخص أن يحاكي الحياة؟ ومن البيّن أننا لا نتحدّث عن أهلية الشّاعر هنا بالمعنى الذي نتحدّث فيه عن أهلية السياسي أو الحدّاد. فأهلية هذين ليست مرتبطة بنبل أو عظمة فطريين، بينما ترتبط أهلية الشّاعر بأهلية الإنسان نفسه، فلا يمكن أن يغدو المرء شاعراً جيّداً إلا إذا بات قبل ذلك، إنساناً جيّداً.

6- وعلى هذا النحو فإن سلب هوميروس مهارته في البلاغة، يعني تجاهلاً تاماً لموضوعاتنا الأساسية كلّها. لأنه ما الذي تتسم به البلاغة إلى هذه الدرجة إن لم يكن الأسلوب؟ وما الذي يتسم به الشعر أيضاً؟ ومن الذي تفوّق على هوميروس في الأسلوب؟ «إني أقسم بزيوس أنك ستجيب: ولكنّ الأسلوب الشعري يختلف عن الأسلوب البلاغي». «من حيث الشكل، نعم؛ كما يختلف في الشعر نفسه أسلوب التراجيديا عن أسلوب الكوميديا، ويختلف في النثر أسلوب التاريخ عن أسلوب المرافعات القضائية». أو ليس الكلام مصطلحاً يعكس مفهوماً جنسياً نوعاه الكلام الإيقاعي والكلام النثري؟ أم أن الكلام بمعناه الأعم، هو على الأرجح مفهوم جنسي، بينما لا يعدّ الكلام الخطابي مفهوماً جنسياً، وأن الأسلوب، هو أهلية الكلام وحسب؟ ولكنّ الكلام النثري (وأقصد هنا النثر الفني)، هو محاكاة للكلام الشعري. لأنّ الشعر بصفته فناً كان أوّل الطالعين إلى المسرح، وأوّل من نال الاحترام. ثمّ ظهر قدموس، وثيريكيدس، وهيكاتيوس وأنصارهم بمؤلّفات نثرية حاكوا فيها الشعر، متخلين في ذلك عن العروض الشعرية، لكنّهم حافظوا في الآن عينه على سمات الأسلوب الشعري الأخرى كلّها. وبدورهم تخلى الكتاب الذين جاؤوا بعد ذلك، عن سمة ما من هذه السمات، وأعطوا النثر صيغته الراهنة، وكأني بهم هبطوا به رويداً رويداً من علياء ما. وعلى هذا النحو عينه يمكن الحديث عن الكوميديا، فقد تلقت هذه بنيتها من التراجيديا، إلا أنها إذ تقهقرت عن علياء التراجيديا، وصلت إلى ما يدعى اليوم بالأسلوب «النثري». وحقيقة أن القدماء استخدموا كلمة «يغنّي» بدلاً من كلمة «يتكلّم»[12]، تشهد على وجه التحديد بأن الشعر كان مصدر الأسلوب البلاغي أو المنمّق وبدايته. فقد ترافق إلقاء الشعر أمام الجمهور بالغناء، لقد كان هذا كلاماً إيقاعياً منغماً، أو «أُودا»[13]. ومن كلمة «أُودا» أخذوا ينطقون رابسوديا، وتراجيديا، وكوميديا. وإذا كانت كلمة «يتكلّم»[14] قد استخدمت في الأول فيما يتّصل «بالأسلوب» الشعري[1]، وإذا كان هذا الأسلوب قد ترافق لدى القدماء بالغناء، فإن مصطلح «يغنّي» عنى عندهم المعنى عينه الذي عنته كلمة «يتكلّم». ثمّ بعد أن استخدموا المصطلح الأوّل من هذين المصطلحين بمعناه غير الدقيق، لما يخصّ الكلام النثري، فإن هذا الاستخدام غير الدقيق انسحب على هذا الأخير أيضاً. وعدا عن هذا فإن حقيقة تسميتهم للكلام غير الإيقاعي «بالمعتاد»[16]، يدل على أنه قد هبط إلى الأرض من علياء، ما، أو من مركبة ما.

7- ولكنّ هوميروس لا يتحدّث على حدّ قول إيراتوسفين، عن البلدان المجاورة لليونان وتلك الواقعة فيها فقط، إنّما يتحدّث كذلك عن كثير من البلدان النائية؛ وفي عرضه للأساطير كان هوميروس أكثر دقّة من الكتاب الذين جاؤوا بعده، ذلك أنه لا

يرى في كلّ الأشياء معجزات، لكنّه في تقديم العبرة لنا يستخدم الاستعارة، ويعالج الأساطير أو يعمل على نيل رضا المستمعين، خاصة في قصة ترحال أوديسيوس، وعندما يتحدّث إيراتوسفين عن هذا الترحال، فإنه يقترف كثرة من الأخطاء، وهو يعلن أن الذين أوّلوا هوميروس، هم مجرّد ثرثارين بائسين، بل ويرى في هوميروس نفسه مجرّد ثرثار وحسب. لكنّ هذا يستحق أن نتحدّث عنه بتفصيل أكثر.

8- ينبغي عليّ أن أشير قبل كلّ شيء إلى أن صحّة الأساطير لم يقرها الشعراء وحدهم. فالدول والمشرّعون اعترفوا قبل الشعراء بزمن طويل، بالأساطير انطلاقاً من قناعتهم بفائدتها[17]، لأنها تفرست في طبيعة شعور الكائن البشري العاقل. فالإنسان يتميّز بحب المعرفة، وفي هذا تكمن محبته للقصص الميثولوجية، هذه المحبة التي تدفع الأطفال إلى أن يستمعوا، ثمّ تزيد مشاركتهم في هذه القصص أكثر فأكثر. ويكمن السبب هنا في أن الأسطورة تمثل بالنسبة إليهم لغة ما جديدة، لغة لا تتحدّث إليهم عن هذا العالم الواقعي، بل عن عالم آخر موجود إلى جانب هذا العالم. فجدّة الموضوع والتباسه، يحقّقان المتعة. وهذا على وجه التحديد يوحي للإنسان بحب الاطلاع. وإذا انضمّ إلى هذا عنصر الدهشة أو الإعجاز، فإن متعة القصة تزداد شدّة، ويعد هذا بحد ذاته بمثابة مفتاح للتعلم. فلدى البدء بتعليم الصغار يكون استخدام مثل هذه الإغراءات أمراً ضرورياً، بيد أنه يجب مع تقدّم نموّهم، الاقتراب بهم إلى معرفة الأشياء الواقعية، لأنّ عقلهم يكون قد رسخ ولم يعد بحاجة إلى إغراءات. وكل جاهل يعدّ بمعنى ما طفلاً، وهو يحب الأساطير كما يحبها أي طفل. وهذا ما يتميّز به شبه المثقف أيضاً، لأنّ عقله ليس مكتمل النمو، زد إلى هذا أنه يحافظ على ملكة اكتسبها منذ الطفولة. ولكن بما أن العنصر العجيب في الأساطير لا يحقّق المتعة فقط، بل يوحي بالخوف أيضاً، فإننا نستطيع أن نستخدم هذا النوع من الأساطير أو ذاك للصغار والكبار. فنروي للأطفال الأساطير التي تمنحهم المتعة كي نشجعهم على فعل الخير، وتلك التي تدب الخوف في نفوسهم كي نردعهم عمّا هو سيّئ وشرير. ومن هذه الأساطير مثلاً أسطورة لاميا، وأساطير الغورغونا، وإيفالس ومورموليكا. إن الأساطير التي تمنح المتعة تدفع أكثر سكّان الدول إلى عمل الخير. وهذا ما يحصل عندما يستمع الناس هناك إلى قصص الشعراء عن المآثر الميثولوجية، كمآثر هرقل مثلاً، وثيسيوس أو الأمجاد التي وهبها له الآلهة، أو عندما يرون صوراً، وتماثيل أو منحوتات بدائية تمثل تبدلاً ما عكسياً، غير متوقع في مصير الأبطال الميثولوجيين. لكنّ هؤلاء الناس ينفرون من التصرّفات الشريرة، عندما يعرفون من الوصف أو عن طريق التصوير الرمزي للأشياء غير المرئية، بالعقاب الإلهي، والأهوال والمخاطر، أو عندما يوقنون بأن

أناساً قد عانوا هذه المحن. فعندما يتعامل الفيلسوف مع حشد من النساء، أو مع أي حشد آخر من العامّة، فإنه لن يكون بمقدوره إقناعهم بالحجج العقلية، ولن يكون قادراً على أن يزرع فيهم الإحساس بالفضيلة، والتقوى والإيمان: ثمّة في مثل هذه الحالة ضرورة للذعر الخرافي، ولن يكون الإيحاء به ممكناً إلا عن طريق القصص والمعجزات. فالصواعق، وإيجيدا، والحربة الثلاثية، والثيكليس، والتنانين، والرماح - الصولجان - سلاح الآلهة -، إن هذا كلّه حكايات خرافية، ومثله كلّ التعاليم القديمة عن الآلهة. ولكنّ مؤسّسي الدول اعترفوا بهذه الحكايات حكايات مقدّسة، وجعلوا منها شيئاً ما يشبه البعبع لكي يرسّخوا الخوف في قلوب البسطاء. وبما أن جوهر الميثولوجيا يكمن في هذا، وبما أنها تركت تأثيراً جيّداً على أشكال الحياة الاجتماعية والسياسية، كما على إدراك حقائق الواقع، لذلك حافظ القدماء على نظام تربيتهم لصغارهم حتّى بلوغهم سنّ الرشد: لقد رأوا في الشعر وسيلة تربوية كافية لتأدية المهمّة التربوية في كلّ سنّ. ولكن بعد مرور زمن طويل حل التاريخ والفلسفة المعاصرة على المسرح محلّ الشعر. بيد أن الفلسفة ليست متاحة إلا لبعضهم وحسب، بينما تفيد من الشعر جمهرة عريضة، كما يمكن للشعر أن يجذب الشعب إلى المسرح، وهذا ينسحب بأعلى درجة على شعر هوميروس. وقد كان أوّل المؤرّخين والفيزيائيين مؤلّفو أساطير أيضاً.

9- وبما أن هوميروس نسب أساطيره إلى ميدان التربية، فقد اهتمّ عادة بالحقيقة. لكنّ هوميروس «أولج هنا أيضاً» (الإلياذا XVIII، 541)، الكذب لكي يستميل الشعب ويجذبه إلى جانبه بالحيلة:

كما يوشّي الصانع الماهر الذهب البرّاق بالفضّة.

(*الأوذيسا* VI، 232)

لقد خلط هوميروس العنصر الميثولوجي بالأحداث الحقيقية، فأضفى على أسلوبه متعة وجمالاً. وعلاوة على هذا، فهو يشترك مع المؤرّخ ومع باسط الوقائع بالهدف نفسه. فقد أخذ على سبيل المثال، مشهداً من حرب طروادا- واقعة تاريخية- ووشّاه بأساطيره؛ وهذا ما فعله أيضاً في حكاية تيه أوديسيوس. ولكنّ اختلاق الخوارق على أساس باطل كلّياً، ليس من سمات إبداع هوميروس، فلا ريب في أنه يحدث لأحد ما أن ينظم ما يشبه الحقيقة، ما هو محتمل الحصول، إذا ما أضاف إلى الكذب شيئاً ما من الحقيقة نفسها، وهذا ما تحدّث عنه بوليبيوس لدى تحليله لتيه أوديسيوس. وهذا ما رمى إليه هوميروس عندما قال عن أوديسيوس:



كم من الكذب ادعاه لهم حقيقة خالصة،

(*الأوذيسا* XIX، 203)

فلم يقل هوميروس إن أوديسيوس ادعى الحقيقة «كلّها» كذباً، بل «كثيراً» منها، وإلاّ لما شابه كذبه «الحقيقة الخالصة». فقد أخذ أساس قصصه من التاريخ. فالتاريخ يروي مثلاً، أن إيولس الذي كان يحكم يوماً الجزر المتوضّعة حول ليبارا، وأن السيلكوب والليستريغون- قوم عدوانيون- كانوا يملكون الأرض المتوضّعة حول إيتاوليونتينا، ولذلك كانت المناطق المحيطة بالمضيق عصيّة على إنسان تلك الأزمنة، وكانت هاريبدس ورأس- كيلييوس تحت سيطرة قطاع الطرق. ويروي لنا التاريخ أن الشعوب الأخرى التي ذكرها هوميروس، كانت تستوطن أجزاء العالم الأخرى. وعلاوة على هذا، وانطلاقاً من معطيات حقيقية تفيد بأن الكيميريين عاشوا عند البسبور الكيميري، في الإقليم الشمالي المظلم، فنقلهم هوميروس تبعاً لذلك، إلى منطقة ما كئيبة مجاورة لهاديس، منطقة توافق القصص الميثولوجية عن تيه أوديسيوس. ويجادل مؤلّفو «الأسفار»[18]، بأن هوميروس كان يعرف الكيميريين، لأنّ تاريخ الاجتياح الذي قاموا به، يرجع إلى زمن هوميروس، أو إلى ما قبل زمنه بقليل، وربّما إلى الزمن الهوميري نفسه.

10- وعلى نحو مماثل، وبناء على معطيات حقيقية عن الكولخيين، وحملة ياسون على إيبا، واستناداً على معرفته بالقصص المختلقة والصحيحة عن كيركا وميديا (عن العقاقير السحرية والتشابه في الطابع ونمط العيش)، اختلق هوميروس آصرة قرابة الدم بينهما، مع أنهما عاشتا بعيدة واحدتهما عن الأخرى (واحدة في أقصى طرف من أطراف البونتس، والثانية في إيطاليا)، جعلهما معاً في منطقتين تقعان بعيداً في المحيط؛ وقد يكون ياسون وصل في ترحاله إلى إيطاليا. فثمّة إشارات تفيد بأن الأرغونيين وصلوا إلى الجبال الكيرافنية الواقعة على مقربة من البحر الأدرياتيكي، في خليج بوسيدونيوس والجزر الواقعة أمام تيرينيا. ولذلك فقد أعطت صخور كيانيس (التي تدعى أحياناً بالسيمبليغادس)، مادّة إضافية لهذه القصّة، لأنها تعيق كثيراً الإبحار في الخليج عند بيزنطا. وعليه، فإذا قارنت إيبا كيركا مع إيبا ميديا والبلانكتس الهوميريين مع السيمبليغادا، فإن إبحار ياسون عبر البلانكتس يبدو بدوره قريباً جدّاً من الحقيقة. ويبدو واضحاً أيضاً أن إبحار أوديسيوس بين الصخور كان ممكناً، إذا ما تذكّرنا سكيلاّ وكاريبودا. ومن جهة أخرى كانوا يتخيّلون بحر البونتس في زمن هوميروس، محيطاً آخر، وظنّوا أن الذين أبحروا فيه بعيداً قد خرجوا

إلى خارج حدود المعمورة، مثلهم مثل من أبحر بعيداً وراء أعمدة هرقل. فبحر البونتس كان يعدّ البحر الأكبر في الشطر المسكون من عالمنا، ولذلك دعي باسم خاص، هو «البونتس»، تماماً مثلما دعوا هوميروس باسم «الشاعر» وحسب. وربّما لهذا السبب نقل هوميروس الأحداث التي دارت إلى المحيط، مفترضاً أن مثل هذا التغيير سوف يبدو مقبولاً بسبب الاعتقاد السائد عن البونتس أنه المحيط، وأنا أرى، إنه بما أن السوليميين شغلوا قمم السلسلة الجبلية (أي المرتفعات المحيطة بليكيا وصولاً إلى بيسيديا)، وأن بلادهم كانت بالنسبة للشعب الساكن إلى الشمال من السلسلة الجبلية، خاصة بالنسبة لأولئك الذين كان يعيشون على مقربة من البونتس، بلاد المرتفعات الأكثر وضوحاً في الجنوب، لذلك، ونتيجة لبعض التشابه في الأوضاع، فقد نقل هوميروس هذا الشعب أيضاً إلى عمق المحيط. لأنه وهو يروي عن أوديسيوس الذي كان يبحر على طوف، قال:

في هذه الومضة ترك الجبّار الذي يؤرجح الأرض،
بلاد الإثيوبيين، ومن المرتفعات السوليمية
النائية رأى أوديسيوس.

(*الأوذيسا* V، 282)

وربّما يكون هوميروس قد اقتبس تصوّره عن السيكلوب ذوي العين الواحدة، من تاريخ السكيثيين، لأنه ثمّة خبر عن وجود شعب الأريماسبيين ذوي العين الواحدة، الذين نقل خبرهم أريستيوس البروكونيسي في ملحمته: «ملحمة الأريماسبيين».

11- بعد أن سجّلنا هذه الملاحظة التمهيدية، ينبغي أن نسأل، ماذا يعني التأكيد أن ترحال أوديسيوس كان بحسب هوميروس، في إقليم صقليا وإيطاليا. فوجهة النظر هذه يمكن أن تكون ذات مغزى مزدوج: المغزى الأكثر تعليلاً والمغزى الأقلّ تعليلاً. والرأي الأكثر تعليلاً، هو أن نوافق على أن ترحال أوديسيوس قد كان بحسب يقين هوميروس، في هذه الأقاليم، وأن الشّاعر إذ اعتمد هذه الفرضية على أنها حقيقة، عالجها معالجة شعرية. فآثار ترحال أوديسيوس وبعض الآخرين، موجودة لا في إيطاليا فقط، بل وفي أقصى أطراف إيبيريا أيضاً. أمّا الرأي الأقلّ تعليلاً، فهو أن نأخذ معالجة هوميروس للفرضية على أنها قصة وحسب، لأنه من الواضح أن الشّاعر يختلق الخوارق في قصصه عن المحيط، وهاديس، وثيران هيليوس، والضيافة عند الإلهات، ومسخ الكائنات، والسيكلوب العمالقة، ومنظر سكيلا، والمسافات التي قطعت أثناء الإبحار، وعن أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل. ولكنّ معارضة من مِن الواضح أنه يؤوّل هوميروس تأويلاً غير صحيح، أمر لا يستحق العناء، خاصة إذا ما زعم أحدهم أن

عودة أوديسيوس إلى إيثاكا، ومجزرة الخطّاب، والقتال الذي وقع بينه وبين الإيثاكيين في الحقل، قد جرى كلّه تماماً كما وصفه الشاعر. ومن جهة أخرى، فإنه من الخطأ أن تجادل من يؤوّل هوميروس على هواه.

12- ولكنّ إيراتوسفين ليس محقّاً في معارضة هذه المزاعم. ففيما يتعلّق بالزعم الثاني ليس إيراتوسفين محقّاً لأنه يحاول أن يدحض قصصاً من الواضح أنها مختلقة، مبتكرة ولا تستحق أي بحث مطوّل؛ أمّا ما يخصّ الزعم الثاني، فليس إيراتوسفين محقّاً لأنه يعلن الشعراء كلّهم ثرثارين، وأن اطلاعهم على الأماكن ومعرفتهم بالفنون لا تمنحهم أي أفضلية. وعلاوة على هذا، فإنه على الرغم من أن هوميروس لا ينسب مسرح عمليات أساطيره إلى أماكن موجودة فعلاً وحسب (مثل إيليون، وجبل إيدا، وجبل بيليون)، بل إلى أماكن مختلقة أيضاً (كتلك التي تعيش فيها الغورغونات أو الهيريون)، إلا أن إيراتوسفين يقول، إنه حتّى الأماكن المذكورة في قصة ترحال أوديسيوس، هي أماكن مختلقة، ويرى أيضاً أن رأي الذين يرون أنها أماكن حقيقية وليست مختلقة، تدحضه حقيقة الاختلاف بينهم هم أنفسهم. وعلى أيّ حال فإن بعضهم يوضّع السيرينيس عند رأس بيلوريادا، بينما يسكنهم آخرون عند سيرينوسا على بعد أكثر من ألفيّ مرحلة عن هذا المكان (السيرينوس هي صخرة لها ثلاث قمم، تفصل خليج كوسوس عن خليج بوسيدونيوس) بيد أنه ليس لهذه الصخرة ثلاث قمم، بل وهي ليست مرتفعة أصلاً (ليس لها قمّة)، لكنّها طويلة وضيّقة، وتدخل في البحر كأنها ذراع من منطقة سيرينت، حتّى مضيق كابري، وعلى جانبها الجبلي يقوم معبد السيرينيس، أمّا على الجانب الآخر المواجه لخليج بوسيدونيوس فتقع ثلاث جزر صحراوية صخرية تدعى السيرينيس؛ ويقوم عند المضيق مباشرة معبد أثينا، الذي أخذت «الذراع» نفسها اسمها منه[19].

13- ومع هذا، إذا كان الذين ينقلون إلينا هذه المعلومات عن الأماكن المعنية غير متفقين بعضهم مع بعض، فلا ينبغي علينا أن نرفض نحن هذه المعلومات جملة وتفصيلاً، ولكن يجب في بعض الأحيان أن نقبل الرواية كاملة. مثلاً، إذا طرح سؤال، هل كان ترحال أوديسيوس، في محيط سواحل صقليا وإيطاليا، وهل تقع صخور السيرينيس في مكان ما على مقربة؛ فمن يوضّع صخور السيرينيس على رأس بيلوريادا، لا يوافق الذين يوضّعونها على السيرينوس، ولكنّ الطرفين يتّفقان مع من يؤكّد أن صخور السيرينيس تقع على مقربة من صقليا وإيطاليا. وعلى الضدّ من هذا، إذ يجعلون من هذا الزعم الأخير زعماً معلّلاً أكثر، لأنه على الرغم من أنهم لا يوضّعون الصخور في المكان عينه، إلا أن هذا المكان لا يخرج إلى خارج حدود إيطاليا وصقليا. وإذا

أضفنا إلى هذا بعد ذلك، أنهم يقودونك في نابولي ليرونك قبر واحدة من السيرينيس، بارثينوبيا، فإننا نحظى بذلك على برهان مهم آخر، مع أننا إذ نسمّي نابولي، فإننا ندخل موقعاً آخر إلى دائرة النقاش. ثمّ، حقيقة أن نابولي تقع على هذا الخليج (الذي يدعوه إيراتوسفين خليج كومسك)، الذي تشكّله السيرينوس، يزيد من قناعتنا بأن السيرينيس كانت تقع على مقربة من هذه الأماكن. أمّا أن نعرف من الشّاعر التفاصيل كلّها، فهذا أمر غير ممكن، عدّاك عن إننا لا نطلب منه الدّقّة العلمية؛ ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نفترض بأن هوميروس قد ألّف على وجه العموم قصة ترحال أوديسيوس من غير أن يلتزم مكان حركته وكيفيتها.

14- ولكنّ إيراتوسفين يفترض، إن هسيود علم من الاستطلاعات، أن صقليا وإيطاليا كانتا مسرح ترحال أوديسيوس، وهو إذ صدّق هذا القول، لم يأت على ذكر الأماكن التي ذكرها هوميروس فقط، بل ذكر أيضاً إيتنا، وأورتيغيا (وهي جزيرة صغيرة تقع على مقربة من سيراكوزا)، وتيرينيا. وعلى الرغم من هذا يزعم إيراتوسفين، أن هوميروس لم يكن يعرف شيئاً عن هذه المواقع ولم يرغب في أن يوافق ترحال أوديسيوس مع الأماكن المعروفة. ولكن هل كان على علم بإيتنا وتيرينيا فعلاً، أمّا سكيليوس، وهاريبدس، وكيركا، وسيرينوس فإنها لم تكن معروفة قط؟ أم لم يكن قول الهراء واتباع التصوّرات السائدة، مما يتّصف به هسيود، بينما كان هوميروس «يهرف صاخباً بكل ما يرد على لسانه»؟ لأنه إضافة إلى ما قلته عن نمط الإبداع الميثولوجي الذي يتميّز به هوميروس، فإن أكثر الكتّاب الذين يتطرّقون إلى هذه الموضوعات نفسها، كما فعل هوميروس أيضاً، إضافة إلى كثرة من الحكايات الخرافية المحلّية، يمكن أن يبرهن لنا أن هذا ليس اختلاق شعراء، أو مؤرّخين، إنّما آثار أشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية.

15- وبوليبيوس أيضاً يفهم قصة هوميروس عن ترحال أوديسيوس فهماً صحيحاً؛ فهو يقول، إن إيولس هو الإنسان الذي علّم البحارة كيف يختارون طريقهم في محيط مضيق ميسينا، حيث ثمّة مدّ وجزر متواصلان يجعلان الإبحار خطراً بسبب تشكّل الدوامات المائية، وقد دعي إيولس هذا سيّد الرياح، وعدّ ملكها، أمّا دانائي، فلأنه اكتشف المنابع السفلية للمياه في آرغوس، وكذلك آتريوس الذي اكتشف حركة الشمس المعاكسة لحركة السماء، فقد أعلن هذان المتنبّئان العرّافان ملكين[20]. وكان كهنة مصر وسحرتها، وكهنة الكلدانيين وسحرتهم، قد بلغوا السلطة والمجد لدى الشعوب التي عاشت قبلنا. وعلى هذا النحو، يقول بوليبيوس، إنهم عبدوا كلّ إله لأنه اكتشف شيئاً ما له منفعة للإنسان. وإذ اكتشف بوليبيوس هذا من

قبل، يؤكّد أنه لا ينبغي أن يعدّ إيولس أسطورة، ومثله ترحال أوديسيوس ككلّ؛ فالعناصر الميثولوجية الضعيفة أضافها الشاعر، بحسب بوليبيوس، وهذا ما فعله أيضاً في قصة حرب طروادا، أمّا مسرح عمليات الترحال، فقد وافقها هوميروس مع منطقة تقع غير بعيد عن صقليا، وكذلك فعل الكتّاب الآخرون الذين اشتغلوا على الحكايات الإيطالية والصقلّية المحلّية. ولا يستحسن بوليبيوس إعلاناً مثل إعلان إيراتوسفين الذي قال فيه: «يمكنك أن تجد المكان الذي ارتحل فيه أوديسيوس، إذا استطعت أن تجد صانع الجلود الذي خاط كيساً للرياح». وبحسب بوليبيوس، أن وصف هوميروس للصخرة يطابق تماماً ما يحدث في محيط صخرة سكيلييوس لدى صيد أسماك «الغاليوت»[21]:

تبحث ببراثنها في كلّ مكان من الصخرة التي
يغمرها البحر، تصطاد الدلافين، والفقمات...
والوحوش المائية الجبّارة.

(*الأوذيسا* XII، 95)

ثمّ يتابع بوليبيوس حديثه فيقول: «عندما تعوم أسراب أسماك التنّة يدفعها التيار، على طول شواطئ إيطاليا، فإنها تقع في مجرى التيار المقابل المندفع من المضيق، وهي إذ تعوق صقليا طريقها، فإنها تغدو فريسة الحيوانات الأكبر كالدلافين، وكلاب البحر، وسوى ذلك من الحيوانات البحرية التي تشبه الحيتان، وتلتفت «الغاليوت» (التي يدعونها أيضاً بالسمكة- السيف، وكلب البحر)، لتشترك بدورها في صيد أسماك التنّة[22]. وما يحدث هنا، وكذلك في أثناء فيضان نهر النيل وسواه من الأنهار المشابهة، يقع أيضاً لدى اشتعال حريق، أو إضرام النار في غابة، إذ تحاول الحيوانات التي تشكّل قطعاناً على وجه التحديد، أن تنجو من النار أو المياه، فتغدو فريسة للحيوانات الأقوى».

16- وبعد هذا يواصل بوليبيوس وصف صيد «الغاليوت» في محيط سكيليوس: يختارون مراقباً واحداً مشتركاً للصيادين كلّهم، بينما يستلقي هؤلاء مختبئين في كثرة من القوارب ذات المجدافين، اثنان في كلّ مركب؛ أحدهما يجدّف والآخر يقف على مقدّمة القارب وبيده حربة. وما إن يعطي المراقب إشارة عن ظهور الغاليوت (وتعوم هذه وثلث جسدها بارز فوق سطح الماء)، حتّى يندفع القارب نحوه، وعندئذٍ يطعن الصياد الرابض في مقدّمة القارب، السمكة بحربته، ثمّ يسحب ذراع الحربة ورأسها في داخل جسم السمكة، لأنّ رأس الحربة معقوف على شكل خطّاف، ومثبّت إلى الذراع تثبيتاً ضعيفاً عن سابق قصد، ومربوط إليه بحبل طويل. فيرخي الصيادون الحبل وراء السمكة المطعونة، بينما هي تصارع للإفلات، وتبقى على هذه الحال إلى أن تخور

قواها. عندئذٍ يسحبونها إلى الشاطئ أو يرفعونها على متن القارب، إذا لم تكن كبيرة جدّاً. وحتّى لو سقطت ذراع الحربة في الماء، فإنها لن تضيع، لأنها مصنوعة من خشب البلوط والشوح، بحيث لو غاص البلّوط في الماء، فإن الشوح يبقى طافياً الأمر الذي يجعل التقاط الحربة ثانية أمراً يسيراً. ويقول بوليبيوس: «يحدث أحياناً أن تقهر السمكة النوتي عبر قاع المركب، إذا كان سيف الغاليوت كبيراً جدّاً وحدّ سيفها حادّاً وقادراً على أن يجرح كناب الخنزير البرّي». وبحسب بوليبيوس أنه على أساس هذه الحقائق، يمكن أن نفترض أن يكون ترحال أوديسيوس قد دار بحسب هوميروس، هنا في محيط صقليا، لأنّ هوميروس ينسب إلى سكيليوس مثل هذا النوع من أنواع صيد الأسماك الذي يتميّز به سكيليوس. ويؤكّد هذا الافتراض أيضاً ما نقله هوميروس عن هاريبدس، التي تتوافق والظاهرات التي تحدث في المضيق. ولكنّ استخدام كلمة «ثلاث مرّات» بدلاً من كلمة «مرّتين» في قوله:

تقذف مرّات ثلاثاً كلّ يوم

(*الأوذيسا* XII، 105)

ما هو إلاّ خطأ الناسخ أو خطأ حصل أثناء مراقبة الحدث.

17- ويتابع بوليبيوس قائلاً، إن الأحداث الجارية في ميتينغ تتوافق مع ما ساقه هوميروس عن اللوتوفاغيين. ولكن حتّى لو كان هناك بعض التعارض، فينبغي أن يعزى للتغيّرات التي أدخلت إمّا بحكم عدم المعرفة أو عدم التقيّد بالأصول الشعرية، ويتمثل هذا في الجمع بين التاريخ والصيغة البيانية والأسطورة. فغاية التاريخ، هي الحقيقة؛ مثلاً، عندما يذكر الشّاعر في «لائحة السفن» الخاصيات الطبوغرافية لبعض الأماكن، فيدعو مدينة ما بالمدينة «الصخرية»، ويدعو الثانية «طرفية»، والثالثة مدينة «القطعان الجميلة الوديعة»، والرابعة «ساحلية». وغاية العرض البياني، هو الجلاء، مثلاً، عندما يخرج هوميروس الأبطال إلى المعارك. أمّا غاية الأسطورة، فهي الإمتاع، وإثارة الدهشة[23]. لكنّ الاختلاف دائماً غير مقنع، وهو ليس من سجايا هوميروس، فكلّهم يرى أن ملحمة هوميروس، هي مؤلَّف فلسفيّ، على الضدّ من رأي إيراتوسفين الذي يدعونا إلى تقويم الملاحم من حيث مغزاها، وألاّ نبحث فيها عن التاريخ. ويقول بوليبوس، إنه من المقنع أكثر أن نؤوّل قول الشاعر:

تسعة أيام حملتنا الرياح الحاملة الهلاك،

(*الأوذيسا* IX، 82)

إذا ما عزي إلى مسافة قصيرة (لأن «الرياح الحاملة الهلاك»، ليست كتلك التي «ترغم

السفينة على الإبحار في خط مستقيم»)، من أن نضع المشهد كلّه بعيداً في عمق المحيط، كأنّما هذه الكلمات تعني: «كانت الريح مواتية دائماً». إذا ما أخذنا بالحسبان أن المسافة بين رأس ماليوس وأعمدة هرقل هي 22.500 مرحلة، ويقول بوليبيوس: إذا افترضنا أنه تمّ اجتياز هذه المسافة في تسعة أيام بسرعة إبحار متماثلة، فإن المسافة التي كانت تقطعها السفن كلّ يوم، يجب أن تكون 2500 مرحلة. ولكن هل ثمّة من رأى يوماً أن المسافة بين هاتين هي 4000 مرحلة فقط؟ أمّا الذي يسأل أيضاً، وكيف تمكّن أوديسيوس أن يبلغ صقليا ثلاث مرات من غير أن يعبر المضيق، فإن بوليبيوس يجيبه، أن ذلك حصل للسبب عينه الذي جعل بحارة الأزمنة اللاحقة كلّهم يتفادون الإبحار في هذا المضيق.

18- وأقوال بوليبيوس هذه، بل وما قاله على وجه العموم، هو صحيح من حيث المبدأ. بيد أنه حينما يدحض الحجة التي تنقل ترحال أوديسيوس إلى المحيط، ويحاول أن يقيس بدقّة ترحال أوديسيوس لتسعة أيام، ويحدّد المسافة ذات الصلة، فإنه يلامس بذلك أقصى حدود السخافة. لأنه هو نفسه يسوق قول الشاعر:

تسعة أيام حملتنا العاصفة الهوجاء،

(*الأوذيسا* IX، 1)

وقوله:

على الجزيرة التي تحتضنها أوجيجيا،
محور البحر المترامي،

(*الأوذيسا* I، 50)

حيث تعيش بحسب قول الشاعر، ابنة أتلانتس؛ وفيما يخصّ الثياكيين:

... نعيش نحن
هنا، معتزلين الشعوب الأخرى، على أطراف
البحر الصاخب، ويندر أن يزورنا أحد من الناس.

(*الأوذيسا* VI، 204)

فهذا كلّه يشير إلى أن هذه الأحداث الخرافية كلّها، تجري في المحيط الأطلسي. ولكنّ بوليبيوس عندما لا يأتي على ذكر هذه الأقوال، فإنه يرفض بذلك القرائن الجليّة التي ساقها الشاعر؛ وهو في هذا يجانب الصواب؛ بيد أنه محق إذ يوافق ترحال أوديسيوس مع الأماكن المحيطة بصقليا وإيطاليا، وإشارات الشّاعر تؤكّدها التسميات الجغرافية التي تحملها تلك الأماكن؛ وإلاّ فأيّ شاعر، أو ناثر أقنع سكّان

نابولي بأن يدعوا شاهدة قبر، بنصب السيرينيس بارثينوبا ، ومن ذا الذي دعا سكّان كوما ، وديكيارخيا ،وفيزوف إلى تخليد أسماء بيريفليهيثونس، وبحيرة أخيروسيا ، وكاهن الموتى عند بحيرة أفيرن، وبايي، وميسين رفيقي أوديسيوس؟ كما يمكننا أن نطرح السؤال نفسه فيما يخصّ ما رواه هوميروس عن سيرينوسا ، والمضيق، وسكيليوس، وهاريبدس، وإيولس، فنحن ينبغي علينا ألاّ نتعسّف في انتقاد هذه القصص، ونرميها كما لو أنه ليس لها جذور ومستند في التقليد المحلّي، ولا تطمح إلى الحقيقة وتقديم منفعة للتاريخ.

19- وعلى نحو مماثل شكك إيراتوسفين نفسه بهذا ، لأنه يقول، إنه يمكن أن نفترض أن الشّاعر رغب في أن يجعل ترحال أوديسيوس في البلدان الغربية ، إلاّ أنه تراجع عن مقصده هذا ، ربّما بسبب قلّة المعلومات الدقيقة ، وربّما لأنه لم يول اهتماماً للدقّة ، بل آثر أن يطوّر كلّ محور نحو ما يثير الخوف الأكبر، وما يوحي بالإعجاز أكثر. إن إيراتوسفين يؤوّل طريقة هوميروس في الوصف تأويلاً صحيحاً ، إلاّ أنّه لم يفهم دوافع الشّاعر فهماً صحيحاً. فهوميروس لم يبدع من أجل الثرثرة الفارغة ، بل أبدع لكي يقدّم منفعة. وعليه فإنه ينبغي أن يلام إيراتوسفين على هذا ، كما على زعمه أن قصص هوميروس الخرافية قد جرى تكييفها مع أصقاع نائية لكي يغدو من السهل، اختلاق الخوارق عنها. فبالمقارنة مع القصص الخرافية الأخرى التي تدور أحداثها في اليونان أو في البلدان المجاورة، لا تشكّل القصص المماثلة التي تنسب إلى البلدان النائية سوى عدد قليل جدّاً ، منها على سبيل المثال قصص مآثر هرقل وثيسيوس، والأساطير التي تدور أحداثها في كريت، وصقليا وسواهما من الجزر: كيثيرون، وهيليكون، وبارناس، وبيليون ومختلف أرجاء أتيكا ، والبيلوبونيز. وليس ثمّة من يتهم مبدعي هذه الأساطير بالجهل بسبب أساطيرهم هذه. عدّاك عن هذا ، أنه بما أن الشعراء، خاصة هوميروس، لا يؤلّفون روايات ميثولوجية صرف البتّة ، إنّما غالباً ما يضمّون العنصر الميثولوجي إلى الوقائع الحقيقية ، لذلك فإن الباحث الذي يرغب في تحديد ، أيّ العناصر الميثولوجية أضافها القدماء، لا يفكّر عمّا إذا كان العنصر المضاف عنصراً ميثولوجياً في زمن ما ، أم أنه كذلك الآن فقط، بل يسعى إلى التحقّق مما إذا كانت الأماكن والشخصيات التي أضاف الشّاعر العنصر الميثولوجي إليها منشئاً بذلك الأساطير عنها ، هي أماكن وشخصيات حقيقية. فمن الضروري أن نتحقّق مثلاً من ترحال أوديسيوس: هل حصل هذا الترحال فعلاً ، وإذا كان قد حصل، فأين على وجه التحديد.

20- وعلى وجه العموم، من الخطأ أن توضّع ملحمتا هوميروس على مستوى واحد مع مؤلّفات الشعراء الآخرين، وألاّ تقرّ لهما أفضلية خاصة بالنسبة للميدان الذي

يهمنا الآن، أي ميدان علم الجغرافيا. فلو قرأنا «تريبتوليموس» سوفوكليس أو مقدّمة «باخوسيات» يوريبيدس وقارنّا الدقّة التي يتوخّاها هوميروس عندما يسوق وصفاً جغرافياً، فإن الاختلاف يتّضح بسهولة. ففي كلّ مكان يقتضي الأمر فيه التزام انتظام تعداد المواقع بالتتابع، نرى أن هوميروس يلتزم هذا النظام إن كان فيما يتعلّق بالمواقع الموجودة في اليونان، أو بتلك التي تقع خارجها:

يرفع أوسّا على الأوليميب القديم،
ويرمي بيليون الكثير الغابات على أوسّا

(*الأوذيسا* XI، 315)

وعلى حين غرّة اندفعت هيرا، تاركة قمم الأوليميب،
وعلى حين غرّة طارت فوق هضاب بيرييا، ووهاد إيماثيا،
ومرّت مسرعة عبر الجبال الثلجية، جبال التراقيين ذوي الخيل السريعة،
أعلى من جروف باروس، لا تلامس قدماها الأرض،
ومن قمّة آفوس الشامخ، انحدرت إلى البحر المتموّج

(*الإلياذا* XIV، 225)

وفي «سجلّ السفن»[24] لا يصف هوميروس المدن على التوالي، لأنّ ذلك ليس ضرورياً، إلاّ أنه يأتي على أسماء القبائل وفق التوالي الدقيق، وعلى النحو عينه يتعامل مع القبائل النائية:

رأيت قبرص، وزرت فينيقيا، وبلغت مصر،
وتوغلت إلى السود الإثيوبيين، ونزلت
ضيفاً على الصيدونيين، والإيريمبيين، وكنت
في ليبيا.

(*الأوذيسا* IV، 83)

وهذا ما نوّه به هيبارخ أيضاً[25]. ولكنّ سوفوكليس ويوريبيدس، حتّى حيث كان التوالي الدقيق ضرورة في التعداد: الأخير لدى وصفه وصول ديونسيوس إلى مختلف الشعوب، والأوّل لدى حديثه عن زيارة تريبتوليموس للأراضي التي بذر فيها، فإن الشاعرين جاورا بين أقاليم متباعدة، وباعدا بين أقاليم متجاورة:

وإذا تركت حقول ليديا الذهبية
ومزارع فريجيا وفارس، التي
تحرقها شمس الظهيرة،

وأسوار باكتريا وميديا،

وخبرت برد الشتاء، فقد زرت العرب.

(*يوريبيدس، الباخوسيات* 13)

وهـذا مـا يفعلـه تريبتوليمـوس أيضـاً. وعنـدما يتحـدّث هـوميروس عـن «الأقـاليم» والرياح، فإنه يظهر معارف أكثر في ميدان الجغرافيا، فلدى وصفه للمواقع غالباً ما يلامس الشّاعر هذه المسائل الجغرافية:

... وفي أقصى

الغرب تمتدّ إيثاكا منبسطة محاطة بالبحر.

أمّا الأُخر فأقرب إلى المنتهى، حيث إيوس وهيليوس يشرقان.

(*الأوذيسا* IX، 25)

أو:

... وفي المدينة مدخلان

[واحد فقط للناس]، يتّجه نحو بورياس

ونحو نوتوس، نحو الجنوب يتّجه

(*الأوذيسا* XIII، 109)

أو:

أتسرع الطيور يمينا نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،

أم يساراً تندفع ذات الريش نحو الغرب الكئيب.

(*الإلياذا* XII، 239)

وعلاوة على ذلك، يرى هوميروس أن الجهل بمسائل الجغرافيا يساوي الإبهام الكامل:

نحن لا نعرف، أيّها الأصدقاء، أين يمتدّ الغرب، وأين تظهر إيوس.

أين يهبط هيليوس ذو النور [تحت الأرض]

(*الأوذيسا* X، 190)

ويظهر هوميروس دقيقاً في مكان آخر:

صاخبة بورياس وزفيروس، كما لو أنها تهبّ من تراقيا...

(*الإلياذا* IX، 5)

ولما كان إيراتوسفين قد فهم هذا البيت من الشعر خطأ، فقد اتهم هوميروس بأنه يرى أن الرياح الغربية على وجه العموم تهبّ من تراقيا؛ ولكنّ هوميروس لا يتحدّث

عن هذه الظاهرة بمعناها العام، بل يعزوها إلى اللحظة التي تتصادم فيها هاتان الريحان في خليج ميلانوس في البحر التراقي (جزء من بحر إيجة)؛ لأنّ تراقيا تنعطف جنوباً لتشكّل رأساً في النقطة التي تلتقي عندها مع مقدونيا، ثمّ تبرز في البحر. وهذا ما يخلق انطباعاً لدى سكّان فاسوس، وليمنوس، وإيمبروس، وساموتراقيا، وعلى البحر في محيط هذه الجزر، أن الريح الغربية تهبّ من تراقيا فعلاً، تماماً مثلما يهيأ لسكّان أثيكا أن هذه الريح تهبّ من صخور سكيرونوس؛ ولذلك تدعى الغربية، خاصة الشمالية الشرقية، «سكيرونوسية». بيد أن إيراتوسفين لم يفهم هوميروس في هذه النقطة، مع أنه خمّن المغزى الذي رمى إليه الشاعر. وعلى أيّ حال فإنه هو نفسه يصف منعطف الساحل الذي أتيت أنا على ذكره. وواقع الحال، هو أن إيراتوسفين يعتمد بيت الشعر المعني، ويؤوّله بمعناه العام، ثمّ يتّهم الشّاعر بالجهل، لأنه يرى أن الريح الغربية تهبّ من الغرب، من جهة إيبيريا، بينما لا تمتدّ تراقيا نحو الغرب كثيراً. ولكن، هل يعقل ألاّ يعرف هوميروس أن زفيروس تهبّ من الغرب؟ إن الشاعر يحتفظ لها بمكانها الخاص بها:

وعلى مقربة يفروس أيضاً، ونوتوس الظهيرة،

والجبّار - بورياس.

(*الأوذيسا* V، 295)

أم أن الشاعر لم يكن يعرف أن تراقيا لا تمتدّ غرباً وراء جبال بيونيا وتساليا؟ نعم، إنه يعرف البلاد التراقية ويدعوها باسمها الصحيح، كما يعرف أيضاً الإقليم الذي يجاورها، أي الساحل، وجزأها الداخلي، فهو يذكر الماغينتيين، والماليوسيين، ثمّ الهيلنيين وصولاً إلى بلاد الثيسبروتيين؛ وعلى النحو عينه الدولوبيين، والسيلويين الذين يستوطنون أطراف دودونا بجوار البيونيين، وصولاً حتّى نهر أخيلوس، مع أنه لا يذكر أن للتراقيين وجود أبعد نحو الغرب. أضف إلى هذا أن الشّاعر يذكر بتحبب ملفت، البحر الأقرب إلى وطنه، وهو البحر الذي يعرفه على أفضل وجه:

لقد نهض الشعب وماج، كالأمواج البحرية العملاقة

... على مياه البحر الإيكاري

(*الإلياذا* II، 144)

21- ثمّة بعض من الكتّاب يزعمون أن هناك ريحين رئيستين، هما بورياس ونوتوس، أمّا الرياح الأخرى فإنها لا تختلف عنهما إلاّ قليلاً من حيث الاتجاه. فإيفروس التي تهبّ من الجهة التي تشرق الشمس منها صيفاً[26]، وتهبّ أبيليوت من الجهة التي

تشـرق الشـمس منهـا شـتاء[27]؛ وتهـبّ زفـيروس مـن الجهـة الـتي تغيـب الشـمس فيهـا صيفاً[28]؛ وتهبّ أرجستوس من الجهة التي تغيب الشمس فيها شتاء[29]. ويسوق هـؤلاء برهـانهم علـى وجـود ريحـين فقـط، اعتمـاداً علـى فراسـيالك وعلـى الشّـاعر نفسـه، لأنّ هوميروس يجمع بين أرجستوس ونوتوس في قوله:

أرجستوس- نوتوس

(الإلياذا XI، 306)

كما يجمع زفيروس وبورياس في قوله:

صاخبة بورياس وزفيروس، كما لو كانتا تهبّان من تراقيا...

(الإلياذا IX، 5)

لكـنّ بوسـيدونيوس يقـول، إنّ أيّـاً مـن الشخصـيات المعـترف لهـا في هـذا الميـدان (مـثلاً، أرسـطو، وتيموسـفين، وبيـون - أسـترولوغ)، لم يبـد مثـل هـذا الـرأي في مسـألة الريـاح. فهـؤلاء يزعمـون أن الـريح الـتي تهـبّ مـن جهـة شـروق الشـمس صـيفاً، تـدعى ليكيوس، أمّا الريح المعاكسة لها تماماً والتي تحمل اسم ليبوس، فهي تهبّ من جهة غروب الشمس شتاء، وتدعى الريح التي تهبّ من جهة شروق الشمس شتاء، إيفـروس، وتعاكسـها الـريح الـتي تـدعى أرجسـتوس، أمّـا الريـاح الـتي تهـب بينهـا فهـي أبيليـوت وزفيروس. ثمّ يواصل هؤلاء قائلين، إنه عندما يتحدّث هـوميروس عـن «زفيروس الشـديدة شدّة مدمّرة» (الأوذيسا XII، 289)، فإنه يقصد بذلك الـريح الـتي نـدعوها أرجسـتوس، أمّـا الـريح الـتي يـدعوها هـوميروس «زفـيروس اللطيفـة الصـاخبة» (الأوذيسـا IV، 567)، فهي ما ندعوها نحن زفيروس أيضـاً، وأرجسـتوس - نوتـوس، هـي عنـدنا ليفكـونوتـوس: إنها تثير سحباً ضعيفة، بينما تحمل نوتوس غماماً داكناً.

... كما تعتلي زفيروس الغيم وتسوق الغيوم،

كذلك تدحرها أرجستوس- نوتوس بعصفها

(الإلياذا XI، 305)

إن هوميروس، عندما يقول ذلـك، إنّمـا يقصـد «زفـيروس الشـديدة شـدّة مـدمّرة»، والـتي تبـدد عـادة السـحب الخفيفـة الـتي تسـوقها ليفكـونوتـوس، لأنّ الشّـاعر اسـتخدم كلمـة «أرجسـتوس» في هـذا البيـت نعتـاً. وتلكـم كانـت التصـحيحات الـتي كـان يجـب إجراؤها على ملاحظات إيراتوسفين في بداية كتابه «الجغرافيا».

22- ويواصل إيراتوسفين بعد ذلك إصراره على تأويله الخـاطئ لهوميروس، فهـو يزعم أن الشّاعر لا يعرف أيضـاً أن للنيل عـدداً مـن الفـروع عنـد مصبّه، كمـا لا يعـرف

الاسم الحقيقي للنهر[30]، مع أن هسيود يعرف، لأنه يذكر هذا. وفيما يتعلّق باسم النهر، فإني أظنّ أنه لم يكن قد استخدم في زمن هوميروس بعد، والأمر على نحو مماثل، إذا كانت حقيقة وجود عدد من الفروع عند المصبّ، وليس مصبّ النيل وحده، غير معروفة، أو كان يعرفها عدد محدود، فإنه يمكن عندئذٍ أن نسلّم بأن هوميروس أيضاً لم يسمع بهذا. ولكن إذا كان النهر فيما مضى، وهو الآن يعدّ من أشهر معالم مصر وأكثرها إثارة للدهشة، وهو بالتالي الأجدر بأن يذكر ويخلّد في التاريخ (وينسحب هذا أيضاً على فيضانه، وفروعه قبل المصبّ)، فمن يستطيع أن يفترض أن من روى لهوميروس عن نهر مصر وبلاد مصر، عن طيبة المصرية، وفاروس المصرية، إمّا أنهم لم يكونوا على علم بوجود هذه الفروع عند مصبّ النيل، أو إذا كانوا على علم بذلك ولم يذكروه، فإنهم فعلوا ذلك فقط لأنّ الأمر كان معروفاً ولا حاجة لذكره. ولكنّ الأمر الأكثر غرابة من هذا، هو أن هوميروس الذي أتى على ذكر الإثيوبيين، والصيدونيين، والإيريمبيين، والبحر الخارجي[31]، وقال إن الإثيوبيين «ينقسمون إلى قسمين»، من الغريب حقاً ألاّ يعرف عمّا هو على مقربة ومعروف جيّداً. بيد أن حقيقة عدم ذكر الشّاعر لهذا، لا تعني أنه لم يكن يعرفه (فهو لم يذكر لنا وطنه، وأشياء أخرى كثيرة)، إنّما على الأرجح نستطيع أن نقول، إنه من وجهة نظره، لا حاجة لأن تذكّر عارفيّ الحقائق بما يعرفونه جيّداً.

23- ليس من العدل أن يلام هوميروس لأنه قال إن جزيرة فاروس «تقع في عرض البحر» (الأوذيسا IV، 355)، ونؤكّد بناء على هذا أنه قال ما قاله عن عدم معرفة. بل إن الأمر على الضدّ من هذا، إذ يمكن الإفادة من هذه النقطة لدى هوميروس كدليل على أن الشّاعر كان يعرف عن مصر كلّ ما قلناه نحن. ويمكننا أن نتحقّق من هذا على النحو الآتي. إن كلّ راو عن ترحاله مغرور متباه؛ وإلى هؤلاء ينتمي منيلاوس: لقد أبحر صاعداً مع النيل حتّى إثيوبيا، وسمع عن فيضان النهر وكمية الطمي التي يطرحها النهر في البلاد كلّ عام، كما سمع عن المدى الذي أضافه النهر بحمولته إلى الدلتا مضيفاً بذلك مساحة جيّدة إلى القارّة؛ ولذلك كان هيرودوت على حق عندما قال، إن مصر كلّها «هبة النيل»[32]. وإذا لم يكن هذا الحكم صحيحاً بالنسبة للبلاد كلّها، فإنه صحيح على الأقلّ بالنسبة لمنطقة الدلتا، التي تدعى مصر السفلى. لقد علم منيلايوس أن جزيرة فاروس كانت تقع قديماً في «عرض البحر». وها هو هوميروس يضيف عن ضلال، إنها لا تزال «تقع في عرض البحر»، مع أن الجزيرة لم تعد «في عرض البحر». وعلى أيّ حال، فإنّ الشّاعر أخضع هذه الرواية لمعالجة شعرية، وعليه، يمكننا أن نظنّ أنه كان يعلم بفيضان النيل، ويعرف بوجود فروع له عند مصبّه.

24- والخطأ نفسه يرتكبه الذين يزعمون أن هوميروس لم يكن على علم بالعنق الممتدّة بين البحر المصري والخليج العربي، وأنه يخطئ إذ يقول:

... بلاد الإثيوبيين النائية،

الناس الطرفيين القاطنين فريقين

(الأوذيسا I، 23)

وفي زمن لاحق ثمّة من لام هوميروس من غير حقّ، على هذا، فالشّاعر كان محقّاً تماماً. فحقيقة الأمر هي أنه من الخطأ أن نأخذ على هوميروس عدم علمه بالعنق المذكورة. ولذلك فإنني أؤكّد أن هوميروس لم يكن على علم بهذه العنق وحسب، بل وصفها بأوضح التعابير، وأن اللغويين بدءاً من أريستارخ وكراتيت - نجم هذا العلم -، لم يفهموا كلمات الشاعر. فالشّاعر يتحدّث عن بلاد:

[الإثيوبيين]، الناس الطرفيين، القاطنين فريقين

(الأوذيسا I، 23)

لكنّ العالمين لا يتّفقان على قراءة البيت الآتي. فأريستارخ يكتب:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،

والآخرون، حيث يشرق

(الأوذيسا I، 24)

ولكن فيما يتعلّق بالمسألة التي تثير الخلاف بينهما، فإنه سيّان أن يكتب هذا البيت على هذا النحو أو ذاك. فكراتيت إذ يستخدم صيغة برهان رياضي بسيطة، يقول، إن المحيط «يطوّق» المنطقة الحارّة[33]؛ فثمّة على جانبيّ هذه المنطقة، منطقتان معتدلتان: واحدة من جهتنا، والأخرى على الجانب الآخر من المحيط. ومثلما الإثيوبيون الذين يعيشون على جانب المحيط من جهتنا نحن، إلى الجنوب على امتداد المسكونة كلّها، ويدعون الأبعد عن إحدى مجموعات الشعوب (لأنهم يعيشون على سواحل المحيط)، كذلك نحن ينبغي علينا بحسب كراتيت، أن نتخيّل وجود إثيوبيين ما، على الجانب الآخر من المحيط، وهم الأكثر نأياً عن مجموعة الشعوب الأخرى التي تعيش في المنطقة المعتدلة الأخرى (لأنهم يعيشون على سواحل المحيط نفسه)، وعليه فإن هناك شعبين إثيوبيين «يقسمهما المحيط إلى قسمين». ويضيف هوميروس:

... وحيث يغرب الإله الحامل النّور،

والآخرون حيث يشرق،

(الأوذيسا I، 24)

لأن دائرة البروج السماوية تقع دوماً في السمت فوق دائرة البروج الأرضية التي توافقها؛ وبما أن هذه الأخيرة لا تخرج خارج حدود منطقة المجموعتين الإثيوبيتين، بسبب حركة الانحراف[34]، فإننا ينبغي أن نتخيّل أن طريق الشمس حتّى نهايتها، تمتدّ في المدى داخل حدود هذا الحزام السماوي، وبالنسبة لمختلف الشعوب، يقع شروق الشمس وغروبها باختلاف: أحياناً في هذه لعلامة الفلكية وأحياناً في تلك. ذلكم هو تفسير كراتيت الذي يعرض تصوّره غالباً كفلكيّ. بيد أنه كان بإمكانه أن يعبّر بطريقة أبسط، محافظاً في الآن عينه على فهمه لبيت الشعر الهوميروسي: «ينقسم الإثيوبيون إلى قسمين»؛ فقد كان يمكنه أن يقول، إن الإثيوبيين يعيشون على شاطئي المحيط حيث تشرق الشمس وحيث تغرب. فأين الخلاف من حيث المغزى، إذا ما قرأنا البيت كما يكتبه كراتيت، أو كما يكتبه أريستارخ:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،

والآخرون حيث يشرق.

(*الأوذيسا* I، 24)

فهذا يعني كذلك أن الإثيوبيين يعيشون على جانبيّ المحيط، غرباً وشرقاً. لكنّ أريستارخ يرفض فرضية كراتيت هذه، ويفترض أن قول هوميروس «ينقسمون إلى قسمين»، لا ينسحب إلا على الإثيوبيين القاطنين في الشطر الذي نقطنه نحن من العالم، أي الإثيوبيين الذين يقيمون بالنسبة للإغريق، في أقصى الجنوب. وهو يرى أن هؤلاء الإثيوبيين ليسوا منقسمين إلى قسمين يشكّلان إثيوبيتين: واحدة في الشرق، والأخرى في الغرب؛ وبحسب قوله، إنّ هناك أثيوبيا واحدة، هي تلك التي تقع إلى الجنوب من الإغريق، ممتدّة على طول حدود مصر. ويظنّ أريستارخ أن الشّاعر لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، وكذلك شأنه بالنسبة للحقائق الأخرى (التي أشار إليها أبوللودوروس في الكتاب الثاني من مؤلّفه «بصدد دليل السفن»[35]، وبسبب عدم معرفته، اختلق معطيات عن هذا الموضوع لا وجود لها في الواقع.

25- إن معارضة كراتيت تقتضي منّي محاكمة طويلة لا علاقة لها بالموضوع الراهن الذي أنا بصدده. وأنا أوافق أريستارخ في رفضه فرضية كراتيت التي لاقت كثيراً من الاعتراضات، وأظنّ أنّ ما قاله هوميروس يخصّ أثيوبيا التي من جهتنا. أمّا الآن فلنتناول بالنقد موضوعاته الأخرى. وأن أوّل ما ينتقد فيه كراتيت، هو أنه يستغرق في محاكمات ضحلة عقيمة تتناول نصّ هوميروس؛ فلو كتب بيت الشعر المعني بأيّ من الطريقتين، لاستخلصنا منه المغزى المتوافق مع النص. وفي واقع الحال، ما الفرق بين أن

نقول: «ثمّة على الجانب الذي نحن فيه مجموعتان من الإثيوبيين، واحدة في الشرق، والأخرى في الغرب»، أو «كما في الشرق كذلك في الغرب». كما ينبغي أن ينتقد أريستارخ لأنه يدافع عن موضوعة باطلة. فلنفترض أن الشّاعر لم يكن على علم بوجود عنق اليابسة المذكورة، لكنّ حديثه عن الإثيوبيين ينسحب على إثيوبيا المجاورة لمصر؛ فهو يتحدّث عن

[الإثيوبيين]، القاطنين فريقين

(الأوذيسا I، 23)

وكيف ذلك؟ أو ليسوا على هذا النحو «منقسمين إلى اثنين» ثمّ قال الشّاعر ما قاله عن غير معرفة؟ أو ليست مصر والمصريون منقسمين بدءاً من الدلتا حتّى سيينا، إلى شطرين:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،
والآخرون حيث يغرب.

(الأوذيسا I، 24)

فما الذي تمثله مصر سوى الوادي الذي تغمره المياه؟ وهذا الوادي يتوضّع على ضفتي النهر شرقاً وغرباً. ولكنّ إثيوبيا تمتدّ وراء مصر مباشرة وتشترك معها في شروط متماثلة بالنسبة للنيل والخاصيات الطبيعية الأخرى التي يتميّز بها هذا الإقليم. فإثيوبيا، كما مصر، عبارة عن شريط ضيّق يمتدّ على طول الوادي، وتتعرّض مثلها للفيضانات، أمّا أجزاؤها التي تمتدّ خارج منطقة الفيضانات، فهي صحارى لا ماء فيها وليست مسكونة إلاّ فيما ندر، لا في الشرق ولا في الغرب. فكيف يمكن ألاّ تكون منقسمة إلى قسمين؟ أم أن النيل لا يشكّل حدّاً مقنعاً بالنسبة لأولئك الذين يضعونه بين آسيا وليبيا (لأن مجراه يمتدّ جنوباً في الوادي أكثر من 10.000 مرحلة، وهو عريض إلى درجة أنه يحتوي على جزر تسكنها أعداد كثيرة من الناس؛ وأكبر هذه الجزر جزيرة ميرويه، مقرّ الملك وعاصمة الإثيوبيين)، أو بات غير صالح لأن يقسم إثيوبيا إلى شطرين؟ عدّاك عن هذا أن من ينتقدون الذين يرون في النيل حدّاً يفصل بين القارّتين، يدفعون ضدّ خصومهم حجة مهمّة: إنهم يقسمون مصر وإثيوبيا إلى أجزاء وينسبون جزءاً من كلّ منهما إلى ليبيا، والجزء الآخر إلى آسيا؛ أو إذا ما عزفوا عن مثل هذا التقسيم فإنهم على وجه العموم لا يفرّقون بين القارتين، ولا يرون في النيل حدّاً يفصل بينهما.

26- بيد أنه يمكن تقسيم إثيوبيا بطريقة مغايرة تماماً. فكلّ من أبحر في المحيط على طول سواحل ليبيا، سواء انطلق من البحر أو من أعمدة هرقل، كان دائماً

يقطع مسافة محدّدة فتواجهه عقبات ترغمه على العودة من حيث أتى؛ لذلك تكوّنت قناعة لدى كثير من الناس، بأن عنقاً من اليابسة تمتدّ في وسط المدى. ولكنّ المحيط الأطلسي يمثل كلّه مدى مائياً واحداً، وهذا ما ينطبق خاصة على الشطر الجنوبي منه. وقد دعا هؤلاء البحارة كلّهم، البلدان الإثيوبية بالنقاط الأخيرة التي بلغوها في رحلاتهم البحرية، وخبّروا عنها على هذا النحو. فما الغريب في أن يقسم هوميروس الإثيوبيين إلى قسمين بعد أن ضلّلته مثل هذه الشائعات، فوضّع فريقاً من هذا الشعب شرقاً والفريق الآخر غرباً، لأنه لم يكن معروفاً أن ثمّة شعباً آخر يسكن بينهما. زد إلى هذا أن إيثور نقل رواية قديمة أخرى، وثمّة أساس يجيز لنا أن نظنّ بأنّ هوميروس قد سمع بها. فقد روى إيثور نقلاً عن التارتسيين، أن ليبيا تعرّضت لغزو الإثيوبيين الذين اجتاحوها حتّى ديريس، وقد بقي فريق منهم هنا وأقام في ديريس، واستولى الآخرون على شطر كبير من الساحل. ويزعم إيثور أن هذه القرينة، هي التي دفعت هوميروس لكي يقول عن الإثيوبيين:

[الإثيوبيون]، الناس الطرفيون، القاطنون فريقين.

(*الأوذيسا* I، 23)

27- إن معارضة أريستارخ وأنصاره أمر ممكن، كما يمكن أن نسوق حججاً أخرى مقنعة أكثر، ونجنّب بذلك هوميروس تهمة الجهل. فأنا أزعم مثلاً، أنه وفق تصوّر الإغريق القدماء، فإنهم كما دعوا سكّان بلدان الشمال الذين عرفوهم باسم واحد، هو «السكيثيون» (أو «النوماديون»، كما لدى هوميروس)، وعندما تعرفوا بعد ذلك إلى سكّان البلدان الغربية، دعوهم سلتيين، وإيبيريين، أو باسم مركّب، هو السلتو- إيبيريين، والسلتو- سكيثيين (لأن شعوباً اتحدت تحت اسم واحد بسبب جهلها بالحقائق)، كذلك أقول أنا، إن البلدان الجنوبية الواقعة وراء المحيط، دعيت كلّها باسم واحد، هو إثيوبيا. ودليلي على هذا، هو الآتي. يقول إيسخيليوس في «بروميثيوس طليقاً»[36].

[أنت ترى] تيار البحر الأسود القرمزي المقدّس
والبحيرة التي تبرق بالنحاس،
عند المحيط الذي يمنح الإثيوبيين قوتاً،
حيث الشمس بعينها الرائية كلّ شيء دائماً
تمنح الجسد الخالد والجياد التعبة، الراحة
في تيارات المياه الدافئة اللطيفة.

(*مقطع* 92 *ناوك*)

إذا كان للمحيط مثل هذا التأثير على الشمس، وبينهما مثل هذه العلاقة على طول الحزام الجنوبي، فإنه من الواضح أيضاً أن إيسخيليوس أيضاً يسكن الإثيوبيين داخل نطاق هذا الحزام. ويقول يوريبيدس في «الثياتون»[37]، إن كليمينا أُعطيت

لميروب، سيّد هذه الأرض،

البلاد التي تقرن أولاً مع أربعة المركبة

ومنذ شروقه يصيبها هيليوس بشعلته الذهبية،

ويدعوها جيرانها السود البشرة سحراً، ويدعون

هيليوس المربط الساطع.

(مقطع 771، ناوك)

ينسب يوريبيدس إلى إيوس والشمس في هذا المقطع، مرابط مشتركة، أمّا في الأبيات اللاحقة، فهو يقول، إن هذه المرابط كانت تقع على مقربة من قصر ميروب؛ وواقع الحال، هو أن هذه الحقيقة الجغرافية قد أُدخلت كاملة نسيج بنية المسرحية، ليس لأنّ هذا، كما ينبغي أن نفترض، يعدّ سمة إثيوبيا الواقعة على مقربة من مصر، بل على الراجح، لأنّ هذا يعدّ سمة الساحل الممتدّ على طول الحزام الجنوبي.

28- كما ينقل إلينا إيثور التصوّر القديم عن إثيوبيا، ففي بحث له بعنوان «عن أوروبا»[38] يقول: «إذا قسمنا حقول السماء والأرض إلى أربعة أقسام، فإن الهنود سوف يشغلون الحقل الذي تهبّ منه أبيليوت، ويشغل الإثيوبيون الحقل الذي تهبّ منه نوتوس، والسلت الحقل الغربي، والسكيثيون الحقل الذي من جهة الريح الشمالية». ثمّ يضيف في السياق نفسه قائلاً، إن إثيوبيا وسكيثيا بلدان أكثر اتساعاً. ويقول: «أنا أفترض أن شعب الإثيوبيين يستوطن المدى الممتدّ بين جهة شروق الشمس وغروبها شتاء، بينما تقع سكيثيا في الجهة المقابلة شمالاً. وما يؤكّد أن هوميروس يشارك إيثور وجهة النظر هذه، هو ما يقوله عن موقع إيثاكا «بالاتجاه نحو الظلام» (الأوذيسا X، 26) (وهذا يعني نحو الشمال):

أمّا [الجزر] الأخرى فأقرب إلى المنتهى،

حيث إيوس وهيليوس يشرقان

(الأوذيسا IX، 26)

وهكذا يحدّد هوميروس الإقليم كلّه في جهة الجنوب:

أتسرع الطيور يميناً نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،

أم يساراً تندفع ذات الريش صوب الغرب الكئيب

(الإلياذا XII، 239)

ومن هذا البيت:

نحن لا نعرف، أيها الأصدقاء، أين الظلام، وأين تظهر إيوس،

أين يهبط هيليوس ذو النور تحت الأرض، وأين يصعد إلى السماء...

(الأوذيسا X، 190)

ولكنّني سأتحدّث عن مواقع هوميروس كلّها بصورة أكمل، عندما سأصف إيثاكا[40]. ولذلك عندما يقول هوميروس:

أمس مضى زيوس، حامل الصواعق، طاهراً إلى أمواج المحيط النائية، إلى وليمة عند الإثيوبيين

(الإلياذا I، 423)

فإنه ينبغي أن فهم كلمة «محيط»، أي ضخامة مائية مهولة تمتدّ على طول حزام الأرض الجنوبي[41]، وكلمة «إثيوبيين»، أي الشعب الذي يعيش في هذا الحزام، بالمعنى الأكثر عمومية. لأننا إذا ما نظرنا إلى أي نقطة كانت في هذا الحزام، نظرة ذهنية، فإننا نلقى أنفسنا دائماً في المحيط وفي إثيوبيا. وبهذا المعنى يجب أن نؤوّل كلمات هوميروس:

... ترك بلاد الإثيوبيين، ومن المرتفعات السوليمية

رأى [أوديسيوس في البحر].

(الأوذيسا V، 282)

إن هذا التعبير يماثل في المعنى، الكلمات «من البلدان الجنوبية»، لأنّ هوميروس لا يقصد السوليميين في بيسيديا، كما قلت من قبل[42]، إنه اختلق شعباً ما وحمّله الاسم عينه، ووضّعه في الموقع الجغرافي نفسه بالنسبة لأوديسيوس المبحر على طوف، وللشعوب الواقعة على جنوبه (الإثيوبيين، ربّما)، وهو الموقع نفسه الذي يشغله البسيديون بالنسبة للبونتس والإثيوبيون الذين يعيشون وراء مصر. وعلى نحو مماثل، وبالمعنى العام يتحدّث هوميروس عن الغرانيق.

في سعيها لتفادي عواصف الشتاء، والأمطار التي لا تنتهي،

تطير أسراباً نحو تيار المحيط المندفع، وهي تزعق،

مهددة بالقتل رجال البجم القصار القامة.

(الإلياذا III، 4)

فليست المسألة هنا في أن أسراب الغرانيق عندما تطير جنوباً لا تُرى إلاّ في اليونان، ولا تُرى أبداً في إيطاليا، وإيبيريا أو في إقليم بحر قزوين وباكتيريانا. فبما أن المحيط يمتدّ على طول الساحل الجنوبي، والغرانيق تهاجر شتاء إلى هذه البلدان كلّها، لذلك يجب أن نقبل بأن يشغل البجم في الميثولوجيا، هذا الساحل الجنوبي كلّه. وإذا كان الناس في زمن لاحق خصّوا الإثيوبيين الذين يسكنون في محيط مصر وحدهم برواية البجم، فإنه لم يكن من الممكن أن يكون لهذا أي علاقة بأحداث الأزمنة القديمة. فنحن الآن لا ندعو كلّ من شاركوا في الحملة على طروادا «آخيين» و«أرغيفيانيين»، مع أن هوميروس يدعوهم كلّهم بهذا الاسم. وما يشبه هذا هو ما أزعمه أنا عن تقسيم الإثيوبيين إلى فريقين: ينبغي أن تُفهم كلمة «إثيوبيين» بمعنى، أن هؤلاء انتشروا على طول ساحل المحيط ابتداء من جهة مشرق الشمس حتّى جهة مغربها. فمن الطبيعي أن يكون الإثيوبيون المقصودون هنا «منقسمين إلى فريقين»، يقسمهم الخليج العربي (كأنهم مقسومين بالقسم الأكبر من خطّ الزوال)، الذي يمتدّ مثله مثل النهر، بطول 15.000 مرحلة، وبعرض يصل أقصاه إلى ما يقارب 1000 مرحلة. وينبغي أن نزيد على الطول، المسافة التي تفصل بين منخفض هذا الخليج والبحر البيلوسي، وهي تشكّل مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، وهي نفسها الامتداد الذي تشغله عنق اليابسة موضوع الخلاف. وعلى غرار ما يرى أكثر الجغرافيين ثقافة، أن هذا الخليج هو الحدّ الأكثر طبيعية من النيل ليشكّل حدّاً فاصلاً بين آسيا وليبيا (فبحسب رأيهم أن الخليج يكاد يصل بين بحر وآخر، بينما تفصل بين النيل والمحيط مسافة أكبر بكثير، ولذلك فهو لا يفصل آسيا تماماً عن ليبيا)، فإنني على هذا النحو نفسه أزعم، أن هوميروس يرى أن هذا الخليج «يقسم إلى شطرين» بلدان الجنوب كلّها على امتداد المسكونة. فكيف يمكن إذن ألاّ يكون الشّاعر على علم بوجود هذه العنق التي تشكّل الخليج العربي مع البحر المصري[43]؟

29- إنه من السخف تماماً الزعم أن هوميروس الذي كان لديه تصوّر دقيق عن طيبة المصرية (التي تقع على بعد يقلّ قليلاً عن 4000 مرحلة عن البحر المتوسّط)، ألاّ يكون على علم بمنخفض الخليج العربي أو بالعنق المجاورة له، والتي لا يزيد عرضها عن 1000 مرحلة؛ لكنّ الزعم الأكثر سخفاً هو الزعم الذي يقول، إن هوميروس الذي كان على علم بأن النيل الذي كان يحمل اسماً واحداً في بلاد على ذلك القدر من الكبر، كما هي مصر، لم يكن يعرف أسباب هذا. فالفكرة التي يمكن أن ترد إلى الذهن، هي على الأغلب، ما قاله هيرودوت[44]، عن أن مصر هي بلاد «هبة النهر»،

ولذلك رأت أنها تستحقّ أن تحمل والنهر اسماً واحداً[45]. وعلى وجه العموم، فإن الخاصيات غير العادية لكل بلد، هي خاصيات شائعة جدّاً ومعروفة لجميعهم. ومن معالم مصر المعروفة على هذا النحو، فيضان النيل وترسّب الطمي النهري في البحر. فالذين يزورون مصر ويتعرّفون على البلاد، يعرفون قبل كلّ شيء السمات الطبيعية لنهر النيل، لأنه ليس لدى السكّان المحلّيين أيّ شيء جديد آخر يروون للأجانب عنه، سوى هذه الخاصيات (فمن يتعرّف إلى النهر، يغدو واضحاً له تمام الوضوح، الطابع الجغرافي للبلاد كلّها)، وحتّى الذين يحصلون على معطيات عن مصر بالسماع من روايات الآخرين، فإن أوّل ما يعرفونه، هو هذه الحقيقة. وينبغي أن نضيف إلى هذا كلّه، حبّ المعرفة لدى هوميروس، وشغفه بالترحال، وهذا ما رواه عنه كلّ من كتب عن حياته، كما يمكن أن نجد في ملحمتيه كثيراً من الأمثلة التي تشهد على وجود هذا الميل لدى الشاعر. وعلى هذا النحو يمكننا أن نسوق كثيراً من الحجج التي تبرهن على أن هوميروس كان على دراية كاملة، وأنه تحدّث بوضوح عمّا كان ينبغي أن يقال، ولكنّه صمت عن الإفصاح عن الموضوعات المعروفة، أو أنه ألمح إلى هذا باستخدام النعوت[46].

30- يثير استغرابي المصريون والسوريون الذين أناظرهم الآن، بأنهم لا يفهمون هوميروس حتّى عندما يتحدّث عن ظاهرات بلديهم، ويتهمونه بالجهل (والذنب في هذا ذنبهم هم، كما سأبيّن في حجتي الآن). فالصمت على وجه العموم لا يعني الجهل، فهوميروس لم يذكر قط المجرى العكسي لنهر يوريبس، كما لم يأت على ذكر ثرموبل، ولا على ذكر ظاهرات أخرى كثيرة معروفة جيّداً في اليونان، ومع ذلك فإن معرفته بهذه الحقائق كانت ممتازة. ولكنّ هوميروس يتحدّث عن موضوعات معروفة جيّداً، مع أن الناس الذين يلتزمون الصمت حيال هذا عن سابق قصد، يرفضون هذا. ولذلك فإن تهمة الجهل ينبغي أن توجه إليهم هم. وعليه فإنّ الشّاعر لا يدعو السيول الشتوية وحدها، «الأنهار الهابطة من السماء» (الإلياذا XVI، 174)، بل الأنهار كلّها كذلك، لأنها كلّها تتغذى بالأمطار. بيد أن الصفة المشتركة تتحوّل إلى صفة خاصة عندما يجري إلحاقها بالأشياء التي تتفوّق على ما عداها من أشياء النوع نفسه. فمن الممكن أن نفهم صفة «الأنهار الهابطة من السماء» أنها تعني سيل المطر، إلاّ أنه يمكن فهمها أيضاً بمعنى آخر، بمعنى النهر الدائم الجريان ومثلما تتراكم المبالغة فوق المبالغة (مثلاً، «أخفّ من ظلّ سدادة»، و«أجبن من أرنب فريجي»[48]، و«يملك أرضاً أصغر من رسالة لا كونيّة»)[49]، فإننا كذلك أمام حالة مشابهة من تراكم التفوّق فوق التفوّق،

عندما يسمّى النيل نهراً «هابطاً من السماء»، فالنيل بفيضانه الجبّار يفوق حتّى سيول الشتاء، لا من حيث الكثافة المائية فقط، بل من حيث استمرار الفيضان أيضاً. وبما أن الشّاعر كان على معرفة بنظام النهر، كما أشرت في معرض حديثي هذا، فقد ألحق هذه الصفة به، ونحن لا يمكننا أن نؤوّله إلاّ كما قلت آنفاً. بيد أن حقيقة جريان النيل في عدد من الفروع، هي سمة تجمع بينه وبين عدد من الأنهار الأخرى. ولذلك لم ير هوميروس أن هذه السمة تستحق منه التنويه، قاصداً بذلك الناس الذين يعرفون هذه الظاهرة. وعلى نحو مماثل تصرّف ألكيبوس، فلم يذكر هذه الفروع، مع أنه يؤكّد أنه زار مصر[50]. أمّا فيما يتّصل بتراكم ترسّبات الطمي، فإنه يمكن الافتراض أنها لم تكن تنجم عمّا كان يحمله النهر فقط، إنّما أيضاً بفعل السبب الذي يشير إليه هوميروس بالنسبة لجزيرة فاروس، لأن الراوي الذي سمع منه هوميروس، أو بمعنى أدقّ، إن الشائعات العامّة كانت تفيد بأن الجزيرة كانت تقع عندئذٍ بعيداً جدّاً عن اليابسة؛ وأنا أقول، إن هذه الشائعات لم يكن لها أن تنتشر بتلك الصورة المحرّفة، كما ساقها هوميروس لدى حديثه عن مسافة تمتدّ طول إبحار يوم كامل بالسفينة. أمّا الفيضانات والطمي، فإن من الطبيعي الافتراض، أن الشّاعر قد أخذ علماً بهذا، كما بالحقيقة الشائعة عن أنه كان لهما مثل هذا الطابع نفسه تقريباً. ومن هنا استنتج هوميروس أن الجزيرة كانت حين زار منيلايوس مصر، أكثر بعداً عن اليابسة مما هي عليه في زمنه هو، وقد ضاعف المسافة أضعافاً لكي يضفي على قصته طابعاً أسطورياً. وغنيّ عن البيان القول، إن القصص الأسطورية ليست علامة من علامات الجهل، ينسحب هذا حتّى على حكايات بروتييوس والبجم، والتأثير الجبّار للعقاقير السحرية، أو سوى ذلك مما يختلقه الشعراء؛ فهؤلاء لا ينقلون مثل هذه الحكايات لأنهم لا يعرفون الجغرافيا، بل ينقلونها بغرض تحقيق المتعة للمستمع. فكيف إذن يقول هوميروس، إن في الجزيرة ماء، بينما الجزيرة خالية منه تماماً:

المرسى الثقة هناك يقع؛ الذي منه تخرج
إلى البحر السفن، التي تختزنها المياه الداكنة.

(*الأوذيسا* IV، 358)

أولاً، لا يمكن أن ننفي إمكانية أن تكون ينابيع المياه قد نضبت، وثانياً، لا يقول هوميروس، إنهم كانوا يأخذون الماء من الجزيرة، بل ما قال، هو أن السفن كانت تنطلق مبحرة من هناك، لأنّ المرسى كان ملائماً؛ أمّا الماء فقد كان يمكن استقاؤه من الضّفّة المقابلة، وقد ألمح الشّاعر إلى هذا عندما لم يستخدم تعبير في

«عرض البحر» بمعناه الحرفي لدى حديثه عن فاروس، بل بمعنى المبالغة وبأسلوب القصة الأسطورية.

31- ثمّ، بما أنه من الواضح أن قصة هوميروس عن ترحال منيلايوس تشي بدورها بالجهل بهذه البلدان، لذلك قد يكون من الأفضل أن نستبق الأمر ونعرض المسائل الإشكالية التي تطرحها هذه الأبيات، ثمّ بعد أن نجزئ هذه المسائل، ندخل بوضوح أكثر، ميدان الدفاع عن الشاعر. يقول منيلايوس لتيليماخوس الذي بهرته فخامة قصره:

... ما عانيته لم يكن قليلاً، وطوّفت كثيراً، وحملت من
الخيرات في السفن كثيراً، ثمّ عدت إلى موطني في العام الثامن
رأيت قبرص، وزرت فينيقيا، بلغت مصر، وأوغلت
إلى السود الإثيوبيين، حللت ضيفاً على الصيدونين،
والإيريمبيين، وكنت في ليبيا...

(*الأوذيسا* IV، 81)

والسؤال المطروح الآن، إلى أيّ الإثيوبيين جاء، إذ أبحر من مصر (فليس ثمّة إثيوبيون يعيشون على سواحل البحر المتوسّط، ومن المستحيل أن تعبر السفن عوائق نهر النيل). ومن هم هؤلاء الصيدونيون (فمن الواضح أن هؤلاء ليسوا أولئك الذين يعيشون في فينيقيا، لأنه لا يمكن للشاعر أن يضع النوع أولاً والجنس ثانياً)؟ ثمّ من هم هؤلاء الإيريمبيون[51] (فهو اسم جديد)؟ لقد أورد أريستونيك وهو لغوي معاصر لنا، رؤى كثير من المؤلّفين عن كلّ سؤال من هذه الأسئلة، في مؤلّفه «تطواف منيلايوس»[52]؛ لكنّني سأكتفي بالحديث عن هذا بإيجاز. فبعضهم إذ يزعم أن منيلايوس أبحر إلى إثيوبيا، يفترض أن إبحاره كان على امتداد السواحل عبر غاديرا وصولاً إلى الهند، ويزامنون الرحلة مع الفترة الزمنية التي يتحدّث عنها هوميروس: «... ثمّ عدت إلى موطني في العام الثامن» (الأوذيسا IV، 82)؛ ويفترض آخرون أنه أبحر عبر العنق الممتدّة في منخفض الخليج العربي، ويرى فريق ثالث أنه اجتاز واحدة من قنوات النيل. أولاً، ليست فرضية كراتيت القائلة بالإبحار على طول السواحل ضرورية، لا لأنها كانت غير ممكنة أصلاً (ففي مثل هذه الحالة كان ترحال أوديسيوس نفسه غير ممكن)، إنّما لأنها لا تتوافق مع فرضيات كراتيت الرياضية، ولا مع الزمن اللازم للرحلة. فصعوبات الإبحار نفسه أعاقت منيلايوس رغماً عنه (لقد قال هو نفسه، إنه لم يتبق معه من السفن الستين سوى خمس سفن)، كما كان يتوقف بين الحين والآخر بقصد الكسب. فنسطور يقول، إن منيلايوس:

وصـل، وجمـع ثروات بقدر ما حملت سفنه.

(الأوذيسا III، 301)

ورأى قبرص، وزار فينيقيا، ووصل حتّى مصر.

(الأوذيسا IV، 83)

لقد كان يمكن أن تعدّ الرحلة عبر العنق أو عبر واحدة من القنوات (لو ذكرها هوميروس)، مجرّد اختلاق، ولكن بما أن الشّاعر لا يشير إلى الرحلة أصلاً، فإنه يغدو من العبث والسخف أن نفترض وجودها. وأنا أرى أن هذه الرحلة رحلة سخيفة غبية، لأنه لم يكن ثمّة وجود لأي قنوات قبل حرب طروادا. وسيسوستريس الذي يروى أنه حاول أن يحفر قناة[53]، عزف عن هذا المشروع، لأنه ظنّ أن مستوى البحر المتوسّط مرتفع جداً. ومن البدهي أن العنق كانت عصيّة على عبور السفن، وزعم إيراتوسفين غير صحيح. فبحسب رأيه أن اليابسة عند أعمدة هرقل[54]، لم تكن قد انشقّت بعد، ولذلك فإن البحر المتوسّط الذي كان مستوى ارتفاعه أعلى، اتصل بالبحر الخارجي عند العنق وغمرها، ولكن بعد أن حصل الانفلاق عند أعمدة هرقل، انخفض مستوى ارتفاع البحر المتوسّط فبرزت اليابسة عند كاسيس وبيلوسيس وصولاً إلى البحر الأحمر. ولكن أين الشاهد التاريخي الذي يقول، إن انفلاق اليابسة عند أعمدة هرقل لم يكن قد حصل قبل حرب طروادا؟ قد يكون الشّاعر صوّر أوديسيوس مبحراً عبر مضيق أعمدة هرقل إلى المحيط (وكأنّ انفلاق اليابسة قد حصل)، ثمّ أرسل في الوقت نفسه منيلايوس على متن سفينة من مصر إلى البحر الأحمر (كما لو أن القناة لم تكن قد وجدت بعد)؟ ولكنّ هوميروس أخرج بروتيوس الذي خاطب منيلايوس قائلاً:

سوف يرسلك الآلهة إلى منتهى الأرض

إلى حقول الإيليزيه

(الأوذيسا IV، 563)

فأي «منتهى الأرض» هذا؟ إنه قصد بكلمة «منتهى» منطقة ما تقع في الجهة الغربية من العالم، وهذا ما يشير إليه ورود اسم زفيروس:

حيث تهبّ زفيروس اللطيفة الصاخبة، من المحيط

... مرسلاً إلى هناك.

(الأوذيسا IV، 567)

بيد أن هذه النظرية مليئة كلّها غموضاً.

32- وعليه، إذا كان الشّاعر قد سمع أن العنق كانت في زمن ما مغمورة،

أليس حري بنا أن نأخذ هذا أساساً لقبول تنويه هوميروس إلى أن مثل هذا الخليج الكبير قد فصل فعلاً بين الإثيوبيين و«قسمهم إلى فريقين». وأيّ كنوز كان يمكن أن ينالها منيلايوس من الإثيوبيين الذين يقيمون في تلك الأصقاع النائية على سواحل المحيط؟ ففي الوقت الذي دهش فيه تيليماخ ومرافقوه لفخامة القصر، دهشوا أيضاً لكثرة موجوداته:

كلّ شيء يبرق ذهباً، فضّة، كهرماناً، عاجاً.

(*الأوذيسا* IV، 73)

ولكن، ما عدا العاج ليس لدى هذه الشعوب أي وفرة من الأشياء الثمينة الأخرى، فأكثرهم من أفقر الشعوب، عدّاك عن أنهم بدو رحل. «وهذا ما يعارضونه، بحق، ولكن يضاف إلى هؤلاء أيضاً العربية والبلدان الأخرى وصولاً إلى الهند. ومن هذه البلدان فإن العربية وحدها تدعى «السعيدة»[55]، وثمّة حكايات عن الهند وتصوّرات تجعل منها البلاد الأكثر سعادة، مع أنهم لا يدعونها بهذا الاسم. ولكنّ هوميروس لم يعرف أيّ شيء عن الهند (وإلاّ كان ذكرها)؛ أمّا العربية التي يدعونها اليوم «سعيدة»، فقد كانت معروفة لديه. بيد أنها لم تكن في زمن هوميروس تتميّز بالثراء، بل على الضدّ من هذا، إذ كانت البلاد نفسها فقيرة، لأنّ أكثر سكّانها كانوا يعيشون في أكواخ. أمّا ذلك الشطر من العربية الذي ينتج العطور، فهو شطر صغير جدّاً؛ وهذا الشطر الصغير هو الذي منح البلاد اسم «السعيدة»، لأنّ مثل هذه السلع نادر وغال الثمن في الشطر الذي نعيش فيه نحن من العالم. ولا شك في أن العرب لديهم الآن كفاية، بل أغنياء بفضل حركة التجارة الواسعة التي لا تتوقف، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك في زمن هوميروس. وفيما يتعلّق بتجارة العطور، فإن مالك القوافل أو التاجر الذي يتاجر بها، يستطيع أن يجمع ثروة؛ أمّا منيلايوس فقد كان يحتاج غنيمة أو عطاءات ملوك وحكّام قادرين، وراغبين في أن يقدّموا له الهدايا إكراماً لمنشئه النبيل وإجلالاً لمجده الذائع. ومع ذلك، لم يكن المصريون وجيرانهم الإثيوبيون والعرب يعدمون وسائل العيش كاملة، كما هي حال الإثيوبيين الآخرين، وقد وصل إليهم صيت أمجاد الأتريوسيين، خاصة بعد النهاية الظافرة لحرب طروادا. ولذلك كان يمكن لمنيلايوس أن يستخلص منفعة من وجوده بين ظهرانيهم. قارن على سبيل المثال، ما قاله هوميروس عن درع آغاممنون:

الذي أهداه كينيراس له يوماً ما، إذ ضاف عنده،
لأن النبأ العظيم كان قد بلغ قبرص...

(*الإلياذا* XI، 20)

وإضـافة إلى ذلـك يجـب القـول، إن منيـلايـوس صـرف جـلّ وقتـه مبحـراً في محيط فينيقيا، سوريا، مصر، ليبيا، وموضع ما على مقربة من قبرص، بل على طول سواحل البحر المتوسّط وبين الجزر. فقد كان منيلايوس يستطيع أن يحصل من هذه الشعوب، خاصة حلفاء الطرواديين، على هدايا للضيوف، عنوة وعن طريق الغزو. أمّا البرابرة الذين كانوا يقطنون خارج حدود هذه البلدان، فلم يكن أيّ منهم يوحي لمنيلايوس بمثل هذه الآمال، ويقول هوميروس، إن منيلايوس «وصل» إلى إثيوبيا، لكنه قصد بذلك، أن منيلايوس لم يصل إلى هناك فعلاً، إنّما بلغ حدود البلاد عند مصر. فربّما كانت الحدود عندئذٍ أقرب إلى طيبة (مع أنها تقع الآن أيضاً على مقربة)، وأنا أقصد هنا الحدود عند سيينا وفيلا. وتقع الأولى من هاتين المدينتين في مصر، أمّا فيلا فيقطنها إثيوبيون ومصريون. وعليه فإنه ليس ثمّة ما يمنع من أن يكون منيلايوس قد وصل فيلا، وبلغ مشارف المنطقة الحدودية الإثيوبية أو توغل إلى أبعد من ذلك، خاصة أنه حظي بضيافة ملك طيبة[57]. وبالمعنى نفسه يقول أوديسيوس، إنه «وصل» بلاد السيكلوب، مع أنه عبر من البحر إلى الكهف فقط؛ فهو يقول: إنه «ربّما كان الكهف يقع على أطراف»[58] البلاد. ويقول عن بلاد إيلويس، وبلاد الليستريغونيين وسوى ذلك من البلدان التي لم يرم فيها مرساته، إنه «وصل» إلى بلاد كذا... ولذلك، بالمغزى نفسه [ينبغي فهم] «وصول» منيلايوس إلى إثيوبيا[59]، وكذلك إلى ليبيا، أي أنه توقف عند بعض المواقع الساحلية. ولذلك يدعى المرسى الذي في أردانيدس والواقع إلى الأعلى من باريتون، مرسى منيلايوس.

33- وإذا كان هوميروس يذكر في حديثه عن الفينيقيين، الصيدونيين الذين يعيشون في عاصمة الفينيقيين، فإنه يستخدم المجازية المعتادة، مثلاً.

دنا [زيوس] والطرواديون وهكتور من معسكر الآخيين،
[وتركهم] عند السفن...

(الإلياذا XIII، 1)

و

لم يبق بعد في الدنيا أبناء يحملون عبء القتال عن إينياس،
وهو نفسه كان قد مات، ومات ملياغر الأجعد الشعر الوضاء،

(الإلياذا II، 641)

و

بلغ إيدا وغار غارا؛

(الإلياذا VIII، 47)

لكنّ شعوب إيبيا... ودخان أريتريا وخلكيدا؛

(الإلياذا II، 536)

وتقول سابفو:

أو تستبقيك قبرص أو بافوس،المرسى الملائم.

(مقطع 6)

ولكن يبدو أنه كان لدى هوميروس أساس مغاير دفعه (على الرغم من أنه كان قد ذكر فينيقيا)، لأن يكرر عن سابق قصد، ذكر فينيقيا، أي أن يضيف صيدون إلى اللائحة. لأنه لتعداد الشعوب بالترتيب، كان يكفي تماماً أن يقول:

وأوغلت إلى السود الإثيوبيين

(الأوذيسا IV، 83)

فلكي يبرز مكوث منيلايوس لدى الصيدونيين، كان ينبغي على هوميروس أن يعيد رواية قصته، أن يضيف إليها شيئاً ما. ويلمّح هوميروس إلى أن إقامة منيلايوس هذه، كانت مديدة أكثر، ومدح خبرة الصيدونيين في الحرفة وأثنى على كرم الضيافة الذي استقبلوا به قبل ذلك يلينا وألكسندر. ولذلك يتحدّث الشّاعر عن وفرة المصنوعات الصيدونية الموجودة في قصر ألكسندر:

لقد بقيت هناك عندها أردية بهية مزركشة
صنعتها النسوة الصيدونيات، حملها
ألكسندر شبيه الإله بنفسه من صيدون...
وبالطريق نفسها حمل يلينا النبيلة...

(الإلياذا VI، 289)

كما [كان ثمّة كنوز] في قصر منيلايوس، يقول منيلايوس لتيليماخ:

أعطيك الكأس الاحتفالية البهية، إنها كأس
من الفضّة كلّها، لكنّ حوافّها ذهبية من صنع
الإله هيفستوس؛ أهدانيها فيديم النبيل،
ملك الصيدونيين، عندما كنت عائداً إلى موطني،
وحللت ضيفاً عليه في بيته..

(الأوذيسا IV، 615، 115)

وينبغي أن نفهم قول هوميروس هنا: «من صنع الإله هيفستوس» على محمل المبالغة، تماماً كما يقولون عن الأشياء الجميلة أنها «من صنع أثينا»، أو الكاريتيس،

أو الميـوزات. فهـوميروس عنـدما أثنـى علـى الكـأس الـتي قـدّمت إلى إيفنيـوس فديـة ليكاون، أشار بوضوح إلى أن الصيدونيين كانوا فنانين مهرة.

جمالها الساحر شاع في المسكونة كلّها،

كؤوس شهيرة، عمل أنيق أبدعه الصيدونيون المهرة،

رجالها الفينيقيون... حملوها ليبيعوها.

(*الإلياذا* XXIII، 742)

34- لقد طرحت آراء كثيرة بصدد الإيريمبيين؛ وعلى الأغلب أن الذين رأوا أن هوميروس يقصد هنا العرب، هم على صواب. بل لقد كتب زينون[60] في هذا السياق مصححاً النصّ:

لقد أوغلت إلى الإثيوبيين السود، حللت ضيفاً على

الصيدونيين، والعرب...

(*الأوذيسا* IV، 84)

بيد أنه ليست هناك ضرورة لإدخال تغيير على النصّ، لأنّ قراءته قديمة جدّاً. فالإقرار بأن سبب الصعوبة هو تغيير اسم الشعب (إذ غالباً ما نلقى مثل هذا التغيير لدى الشعوب كلّها)، أفضل من أن نغيّر قراءة النص (وهذا ما يفعله بعضهم إذ يصحّحون النصّ على حساب تغيير بعض الأحرف). لكنّنا نرى أن رؤية بوسيدونيوس[61]، هي الرؤية الأفضل بين الرؤى الأخرى، لأنه يخرج اشتقاق الكلمات هنا أيضاً، من صلة النسب بين الشعوب، ومن السمات المشتركة بينها. فالأرمن، والسريان، والعرب يكشفون عن صلة نسب وثيقة، لا في ميدان اللغة فقط، بل في نمط العيش، وتشابه البنية الجسدية أيضاً، خاصة لأنهم يسكنون متجاورين تجاوراً مباشراً. وبلاد ما بين النهرين، حيث تقطن هذه الشعوب الثلاثة، تؤكّد على صحّة هذا، فالتشابه بين هذه الشعوب ملحوظ بوجه خاص. وإذا كان ثمّة تباين هنا بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب، تبعاً لدوائر الطول، أكبر بعض الشيء مما بين هذين الشعبين والسريان الذين يشغلون مكاناً متوسّطاً، إلاّ أن السمات المشتركة بين الشعوب المذكورة، هي الغالبة مع ذلك. ويظهر الآشوريون، والآريان، والآراميون بعض التشابه مع الشعوب المذكورة، وبين بعضهم بعض. وفي واقع الحال، يفترض بوسيدونيوس، أنّ بين أسماء هذه الشعوب صلة نسب، فيقول، إن تلك الشعوب التي ندعوها نحن شعوباً سوريّة، تدعى باللغة السريانية، آريميّة وآراميّة؛ ويوجد تشابه بين اسم هذا الشعب الأخير واسم الأرمن والعرب، والإيريمب، لأنّ الإغريق القدماء ربّما يكونون قد دعوا العرب بهذا الاسم،

خاصة وأن علم اشتقاق الكلمات يؤكّد صحّة هذه الفرضية. وحقيقة الأمر أن أكثر العلماء يشتقّ اسم الإيريمبيين من eran embainein؛[62] ولكي يغدو هذا الاسم أكثر وضوحاً غيّره الناس بعد ذلك، إلى اسم آخر، هو «التروغلوديتيون»[63]. وهؤلاء هم قبيلة عربية تقطن على الجانب الآخر من الخليج العربي على مقربة من مصر وإثيوبيا. ثمّ يواصل بوسيدونيوس قائلاً، إنه كان من الطبيعي أن يذكر الشّاعر هؤلاء الإيريمبيين، إذ قال، إن منيلايوس «نزل» عندهم، قاصداً بهذا، المغزى عينه إذ قال، إن منيلايوس «وصل» إلى الإثيوبيين (فهم يقطنون على مقربة من منطقة طيبة). وعلى أي حال، لم يؤت على ذكر هؤلاء في سياق نوع نشاطهم أو المنفعة التي حقّقها منيلايوس منهم (فلم يكن لهذه المنفعة أن تكون كبيرة)، إنّما بسبب طول مدة المكوث [عندهم] والمجد الذي تأتّى عن ذلك. فمثل هذه الرحلة البعيدة حملت المجد بحدّ ذاتها. وهذا ما يقول به البيت الآتي:

زار كثيراً من الناس والمدن، ورأى عادات؛

(*الأوذيسا* I، 3)

و

... ما عانيته لم يكن قليلاً، وطوّفت كثيراً، وحملت
من الخيرات كثيراً...

(*الأوذيسا* IV، 81)

أمّا هسيود فيقول في «فهرسه»[64]:
وابنة العربي، ابن الوديع هرماأون وفرونيا،
ولديّ الرب بل.

[*مقطع* 23 (45)]

ويقول ستيسيخور الشيء نفسه. وعليه فإنه يمكننا أن نفترض أن هذه البلاد كانت تدعى العربية، في زمن هسيود وستيسيخور، نسبة إلى هذا العربي، مع أنها في الزمن البطولي قد لا تكون حملت هذا الاسم بعد.

35- إن الكتّاب الذين يختلقون شعباً ما خاصاً، إثيوبياً إيريمبياً، أو كيفينياً يشكّل شعباً آخر، أو شعباً من البجم يشكّل ثالثاً وكثرة أخرى، هؤلاء لا يستحقّون كثيراً من الثقة، لأنه عدّاك عن غرابة مثل هذا التفسير، يظهر لديهم إضافة إلى ذلك ميل للخلط بين الأسطورة والتاريخ. ومثل هؤلاء كتّاب آخرون يتحدّثون عن صيدونيين في الخليج الفارسي أو في مكان ما في المحيط أو ينقلون ميدان ترحال منيلايوس إلى

عـرض المحـيط، وعلـى النحـو عينـه يوضّـعون الفينيقـيين بعيـداً ـ في المحـيط. كمـا يمثـل تناقض بعضهم مع بعض أساساً مهمّاً للريبة وعدم الثقة بما يطرحون. حتّى بعضـهم يـزعم أن صـيدونيينا هـؤلاء هـم مـن المسـتعمرين الفينيقـيين ـ في المحـيط، ويضـيفون أن سـبب تسميتهم فينيقيين[65]، هو اللون الأحمر للخليج الفارسـي؛ ويـرى آخـرون أن الصـيدونيين ـ في المحيط، هـم مسـتعمرون مـن فينيقيتنـا. بـل هنـاك بعـض الكـتّاب الـذين ينقلـون حتّـى إثيوبيا إلى فينيقيتنا، زاعمين أن المغامرات الميثولوجية الـتي قامـت بهـا أندروميـدا، دارت أحداثها ـ في يوبا، مع أنهم لا يتحدّثون عـن هـذا بسـبب عـدم معـرفتهم بالمكـان[66] (الـذي وقعت فيه هذه المغامرات)، بل على الأغلب، لأنّ القصة تدور ـ في صيغة ميثولوجيـة. وهـذا نفسـه ينسـحب علـى قصـص مـن هسـيود وسـواه مـن الشـعراء الآخـرين الـذين أتـى علـى ذكـرهم ديـودوروس، ولـيس لديـه حتّـى مجـرّد تصـوّر عـن كيفيـة التوفيـق بينهـا وبـين معطيـات هـوميروس. فـأبوللودوروس يقـارن بـين هـذه القصـص وأخبـار هـوميروس عـن البونتس ومصـر، فيتهم الشّـاعر بالجهـل، علـى أسـاس أنـه راغـب ـ في أن يقـول الحقيقـة، لكنّه لم يفعل، إلا أنه بسبب جهله عدّ الحقيقة بطلاناً. بيد أن أحداً لا يسـتطيع أن يـتهم هسيود بعدم المعرفة عنـدما يتحـدّث عـن «أنصـاف كـلاب - أنصـاف بشـر»، وعـن «بشـر رؤوسـهم طويلـة»، وعـن «البـجم»؛ وكـذلك ينبغـي ألاّ يـتهم هـوميروس نفسـه بالجهـل لأنـه يسـوق مثـل هـذه القصـص الخرافيـة (وإلى هـذه الأخيرة تنتمـي قصـته عـن البـجم)؛ كمـا ينبغي ألاّ يتهم ألكمان أيضاً بسبب قصصه عن «البشـر الـذين لهـم أغشـية علـى أرجلـهم»؛ أو ايسخيليوس بسبب قصصه عن «البشر الذين لهم روؤس كـلاب»، و«البشـر الـذين لهـم عيون على الصدر»، وآخرون لهم «عـين واحـدة»[67]. لأننـا لا نـولي كـبير اهتمـام لكـتّاب النثـر الـذين يكتبـون عـن موضـوعات كـثيرة ـ في صـيغة ميثولوجيـة، حتّـى لـو لم يكـن يعترف لهم بأنهم يعملون ـ في ميدان الأساطير. فيتّضح مباشـرة عنـدما يشـبكون الأسـاطير (ـ في نصوصهم) عن سابق قصـد، لا لأنهم لا يعرفون الحقائق، بل يختلقون الغرائب بهدف إشباع الميل إلى الإعجاز وتحقيق الإمتاع للمستمع. وينشـأ ـ في غضـون ذلـك انطبـاع بـأن مـا يحـدث إنّمـا يحـدث بسـبب عـدم المعرفـة، لأنّ هـؤلاء الكـتّاب عنـدما يختلقـون مثـل هـذه الحكايات الخرافية عن الأشياء، إنّما يختلقونهـا بشـيء مـن المعقوليـة. فثيوبومبـوس يقـرّ صـراحة بأنـه سـوف يسـوق أسـاطير ـ في تاريخـه، وهـذه طريقـة ـ في العـرض التـاريخي أفضـل مما لدى هوميروس، وكتيسيوس، وغالانيكـوس، والمؤلّفين الذين وصفوا الهند[68].

36- ويجـري الحـديث عـن ظـاهرات المحيط عنـد هـوميروس بصـيغة الأسـطورة، لأنّ أسـلوب العـرض هـذا كـان ينبغـي أن يكـون هـو غـرض الشـاعر. فمـن ظـاهرة المـدّ

والجـزر في المحيط، استقى هـوميروس أسـطورة هاريبـدس، مـع أن هاريبـدس نفسـها لم تكن اختلاقاً كاملاً من عند الشاعر، إلاّ أن شخصيتها قدّمت بما يتوافق وحكايات مضيق صقليا. وإذا كان هوميروس يؤكّد أن المدّ والجزر يحصلان ثلاث مرّات في اليوم الواحد (مع أن هذا لا يحصل سوى مرتين)، بقوله:

... هاريبـدس

ثلاث مرّات في اليوم تبتلع وثلاث مرات تقذف

المياه السوداء.

(*الأوذيسا* XII، 105)

فإنه كان بإمكانه أن يعبّر على هذا النحو أيضاً؛ ونحن يجب ألاّ نظنّ أنه قال ما قاله لأنـه لا يعـرف الواقعـة، بـل لكـي يولّـد انطباعـاً تراجيـدياً ويـثير الفـزع: تـثير كيركـا بكلامها فزعاً شديداً لدى أوديسيوس، كي ترغمه على أن يرجع عن مقصده، ولـذلك خلطت الحقيقة بالكذب. وعلى أي حال فإن كيركا ألقت أبيات الشعر عينها على النحو الآتي.

... هاريبـدس

ثلاث مرّات في اليوم تبتلع وثلاث مرّات تقـذف

الميـاه السـوداء. لا تجـرؤ وتقـترب حينمـا تبتلـع.

فبوسيدون نفسه لن ينقذك عندئذٍ من الهلاك.

(*الأوذيسا* XII، 105)

لكـنّ أوديسـيوس ألفـى نفسـه هنـاك لحظـة الابـتلاع، وكمـا قـال هـو، فإنـه لم يهلك.

وفي هذه الومضة أرغت لجة المياه المالحة؛

فأمسكت بشجرة التين النابتة هناك، ونجوت

تعلّقت بأغصانها كالخفاش ...

(*الأوذيسا* XII، 431)

ثمّ ترقب كسرات السفن إلى أن ظهرت في المكان، فتمسّك بها مرّة أخرى ونجا. وعلى هـذا النحـو فـإن مـا قالتـه كيركـا لم يكـن صحيحاً. وبمـا أنهـا كـذبت في المـرّة الأولى، فقـد كـذبت في الأخـرى أيضـاً: «ثـلاث مـرات في اليـوم تبتلـع» بـدلاً مـن «مـرّتين». ولكن هذا النـوع مـن المبالغـات شـائع الاسـتخدام، فنحـن نقـول مـثلاً، «المثلـث الغبطـة»، و«المثلث الشؤم». والشّاعر يقول:



دانائي السعيد ثلاثة أضعاف

(الأوذيسا VII، 306)

ويقول:

حلواً، مرغوباً ثلاثاً

(الإلياذا VIII، 488)

أو:

في ثلاث أو أربع قطع.

(الإلياذا III، 363)

ولعلّنا نستطيع أن نستنتج كذلك على أساس ما مضى من وقت، أن هوميروس قد ألمح بطريقة ما إلى الحقيقة، فواقعة بقاء حطام السفن طويلاً تحت الماء، ولم تقذف إلى أوديسيوس إلاّ بعد تأخير، بينما كان هو ينتظرها بفارغ الصبر، متمسكاً طول هذا الوقت بأغصان الشجرة، هذه الواقعة تتوافق أكثر مع فرضية حدوث المدّ والجزر مرّتين، أكثر من توافقها مع حصولهما ثلاث مرّات في المقطعين الزمنيين (أي نهاراً وليلاً):

هكذا انتظرت وأنا معلّقاً هناك من غير حركة، كي تحمل الأمواج بالصاري والسطح من اللجة، وبغمّ ليس له مثيل، انتظرت طويلاً - وقرب الساعة التي يمضي فيها القاضي منهكاً مساء من الميدان إلى بيته، بعد أن يكون قد قضى بدعوى الفتى، - طفت فجأة من هاريبدس العوارض المبتغاة.

(الأوذيسا XII، 437)

إن هذا كلّه يخلق انطباعاً بأن فاصلاً زمنياً طويلاً قد مضى وأن الشّاعر يحاول أن يجعل وقت المساء أطول، فهو لم يقل: «في الساعة التي ينهض فيها القاضي بعد الجلسة» على وجه العموم، إنّما أضاف «في الساعة التي ينهي فيها جملة من الدعاوى»، بالتالي فإن القاضي قد تأخر بعض الشيء. والاعتبار الآخر: وسيلة النجاة التي اقترحها الشّاعر على أوديسيوس الذي وقع فريسة كارثة بحرية، كانت ستكون غريبة لو لم يقذف المدّ البطل في كلّ مرّة مسافة إلى الخلف، قبل أن يتسنّى للجزر أن يحمله إلى مسافة بعيدة.

37- وبما يتوافق مع إيراتوسفين ومدرسته، كذلك ينتقد أبوللودوروس كاليماخ لأنّ هذا الأخير- وهو عالم لغوي- يرى أن غاود[69] وكوركيرا هما المكانان

اللذان طاف فيهما أوديسيوس. إن رؤية كاليماخ هذه تتعارض مع المقصد الأساس لهرميروس، وهو نقل أماكن ترحال أوديسيوس التي ذكرها، إلى المحيط. ولكن إذا لم يكن هذا لترحال قد حدث أصلاً، وأن هذا كلّه ليس سوى اختلاق جاء به هوميروس، عندئذٍ سيكون أبوللودوروس محقّاً في انتقاده؛ أمّا إذا كان الترحال قد حصل، ولكن في أماكن أخرى، فينبغي على أبوللودوروس أن يقول لنا في الحال، في أيّ أماكن، ويصحح بذلك خطأ كاليماخ. ولكنّ القصة على وجه العموم لا يمكن أن تكون مختلقة كلّها (كما أشرت من قبل)[70]، ولكن بما أنه يتعذر ذكر أسماء أيّ مواقع أخرى يمكن الركون إليها، فإنه ينبغي إعفاء كاليماخ من هذه التهمة.

38- وليس ديميتري السكيبسيسي غير محقّ في هذه المسألة وحسب، بل كان رأيه سبباً لبعض الأخطاء التي ارتكبها أبوللودوروس، لأنّ ديميتري رفض بحماس رأي نيانتس الكيزيكي الذي قال، إن الآرغونيين أقاموا وهم في طريقهم إلى فاسيس (وقد أجاز هذا الإبحار هوميروس والكتّاب الآخرون)، مذبحاً للأمّ الإيدية[71]، على مقربة من كيزيك، وقال، إن هوميروس لم يكن على علم البتّة برحلة ياسون إلى فاسيس. وهذا الزعم لا يناقض ما قاله هوميروس وحسب، بل يخالف ما قاله ديميتري نفسه؛ فديميتري يقول، إن أخيلليس نهب ليسبوس والأماكن الأخرى، إلاّ أنه عفا عن ليمنوس والجزر المجاورة احتراماً لرابطة النسب بينه وبين ياسون وابنه إيفينوس الذي كان يحكم جزيرة ليمنوس عندئذٍ. فكيف إذن يمكن أن يكون الشاعر، وهو يعرف أن أخيلليس وياسون قريبان، من أرض واحدة، أو جاران، أو أي صديقين كانا (وليس لهذه القرابة من تعليل سوى أنهما تساليان- أحدهما من يولك والآخر من ثتيوتيدا الآخية) ومع ذلك لم يعرف كيف خطر لياسون التسالي، مواطن يولك، ألاّ يستبقي في وطنه وريثاً، لكنّه يجعل ابنه حاكماً على ليمنوس. لقد كان هوميروس يعرف بلياس وبنات بلياس والأكثر نبلاً منهن - ألكيستا وابنها:

... وقادهم إيفميوس
بن أدميتوس، المحبوب، الذي أنجبه من ألكيستا،
زوجته الرائعة، الأكثر سحراً بين بنات بلياس.

(*الإلياذا* II، 714)

وهل يعقل ألاّ يكون قد سمع عن مغامرات ياسون، وعن الآرغو والآرغونيين (وهذه حقائق يقرّ بها جميعهم)، بل اختلق قصة الإبحار من بلاد إيتوس إلى المحيط من غير أيّ أساس تاريخي لقصته هذه؟

39- وكما يتّفق جميعهم، فإنّ ابتداء الإبحار إلى فاسيس بأمر من بلياس، ثمّ العودة واحتلال الجزر (مهما كان أمد العملية طويلاً) في أثناء الإبحار على طول الشواطئ، ينطوي على عنصر ما من المعقولية. وأنا أزعم أن إبحار ياسون إلى مسافات أبعد (مثله مثل إبحار أوديسيوس ومنيلايوس)، هو أمر معقول إلى حدّ ما، وهذا ما يؤكّده وجود آثار تستحق الثقة، لا تزال قائمة حتّى يومنا هذا، كما تؤكّده أيضاً كلمات هوميروس. فعلى مقربة من فاسيس يرونك مدينة إيبيا، ويقرّ جميعهم بحقيقة أن إيتوس ملك في كولهيدا، أمّا اسم إيتوس[72]، فهو من الأسماء الشائعة لدى سكّان تلك البلاد. عدّاك عن هذا أن الساحرة ميدييا تعدّ شخصية تاريخية، وثروات البلاد المحلّية التي تتألّف من مناجم ذهب، وفضّة، وحديد، ونحاس توحي بالدافع الرئيس للحملة، وهذا ما دفع فريكس إلى أن يمضي في حملة إلى هناك قبل ذلك. وعلاوة عى ذلك كلّه فإنّ آثار الحملتين موجودة هناك: معبد فريكس[73] الذي يقع على الحدود بين كولهيدا وإيبيريا، ومعبد ياسون الذي يرونه لك في كثير من أنحاء أرمينيا وميديا والبلدان المجاورة لهما. وإضافة إلى هذا يقولون، إنه ثمّة قرائن كثيرة لحملة ياسون وفريكس في منقطة سينوبس والسواحل المجاورة، وفي محيط بروبونتيدا واللهلسبونت، وصولاً إلى كريت، وإيطاليا، والبحر الأدرياتيكي، وقد أشار كاليماخ إلى بعض هذه الآثار:

رأيت إيغليتوس[74]، أناثا، المجاورة لثيرا اللاكونية،

وفي المرثاة التي مطلعها:

أنا أتغنّى، كيف أبحر الأبطال من مملكة إيتوس الكينتي،
عائدين إلى هيمونيا القديمة

ويتحدّث كاليماخ عن الكولهيين في مكان آخر فيقول:

وعند البحر الإيلليري وضعوا المجاديف،
حيث يستلقي حجر قبر هارمونيوس الأجعد الشعر
هناك أسّسوا مدينة صغيرة، وهي ما كان سيدعوه
الإغريقي «مدينة المنفيين»، واسمها بلغتهم بولا.

ويزعم بعضهم أن ياسون ومرافقيه صعدوا مع نهر إيستر إلى مسافة طويلة؛ ولكنّ آخرين يقولون، إنهم وصلوا البحر الأدرياتيكي. وقد قال هؤلاء الأوّلون ما قالوه عن غير معرفتهم بالأماكن، وبحسب زعم الأخيرين، أن نهر إيستر يخرج من الإيستر الأكبر ويصبّ في البحر الأدرياتيكي، وعلى أيّ حال ليس في أقوالهم ما هو غريب وغير ممكن.

40- وعلى هذا النحو يكون هوميروس باستخدامه هذا النوع من المعلومات، قد ساق قصته بما يتوافق والمعطيات التاريخية، إلاّ أنه أضاف العنصر الأسطوري إلى هذا، وقد التزم في ذلك تقليداً مشتركاً بين الشعراء كلّهم، كما اتبع تقليده هو نفسه. فعرضه الذي قدّمه جاء متوافقاً مع الأخبار التاريخية، عندما يذكر إيتوس، يتحدّث عن ياسون والآرغو، وعندما يختلق إيبيا إلى جانب إيوس ويوضّع إيفينوس في ليمنوس، واصفاً هذه الجزيرة العزيزة إلى قلب أخيلليس، وعندما يصنع لميدييا شبيهة، هي الساحرة كيركا

... الإلهة، شقيقة إيتوس صانع المكائد

(*الأوذيسا* X، 173)

فهو ينسج العنصر الميثولوجي في القصة، إذ ينقل الترحال إلى عمق المحيط، بعد الرحلة إلى بلاد إيتوس. فنحن إذا ما قبلنا الحقائق المذكورة، عندئذٍ تصحّ أيضاً كلماته.

... آرغو التي مجّدها كلّهم

(*الأوذيسا* XII، 70)

لأنه من المفترض أن تكون أحداث الحملة قد دارت في بلدان معروفة جيّداً وفيها كثافة سكّانية ملحوظة. أمّا إذا كان الأمر على النحو الذي يزعم ديميتري السكيبسيسي معتمداً على سمعة ميمنيرموس (يوضّع ميمنيرموس مقرّ إيتوس في المحيط شرقاً، وراء حدود المسكونة، زاعماً أن بلياس أرسل ياسون إلى هناك، وقد أتاه هذا بالجزّة الذهبية من تلك البلاد)، فإن الحملة في سبيل الحصول على الجزّة الذهبية، تغدو غير معقولة (لأنها حصلت في بلدان مبهمة وغير مرئية)، هذا أولاً، وثانياً، لا يمكن ألاّ تكون الحملة التي اجتازت صحارى ومناطق غير مأهولة، وبعيدة هذا البعد كلّه عن شطر الكون الذي نعيش فيه نحن، لا يمكن ألاّ تكون حملة شهيرة «يمجّدها كلّهم». يقول ميمنيرموس:

وياسون نفسه لم يكن له أن يرجع يوماً

بالجزّة من إيبيا، قاطعاً طريقاً مليئة بالآلام.

وإذ يؤدّي لبلياس الجبّار درساً قاسياً،

لم يكن ليستطيع أن يبلغ مياه المحيط الرائعة يوماً.

ثمّ يقول:

إلى مدينة إيتوس، إلى هناك، حيث خيوط

الشمس السريعة جاءت لترتاح ليلاً في ربوعه
الذهبية، عند شواطئ المحيط، إلى حيث جاء
ياسون الإلهي.

(مقطع 10، برغك)

الفصل الثالث

1- ليس إيراتوسفين محقّاً إذ يتحدّث بالتفصيل عن أناس لا يستحقون أن يؤتى على ذكرهم، فينتقدهم في سياق ما، ويمنحهم ثقته في سياق آخر، بل يلجأ إلى سمعتهم أحياناً، كما هي حاله مع داماستوس ومن على شاكلته مثلاً. لأنه إذا كان لدى هؤلاء بذرة من حقيقة، فإنه لا ينبغي مع ذلك الاستناد إليهم أو منحهم الثقة بسبب ذلك. فمثل هذا الأسلوب يجب اتباعه حيال الذين يستحقون، الذين ساقوا كثيراً مما هو صحيح، بصرف النظر عن أنهم أسقطوا من حسابهم كثيراً من الحقائق أو عرضوها بطريقة سطحية غير معللة، إلاّ أنهم لم يسوقوا أي معلومة باطلة عن سابق معرفة ببطلانها. إن اللجوء إلى سمعة داماستوس ليس أفضل بكثير من استخدام شهادة انتيفان البيرغي أو الميسّني، وإيفجيميروس وسواهما من الكتبة الآخرين، الذين يقتبس إيراتوسفين نفسه نصوصهم لكي يسخر من ضحالة آرائهم. فقد نقل إيراتوسفين نفسه واحدة من قصص داماستوس الغبية، التي رأى فيها أن الخليج العربي بحيرة، وأن ديوتيم ابن سترومبيخوس عندما كان على رأس السفارة الأثينية صعد مع نهر كيدن من كيليكيا إلى نهر خاوسب الذي يجري على مقربة من سوزا، ووصل بعد أربعين يوماً إلى هذه الأخيرة؛ ثمّ يقول إيراتوسفين، إنّ ديوتيم نفسه روى هذا كلّه لداماستوس. ويضيف إيراتوسفين، إن داماستوس يعبّر عن دهشته، إذ كيف يمكن لنهر كيدن أن يقطع الفرات ودجلة ليصبّ في خاوسب.

2- ويمكن أن نلوم إيراتوسفين لا على مثل هذه الروايات فقط؛ فهو يزعم أن زمنه لم يعرف معلومات تفصيلية ودقيقة عن البحار، ثمّ يدعونا في الوقت نفسه إلى ألاّ نأخذ بأيّ خبر غير مؤكّد تأتي به مصادر عرضية، ويعرض بإسهاب للأسباب التي تدعو إلى عدم الثقة بأيّ من أولئك الذين يكتبون قصصاً ميثولوجية عن البلدان الواقعة على سواحل البونتس الإيفكسيني والبحر الأدرياتيكي؛ ولكنّه هو نفسه يصدّق قصص أوّل من يلقاه. فقد أخذ على سبيل المثال بالرواية التي تقول، إن خليج إيس على البحر المتوسّط، هو آخر نقطة بحرية شرقاً، بينما خليج ديوسكوريادس الواقع في

أقصى زاوية البونتس الإيفكسيني، يقع على مسافة 3000 مرحلة شرقي خليج إيس، حتّى لو أخذنا بحساب إيراتوسفين نفسه للمراحل التي يتحدّث عنها. ولدى وصفه للأطراف الشمالية والأطراف القصوى من البحر الأدرياتيكي، لم يدع إيراتوسفين أي خرافة جانباً. فقد صدّق كثرة كثيرة من القصص الخيالية التي كانت تروى عن البلدان الواقعة وراء أعمدة هرقل، وجاء في أثناء ذلك على ذكر جزيرة باسم كيرنا، كما ذكر أيضاً بلداناً أخرى لا وجود لها الآن في أيّ مكان، وسوف أتحدّث عن هذا في مكان آخر. ومع أن إيراتوسفين قال، إن الإغريق القدماء قاموا برحلاتهم البحرية بهدف النهب والتجارة، ولكن ليس في البحر، إنّما على امتداد السواحل، كما فعل ياسون مثلاً، إذ ترك سفنه وانطلق من بلاد الكولهيين في حملة وصل فيها إلى أرمينيا وميديا، لكنّه قال بعد ذلك، إنّ أحداً في الزمن القديم لم يجرؤ أن يبحر في البونتس الإيفكسيني، ولا على سواحل ليبيا، وسوريا، وكيليكيا. وإذا كان يقصد بكلمة «القدماء» أولئك الناس الذين عاشوا في الأزمنة الغابرة، فنحن لسنا نحتاج أن نتحدّث عنهم، ولا عمّا إذا كانوا قد قاموا برحلات بحرية أم لا. أمّا إذا كان إيراتوسفين يتحدّث عن الناس الذين ورد ذكرهم في الروايات الأسطورية، فإنه يمكننا القول من غير تردد، إن القدماء قاموا برحلات برّية وبحرية أبعد من تلك التي قام بها ناس الزمن الأحدث، إذا كان ينبغي أن نأخذ بالحسبان مثل هذه الروايات فقط: ديونيسيوس على سبيل المثال، وهرقل، وياسون نفسه، عدّاك عن أوديسيوس ومنيلايوس اللذين تحدّث هوميروس عنهما. وربّما كان ثيسيوس وبيريفوي قد تجاسرا بدورهما على رحلات بعيدة وخلّدا اسميهما بزعم أنهما نزلا إلى هاديس، أمّا الديوسكوري فإنهما للسبب نفسه نالا اسم «الحارسين في البحر» و«منقذيّ البحارة». زد إلى هذا أن حكاية سيطرة مينوس على البحر[1]، وشائعات رحلات الفينيقيين[2] (الذين جابوا بعد حرب طروادا بقليل، البلدان الواقعة وراء أعمدة هرقل وأسّسوا فيها مدناً، كما أسّسوا مثلها في وسط الساحل الليبي)، لاقت شهرة واسعة. أفلا ينبغي أيضاً أن نعدّ إينياس، وأنتينور، والإينيت، وكل الذين شرّدتهم حرب طروادا على وجه العموم، أناساً من الزمن القديم؟ فإغريق ذلك الزمن، ومثلهم البرابرة، فقدوا بسبب الحرب كلّ ما يملكون وما غنموه بالحرب. ولذلك لم يلجأ المنتصرون وحدهم بعد هلاّك طروادا، إلى ممارسة القرصنة البحرية بسبب الفقر، بل كان المهزومون الذين نجوا من الحرب أكثر نشاطاً في هذا الميدان. وبحسب الرواية أن هؤلاء الأخيرين أسّسوا مدناً على امتداد الساحل خارج حدود هلاّدا، وفي بعض الأماكن داخل البلاد.

3- وبعد أن يروي إلى أيّ حدّ تقدّم في معرفة المسكونة جيل ما بعد الإسكندر، وناس عصره أيضاً، ينتقل إيراتوسفين إلى مسألة شكل الأرض، لكنّه لم يرم إلى مفهوم الأرض بمعنى المسكونة (وهو ما كان أكثر ملاءمة لمؤلّفه المكرّس لهذا الموضوع)، بل قصد به الأرض ككلّ. وغنيّ عن البيان القول: إن هذه المسألة خاضعة للنقاش، ولكن في مكانها. وهكذا بعد أن قرر أن الأرض كروية الشكل (والحقيقة أنها ليست كروية كما لو أنها قدّت على مخرطة الخشّاب، إنّما فيها بعض الانحناءات على سطحها الكروي)، حمّلها كثيراً من الانحرافات المتتالية عن الشكل الصحيح نتيجة لتأثير المياه، والنار، والهزّات الأرضية، والثورات البركانية وما شابه من الأسباب الأخرى؛ وهنا أيضاً لم يلتزم إيراتوسفين بالترتيب الواجب. فالشكل الكروي الذي تتسم الأرض به ناتج على وجه العموم عن بنية الكون، وكما يشير إيراتوسفين، فإن مثل هذه التغيّرات لا تؤدّي إلى تغيير الأرض على وجه العموم (فمثل هذه التغيّرات الطفيفة في الأجسام الكبيرة لا أهمية لها)، إلاّ أنها تجرّ وراءها أكثر فأكثر حالات جديدة بالنسبة إلى المسكونة، والأسباب المباشرة التي تستدعيها، هي أسباب مختلفة.

4- وعلى حدّ ما يقوله إيراتوسفين بعد ذلك، فإنه ثمّة مسألة تتطلّب دراسة خاصة، وهي لماذا تتجمّع في كثير من الأماكن داخل القارّة وعلى بعد ألفين إلى ثلاثة آلاف مرحلة عن البحر، كمية كبيرة من الصدف ذي المصراعين، والصدف الجندفلي، الصدف ذي العرف، كما تتواجد هناك الأخوار، كما في ضواحي معبد أمون مثلاً، وعلى امتداد الطريق المؤدية إليه على طول 3000 مرحلة [3]. فثمّة في هذا المكان على حدّ قوله، ترسّبات كبيرة من الصدف الجندفلي؛ كما يمكن أن نجد هناك الآن طبقات ومجار من المياه البحرية الصاعدة إلى علوّ ملحوظ؛ وعلاوة على ذلك يرونك هناك حطام سفن بحرية انقذفت بحسب روايات السكّان المحلّيين، عبر واحد من الشقوق أو قذفتها الدلالفين التي رسموا صورها على أعمدة صغيرة حملت أيضاً نقوش إهداء من سفراء قورينا المقدّسين. وإذ يروي إيراتوسفين هذا، يسوق برضا رأي الفيزيائي ستراتون[4] وكسانثوس الليدي. وعلى حدّ قول كسانثوس، فإنّ عهد أرتاكسيراكس عرف فترة جفاف قاس إلى الحد الذي جفّت عنده الأنهار، والبحيرات، والآبار، وقد تأتّى له هو نفسه أن يرى بأم عينه في كثير من الأماكن البعيدة عن البحار- في أرمينيا، وماتينا، وفريجيا السفلى- حجارة على شكل صدفات ذات مصراعين، وصدفات ذات عرف، وآثار هذه الأخيرة، وآثار أخوار، ولذلك أطلق قناعته بأن هذه السهول كانت في يوم ما بحراً. ثمّ يستحسن إيراتوسفين رأي ستراتون الذي يقترب من دراسة الأسباب أكثر. وبحسب ستراتون، أن البونتس الإيفكسيني لم

يكن له من قبل منفذ عند بيزنطة، ولكنّ الأنهار التي تصبّ في البونتس، حفرت معبراً تـدفقت المياه عـبره إلى البروبونتيـدا والهلسـبونت. والظـاهرة نفسـها حـدثت بحسـب ستراتون، في البحـر المتوسّط. ولكـنّ المضيق عنـد أعمـدة هرقـل، قـد اجترف في هـذه الحالـة، بعـد أن امـتلأ البحـر بميـاه الأنهـار، وفي أثنـاء الجـزر كـانت المياه تغدو ضحلة. وبحسـب سـتراتون أن السـبب في هـذا يرجـع أولاً، إلى اخـتلاف المسـتوى بـين المحـيط الأطلسي والبحر المتوسّط، ثانياً، إلى أن الحوض المائي عند أعمدة هرقل لا يزال حتّى الآن يميل عرضاً من أوروبا نحو ليبيا، وهـذا مـا يشـير إلى أن البحـر المتوسّـط والمحيـط الأطلسـي لم يكونـا مـن قبـل بحـراً واحـداً. ويواصـل سـتراتون قـائلاً، إنّ بحـار حـوض البونتس قليلة العمق، بينما بحـر كريـت، وبحـر صقليا، وبحـر سـردينيا بحـار عميقـة جدّاً، ولكن بما أن الأنهار الجارية من الشمال والشرق كثيرة جدّاً، وكبيرة جدّاً، فإن بحار حوض البونتس تمتلئ بالطمي، وتبقى البحار الأخرى عميقة. وفي هذا يكمن سبب كـون ميـاه بحـر البـونتس الميـاه الأقـلّ ملوحـة، وسـبب اتجـاه تيـاره نحـو العمـق[5]. ووفـق سـتراتون، إن البـونتس كلّـه سـوف يمتلـئ لاحقـاً بـالطمي إذا مـا اسـتمرّ تـدفّق تلـك الرواسـب، بـل الآن باتـت منـاطق الجانـب الأيسـر مـن البـونتس ضـحلة، كمـا هـي حـال سـالميدس مـثلاً، والمنطقـة القريبـة مـن مصـبّ نهـر إيسـتر الـتي يـدعوها البحـارة «أثـداء»، والصـحراء السـكيثية. وقد يكـون معبد آمون أيضاً، الـذي كـان يقـع قـبلاً علـى شـاطئ البحـر، قـد بـات الآن في وسـط الـبلاد نتيجـة لحصـول جـزر في ميـاه البحـر. ويفـترض ستراتون أن كاهن آمون المتنبّئ قد حظي على أرجح تقدير، بمثل هذه الشـهرة العريضـة والمجـد الرفيـع لأنـه كـان يقـيم علـى سـاحل البحـر؛ أمّـا إقامتـه الآن، البعيـدة جـدّاً عـن البحر، فإنها لا تقدّم تعليلاً معقـولاً لشـهرته ومجـده؛ ومصـر كـان يغمرهـا البحـر قـديماً حتّى مستنقعات منطقة بيلوسـي، وجبل كاسـي وبحيرة سيربون. ويعثـرون في مصـر حتّـى الآن أثناء استخراج الملح، علـى تجويفـات مليئـة بالرمـل، وصـدفات متحجـرة، توشـي بـأن البلاد كـانت يومـاً مـا مغمورة بمياه البحـر، وأن كلّ المنطقـة المحيطـة بجبـل كاسـي ومـا يسمّى جيرا كـانت عبارة عن مستنقع كـان متصلاً بخليج البحـر الأحمـر؛ وبعد أن تـراجع البحر، ظهرت اليابسة في هذه المناطق، لكنّ بحيرة سيربون بقيت؛ ثمّ شقّت هي بـدورها طريقها إلى البحر وتحوّلت إلى مستنقع. وعلـى هـذا النحـو فـإن سـواحل مـا يسـمّى بحـيرة ميريدا تشبه السـواحل البحرية أكـثر ممـا تشـبه ضـفاف الأنهـار. وعليـه فإنـه يمكننـا أن نسلّم بأن شطراً مهمّاً من القارّة كـان مغموراً يوماً مـا بالمياه لطور زمني محـدّد، ثـمّ ظهـر ثانية؛ وعلى النحو عينـه يمكننـا أن نسـلّم بـأن سـطح الأرض كلّـه، المغمـور الآن بالميـاه، هـو عبارة عـن تعرّجـات علـى قـاع البحـر، تمامـاً كمـا أن شـطر الأرض الـذي فـوق سـطح

البحر، والذي نعيش نحن عليه، خاضع لكثير من التبدلات، كما يؤكّد إيراتوسفين نفسه. وعلى هذا النحو فإن حجج كسانثوس ليس فيها ما يمكن أن ندعوه سخيفاً.

5- بيد أنه يمكن توجيه اللوم إلى ستراتون لأنه على الرغم من وجود كثير من الأسباب الحقيقية للتحريفات الواردة، إلاّ أنه لم يلحظها وقدم أسباباً لا وجود لها. فالسبب الأوّل على حدّ قوله، هو الفرق في المستوى والعمق بين البحر المتوسّط والمحيط الأطلسي. لكنّ ما يتعلّق بارتفاع البحر وانخفاضه، وإغراقه لبعض المناطق ثمّ تراجعه عنها، فإنه لا ينبغي البحث عن سبب هذه الظاهرات في اختلاف مستوى القاع - تارة أكثر انخفاضاً، وتارة أكثر ارتفاعاً - إنّما في حقيقة أن قاع البحر نفسه يرتفع تارة وينخفض أخرى، ومعه يرتفع البحر وينخفض، فلدى ارتفاع مستوى البحر، يغمر الماء الشاطئ، ولدى انخفاضه تعود المياه إلى مستواها السابق. وإذا كانت رؤية ستراتون هذه صحيحة، فإنّ أيّ زيادة مفاجئة لكتلة الماء في البحر ينبغي أن تترافق بالفيضان، كما في أوقات المدّ البحري العالي مثلاً، أو فيضان الأنهار، وفي غضون ذلك فإن الماء ينتقل في الحالة الأولى من القسم الآخر من البحر، أمّا في الحالة الثانية، فإن كتلة الماء [ببساطة] تتضاعف. ولكن تضاعف كتلة الماء في الأنهار لا يحدث على حين غرّة (فيثير تضخم البحر)، فلا تستمرّ حالة المدّ زمناً كافياً لحدوث ذلك (فالمدّ يحدث بشكل منتظم)، ولا يُحدث فيضانات في البحر المتوسّط ولا في غيره من الأماكن الأخرى. ولذلك يبقى لنا أن نعترف بأن سبب التغيّرات(6)، هو الأساس الصلب للبحر، أو على الأرجح القاع الذي تحت الماء، أو ما يقع تحت البحر، أو ما تغمره المياه لبعض الوقت. فالأرض المشبعة بالماء هي أكثر خفّة، وتحرّكاً وعلى الأغلب أنها أكثر عرضة للتغيّرات، لأنّ عنصر الهواء المضغوط(7)- وهو السبب المباشر لمثل هذه الظاهرات، يكمن في أن قاع البحر نفسه يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى، وليس في أنّ أجزاء من القاع مرتفعة وأجزاء أخرى منخفضة. ومع ذلك فإن ستراتون يأخذ بهذه الحالة الأخيرة سبباً ويفترض أن الظاهرات التي تحدث في الأنهار، تحدث في البحار أيضاً؛ فهو يرى أن المجرى البحري ينطلق من الأماكن العالية، وإلاّ لما رأى أن قاع البحر هو سبب التيار عند بزنطا؛ فهو يزعم أن قاع البونتس الإيفكسيني أعلى من قاع بروبونتيدا والبحر الذي يلي بروبونتيدا، مضيفاً في الوقت نفسه سبب هذا؛ فالأماكن العميقة في البونتس الإيفكسيني إذ تمتلئ بالطمي الذي تحمله الأنهار، تغدو أقلّ عمقاً، ولذلك تفيض المياه إلى خارج حدوده. وهو يسحب هذه الرؤية كاملة على البحر المتوسّط، ويقارنه بالمحيط الأطلسي، لأنّ قاع البحر المتوسّط يغدو بحسب رأيه، أعلى من قاع المحيط الأطلسي، فالبحر المتوسّط من وجهة نظره، يمتلئ بدوره بما تحمله كثرة من الأنهار التي تراكم

على قاعه كتلة مهولة من الطين، كما هي حال البونتس الإيفكسيني. ولكن في هذه الحال يجب أن يكون صحيحاً أيضاً، أن المجرى البحري عند أعمدة هرقل وكالبا، الذي يتّجه [إلى المحيط]، يشبه المجرى الذي يتّجه عند بزنطا [إلى بحر إيجة][8]. ولكنّني سوف أتجاوز هذه القرينة؛ إذ قد يقال، إن الظاهرة نفسها تحدث هنا [عند أعمدة هرقل] أيضاً، لكنّ المجرى يضيع في الجزر والمدّ ويصبح غير ملحوظ.

6- ولكن من الطريف أن نعرف، إنه إذا افترضنا أن قاع البونتس الإيفكسيني أدنى من قاع بروبونتيدا[9] والبحر الذي يلي البروبونتيدا، قبل أن ينشأ المعبر عند بزنطا، فما الذي أعاق امتلاء البونتس الإيفكسيني بمياه الأنهار، سواء كان قبل ذلك بحراً أو مجرّد بحيرة أكبر من بحيرة ميوتيدا؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإني أسأل أيضاً: أليس صحيحاً أن مستوى مياه البونتس الإيفكسيني وبروبونتيدا كان على نحو (طالما بقي متماثلاً) كان من المستحيل معه إرغام هذين البحرين على أن يشقّا طريقهما وينبثقا بسبب تكافؤ قوّة المقاومة وقوّة الضغط؛ ولكن عندما بات مستوى البحر الداخلي أعلى، عندئذٍ شقّت المياه الزائدة طريقها وانبثقت منه. أفلا يكمن هنا سبب اندغام البحر الخارجي مع الداخلي وتشكيل مستوى واحد (سواء كان هذا الأخير في أوّل الأمر بحراً أو بحيرة ثمّ صار بعد ذلك إلى بحر)، إثر اختلاطه بالبحر الداخلي وسيطرته عليه؟ وإذا ما وافقوني على هذا، فإن المجرى الراهن سوف يكون على هذا النحو أيضاً، لكنّ سببه لن يكون ارتفاع قاع البحر أو ميلانه، كما يؤكّد ستراتون.

7- إننا يجب علينا أن نسحب هذه الموضوعات الأساسية على البحر المتوسّط والمحيط الأطلسي، وأن نرى أن سبب المجرى، هو النهر وليس قاع البحر وميلانه. وحقيقة الأمر هي أنه بحسب الكتّاب[10] الذين ذكرناهم هنا، يبدو لنا أنه من الممكن جدّاً، حتّى لو كان بحرنا المتوسّط يوماً ما بحيرة، أنه بعد أن امتلأ بمياه الأنهار، خرج من شواطئه وسكب مياهه عبر مضيق عند أعمدة هرقل، مشكّلاً ما يشبه الشلال؛ أمّا المحيط الأطلسي فإنه إذ امتلأ بالمياه أكثر فأكثر، اندغم مع مرور الزمن مع البحر المتوسّط واتحد معه على مستوى واحد؛ وعلى هذا النحو تحوّل مستوعب البحر المتوسّط إلى بحر بفعل التأثير الغالب للمحيط الأطلسي. وعلى وجه العموم فإن مقارنة البحار مع الأنهار تناقض كلّياً علم الفيزياء: فالأنهار تجري إلى الأسفل وفق ميلان المجرى، بينما ليس للبحر ميلان. أمّا المجرى في المضائق فله سبب آخر، وليس سببه امتلاء الأماكن العميقة من البحر بالطمي النهري. فما يحمله النهر يتجمّع عند مصبّه، ومثالنا على ذلك ما سمّي "أثداء"[11] عند مصبّ نهر إيستر، والصحراء السكيثية، والساليدس (حيث التيارات الجامحة الأخرى تساهم في تشكّل

التراكمــات)؛ وكثيّــب مصــبّ نهــر فاســيس، وســاحل كولهيــدا الموحــل؛ ومصــبّ ثرمـودونتس وإيـريس، وثيميســكيرا كلّهـا، وسـهل الأمـازونيس، والشـطر الأكـبر مـن سيدينا. والأمر على هذا النحو بالنسبة للأنهار الأخرى أيضاً، فكلّها يحاكي نهر النيل الـذي جعـل مـن المجـرى الممتـدّ أمامـه يابسـة؛ ولكـنّ بعضـها يفعـل ذلـك بمعيـار أكـبر وبعضها الآخر بمعيار أصغر. وبالحد الأدنى فإن تلك التي لا تحمـل كثيراً مـن الطمـي، وبالحـد الأقصـى تلك الـتي يمتـدّ مجراهـا إلى مسـافات بعيـدة في بـلاد تربتهـا خفيفـة، إذ تستقبل كثيراً من الروافد الجامحة. وينتمـي إلى عـداد هـذه الأخيرة نهـر بيرامـوس الـذي حمل كثيراً من التربة إلى كيليكيا؛ وهو المقصود بالنبوءة الآتية:

سيشيع هذا بين الأحفاد، عندما يحمل بيراموس

الفضّي المياه حمولته إلى الشاطئ البحري ويبلغ قبرص المقدّسة.

فبيراموس يخرج من أواسط سهل كاتاون نهراً تبحر فيه السفن، ثمّ يشـقّ طريقـه إلى كيليكيا عبر ثغر جبلي ليصبّ في خليج يقع بين كيليكيا وقبرص.

8- أمّا السبب الذي يمنع حمولات الأنهار التي تتحرك إلى الأمام، من بلوغ عـرض البحـر، فهو يكمن في الخاصية التي منحتها الطبيعة لمجرى البحـر، أي المـدّ والجـزر، إذ يردّ هذه الحمولات من حيث أتت، فـالبحر يشـبه الكائنـات الحيّـة، وهـو يتنفّس مثلـها، شهيقاً وزفيراً؛ وعلى النحو نفسه فإن البحر «في حركـة ارتدادية دائمة تنشـأ منـه نفسـه، وتدور إلى الوراء من غير توقّف»[12]. ويتّضح هذا للمشاهد الواقف علـى الشـاطئ في أثنـاء اضـطراب البحــر، لأنّ الموجـة تغمـر قدميـه تـارة وتكشـف عنهمـا تـارة أخـرى، ثـمّ تعـود لتغمرهمـا مـن جديـد، ثـمّ يتكـرر الأمـر مـن غـير توقـف. ومـع اضـطراب الأمـواج عنـد الشـاطئ تنـدفع موجـة أقـوى (حتـى لـو كانـت هـي الأضـعف)، إلى الأمـام فتبعثـر كـلّ الأشياء الأخرى الموجودة على اليابسة:

... وترتفع بغتة

أمواج مسودّة غاضبة، وكثرة من الأعشاب تندفع من البحر.

(*الإلياذا* IX، 7)

وغالباً ما يحصـل هـذا وقـت هبـوب الـريح، كمـا يحصـل كـذلك وقـت هـدوئها، عندما تهبّ من البـرّ. ومـع ذلـك فـإن الموجـة تنـدفع إلى الشـاطئ عكـس الـريح، كمـا لـو كانـت تتحـرّك مـع البحـر، إنهـا تشـارك في حركـة البحـر نفسـه. وهـذا مـا قصـد إليـه هوميروس إذ قال:

... تنسكب

راعدة وتتبعثر على الشاطئ مخيفة، وتقفز أعلى



من الجروف موجات كئيبة تلفظ زبداً مالحاً؛

(الإلياذا IV، 425)

ويقول كذلك:

وعند المرتفعات المحيطة

تعوي الشواطئ بالأمواج التي يقذفها البحر

على اليابسة.

(الإلياذا XVII، 265)

9- ولذلك فإن لضغط الأمواج ما يكفي من القوّة لطرح الأجسام الغريبة. وتدعى هذه الظاهرة «تنقية»[13] البحر، فبمقتضاها تطرح الأمواج إلى اليابسة الجثث وحطام السفن المنكوبة. ولكنّ الجزر لا يمتلك القوة التي تمكّنه من أن يسحب إلى البحر ثانية ما كانت الأمواج قد قذفت به إلى الشاطئ، لا الجثة الميتة، ولا كسرة الخشب، ولا حتّى أخفّ جسم كان- سدادة - ، لو من أقرب الأماكن إلى البحر، حيث تكون الأمواج قد تركت مثل هذه الأجسام. وعلى هذا النحو عينه تطرح الأمواج الطمي والمياه المحملة بالطمي (وفي غضون ذلك فإن ثقل الطمي يساعد على هذا)، فيترسّب هذا على الأرض قبل أن يتسنى حمله إلى عرض البحر. وفي الواقع إن قوّة التيار النهري توقف فاعليتها على بعد قليل من مصبّ النهر. وربّما يمتلئ البحر بالطمي ابتداء من الشاطئ إذا ما تدفقت إليه حمولات الأنهار من غير توقّف. ويمكن أن يحدث هذا إذا ما سلّمنا بأن البونتس الإيفكسيني أعمق من بحر سردنيا، الذي قال عنه بوسيدونيوس، إنه البحر الأكثر عمقاً بين البحار التي قيس عمقها: ما يقارب 1000 أُورغيا.

10- ومع ذلك فإن مثل هذا التفسير يبدو أقلّ قبولاً؛ ولذلك فإنني أرى أنه من الضروري أن نضع تأويلنا لهذه المسألة في علاقة وثيقة مع الظاهرات الأكثر وضوحاً، الظاهرات التي نراها كلّ يوم، إذا صحّ القول. فالفيضانات [تظهر، كما نرى، نتيجة ارتفاع قاع البحر]، والهزّات الأرضية، والحمم البركانية، وارتفاع قاع البحر، تستدعي كلّها ارتفاع البحر، بينما يؤدّي انخفاض قاع البحر إلى هبوط هذا الأخير. لأنه من غير الممكن أن تُرفع الكتل المتوهجة من باطن الأرض وتظهر الجزر الصغيرة إلى السطح، وألاّ يحصل الأمر نفسه للجزر الكبيرة، كي تتشكّل على هذا النحو الجزر ولا تتشكّل القارّات. وعلى النحو نفسه يمكن أن تحصل هبوطات قاع البحر الصغيرة والكبيرة، إذا صحّ ما يقال، إن الهزّات الأرضية تؤدّي إلى ظهور الشقوق الفاغرة فتبتلع الأرض مناطق وقرى بكاملها، كما حصل في بورا وبيزونا وأماكن أخرى كثيرة. وفيما يتعلّق بصقليا، يمكننا أن نفترض بالدرجة عينها، أنها تعدّ كسرة من إيطاليا،

أو أن قوة النيران قذفت بها من أعماق إيتنا وأنها [على هذا الوضع] بقيت؛ والشـيء نفسـه يمكن أن يقال عن الجزر الليبارية والبيفيكوسية[14].

11- لقد بلغت السذاجة لدى إيراتوسـفين درجـة جعلتـه، وهـو عـالم الرياضيات، يعزف عن الإقرار حتّى بالقوانين العلمية التي توصل إليها أرخميدس في بحثه الذي دعـاه: «بصدد الأجسـام الـتي تطفـو علـى سـطح المـاء»[15]، فأرخميـدس يقـول في بحثـه هـذا، إن سـطح كـلّ جسـم سـائل، هـو في حالـة السـكون والتـوازن، كـروي الشـكل، ولهـذه الـدائرة المركـز نفسـه مـع الأرض. ومـن المعـروف أن كـلّ الـذين يشـتغلون بالرياضـيات يقـرّون بهـذا القـانون. وعلـى الـرغم مـن أن إيراتوسـفين يعـترف بـأن البحـر المتوسّـط بحـر متصل كامل، إلاّ أنه يرى أن له سطحاً عاماً متواصلاً غير مقطـوع، حتّـى في الأمـاكن المتجـاورة تجـاوراً مباشـراً. وللبرهـان علـى هـذا الـرأي غـير المعقـول يلجـأ إيراتوسـفين إلى سمعة البنّائين، مع أن علماء الرياضيات أنفسهم أعلنوا أن العمارة فنّ يشـكّل جـزءاً مـن الرياضيات. وعلى حدّ قوله، إن ديميتري [بوليوركيتوس] حاول حفر برزخ البيلوبونيز[16] ليفتح معبراً لأسطوله، لكـنّ المهندسـين- البنّائين أعـاقوا تحقيـق مسـعى ديميـتري؛ فقـد أجـروا قياسـاتهم وقـالوا، إن مسـتوى البحـر في خلـيج كورينثـوس أعلـى منـه عنـد كينهيريوس، وإذا ما شقّ لسان اليابسة الذي يفصل بين البحرين، فإن المياه سوف تغمـر المضيف الإيجيني ومعه إيجينا كلّها، والجزر المجاورة، وسوف تغدو القناة عديمة النفـع. ويقول إيراتوسفين، إن هذا هو سبب قوّة مجرى تيارات المضائق، خاصة مضيق صقليا الذي تحدث فيه ظاهرات تشبه ظاهرة المدّ والجـزر في المحيط؛ فمجـرى التيـار فيـه يغيّـر اتجاهـه مـرتين كـلّ نهـار وليلـة، تمامـاً مثلمـا يحـدث المـدّ والجـزر في المحـيط. ويتـابع إيراتوسفين حديثه فيقول، إن واقع الأمر، هو أن المدّ يتوافق ومجـرى التيـار الـذي ينـدفع من البحر التيراني إلى البحر الصقلّي، وكأنه آت من مستوى أعلى، ويدعى فعلاً بالتيار «النازل»؛ ويطابق هذا التيار ظاهرة المدّ أيضاً، لأنـه يبـدأ وينتهـي مـع المـدّ في وقت واحـد؛ فهو يبدأ مع ظهور القمر وغيابه، ويتوقّف عندما يبلغ القمر دائرتي الطول، خاصة دائـرة خطّ الطـول فـوق الأرض أو تحـت الأرض. ويتوافـق الجـزر مـع التيـار العكسـي (ويـدعى بالتيـار «الصـاعد»)، الـذي يبـدأ، مثلـه مثـل الجـزر، عنـدما يبلـغ القمـر دائرتـي الطـول، ويتوقّف عندما يصل القمر إلى نقطتي الظهور والغياب.

12- لقـد عـالج كـلّ مـن بوسـيدونيوس[17] وأثينـودوروس ظـاهرة المـدّ والجـزر معالجة وافية. أمّا فيما يخصّ التيار العكسي في المضـائق (الـذي يخضـع لدراسـة معتـادة أكثر عمقاً مما هـو مطلوب للعمل الـذي بـين يـدينا)، فإنـه يكفـي أن نقـول للتوضـيح [مجرى التيار في المضائق]، إنّ طابع التيار وفق كلّ نوع [من المضائق]، ليس واحداً؛ وإلاّ

لما غيّر مضيق صقليا في هذه الحالة تياره مرتين في اليوم (كما يقول إيراتوسفين)، ولما غيّر مضيق خلكيديا تياره سبع مرّات في اليوم، بينما المضيق الذي عند بزنطا لا يغيّر تياره قط، فتياره واحد، يتّجه من البونتس إلى البروبونتيدا، بل ووفق هيبارخ أن هذا التيار الأخير يتوقف في بعض الأحيان تماماً؛ ولو كان طابع التيار واحداً فعلاً، فإن هذا لن يكون هو السبب الذي يطرحه إيراتوسفين: مستوى البحر على جانبي المضيق مختلف. ولما كان لهذا مكان فيما يخصّ الأنهار أيضاً، إلاّ إذا كان لها شلاّلات؛ وفي حال وجود شلاّلات فإنها لن تجري مرتدّة، لكنّها تجري دائماً باتجاه المجرى الأكثر انخفاضاً. ويحدث هذا لأنّ التيار وسطحه مائلان. ولكن من يقول إن سطح البحر مائل، خاصة إذا ما أخذنا بالحسبان الفرضيات التي تقول، إن الأجسام الأربعة (التي نسمّيها «عناصر») لها شكل كروي[18]؟ ولذلك فإن المضيق لا يجري مرتدّاً أبداً، لكنّه في الوقت نفسه لا يقف ساكناً في مكانه من غير جريان، مع أن بحرين يتمازجان فيه؛ ولكنّ المستوى ليس واحداً [إنّما مستويان]: واحد أعلى، والثاني أدنى. فالماء ليس كاليابسة التي لأنها تتميّز بالصلابة اتخذت شكلها الذي هي عليه، ولذلك فيها منخفضات ومرتفعات ثابتة، أمّا الماء فإنه بسبب التأثير المعتاد لثقله يتحرّك في الأرض متخذاً مثل هذا السطح الذي ينسبه إليه أرخميدس.

13- ويضيف إيراتوسفين إلى ملاحظاته عن آمون ومصر، زعماً مفاده أن جبل كاسي كان يوماً ما يشاطئ البحر، وأن كلّ المنطقة التي كانت تقع فيها جيّرا كانت عبارة عن مستنقع (اتحد مع خليج البحر الأحمر)، لكنّها تعرّت لدى اتحاد البحرين[19]. إن الزعم بأن المنطقة المذكورة كانت منطقة مستنقعات، يبدو زعماً مشكوكاً فيه، لأنها اتحدت مع خليج البحر الأحمر، «فالاتحاد مع أيّ شيء» يعني «الاقتراب منه» أو «ملامسته»، وإذا ما سحبنا هذا التعبير على كتلة مائية فإنه سوف يعني أن كتلة مائية ما تمتزج بكتلة مائية أخرى. وتفسيري للأمر، يتلخص في أن المياه الضحلة «أتت» إلى البحر الأحمر عندما كان البرزخ الضيّق عند أعمدة هرقل لا يزال مغلقاً؛ وبعد أن تمزّق هذا البرزخ فقط، انسكبت المياه الضحلة نتيجة لانخفاض مستوى البحر المتوسّط إثر انسكاب المياه عبر مضيق أعمدة هرقل. ولكنّ هيبارخ الذي أوّل تعبير «اتحد مع» بمعنى «تمازج مع» (أي أنه افترض أن بحرنا المتوسّط «اندغم» مع البحر الأحمر نتيجة امتلائه ماء)، انتقد إيراتوسفين وتساءل: لماذا إذن عندما غيّر بحرنا المتوسّط مستواه بسبب انسكاب المياه عند أعمدة هرقل بذلك الاتجاه، لم يُرغم البحر الأحمر (الذي اندغم معه)، على تغيير مستواه هو الآخر؛ وأخيراً، لماذا حافظ البحر الأحمر على مستواه [السابق]، ولم ينخفض كما المتوسّط؟ ثمّ يواصل هيبارخ حديثه

فيقول، حتّى لو وافقنا إيراتوسفين، أن البحر الخارجي كلّه اندغم في كلّ واحد، فإن هذا يعني بالتالي أن البحر الغربي والبحر الأحمر يشكّلان بحراً واحداً. وبعد ذلك يضيف هيبارخ استنتاجاً مفاده، أن البحر الذي وراء أعمدة هرقل، والبحر الأحمر، وحتّى البحر المتوسّط (الذي اندغم بالبحر الأحمر)، لها مستوى واحد.

14- ويعترض إيراتوسفين على هذا، فيقول، إنه لم يتحدّث عن اندغام البحر المتوسّط مع البحر الأحمر، في الوقت الذي امتلأ فيه البحر المتوسّط وفاض، بل أكّد فقط أن البحر المتوسّط اقترب من البحر الأحمر؛ عدّاك عن هذا أنه لا يُستنتج من زعمه هذا، أن البحر الواحد المتصل له في كلّ مكان ارتفاع واحد ومستوى واحد (وهذا ينسحب على بحرنا المتوسّط مثلاً، ومن غير شك على جزئه الذي عند ليكيا وفي محيط كينكرييوس)[20]. وهذا ما يؤكّد عليه هيبارخ نفسه في مؤلّفه الذي وضعه ضدّ إيراتوسفين. وبما أن وجهة نظر إيراتوسفين هذه معروفة لهيبارخ، إذن من الأفضل أن يدفع ضدها بحجج ما خاصة به، وألاّ يسلّم مباشرة وكأن الذي يتحدّث عن بحر خارجي واحد، يؤكّد أن المستوى أيضاً متماثل في كلّ مكان.

15- بعد أن رأى في نقش سفراء قورينا المقدّسين على تماثيل الدلافين[21]، وثيقة مزوّرة، يسوق هيبارخ حجّة ضعيفة غير مقنعة ليبرهن بها على صحّة رؤيته: مع أن تأسيس قورينا يرقى إلى زمن تتذكّره البشرية، لكنّ أيّاً من المؤرّخين لم يذكر أن الكاهن المتنبّئ كان يقيم يوماً ما على مقربة من البحر. فلماذا إذن، على الرغم من أن المؤرّخين لم ينقلوا إلينا أيّ خبر عن هذا الأمر، لا يمكننا أن نستنتج وفق القرائن التي نقيم عليها تخميننا أن هذا المكان كان يوماً ما منطقة ساحلية، لماذا لا نستطيع أن نقول، إن الدلافين قد كرّست فعلاً وإن النقش قد تركه سفراء قورينا المقدّسون؟ ومع أن هيبارخ أقرّ أن البحر نفسه ارتفع مع ارتفاع قاعه وغمر المكان كلّه وصولاً حتّى مقرّ الكاهن المتنبّئ[22] (الواقع على بُعد يزيد على ثلاثة آلاف مرحلة عن البحر)، إلاّ أنه لا يجيز أن يكون البحر قد ارتفع إلى علوّ يؤدّي إلى غرق جزيرة فاروس كلّها، والشطر الأكبر من مصر، وكأن ارتفاع البحر إلى مثل هذا العلو لم يكن كافياً لإغراق هذه الأماكن أيضاً. ثمّ بعد أن يقول، لو كان البحر المتوسّط قد امتلأ فعلاً قبل أن تتشكّل الثغرة عند أعمدة هرقل، إلى الحدّ الذي أشار إليه إيراتوسفين، فقد كان يجب أن تغطي المياه قبل ذلك ليبيا كلّها، والشطر الأكبر من أوروبا وآسيا، ويضيف هيبارخ، إنه ربّما كان البونتس يمتزج في بعض الأماكن مع الأدرياتيكي. وفي غضون ذلك فإن نهر إيستر (بحسب تخمينه)، وبعد أن يتفرّع إلى فروع، يصبّ من منطقة البونتس في

البحرين معاً نتيجة لخصوصية موقع المنطقة المعنية. ولكنّ إيستر لا ينبع من المناطق البونتسية، بل على العكس، فإن منابعه تقع في الجبال الواقعة فوق الأدرياتيكي، وهو لا يصبّ في البحرين، بل يصبّ في البونتس فقط، ولا ينقسم إلى فروع إلاّ عند مصبّه. ويقاسم هيبارخ عدم الاطلاع هذا، بعض أسلافه الذين قالوا بوجود نهر آخر يحمل اسم نهر إيستر عينه، وبحسب رؤيتهم أن هذا النهر الثاني يتفرّع عن الأوّل ويصبّ في الأدرياتيكي؛ كما زعموا أن قبيلة الإيستريين أخذت اسمها من اسم هذا النهر (لأن هذا الإيستر يجري عبر منطقتهم)، وعبر هذه الطريق عادياسون من بلاد الكولهيين.

16- ولكي ننمي لدى المشتغلين في علم الجغرافيا القدرة على «عدم الاستغراب»[23] الذي تثيره لديهم التبدّلات (التي تستدعي الفيضانات وما شابهها من الظاهرات)، التي تحدّثت عنها لدى حديثي عن صقليا[24]، وجزر إيولوفيا، والجزر البيفيكوسية، من المفيد أن أسوق أيضاً بعض الأمثلة الأخرى التي تشبه هذه الظاهرات الموجودة الآن أو التي كان لها حضور في أماكن أخرى؛ لأنّ تصوّراً عن عدد كبير من مثل هذه الأمثلة يزيح «الاستغراب». فالواقعة غير المعتادة تربك الإدراك وتشوّشه، وتعرّي عدم معرفتنا بالظاهرات الطبيعة والحياة على وجه العموم، كأن يروي أحدهم، عمّا يحدث عند جزيرتي ثيرا وفيراسيا الواقعتين في المضيق بين كريت وقورينا (وثيرا هي ميتروبوليا قورينا)، وعما يحدث في مصر وكثير من مناطق اليونان المشابهة. ففي منتصف الطريق بين ثيرا وفيراسيا علت من البحر شعلة استمرّ توهجها أربعة أيام، وكان البحر في المكان يفور ويتوهّج طول هذا الوقت؛ ثمّ لفظت الشعلة جزيرة (كانت ترتفع بالتدرّج ذراعاً ذراعاً يتألف كلّ منها من كتلة تتلظّى)، امتداد دائرتها اثنتا عشرة مرحلة. وبعد أن توقّف قذف الحمم كان الرودوسيون أوّل من تشجع واقترب من المكان (لقد كان هؤلاء سادة البحر عندئذٍ)، ثمّ أقاموا على الجزيرة معبداً لبوسيدون إسفاليوس[25]. أمّا في فينيقيا، فقد ابتلعت هزّة أرضية بحسب ما أورده بوسيدنيوس، مدينة كانت تقع فوق صيدون، كما دُمِّر ثلثا صيدون نفسها؛ لكنّ المدينة لم تهلك كلّها فوراً، ولذلك لم تكن الخسائر البشرية كبيرة. وحلّ مثل هذا البلاء في سوريا كلّها أيضاً، ولكن بقوّة أضعف، ثمّ انتقلت الهزّة الأرضية إلى بعض الجزر، وانتشرت في أرجاء كيكلادا وإيبوس بحيث جفّت ينابيع أريفوسا (ثمّة مثل هذا الينبوع في خلكيديا)، لكنّها ما لبثت أن انبثقت بعد أيام عبر ثغور أخرى، وقد استمرّت الهزّة الأرضية في بعض أرجاء الجزيرة إلى أن ظهرت في سهل ليلانتس هوّة في الأرض أخذت تقذف سائلاً نارياً.

17- وبصرف النظر عن أن كثيراً من الكتّاب كان قد انتقى أمثلة من هذا النوع، إلا أننا نكتفي بالأمثلة التي انتقاها ديميتري السكيبسي. فقد ذكر مثلاً أبيات هوميروس الآتية:

وصلا معاً إلى الينابيع الوضّاءة المتدفّقة، حيث ينبثق

ينبوعان مسرعين، كسانثوس السريع الصاخب،

الذي يجري وحيداً بمياه دافئة...

لكنّ الينبوع الثاني يتدحرج بارداً في أوج الصيف.

(*الإلياذا* XXII، 147)

وهو ينصح بالاّ «يستغربن» أحد إذا كان ينبوع المياه الباردة لا يزال باقياً الآن، بينما اختفى ينبوع المياه الحارّة، ويذكر في هذا السياق ما أخبر به ديموكلس الذي يروي عن عدد من الهزّات الأرضية القوية؛ بعضها وقع قديماً في ليديا وإيونيا إبان حكم تانتالوس، ولم تبتلع القرى فقط، بل دمّرت جبل سيبيل أيضاً؛ وظهرت من المستنقعات هناك بحيرات، وأغرقت الأمواج طروادا. ويوماً ما كانت فاروس المصرية جزيرة بحرية، أمّا الآن فقد تحوّلت بطريقة ما إلى شبه جزيرة، كما هي حال صور وكلازومينا. وفي الوقت الذي كنت فيه في إسكندرية مصر ارتفع البحر عند بيلوسي وجبل كاسي وأغرق البلاد جاعلاً من هذا الجبل جزيرة، وباتت الطريق التي تمرّ على مقربة من كاسي إلى فينيقيا سالكة أمام السفن. ولذلك فإنه ليس مستغرباً أن ينفلق يوماً البرزخ الذي يفصل البحر المصري عن البحر الأحمر، أو ينخفض ويفتح مضيقاً يؤدّي إلى تمازج البحر الخارجي مع الداخلي، كما حصل للمضيق الذي عند أعمدة هرقل. وأنا كنت قد تحدّثت عن مثل هذه الظاهرات في بداية هذا المؤلَّف، فهذه الأمثلة كلّها يجب أن تجمع في كلّ واحد لكي نعلل إيماننا الراسخ بالعمل الإبداعي للطبيعة، كما بالتغيّرات التي تحدثها القوى الأخرى.

18- أمّا بيريا فإنها كانت من قبل جزيرة تقع «على الجانب الآخر من القارّة»[26]، ويروى أنها تلقت اسمها من موقعها ذاك، وعلى عكسها ليفكادا التي تحوّلت إلى جزيرة بعد أن شقّ الكورونثيون قناة عبر البرزخ، وكانت قبل ذلك رأساً بحرية. ويقال إن ليفكادا هي المقصودة بقول لايرتس:

... نيريكون مدينة على جرف الأرض الأم جندلها

(*الأوذيسا* VVIXX، 377)

إذن، لقد حفر البشر هنا قناة، وأقيمت في أماكن أخرى سدود أو جسور؛ فقد بنوا في جزيرة سيراكوزا الآن جسراً يصل المدينة باليابسة، بينما كان هنا في الماضي

بحسب إيفيكوس، سدّ حجري دعاه هذا المؤلّف «بالمنتقى». أمّا بورا وغيليكا فقد هلكتا: لقد ابتلعت إحداهما هوّة تشكّلت في الأرض، ومسحت الأخرى موجة بحرية. وعند ميثونا في خليج هرميون ارتفع نتيجة للحمم البركانية جبل علوّه سبع مراحل؛ وكان الوصول إلى هذا الجبل غير ممكن نهاراً بسبب شدّة حرارته ورائحة الكبريت المنبعثة منه، أمّا في الليل فقد كان الجبل يضيء لمسافة بعيدة، وكان يتوهّج إلى درجة جعلت البحر حوله يفور على مسافة خمس مراحل (بل امتدّ الاضطراب في البحر إلى مسافة عشرين مرحلة)، ويمتلئ بشظايا كبيرة من الصخور لا يقل حجم واحدتها عن حجم برج. وابتلعت بحيرة كوبايدا مدينتي آرنا وميديا، وكان هوميروس قد ذكر هذين المكانين في «سجلّ السفن»:

آرنا الغنية بالعنب، وميديا، ونيسّا الجميلة.

(*الإلياذا* II، 507)

ويبدو أيضاً أن بحيرة بيستونيدا وبحيرة أخرى تدعى الآن إثيتيدس، قد أغرقتا عدداً من المدن التراقية؛ ويقول بعضهم إن مدن التريرسيين جيران التراقيين، قد غرقت بدورها. كما تحوّلت إحدى جزر إيخينادا إلى منطقة قارّية. ويقولون أيضاً، إن الأمر نفسه وقع لجزر أخرى في مصبّ إخيلوي نتيجة تراكم الطمي الذي كان يحمله النهر إلى البحر؛ وبحسب هيرودوت[37]، إن بقاياها تندغم شيئاً فشيئاً بالقارّة. وثمّة عدد من الرؤوس البحرية في إيثوليا كانت فيما مضى جزراً؛ وكذلك تغيّرت أستيريا التي دعاها هوميروس أستيريدا:

على منبسط البحر المالح جزيرة صخرية
... يدعونها
أستير، هي ليست كبيرة؛ وللسفن هناك ملجأ،
تأوي إليه، يستقبلها من شاطئيه.

(*الأوذيسا* IV، 844)

لكنّها الآن لا تتوفّر حتّى على مرسى ملائم. ثمّ ليس في إيثاكا كهف الحوريات أو مغارتهنّ، كما يصف هوميروس، ولكن من الأفضل أن يُعزى هذا إلى تبدل جغرافيا، لا إلى قلّة معرفة لدى هوميروس، أو إلى اختلاق ميثولوجي وبما أن هذه المسألة ملتبسة، فإني لن أدرسها.

19- وبحسب ميرسيلوس فإن أنتيسّا كانت من قبل جزيرة، وقد حملت اسمها هذا، لأنّ ليسبوس كانت تدعى من قبل إيسّا، وأنتيسّا الآن مدينة في ليسبوس. ويرى بعضهم أن ليسبوس نفسها ليست سوى قطعة من جبل إيدا، تشظّت منه كما تشظّت

بروهيتا وبيفيكوسا من ميسين، وكابري من رأس أثينا البحري، وصقليا من منطقة ريغوس، وأوسّا من أوليمبيوس[28]. وواقع الأمر هو أن مثل هذه التغيّرات وقعت قرب هذه الأماكن. ومرّة توقف نهر لادون في أركاديا عن الجريان. وبحسب دوريس أن مدينة راغي في ميديا، حملت اسمها هذا لأنّ الأرض عند البوابات القزوينية «كانت ممزّقة»[29]، بسبب هزّة أرضية ضربت المكان وامتدّت إلى مسافة كبيرة فدمّرت كثيراً من المدن والقرى، وأحدثت شتّى التغيّرات على الأنهار. وقد تحدّث أيون عن إيفبيا في دراماه النقدية «أومفالا»[30] فقال:

موجة خفيفة من يفريبوس فصلت أرض إيبيوس

عن بيوتيا، فقطعت نتوء شاطئ البحر بمضيق.

(مقطع 18. ناوك)

20- يقول ديميتري الكالاتيسي في روايته عن الهزّات الأرضية التي اجتاحت في زمن ما شتّى أنحاء اليونان، إن الشطر الأكبر من جزر ليخادا وكينيوس قد غمره البحر؛ وجفت مياه الينابيع الساخنة في إيديبسوس وثرموبل طيلة ثلاثة أيام، ثمّ تفجرت من جديد؛ وقد انبجست ينابيع إيديبسوس في أماكن أخرى غير أماكنها الأولى. وانهار في أوريوس جدار وجهته إلى البحر، إضافة إلى ما يقارب السبعمئة منزل؛ وتهدّم أيضاً الجزء الأكبر من إيخين، وفالارا، وهيراقليا التي في تراخين، وفي فالارا انهارت المباني من أساساتها. والمصير نفسه حلّ بسكّان لاميا ولاريسّا؛ وقذفت الموجة بسكارفيا من أسسها؛ وغرق في أثناء ذلك ما يقارب 1700 نسمة (أكثر من نصفهم من الفرونيسيين)؛ ثمّ ارتفعت موجة ثلاثية، فاندفع جزء منها نحو تارفا وفرونيا، والجزء الآخر إلى ثرموبل، واندفع الجزء الثالث عبر السهل إلى دافنوت في ثوكيدا؛ وجفت منابع الأنهار لعدة أيام؛ فبدّل نهر سبرخيوس مجراه وباتت دروب المشاة أماكن للسباحة؛ واندفع نهر بواغروس عبر ثغر آخر؛ ولحقت الأضرار بكثير من أجزاء ألوبا، وكينوس وأوبونت؛ أمّا أيون، وهي قلعة في أوبونت، فقد تهدّمت تماماً؛ وانكسر جزء من جدار هلاّتيا؛ وفي ألبون صعدت خمس وعشرون فتاة في أثناء الاحتفال بالفيسموفوريوس، إلى البرج ليستمتعن بالمنظر، فسقط البرج ومعه الفتيات في البحر. ويروى أنه بعد أن تشكّل شقّ في الجزء الأوسط من جزيرة أطلنطس[31] (وهي على مقربة من إيبيوس)، ظهرت هنا قناة صالحة للملاحة، وغمرت المياه بعض سهول الجزيرة إلى مسافة عشرين مرحلة؛ وقذفت الأمواج تريبرا* التي كانت تقف في ترسانة إصلاح السفن، ورمت بها عبر الجدار.

*- تريبرا = سفينة بثلاثة أنساق من المجذفين- ح. إ.

21- وبهدف دفعنا إلى الإقلاع عن المبالغة في «الاستغراب»، يضيف المؤرّخون إلى قصص التغيّرات هذه، أخباراً عن التبدلات التي وقعت نتيجة لنزوح السكّان. وهذا [عدم الاستغراب] ما يثني عليه ديموقريط[32] والفلاسفة الآخرون كلّهم؛ فهو يضع هذه الجسارة في موازاة البسالة، ورباطة الجأش، والصلابة الروحية. ويورد أمثلة على ذلك، هجرة الإيبيريين الغربيين إلى أقاليم ما وراء البونتس، وكولهيدا (وهي الأقاليم التي يقول أبوللودوروس، إن نهر أراكس يفصلها عن أرمينيا، لكن الغالب هو أن الذي يفصلها عن أرمينيا، هو نهر كير وجبال إسخين)، وهجرة المصريين إلى أثيوبيا وكولهيدا، وهجرة الإينيتيين من بافلاغونيا إلى الأدرياتيكي. وهذا ما حدث أيضاً للقبائل الإغريقية: الإيونية، والدورية، والآخية، والأيولية؛ وفي زمن ما كان الإينيانسيون، جيران الإيثوليين الآن، يعيشون على مقربة من دوتيوس وجبال أوسّا، بين البيرّيبيين؛ ولكنّ البيرّيبيين بدورهم قبائل وافدة إلى هنا من مكان ما. وعملنا هذا الذي بين يديّ القارئ، مليء بأمثلة من هذا النوع، وبعضها شائع ومعروف. ولكنّ هجرة الكاريين، والتريريين، والتفكريين، والغلاطيين، مثلها مثل أكثر حملات القادة إلى البلدان النائية (كمادي السكيثي، وتياركون الإثيوبي، وكوب التريري، وسيسوتريس، وبساميتيخ المصريين، وكذلك الفرس من قورش حتّى كسيراكس)، ليست معروفة كلّها بالقدر نفسه. وحتّى الكيميريين الذين يدعونهم التريريين (وربّما كانوا قبيلة ما من قبائل الكيميريين)، غالباً ما كانوا يجتاحون البلدان الواقعة على الساحل اليميني للبونتس، والمناطق المجاورة لهم، فيغيّرون تارة على بافلاغونيا، وتارة على فريجيا، وبحسب الروايات أنه بعد أن ارتوى ميداس من دماء الثور[33]، مضى ليواجه قدره. وعلى الرغم من ذلك وصل ليغداميدس على رأس قواته إلى ليديا، وأيونيا، واستولى على ساردا، لكنّه سقط قتيلاً في كيليكيا. لقد كان الكيميريون والتريريون يشنون مثل هذه الغزوات دائماً. ويروى أن مادي ملك السكيثيين نجح في آخر الأمر بطرد التريريين وكوب. ولتسق هذه الأمثلة هنا، لأنها تحتوي على وقائع ملائمة لكلّ علم يصف العالم على وجه العموم.

22- وأعود الآن لمواصلة ما كنت قد عزفت سابقاً عنه[34]. فهيرودوت[35] يؤكّد أنه لا وجود البتّة للهيبربورياس، ولذلك فلا وجود أيضاً للهيبرنوتيين. ويقول إيراتوسفين، إن هذا الاستنتاج السخيف يشبه السفسطة الآتية: إذا قلت إنه «لا وجود لمن يبتهج لمآسي الآخرين، لأنه لا وجود كذلك لمن يبتهج لسعادة الآخرين». ثمّ يضيف إيراتوسفين، وربّما كان الهيبرنوتيون موجودين أيضاً، وفي الأحوال كلّها فإن نوتوس لا تهبّ على إثيوبيا،

بل أبعد إلى الشمال. وبما أن الرياح تهبّ على كلّ دائرة عرض، وأن الريح التي تهبّ إلى هنا تدعى في كلّ مكان نوتوس، فإنه سيكون مستغرباً إذا ما كان ثمّة مكان مسكون ليس الأمر فيه على هذا النحو. بل إن الأمر على العكس، فليست إثيوبيا وحدها يمكن أن تكون لها النوتوس نفسها التي عندنا، بل وكل الإقليم الأعلى وصولاً حتّى خطّ الاستواء. ومهما كان الأمر، فإنه ينبغي اتهام هيرودوت لأنه زعم أن اسم هيبربورياس حملته الشعوب التي لا تهبّ بورياس في المناطق التي تقطنها. ولكن إذا كان الشعراء يستخدمون هذا التعبير غالباً بالمغزى الميثولوجي، فإنه ينبغي على من يدرسون شعرهم أن يستجيبوا لصوت الفكر الرشيد في أقلّ تقدير؛ فيقرّوا بأن المقصود «بالهيبربورياس»، هم شعوب أقصى الشمال فقط. فحدود شعوب الشمال، هو القطب الشمالي، وحدود شعوب الجنوب، هو خطّ الاستواء؛ أمّا حدود الرياح، فإنها هي نفسها.

23- بعد هذا يتحوّل إيراتوسفين إلى معارضة الكتّاب الذين يروون أشياء من الجليّ أنها مختلفة: بعضها في صيغة خرافات، وبعضها الآخر في صيغة علمية؛ وهي لم تكن تستحقّ الذكر على أيّ حال. ولم يكن على إيراتوسفين أن يأتي على ذكر هؤلاء الثرثارين لدى معالجته هذه المسألة. لقد كان ذلك هو اتجاه براهين إيراتوسفين في الكتاب الأول من «مذكّراته»[36].

الفصل الرابع

1- في الكتاب الثاني يعيد إيراتوسفين النظر بعض الشيء في الجغرافيا كلّها ويطرح موضوعاته الخاصة التي ربّما تحتاج إلى تدقيق، ويجدر بي أن أحاول عرضها هنا. فإدخاله أسس الرياضيات والفيزياء إلى الجغرافيا، أمر يستحق الثناء؛ كما يجب أن نستحسن موضوعته التي قال فيها، إنه إذا كانت الأرض كروية كالكون، فإنها مسكونة في كلّ مكان، كما تستحق الثناء أيضاً، موضوعاته الأخرى التي على مثل هذا الطراز. ولكنّ الكتّاب المحدثون يعارضونه في مسألة حجم الأرض: هل هي عظيمة كما يزعم، كما لا يعترفون بصحّة قياساته للأرض[1]. ومع ذلك فإنه عندما وضع هيبارخ خارطة الظاهرات السماوية في بعض الأماكن المسكونة، استخدم الأبعاد نفسها التي استخرجها إيراتوسفين من قياساته على خطّ الطول بين ميرويه، والإسكندرية، وبوريسفين؛ وبحسب هيبارخ أن هذه الأبعاد لا تجانب الحقيقة إلاّ قليلاً. وفيما يأتي من عرضه، تطرّق إيراتوسفين إلى مسألة شكل الأرض، وأظهر أن الأرض والقسم السائل منها، وكذلك السماء كروية الشكل، ويبدو أنه يتحدّث هنا عن أشياء لا صلة لها بموضوعه؛ لأنّ إشارة مختصرة [كما يزعم] تكفي[2].

2- وفي معرض تحديده عرض المسكونة، يؤكّد إيراتوسفين أنه من ميرويه على خطّ الطول الذي يمرّ عبرها، إلى الإسكندرية 10.000 مرحلة، ومن هناك إلى الهليسبونت حوالي 8100، ثمّ إلى بوريسفين 5000؛ وإلى الدائرة الموازية التي تمرّ عبر فولا[3] (التي يقول بيفيوس إنها تبعد عن بريطانيا شمالاً ستة أيام إبحار وتقع على مقربة من البحر المتجمد)، حوالي 11.500 مرحلة. وعلى هذا النحو، إذا ما أضفنا 3400 مرحلة إلى البلدان الواقعة إلى الجنوب من ميرويه، لكي نضمّ جزيرة المصريين[4]، والبلاد التي تنتج القرفة، وتابروبانا، فإننا نحصل على 38000 مرحلة.

3- بيد أنه ينبغي أن نسلّم بصحّة حسابات إيراتوسفين لباقي المسافات الأخرى كلّها (مع استثناء واحد فقط): ثمّة بين الباحثين ما يكفي من التوافق حول هذه النقطة. ولكن أي عاقل يمكنه أن يقبل مسافته التي قاسها بين بوريسفين ودائرة عرض فولا؟ فبيفوس[5] الذي روى عن فولا ليس سوى كاذب مكشوف، والناس الذين رأوا بريطانيا وهيرنا، لم يأتوا على ذكر فولا، لكنّهم تحدّثوا بالمقابل عن جزر صغيرة أخرى على مقربة من بريطانيا. وبريطانيا نفسها تمتدّ على طول سلتيا بطول يماثل طول هذه الأخيرة تقريباً- ليس أكثر من 5000 مرحلة - وهي محدودة بأطراف سلتيا المقابلة لها. فالأطراف الشرقية للبلدين تمتدّ في مقابل بعضها، والغربية في مقابل الغربية؛ كما تقع الأطراف الشرقية على مقربة كافية بعضها من بعض، بحيث يبقى الشاطئان في دائرة الرؤية، أي كانتيوس ومصبّ الراين. أمّا بيفوس فيعلن، أن طول بريطانيا يتجاوز 20.000 مرحلة، وأن كانتيوس تبعد عن سلتيا مسافة عدة أيام بالبحر[6]. وتمتلئ أخبار بيفوس عن الأوستيميين وبلدان ضفّة الراين المقابلة، وصولاً حتّى سكيثيا، تمتلئ بكمّ كبير من الاختلاقات. ومن ينطق بهذا الكذب كلّه عن بلدان معروفة، ليس مؤهّلاً لقول الحقيقة عن أرجاء لا يعرفها أحد.

4- ويفترض هيبارخ وآخرون أن دائرة العرض التي تمرّ عبر مصبّ نهر بوريسفين، هي نفسها التي تمرّ عبر بريطانيا، وأساس هذا عندهم، هو أن دائرة العرض التي تمرّ عبر بزنطا، متماثلة مع دائرة العرض التي تمرّ عبر ماساليا. وفيما يخصّ علاقة الساعات الشمسية بالنسبة إلى الظلّ، وهي العلاقة التي حدّدها بيفوس لماساليا[7]، فإن هيبارخ يعلن أنه وجد العلاقة عينها في بزنطا إبان الوقت عينه من العام. بيد أن المسافة من ماساليا إلى بريطانيا لا تتجاوز 5000 مرحلة. لكنّك إذا عبرت إلى الشمال من وسط بريطانيا، فإن هذه المسافة تتقلّص إلى حدود 4000 مرحلة، وبالكاد يمكنك أن تصادف منطقة مأهولة (سوف تقع مثل هذه المنطقة على مقربة من هيرنا)؛ وعليه فإن المناطق التي تقع وراء هذه الحدود، حيث يوضّع إيراتوسفين فولا، هي أرجاء غير

مأهولة. وأنا لا أستطيع أن أرى الأسس التي استند إليها إيراتوسفين ليؤكّد أن المسافة بين دائرة العرض المارّة عبر فولا إلى دائرة العرض التي تعبر بوريسفين، هي 11.500 مرحلة.

5- وإذ أجاز إمكانية ارتكاب زلة ما لدى قياس عرض المسكونة، فقد وقع إيراتوسفين في الخطأ لدى تحديده طولها. وحتّى الكتّاب المحدثون، مثلهم مثل الأكثر اطلاعاً ومعرفة من الكتّاب القدماء، يعترفون بأن الشطر المعروف لنا من الأرض، أطول بأكثر من ضعفي عرضه. وأنا أرى أن المسافة من أطراف الهند إلى أطراف إيبيريا أكبر مرتين من المسافة من إثيوبيا إلى دائرة العرض التي تعبر هيرنا. وعلاوة على هذا فإن إيراتوسفين إذ يحدّد العرض المذكور- من أطراف إثيوبيا حتّى دائرة عرض فولا، - يضاعف طول [المعمورة] أكثر مما ينبغي، ليجعلها أكبر مرتين من العرض المذكور. وعلى أيّ حال فإنه يقول، إن الشطر الأضيق من الهند وصولاً حتّى نهر الهندوس يبلغ 16.000 مرحلة: وذلك الجزء من الهند الذي يمتدّ حتّى الرؤوس البحرية، أطول بـ3000 مرحلة؛ أمّا المسافة من هناك إلى البوابات القزوينية، فهي تساوي 14.000 مرحلة تماماً؛ ثمّ من هناك إلى الفرات 10.000 مرحلة؛ ومن الفرات إلى النيل 5000 مرحلة؛ وإلى مصبّ النيل عند كانوب 1300؛ ثمّ إلى قرطاجة 13.500 مرحلة؛ وإلى أعمدة هرقل ليس أقلّ من 8000 مرحلة؛ وهذا يزيد على 70.000 مرحلة 800 مرحلة. ويقول إيراتوسفين، إنه يجب أن نضيف على هذا، منحنى أوروبا وراء أعمدة هرقل الواقع قبالة إيبيريا ويميل نحو الغرب، والذي يمتدّ على ما لا يقلّ عن 3000 مرحلة؛ ومن الضروري أن نضيف كذلك كلّ الرؤوس البحرية، خاصة رأس الأوستيميين الذي يدعى كابيوس، والجزيرة القائمة على مقربة منه؛ وبحسب بيفوس أن آخر هذه الجزر - جزيرة أوكسيساما تبعد مسافة ثلاثة أيام بالبحر. وبعد أن يذكّر بهذه الأماكن الأخيرة (مع أنها لا تزيد شيئاً على طول المسكونة)، يضمّ إيراتوسفين المناطق القريبة من الرؤوس البحرية، ومناطق الأوستيميين، وأوكسيساما والجزر التي تحدّث عنها كلّها. (تقع هذه المناطق كلّها إلى الشمال وهي مناطق سلتية، وليست إيبيرية أو أن هذا على أرجح تقدير خيال بيفوس). ويضيف إيراتوسفين إلى الأبعاد التي ذكرناها هنا، أبعاداً أخرى: 2000 مرحلة نحو الغرب، و2000 مرحلة نحو الشرق، كي لا يكون العرض [عرض المعمورة] أكبر من نصف طولها.

6- وفي غضون ذلك إذ يسعى إيراتوسفين لكي يبرهن على صحّة موضوعته باعتبار المسافة من الشرق إلى الغرب هي الأكبر، وأن هذا «يوافق الطبيعة»، يزعم أن «المسكونة وفقاً للطبيعة، هي من الشرق إلى الغرب أطول»؛ وهو يقول: «كما كنت قد

بيّنت مستخدماً تعابير علماء الرياضيات، أن المسكونة تشكّل دائرة كاملة[8] إذا ما اتصلت نفسها بنفسها؛ إذ لولا وجود عائق مثل المدى الهائل الذي يشكّله المحيط الأطلسي، لكان من الممكن الإبحار من إيبيريا إلى الهند على دائرة العرض نفسها واجتياز الجزء الآخر من الدائرة، ما عدا المسافة التي أشرنا إليها سابقاً[9]، والتي تشكّل أكثر من ثلث الدائرة المكتملة، إذا كان محيط الدائرة التي تمرّ عبر أثينا، وهي الدائرة التي أجريت على أساسها قياس المراحل المذكورة من الهند إلى إيبيريا، فعلاً أقل من 200.000 مرحلة»[10]. ومع ذلك فإن زعم إيراتوسفين هذا غير صحيح: مع أنه يمكننا أن ننسب استنتاجات إيراتوسفين هذه إلى المنطقة المعتدلة، أي إلى منطقتنا، من وجهة نظر علماء الرياضيات (لأن المسكونة تعدّ جزءاً من المنطقة المعتدلة)، إلاّ أن الأمر بالنسبة للمسكونة مختلف، فنحن ندعو «المسكونة» ذلك الجزء الذي نعيش فيه، والذي نعرفه؛ فقد يكون في المنطقة المعتدلة عينها مسكونتان، وربّما أكثر[11]، خاصة على مقربة من دائرة العرض التي تمرّ عبر أثينا، والتي جرى مدّها عبر المحيط الأطلسي. ثمّ، بعد أن أكّد من جديد على برهانه على كروية الأرض، يمكن لإيراتوسفين أن يواجه كما في السابق، الاعتراضات نفسها. وعلى النحو نفسه تماماً لا يكف عن مجادلة هوميروس حول الموضوعات نفسها.

7- وإذ يشير بعد ذلك إلى أنه كان هناك كثير من الجدال حول القارّات، وأن بعض العلماء يفصل بينها بالأنهار- النيل وتانايس، عادّاً إياها جزراً، بينما يفصل بينها آخرون ببرازخ- البرزخ الذي بين بحر قزوين وبحر البونتس، والبرزخ الذي بين البحر الأحمر والإيكريغما[12]- ويعترفون بها أشباه جزر، بعد هذا يقول إيراتوسفين، إنه لا يرى فائدة عملية لمثل هذا البحث؛ فهذا بحسب رأيه ليس سوى عمل أشخاص يؤثرون النقاش، كما هي الحال في مدرسة ديموقريط؛ فإذا لم يكن ثمّة حدود دقيقة واضحة بين كوليتوس وميليتا (أعمدة أو أسوار حجرية مثلاً)، فإننا فقط نستطيع أن نقول: «هذه كوليتوس»، وتلك «ميليتا»، أمّا الحدود فليس بمقدورنا أن نشير إليها. وغالباً ما نشأ الخلاف على هذه الخلفية حول بعض الأماكن؛ كالخلاف الذي وقع بين الآرغوسيين واللاكيديمونيين حول ثيريا، وبين الأثينين والبيوتيين حول أوروب. وعلاوة على ذلك بحسب إيراتوسفين، أن الإغريق حدّدوا وجود ثلاث قارّات، ولم يقصدوا بذلك المسكونة كلّها، إنّما قصدوا على وجه التحديد بلادهم والأرض الممتدّة قبالتهم، أي كاريا التي يعيش فيها الآن الإيونيون وجيرانهم. ومع مرور الزمن، واستمرار تحرّكهم وتعرّفهم على عدد أكبر من البلدان، توصل الإغريق إلى التقسيم الحالي للقارّات. وينشأ سؤال، هل يا ترى كان «الناس الأوائل» الذين تقاسموا القارّات الثلاث (لكي

نبدأ الجدال ابتداء من موضوعات إيراتوسفين الأخيرة، بطرح مادّة له لا كما يفعل ديموقريط، بل بروح إيراتوسفين نفسه)، هم أنفسهم الذين سعوا إلى فصل بلادهم عن كاريا المقابلة؛ أم أن هؤلاء الأخيرين لم يكن لديهم تصوّر سوى عن اليونان، وكاريا، وشطر صغير من المناطق المجاورة لها، ولم يكونوا قد تعرّفوا على أوروبا، أو آسيا، أو ليبيا، بينما تمكن الناس فيما بعد أن يجوبوا ما يكفي من البلدان ليكوّنوا تصوّراً عن المسكونة؛ ويطرح السؤال نفسه، هل كان هؤلاء هم أنفسهم من قسم الأرض إلى ثلاثة أقسام. وكيف عجزوا عن تحديد حدود المسكونة؟ وإذا يتحدّث المرء عن ثلاثة أقسام، ويدعو كلّ قسم قارّة، فكيف، يمكنه ألاّ يأخذ بالحسبان الكلّ الذي يقسمه إلى أجزاء؟ فإذا كان وهو يقسم جزءاً ما من أجزاء المسكونة، لا يأخذ بعين الحسبان المسكونة ككل، فإنهم قد يسألونه عندئذٍ، أيّ أجزاء المسكونة، آسيا أم أوروبا أم اليابسة على وجه العموم شكّلت الجزء المعني. إن موضوعات إيراتوسفين قد صيغت فعلاً صياغة خرقاء.

8- والأكثر خراقة، هو إعلانه أنه لا يرى فائدة عملية من تحديد الحدود، ويسوق مثاله على ذلك كوليتوس وميليتا، ثمّ يلتفت إلى النقيض. ولكن، إذا كانت الحروب قد اشتعلت من أجل ثيريا وأوروب بسبب عدم معرفة الحدود، فإن هذا يعني أن رسم حدود الأراضي له فائدة عملية ما. أو ربّما، يفترض إيراتوسفين، أن تحديد الحدود بدقّة بين البلدان، وأقسم بزيوس، أن فيه فائدة لكلّ شعب على حدة، بينما تحديد الحدود بين القارّات لا طائل منه؟ وحتّى في هذه الحالة فإنه ليس أقلّ أهمية؛ فقد تنشأ الخلافات بسبب حدود القارّات، بين الحكّام الأقوياء؛ فأحدهم على سبيل المثال، يمتلك آسيا، والآخر ليبيا، فلمن منهما تتبع مصر (ما يسمّى مصر السفلى). وإذا ما تجاهلنا هذا المثال (لأن وجوده نادر)، فإنه يجب القول، إن القارّات تقسم وفق مبدأ التقسيم الرئيس الذي ينسحب أيضاً على المسكونة ككلّ. وعلى هذا الأساس لا ينبغي علينا أن نفكر بالموضوعة التي تقول، إن الأنهار المستخدمة كحدود تترك بعض المناطق خارج نطاق التحديد، لأنّ الأنهار لا تصل إلى المحيط ولا تجعل من القارّات جزراً حقيقية.

9- وينتقد إيراتوسفين في خاتمة كتابه، أولئك الذين يقسمون البشرية كلّها إلى مجموعتين - إغريق وبرابرة، كما ينتقد أيضاً من نصح الإسكندر بأن يعدّ الإغريق أصدقاء، والبرابرة أعداء؛ ويستطرد قائلاً، إنه كان من الأفضل تقسيم الناس بحسب صفاتهم الحسنة والسيّئة، فليس هناك كثير من الإغريق الحمقى وحسب، إنّما هناك أيضاً كثير من البرابرة المثقفين (كالهندوس مثلاً، والآريان)، وعلاوة على هذا،



هناك الرومان، والقرطاجيون وتنظيم دولتهم المدهش. ولهذا السبب، يقول إيراتوسفين، لم يلق الإسكندر بالاً لمستشاريه، فقرّب إليه ما استطاع من الشخصيات المشهورة ومنحها عطفه وإحسانه، كما لو أن أولئك الذين قسموا الناس فذّموا بعضهم، ومدحوا الآخرين، قد فعلوا ذلك لسبب ما مغاير، وليس لأنّ الشرعية، ومبدأ الدولة، والجدارة، التي ترتبط بالتربية والعلوم، هي السائدة لدى بعض الشعوب، وأن العكس تماماً هو السائد لدى ما تبقى من الشعوب؛ ولكنّ الإسكندر لم يتجاهل مستشاريه، وأخذ بآرائهم وتصرّف بما يتوافق وهذا، وليس العكس، لأنه كان يحسن تقدير النوايا الحقيقية لأولئك المستشارين.



الكتـاب الثاني

الفصل الأول

1- في كتاب «الجغرافيا» الثالث يقدّم إيراتوسفين ملامح رسم تمهيدي لخريطة المسكونة؛ ويقسم هذه الخريطة إلى قسمين بخطّ من الغرب إلى الشرق موازٍ لخطّ الاستواء. ويستقبل إيراتوسفين نهاية هذا الخط غربي أعمدة هرقل، وفي الشرق عند أطراف السلسلة الجبلية التي تشكّل الحدود الشمالية للهند، وقممها النائية. ويمدّ إيراتوسفين هذا الخط من أعمدة هرقل عبر مضيق صقليا والأطراف الجنوبية للبيلوبونيز وأتيكا وصولاً إلى رودوس وخليج إيس. ويقول، إن هذا الخط يمرّ قبل هذه النقطة عبر البحر والقارّات المجاورة له (لكنّ بحرنا المتوسّط كلّه، يمتدّ هو نفسه طولاً حتّى كيليكيا)؛ ثمّ يسير الخط على امتداد السلسلة الجبلية مباشرة تقريباً، وصولاً حتّى الهند. ويتابع قائلاً، إن السلسلة الجبلية تمتدّ على خطّ مستقيم يسير مع البحر، ويبدأ من عند أعمدة هرقل، فيقسم آسيا كلّها بالطول إلى قسمين - شمالي وجنوبي؛ ولذلك فإن السلسلة وكذلك البحر يقعان ابتداء من أعمدة هرقل، على دائرة عرض أثينا.

2- وإذ يشير إيراتوسفين إلى هذا، يطرح ضرورة تصحيح الخريطة القديمة، لأنّ الأجزاء الشرقية من الجبال تميل بشكل ملحوظ في هذه الخريطة إلى الشمال، لذلك فإن الهند نفسها إذ تميل معها تقع إلى الشمال مما يجب أن تكون فعلاً. وللبرهان على هذا يسوق إيراتوسفين في الأول رأياً من النوع الآتي: تقع أقصى الأطراف الجنوبية للهند قبالة ميرويه (وهذا ما يوافق عليه كثير من المؤلّفين، الذين يحاكمون الأمور وفق الشروط المناخية، والظاهرات السماوية)، ومن تلك الأطراف إلى أقصى مناطق الهند الشمالية عند جبال القفقاس[1]، تبلغ المسافة كما يقول باتروكليس (الذي يمكن الوثوق به على وجه الخصوص، نظراً لمكانته الرفيعة، ولأنه ليس جاهلاً في علم

الجغرافيا)، 15.000 مرحلة، بيد أنه لا شك في أن المسافة من ميرويه إلى دائرة عرض أثينا تساوي هذه المسافة تقريباً؛ ولذلك فإن الأجزاء الشمالية من الهند، المجاورة لجبال القفقاس، تنتهي عند دائرة العرض هذه.

3- والبرهان الآخر من هذا النوع عينه مؤداه: أن المسافة من خليج إيس إلى بحر البونتس (إذا انطلقنا شمالاً إلى الأماكن المجاورة لأميس أو سينوبس)، تساوي 3000 مرحلة تقريباً، وهي مسافة بعرض الجبال؛ ومن أميس، إذا اتّجهنا إلى الشرق المعتدل[2]، فسنصل أولاً إلى كولهيدا، ثمّ إلى الممرّ الجبلي على البحر الهيركاني، وبعد هذا [تنفتح أمامنا] الطريق إلى باكترا، والسكيث الذين وراء حدودها، وسوف تكون الجبال في غضون ذلك على جهة اليمين. وإذا ما مدّ هذا الخط غرباً عبر أميس، فإنه سيمرّ عبر البروبونتيدا والهلسبونت. والمسافة من ميرويه إلى الهلسبونت لا تتعدّى 18.000 مرحلة، مثلها مثل المسافة من الجهة الجنوبية للهند إلى أجزائها الواقعة على مقربة من أرض الباكتريين، إذا ما أضفنا إلى 15.000 مرحلة 3000 مرحلة (يتوزّع بعضها على عرض الجبال، وبعضها الآخر على عرض الهند).

4- وينتقد هيبارخ موضوعة إيراتوسفين هذه، محاولاً أن يزعزع برهانه. فيقول، أولاً، إن باتروكليس ليس مؤلّفاً يستحقّ الثقة، لأنّ مؤلّفيْن قدّما ضدّه معارضات-ديماخ وميغاسفين اللذان زعما أنه ثمّة مناطق في الهند تصل المسافة فيها من البحر الجنوبي إلى 20.000 مرحلة، وتصل في مناطق أخرى حتّى 30.000 مرحلة. وتتفق الخرائط القديمة مع زعم هذين المؤلّفين. ويرى هيبارخ أنه ليس مسموحاً أن نصدّق باتروكليس وحده، ونتجاهل شهادات خصومه، ونصحّح الخرائط القديمة على ضوء هذه النقاط الخلافية، بدل أن نبقيها كما هي إلى أن نتلقى معطيات أكثر دقّة في هذه المسألة.

5- وأنا أرى أن خلاصة هيبارخ هذه، توفّر أسساً جدّية للنقد. فعلى الرغم من أن إيراتوسفين يستخدم، بحسب هيبارخ، قرائن عدد كبير من الشهادات، إلاّ أنه يعتمد على أدلّة باتروكليس وحده. فمن كان أولئك الذين أكّدوا أن الأطراف الجنوبية من الهند تقع قبالة منطقة ميرويه؟ ومن أثبت أن المسافة من ميرويه إلى دائرة عرض أثينا هي هكذا حقّاً؟ ومن كان أولئك الذين حسبوا عرض السلسلة الجبلية، أو أقرّوا بأن المسافة من كيليكيا إلى أميس تماثل عرض هذه الجبال؟ ومن زعم بخصوص المسافة من أميس عبر كولهيدا وهركانيا إلى باكتريا وعبر المناطق الواقعة وراء باكتريا (التي تمتدّ حتّى البحر الجنوبي)، وأكّد أنها تسير في خطّ مستقيم حتّى الشرق المعتدل؟ أو من يزعم بخصوص المسافة التي مدّت على هذا الخط غرباً باتجاه مستقيم، أن هذا الخط يمرّ عبر البروبونتيدا والهلسبونت؟ لكنّ إيراتوسفين يرى في هذا كلّه حقائق

تؤكّدها شهادات أناس زاروا هذه الأماكن، فهو قرأ كثيراً من مؤلّفاتهم العلمية التي توفّرت له بكثرة، إذ كانت بين يديه مكتبة كبيرة[3]، وهذا ما يعترف به هيبارخ.

6- بل إن مصداقية ما أخبر به باتروكليس نفسها تستند إلى كثير من الشهادات: وأنا أقصد هنا الملوك[4] الذين عهدوا إليه بمثل هذه الوظيفة المهمّة، والناس الذين رافقوه، وأولئك الذين كانت لهم رؤية مناقضة (وقد ذكر هيبارخ نفسه هؤلاء). فالاعتراضات التي سجّلها هؤلاء الأخيرون ضده، ليست سوى براهين على صحّة زعم باتروكليس. وليس بعيداً عن الواقع أيضاً، إعلان باتروكليس أن المشاركين في حملة الإسكندر لم يتلقّوا سوى معلومات سطحية عن الأشياء المرئية، بينما كان الإسكندر نفسه يدقّق المعلومات التي يتلقّاها، لأنّ الناس الذين كانوا يعرفون البلاد معرفة جيّدة، وضعوا له وصفاً دقيقاً لها. وهذا الوصف، كما يقول باتروكليس، وصل إليه هو فيما بعد من كسينوكلوس خازن الخزنة الملكية.

7- ويقول هيبارخ في كتابه الثاني، إن إيراتوسفين نفسه يشك في صحّة شهادة باتروكليس بسبب خلافه مع ميغاسفين حول طول الجهة الشمالية من الهند (يحدّدها ميغاسفين بـ16.000 مرحلة، ويصر باتروكليس على أنها أقل من ذلك بألف مرحلة)؛ لأنّ إيراتوسفين، انطلاقاً من معطيات إحدى «لوائح محطات الطرق»[5]، لا يثق بالاثنين معاً بسبب خلافاتهما، ويأخذ بقرائن هذه «اللائحة». وعليه يقول هيبارخ، إنه بسبب الخلاف حول هذه النقطة ينبغي ألا نثق بباتروكليس، مع أن الفرق في القرائن لا يشكّل سوى ألف مرحلة فقط، أمّا عندما يصل الفرق بين القرائن إلى 8000 مرحلة، فإن الشك ينبغي أن يكون أكبر بكثير، خاصة تجاه قرائن شخصين[6] يتّفق واحدهما مع الآخر؛ لأنّ كلاً منهما يحدّد عرض الهند بـ 20.000 مرحلة، بينما يحدّده باتروكليس بـ12.000 مرحلة.

8- وأنا أُجيب على هذا بما يلي: لا يلوم إيراتوسفين باتروكليس على خلافه مع ميغاسفين وحسب، إنّما لامه مقارناً خلافهما على أساس التوافق مع معطيات «سجلّ محطات الطرق» وصدقيته. وعلى أيّ حال ليس غريباً أن يكون خبر ما أكثر صحّة من خبر آخر صحيح بدوره، وإذا ما منحنا ثقتنا للشاهد عينه في موقف ما، فإننا لا نفعل الشيء نفسه في موقف آخر إلاّ إذا تبيّن لنا معطى آخر أكثر دقّة ويشهد عليه مصدر ما آخر. ولكن من المضحك أن نعتقد أن أهمية التناقضات بين العلماء تجعلنا أقلّ ثقة بالأطراف المختلفة. فعلى أرجح تقدير أن هذا يحدث عندما تكون الخلافات صغيرة؛ فالخطأ في الصغائر لا يقع لدى الكتّاب الوسط فقط، بل قد يرتكبه أيضاً من يتميّز

بين الآخرين في موقف ما. ولكنّ هناك حيث تكون الخلافات جدّية، يمكن للإنسان العادي أن يرتكب خطأ، أمّا الأكثر ثقافة ومعرفة، فهو أقلّ عرضة لهذا. ولهذا السبب ينبغي علينا أن نثق بهذا الأخير.

9- وفي غالب الأحيان كان كلّ من كتب عن الهند كاذباً، لكنّ ديماخ تفوّق على جميعهم في هذا المضمار، يليه من حيث رواية الاختلاقات ميغاسفين؛ أمّا أونيسيكريت، ونيارخس، وما شابههما من الكتّاب الآخرين، فقد أخذوا يغمغمون بالحقيقة رويداً رويداً. وقد سنحت لي فرصة الاطلاع على هذه الحقيقة بالتفصيل، عندما كنت أكتب مؤلّفي «أعمال الإسكندر»(7). ولكنّ ديماخ وميغاسفين لا يستحقّان الثقة. فهما يرويان لنا عن أناس يجلسون على آذانهم، وعن آخرين ليس لهم أفواه، ولا أنوف، كما يتحدّثان عمّن لهم عين واحدة وساقان طويلتان، وأصابع مرتدة إلى الخلف؛ لقد جدّد هذان خرافة هوميروس عن حرب الغرانيق ضدّ البجم(8)، الذين كان طول الواحد منهم بحسب الكاتبين، ثلاثة أشبار؛ كما يرويان أيضاً عن النمل الذي يستخرج الذهب، وعن البانات الذين رؤوسهم على شكل إسفين، والأفاعي التي تبتلع الثيران والأيائل بقرونها. وبحسب إيراتوسفين أن الكاتبين يدحض واحدهما الآخر في حكاياتهما هذه. فهما أرسلا في سفارة إلى باليمبوترا (ميغاسفين إلى ساندروكوت، وديماخ إلى ألليتروهاد ابن ساندروكوت). وكذكريات عن رحلتهما تلك، تركا مثل هذا الوصف، ونحن لا نعرف دوافعهما لفعل ذلك. وباتروكليس هو الأقل استحقاقاً للوم. بل حتّى الشهود الآخرون الذين يلجأ إيراتوسفين إليهم، لا يجوز أن نحجب الثقة عنهم.

10- وإذا كان خطّ الطول عبر رودوس وبزنطا قد مدّ بشكل صحيح، فإنه يجب أن نعدّ أن خطّ الطول الذي يمرّ عبر كيليكيا وأميس قد جرى أخذه بطريقة صحيحة أيضاً. فمن اعتبارات كثيرة، يستنتج توازي خطّي الطول هذين، لأنه لا يمكن البرهان على أنهما يلتقيان في مكان ما.

11- أمّا كون الإبحار من أميس إلى كولهيدا يتّجه نحو الشرق المعتدل، فهو أمر تؤكّده الرياح، وفصول السنة، والثمار، وشروق الشمس كلّ يوم. والاتجاه نفسه يتخذه العبور نحو بحر قزوين، ثمّ الطريق من هناك وصولاً إلى باكترا. ففي حالات كثيرة يكون الوضوح واتفاق قرائن الشهود أكثر دقّة من أيّ أداة كانت(9). وعلى أيّ حال فإن هيبارخ عندما سلّم بأن الخطّ من أعمدة هرقل إلى كيليكيا يتّجه مستقيماً إلى الشرق المعتدل، لم يعتمد كلياً على الأدوات(10) والحسابات الهندسية، بل صدّق البحارة فيما يخصّ المسافة كلّها من أعمدة هرقل إلى مضيق صقليا. ولذلك فإن زعمه

غير صحيح إذ يقول: «بما أننا لا نستطيع أن نحدّد العلاقة بين أطول يوم وأقصر يوم من أيام السنة، ولا العلاقة بين الميْل والظلّ على امتداد ذيول الجبال من كيليكيا إلى الهند، ولا نستطيع أن نقول ما إذا كان ميلان الجبال يسير في خطّ مواز[11]، فإنه ينبغي علينا أن نترك الخطّ محدّباً كما رسمته الخرائط القديمة، من غير أن نصححه». فقبل كلّ شيء، أن نكون في حالة «لا نستطيع فيها أن نقول»، يعني أن نمتنع عن إبداء الرأي، والإنسان الذي يعزف عن قول شيء ما، هو من لا يميل إلى هذا الجانب ولا إلى ذاك. ولكن عندما يدعونا هيبارخ إلى أن نترك الخطّ كما هو، كما في الخرائط القديمة، فإنه يميل بهذا إلى جانب القدماء. وكان هيبارخ سيظهر منطقياً أكثر، لو أنه أشار علينا ألاّ نشتغل بالجغرافيا أصلاً[12]. فعلى هذا النحو نحن لن نستطع أن نتبيّن حالة الجبال الأخرى، كالألب مثلاً، والبيرينيه، والجبال التراقية، والأيلليرية، والجرمانية. ولكن من الذي يخطر له أن الجغرافيين القدماء أهل للثقة أكثر من المحدثين، ففي أثناء وضعهم للخرائط الجغرافية، ارتكب القدماء من الأخطاء ما جعل إيراتوسفين ينتقدهم، وهو محقّ في ذلك؛ لكنّ أيّاً من تلك الأخطاء لم تلق اعتراضاً من قبل هيبارخ.

12- كما يمتلئ ما يعرضه هيبارخ بعد ذلك بالأسئلة المرتبكة. انظر مثلاً كم ينشأ من التفاهات إذا لم ننحّ جانباً زعمه أن الأطراف الجنوبية للهند ترتفع مقابل[13] منطقة ميرويه مباشرة، أو أن المسافة من ميرويه إلى ثغر المضيق عند بزنطا تشكّل حوالي 18.000 مرحلة، إذا قبلنا أن المسافة من جنوبي الهند إلى الجبال تساوي 30.000 مرحلة. فقبل كلّ شيء، إذا كانت دائرة العرض التي تخترق بزنطا، هي نفسها التي تخترق ماساليا (كما بيّن هيبارخ مستنداً إلى شهادة بيفوس)، وإذا كان خطّ الطول الذي يعبر بزنطا، هو نفسه الذي يعبر بوريسفين (وهذا ما يعتمده هيبارخ أيضاً)، وإذا كان يسلّم أيضاً بصحّة الزعم القائل بأن المسافة من بزنطا إلى بوريسفين تساوي 3700 مرحلة، عندئذٍ سوف يكون عدد المراحل هذا، هو نفسه عدد المراحل من ماساليا حتّى دائرة العرض التي تخترق بوريسفين[14]، فدائرة العرض هذه على وجه التحديد، هي التي تخترق ساحل سلتيا على المحيط، لأنها إذ تعبر سلتيا فإنها تقطع عدد المسافات هذا نفسه تقريباً لتصل إلى المحيط[15].

13- نحن نعرف أن بلاد القرفة، هي أقصى نقطة في جنوبي المسكونة، وبحسب هيبارخ نفسه أن دائرة العرض التي تخترقها، تمثل بداية المنطقة المعتدلة والمسكونة (ويبتعد هذا الخطّ ما يقارب 8800 مرحلة عن خطّ الاستواء)، وبما أن دائرة

العرض التي تخترق بوريسفين تبعد بحسب هيبارخ، 34.000 مرحلة عن خطّ الاستواء، فإنه يتبقى 25.000 مرحلة للمسافة من دائرة العرض التي تفصل المنطقة الحارّة عن المعتدلة، وإلى دائرة العرض التي تخترق بوريسفين وساحل سلتيا على المحيط. ومع ذلك يعدّ الإبحار من سلتيا إلى الشمال الآن، هو الرحلة الأبعد شمالاً؛ وأنا لا أقصد الرحلة إلى جزيرة هيرنا التي تقع وراء بريطانيا، وهي جزيرة غير مأهولة تقريباً بسبب الصقيع، أمّا المناطق التي تمتدّ بعدها فإنها تعدّ مناطق مأهولة. ويروى أن هيرنا لا تبعد عن سلتيا أكثر من 5000 مرحلة؛ وعليه فإن عرض المسكونة يقدر بشكل عام بحوالي 30.000 مرحلة، أو أكبر بقليل.

14- ونتحوّل الآن إلى المنطقة التي تعلو قبالة بلاد القرفة وتقع إلى الشرق على دائرة العرض نفسها. وهذه المنطقة هي منطقة تابروبانا. وتابروبانا هي كما نعرف جيّداً، جزيرة كبيرة تقع في عرض البحر إلى الجنوب من الهند. وهي تمتدّ طولاً باتجاه إثيوبيا (كما يقولون)، على أكثر من 5000 مرحلة؛ ويحملون من هذه الجزيرة كميات كبيرة من العاج، وأعداداً كبيرة من السلاحف وسوى ذلك من السلع إلى سوق الهند. وإذا ما حدّدنا عرض هذه الجزيرة وفق طولها وأضفنا إلى ذلك المدى البحري الفاصل بينها وبين الهند، فإننا سنحصل على مسافة لا تقلّ عن 3000 مرحلة، أي مسافة ليست أكبر من تلك التي بين أطراف المسكونة وميرويه كما حدّدناها سابقاً (هذا إذا صحّ أن أطراف الهند تعلو قبالة ميرويه مباشرة)؛ بيد أن الأقرب إلى واقع الأشياء، هو أن نعدّ أن هذه المسافة تزيد على 3000 مرحلة. وإذا ما أضفنا هذه الثلاثة آلاف مرحلة إلى 30.000 مرحلة التي تشكّل وفق حسابات ديماخ، المسافة إلى المعبر الجبلي في باكتريا وسوغديانا، عندئذٍ تغدو هذه الشعوب كلّها أطرافاً للمسكونة والمنطقة المعتدلة. ولكن من الذي يجرؤ على مثل هذا الزعم، وهو يعرف من القدماء والمعاصرين[16] عن المناخ المعتدل في شمالي الهند وخصوبة الأراضي في تلك المنطقة، عن هركانيا وآريا، ثمّ عن مارغيانا وباكتريانا؟ فهذه البلدان تقع كلّها مجاورة للجانب الشمالي من السلسلة الجبلية، بل تقع باكتريانا على مقربة من الممرّ الجبلي إلى الهند؛ ومع ذلك فقد حقّقت هذه البلدان مستوى من الازدهار يحتّم بُعدها مسافات كبيرة جدّاً عن أجزاء الأرض غير المأهولة. وعلى أيّ حال، يقال إنّ جفنة العنب في هركانيا تعطي ميتريتاً[17] من النبيذ، وتعطي شجرة التين هناك 60 ميديمناً[18] من الثمار؛ وينبت القمح من جديد من حبوب السنابل التي تتساقط أثناء الحصاد، ويبني النحل خلاياه على الشجر، فيسيل العسل من ورقه؛ وهذا ما يحصل في ماتينا إحدى مقاطعات ميديا، وفي ساكاسينا

وأراكسـينا ، وهمـا مقاطعتـان في أرمينيـا. ولـيس الأمـر مسـتغرباً في هـاتين المقـاطعتين الأخيرتـين، إذا كـانتـا تقعـان حقّـاً إلى الجنـوب مـن هـركانيـا ، وتتميّـزان عـن المنـاطق الأخرى بمناخ معتدل. ولكن هذا يعدّ غريباً جدّاً بالنسبة لهركانيا؛ ويقولـون، إن ثخانـة جذع دالية العنب في مارغيانا يصل إلى ضعف محيط اليـدين، ويصـل طـول عنقـود العنـب فيهـا إلى طـول مـرفقين[19]. ويـروون قصصـاً مشـابهة عـن آريـا أيضـاً ، بـل إن هـذه الـبلاد تتفوّق على البلدان الأخرى بجودة نوعية نبيذها ، لأنهم يحفظون النبيذ هنـاك في خابيـات غير مطلية بالقـار طـول ثلاثـة أجيـال. وفي باكتريانـا الـتي تقـع علـى حـدود آريـا ، ينتجـون كلّ شيء أيضاً ، ما عدا زيت الزيتون.

15- ولـيس ثمّـة مـا يـثير الاسـتغراب البتّـة في أن هـذه الأجـزاء المرتفعـة والجبليـة ، تتميـّز بمنـاخ بـارد. فالجبـال بـاردة حتّـى علـى دوائـر العـرض الجنوبيـة ، والمنـاخ بـارد في الأراضـي المرتفعـة علـى وجـه العمـوم، حتّـى لـو كـانـت سـهلية. وفي الأحـوال كلّهـا فـإن مناطق قبادوقيا التي تقع على البونتس الإيفكسيني، هـي منـاطق شماليـة أكثـر بكـثير من تلك الواقعة على مقربة من السلسلة الجبلية؛ ولكـنّ باغاداونيـا ، وهـي سـهل واسـع جـدّاً يمتـدّ بـين جبـل آرغيـيـوس والسلسـلة الجبليـة ، لا نصـادف فيهـا أشـجاراً مثمـرة إلاّ نـادراً ، في بعـض الأمـاكـن، مـع أنهـا تقـع علـى بعـد 3000 مرحلـة إلى الجنـوب مـن بحـر البـونتس، بينمـا ينمـو شـجر الزيتـون في مـزارع سـينوبس وأمـيس، وفي أرجـاء واسـعة مـن فاناريا. ويروى أن نهر أوكـس الـذي يفصـل باكتريانـا عـن سـوغديانا ، يتميّـز بصـلاحيته الكبيرة للملاحة ، فالسلع الهندية تنقل إليـه عـبر الجبـال، ومـن ثـمّ نـزولاً مـع مجـراه إلى بحـر هـركـانيـا ، ومـن هنـاك عـبر الأنهـار الأخـرى إلى المنـاطق المجـاورة وصـولاً حتّـى البونتس[20].

16- ولكن أين تجد في بوريسفين أو على سـاحل سلتيا على المحيط، مثـل هـذا الرخـاء، حيـث لا ينمـو حتّـى العنـب أو لا يعطـي ثمـراً؟ ففـي البلـدان الـتي تقـع أبعـد نحـو الجنوب، كبلدان البحر المتوسّط، والبوسبور، تعطي جفنة العنب ثمراً ، لكـنّ العناقيـد هنا صغيرة، وفي الشتاء يطمـرون الجفنـات تحـت الأرض[12]. فالطبقـة الجليديـة هنـاك في ثغر بحيرة ميوتيدا صلبة إلى حدّ أنـه في مكـان مـا منهـا ، انتصـر قـائـد جيـوش ميتريـدات شتاء على البرابرة في معركـة دارت بين فرسـان الطرفين على سطح الجليد مباشـرة، ثـمّ انتصـر علـيهم ثانيـة في الصـيف في المكـان عينـه، بعـد أن ذاب الجليـد ، في معركـة بحرية[22]. وقد ساق إيراتوسفين المقطوعة الشعرية الهجائية الآتية المدوّنة على هيـدريا[23] برونزية في معبد أسكليبوس في بانتيكابيوس، انفلقت بسبب شدّة الصقيع:

إذا كان هناك من لا يصدّق الذي حصل في بلادنا،
فليعرف عندئذٍ، إذ يرى هذه الهيدريا:
لم يقدّمها الستراتيوس للإله تقدمة ثمينة،
بل دليلاً على البرد القارس في بلادنا.

بما أننا لا نحتاج أن نؤكّد على عدم وجود وجه للمقارنة بين الشروط المناخية في البلدان الآسيوية التي ذكرناها، وتلك التي في مناطق البوسبور أو حتّى في أميس وسينوبس (فهذه البلدان مناخها معتدل أكثر من مناخ بلدان البوسبور)، لذلك بالكاد يجوز لنا أن نوضّع هذه المناطق الآسيوية على دائرة عرض واحدة مع الأماكن الواقعة على مقربة من البوريسفين، أو مع بلاد السلتيين الواقعة في أقصى الشمال. فالبلدان الآسيوية بالكاد تقع على خطّ عرض واحد مع مناطق أميس، وسينوبس، وبزنطا، وماساليا، التي اتّفق على أنها تقع على بعد 3700 مرحلة جنوبي البوريسفين وبلاد السلت.

17- ولكن إذا أضاف ديماخ وأنصاره إلى 30.000 مرحلة، المسافة حتّى تابروبانا وحدود المنطقة الحارّة (ويجب أن نقرّ بأن هذه المسافة لا تقلّ عن 4000 مرحلة)، فإنهم يوضّعون عندئذٍ باكترا، وآريا وراء حدود المسكونة، في مناطق تبعد34.000 مرحلة عن المنطقة الحارّة، أي عدد المراحل عينه الذي يشكّل بحسب هيبارخ، المسافة من خطّ الاستواء إلى البوريسفين. وعلى هذا النحو سوف تتوضّع باكترا وآريا في منطقة تبعد 8800 مرحلة إلى الشمال من البوريسفين وسلتيا، وهي المسافة عينها التي يقع خطّ الاستواء عليها إلى الجنوب من الدائرة الفاصلة بين المنطقة الحارّة والمنطقة المعتدلة، ونحن نزعم أن هذه الدائرة تمرّ أساساً عبر بلاد القرفة. وأنا كنت قد بيّنت أن المناطق الواقعة وراء سلتيا، وصولاً حتّى هيرنا (على مسافة لا تزيد عن 5000 مرحلة)[24]، بالكاد تكون مأهولة. ولكن ما ينتج عن حسابات ديماخ هذه، أنه ثمّة خطّ عرض ما مواز ومأهول، يقع على بعد3800 مرحلة أخرى شمالي هيرنا. وعلى هذا النحو سوف تكون باكترا واقعة بعيداً إلى الشمال من ثغر بحر قزوين (أو بحر هركانيا)، وسوف يبتعد هذا الثغر[25] ما يقارب 6000 مرحلة عن أبعد جزء من بحر قزوين، وجبال أرمينيا وميديا. ومن الواضح أن هذه النقطة سوف تكون أكثر بعداً إلى الشمال من الخطّ الساحلي نفسه الذي يمتدّ من هناك حتّى الهند، والذي بحسب ما يقوله باتروكليس، كان من قبل دليل هذه المناطق، ويمكن الإبحار إلى هناك من الهند. وعلى هذا النحو فإن باكتريانا تمتدّ 1000 مرحلة أخرى شمالاً[26]. أمّا القبائل السكيثية فهي تقطن بلاداً أكبر بكثير من باكتريانا التي تقع وراءها وتجاور بحر

الشـمال[27]؛ وكـونهم قبائـل رحّـل، فـإن السـكيثيين يحصّـلون هنـاك مـوارد عيشـهم. ولكـن إذا كانـت باكتريـا نفسـها تخـرج إلى خـارج حـدود المسـكونة، فكيـف يمكـن إذن أن تكـون المسافة من القفقاس إلى بحر الشمال على خطّ الطول الذي يعبر باكترا، أكثـر مـن 4000 مرحلـة بقليـل[28]؟ وهكـذا إذا أضـفنا عـدد المراحـل[29] هـذا إلى عـدد المراحل بين هيرنا والمناطق الشـمالية، فـإن كامـل المسـافة عبر المنطقـة غير المأهولـة مـع احتسـاب المسـافة عبرهيرنـا، سـوف يشـكّل 7800 مرحلـة. أمّـا إذا اسـتثنينا 4000 منهـا، فإن أجزاء باكتريانا المجاورة للقفقـاس[30] في أقل تقـدير، سـوف تغـدو إلى الشـمال مـن هيرنا بـ 3800 مرحلة، وإلى الشمال من سلتيا وبورسفين بـ 8800 مرحلة.

18- [31]. ثمّ يـزعم هيبـارخ أنـه في بوريسـفين وسـلتيا في الأحـوال كلّهـا، يكـون ضوء الشمس في الليل باهتاً إبّان فصل الصيف، وتتحرك الشـمس في غضـون ذلـك، علـى دائرة من الغرب نحو الشرق، أمّا وقت الانقلاب الشتوي فإنها لا ترتفـع فـوق دائـرة الأفـق أكثـر مـن تسـع أذرع[32]، ولكـن هـذه الظـاهرة [ضـوء الشـمس الباهـت]، تغـدو أكثـر وضوحاً في مناطق القبائل التي تعيش علـى بعـد 6300 مرحلـة مـن ماسـاليا (ويـرى هيبـارخ فيها قبائل سلتية، أمّا أنا فأرى أنهـم بريطـانيون يعيشـون شمـالي سـلتيا بـ 2500 مرحلـة)؛ وفي فصل الشتاء ترتفـع الشـمس هنـاك[33] سـت أذرع فقـط، وأربـع أذرع فقـط في منـاطق القبائل التي تبعد عن ماساليا 9100 مرحلة، وأقل من ثلاث أذرع في المناطق الواقعـة أبعـد من ذلـك (وفـق حسـاباتي بعيـداً إلى الشـمال مـن هيرنـا). بيـد أن هيبـارخ إذ يثـق ببيفـوس، يوضّـح هـذه الـبلاد المأهولـة في المنـاطق الواقعـة إلى الجنـوب مـن بريطانيـا[34]، ويـزعم أن أطـول نهـار هنـاك يمتـدّ 19 سـاعة معتدلـة[35]، و18 سـاعة هنـاك حيـث لا ترتفـع الشـمس فوق خطّ الأفق سوى أربع أذرع. ويخبر هيبـارخ عـن القبائـل الـتي تقطـن في هـذه المنـاطق، أنها تقع على بعد 9100 مرحلة[36] عن ماساليا. وعليه فإن القبائل البريطانية الأقصـى إلى الجنوب، تعيش شمالي هذه القبائل، وتقع على هذا النحو، على دائرة العرض عينهـا مـع الباكتريين الذين يعيشون على مقربة من القفقاس، أو على دائرة عرض ما علـى مقربـة. وكمـا كنـت قـد قلـت آنفـاً، فإنـه بحسـب ديمـاخ وأنصـاره، تغـدو منـاطق البـاكتريين القريبة من القفقاس واقعة على بعـد 3800 مرحلـة إلى الشـمال مـن هيرنـا. وإذا مـا أضـفنا عـدد المراحـل هـذا إلى عـدد المراحـل الـتي تشـكّل المسـافة مـن ماسـاليا إلى هيرنـا، فإننـا سنحصل على ناتج يساوي 12.500 مرحلة. ولكـن من ذا الـذي تـأتّى لـه أن يراقـب في تلك البلدان (وأنا أقصد هنا المناطق التي على مقربة من بـاكترا) امتداد أطـول النهـارات، أو مثل ارتفاع الشمس ذاك فوق خطّ الطول إبان الانقلاب الشتوي؟ إن مثـل هـذه الظـاهرات

يلاحظها بوضوح حتّى الشخص الجاهل، وهي لا تحتاج إلى برهان رياضيّ؛ فكثير من المؤلّفين الذين كتبوا في تاريخ فارس، القدماء منهم وخلفاءهم، وصولاً إلى أيامنا هذه كان يمكنهم أن يكتبوا عنها. وكيف يمكن أن نسلّم بوجود الرخاء الذي ذكرناه سابقاً[37]. في هذه البلدان الواقعة في تلك المناطق التي تحدث فيها مثل هذه الظاهرات السماوية[38]؟ ويتّضح مما قيل هنا مدى مهارة هيبارخ في معارضة حجج إيراتوسفين على أساس أن الأخير (مع أن وجهتي نظرهما في معالجة المسائل المطروحة، هما في واقع الأمر واحدة)، استخدم مسألة قابلة للبرهان، بمثابة دليل[39].

19- ويسعى إيراتوسفين بعد ذلك إلى أن يظهر لنا ديماخ شخصاً جاهلاً وغير قادر على الخوض في مثل هذه المسائل. فبحسب رأي ديماخ، يقول إيراتوسفين، إن الهند تقع بين الاعتدال الخريفي والمدار الشتوي[40]؛ ويعارض ديماخ في هذا ميغاسفين الذي يزعم أن الدب الأكبر والدب الأصغر يغربان في الأجزاء الجنوبية من الهند، وأن الظلال تسقط في الاتجاهات المعاكسة[41]؛ بينما يرى ديماخ أن مثل هذه الظاهرات غير موجودة في أي مكان من الهند. ويرى إيراتوسفين في زعم ديماخ هذا جهلاً. فالاعتقاد بأن الاعتدال الخريفي يختلف عن الربيعي بمدى البعد عن المدار، هو جهل بحقيقة الأشياء، لأنّ الدائرة[42] التي ترسمها الشمس متماثلة مع شروقها وقت الاعتدال. وبما أن المسافة من المدار الشتوي إلى خطّ الاستواء (حيث يوضّع ديماخ الهند)، ظهرت لدى قياس الأرض أنها أقلّ من 20.000 مرحلة، فإن الحصيلة التي كان يمكن أن تتأتى عن ذلك (حتّى وفق ديماخ نفسه)، هي ما يزعمه إيراتوسفين، وليس ما يزعمه ديماخ. فلو كان عرض الهند 20.000 مرحلة أو حتّى 30.000 مرحلة، لما استطاعت أُطر هذا المدى أن تحتويها. ولكن إذا كان عرضها كما حسبه إيراتوسفين، فإن المدى المذكور يمكن أن يحتويها[44]. كما يكشف عن ضعف معرفة مماثل، زعم ديماخ أن الدب الأكبر والدبّ الأصغر لا يغربان في أي مكان من الهند، وأن الظلال لا تسقط في الاتجاه المعاكس، لأنه يكفي أن تقطع إلى الجنوب من الإسكندرية 5000 مرحلة فقط، حتّى تظهر هذه الظاهرة فوراً. وعلى هذا النحو فإن هيبارخ يخطئ مرّة أخرى إذ يصحح زعم إيراتوسفين هذا: أولاً، عندما يقبل قول ديماخ «المدار الصيفي» بدلاً من «المدار الشتوي»، ثانياً، عندما يرى أنه يجب ألاّ يعتمد في مسائل الرياضيات على أدلّة من لا معرفة لديه بعلم الفلك، وكأن إيراتوسفين آثر الآخرين على أدلّة ديماخ، ولم يتعامل معه كما يتعاملون عادة مع الذين ينطقون السخافات. فأحد أساليب دحض أولئك الذين يطرحون معارضات غبية، يتمثل في إظهار زعمك الخاص، كائناً ما كان، نقيضاً لما يقولون.

20- وهكـذا فـإنني إذ أقبـل حتّـى الآن الفرضيـة الـتي تقـول، إنّ أقصـى المنـاطق الجنوبية في الهند تعلو قبالـة ميرويـه (وكـان كـثير مـن المؤلّفين قـد أخـذ بهـذه الفرضـية ودافع عنها)، إلاّ أنني أظهرت الترهات التي تنجم عنها. ولكـن، بمـا أن هيبـارخ لم يـدفع حتّى الآن بأيّ اعتراض ضدّ هـذه الفرضية، ثـمّ رفضـها في الكتـاب الثـاني، فإنـه ينبغـي علينا أن ندرس محاكماته في هـذا المجـال. فهـو يقـول: «إذا كـانـت المنـاطق الواقعـة علـى خطّ عرض واحد تعلو واحدتها قبالـة الأخـرى، فإنـه لـدى وجـود مسـافة كـبيرة بينهمـا لا يمكننا أن نبين هذا (أي أنها على دائرة عرض واحدة) من غير أن نقارن بـين، الأقـاليم، في كـلا النقطـتين». وفيمـا يخـصّ «إقلـيم»[45] ميرويـه، فـإن فيلـون الـذي صـنّف وصـفاً لرحلتـه البحريـة إلى إثيوبيـا، يـروي أن الشـمس هنـاك تقـع في السـمت قبـل 45 يومـاً مـن الانقـلاب الصـيفي؛ كمـا يشـير أيضـاً إلى علاقـة الميْـل[*] بالظـلّ أثنـاء الانقـلاب وأثنـاء الاعتدال، وإيراتوسفين نفسه يوافق فيلون تمام الموافقـة. ولكـنّ أحـداً لم يقـدّم معطيـات عن «إقليم» الهند، بمن فيهم إيراتوسفين. وإذا صحّ فعلاً أن الدبّين يغربان في الهند (كمـا يفترضون استناداً إلى أدلة نيـارخس وأنصـاره)، فإنـه لا يمكـن عندئـذٍ أن تكـون ميرويـه وأطـراف الهنـد علـى دائـرة عـرض واحـدة. ولكـن إذا كـان إيراتوسـفين ينضـمّ إلى مـن يزعمون أن الدبّين يغربان في الهند، فإننـا نسـأل، كيـف يمكـن إذن أن نقـول، إن أحـداً لم يخبّر عن «أقاليم» الهند، حتّى إيراتوسفين نفسـه. فقـول إيراتوسـفين يخـصّ «الإقلـيم». وإذا كـان إيراتوسـفين لا يوافـق علـى خـبر غـروب الـدبّين، فليـبرّؤوه مـن التهمـة. وهـل إيراتوسـفين غـير موافـق حقّـاً! بـل الأكـثر مـن هـذا، إنـه عنـدما أعلـن ديمـاخ زعمـه بـأن الـدبين لا يغربـان في أي مكـان مـن الهنـد، وأن الظـلال لا تسـقط في الاتجـاه المعـاكس (كما ظنّ ميغاسفين)، اتّهمه إيراتوسفين بالجهل، إذ عدّ أن الرابط بين الأفكار باطل: بحسب اعتراض هيبارخ أن الموضوعة الباطلة في هذا الرابط، موضوعة الظلال لا تسقط في الاتجاه المعاكس، تقترن بالموضوعة الباطلة الأخرى، موضـوعة غـروب الـدبّين. وحتّـى لو لم تكـن الأطراف الجنوبية من الهند تعلـو قبالـة ميرويـه، فإنـه مـن الواضـح أن هيبـارخ يسلّم أنها تعلو في أقلّ تقدير، بعيداً إلى الجنوب من سيينا[46].

21- وفيما يلي من عرضه، يعـود هيبـارخ إلى المسـائل نفسـها، ويطـرح مـن جديـد الطروحات التي كنا قد دحضناها، مستنداً في غضون ذلك على مقدّمات أخرى باطلـة، أو طارحـاً اسـتنتاجات باطلـة. أولاً، لا ينـتج مـن زعـم إيراتوسـفين أن المسـافة مـن بابـل إلى

*ـ guomon = ما يتبقّى من متوازي الأضلاع بعد أن يقتطع من إحدى زواياه متوازي أضلاع آخر.
Guomon = عقرب الساعة الشمسية. الميل.ـ م.

فابساك تساوي 4800 مرحلة، ومن هناك شمالاً حتّى جبال أرمينيا 2100 مرحلة، لا ينتج من هذا البتّة أن المسافة من بابل على خطّ الطول الذي يعبرها، إلى الجبال الشمالية، هي أكثر من 6000 مرحلة. ثانياً، لا يقول إيراتوسفين، إن المسافة من فابساك إلى الجبال تساوي 2100 مرحلة، بل يبقى جزء غير مقيس من هذه المسافة، ولذلك فإن النتيجة التي تنجم عن مقدّمة غير متماثلة، لا فاعلية لها. ثالثاً، لم يقل إيراتوسفين في أي مكان إن فابساك تقع إلى الشمال من بابل بأكثر من 4500 مرحلة.

22- وفي سعيه للحفاظ على وقار الخرائط القديمة، لا يسوق هيبارخ الكلمات الحقيقية التي استخدمها إيراتوسفين في حديثه عن «السفراجيدس»[47] الثالثة، بل يؤلّف ما قاله عن هذا ليحقّق به رضاه عن نفسه، وليسهل سبيل دحضه. لأنّ إيراتوسفين، تماشياً مع موضوعاته الآنفة عن السلسلة الجبلية والبحر المتوسّط، يقسم المسكونة في هذا المكان، بهذا الخطّ إلى قسمين، فيدعو القسم الأول بالقسم الشمالي، والآخر بالقسم الجنوبي ثمّ يحاول أن يقسم كلّ قسم إلى المقاطع ذات الصلة ويدعوها «سفراجيدس». وعلى هذا النحو دعا الهند بالسفراجيدس الأولى، وآريانا بالسفراجيدس الثانية (لأنه من السهل تحديد ملامحهما)، وهذا ما وفّر له إمكانية لتحديد طول كلّ منهما وعرضها، ورسم تصوّر ما عن هيأة كلّ منهما، كما لو كان مهندساً. فعلى حدّ قوله، أولاً، إن للهند شكلاً يشبه شكل المعيّن[48]، لأنّ جهتين من جهاتها الأربع تشاطئان البحر (الجهة الجنوبية والجهة الشرقية)، الذي يشكّل ساحله من غير مضائق، ومن الجهتين الأخريين واحدة يفصلها جبل[49]، والأخرى نهر[50]؛ وتبقى على جهتيها هاتين هيأة تشبه الهيأة المستقيمة الشكل. وثانياً، مع أنه يرى أن لآريانا بالحدّ الأدنى، ثلاث جهات ملائمة لتشكيل هيأة متوازي أضلاع، ومع أنه لا يستطيع أن يحدّد الجهة الغربية منها بنقاط رياضية دقيقة، لأنّ القبائل القاطنة هناك متداخل بعضها مع بعض[51]، لكنّه يحدّد هذه الجهة بخطّ [52] ما يبدأ من البوابات القزوينية وينتهي عند قمم كارمانيا قرب الخليج الفارسي. وعلى هذا المنوال، يدعو إيراتوسفين هذا الجانب بالجانب الغربي، والجانب الذي يمتدّ على طول مجرى الهندوس، بالجانب الشرقي، بيد أنه لم ير أنهما متوازيان، كما أنه لا يرى أيضاً أن الجانبين الآخرين متوازيان (أحدهما يفصله جبل، والآخر يفصله بحر)، ويدعوهما «شمالياً»، و«جنوبياً» وحسب.

23- وهكذا إذا كان إيراتوسفين يصوّر السفراجيدس الثانية بملامحها العامّة إلى حدّ ما، فإنه يقدّم لنا الثالثة في صورة ساذجة تقريبية، ولأسباب كثيرة. ونحن كنا قد أشرنا إلى السبب الأول: الجهة التي تبدأ من البوابات القزوينية وتمتدّ حتّى كارمانيا (السفراجيدس العامّة، والثالثة، والثانية)، لم تتحدّد بوضوح؛ ثانياً، لأنّ الخليج

الفارسي يقتحم الجهة الجنوبية، كما يقول إيراتوسفين نفسه، ولذلك وجد نفسه مرغماً على اعتماد الخطّ الذي يبدأ في بابل ويمرّ عبر سوسا وبرسيبوليس حتّى حدود كارمانيا وبرسيا، على أنه خطّ مستقيم، حيث يمكن أن تجد هنا طريقاً مطروقة مقيسة بدقّة امتدادها أكثر بقليل من 9000 مرحلة. ويدعو إيراتوسفين هذه الجهة بالجهة «الجنوبية»، بيد أنها ليست موازية للجهة الشمالية. ومن الواضح بعد ذلك أن الفرات، الذي يعدّ عنده حدّ الجهة الغربية، لا يشكّل أيّ خطّ مستقيم في أيّ مكان؛ فهو يجري في البداية من الجبال جنوباً، ثمّ ينعطف شرقاً، ومرّة أخرى جنوباً حتّى مصبّه في البحر. ويتحدّث إيراتوسفين نفسه عن تعرّج مجرى النهر، عندما يتحدّث عن هيأة وادي الرافدين التي تتشكّل من ملتقى نهري دجلة والفرات، وبحسب قوله، إنها تشبه السفينة القديمة. عدّاك عن ذلك أنه فيما يخصّ المسافة من فابساك إلى أرمينيا، فإن إيراتوسفين لا يعرف أنها، وهي الجهة الغربية المحدودة بنهر الفرات، مقيسة بكاملها، فيؤكّد أنه لا يستطيع أن يحدّد مدى امتداد الجزء المجاور لأرمينيا والجبال الشمالية، لأنه غير مقيس. وهكذا، استناداً إلى هذا كلّه، رسم إيراتوسفين لهذا الجزء الثالث ملامح عامّة لصورة مبهمة. فبحسب قوله، إنه جمع حتّى المعطيات عن المسافات، من المذكرات اليومية لكثير من المؤلّفين الذين دوّنوها أثناء رحلاتهم يوماً بيوم (وهو يقول، إن كثيراً منها لم يكن يحمل عنواناً). وعلى هذا النحو يبدو هيبارخ غير محق على الأرجح، إذ يعارض هذا النوع من الوصف العام انطلاقاً من وجهة نظر هندسية، فنحن ينبغي أن نشكر كلّ الذين أطلعونا بهذا الشكل أو ذاك على طبيعة هذه البلدان. ولكن عندما يطرح هيبارخ فرضياته الهندسية، من غير حتّى أن يلتفت إلى ما قاله إيراتوسفين، بل يختلقها على مسؤوليته الشخصية، فإنه بهذا يعبّر بوضوح أكثر عن حالة الغرور التي يعيشها.

24- وعلى هذا النحو، فإنه قدّم لنا القسم الثالث، بحسب ما يقول إيراتوسفين، «بصورة فظة، مبهمة، وبملامح عامّة»، بطول 10.000 مرحلة من البوابات القزوينية حتّى الفرات. وبعد أن يقسّم هذه المسافة إلى مقاطع، يقيسها كما وجدها محدّدة لدى الآخرين، لكنّه يبدأ بها وفق ترتيب معكوس، من الفرات ومعبره عند فابساك. ثمّ يعتمد تبعاً لذلك، المسافة من الفرات إلى دجلة في المكان الذي عبر فيه الإسكندر هذا النهر، بـ 2400 مرحلة؛ ومن هنا إلى الأماكن التالية عبر غاوغاميلا، وليك، وأربيل، وإيكباتانا (على الطريق التي سلكها داريوس فارّاً من غاوغاميلا إلى البوبات القزوينية)، فأتمّ هذه الـ10.000 مرحلة مضيفاً إليها 300 مرحلة فقط. وبطريقة ما يحدّد إيراتوسفين أبعاد الجهة الشمالية من غير أن يعدها موازية للجبال أو للخطّ

الذي يمرّ عبر أعمدة هرقل، وأثينا، ورودوس. وتقع فابساك على مسافة كبيرة من الجبال، وتتقاطع السلسلة الجبلية والطريق التي تبدأ من فابساك، عند البوابات القزوينية. هذه هي الحدود الشمالية للسفراجيدس الثالثة.

25- وبعد أن يصف الجهة الشمالية على هذه الصورة، يقول إيراتوسفين، إنه لا يمكن تصوّر الجانب الجنوبي ممتدّاً على طول شاطئ البحر، لأنّ الخليج الفارسي يقتحمه؛ ولكنّه يزعم أن المسافة من بابل عبر سوسا وبرسيبوليس إلى حدود برسيا وكارمانيا تشكّل 9200 مرحلة. ويدعو هذه الجهة بالجهة «الجنوبية»، لكنّها ليست موازية للجهة الشمالية. أمّا الفرق في الطول بين الجهة الشمالية والجنوبية، فإنه ناجم بحسب قوله، من كون نهر الفرات يجري جنوباً إلى نقطة معيّنة، ثمّ ينعطف بشدّة نحو الشرق.

26- وفي بادئ الأمر يختار إيراتوسفين من بين الجهتين العرضانيتين، الجهة الغربية ليتحدّث عنها، ولكنّنا لا نعرف ماهيّة هذه الجهة، وهل تتألف من خطّ واحد، أم من خطّين، فالأمر يبقى مبهماً وغير واضح. فهو يحسب 4800 مرحلة من المعبر الواقع عند فابساك على طول مجرى الفرات حتّى بابل، ومن هناك حتّى مصبّ الفرات عند مدينة تيريدون 300 مرحلة. أمّا المسافة من فابساك إلى الشمال، فقد قيست حتّى البوابات الأرمينية، وهي تشكّل حوالي 1100 مرحلة؛ ولكنّ المسافة عبر غورديا وأرمينيا، لم تقس بعد، ولذلك تركها إيراتوسفين ولم يدرسها. بيد أن مقطعاً واحداً من الجهة الشرقية، وهو المقطع الذي يتّجه عبر برسيا من البحر الأحمر[53] إلى ميديا ثمّ شمالاً، يرى إيراتوسفين أنه يمتدّ على ما لا يقلّ عن 8000 مرحلة. ولكنّ هذه المسافة سوف تتجاوز 9000 مرحلة إذا ما بدأنا الحساب من بعض الرؤوس البحرية؛ أمّا المقطع الآخر [الذي يمتدّ] عبر باريتاكينا[54] وميديا حتّى البوابات القزوينية، فهو يشكّل حوالي 3000 مرحلة. وبحسب قوله فإن نهريّ دجلة والفرات، اللذين يجريان من أرمينيا جنوباً، فيحيدان عن جبال غورديا ليرسما قوساً كبيراً يحتوي في جوفه مساحات كبيرة من الأراضي، هي بلاد ما بين النهرين، ينعطفان نحو الشروق الشتوي للشمس[55]، ثمّ جنوباً، خاصة نهر الفرات. والفرات إذ يقترب دائماً من دجلة، عندما يجاور سور سميراميس وقرية تدعى أبيس (على بعد 200 مرحلة من الفرات)، يجري عبر بابل ثمّ يصبّ في الخليج الفارسي. ويقول إيراتوسفين: «وعلى هذه الصورة تغدو هيأة بلاد ما بين النهرين وبابل شبيهة بالسفينة القديمة». وهذه الكلمات هي كلمات إيراتوسفين.

27- وفيما يخصّ السفراجيدس الثالثة، يرتكب إيراتوسفين بعض الأخطاء

الأخرى (وسوف أناقشها هنا)، بيد أنه لا يستحق أبداً كلّ ذلك اللوم الذي وجهه إليه هيبارخ. فلنر إذن ما قاله هيبارخ. لمّا أراد أن يؤسس لزعمه الأولي بأنه لا ينبغي أن توضَع الهند أبعد نحو الجنوب (كما يطلب إيراتوسفين) قال هيبارخ، إن البرهان الساطع على هذا سوف يستند إلى ما قاله إيراتوسفين نفسه. وبعد أن قال بادئ ذي بدء، إن المقطع الثالث يتحدّد في جهته الشمالية بالخطّ الممتدّ من البوابات القزوينية إلى الفرات (امتداده عشرة آلاف مرحلة)، يضيف إيراتوسفين، أن الجهة الجنوبية التي تمتدّ من بابل إلى حدود كارمانيا يبلغ طولها أكثر من 9000 مرحلة بقليل، أمّا الجهة الغربية منه، من فابساك على طول مجرى الفرات إلى بابل، فهي تمتدّ على 4800 مرحلة، ثمّ من بابل إلى مصبّ الفرات 3000 مرحلة؛ أمّا فيما يخصّ الجهة الواقعة إلى الشمال من فابساك، فإن مقطعاً واحداً منها قد قيس فقط، ويصل [امتداده] إلى 1100 مرحلة، ولا يزال الباقي غير مقيس بعد. وفي هذه الحالة، يقول هيبارخ، بما أن الجهة الشمالية من المقطع الثالث تشكّل 10.000 مرحلة، وأن الخطّ الموازي لها مباشرة من بابل إلى الجهة الشرقية، يمتدّ وفق حسابات إيراتوسفين على أكثر من 9000 مرحلة بقليل، فإنه من الواضح أن بابل تقع إلى الشرق من المعبر الواقع عند فابساك بأكثر من 10.000 مرحلة بقليل[56].

28- وأنا أجيب على هذا بما يلي: إذا ما سلّمنا بأن البوابات القزوينية وحدود كارمانيا وبرسيا تقع تحديداً على خطّ طول واحد، وإذا ما مددنا خطّاً إلى فابساك، وخطّاً إلى بابل بزاوية قائمة من خطّ الطول المستقيم، عندئذٍ يكون الأمر على هذا النحو طبعاً. والواقع أن الخطّ المتواصل عبر بابل[57] إلى خطّ الطول المستقيم عبر فابساك، كان سيبدو للعين مستقيماً أو شبه مستقيم من البوابات القزوينية حتّى فابساك؛ ولذلك كانت بابل ستظهر إلى الشرق من فابساك بالقدر الذي يزيد فيه طول الخطّ من البوابات القزوينية إلى فابساك على طول الخطّ من حدود قزوين إلى بابل. ولكن، أولاً، لم يزعم إيراتوسفين أن الخطّ الذي يحدّد الجهة الغربية من آريانا، يقع على خطّ طول؛ كما لم يقل أيضاً، إن الخطّ من البوابات القزوينية إلى فابساك يقع بزاوية قائمة على خطّ الطول الذي يمرّ عبر البوابات القزوينية، وعلى أغلب الظنّ أنه تحدّث عن الخطّ الذي تشكّله السلسلة الجبلية والذي يشكّل الخطّ إلى فابساك معه زاوية حادّة، لأنّ هذا الخطّ الأخير ممدود إلى الأسفل[58] من النقطة عينها التي ينطلق منها الخطّ الذي تشكّله السلسلة الجبلية. ثانياً، لم يصف إيراتوسفين الخطّ الممدود إلى بابل من كارمانيا بأنه خطّ مواز للخطّ الممدود إلى فابساك، ولو كان خطّاً موازياً وليس متعامداً على خطّ الطول المارّ عبر البوابات القزوينية، لما حقّق هيبارخ من هذا أيّ نجاح.

29- ولكنّ هيبارخ أسرع ليعتمد هذه الموضوعات بصفتها موضوعات مثبتة وبيّن (كما ظنّ) أن بابل تقع بحسب إيراتوسفين إلى الشمال من فابساك بأكثر من 1000 مرحلة بقليل، وعاد ليختلق من جديد موضوعة لبرهانه التالي؛ فهو يقول، لو تخيّلنا خطّاً مستقيماً يمتدّ من فابساك إلى الجنوب، وخطّاً متعامداً عليه يمتدّ من بابل، فإننا سنحصل على مثلث قائم الزاوية يتألّف من الجهة الممتدّة من فابساك إلى بابل، ومن الخطّ العمودي الممتدّ من بابل حتّى خطّ الطول الذي يمرّ عبر فابساك، ومن خطّ الطول عينه الذي يعبر فابساك. ثمّ يجعل هيبارخ من جهة هذا المثلث الممتدّة من فابساك إلى بابل وتراً يساوي 4800 مرحلة؛ ويفترض أن امتداد الخطّ العمودي من بابل إلى خطّ الطول الذي يعبر فابساك، أقلّ من 1000 مرحلة بقليل، أي بالقدر الذي تزيد فيه المسافة إلى فابساك[59] امتداد الخطّ الواصل إلى بابل[60]. وعلى هذا يحسب هيبارخ أن الضلع الأخرى من الجهتين، أي تلك التي تشكّل زاوية قائمة، أطول بمرّات من الخطّ المتعامد المذكور. ويضيف إلى هذا، طول الخطّ المتواصل من فابساك شمالاً حتّى جبال أرمينيا، وهو الخطّ الذي يقول إيراتوسفين إن أحد مقاطعه مقيس. ويبلغ امتداده ألفاً ومئة مرحلة، أمّا المقطع الآخر منه، فيرى أنه غير مقيس. ويعتمد هيبارخ امتداد الجهة الأخيرة مساوياً 1000 مرحلة بالحدّ الأدنى، بحيث يشكّل امتداد الجهتين معاً 2100 مرحلة؛ وإذ يضيف هذا الرقم إلى امتداد ضلع [61] الزاوية القائمة في المثلث والتي تتمدد حتّى الخطّ المتعامد النازل من بابل، يحسب هيبارخ المسافة من الجبال الأرمينية ودائرة العرض المارة عبر أثينا، حتّى الخطّ المتعامد من بابل، بعدة آلاف من المراحل (ويفترض أن هذا الخط عمودي على دائرة العرض التي تعبر بابل). وهو يشير في أقل تقدير، إلى أن المسافة من دائرة العرض التي تعبر أثينا حتّى دائرة العرض التي تعبر بابل، لا تتجاوز 2400 مرحلة، إذا ما سلمنا أن طول خطّ الطول كلّه مساو لما حسبه إيراتوسفين. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإنه ليس بمقدور الجبال الأرمينية والسلسلة الجبلية أن تقعا عندئذٍ على دائرة العرض التي تمرّ عبر أثينا (كما يزعم إيراتوسفين)، إنّما على بعد آلاف المراحل إلى الشمال، بحسب ما يؤكّد إيراتوسفين نفسه. وإضافة إلى أنه يستخدم في هذه النقطة موضوعات تمّ دحضها ليبني عليها مثلثه القائم الزاوية، فإن هيبارخ يقبل أيضاً الموضوعة الآتية التي ليس لها ما يدعمها قط؛ وهي أن وتره المذكور، هو خطّ مستقيم يمتدّ من فابساك إلى بابل، ويشكّل 4800 مرحلة. إن إيراتوسفين لا يؤكّد فقط أن هذه الطريق تسير على طول مجرى الفرات، لكنّه يقول أيضاً، عندما يخبر أن وادي الرافدين وبابل تحيط بهما دائرة كبيرة يشكّلها الفرات ودجلة، إن الفرات هو الذي يشكّل الجزء الأكبر من هذه الدائرة. ولذلك لا يمكن لخطّ مستقيم

من فابساك إلى بابل أن يمتدّ على طول مجرى الفرات، ويكون طوله هذا العدد الكبير من المراحل، أو حتّى ما يقارب ذلك. وعليه فإن حسابات هيبارخ تسقط. ولكن، كما قلت آنفاً، إذا ما سلّمنا بمدّ خطّين من البوابات القزوينية، أحدهما إلى فابساك والآخر إلى ذلك الجزء من الجبال الأرمينية الذي تتوافق وضعية موقعه مع وضعية موقع فابساك (وهذا الجزء يبعد بحسب هيبارخ 2100 مرحلة عن فابساك كحدّ أدنى)، فإن هذين الخطّين لا يمكن أن يكونا خطّين متوازيين مع الخطّ الذي يعبر بابل، وهو الخطّ الذي دعاه إيراتوسفين «الجهة الجنوبية». ولكن بما أنه لم يكن بمقدور إيراتوسفين أن يعدّ الخطّ الممتدّ على طول السلسلة الجبلية مقيساً، فإنه أكّد فقط، أن الطريق من فابساك إلى البوابات القزوينية مقيسة، وأضاف جملة- «بالملامح العامّة». زد إلى هذا أنه بما أن إيراتوسفين لم يرغب إلا في أن يحدّد طول البلاد الواقعة بين آريانا والفرات، فإنه لن يكون هناك فرق كبير فيما لو قاس هذا الخطّ أو الخطّ الآخر. ولكن عندما يسلّم هيبارخ بأن إيراتوسفين يرى أن هذين الخطّين متوازيان، فإنه يتهم الرجل بوضوح، بقصور معرفي لا يليق إلاّ بالأطفال. ولذلك يجب تجاهل أدلته هذه بصفتها أدلّة ساذجة.

30- أمّا الاعتراضات التي يمكن تسجيلها ضدّ إيراتوسفين، فإنها الآتية. كما أن التقطيع [في الجراحة] وفق المفاصل يختلف عن التقطيع العرضي وفق الأجزاء (فالتعامل في الحالة الأولى هو فقط مع الأجزاء التي لها حدود طبيعية، ووفق بعض تجزيء المفاصل وشكلها المحدّد، بالمغزى الذي يقصده هوميروس إذ يقول:

لقد قطعهما معاً إلى أجزاء

(*الإلياذا* XXIV، 409)

بينما ليس ثمّة ما يجمع الطريقة الأخرى من التقطيع مع هذه)، فإننا نستخدم تبعاً لذلك، هذا النوع من العمليات وذاك تبعاً للوقت والحاجة؛ كذلك في ميدان الجغرافيا أيضاً ينبغي أن نجري عملية التقطيع إلى أجزاء، عندما نكون بصدد تناول التفاصيل، بيد أنه ينبغي علينا غالباً، أن نحاكي التقطيع حسب المفاصل، لا التقطيع العرضي. فعلى هذا النحو فقط يمكننا أن نحدّد المواقع المهمّة والحدود الدقيقة وهذا ما تحتاجه الجغرافيا. فحدود البلاد تتحدّد بدقّة عندما يمكن تحديدها بأنهار، بجبال أو ببحر، بقبيلة أو قبائل، وأخيراً بحجمها أو هيأتها حيث يمكن ذلك. ولكن على وجه العموم، يمكن أن نكتفي بالتحديد البسيط بالملامح العامّة، بدلاً من التحديد الهندسي. و على هذا النحو فإنه يكفي فيما يخصّ حجم البلاد، أن نشير إلى أقصى امتدادها بالطول والعرض (فطول المسكونة مثلاً، يشكّل حوالي70.000مرحلة، وعرضها أقل من نصف

طولها بقليل)؛ أمّا فيما يتعلّق بالهيأة فإنه [يكفي] أن نشبّه البلاد المعنية بأيّ شكل هندسي كان (صقليا مثلاً، تشبه مثلث)، أو بأيّ شكل معروف آخر (إيبيريا مثلاً، تشبه جلد الثور، والبيلوبونيز تشبه ورقة الدلب)[62]. وبقدر ما تكون المنطقة المفلوقة أكثر اتساعاً، بقدر ما يكون تقطيعها تقريبياً.

31- إذن، لقد أصاب إيراتوسفين إذ قسم المسكونة إلى قسمين الحدّ بينهما سلسلة جبال طوروس والبحر الذي عند أعمدة هرقل. وفي القسم الجنوبي تتحدّد حدود الهند بوسائل كثيرة - بالجبل، بالنهر، بالبحر، وبتسمية واحدة كأنها تسمية مجموعة قبلية واحدة، وعليه فقد أصاب إيراتوسفين حين دعاها رباعية الجهات وشبيهة المعيّن. أمّا آريانا فلها ملامح أقلّ دقّة[63]، لأنّ جهتها الغربية تندغم مع الجهات الأخرى، لكنّها تتحدّد مع ذلك بثلاث جهات بما يشبه الخطوط المستقيمة، وباسم آريانا، وهو اسم إحدى المجموعات القبلية. بيد أن ملامح السفراجيدس الثالثة لا يمكن تحديدها إطلاقاً، وفي الأحول كلّها لا يمكن تحديدها على الوجه الذي حدّدها فيه إيراتوسفين. فالجهة المشتركة بينها وبين آريانا تتلاشى، كما أشرت آنفاً، وحدود جهتها الجنوبية تقريبية جدّاً؛ لأنها لا ترسم حدود السفراجيدس (لأنها تمرّ عبر مركزها تاركة مناطق كثيرة في الجنوب)، ولا تشكّل أقصى حدود طولها (لأن الجهة الشمالية أطول)؛ ولا يشكّل الفرات جهتها الغربية (حتّى لو سار مجراه مستقيماً)، لأن نقطتيه الطرفيتين- منبعه ومصبّه- لا تقعان على خطّ طول واحد. فلماذا إذن يمكن أن ندعو هذه الجهة غربية أكثر منها جنوبية؟ عدّاك عن هذا أن المدى المتبقي بين هذا الخطّ والبحرين الكيليكي والسوري، ليس كبيراً، ولذلك ليس ثمّة أساس مقنع لما يحول دون مواصلة حدود هذه السفراجيدس حتّى هذه النقطة، لا سيما أن سميراميس ونين تدعيان سريانيتين (لقد أسّست سميراميس بابل وجعلتها عاصمة المملكة، وجعلت نينوى- نين، عاصمة سوريا)، بل حتّى لغة الشعب حتّى يومنا هذا، هي نفسها على جانبي الفرات. وهنا على وجه التحديد لم يكن من الجائز أبداً تجزيء مثل هذا الشعب العريق وضم أجزائه إلى قبائل غريبة. ولا يمكن القول، إن إيراتوسفين كان مرغماً على أن يفعل ذلك، آخذاً أبعاد السفراجيدس الثالثة بعين الحسبان، لأنه لو أضفنا إلى هنا المناطق الممتدّة حتّى البحر المتوسّط، فإن السفراجيدس الثالثة لا تقارن حتّى في هذه الحالة من حيث الحجم، لا مع الهند ولا حتّى مع آريانا، بل حتّى لو ألحقنا بها أيضاً كلّ الأراضي الممتدّة حتّى حدود العربية السعيدة ومصر. وعليه فقد كان من الأفضل كثيراً لو مدّت أمداء السفراجيدس الثالثة لتشمل هذه الأرجاء، وتحدّدت جهتها الجنوبية عن طريق

إضافة هذه المنطقة الصغيرة الممتدّة حتّى البحر السوري إليها، ولكن لا كما يفعل هـذا إيراتوسفين، ولا على شكل خطّ مستقيم، إنّما على وجه تمتدّ فيه هـذه السفراجيدس على الخـطّ الساحلي مـن جهـة اليمين (إذا أبحـرت مـن كارمانيـا علـى طـول الخلـيج الفارسي حتّى مصبّ الفرات)، ثمّ تلامس حدود ميسينا وبابل (هنـاك حيث يبدأ البرزخ الذي يفصل العربية السعيدة عن باقي القارّة)، وأخيراً تقطع هذا البرزخ لتصل إلى وهـدة الخليج العربي وبيلوسي، بل حتّى إلى مصبّ النيل عند كانوب. هذا ما كان يمكـن أن تكونـه الجهة الجنوبيـة؛ أمّا الجهـة الأخـرى، أو الجهـة الغربيـة، فقـد كـان يمكـن أن تمتدّ على طول الخطّ الساحلي من مصبّ النيل عند كانوب إلى كيليكيا.

32- ويمكـن أن تتـألّف السـفراجيدس الرابعـة عندئـذٍ، مـن العربيـة السـعيدة، والخلـيج العربـي، ومصـر كلّهـا، وإثيوبيـا. وسـوف يكـون طـول هـذا المقطـع مسـافة محـدودة بخطّـي طـول، يمتـدّ أحـدهما عبـر أقصـى نقطـة في غربـي هـذا المقطـع، ويمتـدّ الآخر عبر أقصى نقطة شرقية فيه. وسـوف يكـون عرضـه مسـافة محصـورة بـين دائرتـي عـرض، إحـداهما تمتـدّ عـبر أقصـى نقطـة شماليـة، وتمتـدّ الأخـرى عـبر أقصـى نقطـة جنوبيـة؛ لأنـه عنـدما تكـون لـدينا أشـكال غـير صـحيحة، لا يمكـن تحديـد طولهـا وعرضها حسب الجهات، فإنه ينبغـي عندئـذٍ تحديـد أبعادهـا علـى هـذا النحـو. ويجـب أن ننوّه على وجه العموم، إلى أن مفهوم «طول» و«عرض» لا يستخدمان بمغـزى واحـد عنـدما يجري الحديث عن الكلّ الكامل، والجزء. ففي الكلّ الكامل تدعى المسافة الأكبر «طولاً»، والأصغر «عرضاً»، أمّا في الجزء فإننا ندعو مقطع الجـزء المـوازي لطـول الكـلّ الكامل، طولاً؛ ولا فرق في هذه الحالة أيّ القياسين أكبر، بل حتّـى لـو كانـت المسـافة التي عدت عرضاً أكبر من المسافة التي عدّت طولاً. وبمـا أن المسـكونة تمتـدّ طـولاً مـن الشرق إلى الغرب، وعرضاً من الشمال إلى الجنوب، وبما أن طولها ممتدّ على خطّ مـواز لخـطّ الاسـتواء، وعرضـها علـى خـطّ طـولي، فإنـه ينبغـي علينـا أن نعتمـد كـلّ المقـاطع الموازية لطول المسكونة «طولاً» لأجزائهـا، وكـل المقـاطع الموازيـة لعرضـها «عرضـاً» لهـا. فبهذه الطريقة يمكننا أن نحدّد على وجه أفضل أولاً، حجم المسكونة، وثانياً، وضعية أجزائهـا وشـكل كـلّ منهـا، لأنـه سـوف يتّضـح لـدى عقـد مثـل هـذه المقارنـة، مـا هـي العلاقة بين أبعاد كلّ جزء من أجزائها من حيث كونه أكبر من الآخر أم أصغر منه.

33- ويشـار إلى أن إيراتوسـفين يأخـذ طـول المسـكونة علـى خـطّ عـبر أعمـدة هرقل، والبوابات القزوينية، والقفقاس، كأنه خطّ مستقيم؛ ويأخذ طول المقطع الثالث على الخطّ الذي يعبر البوابات القزوينية وفابساك؛ وطول المقطع الرابع على الخطّ الـذي

يعبر فابساك وهيرونبوليس إلى منطقة تقع بين مصبّات النيل، وهو الخطّ الذي يجب أن ينتهي عند كانوب والإسكندرية؛ فآخر مصبّات النيل، ويدعى مصبّ كانوب، أو المصبّ الهرقلي، يقع في هذا المكان. وهكذا سواء وضّع هو خطّي الطول هذين على امتداد واحد وواحدهما وراء الآخر، أو وضّعهما بحيث يشكّلان زاوية عند فابساك، فإنه يتّضح مما قاله أن أيّاً منهما ليس بموازاة طول المسكونة. فهو يحدّد طول المسكونة بسلسلة الجبال والبحر المتوسّط مباشرة حتّى أعمدة هرقل، وبخطّ يمتدّ عبر القفقاس، ورودوس، وأثينا، وهو يؤكّد أن المسافة من رودوس إلى الإسكندرية على خطّ الطول المارّ عبر هذه الأماكن، يزيد قليلاً على 4000 مرحلة؛ وعليه فإن الخطّين الموازيين لدائرة عرض رودوس والإسكندرية يجب أن يكون واحدهما بعيداً عن الآخر بما يساوي هذه المسافة عينها. والخطّ الموازي لدائرة عرض هيرونوبوليس هو تقريباً خطّ الإسكندرية نفسه، أو في الأحوال كلّها إلى الجنوب من هذا الأخير، بالتالي فإن الخطّ الذي يقطع الخطّ الموازي لدائرة عرض هيرونوبوليس هو تقريباً خطّ الإسكندرية نفسه، أو في الأحوال كلّها إلى الجنوب من هذا الأخير، بالتالي فإن الخطّ الذي يقطع الخطّ الموازي لدائرة عرض هيرونوبوليس، ودائرة عرض رودوس والبوابات القزوينية (سواء كان خطّاً مستقيماً أو منكسراً)، لا يمكن أن يكون على موازاة أيّ منهما. وفي الأحوال كلّها، فإن اعتماد إيراتوسفين دوائر العرض لم يكن صحيحاً، كما أن اعتماده الأجزاء الممتدّة إلى الشمال[64]، ليس صحيحاً هو الآخر.

34- لنعد إلى هيبارخ ونناقش محاكماته الأخرى. فهو إذ يختلق موضوعات بتصرّف، يواصل بدقّة هندسية، دحض الموضوعات التي طرحها إيراتوسفين بخطوط عامّة. فيقول، إن إيراتوسفين يحدّد المسافة من بابل إلى البوابات القزوينية بـ 6700 مرحلة، وإلى حدود كارمانيا وبرسيا بأكثر من 9000 مرحلة على خطّ يمتدّ مباشرة إلى الشرق المعتدل[65]، وأن هذا الخطّ يغدو عمودياً على الجهة المشتركة بين السفراجيدس الثانية والثالثة، بحيث يتشكّل بحسب إيراتوسفين، مثلث قائم الزاوية، تقع زاويته القائمة هذه عند حدود كارمانيا، ووتره أقصر من إحدى الجهات التي تشكّل الزاوية القائمة[66]. وعلى هذا النحو، يضيف هيبارخ، فإن إيراتوسفين مرغم على أن يجعل برسيا جزءاً من السفراجيدس الثانية. وأنا كنت قد أجبت على هذا وقلت، إن إيراتوسفين لا يرى أن المسافة من بابل إلى كارمانيا تقع على خطّ عرض واحد، ولم يتحدّث عن خطّ مستقيم يفصل بين السفراجيدسين حديثه عنه كخطّ طول. وعليه فإن هيبارخ بحجته هذه لم يعارض إيراتوسفين في شيء، ولم ينطق بأيّ

كلمة حق في استنتاجه الذي تلا. فبما أن إيراتوسفين عدّ الـ6700 مرحلة المذكورة، هي المسافة من البوابات القزوينية إلى بابل، والمسافة من البوابات القزوينية إلى سوسا 4900 مرحلة، والمسافة من بابل إلى سوسا 3400 مرحلة، فإن هيبارخ ينطلق مرّة أخرى من الأحكام نفسها ليزعم أن هذا يشكّل مثلثاً منفرج الزاوية رأسه عند البوابات القزوينية، في سوسا وبابل؛ وفي غضون ذلك فإن الزاوية المنفرجة سوف تقع في سوسا، وسيكون طول ضلعيها مساوياً للمسافة التي حدّدها إيراتوسفين. ثمّ يستنتج هيبارخ، أنه وفق هذه الأحكام فإن خطّ الطول الذي يمرّ عبر البوابات القزوينية، سوف يقطع خطّ العرض الذي يعبر بابل وسوسا في نقطة تقع إلى الغرب من تقاطع دائرة العرض هذه نفسها مع الخطّ المستقيم الذي يمتدّ من البوابات القزوينية إلى حدود كارمانيا وبرسيا، بأكثر من 4400 مرحلة؛ وسيشكّل الخطّ الذي يواصل امتداده عبر البوابات القزوينية إلى حدود كارمانيا وبرسيا، ما يقارب نصف زاوية مستقيمة مع خطّ الطول الذي يمرّ عبر البوابات القزوينية، ويميل متّجهاً نحو الوسط بين الجنوب والشرق المعتدل؛ ويقع نهر الهندوس في موازاة هذا الخطّ، فهو بالتالي لا يجري من الجبال نحو الجنوب كما يؤكّد إيراتوسفين، بل يجري بين الجنوب والشرق المعتدل، كما رسمته الخرائط القديمة. فمن يسلم إذن بأن المثلث الذي أنشأه هيبارخ الآن، سيكون منفرج الزاوية، إلاّ إذا سلّم بأن المثلث الذي يحتويه يعدّ مثلثاً قائم الزاوية[67]؟ ومن يوافق على أن إحدى الأضلاع التي تشكّل الزاوية المنفرجة (الخطّ الممتدّ من بابل إلى سوسا) تقع على موازاة دائرة العرض، إلاّ إذا سلّم بأن هذا ينطبق على كامل الخطّ إلى كارمانيا؟ ومن الذي يقرّ بأن الخطّ الممتدّ من البوابات القزوينية إلى حدود كارمانيا، مواز لنهر الهندوس؟ ولن يكون لبرهان هيبارخ أي قيمة من غير التسليم بهذا كلّه. ومن غير هذه المقدّمات زعم إيراتوسفين أن هيأة الهند تشبه شكل المعيّن، وكما أن جهتها الشرقية تمتدّ بعيداً نحو الشرق، خاصة طرفها الأخير (الذي يبرز أكثر نحو الجنوب بالمقارنة مع ما تبقّى من الشريط الساحلي) كذلك جهتها الممتدّة على طول مجرى نهر الهندوس، تمتدّ عميقاً نحو الشرق.

35- ويسوق هيبارخ هذه البراهين كلّها من وجهة النظر الهندسية، مع أن انتقاده لإيراتوسفين غير مقنع. ومع أنه هو [نفسه] ينسب لنفسه المبادئ الهندسية، إلاّ أنه يعفي نفسه منها، زاعماً أن الزّلاّت جائزة إذا كانت تتعلّق بالمسافات القصيرة. ولكن بما أنه من الواضح أن أخطاء إيراتوسفين تبلغ آلاف المراحل، لذلك لا يمكن التسامح معها[68]؛ وإيراتوسفين نفسه يعلن، كما يقول هيبارخ، أن الفرق حتّى إذا كان

في حدود 400 مرحلة، فإنه يكون واضحاً عندما يتعلّق الأمر بدوائر العرض، كما هي الحال مثلاً بين دائرتي عرض أثينا ورودوس. ولا يقتصر إدراك الفرق بين دوائر العرض على وسيلة وحدة، ولكن عندما يكون الفرق كبيراً، فإننا نعتمد وسيلة، ونعتمد أخرى إذا كان الفرق قليلاً؛ فحيثما يكون الحجم أكبر، نستطيع في الحكم على «الأقاليم»، أن نثق بما تراه العين المجرّدة، أو بخاصية الثمار، أو بحرارة الطقس الجويّ، وإذا كان الحجم صغيراً، فإننا نحدّد الفرق باستخدام الميْل والأدوات الديوبترية (الديوبتر، هو وحدة قياس الانكسار العيني- م.). وعلى هذا النحو فإن متوازيات أثينا، رودوس، كاريا التي قيست باستخدام الميل، أعطت فرقاً ملحوظاً (وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمثل هذه المسافة الكبيرة) في دائرة العرض. فإذا أخذ أحدهم مسافة عرضها 3000 مرحلة وطولها 40.000 مرحلة من السلاسل الجبلية إضافة إلى 30.000 مرحلة بحراً، ومدّ خطّاً من الغرب إلى الشرق المعتدل، ودعا المنطقتين اللتين على جانبي الخط واحدة بالجزء الجنوبي والثانية بالجزء الشمالي، ثمّ دعا جزأي هذين الجزأين الأخيرين «بلينثيا» أو «سفراجيدس»[(69)]، فإنه ينبغي أن نتبيّن الذي يقصد إليه بهذه المصطلحات، ولماذا يدعو جهات بالجهات الشمالية، وجهات أخرى بالجهات الجنوبية، ومرّة أخرى، لماذا يدعى بعضها غربياً وبعضها الآخر شرقياً. وإذا كان هو لا يلقي بالاً لزلاّت جدّية جداً، فيعلل لنا ذلك (وهذا مطلب محق)؛ أمّا الزّلاّت البسيطة، فإنه حتّى إذا ما تجاهلها، لا ينبغي أن يدان على ذلك. وهنا لا يجوز أن يلام إيراتوسفين على شيء. لأنه لا يمكن تقديم أي برهان هندسي لدى التعامل مع مثل دائرة العرض المهولة هذه، وحتّى حيثما يحاول هيبارخ أن يُقدّم برهاناً هندسياً، فإنه لا يستخدم المسلمات المتعارف عليها، بل يستخدم غالباً اختلاقات اختلقها للاستخدام الشخصي الخاص به.

36- لقد كان هيبارخ موفقاً أكثر في محاكماته بخصوص سفراجيدس إيراتوسفين الرابعة، مع أنه هنا أيضاً يفصح عن ميله لذمّ الآخرين والدفاع بعناد عن الفرضيات عينها أو عمّا يشبهها. فهو محقّ في انتقاده لإيراتوسفين لأنّ هذا الأخير يرى أن طول هذه السفراجيدس هو طول الخطّ الذي يمتدّ من فابساك إلى مصر، وكأني به يريد أن يدعو قطر متوازي الأضلاع طوله. ففابساك وساحل مصر لا يقعان على موازي دائرة العرض نفسها، بل على متوازيين متباعدين جدّاً، وبين هذين المتوازيين يمتدّ الخط من فابساك إلى مصر كأنه قطر مائل. ولم يكن هيبارخ محقّاً حينما استغرب كيف تجاسر إيراتوسفين على تحديد المسافة من بيلوسي إلى فابساك بـ 6000 مرحلة، في حين أنها أكثر من 8000 مرحلة. فهو إذ يقرّ بأنه من الثابت، أن دائرة العرض التي تمتدّ عبر

بيلوس تمرّ على بعد أكثر من 2500 مرحلة إلى الجنوب من دائرة العرض التي تمرّ عبر بابل[70]، ويؤكّد (استناداً إلى إيراتوسفين، كما يظنّ) أن دائرة العرض التي تعبر فابساك تقع على بعد 4800 مرحلة إلى الشمال من دائرة العرض التي تعبر بابل، يقول، إن المسافة بين بيلوسي وفابساك لا تزيد على 8000 مرحلة[71]. ولكن، كيف يمكننا أن نعلّل بحسب إيراتوسفين، أن المسافة التي تفصل بين دائرة العرض التي تمرّ عبر بابل وتلك التي تمرّ عبر فابساك، كبيرة إلى هذا الحدّ؟ فإيراتوسفين أكّد أن المسافة من فابساك إلى بابل 4800 مرحلة، بيد أنه لم يقل إن هذه المسافة قيست من دائرة العرض التي تمرّ عبر إحدى النقطتين، إلى دائرة العرض التي تمرّ عبر النقطة الأخرى؛ كما لم يقل أيضاً، إن فابساك وبابل تقعان على خطّ طول واحد. بل على العكس، إذ أن هيبارخ نفسه أشار إلى أن بابل تقع بحسب إيراتوسفين، على بعد أكثر من 2000 مرحلة إلى الشرق من فابساك[72]. وأنا كنت قد أوردت تأكيد إيراتوسفين، أن دجلة والفرات يحيطان ببلاد ما بين النهرين وبابل، وأن الفرات يشكّل الامتداد الأكبر من هذه الحلقة، لأنّ الفرات بجريانه من الشمال إلى الجنوب، ينعطف بعد ذلك نحو الشرق، ثمّ ثانية نحو الجنوب قبل مصبّه [في البحر]. وعليه فإن جريانه من الشمال إلى الجنوب يعدّ بمثابة جزء من خطّ طول ما، أمّا انعطافه شرقاً وإلى بابل، فلا يمثل انعطافاً عن خطّ الطول وحسب، إنّما هو انعطاف لا يقع على خطّ مستقيم نتيجة للإحاطة الدائرية المذكورة. لقد حدّد إيراتوسفين امتداد الطريق من فابساك إلى بابل بـ4800 مرحلة، مع أنه يضيف إلى هذا قوله «على امتداد مجرى الفرات»، كأنه يقصد بذلك ألاّ يعدنّ أحد هذه الطريق طريقاً مستقيمة أو معياراً لقياس المسافة بين خطّي عرض. وإذا ما دُحضت موضوعة هيبارخ هذه، فإن موضوعته التالية التي تبدو كأنها مثبتة، تلقى المصير عينه، وموضوعته المقصودة هنا تقول: إذا ما رسمنا مثلثاً قائم الزاوية رأسه في بيلوس، وفابساك، ونقطة تقاطع دائرة عرض فابساك مع خطّ طول بيلوس، عندئذٍ فإن واحدة من ضلعيّ الزاوية القائمة، وهي الضلع التي تقع على خطّ الطول، سوف تكون أطول من وتر المثلث، أي أطول من الخطّ الممتدّ من فابساك إلى بيلوسي[73]. وهذا ما ينفي أيضاً النتيجة التي تنجم عن هذه الموضوعة، لأنها مبنية على مقدّمات غير معترف بها. فمن المسلّم به أن إيراتوسفين لم يقر بفرضية أن المسافة من بابل إلى خطّ الطول الذي يمرّ عبر البوابات القزوينية تشكّل 4800 مرحلة. وأنا برهنت على أن هيبارخ بنى موضوعته هذه على مقدّمات لم يقرّها إيراتوسفين؛ ولكن، لكي يزعزع هيبارخ قوّة فرضيات إيراتوسفين، أقرّ بأن المسافة من بابل إلى الخطّ الممتدّ من البوابات القزوينية

حتّى حدود كارمانيا (كما اقترح إيراتوسفين مدّه)، تتجاوز 9000 مرحلة، ثمّ واصل البرهان على الشيء نفسه.

37- ولذلك ليس هذا ما ينبغي أن ينتقد إيراتوسفين عليه، بل ما يجب انتقاده عليه، هو أن الأحجام والهيآت[74] التي أعطيت كانت تقريبية ويعوزها معيار ما، مقياس ما، كما يجب انتقاده أيضاً على أنه كان ينبغي عليه في حال ما أن يقبل أكثر، وفي حالة أخرى أقلّ. مثلاً، إذ قلنا إن عرض السلسلة الجبلية التي تمتدّ حتّى الشرق المعتدل، وعرض البحر الذي يصل حتّى أعمدة هرقل، يساويان 3000 مرحلة، فإنه يجدر بنا عندئذٍ أن نكون أكثر قبولاً لعدّ المتوازيات الممدودة في نطاق دائرة العرض نفسها متوازيات واقعة على خطّ واحد[75]، وأنها متوازية مع هذا الخط أكثر من كونها خطوطاً متقاطعة، وأن نقبل من الخطوط المتقاطعة، تلك التي تتقاطع في نطاق دائرة العرض أكثر من تلك التي تقع خارجها. وعلى نحو مماثل يمكننا أن نعد المقاطع التي تحيد في نطاق دائرة العرض نفسها، ولا تخرج إلى خارجها، واقعة على خطّ واحد، أكثر من تلك التي تتجاوزه[76]؛ وتلك الخطوط التي تمتدّ داخل نطاق الخطّ الأكبر، أكثر من تلك التي تمتدّ داخل نطاق الخطّ الأصغر، لأنه يمكن في هذه الحالات إخفاء تباين الخطوط، واختلاف الهيآت أكثر. مثلاً، إذا قدرنا أن عرض السلسلة الجبلية كلّها، والبحر حتّى أعمدة هرقل كلّه، يساويان 3000 مرحلة، فإنه يمكننا أن نقبل أيّ مساحة كانت لمتوازي الأضلاع، تتضمن كامل السلسلة الجبلية والبحر المذكورين. وإذا قسمنا متوازي الأضلاع بالطول إلى عدة متوازيات أضلاع صغيرة، وأخذنا قطر الكلّ والأجزاء، فإن الأصح أنه يمكننا أن نعد قطر الكلّ متماثلاً طولاً مع جهة الأجزاء (أي موازياً ومساوياً)؛ وبقدر ما يكون متوازي الأضلاع أصغر، مأخوذاً كجزء، بقدر ما تكون هذه الموضوعة صحيحة أكثر. فانحناء القطر وتباين طوله بالمقارنة مع طول الضلع، أقلّ وضوحاً في متوازيات الأضلاع الكبيرة، حتّى أنه يمكننا في مثل هذه الحالات أن ندعو القطر طولاً للشكل من غير تردد. وإذا ما مدّ قطر أكثر انحناء إلى حدّ يخرج عنده إلى خارج حدود الضلعين أو ضلع واحدة على الأقلّ، فإن هذا لن يحدث على النحو عينه مرّة أخرى[77]. وهذا ما قصدت إليه بمعيار قياس الأحجام المعطاة بالملامح العامّة. ولكن عندما يأخذ إيراتوسفين، ابتداء من البوابات القزوينية، لا خطّاً يسير عبر الجبال نفسها، إنّما يأخذ أيضاً خطّاً ينحرف مباشرة عن الجبال، بعيداً نحو فابساك وكأن الخطّين ممدودان حتّى أعمدة هرقل على خطّ عرض واحد، وعندما يمدّ مرّة أخرى خطّاً من فابساك إلى مصر، يشغل مثل

هـذا المدى الإضافي المهـم، ثـمّ يقيس بطـول هـذا الخـطّ طول الشـكل كلّـه، فإنـه في الأحـوال كلّهـا إنّمـا يقـيس طـول مربّعـه بقطـره. وحتّـى عنـدما لا يعـدّ الخـطّ قطـراً، بل خطّاً مكسوراً، فإنه يقترف بذلك خطّأ أكبر بكثير. فالخطّ الممدود من البوابات القزوينيـة عبر فابسـاك حتّـى نهـر النيـل، هـو خطّ مكسـور أصـلاً. هـذه هـي معارضـاتنا لإيراتوسفين.

38- كما يمكن توجيه اللوم إلى هيبارخ أيضاً، لأنـه كـان يجب عليـه، كمـا انتقد أقوال إيراتوسفين، أن يقترح (لكنّه لم يقترح) تصحيحاً ما لأخطاء إيراتوسفين، كما فعلت أنا[78]. إن هيبـارخ يقـترح علينـا (بـالطبع إذا كـان هـو نفسـه قـد فكّـر بهـذا يوماً) أن نعـود إلى الخـرائط القديمـة، مـع أن هـذه الأخيرة تحتـاج إلى تصـحيحات أكثـر بكثير ممـا تحتاجـه خريطـة إيراتوسـفين. كمـا يعـاني اسـتنتاجه الـذي يلـي مـن العيـب نفسه. وأنا كنت قد برهنت آنفاً على أن هيبارخ أجاز الموضوعة القائمة على مقدّمات لم يقبل إيراتوسفين بها، وهي: تقع بابل إلى الشـرق مـن فابسـاك بـأكثر مـن 1000 مرحلـة؛ بالتالي حتّى لو استخلص هيبارخ النتيجة الصحيحية بأن بابل تقع على مسافة تزيد على 2400 مرحلة تمتدّ إلى الشرق من فابساك، فما قاله إيراتوسفين عن وجود طريق قصيرة امتـدادها 2400 مرحلـة تمتـدّ مـن فابسـاك إلى نهـر دجلـة في المكـان الـذي عـبر منـه الإسـكندر، وإذا مـا أكّـد إيراتوسـفين أيضـاً أن دجلـة والفـرات إذ يلتفّـان حـول مـا بـين النهرين ويجريان لبعض الوقت شرقاً، ثمّ ينعطفان جنوباً ليقتربا في آخر المطاف بعضـهما من بعض ومن بابل، فإنه يكون قد أظهر بذلك، أنه ليس ثمّة ما هو سخيف فيمـا زعمـه إيراتوسفين[79].

39- ويرتكب هيبارخ خطّأ في استنتاجه الآخر أيضـاً، إذ أراد أن يبرهن علـى أن إيراتوسفين أعطى الطريق من فابسـاك إلى البوابـات القزوينيـة (وهـي الطريـق الـتي حـدّد إيراتوسـفين طولها بـ10.000 مرحلة)، كـأنهـا مقيسـة وفـق خـطّ مسـتقيم (مـع أنهـا ليسـت مقيسة على هذا النحو)، لأنّ الخطّ المستقيم أقصـر بكـثير. وحججـه ضـدّ إيراتوسـفين، هـي الآتيـة: بحسـب إيراتوسـفين نفسـه أن خـطّ الطـول الـذي يمـرّ عـبر مصـبّ النيـل عنـد كـانوب، وخطّ الطول الـذي يمـرّ عـبر صـخور الكيـانيس[80]، هـو الخـطّ عينـه؛ ويبتعـد خطّ الطول هذا عـن خـطّ الطـول الـذي يمـرّ عـبر فابسـاك 6600 مرحلـة، وتبتعـد صـخور الكيـانيس 6600 مرحلة عن جبـل قـزوين الـذي يقـع عنـد الممـرّ الجبلـي الـذي يفضـي مـن كولهيـدا إلى بحـر قـزوين؛ ولـذلك فـإن المسـافة مـن خـطّ الطـول الـذي يعـبر صـخور الكيانيس، إلى فابساك، هـي في حدود 300 مرحلـة، وهـي تسـاوي المسافة مـن هنـاك إلى

جبل قزوين؛ وعلى هذا النحو فإن فابساك وجبل قزوين يقعان على خطّ الطول عينه تقريباً. ويستنتج من هذا، بحسب هيبارخ، أن المسافة بين البوابات القزوينية وفابساك، وبين البوابات القزوينية وجبل قزوين واحدة؛ بيد أن البوابات القزوينية تقع على مسافة تقلّ كثيراً عن 10.000 مرحلة عن جبل قزوين، وهي بحسب إيراتوسفين، المسافة التي تفصل بين البوابات القزوينية وفابساك. ولذلك فهي تقع بعيدة عن هذه الأخيرة بأقل كثيراً من 10.000 مرحلة مقيسة بخطّ مستقيم؛ وعليه فإن تلك الـ10.000 مرحلة التي حسبها إيراتوسفين مسافة بين البوابات القزوينية وفابساك بخطّ مستقيم، هي طريق دائرية[81]. وأنا أجيب هيبارخ عندئذٍ: مع أن إيراتوسفين لا يأخذ خطوطه المستقيمة إلاّ على وجه التقريب، كما هو معتاد في الجغرافيا، كما يعتمد على وجه التقريب أيضاً، خطوط الطول والخطوط إلى الشرق المعتدل، إلاّ أن هيبارخ ينتقده مع ذلك من وجهة نظر المهندس، وكأن كلّ خطّ من هذه الخطوط قد مُدّ باستخدام أدوات[82]. ولا يمد هيبارخ نفسه الخطوط باستخدام الأدوات، لكنّه على الأرجح يأخذ بالعين المجرّدة علاقة التناسب بين «الخطوط المتعامدة» و«الخطوط المتوازية». وفي هذا تكمن واحدة من أخطاء هيبارخ؛ أمّا خطؤه الآخر فإنه يكمن في أنه لم يقبل المسافات التي حدّدها إيراتوسفين، ولم ينتقدها، لكنّه عارضها بمسافات اختلقها هو نفسه اختلاقاً. فإيراتوسفين حدّد في الأول المسافة من ثغر البونتس إلى فاسيس بـ8000 مرحلة وأضاف إلى هذه الطريق الممرّ الجبلي الذي يقود من ديوسكوريادس إلى جبل قزوين وطوله مسير خمسة أيام (وهي المسافة التي يقدّرها هيبارخ نفسه بما يقارب 1000 مرحلة)، وهكذا يصل مجمل المسافة بحسب إيراتوسفين إلى 9600 مرحلة، لكنّ هيبارخ يقلّص هذا الرقم قائلاً، إن المسافة من الصخور القزوينية إلى فاسيس 5600 مرحلة، ومن هناك إلى جبل قزوين 1000 مرحلة أخرى. ولذلك فإن الزعم القائل، إن جبل قزوين ومدينة فابساك يقعان عملياً على خطّ طول واحد، لا يمكن أن يستند إلى رأي إيراتوسفين، بل يرجع إلى هيبارخ نفسه. لكن، لنفرض أنه يستند إلى رأي إيراتوسفين. فكيف يمكن أن ينجم عن هذا أن يكون طول الخطّ من جبل قزوين إلى البوابات القزوينية مساوياً لطول الخطّ من فابساك إلى النقطة عينها؟

40- وفي كتابه الثاني يباشر هيبارخ من جديد مسألة إيراتوسفين نفسها، عن حدود المسكونة على امتداد خطّ السلسلة الجبلية، وهو ما تحدّثت عنه بما يكفي؛ ثمّ يتحوّل إلى دراسة الأجزاء الشمالية من المسكونة، وأخيراً يعرض ما قاله إيراتوسفين عن البلدان الواقعة وراء البونتس؛ وعلى حدّ قوله إنه ثمّة ثلاث رؤوس بحرية تمتدّ من

الشـمال: الـرأس الـتي تقـع عليهـا البيلوبـونيز؛ والـرأس الإيطاليـة، ثـمّ الـرأس الليغوريـة؛ وتشـكّل هـذه الـرؤوس الـثلاث الخلـيج الأدريـاتيكـي، والخلـيج الـتيريني. وإذ يعـرض موضوعات إيراتوسفين هذه بخطوطها العامّة، يحاول هيبارخ انتقاد بعض أقواله، لكنّه يفعل هذا بصفته مهندساً أكثر منه جغرافيّ. بيد أن عدد الأخطاء التي ارتكبها في هذا السـياق إيراتوسـفين وتيموسـفين الـذي وضـع مؤلّفـاً عـن «المـوانئ»[83] (وقـد مدحـه إيراتوسفين وفضّله على المؤلّفين الآخرين كلّهم، مع أننا اكتشفنا خلافه مع تيموسفين في نقاط كثيرة)، كان كبيراً إلى الحدّ الذي يجعلنا نضنّ بجهد الحكم على هذين الشخصين (لأنهما ارتكبا أخطاء فادحة)، وعلى هيبارخ أيضاً. فهيبارخ صمت عن بعض الأخطاء، ولم يصحح الأخطاء الأخرى، ولكنّه عندما ينتقد إيراتوسفين، يكتفي بأن يبيّن أن مزاعمه باطلة أو متناقضة. وربّما يمكن معارضة إيراتوسفين المتهم كذلك بأنه لم يتحدّث إلاّ عن ثلاث رؤوس بحرية في أوروبا، عادّاً الرأس التي تقع عليها البيلوبونيز واحدة منها، بينما تشكّل أوروبا تشعبات كثيرة؛ فسونيوس مثلاً، تعدّ مثلها مثل لاكونيكا، رأساً لأنها تمتدّ جنوباً مثل ماليا، وتعزل قدراً كبيراً من الخليج. كما تشكّل كيرسونيس التراقية مقابل رأس سونيوس لا خليج ميلانوس فقط، بل كلّ الخلجان المقدونية التي تلي ميلانوس وإذا ما تجاهلنا هذا الاعتراض أيضاً، فإن أكثر المسافات التي حدّدها إيراتوسفين سوف تكون غير صحيحة، وتدلّ على عدم معرفته الغريب بهذه الأماكن، ومع ذلك فإن هذا لا يحتاج إلى دحض هندسي. فالممرّ من إيبيدامنا إلى خليج ثيرمييوس مثلاً، يمتدّ على أكثر من 2000 مرحلة، مع أن إيراتوسفين يحدّد طوله بـ900 مرحلة فقط؛ ويرى أن المسافة من الإسكندرية إلى قرطاجا، هي أكثر من 13000 مرحلة، مع أنها لا تشكّل عملياً أكثر من 9000 مرحلة، لكن، إذا كانت كاريا ورودوس تقعان على خطّ طول واحد مع الإسكندرية ومضيق صقليا على خطّ طول واحد مع قرطاجا. فجميعهم يرى أن طول الطريق البحرية من كاريا إلى مضيق صقليا لا يزيد عن 9000 مرحلة؛ مع أننا يمكن أن نجيز أن يكون خطّ الطول المأخوذ على مسافة كبيرة بين نقطتين، متماثلاً بالنسبة للنقطة الأبعد نحو الغرب، مع خطّ الطول الذي يبعد عنه نحو الغرب بالقدر عينه الذي تقع فيه قرطاجا إلى الغرب من مضيق صقليا، ولكنّ الخطأ بـ 4000 مرحلة واضح تمام الوضوح. وعندما يوضّع إيراتوسفين روما (التي تقع إلى الغرب قليلاً من خليج صقليا، مثلها مثل قرطاجا) على خطّ طول واحد مع قرطاجا، فإنه يكشف بهذا عن أقصى مستويات الجهل بهذه الأماكن، والأماكن الواقعة إلى الغرب وصولاً إلى أعمدة هرقل.

41- وهكذا فإنه يجدر بهيبارخ مع أنه لم يكتب مؤلَّفاً في الجغرافيا، بل انتقد ما قاله إيراتوسفين في «جغرافياه»، أن ينتقد أخطاء إيراتوسفين من الآن وصاعداً بتفصيل أكثر. أمّا فيما يتعلّق بي أنا، فإنه كان ينبغي عليّ تبعاً لذلك أن أدرس بالتفصيل مزاعم إيراتوسفين الصحيحة، وأخطاءه، فأنا لم أكتف بتصحيح أخطاء إيراتوسفين، بل دافعت عنه ضدّ حملات هيبارخ؛ كما انتقدت آراء هيبارخ نفسه عندما كان يزعم زعماً ما انطلاقاً من نزوعه نحو المماحكات[84]. وبما أن الأمثلة التي سيقت تبيّن بوضوح ضلال إيراتوسفين التام، ومشروعية اتهامات هيبارخ له، فإني أرى أنه يكفي أن أصحح ما أكّده إيراتوسفين عن طريق إظهار الحقائق في «جغرافياتي». وفي واقع الحال أنه هناك حيث تتوالى الأخطاء واحدة إثر الأخرى، وتطفو على السطح، بحيث يكون اكتشافها سهلاً، من الأفضل ألاّ تذكرها البتّة، وإذا كان لا بدّ من الإشارة إليها فلنفعل ذلك بالخطوط العامّة؛ وهذا ما أحاول فعله في عرضي التفصيلي هذا. وينبغي الآن أن نؤكد على أن تيموسفين وإيراتوسفين وأسلافهم لم يعرفوا قطّ إيبيريا، وسلتيا، وكانت جرمانيا وبريطانيا معروفتين لهم أفضل بألف مرّة، وكذلك بلاد الجيتيين والباستارنيين؛ كما يظهرون قدراً كبيراً من عدم المعرفة بإيطاليا، والبحر الأدرياتيكي، والبونتس والبلدان الواقعة وراءه إلى الشمال، مع أن زعمنا هذا ناجم إلى حدّ ما عن ميلنا إلى التنديد. فإيراتوسفين يؤكّد أنه في الحالات التي يتعلّق الأمر فيها ببلدان نائية جدّاً، لن يسوق سوى المسافات المعطاة حسب التقليد، ولكنّه لا يلحّ على صحّتها ويضيف، إنه يعطي فقط المعطيات التقليدية (مع أنه يضيف أحياناً الكلمات «وفق خطّ مستقيم إلى هذه الدرجة أو تلك»)، ولذلك يجب عدم استخدام مقياس هندسي صارم لقياس المسافات التي لا يتوافق بعضها مع بعض. وهذا بالضبط ما يحاول هيبارخ أن يفعله، ليس في الحالات المذكورة آنفاً فقط، إنّما أيضاً عندما يتناول المسافة من المنطقة الواقعة على مقربة من هركانيا حتّى باكتريا ومناطق القبائل التي تقطن وراءها، إضافة إلى المسافة من كولهيدا إلى البحر الهركاني. والحقيقة أنه حينما يتعلّق الأمر بوصف مناطق معينة، فإنه ينبغي ألاّ نحاكمه بصرامة، كما نفعل لدى وصف ساحل قارّي ومناطق أخرى معروفة جيّداً؛ وفوق ذلك، إذا كان الأمر يخصّ مناطق قريبة، فيجب ألاّ تستخدم المقاييس الهندسية، كما أشرت آنفاً، والأفضل التوجه إلى المقياس الجغرافي. وعلى هذا النحو فإن هيبارخ «في خاتمة كتابه الثاني الذي كتبه ليدحض «جغرافيا» إيراتوسفين، ينتقد بعض الموضوعات المتعلّقة بإثيوبيا ويقول، إن الجزء الأكبر من أبحاثه التي سوف يتضمّنها كتابه الثالث، سيكون ذا طابع رياضي، لكنّه سيكون أيضاً «بدرجة ما» ذا طابع جغرافي. ومع ذلك فإنه يهيأ لي أنه

لم يضف على نظريته طابعاً جغرافياً «بدرجة ما»، إنّما جعلها بالكامل نظرية رياضية، مع أن إيراتوسفين يقدّم له مسوغاً ممتازاً لذلك. فإيراتوسفين غالباً ما يتحوّل إلى محاكمات علمية أكثر مما ينبغي بالنسبة لهذه المادّة، ولا يطرح موضوعات محدّدة دقيقة، بل موضوعات ذات طابع غير محدّد، لأنه يعدّ إذا صحّ القول، رياضياً بين الجغرافيين، وجغرافياً بين المشتغلين في علم الرياضيات؛ ولذلك فهو يقدّم لخصومه في الميادين مسوّغات لمعارضاتهم؛ وهذه المسوّغات التي يقدّمها إيراتوسفين وتيموسفين لهيبارخ في كتابه الثالث، مسوغات منصفة إلى درجة أجد عندها أنه لا ضرورة لكي أضيف ملاحظاتي إلى ملاحظات هيبارخ، بل يكفي أن أستمتع بأقواله.

الفصل الثاني

شمال

الدائـرة القطبيـة السمـاوية

الدائـرة القطبية

مـدار

خـط الاستـواء

مـدار

الدائـرة القطبية

الدائـرة القطبيـة السمـاوية

جنوب

1- فلنر الآن ماذا يقول بوسيدونيوس في بحثه «عن المحيط»[1]. فأنا يهيّأ لي أنه يتعامل فيه بشكل أساسي مع الجغرافيا، إذ يؤوّل المادّة في بعض الأحيان من وجهة نظر الجغرافيا بالمعنى الدقيق للكلمة، وفي أحيان أخرى من وجهة النظر الرياضية البحتة. ولذلك نرى أنه من المستحسن أن نتناول عدداً من موضوعات بوسيدونيوس: بعضها الآن، وبعضها الآخر لدى البحث الدقيق المفصّل عندما تسنح الفرصة، لكنّنا سنراعي في أثناء ذلك دائماً، الالتزام بنوع ما من المعايير[2]. فإحدى السمات الخاصة التي تتميّز بها الجغرافيا، هي أيضاً خاصية طرح فرضية عن الشكل الكروي للأرض ككل[3]

(كما نفعل نحن بخصوص الكون)، وتحمّل كلّ ما ينجم عن هذه الفرضية من نتائج؛ ومنها التعاليم عن مناطق الأرض الخمس.

2- وبحسب بوسيدونيوس أن بارمينيدس هو مؤسّس فرضية تقسيم الأرض إلى خمس مناطق[(4)]؛ لكنّ هذا الأخير عدّ عرض المنطقة الحارّة تقريباً ضعف عرضها الحقيقي[(5)]، لأنها تتجاوز حدود المدارين معاً لتمتدّ داخل المناطق المعتدلة، وعلى الضدّ من هذا فإن أرسطو[(6)] يدعو المنطقة الواقعة بين المدارين منطقة «حارّة»، وتلك الواقعة بين المدارين و«الدائرتين القطبيتين»، منطقة «معتدلة». وبوسيدونيوس محقّ في انتقاده النظريتين معاً. لأنّ المقصود بالمنطقة «الحارّة»[(7)] على حدّ قوله، هي فقط المنطقة غير المأهولة بسبب القيظ، وأكثر من نصف المنطقة الممتدّة بين المدارين غير مأهولة، وهذا ما يمكن استنتاجه على أساس مستوطنات الإثيوبيين القائمة إلى الجنوب من مصر، إذا كان صحيحاً أولاً، أن كلّ جزء من جزأي المنطقة الحارّة التي يشكّلها خطّ الاستواء يمثل نصف عرض هذه المنطقة كاملاً؛ ثانياً، أن جزء هذا النصف من سيينا (التي تعدّ نقطة على خطّ حدود المدار الصيفي)[(8)] إلى ميرويه يمتدّ على 5000 مرحلة عرضاً، بينما يمتدّ جزؤه الآخر من ميرويه إلى دائرة عرض بلاد القرفة (حيث تبدأ المنطقة الحارّة)، على 3000 مرحلة عرضاً. وعلى هذا النحو فإن كلّ المدى الذي يشغله هذان الجزآن مقيس، لأنه يمكن عبوره بحراً وبرّاً. أمّا ما تبقّى من المدى حتّى خطّ الاستواء، فإنه يشكّل بحسب حسابات إيراتوسفين لدى قياس الأرض[(9)]، 8800 مرحلة. والنسبة بين 16800[(10)] وهذه الـ8800، هي نفسها نسبة المسافة بين المدارين وعرض المنطقة الحارّة[(11)]. وإذا ما اعتمدنا من بين القياسات الجديدة للأرض، القياس الذي يعطي محيط الأرض أصغر الأبعاد، وهو قياس بوسيدونيوس الذي حسب محيط الأرض بحوالي 180.000 مرحلة، فإن هذا القياس، أقول أنا، إن هذا القياس يجعل عرض المنطقة الحارّة مساوياً تقريباً لنصف المسافة بين المدارين أو ما يزيد قليلاً عن النصف، لكنّه لا يساويه في أي حال من الأحوال أو يتماثل معه. ويسأل بوسيدونيوس، ولكن كيف يمكن تعيين الحدود الثابتة للمناطق المعتدلة، «بالدائرتين القطبيتين» اللتين لا يراهما جميعهم، وليستا هما نفسيهما في كلّ مكان؟ إن حقيقة كون «الدائرتين القطبيتين» غير مرئيتين لجميعهم لا يمكن أن تكون أبداً حجّة لدحض أرسطو، لأنّ الناس الذين يعيشون في المنطقة المعتدلة، يجب أن يروا كلّهم «الدائرتين القطبيتين»، فهذا التعبير الأخير لا يستخدم إلا بالنسبة لهذه المنطقة على وجه التحديد. لكن موضوعة بوسيدونيوس عن أن رؤية «الدائرتين القطبيتين» ليست متماثلة في كلّ مكان، بل متغيّرة، هي موضوعة صحيحة[(12)].

3- لـدى تقسـيمه الأرض إلى منـاطق[13]، يـزعم بوسـيدونيوس، أن خمسـاً منهـا ملائمـة لرصـد الظـاهرات السـماوية؛ فثمّـة منطقتـان مـن المنـاطق الخمـس، تقعـان تحـت القطـبين وتمتـدّان حتّـى المنـاطق الـتي يعـدّ القطبـان عنـدها «دائـرتين قطبيـتين»، وهـو يدعوهما «بيريسكي»[14]، وتمتدّ المنطقتان اللتان تليان هاتين، ويدعوهما بوسيدونيوس «هيتيروسكي»[15]، حتّى مناطق الشعوب التي تعيش تحت المدارين، ثمّ المنطقة الواقعة بين المدارين، ويدعوها «أمفيسكي»[16]. ولكـن ثمّة منطقتـان أخريـان إضافة إلى هـذه المنـاطق الخمـس، لهمـا أهميـة بالنسـبة للعلاقـات الإنسـانية، وهمـا المنطقتـان الضـيقتان اللتان تقعان تحت المدارين، ويقسمهما المداران إلى قسمين؛ وهنا تقف الشمس عمودية علـى الـرأس حـوالي نصـف شـهر مـن كـلّ عـام. وتتميّـز هاتـان المنطقتـان علـى حـدّ قـول بوسـيدونيوس، بـبعض السـمات الخاصـة، إنهمـا بـالمعنى الحـرفي للكلمـة منطقتـان جافتان، رمليتان، لا تنتجان أيّ شـيء، مـا عـدا السلفيوم[17]، وبعض الثمار التي تشبه القمح؛ فليس ثمّة على مقربة جبال تصطدم السحب بها لتتساقط الأمطار؛ كما لا توجد هناك أنهار. ولهذا السبب تولد الحيوانات في هاتين المنطقتين بشعر أجعد، وقرون مقوّسة، وشفاه بارزة إلى الأمام، وأنوف دائمة السيلان (لأن نهاياتها معقوفة بسبب شدّة الحـرّ)؛ ويعـيش في هـاتين المنطقـتين «آكلـو الأسمـاك». ويعـدّ هـذا كلّـه بحسـب بوسيدونيوس، سمة خاصة بهاتين المنطقتين، ويتّضح من هذا أن المناطق الواقعة إلى الجنوب تحظى بمناخ أكثر اعتدالاً، وتربة أكثر خصوبة وأفضل ريّاً.

الفصل الثالث

1- أمّـا بوليبيـوس فقـد أحصـى بالمقابـل سـت منـاطق: اثنتـان واقعتـان تحـت «الـدائرتين القطبيـتين»، واثنتـان واقعتـان بـين «الـدائرتين القطبيـتين» والمـدارين، واثنتـان واقعتان بين المدارين وخطّ الاستواء. ولكنّني أرى أن تقسيم الأرض إلى خمس مناطق، أمر معلّل من وجهة نظر الفيزياء ومن وجهة نظر الجغرافيا. فهو معلّل من وجهة نظر الفيزياء لأنه يأخذ بالحسبان الظاهرات السماوية وحرارة الجوّ. وفيما يتعلّق بالظاهرات السـماوية، فـإن التقسـيم إلى منـاطق «بيريسـكية»، و«هيتيروسـكية»، و«أمفيسـكية» (وهو الأسلوب الأفضل لتقسيم المناطق)، يحدّد في آن معاً شروط رصد البروج الفلكية؛ فعن طريق تقسيم البروج تقسيماً تقريبياً معيّناً إلى مناطق، تدرك خاصية الانتقال التي تتميّز بها. وبالنسبة لحرارة الجوّ، فإن هذا التقسيم معلّل لأنّ هذه الحرارة التي تحدّدها الشمس، تمثل ثلاثة فروقات رئيسة: فائض الحرّ، نقص في الدفء، ودفء معتدل، وهذه الثلاثة تؤثر على نظام أجسام الحيوانات، وبنية النباتات، كما على أشباه

الكائنات الحية[1] الموجودة تحت الهواء أو في الهواء نفسه. ويرتبط اختلاف درجة حرارة الجو بتقسيم الأرض إلى خمس مناطق؛ فالمنطقتان الباردتان اللتان تتمتّعان بدرجة حرارة متماثلة، تقتضيان وجود نقص في الدفء؛ وعلى النحو عينه تتمتّع المنطقتان المعتدلتان بدرجة حرارة معتدلة، بينما تمتلك المنطقة المتبقية الخاصيات الأخرى، لأنها فريدة وحارّة أيضاً. ومن الواضح أن هذا التقسيم يتوافق والجغرافيا كذلك، لأنّ الجغرافيا تسعى إلى تحديد هذا الجزء من الأرض المأهولة، بوساطة واحدة من المنطقتين المعتدلتين. فمن الجهة الغربية والجهة الشرقية يقع البحر الذي يبيّن حدود الجزء المعني، وهناك الهواء في الجهة الجنوبية والجهة الشمالية؛ وللهواء داخل هذه الحدود «اختلاط» ملائم للحيوانات والنباتات؛ أمّا على جانبيّ الحدود فـ«اختلاط» الهواء رديئ بسبب وفرة الدفء أو النقص في وجوده. وتبعاً لهذه الفوارق الثلاثة في درجات الحرارة، كان يجب تقسيم الأرض إلى خمس مناطق. وفي الواقع أن تقسيم الكرة الأرضية بخطّ الاستواء إلى نصفين: النصف الشمالي الذي نعيش فيه، والنصف الجنوبي- يفترض وجود ثلاثة فوارق في درجات الحرارة. فالمناطق الواقعة على خطّ الاستواء، وفي المنطقة الحارّة، هي مناطق غير مأهولة بسبب شدّة الحرارة، أمّا المناطق القطبية، فإنها غير مأهولة بسبب شدّة البرد، لكنّ المناطق الوسطى معتدلة[2] ومأهولة. ولكنّ بوسيدونيوس إذ يضيف منطقتين تحت المدارين، فإنه لا يتصرّف على منوال الخمس مناطق، ولا يعتمد مثل هذا التقسيم؛ بل على ما يبدو أنه يتصوّر المنطقة وكأنه يستخدم لتصوّره هذه الفوارق الاثنية، لأنه يدعو واحدة من هذه المناطق «بالمنطقة الإثيوبية، والأخرى «سكيثية وسلتية»، والثالثة «وسطى».

2- وليس بوليبيوس محقّاً عندما يحدّد بعض المناطق «بالدائرتين القطبيتين»: ثمّة منطقتان عنده تقعان تحت «الدائرتين القطبيتين» مباشرة، ومنطقتان بين «الدائرتين القطبيتين» والمدارين؛ وكما قلت سابقاً، فإنه لا يجوز تحديد ما هو ثابت بنقاط متغيّرة[3]. كما لا يجوز أيضاً أن نعدّ المدارين حدوداً للمنطقة الحارّة؛ وأنا كنت قد أشرت إلى هذا آنفاً. ولكن، لدى تقسيمه المنطقة الحارّة إلى قسمين، يبدو أن بوليبيوس اهتدى باعتبارات صحيحة؛ لأننا تبعاً لذلك أحسنّا صنعاً إذ قسمنا الأرض كلّها بخطّ الاستواء إلى قسمين: نصف الكرة الشمالي ونصف الكرة الجنوبي. فمن الواضح أنه إذا كان يمكن تقسيم المنطقة الحارّة أيضاً بهذه الوسيلة، فإن بوليبيوس سوف يحصل على نتيجة إيجابية، أي إن كلّ نصف من نصفيّ الكرة الأرضية يتألّف من ثلاث مناطق لها شكل متماثل مع المناطق الأخرى في نصف الكرة الآخر. ويعطينا مثل هذا التقاطع تقسيماً يتألف من ست مناطق، وهذا ما لا يحصل في ظل التقاطع الآخر. وفي

واقـع الحـال، أننـا إذا قسـمنا الأرض إلى قسـمين، بـدائرة تمـرّ عـبر القطـبين، فإنـه لا يمكن تقسيم كلّ من نصفيّ الكـرة الأرضية، الغربي والشـرقي بوسـيلة مقبولـة، إلى ست منـاطق، لكـن تقسـيمهما إلى خمـس منـاطق يمكـن أن يكـون كافيـاً؛ فتماثـل قسمي المنطقة الحارّة اللذين يشكّلهما خطّ الاستواء، وتجاورهمـا يجعـلان مـن التقسـيم عمـلاً لا جدوى منـه، بينمـا المنـاطق المعتدلـة منـاطق متشـابهة، والمنـاطق البـاردة متشـابهة أيضاً، لكنّها ليست متجاورة. وعلى هذا النحو، إذا ما تصوّرنا الأرض كلّهـا مؤلّفـة مـن مثل نصفيّ الكـرة هذين، فإنه يكفي أن تقسـم إلى خمـس منـاطق. وإذا كانـت المنطقـة الواقعة تحت خطّ الاستواء، تنتمي إلى المنطقـة المعتدلـة، كمـا يقـول إيراتوسـفين (وهـذا ما يوافق عليه بوليبيوس، مع أنه يضيف، أن هذا القسم هـو القسـم الأعلـى مـن الأرض، الأمـر الـذي يجعـل أمطـاره غزيـرة، لأنّ الغيـوم في موسـم الريـاح الإيتيسـية مـن الشـمال تصطدم في هذه المنطقة بقمم الجبال)، فإنه كـان مـن الأفضـل كـثيراً لـو عـدّت منطقـة معتدلة ثالثة (مع أنها منطقـة ضيقة) مـن أن تُخـرج كمنـاطق تحـت المـدارين. وتبعـاً لـذلك نجـد الحالـة الآتيـة[4] (وهـو مـا ذكّـر بـه بوسـيدونيوس): إن حركـة الشـمس بالاتجـاه المنحرف [على دائـرة البروج]، أكثـر سـرعة في هـذه المنـاطق، ومثلـها كـذلك حركتـها اليومية من الشرق إلى الغرب، لأنّ الحـركات التي تكتمـل علـى أكـبر الـدوائر[5]، هـي الأسـرع بين الحـركات المتزامنة.

3- ولكـنّ بوسـيدونيوس يعـارض تأكيـد بوليبيـوس علـى أن المنطقـة المأهولـة الواقعة تحت خطّ الاستواء، هـي المنطقـة الأعلـى. فيقـول، إنـه لا يمكـن أن يكـون علـى السـطح الكـروي أي نقـاط مرتفعـة، لأنـه سـطح متماثـل؛ والحقيقـة أن المنطقـة الواقعـة تحت خطّ الاستواء، ليست منطقة جبلية، بل هي في الغالب سهل يقع على مسـتوى واحـد تقريباً مع سطح البحر؛ والأمطار التي تملأ نهر النيـل تـأتي مـن الجبـال الإثيوبيـة. ومـع أن بوسيدونيوس عبّر عن رأيه هنا على هذا النحو، إلاّ أنه في أحوال أخرى يوافق بوليبيـوس قـائلاً، إنـه يفـترض وجـود الجبـال في المنطقـة الواقعـة تحـت خـطّ الاسـتواء، وأن الغيـوم تصطدم بها من الجانبين، الأمر الـذي يـؤدّي إلى تسـاقط الأمطـار. وعليـه فإننـا هنـا أمـام تنـاقض لا لـبس فيـه. ولكـن حتّـى لـو سـلّمنا بـأن المنطقـة الـتي تحـت خـطّ الاسـتواء هـي منطقة جبلية، فمن الواضح أن تناقضاً آخر يبرز أمامنا؛ فالكتّـاب أنفسـهم يؤكّـدون أن جريان المحيط حول الأرض دائم لا يتوقـف فكيـف إذن يمكـنهم أن يوضّعوا الجبـال في وسـط المحيط، إذا لم يقرّوا بـأن هـذه الجبـال هـي جزر بمعنـى مـا؟ ولكـن مهمـا كـان الأمـر، فإن هذه المسألة تقع خارج نطاق الجغرافيا، وربّمـا كـان يجـب أن تـترك دراسـتها لمن ينوي أن يكتب بحثاً خاصاً عن المحيط.

4- وإذ يذكر الذين يقال إنهم داروا حول ليبيا بحراً، يؤكّد بوسيدونيوس بناء على تخمين هيرودوت، أن أناساً ما، أرسلهم الفرعون نخو، أبحروا في رحلة بحرية داروا خلالها حول ليبيا. ويضيف بوسيدونيوس، أن هيراقليدس البونتي يرغم في واحدة من «محاوراته»[6]، أحد السحرة الذي جاء إلى قصر هيلون، على التأكيد أنه دار حول ليبيا. وبعد أن ينوّه إلى أن هذه الأخبار ليست مؤكّدة، يروي بوسيدونيوس عن شخص يدعى إيفدوكس الكيزيكي[7]، السفير المقدّس وداعية السلام أثناء الاحتفال بعيد بيرسيفوني[8]. وتقول الرواية، إن إيفدوكس زار مصر في عهد الملك إيفيرجيت الثاني؛ فقدم للملك ووزرائه وتحادث معهم حول الإبحار إلى أعالي النيل خاصة، لأنّ إيفدوكس كان يهتمّ بالسمات المحلّية، وكان على معرفة جيّدة بها. وفي الأثناء، كما تقول الرواية، جاء حرس السواحل إلى الملك بأحد الهنود الذي كان قد أُلقي عليه القبض في منخفض الخليج العربي. وأعلن هؤلاء الحراس، أنهم عثروا على الهندي وحيداً على متن سفينة جانحة، وأنه كان يحتضر؛ وهم لا يعرفون من هو أو من أين جاء، لأنهم لا يعرفون لغته. فعهد الملك بالهندي إلى من كان يجب أن يعلّمه اللغة الإغريقية. ولمّا تعلّم هذا اللغة الإغريقية، قال، إنه أبحر من الهند، لكن لحظّه العاثر [9] ضلّ الطريق، وفقد مرافقيه الذين هلكوا من الجوع، أمّا هو فقد نجح في آخر المطاف بالوصول إلى مصر. ولمّا أعلن الملك عن شكوكه في صحّة رواية الهنديّ، تعهّد هذا للملك بأن يكون دليلاً لمن يقرر الملك إرسالهم بحراً إلى الهند. وكان إيفدوكس واحداً من هؤلاء الأخيرين. لقد أبحر إيفدوكس إلى الهند حاملاً معه هدايا، وعاد بحمولة من العطور والحجارة الثمينة (بعضها تحملها الأنهار مع الرمال، وبعضها الآخر يستخرج من باطن الأرض، لأنها تحوّلت من حالتها السائلة إلى الحالة الصلبة، مثلها في هذا مثل كريستالنا). بيد أن آمال إيفدوكس خابت كلّها، لأنّ إيفيرجيت سلبه البضاعة كلّها. وبعد أن توفّي إيفيرجيت آل العرش إلى زوجته كليوباترا، ومرّة أخرى أرسلت الملكة إيفدوكس في رحلة بحرية، لكنّه حمل معه في هذه المرّة أمتعة كثيرة. لكنّ الرياح حملته وهو في طريق العودة، إلى جنوبي إثيوبيا. وفي أيّ مكان كان يرمي فيه المرساة، حاول أن يستميل السكّان المحلّيين عن طريق توزيع الخبز، والنبيذ، والتين المجفف عليهم (ولم تكن هذه المواد موجودة عندهم)؛ وكان يأخذ بدل هذا كلّه مياه عذبة ومرشدين بحريين؛ وقد صنّف في أثناء ذلك لائحة بعدد من الكلمات الأجنبية. وعثر على قطعة خشبية من مقدّمة سفينة محطمة عليها رسم حصان؛ وبعد أن عرف أن القطعة لسفينة رحالة ما أبحروا من الغرب، حمل القطعة معه عائداً إلى الديار[10].

وحينما نجح إيفدوكس بالوصول إلى مصر (وكان العرش في مصر قد آلَ حينئذٍ من كليوباترا إلى ابنها)، مرّة أخرى سلبوه كلّ شيء، لأنه اتهم بسرقة أشياء كثيرة. فحمل قطعة رأس السفينة إلى ساحة السوق وعرضها على أصحاب السفن؛ فعرف منهم أن القطعة تعود لسفينة من سفن غادير. وأخبروه أن تجار غادير الأثرياء يجهّزون سفناً كبيرة، بينما يرسل الفقراء منهم سفناً صغيرة تدعى «أحصنة» (نسبة إلى شكل الحصان المرسوم على مقدّمة كلّ سفينة من هذه السفن). وعلى متون مثل هذه السفن يبحرون إلى سواحل ماوروسيا وصولاً حتّى نهر ليكس، في رحلات لصيد الأسماك. ولكنّ بعض أصحاب السفن اعترف بأن قطعة الحطام هذه تعود لسفينة أوغلت بعيداً وراء نهر ليكس ولم ترجع إلى الديار. وقد استنتج إيفدوكس من هذه المعطيات أن الإبحار حول ليبيا أمر ممكن. فمضى إلى بيته وحمل كلّ ما يملك فوضعه على السفينة وخرج إلى عرض البحر. ورمى مرساته أولاً في ديكيارخيا، ثمّ في ماساليا، وباقي النقاط على طول الساحل إلى أن وصل إلى غادير. وكان يعلن عن مشروعه في كلّ مكان يصل إليه، وبعد أن كسب مالاً جهّز سفينة كبيرة وقاربين مقطورين يشبهان قوارب القراصنة. وأخذ معه على السفينة فتيات يتقنّ العزف على الآلات الموسيقية، وأطبّاء، وسوى ذلك من أصحاب المهن، وخرج إلى عرض البحر باتجاه الهند مستفيداً من الرياح التي تهب هنا باتجاه الغرب دائماً. ولـمّا أنهك الإبحار مرافقيه، اقترب مع الرياح المواتية من الشاطئ. مع أنه فعل ذلك ضدّ إرادته خوفاً المدّ والجزر. وقد وقع فعلاً ما كان يخشاه: لقد رست السفينة على مياه ضحلة، لكنّها رست بهدوء، فلم تتحطّم فوراً، الأمر الذي مكّنهم من إنقاذ الحمولة والقسم الأكبر من خشب السفينة. فبنى إيفدوكس من هذا الخشب قارباً ثالثاً على شكل سفن الخمسين مجدافاً وتابع الإبحار إلى أن وصل إلى أرض الناس الذين كان قد صنّف في رحلته السابقة لائحة بكلمات من اللغة التي يتحدّثونها؛ وعرف في الوقت نفسه أن الناس الذين يعيشون هناك هم من القبيلة عينها التي ينتمي إليها الإثيوبيون الآخرون، وعرف أيضاً أنهم جيران مملكة بوغه. وعلى هذا النحو يكون إيفدوكس قد أنهى رحلته إلى الهند وقفل عائداً. وفي طريق العودة على امتداد الساحل، لمح جزيرة فيها وفرة من الماء وغابة بديعة، لكنّها لم تكن مأهولة. ولـمّا وصل إلى ماوروسيا باع قواربه ومضى إلى الملك بوغه سيراً على قدميه؛ وإذ وصل إلى هناك أشار على الملك أن يباشر بعثة بحرية على نفقته؛ ولكنّ أصدقاء بوغه أقنعوه بالعكس إذ نجحوا في أن يثيروا تخوّفه من أن ذلك قد يؤدّي إلى تعرض ماوروسيا لدسائس معادية إذا ما فُتحت الطريق إلى هناك أمام الأجانب الذين قد

يرغبون في مهاجمتها. وعندما علم إيفدوكس أنهم إنّما يتظاهرون بإرساله في البعثة التي اقترحها، بينما يضمرون في الحقيقة أن يرسوا به على جزيرة أخرى قاحلة، تركهم وفرّ هارباً إلى الأملاك الرومانية، ثمّ توجّه من هناك إلى إيبيريا. وبعد ذلك بنى مرّة أخرى «سفينة بيضوية»[11]، ومركباً طويلاً بخمسين مجدافاً، لكي يبحر على متن السفينة في عرض البحر، ويستخدم القارب لتقصّي الساحل. وقد حمل معه في هذه الرحلة أدوات زراعية، وبذاراً، ونجّارين، ومضى ثانية في رحلته الدائرية نفسها. وعزم إذا ما صادفته عوائق في طريقه، أن يقضي فصل الشتاء في جزيرة اختارها مسبقاً لهذه الغاية، فيزرع البذار هناك، ويجني المحصول، ومن ثمّ يتمّ الرحلة التي كان قد خطط لها في الأوّل.

5- ثمّ يقول بوسيدونيوس: «وهكذا أكون قد وصلت إلى هذا المكان من روايتي لقصة إيفدوكس، أمّا ما جرى بعد ذلك فأظنّ أنه معروف لسكّان غادير وإيبيريا». ويتضح من هذا كلّه[12]، كما يقول بوسيدونيوس، أن المحيط ينساب حول الأرض المأهولة:

لا تضيّق على المحيط أي قيود صلبة،

وإذ يسيل في اللانهاية، فإنه يحافظ على نقاوته[13].

(*مقطع* III، 281، *ميوللر*)

إن رواية بوسيدونيوس هذه بمجملها تثير الاستغراب. فهو إذ يرى في رحلة الساحر الذي تحدّث عنه هيراقليدس، وحتّى في إبحار مبعوثيّ نخو (وهذا ما نقله هيرودوت أيضاً)، حدثين لا تؤيدهما قرائن أكيدة، إلا أنه مع ذلك يتبنّى هذه «الحكاية البيرغيّة»[14]. بصفتها حكاية معقولة، مع أنه هو من اختلقها، أو أنه تبنّى اختلاقاً اختلقه آخرون. أولاً، ما هي درجة معقولية محنة الهنديّ؟ فمن المعروف أن الخليج العربي مجال مائي ضيّق يشبه النهر، طوله حوالي 15.000 مرحلة وصولاً حتّى ثغره الضيّق في كلّ مكان. وعليه، فإنه من غير المعقول أن يكون الهنود المبحرون في مكان ما خارج هذا الخليج، قد وصلوا إليه عندما ضلّوا طريقهم (فضيقه عند الثغر كان لا بدّ من أن يظهر لهم الخطأ)؛ وإذا كانوا قد دخلوه عن قصد، فإن تذرّعهم بأنهم ضلّوا الطريق أو واجهتهم رياح غير مواتية، هو عذر ساقط. وكيف أمكنهم التسليم بهلاك جميعهم جوعاً ما عدا واحداً؟ وإذا كان من بقي منهم على قيد الحياة واحد فقط، فكيف استطاع هذا أن يقود السفينة في عرض البحر هذه المسافة الطويلة كلّها؟ ثمّ كيف نستطيع أن نفهم تعلّمه اللغة الإغريقية بهذه السرعة، وإتقانها إلى درجة أنه استطاع

استخدام معرفته هذه لإقناع الملك بأنه وهو الهندي يمكنه أن يكون دليلاً بحرياً؟ ولماذا لم يكن لدى إيفيرجيت ما يكفي من الأدلاّء المجرّبين، مع أن كثيرين هنا كانوا يعرفون البحر منذ زمن بعيد؟ أمّا فيما يخصّ داعية السلام هذا والسفير المقدّس لشعب كيزيك، فكيف استطاع هذا بعد أن غادر مدينته الأم، أن يبحر إلى الهند؟ وكيف عهدوا إليه بهذا العمل المهم؟ وإذا كانوا، على عكس ما هو منتظر، قد سلبوه كلّ شيء فور عودته وعاقبوه، فكيف منحوه ثقتهم ثانية وزوّدوه بكمّ أكبر من الهدايا؟ وفي أثناء عودته من رحلته الثانية، عندما ساقته الرياح إلى إثيوبيا، لماذا صنف لائحة بكلمات من لغة الغرباء، أو جال يسأل عن مصدر قطعة مقدّمة سفينة الصيد؟ فحقيقة معرفته بأن الحطام يعود لسفينة كانت قد أبحرت من الغرب، لا يمكن أن تكون لها أيّ أهمية بالنسبة إليه، لأنه هو نفسه كان قد أبحر من الغرب في أثناء رحلة العودة. ولدى عودته إلى الإسكندرية، اتهموه بسرقة أشياء كثيرة، فكيف لم يعاقبوه، بل راح يتبختر في السوق ويسأل أصحاب السفن عارضاً عليهم قطعة مقدّمة السفينة المنكوبة؟ ثمّ ألا يثير الاستغراب ذلك الرجل الذي أقرّ بأن قطعة الحطام تعود لسفينة من غادير؟ أفلا يثير الاستغراب أكثر منه أيضاً، ذلك الرجل الذي صدّقه وعاد إلى دياره يحمل مثل تلك الآمال التي جعلته يقوم برحلة من هناك إلى منطقة تقع وراء أعمدة هرقل؟ ولكن لم يسمح له بالخروج من الإسكندرية إلى عرض البحر من غير أمر يأذن له بذلك، خاصة بعد أن اختلس أشياء تخص الملك. ولم يكن بإمكانه أن يخرج من الميناء خلسة أبداً، لأنّ الميناء نفسها، ومنافذ الخروج الأخرى من المدينة كانت كلّها تخضع لحراسة مشدّدة، وهي على حدّ علمي لا تزال كذلك حتّى الآن (فأنا عشت طويلاً في الإسكندرية)، مع أن الحراسة تراخت الآن في زمن الرومان، ولم تعد شديدة كما كانت في زمن الملك. وحينما أبحر إيفدوكس مرّة أخرى إلى غادير وبنى لنفسه على الطريقة الملكية سفناً ثمّ واصل رحلته، فكيف استطاع بعد أن تحطمت سفينته، أن يبني سفينة أخرى في مكان لا حياة فيه؟ وحينما خرج إلى البحر من جديد، بعد أن اكتشف أن الإثيوبيين الغربيين يتحدّثون اللغة نفسها التي يتحدّثها الإثيوبيون الشرقيون، لماذا لم يتابع إبحاره حتّى النهاية (بما أنه كان شديد التفاخر بعشقه لارتياد الأصقاع المجهولة، وكان لديه الأمل في أنه لم يبق إلاّ القليل مما يسعى لاكتشافه)، وآثر أن يترك كلّ شيء مدفوعاً برغبته لتنظيم رحلة جديدة بمساعدة بوغه؟ وكيف تسنّى له أن يعرف بالمكيدة التي حيكت ضده سرّاً؟ وما هي المنفعة التي كان يمكن أن يحقّقها بوغه من وراء قتله شخصاً كان بإمكانه أن يحيّده بأيّ وسيلة أخرى؟ ولكن حتّى لو كان إيفدوكس قد علم بما كان يضمر له، فكيف تمكن من أن

يستبق الأحداث ويلجأ إلى أماكن آمنة؟ فأثناء مثل هذا الهروب، كان كلّ شيء ممكناً، لكنّ النجاح فيه كان صعباً ونادر الحصول. فكيف كان النجاح يرافق إيفدوكس دائماً مع أن الأخطار كانت تحدق به في كلّ مكان؟ وبعد أن فرّ من بوغه، لماذا لم يخش أن يبحر على طول ساحل ليبيا من جديد حاملاً معه ما يكفي من المؤن والتجهيزات لكي يستعمر الجزيرة؟ والواقع هو أن هذه القصة برمّتها ليست بعيدة جدّاً عن اختلاقات بيفيوس، وإيفجيميروس، وانتيفان. ونحن يمكننا أن نصفح عن أولئك الأشخاص كما نسامح البهلوان على ما يختلق، فهذه هي مهنته. ولكن من يستطيع أن يسامح بوسيدونيوس على هذا، فهو الفيلسوف والضليع في مثل هذه الاستدلالات؟ لم يكن بوسيدونيوس موفّقاً في هذا.

6- ومن جهة أخرى، أصاب بوسيدونيوس إذ قال، إن الأرض تعلو أحياناً وتهبط، وتخضع لتغيّرات تسببها الهزّات الأرضية وما شابه من الظاهرات التي عددتها آنفاً. وأصاب أيضاً عندما قارن بهذا ما أخبر به أفلاطون عن أن قصّة جزيرة أطلنطس قد لا تكون قصة مختلقة[5]. فأفلاطون يقول عن أطلنطس، إن سولون روى، بعد أن استوضح الكهنة المصريين، أن أطلنطس كانت موجودة في زمن ما، لكنّها اختفت؛ وأنها كانت جزيرة لا يقلّ حجمها عن حجم قارّة[16]. ويرى بوسيدونيوس أن طرح المسألة على هذا النحو أكثر معقولية من أن تقول عن أطلنطس: «إن الخالق هو الذي أرغمها على أن تختفي، كما أرغم هوميروس سور الآخيين على أن ينهار»[17]. ويفترض بوسيدونيوس أن هجرة الكيميريونيين والقبائل الأخرى التي تربطهم بها أواصر القرابة، عن موطنهم الأصلي، قد حدثت نتيجة للغزو المفاجئ الذي شنّه البحر عليهم. وفي آخر المطاف يتبنّى بوسيدونيوس الرأي القائل، إن طول المعمورة الذي يشكّل حوالي 70.000 مرحلة، يمثل نصف كامل المحيط الذي قيس به هذا الطول، بحيث أنك إذا ما أبحرت من الغرب على خطّ مستقيم، فإنك يمكن أن تبلغ الهند بعد أن تقطع طريقاً طولها 70.000 مرحلة.

7- وبعد أن أجرى محاولة لانتقاد العلماء الذين قسموا المعمورة إلى قارّات وفق الطريقة الراهنة[18]، بدلاً من تقسيمها ببعض الدوائر الموازية لخطّ الاستواء (الأمر الذي كان يمكن أن يتيح لهم إظهار تغيّرات عالم الحيوان، وعالم النبات، والأقاليم، لأنّ بعضها ينتمي إلى المنطقة الباردة، وبعضها الآخر إلى المنطقة الحارّة)، بحيث كان يمكن أن تغدو القارّات مناطق، يعود بوسيدونيوس من جديد لكي يدحض اعتراضه هو نفسه ويتراجع عن الاتهام الذي وجهه لهم، وقد تجلّى موقفه هذا في ثنائه على تقسيم المعمورة إلى ثلاث قارّات، جاعلاً بذلك من هذه المسألة مجرّد مادّة لسجال عقيم. فتوزّع الحيوانات، والنباتات، والأقاليم على الأرض، لا يظهر عن سابق قصد، ومثله أيضاً

الفوارق القبلية واللغوية، بل يأتي غالباً، استجابة للمصادفة التي تنشأ نتيجة لتقاطع جملة من الظروف. أمّا فيما يتّصل بمختلف الفنون، والمواهب، والمؤسّسات التي ينشئها البشر (إذا كان أحد ما قد وضع بذورها الأولى)، فإن أكثرها يزدهر على أيّ دائرة عرض، بل وفي أحوال مغايرة تزدهر هذه بصرف النظر عن دائرة العرض؛ ولذلك فإن خاصيات محلّية يتسم بها شعب ما، تحدّدها الطبيعة، وأخرى تكتسب بالاعتياد والممارسة. فلم تكن الطبيعة على سبيل المثال؛ هي التي منحت الأثينيين حب الأدب، بل على أغلب الظنّ أنهم اكتسبوه بالاعتياد؛ بينما لم يكتسبه اللاكيديمونيون ولا الطيبيون الذين كانوا أكثر شبهاً بالأثينيين. وعلى النحو عينه لم يكن البابليون والمصريون فلاسفة بطبيعتهم، بل بالاعتياد والممارسة. أمّا تفوّق نوعية الخيل، والثيران وسوى ذلك من الحيوانات، فهي لا ترتبط بالمكان فقط، بل بعملية الترويض أيضاً. ولكنّ الأمر يختلط على بوسيدونيوس في هذا كلّه. فبعد أن يثني على تقسيم المعمورة إلى قارّات ثلاث، يتخذ من حقيقة اختلاف الهنود عن الإثيوبيين الليبيين مثالاً على ذلك: الهنود أكثر تطوّراً من الناحية الفيزيائية، وبشرتهم أقلّ تأثراً بلفح الطقس الحار. وبحسب بوسيدونيوس أن هوميروس قسم الإثيوبيين ككلّ، بناء على هذا إلى قسمين...

... فريق حيث يغرب الإله

الحامل النور، والآخرون حيث يشرق.

(*الأوذيسا* I، 24)

ثمّ يقول بوسيدونيوس، لكنّ كراتيت إذ طرح مسألة وجود معمورة أخرى لم يعرف هوميروس شيئاً عنها، بات عبداً تابعاً لفرضيته هذه[19]؛ وعلى حدّ قول بوسيدونيوس، إنه كان يجدر تدقيق هذا البيت عند هوميروس على النحو الآتي:

وهناك حيث يمضي الإله الحامل النور،

أي هناك حيث يميل عن خطّ الطول.

8- إذن، أولاً، ينقسم الإثيوبيون الذين يجاورون مصر إلى فريقين: فريق يعيش في آسيا، وفريق في ليبيا، مع أن بعضهم لا يختلف عن بعض في أي شيء. ثانياً، لا يقسم هوميروس الإثيوبيين إلى فريقين لأنه كان يعرف التشابه الفيزيائي بين الهنود والإثيوبيين (وربّما لم يكن هوميروس يعرف أيّ شيء عن الهنود، لأنه حتّى إيفيرجيت، بحسب حكاية إيفدوكس، لم يكن يعرف شيئاً عن الهند أو الإبحار إلى هناك)، بل على الأرجح أنه فعل ذلك على أساس التقسيم الذي ذكرته آنفاً[20]. فقد قلت هناك بخصوص قراءة بيت شعر هوميروس المعني، التي اقترحها كراتيت، إنه لا فرق بين أن

تقرأه هكذا أو على نحو مغاير[21]. لكنّ بوسيدونيوس يرى أن هناك فرقاً، ومن الأفضل أن يُقرأ على النحو الآتي:

وهناك حيث يمضي الإله الحامل النور.

ولكن بما تتميّز هذه القراءة عن:

وهناك حيث يغيب.

فكلّ المقطع الممتدّ من خطّ الطول حتّى المغيب يسمّى «غروباً»[22]، ومثله نصف دائرة الأفق. وهذا ما قصد إليه أراتوس عندما قال:

.... هناك حيث تتداخل

أطراف الشرق مع الغروب.

(*أراتوس الظاهرات*، 61)

وإذا كانت قراءة كراتيت لبيت شعر هوميروس هذه، هي القراءة الأفضل، فإنه يمكن القول عندئذٍ، إنها يجب أن تكون هي الأفضل في قراءة أريستارخ أيضاً. إن لديَّ الكثير مما أعارض به بوسيدونيوس. وسوف أُعالج في كتابي هذا كثيراً من رؤاه معالجة نقدية في السياق المناسب، طالما هي ذات صلة بعلم الجغرافيا؛ أمّا تلك التي تتّصل بالفيزياء، فسوف تعالج في مكان آخر، أو لن تكون ثمّة ضرورة لمعالجتها أصلاً. إن بوسيدونيوس يبحث كثيراً في الأسباب، ويقلد أرسطو، وهذا ما تتفادى مدرستنا [23] فعله، لأنّ الأسباب مبهمة.

الفصل الرابع

1- يعلن بوليبيوس في وصفه لبلدان أوروبا، أنه يصمت عن الجغرافيين القدماء، لكنّه يدرس رؤى ديكيارخ، وإيراتوسفين اللذين انتقداهم (لقد كتب الأخير أحدث كتاب في الجغرافيا)، كما يدرس أيضاً بيفيوس الذي ضلّل كثيرين. فبيفيوس[1] أعلن أنه عبر كلّ ما يمكن عبوره من بريطانيا، وقال، إن الخطّ الساحلي لهذه الجزيرة يمتدّ على أكثر من 40.000 مرحلة، وأضاف إلى هذا حديثاً عن جزيرة فولا ومناطق ليس فيها أراض بالمعنى المعروف للكلمة، ولا بحار، ولا هواء، بل هناك مادّة تكثفت من هذه العناصر كلّها، وهي مادّة تشبه قنديل البحر[2]؛ ويقول بيفيوس إن الأرض، والبحر، والعناصر الأخرى كلّها معلّقة فيها، فتبدو كأنها الرابطة التي تجمع بين أجزاء الكل؛ وهي مادّة لا يمكن عبورها سيراً، أو الإبحار فيها على متن سفينة. ويزعم بيفيوس أنه رأى هذه المادّة التي تشبه قنديل البحر بأم عينه، أمّا ما تحدّث به عن الأشياء الأخرى فقد أخذه عن روايات الآخرين.

تلكم كانت رواية بيفيوس، وقد أضاف إليها، أنه لدى عودته من تلك الأرجاء، زار ساحل أوروبا كلّه: من غادير حتّى تانايس.

2- وعلى هذا النحو يرى بوليبيوس أنه من غير المعقول أن يستطيع شخص فرد، عدّاك عن أنه فقير، أن يقطع هذه المسافات المهولة بحراً وبرّاً؛ ومع أن إيراتوسفين حار فيما إذا كان يجب عليه أن يصدّق هذا، إلاّ أنه مع ذلك صدّق ما خبّر به بيفيوس عن بريطانيا والمناطق المجاورة لغادير وإيبيريا؛ فقد قال، إنه من الأفضل كثيراً أن نصدّق ميسينسا [إيفجيميروس] من أن نصدّق بيفيوس. فإيفجيميروس في أقلّ تقدير يؤكّد، أنه لم يبحر إلاّ في اتجاه واحد، هو اتجاه بانخييا، بينما يقول بيفيوس، إنه تقصّى بنفسه الشطر الشمالي من أوروبا كلّه، وصولاً حتّى أطراف العالم، وهو زعم لن يصدّقه أحد حتّى لو كان هرمس[3] نفسه هو المتحدّث. أمّا فيما يخصّ إيراتوسفين، فإن بوليبيوس يقول، إنه والحق يقال، وصف إيفجيميروس بالبيرغي[4]، إلاّ أنه مع ذلك يصدّق بيفيوس، مع أن ديكيارخ لم يصدّقه. ولكنّ هذه الملاحظة الأخيرة- لم يصدّقه - تثير السخرية. وكأنّ إيراتوسفين كان يحتاج أن يتّخذ من الشخص الذي ما فتئ ينتقده، نموذجاً يحتذى به. وأنا كنت قد قلت، إن إيراتوسفين لم يكن يعرف شيئاً عن شطريّ أوروبا الغربي والشمالي. وهذا ما يمكن ألاّ نؤاخذ عليه إيراتوسفين، وديكيارخ لأنّ أيّاً منهما لم ير تلك المناطق بأمّ عينه. فمن يستطيع أن يغفر هذا لبوليبيوس وبوسيدونيوس. ولكن مع ذلك فإن بوليبيوس بالذات، هو الذي يصف معطيات إيراتوسفين وديكيارخ بخصوص المسافات في هذه المناطق ومناطق أخرى كثيرة، بأنها «تصوّرات شائعة»، مع أنه هو نفسه يقترف أخطاء حينما ينتقدهما. فعندما يرى ديكيارخ أن المسافة من البيلوبونيز حتّى أعمدة هرقل، هي 10.000 مرحلة، ومن البيلوبونيز إلى منخفض البحر الأدرياتيكي، هي أكثر من ذلك، ويحدّد مقطع المسافة حتّى أعمدة هرقل والذي يمتدّ حتّى مضيق صقليا بـ 3000 مرحلة، أي أن المسافة المتبقية من مضيق صقليا حتّى أعمدة هرقل، هي 7000 مرحلة فقط، فإن بوليبيوس يقول، إنه يترك المسألة مفتوحة: هل صحيح أن المسافة هي 3000 مرحلة أم لا؛ أمّا فيما يخصّ الـ7000 مرحلة، فإن هذه المسافة حسبت خطأ بهذه الطريقة وتلك: سواء قيست وفق الخطّ الساحلي أو وفق الخطّ الذي مُدّ عبر وسط البحر. ويتابع بوليبيوس حديثه فيقول؛ إن الخطّ الساحلي يشبه الزاوية المنفرجة التي يمتدّ ضلعاها على التوالي، إلى مضيق صقليا وأعمدة هرقل، ويقوم رأسها عند ناربون؛ فيتشكّل مثلث تمتدّ قاعدته عبر عرض البحر مباشرة، ويشكّل ضلعاه الزاوية المذكورة، وتمتدّ إحدى الضلعين، من مضيق صقليا إلى ناربون، ويبلغ امتدادها أكثر من 11.200 مرحلة؛ أمّا امتداد

الضلع الثانية فهي أقل من 8000 مرحلة بقليل؛ بيد أن المتفق عليه لدى جميعهم، هو أن المسافة الأكبر من أوروبا حتّى ليبيا عبر البحر التيريني، لا تتجاوز 3000 مرحلة، أمّا إذا ما قسناها عبر بحر سردينيا، فإنها تصبح أقصر. ويقول بوليبيوس، لنفرض أن هذه المسافة الأخيرة هي 3000 مرحلة، أضف إلى هذا طول خليج ناربون الذي يساوي 2000 مرحلة؛ ويشكّل هذا الطول، إذا صحّ القول، عموداً ساقطاً من رأس المثلث المنفرج الزاوية على قاعدته[5]؛ فإنه يتّضح عندئذٍ، وانطلاقاً من المبادئ الأولية لعلم الرياضيات أن الطول الكلي للخطّ الساحلي من مضيق صقليا إلى أعمدة هرقل، يفوق طول الخطّ المستقيم الممتدّ عبر عرض البحر بما يقارب 500 مرحلة[6]. وإذا ما أضفنا إلى هذا 3000 مرحلة، وهي المسافة من البيلوبونيز إلى مضيق صقليا، فإن مجموع المراحل (التي قيست بخطّ مستقيم)، سوف يتجاوز بأكثر من الضعف[7] الرقم الذي اعتمده ديكيارخ. ويقول بوليبيوس، إنه من الضروري بحسب ديكيارخ، أن نعتمد المسافة من البيلوبونيز إلى منخفض البحر الأدرياتيكي برقم أكبر من هذا الرقم[8].

3- وقد يعترض أحدهم قائلاً: ولكن يا صديقي بوليبيوس، كما أن الاختبار القائم على أقوالك أنت، يجعل خطأ هذا الحساب الباطل جلياً، والمقصود هنا حساب المسافة «من البيلوبونيز إلى ليفكادا بـ 700 مرحلة، ومن ليفكادا إلى كوركيرا القدر نفسه، ومن كوركيرا إلى الجبال الكيرافنية القدر نفسه أيضاً؛ وأن الخطّ الساحلي الإيلليري حتّى يابيدس، على الجانب اليميني[9]، إذا بدأت الحساب من الجبال الكيرافنية، يمتدّ على 6150 مرحلة»، كذلك فإن الحسابين الآخرين باطلان: الحساب الذي وضعه ديكيارخ (عندما يقرّ بأن المسافة من مضيق صقليا إلى أعمدة هرقل، تساوي 7000 مرحلة)، والحساب الذي تراه أنت مثبتاً. فأكثر الناس يتّفقون على أن المسافة المقيسة عبر البحر تشكّل 12.000 مرحلة، وأن هذا العدد المحسوب يتوافق والرقم الذي يرى العلماء أنه يحدّد طول المعمورة[10]. فطول المعمورة يساوي كما يقولون 70.000 مرحلة كحد أقصى، والقسم الغربي منها، من خليج إيس حتّى أطراف إيبيريا (التي تعدّ أقصى نقاط في الغرب) يساوي أقلّ من 30.000 مرحلة بقليل. ويجري الحساب على النحو الآتي: المسافة من خليج إيس حتّى رودوس 5000 مرحلة، ومن هنا إلى سالمونيا، الرأس الشرقية في كريت، 1000 مرحلة، وطول كريت نفسها (من سالمونيا) حتّى كريوميتوبس أكثر من 2000 مرحلة؛ ومن هنا حتّى باكين في صقليا 4500 مرحلة، ومن باكين حتّى مضيق صقليا أكثر من 1000 مرحلة؛ ومن خليج صقليا إلى أعمدة هرقل 12.000 مرحلة، ومن أعمدة هرقل حتّى أقصى أطراف الرأس المقدّسة في إيبيريا حوالي 3000 مرحلة. وحتّى الخط لم يفلح بوليبيوس في مدّه بشكل صحيح،

إذا كانت ناربون تقع تقريباً على دائرة العرض نفسها التي تمرّ عبر ماساليا، وماساليا (كما يرى هيبارخ) تقع على دائرة العرض نفسها التي تمرّ عبر بزنطا؛ ويقع الخطّ المار في عرض البحر على دائرة العرض هذه عينها التي تمرّ عبر مضيق صقليا ورودوس، وتبلغ المسافة من رودوس إلى بزنطا حوالي 5000 مرحلة، وإذا ما سلّمنا بأن هاتين النقطتين تقعان على خطّ طول واحد؛ فالخطّ العمودي المذكور[11] ينبغي أن يكون له الطول نفسه أيضاً. ولكن، عندما يزعمون أن أكثر المعابر طولاً من أوروبا إلى ليبيا عبر هذا البحر، ابتداء من منخفض خليج غالاطيا، يبلغ امتداده ما يقارب 5000 مرحلة، فإني أرى أن زعمهم هذا زعم خاطئ، أو أن ليبيا تقع في هذه المنطقة بعيداً إلى الشمال، وتبلغ دائرة العرض التي تمرّ عبر أعمدة هرقل. ومرّة أخرى يخطئ بوليبيوس إذ يزعم أن الخطّ العمودي المذكور ينتهي على مقربة من سردينيا؛ فخطّ العبور على هذا المعبر لا يقع على مقربة من سردينيا، بل بعيداً إلى الغرب، لأنه يفصل إضافة إلى البحر الصقلي، ما يقارب كامل البحر الليغوري الواقع بينهما. كما يبالغ بوليبيوس في تحديد طول الساحل البحري، مع أنه يفعل ذلك بالحدّ الأدنى.

4- ثمّ يواصل بوليبيوس تصحيح أخطاء إيراتوسفين، فيوفّق أحياناً، ويرتكب أخطاء أكبر من أخطاء إيراتوسفين أحياناً أخرى. فإذا كان إيراتوسفين يرى أن المسافة من إيثاكا إلى كوركيرا هي 300 مرحلة، فإن بوليبيوس يحدّدها بأكثر من 900 مرحلة؛ وإذا كان إيراتوسفين قد أعطى المسافة من إيبيدامنا إلى تسالونيكيا 900 مرحلة، فإن بوليبيوس يقول إنها تتجاوز 2000 مرحلة؛ ورقما بوليبيوس هذان رقمان صحيحان. ولكن حينما يرى إيراتوسفين أن المسافة من ماساليا إلى أعمدة هرقل تساوي 7000 مرحلة، ومن البيرينيه إلى أعمدة هرقل 6000 مرحلة، فإن بوليبيوس يعطي مسافة أكثر بعداً عن الحقيقة: من ماساليا أكثر من 9000 مرحلة، ومن البيرينيه أكثر بقليل من 8000 مرحلة؛ وهنا كان إيراتوسفين أقرب إلى الحقيقة. وفي حقيقة الأمر أن المؤلّفين الآن متّفقون على أنه إذا ما استبعدنا منعطفات الطرق، فإن طول إيبيريا كلّها لن يتجاوز 6000 مرحلة من البيرينيه حتّى الجانب الغربي. ولكنّ بوليبيوس يحدّد حتّى طول نهر تاغ من منبعه حتّى مصبّه، من غير أن يأخذ تعرّجات النهر بالحسبان (لأن هذا لا صلة له بالجغرافيا)، بل حسب المسافة على خطّ مستقيم، مع أن منابع نهر تاغ تبعد عن البيرينيه أكثر من 1000 مرحلة. ومن جهة أخرى، فإن بوليبيوس محق إذ يؤكّد أن إيراتوسفين لا يعرف عن إيبيريا شيئاً، ولذلك فهو غالباً ما يطرح آراء متناقضة فيما يتعلّق بها؛ فبعد أن قال، مثلاً، إن الساحل الخارجي لإيبيريا وصولاً حتّى غادير، يسكنه الغلاطيون، إذا كانوا حقّاً يستوطنون المناطق الغربية من أوروبا حتّى

غادير، عاد ونسي تأكيده هذا، فلم يأت على ذكر الغلاطيين في أي مكان من مؤلَّفه الذي وصف فيه إيبيريا.

5- وعندما يقول بوليبيوس، إن أوروبا أقل طولاً من ليبيا وآسيا معاً، فإنه يعقد بذلك مقارنة غير صحيحة. فهو يقول: «يقع الثغر الذي عند أعمدة هرقل في الغرب المعتدل[12]، بينما يجري تانايس من جهة شروق الشمس صيفاً؛ وعليه فإن أوروبا أقل طولاً من ليبيا وآسيا مأخوذتين معاً على مقطع المدى الممتدّ بين نقطة شروق الشمس شتاء، ونقطة البزوغ المعتدل؛ لأنّ لآسيا مطالب بذلك المدى من نصف الكرة الشمالي الذي يقع على الاتجاه المؤدي إلى الشروق المعتدل للشمس»[13]. ونحن إذا ما تجاوزنا الغموض الواضح في طرح بوليبيوس عندما يناقش مثل هذه الأشياء التي يمكن شرحها ببساطة، فإن زعمه بأن تانايس يجري من جهة شروق الشمس صيفاً، هو زعم خاطئ بدوره. فكل من يعرف هذه الأرجاء يؤكّد أن تانايس يجري من الشمال إلى بحيرة ميوتيدا، وأن مصبّ النهر وبحيرة ميوتيدا ومجرى تانايس نفسه، تقع كلّها على خطّ الطول نفسه، كما يؤكّد الذين درسوها.

6- أمّا الكتّاب الذين يزعمون أن تانايس ينبع من مناطق إيستر ويجري نحو الغرب، فإنهم لا يستحقون أن يشار إليهم، لأنهم لم يأخذوا بالحسبان أن تيراس، وبوريسفين، وهيبانيس، هي أنهار كبيرة تجري بين هذين النهرين وتصبّ في البونتس؛ وأن أحدها على موازاة إيستر، والآخران على موازاة تانايس؛ وبما أن منابع تيراس، ومنابع، بوريسفين، ومنابع هيبانيس لم تدرس، فإن المناطق الأبعد من هذه الأنهار نحو الشمال، ينبغي أن تكون مجهولة أكثر. ولذلك فإن حجة أولئك الذين يقودون تانايس عبر هذه الأرجاء، ثمّ يرغمونه على أن ينعطف عنها نحو بحيرة ميوتيدا (لأن مصبّ تانايس واضح في أقصى الأطراف الشمالية من البحيرة، التي تعدّ أيضاً أقصى الأجزاء الشرقية منها)، هي حجّة باطلة وغير مقنعة. كما لن يكون مقنعاً أيضاً الزعم القائل، إن تانايس يجري عبر القفقاس شمالاً ثمّ ينعطف ليصبّ في بحيرة ميوتيدا؛ فمثل هذا الزعم طرح أيضاً. ومع ذلك فإن أحداً لم يقل، إن تانايس يجري من الشرق؛ فلو كان مجراه من الشرق، لما زعم الجغرافيون الأكثر ثقافة أنه يجري بالاتجاه المعاكس لمجرى النيل، وكأن مجرى النهرين يقع على خطّ الطول عينه أو على خطّين قريبين من كلّ نهر[14].

7- لقد قيس طول المعمورة وفق خطّ مواز لخطّ الاستواء، لأنّ المعمورة نفسها تمتدّ طولاً على هذا النحو بالذات، وهذا ما ينجم عنه اعتماد كلّ قارّة من قارّات المدى

الممتدّ بين خطّيٍّ طول، طولاً. وقياس هذا الطول هو المسافة المقيسة بالمراحل؛ ونحن نسعى إلى أن نجد عدد المراحل عن طريق قطع القارّات نفسها على الطرقات البرية، أو المائية الموازية لطول القارّات. أمّا بوليبيوس فقد رمى بهذه الطريقة، وجاء بشيء ما جديد: لقد اعتمد الطول مقطعاً ما من نصف الدائرة الشمالي الواقع بين شروق الشمس صيفاً، وشروقها المعتدل. بيد أن أحداً لن يعتمد مقادير أو مقاييس متبدلة لتحديد أشياء ثابتة، أو يستخدم حسابات تتوافق مع هذه أو تلك من وضعيات الأشياء غير المرتبطة بأشياء أخرى. «فالطول» مفهوم ثابت ومطلق، أمّا «شروق» الشمس و«غروبها» المعتدل، و«شروق الشمس صيفاً»، و«شروق الشمس شتاء»، فهي ليست مفاهيم مطلقة، بل هي مفاهيم نسبية ترتبط بموقعنا الذي نحن فيه؛ وإذا ما انتقلنا من مكان لآخر، فإن نقطة شروق الشمس وغروبها، أو نقطة الشروق المعتدل، والانقلاب الشمسي، سوف تختلف، أمّا طول القارّة فهو ثابت لا يتغيّر. وعليه، إذا كان اعتبار تانايس والنيل حدّين لقارّتين أمراً ملائماً، فإن استخدام نقطة شروق الشمس صيفاً أو نقطة الشروق المعتدل، لهذا الغرض، أمر لا سابقة له.

8- وتبرز أوروبا بكثير من الرؤوس البحرية التي تشكّل جزراً، ووصف هذه الأخيرة لدى بوليبيوس، أفضل منه لدى إيراتوسفين، ومع ذلك فهو غير كاف. فإيراتوسفين لم يتحدّث إلاّ عن ثلاث من تلك الرؤوس[15]. تصل الأولى منها حتّى أعمدة هرقل، وعليها تقع إيبيريا؛ وتقع الثانية عند مضيق صقليا، وعليها تقع إيطاليا؛ وتنتهي الرأس الثالثة عند رأس ماليوس، وعليها تعيش الشعوب القاطنة بين البحر الأدرياتيكي، والبونتس الإيفكسيني، وتانايس. وقد جاء وصف بوليبيوس للرأسين الأوليين مطابقاً لوصف إيراتوسفين لهما؛ أمّا الرأس الثالثة، فقد رأى أنها تنتهي عند ماليوس وسونيوس، وعليها تقع اليونان، وإيلليريا، وبعض أجزاء تراقيا؛ والرأس الرابعة، هي كيرسونيس التراقية، حيث المضيق الواقع بين سيستوس وأبيدوس، ويقطن التراقيون هذه الرأس؛ وثمّة أخيراً رأس خامسة، وهي الرأس الواقعة في منطقة البوسبور الكيميري وثغر بحيرة ميوتيدا. وفيما يتعلّق بالرأسين الأوليين يجب أن نوافق بوليبيوس، لأنهما محاطتين بخلجان عادية، أحدها هو الخليج الواقع بين كالبا والرأس المقدّسة (وهو الخليج الذي تقع عليه غادير)، إضافة إلى ذلك الجزء من البحر الذي يقع بين أعمدة هرقل وصقليا؛ وتتشاطأ الرأس الأخرى مع البحر المذكور، والبحر الأدرياتيكي، مع أن رأس يابيغيا يناقض هذا بعض الشيء، لأنه يخترق البحر ويجعل لإيطاليا قمتين؛ أمّا الرؤوس الثلاث الأخرى، فإنها أكثر تعقيداً، وهي مبعثرة، وتتطلب

مزيداً من التقسيم. وعلى نحو مماثل فإن تقسيم أوروبا إلى ستة أقسام، يثير الاعتراض عينه، لأنه جرى على أساس اعتماد الرؤوس البحرية. وسوف أصحح في مؤلّفي التفصيلي هذه الأخطاء والزّلاّت الأخرى التي ارتكبها بوليبيوس سواء تجاه أوروبا أو في عرضه عن ليبيا. وما قلناه حتّى الآن عمن سبقونا كاف، وأقصد هنا كلّ من رأيت أنه يستحق أن يشهد على حقّي في أن أؤدّي معه العمل نفسه، الذي يتطلّب مثل هذه التصحيحات والإضافات الكبيرة.

الفصل الخامس

1- بعد انتقاد مؤلّفات من سبقني من المؤلّفين، ينبغي بطبيعة الحال أن أضع المؤلّف الذي وعدت به، وإني أريد في هذا السياق أن أبدأ [بمقدّمة] وأقول، إنه يجب على الشخص الذي يزمع أن يصف بلاداً، اعتماد كثير من الموضوعات الأساسية في الفيزياء، والرياضيات كفرضيات، وأن يدرس بحثه كلّه بمقتضى مغزاها ويقينيتها. فكما قلت آنفاً[1]، إنه لا يمكن للنجّار ولا للبنّاء أن يختار مكان بناء المنزل أو المدينة، إذا لم يكن لديه تصوّر مسبق عن «الأقاليم» والظاهرات السماوية، عن الأشكال الهندسية والأحجام، عن الحرّ والبرد وما شابه من المفاهيم الأخرى. وبقدر أقلّ [يستطيع أن يؤدّي مهمته] ذلك الذي عزم على تحديد حالة النقاط السكّانية على امتداد المعمورة! فرسم إيبيريا، والهند، والبلدان الواقعة بينهما، على سطح مستو واحد، وتحديد موقع الشمس عند شروقها وغروبها ووقت الظهيرة، بما أن هذه الظاهرة ظاهرة مشتركة بين شعوب الأرض كلّها، - إن هذا وحده يعطي الشخص الذي اطلع مسبقاً على حالة السماء، وحركة الأجرام المساوية (إذ نسلّم بأن سطح الأرض كروي الشكل فعلاً، وأنه صوّر الآن مستوياً للبيان وحسب)، توجّهاً جغرافياً صحيحاً، ومن لا يتوفّر على مثل هذا الإعداد، لن يمتلك مثل هذا التوجّه. وواقع الأمر أننا عندما نجوب سهولاً كبيرة (سهول بابل على سبيل المثال)، أو عندما نعبر بحراً، فإن كلّ ما هو أمامنا، وخلفنا، وعلى جوانبنا يظهر لعقلنا في صورة سطح مستو، ولا يمثل أيّ اختلاف في الموقف من الأجرام السماوية أو وضع الشمس، والنجوم الأخرى بالنسبة لنا، لكنّ مثل هذه الظاهرات يجب أن تظهر بالنسبة للجغرافيين بصورة متماثلة دائماً. فالبحّار أو الذي يجوب سهلاً فسيحاً يسترشد ببعض التصوّرات المعتادة (وهذه التصوّرات لا ترغم الإنسان غير العارف وحده على أن يتصرّف بصورة متماثلة، إنّما ترغم كذلك الشخص المتمرّس على أن يسلك السلوك نفسه، لأنّ هذا الأخير بدوره غير مطّلع على الظاهرات

السماوية ولا يعرف الاختلافات التي تتّسم بها). فهو يرى كيف تشرق الشمس وتغرب، وكيف تعبر خطّ الطول، بيد أنه لا يدرك كيف يحدث هذا. وحقيقة الأمر هي أن معرفة هذا كلّه لا تعني شيئاً بالنسبة لأهدافه، مثلما لا يهمّه أن يعرف ما إذا كان الشخص الواقف إلى جانبه يقف على موازاته أم لا. وربّما كان يدرك بعضاً من هذه المسائل، لكنّه يعتمد رؤى مناقضة لنظريات الرياضيات، كما يفعل سكّان منطقة معنية ما؛ فالموقع الذي يقف الشخص فيه يعطي ذريعة لمثل هذه الرؤى المغلوطة. إن الجغرافيّ لا يكتب للسكّان المحلّيين أو لمثل هذا الشخص المتمرّس، الذي لا يلقي بالاً البتّة لنظريات علم الرياضيات بالمعنى الحصري؛ وهو بالتأكيد لا يكتب أيضاً للحصّاد أو للحفّار، بل لمن يمكن إقناعه بأن الأرض ككلّ، هي على النحو الذي يتصوّرها عليه علماء الرياضيات، كما لمن يمكن إقناعه بكل ما تبقّى ممّا يتّصل بهذا النوع من الفرضيات. ويحثّ الجغرافيّ تلاميذه على أن يستوعبوا المفاهيم الأساسية أولاً، ومن ثمّ أن يبحثوا في المسائل الأخرى؛ فهو نفسه يعلن أنه سوف لن يتحدّث إلاّ عن الاستنتاجات الناجمة عن هذه المفاهيم الأساسية؛ ولذلك فإن تلاميذه سوف يستخدمون محاضراته استخداماً أكثر إتقاناً، إذا ما استمعوا إليها وهم يمتلكون إعداداً تمهيدياً في ميدان الرياضيات؛ ولكنّه سوف يمتنع عن الحديث عن الجغرافيا أمام من ليس لديه مثل هذا الإعداد المسبق.

2- وعليه، فإن على الجغرافيّ أن يعتمد على المهندسين فيما يرى أنه أساس علمه، فهؤلاء قاسوا الأرض ككلّ؛ وينبغي على المهندسين بدورهم أن يعتمدوا على الفلكيين، والفلكيين على الفيزيائيين. فالفيزياء هي حكمة ما[2]. والمقصود بكلمة «الحكمة»، هو العلوم التي لا تحتاج إلى مقدّمات، ولا ترتبط إلاّ بذاتها، وتنطوي في ذاتها على أسسها الأولى وبرهانها. وعلى هذا النحو فإن ما تعلّمه الفيزياء هو الآتي. للكون والسماء شكل كرويّ. والأجسام التي لها وزن تندفع نحو المركز. وبعد أن أخذت مكانها حول هذا المركز، باتت الأرض، بصفتها كرة، متمركزة بالنسبة للسماء؛ وهي أيضاً ساكنة كالمحور الذي يمتدّ عبرها وعبر مركز السماء. فالسماء تدور حول الأرض ومحورها، من الشرق نحو الغرب؛ وتدور مع السماء، النجوم الساكنة، بالسرعة عينها التي تدور بها القبة السماوية. وتدور النجوم الساكنة على دوائر متوازية، وأشهر الدوائر المتوازية، هي خطّ الاستواء، والمداران، والدوائر القطبية، بينما تدور الكواكب، والشمس، والقمر على بعض الدوائر المائلة الواقعة داخل حدود دائرة البروج. وقد اعتمد الفلكيون هذه الموضوعات كلياً أو جزئياً،

كأساس لدراساتهم، ثمّ درسوا بعد ذلك المسائل الإشكالية الأخرى: حركة الأجرام السماوية، ودورانها، والخسوف والكسوف، والأبعاد، والمسافات وآلاف المسائل الأخرى. وعلى غرارهم سار علماء الهندسة لدى قياس الأرض ككل، إذ انضمّوا إلى تعاليم الفيزيائيين والفلكيين، وبدورهم انضمّ الجغرافيون إلى تعاليم الفيزيائيين.

3- وعلى هذا النحو ينبغي أن نتصوّر أن السماء تتوزّع على خمس مناطق، مثلها في هذا مثل الأرض، وأن لمناطق الأرض الأسماء نفسها التي لمناطق السماء (وأنا كنت قد تحدّثت[3] عن أسباب الانقسام إلى مناطق). ويمكن تحديد حدود المناطق بدوائر ترسم على جانبي خطّ الاستواء وموازياته: دائرتان تضمّان المنطقة الحارّة، ودائرتان تليهما تشكّلان قرب المنطقة الحارّة منطقتين باردتين تقعان على مقربة من المنطقتين المعتدلتين. وتحت كلّ دائرة سماوية تقع دائرة أرضية مثيلة لها، وتحمل الاسم نفسه، وعلى المنوال عينه تحت كلّ منطقة سماوية تقع منطقة أرضية. وتدعى المناطق التي يمكن العيش فيها بالمناطق «المعتدلة»؛ أمّا المناطق الأخرى فهي غير قابلة للحياة، بعضها بسبب الحرّ وبعضها الآخر بسبب الصقيع. وعلى النحو نفسه يتعاملون مع المدارين والدائرتين القطبيتين (في البلدان التي فيها دائرة قطبية)[4]: يبيّنون حدودها، ويطلقون على الدوائر الأرضية الأسماء نفسها التي يطلقونها على الدوائر السماوية، ويحدّدون بهذه الطريقة الدوائر الأرضية كلّها التي تقع تحت مثيلاتها من الدوائر السماوية. وبما أن خطّ الاستواء يشطر السماء إلى شطرين، فإن الأرض بدورها يجب أن تنقسم بخطّ استوائها إلى شطرين. ويدعى أحد نصفي الكرة السماوي والأرضي، نصف الكرة «الشمالي»، ويدعى الآخر نصف الكرة «الجنوبي». وعلى هذا المنوال نفسه، بما أن المنطقة مقسومة إلى شطرين بالدائرة نفسها، فإن أحد شطريها سيدعى بالشطر الشمالي والآخر بالشطر الجنوبي. ومن الواضح أن إحدى المنطقتين المعتدلتين ستكون شمالية والأخرى جنوبية تبعاً لتسمية نصف الكرة التي تقع فيها كلّ منطقة. ونصف الكرة «الشمالي»، هو الذي يضمّ المنطقة المعتدلة التي يقع فيها القطب على الجهة اليمنى إذا نظرت من الشرق إلى الغرب، بينما يقع خطّ الاستواء على الجهة اليسرى؛ وإذا نظرت نحو الجنوب، فسوف يقع الغرب على يدك اليمنى، والشرق على اليسرى؛ ونصف الكرة «الجنوبي»، هو النصف الذي تقع فيه الوضعية المعاكسة. ولذلك فإنه غني عن البيان القول، إننا موجودون في أحد نصفيّ الكرة (في النصف الشمالي)، فوجودنا في نصفيّ الكرة في الآن عينه، أمر مستحيل:

أنهــار مخيفـة، وتيــارات عظيمـة



و[تنسكب عميقة مياه] المحيط هنا

(*الأوزيسا* XI، 157)

ثمّ تلي ذلك المنطقة الحارّة. وليس في وسط المعمورة محيط يشطر الكون كلّه، وليس فيه بالتأكيد إقليم حارّ؛ ومن الواضح أيضاً أنه لا يمكن أن تجد هناك جزءاً ما من «أقاليمه»[5]، نقيضاً «للأقاليم» المذكورة في المنطقة الشمالية المعتدلة.

4- وفي هذه الحالة فإنه بعد اعتماد هذه الموضوعات واستخدام الساعة الشمسية وسواها من ابتكارات عالم الفلك التي يمكن بوساطتها إيجاد دوائر لبعض الأماكن المأهولة، موازية لخطّ الاستواء، ودوائر تتقاطع معها في زوايا قائمة وتمتدّ عبر أقطاب، بعد هذا كلّه يمكن للمهندس أن يقيس القسم المأهول من الأرض شريطة أن يزوره؛ أمّا القسم المتبقي فيمكنه قياسه عن طريق حساب المسافات الفاصلة. وعلى هذا النحو يمكنه إيجاد المسافة من خطّ الاستواء حتّى نقطة القطب، وهي تشكّل $\frac{1}{4}$ أكبر دائرة أرضية؛ وبعد أن يحدّد هذه المسافة، يستخرج أربعة أضعافها، وهذا هو محيط الأرض. وعلى هذا النحو فإنه كما أن من يريد قياس الأرض استعار من الفلكيّ أسس علمه، واستعار الفلكيّ بدوره من الفيزيائيّ أدواته، كذلك يجب على الجغرافيّ أن ينطلق مما توصل إليه من قاس الأرض ككلّ، فيعتمد عليه وعلى من كان هذا الأخير قد اعتمد عليهم بدوره، ثمّ يضع في الأول تصوّره عن المعمورة، أبعادها، شكلها، طبيعتها وعلاقة هذا كلّه بالأرض ككل. إن هذه هي المهمّة الخاصة للجغرافيّ. ومن ثمّ ينبغي عليه أن ينقل بالصورة المناسبة ما يتوفّر له من معطيات عن كلّ جزء من أجزاء المعمورة، عن اليابسة والبحر، مشيراً في غضون ذلك إلى المادّة التي قصر في عرضها من سبقنا من الذين يستحقون الثقة في هذا الميدان.

5- ولذلك فإننا نعتمد الفرضية التي تقول، إن الأرض ومعها البحر كروية الشكل، وأن سطح الأرض كسطح البحار تماماً؛ لأنّ المرتفعات الموجودة على سطحها تفقد تمايزها كلّه على هذا الامتداد العظيم للأرض، فهي تبدو ضئيلة بالمقارنة مع أبعاد الأرض، وغير ملحوظة؛ ونحن نستخدم مصطلح «الشكل الكروي» عند الحديث عن مثل هذه الأشكال، لا بالمعنى الذي يدلّ على الكرة التي تخرج من مخرطة الخرّاط، ولا بالمعنى الذي يستخدم فيه المهندس الكرة للبرهان العياني، إنّما بالمعنى الذي يساعدنا على أن نتصوّر الأرض حتّى في شكلها التقريبي. ولنتخيّل بعد ذلك كرة بخمس مناطق، وليرسم خطّ الاستواء على شكل دائرة على هذه الكرة، ثمّ فلترسم دائرة ثانية موازية لهذه الدائرة تفصل المنطقة الباردة في نصف الكرة الشمالي، ولترسم

دائـرة ثالثـة تمـرّ عبر القطـب متقاطعـة مـع الـدائرتين الأخـريين في زاويـة قائمـة. وبمـا أن نصف الكرة الشمالي يشغل $\frac{2}{4}$ الأراضي التي يشكّلها خطّ الاستواء بدائرة تمرّ عبر القطب، فإن مساحة ذات أربع جهات تتشكّل في كلّ من $\frac{2}{4}$. وتشكّل الجهة الشمالية من هذه المساحة، نصف دائرة العرض المارّة على مقربة من القطب، بينما تشكّل جهتها الجنوبية نصف خطّ الاستواء؛ أمّا الجهتان المتبقيتان فهما قوسا الدائرة التي تمرّ عبر نقطة القطب؛ ويقع هذان القوسان واحدهما في مقابل الآخر، وهما متساويان في الطول. ونحن نزعم أن عالمنا المأهول يقع في واحد من هذه المربعات (وليس مهماً في أي مربع منها)، يشاطئه البحر ويشبه الجزيرة. وهذا ما تبرهن عليه، كما قلت آنفاً[6]، معطيات أحاسيسنا، وعقلنا. وإذا كان هناك من لا يوقن ببرهان العقل، فإن الجغرافيا لا تفرق بين ما إذا كنّا نتصوّر المعمورة جزيرة، أو أن نسلّم بما تعلّمنا إياه التجربة: أي يمكننا أن نجوب المعمورة من جهتين، من جهة الشرق، ومن جهة الغرب[7]، ما خلا رقعا قليلة في الوسط. وفيما يخصّ هذه الرقع، فإنه لا فرق بين ما إذا كانت محدودة بالبحر أو بأراض غير مأهولة؛ فالجغرافيّ يقصد إلى وصف الأجزاء المعروفة من المعمورة، ويترك أجزاءها المجهولة من غير دراسة، كما يترك أيضاً الأجزاء الواقعة خارج نطاق المعمورة. ويكفي أن نصل بخطّ مستقيم، أقصى نقاط سواحل الملاحة على جانبي المعمورة، حتّى نتمّ رسم ما يدعى «بالجزيرة».

6- ولنفترض أن هذه الجزيرة تقع فعلاً في المربّع الكروي المذكور. عندئذٍ ينبغي أن نرى أن حجمها هو الشكل الذي تدركه أحاسيسنا، بعد أن ننتزع نصف كرتنا الأرضية من الحجم الكلّي للأرض، ثمّ نسقط من هذا الفضاء نصفه، ومن هذا النصف، المربّع الذي قلنا إن المعمورة تقع فيه. وعلى هذا المنوال ينبغي أن يأتي استنتاجنا عن شكل هذه الجزيرة، آخذين بعين الحسبان تكييف شكل الجزيرة الذي أدركته حواسنا، مع الفرضيات المطروحة[8]. ولكن بما أن مقطع نصف الكرة الشمالي الواقع بين خطّ الاستواء والدائرة الموصوفة موازية له عند نقطة القطب، يمثل من حيث الشكل، شكلاً مغزلياً[9]، وأن الدائرة التي تمرّ عبر نقطة القطب قاطعة نصف الكرة الشمالي إلى شطرين تقسم المغزل إلى نصفين وتشكّل مربعاً، فإنه من الواضح أن المربع الذي يقع فيه البحر الأطلنطي، سوف يشكّل نصف سطح المغزل؛ أمّا المعمورة فهي جزيرة على شكل الكلامس[15]، لأنها من حيث الحجم أصغر من نصف المربع. وهذا واضح أيضاً استناداً إلى قواعد علم الهندسة، كما يتّضح كذلك من حجم البحر المحيط الذي يغمر أطراف القارّات من الجانبين ويمنحها شكلاً متضيّقاً من الأعلى[11]؛

ثالثاً، إن هذا واضح من الامتداد الأقصى طولاً وعرضاً. إن القسم الأكبر من المعمورة محدود بالبحر الذي لا يزال عصيّاً على الملاحة (لأنه يشكّل صحارى مائية عظيمة)، ولا يشكّل طول المعمورة سوى 70.000 مرحلة؛ وعرضها أقل من 30.000 مرحلة، لأنها محاطة بأراض غير مأهولة بسبب شدّة الحرّ والبرد. وثمّة شطر من المربع غير مأهول بسبب شدّة الحرّ، لأنّ عرضه 8800 مرحلة، ويبلغ أقصى امتداد له في الطول 126.000 مرحلة (أي أنه يشكّل نصف طول خطّ الاستواء)، أي أكثر من نصف المعمورة، أمّا ما تبقى من المربّع فهو على أغلب الظنّ أكبر من هذا[12].

7- ويتوافق مع هذا، ما خبّر به هيبارخ. فهو يقول، إذا ما أخذنا بالحسبان فرضية حجم الأرض التي وضعها إيراتوسفين، فإنه ينبغي علينا أن نطرح منها حجم المعمورة. وفيما يخصّ الظاهرات السماوية فإنه ليس ثمّة بالنسبة لبعض أقاليم المعمورة فرق كبير سواء أُجري القياس بحسب إيراتوسفين، أو حسبما قام به الجغرافيون المتأخرون. فبما أن خطّ الاستواء يشكّل بحسب إيراتوسفين 252.000 مرحلة، إذن فإن ربعه يساوي 63.000 مرحلة، وهذه هي المسافة من خطّ الاستواء حتّى نقطة القطب، وعلى وجه الدّقّة $\frac{15}{60}$ من الأجزاء الستين التي ينقسم إليها خطّ الاستواء[13]. أمّا المسافة من خطّ الاستواء حتّى المدار الشتوي، فهي تساوي $\frac{4}{60}$، والمدار الشتوي، هو دائرة العرض الممتدّة عبر سيينا. وعلى هذا النحو فإن بعض المسافات تتحدّد بالوحدات القياسية التي تبدو واضحة في السماء بالعين المجرّدة. فالمدار الشتوي على سبيل المثال، يجب أن يمرّ عبر سيينا، لأنّ مؤشّر الساعة الشمسية هنا لا يرمي ظلاً عند منتصف النهار وقت الانقلاب الشتوي. ويمتدّ خطّ الطول عبر سيينا على امتداد النيل تقريباً، من البحر حتّى الإسكندرية؛ وتبلغ هذه المسافة حوالي 10.000 مرحلة؛ ويجب أن تقع سيينا في وسط هذه المسافة، بحيث تبلغ المسافة من سيينا إلى البحر 5000 مرحلة. وإذا ما ابتعدت 3000 مرحلة جنوبي البحر على خطّ مستقيم، فإن ما تبقّى من المسافة ليس مأهولاً بسبب شدّة الحر؛ ولذلك يجب أن تعدّ دائرة العرض التي تعبر هذه الأرجاء، وهي متماثلة مع دائرة العرض التي تمرّ عبر بلاد القرفة، يجب أن تعدّ نقطة بداية معمورتنا من جهة الجنوب. وبما أن المسافة من البحر حتّى سيينا، هي 5000 مرحلة، يضاف إليها 3000 مرحلة أخرى، فإن كامل المسافة من سيينا حتّى حدود المعمورة سيكون 8000 مرحلة. ولكنّ المسافة إلى خطّ الاستواء من سيينا، هي 16.800 مرحلة (لأن $\frac{4}{60}$ تشكّل عدد المراحل هذا، فكل ستين جزءاً تساوي 4200 مرحلة)، ولذلك فالمسافة من حدود المعمورة حتّى خطّ الاستواء هي 8800 مرحلة، ومن الإسكندرية إلى خطّ الاستواء

21.800 مرحلة. ومن جهة أخرى ثمّة اتفاق بين العاملين في هذا الحقل، على أن الطريق البحرية من الإسكندرية حتّى رودوس تسير في خطّ مستقيم يتماثل مع مجرى النيل، وكذلك هي الطريق من هنا على طول سواحل كاريا وإيونيا حتّى طروادا، وبزنطا، والبوريسفين. وهكذا فإن الجغرافيين إذ يعتمدون المسافات المعروفة التي باتت بمتناول الملاحة البحرية، فإنهم يدرسون الأرجاء المأهولة الواقعة بعيداً وراء بوريسفين، [بما يتوافق] وهذا الخطّ مباشرة، كما يدرسون أيضاً الأجزاء الشمالية من المعمورة، التي ترمي حدودها بعيداً جدّاً. وتقطن وراء البوريسفين قبائل الروكسولان، وهم آخر السكيثيين المعروفين لنا، مع أنهم يقطنون مناطق أكثر جنوبية من مناطق سكنى شعوب أقصى شمالي بريطانيا المعروفة لنا حتّى الآن، فإن المناطق الواقعة وراء بلاد الروكسولان ليست مناطق مأهولة، لأنّ الصقيع يجعل العيش هنا مستحيلاً. وإلى الجنوب من الروكسولان يعيش السافروماث (وراء بحيرة ميوتيدا)، والسكيث الذين تمتدّ بلادهم حتّى حدود بلاد السلت الشرقيين.

8- ثمّ يقول بيفيوس الماسالي، إن فولا، وهي أقصى جزيرة في شمالي الجزر البريطانية، تعدّ أقصى بلاد، والمدار الصيفي مماثل هناك لدائرة القطب[14]. وأنا لم أجد لدى الكتّاب الآخرين أيّ شيء عن هذه المسألة: لا عن وجود جزيرة تدعى فولا، ولا عن كون الأرض حتّى ذلك الوقت مأهولة حيث يغدو المدار الصيفي دائرة قطبية. وأنا أزعم أن الطرف الشمالي للمعمورة يقع بعيداً إلى الجنوب من ذلك المكان الذي يغدو فيه المدار الصيفي دائرة القطب. فليس باستطاعة الكتّاب المعاصرين أن يخبروا عن أيّ بلاد تقع إلى الشمال من هيرنا الواقعة إلى الشمال من بريطانيا وعلى مقربة منها، وتعدّ موطناً لجماعات بشرية متوحّشة تماماً تعيش عيشة ضنك بسبب شدّة الصقيع؛ ولذلك فإني أقترح أن يعدّ الطرف الشمالي للمعمورة هنا في هذه النقطة. وإذا كانت دائرة العرض المارة في بزنطا تمرّ عبر ماساليا تقريباً، كما يقول هيبارخ استناداً إلى شهادة بيفيوس (يقول هيبارخ إنّ علاقة الميل والظل في بزنطا، هي على حدّ قول بيفيوس، نفسها في ماساليا)، وإذا كانت دائرة العرض المارة عبر مصبّ البوريسفين تبتعد عن دائرة العرض هذه بما يقارب 3800 مرحلة، فإننا إذا ما أخذنا بالحسبان، المسافة من ماساليا إلى بريطانيا[15]، فإن الدائرة الممتدّة عبر مصبّ البوريسفين تتلاقى في مكان ما في بريطانيا. إن بيفيوس الذي يخدع الناس دائماً، يسلك السلوك نفسه هنا أيضاً، إذ يحرّف الحقيقة؛ فكثير من الكتّاب يرى أن الخطّ الممتدّ من أعمدة هرقل إلى محيط مضيق صقليا، وأثينا ورودوس، يقع على دائرة العرض نفسها، وثمّة منهم من

يـرى أيضـاً أن الخـطّ المتـدّ مـن أعمـدة هـرقـل إلى مضـيق صـقليا ، يمـرّ في وسـط البحـر. ويقول البحارة ، إن أكبر المعابر من سلتيا إلى ليبيا ، هو معبر خليج غالاطيا؛ فهو يشكّل 5000 مرحلـة ، وهـذا أكـبر عـرض للبحـر المتوسّـط ، ولـذلك فـإن المسـافة مـن الخـطّ المـذكور حتّـى مـنخفض الخلـيج سـوف تكـون 2500 مرحلـة ، أي أقـل مـن المسـافة إلى ماساليا ، فهذه الأخيرة تقع جنوبي منخفض الخليج. وتبلـغ المسـافة مـن رودوس إلى بزنطـا حوالي 4900 مرحلة ، وعليه فإن دائرة العرض التي تعبر بزنطـا ، يجـب أن تمـرّ بعيـداً إلى الشمال من دائرة العرض التي تعبر ماساليا. ولكـنّ المسـافة مـن ماسـاليا إلى البوريسـفين يمكـن أن تكـون متماثلة مع المسافة مـن بزنطـا إلى مصـبّ البوريسـفين.. أمّـا المسـافة مـن بريطانيـا إلى هيرنـا فـلا تـزال مجهولـة ، كمـا لا نعـرف أيضـاً مـا إذا كـان هنـاك منـاطق مأهولة بعد ذلك؛ بل وينبغي ألا نشتغل على هذه المسألة على خلفية ما قيل آنفاً. أمّـا فيمـا يتعلّق بالعلم ، فإننا ينبغي أن نسلّم (كما تعاملنا مع المناطق الجنوبيـة) ، بأنـه كـان يجـب أن نبيّن حـدود المعمـورة بتقـدّمنا 3000 مرحلـة إلى الجنـوب مـن البحـر (وغـني عـن البيـان القول إنه ليس المقصـود هنـا الحـدود الدقيقـة ، بـل الحـدود التقريبيـة)؛ وكـذلك في هـذه الحالة ، ينبغي ألاّ نـرى هـذه الحـدود أكثر من مسافة تمتـدّ 3000 مرحلـة إلى الشـمال مـن بريطانيا ، أو أكثر من 4000 مرحلة بقليل. أمّا بالنسبة للاحتياجـات الحكوميـة ، فلـيس هنـاك فائـدة مـن التعـرّف إلى تلـك البلـدان والقـاطنين فيهـا ، خاصـة إذا كـان هـؤلاء الأخيرين يعيشون في جزر تمنعهم مـن أن يسـببوا لنـا أي أذى ، أو يقـدّموا أي نفـع ، بسـبب عدم وجود أي صلات معهم. فالرومان ، وعلـى الـرغم مـن أنهـم نجحـوا في الاسـتيلاء علـى بريطانيا ، إلاّ أنهم تجاهلوا هؤلاء ، لأنهم رأوا أن البريطـانيين لا يمثلـون أي تهديـد مـن أي مستوى كـان (لأنهـم ليسـوا أقويـاء إلى الحـدّ الـذي يمكّـنهم مـن مهـاجمتهم) ، كمـا لم تكـن هنـاك منفعة ترجى منهم إذا ما تمّ إخضاع بلادهـم. فـواردات الرسـوم التجاريـة الآن أكـبر ممـا كـان يمكـن أن تعطيـه الإتـاوات ، إذا مـا حسـبنا نفقـات القـوات الضـرورية لحمايـة الجزيـرة وجمـع الإتـاوات. وكـان الأذى مـن الاسـتيلاء علـى الجزيـرة ، سـيكون أكبر إذا أخضعت الجزر الأخرى المحيطة ببريطانيا.

9- وإذا مـا أضـفنا بعـد ذلـك إلى المسـافة مـن رودوس إلى مصـبّ البوريسـفين ، المسافة مـن مصـبّ البوريسـفين إلى المنـاطق الشـمالية ، وهـي 4000 مرحلـة ، فـإن المجمـوع سـوف يشـكّل 12.700 مرحلة ، أمّا المسافة بين رودوس والحدود الجنوبية للمعمورة ، فهـي 16.000 مرحلة؛ وعليه فإن امتداد عرض المعمورة من الجنوب إلى الشمال يجب أن يكـون أقلّ من 30.000 مرحلة. أمّا طولها فيعدّ مساوياً لما يقارب 70.000 مرحلة ، والمقصود هنا ،

هو الطول من الغرب إلى الشرق، المسافة من أطراف إيبيريا إلى أطراف الهند، وهي المسافة التي قيس جزء منها برّاً، والجزء الآخر بحراً. ويتّضح من العلاقة بين دوائر العرض وخطّ الاستواء، أن هذا الطول يقع داخل المربّع[16] الذي ذكرناه آنفاً، ومن هنا فإن طول المعمورة أكبر من ضعف عرضها. ويبدو شكلها كشكل الكلامس تقريباً؛ فنحن إذا ما طفنا حول كلّ منطقة من مناطق المعمورة على حدة، فسوف يتبيّن لنا أن أطراف عرضها متضيّقة، خاصة الأطراف الغربية.

10- وهكذا نكون الآن قد رسمنا على سطح كرويّ، حدود الفضاء الذي تقع المعمورة دخل إطاره[17]. ومن يروم الاقتراب أكثر ما يمكن إلى الشكل الحقيقي للأرض مستخدماً أنماط الأشكال الصناعية، عليه أن يصوّر الأرض على شكل كرة ككرة كراتيت[18]، ثمّ يضع عليها مربّعاً ويرسم داخل حدود هذا الأخير خريطة جغرافية. ولكن بما أن الضرورة تقضي برسم كرة كبيرة، لكي يكون المقطع المذكور (الذي لا يشكّل سوى جزء صغير جدّاً من الكرة) كبيراً بما يكفي لتحديد أجزاء المعمورة ذات الصلة عليه بوضوح، ولكي يتسنّى للمشاهدين أن يتخيّلوا لوحتها المعتادة، فإنه من المستحسن بناء كرة وفق المقاييس الضرورية. وليكن قطرها ليس أقلّ من 10 أقدام. وإذا ما تعذّر بناء كرة بالحجم المطلوب، أو أصغر بقليل، فعندئذٍ ينبغي رسم خريطة على لوح خشبي مستو حجمها 7 أقدام بالحد الأدنى[19]. فليس ثمّة فرق ملحوظ إذا ما رسمنا خطوطاً مستقيمة بدلاً من دوائر- دوائر عرض وخطوط طول- نظهر بها بوضوح «الأقاليم»، والرياح[20]، وسوى ذلك من التباينات، كما نُظهر أيضاً توضّع أجزاء الأرض بالنسبة لبعضها بعض، وتوضّع الأجرام السماوية، فنرسم خطوطاً مستقيمة لدوائر العرض، وخطوطاً متعامدة للدوائر، لأنه من السهل على مخيّلتنا أن تنقل إلى سطح دائري وكروي، شكلاً أو حجماً مرئياً بالعين المجرّدة على سطح مستو. ونحن نرى أن مثل هذا يستخدم أيضاً بالنسبة للدوائر المنحرفة والخطوط المستقيمة التي توافقها. ومع أن خطوط الطول الممدودة كلّها على سطح الكرة عبر نقطة القطب، تلتقي في نقطة واحدة، إلاّ أنه بالنسبة لخريطتنا المرسومة على سطح مستو، ليس ثمّة فرق كبير إذا ما جعلنا خطوط الطول المستقيمة تتلاقى بعض التلاقي. ففي حالات كثيرة، ليس هذا ضرورياً، ولا يلفت النظر تدوير الخطوط وتلاقيها، إذا ما نُقلت إلى سطح مستو ورسمت على شكل خطوط مستقيمة.

11- وعلى هذا النحو فإنني سأعتمد فيما يلي من هذا البحث، شبه رسم على خريطة مستوية. وسأقول بعد ذلك أي أجزاء الأرض وأيّ بحار تسنّى لي أن أزورها

بنفسـي، ومـا هـي أجـزاء الأرض الـتي اعتمـدت في حـديثي عنهـا علـى روايـات الآخـرين ووصفهم لها. فأنـا قمـت برحلـة إلى الأرجـاء الواقعـة إلى الغـرب مـن أرمينيـا ، وصلـت فيهـا حتّى نواحي تيرينيا الواقعة مقابل سردينيا ، وإلى الجنوب بدءاً من البـونتس الإيفكسـيني حتّى حدود إثيوبيا. ولعلّه لا يوجد بين الجغـرافيين مـن طـاف أكثـر مـني بكـثير أراضـي الأمـداء المـذكورة؛ لكـنّ الـذين توغّلـوا أكثـر مـني في المنـاطق الغربيـة ، لم يبلغـوا في الأرجاء الشرقية ذلك القدر من الأراضي الـذي بلغتـه أنـا ؛ أمّـا أولئـك الـذين طـافوا أراض أكثر في بلدان الشرق، فإنهم يتخلّفون عنّي في بلدان الغرب؛ والأمـر علـى هـذا النحـو في بلدان الجنوب وبلدان الشمال. ومع ذلك فإن الكم الأكبر من المعلومات، يأتيني ويـأتيهم عبر الأخبـار، ومـن ثـمّ نـبني تصـوّراتنا عـن الشـكل، والحجـم وسـوى ذلـك مـن السـمات الخاصة، الكيفية منها والنوعية، لأنّ العقل يشكّل تصوّراته مـن الانطباعـات الحسـّيّة. فإدراكنا الحسي ينقل انطباعـاً عـن شـكل التفاحـة، ولونهـا ، وحجمهـا ، وكـذلك عـن رائحتهـا ، وأخـيراً ثمّـة انطبـاع يكـوّنـه اللمـس، وآخـر يكـوّنـه الطعـم؛ ومـن هـذا كلّـه يشـكّل العقـل انطباعـاً عـن التفاحـة. وحينمـا نتعامـل مـع الأشـكال الكـبيرة، فـإن أحاسيسنا لا تدرك سوى أجزائها ، أمّا العقـل فيشـكّل انطباعـاً عـن الكـلّ علـى أسـاس الإدراك الحسـّيّ. وعلـى هـذا المنـوال يتصـرّف محبـو المعرفـة: إنهـم يعتمـدون علـى أجهـزة الحس، وعلى الأشخاص الذين رأوا هذه البلاد أو تلك، أو طافوا بهـا ، إلى حيـث قـادتهم المصادفة (بعضهم إلى هذه الأجزاء من الأرض، وبعضهم الآخـر إلى أجـزاء أخـرى منهـا)، ثمّ يوحّـدون في لوحـة واحـدة، الصـورة الذهبيـة الـتي كوّنوهـا عـن المعمـورة ككـلّ. أمّـا القادة العسـكريون، فعلى الرغم مـن أنهـم يفعلـون كـلّ شـيء بأنفسـهم، إلاّ أنهـم ليسـوا حاضرين في كلّ مكـان، إنّما يديرون أكثر أعمالهم عبر الآخرين، واستناداً إلى أخبـار المخبرين يصـدرون أوامـرهم ذات الصـلة بمـا ينسـجم وتلـك الأخبـار. ومـن يـر أن أحـداً لا يعرف عن ظاهرة مـا شـيئاً، إلا ذاك الـذي رآهـا بـأم عينـه، فهـو يلغـي بهـذا معيـار الحسّ السمعي، مع أن هذا الحسّ أهمّ بالنسبة للأهداف العلمية من الحسّ البصري.

12- لقــد كــان بإمكــان المــؤلّفين المعاصــرين علــى وجــه الخصــوص، أن يتحدّثوا[21] بشـكل أفضـل عـن البريطـانيين، والجرمـان، عـن شـعوب شمـالي نهـر إيسـتر وجنوبـه، عـن الجيتـيين والتيرجيتـيين، والباسـتارنييت، وإضـافة إلى ذلـك، عـن شـعوب القفقاس، كما عن الألبان والإيبيريين على سبيل المثال. ويمدّنا «تـاريخ البـارثيين (الـذي كتبـه أبوللـودوروس الأرطميسـي ومدرسـته) بكـثير مـن المعلومـات عـن هركانيـا وباكتريا؛ فقد توقّف مؤلّفوه عند هذين البلدين أكثر مما توقفوا عند البلـدان الأخـرى.

ومـن جهـة أخـرى، طالمـا أن الجيـوش الرومانيـة اجتاحـت العربيـة السـعيدة منـذ بعـض الوقـت[22] (وقـد قـاد هــذه القـوات إيليـوس غـالوس، وهـو صـديقي الـودود)، وتجـار الإسكندرية أبحروا بقوافلهم التجارية عبر النيل والخليج العربي إلى الهند، فإن هـذه المناطق بدورها باتت معروفة لنا أفضل بكثير مما كانت معروفة لأسلافنا. وفي الأحـوال كلّها، عندما كان غالوس والياً على مصر، صعدت معه نهر النيل كواحـد مـن أفـراد حاشيته، ووصلت إلى سيينا وحدود إثيوبيا، وقد علمت أثناء ذلك أن حوالي 120 سـفينة تبحر من ميوس هورموس إلى الهند، بينما في زمن البطالمة لم يكن يجرؤ سوى قلّة على الإبحار إلى هناك لحمل السلع الهندية.

13- وعليه فإن الأمر الأول والأهـمّ، إن بالنسـبة للأغـراض العلميـة أو بالنسـبة لاحتياجات الدولة، هو محاولة إعطاء وصف مبسّط قدر الإمكان، لشكل وحجم ذلـك الجـزء مـن الأرض الـذي يتخـذ لـه مكانـاً في داخـل حـدود خريطتنـا الجغرافيـة، وإبـراز السمات التي يميّز بها هذا الجزء، وتحديد نصيبه من الحجم الكلّي للأرض. ففـي هـذا على وجـه الخصـوص تـتلخّص مهمّـة الجغرافـيّ. ومـن جهـة أخـرى فـإن إعطـاء معلومـات دقيقة عن الأرض كلّها، وعن «المغـزل» الـذي تحـدّثت عنـه آنفـاً كلّـه، هـو مهمّـة ميـدان علمي آخر؛ مثلاً طرح السـؤال الآتـي: هـل «المغـزل» في الربـع المقابـل مـأهول أيضـاً؟ وغـني عن البيان إنه حتّى إذا كان مأهولاً، فإن ساكنيه ليسوا كالناس الذين عنـدنا، أو أنـه ينبغي علينا أن ننظر إليه بصفته معمورة أخرى، وهو أمر مرجّح. وإنني ملزم بـأن أتحـدّث عمّا هو موجود في جزئنا هذا.

14- إن الأرض، هـي مـن حيـث الشـكل شـيء مـا يشـبه الكلامـس، ويشـكّل أقصى عرض لها خطّاً يمرّ عبر النيل؛ ويبدأ هـذا الخـطّ مـن دائـرة العـرض الـتي تمـرّ عـبر بلاد القرفة وجزيرة المنفيين المصريين[23]، وينتهي بدائرة العرض التي تمرّ عبر هيرنا؛ أمّا طولها [أي طول المعمورة] فيشكّله خطّ متعامـد علـى هـذا الخـطّ الـذي يمتـدّ مـن الغـرب عبر أعمدة هرقل، ومضيق صقليا حتّى رودوس وخليج إيس، ويسير على امتداد السلسـلة الجبليـة الـتي تحـيط بآسـيا، وينتهـي عنـد البحـر الشـرقي بـين الهنـد وبـلاد السـكيثيين القـاطنين وراء باكتريانـا. وينبغـي أن نتخيّـل متـوازي أضـلاع فيــه هيـأة علـى شـكل كلامس يتطابق أقصى طول له مع أقصى طول في متوازي الأضـلاع ويسـاويه؛ وتكـون العلاقة نفسها قائمة بين أقصى عرض للكلامس وأقصى عرض لمتوازي الأضلاع. وهـذه الهيـأة الـتي علـى شـكل الكلامـس هـي المعمـورة؛ أمّـا عرضـها فيتحـدّد، كمـا قلـت، بأقصـى ضـلعي متـوازي الأضـلاع اللـتين تفصـلان بـين شـطريها المـأهول وغـير المـأهول

بالاتجاهين[24]. وهاتان الضلعان: في الشمال، دائرة عرض هيرنا؛ وفي المنطقة الحارّة، دائرة عرض بلاد القرفة؛ وبالتالي فإن امتداد هاتين الضلعين نحو الشرق ونحو الغرب حتّى أجزاء المعمورة «التي ترتفع في مقابلهما»[25]، يشكّل متوازي أضلاع ما بخطوط طول تصل بينها عند أطرافها. وما يؤكّد أن المعمورة تقع في هذا المتوازي الأضلاع، هو أن أقصى العرض والطول لا يخرجان خارج حدوده. وما يبين أن شكل المعمورة يشبه الكلامس، هو أن أطرافها التي تشاطئ البحر تضيق على الجانبين[26]، وعلى هذا النحو تجعل العرض أقلّ. وهذا ما نقله الذين أبحروا حول الجزأين الشرقي والغربي بالاتجاهين[27]. وبحسب ما خبّر به هؤلاء البحارة، انه ثمّة جزيرة تدعى تابروبانا تقع بعيداً إلى الجنوب من الهند، وهي مأهولة، و«ترتفع قبالة» جزيرة المصريين وبلاد القرفة؛ فحرارة الجوّ هناك وهنا واحدة تقريباً؛ وإلى الشمال من سكيثيا القصوى وراء الهند، تقع مناطق محيط ثغر البحر الهركاني، وإلى الشمال منها تقع مناطق محيط هيرنا. ويروون روايات مشابهة عن البلاد الواقعة وراء أعمدة هرقل: رأس إيبيريا التي تدعى «الرأس المقدّسة»، تعدّ أقصى نقطة في غربي المعمورة. وتقع هذه الرأس تقريباً على الخطّ الذي يمرّ عبر غادير، وأعمدة هرقل، ومضيق صقليا، ورودوس. وعلى حدّ قولهم، إن الظلال التي ترميها الساعة الشمسية، تتطابق في هذه النقاط كلّها، وأن الرياح المواتية لذلك الاتجاه أو للاتجاه الآخر[28]، تهبّ من الجهة عينها، وكذلك امتداد أكثر النهارات والليالي طولاً، هو عينه؛ فأطول نهار ومثله أطول ليل، يمتدّ كلّ منهما $14\frac{1}{2}$ ساعة معتدلة. ويظهر في بعض الأحيان برج الكابيري على الساحل قرب غادير. ويقول بوسيدونيوس، إنه رأى من على سطح أحد المنازل العالية في هذه المدينة، وعلى بعد 400 مرحلة من هذه الأماكن، نجماً عدّه كانوبوس نفسه، وقد قرّر هذا استناداً إلى ما أكّده الذين اجتازوا مسافة قصيرة نحو الجنوب من إيبيريا وراقبوا كانوبوس من هناك، كما إلى عمليات الرصد العلمية التي جرت في كنيد. ثمّ قال، إن مركز مراقبة إيفدوكس في كنيد، يقع أعلى قليلاً من مساكن الناس؛ ومن هناك كان إيفدوكس، كما يقولون، يراقب النجم كانوبوس؛ ويضيف بوسيدونيوس، إن كنيد تقع على دائرة عرض رودوس، التي تقع عليها غادير وسواحلها أيضاً.

15- وإذا أبحرنا من هناك جنوباً، فإن ليبيا تقع هناك. ويمتدّ الجزء الطرفي من الساحل الغربي لهذه البلاد، غير بعيد عن غادير، ويشكّل هذا الساحل رأساً ضيّقة تتراجع نحو الجنوب الشرقي، ثمّ تتسع بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتّى تبلغ مناطق الإثيوبيين الغربيين. ويعيش هذا الشعب في أبعد المناطق الواقعة إلى الجنوب من حدود قرطاجا،

و[منطقته] تصل إلى دائرة العرض التي تمرّ عبر بلاد القرفة. ولكن، إذا أبحرنا من الرأس المقدّسة بالاتجاه المعاكس حتّى البلاد التي تدعى بلاد الأرتابريين، فإن الإبحار سوف يتّجه شمالاً، وسوف تكون لوسيتانيا على الجهة اليمنى. وعندئذٍ سوف يقع ما تبقّى من الطريق كلّه على الاتجاه الشرقي مشكّلاً مع الاتجاه السابق زاوية منفرجة تصل حتّى رؤوس البيرينيه البحرية التي تمتدّ حتّى المحيط. ويقع الجزء الغربي من بريطانيا قبالة هذه الرؤوس نحو الشمال؛ والشيء عينه ينطبق على الجزر التي تدعى كاسيتيريس، الواقعة في عرض البحر على دائرة عرض بريطانيا نفسها تقريباً، فهذه بدورها تقع إلى الشمال قبالة أرتابرا. ويتّضح من هذا إلى أيّ حدّ تتدانى أطراف المعمورة الغربية والشرقية طولاً بالبحار التي تشاطئها.

16- وإذ تتخذ المعمورة هذا الشكل العام، نرى من المفيد أن نأخذ خطّين متقاطعين في زاوية قائمة؛ يمضي أحدهما عبر الطول الأكبر، والآخر عبر العرض الأكبر للمعمورة؛ وسوف يكون الأول منهما إحدى دوائر العرض، والثاني أحد خطوط الطول. وسيكون من المفيد أن نتخيّل خطوطاً أخرى متوازية مع هذين الخطّين على جانبيهما، ونشطر بها الأرض والبحر، وهو ما نراه أمامنا فعلاً. وسيتّضح أكثر عندئذٍ، أن شكل المعمورة هو على النحو الذي وصفته قبل برهة، إذا ما حاكمنا الأمر وفق امتداد خطوط ذات مقاييس مختلفة - خطوط الطول ودوائر العرض؛ كما ستتضح على نحو أفضل أيضاً، «الأقاليم» في الشرق والغرب، ومثلها في الجنوب والشمال. ولكن بما أنه ينبغي مدّ هذه الخطوط عبر أماكن معروفة سلفاً، وأن خطّين منها قد مدّا فعلاً (وأنا أقصد هنا خطّي الوسط المذكورين: أحدهما يمثل خطّ الطول، والآخر دائرة العرض)، فسيكون من السهل إيجاد الخطوط الأخرى، استناداً إلى هذين. وإذا ما استخدمنا هذين الخطّين كمقياسين[29]، فإننا نستطيع أن نحدّد وفقاً لهما مناطق متوازية وما إلى ذلك: المواقع الجغرافية وكذلك المواقع الفلكية للمراكز السكّانية.

17- إن البحر هو أكثر من يحدّد ملامح اليابسة ويعطيها شكلها، إذ يشكّل الخلجان، والبحار المفتوحة، والمضائق، والبرازخ، وأشباه الجزر، والرؤوس البحرية. وتساعد البحر في عمله هذا، الأنهار والجبال. ومن هنا نتلقّى تصوّراً واضحاً عن القارّات، والأقوام، والمواقع الملائمة للمدن، وكلّ تنوّع التفاصيل التي تمتلئ بها خريطتنا الجغرافية. وتتبعثر بين ظهراني هذا التنوّع كلّه، كثرة من الجزر في عرض البحار، وعلى امتداد السواحل. ولكن، بما أن خاصيات مختلفة تظهر في مختلف الأماكن (جيّدة وسيّئة)، ملائمة، وغير ملائمة منبثقة من هذه الخاصيات، بعضها

مرتبط بالظروف الطبيعية، وبعضها الآخر ناجم عن نشاط الإنسان، فإنه ينبغي على الجغرافيّ أن يشير إلى الأسباب الملائمة الناجمة عن الشروط الطبيعية؛ لأنها ثابتة، بينما السمات المكتسبة متغيّرة. ويجب على الجغرافيّ أن يذكر من هذه الأخيرة، تلك التي يمكن أن تبقى لزمن طويل، أو تلك التي مع أنها لا تبقى طويلاً، إلاّ أنها تكتسب شهرة أو مجداً فتبقى للزمن الآتي إذ تصنع سمات (حتّى لو لم تبق طويلاً)، مرتبطة بالمكان وليست من صنع البشر. ومن هنا تتضح ضرورة المجيء على ذكر هذه السمات الأخيرة. فالنسبة لكثير من المدن، يمكننا أن نكرر ما قاله ديموسفين عن أولينت[30]. والمدن المرتبطة بها[31]. والتي على حدّ قوله، كانت مدمّرة إلى درجة أن أيّ زائر عابر كان عاجزاً عن أن يعرف ما إذا كانت تقوم هنا يوماً ما مدن أم لا. وفي غضون ذلك كان هناك من يريد أن يزور هذه الأماكن وغيرها، لأنّ لدى الناس توقاً شديداً لرؤية حتّى آثار الأعمال المجيدة، تماماً كرغبتهم في زيارة أضرحة المشاهير. وعلى هذا النحو تأتّى لي أن آتي على ذكر عادات، وأشكال حكم لم يعد لها وجود، لأنّ المغزى والعبرة يدفعاني إلى الحديث عنها وعن الأعمال المشابهة، لغرض المحاكاة أو تفادي حدوث ما يشبهها في المستقبل.

18- لنبدأ مرّة أخرى من أوّل دراسة عن المعمورة. إنني أزعم أنه، بما أن أرضنا المأهولة محاطة بالبحر، فإنها تستقبل كثرة من خلجان البحر الخارجي على طول سواحل المحيط؛ وثمّة بين هذه الخلجان أربعة هي الأكبر. ويحمل الشمالي منها اسم، بحر قزوين، (ويدعوه بعضهم بالبحر الهركاني)، ويفيض الخليج الفارسي والخليج العربي من البحر الجنوبي؛ الأوّل قبالة بحر قزوين تقريباً، والثاني قبالة البونتس؛ أمّا الخليج الرابع الذي يفوق الخلجان الأخرى من حيث الحجم، فهو يتشكّل مما يدعى بالبحر الداخلي، أو «بحرنا»؛ بدايته من الغرب في مضيق أعمدة هرقل، ثمّ يمتدّ نحو الأرجاء الشرقية فيضيق تارة ويتسع أخرى، وأخيراً ينقسم لينتهي بخليجين بحريين، أحدهما على الجهة اليمنى (وهو الذي ندعوه نحن بالبونتس الإيفكسيني)، والآخر على الجهة اليسرى، وهو يتألّف من البحر المصري، والبحر البامفلي، وبحر إيس. ولهذه الخلجان كلّها مداخل ضيّقة من جهة البحر الخارجي، وينسحب هذا خاصة على الخليج العربي والخليج الذي عند أعمدة هرقل، أمّا مداخل الخلجان الأخرى فهي أكثر اتساعاً. وتنقسم الأرض المحيطة بها، كما أشرنا سابقاً، إلى ثلاثة أقسام. ومن هذه الأقسام، أوروبا وحدها التي لها شكل أكثر تنوّعاً؛ أمّا ليبيا فهي على العكس، إذ أن لها شكلاً صحيحاً، بينما لآسيا موقع وسط بين أجزاء العالم الأخرى. وينجم انتظام

ملامح أشكال هذه الأخيرة أو عدم انتظامها، عن خاصيات الخطّ الساحلي للبحر الداخلي، بينما ملامح ساحل البحر الخارجي (ما عدا خلجانه المذكورة)، بسيطة وتشبه الكلامس، كما ذكرت، أمّا ما تبقّى من عدم الانتظام فإننا لا نأخذه بعين الحسبان، لأنّ الصغائر لا يقام لها وزن عندما نتعامل مع الأحجام الكبرى. ونحن إذ نشتغل بالجغرافيا، فإننا لا ندرس أشكال البلدان وأحجامها فقط، بل ندرس أيضاً كما قلت، موقع واحدها بالنسبة للآخر. ولذلك فإن الخطّ الساحلي للبحر الداخلي يمثل بالنسبة لنا، تنوّعاً أكبر من تنوّع الخطّ الساحلي للبحر الخارجي. وما له أهمية في غضون ذلك، هو أن القسم المعروف لنا هنا، والذي امتداده أكبر بكثير مما هو هناك، يتمتّع بمناخ معتدل، وتغطّيه الجبال، وتقطنه شعوب بنت دولاً ذات أنظمة جيّدة. وعلى صعيد آخر، نحن نرمي إلى معرفة الأجزاء الأخرى من العالم، حيث بقيت حاضرة فيها روايات عن عدد أكبر من الأعمال المجيدة، وعن أشكال الدولة، والفنون وما شابه مما يعاضد الحكمة في الحياة اليومية، أمّا ضرورة العيش فإنها تقودنا إلى تلك الأماكن التي يمكن أن تنسج معها علاقات عمل وتواصل، وهذه هي كلّ البلدان التي تدبر شؤونها القوانين، وبمعنى أدق، تديرها القوانين والحكومات إدارة لا بأس بها. وكما قلت سابقاً، فإن بحرنا الداخلي يتفوّق في هذا كلّه، ولذلك سأبدأ حديثي به.

19- إن بداية هذا الخليج، كما أسلفت، هي المضيق الواقع عند أعمدة هرقل؛ ويقولون إن أضيق جزء منه يصل إلى حوالي 70 مرحلة؛ ولكن إذا ما أبحرت عبر الجزء الضيق منه (يبلغ طوله 120 مرحلة)، فسرعان ما يتباعد شاطئا الخليج، ويتراجع شاطئه الأيسر خاصة. ثمّ يتخذ الخليج بعد ذلك شكل بحر كبير. ويحدّ هذا البحر من اليمين شاطئ ليبيا وصولاً حتّى قرطاجا، وتحدّه من الجهة الأخرى إيبيريا، وسلتيا عند ناربون وماساليا، ثمّ ليغوريا، وأخيراً إيطاليا وصولاً إلى مضيق صقليا. والجهة الشرقية لهذا البحر هي صقليا والمضيقان الواقعان على جانبيها: المضيق الواقع بين إيطاليا وصقليا، وعرضه 7 مراحل، والمضيق الواقع بين صقليا وقرطاجا، وعرضه 1500 مرحلة. ولكنّ الخطّ الممتدّ من أعمدة هرقل حتّى المضيق على 7 مراحل، يعدّ جزءاً من الخطّ الواصل إلى رودوس وسلسلة الجبال؛ وهو يشطر البحر المذكور في منتصفه تقريباً، ويبلغ طوله، كما يقولون، 12000 مرحلة. وهذا هو طول البحر نفسه، أمّا أقصى عرض له فيصل إلى ما يقارب 5000 مرحلة، وهي المسافة من خليج غلاطيا بين ماساليا وناربون، حتّى الشاطئ الليبي على الجانب المقابل. ويدعى هذا الجزء من البحر كلّه، وصولاً إلى

الساحل الليبي، بالبحر الليبي، ويدعى الجزء الممتدّ على طول الساحل المقابل، بالبحر الإيبيري، والبحر الليغوري، وبحر سردينيا وصولاً حتّى صقليا حيث يبدأ بعد ذلك البحر التيراني. وتقع على طول ساحل البحر التيراني، كثرة من الجزر، وصولاً إلى ليغوريا؛ وأكبر هذه الجزر جزيرة سردينيا، وجزيرة كيرن، إضافة إلى صقليا؛ فصقليا هي الجزيرة الأكبر والأكثر خصوبة في شطر الكون الذي نعيش فيه. وتتخلّف عنها كثيراً جزيرتا بانداتيريا وبونتيا الواقعتان على مقربة من سواحل إيثاليا، وبلاناسيا، وبيفيكوسا، وبروخيتا، وكابري، وليكوسيا، وما إلى ذلك. وعلى الجانب الآخر من البحر الليغوري، أمام الجزء المتبقي من الساحل، حتّى أعمدة هرقل، يقع عدد قليل من الجزر، أذكر منها هيمنيسي وإيبيس، كما يقع عدد قليل آخر من الجزر أمام ليبيا وصقليا، ومنها كوسورا، وإيغيمور، ومجموعة الجزر الليبارية، التي يدعوها بعضهم بالإيولية.

20- ثمّة وراء صقليا والمضيقين الواقعين على جانبيها، بحار أخرى مجاورة: أحدها قبالة سرت وقورينا وسرت نفسها، وثانيها هو البحر الذي كان يدعى بالبحر الأفسوني، وبات يدعى الآن بالبحر الصقلي الذي يندغم بالبحر الأول ويعد امتداداً له. ويدعى البحر الذي مقابل سرت وقورينائية بالبحر الليبي، وهو يمتدّ حتّى البحر المصري. والأصغر من بحريّ سرت يبلغ محيطه ما يقارب 1600 مرحلة؛ وتقع على جانبيّ مدخله جزيرتا مينينكس وكيركينا. أمّا بحر سرت الأكبر فيبلغ محيطه بحسب إيراتوسفين، 5000 مرحلة، وطوله 1800 مرحلة من هسبيريدس حتّى أفتوماليا والحدود المشتركة مع قورينائية قبالة الجزء المتبقي من ليبيا في هذه المنطقة؛ لكنّ آخرين حدّدوا محيطه بـ4000 مرحلة، وطوله بـ1500 مرحلة؛ وعلى النحو نفسه عرض مدخله. ويقع بحر صقليا قبالة صقليا وإيطاليا نحو الشرق، وإضافة إلى ذلك، أمام المضيق الواقع بينهما، قبالة منطقة ريغوس حتّى لوكرا ومنطقة ميسينا حتّى سيراكوزا وباهين. ويمتدّ شرقاً حتّى أطراف كريت، وتشاطئ مياهه الجزء الأكبر من البيلوبونيز وتملأ ما يسمّى بخليج كورينثوس. ويمتدّ هذا البحر شمالاً حتّى رأس يابيغيا نحو مدخل الخليج الإيوني والأجزاء الجنوبية من إيبير وصولاً إلى الخليج الأمبراكي والساحل المجاور الذي يشكّل مع البيلوبونيز، خليج كورينثوس. والخليج الإيوني، هو جزء من البحر الذي يدعى الآن بالبحر الأدرياتيكي. وتشكّل إيلليريا الشاطئ الأيمن لهذا البحر، بينما تشكّل إيطاليا حتّى خليج أكويلوس، شاطئه الأيسر. ويضيق هذا الخليج ويتطاول نحو شمال غرب؛ طوله حوالي 6000 مرحلة، وأقصى عرض له 1200 مرحلة. وتقع هنا كثرة

كـثيرة مـن الجـزر: أمـام السـاحل الإيللـيري جـزر أبسـرتيدس، وكيريكتيكـا، وليبورنيـدس، وإيسّـا، وتراغوريـوس، وكـوركيرا السـوداء، وفـاروس؛ وأمـام السـاحل الإيطـالي جـزر ديوميـدس. ويقـال إن امتـداد بحـر صـقليا مـن بـاهين إلى كـريـت، 4500 مرحلة، ومثلها أيضاً المسافة حتّى رأس تينـار في لاكونيـا، والمسـافة مـن رأس يابيغيـا إلى منخفض خليج كورينثوس أقلّ من 3000 مرحلة، بينما المسافة من إيطاليا إلى ليبيا أكثر من 4000 مرحلة. والجزر الواقعة هنا هي جزيرة كوركيرا وجزيـرة سيبوتا أمام سـاحل إيبير، ثمّ جزر كيثالينيا، وإيثاكا، وزاكينثوس، وإيخيدنا أمام خليج كورينثوس.

21- ويتّصل بالبحر الصقلي البحر الكريتي، والبحر السـاروني، وبحـر ميرتـوي الـذي يقـع بـين كـريـت وآرغيـوس وأثيكـا؛ ويبلـغ أقصـى عـرض لـه مـن أتيكـا، حـوالي 1200 مرحلـة، أمّـا طولـه فأقـلّ مـن ضـعف عرضـه. وتقـع جـزر كيـثيرا، وكالافريـا، وإيجينا، وسلامين المجاورة لها، وبعض جزء كيكلادا. ويلي بحر ميرتوي مباشـرة بحـر إيجـة، وخلـيج مـيلان، والهلسـبونت، وكـذلك بحـر إيكاريـا، وبحـر كارباثـا حتّـى رودوس، وكـريـت، وكارباثـا، والأجـزاء الأولى مـن آسـيا. وتقـع في بحـر إيجـة جـزر كيكلادا[32]، وسبورادا، والجزر الواقعة أمام كاريا، وإيونيـا، وإيوليـدا وصـولاً حتّـى طروادا، وأنا أقصد هنا إلى جزر لوسوس، وساموس، وكيـوس، وليسـبوس وتينيـدوس؛ وعلى النحو عينه الجزر الواقعة قبالـة هـلاّدا وصـولاً حتّـى مقـدونيا وتراقيـا المجـاورة لهـا: إيبيـوس، وسـكيروس، وبيبـاريفوس، وليمنـوس، وفاسـوس، وإيمـبروس، وسـاموتراقيا وكثرة كثيرة أخرى مما سأتطرق إليه في حينه. ويبلغ طول هـذا البحـر مـا يقـارب 4000 مرحلـة أو أكثـر قلـيلاً، وعرضـه حـوالي 2000 مرحلـة. وهـو محـاط بمنـاطق آسـيا الـتي ذكرناها، والساحل الممتدّ من سونيوس إلى خليج ثيرمييوس إذا أبحرنا شمالاً، وخلجـان مقدونيا حتّى كيرسونيس التراقية.

22- وعلـى امتـداد كيرسـونيس يقـع مضـيق عرضـه 7 مراحـل، عنـد سيسـتوس وأبيـدوس؛ وعبر هـذا المضـيق يخـرج بحـر إيجـة والهلسـبونت شمـالاً إلى بحـر آخـر يـدعى البروبونتيدا. ويجري هذا بدوره في بحر آخر دعي بالبونتس الإيفكسيني[33]. ويبـدو هـذا الأخير كأنه يتألّف من بحرين؛ لأنّ رأسين من اليابسة تبرزان في وسطه تقريباً: إحداهما من أوروبا والبلدان الشمالية، والأخرى قبالته من آسيا، وهاتـان الرأسـان تجعـلان معبره في الوسـط ضـيّقاً، وتؤلّفـان بحـرين كـبيرين. وتـدعى الـرأس الأوروبيـة كريوميتـوب، والآسيوية كـارامبيس؛ وتبعـد واحـدتهما عـن الأخـرى حـوالي 2500 مرحلـة. ويبلـغ طـول البحـر الغربـي مـن بزنطـا حتّـى مصـبّ البوريسـفين 3800 مرحلـة، وعرضـه 2800 مرحلـة؛

وتقع في هذا البحر جزيرة ليفكوس. أمّا البحر الشرقي فهو أطول من حيث الشكل، وينتهي بمنخفض ضيّق عند الديوسكورياديس، فطوله 5000 مرحلة أو أكثر قليلاً، وعرضه حوالي 3000 مرحلة. ويصل محيط البحر إلى ما يقارب 25.000 مرحلة. ويقارن بعضهم شكل محيط هذا البحر بالقوس السكيثي المشدود[34]، مشبهين وتره بأجزاء البونتس اليمنى (أي الساحل ابتداء من الثغر حتّى منخفض ديوسكوريادس؛ فما عدا رأس كارامبيس، ليس في ذلك الشاطئ كلّه سوى تجويفات ونتوءات ليست ذات أهمية، ولذلك فهو أشبه بالخطّ المستقيم). ويقارنون قسمه المتبقي بقرن قوس ذي منعرجين؛ المنعرج الأعلى أكثر استدارة، والأدنى أكثر استقامة؛ وعلى هذا النحو يؤلّف الساحل الأيسر خليجين، الغربي منهما أكثر استدارة بكثير من الشرقي.

23- وإلى الشمال من الخليج الشرقي تقع بحيرة ميوتيدا التي يبلغ امتداد محيطها 9000 مرحلة. أو أكثر بقليل. وتصبّ هذه في البونتس عبر البسبور الكيميري، ويصبّ البونتس في البربونتيدا عبر البوسبور التراقي، لأنّ المضيق الذي قرب بزنطا يدعى البوسبور التراقي؛ عرضه أربع مراحل. أمّا البروبونتيدا فيقولون إن طوله 1500 مرحلة، من طروادا إلى بزنطا، وأن عرضه يساوي طوله. وتقع هنا جزيرة الكيزيكيين والجزر المجاورة.

24- إن ذلكم هو فيض بحر إيجة وحجمه شمالاً. ومن ناحية أخرى فإن الخليج الذي يبدأ من رودوس ويشكّل البحر المصري، والبحر البامفيلي، وبحر إيس، يمتدّ شرقاً حتّى إيس في كيليكيا، مسافة 5000 مرحلة على طول ليكيا وبامفيليا وساحل كيليكيا كلّه. ومن هنا تطوّق هذا البحر سوريا، وفينيقيا، ومصر من الجنوب والغرب حتّى الإسكندرية. وتقع في خليجيّ إيس وبامفيليا، جزيرة قبرص، لأنها تجاور بحر مصر. ويبلغ امتداد المعبر البحري من رودوس إلى الإسكندرية مع الريح الشمالية حوالي 4000 مرحلة، بينما الإبحار على طول السواحل أطول بمرتين. ولكنّ إيراتوسفين يرى أن هذا مجرّد توقّع عادي أطلقه البحارة بخصوص طول الطريق البحرية، لأنّ بعضهم يقول، إنها تبلغ 4000 مرحلة، ويقول آخرون إنها تبلغ 5000 مرحلة. أمّا هو فقد استعان بالساعة التي تلتقط ظلل الشمس[35]، وحدّد هذه المسافة بـ 3750 مرحلة. ويشكّل جزء من هذا البحر قرب كيليكيا، وبامفيليا، أي ما يدعى بالجانب اليميني من بحر البونتس والبروبونتيدا وما يلي من الساحل القريب من بامفيليا، تشكّل كلّها ما يشبه شبه جزيرة كبيرة، وبرزخاً كبيراً يمتدّ من البحر القريب من طرسوس حتّى مدينة أميس وثيميسكيرا، وسهل الأمازونيس. فالمنطقة الواقعة داخل هذا كلّها، حتّى

كاريا وإيونيا، والأقوام التي تعيش على هذا الجانب من نهر غاليس، تتشاطأ مع بحر إيجة وأجزائه المذكورة على جانبي شبه الجزيرة، ونحن نمنح هذه الشبه الجزيرة اسماً خاصاً، هو آسيا، الذي يتطابق مع اسم القارّة كلّها.

25- وقصارى القول، إن منخفض سرت الأكبر، هو أقصى نقطة في جنوبي بحرنا المتوسّط، ووراءه إسكندرية مصر ومصبّ النيل؛ أمّا أقصى نقطة في شماليه فهي مصبّ البوريسفين، مع أنه إذا ما ألحقت الميوتيدا بهذا البحر (لأنها تشكّل جزءاً منه)، فعندئذٍ سوف تكون أقصى نقطة في شماليه، هي مصبّ نهر تانايس؛ وأقصى نقطة في غربيه، هي مضيق أعمدة هرقل، وأقصى نقطة في غربيه، هي منخفض الديوسكوريادس الذي ذكرناه آنفاً؛ وقد أخطأ إيراتوسفين عندما عدّ خليج إيس أقصى نقطة في شرقي المتوسّط؛ فهذا الخليج يقع على خطّ طول واحد مع أميس وثيميسكيرا، وإذا شئتم يمكنكم أن تضيفوا أيضاً منطقة سيدينا حتّى فارناكيا. ويبلغ طول الخطّ البحري من هذه المناطق باتجاه الشرق حتّى ديوسكوريادس، أكثر من 3000 مرحلة، كما يتّضح بشكل أفضل من الوصف الدقيق لهذه المنطقة(36). على هذا النحو يبدو البحر المتوسّط.

26- والآن ينبغي أن نعطي نبذة عامّة عن البلدان التي تحيط بهذا البحر، بدءاً من تلك المناطق نفسها التي بدأت منها وصف البحر. وهكذا إذا أبحرنا عبر المضيق الذي عند أعمدة هرقل، فإن ليبيا تكون على اليمين حتّى مصبّ النيل، وعلى اليسار قبالة الخليج تقع أوروبا وصولاً إلى تانايس. وينتهي جزآ العالم هذان، أوروبا وليبيا، على مقربة من آسيا. ويستحسن أن نبدأ وصفنا بأوروبا، لا لأنها متنوّعة الشكل فقط، بل ولأن الطبيعة أعدتها إعداداً مدهشاً لتحقّق كمال الناس وكمال أشكال الحكم، وكذلك لأنها نقلت إلى أجزاء العالم الأخرى جزءاً كبيراً من خيراتها، ولأنها صالحة كلّها للعيش، ما خلا جزءاً صغيراً منها يلفه الصقيع. وتتجاور هذه المنطقة الأخيرة مع بلاد الرحّل الذين يعيشون في الخيام في منطقة تانايس، وبحيرة ميوتيدا، والبوريسفين. ومن بين أجزاء أوروبا المأهولة، تشكّل المنطقة الباردة والمنطقة الجبلية عقبات طبيعية أمام العيش هنا، ولكن حتّى المناطق الفقيرة، التي كان يقطنها فيما مضى قطاع الطرق تغدو مناطق متحضّرة حالما يقيّض لها حكّام صالحون. مثلاً، على الرغم من أن الإغريق استوطنوا مناطق جبلية وصخرية، إلاّ أنهم عاشوا سعداء، واهتمّوا ببناء مؤسّسات دولهم، واعتنوا بالفنون، بل بكلّ ماله صلة بحكمة الحياة على وجه العموم. وإذ أخضع الرومان لسيطرتهم كثيراً من القبائل المتوحّشة بطبيعتها، بسبب شروط

المكـان، لأنّ هـذه كانـت منـاطق صـخرية وعـرة تفتقـر إلى المراسـي، وبـاردة أو ليسـت ملائمة لهذا السبب أو ذاك، لعيش كتلة كبيرة من السكّان، فأرغموا شعوبها مع أنهـا كانت مبعثرة، على أن يتواصل بعضها مع بعض، بل أرغموا الأكثر وحشية منها على أن تتحضّر. ولأن الجزء السهلي من أوروبا يقع في منطقة المناخ المعتدل، فإنـه بهـذا الموقـع يجـد في الطبيعـة معينـاً لـه؛ ولكـن بمـا أن الـبلاد الغنيـة بـالموارد الطبيعيـة سـكّانها مسالمون، وسكّان البلاد الفقيرة على الضدّ من هذا، إذ يبذلون قصارى جهدهم لجعل الناس مقاتلين شجعان، فإن هـذين النـوعين مـن البلـدان، يحصـلان علـى منـافع متبادلـة. لأنّ هـؤلاء الأخيريـن يسـاهمون بسـلاحهم، بينمـا يقـدّم الآخـرون سـلع الإنتـاج الزراعـي، والفنون، وتهذيب الأخلاق. وليس الأذى المتبادل خافياً، إذا لم يساعد كلّ مـن الطـرفين الآخر؛ لكن من بيده السـلاح سـوف يكـون متفوّقاً بعـض الشـيء، إذا لم يهزمـه التفـوّق العـددي. ولهـذه القـارّة بعـض الأفضـلية الطبيعيـة في هـذا الميـدان؛ فهـذه القـارّة مبرقشـة بالسـهول والجبـال بحيـث أن العمـل الزراعـي والحيـاة الحضـارية يقترنـان علـى امتـدادها كلّها بالروح القتالية، لكن واحدة من فئتيّ السكّان [الفلاحين والمقاتلين]، وهـي الفئـة الأكثـر عـدداً، تتميّـز بطبـع مسـالم، ولـذلك فهـي تسـود علـى جميعهـم، وقـد سـاهمت الشعوب الـتي سـادت - في الأول الإغريـق، ثـمّ المقـدونيون، والرومـان- في توطيـد السـلام. ولهذا باتت أوروبا هـي الأكثـر استقلالاً بـين البلـدان الأخـرى فيمـا يتعلّق بمسـألة الحـرب والسـلام؛ ففيهـا أعـداد كـبيرة مـن السـكّان المقـاتلين، وكـذلك مـن الفلاّحـين وحـرّاس المدن. وهي متفوّقة أيضاً بأنها تنتج كلّ مـا هـو أفضـل وضـروري للحيـاة، وكـل المعـادن النافعة؛ أمّا المواد العطرية، والحجـارة الكريمـة فهـي تـأتي بهـا مـن الأصـقاع الخارجيـة، والنقص في هذه الأشياء لا يجعل الحياة أسوأ. وتتـوفّر أوروبـا علـى كـثير مـن شـتّى أنـواع القطعان الداجنة، أمّا الوحوش الضارية، فهي نادرة. وتلكم هي الملامـح العامّـة للطبيعـة في هذه القارّة.

27- وإذا مـا أخـذنا أوروبـا مجـزّأة، فـإن إيبيريـا هـي أوّل بلـد أوروبـي مـن جهـة الغرب؛ وهذه تشبه من حيث الشكل جلد الثور، الـذي تلـج أجـزاء الرقبـة منـه في سلتيا المجاورة؛ وهذه الأجزاء هي الأجزاء الواقعة في الشـرق. وفي داخـل حـدودها تتقطـع الجهـة الشرقية مـن إيبيريـا بجبـال تـدعى جبـال البيرينيـه، ومـا تبقّـى مـن الـبلاد كلّـه، يشـاطئه البحر. ففي الجنوب إيبيريا محاطة ببحرنا حتّى أعمدة هرقل، أمّا باقي أجزائهـا فيحـيط بها المحيط الأطلسي حتّى الذيول الشمالية لجبال البيرينيه. ويبلـغ أقصـى طـول الـبلاد مـا يقارب 6000 مرحلة، وعرضها 5000 مرحلة.

28- وخلف إيبيريا شرقاً تقع سلتيا التي تمتدّ حتّى نهر الرين. وتحدّها من جهة الشمال مياه المضيق البريطاني كلّه (فهذه الجزيرة تمتدّ كلّها بموازاة سلتيا كلّها على الجهة المقابلة، ويبلغ طولها 5000 مرحلة)؛ ويحدّ سلتيا من جهة الشرق نهر الرين الذي يجري في موازاة البيرينيه؛ وتحدّها من جهة الجنوب جبال الألب ابتداء من الرين، وبحرنا نحن هناك حيث يمتدّ الخليج المسمّى خليج غلاطيا الذي تقع فيه مدينتا ماساليا وناربون الشهيرتان. وثمّة على الجهة المقابلة لهذا الخليج خليج آخر يدعى خليج غلاطيا أيضاً؛ وهو يتّجه شمالاً نحو بريطانيا.وهنا بين هذين الخليجين يصل عرض سلتيا إلى أدنى مسافة له، فيضيق حتّى يغدو برزخاً عرضه أقلّ من 3000 مرحلة، لكنّه أكثر من 2000 مرحلة. وتمتدّ وراء هذين الخليجين بزاوية قائمة على البيرينيه، سلسلة جبلية تدعى جبال كيمين، تنتهي في وسط سهول سلتيا. أمّا فيما يخصّ الألب، فهي جبال شاهقة تشكّل خطّاً يشبه القوس تتّجه جهتها المحدّبة نحو سهول سلتيا المذكوة وجبال كيمين، بينما تتّجه جهتها المقعرة نحو ليغوريا وإيطاليا. ويستوطن هذه الجبال إلى جانب الليغوريين، كثير من القبائل السلتية. ومع أن الليغوريين ينتمون إلى قبيلة أخرى، إلا أن نمط عيشهم يشبه نمط عيش السلتيين. فهم يعيشون في شطر الألب المجاور للأبينين، ويسيطرون على جزء من هذه الجبال الأخيرة. وتشكّل الأبينين سلسلة جبلية تمتدّ على طول إيطاليا من الشمال إلى الجنوب لتنتهي عند مضيق صقليا.

29- إن الجزء الأول من إيطاليا هو السهول الواقعة عند سفوح الألب. وتمتدّ هذه حتّى منخفض الخليج الأدرياتيكي والمناطق المجاورة؛ وتتمثل المناطق التالية من إيطاليا برأس طويلة ضيقة على شكل شبه جزيرة تمتدّ عبرها، كما أشرت آنفاً[37]، سلسلة جبال الأبينين على مسافة يقارب طولها 7000 مرحلة؛ أمّا عرضها فيختلف من مكان لآخر. والبحار التي تجعل من إيطاليا شبه جزيرة هي: البحر التيراني (ويبدأ من البحر الليغوري)، والبحر الأفسوني، والبحر الأدرياتيكي.

30- وبعد إيطاليا وسلتيا تمتدّ شرقاً أجزاء أوروبا الأخرى التي يشطرها نهر إيستر إلى شطرين. ويجري هذا النهر من الغرب نحو الشرق إلى البونتس الإيفكسيني، فيترك جرمانيا كلّها على يمينه (وهذه تبدأ من نهر الرين)، وكذلك بلاد الجيتيين كلّها، وإقليم التيريجيتيين، والباستارنيين، والسافروماثيين وصولاً حتّى نهر تانايس وبحيرة ميوتيدا. ويترك النهر على يساره تراقيا كلّها، وإيلليريا كلّها، وأخيراً اليونان كلّها. وتقع أمام أوروبا الجزر التي سبق ذكرها؛ على الجانب الآخر من أعمدة هرقل: غادير، وكاسيتيريس، والجزر البريطانية؛ وعلى هذا الجانب: هيمنيسي والجزر

الصغيرة الأخرى[38]، جزر التراقيين، والمسّاليين، والليغوريين؛ ثمّ الجزر الواقعة مقابل إيطاليا حتّى الجزر الإيولوفية وصقليا، كلّ الجزر المحيطة بإيبيرو واليونان وصولاً إلى مقدونيا وكيرسونيس التراقية.

31- ومن تانايس وميوتيدا تمتدّ مناطق آسيا الواقعة على هذا الجانب من السلسلة الجبلية، المناطق المتجاورة مع تانايس وميوتيدا، ثمّ تليها المناطق الواقعة وراء السلسلة الجبلية. فالسلسلة الجبلية تقسم آسيا إلى قسمين (والسلسلة تمتدّ من أطراف بافلاغونيا إلى البحر الشرقي عند الهند والسكيثيين الذين يعيشون هناك)؛ وقد دعا الإغريق ذلك الجزء من القارّة، الذي يتّجه نحو الشمال، دعوه بالمستلقي «داخل» السلسلة، ودعوا الجزء الذي يتّجه نحو الجنوب، بالمستلقي «خارج» السلسلة؛ وتبعاً لهذا تعدّ الأراضي المجاورة لميوتيدا وتانايس، أراضي المناطق الواقعة داخل السلسلة. وتقع أولى هذه الأجزاء بين بحر قزوين والبونتس الإيفكسيني، وتنتهي باتجاه واحد عند تانايس والمحيط، أي عند المحيط الخارجي، وكذلك عند جزئه الذي يشكّل البحر الهركاني؛ وتنتهي بالاتجاه الآخر، عند البرزخ هناك حيث المسافة بين منخفض البونتس وبحر قزوين تصل إلى أقصر امتداد لها. ثمّ تأتي المناطق الواقعة داخل السلسلة إلى الشمال من هركانيا حتّى البحر الذي عند الهند، حتّى المناطق التي يستوطنها السكيثيون هناك وجبال إيميه. ويقطن شطراً من هذه المناطق سافروماثيو ميوتيدا، والسافروماثيون الذين يعيشون بين البحر الهركاني والبونتس وصولاً حتّى القفقاس ومناطق الإيبيريين، والألبان، وكذلك السكيثيون، والآخيون، والزيغيون، والجينيوخيون؛ أمّا الشطر الممتدّ وراء البحر الهركاني فيقطنه السكيثيون، والهركانيون، والبارثيون، والباكتريون، والسوغديون، وباقي قاطنيّ المناطق الواقعة إلى الشمال من الهند. وإلى الجنوب من قسم البحر الهركاني وكل البرزخ الواقع بين هذا البحر والبونتس، يمتدّ الشطر الأكبر من أرمينيا، وكولهيدا، وكل قبدوقيا حتّى البونتس الإيفكسيني وقبائل التيباران؛ وبعد ذلك تأتي البلاد التي تدعى «البلاد الواقعة على هذا الجانب من هاليس»، وهي تضم، أولاً، محيط البونتس والبروبونتيدا، وبافلاغونيا، وبيثينا، وميسيا، وما يدعى فريجيا الهلسبونت (التي تشكّل طروادا جزءاً منها)؛ ثانياً، محيط بحر إيجة والبحر الذي يشكّل امتداداً له، - إيوليدا، وإيونيا، وكاريا، وليكيا؛ ثالثاً، في المناطق الداخلية- فريجيا (التي تشكّل جزءاً منها غلاطيا الغالو - إغريقية، وفريجيا إيبيكتيتوس[39])، وليكاونيا، وليديا.

32- وينضم مباشرة إلى الأقوام التي داخل السلسلة، سكّان الجبال نفسها:[40]

الباروباميسادس، والقبائل البارثية، والميدية، والارمنية، والكيليكية، إضافة إلى الكاتاونسيين والبيسيديين. وتمتدّ وراء [مناطق] هذه القبائل الجبلية الأراضي الواقعة في الجانب الآخر من السلسلة. والأولى منها هي الهند، التي يقطنها الشعب الأعظم والأغنى بين الشعوب كلّها؛ وتمتدّ هذه البلاد حتّى البحر الشرقي، والجزء الجنوبي من المحيط الأطلسي. وأمام الهند في البحر الجنوبي تقع جزيرة تابروبانا، التي لا يقل حجمها عن حجم بريطانيا. وإذا انعطفنا من الهند نحو المناطق الغربية، مخلفين الجبال على يميننا، فإن بلاداً شاسعة تظهر أمامنا، فيها قلّة من السكّان بسبب فقر التربة، وهؤلاء آريان، وتمتدّ بلادهم من الجبال حتّى هدروسيا وكارمانيا. ثمّ يأتي بعد ذلك عند البحر، الفرس، والسوسيون، والبابليون حتّى البحر الفارسي، وثمّة حولهم قبائل صغيرة؛ أمّا الأقوام التي تعيش عند سفوح الجبال، أو في الجبال مباشرة، فهم البارثيون، والميديون، والأرمن، والقبائل المجاورة، وسكّان ما بين النهرين. وبعد ما بين النهرين، تأتي البلدان الواقعة على هذا الجانب من الفرات: العربية السعيدة كلّها (يحدّها الخليجان الفارسي والعربي بالكامل)، وكل البلدان التي يشغلها «ساكنو الخيام»، والقبائل التي تعيش تحت زعامة زعماء العشائر، والمناطق الممتدّة حتّى الفرات وسوريا. ويلي ذلك الأقوام التي تعيش على الجانب الآخر من الخليج العربي حتّى النيل: الإثيوبيون، والعرب، ووراءهم المصريون، ثمّ السريان، والكيليكيون (بمن فيهم من يدعون التراخيوتيون)[41]، وأخيراً البامفيليون.

33- وبعد آسيا تأتي ليبيا المجاورة لمصر وإثيوبيا؛ ساحلها الواقع قبالتنا يمتدّ على خطّ مستقيم من الإسكندرية حتّى أعمدة هرقل تقريباً؛ والاستثناء الوحيد فيه هو سرت، وربّما بعض منعرجات الخلجان الصغيرة، والرؤوس البحرية التي تشكّل هذه الخلجان. أمّا ساحل ليبيا على المحيط، بدءاً من إثيوبيا حتّى نقطة معيّنة، فهو مواز تقريباً للخطّ الساحلي الأول، لكنّه بعد ذلك يضيق نحو الجنوب مشكّلاً رأساً حادة تبرز قليلاً خارج أعمدة هرقل وتعطي ليبيا شكل المعيّن. وعلى حدّ قول الكتّاب الآخرين، وغنيوس بيزون الذي كان والياً على هذه البلاد، وأخبرني عن هذا، أن ليبيا تشبه جلد الفهد، لأنها مغطاة ببقع من الأماكن المأهولة التي تحيط بها أراض صحراوية قاحلة لا ماء فيها ولا حياة. ويدعو المصريون هذه الأماكن المأهولة واحات. ومع أن ليبيا على هذا النحو، إلاّ أنها تمتلك بعض السمات المميّزة الأخرى التي تنقسم بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام. القسم الأكبر من ساحلها الواقع قبالتنا، هو القسم الأشدّ خصوبة، خاصة قورينائية، والمناطق المحيطة بقرطاجة وصولاً حتّى ماوروسيا وأعمدة

هرقل. ولكنّ ساحلها على المحيط لا يتميّز بكثافة سكّانية ملفتة، أمّا المناطق الداخلية التي تنتج السلفيوم، فإن سكّانها قلّة نادرة، لأنّ القسم الأعظم من هذه الأراضي عبارة عن صحارى صخرية ورملية. وهذه الحال عينها تنطبق على الامتداد الباقي من هذه البلاد عبر إثيوبيا، وبلاد التروغلوديتي، والعربية، وهدروسيا، حيث يعيش الإيختيوفاغ. إن أكثر الأقوام التي تقطن ليبيا، هي أقوام غير معروفة لنا، لأنّ الحملات العسكرية والرحالة الأجانب لم يتوغّلوا إلى أعماق البلاد، ونادراً ما يأتي إلينا أفراد من سكّان المناطق النائية، كما أن أخبارهم ناقصة وغير موثوق بها. ومع ذلك فإن ما يلي من معطياتي يستند إلى ما نقله هؤلاء. فهم يصفون الإثيوبيين بأنهم الشعب الجنوبي الأقصى، ويدعون أكثر القبائل التي تقطن إلى الشمال من الإثيوبيين بالقبائل الجرمنتية، والفاروسية، والنيغريتية؛ وإلى الشمال من هؤلاء يقيم الجيتوليون، وعلى مقربة من البحر أو على الساحل عند مصر وحتّى قورينائية، يقطن المارماريديون، بينما تقطن الأراضي الممتدّة وراء قورينا وسرت قبائل البسيليين، والنسامونيين، وبعض الجيتوليين؛ ثمّ يأتي الأبسيستيون والبيزاكيون (تمتدّ حدود أراضيهم حتّى قرطاجة). أمّا منطقة قرطاجة فهي منطقة شاسعة مترامية الأطراف تجاورها بلاد النوماديين[42]؛ ويدعى الأشهر من بين هؤلاء بالماسيليين والماسيسيليين. وتتميّز المنطقة كلّها من قرطاجة حتّى أعمدة هرقل بالخصوبة؛ وفيها قطعان كثيرة من الوحوش الضارية، مثلها في هذا مثل الأجزاء الداخلية من القارّة. ولذلك فإنه من الجائز تماماً أن يكون بعض هذه الأقوام قد دُعي بالنوماديين، لأنهم لم يتمكنوا أن يمارسوا العمل الزراعي في الأزمنة القديمة بسبب كثرة الوحوش الضارية. ولا يتميّز النوماديون المعاصرون بإتقان حرفة الصيد وحسب (ولأن الرومان من هواة قتال الوحوش الضارية، فإنهم يشجعون هؤلاء على ممارسة حرفتهم هذه)، بل يتفوّقون على الآخرين في ميدان الصيد وفروع العمل الزراعي. إن هذا هو كلّ ما استطعت أن ألاحظه بالنسبة لهذه القارّة.

34- بقي لنا أن نتحدّث عن «الأقاليم» (وتتيح هذه المادّة بدورها تقديم نبذة عامّة)، بدءاً من تلك الخطوط التي دعوتها «نطاقات»[43]. وأنا أقصد هنا إلى الخطّين اللذين يفصلان الطول الأعظم والعرض الأعظم للمعمورة، وخاصة خطّ العرض. وهذا ما ينبغي أن يعمل عليه ببعد أكبر، علماء الفلك، كما فعل هيبارخ. لأنّ هيبارخ، كما قال هو نفسه، أعطى وصفاً لشتّى أوضاع الكواكب بالنسبة لبعضها بعض في كلّ منطقة تقع في ربع الأرض الذي نعيش فيه[44]، وأنا أقصد إلى المناطق الواقعة بين خطّ الاستواء والقطب الشمالي. وغني عن البيان القول، إنه لا ينبغي على الجغرافيين أن

يشتغلوا على المناطق الواقعة خارج نطاق معمورتنا؛ وعندما يتعلّق الأمر بأجزاء المعمورة، فإنه لا ينبغي على الإنسان العملي أن يتطرّق إلى طابع العدد ومختلف جوانب الأجرام السماوية: إن هذا كلّه ليس سوى مادّة جافة بالنسبة له. وبالنسبة لي يكفي أن أعرض الاختلافات المهمّة والأكثر بساطة بين تلك التي أشار إليها هيبارخ، معتمداً كفرضية (وهذا ما يفعله هو أيضاً)، أن حجم الأرض يشكّل 252.000 مرحلة؛ وكان إيراتوسفين قد أعطى هذا الرقم أيضاً. ولن يكون الخروج عن هذا الحساب كبيراً بالنسبة للظاهرات السماوية في الفضاء الواقع بين المناطق المأهولة. وعلى هذا النحو، إذا ما قسمنا النطاق الأكبر للأرض إلى 360 مقطعاً، فإن كلّ مقطع من هذه المقاطع سيشكّل 700 مرحلة. ويعتمد هيبارخ هذا المعيار لتحديد المسافات على خطّ الطول الذي يمرّ عبر ميرويه. وقد بدأ من السكّان الذين يقطنون مناطق خطّ الاستواء، ثمّ انتقل عبر خطّ الطول المذكور إلى ما يلي من المناطق المأهولة واحداً بعد الآخر، وفي كلّ مرّة بفاصل 700 مرحلة، محاولاً أن يشير إلى الظاهرات السماوية في كلّ مكان. بيد أنه لا ينبغي عليّ أن أبدأ من هناك؛ لأنه حتّى لو كانت هذه الأماكن مأهولة، كما يفترض بعض العلماء، فإن هذه يقيناً هي معمورة من نوع خاص، تمتدّ على شكل شريط ضيق يعبر وسط منطقة غير مأهولة بسبب شدّة الحر؛ وعلى أيّ حال فإن هذه البلاد لا تعدّ جزءاً من معمورتنا. والجغرافيّ لا يدرس إلاّ هذا العالم الذي نقطنه نحن؛ وتتحدّد حدود هذا العالم في الجنوب بدائرة العرض التي تعبر بلاد القرفة، وفي الشمال بدائرة العرض التي تعبر هيرنا. وأنا إذ أذكّر بأهداف جغرافيتي، لا ينبغي أن أعدّد الأماكن المأهولة كلّها، التي يتضمنها الفضاء الفاصل المذكور، أو الظاهرات السماوية كلّها، إذا كنت غير راغب في أن أحيد عن أهداف عملي الجغرافيّ، وهاأنذا أبدأ من الأجزاء الجنوبية، كما فعل هيبارخ.

35- فبحسب هيبارخ أن الناس الذين يستوطنون دائرة عرض بلاد القرفة (تمرّ دائرة العرض هذه على بعد 3000 مرحلة إلى الجنوب من ميرويه وتبعد 8800 مرحلة عن خطّ الاستواء)، يعيشون تقريباً في الوسط بين خطّ الاستواء والمنطقة الصيفية التي تمرّ عبر سيينا، فسيينا تبعد 5000 مرحلة عن ميرويه. وشعوب بلاد القرفة هؤلاء، هم أوّل من تقع مجموعة الدب الأصغر بالنسبة إليهم في داخل الدائرة القطبية، وهي ظاهرة لهم دائماً؛ فالنجمة الساطعة على طرف ذيل المجموعة، وهي أقصى نجمة في جنوبي هذا البرج، تقع في دائرة القطب نفسها بحيث تلامس دائرة الأفق[45]. ويقع الخليج العربي على موازاة خطّ الطول المذكور تقريباً، إلى الشرق منه. ويقع المخرج من هذا البحر إلى

البحر الخارجي، في بلاد القرفة، حيث كانوا يصيدون الفيلة قديماً. وتخرج دائرة العرض هذه[46] خارج حدود المعمورة، لأنها من جهة[47]، تمتدّ قليلاً إلى الجنوب من تابروبانا أو حتّى آخر حدود سكّانها، ومن جهة أخرى حتّى أقصى حدود مناطق ليبيا الجنوبية.

36- وفي مناطق ميرويه وبطليموسيا، وكذلك في بلاد التروغلوديتيين، يبلغ طول أطول نهار 13 ساعة معتدلة؛ وتقع هذه المنطقة المأهولة، تقريباً في الوسط بين خطّ الاستواء ودائرة عرض الإسكندرية- تصل المسافة حتّى 1800 مرحلة، أمّا عند خطّ الاستواء فهي أكبر من ذلك[48]. وتعبر دائرة عرض ميرويه أراضيَ مجهولة، بينما يعبر جزء منها على مقربة من أطراف الهند. وعند سيينا وبيرينيقي، كما عند الخليج العربي، وفي بلاد التروغلوديتيين، تقع الشمس في السمت وقت الانقلاب الشمسي الصيفي، ويصل طول أطول نهار إلى $13 \frac{1}{2}$ ساعة معتدلة؛ وفي نطاق الدائرة القطبية أيضاً، تظهر مجموعة الدب الأكبر كلّها تقريباً، ما عدا الأرجل وأطراف الذيل، وواحدة من نجوم المربّع. وتتمدد دائرة عرض سيينا عبر بلاد الإيختيوفاغيين في هدروسيا، وعبر الهند، ويمرّ جزء منها عبر المناطق الواقعة على بعد 5000 مرحلة تقريباً إلى الجنوب من قورينائية.

37- وفي كلّ البلدان الواقعة بين المدار وخطّ الاستواء تسقط الظلال على الاتجاهين بالتناوب، أي نحو الشمال ونحو الجنوب؛ وابتداء من مناطق سيينا والمنطقة الصيفية، تسقط الظلال في منتصف النهار نحو الشمال. ويدعى سكّان المناطق الأولى بالأمفيسيين[49]، وسكّان المناطق الأخيرة بالهيتيروسكيين. وثمّة سمة أخرى تميّز المناطق الواقعة قرب المدار، وكنت قد أشرت إليها في المقطع الذي تحدّثت فيه عن المناطق[50]؛ فالتربة نفسها هناك رملية وجافة جدّاً، وتنتج السلفيوم؛ أمّا المناطق الواقعة جنوبي المدار فإنها على الضدّ: مياهها وفيرة وتربتها شديدة الخصوبة.

38- وفي المناطق الواقعة على بعد حوالي 400 مرحلة إلى الجنوب من دائرة عرض الإسكندرية وقورينائية، حيث يطول أطول نهار إلى 14 ساعة معتدلة، يقع آركتوروس في السمت، لكنّه يميل قليلاً نحو الجنوب. وفي الإسكندرية تكون العلاقة بين مؤشر الساعة الشمسية والظل في يوم الاعتدال هي 5 إلى 3؛[51] ولكن المنطقة المذكورة تقع على بعد 1300 مرحلة إلى الجنوب من قرطاجة، فقط إذا كانت العلاقة بين مؤشر الساعة الشمسية والظل في قرطاجة تساوي في يوم الاعتدال 11 إلى 7[52]. ولكنّ دائرة عرض الإسكندرية هذه تعبر في اتجاه واحد نحو قورينا ومنطقة تبعد 900 مرحلة إلى الجنوب من قرطاجة حتّى ماروسيا الوسطى، وفي الاتجاه الآخر عبر

مصـــر، وكيليســوريا، وســوريا العليــا، وبابــل، وسوسـيانا، وفــارس، وكـارمانيـا، وهدروسيا العليا، والهند[53].

39- وفي بطليموسيا، وصيدون، وصور الفينيقيتين، والمناطق المجاورة، يتألّف أطول نهار من $14\frac{1}{4}$ ساعة معتدلة؛ وتقع هذه الأماكن إلى الشمال من الإسكندرية بحوالي 1600 مرحلة، وبما يقارب 700 مرحلة إلى الشمال من قرطاجة. ولكن في البيلوبونيز ووسط رودوس، ومحيط كسانثوس وفي ليكيا أو إلى الجنوب قليلاً، وكذلك في المنطقة التي تقع على بعد 400 مرحلة إلى الجنوب من سيراكوزا، يتألّف أطول نهار من $14\frac{1}{4}$ ساعة معتدلة. وتبعد هذه المناطق 3640 مرحلة عن الإسكندرية. وبحسب إيراتوسفين أن دائرة العرض هذه تمرّ عبر كاريا، وليكاونيا، وكاتاونيا، وميديا، والبوابات القزوينية، وجزء من الهند على طول القفقاس.

40- وفي إسـكندرية طـروادا والمنـاطق المجـاورة، وأمفيبـوليس، وأبوللونيـا الإيبيروسية والمناطق الواقعة إلى الجنوب من روما، ولكن إلى الشمال من نابولي، يتألف أطول نهار من 15 ساعة معتدلة. وتسير دائرة العرض هذه على ما يقارب 700 مرحلة إلى الشمال من دائرة عرض إسكندرية مصر، وتبعد أكثر من 28.800 مرحلة عن خطّ الاستواء، و3400 مرحلة عن دائرة عرض رودوس؛ وهي على بعد 1500 مرحلة إلى الجنوب من بزنطا، ونيقيا، وماساليا والمناطق المجاورة. وغير بعيد إلى الشمال منها تقع دائرة العرض التي تعبر ليسيماخيا، وهي تعبر أيضاً بحسب إيراتوسفين، ميسيا، وبافلاغونيا، وسينوبس، والمناطق المجاورة، وهركانيا، وباكتريا.

41- ويتألّف أطول نهار في بزنطا والمناطق المجاورة، من $15\frac{1}{4}$ ساعة معتدلة، والعلاقة بين مؤشر الساعة الشمسية والظل وقت الانقلاب الشمسي الصيفي تساوي 120 إلى 42 ناقص $\frac{1}{5}$ وتبعد هذه المناطق ما يقارب 4900 مرحلة عن دائرة العرض التي تمرّ في وسط رودوس، وما يقارب 30.300 مرحلة عن خطّ الاستواء[54]. وإذا أبحرت بعد أن تدخل البونتس، حوالي 1400 مرحلة شمالاً، فإن أطول نهار سوف يساوي $15\frac{1}{2}$ ساعة معتدلة. فهذه المناطق تقع على مسافة واحدة من نقطة القطب ومن خطّ الاستواء، والدائرة القطبية هنا في السمت، والنجمة التي فوق عنق كاسيوبيا، تقع على الدائرة القطبية، أمّا نجمة مرفق برسيوس الأيمن، فإنها تقع إلى الشمال منها قليلاً.

42- وفي المناطق الواقعة على ما يقارب 3800 مرحلة إلى الشمال من بزنطا[55]، يمتدّ أطول نهار إلى 16 ساعة معتدلة؛ وعلى هذا النحو فإن كاسيوبيا تدور في الدائرة القطبية الشمالية. وتقع هذه المنطقة عند البوريسفين والأجزاء الجنوبية من ميوتيدا؛

وهي تقع على مسافة تقارب 34.100 مرحلة عن خطّ الاستواء. وفي فصل الصيف ترمي الشمس هناك على الجزء الشمالي من خطّ الأفق ضوءاً شاحباً يستمرّ الليل كلّه تقريباً، وفي غضون ذلك يتحرّك ضوء الشمس بالعكس، من الغرب إلى الشرق[56]. فالمنطقة الصيفية تبعد عن خطّ الأفق $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{12}$ الجزء من علامة دائرة البروج[57]؛ وتلك هي أيضاً، تبعاً لذلك، المسافة بين الشمس وخطّ الأفق في منتصف الليل. وفي مناطقنا أيضاً، عندما تكون الشمس على هذا البعد كلّه عن خطّ الأفق، فإنها قبيل الفجر وبعد الغروب تضيء السماء في الشرق والغرب. وفي الشتاء يصل أقصى ارتفاع للشمس في هذه المناطق إلى 9 أذرع[58]. ويقول إيراتوسفين، إن هذه المناطق تبعد عن ميرويه أكثر من 23.000 مرحلة بقليل، لأنّ المسافة من ميرويه إلى دائرة العرض المارّة بالهلسبونت، هي 1800 مرحلة، ومن هناك إلى البوريسفين 5000 مرحلة. وفي المناطق التي تبعد عن بزنطا[59] 6300 مرحلة والواقعة شمالي ميوتيدا، يصل أقصى ارتفاع للشمس إلى 6 أذرع، ويبلغ طول أطول نهار هناك 17 ساعة معتدلة.

43- أمّا المناطق الممتدّة بعد ذلك، فإنها تقع على مقربة من الأماكن غير المأهولة بسبب شدّة الصقيع، وهذه ليست محطّ اهتمام الجغرافيّ. بيد أنه إذا ما أراد أحدهم أن يتعرّف عليها، ويطلع على المسائل الفلكية الأخرى التي يعالجها هيبارخ، وأنا أهملتها، لأنه عرضها بوضوح شديد، ولا حاجة لمناقشتها في هذا البحث، أقول إذا أراد أحدهم أن يطلع على ذلك كلّه، فليقرأ مؤلّف هيبارخ. وجليّة بدورها أيضاً آراء بوسيدونيوس حيال البيرسكي، والأمفيسكي، والهيتيروسكي[60]. ومع ذلك فإن من الضروري أن نتحدّث عن هذه المصطلحات بما يكفي من التفصيل، لكي نوضّح المغزى ونبيّن ما هو مهمّ فيها بالنسبة للجغرافي، وما هو غير مهمّ. ولكن بما أن الحديث يجري عن الظلال التي ترميها الشمس، والشمس تتحرّك بحسب ما تشهد به أحاسيسنا، على دائرة موازية لحركة الكون، بالتالي فإنه حيث يظهر على أي مكان من الأرض لدى دوران الكون، نهار وليل (لأن الشمس تتحرّك فوق الأرض تارة وتحتها تارة أخرى)، ينشأ لدى الناس في كلّ مكان تصوّر عن الأمفيسكي والهيتيروسكي. والأمفيسكي هي كلّ ما تقع ظلاله في منتصف النهار أحياناً على جهة، عندما تسقط الشمس من الجنوب على مؤشّر الساعة الشمسية (الذي يقع في الأسفل متعامداً على السطح الأفقي)، وفي وقت آخر على الجهة المقابلة، عندما تنتقل الشمس إلى الجهة الأخرى (ولا يحدث هذا إلاّ عند الذين يعيشون بين المدارين). أمّا الهيتيروسكي، فهي كلّ ما تقع ظلاله إمّا دائماً، كما هي الحال عندنا، نحو الشمال، وإمّا نحو الجنوب، كما عند



سكّان المنطقة المعتدلة الأخرى. ولكنّ هذا كلّه يحدث في المناطق التي تكون الدائرة القطبية فيها أصغر من المدار[61]؛ أمّا هناك حيث تتساوى الدائرة القطبية مع المدار، أو تكون أكبر منه[62]، فتبدأ البيرسكي وتمتدّ حتّى مناطق الشعوب التي تعيش عند نقطة القطب. وبما أن الشمس تتحرّك فوق الأرض في أثناء دورة الكون كلّها، فمن الواضح أن الظلّ سوف يؤدّي حركة دائرية حول مؤشّر الساعة الشمسية. ولهذا السبب دعاها بوسيدونيوس بيرسكي، على الرغم من أنها لا تنتمي البتّة إلى الجغرافيا. فهذه البلدان كلّها غير مأهولة بسبب شدّة الصقيع، كما بيّنت في ملاحظاتي النقدية على بيفيوس. ولذلك لا ينبغي عليّ أن أهتمّ بحجم هذه المناطق غير المأهولة، إذا سلّمت بأن تلك المناطق، حيث الدائرة القطبية تؤدّي دور المدار[63]، تقع عند الدائرة التي ترسمها نقطة قطب دائرة البروج[64] لدى دوران الكون، أي مفترضاً أن المسافة بين خطّ الاستواء والمدار تساوي $\frac{4}{60}$ من الدائرة الأكبر.



الكتـاب الثالث

الفصل الأول

1- بعد النبذة العامّة الأولى التي عرضتها عن الجغرافيا، ينبغي عليّ أن أتحوّل الآن إلى وصف أجزاء المعمورة كلّ على حدة. وواقع الأمر هو أنني كنت قد تعهدت بأن أفعل هذا[1] وأزعم حتّى الآن، أني أسلك الطريق الصحيح إذ قسمت بحثي إلى أجزاء. ومرّة أخرى ينبغي البدء من أوروبا وأجزائها التي بدأت بها سابقاً[2]، ووفق الأسس عينها.

2- وكما فعلت سابقاً، فإن أوّل جزء من أوروبا، هو الجزء الغربي، وتحديداً إيبيريا. والقسم الأكبر من هذه، سكّانه قلّة نادرة. ويعيش السكّان في القسم الأكبر من البلاد في الجبال، والغابات، والسهول ذات التربة الفقيرة، زد إلى هذا أنها ليست مروية بصورة متماثلة. ومع تعرّج تكوينها الجغرافي، فإن إيبيريا الشمالية باردة جدّاً، وتقع على شواطئ المحيط، وهي علاوة على ذلك محرومة من التواصل مع البلدان الأخرى، الأمر الذي أكسبها طابع البلاد غير المضيافة، ولذلك فهي غير ملائمة أبداً للعيش. إن هذا هو طابع الجزء الشمالي من هذه البلاد؛ أمّا جزؤها الجنوبي، فهو على العكس تماماً، فأرضه كلّها تقريباً خصبة، خاصة في الجهة الأخرى من أعمدة هرقل. وسوف يتّضح هذا كلّه من الوصف التفصيلي للبلاد. ولكن يجب قبل ذلك أن نعطي وصفاً لشكلها وحجمها.

3- تشبه إيبيريا جلد الثور المشدود بالطول من الغرب نحو الشرق (تتّجه أجزاؤها الأمامية شرقاً)، وبالعرض من الشمال نحو الجنوب. ويبلغ طول البلاد حوالي 6000 مرحلة، وأقصى عرض لها 5000 مرحلة؛ وفي بعض الأماكن يتقلّص عرضها إلى أقل من 3000 مرحلة بكثير، خاصة عند البيرينيه التي تشكّل جانبها الشرقي. فهذه سلسلة جبلية متصلة تمتدّ من الجنوب إلى الشمال، وتفصل سلتيا عن إيبيريا. ولكن بما أن عرض سلتيا مثله مثل عرض إيبيريا، غير متماثل، فإن أضيق نقطة في كلّ من البلدين

بين بحرنا والمحيط، هي النقطة الأقرب إلى البيرينيه على جانبيّ هذه الجبال؛ فهي تشكّل خلجاناً عند المحيط وعند بحرنا أيضاً. وخلجان سلتيا (وهي تدعى أيضاً بالخلجان الغلاطية) أكثر رحابة، والبرزخ الذي تشكّله أضيق، مقارنة بالبرزخ الإيبيري[3]. وتشكّل البيرينيه الجهة الشرقية من إيبيريا؛ ويتشكّل جزؤها الجنوبي من بحرنا، من البيرينيه حتّى أعمدة هرقل والبحر الخارجي- من هذه النقطة حتّى ما يدعونها الرأس المقدّسة؛ أمّا جهتها الثالثة، الجهة الغربية، فهي تقريباً على موازاة البيرينيه وتمتدّ من الرأس المقدّسة حتّى الرأس الأرتابرية التي تدعى نيريوس؛ وتمتدّ جهتها الرابعة من رأس نيريوس حتّى الذيول الشمالية للبيرينيه.

4- بعد هذه المعطيات العامّة نتحوّل إلى وصف مناطق إيبيريا ابتداء من الرأس المقدّسة. وهذه الأخيرة هي أقصى نقطة غربية لا في أوروبا وحدها وحسب، بل في المعمورة كلّها، فالعالم المأهول ينتهي غرباً بهاتين القارّتين (رؤوس أوروبا وأطراف ليبيا تحديداً؛ ويشغل الإيبيريون منطقة من هاتين المنطقتين، بينما يشغل الماوروسيون المنطقة الأخرى)؛ ولكنّ أطراف إيبيريا تبرز عند الرأس المذكورة بما يقارب 1500 مرحلة. وعدّاك عن ذلك أن البلاد المجاورة لهذه الرأس، تدعى باللاتينية cuneus[4]. نظراً لشكلها الإسفيني. والرأس نفسها تبرز عميقاً في البحر، وقد شبهها أرتيميدور (الذي أكّد أنه زار هذا المكان) بالسفينة، وأضاف أنه ثمّة ثلاث جزر صغيرة تزيد هذا التشابه في الشكل: واحدة من هذه الجزر تشغل مكان مقدّمة السفينة، وتشغل الجزيرتان الأخريان اللتان تتوفّران على مراسي صغيرة للسفن، مكان العارضتين الملاحيتين. أمّا فيما يخصّ هرقل، فبحسب أرتيميدور، أنه ليس له أو لأيّ إله آخر معبد أو مذبح على هذه الرأس (كما أخبر إيثور خطأ)؛ وليس هناك سوى أكوام من الحجارة مبعثرة في أماكن مختلفة، يقلبها الزوار تبعاً للتقليد المتوارث، ثمّ يؤدّون طقس سكب الزيت عليها، ويحملونها عائدين. ولا يسمح بتقديم القرابين هنا، يضيف أرتيميدور، بل ولا يسمح بالصعود إلى هذا المكان ليلاً كما يقال، لأنّ الآلهة تمتلكه في هذا الوقت. ومع ذلك فإن الذين يأتون إلى هنا "للتأمّل"[5]، يقضون الليل في القرية المجاورة، ثمّ يصعدون نهاراً إلى الجبل حاملين معهم الماء، لأنه لا يوجد ماء على الجبل.

5- إن ما أكّده أرتيميدور مقبول بالحد الأدنى، ويمكن أن يوثق به، بيد أن ما رواه بمنطق الحشد الجماهيري العادي، لا يمكن الوثوق به في أيّ حال من الأحوال. وبحسب بوسيدونيوس أن الناس على سبيل المثال تقول، إن حجم قرص الشمس على ساحل المحيط وقت الغروب أكبر، وأن الشمس عندما تغرب تحدث صخباً كأن البحر يئزّ في الوقت الذي تنطفئ فيه بسبب غوصها في اللجّة البحرية. وبوسيدونيوس يقول، إن

هذا ليس صحيحاً، ومثله مثل قولهم إن الليل يهبط بعد غياب الشمس مباشرة؛ إن الليل لا يهبط هنا فعلاً إلاّ بعد غياب الشمس بقليل، تماماً مثلما يحدث عند البحار الكبيرة الأخرى. ثمّ يؤكّد أنه في الأماكن التي تغرب الشمس فيها وراء الجبال، يتواصل النهار بعد الغروب فترة أطول بسبب الأشعة المائلة؛ أمّا على ساحل المحيط فإن الأمر على الضدّ، إذ لا تحدث هنا فواصل مهمّة، لكنّ الظلام لا يهبط فجأة، لأنّ هذا يحدث على منبسطات كبيرة. أمّا فيما يخصّ التصوّرات العيانية عن حجم الشمس، فإن بوسيدونيوس يقول، إنها تزداد بدرجة واحدة لدى غروب الشمس وراء البحر وشروقها منه، ففي هذا الوقت تتصاعد من المياه كميات كبيرة من الأبخرة؛ وإذ تعبر أشعة الشمس هذه الأبخرة كأنها تمرّ عبر عدسة مقعّرة[6]، فإنها تتكسر[7]، الأمر الذي يجعل الأشكال المرئية تبدو أكبر حجماً. كما يحصل هذا على النحو عينه عندما تُرى الشمس الغاربة أو الشارقة، وكذلك القمر، عبر سحابة جافة خفيفة، في الوقت الذي تظهر النجمة فيه كأنها محمرّة. ويقول بوسيدونيوس، إنه أيقن بخداع البصر أثناء إقامته لثلاثين يوماً في غادير، إذ تسنى له أن يرقب مغيب الشمس. ومع ذلك فإن أرتيميدور يزعم أن الشمس الغاربة هناك أكبر بمئة مرّة عن شمس النهار، وأن الليل يهبط على حين غرة. بيد أنه لا يمكننا أن نتصوّر هذه الظاهرة على النحو الذي رآها فيه هو في منطقة الرأس المقدّسة إذا ما استمعنا بانتباه لما يقوله؛ فهو يقول: إنّ أحداً لا يصعد إلى هناك حتّى لدى غروب الشمس، إذا كان الليل يهبط على حين غرّة فعلاً. وهو لم يرصد هذه الظاهرة في مكان آخر على ساحل المحيط؛ فغادير تقع بالضبط على ساحل المحيط، ويشهد ضده بوسيدونيوس وبعض الآخرين.

6- إن الساحل المجاور للرأس المقدّسة في الغرب، يمثل بداية الجهة الغربية من إيبيريا وصولاً إلى مصبّ نهر تاغ، ويمثل في الجنوب بداية الجهة الجنوبية حتّى النهر الآخر، نهر آنا ومصبّه. وبداية النهرين في المناطق الشرقية؛ لكنّ نهر تاغ الأكبر بكثير من النهر الآخر، يجري نحو الغرب مباشرة، بينما ينعطف نهر آنا جنوباً ليفصل منطقة ما بين النهرين التي يسكن الشطر الأكبر منها السلتيون وبعض الموسيتانيين الذين هجّرهم الرومان إلى هنا من ضفّة نهر تاغ الأخرى. ويقطن عمق البلاد الكاربيتانيون، والأوريتانيون، وأعداد كبيرة من الفيتونيين. ولا تعدّ هذه البلاد بلاداً خصبة، لكنّ المنطقة المجاورة لها من الشرق والجنوب مباشرة، لا تقل عن أيّ منطقة أخرى في المعمورة من حيث خصوبتها، وتوفّرها على شتّى السلع التي تستخرج من الأرض والبحر. وهذه المنطقة التي يجري عبرها نهر بيتيوس، تبدأ من المنطقة عينها، حيث نهر آنا ونهر تاغ؛ ومن حيث حجمه يعدّ نهر بيتيوس وسطاً بين النهرين الآخرين. ومثله مثل نهر آنا، يجري

بيتيوس نحو الغرب أولاً، ثمّ ينعطف جنوباً ليصبّ في المحيط على الشاطئ نفسه الذي يصبّ فيه نهر آنا. ومن اسم النهر أخذت البلاد اسمها: بيتيكا، وأخذت من اسم السكّان اسمها الآخر: توردیتانیا؛ فيطلق على سكّانها اسم التورديتانيين تارة، والتوردواليين تارة أخرى، وثمّة كتّاب يرون فيهم شعباً واحداً، بينما يرى فيهم آخرون شعبين مختلفين. ومن هؤلاء الأخيرين بوليبيوس الذي يزعم أن التوردواليين هم الجيران الشماليون للتورديتانيين، بيد أنه من غير الممكن أن تجد أيّ فرق بينهم الآن. ويعد التورديتانيون الأكثر ثقافة بين الإيبيريين؛ فهم يعرفون الكتابة، ولديهم مؤلّفات في تاريخ قبيلتهم، ولديهم أيضاً قصائد ملحمية، وقوانين مكتوبة شعراً (يقولون إن عمرها 6000 عام)[8]. ويعرف الإيبيريون الآخرون الكتابة أيضاً، لكنّ أحرف الكتابة عندهم ليست واحدة، لأنّ اللغة نفسها ليست واحدة. وتقع توردیتانیا على هذا الجانب، وهي تمتدّ شرقاً حتّى أوريتانيا، وجنوباً حتّى الساحل من مصبّ نهر آنا حتّى أعمدة هرقل. ومن الضروري وصف هذه البلاد والمناطق المجاورة لها بتفصيل أكثر، وبكلّ المعلومات التي تخصّ هذا الإقليم لكي نفهم موقعها الملائم وخصوبة أراضيها.

7- ويخترق المحيط الأطلسي هذا الساحل (بين المنطقة التي يصبّ فيها بيتيوس وآنا في المحيط، وحدود ماوروسيا) ويشكّل مضيقاً عند أعمدة هرقل يتّصل البحر الداخلي عبره بالبحر الخارجي. وعند هذا المضيق تحديداً، في منطقة الإيبيريين الذين يدعون باستيتانيين (وهم الذين يدعونهم باستوليين أيضاً)، يقع جبل كالبا. ومع أن محيط هذا الجبل لا يعدّ كبيراً، إلاّ أنه جبل عال جدّاً يرتفع بحدّة بحيث يبدو من بعيد كأنه جزيرة. وإذا أبحرت من بحرنا إلى البحر الخارجي، فإن هذا الجبل يقع على جهة اليمين؛ وعلى بعد 40 مرحلة منه تقع مدينة كالبا التي كانت في زمن ما محطة لسفن الإيبيريين. ويزعم بعض الكتّاب، ومنهم تيموسفين، أن هرقل هو من أسس المدينة؛ ويخبر تموسفين بعد ذلك، أن المدينة كانت تدعى هيراقليا قديماً، ولا يزال ظاهراً هناك سور المدينة الكبير، وترسانة إصلاح السفن.

8- وتأتي بعد ذلك مينلاريا ومنشآتها لتمليح الأسماك، ثمّ مدينة ونهر بيلون. ومن بيلون غالباً ما ينطلقون برحلات إلى تينغوس في ماوروسيا؛ وتوجد في بيلون مخازن تجارية ومؤسّسات لتمليح الأسماك. وفي زمن ما كانت تجاور مدينة تينغوس مدينة زيليوس، لكنّ الرومان نقلوا هذه الأخيرة إلى شاطئ إيبيريا المقابل وأخذوا معهم بعض سكّان تينغوس؛ كما أرسلوا إلى هناك مستعمريهم ودعوا المدينة الجديدة باسم يوليوس يوز. وتأتي بعد ذلك مدينة غادير، وهي جزيرة يفصلها مضيق صغير عن توردیتانیا، وتبعد عن كالبا حوالي 750 مرحلة (وبعضهم يقول 800 مرحلة). ولا تختلف

هذه الجزيرة عن غيرها من الجزر في شيء، ولكنّها بفضل شجاعة سكّانها وبحارتها، وصداقتها مع الرومان حقّقت نجاحات وازدهاراً في كلّ شيء، ولذلك، مع أنها تقع على أطراف الأرض، إلا أنها تعدّ الجزيرة الأشهر بين الجزر كلّها. ولكنّني سوف أتحدّث عن غادير لدى وصفي للجزر الأخرى وليس الآن.

9- ويلي ذلك مرفأ مينيثييوس ومن ثمّ خور عند مدينة آستا ومدينة نابريسا (والخور هو منخفض تغمره المياه في أثناء المدّ البحري الأمر الذي يسمح بالصعود عبره، كما عبر النهر، إلى أعماق البلاد والمدن الواقعة على الساحل). ثمّ يأتي بعد ذلك مباشرة مصبّ بيتيوس المشطور إلى شطرين؛ وجزيرة يحيط بها مصبّان تشكّل ساحلاً امتداده مئة مرحلة، أو أكثر، بحسب بعضهم. وفي مكان ما هنا يقع مقرّ متنبّئ مينيثيوس وبرج سيبيون المبني على صخرة تحيط بها الأمواج من كلّ صوب؛ وقد بني هذا البرج بمهارة عالية تثير الدهشة (كالفاروس)[9]، وكان الغرض من بنائه، هو إنقاذ البحارة. فليست الترسبات التي يحملها النهر وحدها التي تشكّل مناطق مياه ضحلة، بل والمكان المواجه للبحر مزروع كلّه بحجارة القاع، ومن هنا جاءت ضرورة وجود علامة مرئية من مسافة بعيدة. وتبدأ من هنا طريق نحو الأعلى عبر نهر بيتيوس ومدينة إيبورا، ومعبد أرطميس حاملة النور[10] التي تدعى عندهم lux dubia[11]. ثمّ يتواصل الإبحار إلى الأعلى عبر أخوار أخرى، ويلي ذلك نهر آنا (بمصبّيه أيضاً)، والطريق المائية إلى عمق البلاد. وتأتي أخيراً الرأس المقدّسة التي تبعد عن غادير أقل من 2000 مرحلة. ولكنّ بعضهم يرى أن الرأس المقدّسة تبعد عن مصبّ نهر آنا 60 ميلاً، ومن هنا إلى مصبّ بيتيوس 100 ميل، ثمّ إلى غادير 70 ميلاً[12].

الفصل الثاني

1- وفوق ساحل البحر، على هذه الجهة من نهر آنا، تقع تورديتانيا التي يجري عبرها نهر بيتيوس. ويمثل نهر آنا حدود تورديتانيا في الشمال والغرب، بينما يمثلها في الشرق جزء من كاربيتانيا وأوريتانيا؛ وفي الجنوب [منطقة] الباستيتانيين الذين يقطنون الشريط الساحلي الضيق بين كالبا وغادير والبحر الواقع وراء هذا الشريط وصولاً إلى نهر آنا. ولكنّ الباستيتانيين الذين ذكرتهم الآن ينتمون إلى التورديتانيين، ومثلهم أيضاً الباستيتانيون الذين يسكنون وراء نهر آنا، وأكثر جيران هؤلاء الأخيرين. ولا يتجاوز امتداد هذه البلاد أكثر من 2000 مرحلة طولاً وعرضاً[1]. لكن فيها عدداً كبيراً جدّاً من المدن، ويقال إنه يصل إلى 200 مدينة. وبفضل علاقاته التجارية نال عدد من هذه المدن شهرة واسعة، وهي كلّها مدن تقع على ضفاف الأنهار، وعند الأخوار، وعلى

ساحل البحر. ومن أعظمها شأناً وقوّة، مدينة كوردوبا التي أسّسها مارسيللو، ومدينة الغاديتانيين التي اشتهرت بتجارتها البحرية، وانضمامها إلى الاتحاد الروماني، بينما اشتهرت كوردوبا بخصوبة تربتها وامتداد حدودها، ولم تكن أهمية نهر بيتيوس قليلة في هذا كلّه. وفي الأول استوطنت المدينة جماعات انتقاها الرومان من أبناء جلدتهم ومن السكّان المحلّيين؛ وعدّاك عن هذا أن كوردوبا كانت أوّل مستعمرة رومانية في هذه الأماكن. وتلي كوردوبا ومدينة الغاديتانيين شهرة، مدينة هسباليوس، وهي مستعمرة رومانية أيضاً؛ ولا تزال هذه المدينة حتّى الآن المركز التجاري للمنطقة، لكنّ بيتيوس فاقتها شرفاً إثر إسكان جنود قيصر فيها، مع أن عدد سكّان هذه الأخيرة ليس كبيراً جدّاً.

2- وبعد هذه المدن تأتي إيتاليكا وإيليبا (وهما تقعان على نهر بيتيوس)؛ أمّا مدينة أستيغيس[2] فهي تقع بعيداً عن النهر، وكذلك كارمون، وأوبولكون، وهناك عدّاك عنها، المدن التي هزم فيها ولدا بومبيوس: موندا، وأتيغوا، واورسون، وتوكيوس، وأوليا، وإيغوا[3]؛ وهذه المدن كلّها تقع غير بعيد عن كوردوبا. وغدت موندا إلى حدّ ما المدينة الرئيسة في هذه المنطقة؛ وتبعد موندا عن كارتيبا 1400 مرحلة، وإليها لجأ غنيوس بومبييوس بعد هزيمته[4]؛ ثمّ أبحر منها إلى منطقة جبلية ما عالية جدّاً عن البحر، وهناك قتل: أمّا شقيقه سيكستوس فقد فرّ من كوردوبا، وتابع حربه لبعض الوقت في إيبيريا، ثمّ أعلن انتفاضة في صقليا؛ وفرّ من هناك إلى آسيا، حيث وقع أسيراً لدى القائد انطونيو، وهلك في ميلتوس[5]. وأشهر المدن في منطقة السلتيين الإيبيريين، هي مدينة كونيستورغيوس؛ وأشهر مدن الأخوار مدينة آستا، حيث يجتمع عادة الغاديتانيون[6]؛ وتقع هذه المدينة على مسافة لا تزيد كثيراً عن مئة مرحلة فوق مرسى الجزيرة.

3- وتعدّ ضفاف نهر بيتيوس الأكثر كثافة سكّانية؛ فالنهر صالح للملاحة مسافة تقارب 1200 مرحلة من البحر حتّى كوردوبا والأماكن الواقعة إلى الأعلى قليلاً. زد إلى هذا أن وادي النهر وجزره الصغيرة مستثمرة استثماراً ممتازاً. وينبغي أن نضيف إلى هذا لوحة المكان الساحرة، لأنّ هذه المنطقة مزدانة بالحدائق، والبساتين، وشتّى أنواع النباتات. وبالنسبة لسفن الشحن الكبيرة، يعدّ النهر صالحاً للملاحة حتّى هسباليوس على امتداد 500 مرحلة، وصالحاً للملاحة بالنسبة لسفن الشحن الأقل حجماً، حتّى المدن الواقعة على مجرى النهر الأعلى وصولاً إلى مدينة إيليبا؛ أمّا إلى كوردوبا فيمكن الإبحار بالقوارب النهرية (وتصنع هذه الآن من ألواح خشبية، بينما كانت تصنع قديماً من جذع محفور واحد)، وبعد كوردوبا إلى فوق باتجاه

كاستالون، النهر غير صالح للملاحة. وعلى موازاة النهر تمتدّ نحو الشمال عدّة قمم جبلية تتلامس مع النهر أحياناً أكثر وأحياناً أقل؛ وتحتوي الجبال على كثير من المناجم. والفضّة هي الأكثر حضوراً في المناطق المحيطة بإيليبا وسيسابون، ولا نقصد هنا ما يسمّى سيسابون القديمة فقط، بل سيسابون الجديدة أيضاً؛ ويستخرجون من المكان المسمّى كوتيني[7]، النحاس والذهب معاً. وإذا ما صعدت مع النهر فإن هذه الجبال سوف تكون على يسارك، أمّا على الجهة اليمنى فيمتدّ سهل شاسع، مرتفع وشديد الخصوبة فيه شجر باسق ومراع بديعة. ونهر آنا صالح للملاحة بدوره، ولكن ليس للسفن الكبيرة جدّاً، وليس لمسافة كبيرة. وتقع إلى الأعلى من هذا النهر جبال غنية بالثروات الطبيعية؛ وتميل هذه الجبال نحو نهر تاغ. ومن المعروف أن الأماكن الغنية بالثروات الطبيعية يجب أن تكون أماكن صخرية قاحلة، كما هي الحال مثلاً عند كاربيتاني، والأماكن المجاورة لسلتيبيريا. وعلى هذا النحو أيضاً من حيث طابعها منطقة بيتوريا التي تمتدّ سهولها الجافة على طول ضفّتيّ آنا.

4- وتورديتانيا نفسها وهبتها الطبيعة ثروات مدهشة؛ وإذا كانت تنتج كثرة من مختلف أنواع السلع، فإن سهولة التصدير تضاعف من هذه الخيرات، لأنّ فائض السلع يمكن تسويقه بسهولة مع وجود أعداد كبيرة من السفن التجارية. وهذا ما تساعد عليه الأنهار، والأخوار التي كما أسلفت[8]، تؤدّي دور الأنهار، وهي صالحة للملاحة من البحر حتّى المدن الواقعة في عمق البلاد، ويمكن أن تبحر فيها حتّى السفن الكبيرة، لأنّ البلاد كلّها، وعلى امتداد كبير أعلى من الشاطئ الممتدّ بين الرأس المقدّسة وأعمدة هرقل، وهي تمثل منبسطاً من الأرض. وتوجد في كثير من الأماكن هنا خلجان بحرية تتّجه من البحر إلى عمق البلاد مسافة مراحل كثيرة، كما الثغور أو مجاري الأنهار. وفي أثناء المدّ البحري تمتلئ هذه الخلجان بمياه البحر، وتغدو كالأنهار يمكن الإبحار فيها مع التيار إلى الأعلى؛ لأنّ الإبحار فيها كالإبحار مع مجرى النهر إلى الأسفل؛ فبما أنه لا يوجد تيار مقابل، لذلك تجري مياه البحر بقوة دفع المدّ، كما يجري النهر. والمدّ على هذا الشاطئ أقوى منه في الأماكن الأخرى، لأنّ المياه البحرية الآتية من المحيط الكبير، تحصر هنا في المضيق الصغير الذي تشكّله ماوروسيا مع إيبيريا، فتواجه هناك عوائق، ثمّ بعد أن تتحرّر منها تنطلق إلى الأجزاء السفلى من القارّة. وبعض هذه الخلجان البحرية تغدو مياهه ضحلة في وقت الجزر (مع أنها لا تجفّ اليوم كلياً)، بينما يحتوي بعضها الآخر على جزر. وعلى هذا النحو أيضاً، الأخوار الواقعة بين الرأس المقدّسة وأعمدة هرقل، لأنّ المدّ هناك أكثر قوّة بالمقارنة مع الأماكن الأخرى والمدّ الأقوى هو بمعنى ما أكثر ملاءمة بالنسبة للبحارة؛ فهو ينشئ

أخواراً أكثر ويجعلها أطول، وصالحة للملاحة إلى مسافة تصل في غالب الأحيان إلى 100 مرحلة[9]، ولذلك فإن البلاد كلّها تغدو بشكل ما صالحة للملاحة، وملائمة لاستيراد البضائع وتصديرها. ولكنّ هذا ينجم عنه بعض العقبات: بسبب المدّ الشديد الذي يقاوم مجرى النهر بقوّة، يغدو الإبحار في الأنهار محفوفاً بمخاطر جدية، إن لدى النزول مع النهر أو لدى الصعود معه. كما يمثل الجزر في الأخوار خطراً بدوره؛ لأنّ الجزر يتراجع أيضاً بقوة تبعاً لقوّة المدّ، وليس نادراً أن تبقى السفن راسية في مياه ضحلة بسبب سرعة الجزر. وفي بعض الأحيان تجرف الأمواج القطعان التي يسوقونها إلى الجزر الواقعة أمام الأنهار أو الأخوار؛ وأحياناً ما تغدو تلك القطعان معزولة، فتحاول العودة، لكنّها تعجز عن ذلك وتهلك. ولكنّهم يقولون، إن الأبقار التي اعتادت على هذه الظاهرة، تبقى بانتظار تراجع البحر ثمّ تعبر إلى اليابسة.

5- وعلى أيّ حال بعد أن عرف الناس طبيعة هذه الأمكنة معرفة جيّدة، أدركوا أنه يمكن استخدام الأخوار كالأنهار، ولذلك بنوا هنا مدناً كالتي بنوها على ضفاف الأنهار. ومن هذه المدن آستا، ونابريسّا، واونوبا، واوسّونوبا، ومينوبا وبعض المدن الأخرى. ومن جهة أخرى فإن القنوات التي شقّت هنا وهناك، تساعد على هذا، لأنّ هناك أماكن كثيرة تنقل البضائع منها وإليها، ولا يتعلّق الأمر بتبادل السلع فقط، بل بتجارة خارجية تجري بين الدول. وتخالط المياه بعضها مع بعض عندما يسوق المدّ الأمواج إلى عمق البلاد، يشكّل فائدة بدوره، لأنّ المياه تفيض عبر البرازخ التي تشطر المجاري عادة، فتجعلها قابلة للملاحة، ولذلك يغدو الانتقال من الأنهار إلى الأخوار وبالعكس، ممكناً بالمراكب. لكنّ تجارة هذه البلاد كلّها مع إيطاليا وروما، لأنّ الإبحار حتّى أعمدة هرقل هيّن وجميل (ما خلا بعض الصعوبات لدى عبور المضيق)، ومثله الإبحار في عرض بحرنا. لأنّ الطرق البحرية تمرّ في منطقة الطقس الملائم، خاصة إذا سارت في عرض البحر. وهذا ما يخلق شروطاً ملائمة لسفن الشحن التجارية. فالرياح البحرية تهبّ في عرض البحر بدرجة محدّدة من الانتظام. وينبغي أن يضاف إلى هذا السلام الراهن أيضاً، لأنه منذ أن وضع حدّ للقرصنة البحرية، بات الملاّحون ينعمون بالأمن. ويقول بوسيدونيوس في هذا السياق، إنه قيّض له أن يلاحظ خاصية ما في أثناء عودته من إيبيريا؛ وعلى حدّ قوله أن الريح الشرقية في هذا البحر، وصولاً حتّى خليج سردينيا، تهبّ في وقت محدّد، ولذلك لم ينجح بالوصول إلى إيطاليا إلاّ بعد ثلاثة أشهر، لأنه ضلّ الطريق، وضاع عند الجزر الهيمنيسية وسردينيا، وعند مختلف أجزاء ليبيا الواقعة قبالة هذه الجزر.

6- وتصدّر توردیتانیا كمیات كبیرة من الأقماح، وزیت الزیتون العالي الجودة، والنبیذ. كما تصدّر أیضاً الشمع، والنحاس، والقطران، وكمیات كبیرة من الكیرمیس[10]، والدهانات التي لا تقلّ جودة عن تراب سینوبس[11]. ویبني التوردانیون سفنهم من الأخشاب المحلّیة؛ ولدیهم أیضاً الملح الصخري، وغیر قلیل من مصادر المیاه المالحة، ولتحضیر الأسماك المملّحة أهمیة كبیرة عندهم، ولا یقتصر هذا النشاط الاقتصادي لدیهم على معالجة الأسماك المحلّیة، إنّما یشمل أیضاً الأسماك التي یؤتى بها من سواحل أعمدة هرقل الأخرى؛ ولیست أسماكهم المملّحة هذه أقلّ جودة من الأسماك البونتیة. وفیما مضى كان یؤتى بكثیر من المنسوجات من توردیتانیا، أمّا الآن فإن أصواف بلون الغراب الأسود[12]، هي التي ترد منها أكثر. والحقیقة أن هذه الأصواف جمیلة جمالاً غیر عادي، وعلى أيّ حال فإنهم یشترون الأكباش هنا للتلقیح وتحسین النوع، حسب كلّ كبش. ویصنع سكّان سالاسیا منسوجات دقیقة بدیعة[13]. فتوردیتانیا غنیة بشتّى أنواع القطعان والطرائد. ولا یوجد هنا كثیر من الحیوانات المؤذیة، ما خلا الأرنب حفار التربة الذي یدعوه الآخرون أرنباً وحسب، لأنه یدمّر النباتات والبذور، إذ یأكل الجذور. إن هذه الحیوانات المؤذیة تنتشر في كلّ مكان من أرض إیبیریا وصولاً حتّى ماسالیا، كما تهدد الجزر أیضاً. ویروى أن سكّان جزر هیمنیسي أرسلوا یوماً مبعوثین إلى الرومان یطلبون منهم أن یمنحوهم مكاناً آخر للسكن، لأنّ هذه الحیوانات تجعل بقاءهم في البلاد مستحیلاً، وهم عاجزون عن مواجهة أعدادها المهولة. وغني عن البیان القول إنه ربّما تكون وسیلة الدفاع هذه ضروریة نظراً لخطورة العدوان المهلك (الذي لا یقع دائماً، إنّما لدى انتشار بلیّة شاملة، كوباء الأفاعي أو فئران الحقول)[14]؛ ولكن عندما تكون أعداد الأرانب غیر كبیرة، فإنهم یبتكرون بعض الطرائق لصیدها؛ فیربّون بنات عرس برّیة یأتون بها من لیبیا لهذه الغایة؛ إذ یلبسونها كمامات ویطلقونها في الأوكار، فتُخرج بنات عرس بمخالبها، الأرانب التي تصیدها، وترغم الأرانب الأخرى على أن تخرج إلى سطح الأرض، حیث یكون الصیادون بانتظارها عند مخارج الأوكار. لقد كانت توردیتانیا تصدّر كمیات مهولة من السلع، وهذا ما تبیّنه أحجام السفن وأعدادها؛ وحقیقة الأمر أن أكبر سفن الشحن تبحر من هذه البلاد إلى دیكیارخیا وأوستیا- میناء روما؛ ولا یقلّ عدد سفنهم عن عدد السفن اللیبیة تقریباً.

7- ومع أن المناطق الداخلیة من توردیتانیا تتمیّز بوفرة كبیرة، ولكنّ الساحل قد لا یكون أقلّ منها غنى بالسلع البحریة. فثمّة هنا شتّى أنواع المحار والرخویات، وبكمیات كبیرة، وهي تتمیّز بكبر أحجامها في مختلف أرجاء البحر الخارجي،

خاصة هنا، لأنّ حركة المدّ والجزر أقوى؛ ومن الواضح أن الاضطراب الذي تولده هذه الحركة هنا، هو سبب وجود هذا الكم الكبير والأحجام الكبيرة لهذه الحيوانات[15]. وعلى النحو عينه ينسحب الأمر على حيوانات جنس الحيتان كلّها: كركدن البحر، والحيتان التي تنتج شنب الحوت والحيتان التي تنفث التيارات؛ وعندما تطلق هذه الحيتان تياراتها، فإن المراقب من بعيد يظنّ أنه يرى أعمدة من السحب. ويبلغ الحنكليس البحري هنا أحجاماً مخيفة، تفوّق كثيراً أحجام حنكليسنا، وكذلك الأمر بالنسبة لمورينا وسواها من الأسماك الأخرى. ويروى أنه ثمّة عند كارتييا صدفات تدعى «غيرالدا»[16]، والقرمزية سعة الواحدة منها 10 كوتيلات[17]؛ وفي الأماكن الأبعد يصل وزن المورين والحنكليس البحري إلى أكثر من 80 ميناً[18]، ويصل وزن البوليب البحري إلى تالانت[19] واحد، وطول الأخطبوط[20] إلى ذراعين[21]، وما تبقى على التوالي. وتأتي إلى هنا من الشاطئ الآخر، من الشاطئ الممتدّ وراء أعمدة هرقل، كميات كبيرة من التونة السمينة الكثيرة الدهن. وتتغذى التونة على ثمار نوع ما من شجر البلوط الصغير الذي ينمو في قاع البحر ويعطي ثماراً كبيرة الحجم[22]. ولهذا الشجر حضور كثيف على اليابسة أيضاً في إيبيريا، ومع أن جذوره كبيرة كجذور شجر البلوط الكبير، إلاّ أنه لا يكبر أعلى من شجيرة صغيرة. وتعطي هذه الشجرة كمّاً من الثمر يملأ بعد نضجه شاطئيّ أعمدة هرقل يحمله المدّ إلى هنا. وعلى وجه العموم فإن الثمر الذي يصل إلى هذا الجانب من أعمدة هرقل، دائماً أصغر حجماً، ويعثر عليه بكميات كبيرة. وبحسب بوليبيوس، أن البحر يرمي بهذه الثمار إلى الشاطئ لتصل حتّى لاسيوم، هذا إذا كانت سردينيا والمناطق المجاورة، كما يقول، لا تنتج هذه الثمار. وبقدر ما تقترب التونّة من أعمدة هرقل آتية من البحر الخارجي، بقدر ما تغدو هزيلة بسبب شحّ القوت. بالتالي فإن هذا الحيوان بمثابة خنزير بحري، لأنه يحب الثمر ويسمن كثيراً من هذا الغذاء؛ وفي كلّ مرّة يعطي فيها البلوط البحري محصولاً وفيراً، تظهر أعداد كبيرة من أسماك التونّة.

8- ومع أن البلاد التي تحدّثنا عنها الآن وهبت هذه الثروات كلّها، لكن أكثر ما يجب أن نقرّ به وندهش، هو غناها بالمعادن الطبيعية. فبلاد الإيبيريين كلّها مليئة بها، بيد أنها ليست خصبة في كلّ مكان أو ثرية، خاصة في المناطق التي تحتوي على ثروات باطنية كثيرة. ونادراً ما تمتلك البلاد في إقليم واحد هذه الثروات وتلك معاً، وليس غالباً أن تملك البلاد نفسها على امتداد جغرافي محدود وفرة من شتّى أنواع المعادن. وفيما يخصّ توردیتانيا والمنطقة المجاورة لها، فإن من يريد أن يمتدح محاسنها المميّزة في هذا الميدان، فإنه لن يجد الكلام الكافي لذلك. وفي واقع الأمر أنه لم يعثر

حتّى الآن في أيّ مكان على الأرض، على هذا القدر من الذهب، والفضّة، والنحاس، والحديد في حالتها الطبيعية، وبهذه الجودة. فالذهب لا يستخرج في هذه البلاد من الأرض فقط، بل تجرفه مياه الأنهار أيضاً، أي أن الأنهار والجداول الجبلية تحمل الرمال المحمّلة بالذهب إلى مصبّاتها (مع أنهم غالباً ما يعثرون على الذهب في الأماكن الخالية من المياه)؛ ولكنّه غير باد هنا، أمّا في الأماكن المائية فإن الذرّات الذهبية تبرق بوضوح. عدّاك عن هذا فإن السكّان يستجرون المياه الجارية إلى الأماكن التي لا ماء فيها، فيغسلون بذلك الذرات ويظهرون بريقها؛ كما يستخرجون الذهب بحفرهم الآبار، ويبتكرون وسائل أخرى لغسيل الرمال؛ وما يسمّى الآن مغاسل الذهب، أكثر عدداً من مناجمه. والحقيقة أن الغلاطيين يرون أن مناجمهم التي في الجبال الكيمينية، وتلك الواقعة عند سفوح البيرينيه، تتساوى بإنتاج الذهب مع مناجم توردستانيا، لكنّ معدن توردیتانیا له قيمة أعلى. ويروى أنهم يعثرون بين ذرّات الذهب أحياناً على فلزات يصل وزن واحدتها إلى نصف باوند (وتدعى palae)[23]، ولا تحتاج إلاّ لبعض التنظيف. ويروون أيضاً إنهم يعثرون لدى شطر الحجارة على فلزات صغيرة شكلها يشبه شكل الحلمات. وبقايا المعدن المصهور والمنقّى باستخدام نوع من التراب المخمّر[24]، هي الإيليكتر[25]. وبعد عملية الصهر الثانية لهذا الإيليكتر الذي يحتوي على الفضّة والذهب، تحترق الفضّة ويبقى الذهب. فعيّنة السبيكة سرعان ما تنصهر، وهي تشبه الحجر[26]. ولذلك فإن الذهب ينصهر بصورة أفضل بنار القطران، لأنّ لهب القطران ضعيف، وهذا ملائم أكثر للمادّة الطيّعة للمعالجة والانصهار؛ أمّا لهب الفحم فإنه على الضدّ من هذا، يتلف كمية كبيرة من الذهب، لأنّ قوّته تصهر الذهب بشدّة وتبدّده على شكل بخار. ومن الينابيع والجداول يغترفون التربة التي تحتوي على الذهب، ثمّ يغسلونها على مقربة في مغاسل أو يحفرون آباراً يغسلون فيها التربة التي ترمى إلى السطح. أمّا أفران صهر الفضّة فيبنونها عالية لكي يصعد دخان الفلزات عالياً في الهواء، لأنّ هذا الدخان ثقيل ويودي بالحياة. وهناك بعض مناجم النحاس التي يدعونها ذهبية، ويستنتجون من هذا أن الذهب كان يستخرج في زمن ما منها.

9- لقد مدح بوسيدونيوس غنى هذه الفلزات ونوعيتها العالية، وهو لم يستطع أن يتخلّى في غضون ذلك عن بلاغته المعتادة، وليس هذا وحسب، إنّما كان مستعداً لأن يصدّق حتّى الروايات المبالغ فيها إلى درجة لا تصدّق. فعلى حدّ قوله مثلاً، إنه يسلّم تماماً بصحّة الحكاية التي تقول، إنه يوماً ما شبّ حريق في الغابات التي تتكوّن تربتها من خامات الذهب والفضّة، ولمّا انصهرت هذه، فارت وانبثقت إلى سطح الأرض؛ ولذلك يبدو كلّ جبل وتلّ كأنه كومة من سبائك مسكوكة أهالها قدر سخيّ.

وعلى حدّ قوله إن كلّ من يرى هذه الأماكن عليه أن يسلّم بأنّ هنا موقع الكنوز الأزلية التي تملكها الطبيعة، أو مخازن مملكة ما، لا تنضب كنوزها. فليست البلاد وحدها الثرية، كما يقول بوسيدونيوس، بل باطن أراضيها كذلك. ويقيناً، ليس هاديس هو الذي يقيم في العالم السفلي لبلاد التورديتانيين، بل بلوتون[27]. بهذا الأسلوب المزخرف يتحدّث بوسيدونيوس عن هذا، كأنه هو نفسه ينهل كلامه المسهب من منجم من مناجم هذه البلاد. ثمّ يسوق لنا ما قاله ديميتري الفاليري عن عمل عمال المناجم، فبحسب هذا الأخير أن عمال مناجم الفضّة الأتيكية[28]، يعملون بتفان لا مثيل له، كأنهم يريدون أن يخرجوا بلوتون نفسه من باطن الأرض. وعلى هذا النحو نفسه يصوّر بوسيدونيوس همة عمال المناجم التورديتانيين واجتهادهم، لأنهم يشقّون مناجم متعرّجة عميقة، وينزحون المياه التي تصادفهم هناك بوساطة المضخات الحلزونية المصرية[29]. ولكنّ النتيجة بحسب قوله، مختلفة دائماً لدى عمال المناجم هؤلاء وعمال المناجم الأتيكيين؛ فالحق يقال إن التعدين لدى هؤلاء الأخيرين يشبه اللغز: «ما يباشرون من أجله العمل، لا يحقّقونه، وما بين أيديهم يفقدونه»[30]؛ بيد أن حفر المناجم عمل ذو منفعة استثنائية، عند التورديتانيين، لأنّ $\frac{1}{4}$ الفلزات التي يستخرجها النحّاسون، هو نحاس خالص، وثمّة بين مالكي المناجم الخاصة من يستخرج في ثلاثة أيام تالانتا إيبياً[31] من الفضّة. ولكنّ القصدير بحسب قوله، لا يتواجد هنا على سطح الأرض كما يؤكّد المؤرّخون دائماً، بل يستخرجونه من الأعماق، كما يستخرج القصدير من بلاد البرابرة الذين يعيشون وراء لوسيتانيا، ومن جزر الكاسيتيريس؛ ويستوردونه من الجزر البريطانية إلى ماساليا. والتربة عند الأرتابريين الذين يعيشون في أقصى شمال غربي لوسيتانيا، تزدهر على حدّ قوله، بالفضّة، والقصدير و«الذهب الأبيض» (لأنه مختلط مع الفضّة). ويضيف بوسيدونيوس، أن هذه التربة تحملها الأنهار؛ فتأخذها النساء بالمجارف ويغسلنها في مصاف مجدولة على شكل سلال. إن هذا هو نوع المعلومات التي ينقلها بوسيدونيوس عن المناجم.

10- وإذ يشير بوليبيوس إلى مناجم الفضّة الواقعة عند قرطاجة الجديدة يقول، إنها كبيرة جدّاً. وهي تبعد حوالي 20 مرحلة، وامتداد دائرة مساحتها 400 مرحلة؛ ويعمل هناك دائماً 40.000 عامل كانوا يوردون إلى خزنة روما (في زمنه) 25.000 دراخما يومياً. أمّا فيما يخصّ عملية المعالجة، فإني أتجاهل وصفه لها تماماً (لأنه وصف طويل جدّاً)، ما عدا ما يقوله عن الفلزات التي تحتوي على الفضّة وتغسل في مياه الأنهار. فهم يهشمون هذه الفلزات ثمّ يمررونها في الماء عبر المصافي[32]؛ وبعد ذلك

يهشـمون مـا يترسـب ثانيـة ويرشـحونه مـرّة أخـرى بمزجـه بالمـاء ويفتتونـه؛ ثمّ يصـهرون مـا يترسـب في المـرّة الخامسـة، وبعـد أن يُفصـل الرصـاص تتبقّـى الفضّـة الخالصـة. ولا تـزال مناجم الفضّة موجودة حتّى أيامنا هذه، إلاّ أنهـا ليسـت ملكـاً لدولـة قرطاجـة الجديـدة، ولا لأي دولة أخرى، بل باتت ملكيـة فردية خاصـة بأشـخاص. أمّـا منـاجم الـذهب، فـإن أكثرهـا ملـك للدولـة المعنيـة. وثمّـة في قشـتالة وأمـاكن أخـرى منـاجم خاصـة لاسـتخراج الرصاص؛ ويخـالط هـذا الرصـاص قليـل مـن الفضّـة، لكـنّهم لا يسـتخلصـونها منـه، لأنّ كميّتها قليلة إلى درجة أنه ليس ثمّة جدوى اقتصادية من استخلاصها.

11- وغير بعيد عن قشتالة يقع جبل يقال إن نهر بيتيـوس ينبـع منـه. ويـدعون هـذا الجبل بالجبل «الفضّي» لأنّ فيه مناجم فضّـة. وبحسـب بوليبيـوس أن هـذا النهـر ونهـر آنـا ينبعان من سلتيبيريا، وأن واحدهما يبعد عن الآخر 900 مرحلة؛ ولـمّا حقّـق السـلتيبيريون جبروتهم، أعطـوا الـبلاد المجـاورة كلّهـا اسمهم. وربّمـا دعـا القـدماء نهـر بيتيـوس باسـم تـارتيس، ودعـوا غـادير والجـزر المجـاورة باسـم أريثيـا. ولهـذا السـبب يظنّـون أن ستيسيخوروس قال عن راعي ثيران[33] هيرون: إنه مولود.

قبالة أريثيا المجيدة، تقريباً

على مقربة من تارتيس، الذي لا حدّ لينابيعه،

التي تمـدّ جذورها الفضيـة في وهـدة الصخـرة

(*مقطع* III، 208، *بيرغك*)

وبما أن للنهر مصبّين، فإنه كما يقولون، كانت تقوم فيما مضى علـى الأراضـي الواقعـة بينهمـا، مدينـة كانـت تـدعى تـارتيس، علـى اسـم النهـر، وتسـمى الـبلاد الـتي يشغلها التوردواليون الآن تارتيسيديس. ويقـول إيراتوسـفين بعـد ذلـك، إن الـبلاد المجـاورة لكالبـا تـدعى تارتيسـيدس، وتـدعى أريثيـا «بـالجزيرة السـعيدة». وفي معارضـته لإيراتوسـفين، يـزعم أرتيميـدور أن ملاحظـة إيراتوسـفين الخاطئـة الثانيـة هـذه، تشـبه الإشارة إلى أن المسافة من غادير إلى الرأس المقدّسة خمسة أيام إبحـاراً (مـع أنهـا لا تزيـد علـى 1700 مرحلـة)، ولـيس صـحيحاً أيضـاً مـا قالـه عـن أن الجـزر ينتهـي عنـد الـرأس المقدّسة، مع أن هذه الظاهرة منتشرة على امتداد المعمورة كلّها؛ ولا يتوافق مع الحقيقـة كذلك، زعمه أن الأجزاء الشـمالية مـن إيبيريـا تشـكّل طريقـاً إلى سـلتيا أسـهل ممـا لـو أبحرت إلى هناك في المحيط؛ وكل زعم آخر زعمه إيراتوسفين مستنداً إلى بيفيوس[34]، هو زعم خاطئ، لأنّ أقوال هذا الأخير ليست سوى ثرثرة لا معنى لها.

12- إن هوميروس، الرجل المعـروف والواسـع الإطـلاع، يعطينـا الأسـس لنفترض

أنه كان على معرفة ممتازة بهذه المناطق مما رواه الآخرون، وهذا ما يتّضح إذا ما شئنا أن نستنتج استنتاجاً صحيحاً من معلومتين نقلهما عن هذه المناطق، احداهما أكثر مصداقية والأخرى أقلّ مصداقية. والخبر الأقلّ مصداقية، هو أن تارتيس كان معروفاً بالأقاويل[35]، «كأقصى نقطة في الغرب»، حيث يصبّ في المحيط، كما يقول هوميروس نفسه:

... شعلة الشمس المضيئة،

ترمي الليل الحالك على الأرض المثمرة.

(الإلياذا VIII، 485)

وكون الليل الحالك نذير شؤم وعلى صلة بهاديس، أمر واضح وضوح ارتباط هاديس بتارتاروس. وعلى هذا النحو يمكننا أن نفترض أن هوميروس إذ سمع عن تارتيس دعا أقصى بقاع المملكة السفلى تارتاروس، مشتقاً هذا الاسم من اسم تارتيس، فضمّ العنصر الميثولوجي، وبقي في الوقت نفسه أميناً لأسلوبه الشعري. وهذا ما فعله تماماً عندما علم أن الكيميريين استوطنوا المناطق الشمالية الحالكة حول البوسبور، فأسكنهم على مقربة من هاديس، مع أنه قد يكون فعل هذا بسبب بعض النفور الذي يكنّه الإيونيون على وجه العموم لهذه القبيلة: يروى فعلاً أن الكيميريين اجتاحوا البلاد في الزمن الهوميري ووصلوا إلى إيوليدا وإيونيا. ثمّ أنشأ الشّاعر بعد ذلك البلانكتس[36] على نمط الصخور الكيانية، مقتبساً أساطيره دائماً من وقائع تاريخية ما. فهو يروي على سبيل المثال، قصة ميثولوجية عن صخور خطرة يروى أنها كانت صخور الكيانيس (ولذلك دعيت هذه الصخور بصخور «السيمبليغادس»)، وعليه فقد نسب هوميروس إلى ياسون قصة الإبحار عبر هذه الصخور. كما أوحى له مضيق أعمدة هرقل ومضيق صقليا بأسطورة البلانكتس أمّا بخصوص الخبر الأقلّ مصداقية، فإننا نستطيع أن نستنتج من إشارات وردت في قصة تارتاروس التي ذكرت آنفاً، أن هوميروس قصد إلى المناطق المجاورة لتارتيس.

13- وفيما يتعلّق بالرأي الأكثر صحّة، فإننا نستطيع أن نستنتج عنه مما يلي: أولاً، إن حملات هرقل والفينيقيين (وقد وصلوا إلى إيبيريا)، ألهمت هوميروس تصوّراً عن شيء من الثراء والهناءة في حياة سكّان إيبيريا. والحق يقال إن هؤلاء القوم كانوا خاضعين لنفوذ الفينيقيين إلى درجة أن هؤلاء لا يزالون يعيشون في أكثر مدن توردیتانیا والمناطق المجاورة. ومن جهة أخرى يُهيأ لي أن حملة أوديسيوس (بما أن مسرحها كان في إيبيريا فعلاً، وقد عرف هوميروس عنها من خلال أسئلته الكثيرة التي كان يطرحها على العارفين)، أعطت هوميروس الحجة لكي ينقل أوديسيوس (كما كان قد نقل من

قبل الإلياذا) من أوساط الوقائع التاريخية إلى ميدان الشعر والاختلاق الميثولوجي المعتاد لدى الشعراء. ولكنّ آثار مثل هذه الأحداث ليست موجودة فقط في مناطق إيطاليّة وصقليّة وبعض المناطق الأخرى، بل هي موجودة أيضاً في إيبيريا حيث ثمّة مدينة تدعى أوديسيا، ومعبد لأثينا، وآلاف أخرى من آثار ترحال أوديسيوس والأبطال الآخرين بعد حرب طروادا. وقد تسبب هذا الترحال بكثير من الآلام للطراوديين المهزومين ولخصومهم المنتصرين على حدّ سواء (فلم يحقّق هؤلاء الأخيرون سوى نصر قدموس)[37]. فبما أن منازل الطرواديين تحوّلت إلى خراب، ولم يغنم الجنود الإغريق سوى القلّ القليل، لذلك اتّجه من بقي من الطرواديين والإغريق على قيد الحياة، إلى أعمال القرصنة البحرية؛ فقد لجأ الطرواديون إلى ممارسة هذا العمل لأنّ مدينتهم دمّرت تماماً، أمّا الإغريق فقد دفعهم الإحساس بالعار للجوء إلى القرصنة، فكل منهم كان يقول لنفسه:

بعيداً رحلت عن أهلي، ثمّ أعود إليهم لأركن خاملاً في البيت.

(*الإلياذا* II، 298)

لقد حملت إلينا الروايات قصص تيه إينياس، وأنتينور، والجينيتيين[38]، وكذلك تيه ديوميدس، ومنيلايوس، وأوديسيوس وكثير من الأبطال الآخرين. والحقيقة أن الشّاعر بعد أن سأل كثيرين وعرف عن تلك الحملات كلّها إلى أقصى أنحاء إيبيريا، وتعرّف إلى غنى هذه البلاد وميزاتها الأخرى، عن طريق ما رواه له الآخرون (لأن الفينيقيين تحدّثوا عن تلك الميزات)، اختلق وجود أرض النعيم والإيليزيه ووضّعهما هنا، وفي هذه الأرض سيقيم منيلايوس، بحسب قول بروتيوس:

إلى وراء حدود الأرض، إلى حقول الإيليزيه
سيرسلك الآلهة، إلى هناك حيث يعيش رادامانثوس الذهبي الشعر
(حيث تتوالى أيام الإنسان مضيئة من غير أسى،
حيث لا عواصف، ولا شآبيب، ولا صقيع في الشتاء،
حيث يهب زفيروس صاخباً صخباً لطيفاً، يبعث به المحيط
محملاً ببرودة ناعمة إلى المغبوطين هناك)

(*الأوذيسا* IV، 568 أو 563)

والحق يقال إن الهواء النقي وعبق نسمات زفيروس من سمات هذه البلاد، لا لأنها بلاد غربية فقط، بل لأنها دافئة أيضاً؛ وينطبق عليها أيضاً تعبير «وراء حدود الأرض»، حيث وضّعت الأسطورة هاديس، كما ذكرنا آنفاً. ويأتي ذكر رادامانثوس هنا ليشير إلى المكان القريب من مينوس، التي قال عنها الشاعر:

لقد رأيت في هاديس، مينوس الحكيم، ابن زيوس،
حاملاً الصولجان الذهبي بيمناه، وهو هناك يحاكم الموتى

(الأوذيسا XI، 568)

كما ردّد مثل هذه القصص شعراء آخرون أحدث عهداً، كقصة حملة هرقل بحثاً عن ثيران هيرون مثلاً، وحملته نفسه من أجل تفاحات الهسبيريدس الذهبية. وقد ذكر هؤلاء الشعراء جزر نعيم ما. ولا يزالون يذكرون حتّى الآن، أنها تقع غير بعيد عن أطراف ماوروسيا في مقابل غادير.

14- وكان الفينيقيون كما أرى، ممن أخذ هوميروس عنهم معلومات، فهؤلاء كانوا قد استولوا قبل زمن هوميروس، على أفضل أجزاء إيبيريا وليبيا، وبقيت سيطرتهم على هذه المناطق قائمة إلى أن دمّر الرومان دولتهم. وتؤكّد الحقائق الآتية على غنى إيبيريا: يقول المؤرّخون، إن القرطاجيين الذين شنّوا حملة على إيبيريا بقيادة باركا، وجدوا لدى القبائل في تورديتانيا معالف للحيوانات مصنوعة من الفضّة، وبراميل لخزن النبيذ مصنوعة منها أيضاً. وعليه فإنه يمكننا أن نظنّ أن السكّان المحلّيين، خاصة قادتهم، وصفوا «بطول العمر» بسبب الرخاء والوفرة اللذين كانوا يتوفّرون عليهما؛ ولهذا بالذات قال أناكريونت:

فيما يخصّني، فأنا لا ارغب في أمالثيا
ولا أروم قرناً،
ولا مئة عام وخمسين أخرى
أسود على تارتيس

(مقطع 81 بيرغك)

وقد دوّن هيرودوت حتّى اسم الملك، الذي دعاه أرغانثونيوس. ونحن يمكننا أن نفهم كلمات أناكريونت إمّا حرفياً، أي «الزمن الذي عاشه الملك»، وإمّا بمعنى أعمّ: «ولا أريد أن أحكم تارتيس زمناً طويلاً». ولكنّ بعضهم يرى أن تارتيس هي كارتيا المعاصرة[39].

15- وتضاف إلى رخاء البلاد هذا، رقّة أخلاق التورديتانيين وودّهم الاجتماعي، الأمر الذي نلاحظه وإن بدرجة أقل بحسب شهادة بوليبيوس، عند السلتيين، لأنّ أكثرهم يعيش في مستوطنات معزولة، أمّا هذه الدرجة من التشابه فسببها مجاورة السلتيين للتورديتانيين أو قرابتهم معهم. ولكنّ التورديتانيين، خاصة الذين يعيشون عند نهر بيتيوس، بدّلوا نمط عيشهم تبديلاً كاملاً وتحوّلوا إلى نمط العيش الروماني، بل لم يعودوا يتذكرون حتّى لغتهم الأمّ. لقد صار أكثرهم إلى مواطنين «لاتين»[40]

واستقبلوا عندهم المستعمرين الرومان، فتحوّل كلّهم تقريباً إلى رومان. ومدنهم الرئيسة الآن هي: باكس أغسطس في بلاد السلتيين، وأوغستا إيمريتا في بلاد التوردوليين، وقيصر أغسطس عند السلتيبيريين، وبعض المستوطنات الأخرى. وتُظهر هذه التسميات التبدل الذي حصل في أشكال الحياة المدنية المذكورة. عدّاك عن هذا أنّ كلّ الإيبيريين الذين ينتمون إلى هذه الطبقة يدعون togati [41]. وثمّة بينهم السلتيبيريون الذين عدوا في وقت ما، الأكثر همجية بين جميعهم. إن هذا هو كلّ ما لديّ من معلومات عن التورديتانيين.

الفصل الثالث

1- وإذا ما بدأنا العرض من الرأس المقدّسة ثانية سالكين الاتجاه الآخر على طول الساحل حتّى نهر تاغ، فسيظهر أمامنا الخليج أولاً، ثمّ رأس بارباريوس ومصبّ تاغ على مقربة، والمسافة حتّى هذه الثغور 10 مراحل[1]. وتوجد هنا أخوار أيضاً؛ أحدها يمتدّ أكثر من 400 مرحلة في داخل البلاد ابتداء من البرج[2] الذي ذكرناه آنفاً، ويروي هذا الخور البلاد وصولاً إلى سالاسيا. ويبلغ عرض نهر تاغ عند مصبّه ما يقارب 20 متراً، كما يصل عمقه أيضاً إلى هذا الحدّ، الأمر الذي يسمح لسفن الشحن الكبيرة أن تبحر إلى أعاليه. وفي وقت المدّ يشكّل النهر خورين في السهول الواقعة إلى الأعلى، فتغمر المياه مدى يصل امتداده إلى 150 مرحلة، وتجعل السهل صالحاً للملاحة؛ وفي الخور الأعلى تطوّق المياه جزيرة طولها حوالي 30 مرحلة وعرضها أقلّ من طولها بقليل، وفيها حدائق غنّاء وكروم من الأعناب. وتقع الجزيرة قبالة مدينة مورون الواقعة على هضبة قرب النهر، وعلى مسافة 500 مرحلة عن البحر، وقد جاء اختيار موقع هذه المدينة موفقاً جدّاً؛ فالأراضي حولها تتميّز بخصوبة شديدة، والملاحة في النهر إلى أعاليه ملائمة لمسافة طويلة حتّى بالنسبة للسفن الكبيرة؛ وما تبقى من امتداد النهر صالح لإبحار السفن النهرية فقط. وبعد مدينة مورون إلى الأعلى، النهر صالح للملاحة لمسافة أكبر. ومن الجدير ذكره، أن هذه المدينة شكّلت نقطة استناد لبروتوس الملقب بالكالايكي، عندما حارب اللوسيتانيين وأخضع هذه القبيلة. لقد حصّن بروتوس أوليسيبون، وبنى سدوداً نهرية لكي يضمن حرية الملاحة في أعالي النهر ويؤمّن نقل التموين؛ ولذلك فإن هذه المدينة هي الأقوى بين مدن نهر تاغ. ونهر تاغ نفسه نهر غني بالأسماك والمحار. وهو ينبع من سلتيبيريا ويجري عبر فيتونيا، وكاربيتانيا، ولوسيتانيا نحو الغرب المعتدل حتّى نقطة محدّدة، على موازاة نهر آنا وبيتيوس، وبعد ذلك ينعطف عنهما لأنهما بدورهما ينعطفان نحو الساحل الغربي.

2- ومن الأقوام التي تقطن وراء الجبال التي ذكرناها آنفاً[3]، يشغل الأوريتانيون الموقع الأقصى جنوباً: تمتدّ أراضيهم جزئياً حتّى ساحل أعمدة هرقل من هذه الجهة. وإلى الشمال منهم يقطن الكاربيتانيون، ثمّ الفيتونيون والفاكيون الذين يجري نهر دوريوس عبر بلادهم، وثمّة عند أكوتيا، وهي مدينة الفاكيين، معبر عبر هذا النهر؛ وأخيراً يأتي الكالايكيون الذين يشغلون شطراً كبيراً من البلاد الجبلية. ولهذا السبب، وبما أن قتال هؤلاء كان أمراً صعباً جدّاً، فقد لقّب قاهر اللوسيتانيين بالكالايكي، بل لا يزال أكثر اللوسيتانيين يدعون حتّى الآن بالكالايكيين. وأكثر المدن جبروتاً في أوريتانيا، هما مدينتا، كاستالون، وأوريا.

3- وتقع لوسيتانيا إلى الشمال من نهر تاغ، وتعدّ هذه أكبر القبائل الإيبيرية التي طالت حروب الرومان معها أكثر من أي قبيلة أخرى. ويحدّ الشطر الجنوبي من هذه البلاد، نهر تاغ، بينما يحدّها المحيط من الغرب والشمال، وتتجاور من جهة الشرق مع مناطق الكاربيتانيين، والفيتونيين، والفاكيين، والكالايكيين، وهي قبائل معروفة لنا. أمّا القبائل الأخرى فهي قبائل لا تستحق أن تذكر، لأنها قبائل لا أهمية لها ولا تحظى بأيّ شهرة. وعلى الضدّ مما اعتاد عليه معاصرونا، فإن بعضهم يدعو هذه القبائل قبائل لوسيتانية. وللكالايكيين في مناطقهم الشرقية حدود مشتركة مع القبائل الأستورية، والسلتيبيرية، أمّا في المناطق الأخرى فإن جيرانهم هم السلتيبيريون فقط. ويبلغ طول لوسيتانيا حتّى رأس نيريبيوس 3000 مرحلة، أمّا عرضها (الذي تشكّله الجهة الشرقية حتّى الشاطئ المقابل)، فهو أقلّ بكثير. والجهة الشرقية مرتفعة وغير مستوية، أمّا المنطقة الواقعة إلى الأسفل وصولاً حتّى البحر، فهي منطقة مستوية، ما خلا بعض الجبال الصغيرة. ولهذا السبب، بحسب بوسيدونيوس، أخطأ أرسطو إذ عدّ أن سبب المدّ والجزر يكمن هنا في خاصيات ساحل إيبيريا وماوروسيا. فأرسطو رأى أن المدّ والجزر البحريين يحصلان هنا لأنّ الأراضي الساحلية مرتفعة وصخرية، فهي تقاوم الأمواج بعناد وتقذف بها باندفاع متساو. وقد أصاب بوسيدونيوس إذ قال، إن القسم الأكبر من الساحل هنا رملي ومنخفض.

4- إن البلاد التي أتحدّث عنها بلاد خصبة، تجري عبرها أنهار كبيرة وصغيرة، وكلّها يجري من جهة الشرق بموازاة نهر تاغ؛ وأكثر الأنهار متشابه، فهي تحتوي على كميات كبيرة من الرمال الذهبية. وأشهر هذه الأنهار بعد نهر تاغ مباشرة، نهر موندا ونهر فاكوا، وهما نهران متشابهان لمسافة صغيرة فقط. ويأتي بعد هذين النهرين، نهر دوريوس الذي يبدأ بعيداً ويجري على مقربة من نومانسيا وكثير من المستوطنات الأخرى التي يقطنها السلتيبيريون والفاكيون؛ وهذا النهر صالح لإبحار السفن الكبيرة

مسافة 800 مرحلة. ثمّ تأتي بعده الأنهار الأخرى، ويليها نهر ليتا[4]، الذي يدعوه بعضهم ليمييوس، أو بيلييون[5]؛ ويجري هذا النهر من بلاد السلتيبيريين والفاكيين، مثله في هذا مثل النهر الذي يليه، والمقصود هنا نهر بينيوس (وبحسب آخرين، نهر مينيوس)، وهو أكبر أنهار لوسيتانيا، وهو بدوره صالح للملاحة مسافة 800 مرحلة. ويؤكّد بوسيدونيوس أن نهر بينيوس ينبع من كانتابريا. وتقع أمام مصبّه جزيرة وحاجزان لصدّ الأمواج فيهما محطتان لرسوّ السفن. والحقيقة أن خاصيات طبيعة هذه الأنهار، تستحقّ الثناء، لأنّ لها ضفافاً عالية، فهي مهيّأة لاستضافة البحر في مجاريها أثناء المدّ العالي، من غير أن يفيض ماؤها إلى خارج الضفاف ويغرق السهول. وعلى أيّ حال، فقد كان هذا النهر هو آخر نقطة وصلت إليها حملة بروتوس، مع أنه ثمّة بعد ذلك أنهار أخرى موازية للأنهار المذكورة.

5- والأكثر بعداً [من اللوسيتانيين]، هم الأرتابريون الذين يعيشون بجوار الرأس التي تدعى رأس نيرييوس، وهي تشكّل حدّ الشطرين الغربي والشمالي من إيبيريا. وتقطن المنطقة المحيطة بالرأس قبيلة سلتية تربطها صلات القرابة بالشعوب التي تقطن حوض نهر آنا. ويقولون إن هذه القبيلة شنّت مع التوردواليين حملة على تلك المناطق، إلاّ أنها ما لبثت أن اختلفت معهم فور عبور الحملة نهر ليمييا؛ وعندما فقد السلتيون قائدهم بعد الخلاف، تشتت شملهم وأقاموا حيث هم الآن؛ ومن هنا سمّي نهر ليمييا باسم ليتا. وللأرتابريين مدن ذات كثافة سكّانية عالية، تقع على الخليج الذي دعاه البحارة الذين غالباً ما يؤمّون هذه الأماكن، ميناء الأرتابريين. ويدعى الأرتابريون الآن بالأروتريبيين. وعلى أيّ حال فإن ما يقارب 30 من مختلف القبائل، تستوطن المنطقة الواقعة بين تاغ والأرتابريين. ومع أن البلاد كانت غنية بالثمار والقطعان، وتملك وفرة من الذهب، والفضّة والمعادن الأخرى، إلاّ أن أكثر السكّان استهجن العيش على إنتاج الأرض والتفت إلى أعمال السلب والنهب، فخاض بعضهم ضدّ بعض حروباً متواصلة، كما حاربوا أيضاً جيرانهم القاطنين وراء نهر تاغ، إلى أن ردعهم الرومان. لقد حطم الرومان غطرستهم، وحوّلوا أكثر مدنهم إلى قرى بسيطة لا أهمية لها، لكنّهم حسّنوا بعض المدن وطوّروها وأسكنوا فيها مستعمرين رومان. وكان سكّان الجبال أوّل من عاث فساداً، وهذا أمر طبيعي، فهؤلاء يقطنون أرضاً قاحلة، ولا يملكون شروى نقير. ولذلك أخذوا يستولون على أرزاق الآخرين. ولمواجهة سكّان الجبال كان الناس مرغمين على أن يتركوا أشغالهم الخاصة، فبدلاً من العمل بالزراعة شرعوا يقاتلون؛ وكانت النتيجة هي ترك الأرض التي فقدت خيراتها الطبيعية وتحوّلت إلى مأوى لقطاع الطرق.

6- والحقيقة أن اللوسيتانيين، كما يقال، أناس مهرة في تنظيم الحصار،

وملاحقة العدوّ؛ فهم حاذقون، ورشيقون، ويتميّزون بقدرتهم العالية على المناورة أثناء القتال. ويحملون تروساً مجوّفة من الداخل وبارزة إلى الأمام قليلاً، قطر واحدها قدمان، تعلّق على اليد بأحزمة (لأنه ليس لها طارات ولا مماسك). وإضافة إلى هذا الترس يتسلح اللوسيتانيون بخناجر أو سكاكين ويرتدي أكثرهم دروعاً كتّانية، ولدى بعضهم فقط دروع مزرّدة، وخوذ بثلاث ريشات، أمّا الآخرون فيحملون خوذاً من الأوتار. ويرتدي الجنود المشاة بدورهم أطماقاً، ولدى كلّ مقاتل عدد من المزاريق؛ ولديهم رماح حرابها نحاسية. ويقال، إن بعض القبائل التي تقيم عند نهر دوريوس تعيش حياة وفق النمط اللاكوني: يدخلون مرتين في اليوم حجر التدليك بالزيت، يستحمون بعدها في حمامات بخارية تسخّن بحجارة متوهّجة، ثمّ يغتسلون بالماء البارد، ولا يأكلون إلاّ الدقيق كلّ يوم، ويراعون قواعد النظافة، ويلتزمون بالعفّة والتواضع. ويستحسن اللوسيتانيون تقديم القرابين، ويتفحصون أحشاء حيوانات الأضاحي من غير أن يقطّعوها؛ ويتفحّصون إضافة إلى ذلك عروق جنب الأضحية وينجّمون عن طريق لمسها. ولديهم أيضاً عادة التنجيم بأحشاء الأسرى، الذين يغطونهم أولاً بالأردية، ثمّ عندما يطعن الكاهن المنجّم الضحية في أحشائها، ينجّمون قبل كلّ شيء بكيفية سقوط جسد الضحية. ويقطعون اليد اليمنى للأسير ليقدّموها قرباناً للآلهة.

7- ويعيش سكّان الجبال كلّهم حياة بسيطة، فيشربون الماء، وينامون على الأرض، شعر رؤوسهم طويل مضفور ضفائر طويلة كالنساء؛ لكنّهم أثناء القتال يربطونه حول الجبين. غذاؤهم الأساس، هو لحم الماعز، وقربانهم للإله أريس جدي، وأسرى، وجياد؛ وبحسب العادة الإغريقية، فإن كلّ عشيرة تضحّي بمئة ثور.

ويقيم هؤلاء مباريات في المصارعة، والجري، والرمي، وقتال الأرتال، يشارك فيها المشاة الخفيفة، والمشاة الثقيلة، والفرسان. ويعيش سكّان الجبال ثلثي السنة على ثمار البلوط التي يجففونها ويهشمونها ثمّ يطحنونها؛ ويصنعون من طحينها خبزاً يخزنونه لفترة طويلة. كما يشربون الجعّة المصنوعة من الشعير؛ أمّا النبيذ فلديهم فيه نقص؛ إذ سرعان ما يستهلكون الكمية التي يصنعونها منه في الاحتفالات التي يقيمونها مع الأقارب والأصدقاء؛ ويحلّ السمن البقري عندهم محلّ زيت الزيتون. ويتناولون وجباتهم وهم جالسون على مقاعد مبنية لصق جدران الحجر، ويجلسون وفق تدرّج السن والمكانة. فهم يجلسون للغداء دائرة يدور الطعام عندهم وفقها؛ ثمّ يتناولون الشراب وهم يرقصون على أنغام المزمار والبوق، فيدورون في حلبة الرقص مجموعات، ويقفزون ويهبطون. وفي باستيتانيا ترقص النسوة بين الرجال إذ يمسك بعضهم بأيدي بعض. ويرتدي الرجال كلّهم هنا ثياباً سوداء اللون، أكثرهم يرتدي معاطف، وفي هذه

المعاطف ينامون على الفرش المحشية بالنباتات اليابسة. ويستخدمون الأواني المصنوعة من الشمع[6]، كما يفعل السلتيون. وترتدي النسوة دائماً ملابس طويلة وفساتين ملوّنة. ويتعامل السكّان هنا (في أقلّ تقدير من يعيش منهم في أعماق البلاد) بالتبادل العيني بدلاً من المسكوكات النقدية، أو يقطعون قطعاً من فضّة مشغولة ويستخدمونها بدلاً من العملة النقدية. ويرمى بالمحكومين بالإعدام من فوق صخرة عالية إلى قاع هاوية، أمّا من يقتل والده فيقتل رجماً بالحجارة وراء الجبال أو الأنهار[7]. ويجري عقد القران عندهم كما هو معمول به عند الإغريق. وهم يخرجون مرضاهم إلى الطرقات. كما كانت العادة عند المصريين القدماء[8]، طلباً لمشورة من كان قد عانى من مثل هذا المرض. وكانت لا تزال عندهم حتّى زمن بروتوس قوارب جلدية يستخدمونها وقت المدّ وفي المياه الضحلة، أمّا الآن فحتّى العوامات نادرة الوجود عندهم. والملح الصخري هنا لونه أرجواني، وإذا ما سحن يتحوّل إلى اللون الأبيض. ذلكم هو نمط عيش سكّان الجبال، وأنا أقصد إلى تلك المناطق التي تجاور الجهة الشمالية من إيبيريا، وعلى وجه التحديد الكالايكيين، والأستوريين، والكونتابريين حتّى [مناطق] الفاسكونيين، والبيرينيه؛ فهؤلاء كلّهم يديرون نمط عيش متماثل. وأنا أحجم عن ذكر كثير من الأسماء تفادياً لعبء تدوينها، فهل هناك من يستمتع بسماع أسماء مثل البليفتافريين، والبارديتيين، والأللوتريغيين وسوى ذلك من أسماء الجماعات الأقل أهمية وأقلّ شهرة حتّى من هؤلاء.

8- وليست قوّة الشكيمة والهمجية اللتان تتّصف بهما هذه الأقوام، ناجمة فقط عن الحروب وحياة التنقّل، بل أيضاً عن نأي المناطق التي يقطنونها، وواقع الحال فعلاً، هو أن الرحلة إلى بلادهم بحراً أو براً، تستغرق زمناً طويلاً، وبما أن التواصل معهم صعب، لذلك فقدوا الألفة والود والرفق الإنساني. ولكنّ هذه العيوب أقلّ حضوراً في سلوكهم الآن، بفضل حالة السلام ومجيء الرومان إلى بلادهم. بيد أن القبائل الأقلّ تواصلاً مع الرومان، تتميّز بقدر أكبر من العنف والوحشية، وإذا كانت مثل هذه السمات المكروهة ناجمة لدى بعض القبائل عن فقر بلدانها وشحّ وسائل عيشها، فإن هذه الأخلاقيات حاضرة في سلوك سكّان الجبال بدرجة أعلى. بيد أن الحرب توقفت تماماً الآن، لأنّ أغسطس قيصر أخضع الكونتابريين (الذين لا يزالون حتّى الآن يحافظون على عصاباتهم المنظمة)، وجيرانهم نهائياً؛ وبدلاً من أن يشنّوا غزوات لنهب حلفاء روما، فإن الكونتابريين، والكونياكيين[9]، والبلينتوسيين[10] (الذين يعيشون عند منابع إيبير)، يقاتلون الآن مع الرومان. ولحماية هذه المناطق، أرسل طيباريوس، خليفة قيصر، ثلاثة فيالق عسكرية (كان أغسطس قيصر قد أعدها لهذه المهمّة)،

وقد نجح في تحويل بعض هذه القبائل إلى قبائل مسالمة، بل متحضّرة أيضاً.

الفصل الرابع

1- وما تبقى من إيبيريا، أي ساحل بحرنا من أعمدة هرقل حتّى جبال البيرينيه، وكذلك كلّ المناطق الداخلية فوقها، عرضه متباين، وطوله أكثر من 4000 مرحلة بقليل؛ ومع ذلك فإن الساحل كما يقولون، أطول بألفيّ مرحلة. ويقولون، إن المسافة من كالبا، وهي جبال تقع قرب أعمدة هرقل، حتّى قرطاجة الجديدة 2200 مرحلة. ويعيش على هذا الساحل الباستيتانيون (ويدعون أيضاً بالباستولانيين)، وإلى حدّ ما الأوريتانيون؛ والمسافة من هنا حتّى إيبير تساوي هذا الرقم نفسه تقريباً، ويشغل هذا الساحل الإيديتانيون؛ وعلى هذه الجهة من إيبير حتّى البيرينيه ونصب نصر بومبيوس[1]، تبلغ المسافة 1600 مرحلة. ويعيش هنا عدد قليل من الإيديتانيين، أمّا ما تبقى من المنطقة فيشغله قوم يدعونهم الإينديكاتيين، وينقسم هؤلاء إلى أربع جماعات.

2- وإذا بدأ عرضنا من جبل كالبا على وجه التحديد، فسوف نرى سلسلة جبلية داخل أراضي باستيتانيا وأوريتانيا، مكسوّة بغابات كثيفة شجرها باسق، وهي تفصل الساحل عن الأجزاء الداخلية من البلاد. وتوجد في كثير من الأماكن هنا، مناجم يستخرجون منها الذهب ومعادن أخرى. والمدينة الأولى على هذا الساحل، هي ملقا الواقعة على مسافة واحدة من مدينتيّ كالبا وغادير. وهذه في الوقت الراهن محطّة للرحّل على ساحل ليبيا المقابل؛ وتوجد هناك أيضاً قاعات كبيرة لتمليح الأسماك. ويدغم بعضهم هذه المدينة بمدينة ميناكا التي تقع كما نعرف، أبعد من كلّ المدن الثوكية باتجاه الغرب، لكنّ هذا الإدغام غير صحيح. فميناكا على الضدّ من هذا، تقع بعد كالبا، وهي الآن أطلال، على الرغم من أنها لا تزال تحافظ على آثار المدينة الإغريقية، بينما ملقّا أقرب بكثير، وهي من حيث مظهرها الخارجي مدينة فينيقية. ثمّ تأتي بعدها مدينة الإيكسيتانيين[2]، التي منحت الأسماك المملّحة اسمها.

3- وتأتي بعد هذه المدينة مدينة أبديرا، وهي مدينة أسّسها الفينيقيون أيضاً. وثمّة فوق هذه المنطقة، في البلاد الجبلية مدينة تدعى أوديسيا فيها معبد لأثينا، كما يؤكّد بوسيدونيوس، وأرتيميدور، وإسكليبيادس الميرلي (وكان هذا يدرّس أصول النحو في توردیتانيا، وأصدر وصفاً لقبائل هذه المنطقة). ويقول إسكليبيادس، إن معبد أثينا فيه تروس ومقدّمات سفن تخلّد ذكرى ترحال أوديسيوس، وإن بعض من شاركوا في الحملة مع تيفكروس قد استوطنوا في بلاد الكالايكيين، وكانت هناك مدينتان: حملت إحداهما اسم هللينا[3]، والأخرى اسم أمفيلوخي[4]، لأنّ أمفيلوخ نفسه توفى

هنـاك، ولأن مرافقيـه في رحلـة التيـه توغلـوا إلى أعمـاق البـلاد. ويواصـل إسـكليبيادس روايته فيقول: ويروى أن بعضاً من مرافقـي هـرقـل، ومهـاجرين مـن ميسـينا قـد اسـتوطنوا في إيبيريـا. أمّـا بخصـوص كانتابريـا فبحسـب روايـة إسـكليبيادس وكتّـاب آخـرين، أن اللاكـونيين شـغلوا جـزءاً منهـا. ويـذكرون هنـا أيضـاً مدينـة أوبسـيكيلاّ الـتي أسّسـها أوكيلوس الـذي توجّـه إلى إيطاليـا مـع أنتينـور وأبنائـه. وفيمـا يخـصّ ليبيـا، فـإن بعضـهم يعتقد استناداً إلى روايات تجار غادير، كما يقول أرتيميدور، إن القبائـل الـتي تعيش في الجانـب الآخـر مـن ماوروسـيا، علـى مقربـة مـن الإثيـوبيين الغـربيين، تـدعى بالقبائـل اللوتوفاغيّة، لأنّ هـؤلاء يـأكلون اللوتـوس (نبـات مـا، وجـذر)، فـلا يحتـاجون في غضـون ذلـك إلى أن يشـربوا المـاء، أو لا يتـوفّر لـديهم بسـبب شـحّه، مـع أن بلادهـم تمتـدّ حتّـى المناطق الواقعة وراء قورينا. وهناك قبيلة أخرى تدعى قبيلة اللوتوفـاغيين، ويعـيش هـؤلاء في واحدة من الجزر الواقعة قبالة سرت الصغرى، وتحديداً في مينينغ.

4- ولـذلك فإنـه لـيس غريبـاً البتّـة إذا مـا أنشـأ الشّـاعر أسـطورة عـن ترحـال أوديسيوس على نحو جعل فيه القسم الأعظم مما رواه عن أوديسـيوس مـن قصـص تـدور أحداثه في البحر الأطلنطي وراء أعمدة هرقل، لأنّ القصص مرتبطة بالوقائع ذات الصلة بالأماكن كما أنها مرتبطة بـالقرائن الأخـرى الـتي ابتكـرتها مخيّلـة الشـاعر، ارتباطـاً وثيقاً جعله يجعل مما اختلقـه شيئاً يشبه الحقيقـة؛ ولـيس ثمّـة مـا يثير الاسـتغراب في أن بعض الناس صدّق هذه القصص نفسها وأقرّ بسعة علم الشاعر، فوضـع شـعر هـوميروس أساساً لأبحاثه العلمية، كما فعل كراتيت المالليوسي وبعض الآخـرين مـثلاً. ولكـنّ ثمّـة آخرون سلكوا سلوكاً معاكساً تماماً، فرفضوا مثل هـذه المحـاولات وأقصـوا الشّـاعر (كأنه فلاح بسيط أو حصّاد ساذج) عن ميدان العلم هـذا كلّـه، بـل ووصـموا كـلّ مـن نحا إلى حلّ مثل هذه المسائل العلمية، بالبلاهة. ولم يجـرؤ أيّ مـن علمـاء النحـو أو علمـاء التخصصات الأخرى أن يتصدى، أو يصـحح أو يقـوم بـأيّ فعـل مشـابه حيـال مـزاعم مثـل هؤلاء الناس. بيد أنه يهيّأ لي في أقلّ تقدير، أنه ليس ثمّة إمكانية للتصـدي فقـط، إنّمـا يمكـن أيضاً تصحيح كثير من مزاعم هـؤلاء، وعلـى وجـه الخصـوص كـلّ مـا ضـلّل بـه بيفيـوس النـاس الـذين بسـبب جهلـهم بالمنـاطق الغربيـة والشـرقية علـى امتـداد سـاحل المحيط، صدّقوه. لكنّنا نترك هذه المسألة. لأنها تتطلّب بحثاً خاصاً وطويلاً.

5- ويمكـن أن نـرى سـبب ترحـال الإغريـق بـين القبائـل البربريـة، في تبعثـر هـؤلاء إلى أجزاء صغيرة وملكيات مستقلّة تشتتت بسبب معانـدة بعضـها بعـض؛ ومـن هنـا جـاء عجزها عن مواجهة الوافدين مـن الخـارج. وقـد جمحـت روح المعانـدة هـذه عنـد الإيبيريين

على وجه الخصوص، لأنّ هذه القبيلة جمعت إلى العناد طبيعة الغدر والغطرسة. ومن نمط العيش هذا، اكتسب هؤلاء نزوعهم إلى غزو جيرانهم ونهب أرزاقهم؛ ولكنّهم لم يقدّموا إلاّ على عمليات هزيلة لا أهمية لها، لأنهم لم يحشدوا يوماً أي قوات كبيرة، ولم يشكّلوا اتحادات. وغني عن البيان القول إنهم لو نجحوا في توحيد قواهم وقاتلوا جنباً إلى جنب، لما استطاع القرطاجيون مهاجمهتم بقوات متفوّقة والسيطرة على الشطر الأكبر من بلادهم، وهذا ما كان قد فعله قبل القرطاجيين، التيريسيون، ثمّ السلتيون الذين يدعون الآن بالسلتيبريين، والفيرونيين؛ ثانياً، لما تجرّأ عليهم أيضاً قاطع الطرق، الأتامان فيرياف، ولاسرتوريوس بعد ذلك، عدّاك أن أشخاصاً آخرين كانوا يسعون إلى امتلاك سلطة أقوى. أمّا الرومان الذين خاضوا حروباً ضدّ أجزاء إيبيريا المبعثرة، وأخضعوها منطقة منطقة، فقد صرفوا زمناً طويلاً قبل أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على البلاد، لأنه كان عليهم أن يخضعوا هذه القبائل، ثمّ تلك، وهكذا إلى أن نجحوا بعد ما يقارب المائتي عام أو أكثر من إخضاعها كلّها. بيد أنني أعود إلى وصف إيبيريا، الآن.

6- تأتي بعد أبديرا، قرطاجة الجديدة التي بناها هسدرو بعل خليفة باركا والد هنيبعل، وتعدّ هذه المدينة الأقوى بين مدن البلاد كلّها؛ فتحصيناتها جبّارة، ويحيط بها سور ممتاز، ولها ميناء، وبحيرة، ومناجم فضّة كنت قد تحدّثت عنها. وكما في الأماكن المجاورة، كذلك هنا تنتشر انتشاراً واسعاً ممالح الأسماك. وعلاوة على هذا تعدّ هذه المدينة محطّة مهمّة جدّاً لنقل البضائع الواردة من وراء البحر إلى سكّان المناطق الداخلية، ونقل سلع المناطق الداخلية إلى الخارج. وعند منتصف الطريق الساحلية من قرطاجة الجديدة إلى إيبير، يقع نهر سوكرون ومصبّه ومدينة تحمل اسم النهر نفسه. وينبع النهر من جبل مجاور لسلسلة الجبال الواقعة فوق ملقا والمناطق المحيطة بقرطاجة الجديدة؛ ويمكن عبور هذا النهر سيراً على الأقدام؛ ويجري سوكرون بموازاة إيبير تقريباً، وهو يبعد عن قرطاجة الجديدة أقل بقليل مما يبعد عن إيبير. وتقع بين سوكرون وقرطاجة الجديدة، غير بعيد عن النهر، ثلاث بلدات، هي مستعمرات المساليين. وأشهر هذه الأخيرة، هي بلدة هيميروسكوبيوس ومعبدها، معبد أرطميس الأفسسية الواقع على الرأس البحرية، والذي كان يحظى بقدر عظيم من التبجيل. وقد استخدم سرتوريوس هذا المعبد قاعدة لعملياته البحرية، لأنه يعدّ حصناً طبيعياً، ومكاناً ملائماً لأعمال القرصنة، ويظهر للبحارة من مسافة بعيدة. ويدعى هذا المعبد أيضاً، ديانوس، وهذه التسمية تماثل [التسمية الإغريقية] أرطميسوس، وتقع على

مقربة من المكان، مناجم حديد غنية، وهناك أيضاً جزيرتان صغيرتان هما بلانيسيوس وبلومباريوس، وفوقهما خور مياهه مالحة (امتداد محيطه 400 مرحلة). ثمّ تأتي عند قرطاجة الجديدة جزيرة هرقل التي يدعونها سكومبراريا، وهو اسم مشتق من اسم سكومبريوس؛ وهي سمكة يصيدونها هنا ويطهون من لحمها مرقاً ممتازاً. وتبعد هذه الجزيرة 24 مرحلة عن قرطاجة الجديدة. وإذا سرنا ثانية على الجهة الأخرى من سوكرون نحو مصبّ إيبير، فسوف نرى ساغونت التي أسّسها الزاكينثيون. وقد دمّر هنيبعل هذه المدينة ناقضاً بذلك الاتفاق مع الرومان، وهذا ما أشعل نار الحرب الثانية ضدّ القرطاجيين[5]. وعلى مقربة من ساغونت تقع مدن كيرسونيس، وأولياستر، وكارتاليا؛ وعند معبر إيبير تماماً تقع مستوطنة ديرتوسّا. وإذ يبتدئ إيبير في كانتابريا، يجري نحو الجنوب عبر سهل شاسع على موازاة جبال البيرينيه.

7- وبين منعطف إيبير نحو البحر وقمم البيرينيه، حيث أقيم نصب نصر بومبييوس، فإن المدينة الأولى، هي تارّاكون، ومع أنها لا تتوفّر على ميناء، إلاّ أنها واقعة على الخليج وتتمتّع بكثير من الميزات الأخرى، ولا يقلّ عدد سكّانها الآن عن عدد سكّان قرطاجة الجديدة. والحقيقة أن هذه المدينة توفّر الأسباب الطبيعية الملائمة لإقامة الولاة، إذ تعدّ كأنها المدينة الرئيسة لا في البلاد الواقعة على هذا الجانب من إيبير فقط، إنّما في الشطر الأعظم من المنطقة الواقعة وراء إيبير أيضاً. وتستحق الذكر كذلك الجزر الهيمنيسية الواقعة أمام المدينة، وجزيرة إيبيس، وكل الجزر الأخرى، لأنها تشكّل عاملاً من عوامل الموقع الملائم للمدينة. وبحسب إيراتوسفين أن المدينة تتوفّر على مكلأ، ومع أن أرتميدور يعارضه زاعماً أن المدينة لم توفق في أن تكون حتّى محطة رسو.

8- والساحل من أعمدة هرقل حتّى تاراكون ساحل فقير بالموانئ، إلاّ أن القسم الثاني منه، من تارّاكون حتّى إيمبوريوس، فيه عدد من الموانئ الجيّدة، كما تتميّز أراضي البلاد بالخصوبة (أراضي الليتانيين، وأراضي اللارتوليتيين، وسواهم من الأقوام الأخرى). وقد تأسّست إيمبوريوس على أيدي الماسّاليين؛ وهي تقع على بعد 200 مرحلة من البيرينيه والحدود المشتركة بين إيبيريا وسلتيا؛ وهذا الساحل كلّه ساحل خصب، وفيه مرافئ جيّدة. فهنا تقع رودوس، وهي بلدة للإيمبورسيين، مع أن بعضهم يقول، إن الرودوسيين هم الذين أسّسوها. وفي رودوس، كما في إيمبوريوس، يعبدون أرطميس الإفسسية؛ وسوف أتحدّث عن سبب هذا في روايتي عن ماساليا. لقد كان الإيمبورسيون يعيشون من قبل في جزيرة تقع في الجهة المقابلة، وهي نفسها الجزيرة التي

تدعى الآن المدينة القديمة، لكنّهم يعيشون الآن في القارّة. وهذه المدينة مدينة مزدوجة، لأنّ سوراً يقسمها إلى نصفين؛ وفي الأزمنة السابقة كان جيران المدينة قوم ما يدعون الإينديكيتيين، وعلى الرغم من أنه كانت لهؤلاء دولتهم، إلاّ أنهم أرادوا بدافع أمني، أن يكون لهم سور دفاعي مشترك مع الإغريق، له سياجان، لأنّ المدينة مقسومة بسور يمرّ عبر مركزها. ومع مرور الزمن اندغم الشعبان في مشاعة واحدة لها نظام دولة واحد كان عبارة عن خليط من معايير بربرية وإغريقية، وهذا ما كان حاضراً أيضاً لدى كثير من القبائل الأخرى.

9- ويجري على مقربة هنا نهر[6] ينبع من البيرينيه؛ ويستخدم الإيمبورسيون مصبّه ميناء لهم. ويشتهر الإيمبورسيون بمهارتهم في تصنيع المنسوجات الكتانية. ويشغل هؤلاء منطقة في داخل البلاد، قسم منها خصيب، بينما ينبت القسم الآخر منها شجيرات قرنية أو أنواعاً أخرى من قصب المستنقعات الذي لا فائدة منه. ويدعى هذا القسم من البلاد بالسهل اليونكاري[7]. وثمّة من الإيمبورسيين من يسكن مرتفعات البيرينيه وصولاً إلى نصب انتصار بومبييوس، الذي تمرّ عبره الطريق من إيطاليا إلى ما يسمّى إيبيريا الخارجية، ثمّ إلى بيتيكا. وتقترب هذه الطريق من البحر تارة، وتبتعد عنه تارة أخرى، خاصة في المناطق الغربية. فهي تسير إلى تاراكون من نصب انتصار بومبييوس، عبر السهل اليونكاري، وفيتيري، وما يدعى باللغة اللاتينية «سهل الشمرة»[8]، لأنّ كثيراً منها ينبت هناك. ومن تاراكون تسير الطريق إلى معبر نهر إيبير عند مدينة ديرتوسّا؛ ومن هناك عبر ساغونت ومدينة سيتابيوس تنعطف مبتعدة قليلاً عن البحر لتلامس السهل المسمّى السهل السبارتاري أو «القصبي»[9]. وهذا السهل سهل شاسع خال من المياه، ينبت فيه مختلف أنواع الشجيرات القرنية التي تصلح لصنع الحبال وتصدّر هذه المادّة إلى شتّى البلدان، خاصة إيطاليا. وفيما مضى كانت هذه الطريق تمرّ في وسط هذا السهل وعبر إيجيلاستي، وهي طريق مضنية وطويلة، أمّا الآن فقد شقّوها على مقربة من المناطق الساحلية، بحيث لا تلامس سوى السهل «القصبي»، مع أنها تمتدّ في المكان نفسه الذي كانت تمتدّ فيه الطريق السابقة، أي في المنطقة الواقعة على مقربة من كاستالون وأوبولكون؛ وعبر هاتين المدينتين تسير الطريق إلى كوردوبا وغادير، وهي أكبر مركز تجاري في البلاد. والمسافة من كوردوبا إلى أبولكون حوالي 300 مرحلة. ويروي المؤرّخون أن قيصر وصل من روما إلى أبولكون وأقام في المعسكر القائم هناك 27 يوماً، عندما كان يستعدّ لمعركة موندا[10].

10- تلك هي السمات التي يتميّز بها الساحل الممتدّ من أعمدة هرقل حتّى

الحدود المشتركة بين إيبيريا وسلتيا. أمّا المنطقة الداخلية التي تشرف على الساحل، أي البلاد الواقعة بين جبال البيرينيه والجهة الشمالية من إيبيريا وصولاً إلى أستوريا، فتحدّها سلسلتان جبليتان. إحدى هاتين السلسلتين تمتدّ على موازاة البيرينيه، وهي تبدأ من كانتابريا، وتنتهي عند بحرنا (وتدعى هذه السلسلة الجبلية باسم إيدوبيدا)؛ أمّا السلسلة الثانية فتبدأ من منتصف الثانية وتمتدّ غرباً، مع أنها تنعطف في بعض الأماكن جنوباً ونحو الشاطئ الذي يبدأ من أعمدة هرقل. وهذه السلسلة الأخيرة هي في بدايتها عبارة عن هضبة جرداء؛ وهي تمرّ عبر السهل السبارتاري، ثمّ تتّصل بالغابة المطلّة على قرطاجة الجديدة والمناطق المحيطة بملقّا؛ وتحمل هذه السلسلة اسم، جبال أوروسبيدا. وبين البيرينيه وإيدوبيدا، وبموازاة السلسلتين، يجري نهر إيبير الذي ترفده الأنهار المنحدرة من هذه الجبال، ومياه الينابيع الأخرى. وتقع على نهر إيبير مدينة تدعى قيصر أغسطس، وتقع هناك أيضاً كيلسا، وهي مستعمرة لها على النهر معبر هو عبارة عن جسر حجريّ. ويسكن في هذه البلاد كثير من الأقوام، لكنّ أشهرها قبيلة الياكيتانيين. وتبدأ منطقة هؤلاء عند سفوح البيرينيه، ثمّ تتّسع في سهل يتّصل مع المناطق المحيطة بإيليردا وأوسكا، أي المناطق التابعة للإيليرجيتيين والواقعة غير بعيد عن إيبير. وعند هاتين المدينتين، ثمّ عند كالاغوريا، مدينة الفاسكونيين، وعند تاراكون هيميرسكوبيا على الساحل، خاض سرتوريوس آخر معاركه بعد أن طُرد من سلتيبيريا؛ وفي أوسكا كانت نهايته[11]. وعند إيليردا، وأفرانيوس، وبيتريوس ألحق قيصر الإلهي الهزيمة بقادة جيوش بومبييوس[12]. وتبعد إيليردا عن إيبير 160 مرحلة إذا ما مشينا تقريباً نحو الغرب؛ وتبعد عن تاراكون جنوباً حوالي 460 مرحلة؛ وعن أوسكا شمالاً 540 مرحلة. وتمتدّ عبر هذه المناطق طريق من تاراكون إلى أقصى أطراف أراضي الفاسكونيين على المحيط، ويعيش هؤلاء عند بومبيلون وعلى مقربة من مدينة ياسون (على المحيط مباشرة)، ويبلغ امتداد هذه الطريق 2400 مرحلة، حتّى حدود أكويتانيا وإيبيريا مباشرة. وياكيتانيا بلاد لم يقاتل فيها سرتوريوس بومبييوس وحسب، بل قاتل فيها أيضاً، سيكست ابن بومبييوس، قادة قوات قيصر[13]. وتعيش إلى الشمال من ياكيتانيا قبيلة الفاسكوفيين الذين عندهم مدينة بومبيلون، أو إذا صح القول، بومبيوبوليس.

11- إن الجانب الإيبيري من البيرينيه مكسوّ بغابات من شتّى الأنواع، ونباتات دائمة الخضرة؛ أمّا جانبها السلتي فهو خال أجرد، مع أن أجزاءه الداخلية تضمّ وديانا يمكن أن تعيش فيها أعداد كبيرة من السكّان. ويسكن هذه الوديان القسم الأكبر

من كيريتانيي القبيلة الإيبيرية؛ ويصنع هؤلاء من لحم الخنزير قديداً ممتازاً، ليس أقلّ جودة من قديد الكانتابريين، ويوفّر هذا لهم وارداً لا بأس به.

12- وما إن نتجاوز جبل إيدوبيدا حتّى ندخل مباشرة في سلتيبيريا، وهي بلاد مترامية الأطراف وغير متماثلة. فالقسم الأكبر من أراضيها سطحه غير مستو وتجاوره الأنهار، فعبر هذه المنطقة يجري نهر آنا، ونهر تاغ، وكثرة من الأنهار الأخرى التي تليهما والتي تنبع من سلتيبيريا ثمّ تتّجه نحو البحر الغربي. ومن هذه الأنهار نهر دوريوس الذي يجري على مقربة من نومانسيا وسرغونتيا، أمّا نهر بيتيوس فينبع من أوروسبيدا، ويجري عبر أوريتانيا وبيتيكا. وإلى الشمال من الستيبيريين يعيش الفيرونيون، وهم جيران الكونيسكيين الكانتابريين؛ وينتمي هؤلاء من حيث منشؤهم إلى [زمن] الهجرة السلتية[14]؛ مدينتهم هي مدينة فاراي الواقعة عند معبر نهر إيبير؛ ومنطقتهم مجاورة للبردييتيين الذين يدعوهم معاصرونا بالبردوليين. وعلى الجانب الغربي يقطن فريق من الأستوريين، والكالايكيين، والفاكيين، والفيتونيين، والكاربيتانيين. ويقطن الجانب الجنوبي الأوريتانيون، وباقي القبائل الأخرى، من باستيتانيين وإيديتانيين، الذين يعيشون على جبل أوروسبيدا. وفي الشرق يقع جبل إيدوبيدا.

13- بين القبائل السلتيبيرية الأربع، يعدّ الأرفاكيون القبيلة الأقوى؛ ويعيش هؤلاء في الشرق والجنوب في مناطق تجاور كاربيتانيا ومنابع تاغ؛ وأروع مدنهم كلّها مدينة نومانسيا. وقد أبدى هؤلاء بسالة كبيرة في حرب السلتيبيريين التي تواصلت عشرين عاماً ضدّ الرومان؛ فقد أبادوا خلالها كثيراً من الجيوش الرومانية مع قادتها، كما استطاع النومانتينيون أن يصمدوا بصلابة أمام الحصار الذي ضربه الرومان على مدينتهم، لكنّ قلة استسلمت وسلّمت قلاعها للأعداء. ويعيش اللوسونيون في الشرق أيضاً، ومنطقتهم تجاور منابع نهر تاغ. وللأرفاكيين مدينتا سيغيدا، وبالآنتيا. وتقع نومانسيا على بعد 800 مرحلة من قيصر أغسطس (التي تقع، كما أسلفت، على نهر إيبير). ومدينتا سيغوبريغا وبيلبيليس مدينتان سلتيبيريتان، وعند هاتين المدينتين دارت رحى حرب ميتيللوس ضدّ سرتوريوس. وفي حديثه عن قبائل الفاكيين والستيبيريين ومناطقهم، ضمّ بوليبيوس إلى بقايا المدن، مدينتيّ سيغيساما وإينتيركاتيا. وبحسب بوسيدونيوس أن ماركوس مارسيللوس جمع من السلتيبيريين غرامة حربية قدرها 600 تالانت، وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن السلتيبيريين كانوا أغنياء، وأن أعدادهم كانت كبيرة، مع أنهم كانوا يقطنون بلاداً ليست خصبة. وزعم بوليبيوس أن طيباريوس غراكوس دمّر 300 مدينة سلتيبيرية، وقد لاحظ بوسيدونيوس في معرض

سخريته منه، أن بوليبيوس لا يروي هذا إلاّ لكي يتملّق غراكوس؛ لأنه عدّ البروج مدناً (كما يحصل في مهرجانات النصر). وقد لا تكون ملاحظة بوسيدونيوس هذه من غير أساس؛ فواقع الأمر هو أنه حتّى المؤرّخون وليس القادة العسكريون وحدهم، يولعون بمثل هذا التزييف، إذ يرمون إلى تزيين وصف المآثر. والحقيقة أنه حتّى أولئك الذين يزعمون أن في إيبيريا أكثر من ألف مدينة، يميلون بدورهم إلى مثل هذا النوع من المبالغات، عندما يسمّون المستوطنات الكبيرة مدناً. فالبلاد نفسها من حيث خاصياتها الجغرافية عاجزة عن استيعاب عدد كبير من المدن: من حيث فقر تربتها أو بسبب بعدها أو توحّشها؛ ولا يجيز لنا نمط عيش السكّان ونشاطهم الاقتصادي (ما عدا أولئك الذين يعيشون على شواطئ بحرنا)، أن نفترض أي شيء من هذا؛ فسكّان الأرياف يتميّزون بالتوحّش (وأكثر الإيبيريين من هؤلاء)، بل حتّى المدن ليست في وضع يسمح لها بأن تجعل سكّانها يتلاءمون مع الحضارة بسهولة، إذا ما كان سكّان الغابات هناك يشكّلون الأكثرية، الأمر الذي يشكّل مصدر أذى لجيرانهم [لمواطنيهم].

14- وبعد السلتيبيريين يأتي في الجنوب سكّان جبل أوروسبيدا، والبلدان الواقعة حول نهر سوكرون، أي الإيديتانيون (تمتدّ حدودهم حتّى قرطاجة الجديدة)، ثمّ يأتي الباستيتانيون، والأوريتانيون على مدى يصل إلى ملقّا تقريباً.

15- لقد كان الإيبيريون كلّهم بيلتاستيين[15]، إذا صحّ التعبير، فقد كانوا يحملون أسلحة خفيفة تتلاءم وحياة قطاع الطرق (وهو ما كنت قد قلته عن اللوسيتانيين)[16]، فلم يستخدموا سوى المزاريق، والمقاليع، والخناجر. وخالطت قوّات المشاة عندهم قوّات من الفرسان، لأنّ الخيل عندهم كانت مدرّبة على السير في الجبال وسرعان ما تثني ركبها عندما تتلقّى الأمر بذلك. ويسرح في إيبيريا كثير من الغزلان والخيل البرّية. وثمّة في بعض الأماكن بحيرات مليئة بالأحياء المائية؛ وهناك أيضاً طيور، وبجع، وما شابه من أنواع الطير، وكذلك أعداد كبيرة من الحبارى؛ وتعيش في أنهارهم كلاب الماء، بيد أن أسراب كلاب النهر عندهم ليس لها فاعلية مثيلتها البانتية؛ فأسراب كلاب البحر البانتية لها خاصيات علاجية، ككثير من المواد الأخرى. فبحسب بوسيدونيوس أن النحاس القبرصي مثلاً، وحده الذي يعطي الغالميوس[17]، والزّاج، والمسحوق المعدني. ويذكر بوسيدونيوس من بين ما يراه من سمات إيبيريا الأخرى وحدها، أن الغربان هناك ليست سوداء اللون، وأن خيل السلتيبيريين البلقاء قليلاً، تبدّل لونها إذا ما خرجت إلى إيبيريا الخارجية. ثمّ يضيف، أن الخيل السلتيبيرية تشبه الخيل البارثية، لأنها أكثر سرعة وأكثر قدرة على التحمّل.

16- وإيبيريا غنية بالجذور التي تصنع منها الأصبغة. أمّا الزيتون، وكروم العنب، والتين وما إلى ذلك من النباتات، فالساحل الإيبيري من بحرنا غني جدّاً بها، وكذلك الأمر بالنسبة لقسم مهمّ من الساحل الخارجي[18]. أمّا ساحل المحيط في الشمال، فهو يفتقر إلى هذا الشجر المثمر بسبب شدّة البرد، ويفتقر إليها ما تبقى منه، في الغالب بسبب تكاسل السكّان ولأنهم لا يزالون حتّى الآن تحت سلطة عادات حمقاء، أي أنهم لا يسعون إلى نمط عيش عقلاني، بل لإشباع حاجاتهم الفيزيائية وغرائزهم الحيوانية، إلاّ إذا كنت ترى أن أولئك الذين يغتسلون، ويغسلون أسنانهم بالبول الذي يجمعونه في خزّانات خاصة (وهذا ما تفعله نساؤهم أيضاً)، يعيشون نمط عيش عقلاني، فبحسب الرواية[19]، أن الكانتابريين وجيرانهم يفعلون هذا بالضبط. وهذه العادة وكذلك عادة النوم على الأرض، تعدّان عادتين مشتركتين لدى الإيبيريين والسلتيين. وبحسب روايات بعضهم أن الكالايكيين لا يعترفون بوجود أيّ آلهة، أمّا السلتيبيريون وجيرانهم في الشمال، فإنهم يقدّمون القرابين لإله مجهول الاسم، وهم يفعلون ذلك ليلاً عند انتصاف القمر أمام أبواب منازلهم، ويؤلّفون من البيت كلّه جوقة واحدة تنشد طول الليل. وعندما جاء الفيتونيون أوّل مرّة إلى المعسكر الروماني، ورأوا بعض الجنود يروحون ويغدون بغرض التنزّه فقط، حسبوا أنهم مجانين وشرعوا يرشدونهم إلى طريق الخيم، ظنّاً منهم أنه ينبغي على هؤلاء إمّا أن يجلسوا ساكنين أو أن يقاتلوا.

17- ويمكننا استناداً إلى وصف أرتيميدور، أن نصف زينة بعض النسوة بالزينة البربرية. فبحسب قوله، إن النسوة في بعض الأماكن يعلّقن في أعناقهن حلياً حديدية ذات خطاطيف مثنية فوق الرأس وتبرز بعيداً أمام الجبين؛ ووقتما يردن ينزلن غطاء الوجه عن هذه الخطاطيف بحيث يشكّل في حالة تبعثره مظلّة للوجه، وتدعو النسوة هذا كلّه زينة. ثمّ يواصل أرتيميدور حديثه هذا فيقول: في أماكن أخرى تضع النساء على رؤوسهنّ تيمبانيوس[20] [قبعة] مستدير الشكل على القذال، ويلبس الرأس بإحكام حتّى شحمتيّ الأذنين، ويلتفّ إلى الوراء على أعلى الرأس والجانبين؛ أمّا النسوة الأخريات فإنهن ينزعن[21] شعر رؤوسهن عن الجزء الأمامي من الرأس فيبدو لامعاً أكثر من الجبين؛ ويضع بعضهن على الرأس عصاة ارتفاعها حوالي قدم، ويلففن شعرهن حولها، ثمّ يغطينه بغطاء أسود. ولكن إضافة إلى قصص حقيقية من هذا النوع، نقل الكتّاب عن القبائل الإيبيرية كلّها على وجه العموم، لكن عن القبائل الشمالية خاصة، مشاهدات وقصصاً أضافوا إليها إضافات خيالية (قصصاً عن شجاعة

هـؤلاء، وقسـاوة قلـوبهم، وبـلادة أحاسيسـهم[22] تجـاه المعانـاة والآلام). فمـثلاً، في أثنـاء الحرب الكانتابريّة[23] كانت الأمهات تقتلن أبناءهن قبل وقوعهم في الأسر؛ بل حتّى الغلام الصغير أذعن لأمر والده فأخذ سيفاً وقتل والديه وإخوته المكبلين بالأغلال؛ وقتلت امرأة أبناء جلدتها الأسرى؛ كما يروى عن كانتابريّ رمى بنفسه إلى النار المستعرة عندما دعوه إلى ثلّة من [الجنود] السكارى. وتشترك مع القبائل السلتية في هذه الطبائع، قبائل التراقيين والسكيثيين؛ وتنسحب السمات المشتركة على الإقدام والشجاعة، وتحديداً الشجاعة، شجاعة النساء والرجال على حدّ سواء. مثلاً، هؤلاء النسوة يحرثن الأرض، وبعد أن يضعن المواليد يرقدن أزواجهن بدلاً منهن ويعتنين بهم[24]؛ وليس نادراً أن تضع واحدتهن مولودها وهي تعمل في الحقل، فتتنحّى جانباً إلى ينبوع ماء ما، ثمّ تغسل الوليد وتلفه بالأقمطة. وبحسب بوسيدونيوس أن صديقه مارموليون الماسالي، الذي كان ينزل ضيفاً عليه في ليغوريا، روى له كيف اكترى رجالاً ونساء ليحفروا أرضه، وأن إحدى النساء جاءها مخاض الوضع فانتحت جانباً بعض الشيء عن مكان العمل، ووضعت مولودها؛ وقد رأى كارموليون بنفسه أن المرأة كانت تعمل وتعاني، لكنّه لم يفهم سبب ذلك في أوّل الأمر، ولمّا عرف قبيل آخر النهار بقليل ما حصل، أطلق المرأة من العمل بعد أن أدّى لها أجر يومها؛ فحملت المرأة مولودها إلى جدول الماء وغسلته، وقمّطته بما كان لديها ومضت إلى منزلها سليمة معافاة.

18- وليست العادة التالية من سمات الإيبيريين وحدهم: يمتطون الخيل اثنين اثنين، ولكن أثناء القتال أحدهما يقاتل راجلاً؛ وليست أسراب الفئران[25] التي لا عدّ لها، سمة من سمات إيبيريا وحدها (وهذا ما يثير بين وقت وآخر أمراضاً معدية). فقد وقع مثل هذا للرومان في كانتابريا. ومع أن من كان يصيد الفئران كان يتلقى مكافأة تتناسب وعدد الفئران التي يصيدها، مع ذلك بالكاد نجح الرومان في التخلّص منها؛ وعلاوة على هذه البلية، عانى هؤلاء من نقص في السلع التموينية والخبز؛ وبسبب سوء الطرقات عانى الرومان كثيراً قبل أن يتمكنوا من سدّ النقص من أكويتانيا. وفيما يتعلّق بلامبالاة الكانتابريين، يوردون المثال التالي: عدد من الأسرى الكانتابريين المعلّقين على الصلبان، أنشدوا أنشودة النصر. وغني عن البيان أن مثل هذه السمات في طبع الكانتابريين، يمكن أن تكون بدرجة ما، أمثلة على حالة الوحشية التي كان يعيشها هؤلاء؛ ولا تشهد الأمثلة الأخرى إلاّ بدرجة أقل على تحضّرهم، لكنّها لا تدلّ في أقلّ تقدير، على جلافة فظيعة؛ مثلاً، ثمّة عرف عند الكانتابريين يقضي بأن يقدّم الزوج مهراً لزوجته؛ وبناتهم هنّ ورثتهم شرعاً، والأخوات

هنّ اللواتي يزوّجن إخوتهن. وفي هذا شيء ما من سيادة النساء، الأمر الذي لا يعدّ أبداً علامة تحضّر. وثمّة عادة أخرى تعدّ إيبيرية بامتياز، وهي تقضي بالاحتفاظ دائماً، تحسباً لأي طارئ، بسمٍ لا يسبب ألماً يحضرونه من عشبة تشبه السيليريوس[26]؛ ثمّ من المتعارف عليه عندهم أن يكرّس الشخص حياته لمن ينسج معه أواصر الصداقة، وقد يضحّي أحدهم بحياته فعلاً في سبيل صديقه.

19- ومع أنهم يزعمون الآن أن هذه البلاد تنقسم إلى أربعة أقسام، كما أسلفت القول[27]، لكنّ آخرين يرون أنها تنقسم إلى خمسة أقسام. ولكنّ التقسيم الدقيق في هذه الحال، غير ممكن بسبب تقادم الزمن ولأن هذه الأماكن غير معروفة. ففي حال ما إذا كانت البلدان معروفة لنا، وذائعة الصيت، في هذه الحال فقط تكون معروفة لنا أيضاً حركة انتقال [القبائل]، وتقسيم البلاد، وتغيّر التسميات و... والحقيقة أن كثيرين قد صمّوا آذاننا بهذا، خاصة الإغريق، الشعب الأكثر ثرثرة في العالم. أمّا القبائل البربرية المعزولة في حدود معيّنة، والمشتتة[28]، فإن المعلومات عنها غير موثوق بها وشحيحة؛ وغنيّ عن البيان أن معرفتنا بكلّ القبائل التي تقطن بعيداً عن الإغريق، هي أقلّ بكثير. وعلى الرغم من أن المؤرّخين الرومان يقلّدون المؤرّخين الإغريق، إلاّ أنهم لا يذهبون بعيداً في تقليدهم هذا. فهم يترجمون أخبارهم من المصادر الإغريقية، بينما يظهرون هم أنفسهم ضعف ميلهم إلى العلم؛ ولذلك في كلّ مرّة يظهر فيها عند الإغريق نقص، تأتي إضافات الرومان غير ذات أهمية، خاصة وأن أكثر الأسماء الأكثر شهرة، هم من الإغريق. فالمؤرّخون السابقون مثلاً، يطلقون اسم إيبيريا[29] على كلّ البلاد الواقعة وراء رودان ووراء البرزخ المحصور بين خليجي غلاطيا، بينما يرى المؤرّخون المعاصرون أن البيرينيه هي حدود إيبيريا، ويدعون البلاد عينها باسمين مترادفين: إيبيريا وإسبانيا. بيد أنهم عادة ما لا يدعون إلاّ المنطقة الواقعة على هذا الجانب من الإيبير[30] باسم إيبيريا، مع أن المؤرّخين كانوا قد دعوا من قبل، سكّان هذه البلاد عينها بالإيغليتيين[31]، الذين شغلوا كما يقول أسكليبوس الميرليسي، منطقة غير كبيرة. وعلى الرغم من أن الرومان دعوا البلاد بالاسمين: إيبيريا وإسبانيا (دعوا أحد شطريها بذلك الجانب، وشطرها الآخر بهذا الجانب)، إلاّ أنهم في حقب مختلفة قسّموا البلاد على هذا النحو تارة، وذاك تارة أخرى، ملائمين إدارتها وشروط العصر[32].

20- وفي وقتنا هذا عندما أُعلن بعض الولايات ملكاً للشعب وللسينات[33]، وأُخضع بعضها الآخر للإمبراطور الروماني، فإن بيتيكا تعدّ ملكية للشعب الروماني، ويرسلون لإداراتها قاضياً ونائب قاض وممثلاً مقيماً؛ وحدّدوا حدودها الشرقية على مقربة من كاستالون. وما تبقى من إيبيريا كلّه ملك لقيصر؛ وهو يرسل إلى هناك

ممثليْن مقيميْن: قاضياً ونائب قنصل، ويرسلون نائب قاض ومعه ممثل مقيم لإدارة الشؤون القضائية عند اللوسيتانيين؛ فبلادهم مجاورة لبيتيكا، وتمتدّ حتّى نهر دوريوس ومصبّاته (ويطلق اسم لوسيتانيا الآن على هذه البلاد تحديداً). وتقع هنا مدينة أغسطس إيمريت. وما تبقّى من المنطقة التابعة لقيصر، أي الجزء الأكبر من إيبيريا، يديره والٍ [له سلطة قنصلية] تحت إمرته جيش كبير يعادل ثلاثة فيالق، إضافة إلى ثلاثة مبعوثين. أحد هؤلاء الأخيرين ومعه فيلقان، يحرس حدود البلاد كلّها في الشمال وراء دوريوس؛ وفي زمن مضى كان الناس يسمّون سكّان هذه البلاد لوسيتانيين؛ أمّا معاصرونا فيدعونهم كالايكيين. وتجاور هذه البلاد الجبال الشمالية مع الآستوريين والكانتابريين القاطنين هناك. ويجري عبر أستوريا نهر ميلس؛ وإلى الأمام قليلاً تقع عليه مدينة نيغا؛ وعلى مقربة منها يقع خور المحيط الذي يشكّل حدّاً بين [مناطق] الأستوريين والكانتابريين. والمنطقة التي تلي بعد ذلك على امتداد الجبال وصولاً إلى البيرينيه، يحرسها الثاني من المبعوثين الثلاثة ومعه الفيلق الآخر. أمّا المبعوث الثالث فمهمته مراقبة شؤون القسم الداخلي من البلاد، كما يدافع عن مصالح togati[34] الذين ذكرناهم آنفاً (بصفتهم أناساً مسالمين ينزعون نحو الحضارة، فقد اقتبسوا مع الزيّ الروماني ثقافة إيطاليا ونمط عيشها). وهؤلاء الأخيرون هم السلتيبيريون، والقبائل القاطنة على مقربة منهم على جانبي إيبير وصولاً حتّى المناطق الساحلية. وفيما يخصّ الوالي نفسه، فإنه يقضي الشتاء في المناطق الساحلية، ويرأس الجلسات القضائية، خاصة في قرطاجة الجديدة وتارّاكون؛ بينما يجول في الصيف على مختلف مناطق الولاية ليحدّد ما ينبغي تصحيحه. ويعيش هناك أيضاً وكلاء قيصر الذين ينتمون إلى فئة الفرسان، وهؤلاء هم الذين يصرفون الأموال للإنفاق على المقاتلين.

الفصل الخامس

1- ومن الجزر الواقعة أمام إيبيريا، جزيرتان بيتيوسيتان، وجزيرتان هيمنيستيتيان، ويدعونها أيضاً جزر البليار[1]، وهي واقعة كذلك أمام الساحل بين تارّاكون وسوكرون، حيث تقع ساغونت؛ وتقوم هذه الجزر كلّها في عرض البحر، مع أن الجزيرتين البيتيوسيتين تميلان[2] نحو الغرب أكثر من الجزيرتين الهيمنيستيتين. وتحمل إحداهما اسم إيبوس؛ وثمّة في هذه الجزيرة مدينة تحمل الاسم نفسه؛ ويبلغ امتداد محيط الجزيرة 400 مرحلة، وعرضها وطولها متساويان تقريباً. وتدعى الجزيرة الأخرى جزيرة أفيوسا، وهي تقع على مقربة من جزيرة إيبوس، لكنّها جزيرة خالية وحجمها أصغر بكثير من حجم إيبوس. وفي الجزيرة الهيمنستية الأكبر، مدينتان: بالما

وبولينتيا؛ وهذه الأخيرة تقع في الشطر الشرقي من الجزيرة، بينما تقع الأولى في شطرها الغربي. ويبلغ طول الجزيرة أقلّ من 600 مرحلة بقليل، وعرضها أقل من 200 مرحلة بقليل، لكنّ أرتيمدور يجعل طول الجزيرة وعرضها ضعف هذين الرقمين. وتبعد الجزيرة الصغرى عن بولينتيا ما يقارب 270 مرحلة. ومع أن حجم هذه الجزيرة أصغر بكثير من حجم الجزيرة الكبرى، لكنّها لا تقصّر عنها من حيث خصوبة التربة؛ فالجزيرتان تتميّزان بالخصوبة ولهما موانئ جيّدة، مع أن مداخل هذه الموانئ مليئة بالحجارة البحرية، الأمر الذي يقتضي الحذر الشديد لدى دخولها. ونتيجة لخصوبة هذه الأماكن، فإن سكّانها مسالمون أيضاً، كسكّان إيبوس. ولكنّ بما أن بعضهم، والحقيقة أنهم قلّة، عناصر إجرامية أقامت صلات مع قراصنة البحر، فقد اتهم جميعهم بالإجرام، وشنّ ميتيللوس ضدهم حملة[3] عسكرية بناء على طلب البلياريين (وهو الذي أسّس هذه المدن). وكانت خصوبة الجزيرتين هذه، سبباً لوقوع سكّانهما ضحية مقاصد عدوانية، مع أنهم كانوا أناساً مسالمين، ومع ذلك فإنهم يعدّون أفضل رماة المقاليع. ويروى أنهم أخذوا يتدرّبون على هذا الفن بدأب واجتهاد، منذ أن استولى الفينيقيون على جزيرتهم. ويقال، إن الفينيقيين أوّل من علّم هؤلاء ارتداء الجبّة ذات الحاشية العريضة، لكنّهم كانوا يقاتلون عادة من غير أن يشدّوا وسطهم بحزام، لكنّهم كانوا يلفّون يدهم بجلد ماعز[4]، أو يحملون مزراقاً محمّى بنار يحملونها باليد الأخرى؛ ونادراً ما يكون المزراق مزوّداً برأس حديدية صغيرة؛ وكانوا يحملون ثلاثة مقاليع ملفوقة حول الرأس، وكانت هذه تصنع من القصب ولها كفوف سوداء؛ وهذا النوع من القصب هو النوع الذي يجدلون منه الحبال؛ ويقول عنه فيليتوس في ملحمته «هيرمينييا»[5].

مسكين خيتون وملطّخ بالقاذورات،

تلتفّ حول وركه الناحل قطعة من قصب أسود،

وكأني به يتحدّث عن شخص محزّم بحبل من القصب. وقد يستخدم هؤلاء أيضاً مقاليع مجدولة من الشعر أو الأوتار؛ إحدى أنشوطتيها حبلها طويل، وتستخدم للرمي إلى مسافات بعيدة، والأخرى حبلها قصير، تستخدم للرمي إلى مسافات قصيرة، أمّا المقلاع الوسط فيستخدم للمسافات الوسط. ومنذ الطفولة يتمرّن هؤلاء على الرمي بالمقلاع، وقد وصل اهتمامهم بهذا الأمر إلى درجة أنهم كانوا يمنعون الخبز عن أطفالهم إلى أن يصيبوه بالمقلاع. ولذلك أمر ميتيللوس عندما اقتربت سفنه من هذه الجزر، بشد جلود على متونها لحمايتها من مقذوفات المقاليع. وكان هذا قد نقل إلى هذه الجزر 3000 مستعمر روماني جاء بهم من إيبيريا.

2- ويضاف إلى خصوبة التربة في الجزيرتين الهيمنيستيتين، ظرف ملائم آخر يتمثل في صعوبة العثور هناك على أيّ حيوان مؤذٍ. ويقولون إنه حتّى الأرنب هنا ليس محلّيّ المنشأ، إنّما انتشر في أعقاب نقل احدهم لذكر وأنثى الأرانب من البرّ المقابل؛ وفي بادئ الأمر تكاثر نسل الأرانب هنا إلى درجة أن الأرانب أخذت تخرّب المنازل والشجر إذ تحفر تحتها، الأمر الذي اضطر السكّان إلى طلب عون الرومان، كما ذكرت آنفاً[6]. وغني عن البيان القول، إن سهولة صيد الأرانب اليوم، لا تتيح لهذه الطريدة فرصة للانتشار وتحقيق الغلبة، فالفلاحون يجمعون محاصيل حقولهم بنجاح. وتقع هاتان الجزيرتان على هذا الجانب ممّا بات يسمّى بأعمدة هرقل.

3- وثمّة عند الأعمدة جزيرتان صغيرتان، إحداهما تدعى جزيرة هيرا؛ وهناك من يدعو الجزيرتين بالأعمدة أيضاً[7]. وعلى الجانب الآخر من أعمدة هرقل، تقع غادير. وفيما يتعلّق بغادير، أنا لم أقل سوى أنها تبعد حوالي 750 مرحلة عن كالبا، أي أنها تقع قرب مصبّ نهر بيتيوس، بيد أنه ثمّة عن هذه المدينة روايات أكثر مما عن المدن الأخرى. فيروون مثلاً، أنه يعيش هنا أناس يجهّزون سفناً تجارية كبيرة للإبحار في بحرنا، والبحر الخارجي كذلك؛ لكنّ هؤلاء لا يسكنون في جزيرة كبيرة، ولا يملكون جزءاً مهماً من البرّ مقابل الجزيرة، كما أنهم لا يملكون كثيراً من الجزر الأخرى، بل يعيشون أساساً في البحر، وقلّة منهم تبقى في الديار أو يقضون وقتهم في روما. ولا يقلّ عدد سكّان المدينة عن عدد سكّان أيّ مدينة أخرى، ما عدا روما. وعلى أي حال فقد سمعت، أن واحداً من إحصاءات زمننا هذا، كشف عن وجود 500 شخص من الفرسان الغاديتاتيين، ونحن لا نجد مثل هذا العدد في المدن الأخرى، بما فيها المدن الإيطالية، ما عدا مدينة باتافيا [8]. وعلى الرغم من أن أعداد الغاديتانيين كثيرة هذه الكثرة كلّها، إلا أنهم يشغلون جزيرة لا يزيد طولها على 100 مرحلة، ويصل عرضها في بعض الأماكن إلى مرحلة واحدة فقط. وفي بادئ الأمر عاش هؤلاء في مدينتهم الصغيرة، لكنّ بالْب الغاديتاني، الذي نال أوسمة الشرف[9]، أسّس لهم مدينة أخرى دعاها بالمدينة الجديدة؛ فدعو المدينة التي تشكّلت من شطرين، باسم ديديما[10]؛ مع أن امتداد محيطها لا يتعدّى 20 مرحلة، وعلى أيّ حال فإن الازدحام هناك ليس ملحوظاً تماماً. فالذين يقيمون فيها إقامة دائمة ليسوا كثرا ً لأنّ العدد الأكبر من الآخرين موجود في البحر، مع أن بعضهم يعيش على البر في الجهة المقابلة، خاصة على الجزيرة[11] الصغيرة الواقعة أمام غادير، لأنّ موقعها ملائم، وبما أنهم أعجبوا كثيراً بهذا الموقع، فقد جعلوا من الجزيرة ما يشبه المدينة التوأم لديديما. ومع ذلك فإن عدداً قليلاً نسبياً من السكّان يعيش في هذه الجزيرة الصغيرة أو في المدينة الميناء[12] التي

بناها لهم بالْب على الشاطئ المقابل من البرّ. وتقع مدينة غادير في الشطر الغربي من الجزيرة، ويجاورها على أطراف الجزيرة وعلى مقربة من الجزيرة الصغيرة، معبد كرونوس؛ أمّا معبد هرقل فإنه يقع في الجهة الأخرى المتجهة نحو الشرق، وبالضبط في المكان الذي تكاد الجزيرة أن تلامس فيه برّ القارّة، حيث ثمّة مضيق عرضه حوالي مرحلة واحدة. ويقال إن المعبد يبعد عن المدينة 12 ميلاً [رومانيا]، والعدد اثنا عشر هو عدد مآثر [هرقل]؛ ولكنّ المسافة في الحقيقة أكبر، فهي تساوي طول الجزيرة، وطول الجزيرة، هو امتدادها من الغرب إلى الشرق.

4- ويبدو أن ثيريكيدس قد قصد غادير[13] عندما تحدّث عن إيريثيا إلى حيث تنقل الأساطير مغامرات هيريون. بينما رأى آخرون في إيريثيا جزيرة تقع على مقربة من هذه المدينة، ويفصلها عنها مضيق عرضه مرحلة واحدة، أي أنهم أخذوا المراعي الخصبة بعين الحسبان (لأن حليب الأغنام التي ترعى هناك لا يطرح مصلاً). فلدى تحضير الجبنة يخلطون الحليب بكميات كبيرة من الماء، لأنّ نسبة الدسم فيه عالية جدّاً. وخلال 50 يوماً يمكن أن تختنق الحيوانات وتهلك إذا لم تفصد عروقها لإخراج قليل من الدماء منها. والأعشاب التي تقتات الحيوانات عليها أعشاب جافّة، لكنّها تجعلها سمينة جدّاً؛ ويفترض بعضهم أن هذه الحقيقة هي التي دفعت إلى إنشاء أسطورة قطعان هيريون. وهم يقطنون الشاطئ كلّه معاً[14].

5- في رواياتهم عن تأسيس غادير يذكر الغاديتانيون واحداً من الكهنة المتنبّئين الذي أعطي كما قالوا للتيريين؛ فقد أمر هذا بإرسال مستعمرين إلى أعمدة هرقل. وبحسب الرواية، أن البعثة وهي تستطلع المكان وصلت إلى مضيق عند كالبا، فظنّ أفرادها إن الرؤوس البحرية التي تشكّل المضيق، تقع خارج حدود المعمورة ووراء الحدود التي وصلت إليها حملة هرقل، ورأوا في هذه الرؤوس نفسها ما كان الكاهن قد دعاه الأعمدة؛ فنزلوا في مكان داخل[15] المضيق الضيّق، وعلى وجه التحديد، هناك حيث تقع الآن مدينة الإيكسيتانيين؛ فقدموا قرباناً، ولكن عندما تبيّن لهم أن القربان غير موفق، عادوا أدراجهم. فأُرسلت بعد وقت جماعة أخرى من المستعمرين توغّلوا إلى وراء حدود المضيق بحوالي 1500 مرحلة نحو الجزيرة المكرّسة لهرقل والواقعة على مقربة من مدينة أونوبا في إيبيريا؛ وإذ ظنّ هؤلاء أن الأعمدة تقع هنا على وجه التحديد، قدموا ذبيحة للإله، لكنّ هذه الذبيحة لم تكن موفّقة أيضاً، فعادوا أدراجهم إلى الديار. وأخيراً أسّس المستعمرون الذين تشكّلت منهم البعثة الثالثة، مدينة غادير، فقد بنوا معبداً في الشطر الشرقي من الجزيرة، وبنوا المدينة في شطرها الغربي. ولذلك يرى بعضهم أن رؤوس المضيق هي الأعمدة، ويرى آخرون أن غادير هي الأعمدة،

ولكنّ فريقاً ثالثاً يرى أن الأعمدة هي جبلا كالبا وأبيليك، وهو الجبل الليبي الذي يرتفع مقابل جبل كالبا، الذي يرى إيراتوسفين أنه يقع في ميتاغونيا، وهذه الأخيرة منطقة تشغلها قبائل رحّل؛ إلى أن اعترفوا في آخر المطاف بأن الأعمدة هي الجزيرتان الصغيرتان الواقعتان على مقربة من الجبلين (واحدة من الجزيرتين تدعى جزيرة هيرا). وإذ يأتي أرتيميدور على ذكر جزيرة هيرا ومعبدها، يزعم أن هذه الجزيرة جزيرة ما أخرى؛ بيد أنه لا يذكر جبل أبيليك، ولا قبيلة الميتاغونيين. وهناك أيضاً كتّاب ينقلون إلى هنا البلانكتس والسيمبليغادا عادّين هذه الصخور الأعمدة التي يدعوها بينداروس «بوابات غادير» (ويقرّ أنها أبعد نقطة وصل إليها هرقل). ويفترض ديكيارخ، وإيراتوسفين، وبوليبيوس وأكثر الكتّاب الإغريق، أن الأعمدة تقع في مكان ما على مقربة من المضيق. أمّا الإيبيريون والليبيون فإنهم على الضدّ من هذا يؤكّدون، أن الأعمدة تقع في غادير، لأنه ليس في الأماكن المجاورة للمضيق أيّ شيء يشبه الأعمدة، على حدّ قولهم. وعلى حدّ زعم آخرين، أن الأعمدة هي أعمدة برونزية ارتفاع واحدها 8 أذرع، وهي موجودة في معبد هرقل في غادير، وعليها نصّ يشير إلى النفقات التي أُنفقت على بناء المعبد. وإذ يزور البحارة المعبد والأعمدة في نهاية رحلتهم، ويقدّمون القربان لهرقل، كانوا يشرعون في استراحاتهم بنشر حكاية تقول، إن آخر الأرض والبحر هنا في هذا المكان. وعلى هذا النحو عينه يرى بوسيدونيوس أن هذه الحكاية هي الحكاية الأكثر مصداقية؛ لكنّه يرى في الكاهن المتنبّئ والبعثات الاستعمارية المتكررة إلى الأعمدة، مجرّد اختلاق فينيقي. وماذا يمكن أن يقال عن صحّة البعثات الاستعمارية أو بطلانها، عندما يكون هذا الرأي وذاك رأيين سخيفين؟ ومهما يكن من أمر، فإن نفي أن تكون الجزيرتان الصغيرتان، أو أن يكون الجبلان يشبهون الأعمدة، وأن البحث عند الأعمدة بالمعنى الدقيق للكلمة، عن أطراف المعمورة أو عن حملة هرقل، أن لهذا كلّه مغزى معيّن؛ فمن المعروف أنه كان ثمّة تقليد قديم يقضي بإقامة مثل هذا النوع من العلامات الحدودية. فسكّان ريغوس مثلاً، أقاموا عند الخليج[16] عموداً يشبه برجاً صغيراً؛ وأُقيم قبالة هذا العمود برج دعي برج بيلور[17]. وهناك أيضاً مذبحا الأخوين فيليني[18]، اللذين أقيما تقريباً في منتصف الطريق بين السرتين. وثمّة من يذكر عموداً أقامه في الأزمنة الغابرة على برزخ كورينثوس، أولئك الإيونيون الذين، بعد طردهم من البيلوبونيز، امتلكوا أتيكا وميغاريدا مع القبائل[19] التي استولت على البيلوبونيز؛ فقد كتبوا على جانب العمود من جهة ميغاريدا:

ليست هذه هي البيلوبونيز، بل إيونيا،

وكتبوا على الجانب الآخر: **هنا البيلوبونيز، وليس إيونيا**[20]

أما الإسكندر فمحاكاة لهرقل وديونيسيوس، بنى مذابح[21] حدّدت حدود حملته الهندية في أقصى المناطق التي بلغها في شرقي الهند. إن هذا التقليد موجود فعلاً.

6- وعلاوة على ذلك إنه من الطبيعي أن تتغيّر تسميات الأماكن بعد أن يدمّر الزمن العلامات الحدودية التي كانت قد أقيمت: فمذبحا الأخوين فيليني مثلاً، لم يعد لهما وجود الآن، أمّا المكان فقد حافظ على اسمه القديم. ويروى أن أعمدة هرقل أوديونيسيوس لا ترى في الهند، ومع ذلك عندما دعا المقدونيون أماكن معروفة أو دلّوا عليها، فإنهم لم يشتبهوا بوجود أعمدة هرقل هنا إلاّ في الأماكن التي وجدوا فيها علامات تشير إلى أحداث من قصة ديونيسيوس أو هرقل. ومما لا ريب فيه أن الأمر جرى هنا في غادير على هذا النحو عينه، فالوافدون الأوائل اشتبهوا بالعلامات الحدودية التي بنتها أيدي البشر، من مذابح، وبروج، وأعمدة، ووضعت في أماكن بارزة في أقصى الأطراف التي وصلوا إليها (وأبرز أماكن تعليم نهايات الأماكن وبداياتها، هي المضائق، والجبال الواقعة هناك، والجزر)[22]؛ وبعد أن اندثرت النصب التي أقامها البشر، أخذت الأماكن أسماءها، سواء كانت تلك جزراً صغيرة أو رؤوساً بحرية تشكّل مضيقاً، لأنه من الصعب أن نحدّد ما إذا كانت التسمية تخص جزيرة أو رأساً بحرية، لأنّ مصطلح «أعمدة» يتماشى مع الاثنتين. وأنا أقول «يتماشى» لأنّ الجزر والرؤوس المعنية موجودة في الأماكن التي تدل على حدود؛ ولذلك يدعى المضيق «ثغراً» لا لهذا المكان فقط، إنّما لأمكنة أخرى كثيرة، أي لدى دخوله فإن «الثغر» يدعى بداية، ولدى الخروج منه يدعى نهاية. وعلى هذا النحو فإن من السهل أن نرى في الجزر الصغيرة الواقعة عند الثغور، أعمدة؛ فهي تظهر في صورة شكل له ملامح دقيقة واضحة كعلامات؛ وعلى نحو مماثل يمكن تشبيه الأعمدة بالجبال الواقعة عند المضيق، لأنّ لها بروزاً كالأعمدة أو العلامات. وعليه لعلّ بينداروس كان محقّاً عندما تحدّث عن «بوابات غادير»، إذا ما كان قد تخيّل الأعمدة قائمة عند الثغر؛ فثغر المضيق يشبه البوابة. ولكنّ غادير لا تقع في مكان يشير إلى نهاية، بل تقع في مكان أقرب إلى وسط ساحل طويل يشكّل خليجاً. ولكنّني أرى أن إرجاع هذه الأعمدة القائمة في معبد هرقل، إلى أعمدة هرقل، أمر يفتقر إلى الأسس القوية. فعلى أغلب الظنّ أن شيوع اسم «أعمدة هرقل» هذا قد انتشر لأنّ هذا الاسم لم يستخدمه التجار أولاً، بل القادة العسكريون، وهذا ما حصل بالنسبة للأعمدة الهندية أيضاً؛ عدّاك عن هذا أن النقش[23] المذكور آنفاً يشهد ضدّ هذا الرأي، لأنه لا يتحدّث عن تكريس نموذج[24] تقدمة مقدّسة، بل يحتوي على سجل بالنفقات؛ وأعمدة هرقل كان ينبغي أن تكون نصباً يخلّد ذكرى مآثره هو، وليس نفقات الفينيقيين.

7- وبحسب بوليبيوس أنه ثمّة في هيراقليون[25]، أي في غادير، ينبوع ماء عذب يقود إليه منحدر من عدة درجات؛ ويُظهر هذا الينبوع خاصية تتناقض وتغيّر مستوى الماء في النهر، ففي أثناء المدّ تغور مياهه، ثمّ تعود لتملأ المكان في أثناء الجزر. ويقول بوليبيوس في تفسيره لهذه الظاهرة، إن الهواء الذي يندفع من أعماق الأرض إلى سطحها (إذا ما غمرتها المياه وقت المدّ البحري)، يتوقف عن الخروج، كما هو معتاد، وإذ يعود القهقرى، يغلق منافذ الينابيع فيحصل النقص في تدفّق الماء؛ وعندما يتحرّر السطح من المياه التي تغمره، فإن الهواء يعبر من جديد ويحرّر مسارب الينبوع فيسيل الماء ثانية ويملأ المجرى. أمّا أرتيميدور، فمع أنه يعارض بوليبيوس، إلاّ أنه يضيف بعض التفسير الخاص به لسبب الظاهرة المعنية، مستذكراً رأي المؤرّخ سيلانوس. ويهيّأ لي أنه لم يقل شيئاً يستحقّ الذكر، لأنه وسيلانوس، إذا جاز التعبير، جاهلان في هذه المسألة. ومع أن بوسيدونيوس يرى أن ما روي عن هذا باطل، إلاّ أنه يؤكّد أن في هيراقليون بئرين، والثالث في المدينة؛ وإذا ما أُخذ الماء من أصغر البئرين من غير توقّف، فإنه يجفّ في الحال، وإذا ما توقفت عن اغتراق الماء فإنه يمتلئ من جديد؛ أمّا البئر الأكبر فيمكن اغتراف الماء منه طول اليوم (مع أن منسوبه ينخفض طبعاً، مثله مثل أيّ بئر آخر)، وفي الليل يمتلئ من جديد إذا ما توقف اغتراف الماء منه؛ ولكن، بما أن وقت امتلاء البئر كثيراً ما يتزامن ووقت الجزر، فإن السكّان المحلّيين يتحدّثون من غير أيّ أسس، عن «حركة عكسية»[26] للينبوع. وغنيّ عن البيان أنه ليس بوسيدونيوس وحده الذي أكّد على أنهم يصدّقون هذه الحكاية، بل عرفت بها أنا كذلك، لأنهم يروونها دائماً كواحدة من المفارقات[27]. وسمعت أيضاً، أن هناك آباراً أخرى، إحداها في حدائق ضواحي المدينة، والأخرى في داخل المدينة، لكنّ رداءة نوعية مياهها جعلت السكّان يبنون كثيراً من الخزانات. بيد أنني لا أعرف ما إذا كان أيّ من هذه الآبار يبرهن على صحّة فرضية «حركتها المعكوسة». أمّا بخصوص الأسباب التي سيقت، إذا صحّ أن الأمر على هذا النحو فعلاً، فإنه ينبغي عندئذٍ أن نصنّف هذه المسألة في عداد المسائل الصعبة. فقد يكون الأمر حقّاً على النحو الذي ساقه بوليبيوس، وقد يكون أيضاً أن بعض عروق الينابيع التي تتغذى من الخارج، تضعف وترغم الماء على أن يجري خارج مجراه السابق نحو الينبوع (إن العروق تتغذى بالضرورة عندما تغمر موجة المدّ المكان). ولكن، إذا كانت ظاهرة المدّ والجزر شبيهة بالشهيق والزفير[28]، كما يقول أثينودوروس، فعندئذٍ قد يكون ثمّة مياه ما جارية تشقّ طريقها إلى سطح الأرض، عبر طرق واحدة طبعاً (وثغورها تحديداً هي التي ندعوها ينابيع وعيون ماء)؛ وتجري هذه المياه نحو البحر عبر طرق أخرى، أي أنها تزيد من ارتفاع مستوى مياه البحر[29] ومستوى

مياهها في الآن عينه (بحيث أنها تفيض)، وفي كلّ مرّة يحدث فيها ما يشبه الزفير، تترك هذه المياه مجراها المعتاد، ومن ثمّ تعود إليه في كلّ مرّة يتراجع البحر.

8- وأنا لا أفهم كيف أن بوسيدونيوس الذي يقدّم لنا الفينيقيين[30] أناساً أذكياء في الحالات الأخرى، ينسب إليهم في هذه الحال أمراً هو أقرب إلى السخافة منه إلى الفطنة. فالليل والنهار يقاسان بدوران الشمس التي تختفي تحت الأرض تارة وتسطع فوقها تارة أخرى. ولكنّ بوسيدونيوس يؤكّد أن حركة المحيط هي دورية كأطوار دورات الأجرام السماوية[31]؛ لأنها تجري تحت تأثير القمر وتمثل، أولاً، دوراً يومياً، ثانياً، دوراً شهرياً، ثالثاً، دوراً سنوياً. ففي كلّ مرّة، عندما يرتفع القمر فوق دائرة الأفق إلى علوّ علامة دائرة البروج[32]، يبدأ البحر يزخر ويتمدد فوق اليابسة بوضوح، طالما القمر على دائرة خطّ الزوال؛ لكن عندما يميل هذا الجرم السماوي نحو دائرة الأفق، يبدأ البحر بالتراجع رويداً رويداً إلى أن يرتفع القمر فوق نقطة المغيب على ارتفاع علامة دائرة البروج؛ ومن ثمّ يقيم البحر على هذا الوضع إلى أن يدنو القمر من نقطة المغيب، بل أكثر من ذلك، إلى أن يغور القمر أكثر تحت الأرض، ولا يعود ابتعاده عن دائرة الأفق بعلوّ علامة دائرة البروج؛ ثمّ يتمدّد البحر فوق اليابسة من جديد إلى أن يبلغ القمر دائرة خطّ الزوال تحت الأرض، فيبدأ بالتراجع مرّة أخرى إلى أن يقطع القمر طريق دورته نحو الشروق، ويغدو ابتعاده عن دائرة الأفق بعلوّ علامة دائرة البروج؛ ثمّ يبقى البحر هادئاً إلى أن يرتفع القمر من جديد إلى علوّ علامة دائرة البروج فيتمدّد مرّة أخرى فوق اليابسة. ويتابع بوسيدونيوس حديثه فيقول، إن هذا الدور، هو الدور اليومي. أمّا في الدور الشهري، فإن المدّ والجزر يبلغان أقصى قوتهما في طور التلاقي تقريباً[33]، ثمّ يتناقصان إلى أن يبزغ الهلال الجديد[34]؛ ثمّ يتزايدان ثانية إلى دور انتصاف القمر ليبدأ تراجعهما مرّة أخرى حتّى منتصف دور تناقص القمر[36]. أمّا بخصوص الدورات السنوية، فإن بوسيدونيوس يقول؛ إنه علم عنها من سكّان غادير الذين قالوا، إنّ المدّ والجزر يبلغان أوج قوتهما وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. ويستنتج بوسيدونيوس من هذا، أن ظاهرتي المدّ والجزر تدخلان دور الضعف ابتداء من وقت الانقلاب الشمسي المذكور حتّى وقت الاعتدال[37]، وأن قوتهما تتزايد حتّى وقت الانقلاب الشمسي الشتوي، ثمّ تدخلان دور الضعف الذي يستمرّ حتّى وقت الاعتدال الربيعي، وبعدها تزداد قوّتهما حتّى وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. ولكن إذا كانت أدوار المدّ والجزر هذه تتكرر كلّ نهار وليل، في الوقت الذي يتمدّد فيه البحر على اليابسة خلال هذين الوقتين مرتين ويتراجع عنها مرتين، بانتظام في النهار والليل، فكيف إذن يمكن أن يتزامن امتلاء الينبوع «غالباً» ووقت الجزر، ولا يحصل

اضمحلاله غالباً أيضاً، أو على الرغم من أنه يحصل غالباً، إلاّ أنه مع ذلك أقلّ تكراراً؟ أو حتّى لو كان على القدر نفسه من التكرار؟ ولكن هل يعقل ألاّ يكون سكّان غادير قادرين على ملاحظة مثل هذه الظاهرات اليومية، وأن يكونوا على الضدّ من هذا، قادرين على رصد الأدوار السنوية على أساس ما يحصل مرّة واحدة في العام؟ لكنّ بوسيدونيوس يصدّق سكّان غادير فعلاً، وهذا واضح من خلاصته التي يضيفها: ضعف هذه الظواهر وقوّتها يحصلان دورياً بين وقت انقلاب شمسي وآخر، وابتداء من هذا الأخير تلاحظ الحركة العكسية مرّة أخرى. بيد أن فرضية بوسيدونيوس الأخرى هذه فرضية منافية للعقل، خاصة لأنه على الرغم من أن سكّان غادير كانوا أناساً ذوي ملاحظة دقيقة، لكنّهم لم يلحظوا الظاهرات التي تحدث فعلاً، وصدّقوا ما لا يحدث[38].

9- ويخبرنا بوسيدونيوس أيضاً، أن سلوقس من منطقة البحر الأحمر يتحدّث عن شيء من عدم الانتظام أو الانتظام في هذه الظاهرات تبعاً لاختلاف علامات دائرة البروج، أي إذا كان القمر في علامات الاعتدال، فإن ظاهرة المدّ والجزر تحدث بانتظام، أمّا إذا كان في علامات الانقلاب الشمسي، فإنها تحدث بغير انتظام إن من حيث الكمّ أو من حيث السرعة، بينما تكون العلاقة[39] في كلّ من العلامات الأخرى متناسبة طرداً ودنوّ[40] القمر منها. ومع أنه يقول إنه قضى أياماً كثيرة في هيراقليون وغادير وقت الانقلاب الشمسي الصيفي إبان دور انتصاف القمر تقريباً، إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يتبيّن الفوارق السنوية في المدّ والجزر، بيد أنه لاحظ في إيليبا أثناء طور التلاقي تقريباً، وخلال هذا الشهر كلّه، حدوث تغيّرات مهمّة في ارتفاع مستوى المياه في نهر بيتيوس بعد المدّ، بالمقارنة مع التغيّرات السابقة عندما لم تكن المياه تغمر ضفّتيّ النهر حتّى إلى المنتصف؛ أمّا في تلك المرّة فقد فاضت المياه إلى درجة أن الجنود[41] كانوا يستقونها من مكان إقامتهم في إيليبا (وإيليبا هذه تقع على بعد حوالي 700 مرحلة عن البحر). ومع أن المياه في اثناء المدّ غمرت السهول الساحلية في داخل البلاد على امتداد 30 مرحلة[42]، وبلغت من العمق حدّاً أدّى إلى تشكّل الجزر، ومع ذلك فإن رأس أساسات معبد هيراقليون والحاجز القائم أمام ميناء غادير، لم تغمرهما المياه إلاّ أقلّ من 10 أذرع، على حدّ قول بوسيدونيوس الذي يؤكّد أنه قاس ارتفاع الماء بنفسه، وإذا ما أضفنا ضعف الكمية من هذا إلى الزيادات الإضافية التي تنشأ أحياناً، فإننا نستطيع أن نتخيّل عندئذٍ لوحة الظاهرات التي تثير في السهول مدّاً وجزراً مهولين. وعلى حدّ قول بوسيدونيوس، فإن نظام المدّ والجزر هذا ينسحب بالتأكيد على كلّ ساحل المحيط، بينما الظاهرة التي تحدث في نهر إيبير، كما يقول، هي ظاهرة «جديدة

وفريدة» بالنسبة لهذا النهر؛ فهو يفيض في بعض الأماكن في كلّ مرّة تهبّ فيها الريح الشمالية قويّة، بصرف النظر عن هطل الأمطار وذوبان الثلوج. وسبب ذلك هو بحيرة يجري النهر عبرها، فالرياح تسوق مياه البحيرة ومياه النهر معاً من البحيرة.

10- ويروي بوسيدونيوس عن شجرة[43] تنحني أغصانها نحو الأرض؛ وتعطي في أحيان كثيرة ورقاً على شكل السيف طول واحدتها ذراع وعرضها أربع أصابع. ويقول أيضاً، إنه ثمّة عند قرطاجة الجديدة شجرة[44] يصنعون من شوكها أليافاً؛ ويصنعون من هذه الألياف أجمل المنسوجات. وأنا بدوري أعرف شجرة[45] في مصر تشبه شجرة غادير هذه بانحناءة أغصانها، لكنّها لا تشبهها بأوراقها، كما أن شجرة مصر لا تطرح ثمراً. أمّا شجرة غادير فهي بحسب بوسيدونيوس، تطرح ثمراً. وفي قبدوقيا أيضاً يصنعون من الأشواك أقمشة؛ لكنّ الأشواك التي يصنعون منها الألياف هنا، لا تطرحها شجرة، بل نبات يفترش الأرض. ويتحدّثون عن تفصيل آخر يخصّ شجرة غادير: إذا كسرت غصناً منها، يسيل منه حليب، وإذا قطعت منها جذراً، يخرج منه سائل أحمر اللون. وهاأنذا قد تحدّثت عن غادير بما فيه الكفاية.

11- يبلغ عدد جزر الكاسيتيريس 10 جزر؛ وهي تقع قرب بعضها بعض في عرض البحر إلى الشمال من ميناء الأرتابريين. إحداها صحراوية خاوية، أمّا الأخرى فهي مسكونة بأناس يرتدون معاطف سوداء، وجبب طويلة تصل حتّى الكعب، ويحزمون صدورهم، ويتجوّلون حاملين عصياً، كما تفعل إلهات الانتقام في التراجيديات. ويعيش هؤلاء حياة بدوية، ويقتاتون على ما تعطيه قطعانهم. وعندهم مناجم قصدير ورصاص؛ وهم يبادلون بهذين المعدنين وجلود حيواناتهم، الأواني الفخارية، والملح، والمصنوعات النحاسية التي يحملها إليهم تجار البحر. وفي الأزمنة الماضية كان الفينيقيون وحدهم يديرون هذه العمليات التجارية من غادير، وكان هؤلاء قد نجحوا في إخفاء الطريق إلى هناك عن الآخرين. ولكن عندما انطلق الرومان يوماً يلاحقون قبطان إحدى السفن الفينيقية، لكي يعرفوا مواقع الموانئ التجارية، رسا هذا الأخير بسفينته في مكان ضحل، فأهلك بذلك ملاحقيه. أمّا هو فقد نجا عائماً على حطام سفينته المحطمة، فكافأته حكومة بلاده بخمسة أضعاف ثمن حمولة سفينته التي هلكت. ومع ذلك نجح الرومان في اكتشاف هذه الطريق البحرية بعد عدد من المحاولات. وبعد أن توجّه بوبليوس كراسوس إلى هناك ورأى أن المعادن تستخرج من عمق بسيط، والناس هناك مسالمون، أشاع الخبر من فوره لكلّ من يريد أن يدير معهم تجارة وراء البحر، مع أن هذا البحر أعرض من ذلك البحر، الذي يفصل بريطانيا عن القارّة. وفيما يتعلّق بإيبيريا والجزر الواقعة أمامها، قد قلت ما يكفي أيضاً.

الكتـاب الرابـع

الفصل الأول

1- وتأتي بعد ذلك من حيث الترتيب[1]، سلتيا التي وراء الألب[2]. وكنت قد وصفت[3] الملامح العامّة لتكوين هذه البلاد وحجمها؛ أمّا الآن فينبغي أن نتحدّث عنها بالتفصيل. فبعضهم مثلاً قسمها إلى 3 أقسام، ودعا سكّانها أكويتانيين، وبلجيكيين، وسلتيين[4]. وبحسب هؤلاء الكتّاب، أن الأكويتانيين لا يتميّزون بلغتهم فقط، إنّما ببنيتهم الجسدية أيضاً؛ فهم أشبه بالإيبيريين منهم بالغلاطيين؛ أمّا باقي السكّان فإنهم يذكروننا من حيث مظهرهم الخارجي بالغلاطيين، ومع أنهم لا يتحدّثون لغة واحدة، إلاّ أن لدى بعضهم سمات لغوية ضئيلة الشأن. وعلاوة على هذا فإن بناءهم السياسي ونمط عيشهم مختلفان بعض الشيء كذلك. وعلى هذا النحو دعا الكتّاب المذكورون قبيلتيّ سكّان البيرينيه اللتين يفصل بينهما جبل كيمين، أكويتانيين وسلتيين. ولكن، كما قيل آنفاً[5]، إن هذه السلتيا تحدّها من الغرب جبال البيرينيه التي يشاطئها البحر من الجانبين: البحر الداخلي والبحر الخارجي؛ ويحدّها من الشرق نهر الرين الذي يجري موازياً للبيرينيه؛ أمّا ما يخصّ الجهة الشمالية والجهة الجنوبية، فإن المحيط يطوّق البلاد من جهة الشمال (بدءاً من الأطراف الشمالية للبيرينيه)، حتّى مصبّ نهر الرين؛ ومن الجهة المقابلة يطوّقها البحر عند ماساليا، وناربون، وآلبا، ابتداء من ليغوريا حتّى منابع الرين. ويمتدّ جبل كيمين بزاوية قائمة حتّى البيرينيه، عابراً وسط السهول لينتهي عند مركز هذه السهول[6]، قرب لوغدون، ويقارب امتداده هذا 2000 مرحلة. وهكذا دعوا القبائل التي تشغل الشطر الشمالي من البيرينيه، ابتداء من بلاد كيمين حتّى المحيط- شطر منها على هذا الجانب من نهر غارومنا، دعوها بالقبائل الأكويتانية. ودعوا بالسلتيين القبائل التي تمتدّ أراضيها بالاتجاه الآخر حتّى البحر، على مقربة من ماساليا وناربون، وتلامس بعض جبال الألب؛

ودعوا الباقي من القبائل التي تقطن ساحل المحيط حتّى مصبّ الرين، وكذلك بعض القبائل التي تستوطن محيط الرين والألب، دعوها بالقبائل البلجيكية. وهذا ما قال به أيضاً قيصر الإلهي في «مذكراته»[7]. أمّا أغسطس قيصر فقد قسم سلتيا التي وراء الألب إلى 4 أقسام، وألحق السلتيين بمقاطعة ناربونيتيس، والأكويتانيين بالمقاطعة عينها، كما فعل قيصر، مع أنه ألحق بهم 14 قبيلة من القبائل التي تستوطن بين غارومنا ونهر الليغير؛ ثمّ قسم ما تبقى من البلاد إلى قسمين: ألحق قسماً بلوغدون حتّى مناطق الرين العليا[8]، وألحق القسم الآخر بأراضي البلجيكيين[9]. والجغرافي ملزم بأن يتحدّث عن الفوارق الفيزيائية والقبلية، إذا كانت تستحقّ الذكر؛ أمّا مختلف التقسيمات السياسية التي أجراها الحكّام (لأن هؤلاء يلائمون إدارة الدول مع الظروف الراهنة)، فإنه يكفي أن نعطي هنا لمحة عامّة عنها؛ بينما ينبغي ان يكرّس العرض العلمي للتقسيمات الأخرى.

2- هذه البلاد ترويها كلّها الأنهار: بعضها يجري من الألب، والأخرى من كيمين والبيرينيه؛ ويصبّ بعضها في المحيط، والأخرى في بحرنا. والمناطق التي تجري هذه الأنهار عبرها، أكثرها مناطق سهلية، ومرتفعات فيها قنوات صالحة للملاحة. وكانت الطبيعة نفسها قد شكّلت مجاري الأنهار، فجاءت متلائمة بعضها مع بعض بحيث يمكن نقل البضائع من بحر لآخر من غير صعوبات تذكر؛ فلا ينقلون البضائع هنا إلاّ لمسافات قصيرة، وبسهولة ويسر عبر السهول، لكنّ المسافة الأكبر من طريق النقل، بالأنهار: بعضها مع المجرى إلى فوق، وبعضها مع المجرى إلى تحت. ولرودان في هذا الميدان بعض التميّز، فروافده من مختلف الجهات، كما قلت آنفاً[10]، أضف إلى هذا أنه يتّصل ببحرنا الذي يعدّ أفضل من البحر الخارجي، كما أنه يجري عبر بلاد هي الأكثر خصوبة في هذا الجزء من العالم. فمقاطعة ناربونيتيس كلّها تنتج الثمار نفسها التي تنتجها إيطاليا. وعندما تتقدّم شمالاً، ونحو جبل كيمين، ترى كيف تنتهي بلاد كروم الزيتون والتين، لكنّ الثمار الأخرى لا تزال تنمو. والعنب في المناطق الشمالية الأبعد، هو الآخر ينضج بصعوبة. أمّا باقي البلاد كلّه، فإنه ينتج كميات كبيرة من الأقماح، والدخن، والبلوط، وشتّى أنواع القطعان، وهذه المساحات كلّها أراضي حراثة، ما عدا الأجزاء التي تعوق المستنقعات والأدغال استثمارها. ولكنّ الكثافة السكّانية في هذه الأماكن عالية أيضاً، إلا أن الفيض السكّاني هو السبب على أغلب تقدير[11] وليس دأب الناس واجتهادهم. وتتميّز النساء هنا بخصوبة عالية، وهن معيلات جيدات، على العكس من الرجال الذين أكثرهم مقاتلون، وليسوا

فلاحين. لكنّهم مرغمون الآن على ممارسة العمل الزراعي وترك السلاح. وأنا أقول هذا قاصداً سلتيا التي وراء الألب كلّها؛ وإنني أريد أن آخذ الآن كلّ قسم من أقسام هذه السلتيا الأربعة، وأتحدّث عنها كلّ على حدة، فأصف ملامحها العامّة. وأولها ناربونيتيس.

3- يشبه شكل هذه البلاد شكل متوازي الأضلاع تقريباً، لأنها محدّدة من جهة الغرب بجبال البيرينيه، ومن الشمال بجبل كيمين؛ ويشكّل جهتها الجنوبية البحر الواقع بين البيرينيه وماساليا، أمّا الجهة الشرقية فتشكّلها جزئياً جبال الألب، وكذلك المدى الفاصل المأخوذ على خطّ مستقيم مع الألب بين الألب وسفوح كيمين التي تمتدّ حتّى رودان لتشكّل زاوية قائمة مع خطّ الألب المستقيم المذكور. ويجاور الجهة الجنوبية مباشرة، ما عدا الشكل المذكور، الساحل الذي يلي، حيث يقطن الماساليون والسالي وصولاً إلى بلاد الليغوريين، إلى الأجزاء الواقعة على جانب إيطاليا ونهر فار. ويعد هذا النهر كما أشرت من قبل[12]، حدّاً بين ناربونيتيس وإيطاليا. وهو في الصيف نهر هزيل، لكنّه يتّسع في الشتاء إلى عرض 7 مراحل. ومن هذا النهر يمتدّ ساحل البحر حتّى معبد أفروديت البيرينيّة. ويشكّل هذا المعبد الحدّ الفاصل بين هذه المقاطعة - ناربونيتيس - والبلاد الإيبيرية، مع أن بعضهم يرى أن المكان الذي يقوم فيه نصب نصر بومبيوس، هو الحدّ الفاصل بين إيبيريا وسلتيا. والمسافة من هنا إلى ناربون 63 ميلاً رومانياً، ومن هنا إلى نيماوس 88، ومن نيماوس عبر أوغيرن وتاروسكون إلى ما يسمّى بالمياه السيكستية الدافئة[13] الواقعة على مقربة من ماساليا، 53، ومن هنا إلى أنتيبوليس ونهر فار 73؛ وعليه يكون الامتداد الكلّي للخطّ الساحلي 277 ميلاً. لكنّ بعضهم كتب إن المسافة من معبد أفروديت حتّى نهر فار تساوي 2600 مرحلة، وأضاف بعضهم الآخر 200 مرحلة أخرى، لأنه ثمّة اختلاف في نسبة المسافات. ففي الاتجاه الآخر، عبر منطقة الفوكونتيين وكوتيوس، من نيماوس حتّى أوغيرن وتاروسكون، الطريق هي هي، لكنّها تمتدّ من هناك عبر نهر دروينسيا وعبر كاباليون 63 ميلاً حتّى حدود الفوكونتيين وبداية العبور عبر الألب؛ ومن هنا حتّى قرية إيبرودون 99 ميلاً؛ ثمّ 99 ميلاً أخرى عبر قرية بريغانتيوس وقرية سكينغوماغ ومعابر الألب حتّى أوكيل، وهي النقطة الحدودية لمنطقة كوتيوس. وابتداء من سكينغوماغ تدعى البلاد إيطاليا؛ والمسافة من هنا حتّى أوكيل 28 ميلاً.

4- لقد تأسّست ماساليا على أيدي الثوكيين، وهي تقع في منطقة صخرية. فميناؤها يقوم عند قدمي صخرة لها شكل المسرح يتّجه نحو الجنوب. والصخرة نفسها

والمدينة كلّها، محصّنتان تحصيناً قوياً، على الرغم من حجم المدينة الكبير. ويقوم على الرأس البحرية هنا الإيفيسيوس، وكذلك معبد أبوللون الدلفي. ويعدّ هذا الأخير معبداً مشتركاً لدى الإيونيين كلّهم، بينما يعدّ الإيفيسيوس معبداً مكرّساً لأرطميس الأفسسية فقط: يروى أنه عندما أبحر الثوكيون من موطنهم الأم، تلقوا نبوءة تأمرهم بأن يأخذوا لهم دليلاً من أرطميس الأفسسية. فنزل بعضهم في أفسس لكي يستعلم عن كيفية الحصول من الإلهة على ما تنبّأ لهم به الكاهن المتنبّئ. ويقال، إن الإلهة ظهرت في الحلم لأريستارخا، وهي واحدة من أكثر النسوة وقاراً في المدينة، وأمرتها أن تبحر مع الثوكيين وتحمل معها نسخة من رسم الإلهة، كانت موجودة بين باقي المقدّسات؛ وبعد أن تحقّق هذا، وإذ باتت المستعمرة جاهزة، لم يكتف الثوكيون ببناء معبد لأرطميس وحسب، بل قدموا الأريستارخا أسمى آيات التبجيل وعيّنوها كاهنة؛ وبعد ذلك أخذ سكّان المدن المستعمرات الثوكيون، يبجلون هذه الإلهة في كلّ مكان أمام جميعهم، ويحتفظون باكسوانون[14] وفق النموذج عينه، ويحافظون على العادات الأخرى كلّها كما كانت قائمة في الميتروبوليا.

5- يتمسّك الماساليون بنمط إداريّ أرستقراطيّ يلتزم التزاماً صارماً بالقوانين. وقد أنشؤوا مجلساً من 600 شخصية تشغل هذا المنصب مدى الحياة؛ ودعي هؤلاء «تيموخي»[15]. وتقف على رأس هذا المجلس 15 شخصية من بين التيموخي؛ وقد فوّض هؤلاء بالسلطة التنفيذية لإدارة الشؤون اليومية. وكان ثمّة ثلاث شخصيات تتمتّع بالسلطة العليا وترأس هؤلاء الخمسة عشر. ولكنّ أيّاً من هؤلاء لا يحقّ له أن يكون تيموخاً إذا لم يكن قد أنجب، أو لم يكن ينتمي إلى عائلة تتمتّع بحقوق المواطنية على مدى ثلاثة أجيال. وقوانينهم إيونية، وهي علنية بأمر من الدولة. ومع أن الأراضي التي يملكونها مزروعة بشجر الزيتون وكروم العنب، إلاّ أنها فقيرة بالأقماح بسبب عدم استواء سطحها؛ ولذلك منح الماساليون ثقتهم للبحر أكثر من اليابسة، ففضّلوا استخدام مواهبهم الفطرية لأعمال الملاحة. وفيما بعد مكّنتهم بسالتهم من الاستيلاء على عدد من السهول المجاورة، وبفضل هذه القوة القتالية عينها أسّسو مدنهم، وأنا أقصد هنا إلى مدنهم المحصّنة[16] التي بنوها في إيبيريا لمواجهة الإيبيريين. وعلّم الماساليون الإيبيريين عبادتهم الوطنية، عبادة أرطميس الإفسسية، حيث بات هؤلاء يقدّمون قرابينهم بحسب الطقس الإغريقي. وأسّسوا كذلك رويه أغاثا، وهو حصن [للدفاع] ضدّ البرابرة الذين يقطنون حول نهر رودان. وبنوا تافروينتيوس، وأولبيا، وانتيبوليس، ونيقيا بهدف الدفاع ضدّ قبيلة الساليين، وقبيلة الليغوريين اللتين تقطنان الألب. وعند الماساليين دار لبناء السفن وترسانة لإصلاحها. فقد كانت لديهم في الأزمنة

الماضية أعداد كبيرة من السفن، والأسلحة، والأدوات الصالحة لأعمال الملاحة، كما كانت عندهم أيضاً آلات لحصار المدن والقلاع؛ وبمساعدة هذا كلّه استطاعوا أن يواجهوا ضغوط البرابرة، ويكسبوا صداقة الرومان؛ ففي حالات كثيرة قدموا للرومان خدمات مهمّة، كما ساند الرومان جهودهم أيضاً. وعلى أيّ حال، بعد أن أخضع سيكستوس الساليين، وبنى غير بعيد عن ماساليا مدينة[17] دعاها باسمه و«بالمياه الدافئة» (يقال إن بعضها تحوّل إلى مياه باردة)، لم يكتف بإسكان حامية رومانية هناك، إنّما طرد البرابرة من الساحل البحري الذي يقود من ماساليا إلى إيطاليا، لأنّ الماساليين لم يكونوا قادرين على وضع حدّ نهائي لعدوان هؤلاء عليهم. لكنّ سيكستوس أرغم البرابرة على التراجع إلى أجزاء الساحل التي تقوم فيها موانئ جيّدة، على مسافة 12 مرحلة؛ وفي الأجزاء الصخرية، على مسافة 8 مراحل. وأعطى سيكستوس الأراضي التي أخلاها من البرابرة إلى الماساليين. وثمّة في أكروبوليس الماساليين كثير من التقدمات التي اقتطعت من الغنائم الحربية التي غنموها في المعارك البحرية التي انتصروا فيها على أولئك الذين نازعوهم أملاكهم البحرية. وعليه يمكننا أن نقول، إن حسن الطالع رافق الماساليين في الأزمنة القديمة على وجه العموم، خاصة في صداقتهم مع الرومان؛ ونحن يمكننا أن نسوق كثيراً من الأمثلة على هذا؛ ونشير في السياق إلى أن «كسوانون» أرطميس القائم فوق هضبة الأفينتين، كان الرومان قد أقاموه وفق النموذج الموجود عند الماساليين. وفي زمن الصراع بين بومبيوس وقيصر، وقف الماساليون إلى جانب الطرف المهزوم، فخسروا بذلك الجزء الأكبر من أسباب رخائهم. ومع ذلك بقيت علامات الكدّ ومحبة العمل القديمة حاضرة لدى السكّان، خاصة لدى بناء الأبراج القتالية ومعدّات السفن وتجهيزاتها. ولكن منذ أن أخذ البرابرة الذين يقطنون إلى الشمال من الماساليين، يتواصلون مع الثقافة، وتحوّلوا بفضل الرومان من الحرب إلى نمط العيش المدني وممارسة الأعمال الزراعية، فَتَرَ اهتمام الماساليين بالأعمال المذكورة. وهذا ما يدلّ عليه نمط العيش السائد عندهم الآن؛ فقد التفت المثقفون كلّهم الآن إلى فن البلاغة، والعمل بالفلسفة؛ ولذلك، فإنه على الرغم من أن المدينة لم تتحوّل إلى مدرسة لتهذيب البرابرة إلاّ منذ وقت قريب، إلاّ أنها نجحت في أن تجعل من الغلاطيين أصدقاء للهلنستية إلى درجة أن هؤلاء باتوا الآن يدوّنون وثائقهم باللغة الإغريقية؛ وفي الوقت الراهن جذبت المدينة كبار النبلاء الرومان الساعين لتحصيل المعرفة، فبات هؤلاء يأتون إليها لا إلى أثينا البعيدة. وإذا رأى الغلاطيون هؤلاء الناس، واستغلّوا في الوقت نفسه ثمار السلام، كرّسوا أوقات فراغهم لهذا النمط من العيش عن طيب خاطر، ولا ينسحب هذا على أشخاص أفراد وحسب، بل على المشاعة

كلّها؛ وعلى وجه العموم، هم يستقبلون عندهم الصوفيين[18]، وبعضهم يدفع لهؤلاء من حسابه الخاص، بينما يتلقى الآخرون أجرهم من المدينة بالطريقة النظامية، مثلهم في هذا مثل الأطباء. وللدلالة على بساطة نمط عيش الماساليين وعفّتهم، يمكننا أن نسوق الآتي: إن أكبر مهر عروس عندهم، هو 100 ذهبية، إضافة إلى 5 ذهبيات للفستان، و5 أخرى للحلي الذهبية؛ وليس مسموحاً بأكثر من هذا. واحتراماً للصداقة القديمة بين الماساليين والرومان، تعامل قيصر والأباطرة الآخرون، باعتدال وتسامح مع الأخطاء التي اقترفها الماسليون أثناء الحرب، فابقوا للمدينة على استقلالها الذاتي الذي كانت تحظى به منذ البداية؛ ولذلك لم تخضع ماساليا ولا المدن التابعة لها لسلطة الولاة الذين كانوا يعيّنون على المقاطعة[19]. وهاأنذا قد قلت عن ماساليا ما يكفي.

6- بينما تميل بلاد الساليين الجبلية أكثر فأكثر من الغرب نحو الشمال، وتتراجع عن البحر بالتدرّج، فإن الساحل ينحدر غرباً؛ وإذ يتقدّم إلى الأمام إلى مسافة قريبة من مدينة الماساليين، إلى حوالي 100 مرحلة قبل رأس بحرية كبيرة على مقربة من أحد مقالع الحجارة، ابتداء من هنا يتوغّل الخطّ الساحلي عميقاً في الشاطئ ويشكّل قبل بلوغ قطاع أفروديت المقدّس (أي رأس البيرينيه)، خليج غلاطيا (ويدعى أيضاً، الخليج الماسالي). وهذا الخليج خليج مزدوج، لأنه ينقسم إلى شطرين عند القوس الذي يشكّله هو نفسه. ومرّة أخرى يدعى الخليج الأكبر من هذين الخليجين بالخليج الغلاطي؛ وفيه يصبّ رودان؛ أمّا الخليج الأصغر، الواقع قبالة ناربون، فإنه يمتدّ حتّى البيرينيه. وعلى هذا النحو فإن ناربون تقع على مصبّ أتاك وبحيرة ناربونيتيس؛ وهي أكبر ميناء في هذه البلاد، مع أنه ثمّة مدينة تقع غير بعيد عن رودان، وهي ميناء له أهمية كبيرة جدّاً- مدينة أريلاتا. ويقع هذان الميناءان على مسافة واحدة بعضهما عن بعض كما عن الرأسين البحريتين المذكورتين: ناربون عن قطاع أفروديت المقدّس، وأريلاتا عن ماساليا. وعلى جانبيّ ناربون تجري أنهار أخرى؛ منها التي تجري من جبال كيمين، ومنها من جبال البيرينيه؛ وتقع على هذه الأنهار مدن (يبحرون إليها مع المجرى إلى فوق بسفن صغيرة)؛ ومن البيرينيه ينبع النهران روسكينون وإيليبيريس؛ وتقوم على كلّ منهما مدينة تحمل الاسم نفسه؛ وثمّة عند روسكينون، غير بعيد عن البحر إلى الأعلى، بحيرة ومنطقة مستنقعات فيها كثير من مناجم الملح التي تحتوي على «أحفورات من السمك الأحمر الذقن»[20]، لأنك إذا حفرت هناك حفرة بعمق قدمين أو ثلاثة أقدام، وغرزت الحربة في المياه الطينية، فإنك قد تصيد سمكة كبيرة؛ فهذه الأسماك تتغذى على الطين، مثلها مثل الحنكليس. وينبع هذان النهران من البيرينيه بين ناربون وقطاع أفروديت المقدّس؛ وعلى الجانب الآخر من ناربون تجري الأنهار من

كيمين إلى البحر، وتجري هناك أنهار أتاكا، وأوبريس، وأراوريوس. وتقوم على الأول من هذه الأنهار مدينة بيتيرا، وهي مدينة آمنة، وعلى مقربة من ناربون؛ وتقوم على النهر الثاني مدينة أغاثا التي أسّسها الماساليون.

7- وليس على الساحل المذكور من النوادر واحدة فقط- «أحفورات السمك الأحمر الذقن»، بل هناك نادرة أخرى لا تقلّ غرابة عن هذا، وهي النادرة التي سأتحدّث عنها الآن. فبين ماساليا ومصبّ نهر رودان يمتدّ سهل دائريّ الشكل، يبعد عن البحر ما يقارب 100 مرحلة، وقطره يساوي هذا الرقم نفسه تقريباً. ويدعى هذا السهل بالسهل الحجري[21]، فهو مليء بحجارة يملأ واحدها قبضة الكفّ، وينمو تحت هذه الحجارة نبات برّي علفيّ يشكّل مراع خصبة للقطعان[22]. وثمّة في وسط السهل ماء، وينابيع مياهها مالحة، وملح. وتهبّ على هذا السهل وكل أراضي البلاد الواقعة فوقه، رياح شديدة، لكنّ الريح الشمالية السوداء، العنيفة والباردة، تهاجم هذا السهل بضراوة لا مثيل لها؛ ويروى أنها تحمل بعض الحجارة معها وتدحرج أخرى؛ كما تتقاذف عصفاتها الناس بما يحملون، وتنتزع منهم أسلحتهم وملابسهم. ويزعم أرسطو أن الهزّات الأرضية هي التي تقذف بهذه الحجارة إلى سطح الأرض، (وتدعى هذه الهزّات «هزّات براستية» [23])، وأن هذه تتدحرج وتتجمّع في الأماكن العميقة من البلاد. أمّا بوسيدونيوس فيرى أن هذا[24] كان بحيرة؛ فتصلّبت بينما الأمواج تذر ماءها، ثمّ تهشّمت الكتلة المتصلّبة إلى كثرة من الحجارة (التي تشبه الحجارة النهرية، والكتل الحجرية التي تتجمّع على شاطئ البحر)، وتبعاً لوحدة منشئها جاءت هذه الحجارة ملساء بالدرجة نفسها، ومتماثلة الحجم. ويسوق الكاتبان أسبابهما، وهي من غير شك أسباب مقنعة. لأنه غنيّ عن البيان القول، إن الحجارة التي تجمّعت لم يكن بإمكانها أن تتحوّل تلقائياً من سائل إلى جسم صلب، أو أن تتكسّر من الكتل الصخرية الكبيرة التي حدثت فيها تشقّقات. ولكنّ إيثخيليوس الذي درس هذه الظاهرة المعقّدة دراسة معلّلة، أو تلقى معلومات عنها من مصدر آخر، نقلها إلى ميدان الأسطورة. وعلى كلّ حال فإن بروميثيوس يقول عنده وهو يرشد هرقل إلى الطريق من القفقاس إلى مكان إقامة الهسبيريدس:

عندما تصل إلى بلاد الليغيين البواسل،
لا تدخل في قتال هناك، مع أنك شجاع القلب.
فالمعركة ستكون قاسية. ومقدّر لك أن تفقد
درعك هناك. قد يخطر لك أن ترفع صخرة،
لكنّك لن تجد حتّى حجراً: الأرض كلّها تراب ناعم.

سوف يراك زيوس في محنة ويرثي لحالك،

فيرسل سحباً راعدة، ويتساقط البَرَدُ الحجري على الأرض.

فترفع الحجارة من الأرض وتشتت الليغيين.

(*بروميثيوس طليقاً، مقطع* 199. *ناوك*)

ويعلّق بوسيدونيوس على هذا قائلاً: كأنه لم يكن من الأفضل لزيوس لو رمى حجارته على الليغوريين مباشرة وطمرهم، بدل أن يصوِّر هرقل في حالة عوز شديد إلى هذه الكثرة منها. ولكن فيما يخصّ هذا الكمّ الكبير [من الحجارة]، فإنه كان ضرورياً إذا كان الشّاعر قد أخذ بعين الحسبان فعلاً وجود أعداد كبيرة من المقاتلين، وعليه، فإن مؤلّف الأساطير يستحق في هذه الحالة أن يوثق به أكثر مما يوثق بمنتقده[25]. عدّاك عن هذا أن الشّاعر عندما قال «مقدّر لك»، فإنه يستثني بذلك بشكل متعنّت، أيّ تذمّر تجاه أيّ شيء كان، مما ورد في هذا المقطع؛ وثمّة في أبحاث «العناية الإلهية»، و«القدر» أمثلة كثيرة من هذا النوع مأخوذة من ميدان النشاط الإنساني، ومجال الظاهرات الطبيعية، والتي يمكن أن يقال بصددها: لقد كان من الأفضل بكثير لو حصل ذلك وليس هذا. فيمكننا مثلاً أن نقول: إنه كان من الأفضل، بالنسبة لمصر لو تساقطت الأمطار هناك، بدل أن تروي إثيوبيا تربتها؛ كما كان من الأفضل لباريس لو هلك في كارثة بحرية وهو في طريقه إلى إسبرطا، من أن يخطف يلينا، ومن ثمّ يعاقبه الذين أهانهم، متسبباً بذلك بتلك المآسي كلّها التي حلّت بالإغريق والبرابرة، وهي المآسي التي نسبها يوريبيدس لزيوس:

... هكذا شاء، وهكذا قرّر الأب زيوس

أن يقدّر الشرّ للطرواديين، والمرارة للهلينيين.

(*مقطع* 1082، *ناوك*)

8- ويستهجن بوليبيوس المعطيات التي ساقها تيمييوس عن مصبّات رودان، فهو يزعم أن لرودان مصبّين وليس خمسة؛ أمّا أرتيميدور فقد أحصى ثلاثة مصبّات. وفيما بعد، عندما رأى ماريوس أن الرواسب الطينية قد أقذت المصبّ وباتت تعيق العبور، أمر بشقّ قناة جديدة ووجّه القسم الأكبر من النهر عبرها، ثمّ قدمها هدية للمساليين مكافأة لهم على بسالتهم في الحرب ضدّ الأمبرونيين والتويغينيين[26]؛ وقد جمع الماساليون ثروة كبيرة من وراء هذه الهدية، إذ فرضوا رسوماً على السفن المبحرة في رودان إلى الأعلى وإلى الأسفل. ومع ذلك لا يزال دخول مصبّ النهر غير سهل على السفن حتّى الآن بسبب اندفاع تياره وتراكم الترسبات الطينية، وقبل هذا كلّه بسبب

انخفاض موقع المكان، الأمر الذي يؤدّي في حالات سوء الطقس إلى انعدام رؤية الأرض حتّى من مسافة قريبة. ولذلك أقام الماساليون أبراجاً تمثل علامات فارقة، محاولين من خلال ذلك حيازة البلاد بشتّى الوسائل. وقد أقاموا هناك فعلاً معبداً لأرطميس الإفسسية بعد أن استولوا على قطعة أرض عند النهر حيث يشكّل مصبّه جزيرة. وثمّة إلى الأعلى من مصبّات رودان مستنقع بحريّ يدعونه «ستوماليمونا»[27]؛ والمستنقع غنيّ بالمحار والأسماك. وقد عدّ بعضهم هذا المستنقع واحداً من مصبّات رودان، خاصة منهم الذين أحصوا للنهر سبعة مصبّات، بيد أنهم اخطؤوا في زعمهم هذا وذاك، لأنّ هناك جبلاً يفصل بين المستنقع والنهر. إن هذا هو على وجه التقريب طابع الساحل وامتداده من البيرينيه حتّى ماساليا.

9- وعلى الساحل من ماساليا إلى نهر فار و[منطقة] الليغوريين المحلّيين، تقع المدن الماسالية: تافروينتيوس، وأولبيا، وأنتيبوليس، ونيقيا، وكذلك مرسى قيصر أوغسطس الذي يحمل اسم ساحة اليوليين. ويقع هذا المرسى المحطة بين أولبيا وأنتيبوليس على بعد حوالي 600 مرحلة من ماساليا. ويقع نهر فار بين أنتيبوليس ونيقيا، على بعد نحو 20 مرحلة عن هذه الأخيرة؛ و60 مرحلة عن الأولى، وعلى هذا النحو فإن نيقيا تشكّل حسب ترسيم الحدود[28] القائم الآن، جزءاً من إيطاليا، مع أنها للماساليين؛ لأنّ هؤلاء أسّسوا هذه المدن كحصون ضدّ البرابرة الذين يقطنون الأراضي الواقعة إلى الأعلى؛ وقد رمى الماساليون من وراء بناء هذه المدن إلى امتلاك البحر من غير منافسين، لأنّ البرابرة كانوا قد امتلكوا البرّ. فالأرض هنا جبلية وعرة المسالك؛ ومع أنه ثمّة لماساليا هنا شريط ساحلي سهلي صغير، إلاّ أنه مع التقدّم نحو الشرق فإن الجبال تدفع به نحو البحر، وبالكاد تبقي على الطريق نفسها سالكة. ويشغل الساليون الشطر الأول من هذا الشريط الساحلي؛ أمّا ما تبقّى منه فيشغله الليغوريون، الذين تتجاور منطقتهم مع إيطاليا؛ وسأتحدّث عن هؤلاء بعد هذا. أمّا الآن فينبغي عليّ أن أضيف الآتي: مع أن أنتيبوليس تقع في حدود ناربونيتيس، ونيقيا في حدود إيطاليا، إلاّ أنها مع ذلك تخضع للماساليين وتتبع المقاطعة[29]، بينما باتت أنتيبوليس من المدن الإيطاليوتية[30]، بعد أن انتزعت من الماساليين بقرار قضائي وتحرّرت بذلك من سيطرتهم.

10- وأمام هذا الشريط الساحلي الضيّق، ابتداء من ماساليا، تقع الجزر الستويخادية[31]: ثلاث منها كبيرة، واثنتان صغيرتان؛ ويزرع الماساليون هذه الجزر الخمس. وفي الأزمنة السابقة كان الماساليون يحتفظون على الجزر بحاميات لصدّ

غزوات قراصنة البحر، لأنّ الجزر كانت تتوفّر على كثير من المراسي. وتقع بعد الجزر الستويخادية، جزيرتا بلاناسيا وليرون اللتان توجد فيهما قرى. وفي جزيرة ليرون معبد بني على شرف البطل ليرون؛ وتقع هذه الجزيرة قبالة أنتيبوليس. وهناك إضافة إلى هذه الجزر، جزر صغيرة أخرى، يقع بعضها أمام ماساليا نفسها، ويقع بعضها الآخر أمام الجزء المتبقي من الساحل المذكور؛ ولكنّها لا تستحقّ الذكر. أمّا فيما يخصّ المراسي فثمّة واحد منها ذو أهمية، وهو المرسى الواقع عند محطّة السفن، بل هناك مرسى آخر مهم أيضاً، هو مرسى الماساليين؛ أمّا ما تبقّى منها فهي مراس متوسّطة الحجم؛ وبين هذه الأخيرة مرسى دعي باسم الليغوريين الأوكسيبيين. ذلكم هو ما كان ينبغي عليّ أن أقوله عن هذا الساحل.

11- أمّا البلاد الواقعة إلى الأعلى من الساحل، فإن حدودها الجغرافية مرسومة على وجه العموم بالجبال والأنهار المحيطة بها، خاصة نهر رودان، لا لأنّ هذا النهر هو النهر الأكبر وحسب، إنّما لأنه نهر صالح للملاحة إلى مسافة طويلة، فروافده التي تملأ مجراه كثيرة جدّاً. ومن الضروري أن نتحدّث عن هذه المناطق بالترتيب. فإذا بدأنا الجولة من ماساليا نحو البلاد الواقعة بين الألب ورودان، فإن الساليين يشغلون المدى الممتدّ حتّى نهر دروينسيا على امتداد 500 مرحلة؛ وإذا ما توجّهنا على متن عبّارة إلى مدينة كاباليون، فإن المنطقة التالية القريبة كلّها ملك للكافاريين وصولاً حتّى نقطة التقاء إيسار مع رودان؛ وهناك حيث تقريباً يتلامس جبل كيمين مع رودان، يبلغ امتداد الطريق من دروينسيا حتّى هذا المكان، 700 مرحلة. وفي داخل حدود بلادهم، يشغل الساليون سهولاً ومناطق جبلية تقع فوق السهول، بينما يقطن الفوكونتيون، والتريكوريون، والإيكونيون، والميدوليون الأراضي الواقعة إلى الأعلى من أراضي الكافاريين. وثمّة بين دروينسيا وإيسار أنهار أخرى تجري من الألب إلى رودان، ومنها تحديداً النهرين اللذين يلتفان حول فارا[32]، ومدن الكافاريين ثمّ يلتقيان في مجرى واحد ليصبّا في رودان؛ ويلتقي النهر الثالث، نهر سولغا مع نهر رودان، على مقربة من مدينة أوندالوم[33]، حيث ألحق غنيوس آينو باربوس الهزيمة بآلاف مؤلّفة من السلتيين في معركة عظيمة وقعت هناك. وتقع في هذا الفاصل مدن أفينيون، وأراوسيون، وآيريا، وعلى حدّ قول أرتيميدور أن «آيريا هي فعلاً آيريا لأنها تقع على ارتفاع كبير»[34]. ولكنّ البلاد كلّها بلاد سهلية وغنية بالمراعي، ما عدا المنطقة الممتدّة من آيريا حتّى دوريون، ففيها معابر جبلية ضيقة تكسوها الغابات. وفي المكان الذي يلتقي فيه نهر إيسار ورودان مع جبل كيمين، دمّر كوينتوس فابيوس مكسيموس إيميليانوس[35]،

200 ألف سلتي، مع أن عدد قواته كان أقلّ من 30 ألف مقاتل؛ وأقام في هذا المكان نصب النصر من حجر المرمر الأبيض، وبنى معبدين: أحدهما على شرف أريس، والثاني تكريماً لهرقل. والمسافة من إيسار إلى فيينا عاصمة الأللوبروغيين الواقعة على رودان، هي 320 مرحلة. وعلى مقربة من فيينا، إلى الأعلى قليلاً تقع لوغدونوم عند ملتقى أرار وروادن؛ والمسافة إلى لوغدونوم برّاً عبر منطقة الأللوبروغيين، حوالي 200 مرحلة، أمّا إذا أبحرت في النهر إلى الأعلى، فالمسافة أكبر بقليل. لقد كان الأللوبروغيون يشنّون من قبل حملات تشارك فيها آلاف مؤلّفة من المقاتلين، أمّا الآن فإنهم يزرعون سهول بلادهم ووديان الألب؛ ويعيشون كلّهم في قرى منفصلة، ما عدا سكّان فيينا الأرستقراطيين. وكانت فيينا من قبل قرية وحسب، لكنّها مع ذلك عدت عاصمة قبيلة الأللوبروغيين الذين جعلوا منها مدينة. وتقع فيينا على نهر رودان. وهذا النهر نهر جبّار جامح يجري من الألب، فتظهر تياراته لدى خروجه من بحيرة ليمينا من مسافة مراحل كثيرة. وإذ ينحدر النهر إلى سهول بلاد الأللوبروغيين والسيكوسيافيين، يلتقي مع نهر أرار ويشكّلان مجرى واحداً عند لوغدونوم، مدينة السيكوسيافيين. وبدوره أرار يجري من الألب أيضاً، ويفصل السيكوانيين عن الإيدويي واللينغونيين؛ ثمّ يجمّ مياه دوبيوس، وهو نهر صالح للملاحة ويجري من تلك الجبال نفسها، فيتغلّب عليه (باسمه)، وعلى الرغم من أنه تشكّل من اندغام نهرين، إلا أنه يصبّ في روادن، مثله مثل أرار. وبدوره روادن يتفوّق على ثلاثتهم ويجري إلى فيينا. وعلى هذا النحو فإن الحاصل هو أن هذه الأنهار الثلاثة تجري شمالاً، ثمّ غرباً؛ وبعد أن تندغم في مجرى واحد، فإن هذا النهر ينعطف مرّة أخرى باتجاه الجنوب نحو مصبّه، مع أنه يستقبل قبل ذلك روافده الأخرى، ويتابع من هناك ما تبقى من طريقه إلى البحر. وهذا هو على وجه التقريب، طابع البلاد الواقعة بين الألب وروادن.

12- ويشغل الشطر الأكبر من البلاد الواقعة على الجانب الآخر من النهر، أولئك الفولكيون الذين يدعونهم الأريكومسكيين. ويقال إن ناربون محطة سفن لهم وحدهم فقط، مع أنه كان من الأصح أن يزاد على هذا، أنها محطة «لباقي سلتيا» أيضاً، لأنّ هذه المدينة تتفوّق على المدن الأخرى بعدد السكّان الذين يفيدون من هذا المركز التجاري. ومع أن الفولكيين يقطنون على مقربة من نهر روادن، وأن الساليين والكافاريين يعيشون على موازاتهم على الضّفّة المقابلة، إلاّ أن اسم الكافار هو الغالب، فقد باتوا يدعون به كلّ الذين يعيشون في هذا الشطر من البلاد، مع أنهم لم يعودوا برابرة الآن، بل تحوّل القسم الأكبر منهم إلى نمط العيش الروماني، واعتمدوا

اللغة الرومانية لغة التخاطب اليومي، أمّا الآخرون منهم فقد اقتبسوا عن الرومان إضافة إلى ذلك، بناء الدولة. وتعيش إلى جوار الأريكومسكيين، حتّى البيرينيه، قبائل أخرى مغمورة ولا أهمية لها. وعاصمة الأريكومسكيين هي نيماوس، التي وإن كان عدد الغرباء والتجار فيها أقلّ مما في ناربون، إلاّ أنها تتفوّق على هذه الأخيرة بعدد المواطنين، فنيماوس تبسط سلطتها على 24 قرية تسكنها أعداد كبيرة من السكّان الذين يتميّزون بالبسالة وشدّة البأس، وينتمون إلى قبيلة الأريكومسكيين نفسها، ويؤدّون الإتاوة لنيماوس؛ وتتمتّع هذه المدينة بما يدعى «الحقوق اللاتينية»[36]، ولذلك فإن الشخصيات التي كانت تشغل منصب إيديلا وكويستور في نيماوس، كانوا مواطنين رومان؛ وعليه لم تكن هذه القبيلة تخضع حتّى لسلطة البريتورات الذين كانت ترسلهم روما إلى هناك[37]. والمدينة تقع على الطريق من إيبيريا إلى إيطاليا؛ والوصول إليها صيفاً يسير، أمّا في الشتاء والربيع فيترك فيضان الأنهار أكواماً من القاذورات في المكان. وعليه فإنهم ينتقلون عبر بعض الأنهار بالعبّارات، ويعبرون بعضها الآخر فوق جسور خشبية أو حجرية. وتنجم هذه الصعوبات عن التيارات الجبلية المرتبطة بالفيضانات، فهذه التيارات تهوي من أعالي الألب بعد ذوبان الثلوج، ويستمرّ اندفاعها أحياناً حتّى حلول فصل الصيف. ويمتدّ جزء من الطريق المذكورة، وهو الجزء الأقصر الذي يقود إلى الألب مباشرة، كما ذكرت[38]، يمتدّ عبر بلاد الفوكونتيين، أمّا الجزء الآخر فيمتدّ عبر الساحل الماسالي والليغوري، وهو الأطول، مع أن فيه معابر جبلية إلى إيطاليا ملائمة أكثر، لأنّ الجبال منخفضة أكثر. وتبعد نيماوس عن رودان، ابتداء من النقطة المقابلة لبلدة تاروسكون على الضفّة الأخرى للنهر، حوالي 100 مرحلة، أمّا عن ناربون، فإنها تبعد 720 مرحلة. عدّاك عن هذا أن المنطقة المجاورة لجبل كيمين، والتي تشمل الجانب الجنوبي من الجبل وصولاً حتّى قممه، يعيش فيها الفولكيون الذين يحملون اسم التكتوساغيين، ومعهم بعض الآخرين. وسوف أتحدّث عن الآخرين فيما بعد.

13- تعيش القبيلة المسماة قبيلة التكتوساغيين، في جوار البيرينيه، مع أن المنطقة التي يشغلها هؤلاء تلامس أيضاً شطراً صغيراً من الجهة الشمالية لجبل كيمين؛ وبلادهم غنيّة بالذهب. ويبدو أن أعدادهم كانت في زمن ما كثيرة، وأنهم كانوا أقوياء إلى درجة أنهم بانتفاضة واحدة طردوا جموعاً غفيرة من أبناء جلدتهم إلى خارج وطنهم الأم؛ وقد انضمّ إلى هؤلاء المطرودين أناس من قبائل أخرى. وكانت تنتمي إليهم أيضاً القبائل التي استولت على جزء من فريجيا المجاورة لقبدوقيا وبافلاغونيا[39]. وما يؤكّد على ذلك، هو وجود قبيلة في أيامنا هذه تدعى قبيلة التكتوساغيين؛ فثمّة هناك

ثلاث قبائل؛ إحداها تعيش حول مدينة أنكيرا، وتدعى قبيلة التكتوساغيين، بينما القبيلتان الأخريان هما التروكميون والتوليستوبوغيون. وفيما يخصّ هؤلاء الأخيرين، فإنه على الرغم من أن صلة القرابة التي تربط بينهم وبين التكتوساغيين، تدل على أنهم هاجروا من سلتيا، إلاّ أنني لا أستطيع أن أقول، من أي منطقة هاجروا على وجه التحديد، لأنني لم أسمع بأيّ تروكميين أوتوليستوبوغيين يعيشون الآن وراء الألب، في الألب، أو على هذا الجانب من الألب. فربّما يكون هؤلاء قد اندثروا نتيجة كثرة هجراتهم، وهو ما حصل لكثير من القبائل الأخرى. فبحسب قول بعضهم مثلاً، أن برين[40] الآخر الذي هاجم دلفي، كان برافسياً، ولكنّني لا أستطيع أن أقول في أيّ بلاد عاش البرافسيون من قبل. ثمّ يروون أيضاً أن التكتوساغيين شاركوا في الحملة على دلفي، بل يروى أيضاً أن الكنوز التي عثر عليها عندهم القائد الروماني سيبيون، في مدينة تولوسا، كانت جزءاً من الثروات التي غنموها في دلفي، ولكنّ السكّان المحلّيين زادوا عليها من نفائسهم الخاصة ما كانوا يقدّمونه من تقدمات لاسترضاء إلههم؛ أمّا سيبيون الذي استولى على هذه الكنوز وضمها لنفسه، فقد أنهى حياته بسبب ذلك بائساً ضنكاً، لأنّ وطنه نبذه ونفاه بصفته كافراً[41]. ولما توفى ترك سيبيون وراءه ابنتين قال تيموجين إنهما عاشتا حياة داعرة وماتتا ميتة مشينة. بيد أن رواية بوسيدونيوس هي الرواية الأقرب إلى الواقع، فهو يقول: إن الكنوز التي عثر عليها في تولوسّا كانت تساوي ما يقارب 15.000 تالانت. جزء منها كان مخبّأ في حجر سرّيّة، والجزء الآخر في برك مقدّسة. وكان هذا يتألّف من معدن غير مسكوك، أي من ذهب وفضّة غير مصنّعين. ولكنّ معبد دلفي لم يكن يمتلك حينئذٍ مثل تلك الكنوز، فالثوكيون نهبوه في أثناء الحرب المقدّسة[42]؛ وإذا كان قد بقي شيء ما فيه، فقد وزّع على كثير من الناس. ومن غير المعقول أن يكون التكتوساغيون قد عادوا إلى ديارهم بسلام، لأنهم بعد خروجهم من دلفي ولّوا الأدبار يجرّون وراءهم ذيول العار، وما لبثوا بعد ذلك أن تفرّقوا في اتجاهات مختلفة إثر النزاعات التي وقعت بينهم. ولكن، بحسب بوسيدونيوس وكثير من الكتّاب الآخرين، أنه نظراً لغنى البلاد بالذهب، ونقاء سريرة شعبها، وعيشته المتواضعة، فقد كانت الكنوز مخزونة في أماكن كثيرة من سلتيا؛ وكانت البرك المقدّسة هي أكثر الأماكن أمناً لحفظ الكنوز، إذ كانوا يسقطون قطع الفضّة وحتّى الذهب في مياهها. وعلى وجه العموم كان الرومان، بعد أن استولوا على هذه البلاد، يبيعون هذه البرك لصالح خزينة الدولة، وعثر كثير ممن اشتراها على قطع من الفضّة المشغولة. وها هي تولوسّا تزهو

بدورها بوجود مثل هذا المكان المقدّس فيها، وكان سكّان الأطراف يبجّلونه أعظم تبجيل، ولذلك تجمّعت فيه كنوز عظيمة كان كثيرون يحملونها تقدمات لإلهم، ولم يكن أحد ليجرؤ على أن يتطاول عليها.

14- تقع تولوسّا في أضيق أجزاء البرزخ الذي يفصل المحيط عن البحر عند ناربون؛ وبحسب بوسيدونيوس، أن قطر هذا البرزخ أقل من 3000 مرحلة. ومن المفيد أن نؤكد مرّة أخرى على السمة التي تميّز هذه البلاد، وهو ما كنت قد أشرت إليه من قبل[43]: التناسب بين اليابسة والأنهار من جهة، والبحر الخارجي[44] والداخلي من جهة أخرى. ونحن إذا ما وازنا هذه القرينة لوجدنا أنها ليست آخر أسباب المحاسن التي تتميّز بها هذه البلاد، وأنا أقصد هنا إلى واقع أن تبادل المواد الحيويّة يجري هنا بسهولة ويسر، الأمر الذي ينعكس منفعة مشتركة لجميعهم، خاصة في وقتنا الراهن حيث وضعت الحروب أوزارها ولم تعد تقلق الناس الذين التفتوا إلى حراثة الأرض بدأب وكدّ، وشرعوا يبنون حياتهم المدنية. ولذلك فإن مثل هذه الأحوال تدلّ، كما يمكن أن نتصوّر، على عمل عناية إلهية، لأنّ موقع هذه البلدان لم يأت مصادفة، إنّما يبدو كأنه متوافق مع بعض الخطط العقلانية. ففي رودان يمكن أن تبحر حتّى سفن الشحن الكبيرة مسافة طويلة نحو الأعلى، لتبلغ كثيراً من أنحاء البلاد، لأنّ روافد النهر بدورها صالحة للملاحة وقادرة على استقبال أعداد كبيرة من الشحنات. ومن ثمّ يستقبل السفن أرار ودوبيوس الذي يصبّ فيه؛ وتتابع السفن بعد ذلك طريقها جرّاً إلى نهر سيكوانا، ومن هناك تنحدر مع المجرى إلى المحيط، ثمّ إلى بلاد الليكسوبين والسلتيين[45]؛ ومن المنطقة التي يقطنها هؤلاء حتّى بريطانيا مسافة أقلّ من يوم واحد. ولكن بما أن لرودان تيار سريع، الأمر الذي يجعل الإبحار فيه إلى الأعلى صعباً، لذلك كان من الأفضل نقل بعض الشحنات من هنا[46] جرّاً في عربات، أي كلّ البضائع التي تذهب إلى بلاد الأرفيرنيين ونهر الليغير، مع أن رودان يمرّ جزئياً على مقربة من هذه البلدان؛ ولكنّ استواء الطريق البرّيّة وقصرها- حوالي 800 مرحلة[47]- يجعلانهم يعزفون عن الإبحار في النهر[48] إلى الأعلى: نقل الشحنات بالعربات أسهل، ومن هنا يتلقاها الليغير من غير عوائق؛ فهو ينحدر من جبل كيمين إلى المحيط. ومن ناربون تبحر الشحنات مسافة قصيرة في نهر أتاك، ثمّ تنقل بالعربات مسافة أطول حتّى نهر غارومنا. ويبلغ امتداد هذا المقطع من الطريق 800 أو 700 مرحلة. ويجري غارومنا بدوره إلى المحيط. وهذا ما كان يجب علي قوله عن سكّان منطقة ناربونيتيس الذين دعاهم الناس في الأزمنة الماضية بالسلتيين إمّا بسبب المجد الذي حققه هؤلاء أو لأنّ الماساليين والجيران الإغريق الآخرين ساعدوا على ذلك بسبب قربهم منهم.

الفصل الثاني

1- وينبغي أن نتحدّث بعد ذلك عن الأكويتانيين والقبائل التي تدخل في حدود بلادهم:[1] عن القبائل الغلاطية الأربع عشرة التي تقطن بين غارومنا والليغير؛ بل ثمّة منها من يشغل شطراً من منطقة رودان وسهول ناربونيتيس. لأنّ الأكويتانيين على وجه العموم، يتميّزون عن قبيلة الغلاطيين ببنيتهم الفيزيائية، ولغتهم، وبكونهم أكثر شبهاً بالإيبيريين[2]. ويشكّل نهر غارومنا حدود بلادهم؛ فهم يعيشون بينه وبين البيرينيه. ويبلغ عدد القبائل الأكويتانية 20 قبيلة، لكنّها كلّها قبائل صغيرة ومغمورة، ويعيش أكثرها على ساحل المحيط، بينما انتشرت القبائل الأخرى في المناطق الداخلية من البلاد وصولاً حتّى قمّة جبل كيمين ومنطقة التكتوساغيين. وبما أن هذا الشطر من البلاد كان عبارة عن جزء[3] صغير جداً منها، فقد ألحق الرومان به الأراضي الممتدّة بين غارومنا والليغير. ويجري هذان النهران على موازاة البيرينيه تقريباً، ويشكّلان مع هذه الأخيرة متوازييّ أضلاع، لأنهما محدودان من الجهات الأخرى بالمحيط وجبال كيمين. والملاحة في النهرين ممكنة مسافة 2000 مرحلة تقريباً. وإذا يتلقى مياه ثلاثة أنهار، يسكب غارومنا مياهه في المنطقة الواقعة بين البيتوريغيين (الذين يدعونهم فيفيسكيين) والسانتونيين (وهؤلاء وأولئك من القبائل الغلاطية)؛ وقبيلة البيتوريغيين هؤلاء وحدها القبيلة الغريبة التي تعيش بين الأكويتانيين؛ وهي لا تؤدّي لهم إتاوات، مع أنها تملك ميناء[4]، هو ميناء بورديغار الواقع على واحد من الأخوار الذي تشكّله مصبّات النهر. أمّا الليغير فإنه يسكب مياهه بين منطقتيّ البيكتونيين والنامينيتيين. وقبل ذلك كان ثمّة على هذا النهر ميناء يدعى كوربيلون؛ وقد قال عنه بوليبيوس مستنداً إلى حكايات بيفوس الخيالية: «لم يستطع أحد من الماليين الذين تحدّثوا مع سيبيون[5]، أن يخبره بشيء يستحق الذكر، عندما سألهم عن بريطانيا، ولا أحد من سكّان ناربون أوكوربيلون (وكانت هاتان أفضل مدينتين في هذه البلاد). ولكنّ بيفوس تجرّأ وقال كثيراً من الكذب بخصوص بريطانيا». أمّا مدينة السانتونيين، فهي ميديولانوس. والشطر الأكبر من ساحل المحيط الذي يشغله الأكويتانيون، رمليّ تربته فقيرة، تزوّد السكّان بالدخن، لكنّها أقل خصوبة بالنسبة للمحاصيل الأخرى. ويوجد هنا أيضاً خليج يؤلف مع الخليج الغلاطي الواقع على ساحل ناربونيتيس، برزخاً يحمل اسم الخليج نفسه، أي برزخ غلاطيا. وهذا الخليج ملك للتاربيليين الذين تحتوي بلادهم على أغنى الرواسب الذهبية؛ حتّى في الحفر غير العميقة يعثرون على فلزات ذهبية بحجم قبضة اليد، ولا تحتاج في بعض الأحيان إلا لعملية

تنظيف بسيطة، لا يبقى بعدها سوى الرمل الذهبي وقطع الخامة. ولا تحتاج هذه الأخيرة كثيراً من المعالجة. وأفضل تربة في البلاد، هي تربة الشطر الداخلي والمنطقة الجبلية؛ وتقع على مقربة من البيرينيه منطقة «الكونفينيين»[6]، أي حشد من الناس. وتقع هنا مدينة لوغدونوم وينابيع الأونيسيين الدافئة، وهي ينابيع رائعة مياهها أعذب مياه للشرب. وتتميّز منطقة الأفسكيين بتربة جيّدة.

2- والقبائل التي تعيش بين غارومنا والليغير وتنتمي إلى الأكويتانيين هي: الإيلوي (تبدأ منطقتهم من رودان)، وبعدهم الويلاويون الذين أُلحقوا بأراضي الأفيرنيين، لكنّهم يتمتّعون الآن بإدارة ذاتية[7]؛ ثمّ يليهم الأرفيرنيّون، والليموفكيّون والبيرتوكوريّون؛ وعلى مقربة من هؤلاء يقطن النيتيوبريغيون، والكادوركيّون والبيتوريغيّون الذين يدعون «أكعاباً»؛ وعلى مقربة من المحيط يقطن السانتونيّون والبيكتونيّون؛ ويعيش هؤلاء الأوائل، كما أسلفت القول، على طول مجرى نهر غارومنا، ويعيش البيكتونيون على طول مجرى الليغير؛ أمّا الروتينيّون والغاباليّون فإنهم يقتربون أكثر من ناربونيتيس. وتوجد في منطقة البيتروكوريين ورش ممتازة لتصنيع الحديد؛ وعند الروتينيين مناجم لاستخراج الفضّة، ومثلها عند الغاباليين أيضاً. وقد منح الرومان «الحقوق اللاتينية»[8] لبعض الأكويتانيين، كالآوسكيين والكونفينيين مثلاً.

3- ويعيش الأرفيرنيّون على نهر الليغير؛ مدينتهم الرئيسة هي نيموس، تقع على نهر الليغير. وبعد أن يجري هذا النهر على مقربة من كيناب، وهو ميناء الكارنوتيين (الواقع في منتصف الطريق تقريباً)، المسكون معاً[9]، يسكب مياهه في المحيط. وفي سياق البرهان على جبروتهم الذي كان، يشير الأرفيرنيون إلى أنهم غالباً ما قاتلوا الرومان بقوات يبلغ تعدادها 200.000 مقاتل، بل كان يصل هذا العدد إلى الضعف أحياناً؛ وهذا ما حصل على سبيل المثال، عندما قاتلوا قيصر الإلهي حتّى النهاية، تحت قيادة وريسينغيتوريغ؛ وكانوا قد جنّدوا قبل ذلك 200.000 مقاتل وقاتلوا مكسيم إيميليانوس، وبمثل هذا العدد من المقاتلين قاتلوا دوميسيان آينوباربوس أيضاً. وقد دارت رحى المعارك ضدّ قيصر عند غيرغوفيا، مدينة الأرفيرنيين الواقعة على جبل عال، حيث ولد وريسينغيتوريغ، وعند أليسيا، مدينة الماندوبيين، وهم قبيلة لها حدود مشتركة مع الأرفيرنيين. وهذه المدينة تقع أيضاً على هضبة عالية، مع أنها محاطة بالجبال وبنهرين اثنين. وهنا وقع القائد أسيراً وانتهت الحرب. لقد دارت المعارك ضدّ مكسيموس إيمليانوس عند ملتقى نهريّ إيسار ورودان، حيث يدنو جبل كيمين من رودان؛ ودارت ضدّ دوميسيان آينوباربوس، على مجرى رودان إلى الأسفل عند ملتقى سولغا ورودان.

وقد بسط الأرفيرنيون سيطرتهم حتّى ناربون وحدود ماساليتيس؛ وحكموا على القبائل حتّى البيرينيه، والمحيط، والرين. ويروى أن لويريوس، والدبيتويتوس الذي قاتل مكسيموس ودوميسيان، كان رجلاً ثرياً جدّاً وباذخاً جدّاً، فمرّة أراد أن يتباهى بثرائه أمام أصدقائه، فجاء إلى الحقل في مركبة وهو ينثر النقود الذهبية والفضية ذات اليمين وذات الشمال، والتابعون يلتقطونها[10].

الفصل الثالث

1- وتمتدّ البلاد التي تلي الجزء الأكويتاني وناربونيتيس، حتّى الرين كلّه ابتداء من نهر الليغير ورودان، في النقطة التي يبلغ فيها مجرى رودان نحو الأسفل لوغدونوم، ابتداء من منابعه. وتخضع الأجزاء العليا من هذه البلاد، عند منابع الرين ورودان، والتي تمتدّ حتّى وسط السهول تقريباً، تخضع للوغدونوم؛ أمّا باقي البلاد، بما فيها المنطقة الممتدّة على طول ساحل المحيط، فهي خاضعة للجزء الآخر، أي للجزء الذي يستوطنه البلجيكيون أنفسهم[1]. وها أنا أعطي وصفاً عاماً لأجزاء معينة.

2- إن لوغدونوم نفسها، التي بنيت عند سفح هضبة في النقطة التي يلتقي فيها نهر أرار مع رودان، يملكها الرومان. والكثافة السكّانية في هذه المدينة هي الأعلى بين المدن الأخرى كلّها، ما عدا مدينة ناربون؛ فلوغدونوم ليست مركزاً تجارياً لسكّان الأطراف وحسب، بل ويسكّ الحكّام الرومان فيها عملة ذهبية وفضية. زد إلى هذا أنهم أقاموا أمام المدينة، عند نقطة التقاء النهرين، معبداً لقيصر أغسطس شيّده الغلاطيون كلّهم. وثمّة في المعبد هيكل بديع فيه نقش يحتوي على أسماء القبائل (60 قبيلة) والتصاوير التي قدّمتها، رسم واحد من كلّ قبيلة؛ كما يقوم هنا أيضاً تمثال كبير لأغسطس[2]. ولوغدونوم هي المدينة الرئيسة لقبيلة السيغوسيافيين الذين يقطنون بين رودان ودوبيوس. أمّا القبائل التي تلي السيغوسيافيين مباشرة، والتي تمتدّ مناطقها حتّى الرين، فإن جزءاً منها محدود بدوبيوس، والجزء الآخر بأرار. وكما سبق لي أن قلت[3]، فإن هذه الأنهار تجري من الألب، ثمّ تتّحد في مجرى واحد وتصبّ في رودان؛ وهناك أيضاً نهر آخر، هو نهر سيكوانا، ومنابعه في الألب كذلك. ويجري هذا النهر إلى المحيط بموازاة الرين، عبر منطقة قبيلة تحمل اسم النهر نفسه؛ وتجاور الأجزاء الشرقية من هذه المنطقة نهر الرين، بينما تجاور المناطق المقابلة نهر أرار، وعبر هذا النهر ينقلون من هنا إلى روما أفضل أفخاذ الخنازير المملّحة. وتعيش بين دوبيوس وأرار قبيلة الإيدويي؛ ولهؤلاء على نهر أرار مدينة هي مدينة كابيلينيوم، وقلعة هي قلعة

بيبراتكـي. ولم يـدع الإيـدويي أقـارب الرومـان وحسـب[4]، بـل أوّل قبيلـة مـن بـين قبائـل البـلاد كلّهـا، وقعت معهم معاهـدة صـداقة واتحـاد. وعلـى الجانـب الآخـر مـن أرار يعيش السيكوانيون، الأعداء القدامى للرومان والإيدويي. ولهذا كانوا غالباً ما يشاركون الجرمان في غزوهم لإيطاليا، مبرهنين بذلك أنهم يمثلون قوّة يحسب لها حساب؛ لأنّ الجرمان كانوا يتحوّلون إلى قوّة شديدة الخطورة عندما كان هؤلاء يتحالفون معهم، وقوة ضعيفة عندما ينفضّون عنهم. أمّا فيما يتعلّق بالإيدويي فإن علاقة السيكوانيين بهم كانت علاقة عدائية للأسباب عينها، زد إليها النزاع بين الطرفين على النهر الذي يفصل بينهما، فكل من القبيلتين عدت أرار ملكاً لها بالتالي لها وحدها حق جباية رسوم النقل عبره. بيد أن كلّ شيء الآن تحت سيطرة الرومان.

3- ومن أولى القبائل التي استوطنت بلاد الراين، قبائل الجيلفيتيين، الذين تقع في منطقتهم في جبل آدولا، منابع الرين. وجبل آدولا جزء من جبال الألب التي يجري منها بالاتجاه المعاكس (أي إلى سلتيا الواقعة في الجهة الأخرى)، نهر آدّوا ليملأ بحيرة لاريوس التي تأسّست على مقربة منها مدينة كوم. ومن ثمّ، بعد أن ينبثق من البحيرة، يضمّ آدّوا مياهه إلى مياه باد، وهذا ما سأتحدّث عنه فيما بعد. والرين بدوره ينسكب في مستنقعات كبيرة وبحيرة كبيرة تجاورها مناطق الريتيين والويندليكيين. وهذه القبيلة تعيش في الألب وراء الألب. وبحسب أسينيوس[5] أن طول النهر 6000 مرحلة، لكنّ الأمر ليس كذلك. فالحقيقة هي أن طول هذا النهر على خطّ مستقيم يمكن أن يتجاوز نصف هذا الرقم بقليل، وإذا ما أخذنا التواءاته بالحسبان، فيكفي أن نزيده 1000 مرحلة على ذلك. وجريان هذا النهر سريع جداً، لذلك يصعب أن تقام الجسور عبره، لكنّه بعد اندفاعه من أعالي الجبال، يعود ليجري بانحدار خفيف عبر السهول. وكيف لنهر أن يكون جامحاً وسريعاً إذا ما أضفنا إلى ضعف انحدار [مجراه]، كثيراً من الالتواءات الطويلة؟ ثمّ يواصل أسينيوس حديثه فيقول، إن للرين مصبّين فقط، داحضاً بذلك أولئك الذين يتحدّثون عن عدد أكبر. ومن الواضح أن التواءات الرين وسيكوينا تحيط بجزء ما من البلاد، لكنّه ليس جزءاً كبيراً أبداً. ويجري النهران من الأجزاء الجنوبية للبلاد نحو الشمال؛ وتقع بريطانيا قريبة من الرين إلى درجة تمكّن من رؤية كانتيوس من مصبّاته؛ وكانتيوس هي الرأس الشرقية للجزيرة. وليست بريطانيا بعد سيكوانا إلا بقليل. وهنا[6] بنى قيصر الإلهي ترسانة إصلاح سفنه عندما اتّجه إلى بريطانيا. وبالنسبة للذين يحصلون على البضائع من أرار، فإن طريقهم عبر سيكوانا أطول بقليل مما هي عبر الليغير وغارومنا؛ ولكنّ المسافة من لوغدونوم إلى سيكوانا

تبلغ 1000 مرحلة، ومن مصبّات رودان إلى لوغدونوم أقلّ من هذه المسافة بمرّتين، كما يرون. ويقولون أيضاً، إن الجيلفيتيين وعلى الرغم من غناهم بالذهب، إلاّ أنهم مع ذلك اتّجهوا إلى أعمال السلب والنهب، إذ رأوا ثراء الكيموريين؛ وقد أدت غزواتهم إلى فناء قبيلتين من قبائلهم الثلاث. ولكنّ الحرب ضدّ قيصر الإلهي أظهرت كثرة أعداد السكّان الناجين؛ فقد هلك في هذه الحرب حوالي 400.000 نسمة، وإن كان قيصر قد منح فرصة لنجاة ما تبقى (حوالي 8000)، كي لا يبقي لجيرانهم الجرمان أرضاً خالية من السكّان غنيمة حربية.

4- وبعد الجيلفيتيين يعيش على ضفتيّ الرين، السيكوانيون والميديوماتريكيّون، الذين استقرّت في منطقتهم قبيلة التريبوكخيين الجرمانية التي عبرت النهر تاركة موطنها الأول. ويقع في أراضي السيكوانيين جبل يورا الذي يفصل بين الجيلفيتيين والسيكوانيين. وخلف الجيلفيتيين والسيكوانيين إلى ناحية الغرب، يعيش الإيدويي واللينغونيون، ويعيش خلف الميديوماتريكيين، الليفكيون وفريق من اللينغونيين. ولكنّ هذه القبائل بين الليغير ونهر سيكوانا، على الجانب الآخر من رودان وأرار، تعيش إلى الشمال على مقربة من الأللوبروغيين وسكّان أطراف لوغدونوم؛ وأكثر هذه القبائل أهمية، قبيلتا الأرفيريين والكارنوتيين؛ وعبر أراضي هاتين القبيلتين يجري الليغير إلى المحيط. ويبلغ امتداد المعبر من أنهار سلتيا إلى بريطانيا 320 مرحلة؛ لأنك إذا أبحرت وقت الجزر عند هبوط الظلام، فسوف ترسو على شاطئ الجزيرة في اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة صباحاً. وخلف الميديوماتريكيين والتريبوكخيين على طول الرين، يعيش التريفيريون، وقد بنى الرومان الذين يخوضون الحرب الجرمانية[7]، بنوا في منطقتهم الآن جسراً. وعلى الجانب الآخر من الرين، قبالة هذه البلاد، عاش في زمن ما الأوروبيون، الذين نقلهم أغريبا بموافقتهم، إلى منطقة على هذه الضّفّة من الرين. ويجاور التريفيريين النيرفيون، وهؤلاء بدورهم قبيلة جرمانية. وآخر هذه القبائل قبيلة الميناببين التي تعيش على ضفّتيّ النهر عند مصبّه في المستنقعات والغابات، غير العالية، لكنّها كثيفة وشائكة. ويعيش قبالة المينابيين السوغامبريون، وهم قبيلة جرمانية. ووراء هذه المنطقة النهرية كلّها يعيش الجرمان الذين يدعون بالسويفيين؛ ويتفوّق هؤلاء على الآخرين كلّهم عدداً وقوّة. وقد وجدت القبائل التي طردها السويفيون ملجأ لها الآن على هذا الجانب من الرين. وتُظهر القبائل الجرمانية الأخرى جبروتها في شتّى الميادين، وهي لا تكفّ عن إشعال فتيل الحرب، مع أن الرومان كانوا دائماً يخمدون [الانتفاضات] السابقة.

5- وإلى الغـرب مـن التريفيريـين والنيرفـيين يقطـن السـينونيّون والريميّـون، يليهم الأتيباتيّون والإيبورونيّون؛ وجيران المينابيين على البحر، هم المورينيّون، والبيلوفاكيّون، والأمبيانيّون، والسويسيونيّون، والكاليتيّون وصولاً إلى مصبّ نهر سيكوانا. ومنطقة المورينيين، والأتريباتيين، والإيبورونيين تشبه منطقة المينابيين، ويؤكّد المؤرّخون أن جزءاً مهماً منها، مع أنه ليس جزءاً كبيراً، إذ يمتدّ على 4000 مرحلة، مغطى بغابات كثيفة شجرها ليس باسقاً؛ وتدعى هذه الغابات غابات الأردوينا. وفي أثناء العدوان على البلاد كان السكّان يجدلون أغصان شجيرات الصفصاف الشوكية، ويقطعون بها طريق العدوّ[8]. كما كانوا يدقون الأوتاد في أماكن معيّنة ويختبئون مع أسرهم في الأدغال، فقد كانت عندهم جزر من اليابسة بين المستنقعات. وعلى هذا النحو كانت عندهم ملاجئ آمنة في أوقات المطر، لكنّهم كانوا صيداً سهلاً في أوقات الجفاف. وفي وقتنا الراهن تخضع هذه القبائل كلّها، التي تشغل هذا الجانب من الرين وتعيش بسلام، تخضع لسلطة الرومان. ويعيش الباريسيون حول نهر سيكوانا؛ ولهم في النهر جزيرة وعليه مدينة تدعى لوكوتوكيا؛ كما يعيش على نهر سيكوانا أيضاً، الميلديّون والليكسوفيّون، وينتشر هؤلاء الأخيرون عند شواطئ المحيط. وأهم قبائل هذه المنقطة كلّها، قبيلة الريميين؛ ومدينتهم الرئيسة هي دوريكورتوا، التي يقطن فيها العدد الأهم من السكّان،وهي مقرّ إقامة الولاة الرومان.

الفصل الرابع

1- ثمّ يلي القبائل المذكورة ما تبقى من قبائل البلجيكيين التي تقطن على شواطئ المحيط؛ ومنها، أولاً، الفينيت الذين حاربوا قيصر في معركة بحرية؛ فقد حاولوا منعه من الرسو في بريطانيا باستيلائهم على ميناء في الجزيرة. لكنّ قيصر لم يجد أيّ صعوبة في إلحاق الهزيمة بهم في البحر، من غير أن يستخدم أدوات الصدم (لأن أخشاب سفنهم كانت سميكة جدّاً)[1]؛ فعندما دفعت بهم الرياح نحوه، مزّق الرومان أشرعة سفنهم برماح رؤوسها معقوفة، لأنّ أشرعة الفينيت كانت مصنوعة من الجلد ومشدودة على سلاسل بدل الحبال، لكي تقاوم قوة الرياح. وإذ أخذ الفينيت حالات الجزر بعين الحسبان، بنوا سفنهم من خشب البلوط المتوفّر عندهم بكثرة، وجعلوا قيعانها عريضة، ومؤخراتها وأنوفها عالية؛ وكانوا يتركون شقوقاً بين الأخشاب، لكنّهم كانوا يغطونها بطبقة من الطحالب البحرية لكي لا يجف الخشب بسبب قلّة الرطوبة عندما يخرجون السفن من المياه إلى اليابسة، ومن المعروف أن الطحالب البحرية

أكثر رطوبة بطبيعتها، وأن البلوط جاف ولا يُطلى بالقار. وأنا أظنّ أن هؤلاء الفينيت أسّسوا مستعمرة على البحر الأدرياتيكي. فالسلت الآخرون الذين يعيشون في إيطاليا كلّهم تقريباً، نزحوا من منطقة ما وراء الألب، أسوة بالبويين والسينونيين. لكنّهم بسبب تسميتهم الواحدة، عدّوهم بافلاغونيين[2]. ومع ذلك فإنني لا أصرّ على زعمي، لأنّ الترجيح وحده كاف في مثل هذه المسائل. وبعد الفينيت يأتي الأوسيسميون الذين يدعوهم بيفوس أوستيميين. ويعيش هؤلاء على رأس بحرية توغل بعيداً في المحيط، ولكن ليس بعيداً إلى الحدّ الذي يزعمه بيفوس ومن صدّق ما قاله. وهناك من القبائل التي تعيش بين سيكوانا والليغير من يجاور السيكوانيين، ومنها من يجاور الأرفيرنيين.

2- إن كلّ القبيلة التي تدعى الآن غاليّة وغلاطيّة، منخرطة في الحرب، وهي تتميّز بالإقدام والاندفاع إلى القتال من غير تردد؛ ومع ذلك فهي تتّسم بسلامة الطويّة وحسن الخلق. ولذلك فإن الغلاطيين في لحظة الاستفزاز يندفعون إلى القتال جهاراً ومن غير احتراس، وكل من شاء أن يلجأ إلى استخدام الحيلة والخداع ضدهم، يستطيع أن يتفوّق عليهم بيسر. وكل من يبتغي في أي زمان ومكان، وتحت أي ذريعة، أن يستفزّ الغلاطيين، فسوف يجدهم على أتمّ الاستعداد لمواجهة الخطر، حتّى لو لم يكن لديهم من دعم سوى قوتهم الذاتية وإقدامهم. وإذا ما أقنعهم أحدهم، فإنهم يقبلون أسباب المنفعة بسهولة ملفتة، ومن هنا فإنهم قادرون على استيعاب الثقافة على وجه العموم، كما أن لديهم القدرة على إدراك العلوم أيضاً. أمّا فيما يتعلّق بقوّتهم، فهي مرتبطة جزئياً بضخامة بنيتهم الفيزيائية، وجزء منها بكثرة أعدادهم. فليس أسهل من اجتماعهم معاً بأعداد كبيرة، لأنهم يتميّزون بالبساطة، والاستقامة، ويتعاطفون دوماً مع معاناة أقاربهم الذين يقع عليهم الظلم، كما يرون. وينعم هؤلاء كلّهم بالسلام، الآن، لأنهم مرغمون على أن يعيشوا وفق ما يأمر به مستعبدوهم الرومان؛ وقد سقت هذا الوصف استناداً إلى العادات والأعراف القديمة التي لا تزال حاضرة عند الجرمان حتّى وقتنا الراهن. فهذه القبائل هي من حيث طبيعتها وبناؤها الاجتماعي ليست متشابهة وحسب، بل تربط بينها أواصر القرابة أيضاً؛ وهي تعيش في بلاد معينة يشطرها نهر الرين؛ وأكثر مناطقهم متشابهة (مع أن جرمانيا تقع إلى الشمال)، إذا ما قارنا المناطق الجنوبية لأحد البلدين بالمناطق الجنوبية في البلد الآخر، والشمالية بالشمالية. وبفضل هذه السمة[3] التي يتّسم بها طابعهم، فإن هجراتهم تحدث بسهولة، لأنهم يتحرّكون حشوداً مع كامل قواتهم المقاتلة، بل الأصحّ أن نقول، إنهم ينهضون عشيرة واحدة دفعها إلى النزوح آخرون أقوى منها. وقد بذل الرومان في سبيل إخضاعهم

جهداً أقل بكثير مما بذلوه في إخضاع الإيبيريين؛ والحقيقة أن الرومان بدؤوا حربهم على الإيبيريين قبل وانتهوا منها بعد، لكنّهم أخضعوا هؤلاء كلّهم في أثناء الفواصل، وأنا أقصد هنا إلى كلّ القبائل التي تعيش بين الرين وجبال الألب. فالغاليّون كانوا يهاجمون أعدائهم دفعة واحدة تشترك فيها حشودهم كلّها، ولذلك كانوا يدمّرونهم مرّة واحدة؛ أمّا الإيبيريون فهم على الضدّ من هذا تماماً، إذ كانوا يدّخرون قواهم ويلجؤون إلى الصدامات الصغيرة في أماكن متفرّقة، وأوقات مختلفة، ووحدات صغيرة على طريقة حرب العصابات[4]. ومع أن كلّ الغلاطيين مقاتلون بطبيعتهم، إلاّ أنهم مع ذلك فرسان أكثر منهم مشاة، وأفضل فرق الفرسان الرومانية تتألّف من رجال هذه القبيلة. وعلى وجه العموم، فإن القبائل التي تعيش أبعد إلى الشمال على امتداد ساحل المحيط، هي دائماً أكثر نزوعاً نحو الحرب.

3- ويقولون[5]، إن البلجيكيين هم الأكثر شجاعة بين هذه القبائل كلّها. وقد انقسم هؤلاء إلى 15 قبيلة تعيش على ساحل المحيط بين الرين والليغر. ولذلك لم يكن بمقدور أحد سواهم أن يقاوم اجتياح الجرمان: القمريين والتفتونيين[6]. ويقال إن الأكثر شجاعة بين البلجيكيين أنفسهم، هم البيللوفاكيّون، يليهم السويسيونيون والدليل على كثرة أعدادهم هو التالي: يقال إنه تبيّن عن طريق الاستطلاع[7]، أن البلجيكيين كانوا يجنّدون فيما مضى حتّى 300.000 شخص قادر على حمل السلاح. وأنا كنت قد تحدّثت[8] عن أعداد الجيلفيتيين والأرفيريين وحلفائهم، ومن هذا كلّه تبدو كثرة أعداد السكّان عندهم جليّة، وكذلك الأمر بالنسبة لما أشرت إليه أعلاه: قدرة نسائهم الاستثنائية على إنجاب الأطفال وتربيتهم. ويرتدي سكّان غاليا «الساغات»[9]، ويطلقون شعر رؤوسهم طويلاً[10]، ويرتدون سروايل ضيقة[11]؛ ويرتدون بدلاً من القفاطين قمصاناً بأكمام، تتدلّى حتّى الأجزاء التناسلية والإليتين. وصوف الأغنام الغالي الذي يصنعون منه «ساغاتهم» الشعثاء (ويدعو الرومان هذه «الساغات» «لينات»)، صوف فظّ وطويل الوبر. ويربّي الرومان حتّى في أقصى شمالي البلاد قطعاناً من الأغنام الرقيقة الصوف. ويتوافق السلاح الغالي الثمن مع ضخامة أجسامهم: سيف طويل معلّق على الجنب الأيمن، وترس طويل قائم الزاوية وفق طول حامله، و«مَنْدَريس»[12]، وهو نوع خاص من المزاريق. وهناك من الغاليين من يستخدم القوس والمقلاع أيضاً. وعندهم إضافة إلى هذا، أداة خشبية تشبه «الفروسيف»[13]. وترمى هذه الأداة يدوياً وليس بالأنشوطة، ومع ذلك فإنها تصل إلى أبعد مما يصل إليه السهم. وهم يستخدمون هذه الأداة لصيد الطيور بشكل رئيس. وينام أكثر الغاليين حتّى الآن، على الأرض، كما

يتناولون طعامهم جالسين عليها فوق حشايا من القش. والطعام عندهم وفير، وهو يتألّف من الحليب واللحوم، خاصة لحم الخنزير، الطازج منه والمملّح. وتعيش الخنازير عندهم طليقة، وتتميّز بكبر حجمها، وقوّتها، وسرعتها؛ وهي تشكّل خطراً على أيّ شخص غريب يقترب منها، كما تمثل خطراً حتّى على الذئاب. أمّا منازل الغاليين فهي كبيرة مقبّبة الشكل، وتُبنى من الأخشاب والضفائر التي ترمى فوقها أكوام من القصب. وقطعان الغنم والخنازير عندهم كبيرة إلى درجة أن الغاليين يزوّدون روما وأكثر مناطق إيطاليا بالسروج واللحوم المملّحة. أمّا بناء الدولة عندهم، فإن أكثره أرستقراطي[14]، وكانوا قديماً ينتخبون زعيماً لهم في كلّ عام؛ وعلى النحو نفسه كانوا يتصرّفون في زمن الحرب، إذ ينتخبون قائداً عسكرياً واحداً لهم. لكنّ أكثرهم يخضع الآن لتعليمات الرومان. وثمّة عرف فريد يسود في اجتماعاتهم: إذا ما أحدث أحدهم ضجيجاً، وقطع حديث الخطيب، يقترب منه خادم ممتشقاً سيفاً مسلولاً ويأمره مهدداً بأن يصمت؛ وإذا لم يمتثل ويصمت، يكرر الخادم وعيده ثانية وثالثة؛ وأخيراً يقطع الخادم من معطف المشاغب قطعة يغدو الرداء بعدها عديم الفائدة. أمّا الزعم القائل بأن أعمال الرجال والنساء عندهم مناقضة تماماً لعمل الجنسين عندنا، فإن هذا عرف مشترك معمول به لدى كثير من القبائل البربرية.

4- ويقولون إن لدى القبائل الغالية كلّها على وجه العموم ثلاث مجموعات من الناس الذين يحظون باحترام خاص: البارد، والمتنبّئون، والدرويد[15]. والبارد هم المغنون والشعراء، والمتنبّئون هم الذين يقودون الشعائر الدينية، ويدرسون الطبيعة، أمّا الدرويد فإنهم إضافة إلى دراسة الطبيعة يشتغلون بالمسائل الأخلاقية. ويرون في الدرويد أكثر الناس عدلاً، ولذلك يعهدون إليهم النظر في النزاعات الخاصة والنزاعات الاجتماعية. ولذلك كان هؤلاء يسوون فيما مضى، الصدامات المسلّحة ويرغمون المتقاتلين على وقف القتال عندما يكون هؤلاء قد اصطفّوا ليقاتل بعضهم الآخر؛ وكان يعهد إليهم أيضاً بالحكم في جرائم القتل. ويترافق كمّ كبير من هذه الأعمال، كما يرون، بوفرة الخيرات في البلاد. وليس الدرويد وحدهم الذين يزعمون، بل يزعم آخرون[16] أيضاً، أن الأرواح خالدة والكون خالد[17]؛ ومع ذلك فإن النار والماء ينتصران عليهما في آخر المطاف.

5- وعلاوة على البساطة والشجاعة، فإن لدى الغاليين أيضاً كثير من الغباء والغطرسة، والشغف بالمجوهرات، فهم لا يكتفون بحمل الحليّ الذهبية- عقود حول الأعناق، وأساور حول المعاصم والأرساغ، بل ويرتدي وجهاؤهم ثياباً ملوّنة موشاة

بالذهب. وبسبب هذا الخواء الروحي فإنهم إذا انتصروا لا يطاقون، وإذا هزموا فقدوا توازنهم وذهلوا. وبالإضافة إلى ذلك، يترافق غباؤهم بتقليد بربري وغير مألوف يتسم به أكثر الشعوب الشمالية، فعندما يعودون من المعركة يعلّقون رؤوس أعدائهم على أعناق جيادهم، ويدقّون هذه الغنائم الحربية على مداخل منازلهم بالمسامير. ويقول بوسيدونيوس إنه تأتّى له أن يرى هذا المنظر بأمّ عينه في أماكن كثيرة، ومع أنه أحسّ بالاشمئزاز في بادئ الأمر، إلاّ أنه ما لبث أن اعتاد المنظر. أمّا رؤوس أشراف أعدائهم فقد كان الغاليون يعرضونها [محفوظة] بزيت الأرز، أمام الغرباء ليروها، وكانوا يرفضون التنازل عنها [أخذ ديتها] لقاء الذهب كلّه. وقد جعل الرومان الغاليين يقلعون عن تقليدَي تقديم القرابين والتنجيم المناقضين لما هو معمول به عندنا. فقد كانوا يطعنون الشخص المقضي عليه أن يكون ضحية[18]، طعنة في ظهره، ثمّ ينجّمون حسب تشنّجاته. ولكنّهم لم يباشروا تقديم الأضاحي إلاّ بحضور الدرويديين[19]. كما يذكر ضرب آخر من ضروب تقديم القرابين البشرية؛ فقد كانوا يرمون الضحايا بالسهام أو يصلبوهم في المعابد، أو يبنون نصباً ضخماً من القش والأخشاب، ثمّ يرمون هناك المواشي وشتّى الحيوانات البرية، وكذلك البشر، ويضرمون النار في هذا كلّه[20].

6- ويقول بوسيدونيوس، إنه ثمّة جزيرة في المحيط، تقع غير بعيد جدّاً في عرض البحر، قبالة مصبّ نهر الليغير مباشرة؛ وأن نسوة سامنيتيات مسكونات بديونيسيوس يعشن في هذه الجزيرة؛ وإن هؤلاء يتوسلن هذا الإله بتأدية طقوس صوفية، وما شابه ذلك من الحركات والأفعال المقدّسة؛ ولا يطأ الجزيرة أيّ رجل، مع أن النسوة يغادرنها للتواصل مع الرجال ثمّ يقفلن عائدات إليها بعد ذلك. ويواصل بوسيدونيوس حديثه قائلاً، إن هناك تقليداً يقضي برفع سقف المعبد مرّة في العام، ثمّ إعادته إلى مكانه في اليوم نفسه قبيل مغيب الشمس، وفي أثناء ذلك تحمل كلّ من النسوة حملتها من القش إلى السطح؛ وإذا ما سقطت من بين يديّ إحداهنّ حملتها، فإن الأخريات يمزّقنها إرباً إرباً؛ ثمّ يحملن أشلاء الضحية ويدرن حول المعبد وهنّ يصرخن مرددات «أيو- آ»[21] ولا يتوقفن عن الدوران حتّى يهدأ جنونهن؛ وبحسب قوله، إن المعتاد هو أن يطعن أحد ما [حتى الموت] المرأة المعنية. ولكنّ حكاية أرتيميدور الآتية عن الغربان، حكاية أكثر خيالية من هذه. فهو يروي: «أن هناك ميناء على ساحل المحيط يدعى ميناء "الغرابيْن"؛ إذ يظهر هنا غرابان الجناح الأيمن لكلّ منهما أبيض اللون بعض الشيء؛ فيأتي إلى هنا الذين بينهم خلافات ما، ويضع كلّ من المتخاصمين خشبة في مكان مرتفع ويضع عليها كسرة رغيف من خبز الشعير؛ فيأتي الطيران ويأكلان جزءاً من الخبز ثمّ

يبعثران الجزء الآخر؛ فيربح الدعوى ذلك الذي يبعثر الغرابان خبزه». إن حكاية أرتيميدور هذه حكاية مغرقة في الخيال، أمّا روايته عن ديميترا وكورا، فهي رواية محتملة الحدوث أكثر من سابقتها. فهو يروي: «إنه توجد على مقربة من بريطانيا جزيرة يقدّمون فيها قرابين شبيهة بالقرابين التي يقدّمونها لديميترا وكورا في ساموتراقيا». وخبريته الأخرى هي أيضاً من ضروب الخبريات التي يمكن تصديقها، فهو يروي أنه تنمو في سلتيا شجرة كشجرة التين، ثمرها يشبه تاج العمود الكورينثي؛ وإذا ما جرحت الثمرة في رأسها، فإنها تخرج سائلاً قاتلاً يستخدم لتسميم رؤوس السهام. أمّا خبريته التالية، فإنها من الخبريات الأكثر شيوعاً: إن السلتيين كلّهم يحبّون المراهنات[22]، ولا يعدّ من المخجل عندهم أن يكون الشباب سخياً في تبذير مفاتنه. وفي وصفه لسلتيا يقدّمها إيثور بحجم مبالغ جداً في ضخامته، فهو ينسب إليها أكثر المناطق حتّى غادير، وهي المناطق التي ندعوها الآن إيبيريا؛ ثمّ يعلن سكّانها أصدقاء للإغريق راوياً عنهم كثيراً من الأشياء الفريدة، وهو ما لا يتوافق مع الواقع الراهن للأشياء وتعدّ خبريته التالية واحدة من الخبريات الفريدة الغريبة. فيقول، إنهم يحاولون ألاّ يكونوا شرهين كي لا تنمو لهم كروش كبيرة، وإذا ما تجاوز الفتى معيار الحجم المحدّد- مقاس الخصر، فإنه يعاقب. ذلكم ما أردت قوله عن سلتيا التي وراء الألب.

الفصل الخامس

1- تمثل بريطانيا من حيث الشكل مثلثاً؛ ويمتدّ أطول جوانبها على موازاة سلتيا، وهي ليست أطول منها وليست أقلّ منها طولاً؛ فطول كلّ من الساحلين ما يقارب 4300 أو 4000 مرحلة؛ فالساحل السلتي من مصبّات الرين حتّى الأطراف الشمالية للبيرينيه قرب أكويتانيا، وكذلك الساحل البريطاني من كانتيوس، قبالة مصبّات الرين مباشرة، أقصى نقطة شرقية من بريطانيا، وصولاً إلى الطرف الغربي من الجزيرة، الواقع قبالة أكويتانيا والبيرينيه، إن هذه طبعاً، هي أقصر مسافة من البيرينيه إلى الرين، لأنّ المسافة الأطول، كما أسلفت[1]، تبلغ حوالي 5000 مرحلة. ولكن لعل هناك بعض الخروج عن وضعية التوازي هذه التي يشغلها النهر والجبال بالنسبة لبعضهما بعض[2]، لأنّ هناك بعض الالتواء في النهايات حيث يقتربان من المحيط.

2- وهناك أربع نقاط عبور يستخدمونها عادة للانتقال من القارّة إلى الجزيرة:

من مصبّات نهر الرين، ونهر سيكوانا، ونهر الليغير، ونهر غارومنا. لكنّ الذين يخرجون إلى البحر من مناطق الرين، لا ينطلقون من مصبّ النهر عينه، بل من ساحل المورونيين، جيران المينابيين. ويقع على ساحلهم أيضاً ميناء إيتيوس الذي استخدمه قيصر الإلهي محطة للعبور إلى الجزيرة[3]. فقد خرج إلى البحر ليلاً، ورسا في اليوم التالي عند الساعة الرابعة[4] قاطعاً طريقاً بحرية طولها 320 مرحلة[5]؛ وقد أدرك الأقماح وهي لا تزال في الحقول. فالمساحة الأكبر من الجزيرة تتألف من السهول التي تكسوها الغابات، مع أن الهضاب موجودة في أماكن كثيرة. وتنتج الجزيرة الأقماح، والقطعان، والذهب، والفضّة، والحديد. ومن هنا يستوردون هذه المواد، كما يستوردون منها أيضاً الجلود، والعبيد، وكلاب الصيد الأصيلة؛ ويستخدم السلتيون هذه الكلاب والكلاب المحلّية في الحرب أيضاً. وقامات سكّان بريطانيا أطول من قامات السلتيين، وشعرهم أقلّ شقاراً، لكنّ بنيتهم الجسدية أرقّ وأضعف. ويمكنني أن أسوق الآتي دليلاً على طول قاماتهم: لقد رأُيت بأمّ عيني في روما مراهقين بريطانيين قاماتهم أطول بنصف قدم من قامات أطول رجال المدينة، مع أن أرجلهم كانت مقوسة، وبنيتهم الجسدية لم تكن تتميّز، بالمتانة. وتشبه عادات البريطانيين عادات السلتيين جزئياً، ولكنّها في بعض جوانبها عادات أكثر بساطة، وبربرية[6]، فبعضهم إذا فاض عندهم إنتاج الحليب، لا يعرفون كيف يصنعون منه الجبن؛ وليس للبريطانيين خبرة في أعمال البستنة أيضاً، ومثلها باقي الأعمال الزراعية. وعند البريطانيين زعماء قبليين. وفي الحرب يتألّف أغلب القوّات المقاتلة عندهم من المركبات، كما هي الحال عند بعض السلتيين. ومدن البريطانيين هي الغابات، لأنهم يصنعون حول دائرة[7] واسعة من الأرض، سياجاً من الأشجار التي يرمون بعضها فوق بعض، وهناك داخل هذه الدائرة يبنون أكواخهم وحظائر قطعانهم، ولكن ليس لوقت طويل. وأغلب الهطولات في بلادهم هطولات مطرية وليست ثلجية، وحتّى في أيام الصحو يستمرّ الضباب عندهم طويلاً، بحيث لا تظهر الشمس أكثر من 3-4 ساعات عند منتصف النهار. وهذه [الظاهرات] تحدث أيضاً عند المورونيين، والمينابيين وجيرانهم كلّهم.

3- لقد توجّه قيصر الإلهي إلى الجزيرة مرتين؛ لكنّه اضطر أن يعود سريعاً من هناك قبل أن يتسنّى له القيام بأيّ عمل عظيم، أو التوغل في عمق البلاد؛ ففي بلاد السلتيين اشتعلت الانتفاضات في أوساط البرابرة، كما في أوساط جنوده[8]، وتحطّم كثير من سفنه في طور انتصاف القمر، إذ تتزايد شدّة المدّ والجزر في مثل هذا الوقت[9]. ومع ذلك حقّق قيصر نصرين أو ثلاثة على البريطانيين، مع أنه لم يرسل إلى

الجزيرة سوى فيلقين من قوّاته؛ وقد ساق معه رهائن، وعبيداً، وكثيراً من الغنائم الحربية الأخرى. ولكن بعض زعماء القبائل في الجزيرة عقدوا في الوقت الراهن اتفاقيات صداقة مع قيصر أغسطس[10]، فأرسلوا إليه السفارات وعبّروا عن آيات الاحترام، وقدّموا الهدايا في الكابيتول، ووضعوا الجزيرة كلّها عملياً تحت تصرّف الرومان. فهم يتحمّلون أعباء الرسوم المفروضة على البضائع المصدّرة إلى سلتيا والمستوردة منها (أساور، وعقوداً من العاج والعظم، والكهرمان[11]، والأواني الزجاجية، وما شابه من الأشياء الصغيرة) بقبول ينفي الحاجة إلى وجود حامية في الجزيرة؛ فقد كان مثل هذا الأمر يتطلّب إرسال فيلق بالحدّ الأدنى، وعدد من الفرسان لجباية الإتاوات من الجزيرة، ولكنّ نفقات الجيش كان يمكن أن تستهلك واردات الإتاوات[12]؛ وفرض الإتاوات على السكّان، كان يقضي بالضرورة تقليص الرسوم، وكان هذا يمثل في الوقت نفسه، بعض الخطورة في حال استخدام القوة.

4- وثمّة على مقربة من بريطانيا جزر صغيرة أخرى، إضافة إلى جزيرة كبيرة هي جزيرة هيرنا[13]، الواقعة في الشمال على موازاة بريطانيا؛ وعرض هذه الجزيرة أكبر من طولها[14]. وأنا ليس بمقدوري أن أقول أيّ شيء محدّد عن هذه الجزيرة، ما عدا أن سكّانها أكثر توحّشاً من البريطانيين، لأنهم من أكلة لحوم البشر، ومغرقون في الشراهة[15]؛ فهم يفاخرون بأكل جسديّ والديهم بعد الموت، ويمارسون الجنس علانية مع أمهاتهم وأخواتهم، إضافة إلى أي نسوة أخريات. وأنا إذ أنقل هذا أدرك أنه ليس لدينا شهود يوثق بهم ليؤكّدوا على وجود مثل هذه العادات، مع أنه يروى بصدد أكل لحوم البشر، أن هذه العادة موجودة لدى السكيثيين، وعند الضرورة كما في أوقات الحصار[16]، كان يلجأ إليها السلتيون، والإيبيريون، وكثير من الشعوب الأخرى[17]، كما تقول الروايات.

5- أمّا معطياتنا التاريخية عن فولا فإنها أكثر إبهاماً، بسبب موقعها النائي[19]، لأنّ فولا تعدّ من بين البلدان المعروفة، أقصى البلدان الشمالية. ولكنّ روايات بيفوس عن فولا (كما عن باقي أماكن هذه المنطقة)، روايات مختلقة كلّها، وهو ما يتّضح من خبرياته عن البلدان المعروفة لنا[20]؛ ففي أكثر الحالات جاءت أخباره حتّى عن هذه الأخيرة أخباراً غير صحيحة، كما أسلفت[21]، ولذلك فمن الواضح أنه كذب أكثر عندما تحدّث عن البلدان النائية. أمّا فيما يتعلّق بالظاهرات السماوية[22] ونظرية الرياضيات، فيبدو أنه أحسن استخدام الحقائق التي توفّرت له عن الذين كانوا يعيشون على مقربة من المنطقة الباردة، إذ تحدّث عن الشحّ، ونقص الحيوانات

المنزلية والثمار، وعن أن الناس الذين يعيشون هناك يقتاتون بالدخن وسواه من الغلال، والثمار، والجذور، وحيث يوجد القمح والعسل، يصنعون منهما شراباً[23]. وعن القمح يقول بيفوس، بما أنهم لا يعرفون أياماً مشمسة لذلك يدرسون أقماحهم في عنابر كبيرة، إذ يجمعون السنابل هناك حزماً؛ فهم لا يستخدمون جرن الدق بسبب نقص الأيام المشمسة وكثرة الأمطار.

الفصل السادس

1- بعد سلتيا التي وراء الألب، والقبائل التي تشغل هذه البلاد، ينبغي عليَّ أن أتحدّث عن الألب نفسها وعن سكّانها، ثمّ عن إيطاليا كلّها، ملتزماً نظام الوصف نفسه الذي يوحي بطبيعة البلاد. وعلى هذا النحو فإن بداية الألب ليست عند ميناء مونيكوس، كما قال بعضهم، بل في تلك المنطقة عينها التي تبدأ منها جبال الأبينين - قرب جنوا، مركز الليغوريين التجاري، وما يسمّى «فادا (أي المياه الضحلة) الساباتيين»، لأنّ جبال الأبينين تبدأ عند جنوا، بينما تبدأ جبال الألب عند الساباتيين؛ والمسافة بين جنوا والساباتيين 260 مرحلة؛ ومن ثمّ مسافة 370 مرحلة من الساباتيين إلى مدينة الأبينغاونوم؛ ويدعى الليغوريون الذين يقطنون هذه المدينة، إينغاونيين؛ ومن هناك حتّى ميناء مونيك 480 مرحلة. وبعد ذلك تقع في هذا الفاصل مدينة كبيرة، هي ألبيوس إينتيميلوس، التي يسكنها الإينتيميليون. وواقع الأمر هو أن البرهان على أن جبال الألب تبدأ عند الساباتيين، يُستنتج من هذه التسميات نفسها، لأنّ الألب كانت تدعى من قبل ألبيا، وكذلك أيضاً ألبيون؛ وحتّى يومنا هذا لا يزال الجبل الشاهق الواقع في منطقة اليابوديين، والذي يكاد يلامس جبل أوكرا وجبال الألب، لا يزال يدعى جبل ألبيا، وكأن الألب تمتدّ حتّى هذا الجبل.

2- ويقال، بما أن فريقاً من الليغوريين كان يدعى إينغاونيين، والفريق الآخر إينتيميليين، لذلك فإنه ثمّة أسس كافية لأن يدعى أحد مركزيّ تجمّعاتهم على البحر ألبيوس (ألبيّ) الأينتيميلي، والآخر ألبينغاونوم. ويضيف بوليبيوس إلى القبيلتين الليغوريتين المذكورتين، قبيلتين أخريين: قبيلة الأوكسيبيين، وقبيلة الديكيتيين. وعلى وجه العموم، يمكن القول، إن هذا الساحل كلّه، ابتداء من ميناء مونيكوس حتّى تيرينيا، ليس مفتوحاً للرياح وحسب، إنّما محروم من الموانئ أيضاً، ما عدا مراس صغيرة، واستراحات للسفن. وتشرف على هذا الساحل كذلك، جروف جبلية شاهقة جدّاً، لا تترك سوى ممرّ ضيّق عند البحر. ويشغل هذه المنطقة الليغوريون الذين تشكّل لحوم الحيوانات المنزلية وحليبها الغذاء الرئيس لأكثرهم، خاصة سكّان الجبال. وفي

الجبال وفرة من أخشاب بناء السفن، فأشجارها هناك كبيرة جدّاً، وقد يبلغ قطر بعضها 8 أقدام. وألوان كثير من هذه الأشجار ليست أقلّ تنوّعاً من الشجر التويفي[1]، إذا ما استخدمت أخشابها في أعمال النجارة. وهم على هذا النحو ينقلونها إلى ميناء جنوا، مثلها مثل القطيع، والجلود، والعسل، فيبادلون بها زيت الزيتون، والنبيذ الإيطالي (النبيذ عندهم قليل، مشوب باللبان[2] وقابض). ولا تنشأ هناك ما يسمّونها «جينات»[3] الخيل والبغال فقط، إنّما الخيتونات و«الساغات»[4] أيضاً. ويعثرون في بلادهم على كميات كبيرة من الكهرمان الأحمر[5]، الذي يدعوه بعضهم إيليكتر. ومع أن الليغوريين في الحملات فرسان رديؤون، إلاّ أنهم متميّزون كمشاة ثقيلة التسليح، وصناديد في العراك بالأيدي. ولأنهم يستخدمون التروس البرونزية، فقد استنتج بعضهم أنهم إغريق.

3- يعدّ ميناء مونيكوس استراحة بحرية للسفن غير الكبيرة، ولا يستوعب إلاّ عدداً محدوداً منها؛ ويعوم فيه معبد هرقل مونيكوس[6]. واستناداً إلى الاسم[7] يمكننا أن نفترض أن إبحار الماساليين على الساحل امتدّ حتّى ميناء مونيكوس[8]. والمسافة من ميناء مونيكوس حتّى أنتيبوليس لا تتعدى 200 مرحلة بكثير. ومن هنا حتّى ماساليا وبعدها بقليل تشغل قبيلة الساليين ما يشرف من جبال الألب على الساحل، كما تشغل بالمشاركة مع الإغريق، جزءاً معيناً من الساحل نفسه. وقد دعا الكتّاب الإغريق القدماء الساليين، «بالليغيين»[9]، ودعوا البلاد التي يشغلها الماساليّون «ليغيستيكا»؛ ويدعوهم الكتّاب المتأخرون «سلتوليغيين» ويلحقون بمنطقتهم السهل كلّه وصولاً إلى لوريون ورودان، وهي البلاد التي ينقسم سكّانها إلى 10 فرق، وكانوا يجندون جيشاً من المشاة والفرسان. وكانت هذه القبائل هي القبائل الأولى من قبائل السلت وراء الألب التي أخضعها الرومان لسيطرتهم، مع أنه تأتّى لهؤلاء أن يحاربوها ويحاربوا الليغوريين طويلاً، لأنّ هؤلاء الأخيرين كانوا يغلقون المعابر المؤدية إلى إيبيريا على طول الساحل. وكانوا فعلاً يشنون غزوات للسلب والنهب في البرّ والبحر، وكانوا أقوياء إلى حدّ أن الطرقات باتت بالكاد آمنة حتّى لعبور الجيوش الكبيرة. وبعد حرب استمرّت ثمانين عاماً بالكاد نجح الرومان في فتح طريق عرضها 12 مرحلة فقط لتلبية ضرورات الدولة. وبعد ذلك أخضع الرومان هذه القبائل كلّها، وفرضوا عليها الإتاوات، وبنوا لها دولتها.

4- بعد الساليين يأتي الألبيّون والألبيكيّون، والفوكونتيّون الذين يشغلون الشطر الشمالي من الجبال. ولكنّ الفوكونتيين الذين يسكنون مع الآخرين جنباً إلى جنب، يصلون حتّى الأللوبروغيين؛ فهم يشغلون في أعماق بلادهم الجبلية ودياناً كبيرة

ليست أقل شأناً من تلك التي يشغلها الأللوبروغيون. ويخضع الأللوبروغيون والليغوريون لسلطة القضاة الذين يقيمون في ناربونيتس، أمّا الفوكونتيون (كما كنت قد قلت عن الفولكيين الذين يقطنون عند نيماوس)، فيعدّون مستقلّين[10]. ومن بين الليغوريين الذين يقطنون بين نهر فار وجنوا، يتمتّع سكّان الساحل فقط بالأهلية القانونية نفسها التي للإيطاليوتيين[11]، بينما يرسلون لسكّان المناطق الجبلية والياً من فئة الفرسان، كما هي الحال بالنسبة للقبائل الأخرى البربرية تماماً.

5- ويلي الفوكونتيين الإينكونيون، والتريكوريون، ثمّ الميدوليون الذين يشغلون القمم الأعلى. وعلى أي حال فإن أعلى هذه القمم يبلغ ارتفاعها كما يقولون، 100 مرحلة صعوداً ومثلها لدى الهبوط إلى حدود إيطاليا. وثمّة فوق، في بعض التجويفات العميقة بحيرة كبيرة ومنبعان غير بعيد واحدهما عن الآخر. ويشكّل أحد هذين المنبعين أصلاً ينطلق من دروينتسيا، وهو نهر جامح صاخب يهوي في نهر رودان، كما ينطلق من هذا المنبع أيضاً نهر دوريوس[12] الذي يجري بالاتجاه المعاكس، لأنّ دروينتسيا يجري أولاً عبر بلاد السالاسيين وسلتيا التي على هذا الجانب من الألب، ثمّ يندغم بنهر باد. ومن المنبع الآخر، بعيداً أدنى من المناطق المذكورة، ينبع نهر باد نفسه، وهو نهر ماؤه غزير وجريانه سريع؛ لكنّه في مراحل أخرى من جريانه، يغدو مجراه أعرض وجريانه أهدأ؛ وعندما يبلغ الوديان ترفده كثرة من الروافد، فيغدو أكثر عرضاً وأقوى ماء؛ ولكنّ فيضان الماء يحدّ من جريان النهر ويعصفه، وبعد ذلك يصبّ باد في البحر الأدرياتيكي بعد أن يكون قد تحوّل إلى أقوى نهر في أوروبا بعد نهر إيستر. ويعيش الميدوليون في الجزء الأكبر الواقع فوق نقطة التقاء إيسار مع رودان.

6- وفي الاتجاه نحو الأجزاء الأخرى من البلاد الجبلية المذكورة التي تتّجه نحو إيطاليا، يعيش التاورينيون (قبيلة ليغورية) والليغوريون الآخرون؛ ولهؤلاء الأخيرين الأرض التي تدعى دونّوس وكوتيوس[13]. وبعد هذه القبائل وباد[14] يأتي السالاسيّون، وإلى الأعلى منهم فوق القمم الجبلية، الكيفترونيّون، والكاتوريغيّون، والفاراغريّون، والنانتواتيّون، وبحيرة ليمينا التي يخترقها رودان ومنبع هذا النهر. وغير بعيد عن هذه الأماكن تقع أيضاً منابع الرين وجبل آدولا حيث يجري الرين شمالاً، وأدّوا بالاتجاه المعاكس ليصبّ في بحيرة لاريوس الواقعة قرب كوم. ووراء كوم الواقعة عند سفوح الألب، تقع على الجانب نفسه متجهة شرقاً، منطقة الريتيين والفينونيين، وتقع على الجانب الآخر منطقة الليبتونتيين، والتريدينتينيين، والستونيين وكثير من القبائل الصغيرة الأخرى النهّابة والفقيرة التي كانت تمتلك إيطاليا في زمن ما؛ وفي وقتنا الراهن

أبيد بعض هذه القبائل إبادة تامة، وأخضعت القبائل الأخرى تماماً، فباتت المعابر الجبلية الواقعة في منطقتهم، والتي كانت فيما مضى نادرة وعبورها خطر وصعب، باتت الآن كثيرة وآمنة [من قطاع الطرق] للبشر، وبات عبورها يسيراً جدّاً فقد أباد أغسطس قيصر عصابات قطاع الطرق، وشقّ الطرقات في كلّ مكان مناسب؛ فالتغلّب على الطبيعة لم يكن ممكناً في كلّ مكان، وشقّ الطريق عبر الصخور والجروف الجبلية الكبيرة التي كانت تشرف على الطريق أحياناً، وتسقط عليها في بعض الأحيان، كان يحمل دائماً خطر الموت في أعماق هوّة سحيقة أو واد لا قرار له. وكانت الطريق في بعض الأماكن هناك ضيّقة إلى حدّ التسبب بالدوار لكل من يعبرها ماشياً،ولا ينسحب هذا على الناس فقط، بل وعلى حيوانات النقل إذا لم تكن قد اعتادتها؛ لكنّ الحيوانات المحلّية تعبرها من غير صعوبات. وعلى هذا النحو فإن هذه الصعوبات لا تزال ماثلة، كما لا تزال ماثلة كذلك طبقات الجليد الكبيرة التي تزحف من الأعلى لتقطع طريق جماعات كبيرة من عابريّ السبيل وتقذف بهم إلى أعماق الهاوية؛ فكثير من طبقات الجليد هناك يستلقي بعضه فوق بعض؛ وتشبه الجليد أيضاً الكتل الثلجية التي يتراكم بعضها فوق بعض، ومن وقت لآخر تنفصل طبقات الثلج العليا عن السفلى قبل أن يكتمل ذوبانها تحت أشعة الشمس.

7- ويقع الشطر الأكبر من بلاد السالاسيين في واد عميق (تحيط الجبال بالمكان من الجانبين)، بينما يمتدّ بعض من أراضيها حتّى القمم الجبلية العالية. وعبر هذا الوادي تمتدّ طريق كلّ الذين يعبرون الجبال من إيطاليا. وتتفرّع الطريق بعد ذلك إلى اثنتين تمتدّ إحداهما عبر الجبل المسمّى بينين، وهي طريق غير سالكة لنقل البضائع عند قمم الألب، بينما تنعطف الطريق الأخرى أكثر نحو الغرب عبر منطقة الكيفترونيين(1). ونصادف في منطقة السالاسيين وجود مناجم ذهب كان السالاسيون يملكونها في الأزمنة المنصرمة، عندما كانوا أقوياء، كما كانوا يسيطرون على الممرّات الجبلية أيضاً. كما كان نهر دوريوس يقدّم لهم مساعدة كبيرة في استخراج الذهب، خاصة في غسله؛ ولذلك وزّعوا مياهه في كثير من الأماكن في قنوات فجففوا بذلك المجرى الرئيس للنهر تماماً، ومع أن هذا كان لصالح السالاسيين في سباقهم للحصول على الذهب، إلاّ أنه حمل الويلات للفلاّحين الذين كانوا يزرعون السهول الواقعة في الأسفل، لأنّ الأراضي حرمت من الري، بينما كان النهر قادراً على ريّ المنطقة كلّها، لأنّ مجراه كان يقع أعلى منها. ولهذا السبب كانت الحرب دائمة الحضور في العلاقات بين القبيلتين. ولكن بعد أن فرض الرومان سيطرتهم، خسر

السالاسيون مناجم الذهب مع الأرض؛ ولكنّ المياه بقيت لهم يبيعونها لمتعهدي الدولة الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة استثمار مناجم الذهب؛ ولأن هؤلاء المتعهدين كانوا جشعين جدّاً، فإن النزاع بينهم وبين السالاسيين لم يتوقّف. وعلى هذا النحو فإن ذرائع كثيرة للحرب كانت تتوفّر للمواطنين الرومان الذين كانوا يسعون من وقت لآخر لقيادة الجيوش ويرسلون إلى هذه المناطق. وواقع الأمر هو أن السالاسيين كانوا حتّى وقت قريب يقاتلون الرومان تارة ويتوقفون عن قتالهم تارة أخرى، وقد بقي لديهم من القوّة ما يكفي لإلحاق أذى كبير بكلّ الذين كانوا يعبرون الجبال الواقعة في بلادهم. فقد أرغمو[15] حتّى ديسيموس بروتوس لدى فراره من موتينا، أن يدفع لهم إتاوة قدرها دراخما واحدة عن كلّ شخص؛ وعندما قضى ميسالوس الشتاء على مقربة من بلادهم، كان عليه أن يدفع لهم ثمن الخشب الذي يستهلكه للتدفئة، وصناعة المزاريق، وتأدية التمارين الرياضية[16]. ومرّة نجح هؤلاء القوم في أن يستولوا على أموال من قيصر نفسه؛ فقد دحرجوا الصخور من فوق على فيالقه، متذرّعين بأنهم يشقّون طرقاً ويبنون جسوراً فوق النهر. ومع ذلك نجح أغسطس بعد ذلك بإخضاعهم تماماً، ثمّ جاء بهم إلى مستعمرة إيبوريديا الإيطالية كغنيمة حربية وباعهم عبيداً؛ ومع أن الرومان استعمروا هذه المدينة[17] رغبة منهم في أن يجعلوا منها نقطة استناد دفاعية ضدّ السالاسيين، إلاّ أن السكّان عجزوا من مقاومة هؤلاء مقاومة فعّالة، إلى أن قضى الرومان عليهم قضاء تاماً. وعلى هذا النحو فإنه على الرغم من أن عدد الباقي من الأسرى كان 36.000، وعدد القادرين على حمل السلاح 8000، إلا أن تيرينسيوس فارون، القائد الذي قهرهم، باع جميعهم «تحت الرمح»[18]. وقد أرسل قيصر إلى هناك 3000 روماني وأسّس مدينة أوغسطا[19] في المكان عينه الذي كان يقوم فيه معسكر فارّون؛ وفي الوقت الراهن تعيش البلاد المجاورة كلّها بسلام، بما في ذلك الممرّات العليا التي تمتدّ عبر الجبال.

8- تلي ذلك بالترتيب أجزاء الجبال المتّجهة نحو الشرق ونحو الجنوب؛ ويشغلها الريتيون والوينديليكيون التي تجاور مناطقهم مناطق الجيلفيتيين والبويين، لأنّ أراضيهم تقع على مقربة من سهول هذه القبائل. وتمتدّ منطقة الريتيين حتّى شطر إيطاليا الواقع فوق فيرونا وكوم (ونقول في السياق، إن النبيذ «الريتي» الذي يهيأ لي أنه لا يقلّ جودة عن أفضل أنواع النبيذ الإيطالي، ينتج هناك على سفوح الألب الريتية)، وتصل أيضاً حتّى المناطق التي يجري فيها الرين؛ وينتمي إلى هذه القبيلة الليبونتيون والكامونيون. ويشغل الويندليكيون والنوريكيون الشطر الأكبر من الجانب الخارجي لسفوح الجبال، بالمشاركة مع البيرونيين والجنويين[20] (وينتمي هؤلاء

الأخيرون إلى الإيلليريين). وكانت هذه القبائل كلّها تشنّ بين الحين والآخر غزوات ضدّ أجزاء إيطاليا المجاورة لها، كما ضدّ بلاد الجيلفيتيين، والسيكوانين، والبويين، والجرمان. وكان الليكاتيون، والكلاوتيناتيون، والفينونيون أكثر المقاتلين شجاعة وبأساً بين الويندليكيين كلّهم، أمّا بين الريتيين فإن الأشجع هم الروكانتيون والكوتوانتيون. وينتمي إلى الويندليكيين كلّ من الأيستيونيين، والبريغانتيين ومدنهم، بريغانتيوس، وكامبودونوم، وداماسيا التي تعدّ بمثابة أكروبوليس الليكاتيين. وقد شاعت حكايات عن قسوة هذه القبائل النهّابة ضدّ الإيطاليين. فعندما كانت هذه تستولي على قرية أو مدينة لم تكن تكتفي بقتل الذكور كلّهم ومن كلّ الأعمار، إنّما كانوا يقتلون حتّى الرضّع، بل والنسوة الحوامل اللواتي كان المتنبّئ يقول أنهن يحملن بذكور.

9- وتأتي بعد هذه القبائل، القبائل التي تسكن على مقربة من منخفض البحر الأدرياتيكي والمناطق المحيطة باكويليا: الكارنيون، وكذلك بعض من النوركيين؛ كما ينتمي التاوريسكيون إلى النوركيين أيضاً. وفي حملة صيفية واحدة، أرغم طيباريوس وشقيقه دروز هذه القبائل كلّها على أن توقف غزواتها الجموحة، وها قد حلّ الآن العام 33 وهي تعيش بسلام وتؤدّي الإتاوة بانتظام. وتنتشر في شتّى أنحاء البلاد الألبية الجبلية مناطق مرتفعات مؤهّلة تأهيلاً ممتازاً للعمل الزراعي، كما أحسن السكّان حراثة الوديان؛ ومع ذلك فإن قسماً كبيراً من الأراضي القريبة من القمم الجبلية، حيث يتمركز عادة قطاع الطرق، يتميّز بالشح والجدب، إمّا بسبب الصقيع، وإما بسبب الطابع الذي تتسم به تربة التلال. وعليه فإن الشحّ في القوت والمواد الضرورية الأخرى، دفعهم في بعض الأحيان إلى طلب الرأفة من سكّان السهول لكي يزودهم بالمواد التموينية؛ ورداً للجميل كانوا يزوّدونهم بالأخشاب، والقطران، والقار، وعيدان الإشعال، والشمع، والعسل، والجبن، لأنه كان لديهم وفرة كبيرة من هذه المواد. وإلى الأعلى من الكارنيين يقع جبل الأبينين[21] مع البحيرة التي تتّصل بنهر إيسار[22]؛ وبعد أن يستقبل هذا الأخير نهر أتاغيس[23]، يصبّ في البحر الأدرياتيكي. وينبع من البحيرة عينها نهر يدعى أتيسين[24]، يصبّ في نهر إيستر. وينبع إيستر فعلاً من هذه الجبال التي تنقسم إلى أجزاء كثيرة وكثرة من القمم؛ فمن ليغوريا حتّى هذه النقطة تمتدّ بلا انقطاع أجزاء الألب العالية، تاركة انطباعاً بأنها جبل واحد، ومن ثمّ تتقطع وتغدو أكثر انخفاضاً، لتعود بعد ذلك إلى الارتفاع من جديد مشكلة كثيراً من الشعب وكثرة من القمم. والأولى من هذه، هي سلسلة الجبال الواقعة على الجانب الآخر من

الرين والبحيرة[25]، مع انعطاف نحو الشرق لمرتفع غير كبير؛ وهناك على مقربة من السويفيين والغابة الهركانية، تقع منابع إيستر. وهناك أيضاً سلاسل أخرى تتّجه نحو إيلليريا والبحر الأدرياتيكي، ومن هذه الأخيرة جبل أبينين الذي سبق ذكره، وكذلك تولّ وفليغاديا، وهما الجبلان اللذان يشرفان على الويندليكيين؛ وينبع من هنا دورا، وكلانيس وكثير من الجداول الجبلية الأخرى التي تصبّ في إيستر.

10- ويأتي بعد ذلك اليابوديون[26] (نتحوّل الآن إلى هذه القبيلة الخليط من الإيلليريين والسلت[27])، ويعيش هؤلاء قرب هذه المناطق؛ ويقع على مقربة من هذه القبيلة، جبل أوكرا. لقد كان اليابوديون قبلاً كثيري العدد وشجعاناً، فامتلكوا المكان على جانبيّ الجبل وغدا موطنهم الأمّ، وفرضوا سيطرتهم على هذه الأنحاء عنوة، لكنّ أغسطس قيصر هزمهم فيما بعد وأخضعهم نهائياً. ومدنهم هي ميتول، وأروبينا، ومونيتيوس، ووينْدون. وبعد اليابوديين تأتي في السهل مدينة سيغيستيكا التي يجري على مقربة منها نهر ساف الذي يصبّ في إيستر. وموقع هذه المدينة ملائم لإدارة عمليات عسكرية ضدّ الداكيين. ويعدّ جبل اوكرا أكثر أجزاء الألب انخفاضاً في المنطقة التي تجاور فيها جبال الألب بلاد الكارنيين، وعبره تنقل البضائع من أكويليا بالعربات إلى ناوبورت مسافة تزيد قليلاً عن 400 مرحلة؛ ويبحرون بالبضائع من هذه النقطة عبر الأنهار حتّى إيستر ومناطق في هذا الجزء من البلاد؛ وحقيقة الأمر أن هناك نهر[28] يجري فعلاً على مقربة من ناوبورت، وهو ينبع من إيلليريا، وصالح للملاحة ويصبّ في ساف، ولذلك فإن نقل البضائع فيه إلى الأسفل، إلى سيغيستيكا وبلاد البانونيين والتاوريسكيين[29]، أمر يسير. ويلتقي ساف على مقربة من المدينة[30]، نهر كولابيس؛ والنهران صالحان للملاحة وينبعان من الألب. وتسرح في الألب أفراس وثيران برية. ويقول بوليبيوس، إنه يعيش في الألب حيوان ما شكله فريد[31]، فهو من حيث مظهره يشبه الأيل في كلّ شيء، ما عدا العنق والوبر، (إذ يرى بوليبيوس أنه يشبه الخنزير في هذين)، وله تحت ذقنه بروز غضروفي بقدر راحة الكفّ، مكسوّ بوبر سماكته كسماكة ذيل الحصان.

11- وثمّة بين الممرّات الجبلية التي تقود من إيطاليا إلى سلتيا الخارجية أو الشمالية، ممرّ يقود عبر منطقة السالاسيين إلى لوغدونوم؛ وهذا الممرّ ممرّ مزدوج؛ أحد خطّيه صالح لنقل الشحنات على طول القسم الأعظم من امتداده، وهو يسير عبر منطقة الكيفرترونيين، بينما يمتدّ الفرع الآخر منه عبر بينين، وهو شديد الانحدار وضيّق، لكنّه قصير[32]. وتقع لوغدونوم في مركز البلاد (وكأنها الأكروبوليس)، لا بسبب

التقاء الأنهار فقط، إنّما لأنها تقع على مقربة من شتّى أجزاء البلاد. ولهذا السبب شرع أغريبا بمدّ الطرقات من لوغدونوم: واحدة عبر جبال كيمين إلى منطقة السانتونيين وأكويتانيا، والثانية إلى الرين، والثالثة إلى المحيط (عبر بلاد البيللوفاكيين والأمبيانيين)، والرابعة إلى ناربونيتيس والساحل الماسالي. وعلى بينين نفسه (إذا خلّفت لوغدونوم والبلاد الواقعة إلى الأعلى منها، على يمينك)، هناك طريق جانبية تقود بعد عبور رودان وبحيرة ليمين، إلى سهول الجيلفيتيين؛ وثمّة ممرّ من هناك عبر جبل يورا إلى منطقة السيكوانيين واللينغونيين؛ وتفترق الممرّات عبر هذه المناطق بالاتجاهين: إلى الرين، وإلى المحيط.

12- ثمّ يخبر بوليبيوس بعد ذلك، أنهم عثروا في أيامه، مقابل أكويليا تماماً، في منطقة النوريكيين- التاوريسكيين[33]، على منجم ذهب ملائم لاستخراج المعدن الثمين إلى درجة إنك لو رفعت الطبقة السطحية من التربة بعمق قدمين لعثرت فوراً على الذهب المكنون؛ ولم يتجاوز عمق توضّع الفلزات 15 قدماً في أيّ يوم من الأيام؛ ويواصل بوليبيوس روايته فيقول، إن جزءاً من الذهب كان عبارة عن فلزات طبيعية حجم واحدتها كحجم حبة الترمس أو حبة الفول، ولا يشكّل الفاقد منها أثناء صهرها سوى $\frac{1}{8}$ من الجزء، ومع أن ما يتبقّى يحتاج إلى الصهر أيضاً، إلاّ أن المحصلة تبقى مجدية جدّاً؛ ولكن بعد شهرين من استثمار إيطاليين وبرابرة للمنجم، هبطت أسعار الذهب فجأة في إيطاليا كلّها بمعدل $\frac{1}{3}$، وعندما لاحظ التاوريسكيون هذا، طردوا شركاءهم وأخذوا يستخرجون الذهب ويبيعونه بأنفسهم. ويمتلك الرومان الآن مناجم الذهب كلّها[34]. وكما هي الحال في إيبيريا[35]، كذلك هنا أيضاً، فإضافة إلى الذهب المستخرج من المناجم، تحمل الأنهار بدورها الرمال الذهبية، لكنّ كميته هنا أقل. وعند حديثه عن حجم الألب وارتفاعها، فإن بوليبيوس يقارنها بأعلى جبال الإغريق: تايجيت، ليكيوس، بارناس، الأوليميب، بيليون، أوسا؛ وفي تراقيا: جيموس، رودوبا، ودوناكوس؛ وبحسب قوله، إن أي شخص متمرس يمكنه أن يتسلق أياً من هذه الجبال في يوم واحد تقريباً، كما يمكنه أن يدور حول أي منها في يوم واحد، بينما يستحيل أن يتسلق أحد الألب حتّى في خمسة أيام، فطولها 2200 مرحلة[36] على امتداد السهول[37]. ولكنّ بوليبيوس لا يشير إلاّ إلى أربعة ممرّات جبلية: ممرّ عبر بلاد الليغوريين (وهو الأقرب إلى البحر التيريني)، وممرّ عبر منطقة التاورينيين، وهو الممرّ الذي عبره هنيبعل[38]، وممرّ عبر منطقة السالاسيين، والممرّ الرابع عبر منطقة الريتيين، وهذه الممرّات كلّها ممرّات انهدامية. ويقول بوليبيوس إن في هذه الجبال



بحيرات كثيرة، لكنّ ثلاثاً منها فقط بحيرات كبيرة؛ واحداها بحيرة بيناك التي يبلغ طولها 500 مرحلة، وعرضها 30 مرحلة[39]، ومنها ينبع نهر مينيسيوس؛ ثمّ بحيرة فيربان وطولها 400 مرحلة، أمّا عرضها فأقلّ من عرض البحيرة الأولى، ومنها ينبع نهر آدّوا؛ والبحيرة الثالثة، هي بحيرة لاريوس التي يبلغ طولها حوالي 300 مرحلة، وعرضها 30[40]، وينبع منها نهر كبير، هو نهر تيسين؛ وتصبّ هذه الأنهار كلّها في نهر باد. وذلك هو ما كان يجب عليّ قوله عن جبال الألب.



الكتـاب الخامس

الفصل الأول

1-وراء سفوح الألب تبدأ إيطاليا المعاصرة. وعادة ما كان القدماء يدعون إيطاليا باسم واحد، هو إينوتريا، مع إنها كانت تمتدّ من خليج صقليا حتّى خليج تارانت وبوسيدونيا؛ ثمّ أخذ اسم إيطاليا يغلب بعد ذلك وامتدّ حتّى شمل سفوح الألب؛ عدّاك عن هذا أن هذا الاسم لم يُعرف به شطر من ليغيستيكا، من حدود تيرينيا إلى نهرفار وبحر تلك المنطقة وحسب، بل عرف به أيضاً جزء من إيستريا حتّى بولا. ونحن يمكننا أن نفترض أن الأقوام التي دعيت أولاً بالإيطاليوتية، قد تفوّقت، ونتيجة لتفوّقها أعطت هذه التسمية إلى القبائل المجاورة، وعلى هذا النحو امتدّ الاسم وشاع حتّى زمن السيطرة الرومانية. ولكن، بعد أن منح الرومان الإيطاليوتيين مؤخراً حقوق المواطنية، قرروا منح الحقوق عينها للغلاطيين الذين يسكنون على هذا الجانب من الألب، كما منحوها للجينيتيين[1] أيضاً، وأطلقوا على هؤلاء كلّهم اسم إيطاليوتيين ورومان، ثمّ أخذوا يؤسسون في مناطقهم كثرة من المستعمرات، بعضها بنوه في زمن مبكر وبعضها الآخر فيما بعد؛ وليس من السهل أن نشير إضافة إلى هذه المستعمرات، إلى أخرى أفضل منها.

2- وعلى هذا النحو فإنه يصعب أن نتصوّر إيطاليا المعاصرة كلّها في شكل هندسي بسيط، مع أنهم يقولون[2] إنها عبارة عن رأس بحرية مثلثة الشكل، ممتدّة نحو الجنوب ونحو مطلع الشمس شتاء، برأس عند مضيق صقليا وقاعدة عند الألب. ويتأتّى لنا أن نوافق أيضاً على أن إحدى أضلاع المثلث، تلك التي تنتهي عند مضيق صقليا، تشاطئ البحر التيريني. لكنّ المثلث بالمعنى الدقيق للكلمة، هو شكل يتألف من خطوط مستقيمة، بينما لدينا في الحالة المعطاة قاعدة محدّبة وضلع محدّبة، ولذلك فإنني إذا قلت «يتأتّى أن نوافق»، فإنه يجب عليّ أن أقبل بأن قاعدة المثلث وضلعه شكلان محدّبان، كما ينبغي أن أوافق أيضاً على أن هذه الضلع تميل نحو مشارق[3]

الشمس. أمّا فيما يخصّ باقي وصف هؤلاء الكتّاب، فإنه غير صحيح، لأنهم يظنّون أن ضلعاً واحدة تمتدّ من منخفض البحر الأدرياتيكي حتّى مضيق صقليا. فنحن لا نسمّي إلاّ الخطّ الخالي من الزوايا «ضلعاً»، والضلع ليس لها زوايا عندما لا تتلاقى أجزاؤها البتّة، أو تتلاقى بعض الشيء. بيد أن الخطّين من أريمين حتّى رأس يابيغيا، ومن مضيق صقليا حتّى الرأس المذكورة، يقترب واحدهما من الآخر اقتراباً كبيراً. وهذا نفسه ينسحب كما أرى، على العلاقة بين الخطّ الممتدّ من منخفض البحر الأدرياتيكي، والخطّ الممتدّ من يابيغيا، لأنهما إذ يلتقيان في منطقة أريمين والسهل، يشكّلان زاوية، أو في أقلّ تقدير التواء كبيراً. وعليه، فإنه إذا كان الأمر على هذه الحال فعلاً، فإن المسافة (خطّ الإبحار الساحلي من منخفض البحر الأدرياتيكي حتّى يابيغيا)، وإن كانت ضلعاً واحدة، إلاّ أنها ليست مستقيمة في أيّ حال من الأحوال. ويمكننا أن نتصوّر ما تبقى من المسافة من هنا حتّى مضيق صقليا، بمثابة ضلع أخرى، لكنّها بدورها ليست مستقيمة. وعلى هذا النحو يغدو بإمكاننا أن ندعو هذا الشكل شكلاً رباعيّ الأضلاع أكثر منه ثلاثي الأضلاع، إلاّ أنه ليس مثلثا بأيّ شكل كان (إلاّ إذا استخدمنا هذا المصطلح استخداماً خاطئاً). والموقف الأمثل هنا، هو أن ندرك أنه لا يمكن رسم الأشكال غير الهندسية بخطوط دقيقة.

3- أمّا الأجزاء القائمة بذاتها، فيمكن أن نقول عنها الآتي. إن قاعدة الألب محدّبة وشكلها كشكل الخليج البحري مع منخفض يتّجه نحو إيطاليا. ويقع وسط الخليج في منطقة السالاسيين، وينعطف أحد طرفيه حتّى أوكرا[4] ومنخفض البحر الأدرياتيكي، وينعطف الطرف الآخر نحو الساحل الليغوري حتّى جنوا، ميناء الليغوريين التجاري، حيث تتّصل جبال الأبينين بالألب. وعند سفوح الألب مباشرة ينبسط سهل كبير إلى حدّ ما، طوله وعرضه متساويان تقريباً: 2100 مرحلة. جهته الجنوبية محصورة بين ساحل الجينيتيين وجبال الأبينين التي تمتدّ حتّى منطقة أريمين وأنكونا. فهذه الجبال تمتدّ من ليغوريا حتّى تيرينيا، ولا تترك سوى شريط ساحليّ ضيّق. ثمّ لا تلبث أن تتراجع في المنطقة الداخلية إلى أن تصل إلى منطقة بيسان، فتنعطف شرقاً وإلى البحر الأدرياتيكي حتّى منطقة أريمين وأنكونا، وأخيراً على خطّ مستقيم تتّصل بساحل الجينيتيين. وعلى هذا النحو فإن سلتيا التي على هذا الجانب من الألب، تنحصر داخل هذه الحدود، ويبلغ طول الساحل مع الجبال حوالي 6300 مرحلة، وعرضهما أقلّ من 2000[5] بقليل. أمّا ما تبقى من إيطاليا فهو ضيّق ومتمدّد طولاً برأسين في النهاية: إحدى الرأسين عند مضيق صقليا، والأخرى عند يابيغيا؛ وهي محصورة من الجانبين: بالبحر الأدرياتيكي من جهة، وبالبحر التيريني من الجهة

الأخرى، إن شكل البحر الأدرياتيكي وحجمه يشبهان ذلك الجزء من إيطاليا المحدود بجبال الأبينين وبالبحرين وصولاً حتّى يابيغيا والبرزخ الواقع بين خليجيّ تارانت وبوسينيوس. فالحدّ الأقصى لعرض كلّ من هذين البحرين حوالي 1300 مرحلة، وطوله أقلّ بقليل من 6000 مرحلة[6]. أمّا الجزء الباقي من إيطاليا، فهو المنطقة التي يشغلها البريتيون وجزء من اللوكانيين. وبحسب بوليبيوس[7]، أن الخطّ الساحلي برّاً من يابيغيا حتّى مضيق صقليا يشكّل حوالي 3000 مرحلة، وهو يشاطئ البحر الصقلي، أمّا إذا أبحرت بحراً فإنه أقلّ من 500 مرحلة. وإذ تبلغ جبال الأبينين منطقة أريمين وأنكونا وتحدّد بذلك عرض إيطاليا من البحر إلى البحر، تنعطف مرّة أخرى لتقطع البلاد كلّها بالطول. والحقيقة أن الأبينين حتّى منطقة البيفكيتيين واللوكانيين تتراجع قليلاً عن البحر الأدرياتيكي، لكنّها ما إن تصل إلى منطقة اللوكانيين، حتّى تميل أكثر نحو البحر الآخر، ثمّ تجتاز ما تبقى من الطريق عبر مركز منطقة اللوكانيين والبريتيين، لتنتهي عندما يسمّى ليكو بيترا[8] في منطقة ريغوس. وبهذا أكون قد قدّمت بالملامح العامّة، وصفاً كافياً لإيطاليا المعاصرة. وسوف أحاول الآن بدءاً من البداية، أن أتحدّث بالتفصيل عن كلّ جزء من أجزائها على حدة، وعن المنطقة المجاورة للألب أولاً.

4- وهذه المنطقة هي عبارة عن سهل غنيّ مزروع بهضاب خصبة، يشطره نهر باد في تمام منتصفه تقريباً، فيدعى أحد شطريه بالبلاد التي على هذا الجانب من نهر باد، ويدعى الآخر بالبلاد التي على ذلك الجانب من نهر باد[9]. وهذا الجانب هو كلّ ما يقع عند جبال الأبينين وليغوريا، أمّا ذلك الجانب، فهو باقي الأراضي كلّها. وتقطن في هذه الأخيرة، الأقوام الليغورية والسلتية: فريق في الجبال، والآخرون في السهول، ويقطن ذلك الجانب السلتيون والجينيتيون. والسلتيون هم أقارب الأقوام التي تعيش وراء الألب، أمّا فيما يتعلّق بالجينيتيين، فثمّة وجهتا نظر مختلفتان. فبعضهم يزعم أن الجينيتيين هم أيضاً مستعمرون يحملون اسم السلت[10] الذين يعيشون على ساحل المحيط؛ بينما يرى البعض الآخر، إن فريقاً من الجينيتيين جاء إلى هنا من بافلاغونيا[11] مع أنتينور، ليجد ملجأ من جحيم حرب طروادا. ويسوقون دليلهم على ذلك، شغف هؤلاء بتربية الخيول التي اختفت الآن تماماً، مع أنها كانت فيما مضى عملاً يفاخرون به في سياق التنافس التقليدي القديم بتوليد المهرات لتربية البغال. وهذا ما ذكره هوميروس أيضاً:

الذين قادهم من أرض إينيتوي، حيث تسرح البغال البرّية.

(الإلياذا II، 852).

وكذلك فعل ديونيسيوس[12]، تيران صقليا، إذ أنشأ من الخيل التي جمعها من هناك، مربى أفراس لجياد السباق، وعليه فإن طريقة استتبات المهور وراثياً وترويضها،

كانت شائعة وشهيرة عند الإغريق، وقد حظي هذا النوع على مدى زمن طويل، بتقدير عالٍ جداً.

5- وهذه البلاد كلّها بلاد غنية بالأنهار ومليئة بالمستنقعات، خاصة الجزء الذي يشغله الجينيتيون. عدّاك عن أن هذا الجزء يعاني من تأثير البحر عليه. ففي أجزاء بحرنا هذه وحدها تقريباً، تحدث ظاهرات شبيهة بظاهرات المحيط، وفيها فقط يلاحظ حدوث المدّ والجزر اللذين يشبهان المدّ والجزر في المحيط، الأمر الذي يؤدّي إلى امتلاء الجزء الأكبر من السهل ببحيرات من مياه البحر، ولذلك تقطع السهل قنوات وسدود تشبه ما يسمّى في مصر بالأراضي السفلى، وفي الوقت الذي جففت فيه بعض أجزاء السهل واستثمرت، فإن أجزاءه الأخرى يمكن عبورها بالسفن. وثمّة مدن هنا تعدّ جزراً، وأخرى لا تشاطئ الماء إلاّ جزئياً. وما يثير الدهشة، هو سهولة الوصول إلى كلّ المدن الواقعة على المستنقعات في داخل البلاد، عندما تبحر في مجاري الأنهار صعوداً، خاصة في نهر باد. فهو بحقّ النهر الأكبر، الذي غالباً ما تملأ الأمطار الغزيرة وهطول الثلوج مجراه؛ ولكن بما أنه يتوزّع قرب منابعه إلى كثير من الفروع، فإنه يشكّل مصبّاً مقفراً تصعب الملاحة فيه. بيد أن التجربة تتجاوز هذه الصعوبات.

6- إذن، لقد عاش أكثر السلت قديماً، كما أشرنا[13]، في منطقة نهر باد. وكانت أكبر قبائل السلت هي قبيلة البويين، وقبيلة الإينسوبريين، وقبيلة السينونيين التي استولت في زمن ما بهجوم شنته مع الجيزاتيين على أراضي روما. ولكنّ الرومان دمّروا بعد ذلك هذه القبائل تدميراً تاماً، وطردوا البويين من هذه الأنحاء كلّها. فنزح البوييون إلى أراض على نهر إيستر حيث عاشوا مع التاوريسكيين، ودخلوا في حرب مع الداكيين استمرّت مشتعلة إلى أن أُبيدت قبيلتهم تماماً؛ أمّا أراضيهم في إيلليريا، فقد تركوها مراع لقطعان جيرانهم. ولكنّ الإينسوبريين لا يزالون موجودين حتّى أيامنا هذه. وباتت مديولان عاصمتهم، وكانت هذه قبل ذلك مجرّد قرية بسيطة (لأنهم كانوا يعيشون في قرى)؛ أمّا الآن فقد صارت إلى مدينة مهمّة على ذلك الجانب من نهر باد، وتكاد تلامس جبال الألب. وتقع على مقربة من الألب أيضاً، مدينة فيرونا، وهي بدورها مدينة كبيرة، ومدن أخرى أصغر: بريكيسا، ومانتويا، وريغوس[14]، وكوم. وكانت هذه الأخيرة من قبل بلدة لا أهمية لها، لكنّ بومبيوس سترابون، والد بومبيوس العظيم، اسكن هناك مستعمرين من جديد، بعد أن نهب الريتيون المدينة، وكان هؤلاء يقطنون فوقها. ثمّ زاد غايوس سيبيون 3000 مستعمر، أمّا قيصر الإلهي فقد ألحق بهم 5000 مستعمر كان بينهم 500 من أشراف الإغريق. وقد منح قيصر هؤلاء الأخيرين

حقـوق المواطنيـة الرومانيـة وأدخلـهم في عـداد المسـتعمرين. بيـد أن هـؤلاء لم يسـتقروا هنـاك، مـع أنهـم أعطـوا المسـتوطنة اسمهـا. وبالفعـل دعـي المسـتعمرون كلّهـم «نيوكوميين»، أي، بحسب الترجمة اللاتينية: نوفوم كوموم. وتقع على مقربة من هذا المكان، بحيرة تدعى لاريوس؛ يملؤها نهر أدوا بالماء، ثمّ يصبّ بعد ذلك في نهر باد. وتقع منابع أدوا في جبل أدولا، وهنا على هذا الجبل تقع أيضاً منابع الرين.

7- أمّا هذه المدن فإنها كلّها أعلى من المستنقعات بكثير؛ وليس بعيداً عنها تقوم مدينة باتافيوس، المدينة الأفضل بين مدن هذا الشطر من البلاد كلّها؛ فبحسب الإحصاء الذي أجري منذ بعض الوقت[15]، إن فيها 500 فارس، وكانت تجنّد في زمن ما 120.000 مقاتل، كما تبيّن كثرة البضائع التي ترسلها هذه المدينة إلى أسواق روما، وتنوّعها، إضافة إلى شتّى أنواع الألبسة، تبيّن مدى كثرة أعداد سكّانها ومهاراتهم في ميدان الصناعات الحرفية، وبعد أن تقطع السفن مسافة 250 مرحلة مبحرة من الميناء الكبير صعوداً مع مجرى النهر الذي يجري عبر المستنقعات، تصل إلى باتافيوس. ويدعى هذا الميناء ميناء ميدواك، كما يحمل النهر الاسم عينه. أمّا أكبر مدن المستنقعات، فهي مدينة رافينا المبنيّة كلّها على أوتاد، والتي تقطعها القنوات بحيث لا يمكن التنقل فيها إلاّ عبر الجسور أو بالقوارب. وفي أوقات المدّ تدخل المدينة كميات كبيرة من المياه البحرية، فتجرف من المدينة عبر القنوات، كلّ القاذورات المتراكمة، فيغدو هواء المدينة نقياً. وعلى أي حال فإن المكان يعدّ مكاناً صحّياً جدّاً، ولذلك أمر الحكّام بأن تبنى هنا مدرسة لتنشئة المصارعين وتدريبهم. ومن أهم معالم هذا المكان، إن هواء مستنقعاته ليس ضارّاً، كما هي الحال في إسكندرية مصر حيث تفقد البحيرة[16] صيفاً خاصاتها المؤذية بسبب فيضان الأنهار وجفاف المستنقعات. لكنّ خاصات داليات العنب هنا تثير بدورها العجب. فالداليات تنمو في المستنقعات، ولهذا السبب تثمر بسرعة وكثرة، لكنّها تهلك في غضون 4 أو 5 سنوات. كما تقع في منطقة المستنقعات أيضاً، مدينة ألتين التي تشبه من حيث موقعها مدينة رافينت. وتقع بين هاتين المدينتين، بلدة بوتريوس التابعة لرافينا، وكذلك سبينا، وهي الآن مجرّد قرية صغيرة، إلا أنها كانت في زمن ما مدينة إغريقية شهيرة. وعلى أي حال فإنهم يعرضون كنز السبينيتيين[17] في دلفي. ونشير في السياق إلى أن التاريخ يتحدّث عن سيطرة هؤلاء على البحر. وعدا عن هذا يزعمون أن المدينة كانت تقع على البحر. أمّا الآن فإنها تقع في داخل البلاد، وتبعد عن البحر حوالي 90 مرحلة، وتقول الرواية إن التساليين هم الذين أسّسوا رافينا. لكنّهم لما عجزوا عن مواجهة ضغوط التيرينيين،

قبلوا طوعاً بين صفوفهم عدداً محدوداً من الأومبريكيين الذين لا يزالون حتّى الآن يملكون المدينة؛ أمّا التساليون فقد عادوا إلى وطنهم. وعلى هذا النحو فإن هذه المدن محاط أكثر أجزائها بالمستنقعات، وهي تتعرض للفيضانات.

8- ولكنّ تأثير المستنقعات أضعف على أوبيتيرغيوس، وكونكورديا، وأتريا وفيكيتيا وسواها من المدن الصغيرة الأخرى، إلا أن هذه ترتبط مع ذلك بالبحر عبر قنوات صغيرة صالحة للملاحة. ويقولون إن أتريا كانت مدينة شهيرة، ومنها أخذ الخليج الأدرياتيكي[18] اسمه بعد إدخال بعض التغيير على اسمها. أمّا أكويليا التي تعدّ الأقرب إلى المنخفض الذي يشكّله الخليج الأدرياتيكي، فقد أسّسها الرومان حصناً لمواجهة البرابرة الذين كانوا يعيشون فوقها. ويبحرون إلى أكويليا في سفن تجارية تصعد مع مجرى نهر ناتيسون مسافة تزيد على 60 مرحلة[19]. وأكويليا هي ميناء القبائل الإيلليرية التي تقطن حول إيستر[20]. ويأتي هؤلاء من هنا بالبضائع الأجنبية، والنبيذ المعبأ في دنان خشبية[21] (يشحنونها على زحافات)، وزيت الزيتون، ويتلقون[22] بدلاً منها العبيد، والمواشي، والجلود. ولا تقع أكويليا داخل حدود بلاد الجينيتيين. والحدّ بين هؤلاء وأولئك، هو نهر[23] يجري من الألب، ويمكن التوغل عبره مسافة 1200 مرحلة داخل البلاد، وصولاً إلى مدينة نوريا. وهنا خاض غينوس كاربون حروباً فاشلة ضدّ القمريين[24]. وتوجد في هذه الأنحاء مؤسّسات لغسل الذهب ومناجم حديد، تدر واردات كبيرة. ويقوم في منخفض الخليج الأدرياتيكي نفسه معبد يستحقّ التنويه، هو معبد ديوميدس- تيمان، فهنا يقع ميناء، ودغل مقدّس ساحر، وسبعة ينابيع مياه عذبة لا تلبث أن تشكّل نهراً واسعاً وعميقاً[25] يصبّ في البحر. ولكنّ بوليبيوس يقول، إن ينبوعاً واحداً منها مياهه عذبة، أمّا الأخرى فمياها مالحة، ولذلك يدعو السكّان المحلّيون هذا المكان منبع البحر وأمّه. أمّا بوسيدونيوس، فإنه على الضدّ من هذا يؤكّد أن تيمان نهر يجري من الجبال، ويهوي في الهاوية، ثمّ يجري تحت الأرض حوالي 130 مرحلة ليخرج إلى السطح عند البحر.

9- والدليل على سيادة ديوميدس على هذا البحر، هو جزر ديوميدس، إضافة إلى حكايات الرافيين وآرغوس الهيبي (وهذا ما سأتحدّث عنه لاحقاً[26] بالقدر الذي يخصّ التاريخ). أمّا الروايات والاختلاقات الأسطورية، فينبغي أن نتجاهل أكثرها، كما هي الحال مع أسطورة فايتون والهليادس اللواتي تحوّلن إلى شجرة حور على نهر إيريدان[27] (الذي لا وجود له في أي مكان على سطح الأرض، مع أنه يقع، كما يقال، على مقربة من نهر باد)؛ ومثلها أسطورة الجزر المرجانية الواقعة أمام باد، والغرغرات[28]

اللواتي فيها: لا وجود لمثل هذا في هذه البلاد. ولكنّ التاريخ يخبرنا أن الجيبيتين كانوا يعظّمون ديوميدس. وهذه حقيقة، إذ لا يزال هؤلاء حتّى يومنا هذا يقدّمون له جواداً أبيض ذبيحة، ويدلّون على قطعتيّ أرض مقدّستين: واحدة لهيرا الآرغوسية، والأخرى لأرطميس الإيثولية. ويضيفون إلى هذه الحقائق، كما هو معروف في مثل هذه الأحوال، حكايات إعجازية[29]، وعلى وجه التحديد: إن الحيوانات الضارية تتحوّل في هذه الأدغال المقدّسة إلى حيوانات أليفة، وإن الأيائل تسرح مع الذئاب في القطيع عينه؛ والكواسر تسمح للناس إن تقترب منها وتربت عليها، وتعزف الكلاب عن مطاردة طرائدها عندما تلجأ هذه إلى هذه الأدغال. ويروى أن شخصية مرموقة معروفة باستعدادها لإعطاء الضمانات الأمر الذي جعله مثار سخرية الآخرين غير مرّة، قابل مرّة صيادين صادوا ذئباً. وفي سياق المزاح اقترح عليه هؤلاء أن يطلقوا الذئب من الشبكة، إذا ما أخذه هو على ضمانته وتعهّد بأن يدفع تعويضاً عمّا يمكن أن يتسبب به الذئب من أضرار. فوافق على ذلك. وعندئذٍ أطلق الصيادون الذئب، فصاد هذا قطيعاً من الجياد غير الموسومة وساقها إلى إسطبل هاوي إعطاء الضمانات. ولما تلقّى هذا الأخير هذه الهدية، وسم الأمهار كلّها التي كانت تتميّز بسرعة عدوها أكثر مما تتميّز بجمال شكلها، وسمها بوشم يحمل صورة الذئب ودعاها «بالتي تحمل وشماً في صورة ذئب» وقد حافظ خلفاؤه على هذا الوشم، وعلى اسم هذا النوع من الجياد، واعتمدوا تقليداً بألاّ تباع أمهاره إلى الغرباء لكي يبقى هذا النوع الأصيل عندهم فقط، وتبقى الجياد المحلّية هي النوع الأشهر. وأنا كنت قد أشرت سابقاً[30]، إلى أن هذه المهنة قد اختفت الآن تماماً. ويأتي بعد تيماف ساحل الإيستريسيين وصولاً حتّى بولا، وهو الساحل الذي يجاور إيطاليا. ويقع بين تيماف وبولا حصن ترجيستوس الذي يبعد 180 مرحلة عن أكويليا. وتقع بولا في خليج يشبه الميناء، وفيه جزر صغيرة خصبة فيها مراس ملائمة لرسوّ السفن، كان قد أسّسها في الأزمنة القديمة، الكولخيون الذين أرسلوا للبحث عن ديوميدس؛ ولما فشلوا في تحقيق هدفهم عاقبوا أنفسهم بالنفي، كما يقول كاليماخ:

... المدينة الصغيرة،

التي لو دعاها الإغريقي لدعاها «مدينة المنفى»،

لكنّها دعيت بلسانهم بولا[31].

ويسكن المناطق التي تلي نهر باد، الجينيتيون والإيستريسيون الذين يعيشون في الأراضي الممتدّة حتّى بولا. وإلى الأعلى من الجينيتيين يعيش الكارنيون،

والكينومـانيون، والميـدواليون، والسـيمبريون[32]. وقـد عـادى الرومـان فريـق مـن هـذه الأقوام، أمّا الكينومانيون والجينيتيون فقد كانوا حلفاءهم ضدّ هنيبعل (عندما كان الرومان يحاربون البويين والسيمبريين)، وبعده.

10- وعلى هذا الجانب من نهر باد تملك الأقوام التي تعيش هنا الأراضي كلّها، بما فيها جبال الأبينين في جهة الألب وصولاً إلى جنوا والساباتيين. وقبل ذلك كان البوييون، والليغوريون، والسينونيون، والجيزاتيون، يشغلون الجزء الأكبر من هذه البلاد. ولكن، بعد طرد البويين، وتدمير السنونيين والجيزاتيين[33]، لم يبق هنا الآن سوى القبائل الليغورية والمستوطنات الرومانية. كما اندغمت بالرومان قبيلة الأومبريكيين، وفي بعض الأماكن، قبيلة التيرينسيين. وقبيل الصعود الجامح للرومان، كان يدور بين هذين القومين صراع على الزعامة، ولأنه لم يكن يفصل بينهما سوى نهر التيبر، فقد كان من السهل على كلّ منهما أن يعبر إلى الآخر. ولو حصل وشنت إحدى القبيلتين حملة ضدّ قبيلة ثالثة، فإن الغيرة لا تلبث أن تدفع القبيلة الثانية إلى غزو البلاد نفسها. فعندما أرسل التيرينسيون مقاتليهم ضدّ البرابرة القاطنين عند نهر باد، وانتصروا عليهم (إلاّ أن البذخ سرعان ما أودى بهم إلى الهزيمة والطرد)، عندئذٍ شنّ الآخرون حملة ضدّ أولئك الذين طردوهم. وبعد ذلك تنازعوا فيما بينهم على امتلاك هذه الأنحاء، فجعلوا كثيراً من القرى قرى تيرينسية، وجعلوا الأخرى قرى أومبريكية، لكنّ أكثر القرى باتت أومبريكية، لأنّ الأومبريكيين كانوا أقرب إلى المكان. أمّا الرومان فقد استولوا على هذه القرى وأرسلوا مستعمريهم إلى أماكن كثيرة، لكنّهم أبقوا على أحفاد المستوطنين الأوائل. ومع أن كلّهم الآن روماني، إلا أن بعضهم لا يزال يدعى أومبريا وتيرينسياً، وكذلك جينيتياً، وليغوريا، وإينسوبرياً.

11- إن المدن المهمّة القائمة على هذا الجانب من باد وحوله، هي أولاً، بلاسينسيا وكريمونا الواقعتان بعضهما قرب بعض في وسط البلاد تقريباً؛ وتقع بينهما وبين أريمين مدن بارما، وموتينا، وبونونيا (تقع هذه الأخيرة قرب رافينا)؛ ثمّ تقع بينها مدن صغيرة تمرّ فيها الطريق إلى روما وهي: أنكارا، وريغوم ليبيدوم، وماركي كامبي، حيث تقام الاحتفالات الشعبية السنوية، وكلاتيرنا، وفوروم كورنيليوم، وفاوينتسيا، وكيسينا عند نهري سابيس وروبيكون، على الحدود مع أريمين. وتعدّ هذه الأخيرة مستعمرة للأومبريين، وكذلك رافينا، مع أن المدينتين استقبلتا مستعمرين رومان. وفي أريمين ميناء ونهر يحمل اسمها نفسه. والمسافة من بلاسينسيا إلى أريمين 1300 مرحلة. وفوق أريمين على بعد 36 ميلاً باتجاه منطقة كوتيوس تقع مدينة تيكين

بنهرها الذي يجري على مقربة ويحمل اسمها نفسه ويصبّ في نهر باد. وتأتي بعد ذلك كلاستيديوس، وديرتون، وأكوي ستاتيللي، بعيدة بعض الشيء عن الطريق. فالطريق المباشرة على امتداد نهر باد ونهر دوريوس إلى أوكيل يمتدّ الجزء الأكبر منها عبر هاوية (لأنها تقطع إضافة إلى هذين النهرين أنهاراً أخرى كثيرة؛ ومنها نهر دروينسيا)[34] مسافة تقارب 160 ميلاً[35]. ومن أوكيل تبدأ جبال الألب وسلتيا. وعند هذه الجبال التي تعلو فوق لونا، تقع مدينة لوكا؛ ويعيش فريق من السكّان هنا في القرى. غير أن في هذه البلاد كثافة سكّانية عالية، فالعدد الأكبر من القوّات الرومانية يجنّد من هنا، والكتلة الرئيسة من الفرسان أيضاً، ومنها يكمل السينات قوامه[36]. وديرتون مدينة مهمّة واقعة في وسط الطريق من جنوا إلى بلاسينسيا، على مسافة 400 مرحلة عن كلّ منهما. وتقع على هذه الطريق أيضاً، أكوي ستاتيللي. وأنا كنت قد تحدّثت عن المسافة من بلاسينسيا إلى أريمين. فالرحلة نزولاً مع مجرى نهر باد إلى رافينا، تستغرق يومين. وتغطي المستنقعات جزءاً مهماً من أراضي هذا الجانب من نهر باد. وقد لاقى هنيبعل صعوبات كبيرة أثناء اجتيازه هذه المستنقعات ليصل إلى تيرينيا. ولكنّ سكافروس[37] جفف الآن هذه السهول، إذ شقّ قنوات صالحة للملاحة من نهر باد إلى بارما. فتريبيا الذي يصبّ في باد عند بلاسينسيا وقبله أيضاً عدد آخر من الأنهار تملأ كلّها مجرى النهر إلى أعلى من المعدّل. وكان هذا السكافروس هو نفسه الذي أمر ببناء طريق إيميليوس عبر بيس ولونا حتّى سابات، ومن هناك عبر ديرتون. وهناك طريق أخرى تدعى طريق إيميليوس، وهي ملحق طريق فلامينوس. فمارك ليبيدس وغايوس فلامينوس كانا شريكين في القنصلية[38]. وبعد إخضاع الليغوريين، بنى الأخير طريق فلامينوس[39]، من روما عبر تيرينيا وأومبريكا وصولاً إلى منطقة أريمين؛ ثمّ أكملها الأوّل حتّى بونونيا، ومن هناك إلى أكويليا على امتداد سفوح الألب ملتفّة حول المستنقعات. وكانت حدود هذه البلاد التي ندعوها سلتيا التي على هذا الجانب من الألب، كانت حدودها مع باقي إيطاليا تتمثل في جبال الأبينين التي فوق تيرينيا، وفي نهر إيسيس، ثمّ فيما بعد نهر روبيكون، والنهران يصبّان في البحر الأدرياتيكي.

12- والدليل على تمييز هذه المناطق، هو كثرة أعداد سكّانها، وكبر أحجام مدنها وثراؤها؛ فالرومان الذين يعيشون في هذه البلاد، يتفوّقون في هذه الميادين على باقي إيطاليا. إن الأراضي المزروعة هنا تعطي كميات كبيرة من شتّى أنواع الثمار، والغابات غنية بثمار البلوط إلى درجة أن أكثر سكّان روما يأكلون لحم قطعان

الخنزير الآتية من هنا. والبلاد غنية أيضاً بالدّخن، لأنّ التربة تتلقّى كفايتها من الرطوبة. وللدخن دور فاعل جدّاً لدى حدوث مجاعة. فهو يصمد في وجه كلّ أشكال الأحوال المناخية السيّئة ويعطي محصوله دائماً، حتّى لو شحّت المحاصيل الأخرى كلّها. وتوجد في هذه البلاد غلاّيات قار مهولة وغير عادية. وتشهد الدنان على وفرة النبيذ، فثمّة دنان خشبية يفوق حجمها حجم المنازل. وتساعد وفرة القطران على طلي الدنان الخشبية بدقّة كاملة. وتنتج منطقة موتينا والناحية التي عند نهر سكولتانا شتّى أنواع الأصواف الدقيقة البديعة؛ أمّا ليغوريا ومنطقة السيمبريين، فتعطيان أصوافاً فظّة خشنة يرتديها أكثر أفراد خدم منازل الإيطاليوتيين؛ وأخيراً فإن النوع الوسط من الأصواف يصنّع في منطقة باتافيوس، ومن هنا يخرج أغلى أنواع السجاد، والأغطية، وما شابه من شتّى أصناف المنسوجات المغطاة بالصوف إمّا من جهتيها، أو من جهة واحدة. أمّا المناجم فهي لا تستغل الآن هنا الاستغلال الأمثل، كما كانت عليه الحال سابقاً، وربّما كان سبب ذلك هو إن مناجم منطقة السلتيين وراء الألب، وفي إيبيريا أكثر جدوى[40]. بيد أنها كانت تستغل فيما مضى استغلالاً متقناً، لأنه كان في فيركيلا منجم ذهب. وفيركيلا هي قرية قرب إيكتومولا (وهذه بدورها قرية)؛ وتقع القريتان عند بلاسينسيا. وهذا هو وصفي حتّى الآن، لأول جزء من إيطاليا.

الفصل الثاني

1- نحن نسمّي الجزء الثاني ليغوريا، التي تقع في قلب جبال الأبينين بين سلتيا التي وصفناها للتوّ، وتيرينيا. وليس في هذا الجزء ما يستحقّ أن نصفه، ما عدا كون سكّانه يعيشون في قرى، ويحرثون ويحفرون تربة صخرية، أي أنهم كما يقول بوسيدنيدوس، يكسّرون الحجارة أكثر من كونهم يحرثون التربة. أمّا الجزء الثالث فتشكّله بلاد التيرينيين المجاورة للجزء الثاني، ويشغل هؤلاء السهول الممتدّة حتّى نهر التيبر. ومن الشرق يحدّ هذا النهر حتّى مصبّه، الجزء الأكبر من هذه البلاد، ويحدّها من الجهة الأخرى البحر التيريني وبحر سردينيا. ويجري التيبر من جبال الأبينين عابّاً في مجراه مياه كثير من الروافد. فهو في بعض مجراه يعبر تيرينيا، ثمّ يفصل أومبريكا عن تيرينيا، وبعد ذلك يفصل عنها منطقة السابين ولا سيوم عند روما ليصل أخيراً إلى الشاطئ. وتتوضّع هذه المناطق عرضاً بموازاة النهر وتيرينيا تقريباً، أمّا طولاً فهي بموازاة بعضها بعض. وهي تمتدّ حتّى ذيول الأبينين قرب البحر الأدرياتيكي: في الأول أومبريا، تليها بلاد السابين، ثمّ منطقة اللاتين كلّها، وهي تبدأ من النهر. وعلى هذا النحو فإن بلاد اللاتين تقع بين الساحل من أوستيا حتّى مدينة سيبويسا ومنطقة السابين (أوستيا

هي ميناء روما حيث يصبّ التيبر الذي يجري على مقربة من المدينة، في البحر)، وهي تمتدّ طولاً حتّى كامبانيا والجبال السامنتية. وتقع منطقة السابين بين بلاد اللاتين وأومبريكا، وتصل حتّى الجبال السامنتية، أو على الأكثر أنها تلامس الأبينين في منطقة الفيستينيين، والبيليغنيين، والمارسيين. وأخيراً يقطن الأومبريكيون بين منطقة السابين وتيرينيا، وتمتدّ بلادهم عبر الجبال حتّى أريمين ورافينا. أمّا تيرينيا فإنها تبدأ من بحرها[1] والتيبر لتنتهي مباشرة عند سفوح الجبال التي تحيط بها على طول المدى من ليغوريا حتّى البحر الأدرياتيكي. وسأبدأ وصفي الدقيق من تيرينيا.

2- يدعو الرومان التيرينيين إيتروسكيين وتوسكيين. ويروي الإغريق أنهم دعوهم بهذا الاسم نسبة إلى تيرين ابن أتيس الذي أرسل إلى هنا مستعمرين من ليديا. واتيس هو أحد أحفاد هرقل وأمفالي، عندما حلّت المجاعة في أرضه وشحّ المحصول، أجرى قرعة بين ولديه، ونتيجة للقرعة بقي ابنه ليد عنده، وأرسل الآخر، تيرين مع العدد الأكبر من ناسه إلى وراء البحر. ولمّا وصل هذا إلى هذه البلاد، دعاها باسمه، تيرينيا، وأسّس فيها 12 مدينة، وعيّن عليها «مدبّراً» اسمه تاركون (سميث مدينة تاركويني باسمه)[2]. وكان هذا يتميّز منذ طفولته بعقل راجح، ولذلك، كما تروي الأسطورة، ولد أشيب الشعر. ولمّا كان التيرينيون تحت سلطة حاكم واحد، كانوا يمتلكون قوّة جبّارة، لكنّ اتّحادهم هذا تداعى فيما بعد، وتفرّقوا تحت ضغط جيرانهم إلى مدن مستقلّة. وهذه حقيقة، وإلاّ لما كانوا تركوا أرضهم الخصبة والتفتوا لممارسة القرصنة البحرية، وليرسلوا عصابة من القراصنة إلى هذا البحر وعصابة أخرى إلى ذاك. والحقيقة أنهم حيثما نجحوا في توحيد كلمتهم، استطاعوا أن يصدوا عدوان خصومهم، بل شنّوا بدورهم حملات بعيدة. وبعد تأسيس روما، وصل إلى تيرينيا من كورينثوس، ديمارات[3] ومعه عدد كبير من الناس. فاستقبله سكّان تاركويني، وتزوج بامرأة محلّية وأنجب منها ابنه لوكومون. وإذ غدا هذا صديقاً لملك الرومان أنكوس مارسيون، اعتلى عرش روما بعده باسم لوسيوس تاركويني بريسكوس[4]. فزين تيرينيا (وهذا ما فعله والده قبله): استعان الأب بكثرة من الحرفيين الذين جاؤوا معه من وطنه الأمّ، أمّا الابن فقد استخدم الوسائل التي حصل عليها من روما. ويزعمون أن حليّ احتفالات النصر، وحليّ رتبة القنصلية، بل حليّ أصحاب المناصب على وجه العموم، انتقلت إلى روما من تاركويني، مثلها مثل شارة الفاسيس، والفؤوس، والأنابيب، والطقوس المقدّسة، وفنّ التنجيم، والموسيقا، فالرومان يستخدمون هذه الأخيرة في شؤون الدولة اليومية. وكان ابن هذا التاركويني الثاني، تاركويني

المتغطرس آخر ملوك روما، وقد طرد منها[5]. فحاول بورسينا ملك كلوسي، وهي مدينة تيرينية، أن يعيده إلى العرش بقوة السلاح، لكنّه فشل في ذلك، فأوقف تحركاته العدائية، وتحوّل إلى صديق للرومان، ذي حظوة وهدايا ثمينة.

3- لقد قلت هذا عن شهرة التيرينيين. وينبغي أن نذكر أيضاً مآثر سكّان مدينة كيريه؛ فالكيريتانيون هزموا الغلاطيين الذين استولوا على روما[6]؛ إذ هاجموهم في طريق عودتهم في بلاد السابين، وسلبوهم عنوة كلّ ما كان الرومان قد أعطوه لهم طواعية. وعلاوة على ذلك قدّموا الملجأ لكلّ الذين فرّوا إليهم من روما، وأنقذوا النار المقدّسة مع كاهنات فستا. ولكنّ حكّام روما آنئذٍ كانوا ناكرين للجميل الذي كان أسداه الكيريتانيون لروما. والحقيقة أنهم منحوا هؤلاء حقوق المواطنية الرومانية، لكنّهم لم يدخلوهم عداد المواطنين الرومان، بل طردوا كلّ الآخرين الذين لم تكن لهم «الإيسونوميا»[7]، وسجّلوهم في «لائحة الكيريتانيين»[8] وقد اشتهرت هذه المدينة عند الإغريق بشجاعة سكّانها وعدلهم. فقد امتنع هؤلاء فعلاً عن ممارسة أعمال القرصنة، مع أن مدينتهم كانت مدينة جبّارة، وأهدوا في بيفو[9] ما يسمّى «كنز الأغيليين»[10]. لأنّ مدينة كيرية كانت تدعى سابقاً أغيلا، ويقال إن مؤسّسيها هم البيلاسيغيس الذين جاؤوا إلى هنا من تساليا. وحينما شنّ أولئك الليديون الذين بدّلوا اسمهم وباتوا يدعون تيرينيين، حملة على الأغيليين، وصل واحد منهم إلى سور المدينة وسأل عن اسمها، وبدلاً من الإجابة، بادره أحد التساليين الواقفين على السور محيياً: «كيريه»[11]. فرأى التيرينيون في هذا فألاً حسناً وبدّلوا اسم المدينة لتدعى بعد ذلك كيريه. ولكنّ هذه المدينة التي كانت في يوم ما لامعة مزدهرة شهيرة، لم يبق لها الآن سوى ظل باهت لمجد مضى؛ فالينابيع الساخنة المجاورة التي تدعى كيريتانية[12] عدد سكّانها اليوم أكثر من عدد سكّان المدينة، لأنّ كثيراً من الناس يقصدونها طلباً للعلاج[13].

4- أمّا فيما يخصّ البيلاسيغيس، فهناك شبه إجماع على أن قبيلة قديمة ما حملت هذا الاسم، كانت تنتشر في مختلف أنحاء اليونان، خاصة بين الإيوليين في تساليا. فإيثور يرى (وفق ما يقوله هو نفسه) أن هؤلاء الذين كانوا في الأول أركاديين، اختاروا طريقة عيش المقاتلين، وإذ دفعوا كثيراً من الآخرين إلى نمط العيش هذا، منحوهم اسمهم أيضاً، واشتهروا شهرة واسعة بين الإغريق والشعوب الأخرى التي تأتّى لهم التواصل معها. وقد استوطنوا كريت، كما يقول هوميروس. وعلى أي حال فإن أوديسيوس يقول لبنيلوبي:

تسمع لغات مختلفة هناك: تجدين الآخيين،
وأول الأجناس القبلية للكريتيين المقاتلين؛ والكينوديون
يقطنون هناك[14]، والدوريون الأجاعد، وقبيلة البيلاسيغيس.

(*الأوذيسا* XIX، 175)

وتساليا أيضاً (بين مصبّ بينوس وثرموبل حتّى البلاد الجبلية في بيندوس) تدعى آرغوس البيلاسغية، لأنّ البيلاسيغيس امتلكوا هذه البلاد يوماً ما. كما يدعى زيوس الدودوني أيضاً بيلاسيغيّاً:

زيوس البيلاسيغي، ربّ، دودوني

(*الإلياذا* XVI، 233)

ودعا كثيرون القبائل الإيبيرية بالقبائل البيلاسيغية، إذ ظنّوا أن البيلاسيغيس بسطوا سلطانهم حتّى على هذه الأنحاء. وبما أن كثيراً من الأبطال حملوا اسم بيلاسيغيين، لذلك عمد كثيرون إلى إطلاق أسماء هؤلاء الأبطال على كثير من الأقوام. فدعوا على سبيل المثال، ليسبوس بالبيلاسيغية، ودعا هوميروس جيران الكيليكيين في طروادا بالبيلاسيغيس:

لقد قاد هيبوثوي قبائل البيلاسيغيس الرمّاحة،
أولئك الذين يعيشون في حقول لاريسا البورغية الخصيبة.

(*الإلياذا* II، 840)

ولكنّ خبر منبت هذه القبيلة في أركاديا، أخذه إيثور عن هسيود. فهسيود يقول:

وأبناء أنجب ليكاون نظير الإله،
أما هو فقد أنجبه بيلاسيغيس في زمن ما...

(*مصدر غير معروف*)

وإضافة إلى ذلك، فإن إيسخيليوس في «المتوسّلات»[15] أو «الدانائيدس»[16]، يخرج منشؤهنّ من آرغوس، الواقعة قرب ميسينا. وحسب خبرية إيثور أن البيلوبونيز كانت تدعى بيلاسغيا[17]. وفي «أرخيلايوس»[18] يقول يوريبيدس بدوره:

إن دانائي، والد البنات الستين،
إذ وصل إلى آرغوس، أسّس مدينة إيناخا،
وكل من كان يحمل اسم بيلاسيغيس من قبل،
أوعز إليهم بأن يتخذوا في هلاّدا لقب دانائيين.

(*مقطع*، 228، ناوك)

ثمّ يروي أنتيكليدس أن البيلاسيغين أوّل من سكنوا منطقة ليمنوس وإيمبروس، وفعلاً فإن فريقاً منهم بزعامة تيرين ابن أتيس، اتّجه إلى إيطاليا. ويخبر مصنّفو «تاريخ أتثيدس»[19] بدورهم عن مجيء البيلاسيغيس إلى أثينا[20] أيضاً؛ ولكن بما أن هؤلاء كانوا قبيلة رحّل تطير إلى حيث تشاء كما هي حال الطيور، فقد أطلق عليهم سكّان أتيكا اسم «بيلارغيين»[21].

5- يبلغ المدى الأقصى لطول تيرينا (ويقال، إنها شريط ساحلي، يمتدّ من لونا حتّى أوستيا) حوالي 2500 مرحلة، أمّا عرضها قرب الجبال، فهو أقلّ من نصف طولها. فمن لونا إلى بيسّا تحديداً، أكثر من 400 مرحلة؛ ومن هناك حتّى فولاتيري 280 مرحلة، ثمّ من هنا حتّى بوبولوني 270 مرحلة؛ ومن بوبولوني حتّى كوسا 800 مرحلة تقريباً، وبحسب مصادر أخرى 600 مرحلة فقط. بيد أن بوليبيوس يزعم في الأول، أن المسافة كلّها[22] لا تبلغ 1330 مرحلة. والأول بين هذه المراكز السكّانية، هو المدينة الميناء لونا. ويدعو الإغريق المدينة والميناء «ميناء سلينا». والمدينة ليست كبيرة، أمّا الميناء فهو شاسع جدّاً وجميل (لأنه يضمّ عدداً من الموانئ، مياهها كلّها عميقة حتّى عند الشاطئ)، كما يليق بميناء يشكّل قاعدة بحرية لشعب كان يسود على مثل هذا البحر الكبير لزمن طويل. تحيط الجبال العالية بالميناء، فيمكن أن تستمتع برؤية البحر من هناك، كما تظهر سردون والجزء الأكبر من جانبيّ الساحل. وتقع هنا كثرة من مقالع حجر المرمر الأبيض والملّون: أزرق- رمادي (يستخرجون هنا صفائح وأعمدة من حجر واحد) ذي النوعية العالية، فأكثر الأعمال الفنية الشهيرة[23] القائمة في روما والمدن الأخرى، نحتت من حجارة هذا المكان. ونقل الحجارة من هنا يسير، لأنّ المقالع تتوضّع فوق شاطئ البحر مباشرة، ومن البحر تصعد الشحنات في نهر التيبر ثمّ تنقل إلى روما. ويأتون من تيرينا بالكمّ الأكبر من أخشاب بناء المنازل على شكل ألواح مستقيمة وطويلة جداً، ومن الجبال تعوّم هذه في النهر مباشرة. فبين لونا وبيسّا يجري نهر ماكرا الذي يرى فيه كثير من المصادر حداً فاصلاً بين تيرينا وليغوريا. وقد أسّس بيسّا البيساتيون الذين كانوا يعيشون في البيلوبونيز، فشنوا على إيليون حملة قاد جموعهم فيها نسطور، لكنّهم ضلوا طريق العودة، فساقت الأقدار بعضهم إلى ميتابونتس، وبعضهم الآخر إلى منطقة بيسّا، مع أنهم دعوهم كلّهم بالبيلوسيين. وتقع بيسّا بين نهرين: نهر آرن ونهر آوسار، عند نقطة التقائهما تماماً. والنهر الأول ماؤه غزير ويجري من أريسي بثلاثة فروع ليست بمجرى واحد، أمّا النهر الثاني فهو يجري من جبال الأبينين. وبعد أن يجتمع النهران في مجرى واحد، تتلاطم أمواجهما وترتفع عالياً بحيث لو وقف شخصان على ضفتي المجرى، لما استطاع أيّ منهما أن يرى

الآخر. ولذلك كان الصعود في مياه النهر من البحر أمراً مصحوباً بصعوبات كبيرة. وتبلغ مسافة الإبحار في النهر 20 مرحلة. ويروون قصّة خرافية تقول، إنه عندما أخذ النهران ينحدران من الجبال، عمد السكّان المحلّيون إلى حجز مياههما كي لا يلتقيا فيغرقا البلاد. فوعدهم النهران بألاّ يفيضا، والتزما بوعدهما. ويبدو أن مدينة بيسا كانت في زمن ما مدينة مزدهرة ومعروفة، بفضل خصوبة أراضيها، ومقالع حجارتها، وأخشابها الصالحة لبناء السفن. وفي الأزمنة الغابرة استخدم البيساتيون هذه الأخشاب لدرء الأخطار التي كانوا يتعرّضون لها من جهة البحر (فقد كانوا محاربين أكثر من التيرينيين، وكان الليغوريون، جيرانهم الحمقى، يثيرون حميتهم القتالية دائماً)؛ أمّا الآن فإن أكثر أخشابهم ينقل إلى روما وضواحيها لأغراض البناء، حيث تبنى هنا مباني تحاكي قصور الفرس بفخامتها وبذخها.

6- وتشاطئ منطقة الفولاتيريين البحر، أمّا مدينتهم نفسها فتقع في ثغر عميق، على هضبة عالية شاقولية من جوانبها كلّها؛ وعلى القمّة المسطحة لهذه الهضبة، بنيت أسوار المدينة، ويمتدّ من قمّة الهضبة حتّى سفحها منحدر شديد صعب ارتفاعه 15 مرحلة. وإلى هنا تجمّع بعض التيرينيين والذين حكم عليهم سولاّ بالموت. وبأربعة فيالق[24]، صمدوا هنا لحصار دام عامين، ولم يتركوا المكان إلاّ بعد توقيع اتفاق. وبوبولوني بنيت بدورها فوق رأس عالية تنحدر نحو البحر انحداراً شديداً متخذة شكل شبه جزيرة. وعند ذلك الوقت عينه، صمدت بوبولوني بدورها لحصار طويل آخر. والمدينة الآن متروكة كلّها، ما عدا معابدها وبعض منازلها السكنية. ولمحطة السفن الموجودة هنا، مستوطنة أكثر أهمية من بوبولوني، ففي هذه المحطة ميناء وداران لإصلاح السفن عند سفح الجبل. وأنا أظنّ أن هذه المدينة وحدها بين كلّ المدن التيرينية القديمة، تقع على البحر مباشرة. وسبب ذلك، هو أن الساحل خال من الموانئ. ولذلك تفادى مؤسّسو المدن البحر تماماً، أو أقاموا تحصينات من جهة البحر لكي لا تقع هذه المدن فريسة (بسبب غياب التحصينات) سهلة لهجوم يأتيها من البحر. وتقع تحت الرأس نقطة لمراقبة حركة أسماك التنة. وإذا نظرت من المدينة إلى الأسفل، يمكنك أن ترى من بعيد، وإن كان بصعوبة، سردون وكيرن الأقرب التي تقع على بعد حوالي 60 مرحلة عن سردون. وأوضح من كيرن بكثير تظهر جزيرة إيثاليا الأقرب إلى اليابسة، فهي تقع على بعد 300 مرحلة عنها تقريباً، كما تبعد المسافة نفسها عن كيرن. وتعدّ هذه البلدة المكان الأكثر ملاءمة للانطلاق إلى الجزر الثلاث المذكورة. وقد رأيتها بنفسي (عندما قيض لي أن أصعد إلى بوبولوني)، كما رأيت أيضاً في تلك الضواحي عدداً من المناجم المتروكة. ورأيت العمال الذين كانوا يعدّنون الحديد المنقول من

إيثاليا، لأنّ تحويل الحديد إلى كتلة متماثلة عن طريق تلدينه في أفران الجزيرة، كان أمراً غير ممكن، لذلك كانوا ينقلونه من المناجم إلى اليابسة مباشرة. ولكنّ الجزيرة تشتهر أيضاً بأن المناجم التي كانت قد استنفذت على مر الزمن، تعود لتمتلئ بالفلزات من جديد[25]، وهذا ما يحصل كما يقولون، لطبقات الصخر في رودوس، وصخور المرمر في باروس، وطبقات الصخر التي أشار إليها كليتارخ في الهند. وعلى هذا النحو يكون إيراتوسفين قد أخطأ في زعمه أن كيرن وسردون لا تظهران للناظر من البرّ؛ كما يخطئ أرتيميدور أيضاً إذ يقول، إن الجزيرتين تقعان في عرض البحر على بعد 1200 مرحلة. وحقيقة الأمر أنه إذا كان أحدهم قد رأى فعلاً، فإنه بالنسبة لي كان تمييز الجزيرتين من هذا البعد كلّه، أمراً غير ممكن، خاصة جزيرة كيرن. وفي إيثاليا ميناء يدعى ميناء آرغوس، ويقال إنه دعي بهذا الاسم تيمّناً بالسفينة آرغو. ففي هذا الميناء رسا ياسون بينما كان يبحث عن مكان وجود كيركا، لأنّ ميديا كانت ترغب في أن ترى الإلهة. ضف إلى هذا أنه لا تزال باقية على شاطئ الجزيرة حتّى الآن الحجارة الصغيرة المبرقشة التي تشكّلت من قطرات الزيت المتجمدة التي أزالها الأرغونيون عن أجساهم. إن هذه القصص الأسطورية تبيّن صحّة زعمي بأن هوميروس لم يختلق كلّ شيء بنفسه؛ بل غالباً كان يسمع مثل هذه الروايات، فيعيد رواياتها ويزيد في روايته من المسافات، وينقل الأحداث إلى مكان أبعد. وعلى النحو الذي نقل فيه أوديسيوسه إلى المحيط، رمى بياسون إلى هناك، لأنه تأتى لهذا الأخير كذلك أن يعاني من التيه كما أوديسيوس ومنيلايوس[26]. ذلكم كان وصفي لإيثاليا.

7- يدعو الرومان كيرن باسم كورسيكا. ونمط الحياة في هذه الجزيرة نمط متخلّف، لأنّ الجزيرة صخرية والجزء الأكبر منها وعر غير سالك، فسكّان الجبال الذين يعيشون على الغزو والسلب، أكثر ضراوة من الوحوش. وعلى وجه العموم كلّما كان القادة الرومان يشنّون حملة ضدّهم، ويقتحمون تحصيناتهم، كانوا يغنمون كثيراً من الأسرى منهم، ويمكن مشاهدة هؤلاء في روما، وما يثير الاستغراب في هؤلاء العبيد، هو الحدّة التي تتجلّى فيها طبيعتهم الوحشية القطيعية. فهم لا يطيقون العيش مقيدين، وإذا ما عاشوا غير أحرار، فإنهم يثيرون غيظ سادتهم، باستهتارهم وبلادتهم وشدّة غبائهم، إلى درجة أن هؤلاء، وعلى الرغم من أنهم لم يدفعوا ثمن شرائهم سوى مبالغ ضئيلة، إلاّ أنهم يندمون على خسارتها. بيد أنه ثمّة في الجزيرة بعض الأجزاء المأهولة، وتوجد فيها هنا وهناك بعض المدن الصغيرة: بليسيون، وكاراك، وإينيكوني، ووابانيس[27]. ويرى «كوروغراف»[28] أن طول الجزيرة 160 ميلاً رومانياً، وعرضها 70 ميلاً. وطول سردينيا 220 ميلاً، وعرضها 98 ميلاً. وحسب كتّاب آخرين

أن محيط كيرن حوالي 3200 مرحلة، ومحيط سردون 4000 مرحلة تقريباً. والشطر الأكبر من سردون ذو طبيعة صخرية، وهي مكان مضطرب وغير مستقر، مع أن فيها كثيراً من الأراضي الغنية بشتّى أنواع المنتوجات، خاصة الأقماح. وليس في الجزيرة إلاّ بعض المدن، التي لا يستحق الذكر منها سوى مدينتين: كاراليس، وسولخي. ولكنّ الميزات العالية التي يتمتّع بها هذا المكان، تقابلها عيوب كبيرة، فمناخ الجزيرة مؤذٍ للصحّة صيفاً، خاصة في الأماكن الخصبة. والجدير ذكره، أن هذه الأماكن تحديداً تتعرّض لغزو سكّان الجبال دائماً، وقد أُطلق على هؤلاء اسم الدياجيسبيين؛ وكانوا يدعون من قبل إيولانيين. فحسب الرواية، أن إيولايوس جاء إلى هنا مع عدد من أبناء هرقل، وسكن مع البرابرة الذين كانوا يمتلكون الجزيرة (لقد كان هؤلاء هم التيرينيون). وفيما بعد استولى فينيقيون من قرطاجة على الجزيرة، وتحالف الطرفان لمحاربة الرومان. وبعد هزيمة الفينيقيين، خضع سكّان الجزيرة كلّهم لسلطة الرومان. ويتألف سكّان الجبال من أربع قبائل، هي الباراتيون، والسوسيناتيون، والبالايون، والأكونتيون الذين يعيشون في الكهوف. ومع أن لديهم بعض الأراضي الصالحة للزراعة، إلاّ أنهم لا يولون زراعتها عناية تذكر؛ فهم ينهبون حقول الفلاّحين، ليس فلاحي الجزيرة فقط، إنّما حقول فلاّحي البرّ أيضاً، خاصة الفلاّحين البيساتيين الذين يغزونهم بحراً. وأحياناً يقاوم القضاة الرومان الذين ترسلهم روما إلى الجزيرة، هجمات سكّان الجبال، لكنّهم يعزفون عن مقاومتهم أحياناً أخرى، عندما لا يكون ثمّة جدوى من الاحتفاظ بالقوات في مكان غير صحّي. لكنّهم يلجؤون عندئذٍ إلى بعض الحيل العسكرية. فيرصدون عادة البرابرة المعروفة، إذ يحتفل هؤلاء على مدة عدة أيام بغنيمتهم الحربية، وبينما هؤلاء يحتفلون يهاجمهم الرومان ويغنمون أعداداً كبيرة من الأسرى. وتسرح في سردون خراف يكسو جسمها شعر الماعز بدلاً من الصوف، وتدعى هذه «موسموني»[29]؛ ويصنع السكّان من جلودها دروعاً. ويستخدم هناك ترس جلدي خفيف، وخنجر.

8- ومن على امتداد الشاطئ كلّه بين بوبولوني وبيسا، تظهر الجزر بوضوح كاف. فالجزر الثلاث متطاولة الشكل، وتقع على موازاة بعضها بعض باتجاه الجنوب وليبيا. لكنّ إيثاليا أصغر بكثير من جارتيها الأخريين. وأقصر معبر من ليبيا إلى سردون، امتداده بحسب كوروغراف، 300 ميل[30]. وتأتي بعد بوبولوني مدينة كوسّا التي لا ترتفع عن البحر إلاّ قليلاً. ويقوم في عمق الخليج تلّ عال تقوم فوقه مستوطنة. ويقع عند سفح التلّ ميناء هرقل؛ وعلى مقربة منه خور، وقرب الرأس مباشرة، فوق الخليج، تقع نقطة مراقبة حركة أسماك التنّة. فهذه الأخيرة لا تتبع الشاطئ بحثاً عن

ثمار البلوط[31] البحرية فقط، بل بحثاً عن الأعشاب المائية[32] أيضاً، وتبدأ طريقها من البحر الخارجي وصولاً إلى صقليا. وإذا أبحرت من كوسّا إلى أوستيا، فثمّة على الطريق مدن صغيرة: غراويسكي، وبيرغي، وألسي، وفريجينا. والمسافة إلى غراويسكي 300 مرحلة، وهنا في منتصف الطريق، يوجد مكان يدعى ريغيس فيلاّ. ويروى أن هذا كان في زمن ما قصر بيلاسغيس ماليوس الذي يقال، إنه كان يمتلك هذا المكان، لكنّه تركه ومضى إلى أثينا مع البيلاسيغيس الذين كانوا يعيشون هنا. وينتمي إلى هذه القبيلة أيضاً، البيلاسيغيس الذين يمتلكون أغيلا[33] اليوم. والمسافة من غراويسكي إلى بيرغي أقل من 180 مرحلة بقليل. وتقع محطة سفن الكريتانيين على بعد 30 مرحلة عن المدينة. ويقوم في بيرغي معبد إيليثيا الذي بناه البيلاسيغيس، وكان معبداً غنياً ذات يوم. ولكنّ ديونيسيوس طاغية السيراكوزيين، نهبه أثناء حملته على كيرن. ومن بيرغي إلى أوستيا 260 مرحلة. وتقع بين هاتين المدينتين ألسي وفريجينا. إن هذا هو وصفي للساحل التيريني.

9- وإضافة إلى المدن المذكورة تقع في وسط البلاد مدن أريسي، وبيروسيا، وفولسيني، وسوتري. وما عدا هذه الأخيرة هناك أيضاً كثير من المدن الصغيرة: بليرا، وفيرينتين، وفاليري، وفاليسك، ونيبيتا، وستانونيا، وسواها. ومنذ البداية ألّف بعضها اتحاداً، أمّا الأخرى فقد استعمرها الرومان أو أخضعوها، كما هي حال فيي التي حاربتهم مراراً، وكذلك فيدينا. ولكنّ بعضهم لا يسمي الفاليريين تيرينيين، بل فاليسكيين، قبيلة مستقلّة. بينما يرى آخرون في فاليسك مدينة لها لغتها الخاصة. ويرى فريق ثالث أن فاليسك هي نفسها مدينة إيكفوم فاليسكوم الواقعة على طريق فلامينوس بين أوكريكلا وروما[34]. وعند سفوح جبل سوراكتي تقع مدينة فيرونيا سميّة واحدة من الإلهات المحلّيات التي كانت مبجّلة جدّاً عند سكّان الضواحي. وعلى الأرض المقدّسة المكرّسة لها هنا، يؤدّون طقوساً دينية شديدة الغرابة. فالمسكونون بهذه الإلهة يسيرون حفاة على الجمر والرماد المتوهّجين[35] من غير أن يشعروا بأيّ ألم. وتجتمع هنا أعداد كثيرة من الناس للاحتفال سنوياً بعيد الإلهة، ومشاهدة العرض المذكور. وفي أعماق الجبال، أبعد من المدن الأخرى كلّها، تقع مدينة أريسي. فهي تبعد 1200 مرحلة عن روما، بينما تبعد كلوسي عنها 800 مرحلة. وعلى مقربة من هاتين المدينتين تقع مدينة بيروسيا. وتساهم في ازدهار هذه البلاد كثرة من البحيرات الكبيرة، لأنها بحيرات صالحة للملاحة، وتوفّر القوت لكمّ مهول من الأسماك وأعداد كثيرة من أسراب طيور المستنقعات. كما يرد إلى روما نزولاً مع مجاري الأنهار التي تنبع من هذه البحيرات وتصل حتّى نهر التيبر، القصب، والكولان وكميات كبيرة من

السمار[36]. ومن هذه البحيرات البحيرة الكيمينية، والبحيرة الواقعة قرب فولسيني، وأخرى على مقربة من كولوسي، وبحيرة سابات الأقرب إلى روما والبحر. وأبعد البحيرات هي البحيرة الواقعة قرب أريسي، وتدعى بحيرة تراسومينا؛ وتقع على مقربة منها ممرّات تعبر منها القوات من سلتيا[37] إلى تيرينيا، وهذه الممرّات هي التي عبرها هنيبعل[38]. وعدد هذه الممرّات اثنان: هذا الممرّ، وذاك الذي عند أريمين عبر أومبريكا. والحقيقة أن المعبر الذي عنده هو الأكثر ملاءمة، لأنّ الجبال تنخفض هنا بشكل ملحوظ. وبما أن حراسة هذه الممرّات كانت دقيقة، فقد وجد هنيبعل نفسه مضطراً إلى سلوك المعبر الأصعب، ومع ذلك فقد استولى عليه بعد أن هزم فلامينوس في أكثر من معركة كبيرة. وتيرينيا بلاد غنية بالينابيع الحارّة، ولأن هذه تقع على مقربة من روما، فإن عدد سكّان هذه الأماكن ليس أقل من عدد سكّان منطقة ينابيع بايي التي تعدّ المنطقة الأكثر شهرة بين مثيلاتها[39].

10- وإلى جوار تيرينيا من جهة الشرق تقع أومبريكا. وهي تمتدّ من الأبينين حتّى البحر الأدرياتيكي. فالأومبريكيون يشغلون المنطقة المجاورة مباشرة ابتداء من رافينا، كما يشغلون المناطق التي تلي أيضاً: سارسينا، وأريمين، وسينا، وكامارين[40]. ويوجد هناك أيضاً نهر إيسيس، وجبل كينغول، ومدينة سينتين، ونهر ميتاور، ومعبد فورتونا[41]. فالمسألة هي أن حدود إيطاليا السابقة مع سلتيا، كانت تمرّ في هذا المكان، أي أن جزءاً منها عند البحر الأدرياتيكي، مع أن الحكّام غيّروها مراراً. ففي أوّل الأمر عدّوا إيسيس حداً، ثمّ روبيكون مرّة أخرى. ويجري نهر إيسيس بين أنكوناوسينا، أمّا روبيكون فيجري بين أريمين ورافينا، ويصبّ النهران في البحر الأدرياتيكي. ولكن البلاد كلّها حتّى جبال الألب أعلنت الآن إيطاليا، لذلك ينبغي التراجع عن هذه الحدود. ومع ذلك فإن جميعهم يوافق على أن أومبريكا نفسها تمتدّ حتّى رافينا، لأنّ هؤلاء القوم يعيشون في رافينا. ويقولون إن المسافة من رافينا إلى أريمين 300 مرحلة، أمّا إذا سافرت من أريمين إلى روما على طريق فلامينوس، عبر أومبريكا، فإن الطريق كلّها حتّى أوكريكلا 1350 مرحلة. وهذا هو طول أومبريكا، أمّا عرضها فهو غير متماثل. وتستحق الذكر المدن الآتية الواقعة على هذا الجانب من جبال الأبينين. أولاً، على طريق فلامينو س نفسها مدينة أوكريكلا على نهر التيبر، ولارولون، ونارنا التي يجري عبرها نهر نار الذي يصبّ في التيبر إلى الأعلى قليلاً من مدينة أوكريكلا، والنهر غير صالح للملاحة إلاّ للسفن الصغيرة. ثمّ تأتي كارسولا وميفانيا التي يجري نهر تينييوس على مقربة منها. وعبر هذا النهر ينقلون سلع السهل إلى نهر التيبر في سفن صغيرة. وتوجد هنا أماكن أخرى تجمّع السكّان فيها غالباً لأنها تقع

على الطريق مباشرة، وليس بداعي الاتحاد المدني. وهذه الأماكن هي فوروم فلامينيوم، ونوكيريا حيث يصنعون الأباريق الخشبية؛ وفوروم سيمبرونيوم. وإذا ما سافرت من أوكريكلا إلى أريمين، فسوف تكون إينتيرامنا، وسبوليسي، وإيسي، وكاميرت على يمين الطريق، مباشرة في الجبال التي تشكّل حدود منطقة بيكينتين. أمّا على الجانب الآخر فتقع أميريا، وتودير المدينة المحصنة تحصيناً قوياً، تليها إيغوفي؛ وهذه الأخيرة تقوم على مقربة من الممرّ الجبلي. وتتميّز بلاد الأومبريكيين كلّها بالخصوبة، مع أنها بلاد جبلية بعض الشيء وتطعم سكّانها حنطة رومية أكثر من القمح. وبلاد السابين بلاد جبلية أيضاً، وهي تجاور هذه المنطقة. وتقع على امتداد أومبريكا على النحو عينه الذي تقع فيه أومبريكا على امتداد تيرينيا. وكل أجزاء بلاد اللاتين القريبة من أجزاء أومبريكا وتيرينيا هذه، وكذلك جبال الأبينين، كلّها مناطق مناخها قاس بعض الشيء. وتعيش القبيلتان بين التيبر وتيرينيا حتّى جبال الأبينين التي تحيد قليلاً في عمق البلاد عند البحر الأدرياتيكي. أمّا أومبريكا فإنها تمتدّ، كما أسلفت[42]، إلى ما وراء الجبل حتّى البحر الأدرياتيكي. وها أنا قد قلت عن الأومبريين ما يكفي.

الفصل الثالث

1- يقطن السابين المنطقة الضيّقة التي تمتدّ طولاً 1000 مرحلة من التيبر ومدينة نومينت الصغيرة، حتّى منطقة الفيستينيين. وليس عندهم كثير من المدن، بل حتّى الموجودة منها أقوت بسبب الحروب المتواصلة. وهذه المدن هي أميتيرن ورياتي التي تقع على مقربة منها بلدة إينتيروكريا والينابيع الباردة في كوتيلي التي يشربون من مائها، ويغتسلون به ليتداووا من الأمراض. وللسابين أيضاً مدينة فورولا، وهي صخرة مهيأة بطبيعتها للعصيان لا للحياة السلمية. ومدينة كوريس التي ليست الآن سوى قرية صغيرة، بينما كانت في زمن ما مدينة لها شأن، فهي مسقط رأس إمبراطوري روما تيتوس تاسيوس، ونوموس بومبيلوس. وعندما كان خطباء روما الشعبيون يخاطبون الرومان، كانوا يدعونهم كويريتيس[1]، نسبة إلى مدينة كوريس هذه. أمّا تريبولا، وإيريت، وسواهما من الأماكن الأخرى، فهي قرى أكثر منها مدن. وتنتشر في البلاد السابينية كلّها زراعة الزيتون والكرمة على وجه الخصوص، كما يجمعون كميات كبيرة من ثمار البلّوط. والبلاد صالحة لتربية شتّى أنواع الحيوانات المنزلية، وهي تشتهر خاصة بواحد من أكثر أنواع البغال الداجنة إثارة للتعجّب. وعلى وجه العموم فإن إيطاليا أفضل مطعمة لصغار مختلف الحيوانات المنزلية، والثمار [ثمار الأرض]، ولكنّ أنواعاً مختلفة منها تتميّز في مناطق مختلفة. ويعد السابين أقدم قوم في هذه البلاد، وهم

سكّانها الأصليون. والبيكينتيتيون والسامنيتيون هم مستعمرو السابين، واللوكانيون مستعمرو السامنيتيين، أمّا البريتيون فهم مستعمرو اللوكانيين. ويمكن أن يكون المظهر القديم للسابين دليلاً على بسالتهم وسواها من الميزات الأخرى المشابهة، فبفضله هم باقون حتّى اليوم[2]. ويقول المؤرّخ فابيوس: لم يدرك الرومان إلى أي حدّ هم أضحوا أغنياء إلاّ بعد أن امتلكوا هذه القبيلة. وعبر بلادهم تمرّ طريق سالاري، والحقيقة أن هذه الطريق ليست طريقاً طويلة؛ لكنّ الطريق النومنتانية تتّصل بها عند إيريت[3]، وهي قرية تابعة للبلاد السابينية، وتقع وراء التيبر؛ وتبدأ هذه الطريق خلف البوابات الكاللينية تماماً.

2- ثمّ تأتي بعد ذلك لاسيوم حيث تقع مدينة الرومان، وتضمّ لاسيوم اليوم كثيراً من المدن التي لم تكن تعدّ فيما مضى من مدن المنطقة اللاتينية. والحقيقة أن الإيكيين[4]، والفولسكيين، والجيرنيكيين، والسكّان الأصليين الذين كانوا يعيشون حول روما نفسها، والروتوليين الذين كانوا يملكون أردييا القديمة، وكذلك باقي الاتحادات القبلية الكبيرة والصغيرة، كانوا يحيطون بالرومان من كلّ صوب عندما وضعت اللبنات الأولى لبناء المدينة. وكان ثمّة بين هذه الاتحادات من كان يتمتّع باستقلاله، وقد عاش هؤلاء في قرى مستقلّة لا يتبعون أي قبيلة مشتركة. وحسب الرواية أن إينياس ومعه والده أنخيس وابنه أسكانيوس، نزلوا في لافرينتيوم التي كانت تقع على مقربة من أوستيا وضفّة التيبر، وأسّس مدينة في موقع إلى الأعلى من البحر قليلاً، وعلى مسافة تقارب 24 مرحلة عنه. فجاء إليه لاتينوس ملك السكّان الأصليين (الذين كانوا يقطنون المكان الذي تقوم فيه روما الآن)، وعقد معه ومع الذين يرافقونه، تحالفاً ضدّ الروتوليين الذين يعيشون في الجوار ويملكون أردييا (المسافة بين أردييا وروما 160 مرحلة). وبعد أن انتصر لاتينوس على الأعداء أسّس مدينة على مقربة ودعاها باسم ابنته لافينيا. وعندما بدأ الروتوليون الحرب من جديد، سقط لاتينوس في ساحة القتال، أمّا إينياس فقد انتصر، وإذ غدا ملكاً دعا رعاياه باللاتين. وبعد وفاة إينياس ووالده، بنى اسكانيوس مدينة ألبا فوق الهضبة الالبانية (على المسافة نفسها من روما وأردييا). وهنا اجتمع كبار اللاتين والرومان وقدموا ذبيحة لزيوس. ثمّ عيّنوا حاكماً على روما مدّة الذبيحة، وقد اختير هذا شاباً من شباب الأرستقراطيا. وبعد 400 عام يروون قصصاً أسطورية بعض الشيء وحقيقية بعضه الآخر، عن أموليوس[5] وشقيقه نوميتور. فقد ورث الشقيقان عن خلفاء أسكانيوس السلطة على ألبا التي تمتدّ حدودها حتّى التيبر. لكنّ الأخ الأصغر أموليوس أزاح أخاه وبات يحكم

بمفرده. وكان نوميتور قد أنجب ولداً وبنتاً. فغدر أموليوس بابن أخيه وقتله بينما كانا يصطادان، ثمّ جعل من ابنة أخيه كاهنة لفستا، كي تكون مرغمة على أن تحافظ على عذريتها وتحرم بالتالي من الإنجاب. وكانت هذه تدعى ريا سيلفيا. لكنّ الملك اكتشف بعد حين أن الفتاة فقدت عذريتها، لأنها أنجبت توأمين، وإرضاء لأخيه لم يأمر بقتلها، بل بسجنها، أمّا التوأمان فقد رمي بهما حسب التقليد الأبوي، على ضفة نهر التيبر. وتزعم الأسطورة أن التوأمين ولدا من أريس، وأن الناس رأوا كيف كانت الذئبة ترضعهما على ضفّة التيبر. وقيل إن المدعو فاوستول، وهو أحد رعاة الخنازير في الضواحي، أخذهما إليه ليربّيهما (ينبغي أن نعتقد بأن هذا كان رجلاً من الوجهاء، أحد التابعين لسلطة أموليوس)؛ وقد أطلق هذا على أحد التوأمين اسم رومولوس، وعلى الآخر اسم روموس[6]. ولمّا كبر هذان واشتدّ عودهما، هاجما أموليوس وأبناءه. وبعد أن هلك هؤلاء الأخيرون، انتقلت السلطة إلى نوميتور، وعاد الأخوان التوأمان إلى الديار وأسّسا روما في المكان الذي لم يحدّده الخيار بقدر ما حدّدته الضرورة[7]. والحقيقة أن هذا المكان لم يكن بطبيعته محصناً تحصيناً جيداً، ولم يكن في ضواحيه من الأراضي الزراعية بالقدر الذي تحتاجه المدينة، بل وكان هناك نقص بالسكّان الذين كان يمكن أن تستوعبهم المدينة. فالناس الذين كانوا يقيمون هناك لم يخالطوا الآخرين (مع أن حدود أراضيهم كانت تلامس أسوار المدينة تقريباً)، ولم يولوا انتباهاً خاصاً للألبانيين* وقد كان هؤلاء هم سكّان كولاسيا، وأنتيمنا، وفيدينا، ولابيك، وسواها من مدن [الألبانيين] التي كانت عندئذٍ مدناً صغيرة، أمّا الآن فهي قرى أو أملاك خاصة يملكها مواطنون، وتقع بعيدة عن روما مسافة 30 مرحلة أو أكثر بقليل. وعلى أي حال بين الحجر الخامس والسادس اللذان يحدّدان عدد أميال البعد عن روما، تقع منطقة تدعى فيستا. وكانت هذه المنطقة تعدّ حينئذٍ حدود منطقة روما. هنا وفي بعض الأماكن الأخرى، كما على المواقع الحدودية السابقة، يقدّم الكهنة[8] في اليوم نفسه، الذبيحة التي تدعى «أمبارفيا»[9]. وفي أثناء تأسيس المدينة، وقع خلاف بين الأخوين، ويقال إنه أدّى إلى مقتل ريموس[10]*. ولمّا فرغ من بناء المدينة، شرع رومولوس يجمع فيها أوباش الضواحي ومشرديها؛ فقد جعل من الأرض المقدّسة الواقعة بين الكريملين والكابيتول «ملجأ»[11]، وأعلن كلّ الجيران الذين فرّوا إليه لاجئين، أعلنهم مواطنين رومان. ولكن، بما أن رومولوس لم يحصل على حق التزاوج بين

---

* سكّان ألبا. - ح إ.

* هكذا ورد الاسم في النص الروسي. - ح.إ.

مواطنيه والجيران، فقد أقام يوماً مباراة لسباق الخيل تكريماً لبوسيدون، ولا تزال هذه المباراة تقام حتّى اليوم. وعندما اجتمعت الحشود (من السابين بشكل رئيس)، أمر رومولوس كلّ من أراد أن يتزوّج، أن يخطف فتاة من اللواتي جئن إلى المباراة. وفي البداية أراد تيتوس تاسيوس، ملك الكوريتيين أن يثأر[12] ليرد الإهانة، إلا أنه عدل عن القتال وعقد اتفاقاً مع رومولوس شرطه الشراكة في السلطة والدولة. وبعد أن قتل تاسيوس غدراً في لافيني، غدا رومولوس يملك وحده بعد أن وافق الكوريتيون على ذلك. وبعد رومولوس ورث السلطة الكوريتي نوموس بومبيليوس بموافقة الرعايا التابعين لسلطته. وتعدّ هذه القصة القصة الأكثر صحّة عن تأسيس روما.

3- ولكن هناك خرافة أخرى أكثر قدماً وذات طابع أسطوري تقول: إن روما كانت في الأصل مستعمرة أركادية أسّسها إيفاندرس. وقد استضاف هذا الأخير هرقل عندما كان يسوق ثيران هيريون. وإذ عرف إيفاندرس من والدته نيكوستراتا (وكانت هذه ضليعة في فنّ العرافة)، أن هرقل سوف يغدو إلهاً بعد أن يحقّق مآثره، نقل الخبر إلى هذا الأخير، وكرّس له قطعة أرض مقدّسة، وقدّم ذبيحة وفق الطقس الإغريقي، ولا يزال الطقس يؤدّى حتّى يومنا هذا تكريماً لهرقل. ويرى المؤرّخ الروماني كيلوس[13] أن هذا يعدّ برهاناً على أن الإغريق هم الذين أسّسوا روما: يؤدّى في روما طقس متوارث تقدّم فيه الذبيحة لهرقل وفق الشعائر الإغريقية. كما يبجّل الرومان والدة إيفاندرس، ويعدّونها واحدة من الحوريات، مع أنهم بدّلوا اسمها فباتت تدعى كارمينتا[14].

4- في الأول لم يكن عدد اللاتين كبيراً، وأكثرهم لم يلق إلى الرومان بالاً. ولكنّهم فيما بعد، وعندما أثارت بسالة رومولوس والملوك الذين خلفوه دهشتهم، خضعوا لهم. وبعد إخضاع الإيكويين، والفولسكيين، والجيرنيكيين، وقبل ذلك الروتوليين، والسكّان الأصليين (إضافة إلى بعض الريكيين، والأرغيروسكيين[15]، والبريثيرنيين)، باتت منطقة هذه القبائل كلّها تدعى لاسيوم. وكان الفولسكيون يملكون سهل بومينتين المجاور للاسيوم، ومدينة أبيولا التي دمّرها تركويني بريسكوس. ويعيش الإيكوبون في جوار الكوريتيين، وقد دمّر تركويني بريسكوس مدنهم أيضاً. ونجح ابنه في الاستيلاء على سويسّا، وهي مدينة الفولسكيين الرئيسة. وعاش الجيرينكيون على مقربة من لانوفي، وألبا، وروما نفسها. وغير بعيد كانت تقوم أريكيا، وتيلّلينا، وآتسي. وفي بادئ الأمر كان الألبانيون يتعايشون مع الرومان بوئام، لأنّ لغتهم كانت واحدة، كما كان الطرفان من العرق اللاتيني؛ ومع أنه كان لكلّ قبيلة منهما ملكها الخاص بها، كما عاشت كلّ منهما على حدة، إلاّ أنه كانت بينهما مع ذلك زيجات متبادلة، وقرابين مشتركة يقدّمونها في ألبا، وحقوق وواجبات

أخرى. ولكن عندما نشبت بينهما الحرب فيما بعد، دمّرت ألبا ما عدا المعبد، وصار الألبانيون إلى مواطنين رومان. وثمّة من المدن المجاورة الأخرى، مدن هدّمت، وأخرى لم تكن قد أخضعت، جرى الآن إخضاعها، ولكنّ بعضها الثالث ازداد قوّة بسبب ممالئته للرومان. ويدعى الساحل الآن من أوستيا حتّى مدينة سينويسّا، لاسيوم؛ وكان يمتدّ من قبل إلى كيركيه فقط. وفي الأزمنة السابقة لم تشمل لاسيوم سوى شطر غير كبير من المنطقة الداخلية، لكنّها امتدت فيما بعد لتصل حتّى كامبانيا ومنطقة السامنيتيين، والبيليغنيين وسواهما من الأقوام الأخرى التي تستوطن الأبينين.

5- ولاسيوم كلّها منطقة خيّرة وغنية بشتّى أنواع الغلال، ما عدا بعض الأماكن الساحلية المستنقعية غير الصحّية (مثل منطقة الأرديين، والمنطقة الواقعة بين آنسي ولانوفي حتّى سهل بومينتين وبعض الأماكن في منطقة سيتيا وضواحي تارّاكينا وكيركيه)، أو بعض الأماكن الجبلية والصخرية. وحتّى هذه الأخيرة ليست قاحلة تماماً ولا نفع منها، بل فيها مراع غنية، وغابات تعطي بعض الغلال التي تنبت في التربة المستنقعية الصخرية. ومع أن سهل كيكوب سهل مستنقعي، إلاّ أن الكرمة تزرع فيه، وتعطي أفضل أنواع النبيذ، وتدعى هذه الكرمة «بالدالية الخشبية»[16]. ومدن اللاتين الساحلية، هي أوستي، ليس فيها ميناء بسبب ما يحمله التيبر إلى هنا من ترسبات، وبسبب امتلائه بمياه روافده الكثيرة. ولذلك فإن السفن التجارية تخاطر وترمي مراسيها في عرض البحر. ولكنّ السعي إلى تحقيق الأرباح يغلب دوماً. فكثير من السفن المساعدة التي تسير بالمجاديف، تسرع إلى نقل الشحنات من عرض البحر، الأمر الذي يسمح للسفن الكبيرة بالإبحار في طريق العودة قبل أن يتسنّى للنهر اختطافها؛ وثمّة من السفن التي إذا خفّت حمولتها إلى حدّ معيّن، تدخل النهر وتمضي صاعدة فيه إلى مسافة 190 مرحلة عن روما نفسها. لقد أسّس مدينة أوستي، ليكوس مارسيوس. ثمّ تلي أوستي مدينة آنسي، وهي من غير ميناء أيضاً. وكانت قد بنيت على رقعة صخرية، وهي تبعد حوالي 260 مرحلة عن أوستي. وتعدّ هذه المدينة الآن مكاناً هادئاً يقضي الحكّام فيه أوقات راحتهم عندما يتحرّرون من أعباء الحكم، ولذلك بنيت في المدينة كثرة من المنازل الفخمة. وكان لدى سكّان آنسي فيما مضى سفن، وقد مارسوا مع التيرينيين أعمال القرصنة البحرية، مع أنهم كانوا قد خضعوا عندئذٍ لسلطة الرومان. ولذلك أرسل الإسكندر في الزمن القديم سفارة إلى روما يشكو من تلك الأعمال، وبعد ذلك أعاد ديميتريوس[17] إلى الرومان، القراصنة الذين قبض عليهم، وأمر بأن ينقل عنه إلى الرومان، أنه مع أنه يقدّم لهم جميلاً إذ يعيد إليهم أسراهم، احتراماً منه لصلة القرابة التي تربط بين الرومان والإغريق، إلا أنه يرى مع ذلك، أنه لا يليق بالناس

الذين يمتلكون إيطاليا أن يرسلوا عصابات من القراصنة، كما لا يليق بمن بنوا في ميدانهم العام معبداً للديوسكوري، وعبدوا أولئك الذين يدعوهم الجميع منقذين، أن يرسلوا في الوقت نفسه عصابات إلى اليونان تنهب موطن الديوسكوري. عندئذٍ حرّم الرومان على الأنتيسيين ممارسة هذا العمل. وفي الوسط بين هاتين المدينتين، تقع لافيني، حيث يقوم معبد أفروديت المشترك بين اللاتين كلّهم. ويقوم الأرديون على العناية بهذا المعبد عبر فريق من الكهنة. ثمّ تأتي بعد ذلك مدينة لافرينت. وإلى الأعلى من هذه المدن تقع أردييا، مستوطنة الروتوليين، على بعد 70 مرحلة عن البحر في عمق البلاد. ويقوم على مقربة من أردييا معبد آخر لأفروديت، حيث يحتفل اللاتين بأعيادهم الشعبية. ولكنّ السامنيتيين نهبوا هذه المنطقة، ومع أنه لم يبق هنا سوى بقايا مدن، إلاّ أنها أضحت شهيرة بإقامة إينياس فيها وبالطقوس المقدّسة (حسب الرواية) التي كانت تقام في تلك الأزمنة.

6- وبعد آنسي بـ 290 مرحلة يرتفع جبل كيركيه الذي يحيط به البحر والمستنقعات كأنه جزيرة. ويزعمون أن هذا الجبل غني بالجذور، وربّما لهذا السبب يربطونه بأسطورة كيركا[18]. وثمّة على الجبل مدينة صغيرة فيها معبد لكيركا، ومذبح لأثينا. ويعرضون هناك كأساً يقولون إنها كأس أوديسيوس. ويجري بين آنسي وكيركيه نهر ستورا، الذي تقوم عليه محطة للسفن. ثمّ يمتدّ بعد ذلك ساحل كيركيه. وفوق هذا الساحل في عمق البلاد يقع سهل بومينتين. وكان الأفسونيون يسكنون قبل ذلك، البلاد المتاخمة لهذا السهل، كما كانوا يسيطرون على كامبانيا أيضاً. ويأتي بعدهم الأوسكيون الذين كانوا يسيطرون بدورهم على شطر من كامبانيا. وكما قلت سابقاً[19]، إن هذه المنطقة كلّها، وصولاً إلى سينويسا، هي الآن ملك للاتين. لكنّ حدثاً غريباً وقع للأوسكيين والأفسونيين: مع أن الأوسكيين اندثروا، إلاّ أن لغتهم بقيت عند الرومان، فحتّى الملاحم التي كتبت بلغتهم تعرض على المسرح أثناء المباريات الاحتفالية القديمة وتؤدّى كإيمائيات[20]؛ ومع أن الأفسينيين لم يقطنوا يوماً منطقة بحر صقليا، إلاّ أن هذا البحر يدعى البحر الأفسوني. وبعد 100 مرحلة من كيركيه تأتي تارّاكينا، التي كانت تدعى قبل ذلك تراخينا، وذلك تبعاً لوضعها آنئذٍ[21]. ويقع أمامها مستنقع كبير يشكّله نهران، يدعى الكبير منهما أوفيدس[22]. وهنا تلامس البحر لأول مرّة، طريق أبيوس التي شقّت من روما حتّى برينتيسي، والتي غالباً ما يؤمّها الرحالة. ولا تصل هذه الطريق إلى أيّ مدينة بحرية أخرى غير تارّاكينا والمدن التي تليها: فورمي، ومينتورنا، وسينويسّا، وتارانت، وبرينتيسي النائيتين. وعلى مقربة من تارّاكينا، إذا انطلقت نحو روما، شُقّت على طول

طريق أبيوس قناة تمتلئ في أماكن كثيرة بمياه المستنقعات والجداول. وفي غالب الأحيان يبحرون في القناة ليلاً، فيركبون القارب مساء، وفي صباح اليوم التالي ينزلون منه ويتابعون ما تبقّى من الطريق برّاً؛ لكنّ الإبحار في القناة يجري في النهار أيضاً. وتجرّ البغال القوارب. ثم تأتي بعد ذلك مدينة فورمي، وهي مستعمرة لاكونية كانت من قبل تدعى هورميا، بسبب محطة السفن الجيّدة فيها[23]. كما أعطى اللاكونيون الخليج الواقع بين تارّاكينا وفورمي اسم كايتا، لأنهم يدعون أيّ تجويف «كايتا»[24]. ويزعم بعضهم أن الخليج حمل هذا الاسم تيمّناً باسم مرضعة إينياس[25]. ويبلغ طول الخليج من تارّاكينا إلى رأس تحمل الاسم نفسه، 100 مرحلة. وتوجد هنا كهوف مفتوحة عظيمة الحجم فيها مساكن فسيحة فخمة. والمسافة من هنا إلى فورمي 40 مرحلة. وتقع بين فورمي وسويسّا، مدينة مينتورنا، وهي تبعد عن المدينتين حوالي 80 مرحلة. ويجري عبر مينتورنا نهر ليريس، الذي كان يدعى قبل ذلك كلانيس. وينبع هذا النهر من الجزء الداخلي للبلاد، من جبال الأبينين ومن منطقة الفيستينيين، على مقربة من قرية فريجيلا (وكانت هذه قبل ذلك مدينة شهيرة)، ويصبّ تحت المدينة في دغل مقدّس يجلّه سكّان مينتورنا إجلالاً عظيماً. وقبالة الكهوف تقع في عرض البحر جزيرتان: بانداتيريا وبنتيا (ومع أنهما صغيرتان إلاّ أنهما مسكونتان بكثافة)، واحدتهما قريبة من الأخرى، ولا تبعدان عن البر أكثر من 250 مرحلة. ويجاور خليج كايتا سهل ليكوب، وتجاور هذا الأخير مدينة فوندا، وهي مدينة واقعة على طريق أبيوس. وهذه الأماكن كلّها غنيّة جدّاً بالنبيذ الجيد، ويشتهر على وجه الخصوص نبيذ كيكوب، وفوندا، وسيتينا، على مستوى شهرة نبيذ فاليري، وألبا، وسيتيا. وتقع سينويسّا في خليج كايتا، ومن هنا اشتقّ اسمها («سينوس» تعني «خليج»). وغير بعيد عن سينويسّا تقع حمّامات ساخنة لها فاعلية قوية ضدّ بعض الأمراض[26]. لقد كان هذا عن مدن اللاتين الساحلية.

7- وأوّل مدينة فوق أوستيا في أعماق البلاد، هي روما، وهي إضافة إلى ذلك، المدينة الوحيدة على نهر التيبر. وكما أسلفت الحديث[27] عن هذه المدينة، فإن تأسيسها جاء تلبية لضرورة، ولم يكن خياراً. وينبغي أن نضيف هنا، أنه حتّى أولئك الذين بنوا فيما بعد أجزاء جديدة في المدينة، لم تكن أمامهم فرصة اختيار المكان الأفضل، بل كانوا مرغمين على أن يتلاءموا مع ما هو قائم. لقد بنى المؤسّسون الأوائل سوراً حول الكابيتول، والبالاتين، وهضبة كويرينال التي كان وصول الغرباء إليها سهلاً إلى درجة أن تيتوس تاسيوس استولى عليها بهجوم واحد عندما جاء ليثأر لخطف الفتيات[28]. ثمّ جاء أنكوس مارسيوس وألحق بالهضاب الثلاث، جبل كيلوس، وجبل

أفينتين والسهل الواقع بينهما، وكان هذان الجبلان منفصلين واحدهما عن الآخر، وعن أجزاء المدينة الأخرى التي كانت قد أحيطت بالسور؛ بيد أنه فعل هذا بحكم الضرورة. والحق يقال، إنه لم يكن من الحكمة في شيء أن تترك خارج الأسوار هضبتان منحتهما الطبيعة نفسه تحصيناً قوياً، لتكونا لقمة سائغة لكلّ طامع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم يكن بمقدور مارسيوس أن يملأ [بالأبنية] المدى كلّه حتّى هضبة كويرينال. ولكن سرفيوس سدّ هذا النقص؛ فقد بنى المدينة، بعد أن ألحق بها هضبة إيكويلين، والفيمينال. بيد أن هاتين الهضبتين كانتا أيضاً، سهلتي المنال لأيّ عدوّ خارجي. ولذلك حفر الرومان خندقاً عميقاً ورموا التراب إلى الجهة الداخلية للخندق، ورفعوا هنا منحدراً طوله حوالي 6 مراحل على الحد الداخلي للخندق، وبنوا فوقه سوراً وبرجاً من البوابات الكوللينية حتّى البوابات الإيسكولينية. وتحت وسط المنحدر تقع البوابات الثالثة، التي تحمل اسم هضبة الفيمينال نفسه. على هذا النحو كانت تحصينات المدينة، مع أنه كانت هناك حاجة لنسق ثان منها. ويهيأ لي أن بناة المدينة الأوائل كان يحكمهم اعتبار واحد رأوا من خلاله مصالحهم ومصالح أحفادهم: ينبغي على الرومان ألاّ يتوسلوا الأمن والرخاء من تحصينات مدينتهم، بل من قوّة سلاحهم وبسالتهم؛ فليست الأسوار هي التي تحمي الناس، بل الناس هي التي تحمي الأسوار. وبما أن الأراضي الخصبة الشاسعة التي كانت تحيط بروما، كانت في بادئ الأمر ملكاً للآخرين[29]، كما كانت حدود المدينة هدفاً سهلاً للاعتداءات، فإن موقع المدينة الذي جاء هبة من القدر، لم يكن واعداً بالحياة السعيدة. ولكن عندما امتلك الرومان هذه الأرض برجولتهم وجهودهم، أضحت بين أيديهم ثروة تفوّق أي ميزات طبيعية كانت. فالمدينة التي نمت واتسعت نتيجة لتراكم الخيرات هذا، باتت تتوفّر على احتياطات كافية من المؤن، وخامات الغابات، والحجارة لبناء المساكن، وهو النشاط الذي يتواصل من غير انقطاع، بسبب الانهدامات، والحرائق، وبيع المساكن وإعادة بيعها (وهذه الحالة الأخيرة دائمة الحضور)؛ فبيع المساكن وإعادة بيعها، هو فعلاً، إذا صحّ القول، عملية تهديم متعمّد للمنازل السكنية، لأنّ الشاري غالباً ما يهدم المنزل الذي اشتراه، ليبني منزلاً آخر وفق ذوقه[30]. وثمّة كثرة من مقالع الحجارة، والغابات توفّر كميات مهولة من مواد البناء اللازمة لتواصل حركة البناء المذكورة، كما توجد أنهار كثيرة تنقل هذه المواد في مياهها؛ ويأتي في المقام الأول بين هذه الأنهار، نهر أنيون الذي ينبع من ألبا (وهي مدينة لاتينية تقع قرب منطقة المارسين)، ويعبر واد يقع تحت ألبا، ليلتقي بعد ذلك مع نهر التيبر؛ ويليه نهر نار ونهر تينييوس، اللذان يجريان عبر أومبريكا ليصبّا بعد ذلك في نهر

التيبر أيضاً؛ ويجري عبر تيرينيا ومنطقة كلوسي، نهر كلانيس. وكان قيصر أغسطس قد اتخذ إجراءات لمواجهة الكوارث التي قد تحلّ بالمدينة: جنّد فرقة من المعتوقين[31]، ودربهم لمكافحة الحرائق، وللحدّ من وقوع الانهيارات، وأمر بتقليص ارتفاع المباني، ومنع بناء منازل ارتفاعها 70 قدماً في الشوارع العامّة. وعلى أي حال كان يمكن أن تتوقف إعادة بناء المنازل، لو كان ثمّة نقص في مقالع الحجارة، والأخشاب، ووسائل النقل الخفيفة بالطرق المائية.

8- هذه المنافع تمنحها الطبيعة للمدينة. لكنّ الرومان زادوا عليها ميزات أخرى بفضل يقظتهم وبعد نظرهم. وإذا كان الإغريق قد نجحوا نجاحاً خاصاً لدى تأسيس المدن، في تحقيق سعيهم إلى الجمال، والمناعة، ووجود المرافئ، والتربة الخصبة، كما يروى، فإن الرومان أولوا اهتمامهم على وجه الخصوص لما لم يوله الإغريق أيّ اهتمام: بناء الطرقات، وقنوات الماء، ومصارف الصرف الصحّي التي كانت تحمل قاذروات روما إلى التيبر. كما بنى الرومان أيضاً الطرقات عبر البلاد، فحفروا الهضاب وبنوا المنحدرات إلى الوهاد، بحيث تستطيع عربات النقل أن تنقل الشحنات التي تحملها السفن التجارية. لقد بنى الرومان قنوات الصرف الصحّي على شكل قناطر حجرية مرصوصة البنيان، وتركوا فيها مجالات كافية لعبور أحمال الحشائش. أمّا قنوات المياه فهي تنقل كميات مهولة منها، بحيث تعبر المدينة وتتدفق عبر قنوات الصرف الصحّي أنهار حقيقية. وفي كلّ بيت من بيوت روما تقريباً يوجد خزان ماء، وأنابيب لجرّ الماء إلى أنحاء المنزل ونوافير مياهها غزيرة جدّاً. وكان ماركوس أغريبا قد أولى هذا كلّه عناية كبيرة، كما زين المدينة بكثير من المنشآت الفخمة الأخرى. وعلى وجه العموم فإن الرومان القدماء كانوا يهتمون بأمور أخرى مصيرية وضرورية، ولذلك لم يولوا جمالية روما اهتماماً يذكر. أمّا في الزمن المتأخر، خاصة الرومان المعاصرين لي ومن سبقهم ببعض الوقت، فهؤلاء لم يقصّروا بتزيين مدينتهم بكثير من المنشآت البديعة. والحق يقال، إن بومبيوس، وقيصر الإلهي، وأغسطس، وأبنائه، وأصدقائه[32]، وزوجته، وأخته تفوّقوا على الآخرين كلّهم، ولم يدّخروا جهداً ولا مالاً في إدارة عملية العمران. ويقع الجزء الأكبر من هذه الأبنية في حقل مارس، حيث تنضم إلى جمال الطبيعة جمالية فنّ الإنشاء. والواقع أن اتساع الحقل نفسه يثير الدهشة، لأنه على الرغم من وجود هذا العدد الكبير من الناس الذين يلعبون بالكرة، ويدحرجون الإطارات أو يتدربون على المصارعة، إلاّ أنه يبقى هناك في الوقت نفسه، مكان لسباق المركبات ومختلف تمارين الفروسية الأخرى. وتحيط بحقل مارس أيضاً، الأعمال الفنية، وتغطي الأرض على مدار العام زهور وأعشاب، وتيجان التلال التي تطلّ على النهر، وتمتدّ حتّى

تبلغ مجراه، ليشكّل هذا كلّه ما يشبه الديكور المسرحي الذي يصعب أن تحوّل النظر عنه. ويمتدّ على مقربة من هذا الحقل حقل آخر[33]، وينتشر في محيط المكان كثير من الأروقة، والحدائق، وثلاثة مسارح، ومدرج، ومعابد بهية بعضها خلف بعض، وعلى هذا النحو يغدو وصف ما تبقّى من المدينة أمراً لا حاجة له. وقد عدّ الرومان هذا المكان الأكثر قدسية، ولذلك أقاموا فيه نصباً تذكارية لأعظم رجالاتهم ونسائهم. وأبرز هذه النصب النصب الذي يدعى الضريح[34]، وهو عبارة عن جثوة قائمة على قاعدة عالية من المرمر الأبيض على مقربة مباشرة من النهر، والمكان مزروع بأشجار كثيفة دائمة الخضرة. ويقوم في أعلى قمة الجثوة تمثال برونزي لأغسطس قيصر. وتحت الجثوة قبر قيصر نفسه، وقبور أقاربه والمقرّبين منه. وتقوم وراء الضريح حديقة كبيرة فيها ممرّات ساحرة للتنزّه. وفي وسط الحقل سور يحمي مكان رماد جثمان أغسطس، وهو مبنيّ من المرمر الأبيض أيضاً[35]؛ ويحيط بهذا السور قفص حديدي، أمّا المكان في الداخل، فهو مزروع بأشجار من الحور الأسود. وإذا ما ذهبت مرّة أخرى إلى الميدان القديم، فسوف ترى ميادين متوضّعة واحدها بموازاة الآخر، وبازيليكات، ومعابد؛ وسترى الكابيتول أيضاً، وأعمال الفنّ الموجودة هناك على البالاتين وفي حدائق ليبيا، وسوف تنسى بسهولة كلّ ما هو موجود خارج المدينة. وتلكم كانت روما.

9- أمّا مدن لاسيوم فإنه يمكن أن نحدّد موقعها بمؤشرات مختلفة في بعض الحالات، وفي حالات أخرى حسب أشهر الطرقات التي شقّت في لاسيوم، لأنّ هذه المدن تقع إمّا على هذه الطرقات، وإمّا على مقربة منها، أو بينها. وأشهر الطرقات هي: طريق أبيوس، والطريق اللاتينية، وطريق فاليري. وتفصل طريق أبيوس المدن الساحلية حتّى سينويسّا، بينما تفصل طريق فاليري الشطر الواقع عند منطقة السابين حتّى بلاد المارسيين؛ أمّا الطريق اللاتينية فهي تمرّ بينهما؛ لكنّها تتّصل بطريق أبيوس عند كاسيلين، وهي مدينة تقع على بعد 90 مرحلة من كابويا. وتبدأ الطريق اللاتينية من طريق أبيوس، ثمّ تنعطف يساراً على مقربة من روما، وبعد أن تعبر جبل توسكولان بين مدينة توسكول وجبل ألبا، تنحدر نحو مدينة ألجيد ومنازل البيكتيين. وتتّصل بعدئذٍ بالطريق اللابيكانية؛ وهذه الأخيرة، مثلها مثل الطريق البرينستية تبدأ عند البوابات الإيسكويلينية، لكنّها تترك الطريق البرينيستية والسهل الإيسكويليني وتنعطف يساراً لتعبر أكثر من 120 مرحلة مقتربة من لابيك. وكانت هذه المدينة القديمة تقع على تلّ عال، لكنّها الآن مدمّرة. ثمّ تخلّف توسكول وتتّجه يميناً لتنتهي عند البيكتيين والطريق اللاتينية. ويقع هذا المكان على بعد 210 مراحل عن روما. ثمّ تنتشر على الطريق اللاتينية نفسها مستوطنات ومدن ذات شأن: ثيرينتين، وفروسينون (التي

يجري نهر كوسا على مقربة منها)، وفابراتيريا (التي يجري على مقربة منها نهر ترير)، وأكوين (وهي مدينة كبيرة يجري قربها نهر كبير، هو نهر ميلبيوس) وإينترامنوس (التي تقع عند نقطة التقاء نهر ليريس مع نهر آخر)، وأخيراً كاسين (وهي مدينة مهمّة أيضاً)، وهي آخر مدن لاسيوم، فمدينة ديان سيديسين التي تقع بعد كاسين، تبيّن من خلال صفتها نفسها، أنها من مدن السيدينيين. وهؤلاء هم الأوسكيون، قبيلة من قبائل كامبانيا المندثرة. وعليه فالمدينة يمكن أن تعدّ مدينة كامبانية، مع أنها أكبر المدن الواقعة على الطريق اللاتينية، وعلى النحو نفسه يمكن أن نعد مدينة الكالينيين[36] (وهي مهمّة أيضاً) التي تليها مباشرة، مع أنها تتاخم كاسيلين.

10- وعلى جانب الطريق اللاتينية بدءاً من اليمين، تقع بينها وبين طريق أبيوس، مدينتا سيتيا وسيغنيا اللتان تنتجان النبيذ؛ فالأولى تنتج أغلى أنواعه ثمناً، وتنتج الثانية نبيذاً هو أفضل وسيلة لقبض المعدة، ويدعى بالنبيذ «السيغنيني». وبعد ذلك، مقابل سيغنيا تقع بريفيرن، وكورا، وسويسّا، وترابونتي، وفيليترا، وأليتري. وإلى جانب هذه، هناك أيضاً فريجيلا التي يجري قربها نهر ليريس. ويقع مصبّ هذا النهر عند مينتورنا، وليست هذه الآن سوى مستوطنة لا أهمية لها، بينما كانت فيما مضى مدينة لها شأن إذ كانت تسود على كثير من المدن الأخرى الطرفية التي ذكرناها الآن. وحتّى يومنا هذا لا يزال سكّان هذه المدن يجتمعون في فريجيلا، فيقيمون المعارض ويؤدون بعض الشعائر المقدّسة. ولكنّ الرومان دمّروا المدينة بعد انتفاضتها عليهم. ويقع كثير من هذه المدن، مدن الطريق اللاتينية كما مدن الجهة الأخرى منها، يقع في منطقة الجيرنيكيين، والإيكويين، والفولسكيين؛ وكان الرومان هم الذين أسّسوها كلّها. وعلى يمين الطريق اللاتينية، بينها وبين طريق فاليري، تقع مدن قائمة على الطريق البرينيستية؛ وتعدّ مدينة غابي بمقلع حجارتها، هي المدينة الأكثر نفعاً لروما من بين باقي المدن الأخرى؛ وتقع هذه المدينة على مسافة واحدة من روما وبرينيست - 100 مرحلة تقريباً. ثمّ تأتي بعدها برينيست التي سوف أتحدّث عنها قريباً. تليها المدن الجبلية الواقعة فوق برينيست: مدينة الجيرنكيين الصغيرة كابيتول، وأنا غنيا المدينة المهمّة، وكيرياتيه، وسورا التي يجري قربها نهر ليريس في طريقه إلى فريجيلا ومينتورنا؛ ثمّ يلي هذه عدد من المدن الأخرى ومدينة فينا فروس التي تنتج أفضل أنواع زيت الزيتون. وتقع مدينة فينافروس هذه فوق مرتفع، ويجري عند سفوح التلّ نهر فولتورن الذي يجري أيضاً قرب كاسيلين ليصبّ في البحر عند مدينة تحمل اسم النهر نفسه. أمّا إيسيرنيا وألليفا فهما مدينتان سامنيتيتان؛ وكانت الأولى قد دمّرت أثناء الحرب المارسية، بينما الأخرى باقية حتّى الآن.

11- تبـدأ طريـق فـاليري مـن تيبـورا، وتقـود إلى منطقـة المارسـيين فكورثينيـا عاصمة البيليغنيين. وتقع على طريق فـاليري المدن اللاتينيـة الآتيـة: فاريـا، وكارسـيولا، وألبا؛ كما تقع على مقربـة منهـا مدينـة كوكـول. وتظهـر لسـكّان رومـا مـدن تيبـورا، وبرينيسـت، وتوسـكول. ويوجـد في تيبـورا معبـد لهرقـل وشـلال مـاء يشـكّله نهـر أنيـون الصالح للملاحة، والذي يهوي عند المدينة مباشرة من ارتفـاع عـال إلى فـجّ عميق تغطيـه الأدغـال حتّـى المدينـة نفسـها. ومـن هنـا يجـري النهـر عبر سـهل شـديد الخصـوبة، وعلـى مقربـة مـن مقـالع الحجـارة التيبورتيـة، والغابيّـة، ومقـالع مـا يـدعى بالحجـارة الحمـراء؛ ولذلك فإنّ نقل الحجارة من مقالعها، وشحنها بالطريق المائية، أمر يسير تمامـاً؛ وأكثـر الأعمال الفنية في روما نفّذت بالحجارة المنقولة من هنـا. وتجـري عبر هـذا السـهل أيضـاً، المياه التي تسمى مياه ألبولا[37]، وهـي ميـاه بـاردة مـن ينـابيع كـثيرة تشـفي مـن أمـراض شتّى، وتستخدم للشرب والاغتسال. ولمياه ألبا[38] الخاصية نفسها أيضـاً، وتقـع هـذه غير بعيد عن الأولى على الطريق النومينتانية في منطقة قريبـة مـن إيريـت. ويقـوم في برينيسـت معبـد لفورتونـا اشـتهر بكهنتـه المتنبيئن. وتقـع هاتـان المـدينتان عنـد السلسـلة الجبليـة نفسها، وتبعـد واحـدتهما عـن الأخـرى مـا يقـارب 100 مرحلـة؛ وتبعـد برينيسـت عـن رومـا ضعف هذه المسافة، أمّـا تيبـورا فتبعـد عنهـا مسـافة أقلّ بمـرتين. هـذه المـدن، هـي كمـا يزعمون، مدن إغريقية. وعلى أيّ حال فإن برينيست كانت تدعى سـابقاً كمـا يقولـون، بوليستيفان. إن الطبيعة نفسها كانت قد حصّنت كـلاً مـن هـذه المـدن، لكـنّ تحصـين برينيسـت كـان الأفضـل، فبـدلاً مـن الأكـروبوليس، يرتفـع فـوق المدينـة جبـل عـال[39] يفصله من الخلف عن السلسلة الجبلية التي يتّصل بها، برزخ؛ ويعلو الجبـل فـوق السلسـلة بالاتجاه الشاقولي مرحلتين. وإضافة إلى هذا الحصن الطبيعي، شقّت تحت المدينة أنفـاق من جهاتها كلّها وصولاً إلى السهول، بعضـها يسـتخدم لاسـتجرار الميـاه، وبعضـها الآخـر مخـارج سـرّيّة. وفي واحـد مـن هـذه الأنفـاق لاقـى مـاريوس حتفـه محاصـراً[40]. ومـع أن الـدفاعات الجيّـدة كانـت خـيراً للمـدن الأخـرى كلّهـا، لكنّهـا كانـت بالنسـبة للبرينيسـتيين وبـالاً، وسـبب الانتفاضـات عنـد الرومـان. فقـد كـان العصـاة يجـدون فيهـا ملجأ أميناً لهم[41]. وعندما يضطرون إلى الاستسـلام بعـد محاصـرة المدينـة، كانـت هـذه تنهب وتخسر من أراضيها، لأنّ الوزر كان يُلقى دائماً على الذين لا ذنب لهم. وعبر هـذه المنطقة يجري نهر فيريستيس. والمدن المذكورة تقع كلّها شرقي روما.

12- وأقرب إلى روما من هذه البلاد الجبلية، سلسلة جبلية أخرى[42]، تشكّل بينهما على مقربـة مـن ألجيـد، واديـاً مرتفعـاً يمتـدّ حتّـى جبـل ألبـا. وعلـى هـذه السلاسـل الجبلية تقع مدينة توسـكول، وهـي مدينـة منظمـة تنظيمـاً لا بـأس بـه. فمحيطهـا مـزدان

بغراس خضراء وفيلاّت تتوضّع تحت المدينة باتجاه روما. لأنّ توسكول هنا عبارة عن هضبة خصبة فيها وفرة من المياه، وفي كثير من الأماكن تنساب الهضبة صاعدة تزيّنها قصور فخمة باذخة. وتتاخم هذه الهضبة عند سفوح جبل ألبا، أماكن بديعة ساحرة تزدان بقصور رائعة. وتلي ذلك سهول يتاخم بعضها روما وضواحيها، ويتاخم بعضها الآخر البحر. والحقيقة أن السهول الساحلية أقلّ ملاءمة للصحّة، لكنّ الأخرى مناسبة لعيش الإنسان، وتوشيها مباني مماثلة. وبعد جبل ألبا تأتي أريكيا، وهي مدينة واقعة على طريق أبيوس، على بعد 160 مرحلة من روما، داخل منطقة عميقة، ولكن بصرف النظر عن هذا، فإن الطبيعة هي التي حصّنت الأكروبوليس فيها. وإلى الأعلى من أريكيا تقع لانوفي، وهي مدينة رومانية قائمة على الجانب اليميني من طريق أبيوس، ومنها يرى البحر وآنسي، وعلى يسار الطريق، إذا انطلقت من أريكيا، يقع معبد أرطميس الذي يدعونه «دغل أرطميس». ويقال إن معبد أرطميس الأريكية[43]، هو نسخة طبق الأصل عن معبد أرطميس تافروبولوس، والحق يقال إن العنصر البربري[44] والسكيثي هما العنصران الغالبان في طقوسها المقدّسة. فكاهنها مثلاً، هو دائماً عبد فار قتل الكاهن السابق. ولذلك فإنه لا يفارق سيفه، فهو ينتظر أن يهاجمه أحدهم في أي لحظة، وينبغي أن يكون على استعداد دائم للدفاع عن نفسه[45]. ويقوم المعبد في دغل مقدّس، أمامه بحيرة تشبه البحر، وترتفع حول المكان قمم جبلية شاهقة متصلة تحتضن المعبد وحوض الماء في مرجل مجوف وعميق. ويمكن رؤية الينابيع نفسها التي تملأ البحيرة[46] (لقد دعي أحدها - إيجيريا - باسم أحد الآلهة)، لكنّ مخارج [الينابيع] إلى البحيرة غير ظاهرة، مع أنها تظهر بعيداً خارج المرجل حيث تخرج إلى سطح الأرض.

13- وعلى مقربة من هذه الأماكن يقع جبل ألبا، الذي يعلو كثيراً على معبد أرطميس والقمم الجبلية المحيطة به، مع أنها عالية بما يكفي ومنحدرة انحداراً شديداً. وثمّة على هذا الجبل بحيرة[47] أكبر بكثير من تلك التي عند معبد أرطميس. وخلف هذه الجبال تقع المدن اللاتينية المذكورة. وأبعد هذه الأخيرة في عمق البلاد، مدينة ألبا، الواقعة على الحدود مع المارسيين. وهي تقع فوق تلّ عال قرب بحيرة فوكين[48]، التي تشبه البحر من حيث اتساعها. ويستخدم البحيرة بشكل أساسي، المارسيون وسكّان الجوار كلّهم. ويروى عنها أنها تمتلئ بالماء أحياناً حتّى قمم الجبال، لكنّها تنخفض أحياناً أخرى إلى حدّ تجف فيه أماكنها المستنقعية وتغدو قابلة للزراعة، أو تحدث في أعماقها هنا وهناك انتقالات غير مرئية للمياة الجوفية، تعود هذه بعدها لتتلاقى من جديد، أو قد تختفي الينابيع تماماً، ثمّ تنبثق إلى السطح مرّة أخرى، كما يحدث على حدّ قولهم لأمينان، النهر الذي يجري عبر كاتانا. فهذا النهر يختفي فعلاً لعدة سنوات،

ثمّ يعود ليجري من جديد. ويروون كذلك أن ينابيع مياه مارسيا التي تزوّد روما بمياه الشرب وتثمّن أكثر من أي مياه أخرى، هذه الينابيع تنبع من بحيرة فوكين. وبما أن ألبا تقع في عمق البلاد، وهي محصّنة تحصيناً جيّداً، لذلك كثيراً ما يجعل الرومان منها سجناً يضعون فيه الشخصيات التي ينبغي أن تكون تحت المراقبة[49].

الفصل الرابع

1- إننا إذ بدأنا من [مناطق] أقوام الألب، وأجزاء جبال الأبينين المجاورة لها، ثمّ بعد أن عبرناها، فإننا نكون قد عبرنا بذلك كلّ البلاد الواقعة بين البحر التيريني وجبال الأبينين التي تميل نحو البحر الأدرياتيكي حتّى منطقة السامنيتيين والكامبانيين. وهاأنذا أعود الآن القهقرى لأصف الأقوام التي تعيش في هذه الجبال وعلى منحدراتها، إن على الجهة الأخرى حتّى حدود الأدرياتيكي، أو في مناطق هذه الجهة. ولكن ينبغي علينا أن نبدأ مرّة أخرى من الحدود السلتية[1].

2- فبعد مدن الأومبريكيين الواقعة بين أريمين وأنكونا، تأتي منطقة بيكينتين. وقد خرج البيكينتينيون من منطقة السابين، وكان نقّار الخشب الأسود، هو دليل قادتهم. ومن هنا اشتقّ اسمهم، فهم يدعون هذا الطير «بيك»[2] ويعدّونه طير أريس المقدّس. ويشغل هؤلاء المنطقة التي تمتدّ عرضاً. وتعدّ هذه البلاد بلاداً ملائمة جدّاً لزراعة مختلف أنواع المحاصيل، لكنّ زراعة الأشجار المثمرة فيها أفضل من زراعة الأقماح. إن عرض البلاد من الجبال إلى البحر على امتدادات مختلفة، هو غير متماثل، بينما طولها إذا أبحرت على طول الساحل ابتداء من نهر إيسيس حتّى كاستروم، 800 مرحلة. ومدن منطقة بيكينتين هي أولاً، أنكونا، وهي مدينة إغريقية أسّسها السيراكوزيون الذي فرّوا من طغيان ديونيسيوس. وتقع أنكونا على الرأس التي تتقعر نحو الشمال لتشكّل ميناء، وهي غنية جدّاً بالنبيذ الممتاز، والقمح. وعلى مقربة من أنكونا تقع مدينة آوكسوم، غير بعيد فوق البحر. تليها سيبتمبيدا، بنيفينسيا، وفيرمومبيكينوم ومحطة سفنها كاستيل، ثمّ يأتي بعد ذلك معبد كوبرا الذي أسّسه وشيّده التيرينيون، فهؤلاء يسمّون هيرا «كوبرا». ويلي ذلك نهر ترووينتين، فمدينة تحمل الاسم نفسه؛ وكوستروم نوفوم، ونهر ماترين (الذي ينبع من مدينة الأدريانيين) وتقع على هذا النهر محطة سفن أدريا، التي تحمل اسم النهر نفسه. وفي عمق البلاد تقع أدريا، وأسكولوم بيكينوم، وهو مكان حصّنته الطبيعة تحصيناً ممتازاً لا بتلّ فوقه سور، فقط، بل وبجبال عصية على حركة الجيوش، تحيط بالمكان من كلّ صوب.

ووراء منطقة بيكينتين يشغل الفيستينيون، والمارسيون، والبيليغنيون، والمارّوكينيون، والفرينتانيون (قبيلة سامنتية)، البلاد الجبلية، ولا يلامسون البحر إلاّ في بعض لأماكن. والحقيقة أن هؤلاء ليسوا أقواماً كبيرة، بيد أنهم يتميّزون بشجاعة فائقة، وقد أظهروا بسالتهم للرومان غير مرّة: أولاً، عندما حاربوا الرومان، ثانياً، عندما كانوا حلفاءهم؛ ثالثاً، عندما رغبوا في نيل حريتهم وحقوق المواطنية، ولمّا لم يحصلوا عليها ثاروا وأشعلوا نار الحرب التي تدعى بالحرب المارسية. لقد أعلنوا كورفيني، مدينة البيليغنيين الرئيسة، عاصمة للإيطاليين كلّهم بدلاً من روما، وجعلوا منها قاعدة العمليات الحربية، وغيّروا اسمها إلى «إيتاليكا»[3]. وجمعوا هناك أنصارهم كلّهم، وانتخبوا قناصل وقضاة[4]، وخاضوا حرباً عنيدة استمرت عامين، إلى أن نالوا المساواة في الحقوق، وهو الهدف الذي خاضوا الحرب من أجله. لقد دعوا هذه الحرب بالحرب المارسية على اسم حماة الانتفاضة، خاصة اسم المارسي بومبيديوس[5]. ويعيش أكثر هذه القبائل في قرى، لكن عندهم مدناً أيضاً: فوق ساحل البحر كورفيني، وسولمون، وماروفي، وتياته، وهي مدينة المارّوكينيين الرئيسة؛ وعلى البحر مباشرة أتيرن، وهي سميّة نهر يفصل بين الفيستينيين ومنطقة المارّوكينيين. وينبع هذا النهر من منطقة امينتيرن ويجري عبر بلاد الفيستينيين، تاركاً على يمينه شطراً من المنطقة المارّوكينية الواقعة فوق البيليفنيين؛ ويمكن عبور النهر من فوق على جسر عائم. والحقيقة أن هذه المدينة الصغيرة التي تحمل اسم النهر، هي مدينة للفيستينيين، إلاّ أنه يقدّم خدمات للبيليغنيين، والماروكينيين، بصفته محطة سفن مشتركة. ويقع الجسر المتحرّك على بعد 24 مرحلة من كورفيني. ثمّ تلي إيتيرن أورتون، وهي محطة سفن الفرينتانين، وبوكا التي للفرينتانيين أيضاً، وهي محاذية لتيانوم أبولوم. وتقع أورتوني[6] في منطقة الفرينتانيين، على أرياف صخرية، ويقطنها القراصنة الذين يبنون مساكنهم هناك من كسرات أخشاب السفن؛ وهؤلاء يشبهون الوحوش في النواحي الأخرى كلّها. ويجري بين أورتون وأتيرن، نهر ساغر الذي يفصل بين بلاد الفرينتانيين وبلاد البيليغنيين. ويبلغ طول الطريق على امتداد السواحل من منطقة بيكينتين إلى منطقة الأبوليين الذين يدعوهم الإغريق بالدافنيين، حوالي 490 مرحلة.

3- بعد لاسيوم تأتي كامبانيا التي تمتدّ على طول البحر، وفوق كامبانيا (في داخل البلاد) تقع منطقة السامنيتيين، وصولاً حتّى بلاد الفرينتانيين والدافنيين؛ ثمّ الدافنيون أنفسهم وباقي القبائل الأخرى حتّى مضيق صقليا. وينبغي عليّ أن أتحدّث في المقام الأول عن كامبانيا. فمن سينويسّا وعلى طول الساحل الذي يلي، يمتدّ خليج[7]

كبير جداً يصل حتّى ميسين، ثمّ يليه خليج آخر (يدعونه كراتير)، أكبر من السابق بكثير، ويبدأ هذا الأخير من عند ميسين ليشقّ عميقاً بين الرأسين البحريتين، ميسين وأثينيوس[8]. فوق هذه السواحل تقع كامبانيا.وهي أكثر السهول خصوبة بين السهول الأخرى كلّها. وتحيط بها هضاب السامنيتيين والأوسكيين وجبالهم الخصبة. وحسب أنطوخ أن الأوبيكيين الذين يدعونهم كذلك بالأفسونيين، كانوا يعيشون في زمن ما في هذه المنطقة. أمّا بوليبيوس فهو على الضدّ من هذا، إذ يوحي بأنه يرى فيهما قبيلتين مختلفتين. فهو يقول، إن «الأوبيكيين والأفسونيين يعيشون في هذه البلاد حول كراتير». ولكنّ آخرين يزعمون، أنه على الرغم من أن الأوبيكيين والأفسونيين عاشوا في هذه البلاد من قبل، إلاّ أن السيديسينيين (إحدى قبائل الأوسكيين)، بسطوا سيطرتهم عليها فيما بعد، ثمّ طردهم الكومسيون منها، وهؤلاء بدورهم طردهم منها التيرينيون. فبسبب خصوبته، كان هذا السهل موضع صراع دائم. لقد بنى التيرينيون هنا 12 مدينة، كانت إحداها بمثابة المدينة الزعيمة، وقد دعوها كابويا[9]. لكن فخامة عيش التيرينيين أفضت بهم إلى التنعّم والتخنّث، ولذلك كان عليهم كما سبق وخسروا منطقة باد، أن يتخلّوا عن هذه البلاد أيضاً للسامنيتيين، الذين طردهم الرومان من هناك. والبرهان على خصوبة كامبانيا، هو أنها تنتج أقماحاً رائعة، خاصة الحنطة التي يصنعون منها برغلاً نوعيته أفضل من أي نوع من أنواع الرزّ، كما يصنعون منها أيضاً مختلف المأكولات التي تصنع من الدقيق. ويقولون، إن بعض الحقول يزرع بالحنطة الرومية مرتين في العام، وتزرع دخناً في المرّة الثالثة، وثمّة حقول تزرع في المرّة الرابعة بالخضار. ضف إلى هذا أن الرومان يحصلون من هناك على أفضل أنواع النبيذ: النبيذ الفاليرني، والستاتاني، والكاليني؛ وينافس النبيذ السورّينتيني بنجاح، هذه الأنواع من النبيذ، فبعد تجربة قريبة ثبت أنه يمكن تعتيقه. وكل المنطقة المحيطة بفينافروس وتجاور السهول، هي منطقة غنية بكروم الزيتون.

4- أمّا المدن الساحلية التي تلي سينويسّا، فهي الآتية. ليتيرن، التي يقع فيها قبر سيبييون الأول الذي لقّب بالإفريقي. فقد أمضى الرجل آخر أيام حياته هنا بعيداً عن شؤون الدولة، ومعادياً لبعض مواطنيه. ويجري عبر ليتيرن نهر يحمل اسم المدينة عينه. ومثله تماماً نهر فولتورن سمّي مدينة واقعة عليه على مقربة من سينويسا. ويعبر مجرى هذا النهر فينافروس، ووسط كامبانيا. ثمّ تلي هاتين المدينتين، مدينة كوما التي أسّسها في الأزمنة الأولى، الخلكيديون والكوميسيون. وهذه المدينة هي فعلاً أقدم المدن الصقلية والإيتاليوتية فقد توصّل قادة الحملة، هيبوكليس الكومي، وميغاسفين

الخلكيدي إلى اتفاق أقرت بموجبه المدينة مستعمرة خلكيدية، لكنّها ستدعى كوما. ولذلك فإن المدينة تدعى اليوم كوما، لكن على أغلب الظنّ أن الخلكيديين هم الذين أسّسوها. وفي الأزمنة القديمة كانت المدينة تعيش في بحبوحة، مثلها في هذا مثل السهل الذي يدعى سهل فليغريوس الذي نقلت الأسطورة أحداث قصة العمالقة إليه، انطلاقاً على ما يبدو من أن هذه الأرض كانت بسبب خصوبتها، موضع نزاعات. أمّا فيما بعد، بعد أن غدا الكامبانيون أصحاب المدن، فإنهم غالباً ما كانوا يهينون سكّانها، بل أكثر من هذا، إذ كانوا يعاشرون زوجاتهم. ومع ذلك لا تزال باقية هناك حتّى الآن آثار الثقافة والعادات الإغريقية. وحسب بعضهم أن اسم كوما مأخوذ من الكلمة الإغريقية التي تعني «أمواج»[10]، لأنّ الشاطئ المجاور هناك صخريّ ومفتوح للرياح. وفي كوما أفضل أنواع أسماك التن الكبيرة. وتوجد في هذا الخليج غابة من الشجيرات تمتدّ على مراحل كثيرة في أرض رملية خالية من الماء، وتدعى هذه الغابة «غابة الشقيق الأصفر». وهنا جمع قادة أسطول سيكستوس بومبيوس عصابات من القراصنة، في الوقت عينه الذي أعلن فيه هو انتفاضته في صقليا[11].

5- وعلى مقربة من كوما تقع رأس ميسين، وفي الفاصل بينهما تقع بحيرة أخيروسيا، التي تشبه الخور الضحل. ولدى تجاوزنا ميسين ندخل عند الرأس مباشرة خليجاً؛ ويأتي بعد الخليج ساحل يخترق البرّ على شكل خليج عميق؛ وعلى هذا الساحل تقع بايي والينابيع الحارّة، وهو مكان ملائم لتزجية الوقت والاستشفاء من الأمراض. ويجاور بايي خليج لوكرين، وفي داخله [بحيرة] أفيرن التي تشكّل من الأرض المنفصلة عن الخطّ المائل الذي يمتدّ بين كوما وأفيرن حتّى ميسين، شبه جزيرة؛ فلا يبقى هناك سوى برزخ عرضه مراحل عدّة، إذا انطلقنا مباشرة عبر النفق إلى كوما نفسها والبحر الذي عندها. وكان ناس الجيل الذي سبقني مباشرة، قد ربطوا أسطورة «نيكيويا»[12] هوميروس، ببحيرة أفيرن. ويروى إضافة إلى ذلك، أن كاهن الأموات المتنبّئ كان موجوداً هناك فعلاً، وأن أوديسيوس قد جاء إلى هناك. إن أفيرن يمثل خليجاً عميقاً عند الشواطئ، له ثغر مفتوح، وعلى الرغم من أنه ميناء، إلا أنه لا نفع منه كميناء، لأنّ أمامه خليج كبير ضحل، هو خليج لوكرين. وتحيط بخليج أفيرن هضاب صخرية شاقولية مرتفعة من مختلف الجهات ما عدا جهة المدخل. والحقيقة أن الإنسان يستثمر الآن هذه الهضاب، بينما كانت فيما مضى مغطاة بغابات كثيفة عصية، شجرها كبير جدّاً، وقد حولت العقلية البشرية الخرافية هذا الخليج بسبب هضابه الصخرية، إلى مسكن للأشباح. ويضيف السكّان المحلّيون إلى هذا حكاية أسطورية تقول، إن

الطيــور الـتي تطـير فـوق الخليـج تتسـاقط في المــاء وتهلـك بفعــل الأبخـرة المتصـاعدة منه[13]، كما يحصل في الكهوف البلوتونية[14]. فقد عدوا هذا المكان بلوتونياً أيضاً، وظنّوا أن الكيميريين كانوا يعيشون فيه. وعلى أي حال لم يكن يسمح بالإبحار هنا إلاّ للذين يستبقون إبحارهم بتقديم ذبيحة لاسترضاء آلهة العالم السفلي، وكان الكهنة الـذين يأخذون هـذا المكـان تعهّداً مدفوعاً، هـم الـذين يـؤدّون هـذا الفعـل المقدّس. وثمّة هناك عند البحر ينبوع ماء عذب، لكنّ السكّان المحلّيين يعزفون عن شرب مائه، لأنهم يعتقدون أن ماءه ماء ستيكس[15]. كما يوجد في مكان ما هنا كاهن متنبّئ، واستناداً إلى وجود الينابيع الحارّة هنا، استنتج السكّان المحلّيون، أن بحيرة بيريفليهيثونيس، وبحيرة أخيروسيا قريبتان من المكان. عدّاك عن ذلك أن إيثور الذي يوضّح الكيميريين هنا، يزعم أن هؤلاء كانوا يعيشون في مساكن محفورة في جوف الأرض (كانوا يدعونها «أرغيلا»)[16]؛ وحسب قوله، إنّ الكيميريين كان يتواصل واحدهم مع الآخر عبر أنفاق ما تحت الأرض، وكانوا يستضيفون الغرباء في مكان إقامة الكاهن المتنبّئ، الذي يقع عميقاً تحت الأرض. لقد كان الكيميريون يعيشون على مهنة التعدين، والعطاءات التي كان يتلقاها الكاهن المتنبّئ من زبائنه، وعلى العطاءات التي كان يوزّعها عليهم الملك المحلّي. وتسود عند خدم الكاهن المتنبّئ عادة موروثة عن الأجداد: ينبغي ألاّ يرى أيّ منهم الشمس، ولا يخرجون من كهوفهم إلاّ ليلاً. ولهذا قال هوميروس عنهم، إنهم

... لا يظهر أبداً

لعين الناس هناك، وجه هلليوس المنير.

(*الأوذيسا* XI، 15)

وفيما بعد أباد ملك ما الكيميريين، لأنّ النبوءة التي نقلها الكاهن المتنبّئ إليه، لم تتحقّق بما يخدم صالحه. بيد أن الكاهن المتنبّئ لا يزال موجوداً الآن أيضاً، ولكنّه انتقل إلى مقرّ آخر. إن هذه هي قصص أسلافنا الأسطورية؛ ولكن بعد أن قطع شجر غابة أفيرن بأمر من أغريبا، وشيدوا في المكان الآن منازل وحفروا النفق الذي كان يصل أفيرن بكوما، تبيّن أن هذه القصص كلّها ليست سوى أساطير. وعلى الرغم من أن كوكسيوس الذي شقّ هذا النفق والنفق الآخر، هو من ديكيارخيا (التي تقع قرب بايي)، وقد استخدم إلى حدّ ما الروايات المذكورة عن الكيميريين، إلاّ أن شقّ الأنفاق قد يكون عدّ بالنسبة إليهم تقليداً من التقاليد الموروثة في هذه المنطقة، عن الأسلاف.

6- أمّا خليج لوكرين فإنه يمتدّ عرضاً حتّى بايي. ويفصله عن البحر الخارجي

منحدر طوله 8 مراحل وعرضه مثلها، وفيه درب مطروقة. ويقال إن هرقل هو الذي بنى هذا المنحدر عندما كان يسوق ثيران هيرون. ولكن، بما أن الأمواج كانت تتدفق عبر أعلى المنحدر في أوقات العواصف، الأمر الذي كان يجعل عبوره صعباً، لذلك أمر أغريبا بزيادة ارتفاعه. وليس دخول الخليج متاحاً إلاّ للسفن الصغيرة، ومع أن الخليج لا يصلح مرسى، إلاّ أنه غنيّ جدّاً بالمحار. وحسب قول بعضهم إن هذا الخليج نفسه، هو بحيرة آخيروسيا، بينما يزعم أرتيميدور أنه أفيرن نفسها. أمّا بايي، فيقولون إنها أخذت اسمها من بايوس، وهو واحد من مرافقيّ أوديسيوس ومثلها ميسين سميّة [ميسين]. ويلي ذلك الساحل الذي عند ديكيارخيا، ثمّ المدينة نفسها. وفي الأزمنة الماضية لم تكن هذه سوى محطة سفن الكوميسيين، الواقعة على قمة التلّ، ولكنّهم أسّسوا هناك في زمن حملة هنيبعل، مستعمرة وبدّلوا اسمها إلى بوتيولا، وقد أخذوا الاسم من تسمية الآبار[17]؛ والحقيقة أن بعضهم يزعم أن هذا الاسم مشتق من المياه النتنة[18]، لأنّ المنطقة كلّها وصولاً إلى بايي وكوما، مياهها نتنة، مليئة بالكبريت، والنار، وينابيع مياهها حارّة. ويفترض بعضهم أن منطقة كوما دعيت على هذا الأساس، فليغرا[19]، وأن جراح العمالقة الذين سقطوا بضربات الصواعق، هي التي أثارت ثوران النار والماء. لقد تحوّلت هذه المدينة إلى ميناء تجاري ذي شأن كبير، لأنّ فيها مرسى اصطناعي، كان بناؤه ممكناً بفضل الخاصية الطبيعية لتربته الرملية. فهذه الأخيرة تشبه الجير وتشكّل معه مركّباً صلباً متماسكاً. ولذلك يبني السكّان سدوداً يمدونها في البحر بخليط من الحجر الكلسي والرماد الرملي[20]، وعلى هذا النحو يحوّلون الشواطئ المفتوحة على اتساعها إلى خلجان، يمكن أن ترسو فيها بأمان أكبر سفن الشحن. ويقع فوق هذه المدينة مباشرة، فوروم هيفيستوس[21]، وهو سهل تحيط به القمم البركانية التي توجد فيها فتحات كثيرة كالأفران، رائحتها كريهة. والسهل مليء بترسبات كبريتية.

7- وتأتي بعد ديكيارخيا نابولي، مدينة الكوميسيين. وفيما بعد عاد الخلكيديون واستوطنوا هنا مرّة أخرى، وكذلك بعض سكّان بيفيكوسا، وجماعة من الأثينيين، ولذلك دعيت المدينة نابولي[22]. ويعرضون هناك تمثال بارثينوبا، واحدة من السيرينيس، وبأمر الكاهن المتنبّئ تقام مباريات رياضية. وفي زمن لاحق، بعد النزاعات الأهلية، استقبل النابوليون بعض الكامبانيين بصفة مواطنين شركاء، وكانوا مرغمين على التعامل مع ألدّ أعدائهم كأفضل الأصدقاء، لأنهم كانوا قد جعلوا من أصدقائهم أعداء لهم. وهذا ما تشير إليه أسماء ديمارخييهم[23]، لأنّ هذه كانت في البداية أسماء إغريقية، ثمّ خالطت الأسماء الإغريقية بعد ذلك، أسماء

كامبانية. لقد بقيت هنا كثرة كثيرة من آثار الثقافة الإغريقية: الجمنازيوم، والإيفيبوس[24]، والفراتريات[25]، والأسماء الإغريقية، مع أن حامليها كانوا من الرومان. ويقيمون في زمننا هذا كلّ أربع سنوات مباريات مقدّسة في العزف الموسيقي[26]، وألعاب القوى تستمرّ عدّة أيام؛ وتنافس هذه المباريات الألعاب الشهيرة التي تقام دورياً في اليونان. وثمّة هنا نفق، الجبل بين ديكيارخيا ونابولي محفور كالجبل الذي عند كوما، وشقّت على امتداد مراحل كثيرة طريق يمكن أن تعبر عليها مركبتان مسيرهما متعاكس. ويتسرّب ضوء النهار إلى عمق النفق عبر كوى فتحوها في أماكن كثيرة[27]. وعدا عن هذا فإن في نابولي ينابيع مياهها ساخنة، وحمامات عامّة ليست حمامات بايي أفضل منها، مع أن عدد زوار هذه الأخيرة أكبر بما لا يقاس. ففي بايي نبتت مدينة جديدة ليست أصغر من ديكيارخيا، لأنّ القصور تبنى هناك بعضها فوق بعض. وفي نابولي يعيش الرومان الذين يزورونها لقضاء فترة راحة، نمط عيش إغريقي؛ فهؤلاء على وجه العموم أشخاص أثروا من عملهم في تعليم الشباب، أو أشخاص يتوقون إلى قضاء زمن شيخوختهم أو مرضهم بهدوء وسكينة. وهناك من الرومان أيضاً من يجد متعته في مثل نمط العيش هذا، فهم إذا يتواصلون مع جمهرة من الناس مستوى ثقافتهم مماثل لمستوى ثقافتهم هم، يستوطنون هنا، ويرتبطون بالمكان، ويختارونه مكاناً دائماً لإقامتهم.

8- وتتاخم نابولي مباشرة قلعة هرقل[28] الواقعة على راس تمتدّ في البحر، ومفتوحة للرياح الجنوبية الغربية إلى حدّ يجعل السكّان هنا في حالة صحّية سليمة تثير الدهشة. وفي زمن ما امتلك الأوسكيون هذه المدينة ومدينة بومبيوس التي تليها والتي يجري على مقربة منها نهر سارن، ثمّ امتلك المدينتين بعد ذلك الأوسكيون ثمّ التيرينيون، فالبيلاسيغيس، والسامنيتيون. بيد أن هؤلاء طردوا من هذه المنطقة أيضاً. وتشكّل بومبيوس الواقعة على نهر سارن، الذي ينقلون عبره البضائع إلى عمق البلاد، كما ينقلونها عبره أيضاً من هناك إلى البحر، تشكّل ميناء لنولا، وتوكريا، وآكير، سميّة المستوطنة الواقعة قرب كريمونا. ويعلو فوق هذه الأماكن، جبل فيزوف الذي تغطيه على الدائر، ما عدا قمته، عزب ضواحي المدينة. أمّا قمة الجبل فإن قسمها الأكبر مستو، وهي قاحلة تماماً، ولونها كلون الرماد؛ وتظهر عليها تجويفات انهدامية في صدور الصخور لونها على السطح أسود كلون السخام؛ وتبدو هذه الصخور كما لو أن النار نخرتها. ومن هنا يمكننا أن نفترض أن النار قد اشتعلت يوماً ما في هذا المكان كلّه، وأن المكان كان يحتوي على فوهات بركانية نارية، ثمّ بعد أن نفذت المادّة

القابلة للاشتعال، انطفأت النار. وربّما يكمن في هذا سرّ خصوبة تربة ضواحي هذا الجبل؛ فيقولون إن شريط الأرض المغطّى في كاتانا برماد الحمم البركانية التي قذفها إيتنا، جعلت هذه البلاد صالحة لزراعة الكرمة. فالرماد البركاني يحتوي فعلاً على مادّة تجعل التربة المحترقة والتربة الخصبة، تربة دهنية[29]. وطالما التربة مشبعة بالدهن، فهي قابلة للاشتعال كأي أرض تحتوي على الكبريت، ولكنّها ما إن تجف حتّى تنطفئ وتتحوّل إلى رماد وتغدو تربة خصبة. وتلي بومبيوس مباشرة مدينة سيرينت التابعة للكامبانيين، ومن هناك برز في البحر أثينيوس، الذي يدعوه بعضهم رأس سيرينوس. ومعبد أثينا هذا شيّده أوديسيوس فوق قمة الرأس. والمعبر من هناك إلى جزيرة كابري قصير. وما أن تتجاوز هذه الرأس حتّى تظهر أمامك جزر صخرية قاحلة تدعى سيرينيس. وثمّة على جهة الرأس التي تتّجه نحو سيرينس شيء ما يشبه المعبد، ونصب التقدمات القديمة، لأنّ سكّان الأطراف كانوا يرون في هذا المكان مكاناً مقدّساً. وهنا ينتهي الخليج الذي يدعى كراتير؛ فهو محدود برأسين بحريتين - ميسين، وأثينيوس - تتّجهان جنوباً. فجزء من ساحل الخليج عامر بالمدن التي كنت قد ذكرتها، وجزؤه الآخر تزيّنه فيلات، ومزارع تتلو واحدتها الأخرى من غير انقطاع، بحيث ينشأ انطباع بأن ما تراه، هو مدينة واحدة.

9- وتقع أمام ميسين جزيرة بروخيتا، وهي كسرة انفصلت عن بيفيكوسا. وفي زمن ما جاء الأريتريون والخلكيديون واستوطنوا بيفيكوسا؛ ومع أنهم حقّقوا نجاحات كبيرة في الجزيرة بفضل خصوبة أرضها ووجود ترسبات من الذهب فيها، إلا أن النزاعات أرغمتهم على ترك الجزيرة؛ ثمّ طردتهم من هناك نهائياً، الهزّات الأرضية والحمم النارية وفيضان البحر والمياه الحارّة. وواقع الأمر أن مثل هذه الحمم تغزوا الجزيرة؛ فبسببها أرغم المستعمرون الذين نفاهم هيرون طاغية سيراكوزا، أن يغادروا الحصن الذي بنوه، ثمّ غادروا الجزيرة نفسها. وجاء النابوليون بعد ذلك وامتلكوا الجزيرة. ومن هنا أسطورة وجود تيفون تحت هذه الجزيرة؛ فعندما يلتفت تيفون، ينفث لهباً وماء، بل وينفث جزراً صغيرة بمياه تغلي، في بعض الأحيان. ولكن بينداروس يعبّر عن رأي أكثر واقعية، لأنه ينطلق من الظاهرات الواقعية: يحتوي الخليج كلّه، من منطقة كوما حتّى صقليا، على نار جوفية، وتوجد في أعماق الأرض كهوف تشكّل كلاً واحداً، ويتّصل بعضها ببعض وبالبرّ. ولذلك ليست إيتنا وحدها التي تملك هذه الخاصيات، كما يصفها كلّهم، إنّما تملكها كذلك الجزر الليبارية، والمنطقة الواقعة عند ديكيارخيا، ونابولي، وبايي، وبيفيكوسا. وهذا كلّه ما قصد إليه

بينداروس عندما يقول، إن تيفون تحت هذه المنطقة كلّها:

... والآن فــإن

صخور كوما وصقليا التي يطوقها البحر،

تتزاحم على صدره الأشعث.

(*فيثاغورس* I، 33)

وبحسب تيميوس أن القدماء رووا عن بيفيكوساً كثيراً مما هو غريب؛ فقبل زمنه بقليل، قذف إيبوبيوس، وهو تل يقع في وسط الجزيرة، دمّرته هزّة أرضية، حمماً من النار، ورمى مرّة أخرى إلى البحر بقطعة من اليابسة استقرّت بينه وبين البحر؛ فتحوّل قسم من الأرض إلى رماد ارتفع عالياً في الجوّ، لكنّ عاصفة ما لبثت أن أهالته ثانية على الجزيرة؛ وتراجع البحر ثلاث مراحل، لكنّه عاد أدراجه بعد وقت قليل، وغمرت الجزيرة موجة مدّ جديدة. وعلى هذا النحو انطفأت النار في الجزيرة، لكنّ شدّة الصخب دبّت الفزع في قلوب سكّان البرّ ففرّوا هاربين عن الساحل إلى كامبانيا. ويظنّون أن المياه الحارّة هناك تشفي المرضى بداء الصدف. وفي الزمن القديم كانت في كابري مدينتان صغيرتان، لم يبق منهما سوى واحدة. وكانت هذه الجزيرة للنابوليين أيضاً. ومع أن هؤلاء فقدوا بيفكوسا في الحرب، لكنّ أغسطس قيصر منحهم إياها ثانية، لكنّه بالمقابل، جعل من كابري ملكية خاصة له وشيد فيها مباني. تلكم كانت مدن الكامبانيين الساحلية والجزر الواقعة قبالتها.

10- أمّا في داخل البلاد فإن المدينة الرئيسة هي مدينة كابويا، وهي فعلاً مدينة «زعيمة» حسب اشتقاق اسمها[30]؛ فالمدن الأخرى كلّها بالمقارنة معها، مدن صغيرة، ما عدا تيان سيديسين التي تعدّ بدورها مدينة ذات شأن، وتقع كابويا على طريق أبيوس، مثلها مثل المدن الأخرى التي تؤدّي منها إلى برينتيسي: كالاسيا، وكافديوس، وبينيفينت. أمّا كاسيلين فهي تقع باتجاه روما على نهر فولتورن. وهنا تمكن 450 من البرينيستيين المحاصرين من الصمود طويلاً في وجه هنيبعل عندما كان في أوج مجده، وبسبب الجوع بيع الميديمن[31] [من الخبز] بمئتي دراخما، لكنّ البائع مات جوعاً، بينما نجا الشاري من الموت. ولمّا رأى هنيبعل أنهم يزرعون اللفت قرب الأسوار، أذهله عنادهم، فهم كانوا يأملون في مقاومته حتّى ينضج اللفت. ويقال إنهم قد نجوا فعلاً من الهلاك، ما عدا بعضهم الذين ماتوا جوعاً أو سقطوا في ساحة القتال.

11- إضافة إلى المدن التي أتينا على ذكرها، توجد هناك أيضاً المدن الكامبانية الآتية التي كنت قد ذكرتها من قبل[32]: كاليس وتيان سيديسين، اللتين

يفصل بين حدودهما معبدان لفورتونا شيّدا على جانبيّ الطريق اللاتينية؛ ثمّ تليهما سويسولا، وأتيلا، ونولا، ونوكيريا، وأكيرا، وأبيلا، وسواها من المستوطنات الأصغر من هذه (ويقال إن بعضها سامنيتي). وفيما يخصّ السامنيتيين، فقد كان هؤلاء يشنّون في الماضي غزوات على لاسيوم وصلوا فيها حتّى مشارف أردييا، ثمّ نهبوا بعد ذلك كامبانيا، وبلغوا شأناً كبيراً من القوة. وواقع الأمر هو أن الكامبانيين الذين روِّضوا على الخضوع للحكّام الغرباء، سرعان ما أذعنوا لأوامر السامنيتيين. ولكن السامنيتيين أُبيدوا الآن تماماً، ففي أوّل الأمر تولى إبادتهم آخرون، ثمّ أنجز المهمّة سولاّ الذي نصّب نفسه دكتاتوراً على الرومان. فبعد سلسلة من المعارك نجح سولا في قمع انتفاضة الإيتاليوتين. وقد رأى الآن أن السامنيتيين وحدهم تقريباً الذين صمدوا وقاموا على رأي واحد، وأنهم استعدّوا للهجوم على روما نفسها. عندئذٍ دخل معهم في معركة دارت رحاها عند أسوار روما نفسها. فأُبيد قسم منهم في أرض المعركة، لأنّ سولاّ كان قد أمر بألاّ يؤخذ منهم أيّ أسير، أمّا القسم الآخر الذي رمى سلاحه (ويقال إن عدد هؤلاء كان حوالي 3 أو 4 آلاف مقاتل)، فقد أمر بأن يساقوا إلى معسكر في حقل مارس[33] ويحتجزوا هناك. وبعد ثلاثة أيام أرسل إلى هناك فرقة من الجند وأمرهم بقتل الأسرى كلّهم. ثمّ تابع ملاحقة السامنيتيين من غير توقّف، فأهدر دماءهم، وصادر ممتلكاتهم، إلى أن قضى على وجهائهم كلّهم أو طردهم إلى خارج إيطاليا. وكان يجيب كلّ من أدان قسوته في التعامل مع السامنيتيين، إن تجربته علّمته أن أيّ روماني لن يستطيع العيش بسلام طالما للسامنيتيين وجود مستقلّ. وقد تحوّلت مدنهم الآن فعلاً إلى مستوطنات بسيطة لا أهمية لها، وبعضها باد واندثر تماماً: بوفيان، وإيسيرنيا، وبانا، وتيليسيا (قرب فينافروس)، وسواها. ولا يستحق أي من هذه البلدات أن يدعى مدينة؛ أمّا أنا فإني أدخل في تفاصيل وصفها (حتى الضئيلة منها)، خدمة لمجد إيطاليا وجبروتها. وعلى أي حال فقد حافظت بينيفينت وفينوسيا على شأن جيّد حتّى يومنا هذا.

12- وتروى عن السامنيتيين الرواية الآتية أيضاً. تقول الرواية، إن السابين حاربوا الأومبريكيين طويلاً ونذروا للآلهة (كما يفعل بعض القبائل الإغريقية) كلّ المواليد التي تولد في هذا العام. وبعد أن حقّقوا النصر، قدموا قسماً من المواليد قرباناً، وكرّسوا ما تبقى للآلهة. وعندما حلّ بهم شحّ المحصول اقترح أحدهم أنه ينبغي أن يكرّسوا أطفالهم أيضاً للآلهة. فأقرّوا الاقتراح وكرّسوا لأريس كلّ الأطفال الذين ولدوا عندئذٍ. وبعد أن شبّ هؤلاء واشتدّ عودهم، أرسلوا ليبنوا مستعمرة، وقد أرشدهم ثور إلى الموقع. وعندما توقّف الثور واستلقى في أرض الأوبيكيين، الذين كانوا يعيشون

في قرى، طرد السابين السكّان المحلّيين واستوطنوا الأرض. أمّا الثور فقد نحروه ذبيحة لأريس الذي أعطاهم، بحسب قول المتنبّئ، الثور مرشداً. وقد يكون اسم «سابيليين»[34] الذي حملوه كواحد من أسمائهم، قد اشتقّ كصيغة تصغير من لقب حمله أسلافهم، ثمّ دعوا «سامنيتيين» (وينطقها الإغريق «ساوينتيين») لسبب آخر. وحسب بعض الأخبار، أن المستعمرين اللاكونيين قد عاشوا بين السامنيتيين، ولذلك أضحى هؤلاء أصدقاء للإغريق، بل وتسمى بعض منهم «بالبيتانيين»[35]. بيد أنه يخيل لي أن هذا الخبر قد اختلقه التارانتيون الذين أرادوا أن يتملقوا جيرانهم الأقوياء ليكسبوا بهم أصدقاء لهم. فالسامنيتيون كانوا يجنّدون أحياناً 80.000 مقاتل من المشاة، و8000 فارس. ويروى أنه يوجد عند السامنيتيين قانون ممتاز، يحض على البسالة والإقدام: لا يسمح بأن تزوج الفتيات للشبان الذين يريدونهم الوالدان؛ فيختارون كلّ عام 10 من فتيات أعرق العائلات و10 من فتيان أعرق العائلات، فتزف فتيات الفئة الأولى إلى شبان الفئة الأولى، وفتيات الفئة الثانية إلى شبان الفئة الثانية. وهكذا... وإذا ما تغيّر الشاب الذي نال هذا العطاء الكريم، وأضحى زوجاً سيّئاً، فإن العار يلحق به، وينتزعون منه المرأة التي أعطيت له زوجة. ثمّ يلي السامنيتيين الجيربينيون (وهم سامنيتيون أيضاً). وقد تلقى هؤلاء اسمهم من الذئب الذي أرشدهم إلى موقع مستعمرتهم؛ فالسامنيتيون يدعون الذئب «جيربوس». وتتاخم حدودهم حدود اللوكانيين الذين يعيشون في داخل البلاد. وهذا ما رمت قوله عن السامنيتيين.

13- بفضل خصوبة بلادهم عرف الكامبانيون السعادة والشقاء معاً، لكن بدرجة متماثلة. وقد وصل بهم الهوس بالبذخ إلى درجة أنهم كانوا يدعون إلى ولائمهم أزواجاً من المصارعين يحدّدون عددها حسب مقام الضيوف. وعندما استسلموا لهنيبعل ووفّروا لقواته الإقامة عندهم شتاء، أكرموا القوات القرطاجية ونعّموها بالملذات الشهوانية إلى درجة حدت بهنيبعل إلى القول، إنه على الرغم من أنه انتصر، إلاّ أن خطر الوقوع بأيدي أعدائه بات يحيق به، لأنّ جنوده عادوا إليه نساء لا رجالاً. وحينما بسط الرومان سيطرتهم على البلاد، علّموا الكامبانيين العقل والتعقل، إذ لقنوهم كثيراً من الدروس القاسية، وأخيراً قسموا البلاد بين المستوطنين الرومان. ومع ذلك فإن الكامبانيين ينعمون الآن بعيشهم في وفاق مع المستوطنين الجدد، ويحافظون على مجدهم الغابر بفضل عظمة مدينتهم الرئيسة وبسالة السكّان. ووراء كامبانيا وبلاد السامنيتيين، وصولاً إلى الفرينتانيين على سواحل البحر التيريني، يقطن فرع ليس ذا شأن من البيكينتينيين الذين يستوطنون ساحل البحر الأدرياتيكي؛ وقد هجّر الرومان

هؤلاء إلى خليج بوسيدونيوس الذي يدعى الآن خليج بيستان، أمّا مدينة بوسيدونيوس الواقعة وسط الخليج، فهي تحمل اسم بيستوم. وبنى السيباريتيون حصناً عند البحر، لكنّ المهاجرين الذين سكنوا هناك نقلوه إلى داخل البلاد؛ وفيما بعد انتزع اللوكانيون المدينة من السيباريتيين، ثمّ انتزعها الرومان بدورهم من اللوكانيين. ولكن النهر الذي يتشتّت في المستنقعات القريبة، يجعل جو المدينة غير صحّي. وبين سيرينوسا وبوسيدونيا تقع ماركينا، وهي مدينة أسّسها التيرينيون، لكنّ السامنيتيين يسكنونها الآن. ومن هنا إلى بومبيوس عبر نوكيريا، ليس أكثر من 120 مرحلة عبر البرزخ. وتمتدّ منطقة البيكينتيين حتّى نهر سيلاريدس الذي يفصل كامبانيا القديمة[36] عن هذه البلاد. ويروي الكتّاب عن هذا النهر، أن لمياهه خاصية فريدة؛ فعلى الرغم من أنها صالحة للشرب، إلاّ أن أيّ نبات ينزّل فيها يتحوّل إلى حجر، لكنّه يحافظ على لونه وشكله. وكانت بيكينسيا هي مدينة البيكينتيين الرئيسة، لكنّ الرومان طردوهم منها الآن بسبب تحالفهم مع هنيبعل، فتحوّلوا للعيش في قرى. وبدلاً من الخدمة العسكرية، فرضت عليهم الدولة واجب العدّائين والمطاردين (مثلهم في هذا مثل الليفكانيين والبريتيين: للأسباب عينها). وبهدف مراقبة البيكينتيين حصن الرومان ضدهم مدينة ساليرن التي تقع غير بعيد على البحر. والمسافة من سيرينوسا إلى سيلاريدس 260 مرحلة.



الكتـاب السادس

الفصل الأول

1- وراء مصبّ سيلاريدس تأتي لوكانيا ومعبد هيرا الأرغيفية الذي شيده ياسون، وبعد 50 مرحلة تأتي بوسيدونيا. وإذا ما أبحرنا من هنا من الخليج، فسوف نقترب من جزيرة ليكوسيا التي لا تفصلها عن البر سوى مسافة قصيرة جدّاً. وقد دعيت هذه الجزيرة باسم إحدى السيرينيس، وهي السيرينيس التي ألقت بنفسها على شواطئها بعد أن اندفعت السيرينيس الأُخر (كما تقول الأسطورة) في زبد البحر. وأمام الجزيرة رأس بحرية مقابل سيرينوسا، وتشكّل هذه الرأس خليج بوسيدونيوس. وبعد أن نتجاوز هذه الرأس نقترب مباشرة من خليج آخر، حيث تقع مدينة أسّسها الثوكيون ودعوها هييلا، لكنّ آخرين دعوها إيليا، على اسم ينبوع ما؛ أمّا معاصرونا فيدعونها إيلييا. وهذه المدينة هي مسقط رأس الفيثاغورسيين، بارمينيدس، وزينون. وقد نالت إيلييا ليس بفضلهما فقط، إنّما بحسب رأيي، قبلهما أيضاً، نظام دولة جيداً. ولذلك صمد سكّانها في وجه اللوكانيين والبوسيدونيين، بل وانتصروا عليهم، مع أن بلادهم كانت أصغر مساحة من بلاد خصومهم، وأعدادهم أقل من أعداد هؤلاء. وعلى أي فقد أرغمهم شح أراضيهم على أن يتّجهوا إلى الأعمال المرتبطة بالبحر، ويبنوا منشآت لتمليح الأسماك وما شابه من المؤسّسات. ويروي أنطوخ أنه بعد أن استولى هارباغ قائد قوات قورش، على ثوكيا، صعد كلّ من استطاع من الثوكيين ومعه عائلته، إلى متون السفن، وقد قاد جمعهم كريونتيادس، فأبحروا أولاً إلى كيرن وماساليا، لكنّهم لما باؤوا بالفشل هناك، أسّسوا إيلييا[1]. ويشتق بعضهم اسم المدينة من اسم نهر إيلييت. وتقع المدينة على بعد ما يقارب 200 مرحلة عن بوسيدونيا. وتلي إيلييا رأس بالينور. وتقع أمام منطقة إيلييا جزيرتا إينوتريدس، وفي كلّ منهما محطة للسفن. وتأتي بعد بالينور رأس بيكسونت، ومرسى، ونهر، وتدعى هذه الثلاثة باسم واحد. وفي بيكسونت

أسّس ميكيث حاكم ميسينا التي في صقليا، مستوطنة، لكنّ المستوطنين كلّهم، ما عدا قلّة، عادوا من حيث أتوا. ويلي بيكسونت خليج آخر، ونهر، ومدينة لاوس. وتقع هذه المدينة، وهي آخر المدن اللوكانية، أعلى من البحر بقليل، وتعدّ مستعمرة للسيبارتيين؛ والمسافة منها إلى إيلا 400 مرحلة. وتمتدّ الطريق البحرية كلّها على طول شواطئ ليفكانيا 650 مرحلة. وغير بعيد عن لاوس يقع معبد البطل دراكونتس (أحد مرافقي أوديسيوس)، الذي تلقى الإيتاليوتيون بخصوصه النبوءة الآتية:

في زمن ما، سوف يهلك كثير من الناس حول دراكونتس اللايسي[2].

وقد حصل فعلاً أن الشعوب[3] التي خدعتها النبوءة، أي الإغريق الإيطاليين، وشنت حملة على لاوس، منيت بالهزيمة أمام اللوكانيين.

2- وهكذا فإن هذه هي المناطق التابعة للوكانيين على الساحل التيريني. أمّا فيما يخصّ البحر الآخر[4]، فإن اللوكانيين عجزوا فيما مضى عن بلوغه، لأنّ الإغريق كانوا يسيطرون عليه، إذ كانوا يملكون الخليج التارانتي. وقبل مجيء الإغريق إلى إيطاليا، لم يكن اللوكانيون قد وطئوها بعد: كان الهاونيون والإينوتريون يستوطنون هذه الأماكن. ولكن عندما زادت قوة السامنيتيين بشكل ملحوظ، طردوا الإينوتريين والهاونيين وأسكنوا اللوكانيين في هذا الجزء من البلاد، في الوقت الذي كان يشغل فيه الإغريق الساحلين معاً حتّى الخليج مباشرة. وقد تحارب الإغريق والبربر طويلاً. كما تسبب طغاة صقليا ومن بعدهم القرطاجيون الذين حاربوا الرومان على صقليا ثمّ على إيطاليا نفسها، تسببوا بأذى كبير لأقوام هذه المناطق، خاصة للإغريق. والحقيقة أن الإغريق فيما بعد، ومنذ زمن حرب طروادا، انتزعوا من السكّان المحلّيين جزءاً كبيراً من المناطق الداخلية، وقويت شوكتهم هنا إلى درجة أنهم دعوا هذا الجزء من إيطاليا وصقليا، باليونان الكبرى. ولكنّ أجزاء البلاد كلّها الآن، ما عدا تارانت، وريغوس، ونابولي، اكتسبت مظهراً بربرياً؛ فبعض المناطق شغلها اللوكانيون والبريتيون، وبعضها الآخر شغله الكامبانيون؛ لكنّ هؤلاء لم يشغلوا المكان إلاّ بالاسم، أمّا في واقع الأمر فإن الرومان هم الذين شغلوه، لأنّ الكامبانيين أنفسهم صاروا إلى رومان. بيد أنه لزام على من يشتغل بوصف الأرض، ألا يتحدّث عمّا هو راهن فقط، بل عن أحداث الماضي أحياناً، خاصة إذا كانت هذه الأحداث قد اشتهرت. وفيما يخصّ اللوكانيين، كنت قد تحدّثت عن أولئك الذين يتاخمون البحر التيريني، أمّا الذين يشغلون المناطق الداخلية، فإنهم يعيشون على الخليج التارانتي. وهؤلاء الأخيرون، هم على وجه العموم كالبريتيين والسامنيتيين أنفسهم، أسلاف هذه

القبائل، مبعثرين إلى درجة يصعب معها تحديد مستوطناتهم. ويكمن السبب في أنه ليس لدى كلّ قبيلة على حدة، جامعة أكثر عمومية؛ فاندثرت السمات التفريقية في اللغة، والتسليح، وزي الملابس، وما شابه من الأشياء. وعلى أي حال فإن مستوطناتهم (إذا ما تعاملنا معها كلاً على حدة، جزءاً جزءاً)، هزيلة تماماً ولا أهمية لها.

3- إنني لا أعرض سوى المعلومات العامّة التي تيسر لي جمعها عن القبائل التي تقطن داخل البلاد، من غير أن أفرق بينها، وخاصة عن اللوكانيين والسامنيتيين المجاورين لهم. إن عاصمة الهاونيين، هي مدينة بيتيليا التي لا تزال تتوفّر حتّى يومنا هذا على عدد كبير من السكّان. وكان فيلوكتيتس هو الذي أسّسها بعد فراره من ميليبيا في زمن الاضطرابات. وكانت الطبيعة نفسها قد منحت هذه المدينة تحصينات قوية؛ كما أحاطها السامنيتيون يوماً بأسوار ضدّ فوري. وأسّس فيلوكتيتس في تلك الأرجاء مدينة كريميسا القديمة أيضاً. ففي مؤلّفه «عن السفن» يأتي أبوللودوروس على ذكر فيلوكتيتس فيقول: إنه بحسب روايات بعض المؤلّفين أن فيلوكتيتس إذ وصل إلى منطقة الكروتونيين، عمّر رأس كريميسا ومدينة هونا فوقها؛ ومن هذه المدينة تلقّى السكّان اسم الهونيين؛ وقد أرسل فيلوكتيتس بعض مرافقيه وعلى رأسهم إيجيستوس الطروادي، إلى منطقة إيريكس في صقليا، حيث حصّنوا مدينة إيجيستا. وتقع في داخل البلاد: غرومينت، وفيرتينا، وكالاسارنا وسواها من المستوطنات الصغيرة وصولاً إلى مدينة فينوسيا. وأنا أرى أن هذه المدينة والمدينة التي تليها مباشرة على الطريق إلى كامبانيا، هما من المدن السامنيتية. وتقع إلى الأعلى من فوري منطقة تسمى منطقة تافريانا. واللوكانيون هم سامنيتيون من حيث المنشأ؛ وبعد أن هزموا البوسيدونيين وحلفاءهم، امتلكوا مدينتهم. وعلى امتداد الزمن الباقي كلّه، اعتمد هؤلاء نظام الإدارة الديمقراطي، لكنّهم وقت الحرب كانوا ينتخبون ملكاً من بين الشخصيات التي كانت قد شغلت مناصب عليا في الدولة. بيد أنهم باتوا الآن رومان.

4- يشغل البريتيون الساحل الذي يلي ليفكانيا حتّى مضيق صقليا مباشرة، على امتداد 1350 مرحلة. ووفق ما يخبر به أنطوخ في مؤلّفه «عن إيطاليا»، أن هذه المنطقة كانت تدعى يوماً ما إيطاليا (وهو يكتب عنها)، مع أنها كانت تحمل في الأزمنة الماضية اسم إينوتريا. وقد حدّد لها على البحر التيريني الحدود عينها التي اعتمدتها أنا لمنطقة البريتيين، أي نهر لاوس، وعلى البحر الصقلي، ميتابونتي. أمّا فيما يخصّ منطقة تارانت التي تتاخم ميتابونتي، فإن أنطوخ يرى أنها خارج إيطاليا، ويدعو التارانتيين باليابيغيين. ويقول أيضاً، إن اسم الإينوتريين واسم الإيطاليين لم تحملهما من قبل سوى

القبائل التي كانت تعيش على هذا الجانب من البرزخ، في المنطقة التي تتّجه نحو مضيق صقليا. والبرزخ نفسه (عرضه 160 مرحلة) واقع بين خليجين: هيبونيات (الذي يدعوه أنطوخ نابيتين)، وسكيليت. ويبلغ طول الطريق البحرية الملتفة حول المنطقة الواقعة بين البرزخ والمضيق، 2000 مرحلة. وبحسب أنطوخ أن اسم «إيطاليا» واسم الإينوتريين قد انتشرا بعد ذلك حتّى منطقة ميتابونتي وسيريس. ففي هذه الأماكن سكن الهونيون، كما يقول، وهؤلاء قبيلة إينوترية منظمة تنظيماً جيداً، وهم من دعا البلاد باسم هونا. وعلى هذا النحو فإن هذا الكتاب عرض رؤية بعيدة عن الدّقّة، فاتبع السنن القديمة ولم يفرق بين اللوكانيين والبريتيين. ونقول في السياق، إن لوكانيا تقع بين الساحل التيريني والساحل الصّقلي؛ ويمتدّ الأول من نهر سيلاريدس حتّى لاوس، ويمتدّ الثاني من ميتابونتي حتّى فوري. وفي القارّة تمتدّ لوكانيا من منطقة سامنيتيا حتّى البرزخ الواقع بين فوري وكيريلا (غير بعيد عن لاوس). ويبلغ عرض هذا البرزخ 300 مرحلة. وإلى الأعلى من اللوكانيين تقع منطقة البريتيين الذين يعيشون على شبه الجزيرة. وثمّة في هذه الشبه الجزيرة شبه جزيرة أخرى ببرزخ بين سكيليسيا وخليج هيبونيات. وقد أعطى اللوكانيون هذه القبيلة اسمها، لأنهم يدعون المتمردين كلّهم بريتيين. وكان البريتيون من قبل مجرّد رعاة عند اللوكانيين، ثمّ أخذوا يتصرّفون بعد ذلك بسبب ضعف [أسيادهم]، كأناس أحرار. ويقال إنهم أعلنوا انتفاضتهم في الوقت الذي قاد فيه ديون حملة ضدّ ديونيسيوس[5]، مثيراً جميعهم ضدّ جميعهم. لقد كانت هذه هي الملامح العامّة لوصفي اللوكانيين والبريتيين.

5- إن أوّل مدن بريتيا بعد لاوس، هي تيميسا (يدعوها معاصرونا تيمبسا). وقد أسّسها الأفسونيون، لكنّ الإيثوليين بقيادة ثوانتس جاؤوا فيما بعد وسكنوها. ثمّ طرد البريتيون الإيثوليين، وهزم هنيبعل ثمّ الرومان البريتيين. وغير بعيد عن تيميسا يقع معبد يغطيه دغل كثيف من شجر الزيتون البري، وهو معبد البطل بوليتوس أحد مرافقي أوديسيوس، الذي قتله البرابرة غدراً، الأمر الذي أثار حنق البطل، وبناء على أمر الكاهن المتنبّئ المحلّي بات سكّان الجوار يجمعون له إتاوة[6]. ومن هنا جاء المثل عن التعامل الصارم مع الناس ليقول: إن «البطل التيميسي لهم بالمرصاد». ولكن عندما استولى لوكريو إيبيزيفيروس على هذه المدينة، فإن يفيم، كما تقول الأسطورة، وهو بطل في العراك، نازل بوليتوس وهزمه، وأرغمه على أن يعفي السكّان المحلّيين من الإتاوة. ويقال إن هوميروس يأتي على ذكر هذه التيميسا تحديداً، وليس تاميسا قبرص(وحتى نطق الاسمين مختلف):



إلى تيميسا أمضي من أجل النحاس؛

(*الأوذيسا* I، 184)

وفعلاً يرونك هناك على مقربة من المدينة مناجم نحاس، وإن كانت الآن مهجورة. وغير بعيد عن تيميسا تقع تيرينا التي دمّرها هنيبعل، لأنه عجز عن حمايتها في الوقت الذي وجد لنفسه ملجأ في بريتيا. ثمّ تأتي بعدها كوسينتيا، مدينة البريتيين الرئيسة. وثمّة إلى الأعلى منها قليلاً، قلعة قوية، هي قلعة باندوسيا التي هلك عندها الإسكندر المولوسي[7]. وكان كاهن دودونا[8] المتنبّئ قد خدعه أيضاً، إذ أمره بأن يحذر أخيرونت وباندوسيا. فقد أرشدوا الملك إلى أماكن تحمل اسمي هذين الموقعين نفسيهما في تيسبروتيا، بينما أنهى الرجل حياته هنا في بريتيا. فعند القلعة ترتفع ثلاث قمم، ويجري قربها نهر أخيرونت. كما خدع الإسكندر بواحدة أخرى من نبوءات الكاهن:

في زمن ماسوف تهلكين ياباندوسيا يا ذات الرؤوس الثلاث، كثيراً من البشر.

فقد ظنّ الإسكندر أن المتنبّئ يشير إلى هلاك الأعداء، لا إلى هلاك أبناء جلدته. ويقولون، إن باندوسيا كانت في زمن مضى مقر الملوك الإينتوريين. وبعد كوسينتيا تأتي هيبوني التي أسّسها اللوكريون. ثمّ استولى عليها البريتيون فيما بعد، لكنّ الرومان انتزعوها منهم وبدلوا اسمها إلى فيبو فالانسيا. وبما أن ضواحي هيبوني فيها مروج بديعة من الزهور، فقد ظنّوا أن كورا جاءت من صقليا إلى هنا لتجمع الزهور وتضفر الأكاليل، لأنه كان من المعيب أن يحمل أحد في الأعياد أكاليل مشرية. وفي المدينة محطة سفن كان قد بناها في زمن ما طاغية السيكيليتيين[9] أغاثوكليس، بعد أن استولى على المدينة. وإذا أبحرت نحو ميناء هرقل فإن منعطف أطراف إيطاليا يبدأ هنا غربي الخليج. ولدى هذا الإبحار على الخط الساحلي، نبحر على مقربة من ميدما، مدينة اللوكريين، سمية ينبوع كبير يقع هنا؛ وغير بعيد من هنا تقع محطة سفن تدعى إيمبوري. ويجري على مقربة هنا نهر ميتاور وعليه مرسى يحمل الاسم نفسه. وتقع أمام هذا الساحل، الجزر الليبارية، على مسافة 200 مرحلة من الخليج. ويرى بعضهم أن هذه الجزر هي جزر إيولس الذي يذكره هوميروس في «الأوذيسا»[10]. وعدد هذه الجزر 7 جزر تقع كلّها في مجال الرؤية، إن من صقليا، أو من البر عند ميدما. لكنّني لن أتحدّث عنها الآن، بل عندما سأصف صقليا. ويأتي بعد نهر ميتاور، ميتاور آخر[11]. وبعد هذا النهر مباشرة تأتي سكيليوس، وهي صخرة شاهقة على شكل شبه جزيرة لها برزخ منخفض يمكن الوصول إليه من الجانبين. ولكن أناكسيلايوس، طاغية ريغوس حصّن البرزخ ضدّ التيرينيين، فبنى محطة سفن أعاق بها دخول القراصنة

عبر المضيق. فعلى بعد 250 مرحلة عن ميدما يقع كينيوس، وهو آخر بروز يشكّل مع رأس بيلوريادا التي تبرز من جهة صقليا، معبراً ضيّقاً للمضيق. وهذه الرأس هي واحدة من ثلاث رؤوس تجعل من صقليا مثلثاً يتّجه نحو مشرق الشمس صيفاً، بينما يتّجه كينيوس نحو الغرب، وعليه فإنهما يتخذان وجهتين متعاكستين. ومن كينيوس إلى معبد بوسيدون أو عمود الريغوسيين، يمتدّ معبر ضيّق طوله حوالي 6 مراحل، لكنّ طول أقصر ممرّ، أكثر من هذا بقليل. ومن العمود إلى ريغوس 100 مرحلة؛ ويتّسع المضيق هنا عندما تتّجه إلى الأمام شرقاً نحو البحر الخارجي الذي يدعى البحر الصقلي.

6- أمّا ريغوس فقد أسّسها الخلكيديون. ويروى أن شح المحاصيل دفع هؤلاء إلى أن يكرّسوا كلّ عاشر منهم لأبوللون[12]، ثمّ انتقلوا إلى هنا قادمين من دلفي ومعهم آخرون من أبناء جلدتهم. وحسب أنطوخ أن الزانكليين دعوا الخلكيديين وعينوا أنتيمنيسيس مؤسّساً للمستعمرة. وقد شارك في هذه المستوطنة أيضاً، منفيون ميسينيون من البيلوبونيز. وكان قد طردهم في أثناء العصيان، أولئك الذين لم يشاؤوا أن يمنحوا المتعة للاكيديمونيين بسبب اغتصاب الفتيات[13] في ليمنا، مع أنهم هم أنفسهم لم يكتفوا بممارسة العنف مع الفتيات، بل قتلوا حراسهن أيضاً. وإذ اعتزل المنفيون في ماكيستوس، أرسلوا مبعوثين إلى كاهن الإله المتنبّئ يشكون الإله أبوللون والإلهة أرطميس: إذا كان سبب ما حل بهم هو دفاعهم عن الإلهة، فإن بهم رغبة لأن يعرفوا كيف يمكنهم أن ينجوا بأرواحهم. فأمرهم أبوللون بأن يتوجهوا مع الخلكيديين إلى ريغوس ويقدّموا الشكر لأخته؛ فهم لم يهلكوا، بل نجوا، ولن يهلكوا مع بلادهم التي سوف يستولي الإسبرطيون عليها قريباً. فأذعن الميسينيون. ولهذا كان حكّام ريغوس حتّى أناكسيلاوس، ينتخبون دائماً من سلالة الميسينيين. وبحسب قول أنطوخ إنّ السيكيليين والمورجيتيين قد سكنوا هذه المنطقة كلّها في الأزمنة القديمة، لكنّهم أرغموا فيما بعد تحت ضغط الإينوتريين، على الانتقال إلى صقليا. ويزعم بعضهم أن مورغانتي أخذت اسمها من هؤلاء المورجيتيين. لقد بلغت مدينة الريغوسيين درجة عالية من القوة، وأخضعت كثيراً من المدن المجاورة لسيطرتها. وكان هؤلاء دوماً الحصن الأمامي في مواجهة الجزيرة: قديماً، وفي زمن غير بعيد أيضاً، في زمننا هذا عندما أعلن سيكست بومبيوس انتفاضته في صقليا. وعلى حدّ قول إيسخيليوس أن المدينة دعيت «ريغوس» بسبب البلية التي حلت بهذه المنطقة. فإيسخيليوس وغيره من الكتاب يؤكّدون على أن صقليا «انتزعت» يوماً ما من البرّ إثر هزّة أرضية:

لذلك تدعى الآن ريغوس

(على أساس الظاهرات التي تحدث في ضواحي إيتنا ومناطق صقليا الأخرى، وفي ليبارا والجزر القريبة منها، كما في بيفيكوسا وعلى كلّ الساحل المجاور للقارّة، يستنتجون بدرجة عالية من الأرجحية، أن هذا «الانتزاع» قد حصل فعلاً. أمّا الآن فإن حدوث الهزّات الأرضية حول المضيق بات نادراً كما يقولون، لأنّ هناك فتحات تخرج عبرها الحمم النارية، والسائل البركاني، والتيارات المائية إلى السطح. ولكن عندما كانت المخارج إلى السطح مغلقة كلّها، كانت النيران الجوفية المستعرة تتسبب بالتآزر مع الرياح، بحدوث الهزّات الأرضية العنيفة؛ فالأماكن التي بدت كأن عتلات رفعتها، تراجعت أخيراً بفعل قوة ضغط الرياح، وأظهرت شقوقاً استقبلت عبرها البحر من جهتين: هنا في المضيق، وبين الجزر الأخرى الموجودة في هذه المنطقة. وواقع الأمر فعلاً، هو أن بروخيتا، وبيفيكوسا، ومثلهما كابري، وليكوسيا، وسيرينا، وإينوتريدس، كلّها كسرات من البرّ. أمّا الجزر الأخرى، فهي على الضدّ من هذا، ارتفعت من أعماق اللجة البحرية، وهو ما يحدث حتّى يومنا هذا في كثير من الأماكن. فالأرجح، والأكثر معقولية، هو أن تكون الجزر الواقعة في عرض البحر قد صعدت من أعماقه، والجزر الواقعة أمام الرؤوس وتفصلها عن البر مضائق، قطعاً منتزعة من البرّ). والآن، هل على هذا الأساس نالت ريغوس تسميتها، أم أنها نالتها بفضل مجدها (لأنه كان يمكن للسامنيتيين أن يدعوها باللاتينية «ملكية»[15]، لأنّ أسلافهم الأوائل شاركوا الرومان إدارة شؤون البلاد، واستخدموا اللاتينية في غالب الأحيان)، ولا يزال هذا السؤال - أيّ من التفسيرين هو التفسير الصحيح - يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتدقيق. ولكن مهما كان الأمر فإن هذه المدينة كانت مدينة شهيرة أسّست كثيراً من المدن - المستعمرات، وكانت مسقط رأس كثير من رجال لدولة والعلماء. وقد دمّرها ديونيسيوس[16] متهماً إياها بما يلي: عندما طلب من المدينة فتاة زوجة له، عرض عليه سكّانها ابنة الجلاد. ولكنّ ابن ديونيسيوس أعاد بناء جزء من المدينة ودعاها فيبيوس[17]. وفي زمن بيروس أبادت فرق الحماية في كامبانيا أكثر السكّان بسبب انتهاكهم الاتفاق، وقبيل الحرب المارسية بقليل، ضربت المستوطنة هزّة أرضية دمّرت قسماً مهمّاً منها. ولما طرد أغسطس قيصر، بومبيوس من صقليا، لاحظ نقصاً في سكّان المدينة، فأسكن فيها عدداً كبيراً من المستعمرين انتقاهم من بين أفراد طاقم أسطوله. وفي المدينة الآن كثافة سكّانية عالية.

7- وإذا أبحرت من ريغوس شرقاً، فعلى بعد 50 مرحلة منها تقع رأس ليكوبيترا[18] (دعيت بهذا الاسم بسبب لونها)، الذي يقال إن سلسلة جبال الأبينين تنتهي عندها. ومن هنا ندلف إلى هرقليا التي تعدّ آخر رأس بحرية، وهي تتّجه نحو

الجنوب. وإذ يحيدون عنها، يبحرون مع الريح الجنوبية الشرقية مباشرة إلى رأس يابيغيا. ثمّ ينحرف خطّ الإبحار أكثر فأكثر باتجاه شمال غرب، نحو الخليج الإيوني. وتأتي بعد هيراقليا رأس لوكريدس (التي تدعى زفيروس) وميناؤها المفتوح للرياح الغربية، ومن هنا جاءت تسميتها. تلي ذلك مدينة اللوكريين الأيبزيفيريين[19]، وهي مستعمرة اللوكريين الذين يعيشون في الخليج الكريسي. وقد بنى يوانث هذه المستعمرة بعد وقت قليل من تأسيس كروتون وسيراكوزا[20]. وقد أخطأ إيثور إذ دعاها مستعمرة اللوكريين الأوبنتيين. فقد عاش هؤلاء 3 أو 4 سنوات في زفيروس، ثمّ نقلوا مدينتهم بمساعدة السيراكوزيين، وسكنوا مع هؤلاء الأخيرين [....][21]. وثمّة ينبوع يدعى لوكريا، في المكان الذي نصب فيه اللوكريون معسكرهم. ومن ريغوس إلى اللوكريين 600 مرحلة. وتقوم هذه المدينة فوق تل يدعى إيبوبيوس.

8- ويظنّ بعضهم أن اللوكريين كانوا أوّل من عرف القوانين المكتوبة. وبعد أن عاشوا طويلاً في ظل تشريعات جيّدة، جاءهم ديونيسيوس[22] المطرود من بلاد السيراكوزيين وتعامل معهم بتعسف قل نظيره. فقد كان يدخل حجر نوم الفتيات عندما يكن قد ارتدين أثواب الزفاف، وينام معهن قبيل العرس. ثمّ يطلق أثناء الولائم طيوراً من الحمام مقصوصة الأجنحة، ويرغم الفتيات اللواتي في سن الزواج على مطاردتها وهن عاريات؛ كما كان يرغم بعضهن ممن ينتعلن نعالاً مختلفة (بعضها عال، وبعضها قصير) على أن يركضن حول المكان ليلتقطن الحمامات، وليس له من ذلك غرض سوى الإمعان في الفحش[23]. ولكنّ ديونيسيوس دفع الثمن بعد عودته إلى صقليا لكي يستولي على السلطة من جديد. فقد أباد اللوكريون وحدة حرسه الخاص، واستعادوا حريتهم واختطفوا زوجته وأطفاله. وكان لديه ابنتان وابن بلغ سن الفتوة، لكنّه كان أصغر من شقيقته. أمّا ابنه الثاني أبوللوكراتس، فقد كان يقود الجيش مع والده في أثناء عودته إلى صقليا. ومع أن ديونيسيوس نفسه، والتارانتيين، توسلوا اللوكريين بإلحاح لكي يطلقوا سراح الأسرى وفق الشروط التي يريدونها، إلا أن هؤلاء رفضوا كلّ عرض. فدفعوا ثمن ذلك حصاراً قاسياً ودماراً لبلادهم ونهبها. لقد صب اللوكريون جام غلّهم على ابنتي ديونيسيوس، فاغتصبوهما أولاً، ثمّ خنقوهما خنقاً، وأحرقوا جثتيهما، وطحنوا عظامهما ونثروا المسحوق في البحر. لقد ذكر إيثور قوانين اللوكريين المكتوبة التي صنفها زاليكس مستعيناً بالقوانين الكريتية، واللاكونية، والأريوباغية. فهو يقول، إن زاليكس كان واحداً من أوائل الذين أدخلوا المستجدات الآتية: في الوقت الذي منح فيه المشرعون السابقون القضاة حق تحديد عقوبة

كلّ جريمة على حدة، فإن زاليكس حدّد معيار العقوبة في القوانين نفسها، لأنه افترض أن أحكام القضاة في الحالات عينها لم تكن دائماً متماثلة، مع أنها ينبغي أن تكون متماثلة. ويثني إيثور على زاليكس لأنه أقر أيضاً قواعد أيسر لعقد الاتفاقيات. وبحسب قوله إن الفوريين الذين سعوا إلى تجاوز اللوكريين في دقّة القرارات، حقّقوا شهرة ذائعة تخطّت شهرة اللوكريين، لكنّهم كانوا أدنى منهم في الميدان الأخلاقي. فالقوانين الجيّدة ليست لتدبير شؤون الذين يرومون حماية أنفسهم بالقانون من شتّى ضروب الاحتيال والدسائس، إنّما لتدبير شؤون الذين يلتزمون التزاماً صارماً بالقوانين الموضوعة وحسب. وكان أفلاطون قد عبر عن هذه الفكرة نفسها بقوله: إن الذين عندهم كثرة من القوانين، هم الذين عندهم دعاوى قضائية كثيرة ومعايير أخلاقية فاسدة، فحيث تكثر الأمراض يكثر الأطباء[24].

9- يجري نهر غاليك الذي يفصل منطقة ريغوس عن لوكريدس، يجري عبر ثغر عميق. وتتجلى هنا خاصية معينة تخص زيز الحصاد[25]: على الضّفّة اللوكرية هذه الحشرات تطنّ، لكنّها على الضّفّة الأخرى صامتة تماماً. ويرون سبب هذه الظاهرة في أن هذه الأخيرة تعيش في منطقة وارفة الظلال ويغطيها الندى بكثافة لا تترك لها مجالاً لكي تفتح أفواهها وتطنّ، بينما الزيزان التي تعيش في الجانب المشمس، تبقى أفواهها جافة ولها قرون، ولذلك يغدو من السهل عليها أن تصدر طنيناً. ويعرضون في لوكرا تمثال إيفنوم عازف القيثارة وعلى قيثارته زيز الحصاد. ويروي تيمييوس أن إيفنوم وأريستون الريغوسي تباريا يوماً في أثناء الألعاب البيثية وتحدى واحدهما الآخر بإلقاء القرعة[26]. فطلب أريستون من الدلفيين أن يمنحوه مساندتهم، لأنّ أسلافه كُرِّسوا في حينهم للإله[27]، ومن هنا خرج الذين بنوا المستعمرة[28]. أمّا إيفنوم فقد أعلن أنه ليس للريغوسيين أي حق في المشاركة بمباريات الغناء، لأنه حتّى زيز الحصاد عندهم لا يغني مع أنه يملك أغنى الأصوات بين الكائنات كلّها. بيد أن أريستون حقّق نجاحاً وانتظر النصر، وقد انتصر، ومع ذلك كرّس إيفنوم التمثال المذكور للإله في مدينته الأم، لأنّ أحد أوتار قيثارته انقطع في أثناء العزف، فأسرع زيز الحصاد وقفز إلى القيثارة ليؤدّي صوت الوتر [الذي انقطع]. ويمتلك البريتيون المنطقة الداخلية الواقعة إلى الأعلى من هذه المدن. فهناك تقع مدينة ماميتري وغابة تدعى سيلا، حيث يستخرجون أفضل أنواع القطران، وهو القطران البريتي. وهذه الغابة غابة كثيفة، غنية بالرطوبة وتمتدّ بطول 700 مرحلة.

10- بعد اللوكريين يأتي ساغرا، وهو نهر يدعى باسم مؤنث. وتقوم على هذا

النهر مذابح مكرّسة للديوسكوري، وقد انتصر عند هذه المذابح 10.000 لوكري وريغوسي على 130.000 كروتوني. ويقال إنه من هنا شاع المثل عن الذين يرتابون دائماً، والمثل يقول: «الحدث الأصدق وقع على ساغرا». ويضيف بعضهم إلى هذا قصة خيالية، إذ زعموا أنه في اللحظة التي بدأت فيها الألعاب الأوليمبية، تلقى المجتمعون هناك خبراً عن هذا الحدث في اليوم نفسه، وزعموا أيضاً أن سرعة انتقال الخبر قد تأكّدت بعد ذلك. ويقال، إن هزيمة الكروتونيين هذه كانت سبباً في أن المدينة لم تعمر بعد ذلك طويلاً بسبب كثرة خسائرها البشرية في تلك المعركة. وتأتي بعد ساغرا كالونيا، وهي مدينة أسّسها الآخيون، وكانت تدعى قبل ذلك آولونيا بسبب الوادي[29] الذي يمتدّ أمامها. وهي خاوية الآن، لأنّ ضغط البرابرة أرغم سكّانها على تركها والفرار إلى صقليا حيث أسّسوا هناك كاولونيا. وتلي هذه المدينة مدينة سكيليسيا، مستعمرة الأثينيين الذين وصلوا إلى هنا بقيادة مينيثييوس؛ وتدعى هذه المدينة الآن سكيلاكيوس. ومع أن الكروتونيين استولوا عليها، إلا أن ديونيسيوس ألحقها باللوكريين. ومن اسم هذه المدينة جاءت تسمية خليج سكيليت الذي يشكّل مع خليج هيبونيات البرزخ الذي أتينا على ذكره من قبل[30]. وعندما قام ديونيسيوس ضدّ اللوكانيين، حاول تحصين البرزخ بسور تحت ذريعة حماية سكّانه من عدوان البرابرة الخارجيين؛ لكنّه كان يسعى في حقيقة الأمر إلى فك تحالف الإغريق بعضهم مع بعض، لكي يستطيع أن يسود على سكّان البرزخ وهو مطمئن. ولكنّ اجتياح البرابرة الخارجيين أفشل خطّته هذه.

11- بعد سكيليسيا تأتي منطقة الكروتونيين والرؤوس البحرية اليابيغية الثلاث، ثمّ يليها لاكينوس، وهو معبد هيرا الذي كان يوماً ما غنياً ومليئاً بتقدمات المؤمنين. إن تحديد المسافات البحرية هنا، مشوب بالغموض؛ فبوليبيوس وحده يعطي حاصل المسافة من الخليج إلى لاكينوس: 2300 مرحلة[31]، ومن هناك إلى رأس يابيغيا بحراً 700 مرحلة. وتدعى هذه النقطة عندهم، ثغر الخليج التارانتي. أمّا ما يخصّ الخليج نفسه، فإن المسافة حوله بحراً، تعدّ كبيرة، إذ تبلغ 240 ميلاً[32]، بحسب كوروغراف، بيد أن أرتيميدور يقول: إنها تبلغ 380 للشخص الذي يبحر بغير حمولة، مع أنه يبقي المسافة عينها لعرض ثغر الخليج[33]. ويتّجه الخليج نحو مطلع الشمس شتاء[34]، وهو يبدأ عند رأس لاكينوس. وفور تجاوزنا لهذه الرأس، نبلغ مدن الآخيين التي لم يعد لها وجود الآن (ما عدا مدينة التارانتيين). لكن شهرة بعض هذه المدن تفرض علينا أن نصفها الوصف الذي تستحق.

12- إن أوّل هـذه المـدن هـي مدينـة كروتـون الواقعـة علـى بعـد 150 مرحلـة عـن لاكينوس؛ ثمّ يأتي نهر إيسار، وميناء، ونهر نييف الآخر، الذي يحكـى أنـه أخـذ اسمـه على النحو الآتي. بعد الحملة الأيليونية ضل بعض الآخيين طريقهم، فدفعتهم الأمـواج إلى هنا ونزلوا علـى الشـاطئ ليتفحصـوا المكـان، ولكـنّ النسـوة الطروادیـات اللـواتي كـنّ يبحرن معهم، أضنـاهن الإبحـار وكرهنـه، فاسـتغلين خلـو السـفن مـن الرجـال وأضـرمن النار فيها. وإذ رأى الآخيون أن الأرض هنا خصبة، وأن سفنهم احترقت، قـرروا البقـاء في المكان. وسرعان ما أخذ آخرون يتوافدون إلى هنـا، ونظـراً لصـلة القرابـة القبليـة أخـذوا يقلدونهم. وهـكذا قامـت علـى هـذه الأرض كـثرة مـن القـرى أخـذ أكـثرهـا أسمـاءه مـن الطرواديين؛ ومن هذا الحدث أخذ نهر نيثوس اسمه أيضاً[35]. فبحسـب مـا يقولـه أنطـوخ، عنـدما أعلـن الإلـه إرادتـه للآخـيين بوجـوب تأسـيس كروتـون، توجـه ميسـكيلوس إلى هناك لكي يعاين المكان بنفسه. بيد أنه لما رأى أن سيباريس كانت قد شيّدت ودعيت باسم النهر المجاور قرّر أن سيباريس أفضـل. وعلـى أي حـال، بعـد أن عـاد أدراجـه، سـأل الإلـه مـرّة أخـرى: ألـيس تأسـيس سـيباريس بـدلاً مـن كروتـون أفضـل. فأجـاب الإلـه (ويذكر أن مسكيلوس كان أحدب):

ميسكيلوس يا محدودب الظهر، تبحث جانباً عن شيء آخر،
تلتقط الفتات، وتكون شاكراً ما يعطى لك.

وإذ عاد ميسكيلوس أدراجه، أسّس كروتون بمساعدة تلقاها من آرخيوس بـاني سيراكوزا، الذي رسا هناك مصادفة بينما كان متوجهاً ليبني سيراكوزا[36]. وحسـب رواية إيثور، أن اليابيغيين هم من كان يسكن كروتـون مـن قبـل. ويهيـأ لـي أن سـكّان المدينة كانوا يتدربون على فنون الحـرب والمصـارعة. وعلـى أي حـال فـإن الرجـال السـبعة الـذين فـازوا مـرّة في الألعـاب الأوليمبيـة بمسـابقة الجـري، كـانوا مـن الكروتـونيين. ولـذلك أرى أنهـم عـدلوا حيـث قـالوا: «الأخـير بـين الكروتـونيين، جـاء الأول بـين بـاقي الإغريق». ويقولـون إنـه مـن هنـا جـاء المثل القائل: «أكـثر عافيـة مـن كروتـوني»، لأنهـم كانوا يظنّون أن ثمّة شيئاً مـا في هـذا المكـان مفيـد للصـحّة والقـوة الفيزيائيـة، وهـو مـا يؤكّده خروج كثرة من الرياضيين من هذه البيئة. وفعلاً كـان لكروتون العدد الأكـبر من الذين حقّقوا انتصارات في الألعاب الأوليمبية، مـع أن المدينـة لم تعمـر طـويلاً بسـبب خسارتها أعداد كبيرة من مواطنيها[37] في معركـة نهـر سـاغرا. كمـا اشـتهرت المدينـة أكثر، بكثرة الفلاسفة الفيثاغورسيين فيهـا، فميلـون الأشـهر بـين الرياضـيين، كـان تلميذاً عند فيثاغورس (الذي أقام طويلاً في هـذه المدينـة). ويـروى أنـه مـرّة في أثنـاء وجبـة

غداء مشتركة اجتمع فيها الفلاسفة، التوى واحد من أعمدة القاعة، فما كان من ميلون إلا أن وقف مكان العمود وحمل السقف إلى أن خرج الحاضرون، فرماه وخرج هو أيضاً. وربّما كان اعتماده على قوته الجسدية، هو سبب موته الذي يروي عنه بعضهم. فيقولون إنه بينما كان ميلون يعبر يوماً غابة كثيفة الشجر، ابتعد كثيراً عن الطريق، فوجد هناك جذعاً ضخماً غرز فيه إسفين، فأدخل يديه وقدميه معاً في الشقّ الذي أحدثه الإسفين في الجذع، إذ عزم على أن يفلق الجذع تماماً، لكن تبيّن أن قوته لم تكن كافية إلا لانتزاع الإسفين، وما إن فعل حتّى أطبق نصفا الجذع بعضهما على بعض ثانية. فالفى ميلون نفسه حبيس تلك المصيدة، وراح ضحية الكواسر.

13- على بعد 200 مرحلة من كروتون تأتي سيباريس التي بناها الآخيون. وهي تقع بين نهري كراثيدس وسيباريدس. وقد أسّسها المدعو إيس الهيليكي[38]. وكانت المدينة قد حقّقت قديماً نجاحات عظيمة أهلتها لكي تسود على أربع قبائل مجاورة، و25 مدينة؛ ففي حملتها ضدّ الكروتونيين، جندت سيباريس 300.000 مقاتل، وملأ سكّانها المدى على نهر كراثيدس بامتداد 50 مرحلة. لكنّ البذخ والتخنث والغطرسة، أفقدوا السيباريسيين رغد عيشهم كلّه في حربهم مع الكروتونيين، التي تواصلت 70 يوماً. وبعد أن استولى هؤلاء على المدينة، حولوا مجرى النهر إلى المدينة وأغرقوها. ومع مرور الزمن قضى الأثينيون والإغريق الآخرون على هؤلاء السيبارسيين أيضاً، مع أنهم كانوا قد جاؤوا إلى هنا لكي يعيشوا معهم، بيد أنهم ما لبثوا أن احتقروهم، فأبادوهم ونقلوا المدينة إلى مكان آخر يقع على مقربة، ودعوها فوري، على اسم ينبوع يحمل هذا الاسم. ويجعل نهر سيباريس الخيل تجفل عندما تشرب منه، لذلك يسوقون القطعان بعيداً عن هذا النهر. أمّا نهر كراثيدس فيعطي شعر الناس الذين يعومون فيه لوناً أصفر ولوناً أبيض، وتداوي مياهه أمراضاً كثيرة. وبعد سنوات كثيرة عاشتها فوري في بحبوحة وأمان، استعبدها اللوكانيون، وبعد أن انتزع التارانتيون المدينة من اللوكانيين، ترك سكّان فوري المدينة وفرّوا إلى الرومان؛ فأرسل هؤلاء إلى فوري الفقيرة بالسكّان، مستعمرين رومان وبدلوا اسم المدينة إلى كوبي.

14- ويلي فوري حصن لاغاريا الذي أسّسه إيبييوس والثوكيديون. ومن هنا يخرج النبيذ اللاغاري الحلو الخفيف الذي يحظى بشهرة واسعة لدى الأطباء (ويعد النبيذ الفوري واحداً من أشهر أنواع النبيذ). ثمّ تأتي مدينة هيراقليا الواقعة غير بعيد فوق البحر، يليها نهران صالحان للملاحة، هما نهر أكيريس ونهر سيريس. وكانت تقع على هذا النهر مدينة طروادية تحمل اسم النهر عينه. ولكن فيما بعد، عندما

عمـرت هيراقليـا بتـارانتيين مـن هـذه المدينـة، تحوّلـت هـذه الأخـيرة إلى محطـة سـفن للهيراقليين. وكانـت سـيريس تقـع علـى بعـد 24 مرحلـة عـن هيراقليـا، و330 مرحلـة عـن فـوري. وللبرهـان علـى أن الطـرواديين أسّسـوا المدينـة، يسـتندون عـادة إلى تمثـال أثينـا الإيليونيـة الخشـبي القـائم هنـاك. فيقولـون، إن التمثـال أغمـض عينيـه عنـدما كـان الإيونيون الذين استولوا على المدينة يبعدون عنه الـذين لجؤوا إليـه طلبـاً للحماية. وكـان الإيونيون قد جاؤوا إلى هنا مهاجرين فارين من سيطرة الليديين. فاستولوا عنوة على هـذه المدينة التي كانت للهاونيين، ودعوهـا بوليـوس. ولا يزالـون حتّـى اليـوم يعرضـون التمثـال المغمـض العينـين. وغـني عـن البيـان القـول، إنـه مـن العيـب اختلاق مثـل هـذه الحكايـات والتأكيد على أن التمثال أغمض عينيه (ومثل هذا أيضاً زعمهم أن التمثال في إيليون قد استدار في أثناء اغتصاب كاساندرا)[39]، وأنه يمكن رؤيته مغمض العينين أيضاً. ولكنّ الأكثر صفاقة هو الزعم أن تلك التماثيل التي ذكرتها المصادر كلّها، نقلت مـن إيلـون. فمـن المعـروف فعـلاً أن أثينـا تـدعى بالإيلونيـة في كـلّ مـن رومـا، ولافـيني ولوكـيريـا، وسيريتيس، كما لو أنها نقلت إلى هنا من طروادا. وعلى هذا النحو نفسـه ينسـب سـلوك النسوة الطرواديات الجريء، إلى كـثير مـن الأمـاكن، ويـترك انطباعـاً غـير عـادي، مـع أنه يمكن أن يكون قد حصل فعلاً. ويـرى بعضـهم أن سـيريتيس وسـيباريس اللـتين علـى تـرايس[40]، قـد أسّسـهما الرودوسـيون. وبحسـب مـا يقولـه أنطـوخ، إن التـارانتيين عقـدوا اتفاقاً مع الفوريين وقائدهم كلياندريدس (منفي من لاكيديمونيا) في أثناء الحرب التي دارت بين الطرفين للاستيلاء على سيريتيس، وسـكنوا سيريس معاً، إلا أن المدينة غـدت مستعمرة للتارانتيين. ثمّ دعيت فيما بعد باسم هيراقليا، مبدّلة بذلك اسمها وموقعها.

15- ثمّ تأتي بعد ذلك ميتـابونتي، والمسـافة مـن محطـة سـفن هيراقليـا إليهـا 140 مرحلة. ويقولون إن البيلوسيين الذين أبحروا من إيليون إلى هنا بقيادة نسطور، هم الـذين أسّسوها. وبحسب الروايات، أنهم جمعوا من العمل الزراعـي ثـروات مهولـة مكنـتهم مـن أن يقـدّموا حزمـة ذهبيـة تقدمـة في دلفـي. ويـرون في تقـديم أبنـاء نيلـوس[41] قربانـاً للأطياف، برهاناً على أن البيلوسيين هم من أسّس المدينـة. ثـمّ دمّـر السـامنيتيون المدينـة. وبحسـب أنطـوخ أن بعـض الآخـين سـكنوا المكـان ثانيـة بعـد أن بـات مهجـوراً، وكـان هؤلاء قد تلقوا دعوة من أبناء قبيلتهم في سيباريس للسكن هنا. وكان الآخيون المنفيـون من لاكونيا قد دعـوهم إلى هنـا بسـبب كـرههم لجيرانهـم التـارانتيين، ولكـي لا يجـرؤ هؤلاء على مهاجمتهم. لقد كانت تقوم في المكان مدينتان[42]، ولكـن بمـا أن ميتـابونتي كانت هي الأقرب إلى تارانت، فقد أقنع السيباريون الوافدين بالاستيلاء على ميتابونتي.

لأنهم إذا ما امتلكوا هذه المدينة سيتمكنون عندئذٍ، كما زعموا، أن يسيطروا على سيريتيس أيضاً؛ أمّا إذا اتّجهوا إلى سيريتيس فإنهم سيضمون ميتابونتي إلى منطقة التارانتيين الموجودين على أطراف ميتابونتي. وفيما بعد، عندما قاتل الميتابونتيون التارانتيين والإينوتريين القاطنين في داخل البلاد، عقدوا اتفاق سلام معهم كان مشروطاً بالتنازل عن جزء من الأراضي التي باتت حدوداً لإيطاليا ويابيغيا آنئذ. وإلى هنا نقلت الأسطورة أيضاً، ميتابونتس[43]، وميلانيبا الحبيسة وابنها بيوتوس. ويبدو أن أنطوخ يعتقد بأن مدينة ميتابونتي كانت من قبل تدعى ميتاب، ثمّ تبدل اسمها بعد ذلك. أمّا ميلانيبا فلم يأتوا بها إلى ميتاب، بل إلى ديوس، وهذا ما يؤكّده معبد البطل ميتاب، والشّاعر آسيوس الذي يقول، إن بيوتوس:

وديوس ولدتهما في القصور، ميلانيبا الرائعة؛

وهكذا جاؤوا بميلانيبا إلى ديوس لا إلى ميتاب. أمّا مؤسّس ميتابونتي، فهو بحسب إيثور، دافليوس، طاغية كريسا الواقعة على مقربة من دلفي. وثمّة رواية أخرى تقول، إن لوكيبوس هو من أرسله الآخيون لتأسيس المستعمرة؛ وقد منح التارانتيون الأخير هذا المكان لنهار وليلة فقط، لكنّه لم يكن ينوي أن يعيده إليهم؛ فقد كان يقول لمن يأتيه نهاراً ويطالبه بإعادة الأرض، إنه طلب المكان لقضاء الليل فقط، ثمّ يقول لمن يأتيه ليلاً، إنه طلبه لقضاء النهار. ثمّ تأتي بعد ميتابونتي، تارانت ويابيغيا. وأنا أظنّ مبدئياً أنني سوف أتحدّث عنهما بعد أن أصف الجزر الواقعة أمام إيطاليا. فدأبي هو أنني بعد أن أصف أي قوم، أضيف إلى ذلك دوماً وصف الجزر المجاورة، وهذا ما سأفعله الآن، فبعد أن أصل إلى آخر إينوتريا (التي لم يدع الجيل السابق سواها باسم إيطاليا)، أرى من حقي أن أحافظ على هذا النظام نفسه، فأبدأ بوصف صقليا والجزر الواقعة حولها.

الفصل الثاني

1- لقد جاءت صقليا على شكل مثلث، ولذلك دعيت في الماضي، تريناكريا، ثمّ بدلت اسمها بعد ذلك إلى ثريناكيديس[1]. ويتحدّد شكل هذه الجزيرة بثلاث رؤوس: بيلوريادا الذي يشكّل مع كينيوس وعمود الريغيين مضيقاً، ثمّ باهين الممتدّ نحو الشرق؛ وهو يشاطئ البحر الصقلي ويتّجه نحو البيلوبونيز والمضيق البحري عند كريت؛ والرأس الثالثة، هي رأس ليليبيه، المجاورة لليبيا والمتجهة في الآن عينه نحو ليبيا والمطلع الشتوي للشمس[2]. وفيما يتعلّق بأضلاع [المثلث] التي تحتجز هذه الرأس، فإن اثنتين منها مقعرتان بعض الشيء؛ والثالثة الممتدّة من ليليبيه إلى البيلوبونيز محدّبة

[بقوة]؛ وهي الضلع الأكثر طولاً بين الأضلاع الثلاث، إذ يبلغ طولها 1700 مرحلة، كما يقول بوسيدونيوس، مع أنه يزيد 20 مرحلة أخرى. أمّا أقصر الأضلاع فهي الضلع المجاورة للمضيق وإيطاليا. وهي تمتدّ من بيلوريادا إلى باهين بطول يقارب 1300 مرحلة. ويحدّد بوسيدونيوس الخطّ البحري الذي يلتف حول الجزيرة بـ 4400 مرحلة. ولكنّ المسافات في الكوروغرافيا[3] تعدّ أكبر؛ فهي مجزأة إلى أقسام ومعكوسة في أميال. وعلى وجه التحديد، من بيلوريادا إلى ميلي 25 ميلاً؛ ومثلها من ميلي إلى تينداريدا؛ ثمّ إلى أغاثيرن 30 ميلاً، ومثلها إلى أليسا، ومرّة أخرى مثلها إلى كيثاليدس (وهذه المدن كلّها مدن صغيرة)؛ وإلى نهر هيميرا الذي يجري عبر مركز صقليا 18 ميلاً؛ ومن هناك إلى بانورم 35 و23- إلى إيمبوريوس الإيجيستيين؛ وأخيراً ما تبقى من المسافة إلى ليلييبيه 38 ميلاً، وإلى إيمبوريوس الأكراغانتيين 20 ميلاً و20 ميلاً أخرى إلى كامارينا؛ ثمّ إلى باهين 50 ميلاً. ومن هنا على امتداد الضلع الثالثة إلى سيراكوزا 36 ميلاً. ولكن الطريق البرية من باهين إلى بيلوريادا 168 ميلاً، ومن ميسينا إلى ليلييبيه على طريق فاليري 235 ميلاً. بيد أن بعضهم كإيثور مثلاً، يدلون برأي ملتبس: «الجولة البحرية حول الجزيرة تستغرق خمسة نهارات وخمس ليالي». أمّا بوسيدونيوس الذي يحدّ حدود الجزيرة «بالأقاليم»[4]، فيوضّع بيلوريادا إلى الشمال، وليلييبيه إلى الجنوب وباهين إلى الشرق. ولكن بما أن «الأقاليم» تنقسم إلى متوازيات أضلاع، فإنه من الضروري ألا تتوافق المثلثات المدرجة، مع الأقاليم[5] بسبب تقوّسها (المثلثات كلّها ليست متساوية الأضلاع، ومنها التي لا يتوافق أي ضلع من أضلاعها مع أيّ ضلع من أضلاع متوازي الأضلاع). ومع ذلك فإنه يمكن القول بحق، بخصوص «أقاليم» صقليا التي تقع إلى الجنوب من إيطاليا، إن بيلوريادا هي أقصى زاوية شمالية من الزوايا الثلاث. ولذلك فإن الخطّ المتدّ من بيلوريادا إلى باهين سيمتدّ باتجاه الشرق في الوقت الذي يكون فيه ممتداً [في الوقت عينه] نحو الشمال، ويشكّل أيضاً الضلع التي تتّجه نحو المضيق. وينبغي أن تتحرف هذه الضلع قليلاً باتجاه المطلع الشتوي[6] للشمس، لأنّ الخطّ الساحلي ينحني في مثل هذا الاتجاه إذا ما تقدّمت من كاتانا إلى سيراكوزا وباهين. والمعبر من باهين إلى مصبّ ألثييوس 4000 مرحلة. ولكن عندما يقول أرتيميدور، إن المسافة من باهين إلى تينار 4600 مرحلة، ومن ألثييوس إلى باميس 1130 مرحلة، فإنه يهيأ لي أنه يقدّم بذلك حجة التأكيد على أنه لا يوافق مع من يرى أن المسافة من باهين إلى ألثييوس 4000 مرحلة. وربّما كانت الضلع التي تمتدّ من باهين إلى ليلييبيه، والتي تقع بعيداً إلى الغرب من بيلوريادا، ربّما كانت نفسها تشكّل انعطافاً مهماً عن النقطة

الجنوبية[7] باتجاه الغرب وتتّجه في الوقت عينه نحو الشرق والجنوب[8]، مشاطئة في جزء منها البحر الصقلي وفي جزئها الآخر البحر الليبي الذي يمتدّ من منطقة قرطاجة إلى السرتين. ويشكّل أقصر معبر من ليليبيه إلى ليبيا في ضواحي قرطاجة، 1500 مرحلة. ويروى أن رجلاً حاد البصر وقف على نقطة مراقبة وأخبر سكّان ليليبيه بعدد السفن التي خرجت إلى البحر من قرطاجة[9]. والضلع الممتدّة من ليليبيه إلى بيلوريادا تنعطف بالضرورة نحو الشرق وتتّجه إلى المدى الممتدّ بين الغرب والشمال[10]، بينما تقع إيطاليا إلى الشمال، والبحر التيراني وجزر إيولوفيا إلى الغرب.

2- إن المدن الواقعة على الضلع التي تشكّل المضيق، هي أولاً، ميسينا، ثمّ تافرومينيا، وكاتانا، وسيراكوزا. واختفت ناكسوس[11] وميغارا[12] الواقعتان بين كاتانا وسيراكوزا حيث يقع مصبّ سيميف وكلّ الأنهار المنحدرة من إيتنا؛ وثمّة عند مصبّات الأنهار مراس جيّدة. وتقع هنا أيضاً رأس كسيفونيا البحرية. وبحسب إيثور أن هذه المدن كانت أولى المستوطنات الإغريقية التي أسّسها في صقليا الجيل الإغريقي العاشر بعد حرب طروادا. فإغريق الزمن الأقدم كانوا يخشون القراصنة التيرينسيين ووحشية البرابرة في هذه المنطقة، ولذلك لم يأت أحد إلى هنا بهدف التجارة. ومع أن ثيوكليس، الأثيني الذي حملته العاصفة البحرية إلى صقليا، لاحظ ضعف السكّان المحلّيين وخصوبة أراضيهم، لكنّه بعد أن عاد إلى دياره عجز عن إقناع الأثينيين. لقد أخذ معه كثيراً من الخلكيديين من إيبيوس، وعدداً من الإيونيين والدوريين (كان أكثرهم من الميغاريين)، وأبحر إلى صقليا. وهكذا أسّس الخلكيديون ناكسوس، والدوريون ميغارا التي كانت تدعى من قبل جيبلا. ولم يعد لهذه المدن وجود الآن، بقي فقط اسم جيبلا بفضل النوعية العالية للعسل الجيبلي.

3- وفيما يخصّ المدن التي سلمت على الضلع المذكورة، فإن ميسينا تقع في خليج رأس بيلوريادا الذي يتقوّس بعيداً نحو الشرق ليشكّل تجويفاً يشبه الإبط. ومع أن المسافة من ريغوس إلى ميسينا لا تشكّل سوى 60 مرحلة، لكنّها أقل بكثير إذا ما انطلقنا من عمود الريغيين. وميسينا أسّسها الميسينيون الذين جاؤوا من البيلوبونيز، وبدّلوا اسمها. فالمدينة كانت تدعى قبل ذلك زانكلا، لأنّ ساحلها ملتو (فكلمة zanklion[13] تعني شيئاً ما ملتوياً)؛ وفي الأول كان الناكسوسيون هم الذين أسّسوا هذه المدينة، وكان هؤلاء يعيشون قبل ذلك على مقربة من كاتانا؛ وفيما بعد سكن المدينة المامرتينيون، وهم إحدى قبائل كامبانيا. وكانت المدينة عند الرومان نقطة استناد لهم في الحرب الصقلية ضدّ القرطاجيين. وفيما بعد حشد سيكستون بومبيوس

أسطوله هنا في حربه ضدّ أغسطس قيصر؛ واضطر إلى الفرار من هنا أيضاً عندما طردوه من الجزيرة. وعلى مسافة غير بعيدة يعرضون أمام المدينة في المضيق إحدى الهاريبيدس[14]: اللجّة المريعة، التي تجذب تيارات المضيق المرتدة السفن التي تقذفها الأعاصير الجبّارة والدوامات المائية إليها. وعندما تبتلع اللجة السفن وتحوّلها الأمواج إلى حطام، فإن التيار يدفع الكسرات إلى شاطئ تافرومينيا الذي لهذا السبب سمّي كابري[15]. وقد تفوّق المامرتيون على الميسينيين، إلى درجة أنهم يتحكمون بالمدينة، وغالباً ما يدعو كلّهم سكّانها بالمامرتيين وليس بالميسينيين. وبما أن المدينة غنية جدّاً بالنبيذ، فإنهم لا يدعون هذا النبيذ ميسينياً بل مامرتياً، وهو ينافس أفضل أنواع النبيذ الإيطالي. وعدد سكّان المدينة كبير، لكنّه أقل من عدد سكّان كاتانا، لأنّ هذه الأخيرة استقبلت مستعمرين رومان. وعدد السكّان في تافرومينيا أقلّ مما في كلّ من هاتين المدينتين. وكاتانا أسّسها أولئك الناكسوسيون أنفسهم، بينما أسّس تافرومينيا الزانكليون من جيبلا. وقد سُلبت كاتانا مؤسيسها الأوائل عندما أسكن هيرون تيران سيراكوزا آخرين هناك ودعا المدينة إيتنا بدلاً من كاتانا[16]. كما يصفه بنداروس بأنه مؤسّس إيتنا، عندما يقول:

أصغ إلى كلماتي
القرابين المقدّسة[17]
للسميّ مؤسّس إيتنا

(*مقطع* 105، *بيرغك*)

ولكن بعد موت هيرون[18] عاد الكاتانيون إلى ديارهم، فطردوا السكّان ودمّروا قبر التيران[19]. أمّا الإيتنيون فبعد أن غادروا المدينة سكنوا منطقة إيتنا الجبلية، في إينيسا. وقد أطلقوا على هذا المكان الذي يبعد 80 مرحلة عن كاتانا اسم إيتنا وأعلنوا هيرون مؤسساً لها. وتقع إيتنا في الشطر الداخلي من البلاد، تماماً فوق كاتانا، وقد كانت الأكثر تعرضاً للحمم التي قذفتها البراكين النشطة. والواقع أن تيارات السائل البركاني تنطلق على مقربة من منطقة كاتانا. ويروون هناك قصة الوالدين الصالحين أمفينوم وأنابيوس اللذين عندما حلت الكوارث حملا والديهما على أكتافهما وأنقذاهما. وحسب بوسيدونيوس أنه في كلّ مرّة ينشط فيها البركان تغطي حقول الكاتانيين طبقة سميكة من الرماد البركاني. والحقيقة أن الرماد يسبب للبلاد الأذى لبعض الوقت، لكنّه على المدى الطويل يخدم صالحها؛ فهو يساعد على نموّ دوالي العنب وسواها من المحاصيل الرائعة الأخرى، بينما لا يعطي الشطر الآخر من

البلاد مثل هذا النبيذ الفاخر. ومن جذور [الغلال] التي تنمو في الحقول التي يغطيها الرماد البركاني، تغدو الأغنام، كما يقولون، سمينة إلى درجة أنها تنفق من فرط السمنة. ولذلك يلجؤون كلّ 4 إلى 5 أيام إلى فصد دمائها من آذانها، وهذا ما كنت قد تحدّثت عن مثله[20]، ففي منطقة أريثيا يفعلون الشيء نفسه. ولكن عندما يتصلّب السائل البركاني، فإنه يحوّل سطح الأرض بعمق كبير إلى صخر صمّ. ولذلك على من يرغب في شقّ سطح الأرض أولاً، أن يحفر في الصخر. فعندما تنصهر الصخور الجبلية في الفوهات البركانية ثمّ تقذف إلى سطح الأرض، فإن السائل الذي يسكب على القمة يشكّل طينة سوداء وينحدر إلى الأسفل عبر الجبال، ثمّ بعد أن يتصلب يتحوّل إلى صخرة صغيرة تحافظ على لون الحالة السائلة عينه. والرماد المتطاير أثناء احتراق الصخور يشبه ذلك الذي يتطاير لدى احتراق الخشب. وعلى النحو الذي يتغذى فيه نبات السدب برماد الخشب، كذلك رماد إيتنا له على أغلب الظنّ خاصيات تساعد جفنات العنب [على النمو].

4- لقد أسّس سيراكوزا آرخيوس الذي أبحر من كورينثوس في حوالي الوقت نفسه الذي تأسّست فيه المستوطنات في ناكسوس وميغارا. ويروى أنه في الوقت الذي وصل فيه ميسكيلوس إلى دلفي، وصل إليها آرخيوس أيضاً، وعندما سألا المتنبّئ، أجابهما الإله بسؤال: ما الذي يختارانه، الثروة أم الصحّة؟ فاختار آرخيوس الثروة، بينما اختار ميسكيلوس[21] الصحّة. وعلى هذا النحو مكّن الإله آرخيوس من تأسيس سيراكوزا، وميسكليوس من تأسيس كروتون. وما حصل فعلاً، هو أن الكروتونيين سكنوا في مدينة صحّية جدّاً (كما كنت قد أسلفت)[22]، بينما حقّقت سيراكوزا درجة من الثراء والبحبوحة جعلت ثراء سكّانها يذهب مثلاً، إذ يقول المثل: «لا يكفيه حتّى عشر ثروة السيراكوزيين». وعندما أبحر آرخيوس بعد ذلك إلى صقليا، ترك كيرسيكراتوس الذي من سلالة الهرقليين، مع فريق ممن كانوا معه ليساعدوه على استيطان كيركيرا المعاصرة، التي كانت تدعى من قبل سكيريا. ولكنّ كيرسيكراتوس طرد الليبورنيين الذين كانوا يسكنون الجزيرة؛ واستوطنها هو، أمّا آرخيوس فقد رسا في زيفيروس. وقد وجد هناك بعض الدوريين الذين جاؤوا من صقليا وتخلفوا عن أولئك الذين بنوا ميغارا. فأخذهم آرخيوس إليه وأسّس معهم سيراكوزا. ونمت المدينة وتطورت بفضل خصوبة تربتها ومواقع موانئها الملائمة. وقد ظهر أن سكّان سيراكوزا قادرون على إدارة شؤون الجزيرة، وحدث أنهم بينما كانوا خاضعين لسلطة التيرانية، سادوا على الآخرين، وإذ تحرّروا هم، حرّروا معهم أولئك الذين كانوا

يضطهدهم البرابرة. أمّا فيما يتعلّق بالبرابرة، فإن بعضهم كان من السكّان المحلّيين، بينما جاء الآخرون من البر المقابل. ولم يسمح الإغريق لأيٍّ كان بأن يستولي على الساحل، لكنّهم في الوقت نفسه كانوا عاجزين عن طردهم كلياً من المنطقة الداخلية. وحتّى الآن لا يزال السيكيليون، والسيكانيون، والمورجيتيون وبعض الآخرين يعيشون على الجزيرة؛ فقد كان بينهم أيضاً الإيبيريون الذين قال عنهم إيثور إنهم أوّل البرابرة الذين استوطنوا صقليا. وقد يكون المورجيتيون هم الذين أسّسوا مورغانتي. وكانت هذه [من قبل] مدينة، بيد أنه لم يعد لها الآن وجود. وبعد أن جاء القرطاجيون إلى الجزيرة لم تتوقف هجماتهم على البرابرة والإغريق، لكنّ السيراكوزيين قاوموهم. وفيما بعد طرد الرومان القرطاجيين من هناك واستولوا على سيراكوزا حصاراً. وفي زمننا هذا عندما تسبب بومبيوس بالأذى لمدن الجزيرة كلّها، ولسيراكوزا أيضاً، فإن أغسطس قيصر أرسل إلى هناك مستعمرين، وأعاد بناء عدد كبير من المستوطنات القديمة. وفي الزمن القديم كانت هذه هي المدن الخمس بتحصينات محيطها 180 مرحلة. ولم تكن هناك حاجة البتة لإعمار هذه الدائرة كلّها بالناس، لكنّه رأى أنه من الأفضل إعادة بناء الشطر المسكون، أي الشطر المجاور لجزيرة أورتيغيا التي شكّلت بحد ذاتها مدينة مهمّة من مدن المحيط. فأورتيغيا تقع على مقربة من البر، ويصلها به جسر. وفي الجزيرة ينبوع أريفوسا الذي يسكب مياهه في البحر مباشرة. وتروى حكاية أسطورية تقول: إن نهر أريفوسا، هو نهر ألثييوس الذي ينبع من البيلوبونيز، لكنّه يجري تحت الأرض عبر البحر حتّى أريفوسا ثمّ يصبّ من هناك في البحر ثانية. وللبرهان على هذا يسوقون وقائع على شاكلة ما يلي: ثمّة كأس ما سقطت في مياه النهر في أوليمبيا، وحملتها الأمواج إلى هنا، إلى هذا الينبوع؛ وزعموا أن مياه الينبوع تتعكر بسبب ذبائح الثيران التي تقدّم قرابين في أوليمبيا. وتبعاً لهذه الحكاية يقول بينداروس:

استراحة ألثييوس المقدّسة

نجل سيراكوزا الماجد، أورتيغيا

وبالتوافق مع بينداروس يؤكّد تيمييوس المؤرّخ الأمر نفسه. ولكن لو كان ألثييوس يهوي في هاوية ما، قبل أن يصبّ في البحر، لكان ثمّة احتمال ما، في أن النهر يعبر تحت الأرض ليجري حتّى صقليا محافظاً في أثناء سيره على مياهه العذبة غير مخلوطة بمياه البحر. ولكن بما أن مصبّ النهر مكشوف لدى دخوله مياه البحر، وليس هناك في المضيق البحري[23] أي فتحة ظاهرة[24] لتبتلع تيار النهر (مع أنه حتّى في

هذه الحالة لن تبقى مياه النهر عذبة تماماً على امتداد هذا المجرى كلّه، في أقل تقدير في القسم الأكبر، إذا ما جرى النهر في الأعماق عبر مجراه تحت الأرض)، فإن حصول هذه الظاهرة أمر مستحيل بالتأكيد. فمياه أريفوسا تؤكّد العكس، لأنها صالحة للشرب. وليس الزعم بأن التيارات النهرية إذ تقطع هذا الامتداد كلّه عبر مضيق بحري من غير أن تختلط بمياه البحر وصولاً حتّى مصبّها في مجرى سفلي مختلف، سوى هراء صرف. وواقع الأمر أنه بالكاد يمكننا أن نصدّق أن هذا حصل لنهر رودان الذي لا يخلط ماءه إذ يجري عبر البحيرة وجريانه ظاهر للعيان، ولكن حتّى المسافة هناك ليست كبيرة، والبحيرة هادئة، أمّا هنا عند صقليا، حيث تحدث عواصف رهيبة وتندفع أمواج عاتية؛ إنها قصة مستحيلة. وقصة الكأس تجعل اللامعقولية أقوى، لأنّ الكأس بحدّ ذاتها لا تتبع مجرى أي نهر بسهولة، فما بالك بنهر يجري هذه المسافة الطويلة كلّها عبر مثل هذه المضائق. وغني عن البيان القول، إن أنهاراً كثيرة تجري تحت الأرض في كثير من بلدان العالم، ولكن ليس هذه المسافة الطويلة كلّها. وحتّى لو كان هذا ممكناً. فإن الحكاية الواردة أعلاه مستحيلة، وهي تذكرنا بأسطورة إيناخوس. يقول سوفوكليس:

... ينحدر من القمم البيندوفية

ومن لاكمون، ومن مملكة البيريبيين.

إلى الأمفيلوخيين والأكارنانيين

تياراته تخالط الأخليوسية

ثمّ يقول بعد قليل:

ومن هنا إلى آرغوس، يفلق الأمواج،

وإلى أطراف شعب ليركيه يجري

(سوفوكليس. دراما نقدية. مقطع 249، ناؤوك)

ومثل هذه الحكايات يشيعها الكتّاب الذين ينقلون إينوبس من نيلوس إلى ديلوس. ويلوم زويلوس البلاغي المعروف، يلوم هوميروس على إنشائه الأساطير، ويؤكّد في «مديحه للتيندوسيين» أن ألثييوس يجري من تينيدوس. وبحسب إيفيكوس أن أسوبوس في سيكيون، يجري من فريجيا. ولكنّ الإشارة الأصح، هي إشارة هيكاتوس الذي يقول، إن نهر إيناخوس في منطقة الأمفيلوخيين، والذي يجري من لاكمون (ومن هناك ينبع إيانتوس أيضاً)، يختلف عن نهر آرغوس، وقد منحه اسمه

هـذا، أمفيلوخـوس نفسـه الـذي أعطـى مدينـة آرغـوس الأمفيلوخيـة اسمهـا. وحسـب هيكاتوس، إن إيناخوس هذا يصبّ في أخيلوس، أمّا إيانتوس فإنه يجري في أبوللونيا غرباً. وعلى جانبي جزيرة أورتيغيا ميناءان كبيران، والأكبر منهما امتداد محيطه 80 مرحلة. وقد أعاد قيصر بناء هذه المدينة وكاتانا، كما أعاد أيضاً بناء كينتوريبا التي سهلت له كثيراً تحقيق النصر على بومبيوس. وتقع كينتوريبا فوق كاتانا على الحدود مع جبال إيتنا ونهر سيميف الذي يجري في منطقة كاتانا.

5- أمّا فيما يخصّ ضلعي صقليا الأُخريين، فإن الضلع التي تمتدّ من باهين إلى ليليبيه مهجورة تماماً، على الرغم من بقاء بعض أطلال المستوطنات القديمة، ومنها مستوطنة كامارينا، وهي مستعمرة للسيراكوزيين. ولكنّ أكراغينت (التي كانت مستعمرة سكّان جيلا) ومرساها، وكذلك ليليبيه لا تزالان على قيد الحياة. وبما أن هذه المنطقة عانت كثيراً من هجمات قرطاجة، فإن الشطر الأكبر منها دمّرته الحروب الطويلة المتواصلة. وآخر أضلاع صقليا وأطولها، مسكونة، وإن تكن كثافة سكّانها ضعيفة، إلا أنها كافية. وتقع هنا مدن صغيرة مثل: أليسا، وتينداريدا، وإيمبوريوس الإيجيستيين، ووكيثاليدس: أمّا في بانورم فثمّة مستعمرة رومانية. ويروى أن مرافقي فيلوكتيتيس هم الذين أسّسوا إيجيستيا بينما كانوا في طريقهم إلى منطقة كروتون (كما أشرت في وصفي لإيطاليا)[25]. وكان فيلوكتيتيس قد أرسلهم إلى صقليا تحت قيادة إيجيستوس.

6- وفي داخل البلاد تقع مدينة إينّا (حيث يقوم معبد ديميترا)، التي ليس فيها سوى عدد قليل من السكّان. وتقع المدينة على هضبة تحيط بها تلال فسيحة صالحة للعمل الزراعي. وقد عانت إينّا أكثر ما عانت من إيفنوس وعبيده الفارّين الذين حوصروا هناك ولم يتمكّن الرومان من القضاء عليهم إلا بصعوبة. والمأساة عينها حلّت بسكّان كاتانا وتافرومينيا وبعض المدن الأخرى. كما جرى أيضاً استيطان إريكس، وهي هضبة عالية يقوم فوقها معبد لأفروديت يحظى بأعظم تبجيل. وفي الزمن القديم كان المعبد مليء بالإماء المعبديات اللواتي كرّسهن سكّان صقليا تقدمات نذروها للمعبد، كما كان يفعل ذلك كثير من الغرباء أيضاً. ولكنّ المعبد وكذلك المستوطنة[26]، باتا الآن خاويين، وترك المعبد حشد الخدم الذي كان مقيماً فيه. ويوجد في روما معبد، هو نسخة طبق الأصل عن معبد هذه الآلهة، ويدعى هنا معبد فينوس إيريكينا، وهو يقوم أمام البوابات الكوللينية، وله رواق يحيط به. أمّا باقي المستوطنات[27]، والشطر الأكبر من المنطقة الداخلية، فقد باتا ملكية للرعاة. فعلى

حدّ علمي أن هيميرا، وجيلا، وكالليبوليس، وسيلينونت، وإيبيوس وبعض الأماكن الأخرى، لم تعد مسكونة. ومن هذه المدن أسّس الزنكليون الذين جاؤوا من ميلي، مدينة هيميرا؛ وأسّس الناكسوسيون كالليبوليس، وميغاريوّ ميغارا الصقلية سيلينونت، وأخيراً أسّس الليونتينيون إيبيوس. كما دمّر كثير من مدن البرابرة، كمدينة كاميكي، مقرّ الملك كوكال الذي تقول الرواية، إن مينوس قتل عنده غدراً. وإذ لاحظ الرومان خلوّ البلاد، شغلوا المناطق الجبلية فيها والشطر الأكبر من سهولها، وأعطوا هذه الأماكن ملكاً لمربي الخيول، ورعاة الثيران، ورعاة الأغنام. ولم يكن من النادر أن يضع هؤلاء الرعاة الجزيرة في وضع شديد الخطورة: في بادئ الأمر مارس هؤلاء السلب والنهب وقطع الطرقات فرادى، ثمّ أخذوا يتجمّعون في عصبات تنهب القرى. مثلاً: عندما استولى إيفنوس ومن معه على إينا. ومنذ زمن قريب، في أيامنا هذه، سيق إلى روما المدعو سيلور الملقب «ابن إيتنا» الذي كان يقود عصابة مسلحة أنهكت ضواحي ايتنا بغزواتها. وأنا رأيت بأمّ العين كيف مزقته الكواسر أثناء الاحتفال الذي نظم فيه قتال الكواسر. لقد وضعوا المجرم قاطع الطريق على منصة عالية، ترمز إلى إيتنا؛ وفجأة انهارت المنصة، وسقط المجرم في قفص الكواسر الذي وضع تحت المنصة التي تحطمت بسهولة لأنها بنيت أصلاً ضعيفة لتحقّق هذا الغرض.

7- ومن المفيد أن نتحدّث عن خصوبة هذه البلاد التي نالت مديح جميعهم، والتي يقال إنها ليست أقل من إيطاليا. بل يمكننا القول، فيما يخصّ الحبوب، والعسل، والزعفران وبعض الغلال الأخرى، إن صقليا تتفوّق على إيطاليا. وما يواتي هذا أيضاً موقع الجزيرة على مقربة. فهذه الجزيرة تعدّ بصورة ما جزءاً من إيطاليا، وهي تزوّد روما بشتّى السلع من غير أيّ صعوبات تذكر، بحيث يبدو كأن هذه السلع آتية إليها من حقول إيطاليا. ومن المعروف أن صقليا تسمى مخزن روما، لأنّ السلع كلّها، ما خلا بعضها الذي يستهلك محلّياً، تنقل إلى روما. ولا ينسحب هذا على الغلال فقط، بل يشمل المواشي، والجلود، والصوف، و... وبحسب بوسيدونيوس أن سيراكوزا وإريسك قد شيدتا على البحر كحصنين، بينما ترتفع إينا بينهما فوق السهول المحيطة. كما نهبت المنطقة الليونتينية التي كان يملكها الناكسوسيون. ومع أن الليونتينيين كانوا دائماً يشاركون السيراكوزيين أحزانهم، إلا أنهم لم ينالوا دائماً نصيبهم من أفراحهم.

8- وعلى مقربة من كينتوريب تقع مدينة إيتنا التي ذكرناها قبل قليل، وسكّان هذه يستقبلون ويودعون الذين يصعدون الجبل، لأنّ قمّة هذا الأخير تبدأ هنا. وقمّة الجبل هذه خالية من النباتات ويغطيها الرماد، أمّا في الشتاء فتكسوها الثلوج،

بينما تنقسم المناطق السفلى إلى غابات، ومناطق تغطيها شتّى أنواع المزروعات. ويبدو أن قمة الجبل تتعرض لتبدّلات متكررة يسببها انتشار النار التي تلتقي أحياناً في فوهة واحدة، وتتوزّع أحياناً أخرى على كثير من الفوهات، وتنطلق في غضون ذلك تيارات من السائل البركاني أحياناً، ولهب وسحب من الدخان أحياناً أخرى، بل تنطلق بين وقت وآخر كتل من المعدن المتوهج. وبفعل هذه الظاهرات ينبغي أن تتغيّر في الوقت نفسه الممرّات الجوفية، وتظهر على سطح الجبل حول الفوهة فتحات كثيرة في بعض الأحيان. وعلى أي حال فإن الذين صعدوا مؤخراً إلى الجبل نقلوا لي الرواية الآتية. لقد اكتشفوا على القمة سهلاً أملس يقارب امتداد محيطه 20 مرحلة. والسهل محاط بمرتفع من الرماد لا يتجاوز ارتفاعه ارتفاع سياج صغير، وكان على من يرغب دخول السهل أن يقفز من فوق هذا السياج. ورأى الزوار في وسط السهل هضبة[28] رمادية اللون، مثلها مثل سطحها الذي يرى من فوق؛ وكانت تقف ساكنة فوق الهضبة، سحابة يقارب ارتفاعها 200 قدم (لأنه لم تكن هناك ريح)، تشبه الضباب. فقرر اثنان منهما أن يدخلوا السهل، ولكن حينما غدت الرمال التي يسيران عليها أشد سخونة وعمقاً، عادا أدراجهما ولم يستطيعا أن يخبرا أي شيء مختلف عمّا رآه المراقبون عن بعد. وقد افترضوا أنه على أساس مثل هذه المشاهدات ظهر كثير من الروايات الخيالية، خاصة من نوع تلك التي يروونها عن إيمبيدوكلس: لقد زعموا أنه قفز في فوهة البركان وترك أثراً يدل على ذلك الحدث، وهو فردة حذائه النحاسي، التي زعموا أنه عثر عليها وقد قذفت بها النار على أطراف الفوهة. ولكنّ الاقتراب من هذا المكان فعلاً أو رؤيته، أمر غير ممكن؛ فافترضوا أنه لا يمكن رمي أيّ شيء في الفوهة بسبب الريح المواجهة التي تهبّ من الأعماق، وشدّة الحرارة التي من المؤكد أنها تلفح من بعيد قبل أن يقترب المرء من الفتحة بمسافة طويلة. ولكن حتّى لو رمينا شيئاً ما في فوهة البركان، فلا ريب في أنه سينصهر قبل أن يقذف عائداً بالشكل الذي كان عليه سابقاً. والحقيقة أنه ليس هناك ما هو مستغرب في أن تتوقف الرياح والنيران بعد أن تنفذ المادّة الملتهبة، ولكنّ الذي لا ريب فيه، هو أن هذا لا يحصل بدرجة تسمح للإنسان الذي يصارع مثل هذه القوّة العاتية،أن يدنو إلى مسافة قريبة. والحقيقة أن إيتنا تعلو فوق الساحل أكثر مما عند المضيق وفي منطقة كاتانا، لكنّها تعلو كذلك فوق الساحل على طول البحر التيراني، وتعلو فوق الجزر الليبارية. ومع أن القمة تسطع ليلاً بضوء ساطع، إلا أن الدخان والظلام يلفانها نهاراً.

9- وترتفع قبالة إيتنا جبال نيبرودا، ولكنّها في الحقيقة أدنى من إيتنا، بيد أنها

أعرض منها بكثير. والجزيرة كلّها من الداخل تحت الأرض جوفاء؛ فهي مليئة بالأنهار الجوفية والنيران، مثلها في هذا مثل البحر التيراني وصولاً إلى منطقة كوما، وهو ما تحدّثت عنه سابقاً[29]. وعلى أيّ حال فإن أماكن كثيرة في الجزيرة تنبثق فيها ينابيع مياه حارّة؛ ومن هذه الينابيع ينابيع المياه المالحة في سيلينونت وهيميرا، ولكنّ الينابيع الإيجيستية مياهها صالحة للشرب. وتقع في ضواحي أكراغينت بحيرات طعم مياهها كطعم مياه البحر، لكن لها طابعاً خاصاً؛ فحتّى الذين لا يعرفون السباحة قط، لا يغرقون في مياهها، بل يطفون على سطحها كما تطفو الأخشاب. وثمّة عند بحيرة باليكي فوهات تقذف مياهاً على سطح مسيل مقبب ثمّ تبتلعها من جديد في التجويف نفسه. وفي كهف يقع عند ميتاور[30] ممرّ جوفي مهول، يجري عبره نهر غير مرئي لمسافة طويلة، ثمّ يندفع بعد ذلك إلى السطح كنهر العاصي في سوريا[31]، الذي يهوي في هاوية سحيقة (تدعى هاريبدس، تقع بين أفاميا وأنطاكيا)، ثمّ يظهر ثانية بعد 40 مرحلة. وتحدث مثل هذه الظاهرات على نهر دجلة[32] في وادي الرافدين، ونهر النيل في ليبيا على مقربة من مصبّيهما. وفي منطقة ستيمفاليا[33] تجري المياه تحت الأرض مسافة 200 مرحلة، ثمّ تخرج إلى السطح في منطقة آرغوس نهراً يدعى إراسين؛ وبعد ذلك تختفي مرّة أخرى تحت الأرض على مقربة من آسيا الأركادية، وتعود أخيراً لتظهر بعد مسافة طويلة نهرين هما نهر إيفروت ونهر ألثييوس. ولذلك فإن هناك من يصدّق الرواية الخيالية التي تقول: إذا مارمي إكليلان تقدمة للنهرين في مجرى واحد، فإن كلّ إكليل سيتّجه إلى النهر الذي كرّس له. وأنا كنت قد تحدّثت عمّا يروون في هذا السياق عن نهر تيماف[34].

10- وتشبه هذه الظاهرات والظاهرات التي تحدث في صقليا، ظاهرات نقف عليها في الجزر الليبارية وفي ليبارا نفسها. وعدد هذه الجزر 7 جزر. أكبرها ليبارا (وهي مستعمرة الكنيديانيين)، وهي الأقرب إلى صقليا بعد ثرميسّا. وكانت ليبارا تدعى من قبل ميليغونيس. وكانت تملك أسطولاً قاومت به زمناً طويلاً غزوات التيرينيين، لأنها كانت تفرض سيطرتها على ما يدعى بالجزر الليبارية التي يدعوها بعضهم بالجزر الإيولوفية. زد إلى هذا أن ليبارا غالباً ما كانت تزخرف معبد أبوللون في دلفي بتقدمات من أفضل أجزاء الغنائم الحربية. والجزيرة تربتها خصبة؛ وبين ليبارا وصقليا تقع ثرميسّا التي يدعونها الآن هييرا هيفيستا[36]، والجزيرة كلّها حجرية لا يسكنها أحد، وهي مليئة بالنيران الجوفية؛ وعليها ثلاثة تيارات نارية تبدو كأنها ترتفع من ثلاث فوهات بركانية. ومن أكبر الفوهات تقذف النيران كتلاً متوهجة ملأت الشطر الأكبر من المضيق. وبناء على المشاهدات يفترضون أن اللهب هنا وفي إيتنا يزداد قوّة

بتأثير الرياح، وعندما تهدأ الرياح يختفي اللهب أيضاً. ولا يفتقر هذا إلى الأسس، لأنّ الرياح تنشأ عن أبخرة البحر، وإذ تهبّ فإن هذه تحفزها؛ ولذلك فإن من قُدّر له أن يشاهد مثل هذه الظاهرات لو مرّة واحدة، لن يستغرب أن النار أيضاً، تشتعل بتأثير مادّة أو ظاهرة شبيهة. وبحسب بوسيدونيوس أن إحدى الفوهات قد تهدّمت جزئياً، أمّا الفوهات الأخرى فلا تزال موجودة؛ ويصل امتداد الأطراف المستديرة لأكبر الفوهات 5 مراحل، إلا أنها تتضيق تدرجاً حتّى يصل قطرها 50 قدماً. ويبلغ ارتفاع هذه الفوهة من القمة حتّى مستوى سطح البحر مرحلة واحدة، وهكذا فإن الفوهة تظهر من البحر للعين المجرّدة إذا لم يكن الطقس عاصفاً بالرياح. وإذا كانت هذه المعلومات صحيحة بما يكفي، فربّما ينبغي عندئذٍ أن نصدّق الرواية الأسطورية عن إيمبيدوكلس(37).
ويواصل بوليبيوس قائلاً: عندما تهب الريح الجنوبية، يلف الجزيرة من جهاتها كلّها سديم ضبابي يجعل من المتعذّر تمييز حتّى صقليا من بعيد؛ وعندما تبدأ الريح الشمالية، يصعد من الفوهة المذكورة لهب، وتتزايد شدّة الدوي الآتي من هناك؛ ولكن عندما تهب الريح الغربية تحل حالة من الاعتدال. وعلى الرغم من أن الفوهتين الأخريين لهما شكل الفوهة الأولى عينه، إلاّ أن مقذوفاتهما أقلّ شدّة. وعلى هذا النحو فإننا نستطيع تبعاً لشدّة الدويّ والمكان الذي يبدأ منه الانفجار، [ويظهر] اللهب وسحابة الدخان، أن نتوقع اتجاه الريح في اليوم الثالث بعد هذا(38). وعلى أي حال، بحسب بوليبيوس أن بعض سكّان الجزر الليبارية يقدرون الاتجاه الذي ستتخذه الريح من غير أن يخطئوا، ولكن بعد أن يحلّ أوان ملائم للإبحار. ولذلك يغدو واضحاً أن قول هوميروس الذي يعدّ القول الأكثر خيالية، لم يقله الرجل عبثاً؛ فالشّاعر يلمّح إلى حقيقة عندما يدعو إيولس «سيّد الرياح»(39). وأنا كنت قد تحدّثت من قبل(40) بالتفصيل عن هذا. ونحن يمكننا أن ندعو اهتمام هوميروس بهذا الوصف الحي [....](41). لأنهما ظاهران للعيان في مركّب [ملحمته] وفي الوصف الحيّ. وفي الأحوال كلّها فإن المتعة من هذا وذاك عينها. ولكن ينبغي عليّ أن أعود إلى الموضوع الذي حوّلت عنه.

11- لقد تحدّثت عن ليبارا وثرميسّا. أمّا سترونغيلا فإنها تدعى بهذا الاسم بسبب شكلها(42). وهذه الجزيرة بدورها مليئة بالنيران الجوفية؛ والحقيقة أن شدّة لهبها أضعف، لكنّ سطوعه أقوى من سطوع الضوء. ويروى أن إيولس كان يقيم هنا. أمّا الجزيرة الرابعة فهي جزيرة ديديما، التي على النحو نفسه حملت اسمها تبعاً لشكلها(43). ومن الجزر الأخرى، حملت اسمها تبعاً لعالم النبات فيها كلّ من أريكوسا(44)، وثينيكوسا(45)، وقد كرّست الجزيرتان مرعى للمواشي. والجزيرة السابعة، هي جزيرة إيفونيم(46) الواقعة أبعد من الأخريات في عرض البحر، وهي جزيرة

غير مسكونة. وقد دعيت إيفونيم باسمها هذا لأنها تقع على يمين المبحرين من ليبارا[47] إلى صقليا. ولم تكن نادرة رؤية اللهب المتراكض على سطح البحر حول الجزيرة، عندما كان يفتح مخرج ما من الجوف في عمق الأرض وتندفع النيران بقوة إلى السطح. ويروي بوسيدونيوس من ذاكرته، أنه في الصباح الباكر، في حوالي وقت الانقلاب الشمسي الصيفي، كان يمكن أن ترى كيف ارتفع البحر بين هييرا وإيفونيم إلى علوّ مخيف. وبقي على حاله تلك لبعض الوقت يقذف النار بشكل متواصل، ثمّ يعود إلى هدوئه المعتاد. ولما رأى الشجعان الذين أبحروا إلى الجزيرة سمكة ميتة جرفها التيار (بعضهم دحره القيظ والنتانة)، فرّوا هاربين. ومع ذلك فإن أحد القوارب دنا أكثر، ففقد عدداً من بحارته، وبالكاد نجح الآخرون في الوصول إلى ليبارا؛ وكان هؤلاء يفقدون وعيهم تارة كالمصروعين، ويستردونه تارة أخرى. وبعد أيام كثيرة كان يمكن أن ترى النفايات عائمة على سطح البحر، وفي أماكن كثيرة كان البحر ينفث لهباً، ودخاناً وسخاماً؛ ثمّ تصلبت النفايات بعد وقت وباتت تشبه حجراً طوله ميل. وقد أخبر تيتوس فلامينوس[48] سينات روما بهذا الحدث. فأرسل السينات سفارة لتقديم قرابين الاسترضاء لآلهة العالم السفلي وآلهة البحر في الجزيرة والجزر الليبارية. وبحسب كوروغراف أن المسافة من أريكودا إلى ثينيكودا 10 أميال، ومن هنا إلى ديديما 30 ميلاً، ومن هنا إلى ليبارا في الشمال 16 ميلاً، وأخيراً من هناك إلى صقليا 19 ميلاً، ولكنّ المسافة من سترونغيلا 16 ميلاً. وأمام باهين تقع ميليتا (ومنها يأتون بالكلاب الصغيرة التي تدعى ميليتية)، وغاود؛ ويقع هذان الموقعان على بعد 88 ميلاً من هذه الرأس. وتقع كوسورا أمام ليليبيه، وأمام أسبيدا، وهي مدينة قرطاجية (تدعى أيضاً كلوبيبا) تقع بين هذين الموقعين على المسافة التي أشرنا إليها آنفاً[49]. وأمام صقليا وليبيا تقع أيضاً إيغيمور والجزر الصغيرة الأخرى. إن هذا هو وصفي لهذه الجزر.

الفصل الثالث

1- بعد أن وصفنا أقاليم إيطاليا القديمة[1] حتّى ميتابونتي، يجدر أن نتحدّث عن البلدان المجاورة لها. فمن البلدان المجاورة لها، يابيغيا التي يدعوها الإغريق ميسابيا، ويقسمها السكّان المحلّيون إلى شطرين، فيدعون شطراً منها باسم بلاد السالينتينيين (عند رأس يابيغيا)، والثاني باسم بلاد الكالابريين. وإلى الشمال أعلى من الأخيرة يعيش البيفكيتيون والدافنيون، كما يدعونهم بالإغريقية؛ ويدعو السكّان المحلّيون البلاد الواقعة وراء المنطقة الكالابرية، أبوليا. كما يدعى بعضهم بيديكاليين، غالباً البيفكيتيون. وتمثل ميسابيا ما يشبه شبه الجزيرة، لأنها محاطة ببرزخ يمتدّ من

برينتيسي حتّى تارانت بطول 310 مراحل. ويشكّل الخطّ البحري من هنا وحول رأس يابيغيا ما يقارب 400 مرحلة[2]. والمسافة من هناك إلى ميتابونتي حوالي 220 مرحلة، والطريق تمتدّ باتجاه مطلع الشمس. ومع أن خليج تارانت كلّه خال بأكثر أجزائه من الموانئ، إلاّ أن ميناء كبيرة جدّاً وجميلة، تقع هنا على مقربة مباشرة من المدينة نفسها، ويصلها بها جسر كبير؛ ويبلغ امتداد محيط هذه الميناء 100 مرحلة. وعلى الجانب المجاور للقسم الأقصى من الخليج، تشكّل الميناء مع البحر الخارجي برزخاً، ولذلك فإن المدينة تقع على شبه جزيرة، ومن السهل جرّ السفن من الجانبين، لأنّ البرزخ يقع في مكان منخفض. وليس القطاع الذي تقوم عليه المدينة منخفضاً، إلا أنه يرتفع قليلاً عند الأكروبوليس. وامتداد محيط السور كبير، ولكنّ الشطر الأكبر من المدينة (الشطر الذي عند البرزخ) مهجور الآن؛ بيد أن الشطر الواقع عند مدخل الميناء، حيث يقوم الأكروبوليس، لا يزال سليماً ويشكّل من حيث أبعاده، مدينة كبيرة. وفي المدينة جمنازيوم فخم، وسوق ذو مساحة رحبة يقوم فيه تمثال برونزي ضخم للإله زيوس، إنه تمثاله الأكبر بعد التمثال الموجود في رودوس. وبين مساحة السوق ومدخل الميناء يقع أكروبوليس وفيه بقايا منشآت تقدمات بسيطة زينوه بها قديماً. فقد دمّر القرطاجيون الجزء الأكبر منها بعد أن استولوا على المدينة، وحمل الرومان الجزء الآخر غنيمة حربية عندما اقتحموا المدينة وأخذوها[3]. ومن الغنائم التي حملها الرومان من تارانت، تمثال برونزي مهول لهرقل صنعه ليسيبوس، ويقوم التمثال الآن فوق الكابيتول بعد أن كرّس لفابيوس مكسيموس الذي استولى على المدينة.

2- وفي حديثه عن تأسيس المدينة، يقول أنطوخ، إنه بعد بدء الحرب الميسينية أعلن اللاكيديمونيون أولئك الذين تقاعسوا عن المشاركة فيها عبيداً ودعوهم إيللوت؛ وأطلقوا على كلّ الأطفال الذين ولدوا أثناء الحرب تسمية بارثينيين، وحرموهم من حقوق المواطنية. لكنّ هؤلاء الأخيرين لم يطيقوا هذا، وبما أن أعدادهم كانت كبيرة، فقد دبروا مؤامرة ضدّ المواطنين الأحرار. ولما علم هؤلاء بالمؤامرة، دسّوا عدداً من الأشخاص اتخذوا صفة الصداقة لكي يكتشفوا خطّة المؤامرة. وكان بين المتآمرين المدعو ثالانثوث، وقد عدّ هذا قائداً لهم، لكنّه لم يكن راضياً على وجه العموم عن الذين اختيروا للمشاركة في المجلس [مجلس المتآمرين]. لقد تقرر تنفيذ الهجوم على عيد الهياكينثوس في معبد أبوللون الأميكلي أثناء الاحتفال بالألعاب، عندما يرتدي ثالانثوث قبعة جلدية (كان يمكن تمييز المواطنين بشعرهم الطويل). ولكن عندما أفشى ثالانثوث ومناصروه سرّاً خطّة المتآمرين، وعندما كانت الألعاب قد بدأت، خرج مناد ومنع ثالانثوث من ارتداء القبعة الجلدية. وهنا أدرك بعض المتآمرين

أن مؤامرتهم قد اكتشفت ففروا هاربين، أمّا الآخرون فقد أخذوا يتوسلون العفو والرأفة. فأمر المواطنون بالحفاظ على الهدوء ووضعوهم تحت الحراسة، أمّا ثالانثوث فقد أرسلوه إلى معبد الإله[4] ليسأله تأسيس مستعمرة. فأجابه الإله:

منحتك ساتيريون وحقول تارانت الخصبة،

لكي، بعد أن تسكن هناك تغدو هولاً على اليابيغيين.

وهكذا مضى البارثينيون إلى هناك مع ثالانثوث فاستقبلهم البرابرة والكريتيون الذي كانوا يملكون هذه المنطقة من قبل. ويقال، إن هؤلاء كانوا الكريتيين الذين أبحروا إلى صقليا مع مينوس، وبعد موته في منزل كوكال كاميكي تركوا صقليا. وفي طريق العودة[5]، حملتهم العاصفة بعيداً عن الطريق، مع أن بعضهم طاف برّاً حول البحر الأدرياتيكي ووصل إلى مقدونيا حيث دعوهم بالبوتيين. ويقال أيضاً، إن الأقوام كلّها حتّى دافنيا كانت تدعى يابيغية تيمناً بيابيغوس الذي أنجبته لديدالوس امرأة كريتية وكان قائداً للكريتيين. أمّا تارانت فقد حملت اسم بطل ما.

3- ويروي إيثور عن تأسيس المدينة القصة الآتية: لقد أعلن اللاكيديمونيون الحرب على الميسينيين لأنّ هؤلاء قتلوا ملكهم تيليكلوس عندما جاء إلى ميسينا لكي يقدّم قرباناً. فأقسم اللاكيديمونيون بألاّ يعودوا إلى ديارهم إلاّ بعد أن يستولوا على ميسينا كلّها أو يهلكوا في ساحات القتال. وإذ أعدوا حملتهم ومضوا تركوا وراءهم الفتيان وكبار السن لحماية المدينة. ولكن فيما بعد، في العام العاشر للحرب اجتمعت النسوة اللاكيديمونيات وأرسلن عدداً منهن إلى الرجال لينقلن لهم سخطهن من أنهم يحاربون الميسينيين في ظروف غير متكافئة (لأن الميسينيين إذ يحاربون على أرضهم وفي ديارهم، يستطيعون أن ينجبوا أطفالاً، بينما هم الذين تركوا زوجاتهم أرامل، يقيمون في معسكرات على أرض معادية). ولذلك فإنه ثمّة خطر من أن تعاني البلاد نقصاً في الرجال. عندئذٍ، وبما يتوافق والتزامهم بالقسم، قبل اللاكيديمونيون حجج النسوة وأرسلوا المقاتلين الأقوى والأكثر فتوّة (لأن هؤلاء المقاتلين الفتيان لم يكونوا ملزمين بالقسم، لأنهم كانوا عندئذٍ لا يزالون أطفالاً صغاراً عندما شاركوا في الحملة مع رجال بلغوا طور الرجولة). ثمّ أمروا كلّ رجل أن يعاشر فتاة، عادّين أنه على هذا النحو سيكون عندهم كثير جداً من الأطفال. وبعد أن تمّ تنفيذ هذا الأمر، حمل المواليد الجدد اسم بارثينيين. أمّا فيما يخصّ ميسينا، فقد تمّ الاستيلاء عليها بعد حرب استمرّت تسعة عشر عاماً، كما يقول تيرتيوس:

لقد تقاتلوا من أجلها عشرين عاماً إلاّ واحداً

بروح قوية كان الرماحون دائماً صامدين في القتال،

الآباء الظافرون لآبائنا.
فقط في العام العشرين أخلى حقوله الخصيبة،
وهرب العدوّ من قمم جبال إيثوما الشاهقة.

(مقاطع 3، 4، 5)

لقد قسم اللاكيديمونيون ميسينا فيما بينهم، لكنّهم بعد أن عادوا إلى ديارهم لم يمنحوا البارثينيين حقوق المواطنية عينها، لأنهم لم يولدوا من زواج شرعي. عندئذٍ اتحد البارثينيون مع الإيللوت وحاكوا مؤامرة ضدّ اللاكيديمونيين واتّفقوا على رفع القبعة اللاكيديمونية في ساحة السوق إشارة لبدء الهجوم. ومع أن بعض الإيللوت أفشوا خطط المتآمرين، إلاّ أن اللاكيديمونيين أدركوا أنه يصعب عليهم أن يردّوا بدورهم بهجوم، لأنّ الإيللوت كثيرو العدد، وموحدو الرأي، لأنّ بعضهم عدّ بعضاً إخوة. لذلك أمروا الذين كان ينبغي أن يرفعوا الإشارة، بمغادرة ساحة السوق. وحين رأى المتآمرون أن مؤامرتهم قد اكتشفت، امتنعوا عن الهجوم؛ ونجح اللاكيديمونيون بإقناعهم بوساطة آبائهم، أن يعتزلوا البلاد ويؤسّسوا مستعمرة، ولكن بشرط أنهم إذا شغلوا المكان الذي يرضيهم، يجب أن يبقوا فيه؛ وفي حال عادوا عليهم أن يتقاسموا فيما بينهم خمس ميسينا. وهكذا هاجروا، وإذ أدركوا الآخيين في حرب مع البرابرة، شاركوهم مخاطرها، ثمّ أسّسوا تارانت.

4- وفي زمن ما، عندما عاش التارانتيون في ظل إدارة ديمقراطية، امتلكوا قوّة جبّارة لأنهم كانوا يملكون الأسطول الأكبر في المنطقة، ويجندون قوات من المشاة قوامها 30.000 مقاتل، ومن الفرسان 3000 فارس، و1000 «من قادة» الفرسان. وقد صاروا إلى أنصار للفلسفة الفيثاغورسية، خاصة أرخيت الذي حكم تارانت زمناً طويلاً. ولكن فيما بعد، وبسبب ازدهار المدينة، بلغ البذخ فيها مستويات جعلت أيام الاحتفالات الشعبية العامّة أكثر من أيام [العمل] في العام. وبسبب ذلك ساءت إدارة المدينة. ومن البراهين التي تؤكّد على حماقة الإدارة عندهم، أنهم استخدموا الغرباء قادة لقواتهم المقاتلة. فدعوا الإسكندر المولوسي لقيادة حربهم ضدّ الميسابيين واللوكانيين، وكانوا قبل ذلك قد دعوا أرخميدس بن آجيسلايوس، وبعد ذلك كليونيم، وأجاثوكليس، وأخيراً دعوا بيروس، عندما دخلوا معه في تحالف ضدّ الرومان. ولكن حتّى الذين دعوهم، لم يخضعوا لهم كما يجب، بل كنّوا لهم الضغينة. وعلى أيّ حال، بسبب عدائهم للإسكندر، حاول هذا أن ينقل إلى فوريا، الاحتفال الإغريقي المشترك في هذا الشطر من العالم (الذي كان يقام عادة في هيراقليا في منطقة تارانت)، وأمر بتحصين مكان على نهر أكالاندر، حيث كان يجب أن تلتئم الاجتماعات. وعلاوة على هذا،

يروى أن البلية التي حلّت بالإسكندر كانت بسبب جحودهم. وبعد ذلك، في زمن الحرب مع هنبيعل، فقدوا حريتهم، مع أنهم استقبلوا بعد ذلك مستعمرة رومانية وهم الآن في سلام ووئام أفضل مما كان من قبل. وقد حاربوا الميسابيين بسبب هيراقليا، وتحالفوا في حربهم هذه مع الملوك الدافنيين والبيفكيتيين.

5- والشطر التالي من بلاد اليابيغيين، هو على الضدّ مما هو منتظر، بديع. ومع أن سطح الأرض يبدو كأنه مليء بالحجارة، ولكن إذا ما حرثت فإنها تكشف عن طبقة سميكة من التربة الخصبة (على الرغم من النقص في الرطوبة)، صالحة للرعي والغابات. وفي زمن ما كانت الكثافة السكّانية في هذه المنطقة كلّها عالياً جداً، وكان فيها 13 مدينة؛ أمّا الآن فما عدا تارانت وبرينتيسي، جعلت الحروب من المدن الأخرى مجرّد بلدات صغيرة. ويقال إن سالينتينا مستعمرة للكريتيين. فهناك يقوم معبد لأثينا كان في يوم ما معبداً غنياً، كما توجد أيضاً صخرة تحمل اسم رأس يابيغيا، - إنها عبارة عن جرف كبير يمتدّ في عمق البحر نحو المطلع الشتوي[6] للشمس، مع أنه يتّجه بعض الشيء نحو لاكينوس التي ترتفع قبالته من جهة الغرب وتلتقي معه عند آخر مدخل خليج تارانت. والجبال الكيرافنية أيضاً، تلتقي معه عند آخر مدخل الخليج الإيوني. ويشكّل المعبر منه إلى الجبال الكيرافنية وإلى لاكينوس، حوالي 700 مرحلة. وتشكّل الطريق البحرية من تارانت إلى برينتيسي وأولاً إلى بلدة باريدا 600 مرحلة. ويدعو معاصرونا باريدا باسم فيريت؛ وتقع هذه الأخيرة في أطراف منطقة سالينتينا، والوصول إلى هناك من تارانت براً أكثر يسراً من الطريق البحرية. ومن هناك إلى ليفكي 80 مرحلة؛ وليفكي هذه مدينة صغيرة فيها ينبوع ماء نتن رائحته كريهة. وتروي الأسطورة، أن هرقل طرد العمالقة الذين أسرهم في فليغرا الكامبانية، وقد دعوا هؤلاء بالليفتيرنيين. فهرب العمالقة إلى هنا، فأخفتهم الأرض، ومن إيخور[7] أجسادهم تنبع مياهه هذا الينبوع. ولهذا يدعى هذا الساحل ليفيترينيا. ومن ليفكي إلى بلدة هيدرونت 150 مرحلة، ومن هنا إلى برينتيسي 400 مرحلة. ومثل هذه المسافة إلى جزيرة ساسون التي تقع تقريباً في منتصف الطريق البحرية من إيبير إلى برينتيسي. ولذلك يرسو البحارة الذين يعجزون عن مواصلة إبحارهم مباشرة في هيدرونت عن يسار ساسون؛ وبانتظار ريح مواتية يتّجه هؤلاء إلى موانئ البرينتيسيين؛ وإذ يرسون هنا يواصلون رحلتهم براً عبر طريق أقصر تمرّ عبر مدينة رودي الإغريقية مسقط رأس الشّاعر إينّوس. وعلى هذا النحو فإن المنطقة التي يجوبونها في أثناء الرحلة من تارانت إلى برينتيسي لها شكل شبه جزيرة. وتشكّل الطريق البرية من برينتيسي إلى تارانت التي لا يستغرق اجتيازها سوى يوم واحد لراجل لا يحمل معه شيئاً، برزخ الجزيرة

المـذكورة[8]؛ ويـدعوها أكثـرهم باسـم واحـد، ميسـابيا أو يابيغيـا، وكالابريـا أو سالينتينا، مع أن بعضهم يقسمها ويدعوها بأسماء أجزائها، كما ذكرت سابقاً[9]. لقد كان هذا هو وصفي لمدن هذا الساحل وبلداته.

6- تقـع لـوبي ورودي في داخـل البـلاد، وإلى الأعلـى قلـيلاً تقـع أليتيـا؛ وفي وسـط البرزخ تقع أوريا، حيث لا يزال قصر أحد حكّامها قائماً حتّى اليوم. ولأن هـيرودوت[10] يقـول، إن هيريـا تقـع في يابيغيـا وأن الكـريتيين هـم الـذين أسّسـوها (مـن عـداد الـذين انفصلـوا عـن أسـطول مينـوس وهـو في طريقـه إلى صقليا)، لـذلك يجـب أن نـرى أن هـذه المدينـة، هـي مدينـة أوريـا أو فيريـت. ويقـال، إن برينتيسـي مسـتعمرة للكـريتيين الـذين جاؤوا إلى هنا مـن كنوسـوس مـع ثيسـيوس، أو توجهـوا مـن صـقليا مـع يـابيغوس (يـروون الروايتين)، ومع أنه يروى أنهم لم يستقروا هنـاك، بـل ابتعـدوا إلى بوتييـا[1]. وفيمـا بعـد، حينمـا كانـت المدينـة تحـت حكـم الملـوك، فقـدت الشـطر الأكـبر مـن أراضـيها الـتي استولى عليها اللاكيديمونيون بقيادة ثالانثوث. ومع ذلـك، بعـد أن طـرد هـذا الأخير مـن تارانت، استقبله البرينتيسيون، وحينما توفّي أقاموا لـه مأتمـاً لائقـاً. وبلادهـم أفضـل مـن بلاد التارانتيين، لأنه على الرغم من أن التربة هنا عجفاء، إلاّ أنها مـع ذلـك تعطـي غـلالاً جيّـدة؛ فالعسـل والصـوف الـذي ينـتج هنـا يصـنّف بـين أفضـل الأنـواع. زد إلى هـذا أن في برينتيسي مرافئ أفضل من تلك الـتي في تارانـت. فهنـاك كـثير مـن المراسـي المحميـة مـن أمواج البحر، والمغلقة بثغر واحد، لأنّ الخلجان محصورة في داخل الثغر. وهـذا مـا يعطـي الميناء شكل قرني الإيل، ومن هنـا جـاءت تسـميته. وهـذا المكـان مـع المدينـة يشـبه فعـلاً رأس الإيل، ورأس الإيل يدعى باللغة الميسابية «برينتيسيوم». أمّا ميناء تارانت، فإنها على الضدّ من هذا غير محمية بالكامل من أمواج البحر، لأنها مفتوحة؛ عدّاك عـن هـذا أنـه ثمّة في عمقها بعض الأماكن الضحلة.

7- عند الانطـلاق مـن اليونـان أو مـن آسـيا، فـإن الطـريق الأكثـر اسـتقامة، هـي الطريق المتجهة إلى برينتيسي؛ وإلى هنا يأتي فعلاً كلّ من تتّجه طريقـه إلى رومـا. ويتّجـه إلى هنـاك طريقـان: واحـدة للبغـال فقـط، تمتـدّ عـبر أرض البيفكيتـيين (ويـدعونهم بيـديكليين)، والـدافنيين، والسـامنتيين إلى بينيفينـت؛ وتقـع علـى هـذه الطـريق مـدن إيفناتيـا، وكيليـا، ونيتيـوس، وكانوسـيوس، وهيردونيـا. ولكـنّ الطـريق عـبر تارانـت تسير يساراً بعض الشيء (مع أنها لدى الالتفاف لا تشكّل منعطفاً إلا لمسير يوم واحد)، وهي تدعى طريق أبيوس، وهذه الطريق ملائمة لنقل البضائع. وتقع عليهـا مـدينتا أوريـا، وفينوسـيا، وتقـع الأولى بـين تارانـت وبرينتيسـي، والثانيـة علـى حـدود السـامنيتيين

واللوكـانيين. وتلتقـي الطريقـان المنطلقتـان مـن برينتيسـي، علـى مقربـة مـن بينيفينيـت وكامبانيا. ومن هنا إلى روما تدعى الطريق طريق أبيوس، وهـي تمرّ عبر كافديوس، وكالاسيا، وكابويا، وكاسيلين، حتّى سينوسّا. ومـن هنـاك يمضـي جـزء مـن الطريق التي وصفتها من قبل. إن الطول الكلي للطريق من روما إلى برينتيسي 360 ميلاً. وهنـاك طريق ثالثة أيضاً، تذهب من ريغوس عبر منطقة البريتيين، واللوكانيين، والسامنيتيين إلى كامبانيا، حيث تتّصل بطريق أبيوس. وتمرّ هـذه الطريق عبر جبال الأبينين، وهـي أطول بثلاثة أو أربعة أيام من الطريق التي تبدأ من برينتيسي.

8- والطريـق البحريـة مـن برينتيسـي إلى الشـاطئ المقابـل تتّجـه إلى الجبـال الكيرافنية وساحل إيبير واليونان الذي يليها من جهة، وإلى إيبيدامنوس من جهة أخرى؛ وهـذه الطريـق أطـول مـن الطريـق الأولى لأنهـا تشـكّل 1800 مرحلـة[12]. ويسـتخدمون الطريـق الأخيرة في غالـب الأحيـان، لأنّ موقـع المدينـة ملائـم بالنسـبة للأقـوام الإيلليرية والمقدونية. وإذا ما أبحرنا من برينتيسي على طول ساحل الأدرياتيكي، فإننا نصل مدينة إيغناتيا، وهي المحطة المشتركة للمسافرين بحراً أو برّاً إلى باريوس. ويجري الإبحار مع الريح الجنوبية. وحتّى يومنا هذا[13] تمتدّ منطقة البيفكيتيين مع البحر، أمّا في داخل البلاد فهي تمتدّ حتّى سيلفيوس. وهـذه المنطقـة كلّها منطقـة صـخرية تغطيهـا الجبـال، لأنها تشغل جزءاً مهماً من جبال الأبينين. ويبدو أنها استقبلت مستعمرين من أركاديا. ومن برينتيسي حتّى باريوس 700 مرحلة، أمّا تارانت فإنها تقع على مسافة واحدة تقريباً من المدينتين. ويقطن الدافنيون المنطقة المجاورة، ثمّ يأتي الأبوليون حتّى الفرينتانيين. وبما أن السكّان المحلّيين لا يستخدمون تسمية بيفكيتيين ودافنيين (إلاّ في الزمن القديم فقط)، وهذه المنطقة تدعى الآن كلّها أبوليا، لذلك ينبغي علينا أن نمتنع عن تحديد حدود هذه الأقوام بدقّة. ولذلك يجب عليّ أيضاً ألاّ أدلي برأي محدّد عن هذا.

9- ومن باريوس إلى نهر أوفيدس الذي تقع عليه ميناء الكانوسيتيين التجارية، 400 مرحلة، أمّا الرحلة عبر النهر إلى الأعلى حتّى الميناء، فهي تشكّل 90 مرحلة. وعلى مقربة تقع سالابيا أيضاً، وهي المرسى الشراعي للأرغيريبيين. وغير بعيد فوق البحر (على أي حال في السهل) تقع مدينتان: كانوسيوس وأرغيريبا، اللتان كانتا الأكبر بين المدن- المستعمرات الإيطالية، كما تبيّن بقايا محيطي سوريهما. لكنّ أرغيريبا الآن أصغر؛ وكانت هذه المدينة قد دعيت في الأول آرغوس هيبيون، ثمّ أرغيريبا، وتدعى الآن آربي. ويروى أن ديوميدس هو من أسّس المدينتين. ويرونك في هذه الأماكن بقايا ممتلكات ديوميدس- سهل ديوميدس وأملاك كثيرة أخرى: تقدمات قديمة في معبد

أثينـا في لـوكرا (لأن هـذه الأخيرة أيضـاً كانـت في الـزمن القـديم مدينـة للـدافنيين؛ وتحوّلت الآن إلى مدينة خاوية)؛ وفي البحر على مقربة جزيرتان تحمـلان اسـم ديوميـدس؛ إحـداهما مسـكونة، ويقـال إن الأخـرى خاليـة. وحسـب بعـض روايـات الأسـطورة، أن ديوميدس اختفى من غير أثر على هذه الجزيرة الأخيرة، ومسخ مرافقوه طيوراً؛ وفعلاً إن الطيور على هذه الجزيرة لا تزال حتّى يومنا هذا طيـوراً أليفـة وتعيش نوعـاً مـا مـن أنـواع العـيش البشـري، لا بمعنـى نظـام عـيش الإنسـان فقـط، بـل إنهـا تبـدي وداعـة تجـاه الأشخاص المحترمين وامتعاضاً من المجـرمين والفاسـدين. وأنـا كنـت قـد ذكـرت سـابقاً الروايات الأسطورية الـتي يرويهـا الجينيتيـون عـن هـذا البطـل والطقـوس الـتي تقـام علـى شرفه[14]. وعلى الأغلب أن ديوميدس هو من أسّس أيضاً سيبونت الواقعة على مـا يقـارب 140 مرحلة عن سالابيا. وعلى أيّ حال فإن المدينـة تـدعى بالإغريقيـة سـيبيونت، وجـاءت هـذه التسـمية مـن الحبـارى [Sepia] الـتي تقـذف الأمـواج بهـا إلى الشـاطئ. وبـين سـالابيا وسيبونت يجري نهر صالح للملاحة، وتقع بحيرة كبيرة لها مخـرج إلى البحـر. وعـبر هـذا النهر ينقلون البضائع من سـيبونت إلى البحـر، خاصـة الأقمـاح وسـواها مـن الحبـوب. وفي دافنيـا يقـوم فـوق تـل يحمـل اسـم دريـوس، معبـدان مكرّسـان لـبطلين: أحـدهما، كالخانـت، يقـوم فـوق القمـة نفسـها؛ وهنـاك يقـدّم سـائلو المتنبّـئ في الحلـم أضـحيتهم للبطل، وهي كبش أسود، ثمّ ينـامون علـى جلـده[15]. والمعبـد الآخـر، بوداليريـا، يقـع في الأسفل عند سفح التلّ على بعد ما يقـارب 100 مرحلـة عـن البحـر. وينبـع مـن التـل جـدول صغير يشفى المواشي من أمراضها كلّها. وتقـع أمـام هـذا الخلـيج رأس غارغـان البحريـة التي تمتـدّ في عـرض البحـر مسـافة 300 مرحلـة شـرقاً؛ ومـا إن نتجـاوز الـرأس حتّـى نجـد بلدة أوريـوس وأمـام الـرأس تقـع جـزر ديوميـدس. إن هـذه المنطقـة كلّهـا تنـتج شـتّى أنـواع الغـلال وبكميـات كـبيرة، لكنّهـا أكثـر ملاءمـة لتربيـة الجيـاد والأغنـام. فأصـواف الأغنام هنا أكثر نعومة من أصواف أغنام تارانت، لكنّها أقلّ لمعاناً. والـبلاد هنـا محميـة مـن الريـاح لأنّ السـهول تقـع في المنخفضـات. ويـروي بعضـهم أن ديوميـدس حـاول أن يشـقّ قناة تصل إلى البحر، لكنّه استدعي إلى دياره وأنهى ما تبقى له من العمر هناك تاركـاً هذا المشروع ومشاريع أخرى غير مكتملة. لكن هذه الروايـة، هـي واحـدة مـن الروايـات التي رويت عنه. وتقول رواية أخرى، إن البطل بقي هنا حتّى آخر أيام عمره. وحسب روايـة أسطورية ثالثة، كنت قد ذكـرتها، أنه اختفى علـى الجزيـرة مـن غـير أثـر. ويمكننـا أن نعـدَّ الروايـة الرابعـة روايـة الجينيتيين، فهـؤلاء بـدورهم يـروون أسـطورة تتحـدّث عـن أن البطل قضى حياته كلّها في بلادهم، بل ويدعون موته تأليهاً.

10- وعلـى هـذا النحـو تكـون المسـافات الـتي سـجلتها مسـتندة إلى معطيـات أرتيمـيدور. ولكـنّ كـوروغراف يحـدّد المسـافات مـن برينتيسـي إلى غارغـان بــ 165 مرحلة، بينما يزيد أرتيميدور من هذا الرقم. ومن هنا إلى أنكونا، بحسب كوروغراف 254 ميلاً؛ وعلى الضدّ من هذا يرى أرتيميدور أن المسافة حتّى نهر إيسيس الذي يقع على مقربة من أنكونا، هي 1250 مرحلة، أي أقلّ بكثير من ذاك. ويؤكّد بوليبيوس أن المسافة من يابيغيا تقاس بالأميال، أي تحديداً: حتّى مدينة سينا 562 ميلاً، ومن هناك إلى أكويليا 178 ميلاً. فهما لا يوافقان على الطول المعتمد عادة للساحل الإيلليري من الجبال الكيرافنية حتّى منخفض البحر الأدرياتيكي، لأنهما يعطيان رقماً لهذا الامتداد يفوق 6000 مرحلة، جاعلين هذه المسافة على هذا النحو أطول، مع أنها أقصر بكثير. وعلى وجه العموم لا يتّفق الكتّاب كلّهم بعضهم مع بعض، خاصة فيما يتعلّق بالمسافات، كما قلت مراراً[16]. وفيما يخصّني أنا، فإني أدلي بدلوي حيث يكون الحلّ ممكناً، أمّا في حال العكس فأرى أنه من الضروري نقل آراء الآخرين. أمّا إذا لم أجد شيئاً عن الكتّاب الآخرين، فليس غريباً أن يتأتّى لي أيضاً أن أصمت حيال بعض الأشياء، خاصة حينما يكون لموضوعي مثل هذا الطابع. وفي الأحوال كلّها، فأنا لا أتوسل أي شيء مهم؛ أمّا فيما يتعلّق بما له قليل من الأهمية، فإنه لا يقدّم إلا قليلاً من الفائدة حتّى لو عرفته؛ ولذلك فإن إسقاطه لن يكون ملحوظاً ولا يمثل أيّ نقص في كمال بحثي.

11- ويلي غارغان مباشرة فضاء يشغله خليج عميق. ويدعى سكّان الضواحي باسم خاص: الأبوليين، مع أنهم يتحدّثون مع الدافنيين والبيفكيتيين لغة واحدة، ولا يختلفون عنهم في الأشياء الأخرى بشيء، في أقلّ تقدير الآن، لكنّهم ربّما كانوا يتميّزون عنهم في الأزمنة القديمة، ومن هنا ظهر اختلاف أسماء هذه الأقوام الغالب الآن. لقد كانت هذه المنطقة كلّها مزدهرة من قبل، لكنّ هنيبعل والحروب التي تلت دمّرتها وأفقرتها. فهنا وقعت معركة كانّوس[17] التي خسر فيها الرومان وحلفاؤهم خسائر بشرية كبيرة. وثمّة في الخليج بحيرة، وفوق هذه البحيرة، في عمق البلاد تقع تيانوم أبولوم سميّة تيانوم الصقلية. ويهيأ لي أن عرض إيطاليا في هذه النقطة يتقلّص باتجاه منطقة ديكيارخيا، لأنه يبقي من البحر إلى البحر برزخاً طوله أقل 1000 مرحلة. وتمتدّ وراء البحيرة طريق بحرية على طول الساحل إلى منطقة الفرينتانيين وبوكا. والمسافة من البحيرة بالاتجاهين - حتّى بوكا وغارغان 200 مرحلة. أمّا المناطق الواقعة وراء بوكا، فقد وصفتها من قبل[18].

الفصل الرابع

1- لقد كانت تلك هي على وجه التقريب أبعاد إيطاليا وسماتها المميّزة. وبعد أن قلت الكثير عن هذا، فإني سأشير الآن إلى أهم الشروط التي دفعت بالرومان إلى الشأو الذي بلغوه الآن. ويكمن أحد هذه الشروط في أن إيطاليا محمية بالبحار من جهاتها كلّها (كالجزيرة)، ما خلا بعض مناطقها، بل حتّى هذه الأخيرة تحميها جبال وعرة المسالك. ويتمثل الشرط الثاني في أن أكثر السواحل الإيطالية خالية من الموانئ، وتلك الموجودة منها فسيحة ورائعة. والظرف الأول ملائم لحماية البلاد من الهجمات الخارجية، ويمكّن الثاني الإيطاليين أنفسهم من مهاجمة الآخرين وإطلاق تقدّم تجارة واسعة. ويكمن الظرف الثالث في تنوّع مناخ إيطاليا ودرجة حرارة الجو فيها تنوّعاً كبيراً، الأمر الذي يستدعي تغيّرات كبيرة- جيّدة وسيّئة- في عالمي الحيوان والنبات، وعلى وجه العموم في كلّ ما يفيد استمرار الحياة. وتمتدّ إيطاليا طولاً من الشمال إلى الجنوب. وتضاف صقليا إلى امتدادها، وهذه شاسعة وطويلة بحيث تبدو كأنها جزء منها. وتتحدّد درجة حرارة الجوّ الملائمة وغير الملائمة بشدّة البرد وشدّة الحرّ، والحالات المتوسّطة بينهما[1]. وتبعاً لهذا يجب بالضرورة أن نقرّ بأن إيطاليا المعاصرة تقع بين نقيضين[2] وتمتدّ بعيداً بالطول، وينتمي أكثرها إلى المنطقة المعتدلة، إذ تتوفّر على أكثر شروط هذه المنطقة. وعلاوة على ذلك كانت من حظ إيطاليا ميزة أخرى: بما أن جبال الأبينين تمتدّ على طولها كلّه، وتشكّل على جانبيها سهولاً وهضاباً خصبة، لذلك ليس ثمّة جزء واحد من البلاد لم يفد من خيرات البلدان الجبلية والسهول. ويجب أن نضيف إلى هذا كثرة من الأنهار الكبيرة، والبحيرات، عدّاك عن كثير من الينابيع ذات المياه الحارّة والباردة التي خلقتها الطبيعة نفسها ملائمة للصحّة، ووفرة من مختلف المناجم. ومن غير الممكن إعطاء وصف واف لما تستحقّه موارد الغابات في إيطاليا، والقوت الذي توفّره للناس والحيوانات والنوعية العالية لغلالها كلّها. وأخيراً تقع هذه البلاد بين ظهراني أكثر الأقوام أهمية من جهة، وبين اليونان وأفضل أجزاء ليبيا من جهة أخرى؛ وهي ليست مؤهلة من الطبيعة نفسها لكي تسيطر وتسود لأنها متفوّقة على البلدان المحيطة بها بميزاتها وأبعاد حدودها وحسب، بل لأنّ قربها إليها يجعلها تحقّق سيادتها تلك بسهولة ويسر[3].

2- إذا كان من الضروري إضافة إلى وصف إيطاليا أن نقدّم أيضاً لمحة عامّة عن الرومان الذين بعد أن امتلكوا هذه البلاد جعلوا منها نقطة استناد للسيطرة على العالم كلّه، فإنه يمكننا أن نقول الآتي: بعد تأسيس روما وعلى امتداد أجيال كثيرة كان

يحكـم الرومـان ملـوك حكمـاء. ثـمّ بعـد أن تبـيّن أن آخـرهم تركـويني، كـان ملكـاً سيّئاً، طردوه وأنشؤوا نظام إدارة مؤلّف من خليط بـين عناصـر الملكيـة والأرسـتقراطية؛ وقد شـارك في اتحاد دولـتهم هـذا، السـابين واللاتـين. ولكـن بمـا أن هـذه القبائـل ومثلـها الأقوام المجاورة لم تكـن دائماً تحمـل الـودّ للرومـان، فقـد وجـد هـؤلاء أنفسـهم مـرغمين إلى حدّ ما على توسيع حدود بلادهم على حساب الأقاليم المجاورة، فأخضعوها. وعنـدما كـان الرومان يتقدّمون على هذه الطريق رويداً رويداً، فقدوا على حين غرّة وعلى الضـدّ ممـا كـان منتظـراً منهم، فقـدوا مـدينتهم، مـع أنهـم ووفـق مـا لم يكـن متوقعـاً أيضـاً، استعادوها من جديد[4]. وبحسب بوليبيوس إن هذا الحدث وقع في العام التاسع عشر بعد المعركـة البحرية التي وقعت عند إيجوسباتاما في زمـن صـلح أنتالكيـدس. وبعـد أن صـدّ الرومان هؤلاء الأعـداء، أخضـعوا أوّل مـن أخضـعوا اللاتـين لسـلطانهم، ثـمّ وضـعوا حـدّاً لعربدة التيرينيين المنفلتة من عقالها، والسلت الـذين كـانوا يقطنـون عنـد بـاد؛ ثـمّ هـزمـوا السـامنتيين، وبعـدهم التـارانتيين، وبـيروس، و[اسـتولوا] أيضـاً علـى الجـزء المتبقـي مـن إيطاليا، ما خلا منطقة تقع عند باد. وبينما كانت هذه المنطقة تقاوم الرومـان بالسـلاح، توجـه هـؤلاء إلى صـقليا وانتزعوهـا مـن القرطـاجيين، ثـمّ التفتـوا ثانيـة إلى الأقـوام الـتي تقطـن حـوض بـاد. وبينمـا كانـت هـذه الحـرب لا تـزال دائـرة، ظهـر هنيبعـل في إيطاليـا، وبدأت الحرب الثانية مع القرطاجيين، وبعد بعض الوقت ستبدأ الثالثة التي أفضت إلى تدمير قرطاجة[5]. وعلى هذا النحو اسـتولى الرومـان علـى ليبيـا وذلـك الشـطر مـن إيبيريـا الـذي انتزعـوه مـن القرطـاجيين. ومـع القرطـاجيين أشـعل الإغريـق انتفاضـتهم، وكـذلك المقدونيون، وشعوب آسـيا الـتي تقطـن هـذا الجانـب مـن هـاليس وسلسـلة جبـال طـوروس. وهكـذا وجد الرومان أنفسهم مرغمين على أن يحـاربوا في الوقـت نفسـه، الشـعوب الـتي كـان ملوكها أنطوخ، وفيليب، وبرسيوس. وبدأ الإيلليريون والتراقيون، جيران الإغريق، والمقدونيين الحرب ضدّ الرومان؛ ودارت رحى حرب ضروس تواصلت حتّى خضـعت كـلّ القبائل التي تقطن هذا الجانب من إيستر وهـاليس. وعلـى هـذا النحـو عينـه كـان مصـير الإيبيريين، والسلتيين، والأقوام الأخـرى كلّهـا الـتي تخضـع الآن لسـلطة الرومـان. وفيمـا يتعلّق بإيبيريا فإن الرومان لم يتوقفـوا عـن محاربتهـا بقـوة السـلاح، حتّـى أخضـعوا الـبلاد كلّهـا، وفي غضـون ذلـك طـردوا النومانسـيين[6]، ثـمّ فريـاف، وسـرتوريوس، وأخـيراً الكـانتابريين الذين أخضعهم أغسطس قيصر. كما أخضـعوا سـلتيا كلّهـا، سـواء الـتي على هذا الجانب من الألب، أو تلك التي وراء الألب، ومعها إيلليريا، أخضـعوها في الأول أجزاء وبالتدرّج، أمّا فيما بعد فإن قيصر الإلهي، وبعده أغسـطس، أخضـعاها مـرّة وإلى

الأبد دفعة واحدة في حرب شاملة. ويقود الرومان الآن حرباً ضدّ الجرمان انطلاقاً من هذه المناطق [السلتية] بصفتها القواعد العملياتية الأكثر ملاءمة، وقد نجحوا في رفع شأن وطنهم حتّى الآن بعدد من الانتصارات التي حققوها على أعدائهم. وفيما يتعلّق بليبيا فإن شطرها الذي لم يكن خاضعاً لسلطة القرطاجيين؛ نصّب عليه الرومان ملوكاً تابعين لهم؛ وإذا ما سوّلت لأحدهم نفسه أن يستقلّ عنهم، فإنهم يعزلونه وينصبون صنيعة آخر. فتحت سلطة يوبا الآن ماوروسيا وأجزاء كثيرة مما تبقى من ليبيا [أعطيت إليه] مكافأة له «على إخلاصه وودّه»[7] للرومان. والمصير نفسه حلّ بآسيا أيضاً. ففي أوّل الأمر حكمها ملوك تابعون؛ ولكن فيما بعد، عندما اندثرت سلالاتهم (كما وقع للملوك الأثاليين، والسوريين، والبافلاغونيين والقبدوقيين، والمصريين)، أو أعلنوا العصيان ضدّ روما، فعزلتهم (كما حصل لميتريدات إيفباتور وكليوباترا المصرية)، انتقلت كلّ المناطق الواقعة على هذا الجانب من فاسيس والفرات، ما عدا بعض أجزاء شبه جزيرة العرب، لتصبح تحت سلطة الرومان والحكّام الذين يعيّنونهم. أمّا الأرمن والأقوام التي تقطن إلى الأعلى من كولهيدا (الألبان والإيبيريين)، فيكفي وجود الولاة الذين يعيّنون، لأنّ خضوع هؤلاء لسلطة روما راسخ لا يهتزّ. وعلى أيّ حال حينما ينشغل الرومان بأعمال أخرى، فإن هؤلاء يعلنون العصيان، كما فعلت القبائل التي تقطن وراء إيستر عند البونتس الإيفيكسيني، ما عدا سكّان البسبور والبدو الرحّل. فقبائل البسبور تخضع فعلاً للرومان، أمّا البدو الرحل فإنهم بسبب عدم توافقهم مع القبائل الأخرى، لا ينفعون لشيء ويطلبون الحماية فقط. ويعود ما تبقى من مناطق آسيا لسكّان الخيام والبدو الرحل الذين يقطنون بعيداً جدّاً. أمّا البارثيون، فعلى الرغم من أنهم يجاورون الرومان، ويمتلكون قوّة جبّارة، إلا أنهم مع ذلك انحنوا أمام تفوّق الرومان وحكّامهم المعاصرين، وأعادوا إلى روما الغنائم التي عرضوها في وقت ما كدليل على انتصارهم على الرومان، وليس هذا وحسب، بل أكثر من هذا، إذ أودع فرآت أولاده وأولاد أولاده رهينة لدى أغسطس قيصر ضمانة «لصداقته» معه[8]. وغالباً ما يأتي البارثيون اليوم إلى روما طلباً لملك عليهم، وهم على شبه استعداد للتنازل عن كامل جبروتهم للرومان. وفيما يخصّ إيطاليا نفسها (مع أن صراع الأحزاب كان يمزّقها في أحيان كثيرة، وفي أقلّ تقدير منذ أن خضعت لسلطة الرومان) وكذلك روما نفسها، فإن كمال بناء دولتها وشجاعة حكّامها وضعا حدّاً لسلوكهم طريق الضلال المهلكة. فمن الصعب إدارة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف من غير أن تعهد بعنايتها لشخص واحد، أب لها. وفي الأحوال كلّها فإن الرومان وحلفاءهم لم ينعموا يوماً بمثل

هذا القدر من السلام ورغد العيش كما كان في عهد قيصر أغسطس منذ أن منح سلطة مطلقة. والآن أيضاً يمنحهم ابنه ووريثه طيباريوس [الخيرات نفسها]، لأنه يحاكي أغسطس بإرادته وتعليماته وإرشاداته؛ وهذا ما يفعله أيضاً ولداه، جرمانيكوس ودروز اللذان يعاونانه.

الكتـاب السابع

الفصل الأول

1- بعد وصف إيبيريا، والقبائل السلتية والإيطالية مع الجزر المجاورة، ينبغي أن نتحدّث عن أجزاء أوروبا الأخرى التي تليها بالترتيب، وفق الطريقة التي كنا قد اعتمدناها. والبلدان التي تبقت هي البلدان الواقعة وراء الرين شرقاً حتّى تانايس وثغر ميوتيدا، وكذلك كلّ الفضاء الذي يفصله إيستر، بين البحر الأدرياتيكي والأراضي الواقعة على الجانب الأيسر من بحر البونتس وإلى الجنوب وصولاً إلى اليونان وبروبونتيدا. فهذا النهر يفصل كلّ الأراضي المذكورة إلى شطرين متساويين تقريباً. وهذا النهر الأكبر في أوروبا يجري في الأول جنوباً، ثمّ ينعطف بحدة من الغرب نحو الشرق إلى البونتس. وينبع إيستر من الأطراف الغربية لجرمانيا، لكنّه على مقربة من منخفض البحر الأدرياتيكي (على مسافة تقارب 1000 مرحلة منه)، ينهي إيستر جريانه عند البونتس غير بعيد عن تيراس والبوريسفين، منعطفاً قليلاً نحو الشمال. وعلى هذا النحو، تقع إلى الشمال من إيستر المناطق المتوضّعة وراء الرين وسلتيا. وهذه الأراضي، هي أراضي القبائل الغلاطية والجرمانية وصولاً إلى أراضي الباستارنيين ووالتيريجينتيين ونهر البوريسفن، وكذلك كلّ الفضاء الممتدّ بين هذا النهر ونهر تانايس وثغر ميوتيدا الذي يمتدّ داخل البلاد حتّى المحيط[1] ويشاطئ بحر البونتس. وإلى الجنوب من إيستر تستوطن القبائل الإيلليرية والتراقية وكل الشعوب الأخرى المتخالطة معها، من سلتيين وغيرهم وصولاً إلى اليونان. وسأصف أولاً المناطق الواقعة وراء إيستر، لأنّ وصفها أسهل بكثير من وصف تلك التي تقع على الجهة الأخرى من النهر.

2- تتّجه المناطق الواقعة وراء الرين نحو الشرق، ويقطن الجرمان تلك التي تقع وراء أراضي السلت. وقلما يتميّز هؤلاء الأخيرون عن القبيلة السلتية: أكثر وحشية، وأطول قامة، وشعر فاتح أكثر؛ أمّا فيما تبقى فهم متشابهون: من حيث البنية الجسدية

ونمط العيش والطباع، هم كما كنت قد وصفت السلت. ولهذا دعاهم الرومان، كما أظنّ، «جرماناً»، وكأني بهم يرغبون بأن يشيروا إلى أنهم غلاطيون «حقيقيون». فكلمة germani تعني بلغة الرومان «أصيلاً، حقيقياً».

3- إن أوّل أجزاء هذه البلاد، هي المناطق الواقعة عند الرين، من منابعه حتّى مصبّه. وامتداد منطقة النهر تساوي تقريباً عرض البلاد في شطرها الغربي. وقد نقل الرومان فريقاً من قبائل منطقة النهر هذه إلى سلتيا، ولم يتسن للآخرين أن ينتقلوا من قبل إلى عمق البلاد، كالمارسيين مثلاً. ولم يبق سوى بعضهم فقط، بمن فيهم فريق من السوغامبريين[2]. وتلي القبائل التي تقطن على مجرى الرين، قبائل أخرى بين نهر الرين ونهر ألبيس؛ ويجري هذا الأخير تقريباً بموازاة الأول نحو المحيط، مخترقاً أراضيَ ليست أقل من تلك التي يخترقها الرين. وثمّة بين هذين النهرين أنهار أخرى صالحة للملاحة (مثلاً، نهر أماسيا حيث انتصر دروز على البروكتيريين في معركة بالسفن)، تجري بدورها من الجنوب إلى الشمال وإلى المحيط. ويكمن الأمر هنا في أن هذه البلاد صاعدة نحو الجنوب وتشكّل سلسلة جبلية تتّصل بالألب وتتمدد نحو الشرق لتبدو كأنها تشكّل شطراً من الألب. وفعلاً عد بعضهم هذه السلسلة جزءاً من الألب. أولاً، بسبب موقعها الذي أشرنا إليه آنفاً، ثانياً تكسوها غابات شجرها من الفصيلة نفسها. ولكنّ القمم الجبلية في هذه البلاد لا تبلغ الارتفاع نفسه. وتقع هنا أيضاً الغابة الهركانية، وتقطن قبائل السويفيين التي يعيش فريق منهم في الغابة نفسها، قبائل الكوادويين[3] مثلاً؛ ويقع في أرضهم البويهم[4]، وهو المقرّ الملكي لمارابود، إلى حيث نقل مختلف القبائل الأخرى إضافة إلى أبناء قبيلته الماركومانيين. فبعد عودته من روما، عيّن هذا الشخص العادي [فيما مضى] حاكماً أعلى للقبيلة. ففي شبابه عاش مارابود في روما مستفيداً من عطف أغسطس، وبعد أن عاد إلى وطنه ظفر بالسلطة وأخضع لسلطته إضافة إلى اللوغيين (قبيلة كبيرة)، قبائل الزوميين والبوتونوفيين، والموغيلونيين، والسابين، وكذلك السيمنونيين (قبيلة سويفية كبيرة). ولكنّ فريقاً من القبائل السويفية يعيش في قلب الغابة، كما ذكرت سابقاً، وفريق آخر يعيش خارجها، على الحدود مع الجيتيين. وعلى هذا النحو فإن السويفيين، هم القبيلة الأكبر، لأنّ أراضيها تمتدّ من الرين إلى الألبيس؛ بل هناك فريق منهم يعيش على الجانب الآخر من الألبيس، كالجرموندوريين واللانغوبارديين مثلاً؛ وقد طرد هؤلاء كلّهم الآن وهربوا إلى الضفّة الأخرى من النهر. والسمة المشتركة التي تميّز قبائل هذه المنطقة، هي قدرتها على الانتقال بسهولة لأنّ نمط عيشها بسيط ولا تمارس العمل الزراعي، بل لا تختزن أي احتياطات [من المؤن]، وتعيش في أكواخ ذات طابع مؤقت.

ومثلهم مثل البدو الرحل، يحصل هـؤلاء على مواردهم الغذائية من قطعانهم، ويضعون مقتنياتهم على عربات نقل ويرحلون مع قطعانهم إلى حيث يشاؤون. لكن هناك قبائل جرمانية أخرى أكثر فقراً كالهيروسكيين، والخاتيين، والهامابريفيين، والخاتواريين؛ وعلى المحيط يعيش السوغامبريون، والهابيون، والبروكتيريون، والقمريون، وكذلك الكاواكيون، والكاولكيون، والكامبسيانيون وقبائل كثيرة أخرى. وباتجاه واحد يجري مع أماسيا، نهر ويسورغيوس، ونهر لوبيا؛ ويقع هذا الأخير على بعد يقارب 600 مرحلة عن الرين، فيجري عبر منطقة البروكتيريين الأصغر. وهناك في جرمانيا أيضاً نهر سالا؛ وبين هذا النهر ونهر الرين قاد دروز جرمانيكوس[5] حربه الظافرة، لكنّه سقط فيها قتيلاً. لقد أخضع جرمانيكوس أكثر القبائل هنا، كما أخضع الجزر الساحلية أيضاً، بما فيها بورهانيوس[6] التي استولوا عليها بعد حصار.

4- وقد اشتهرت هذه القبائل في الحرب مع الرومان التي أفضت في نهاية المطاف إلى خضوعها لهم. لكنّها ثارت ثانية أو هجرت مستوطناتها. ونحن كان يمكننا أن نحصل على معطيات أفضل عنها، لو أن أغسطس أتاح لقادة قواته عبور الألبيس لملاحقة الأعداء الذين عبروا إلى هناك. ولكنّ أغسطس أمل في أن يخوض الحرب على مقربة وبنجاح أكبر، إذا ما امتنع عن مهاجمة القبائل المسالمة التي تقطن وراء الألبيس، وبذلك لا يحرضها على أن تتحد في حلف واحد معاد له. لقد بدأ السوغامبريون هذه الحرب، ويعيش هؤلاء على مقربة من الرين، وكان زعيمهم ميلون. ومنذ ذلك الوقت أخذت شتّى القبائل الجرمانية في مختلف الأرجاء تأتي لكي تحلّ محلّها، فتارة تغدو جبّارة، وطوراً تخسر السلطة فتعلن الانتفاضة من جديد وتغدر برهائنها الذين أودعتهم ضمانة لوفائها بالتزاماتها، وتحنث بالقسم الذي أقسمته. إن عدم الثقة مفيد جدّاً وضروري للتعامل مع هذه القبائل، لأنّ أولئك الذي منحوا الثقة تسبّبوا بأذى عظيم جدّاً، كما فعل الكيروسكيون والقبائل الخاضعة لسلطانهم، إذ هلكت في مناطقهم ثلاثة أفواج رومانية كان يقودها كوينتيليوس فاروم[7]، بعد أن غدروا بها وحاصروها. لكنّهم عوقبوا على غدرهم هذا، وأقاموا لجرمانيكوس الشاب موكب نصر رائع اقتيد فيه كبار الأرسستقراطيين من رجال ونساء أسرى: سيغيمونت ابن سيجيستوس قائد الكيروسكيين وأخته توسنيلدا، وزوجة أرمينيوس الذي قاد أثناء انتهاك الاتفاق، القوات الكيروسكية ضدّ كوينتيليوس فاروس، ولا يزال حتّى الآن يقاتل؛ واقتيد في الموكب أيضاً توميلنيك بن توسنيلدا ذو السنوات الثلاث؛ وسيسثاك بن سيجيمر زعيم الكيروسكيين، وزوجته راميس، وزوجة زعيم الخاتيين أوكرومير، والسوغامبري ديفدوريغ[8]، وابن بيتوريغ، وشقيق ميلون. ولكنّ سيجيستوس حمو أرمينوس الذي

لم يتعاطف[9] مع خطط صهره منذ البداية، استغل الفرصة الملائمة وإنحاز إلى الرومان، فحضر احتفال النصر الذي سيق فيه أغلى الناس على قلبه أسرى. كما سيق في موكب النصر أيضاً، ألبيس كاهن الخاتيين وأسرى آخرون كثيرون من أفراد القبائل المبادة: الكولكيين، والكامبسانيين، والبروكتيريين، والأوسبيين، والكيروسكيين، والخاتيين، والخاتواريين، واللانديين، والتوباتسن. ومن الرين إلى نهر الألبيس حوالي 300 مرحلة على خطّ مستقيم؛ بيد أنه بات من الضروري الآن السير على طريق غير مباشرة تدور حول المستنقعات والأدغال.

5- إن الغابة الهركانية غابة كثيفة إلى حدّ ما، وشجرها كبير؛ وهي تمتدّ على فضاء رحب في محيط المنطقة التي حصنتها الطبيعة [نفسها]؛ وثمّة في وسط الغابة مكان ملائم تماماً للمستوطنة التي كنت قد أشرت إليها[10]. وعلى مقربة من تلك المستوطنة تقع منابع إيستر والرين؛ وتقوم بينهما بحيرة[11] ومستنقع تشكّلا من فيضان الرين. ويبلغ محيط البحيرة أكثر من 600 مرحلة، وطول المعبر ما يقارب 200 مرحلة[12]. وفي البحيرة جزيرة استخدمها طيباريوس نقطة استناد في معركته بالسفن ضدّ الويندليكيين. وتقع البحيرة إلى الجنوب من المنابع، مثلها مثل الغابة الهركانية، بحيث ينبغي على من يتوجه من سلتيا إلى الغابة الهركانية أن يعبر البحيرة وإيستر أولاً، ثمّ يتابع طريقه بعد ذلك عبر معابر سهلة- عبر السفوح- ليصل إلى الغابة. فبعد أن قطع مسافة مسير يوم واحد، ظهرت لطيباريوس منابع إيستر. ولا تجاور منطقة الريتيين البحيرة إلا على امتداد صغير، بينما تشاطئ القسم الأعظم منها مناطق الجيلفيتيين والويندليكيين، وكذلك «صحراء البويين». وتقطن هذه القبائل كلّها وصولاً إلى البانونيين، وخاصة الجيلفيتيين والويندليكيين، تقطن الهضاب. وتمتدّ مناطق الريتيين والنوركيين حتّى معابر الألب، وتتّجه صوب إيطاليا، وفي غضون ذلك يتاخم قسم منها أرض الإينسوبريين، بينما يتاخم القسم الآخر منها منطقة الكارنيين والمناطق المجاورة للأكويليين. وهناك غابة كبيرة أخرى أيضاً، هي غابريتا الواقعة في هذا الجانب من بلاد السويفيين، وفي الجهة الأخرى منها تقع الغابة الهركانية حيث يقطن السويفيون أيضاً.

الفصل الثاني

1- وفيما يتعلّق بالقمريين، فإن بعض ما يروى عنهم غير دقيق، وبعضه الآخر مستحيل تماماً. فلا يمكن أن نصدّق أن سبب تحوّلهم إلى رحل وقطاع طرق، هو فيضان جارف طردهم من مساكنهم، بينما هم يعيشون في شبه جزيرة. وواقع الأمر، هو أنهم ما زالوا حتّى يومنا هذا يملكون البلاد التي كانوا يشغلونها من قبل؛ وقد أرسلوا إلى

أغسطس هدية المرجل[1] الذي يعدّ عندهم الأكثر قدسية، متوسلين صداقة الإمبراطور، راجين منه أن ينسى أخطاء الماضي؛ وعندما استجاب لرجائهم، عادوا أدارجهم. ومن المضحك أن نظنّ أن القمريين يمكن أن يهجروا بلادهم غضباً من ظاهرة طبيعية معتادة تحدث مرتين في كلّ يوم! ويشبه الاختلاق أيضاً ذلك الزعم الذي يقول، إنه في زمن ما حدث فيضان قوي هنا؛ فالمحيط لدى حدوث هذه الظاهرة الطبيعية، يرتفع وينخفض بشكل دوري متكرر منتظم[2]. ويجانب الحقيقة أيضاً ذلك الذي يروي أن القمريين وهم يتدربون بجسارة، يقاتلون الفيضانات بالسلاح، وأن السلتيين يتسامحون حيال غرق مساكنهم ثمّ يعيدون بناءها من جديد، وأنه يهلك منهم بحسب إيثور، في الماء أكثر مما يهلك في الحرب. أمّا واقع الحال، فهو أن انتظام الفيضانات، ومعرفة المنطقة التي تجتاحها الفيضانات، لا يفترضان مثل هذا الموقف الغبي. ولكن بما أن هذه الظاهرة تتكرر يومياً مرتين، فكيف يمكننا أن نصدّق أن القمريين لم يلاحظوا لو مرّة واحدة أن المدّ والجزر ظاهرة طبيعية غير مؤذية لا تقع في بلادهم وحدها، بل على ساحل المحيط كلّه. وليس كليتارخ محقّاً أيضاً. فهو يقول، لما رأى الفرسان هجوم البحر، قفزوا متراجعين، وأن الأمواج كادت تبتلعهم أثناء فرارهم. فنحن نعرف أولاً، أن المدّ لا يندفع بسرعة كبيرة، بل إن تقدّم البحر بالكاد يكون ملحوظاً؛ ثانياً، إن ما يحدث كلّ يوم وصخبه يصمّ من بعيد، آذان الذين يقتربون من البحر (حتى قبل أن يرى)، لا يمكن أن يحدث خوفاً يدفع الناس إلى الفرار كما لو أنه وقع على حين غرة.

2- إن بوسيدونيوس محق في انتقاده المؤرّخين على مثل هذه الآراء، وهو يقدّم اقتراحاً موفقاً مؤداه، إن القمريين بصفتهم قطاع طرق ورحل، شنوا حملة وصلوا فيها إلى منطقة ميوتيدا؛ وهم الذين منحوا البسبور اسم «الكيميري»، وكأنه «القمري» لأنّ الإغريق دعوا القمريين كيميريين. ويقول بوسيدونيوس أيضاً، إن البويين عاشوا في الأول في الغابة الهركانية، وتغلغل القمريون إلى هذه المنطقة، لكنّ البويين صدوهم فانحدروا إلى إيستر وإلى بلاد الغلاطيين السكورديسكيين، ثمّ إلى منطقة التيفريستيين والتاوريكسيين (وهم غلاطيون أيضاً)، وأخيراً إلى بلاد الجيلفيتيين، وهم قبيلة غنية بالذهب، لكنّها مسالمة. ولما رأى الجيلفتيون أن الثروة التي جمعها القمريون بالغزو والنهب تفوّق ما يملكونه هم (خاصة منهم قبيلة التيجيرينيين وقبيلة التويجينيين)، نهضوا دفعة واحدة وانضمّوا إلى القمريين. لكنّ الرومان هزموا القمريين ومن قام معهم، فريقاً بعد عبور الألب، وفريقاً عندما كان لا يزال على هذا الجانب من الألب.

3- ويقولون، إن عند القمريين العادة الآتية: ترافق النسوة اللواتي شاركن في

الحملة، كاهنات - متنبّئات شعرهن أشيب ويرتدين ملابس كتانية بيضاء مثبتة [على الكتف] بمشابك، ومحزمة على الخصر بحزام برونزي، وهن حافيات. وتعدو هؤلاء الكاهنات عبر المعسكر بسيوف مسلولة لملاقاة الأسرى، فيضعن على رؤوسهم أكاليل ويقدنهم إلى قدر القرابين النحاسي الذي تصل سعته إلى 20 أمفورا(3)؛ وتقوم هنا منصة ترقاها الكاهنة، وإذ تنحني هذه فوق المرجل(4)، تقطع حنجرة كلّ أسير يصعدونه إلى هناك. وحسب الدماء التي تسيل في القدر يتنبّأ بعض الكاهنات، ويقطع بعضهن الآخر أجساد الضحايا ويتفحصن أحشاءهم ويتنبأن للقبيلة بالنصر. وفي أثناء المعركة كن يضربن على جلود مشدودة على قفف مجدولة على عربات فيحدثن صخباً مروّعاً.

4- أمّا الجرمان، وكما قلت سابقاً(5)، فإن الجرمان الشماليين يستوطنون ساحل المحيط. ولكنّنا لا نعرف إلا القبائل التي تعيش بين مصبّات الرين حتّى الألبيس؛ والأشهر بين هذه القبائل هم السوغامبريون والقمريون. أمّا المناطق الواقعة وراء الألبيس قرب المحيط(6)، فهي مجهولة تماماً بالنسبة لنا. وأنا لا أعرف فعلاً أن أيّاً ممن سبقونا قد أبحر على ساحل المحيط إلى المناطق الشرقية وصولاً إلى ثغر بحر قزوين؛ ولم يدخل الرومان بعد الأراضي الواقعة وراء الألبيس؛ وعلى النحو عينه، فإن أحداً لم يدخل إلى هناك براً. ولكن إذا أخذنا دائرة ومضينا نحو الشرق، فإننا نجد أمامنا أراضي واقعة عند البوريسفين وإلى الشمال من البونتس، وهذا واضح من «الأقاليم»(7) والمسافات المتوازية. ولكن ماذا يقع وراء جرمانيا: هل ينبغي أن نقر بأن الباستارنيين يقطنون هناك (كما يرى أكثرهم)، وأن أقواماً أخرى تعيش بينهم: البازيغيون أو المنقسمون(8) أو أي من الرحل الآخرين الذين يعيشون في الخيام(9)، من الصعب أن نجيب. وليس من السهل أيضاً أن نقرر ما إذا كانوا قد سكنوا الامتداد الساحلي كلّه وصولاً إلى المحيط، أم أن شطراً من البلاد بقي غير مسكون بسبب شدّة الصقيع، أو لأي سبب آخر، أو ما إذا كان شعب آخر قد حل بدلاً من الجرمان واستوطن بين البحر ومنطقة الجرمان الشرقيين. كما أن الجهل سيد الموقف في معلوماتنا عن الشعوب الشمالية الأخرى التي تليهم مباشرة. فأنا فعلاً لا أعرف الباستارنيين(10)، ولا السافروماتيين، ولا أي شعب على وجه العموم من الشعوب التي تقطن على البونتس؛ كما لا أعرف حتّى مدى بعدهم عن البحر الأطلنطي وما إذا كانت تشاطئه مناطقهم.

الفصل الثالث

1- يشغل السويفيون الشطر الجنوبي من جرمانيا الواقع وراء الألبيس، ذلك الشطر نفسه المجاور للنهر. تلي ذلك مباشرة أرض الجيتيين، وهي في البداية ضيّقة،

تمتـدّ علـى طـول إيسـتر في جهتـه الجنوبيـة، وتمتـدّ في الجهـة المقابلـة علـى طـول المنحـدر الجبلي للغابة الهركانية (وعلى وجه العموم فإن أرض الجيتيين تشمل أيضاً شطراً مـن الجبـال)؛ وبعـد ذلـك تتسـع شمـالاً حتّـى أرض التيريجيتيين. ومـع ذلـك فأنـا لا أسـتطيع أن أحدّد حدوداً دقيقة. فعدم المعرفة بهذه البلدان يرغمنا على أن نعطي أهمية لأولئك الـذين اختلقوا «الجبال الريبيـة»[1] و«الهيبربورياس»[2] الأسـطوريين، ولشـتّى اختلاقـات بيثيـوس الماسالي عن الـبلاد الـتي تمتدّ علـى طـول سـاحل المحيط، والـتي غطاهـا هـذا بمعلوماتـه الفلكية والرياضـية. وغـني عـن البيـان القـول، إننـا لم نلق بـالاً لهـؤلاء. والحقيقـة أنـه إذا كـان سوفوكليس بصفته شـاعراً تراجيـدياً، يقـول إن أوريفيـا الـتي اختطفهـا بوريـاس، قد حملها:

عبر سطح الماء الهادئ كلّه إلى طرف الأرض،
إلى تيارات الليل[3]، إلى رحابة السموات[4]
وإلى بستان[5] ثيب القديم...[6]،

(مقطع 870، ناؤوك)

فإن روايته لا تمت بأيّ صلة للمسألة التي طرحناها؛ فهذه الرواية ينبغي إسـقاطها، كمـا يفعـل سـقراط في «فيـدرا»[7]. أمّـا نحـن فسـنتحدّث عمّـا عرفنـاه مـن التـاريخ القـديم والحديث.

2- وبحسب الإغريق أن الجيتيين من القبائـل التراقيـة، وقـد عـاش الجيتيـون علـى ضفتي إيستر، ومثلهم مثل المسيسيين الذين يعدون من التراقيين أيضاً، فهم شعوب إدّغـم بعضها مع بعض وتدعى الآن باسم مشترك واحد هو الميسيسيون. ومن هـؤلاء الميسيسـيين خـرج الميسيسـيون الـذين يعيشـون الآن بـين الليـديين، والفـريجيين، والطـرواديين. أمّـا التراقيون أنفسـهم، فهـم البريغيـون، وهـؤلاء واحـد مـن الشـعوب التراقيـة، مثلـهم في هـذا مثل الميغدونيين، والبيبريكيين، والميدويثيين، والبيثينيين، والفينيين، وكمـا أرى أنـا، والماريانـدينيين أيضـاً. إن هـؤلاء كلّهـم غـادروا أوروبـا تمامـاً، أمّـا الميسيسـيون فقـد بقوافيها. وأرى أن بوسيدونيوس محق إذ يفترض أن هـوميروس يقصـد إلى الميسيسـيين في أوروبا (أولئك الذين في تراقيا تحديداً)، عندما يقول:

... أمّـا هو فحوّل عينيه البراقتين بعيداً
متطلعـاً صوب أرض التراقيين الخيـالة
والميسيانيين البارعين في القتال الفردي

(الإلياذا XIII، 3-5)

فلو رأينا هوميروس يتحدّث عن الميسيسيين في آسيا، فإن هذا التعبير سيكون تعبيراً سخيفاً منافياً للعقل. والحقيقة أن القول، إن زيوس حوّل نظره عن الطروادِيين إلى أرض التراقيين، ثمّ في الوقت نفسه ربط أرض الميسيسيين بتراقيا، وهؤلاء ليسوا بعيدين أبداً، لكنّهم يقطنون على الحدود مع طروادا، وراءها على الجانبين ويفصلهم عن تراقيا الهلسبونت الواسع، إن مثل هذا القول يعني خلط القارّات بعضها ببعض وعدم فهم أسلوب الشّاعر في التعبير؛ فالقول «حوّل عكساً» يعني عادة[8] «إلى الخلف»؛ ولكن من نقل نظره من الطروادِيين إلى القبيلة التي تقع إمّا وراء الطروادِيين، أو على جانبيهم، فإنه من غير شك ينقل نظره إلى الإمام، وفي الأحوال كلّها ليس إلى «الخلف». ويأتي قول هوميروس التالي[9] ليؤكّد وجهة النظر عينها، لأنّ الشّاعر ربط بالميسيسيين كلاً من الهيبيمولغيين والغالاكتوفاغيين والأبيين، وهم السكيثيون والساماثيون الذين يتنقلون مع خيامهم. وحتّى يومنا هذا لا تزال هذه القبائل ومثلها الباستارنيون، مختلطة مع التراقيين (والحقيقة مع الذين يعيشون على ذلك الجانب من إيستر وعلى هذا الجانب منه). واختلطت معهم أيضاً القبائل السلتية: البوبيون، والسكورديسكيون، والتاوريسكيون. وثمّة من يدعو السكورديسكيين «سكورديستيين»، والتاوريسكون «تيوريسكيين»[10] و«تاوريستيين».

3- وحسب بوسيدونيوس أن الميسيسيين وبدافع النبل، يمتنعون عن استهلاك الكائنات الحية في طعامهم، ولذلك فهم لا يأكلون الحيوانات المنزلية أيضاً. يأكلون العسل، والجبنة، ويعيشون حياة مسالمة، ولذلك يدعونهم «خائفي الإله» و«الكابنوباتيين»[11]. وثمّة تراقيون يقطنون منفصلين عن النساء؛ ويدعى هؤلاء «كتيستيين[12]»، وبسبب التبجيل الذي يحظون به، يعدونهم مقدّسين، ولذلك فهم يعيشون متحرّرين من أي خوف كان. ويتحدّث هوميروس عن هذه الشعوب كلّها جمعاً:

... الهيبيمولغيين، الرجال البارعين.
والغالاكتوفاغيين والأبيين، الأكثر عدلاً
بين البشر كلّهم.

(*الإلياذا* XIII، 5-6)

ويدعوهم الشّاعر «أبيين» لأنهم يعيشون منفصلين عن النساء، لأنه يرى أن الحياة من غير نساء تكون ناقصة (تماماً مثلما رأى بروتيسلايوس «ناقصاً» لأنه كان أرمل)[13]. وهو يتحدّث عن الميسيسيين بصفتهم «مقاتلي عراك»، لأنهم كانوا غير هيابين كأي مقاتلين شجعان آخرين. ويضيف بوسيدونيوس أنه ينبغي أن يكتب في النشيد «الثالث عشر»[14] بدلاً من «مسيانيين مقاتلي عراك» «ميسيسيين مقاتلي عراك».

4- ولكن ربّما يكون تغيير قراءة معتمدة على طول تلك السنين كلّها، أمراً لا لزوم له. فالاحتمال الأكبر هو أن يكون هذا الشعب قد حمل بادئ ذي بدء اسم الميسيسيين، ثمّ بات يدعى في زمن تال بالاسم الذي يحمله الآن. أمّا الأبيون، فيمكن تأويل اسمهم بمعنى «العازبين»، أو بمعنى «المحرومين من المواقد»، أو «الذين يعيشون في الخيام». فالظلم لا يظهر على وجه العموم إلا نتيجة للصفقات و[هناك حيث] تؤدّى آيات الاحترام للثروات المادية. ولذلك فإنه من المعقول لو دعي أمثال الأبيين الذين يعيشون حريصين على كفاية متواضعة، بالناس الأكثر عدلاً. وحقيقة الأمر، هي أن الفلاسفة الذين يقاربون بين العدالة والتواضع، يسعون قبل كلّ شيء إلى الاستقلال الشخصي والبساطة. ولذلك فإن بعضهم إذ دفع بالقناعة إلى حدّ التطرف، تحوّل إلى نمط عيش الكلبيين. أمّا فيما يخصّ «العيش من غير نساء»، فإنه لا يعطي ذريعة لمثل هذه التصوّرات، وأقلها في بلاد التراقيين، والأقل بينهم عند الجيتيين. وهاكم ما يقوله عنهم ميناندرس، وهو بالتأكيد لا يختلق المعلومات بل ينهلها من التاريخ:

وبعد قليل يسوق لنا أمثلة على إفراطهم في العلاقة مع النساء:

كل منهم عندنا يأخذ لنفسه عشر زوجات

أو إحدى عشرة، وآخرون أكثر من دستة،

وقد يأخذ أحدهم أربع زوجات أو خمس،

ويقتل نفسه عندهم من لا يعرف اللذات

وأغاني الأعراس

(مقطع 794، كيرتيه - تيرفيلدير)

هذه الحقائق يؤكّدها آخرون أيضاً. ولكن من المستبعد أن يرى أولئك الناس أنفسهم، أن الحياة من غير نساء، هي حياة تاعسة. وغني عن البيان القول، إن الإقرار بأن الذين يعيشون من غير نساء، هم أناس «أنقياء» و«كابنوباتيين»، هو قول يناقض المفاهيم المتفق عليها؛ فكلّهم يرى أن النساء هن اللواتي أسّسن «لمخافة الإله»[15]. فهن اللواتي يدعين أزواجهن لمزيد من تبجيل الآلهة، وإقامة الأعياد، ورفع الصلوات. ومن النادر أن تجد رجلاً يعيش لوحده حياة نقية. وهاكم ما يقوله ذلك الشّاعر نفسه كاشفاً عن رجل كدّرته نفقات النساء على القرابين:

الآلهة تمزقنا من غير رحمة،

خاصة نحن المتزوجين: دائماً

ينبغي إقامة عيد ما.

(مقطع 796، كيرتيه - تيرفيلدير)

ثم يبرز شخصاً كارهاً للزواج يشكو من هذا أيضاً:

لقد قدمنا ذبائح مرات خمس في اليوم،

كانت تضرب بالصنوج سبع خادمات،

والأخريات يندبن

(*مقطع 277، كيرتيه- تيرفيلدير*)

وعلى هذا النحو يكون من غير المنطقي أن نعتبر العازبين من الجيتيين انقياء متميّزين، ولكنّ الذي لا ريب فيه، هو أن هذه القبيلة كانت غيورة غيرة كبيرة على تبجيل الآلهة (وأنهم لم يستهلكوا الحيوانات في طعامهم انطلاقاً من دوافع تتعلّق بالفضيلة)، وهذا ما تؤكّده المعطيات التي ساقها بوسيدونيوس، وتلك التي أوردتها المصادر التاريخية.

5- وهكذا، يروى أن جيتياً يدعى زامولكسي كان عبداً لدى فيثاغورس. وقد تلقى هذا من الفيلسوف[16] بعض المعطيات عن الظاهرات السماوية، ومعلومات أخرى عن المصريين، لأنه وصل في ترحاله حتّى مصر. ولدى عودته إلى وطنه، بلغ زامولكسي شأناً مرموقاً لدى الحكّام والشعب بصفته مؤوّلاً للظاهرات السماوية. ونجح في آخر الأمر في أن يقنع الحاكم بأن يجعله معاوناً له بصفته يملك قدرة الكشف عن إرادة الآلهة. لكنّهم أسندوا إليه في بادئ الأمر وظيفة كاهن الإله الأعظم عندهم، وبعد ذلك أعلنوه هو نفسه إلهاً. لقد اختار زامولكسي [مقر إقامته] أحد الأماكن الكهفية العصية على الناس الآخرين كلّهم، وعاش هناك لا يقابل الناس إلا نادراً، ما عدا الملك وخدمه. وقد سانده الملك إذ رأى أن الشعب يخضع له الآن أكثر بكثير مما في الماضي، لأنه بات على ثقة بأنه يعطي تعليمات وإرشادات وفقاً لنصيحة الآلهة. وبقي هذا التقليد حتّى أيامنا هذه، لأنه كان يوجد عندهم دائماً شخص من النمط المهيأ فعلاً لأن يكون مستشاراً لدى الملك، وكان هذا يعدّ عند الجيتيين إله. وبدوره عد الجبل[17] مقدّساً أيضاً، وعلى هذا النحو دعاه الجيتيون، فاسمه كوغيون، وهذا الاسم هو عينه اسم النهر الذي يجري على مقربة. وعندما كان يحكم الجيتيين الملك بيريبيست[18]، الذي كان قيصر الإلهي يعدّ العدة لقتاله، كان ديكينيوس لا يزال هو الذي يشغل هذه الوظيفة. وبهذه الطريقة أو تلك لا تزال العادة الفيثاغورسية بعدم استهلاك الحيوانات في الوجبة الغذائية، قائمة حتّى اليوم.

6- وعلى الرغم من أن هكذا عقبات يمكن أن تظهر بخصوص نص هوميروس المعني عن الميسيسيين و«الرجال الغربيين الهيبيمولغيين»، وأن ظهورها أمر مشروع، إلا أن ما يؤكّده أبوللودوروس في مقدّمة كتابه الثاني: «عن السفن»[19] غير مقبول بأيّ

شكل من الأشكال. فهو يحبذ رأي إيراتوسفين عن أن هوميروس والكتّاب القدامى الآخرين، مع أنهم كانوا يعرفون البلدان الإغريقية كلّها، إلا أنهم أظهروا جهلاً تاماً بالأراضي النائية، لأنهم لم يكونوا ذوي خبرة في الرحلات البرية البعيدة، كما لم يكونوا بحارة ذوي دراية. ووفقاً لهذا يقول أبوللودوروس، إن هوميروس يصف أوليدا «بالصخرية»[20] (كما هي حالها فعلاً)، وإيتيونوس «بالحراجية - الهضابية»[21]، وفيسبا «بمحبوبة القطعان الزرقاء»[23]، وهاليارتوس «بذات المروج الكثيرة العشب»[23] ولكن لا هوميروس ولا الكتّاب الآخرون لم يعرفوا بحسب قوله، البلدان النائية. ثمّ يقول: على أي حال، مع أن ما يقارب 40 نهراً يصبّ في البونتس، إلا أن هوميروس لم يأت حتّى على ذكر الأكثر شهرة بينها كنهر الإيستر، ونهر تانايس، والبوريسفين، وهيبانيس، وفاسيس، وثرمودونس، وهاليس. وعدا عن أنه لا يأتي على ذكر السكيثيين، فإنه يختلق من دعاهم «بالرجال الغربيين الهيبيمولغيين»، و«الغالاكتوفاغيين»، و«الأبيين». أمّا البافلاغونيون الذين يعيشون في داخل البلاد، فيسوق عنهم معلومات تلقّاها ممن زاروا تلك المناطق براً، لكنّ الساحل[24] بالنسبة إليه مجهول. وهذا أمر طبيعي، لأنّ هذا البحر كان في تلك الأزمنة عصياً على الملاحة، وكان يدعى «الأكسيني»[25] بسبب العواصف الشتوية ووحشية قبائل الضواحي، خاصة السكيثيين، لأنّ هؤلاء كانوا يقدّمون الغرباء ذبائح ويأكلون لحومهم، ويستخدمون الجماجم كؤوساً. وفيما بعد، بعد أن بنى الإيونيون مدناً على الساحل، دعي هذا البحر بالبحر «الإيفكسيني»[26]. وعلى هذا النحو عينه لا يعرف هوميروس شيئاً عن الحقائق المتصلة بمصر وليبيا، كفيضان النيل مثلاً، وترسبات البحر، التي لم يذكر أي شيء عنها في أي مكان من ملحمتيه؛ كما لم يأت الشّاعر على ذكر البرزخ الواقع بين البحر الأحمر والبحر المصري، ولا على ذكر شبه جزيرة العرب، وإثيوبيا، والمحيط؛ وعليه يجب أن نوافق الفيلسوف زينون الذي يقترح القراءة الآتية:

لقد أوغل إلى السود الإثيوبيين،

ونزل ضيفاً على الصيدونيين، والعرب.

(*الأوذيسا* IV، 84)

ولكنّ عدم معرفة هوميروس بهذا كلّه ليس أمراً مستغرباً، لأنه حتّى الكتّاب الأحدث عهداً لا يعرفون الكثير، ويروون أشياء ليست أكثر من خزعبلات. فهسيود مثلاً، يتحدّث عن «بشر أنصاف كلاب»[27]، وعن «ذوي الرؤوس الكبيرة»، وعن «البجم»؛ ويتحدّث ألكمان عن «بشر أرجلهم غشائية»؛ وإيسخيليوس عن بشر لهم «رؤوس كلاب» و«بشر أعينهم في صدورهم»، وآخرين لهم «عين واحدة» (في

«بروميثيـوس»، كمـا يقولـون)[28]، وعـن كائنـات خرافيـة كـثيرة أخـرى. ثـمّ ينتقـل أبوللودوروس من الشعراء إلى المؤرّخين الذين يتحدّثون عـن «الجبـال الريبيـة»[29]، و«جبـل أوجيـوس»[30]، مـأوى الغورغونـات والهسـبيريدس؛ وعـن «الـبلاد الميروبيـة»[31] عنـد ثيوبومبـوس، و«المدينـة الكيميريـة» عنـد هيكـاتيوس، و«الـبلاد البانهيـة» عنـد إيفجيميروس[32]، و«الحجارة النهرية التي تشكّلت مـن الرمـل، لكنّها تتحلل بـالمطر»، عند أرسـطو[33]. ويواصـل أبوللـودوروس قـائلاً، إن في ليبيـا «مدينـة الديونيسـيين» الـتي لا يسـتطيع الشـخص نفسـه أن يدخلـها مـرتين. وهـو يلـوم أيضـاً أولئـك الـذين يجعلـون تيـه أوديسيوس الهوميروسي في أرجاء قريبة مـن صـقليا. ربّمـا إذا كـان يجـب أن نؤكـد علـى أن تيه أوديسيوس قد كـان هنـاك، لكـنّ الشّـاعر ولغـرض الإمعـان في التخيّـل فقـط نقلـه إلى ما وراء المحيط[34]. وإذا كان يمكننا أن نعذر الكتّاب الآخرين علـى هـذا، يضـيف أبوللودوروس، فليس ثمّة أي عذر كان لكاليمـاخ، لأنـه يـدّعي المعـارف اللغويـة: يؤكّـد كاليمـاخ أن غـاود، هـي «جزيـرة كاليبسـو»، وكـوركيرا جزيـرة «سـكيريا». ويلـوم أبوللـودوروس الآخـرين علـى اختلاقـاتهم بخصـوص «هيرينـا»، و«أكاكسـيوس»، و«ديمـوس» في إيثاكـا، و«بيليفرونيـوس» علـى بيليـون، و«غلاوكوبيـوس» في أثينـا. وفي الختام يضيف أبوللودوروس إلى هـذه الملاحظـات بعض التفاصـيل الأخـرى الصـغيرة الـتي اقتبسها كما هي عن إيراتوسفين، وهـي، كمـا أشـرت مـن قبـل[35]، غـير صـحيحة. ولا شـك في أنـه يمكننـا أن نوافـق أبوللـودوروس وإيراتوسـفين علـى أن الكتّـاب الحـديثين أكثر ضلوعاً في هذه المسائل من الكتّاب القدامى؛ إلا أنهم مـع ذلـك يتجـاوزون الحـدود المسموح بها في نقدهم لهوميروس، وكمـا أرى فإنـه يمكـن أن يوجَّـه إلـيهم لـوم محقٌّ، بـل وعلـى الضـد، إذ ينبغـي أن نشـير إلى أنهـم يلومـون الشّـاعر فيمـا لا يعرفونـه هـم أنفسـهم. وعما تبقى مما يمكن قوله في هذه المسألة، سوف نتحدّث في حينـه عـن وصـف البلـدان كلّ على حدة، كما عند وصفها على وجه العموم[36].

7- لقد تحدّثت حتّى الآن عن التراقيين [وذكرت]

الميسيانيين مقاتلي العراك والرجال الغريبين الهيبيمولغيين.

والغالاكتوفاغيين والأبيين، الأكثر عدلاً بين البشر كلّهم.

(*الإلياذا* XIII، 5-6)

لأنني رغبت في أن أقارن وصفي مـع روايـات بوسـيدونيوس وأبوللـودوروس، وإيراتوسـفين. وينبغـي أن نزيـد، إن حججهـم تتنـاقض مـع الموضـوعات الـتي طرحوهـا هـم أنفسـهم. فقـد وضعوا لأنفسهم مهمّة إثبات أن معلومات القدماء عن البلدان البعيـدة عـن اليونـان، أقـلّ مـن معلومـات الذين عاشـوا في زمـن أحـدث. ولكـنّهـم برهنـوا العكـس، لا فيمـا يتعلّـق

بالبلدان النائية وحسب، إنّما فيما يخصّ مناطق في اليونان نفسها أيضاً. ومع ذلك فلنترك الآن كلّ أمر آخر ولننظر أمراً واحداً فقط. فإيراتوسفين وأبوللودرورروس يؤكّدان أن هوميروس بسبب عدم معرفته لم يأت على ذكر السكيثيين وتعاملهم الوحشي مع الغرباء (الذين كانوا يقدّمونهم ذبائح، ويأكلون لحمهم، ويستخدمون جماجمهم كؤوساً)، مع أن البونتس دعي «أكسينياً» بسببهم، وأن الشّاعر اختلق

... الرجال الغريبين الهيبيمولغيين،

والغالاكتوفاغيين والأبيين الأكثر عدلاً بين البشر كلّهم،

(*الإلياذا* XIII، 5-6)

وهم الشعب الذي لا وجود له في أي مكان على الأرض. ولكن، كيف دعا القدماء البونتس «أكسينياً» لو لم يكونوا على علم بوحشية السكّان وبوجودهم أيضاً، وبصفتهم الشعب الأكثر وحشية؟ وهذا ما كان عليه السكيثيون بالتأكيد. والقبائل التي كانت تقطن وراء مناطق سكن الميسيسيين، والتراقيين، والجيتيين؟ ألم يكن هؤلاء هم الهيبيمولغيون[37]، والغالاكتوفاغيون[38]، والأبيون[39]؟ بل حتّى يومنا هذا لا يزال هناك من يدعون «سكّان الخيام»، و«الرحل» الذين يمارسون تربية الحيوانات ويقتاتون بالحليب والجبنة، خاصة جبنة اللبن المختمر، ولا يعرف هؤلاء صنع الاحتياطات، ولا التجارة، ما عدا تبادل السلع بالسلع. فكيف إذن لهوميروس ألاّ يعرف السكيثيين إذا كان قد ذكر «الهيبيمولغيين والغالاكتوفاغيين»؟ فمعاصرو الشّاعر دعوا السكيثيين هيبيمولغيين، وهسيود شاهد على هذا فيما أورده عنه إيراتوسفين:

الإثيوبيين، والليغوريين والسكيثيين- الهيبيمولغيين.

(*مقطع* 55، *رجاخ*)

ولكن، لما الاستغراب إذا كان هوميروس وبسبب تكرار حالات الغش عندنا لدى عقد الاتفاقات، قد أطلق صفة «الأكثر عدلاً»، و«الرجال الغريبين» على أولئك الذين أقل ما يفعلونه في حياتهم، هو عقد الصفقات والسعي لتحصيل المال، بل يملكون كلّ شيء جماعة، ما عدا السيف والكأس التي يشربونه بها[40]، حتّى زوجاتهم كن، وفق معايير أفلاطون، شراكة بينهم، وكذلك أطفالهم[41]. ويتوافق إيسخيليوس تماماً مع هوميروس عندما يقول عن السكيثيين:

لأنهم يأكلون الجبن من اللبن المختمر،

فهم، السكيثيون أهل عدل[42].

(*مقطع* 198، *ناؤوك*)

ولا يـزال هـذا الـرأي سـائداً عنـد الإغريـق حتّـى يومنـا هـذا، فـنحن نـرى أن السـكيثيين هـم الأكثـر اسـتقامة، والأقل قـدرة علـى الغـدر، وكـذلك الأكثـر حـذراً واسـتقلالية منّـا نحـن. ومجمـل القـول، هـو أن نمـط العـيش الـذي اعتمـدناه قـد أفسـد الأخـلاق عنـد الشـعوب كلّهـا تقريبـاً، إذ أدخـل إلى أوسـاطها البـذخ ومحبـة الملـذات، ولإشـباع هـذه العيـوب أدخـل أيضـاً الدسـائس الخسيسـة ومختلـف مظـاهر الجشـع الـتي تنتجهـا. وقـد تسـرب مثـل هـذا الفسـاد الأخلاقـي إلى أوسـاط القبائـل البربريـة بوضـوح كبير، وينسحب هذا خاصة على «الرحّل». فبعد أن تعرف هـؤلاء علـى البحـر باتوا فعـلاً أكثـر سـوءاً، مـن الوجهـة الأخلاقيـة (فقـد اتّجهـوا إلى القرصنـة البحريـة وبـاتوا يقتلـون الغرباء)، لكنّ تواصلهم مع قبائل كثيرة أفضـى بهـم إلى أن يقتبسـوا البـذخ والنـزوع إلى المساومات. والحقيقة أن هذا يسـاهم في تهـذيب الأخـلاق، إلا أنـه مـع ذلـك يفسـدها، لأنّ الخبث يحلّ محلّ النقاء، وهذا ما أشرت إليه قبل قليل.

8- ولكـنّ السـكيثيين الـذين عاشـوا قبلنـا بـزمن طويـل، خاصـة منـهم الـذين كـانوا قريبين لمعاصـري هـوميروس، قـد كـانوا موجـودين فعـلاً، وعـدهم الإغريـق، إلى حدّ ما، كما وصفهم هوميروس. فـانظر مـا يقولـه هـيرودوت عـن الملـك السـكيثي الـذي شن ضده داريوس حملة، وما أمر هذا الملك أن ينقل عنه إلى داريوس[43]. وانظـر كـذلك ما يقوله كـريسيب[44] عن الملوك البسبوريين من سـلالة ليفكـون. ومثـل هـذه الاسـتقامة التي تحدّثت عنها هنـا، تمـلأ الرسـائل الفارسـية والمقولات المصـرية، والبابليـة، والهنديـة الـتي تسـتحق الاحـترام. ولـذلك حظـي أناخارسـيس وأبـاريس وبعـض الأشـخاص الآخـرين ممـن يشـبهونهما بـاحترام كـبير عنـد الإغريـق، لأنهـم أظهـروا سمـات متميّـزة في تواضـع شعبهم، وبساطته، وعدله. ولكـن مـا الغـرض مـن الحـديث عـن القـدماء فقـط؟ لقـد شـن الإسـكندر ابن فيليب حملة ضدّ التراقيين الـذين كـانوا يقطنـون وراء جيمـوس؛ واجتـاح بلاد التريباليين، التي تمتدّ بحسب ما رأى، حتّى الإيستر وجزيرة بيفكـا الـتي عليـه، ثـمّ إلى المنـاطق الواقعـة وراء الإيسـتر والـتي يشـغلها الجيتيـون، ثـمّ انحـدر، كمـا يـروى، إلى الجزيرة؛ بيد أنه لم يستطع أن ينزل على الجزيرة بسبب نقص السفن، فملـك التريبـاليين سيرم الذي فرّ إلى هناك، قاوم مسعى الإنزال. عندئذٍ اتّجه الإسـكندر إلى بـلاد الجيتيين، فاستولى على مدينتهم، وأسـرع عائـداً إلى بلاده بعد أن تلقى هـدايا مـن هـذه القبائـل ومـن سـيرم. وحسـب بطليمـوس بـن لاغ أن السـلتيين الـذين كـانوا يقطنـون عنـد البحـر الأدرياتيكي انضمّوا إلى الإسكندر في حملته هذه، رغبة منهم في عقد تحالف صداقة وحسن ضيافة معه. وقد استقبلهم الملك على الرحب والسعة، وفي أثناء الوليمة سألهم عن

أكثـر مـا يخافونـه، متوقعـاً أن يجيبـوه: «أنـت». لكـنّ السـلتيين أجـابوا بـأنهم لا يخـافون شـيئاً، مـا عـدا سـقوط السـماء فـوق رؤوسـهم، مـع أنـه لا ريـب في أنهـم كـانوا يتمنـون صداقة مثل هذا الرجل أكثر من أي شيء آخر. وهاكم البرهان على استقامة البرابـرة: أولاً، لم يسـمح سـيرم للفرسـان بـدخول الجزيـرة، لكنّـه مـع ذلـك أرسـل الهـدايا وعقـد اتفاقية صداقة، ثانياً، لقد أعلن السلتيون أنهم لا يخافون أحداً، لكنّهم يقدّرون أكثـر ما يقدّرون صداقة الناس العظماء. وفي زمن خلفاء الإسـكندر، اختطـف دروميخـت ملـك الجيتيين، ليسيماخ حياً[45]، وكـان هذا قد شن حملة ضده. وبعـد ذلـك لفـت الملك نظـر ليسيماخ إلى فقره وفقر قبيلته، لكنّه أكّد في الوقت نفسـه علـى اسـتقلاليتهم، وأشـار عليه بالا يحارب مثل هذه القبائل، بل يقيم معهـا علاقـات صـداقة. وبعـد هـذه الكلمـات أقام الملك وأسيره استقبالاً حافلاً وعقد معه اتفـاق ود وصـداقة، ثـمّ أطلـق سـراحه. ويـرى أفلاطون في كتاب «الدولة» أنـه يجـب علـى مـن يرغـب في بنـاء دولـة بنـاء جيـداً أن يبتعـد قدر الإمكان عن البحر ابتعاده عن مرشد سيئ، وألا يعيش على مقربة منه[46].

9- في الكتاب الرابع من «تاريخه» وتحت عنوان «أوروبا»[47]، يصـف إيثـور أوروبـا وصـولاً إلى سـكيثيا، ويقـول قبيـل الخاتمـة، إن نمـط حيـاة السـارماثيين وسـواهم مـن السـكيث الآخـرين، لـيس واحـداً، لأنّ بعضـهم قسـاة إلى درجـة أنهـم يـأكلون اللحـم البشـري، ولكـنّ الآخـرين علـى الضـدّ، يمتنعـون عـن اسـتهلاك الكائنـات الحيـة في طعامهم. وحسب إيثور أن الكتّاب الآخرين لا يذكرون سـوى وحشـيتهم، لأنهـم يعرفـون أن المخيف والمدهش يثيران الخـوف، بيـد أنـه ينبغـي، بحسـب إيثـور، أن يجـري الحـديث أيضاً عن الحقائق المناقضة، واتخاذها نموذجاً للمحاكـاة؛ ولذلك فإنه هو نفسه لن يتحدّث إلا عـن أولئـك الـذين يتبعـون أكثـر العـادات حكمـة ونقـاء؛ فـبين السـكيثيين - الرحـل قبائل تقتات على اللبن المختمر، وتفـوّق القبائـل الأخـرى كلّهـا عـدلاً. وقـد جـاء الشـعراء على ذكر هؤلاء. وهوميروس تحديداً يقول، إن زيوس ينظر من الأعالي إلى أرض:

الغالاكتوفاغيين والأبيين أكثر الناس عدلاً.

(*الإلياذا* XIII، 6)

ويقول هسيود فيما يدعى «طواف الأرض»، أن الهربيات قدن ثينيوس إلى:

أرض الغالاكتوفاغيين، الذين مساكنهم المركبات.

وبعـد ذلـك يـورد إيثـور سـبب بسـاطة عيشـهم وعـدم ميلـهم إلى الطمـع بالمـال، والتـزامهم العـادات الطيبـة تجـاه بعضـهم بعـض (لأن كـلّ شـيء عنـدهم مشـترك، حتّـى النسـاء والأطفـال والعائلـة كلّهـا)، فالغربـاء لا يهزمـونهم ولا ينتصـرون عليهم، لأنهـم لا

يملكـون شـيئاً يسـتحق أن يسـتعبدوا بسـببه. وينقـل إيثـور عـن كيريلـوس الـذي يقـول في «عبوره الجسر العائم»[49] (وكان داريوس قد بنى هذا الجسر)[50]:

الساكيون رعاة الضأن بالولادة سكيثيون؛

إنهم يعيشون في آسيا الوفيرة الأقماح. ومع

أنهم أحفاد النوماديين، لكنّهم أناس لا عيب فيهم...

ويصف إيثور أناخارسيس بالحكيم، فيقول، إنه ينتمي إلى هذه القبيلة، وقد عدّ واحداً من سبعة حكماء لنقائه الأخلاقي وعقله. وينسب إليه ابتكار كير الحداد، والمرساة ذات الخطّافين، ودولاب الفخار. وأنا أذكر هذا مع أنني أعرف جيداً أن إيثور نفسه لا يقول الحقيقة كاملة في كلّ مرّة، كما هو واضح من قصة أناخارسيس. فكيف يمكن أن يكون دولاب الفخار من ابتكاره إذا كان هوميروس الذي عاش من قبل قد عرف عن هذا الدولاب؟

سهل كما في المعسكر، يدور الدولاب تحت يد خبيرة...

(*الإلياذا* XXIV، 600)

وإلى ما هنالك. وقد أردت أن أبين بهذا كيف نشأ من رواية شائعة في الزمن القديم، اعتقاد في الزمن الحديث بأن فريقاً من «الرحل» الذين كانوا يقطنون أبعد ما يكون عن الناس الآخرين، كان من الغالاكتوفاغيين، والأبيين، و«الأكثر عدلاً بين الناس»، وأن هذا بالتالي ليس اختلاق هوميروس.

10- وفيما يخصّ الميسيسيين الذين ورد ذكرهم في شعر هوميروس، فإن من المشروع أن نطالب أبوللودوروس بتقديم الحساب: هل يرى أن الميسيسيين هم أيضاً اختلاق الشّاعر عندما يقول:

الميسيانون مقاتلو عراك والرجال الغريبون الهيبيمولغيون،

(*الإلياذا* XIII، 4)

أم أنه يرى فيهم أولئك الذين يعيشون في آسيا؟ وفي الأحوال كلّها، إذا ما عدهم أبوللودوروس ميسيسييّ آسيا، فإنه يخطئ في تأويل هوميروس، كما كنت قد قلت سابقاً، أمّا إذا ما كان يرى فيهم اختلاق الشاعر، قاصداً بذلك أنه لم يكن للميسيسيين وجود في تراقيا، فإنه يقع في تناقض مع الوقائع. ففي زمننا هذا هجَّر إيليوس كاتوس[51] إلى تراقيا من الجهة الأخرى لنهر إيستر 50.000 جيتيّ من القبيلة التي تتحدّث اللغة نفسها التي يتحدّثها التراقيون. ولا يزال هؤلاء يعيشون هناك حتّى اليوم، ويدعون ميسيسيين؛ فهل دعي أسلافهم بهذا الاسم أم أنهم في آسيا فقط بدلوه

وباتوا يدعون «ميسيسيين»، أم، وهذا يتوافق أكثر مع قول الشاعر، أن قبيلتهم كانت تدعى منذ القدم في تراقيا قبيلة الميسيسيين؟ لكن ما قلناه عنهم هنا يكفي؛ وسوف أعود الآن إلى مواصلة وصفي.

11- سوف نترك تاريخ الجيتيين القديم جانباً؛ أمّا فيما يخصّ الأحداث التي تنتمي إلى زمننا هذا، فإنها على النحو الآتي تقريباً. لقد توصل الجيتي بيريبيستا إلى السلطة العليا في قبيلته. فقد نجح في النهوض بشعبه الذي أضنته الحروب الطويلة، وارتقى به عن طريق التمارين الفيزيائية، والتقشف والامتثال لأوامره، بحيث نجح في خلال سنوات في أن يبني دولة جبّارة أخضعت للجيتيين الجزء الأكبر من القبائل المجاورة. لقد أصبح بيريبيستا يثير الخوف حتّى عند الرومان، لأنه عبر الإيستر غير هيّاب، ونهب تراقيا حتّى حدود مقدونيا وإيلليريا؛ كما اجتاح بلاد السلت الذين تخالطوا مع التراقيين والإيلليريين وخربها؛ أمّا البويون الذين كانوا تحت سلطة كريتاسير والتاورسكيين، فقد دمّرهم تماماً. ولكي يبقي القبيلة تحت السيطرة، طلب عون الكاهن المتنبّئ ديكينيوس[52]، الذي جال في مصر وتعلم معرفة بعض العلامات وإعلان إرادة الآلهة على أساسها. وسرعان ما أعلنوه بعد ذلك إلهاً، كما كنت قد أسلفت عند حديثي عن زامولسكي[53]. ويتمثل البرهان على خضوع الجيتيين الكامل له، في أنهم أباحوا لأنفسهم أن يقتنعوا باقتلاع دوالي العنب والعيش من غير خمرة. ولكن بعد أن أعلن بعض العصاة تمرداً ضدّ بيريبيستا، أطيح بهذا الأخير قبل أن يشنّ الرومان حملتهم عليه. وبعده قسم خلفاؤه الدولة إلى أجزاء. ولمّا أرسل أغسطس قيصر قواته ضدّ الجيتيين كان هؤلاء ينقسمون فعلاً إلى خمسة أجزاء، وفي أثناء الانتفاضة إلى أربعة. ولكنّ مثل هذه الانقسامات كانت عند الجيتيين مؤقتة وتختلف حسب اختلاف الظروف.

12- وهناك تقسيم آخر لهذه البلاد بقي منذ الأزمنة القديمة: فريق من سكّانها يدعى داكيين، وفريق آخر جيتيين؛ وهؤلاء الأخيرون هم الذين نحو البونتس وإلى الشرق، أمّا الداكيون فبالاتجاه المعاكس، نحو جرمانيا وإلى منابع إيستر. وأنا أظنّ أن الداكيين كانوا يدعون قديماً دافيين. ومن هنا جاءت تسمية العبيد في أتيكا بالجيتي والدافي. وهذا أقرب إلى الواقع من اشتقاق تسمية دافي من السكيثيين الذين يدعونهم دائيين، لأنهم يعيشون بعيداً عن هركانيا، ومن المستعبد أن يكونوا قد جاؤوا بالعبيد من هناك إلى أتيكا. فهناك لم يدع العبيد إلا بأسماء بلدانهم (مثلاً «ليديّ» أو «سوري»)، أو بالأسماء الشائعة في تلك البلدان، مثل «مانيس» أو «ميداس» للعبد

الفريجي، أو «تيبيوس» للعبد البافلاغوني. ولكنّ هذه القبيلة التي أعلى بيريبيستا شأنها، أنهكتها الحروب الأهلية وأضعفتها ضربات الرومان تماماً. ومع ذلك لا يزال الجيتيون قادرين حتّى يومنا هذا على تجنيد 40.000 مقاتل.

13- عبر بلاد الجيتيين يجري نهر ماريس إلى الدانوب الذي كان الرومان يعوّمون فيه التجهيزات والأعتدة الضرورية للقوّات. فالمجرى الأعلى لنهر إيستر، أي من منابعه حتّى الكاتاراكتا، اعتادوا تسميته الدانوب (في هذا الشطر يجري النهر أساساً في بلاد الداكيين)؛ أمّا مجراه الأدنى وصولاً إلى البونتس، حيث يجري النهر على مقربة من بلاد الجيتيين، فإنه على الضدّ من هذا يدعى الإيستر. إن الداكيين والجيتيين يتحدّثون لغة واحدة. ومعرفة الإغريق بالجيتيين أقوى بسبب نزوحهم المتواصل على ضفتي الإيستر، ولأنهم تخالطوا مع التراقيين والميسيسيين. كما تعرضت لمثل هذا التخالط أيضاً، قبيلة التريباليين (وهي قبيلة تراقية أيضاً). وواقع الأمر أن التريباليين أتاحوا النزوح إلى بلادهم، لأنّ جيرانهم أرغموهم على النزوح إلى مناطق القبائل الأضعف؛ فالسكيثيون، والباستارنيون، والسارماثيون على الجانب المقابل من النهر، غالباً ما فاقوهم قوّة إلى درجة أنهم كانوا يعبرون النهر في إثر الذين كانوا قد طردوهم، وقد استقر فريق كبير منهم إمّا على الجزر، أو في تراقيا، أمّا أولئك الذين قطنوا على الجانب الآخر من النهر، فقد هزم القسم الأكبر منهم أمام الإيلليريين. إن الجيتيين والداكيين الذين بلغوا في زمن ما أعلى درجات القوّة، وكانوا قادرين على تجنيد 200.000 مقاتل، قد ضعفوا الآن إلى حدّ لم يعد باستطاعتهم أن يجنّدوا أكثر من 40.000 مقاتل، وقد انحدروا إلى ما يقارب خضوعهم للرومان. ومع ذلك لم يخضعوا تماماً، لأنهم يعقدون الأمل على الجرمان الذين يعادون الرومان.

14- في المنطقة الوسطى التي تتّجه نحو بحر البونتس في شطره الممتدّ من الإيستر حتّى تيراس، تقع «صحراء الجيتيين»، وهي عبارة عن سهل ممتدّ لا ماء فيه. وهنا وقع داريوس بن غستاب في مصيدة بينما كان يعبر الإيستر في حملته على السكيثيين، إذ حاق به خطر الهلاك عطشاً مع جيشه؛ ولكنّ الملك أدرك مدى الخطر، وإن متأخراً، وعاد أدراجه. وفيما بعد عندما قاد ليسيماخ حملته ضدّ الجيتيين وملكهم دروميخت، حاق به الخطر عينه، بل ووقع أسيراً. لكنّه نجا من الأسر، كما كنت قد أشرت[54]، وحظي بمعاملة دافئة ودّية من جانب البربري.

15- وتقع في مصبّ الإيستر جزيرة كبيرة، هي جزيرة بيفكا. وقد دعي سكّانها الباستارنيون، بيفكينيين. وثمّة هناك جزر أخرى أيضاً، لكنّها أصغر

بكثير: بعضها أعلى من بيفكا، والأخرى غير بعيدة عن البحر، لأنّ لنهر إيستر سبعة مصبّات. ويدعى أكبرها «المصبّ المقدّس»[55]، الذي يمكن الصعود فيه إلى الأعلى حتّى جزيرة بيفكا، - 120 مرحلة؛ وفي شطره السفلي بنى داريوس جسراً عائماً، مع أن بناءه في شطره العلوي كان ممكناً. وهذا «المصبّ المقدّس»، هو الأول من الجهة اليسرى، إذا أبحرت إلى البونتس[56]؛ ثمّ تأتي المصبّات الأخرى تباعاً بعضها إثر بعض، إذا أبحرت على امتداد الضفّة إلى تيراس. ويقع المصبّ الأول بعيداً عن المصبّ الأخير بمسافة تقارب 300 مرحلة. وتتشكّل بين هذه المصبّات جزر صغيرة. والمصبّات الثلاثة التي تلي «المصبّ المقدّس» ليست كبيرة، أمّا الأخرى فهي أصغر بكثير من «المقدّس» لكنّها أكبر من الأخرى. بيد أن إيثور لا يحصي سوى خمسة مصبّات لإيستر. ومن إيستر إلى تيراس (النهر صالح للملاحة) 900 مرحلة. وتقع بين هذين النهرين بحيرتان كبيرتان؛ إحداهما مفتوحة (لها مخرج) على البحر، ولذلك يمكن أن تشكّل ميناء؛ والأخرى من غير ثغر.

16- ويقوم عند مصبّ تيراس برج يدعى «برج نيوبتوليموس»[57]، وقرية تدعى «قرية هرموناكس». وإذا ما صعدنا مع النهر 140 مرحلة، فإن مدينتين تلاقياننا على ضفتيه: على الضفّة اليمنى نيكونيا، وعلى اليسرى أوفيوسا. ويتحدّث سكّان السواحل، عن مدينة أخرى تقع على بعد 20 مرحلة على المجرى الأعلى للنهر[58]. وعلى بعد 500 مرحلة عن المصبّ تقع في عرض البحر جزيرة ليفكوس.

17- ثمّ يأتي نهر البوريسفين الصالح للملاحة مسافة 600 مرحلة؛ ويجري على مقربة منه نهر آخر، هو نهر هيبانيس، وتقع أمام مصبّ البوريسفين جزيرة فيها ميناء. وإذا ما أبحرت في البوريسفين إلى الأعلى 200 مرحلة، فستلقاك مدينة تحمل اسم النهر نفسه؛ ولكنّها تدعى أيضاً أولبيا[59]، وهي ميناء كبير بناه الميلتوسيون. وتتألّف كلّ البلاد الواقعة على الساحل المذكور بين البوريسفين والإيستر من أولاً، «صحراء الجيتيين»[60]، ثانياً، منطقة التيروجيتيين[61] التي تليها منطقة السارماث اليازغيين، ثمّ بلاد الذين يدعون بالسارماث الملكيين، فبلاد الأورغيين[62]، وأكثر هؤلاء من البدو الرحل (مع أن بعضهم يمارس العمل الزراعي). ويقولون، إن هذه الأقوام تعيش على الإيستر، وفي أحيان كثيرة على ضفّتيه. ويقطن الباستارنيون في عمق البلاد، حيث يجاورون التيرجيتيين والجرمان؛ وقد يكون الباستارنيون شعباً جرمانياً أيضاً، وينقسمون إلى عدة قبائل. وفعلاً فإن بعضهم يدعى أتمونامبين، والآخرين سيدونامبين؛ ويدعى الذين يمتلكون بيفكا، وهي جزيرة على الإيستر، يدعون بيفكينيين، أمّا

الـذين يقطنـون شمـالاً في السـهول الواقعـة بـين تانـايس والبوريسـفين، فيـدعون روكسولانيين. وبقدر ما هو معروف، فإن البلاد كلّها إلى الشمال من جرمانيا وصولاً إلى بحر قزوين، عبارة عن سهل. ونحن لا نعرف ما إذا كان ثمّة قبيلة ما تقطن وراء الروكسولانيين. وتحت قيادة تاسيوس حارب هؤلاء قادة جيوش ميتريدات إيفباتور. كما جاؤوا لمساعدة بالاك ابن سكيلور، وعدّوا مقاتلين أشداء. بيد أن أي شعب بربري وحشد من المسلحين تسليحاً خفيفاً يكون عاجزاً تماماً أمام أيّ كتيبة منظمة ومسلحة تسليحاً جيداً. وعلى أي حال فقد عجز الروكسولانيون الذين يبلغ عددهم حوالي 50.000 نسمة، عن أن يصمدوا أمام 6000 مقاتل دفع بهم ضدهم ديوثانتوس أحد قادة قوات ميتريدات، وهلك أكثر في المعركة. ويستخدم هؤلاء خوذاً ودروعاً مصنوعة من جلد الثور الخام، ويحملون تروساً مجدولة كوسيلة دفاعية؛ ولديهم أيضاً رماح، وأقواس، وسيوف. وعلى هذا النحو يتسلّح أكثر البرابرة الآخرين. أمّا الرحّل فإن خيامهم اللبّادية تشدّ إلى العربات التي يسكنون فيها. وحول الخيام تسرح القطعان التي يقتاتون على لبنها، وجبنها، ولحومها. ويسرح هؤلاء بقطعانهم دوماً بالدور، فيختارون الأماكن الغنية بالأعشاب، شتاء في المستنقعات حول ميوتيدا، وصيفاً في السهول.

18- إن كلّ البلاد وصولاً إلى المناطق الساحلية بين البوريسفين وثغر ميوتيدا، تتميّز بشتاء قاس. ولكن الأكثر شمالاً بين المناطق الساحلية نفسها، هو ثغر ميوتيدا، والأكثر شمالاً منها، مصبّ البوريسفين ومنخفض الخليج التاميراكي أو الكاركينتي، حيث يقع برزخ الكيرسونيس الكبير. وعلى الرغم من أن سكّان هذه المناطق يقطنون السهول، إلاّ أن الطقس هنا بارد، وهذا واضح من أن السكّان هنا لا يربّون الحمير (لأن هذا الحيوان لا يتحمّل البرد)؛ ويولد البقر هنا من غير قرون أو يقطعون له قرونه، لأنّ هذا العضو [من أعضاء الجسد] شديد الحساسية نحو البرد؛ أمّا الأفراس فهي قصيرة القامة؛ والأغنام كبيرة الحجم؛ وتتفجر أواني الماء هنا [من شدّة الصقيع]، ويتجمّد ما فيها. وتظهر صرامة الصقيع هنا بأسطع صورها في سياق ما يحصل في ثغر ميوتيدا. فالطريق البحرية من بانتيكابيوس إلى فوناغوريا تغدو متاحة للعربات، بحيث لا تعود الرحلة رحلة بحرية فقط، بل برية أيضاً. والسمك الذي يصاد في الجليد هنا عن طريق «نبشه» بما يسمّى «الغانغا»[63]، خاصة «الزجر»[64]، يماثل حجم الدلفين تقريباً. ويُروى أن نيوبتوليموس قائد قوّات ميتريدات، دمّر في هذا الخليج قوات البرابرة في معركة بحرية وقعت في الصيف، وهزمهم في المكان عينه شتاء في صدام بين قوّات الفرسان[65]. ويروى أيضاً أن سكّان البسبور يطمرون دوالي العنب شتاء تحت طبقة

سميكـة مـن التراب. وحسـب الروايات أن الحـرّ يبلـغ هنـا مسـتويات عاليـة جـدّاً، وربّمـا يكون سبب هذه الروايات عائداً إلى كون جسم السكّان هنا لم يعتد مثل هذا الحرّ كلّه، أو لأنّ الرياح في السهول كانت ساكنة عندئذٍ، أو لأنّ الهواء الكثيف يسخن أكثر، كما تفعل «الشموس الكاذبة»[66] في السحب. ويبدو على أرجح تقدير أن أكثر برابرة هذه المنطقة كانوا تحت سلطة أتيوس الذي حارب فيليب ابن أمينتا.

19- وراء الجزيرة[67] التي تقع أمام البوريسفين باتجاه مطلع الشمس، تمرّ طريق بحرية تؤدّي إلى رأس إيبودروم أخيلليس البحرية، وهي مكان على الرغم من أنه خال من أي نباتات، إلاّ أنه يدعى «الدّغل» المكرّس لأخيلليس. ثمّ يأتي بعد ذلك إيبودروم أخيلس، وهي شبه جزيرة ثابتة. وهذه عبارة عن شريط ضيّق من الأرض يمتدّ شرقاً بطول يقارب 1000 مرحلة؛ عرضها الأقصى مرحلتان، والأدنى 4 بليفرات[68]؛ وتبعد عن القارّة 60 مرحلة على جانبي البرزخ. وهي غور رملي ضحل يستخرج الماء منه بحفر آبار. ويقع الشطر الضيّق من البرزخ عند الوسط، ويبلغ عرضه حوالي 40 مرحلة. وتنتهي شبه الجزيرة برأس بحرية تدعى تاماراكا، حيث يقع مرسى شراعي يتّجه نحو القارّة. ويأتي بعد هذه الرأس الخليج الكاركينيتي؛ وهو خليج كبير جدّاً يمتدّ نحو الشمال ما يقارب 1000 مرحلة. لكنّ بعضهم يؤكّد أن المسافة حتّى منخفض الخليج نفسه أكبر بثلاث مرّات. والقبيلة التي تقطن هنا تدعى قبيلة التافريين. ويدعى الخليج بدوره باسم الرأس البحرية: خليج تاماراكا[69].

الفصل الرابع

1- يقع هنا البرزخ[1] الذي يفصل البحيرة التي تسمى سابرا[2] عن البحر؛ عرضه 40 مرحلة ويشكّل ما يدعى كيرسونيس التافرية أو السكيثية. وحسب بعضهم أن عرض هذا البرزخ 360 مرحلة. ومع أن امتداد بحيرة سابرا 4000 مرحلة، كما يقولون، إلاّ أنها نفسها ليست سوى جزء من ميوتيدا الذي يصلها به ثغر عريض. وهو مستنقعي جدّاً وبالكاد صالح للقوارب المصنوعة من الجلود، لأنّ الرياح تكشف الأماكن الضحلة فيه، ثمّ تغمرها بالمياه من جديد؛ ولذلك فإن المستنقعات عصية على السفن الكبيرة. وتقع في الخليج ثلاث جزر، وهناك على طول الشاطئ عدد من الأماكن الضحلة وقليل من الحجارة تحت المياه.

2- لدى الخروج من الخليج، وعلى جهته اليسرى، ثمّة مدينة صغيرة وخليج[3] آخر للكيرسونيسيين. وإذا ما أبحرت إلى الأمام على طول الساحل، تعقب رأس بحرية[4] كبيرة تمتدّ في عمق البحر نحو الجنوب، وتشكّل هذه الرأس جزءاً لا يتجزأ من

كيرسـونيس[5]. وتقـع في هـذا المكـان مدينـة الهيراقلـيين (مسـتعمرة الهيراقلـيين علـى البونتس)[6]، الـتي بـدورها تسـمّى كيرسـونيس، وإذا أبحـرت علـى طـول السـاحل، فهـي تبعد 4400 مرحلة عـن تـيراس. ويقـوم في المدينـة معبـد ديفـا[7] (معبـودة مـا). وعلـى مسـافة 100 مرحلة أمام المدينـة تقع رأس بحرية تـدعى باسـم هـذا المعبـود: بـارثينيوس[8]، ويقـوم هنا أيضاً معبـد لهذا المعبـود وتمثاله. وهنـاك ثلاثـة مـراس بـين المدينـة والـرأس. تلـي ذلـك كيرسونيس القديمة الراقدة تحت أنقاضها، ثمّ مرسـى ذو مـدخل ضيّق، حيـث كـان التـافريون (قبيلـة سـكيثية) يجمعـون عصـاباتهم عـادة، ويغيّـرون مـن هنـاك علـى الـذين ينجون ويلجؤون إلى هنـا. ويـدعى هـذا المرسـى سـيمبولون لـيمين[9]، ويشـكّل مـع مرسـى آخر يدعى كتينونت[10] برزخـاً في 40 مرحلـة. إن هـذا البـرزخ الـذي يغلـق الكيرسـونيس الصغيرة، كما قلت، يشكّل جزءاً من الكيرسونيس الكبيرة، مع مدينة كيرسونيس التي تحمل اسم شبه الجزيرة.

3- لقـد كانـت هـذه المدينـة[11] مدينـة مسـتقلّة، لكنّهـا تعرضـت للنهـب والسـلب على أيدي البرابـرة، فوجـدت نفسـها مرغمـة علـى اختيـار ميتريـدات إيفبـاتور حاميـاً لهـا، وقد عزم هذا الأخير على أن يتزعم البرابرة الذين كانوا يقطنـون وراء البـرزخ[12] وصـولاً إلى البوريسـفين وأدريـوس. وكانـت مسـاعي ميتريـدات تلـك تجـري في إطـار اسـتعداداته للحملة ضدّ الرومان. وهكذا أرسل ميتريدات محلقاً على أجنحة هـذه الآمـال العريضـة، قواتـه ضـدّ كيرسـونيس، وبـدأ في الوقـت نفسـه حربـه ضـدّ السـكيثيين، ولـيس ضـدّ سكيلور وحده، إنما ضدّ أبنـاء هـذا الأخير أيضـاً- ضـدّ بـالاك وسـواه (عـددهم بحسـب بوسيدونيوس 50، وحسب أبوللونيدس 80). وفي ذلك الوقت نفسـه تمكـن ميتريـدات مـن أن يخضعهم كلّهم بالقوّة ويغدو سيّد البسبور، إذ تنازل لـه سـيّد هـذه المنطقـة باريسـاد، عنها طوعـاً. ومنـذ ذلـك التـاريخ حتّـى يومنـا هـذا، ومدينـة كيرسـونيس خاضـعة لسـلطة حكّام البسبور. ويقع مرسى كتينونت على مسـافة واحـدة مـن مدينـة الكيرسـونيسـيين وسيمبولون ليمين. وبعـد سـيمبولون لـيمين حتّـى مدينـة فيودوسـيا يمتـدّ السـاحل التـافري بطـول يقـارب 1000 مرحلـة. وهـذا السـاحل سـاحل صـخري، جبلـيّ ومعـرّض لعواصـف شديدة من جهة الشمال. وتقع أمام السـاحل التـافري رأس بحريـة تبـرز عميقـاً في عـرض البحـر نحـو الجنـوب باتجـاه بافلاغونيـا ومدينـة أماسـتريدس، وهـي تـدعى كريوميتوبون[13]. وتقـوم قبالتهـا الـرأس البحريـة البافلاغونيـة كـارامبيوس الـتي تقسـم البـونتس الإيفكسـيني إلى بحـرين يضـيّق عليهـا مـن الجـانبين مضـيق[14]، يقـع علـى بعـد 2500 مرحلـة مـن مدينـة الكيرسـونيسـيين كـارامبيوس، وأقـرب بكـثير إلى كريوميتوبون. وفي الأحـوال كلّهـا فـإن كـثيراً مـن البحـارة الـذين عبـروا هـذا المضـيق،

يقولون إنهم رأوا الرأسين في وقت واحد على الجانبين. وفي منطقة التافريين الجبلية يقع جبل ترابيزونت الذي يحمل اسم المدينة التي تقع على مقربة من تيبارانيا وكولهيدا. وعلى مقربة من هذه المنطقة الجبلية يرتفع جبل آخر، هو جبل كيميريوس [الذي دعي بهذا الاسم]، لأنّ الكيميريين سادوا على البسبور في زمن ما. ولذلك فإن شطراً كاملاً من المضيق[15]، هو الشطر الذي يمتدّ حتّى ثغرميوتيدا، يدعى البسبور الكيميري.

4- وتقع وراء المنطقة الصخرية المذكورة، مدينة فيودوسيا. وتشغل المدينة سهلاً خصباً ولها ميناء تستطيع استقبال مئة سفينة. وكانت هذه الميناء من قبل حدّاً بين أرض البسبوريين والتافريين. والمنطقة التي تلي، هي منطقة خصبة بدورها حتّى بانتيكابيوس، التي تعدّ عاصمة البسبوريين، وهي تقع عند ثغر ميوتيدا. والمسافة بين فيودوسيا وبانتيكابيوس 530 مرحلة؛ وتعدّ هذه المنطقة كلّها موئلاً لزراعة الأقماح؛ وفيها قرى ومدينة فيها ميناء رائعة اسمها نيمفييوس. وبانتيكابيوس عبارة عن تلّ مسكون من جهاته كلّها بمحيط يبلغ امتداده عشرين مرحلة. وتقع في الجهة الشرقية من المدينة ميناء وترسانة لإصلاح السفن تتسع ما يقارب 30 سفينة؛ ويوجد هناك أكروبوليس أيضاً. وقد بنى الميلتوسيون هذه المدينة. وعلى امتداد زمن طويل حكم في المدينة والقرى المجاورة الواقعة قرب ثغرميوتيدا على الجانبين، حكّام مثل ليفكون، وساتير، وباريساد، إلى أن تنازل هذا عن سلطاته لميتريدات. وقد دعي هؤلاء الحكّام بالتيرانيين، مع أن أكثرهم ابتداء من باريساد وليفكون كانوا حكّاماً يستحقّون أن يحكموا، بل لقد بجّلوا باريساد بصفته إله[16]. وآخر تيران كان يدعى باريساد أيضاً[17]؛ وكان هذا عاجزاً عن مواجهة البرابرة الذين طالبوا بإتاوة أكبر من التي كانت تؤدى لهم من قبل، ولذلك وجد باريساد هذا نفسه مضطراً إلى التنازل عن السلطة لميتريدات إيفباتور. ومنذ زمن ميتريدات باتت المملكة تحت سلطة الرومان. ويقع الشطر الأكبر من أراضيها في أوروبا، بيد أن شطراً آخر يقع في آسيا.

5- إن ثغر ميوتيدا يدعى البسبور الكيميري. والثغر أكثر عرضاً في بدايته: حوالي 700 مرحلة؛ ومن هنا يتوجهون من منطقة بانتيكابيوس إلى فاناغوريا، وهي أقرب مدينة في آسيا؛ ثمّ ينتهي الثغر بمضيق أكثر ضيقاً. وهذا المضيق ومعه نهر تانايس الذي يجري مباشرة من الشمال إلى البحيرة ثمّ إلى مصبّه، يفصلان آسيا عن أوروبا. ويصبّ نهر تانايس في البحيرة بمصبّين يبعد واحدهما عن الآخر 60 مرحلة. وتقع هناك مدينة[18] تحمل اسم النهر نفسها، وهي المدينة الأكبر بعد بانتيكابيوس إيمبوريوس البرابرة. وعند مدخل البسبور الكيميري على اليسار تقع مدينة صغيرة هي مدينة ميرميكي التي تبعد 20 مرحلة عن بانتيكابيوس. وعلى بعد ضعف هذه المسافة

من بانتيكابيوس تقع بلدة بارثيني؛ والمدخل هنا هو الأكثر ضيقاً: حوالي 20 مرحلة؛ وقبالة هذه البلدة في آسيا تقع بلدة تدعى أخيللوس[19]. ومن هنا بطريق بحرية مباشرة إلى تانايس والجزيرة[20] الواقعة على مصبّه، 2200 مرحلة؛ ولكن إذا أبحرنا على طول ساحل آسيا، فإن المسافة تزيد قليلاً؛ أمّا إذا أبحرنا يساراً على طول الساحل حتّى تانايس، حيث يقع البرزخ، فإن المسافة أكبر بأكثر من ثلاث مرّات؛ وهذا الساحل كلّه على الجانب الأوروبي مقفر، لكنّ الساحل على جهة اليمين ليس خالياً من البشر. وحسب الأخبار المنقولة أن محيط البحيرة كلّه يشكّل 9000 مرحلة. وكيرسونيس الكبرى تشبه البيلوبونيز من حيث الشكل والحجم. ويمتلك كيرسونيس حكّام البسبور[21] مع أن الحروب المتواصلة دمّرت هذه المنطقة وأفقرتها. ولم يمتلك هؤلاء من قبل سوى شطر صغير من البلاد الواقعة عند ثغر ميوتيدا وبانتيكابيوس حتّى فيودوسيا، أمّا الشطر الأكبر حتّى البرزخ والخليج الكاركينيتي، فقد شغلته قبيلة التافريين السكيثية. إن هذه البلاد، وكذلك كلّ المنطقة الواقعة وراء البرزخ حتّى البوريسفين تقريباً، دعيت باسم سكيثيا الصغرى. ولكن، لأنّ كثرة من الناس نزحت من سكيثيا الصغرى عبر تيراس وإيستر وسكنت في تلك البلاد، فقد دعي شطر كبير من تراقيا باسم سكيثيا الصغرى أيضاً، خاصة أن التراقيين تراجعوا أمّا الوافدون الغرباء، فأذعنوا للقوّة أحياناً، وأحياناً أخرى بسبب سوء حالة الأرض، لأنّ الشطر الأكبر من البلاد تغطّيه المستنقعات.

6- ماعدا المنطقة الساحلية الجبلية التي تمتدّ حتّى فيودوسيا، فإن ما تبقى من كيرسونيس كلّها عبارة عن سهل، وأرض خصبة وغنية، خاصة بالأقماح. وفي الأحوال كلّها فإن الحقل المحروث بأوّل سكّة محراث كانت، يعطي محصولاً بثلاثين مقداراً. فقد كان سكّان هذه البلاد والمناطق الآسيوية الواقعة على مقربة من سينديكا، يؤدون إتاوة لميتريدات قدرها 180.000 ميديمن[22]، و200 تالانت من الفضّة. ومنذ القدم كانوا يحملون الأقماح من هنا إلى الإغريق، كما كانوا يوردون أيضاً الأسماك المملحة من ممالح البحيرة. ويروى أن ليفكون أرسل من فيودوسيا إلى الأثينيين 2.100.000 ميديمن[23]. لقد كان الشعب الكيرسونيسي يدعى بالشعب «الجيورجي»[24] بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، لأنّ القبيلة السكيثية التي كانت تقطن إلى الأعلى منه، كانت قبيلة رحّل؛ ولم تستهلك هذه الأخيرة في طعامها اللحوم على وجه العموم، بل لحم الخيل تحديداً، إضافة إلى الجبن المصنوع من اللبن المخمر، والحليب، والعيران؛ وبطريقة خاصة كانوا يحضّرون من هذا الأخير نوعاً من الحلوى. ولهذا دعا هوميروس سكّان هذه المنطقة من العالم كلّهم، باسم «غلاكتوفاغيين»[25]. والحقيقة أن الرحل هم مقاتلون

أكثر منهم قطاع طرق، فكلّهم يحارب بسبب الإتاوة. وفعلاً إن هؤلاء يعطون أراضيهم لكل من يريد أن يحرثها ويزرعها، ويرضون إذا ما حصلوا لقاء ذلك على بدل متفق عليه، وعادة ما يكون البدل الذي يطلبونه معتدلاً ليس الغرض منه الإثراء، بل تلبية متطلبات العيش اليومي. ولكنّ الرحل يحاربون أولئك الذين لا يدفعون لهم المال. ولذلك وصف هوميروس هؤلاء الناس بأنهم «عادلون» و«فقراء»[26]. وفي واقع الأمر، لو دفع لهم ريع صحيح عن الأرض، لما بادروا إلى الحرب يوماً. ولكنّ الذين يثقون بأنهم على مستوى من القوّة يمكنهم من صدّ المهاجمين ومنع اجتياحهم، لا يدفعون الريع المتفق عليه. وهذا ما فعله، بحسب ما يروي هيبسيكرات، أساندرس الذي بنى على برزخ كيرسونيس قرب ميوتيدا سوراً عرضه 360 مرحلة، وأقام على كلّ مرحلة 10 أبراج. وفيما يخصّ «الجيورجيين» الذين يعيشون في هذه المنطقة، فإنهم يعدّون أكثر مرونة وفي الوقت نفسه أكثر تحضراً، بيد أنهم طمّاعين ويعملون في المهن البحرية، ولذلك فإن النهب والسلب وما شابه من أعمال الظلم التي ينتجها الجشع ليست غريبة عنهم.

7- وما عدا المناطق المذكورة، ثمّة في كيرسونيس حصون شيدها سكيلور وأبناؤه. وهذه الحصون، هي بالاكي، وهاب، ونابولي التي شكّلت نقاط استناد له في مواجهة ميتريدات. وكانت هناك قلعة أخرى، هي قلعة إيفباتوري[27]، التي أسّسها ديوثانتوس عندما كان قائداً لجيوش ميتريدات. وهذه عبارة عن رأس بحرية تبعد حوالي 15 مرحلة عن أسوار الكيرسونيسيين التي تشكّل خليجاً كبيراً يتّجه نحو المدينة. ويقع فوق هذا الخليج خور، حيث تقع ملاّحة. وكان يقع هنا أيضاً مرسى كتينونت. ولكي يصمد الذين حاصرهم الملك هنا، وضعوا على الرأس المذكورة مجموعة حراسة؛ فحصنوا المكان وطمروا مدخل الخليج حتّى المدينة، بحيث بات من الممكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، وتشكّلت من المدينتين بطريقة ما مدينة واحدة. ومنذ ذلك التاريخ بات من السهل بالنسبة لهم صدّ السكيثيين. وعندما هاجم هؤلاء السور المبني عبر البرزخ عند كتينونت، وشرعوا يطمرون الخندق بالقش، عمد جنود الملك إلى إشعال النار ليلاً بالشطر الذي بني ليلاً من الجسر، وصدوا هجوم العدوّ إلى أن نجحوا أخيراً بإلحاق الهزيمة به. وتقع هذه البلاد كلّها الآن تحت سلطة ملوك البسبور الذين يعينهم الرومان.

8- وما يتميّز به السكيثيون والسارماثيون كلّهم، هو أنهم يخصون جيادهم لكي تغدو أكثر انقياداً. وفعلاً، على الرغم من أن جيادهم صغيرة القامة، إلا أنها مطواعة وغيورة. وفي المستنقعات يصيدون الأيائل والخنازير البرية، وفي السهول يصيدون الحمير البرية والغزلان. وما يلفت الانتباه أن النسر لا وجود له في هذه الأماكن. ومن

ذوات الأربعة يلقانا هنا حيوان يدعى «كولوس»[28]، وهو من حيث الحجم كائن ما بين الأيل والكبش، أبيض اللون، وأسرع منهما عدواً؛ يعب الماء في رأسه عبر فتحتي أنفه ويحتفظ به هناك لعدّة أيام، ولذلك ليس صعباً عليه أن يعيش في مناطق لا ماء فيها. على هذا النحو هي البلاد الواقعة وراء الإيستر بين نهر الرين ونهر تانايس حتّى بحر البونتس وميوتيدا.

الفصل الخامس

1- لقد بقي لنا أن نصف شطر أوروبا على هذا الجانب من الإيستر والبحر المحيط به؛ وهو يبدأ من منخفض البحر الأدرياتيكي ويمتدّ حتّى مصبّ الإيستر المقدّس[1]. وفي هذه المنطقة تقع اليونان وقبائلها المقدونية والإيبيرية، وكلّ الأقوام التي تقطن إلى الأسفل منها والتي تمتدّ أراضيها حتّى الإيستر والبحرين الواقعين على الجانبين: البحر الأدرياتيكي وبحر البونتس؛ وتجاور البحر الأدرياتيكي الأقوام الإيليرية، وتجاور البحر الآخر وصولاً حتّى بروبونتيدا والهلسبونت، الأقوام التراقية وبعض قبائل السكيثيين والسلت التي تخالطت معها. ويتأتّى لنا أن نبدأ من الإيستر لنتحدّث عن البلدان التي تلي مباشرة تلك التي وصفناها. وهذه البلدان، هي البلدان التي تجاور إيطاليا، والألب، ومناطق الجرمان، والداكيين، والجيتيين. ويمكن تقسيم هذه المنطقة [2] إلى قسمين، لأنّ الجبال الإيليرية، والبيونية، والتراقية توازي بشكل ما الإيستر، وتشكّل ما يشبه الخطّ الواحد الذي يمتدّ من البحر الأدرياتيكي وصولاً إلى البونتس. وإلى الشمال من هذا الخطّ تقع الأجزاء التي بين الإيستر والجبال، وإلى الجنوب منه تقع اليونان والبلاد البربرية المجاورة لها، والتي تمتدّ إلى هذه البلاد الجبلية. وغير بعيد عن البونتس يرتفع جبل جيموس، وهو الجبل الأكبر والأعلى في هذا الجزء من العالم، ويقطع جيموس تراقيا في الوسط تقريباً. وحسب بوليبيوس أن البحر يظهر للعين من فوق هذين الجبلين، ولكنّ هذا غير صحيح: المسافة إلى البحر الأدرياتيكي عظيمة جدّاً، وأشياء كثيرة تعترض الأفق. فعلى مقربة من الأدرياتيكي تقع آرديا[3] كلّها تقريباً، وفي الوسط تقع بيونيا، وهي بلاد مليئة بالجبال العالية. وتحدّ بيونيا الجبال من الجانبين: بالاتجاه نحو الجانب التراقي يرتفع جبل رودوبا، وهو الجبل الأعلى بعد جيموس، وعلى الجانب الآخر في الاتجاه نحو الشمال، تقع الأجزاء الإيليرية، ومنطقة الأفتاريانيين والداردانيين[4]. وسأبدأ الآن وصف إيليريا بدءاً من أجزائها التي تجاور إيستر، وشطر الألب الواقع بين إيطاليا وجرمانيا والذي يبدأ من بحيرة[5] في منطقة الويندليكيين، والريتيين والتويغينيين[6].

2- لقد دمّر الداكيون ونهبوا شطراً كبيراً من هذه البلاد بعد انتصارهم على البويين والتاورسكيين- وهم قبائل سلتية خاضعة لكريتاسير[7]. وقد عدّ الداكيون هذه البلاد لهم، مع أن نهر باريس[8] يفصل بينها وبينهم، وهو يجري من الجبال ويصبّ في الإيستر غير بعيد عن منطقة السكورديسكيين، الذين يدعون غلاطيين؛ فهؤلاء أيضاً عاشوا بالتعاقب مع الأقوام الإيلليرية والتراقية[9]. ولكنّ الداكيين استأصلوا البويين والتاوريسكيين؛ بيد أنهم غالباً ما أقاموا تحالفات مع السكورديسكيين. وما تبقى من البلاد، وصولاً إلى سيغيستيكا، مدينة البانونيين التي تقع عند ملتقى عدد من الأنهار (كلّها صالح للملاحة)، وقد وهبت الطبيعة نفسها هذه المدينة موقع نقطة الاستناد في الحرب مع الداكيين، لأنها تقع عند سفح ذلك الجزء من الألب الذي يمتدّ حتّى منطقة اليابوديين الذين ينتمون إلى قبيلة سلتية وإيلليرية مشتركة. وتجري من هنا أنهار ينقلون فيها إلى سيغيستيكا بضائع كثيرة من مختلف البلدان، ومن إيطاليا. وإذا ما عبرت جبل أوكرا من أكويليا إلى ناوبورت، وهي مستوطنة للتاوريسكيين، إلى حيث تتّجه المركبات المحملة بالبضائع، فإن المسافة 350 مرحلة (مع أن بعضهم يحسبها 500). وأوكرا، هو أدنى جزء من الألب ابتداء من منطقة الريتيين حتّى بلاد اليابوديين. ومن هنا تبدأ الجبال تعلو من جديد في منطقة اليابوديين، وهي تدعى بالألبية. وعلى النحو نفسه يوجد معبر عبر أوكرا من ترجيستوس، المستوطنة الكارية، إلى البحيرة المستنقعية التي تحمل اسم لوجي. وغير بعيد عن ناوبورت يجري نهر كوركورا الذي ينقلون عبره شحنات البضائع. ويصبّ هذا النهر في نهر ساف، ويصبّ هذا الأخير في دراب، ويصبّ دراب في نوار[10] على مقربة من سيغيستيكا. ومن هنا يغدو نوار غزير الماء إذ يستقبل مياه نهر كولابيس الذي يجري من جبال الألب عبر منطقة النابوديين ويلتقي مع الدانوب على مقربة من بلاد السكورديسكيين. ويتّجه الإبحار في هذه الأنهار شمالاً بشكل رئيس. وطول الطريق من ترجيستوس إلى الدانوب 1200 مرحلة. وعلى مقربة من سيغيستيكا على الطريق إلى إيطاليا يقع حصنا سيسكيا وسيرمي.

3- أمّا قبائل البانونيين فهي [الآتية]: البريفكيون والأنديزتيون، والديتيونيون، والبيروستيون؛ إضافة إلى المازيين، والديستيانيين (زعيمهم باتون)، وسواهم من الأقوام الأخرى الأقلّ أهمية، الذين تصل مناطقهم حتّى دالماسيا، وفي الجنوب حتّى أرض الأرديين تقريباً. وكلّ الأرض التي تبدأ من منخفض البحر الأدرياتيكي وصولاً إلى الخليج الريزوني وأرض الأرديين، هي إيلليريا التي تنحدر بين البحر وأرض القبائل البانونية. ومن هنا تقريباً ينبغي أن نبدأ وصفاً جغرافياً مترابطاً، مع شيء من تكرار ما كنّا قد قلناه من قبل[11]. فلدى وصفي لإيطاليا قلت، إن الإيستريين يأتون أولاً على

الساحل الإيلليري، وبلادهم تجاور إيطاليا ومنطقة الكارنيين، ولذلك فإن حكّام إيطاليا المعاصرون مدّوا أراضي هذه الأخيرة حتّى مدينة بولا الإيسترية. وتقع هذه الحدود على بعد حوالي 800 مرحلة من منخفض البحر الأدرياتيكي؛ ومثل هذه المسافة من الرأس البحرية الواقعة أمام بولا إذا ما جئت أنكونا تاركاً منطقة الجينيتيين على يمينك. ويبلغ امتداد الطريق البحرية كلّها على طول ساحل إيستريا 1300 مرحلة.

4- تلي ذلك مباشرة طريق بحرية طولها 1000 مرحلة تمتدّ على طول ساحل بلاد اليابوديين. فاليابوديون يقطنون جبلاً ألبيّاً؛ وهو آخر جبال الألب، ومن أعلاها. وتمتدّ بلاد اليابوديين حتّى أرض البانونيين ونهر إيستر من جهة، والبحر الأدرياتيكي من الجهة الأخرى. وقد تميّزت هذه القبيلة بعدوانيتها، إلا أنّ أغسطس أضعفها الآن تماماً. ومدنهم هي: ميتول، وأروبينا، ومونيتيوس، وويندون. وليست هذه المنطقة منطقة خصبة، فسكّانها يقتات أكثرهم على الحنطة الرومية والدخن. وتسليحهم تسليح سلتيّ؛ ومثلهم مثل باقي الإيلليريين والتراقيين، يستخدم اليابوديون الوشم. وبعد الإبحار على طول ساحل اليابوديين، تأتي طريق على طول السواحل الليبورنية، وهي طريق أطول من الأولى بـ 500 مرحلة. ويلاقينا على هذه الطريق نهر[12] صالح للملاحة تبحر فيه سفن شحن البضائع صعوداً حتّى منطقة الدالماسيين ومدينة سكاردون الليبورنية.

5- وعلى طول الساحل المذكور تقع جزر: أولاً، أبسرتيدس، حيث تقول الروايات، إن ميديا قتلت هناك أخاها أبسرتس الذي كان يلاحقها، تليها جزيرة كيريكتيكا الواقعة على مقربة من بلاد اليابوديين، ثمّ جزر ليبورنيدس، وعددها الإجمالي حوالي 40 جزيرة؛ ومن ثمّ الجزر الأخرى التي تشتهر منها جزيرة إيسا، وتراغوريوس (التي أسّسها سكّان إيسا)، وفاروس (وكانت تدعى من قبل باروس، وقد أسّسها الباروسيون)، وإليها ينتمي ديمتري الفاروسي. ثمّ يلي ذلك ساحل الدالماسيين ومرسى سالون الشراعي. وهذه القبيلة هي واحدة من القبائل التي حاربت الرومان طويلاً. وقد كان للدالماسيين ما يقارب الخمسين مستوطنة كبيرة، بل وعدد من المدن أيضاً، مثل سالون، وبريامون، ونينيا، وسينونيوس القديمة والجديدة؛ ولكنّ أغسطس أطعمها [كلّها] للنيران. وإضافة إلى هذا يقع هنا حصن أنديتريوس، وكذلك داميوس، وهي مدينة كبيرة سميت على اسمها القبيلة. ولكنّ ناسيكا[13] حوّلها إلى مدينة صغيرة بسبب وحشية سكّانها، وجعل من أراضيها مرعى للأغنام. وعند الدالماسيين تقليد يعيدون بموجبه توزيع الأرض من جديد كلّ سبع سنوات. أمّا ما يقال عن إنه ليس لدى هذه القبيلة مسكوكات نقدية في التداول، فهو صحيح، فسمتهم الخاصة بالمقارنة مع باقي الشعوب التي تعيش على هذا الساحل، هي التقليد المشترك مع كثير من

البرابرة الآخرين. ويقطع جبل أدريوس بلاد الدالماسيين في الوسط، فشطر منها ساحليّ، والشطر الآخر يتّجه نحو الجهة المعاكسة. ويأتي بعد ذلك نهر نارون والشعوب التي تعيش حوله: الداوريزيون، والأرديون، والبليريون. وعلى مقربة من هؤلاء الأخيرين تقع جزيرة تحمل اسم كوركيرا السوداء، ومدينة[14] أسّسها الكنيديانيون؛ وعلى مقربة من الأرديين، تقع فاروس التي كانت تدعى من قبل باروس، لأنّ الباروسيين سكنوها.

6- وقد دعي الأرديون فيما بعد وارديين. ودفع بهم الرومان عن الساحل إلى عمق البلاد (لأنهم كانوا يمارسون القرصنة البحرية)، وأرغموهم على العمل بالزراعة. ولكنّ هذه البلاد بلاد صخرية، وقاحلة وغير صالحة للعمل الزراعي، وهذا ما أفضى إلى إفلاس هذه القبيلة تماماً، ثمّ إلى اندثارها تقريباً. وفعلاً، إن أكثر القبائل التي كانت من قبل قوية، قد انهارت الآن تماماً أو اندثرت؛ فبين الغلاطيين مثلاً، اندثر البويون والسكورديسيون، واندثر بين الإيلليريين، الأفتارياتيون، والأرديون، والداردانيون، وبين التراقيين اندثر التريباليون؛ وفي الأول عانى هؤلاء من الحروب الأهلية، وفيما بعد، من الصدامات مع المقدونيين والرومان.

7- بعد الساحل الذي يشغله الأرديون والبليريون، يأتي الخليج الريزوني، ومدينة ريزون ومدن صغيرة أخرى، وكذلك نهر دريلون الصالح للملاحة في مجراه الأعلى نحو الشرق وصولاً إلى المنطقة الداردانية. وتتجاور هذه الأخيرة من الجنوب مع القبائل المقدونية والبيونية، على النحو الذي يتجاور فيه بعضهم مع بعض الأفتارياتيون والداساريتيون- قبائل شتّى- من مختلف الجهات. وينتمي إلى الداردانيين أيضاً، الغالابريون[15] الذين عندهم مدينة قديمة[16]، والفوناتيون الذين تتجاور بلادهم من جهة الشرق مع منطقة قبيلة الميديين التراقية. ومع أن الداردانيين كانوا متوحّشين تماماً، حتّى أنهم كانوا يحفرون كهوفاً تحت النفايات ويقيمون فيها، إلا أنهم أظهروا اهتماماً بالموسيقا، وعزفوا على آلات موسيقية: على الناي وآلات وترية. وتسكن هذه القبيلة في المنطقة الداخلية، وسوف أتحدّث عنها لاحقاً.

8- بعد الخليج الريزوني تأتي مدن ليس، وأكروليس، وإيبيدامنوس التي أسّسها الكوكيريون، وهي التي تدعى الآن ديراخيوس على اسم شبه الجزيرة التي تقع فيها. ثمّ يأتي نهر أبس ونهر آوي حيث تقع أبوللونيا المدينة التي فيها بناء دولة راق أسّسه الكورونثيون والكوركيريون؛ وتقع هذه المدينة على بعد 10 مراحل عن النهر، و60 مرحلة عن البحر. ويدعو هيكاتوس نهر آوي باسم إيانتوس[17]، ويقول، إن إيناخوس وإيانتوس ينبعان من المكان نفسه في منطقة لاكمون، والأصح القول، إنهما ينبعان من

المنخفض العميق نفسه، فيجري إيناخوس في آرغوس جنوباً، ويجري إيانتوس غرباً إلى البحر الأدرياتيكي. وفي منطقة الأبوللونيين مكان يدعى نيمفيه، وهي صخرة تنفث ناراً، وتجري من تحتها ينابيع مياه دافئة، وإسفلت ربّما يكون ناتجاً عن احتراق كتل إسفلتية موجودة في جوف الأرض. وعلى مقربة ثمّة تلّ فيه منجم إسفلت بعد أن يستهلك يعود ليمتلئ من جديد، لأنّ التراب المطمور في حفرة يتحوّل بحسب ما يقول بوسيدونيوس، إلى إسفلت. ويذكّر بوسيدونيوس أيضاً، بالتربة التي تحتوي على الإسفلت، والتي تستخرج من كروم العنب في سلوقيا بيرييا، كوسيلة دوائية ضدّ طفيليات دوالي العنب. فإذا ما طليت الدوالي بخليط من التراب الإسفلتي وزيت الزيتون، فإنه يقتل الحشرات[18] قبل أن تصعد إلى الفروع. ويقول بوسيدونيوس أيضاً، إن التربة التي لها هذه الخاصيات عثر عليها في رودوس أيضاً (عندما كان يشغل هو هناك منصب الحاكم)، لكنّها هنا تحتاج إلى مزيد من زيت الزيتون. وبعد أبوللونيا تأتي بيلياكا وأوريك بمرساها الشراعي بانورم، ثمّ الجبال الكيرافنية، فبداية ثغر الخليج الإيوني والخليج الأدرياتيكي.

9- ولهذين الخليجين ثغر مشترك واحد، لكنّ الخليج الإيوني يتميّز بأن هذا الاسم لا يحمله سوى الشطر الأول من هذا البحر، بينما «الأدرياتيكي»، هي تسمية الشطر الداخلي من البحر وصولاً إلى منخفض الخليج؛ وعلى أي حال فإن البحر كلّه يحمل هذا الاسم الآن. وحسب ثيوبومبوس، أن الأولى من هذه التسميات جاءت من رجل ينتمي إلى أيسّا حكم هذه الأرض في زمن ما، بينما دعي البحر الأدرياتيكي باسمه هذا وفق اسم نهر[19]. ومن منطقة الليبورنيين حتّى الجبال الكيرافنية أكثر من 2000 مرحلة بقليل. وكان ثيوبومبوس قد حدّد مسافة الطريق البحرية كلّها من منخفض الخليج نفسه بستة أيام، ولكنّه رأى أن امتداد البلاد الإيليرية براً يستغرق ثلاثين يوماً، ولكنّي أرى أنه يبالغ في هذا كثيراً. كما أنه ينقل في حالات أخرى أخباراً غير صحيحة مثل: أولاً، إن البحرين[20] يتّصلان بقنوات جوفية، [ويستنتج هذا] من حقيقة أن نهر نارون فيه آنية كيوسية وفاسوسية فخارية؛ ثانياً، يؤكّد أنه يمكن رؤية البحرين من فوق جبل[21] ما؛ ثالثاً، وفق حساباته أن بعض جزر ليبورنيدس [كبيرة إلى درجة]، أن امتداد محيطها يبلغ 500 مرحلة، وأخيراً يقول: إن أحد مصبّات الإيستر في البحر الأدرياتيكي. كما نلقى مثل هذه الأخطاء لدى إيراتوسفين أيضاً، وهي تستند إلى «تصوّرات قاصرة»[22] تلقاها السمع بشكل عابر (كما يصفها بوليبيوس في حديثه عن إيراتوسفين وغيره من المؤرّخين الآخرين).

10- إن الساحل الإيلليري كلّه غنيّ جداً بالمراسي والمرافئ، إن كان في القارّة أو في الجزر المجاورة، بينما على الساحل الإيطالي المقابل ظاهرة مغايرة: ليس عليه أيّ مراس أو مرافئ. ولكنّ الساحلين دافئين وخصبين، فينبت هنا شجر الزيتون، وكروم العنب، ما عدا بعض الأماكن حيث الطقس قاس جدّاً. ولكن على الرغم من خاصيات الساحل الإيلليري هذه، إلا أنه كان من قبل مهملاً، ربّما لأنهم لم يكونوا على علم بميزاته، لكنّ الأغلب أنه أهمل بسبب توحّش سكّانه ونزوعهم نحو أعمال القرصنة. إن كلّ البلاد الواقعة فوق هذا الساحل، هي بلاد جبلية، باردة وثلجية، خاصة الشطر الشمالي منها؛ ولذلك فإن كروم العنب هناك نادرة الوجود، إن على المرتفعات أو في الوديان. وهذه الأخيرة هي سفوح يشغلها البانونيون؛ وهي تمتدّ جنوباً حتّى منطقة الدالماسيين والأرديين، وتنتهي في الشمال عند الإيستر، أمّا في الشرق فإنها تجاور منطقة السكورديسكيين نحو الشطر الذي يمتدّ على طول الجبال المقدونية والتراقية.

11- لقد كان الأفتارياتيون القبيلة الإيلليرية الأكبر والأكثر شجاعة وإقداماً، وكانت قد أدارت قديماً حروباً متواصلة ضدّ الأرديين بسبب الممالح الواقعة في المنطقة الحدودية. ويرسّب الملح من المياه التي تجري في الربيع عند سفح أحد الوديان الجبلية. وإذا ما غرف الماء ثمّ وضع خمسة أيام ليترسب، فإن الملح يظهر على شكل بلورات. لقد توصلت القبيلتان إلى اتفاق قضى باستخدام الممالح بالدور، ولكن بما أنهما كانتا تنتهكان الاتفاق دائماً، فقد كانت الحروب تندلع بينهما دائماً. وفي زمن ما، أخضع الأفتارياتيون التريباليين (الذين تمتدّ منطقتهم من أرض الأغريانيين حتّى الإيستر على مسافة خمسة عشر يوماً سيراً على الأقدام)، وسادوا على القبائل التراقية والإيلليرية الأخرى. ولكنّ السكورديسكيين هزموهم، وكذلك فعل الرومان بعد ذلك، وقد أخضع هؤلاء بالقوة المسلحة السكورديسكيين أنفسهم الذين كانوا لزمن طويل أقوياء جدّاً.

12- لقد عاش هؤلاء الأخيرون على طول ضفتي الإيستر، وانقسموا إلى السكورديسكيين الكبار والسكورديسكيين الصغار. وقد سكن الأوائل بين نهرين يصبّان في الإيستر: نهر نوار الذي يجري على مقربة من سيغيستيكا، ونهر مارغ (بعضهم يدعوه بارغ). أمّا السكورديسكيون الصغار فقد عاشوا على الجانب الآخر من هذا النهر الأخير، مجاورين أراضي التريباليين والميسيسيين. وشغل السكورديسكيون عدداً من الجزر، وتمددوا على هذا النحو إلى أن بلغت ممتلكاتهم الجبال الإيلليرية والبيونية والتراقية. كما استولوا على أكثر جزر الإيستر. وكانت عندهم مدن مثل جيورتا وكابيدون. وبعد بلاد السكورديسكيين على طول الإيستر تأتي منطقة

التريباليين ومنطقة الميسيسيين (التي ذكرتها من قبل)[23]، ومستنقع ما يدعى سكيثيا الصغرى على هذا الجانب من الإيستر (وكنت قد ذكرتهم أيضاً)[24]. إن هذه الشعوب، كالكروبيزيين والتروغلوديتي، تقطن إلى الأعلى من منطقة تقع عند كالاتيوس، وتومي والإيستر. ثمّ تأتي القبائل التي تقطن حول جبل جيموس وعند سفوحه وصولاً إلى البونتس: الكوراليون، والبيسيون وفريق من الميديين، والدانفليتيين. إن هذه الشعوب كلّها تنزع نزوعاً شديداً إلى أعمال السلب والنهب، لكنّ البيسيين، الذين يشغلون الشطر الأكبر من جبل جيموس، يدعوهم قطاع الطرق أنفسهم، قطاع طرق. ويعيش هؤلاء في الأكواخ والكهوف عيشة ضنك وفقر مدقع؛ وتتجاور أرضهم مع جبل رودوبا، ومنطقة البيونيين وبلاد القبائل الإيلليرية: الأفتارياتيون، والدارادانيون. وبينهم وبين الأرديين يعيش الداساريتيون والهيبريانيون[25] وشعوب أخرى ليست ذات أهمية، كان السكورديسكيون قد نهبوا أراضيها، قبل أن يدمّروا هذه البلاد وتمتلئ بأدغال عصية تمتدّ على طريق تستغرق عدة أيام سيراً على الأقدام.

الفصل السادس

1- من المنطقة الواقعة بين الإيستر والجبال على جانبي بيونيا، يبقى أيضاً الساحل البونتسي من مصبّ الإيستر المقدّس وصولاً إلى البلاد الجبلية عند جيموس وحتّى الثغر الذي عند بزنطا. وكما وصلت لدى وصفي للساحل الإيلليري حتّى الجبال الكيرافنية التي تخرج في حقيقة الأمر خارج حدود إيلليريا الجبلية، لكن لها مع ذلك حدودها، وكما حدّدت بهذه الجبال مواقع الشعوب في داخل البلاد (معتبراً أن هذا النوع من العلامات سيكون أكثر أهمية للوصف الراهن وللأعمال المستقبلية)، كذلك في هذه الحالة، مع أن هذا الساحل يخرج أيضاً خارج حدود الجبال، إلا أنه ينتهي عند حدوده، تحديداً عند ثغر البونتس الملائم للوصف الراهن وللوصف الذي يليه مباشرة. وهكذا إذا انطلقنا من المصبّ المقدّس لإيستر ملتزمين الجانب الأيمن دائماً على طول ساحل القارّة، فعلى بعده 500 مرحلة تلقانا بلدة إيستر التي أسّسها الميلتوسيون؛ ومن ثمّ على بعد 250 مرحلة منها تلقانا بلدة أخرى، هي بلدة تومي، وبعدها مدينة كالاتيوس على بعد 280 مرحلة، وهي مستعمرة الهيراقليين؛ تليها أبوللونيا على بعد 1300 مرحلة، وهي مستعمرة الميلتوسيين. ويقع الشطر الأعظم من هذه المدينة في إحدى الجزر الصغيرة حيث يقوم معبد أبوللون، ومن هنا حمل مارك لوكولا تمثالاً مهولاً لأبوللون[1] كان قد نحته كالاميدس، ووضعه لوكولا في الكابيتول. وتقع بين كالاتيوس وأبوللونيا مدينة بيزونا التي ابتلعت هزّة أرضية الشطر الأكبر منها، ثمّ

مدينة كروني وأوديس، وهي مستعمرة للميلتوسيين، ومدينة نافلوخ، وهي مدينة صغيرة للميسيمبريين. ويأتي بعد ذلك جبل جيموس الذي يمتدّ حتّى البحر الذي هنا؛ ثمّ تأتي ميسيمبريا، وهي مستعمرة الميغاريين التي كانت تدعى من قبل مينيبريا (أي مينابوليس، لأنّ مؤسّسها مينا؛ وbrias تعني بالتراقية «مدينة»؛ وعلى هذا النحو تدعى مدينة سيليس سيليبريا، وإينوس كانت تدعى في زمن ما بولتيوبريا)، وتليها مدينة صغيرة تدعى أنخيالا، وهي مدينة للأبولّونيين، ثمّ تأتي أبوللونيا نفسها. وتقع على هذا الساحل رأس بحرية، هي تيريزيس: مكان حصّنته الطبيعة نفسها، وقد استخدمه في زمن ما ليسيماخ مخزناً للخزنة[2]. ومن أبوللونيا إلى الكيانيس حوالي 1500 مرحلة، وفي الفاصل تقع ثينيادس، وهي مكان للأبولّونيين (وأنخيالا أيضاً امتلكها الأبولّونيون)، وكذلك ثينوبوليس وأندرياكا المجاورتان لسالميدس. وسالميدس هو ساحل بحري صخري قاحل ليس فيه مراس، وهو مفتوح على اتساع أمام الريح الشمالية؛ ويمتدّ هذا الساحل على ما يقارب 700 مرحلة طولاً حتّى الكيانيس؛ ومن يقع هنا في كارثة بحرية ينهبه الآستيون، وهم واحدة من القبائل التراقية التي تقطن على هذا الساحل. والكيانيس جزيرتان صغيرتان عند مدخل البونتس: إحداهما أقرب إلى أوروبا، والأخرى إلى آسيا. ويفصل بينهما مضيق عرضه يقارب 20 مرحلة. والمسافة نفسها تفصلهما عن معبد البزنطيين ومعبد الخلكيدونيين[3]. وهذا المضيق هو أضيق قسم في ثغر البونتس الإيفكسيني. وفعلاً، إذا ما أبحرنا مسافة 10 مراحل، تلقاك رأس بحرية تشكّل مضيقاً عرضه 5 مراحل، ثمّ يتسع المضيق أكثر فأكثر فيبدأ البروبونتيدا.

2- ومن الرأس التي تشكّل خليج الخمسمئة عذراء حتّى المرسى الذي يدعى «تحت التينة» 35 مرحلة فقط؛ ومن هنا حتّى قرن البزنطيين 5 مراحل. والقرن هو خليج يجاور سور البزنطيين الذي يمتدّ نحو الغرب قرابة 60 مرحلة على شكل قرن الأيل. وينقسم الخليج إلى كثرة من الخلجان الصغيرة كأنها أغصان. وترد إلى هنا أسماك البيلاميدا[4] التي يسهل صيدها بسبب عظمة أسرابها وقوة التيار التي تدفع الأسماك لتجتمع في حشد، إضافة إلى ضيق الخلجان؛ ففي مثل هذا الازدحام يمكن اصطيادها حتّى بالأيدي العارية. وتسرأ هذه الأسماك في مستنقعات ميوتيدا، وحينما تكبر بعض الشيء وتقوى، فإنها تندفع أسراباً عبر الثغر وتمضي على طول الساحل الآسيوي حتّى ترابيزونت وتراقيا. ويبدأ هنا[5] الصيد الأول للبيلاميدا، لكنّه ليس وفيراً، لأنّ الأسماك لا تكون قد بلغت حجمها الطبيعي بعد. ولكن حينما تصل أسراب السمك إلى سينوبس، تكون قد غدت أكثر نضجاً للصيد والتمليح. وفي كلّ مرّة تصل الأسماك فيها إلى الكيانيس وتعبر على مقربة منهما، فإن صخرة ما بيضاء تبرز من

جهة الساحل الخلكيدوني، تدبّ الذعر بين صفوفها فتقفل في اللحظة عينها عائدة إلى الشاطئ المقابل. فيمسك بها التيار المحلّي؛ ولكن بما أن هذا المكان بطبيعته يسهل انعطاف التيارات البحرية نحو بزنطا والقرن الواقع عندها، فإنه من الطبيعي أن تتّجه الأسماك إلى هنا وتحقّق للبزنطيين والشعب الروماني واردات مهمّة. أمّا الخلكيدونيون، فعلى الرغم من أنهم يعيشون على مقربة، ولكن على الشاطئ المقابل، إلا أنه ليس لهم نصيب من هذه الواردات، لأنّ البيلاميدا لا تقترب من مرافئهم. ومن هنا جاءت الرواية التي تقول، إنه بعد أن بنى الميغاريون خلكيدونيا، أمر أبوللون أولئك الذين جاؤوا يسألون الكاهن، على أمل بناء بزنطا بعد ذلك، أن (يؤسّسوا مستوطنة قبالة العميان)؛ وقد دعا الإله الخلكيدونيين عمياناً، لأنهم على الرغم من أنهم أبحروا في هذه الأماكن على سفنهم من قبل، إلا أنهم أضاعوا فرصة إشغال هذه المنطقة الغنية على الشاطئ الآخر. واختاروا البلاد الأفقر. وها قد بلغت في وصفي بزنطا، لأنّ هذه المدينة الشهيرة الواقعة على مقربة مباشرة من مدخل البونتس، تبيّن أنها حدّ أكثر شهرة للإبحار من الإيستر على طول الساحل. وتقطن إلى الأعلى من بزنطا قبيلة الآستيين الذين تقع في منطقتهم مدينة كاليبا(6) حيث أسكن فيليب ابن أمينتا أكثر المجرمين شهرة(7).

الفصل السابع

1- بين كلّ الشعوب التي يحدها الإيستر، والجبال الإيلليرية والتراقية، لا يستحق الاهتمام إلا أولئك الذين يشغلون الساحل الأدرياتيكي كلّه، ابتداء من منخفض الخليج وما يدعى «الجهة اليسرى للبونتس»، من نهر الإيستر حتّى بزنطا. وتبقى أيضاً الأجزاء الجنوبية من البلاد الجبلية المذكورة سابقاً، والمناطق الواقعة إلى الأسفل منها والتي تنتمي إلى عدادها اليونان والبلاد البربرية المجاورة لها وصولاً إلى الجبل. وينقل إلينا هيكاتوس الميلتوسي عن البيلوبونيز أنها كانت مسكونة قبل الإغريق بالبرابرة. وعلى وجه العموم كان البرابرة يقطنون اليونان كلّها في الأزمة القديمة، وهو ما يمكن استنتاجه من التقليد نفسه: لقد قاد بيلوبس شعوباً من تراقيا إلى البيلوبونيز، التي حملت اسمه؛ وقاد دانائي شعوباً من مصر، أمّا الدريوبيون، والكافكونيون، والبيلاسيغيس، والليليغيس وغيرها من القبائل الأخرى، فقد تقاسمت فيما بينها المناطق الواقعة على هذا الجانب من البرزخ وذاك. وشغل التراقيون أتيكا، وقادهم إلى هنا إيفمولبوس، وشغل تيرييوس دافليدا في ثوكيدا، وشغل الفينيقيون قدموسيا التي قادهم إليها قدموس، وشغل الآونيون، والتيميكيون والجيانتيون بيوتيا. وكما يقول بينداروس:

في زمن ما كانت عشيرة البيوتيين تدعى
عشيرة الخنازير[1].

(المدائع، مقطع 83. بيرغك)

كما تدلّ أسماء بعضهم على منشئهم البربري: كيكروبس، كودر، آيكل، كوف، دريماس، وكريناك. ولا يزال التراقيون، والإيلليريون، الإيبيروتيون يعيشون حتّى الآن على أطراف اليونان. وغنيّ عن البيان القول، إن البرابرة الذين عاشوا هناك من قبل كانوا أكثر بكثير ممن يعيشون هناك الآن، لأنّ الشطر الأكبر من المنطقة التي لا جدال في أنها هي اليونان الآن، يشغله البرابرة. فمقدونيا وبعض أجزاء تساليا يملكها التراقيون، وأجزاء من أكارنانيا وإيثوليا يملكها الثيسبروتيون، والكاسوبيون، والأمفليوخيون، والمولوسيون، والأثامانيون، وهي قبائل إيبيرية.

2- لقد سبق وتحدّثنا عن البيلاسيغيس[2]. أمّا الليليغيس فإن بعضهم يرى فيهم شعباً واحداً مع الكاريين، بينما يرى آخرون أنهم ليسوا أكثر من جيران مقربين وأصحاب: ولذلك يؤكّد هؤلاء أن بعض القرى في منطقة ميلتوس تدعى قرى الليليغيس، وفي مناطق كثيرة من كاريا توجد مقابر لهؤلاء الليليغيس، وحصون مهجورة تدعى «حصون الليليغيس». لقد عاش الليليغيس والكاربون في كلّ المنطقة التي تدعى الآن إيونيا. لكنّ الإيونيين طردوهم وامتلكوا هذه البلاد، مع أن محتلي طروادا كانوا قد طردوا الليليغيس قبل ذلك من منطقة عند إيدّا، أي قرب بيداس ونهر ساتنيويس. والبرهان على أن الليليغيس كانوا برابرة، هي صلتهم نفسها بالكاريين. أمّا فيما يتعلّق بارتحالهم مع الكاريين، وارتحالهم لوحدهم من غير هؤلاء، ومنذ زمن بعيد، فإن أرسطو أشار إلى هذا من غير لبس في كتابه «السياسات»[3]. ففي «سياسة الأكارنانيين»، يقول: إن الكوريتيين يشغلون شطراً من البلاد، وإن الليليغيس والتيليبويين امتلكوا الشطر الغربي منها؛ وفي «سياسة الإيثوليين» يدعو أرسطو اللوكريين المعاصرين بالليليغيس، مشيراً إلى أنهم امتلكوا بيوتيا أيضاً (ويقول الشيء نفسه في سياستي «الأوبونتيين والميغاريين»). وفي «سياسة الليفكاديين» يدعو أرسطو أحد السكّان المحلّيين باسم ليليغيس، ويدعو حفيده لابنته تيليبوي و22 ابناً تيليبويا، وفي غضون ذلك فإن بعضهم أقام بحسب قوله، في ليفكادا. بيد أننا نستطيع أن نصدّق هسيود الذي يقول ما يلي عن الليليغيس:

في زمن ما حكم لوكر شعب الليليغيس الماجد،
لقد وهبهم كرونيون زيوس، الذي يعرف الأفكار الأزلية،

لديفكاليون، قبيلة[4] من الأرض مختارة.

(*مقطع* 141، 3، *باولسون*)

ويهيأ لي أن الشّاعر يومئ بهذا الاشتقاق[5] إلى أنهم منذ القدم كانوا عبارة عن خليط من حثالات قبلية متنوّعة، ولذلك اندثر هذا الشعب. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكافكونيين الذين لا وجود لهم الآن في أي مكان، مع أنهم سكنوا فيما مضى في أماكن كثيرة.

3- في الأزمنة القديمة لم يكن من الصعب تحديد حدود هذه القبائل، فعلى الرغم من أنها كانت قبائل صغيرة كثيرة العدد ومجهولة، إلا أن كثافة سكّانها ووجود ملك على رأس كلّ منها، جعل مثل هذا الأمر سهلاً. ولكن، الآن، حينما تحوّل الشطر الأكبر من هذه البلاد إلى قفر خاو، واندثرت قراها ومدنها خاصة من على وجه الأرض، فإنه حتّى لو تسنى تحديد حدودها بدقّة، فإن هذا لن يكون له أي فائدة لأنها مجهولة أو دمّرت تدميراً تاماً. وكانت هذه العملية الأخيرة قد بدأت منذ الزمن القديم وفي مناطق كثيرة، ولم تنته تماماً حتّى الآن بسبب الانتفاضات وحركات العصيان. فالرومان الذين اختارهم السكّان أنفسهم حكّاماً عليهم، يقيمون معسكرات في «منازلهم»[6] نفسها. وفي أقلّ تقدير، بحسب رواية بوليبيوس، أن باولوس[7] بعد أن انتصر على المقدونيين وبرسيوس، دمّر 70 مدينة للإيبيروتيين (أكثرها كان للمولوسيين)، واستعبد 150.000 شخص. ولكنّني سأحاول، بقدر ما يخصّ هذا وصفي، ويدخل في مجال أهليتي، أن أصف بالتفصيل أجزاء معينة من البلاد، بدءاً من ساحل الخليج الإيوني، أي من المكان الذي ينتهي عنده الإبحار من البحر الأدرياتيكي.

4- وأوّل أجزاء هذا الساحل، هي المناطق الواقعة عند إيبيدامنوس وأبوللونيا. ومن أبوللونيا إلى مقدونيا في الشرق تمتدّ طريق إيغناتيوس التي قيست بالأميال وحدّدت عليها المسافات بالأعمدة وصولاً إلى كيبسيلا على نهر جيبر. ويبلغ طول هذه الطريق 535 ميلاً. وإذا ما حسبنا أن الميل يساوي 8 مراحل (كما يفعل أكثرهم)، فإن الحاصل سيكون 4280 مرحلة. أمّا إذا اتبعنا بوليبيوس الذي يزيد على المراحل الثماني 2 بليفرا (أي $\frac{1}{3}$ مرحلة)، فإنه ينبغي أن نضيف 178 مرحلة أخرى، أي $\frac{1}{3}$ العدد الكلي للأميال. والذي يحدث أنه إذا ما انطلق رحالة على الطريق نفسها من أبولونيا وإيبيدامنوس، فإنهم سيلتقون على مسافة متساوية من نقطتي الانطلاق[8]. ومع أن الطريق كلّها تدعى طريق إيغناتيوس، إلا أن الشطر الأول منها يدعى «الطريق إلى كاندافيا» (وكاندافيا،

هو جبل إيلليري)، وهي تمرّ عبر مدينة ليخنيدس وبيلون، وهو مكان تمرّ عنده الحدود على هذه الطريق بين المنطقة الإيلليرية والمنطقة المقدونية. ومن بيلون تسير الطريق على مقربة من بارنونت وعبر هيراقليا ومنطقة اللينكيستيين والإيورديين إلى إيدسا وبيلا إلى تسالونيكيا. ويبلغ طول هذه الطريق بحسب بوليبيوس، 267 ميلاً. وإذا ما أخذتها من منطقة إيبيدامنوس وأبوللونيا، فعلى جانبها اليميني تكون القبائل الإيبيرية التي تشاطئ أراضيها البحر الصقلي وتمتدّ إلى الخليج الأمبراكي؛ أمّا على الجانب الأيسر فتقع الجبال الإيللرية (التي كنت قد وصفتها بالتفصيل)، والشعوب التي تجاورها وصولاً إلى مقدونيا وبلاد البيونيين. وعند الخليج الأمبراكي تبدأ أراضي اليونان، وهي تتّجه نحو الشرق بثبات وتمتدّ متوازية مع البيلوبونيز؛ ثمّ تترك البيلوبونيز من الجهة اليمنى لتنتهي عند بحر إيجة. ويقطن المقدونيون، والبيونيون، وبعض القبائل التراقية الجبلية في المنطقة التي تبدأ عندها الجبال المقدونية والبيونية حتّى نهر ستريمون. أمّا الأراضي الواقعة على ذلك الجانب من ستريمون حتّى ثغر البونتس وجبل جيموس، فهي كلّها أراضي تراقية، ما عدا الساحل. فعلى هذا الأخير يعيش الإغريق الذين استوطن فريق منهم البروبونتيدا، وفريق آخر الهليسبونت وعند خليج ميلان، وجزئياً على بحر إيجة. ويشاطئ بحر إيجة اليونان من جهتين: جهة تتّجه نحو الشرق (وهي تمتدّ من سونيوس نحو الشمال حتّى خليج ثيرمييوس ومدينة تسالونيكيا المقدونية التي فيها الآن من السكّان أكثر مما في المدن الأخرى)، وتتّجه الجهة الأخرى نحو الجنوب، وهي تحديداً المنطقة المقدونية من تسالونيكيا حتّى ستريمون. ويرى بعضهم أن الساحل من ستريمون حتّى نهر نيست، هو لمقدونيا أيضاً، لأنّ فيليب بذل جهوداً خاصة لامتلاك هذه الأراضي، ثمّ بعد أن أخضعها لسلطته حصل من مناجمها وثرواتها الطبيعية الأخرى، على واردات مهولة. وفي الفضاء الذي يمتدّ من سونيوس إلى البيلوبونيز تقع بحار ثلاثة هي: البحر الميرتوي، والبحر الكريتي، والبحر الليبي مع خلجانها حتّى البحر الصقلي. ويملأ هذا الأخير الخليج الأمبراكي، والخليج الكورونثي، والخليج الكريسي.

5- بحسب ثيوبومبوس أن القبائل الإيبيرية 14 قبيلة. وأشهرها الهاونيون والمولوسيون، لأنهم في زمن ما، امتلكوا منطقة إبير كلّها: في الأول امتلكها الهاونيون، ثمّ المولوسيون. وقد بلغ هؤلاء الأخيرون قدراً أعظم من القوة بفضل الأصل السامي لملوكهم (لأن هؤلاء كانوا ينتمون إلى سلالة الإياكسيين)[9]، ولأن المؤحى الدودوني العريق والشهير كان موجوداً في بلادهم. ويشغل الهاونيون، والثيسبروتيون

والكاسيوبيون الذين يلونهم (وهؤلاء ثيسبروتيون بدورهم) يشغلون الساحل من الجبال الكيرافنية حتّى الخليج الأمبراكي، وهي أراض شديدة الخصوبة. ويبلغ طول الطريق البحرية إذا أبحرت من أرض الهاونيين نحو مطلع الشمس وإلى الخليج الأمبراكي والخليج الكورونثي، تاركاً البحر الأفسوني على يمينك، وإبير على يسارك، 1300 مرحلة من الجبال الكيرافنية حتّى ثغر الخليج الأمبراكي. وفي هذا المدى تقع بانورم، وهي ميناء كبير يقوم في وسط الجبال الكيرافنية، وتقع وراء هذه الأخيرة أونخيسم، وهي ميناء أخرى تقع قبالتها الأطراف الغربية لكوركيرا، وأيضاً ميناء كاسيوبا، ومن هناك إلى برينتيسي 1700 مرحلة. والمسافة عينها حتّى تارانت من الرأس البحرية الأخرى الواقعة إلى الجنوب من كاسيوبا والتي تدعى رأس فالاكروس. وتأتي بعد أونخسيم بوسيديوس، وبوفروت (عند ثغر الميناء التي تدعى بيلود)، الواقعة في المكان الذي يشكّل شبه جزيرة (ثمة في بوفروت مستعمرة رومانية)، وسيبوتا. وسيبوتا هذه جزر صغيرة تقع غير بعيد عن إبير مقابل ليفكيما، الطرف الشرقي لكوركيرا. وهناك جزر صغيرة أخرى على امتداد هذا الساحل، ولكنّها لا تستحق الذكر. ثمّ تلي ذلك رأس كيميريوس البحرية، وغليكس ليمان[10] حيث يصبّ نهر أخيرونت. وينبع هذا الأخير من بحيرة أخيروسيا ليستقبل عدة روافد تجعل من مياه الخليج مياهاً عذبة. ويجري نهر ثيامس على مقربة. وتقع فوق هذاالخليج مدينة كيخيروس، وكانت سابقاً تدعى إيثيرا، وهي مدينة الثيسبروتيين، وتقع فوق الخليج عند بوثورت، مدينة فينيكا. وغير بعيد عن كيخيروس تقع بلدة الكاسوبيين بوخيتيوس، إلى الأعلى قليلاً من البحر؛ وتقع في داخل البلاد إيلاترتيا، وباندوسيا، وباتي؛ وتمتدّ حدود هذه المدن حتّى الخليج. ويأتي بعد غليكس ليمان ميناءان. إحداهما- كومار أقرب [إلى الخليج] وأصغر، وتشكّل برزخاً بـ 60 مرحلة مع الخليج الأمبراكي ونيكوبوليس (التي أسّسها أغسطس قيصر)؛ والثانية أبعد، وأكبر وأفضل، وتقع غير بعيد عن ثغر الخليج، وعلى بعد يقارب 12 مرحلة عن نيكوبوليس.

6- يلي ذلك ثغر الخليج الأمبراكي. ولا يزيد عرض ثغر هذا الخليج عن 4 مراحل إلا قليلاً، ويصل امتداد محيطه إلى 300 مرحلة؛ وعليه في كلّ مكان موانئ جيّدة. وعلى الجهة اليمنى، إذا دخلت الخليج، يعيش الإغريق الأكارنانيون. وتقع هنا غير بعيد عن الثغر، أرض أبوللون الأكتي المقدّسة، وهذه الأرض عبارة عن تلّ بني عليه معبد؛ وعند قدم التلّ واد فيه دغل مقدّس وترسانة لإصلاح السفن. وقد كرّس قيصر هنا 10

سفن تقدمة كثمار النصر[11] الذي حقّقه، وكانت هذه السفن مختلفة الأحجام ابتداء من تلك التي تتألف من نسق واحد من المجاديف وانتهاء بتلك التي تتألف من عشرة أنساق من المجاديف. ولكن يروى أن حريقاً أتى على الأحواض والسفن معاً. وتقع على الجهة اليسرى مدينة نيكوبوليس وأرض الكاسوبيين الإبيريين حتّى منخفض الخليج عند أمبراكيا. وتقع أمبراكيا إلى الأعلى قليلاً من هذا المنخفض. وقد أسّس هذه المدينة غورغ بن كيبسيلا. ويجري عند أمبراكيا نهر أراتث الذي لا يصلح للملاحة إلا لعدة مراحل إلى الأعلى من البحر حتّى المدينة، مع أنه ينبع من جبل تيمفا وباروربيا. وكانت هذه المدينة قد حقّقت في زمن ما ازدهاراً استثنائياً (وفي الأحوال كلّها، أعطت المدينة اسمها (للخليج)، لكنّ بيروس زينها وزخرفها زخرفة خاصة بعد أن جعلها عاصمة له. وفيما بعد أضعف المقدونيون ثمّ الرومان هذه المدينة والمدن الإبيرية الأخرى بحروبهم المتواصلة عليها لأنها كانت مدناً عاصية. ولذلك عندما رأى قيصر في نهاية المطاف أن هذه المدن قد أنهكت تماماً جمع سكّانها كلّهم وأسكنهم في مدينة واحدة على هذا الخليج تدعى نيكوبوليس[12]. وقد دعا أغسطس المدينة بهذا الاسم، على شرف النصر الذي حقّقه في المعركة البحرية التي وقعت أمام ثغر الخليج بينه وبين أنطونيو ومعه كليوباتر ملكة مصر التي شاركت بنفسها في هذه المعركة. ونيكوبوليس هذه فيها كثافة سكّانية عالية، ويتزايد عدد سكّانها يوماً بعد يوم، لأنه عدا عن أراضيها الواسعة وتزيينها على حساب الغنائم الحربية، فإن في ضواحيها أرضاً مقدّسة مجهّزة تجهزياً عالياً؛ فخصص شطراً منها لإقامة الألعاب التي يحتفل بها مرّة كلّ خمس سنوات، إضافة إلى ألعاب القوى، وحديقة فيها ستاد رياضي؛ ويتألف شطرها الآخر من تل فوق دغل أبوللون المقدّس. وهذه الألعاب، هي الألعاب الأكتية المكرّسة لأبوللون الأكتي، وقد أعلنت ألعاباً أوليمبية، وعهد للاكيديمونيين العناية بها. أمّا باقي المستوطنات فهي ضواحي نيكوبوليس. وفي الزمن السابق أيضاً، كان سكّان الضواحي يقيمون ألعاباً أكتيّة على شرف هذا الإله، وكانت مكافأتها إكليل، لكنّ قيصر أعطى هذه الألعاب الآن أهمية أكبر وشرفاً أعظم.

7- وتأتي بعد أمبراكيا آرغوس الأمفيلولوخية التي أسّسها ألكميون وأولاده. وحسب رواية إيثور أن ألكيميون وصل إلى إيثوليا مع ديوميدس بدعوة من هذا الأخير، بعد حملة الإيبيغونيين على طيبة، وساعده على امتلاك هذه البلاد وأكرانانيا. وحينما دعاهما آغاممنون للمشاركة في الحملة على طروادا، لبى ديوميدس الدعوة، لكنّ

ألكيميون بقي في أكرانانيا، وأسّس آرغوس ودعاها أمفيلوخي على اسم أخيه، ودعا النهر الذي يجري عبر هذه البلاد إلى الخليج، نهر إيناخوس، على اسم النهر الذي يجري في أرض الأرغيفيين. ولكن، بحسب ثوكيديدس، أن أمفيلوخ نفسه، وبعد عودته من تحت أسوار طروادا، لم يكن راضياً عن الأوضاع القائمة في آرغوس، فجاء إلى أكرانانيا، وتسلم السلطة بصفته وريثاً لأخيه، ثمّ أسّس هذه المدينة التي تحمل اسمه.

8- والأمفيلوخيون، وهم الإبيريون أيضاً، مثلهم مثل القبائل التي تقطن إلى الأعلى منهم (مجاورة الجبال الإيلليرية)، وتعيش في بلاد قاسية: المولوسيين، والأثامانيين، والإيفيكيين، والأوريستيين، والباروبيين، والأنتينتانيين؛ بعضهم قريب من المقدونيين، والآخرون من الخليج الإيوني. ويروى أن أوريستوس امتلك يوماً أوريستيادس (حينما كان منفياً لأنه قتل أمه)، وترك لهذه البلاد اسمه الذي سميت به. كما أسّس مدينة ودعاها آرغوس الأوريستية. وقد تخالطت مع هذه الشعوب القبائل الإيلليرية التي على مقربة من الشطر الجنوبي للبلاد الجبلية، وتلك التي كانت تقطن المناطق الواقعة إلى الأعلى من الخليج الإيوني. فإلى الأعلى من إيبيدامنوس وأبوللونيا وصولاً إلى الجبال الكيرافنية، يعيش البيليونيون، والتافلانتيون، والبارثينيون، والبريغيون. وفي مكان ما هنا، على مقربة تقع مناجم الفضّة في داماستيوس[14]، وعلى مقربة منها رسخ الديستيون والإينخيليون سيطرتهم (ويدعى هؤلاء بالسياريفيين أيضاً). ويقطن إلى جانب هذه القبائل أيضاً، اللينكيستيون، كما تقع هنا منطقة ديوريوب، وتريبوليس البيلاغونية[15]، والإيورديون، ومنطقتا إيليمييا وإيراتيرا. وفي الأزمنة الماضية كان لكل منطقة من هذه المناطق حاكمها الخاص فالإينخيليون مثلاً، كان يحكمهم خلفاء قدموس وهارمونيا، وحتّى الآن يرونك هناك أماكن ترتبط بالروايات الأسطورية عنهم. لقد كان يحكم هذه الشعوب حكّام غرباء لا ينتمون إلى السلالات المحلّية. فاللينكيستيون مثلاً خضعوا لسلطة أرابيوس الذي ينتمي إلى سلالة الباكياديين.. وكانت إيفريديكا، والدة فيليب ابن أمينتا، حفيدة أرابيوس لابنته، وكانت سيرا ابنته. ومن الإبيريين حكم المولوسيين بيروس ابن نيوبتوليموس ابن أخيلليس، وخلفاؤه، وهم سلالة تسالية. أمّا الشعوب الأخرى فقد كان يحكمها حكّام محلّيون. وبما أنه كان دائماً ثمّة قبيلة تسود على القبائل الأخرى، فقد خضعت هذه كلّها للمقدونيين، ما عدا بعضها التي كانت تعيش إلى الأعلى من الخليج الإيوني. وقد دعا بعضهم المناطق الواقعة عند لينكوس، وبيلاغونيا، وأوريستيدا، وإيليمبيوس،

مقدونيا العليا، ودعيت فيما بعد مقدونيا الحرة أيضاً. وهناك آخرون يدعون المنطقة كلّها حتّى كوركيرا، باسم مقدونيا. وفي الوقت نفسه، ساق بعضهم دليله على صحّة هذا الزعم مستنداً إلى أن سكّان هذه البلاد يقصون شعرهم بالطريقة عينها، ويتكلّمون لغات متشابهة، ويرتدون أردية متشابهة، وما إلى ذلك من الأشياء، لكنّ آخرين قالوا إنهم يتحدثون لغتين. وبعد سقوط السيطرة المقدونية، خضع هؤلاء لسيطرة الرومان. وعبر مناطق هذه القبائل من إيبيدامنوس وأبوللونيا، تمرّ طريق إيغناتيوس. وعلى مقربة من الطريق، على جبل كاندافيا تقع بحيرة مجاورة لمدينة ليختيدس؛ وتقوم هنا ورش لتمليح الأسماك مستقلّة [عن التجمّعات المائية الأخرى]. كما توجد هنا أنهار، يصبّ بعضها في الخليج الإيوني، وبعضها الآخر يجري نحو الغرب: إيناخوس، وأراتث، وأخيلوس، وإيفين الذي كان يدعى من قبل ليكورم. ويصبّ أراتث في الخليج الأمبراكي، وإيناخوس في أخيلوس، وأخيلوس في إيفين، وإيفين في البحر، ويجري الأول عبر أكارنانيا، والثاني عبر إيثوليا. أمّا إريغون فبعد أن يستقبل روافد كثيرة تتحدر من الجبال الإيليرية ومناطق اللينسكيستيين، والبريغيين، والدريوبيين، والبيلاغونيين، يصبّ في نهر أكسي.

9- وفي الماضي كانت لهذه القبائل مدنها. وفي الأحوال كلّها، فقد دعيت بيلاغونيا «المدن الثلاث»؛ وكانت آزور واحدة من هذه المدن. وعلى نهر إريغون كانت مدن الدريوبيين كلّها ذات كثافة سكّانية عالية؛ ومنها: بريانى، وألالكومينا، وستيبارا. وكانت مدينة كيدرا للبريغيين، ومدينة إيجيني الواقعة على الحدود مع إثيكيا وتريكا للتيمفيين. وعند جبلي بيوس وبيندوس، وغير بعيد عن مقدونيا وتساليا يقطن الإيفيكيون وتقع منابع نهر بينييوس (ويختصم التيمفيون والتساليون الذين يعيشون عند سفوح بيندوس، للسيطرة على منابع هذا النهر)، كما تقع هنا أيضاً مدينة أوكسينيا على نهر إيون، على بعد 120 مرحلة عن آزور في المدن الثلاث. وعلى مقربة تقع ألالكومينا، وإيجيني، ويوروب، ونقطة التقاء نهري إيون وبينييوس وأنا كنت قد أشرت إلى أنه في الزمن الماضي كانت الكثافة السكّانية في كلّ من إبير وإيلليريا عالية جدّاً، على الرغم من أن هذه البلاد ليست مستوية وتقطعها الجبال (مثلاً، جبل تومار، وجبل بوليان و...). أمّا الآن فإن الشطر الأكبر مقفر، ولا تشكّل الأماكن المسكونة سوى قرى وأطلال. وحتّى الكاهن المتنبّئ في دودونا صمت، مثله في هذا مثل المتنبّئين الآخرين.

10- وبحسب إيثور أن البيلاسيغيس هم الذين انشؤوا مؤسّسة المتنبّئ هذه، وأن البيلاسيغيس هم أقدم القبائل التي حكمت في اليونان. وعن هذا يقول هوميروس:

زيوس البيلاسيغي، الدودوني،
الرب الذي يقيم بعيداً

(الإلياذا XVI، 233)

ويقول هسيود:

جاء إلى دودونا، وإلى شجرة البلوط، مسكن البيلاسيغيس

(مقطع 212، رجاخ)

وأنا كنت قد تحدّثت عن البيلاسيغيس لدى وصفي لتيرينا[16]. أمّا فيما يخصّ القبيلة التي تسكن عند معبد دودونا، فإن هوميروس يبين بوضوح أنها كانت قبيلة بربرية إذ يصف نمط عيشها:

[الكويون] لا يغسلون أرجلهم وينامون على الأرض العارية.

(الإلياذا XVI، 235)

وعلى أيّ حال من الصعب أن نعطي إجابة محدّدة عمّا إذا كان ينبغي أن ندعوهم هلليين كما يرى بينداروس، أو سيلليين كما ينبغي أن نقرأ لدى هوميروس، لأنّ النصّ يثير الشكوك. وبحسب فيلوكور أن المكان الواقع عند دودونا، ومثله إيبيوس، كان يدعى هيللوبيا؛ وواقع الأمر، يضيف فيلوكور، أن هسيود يقول:

هناك هيللوبيا، ناحية وسط المروج وموئل السمان،
وعلى تخوم هذه الأرض شادوا في زمن ما، دودونا.

(مقطع 134، رجاخ)

وعلى حدّ قول أبوللودوروس. إنه ثمّة رأي يقول، إن البلاد أعطيت هذا الاسم بسبب المستنقعات[17] الموجودة عند المعبد. ولكنّ أبوللودوروس نفسه يرى، أن هوميروس لم يدع سكّان أطراف المعبد «هلليين»، بل «سيلليين»، لأنّ الشّاعر، يضيف أبوللودوروس، يذكر أيضاً، نهراً ما يدعى «سيلليينس»[18]. والشّاعر يذكر هذا النهر فعلاً:

... من مدينة إيثيرا، من مياه سيلليينس.

(الإلياذا II، 659)

ولكنّ ديميتري السكيبسيسي يرى، أن الحديث لا يجري عن إيثيرا التي عند الثيسبروتيين، بل عن إيثيرا الإيلية، لأنّ نهر سيلليينس يقع هناك، أمّا الثيسبروتيون والمولوسيون فليس عندهم مثل هذا النهر. وفيما يخصّ أسطورتي شجرة البلوط،

والحمامات، وسواهما من الأساطير المشابهة، فإنها تلائم (كالأساطير التي ترتبط بالدلافين) إلى حدّ ما ميدان المناظرات الشعرية، وإلى حدّ ما تنتمي إلى وصفنا الجغرافي الراهن.

11- في الزمن القديم كانت دودونا تحت سلطة الثيسبروتيين، وكذلك جبل تومار أو تمار (الصيغتان مستخدمتان)، الذي يقوم المعبد على سفحه. ويدعو كلّ من التراجيديين وبينداروس دودونا «بالثيسبروتية». وقد باتت هذه فيما بعد تحت سلطة المولوسيين. ويروى أنه على اسم جبل تومار، دعي «التوماريون» الذين ذكرهم الشّاعر كمؤوّلين لآيات زيوس، والذين يصفهم بأنهم

... لا يغسلون أرجلهم وينامون على الأرض العارية.

(*الإلياذا* XVI، 235)

وفي «الأوذيسا» أيضاً، يفهم بعضهم كلمات أمفينوم حينما نصح هذا الخطّاب بألا يهاجموا تيليماخ قبل أن يسألو متنبّئ زيوس:

إذا أذن توموريوّ زيوس العظيم،
سأوافق أنا نفسي على طعنه، وأدعو
الآخرين إلى قتله؛ أمّا إذا منع زيوس،
فأمسكوا عن نصحيتي.

(*الأوذيسا* XVI، 403-405)

فحسب رأيهم إنه من الأفضل أن نرى في هذا tomourio من أن نرى فيه themistai. وفي الأحوال كلّها فإن الشاعر لا يدعو أقوال المتنبّئ themistai في أي مكان من الملحمة، ولكنّ هذه الكلمة تعني «أوامر»، و«قرارات»، و«أحكاماً تشريعية». وقد دعوا هؤلاء الناس tomouorio اختصاراً، بدلاً من tomarourio، أي «حراس تومار». ويقرؤه النقاد الحديثون tomouroi، بيد أنه كان من الأبسط اعتماد كلمة themistai وboulai بمعنى أكيد لكلمة مثل «أوامر» المتنبّئ و«قراراته»، والشيء عينه ينسحب أيضاً على كلمة «قوانين» على وجه العموم، وبهذا المغزى فعلاً قيل ما يلي، على سبيل المثال:

من شجرة البلوط العالية الأغصان،
يسمع أمر زيوس.

(*الأوذيسا* XIV، 328)

12- في الأول كان هناك رجال- متنبّئون؛ ربّما كان هذا هو ما يشير إليه الشاعر، لأنه يدعوهم hypophetai[19]، الذين كان يمكن أن يكون في عدادهم متنبّئون. ولكن فيما بعد عندما ضموا ديونا إلى زيوس شريكة للعرش في المعبد، وضعوا هنا ثلاث عجائز متنبّئات. ومع ذلك فإن سفيدا، ورغبة منه في إرضاء التساليين بالروايات الأسطورية يقول، إن المعبد نقل من تساليا، من منطقة بيلاسغيا عند سكوتوسا (وسكوتوسا تقع في بيلاسغيوتيدس التسالية)، ورافقه أكثر النسوة اللائي أكثر متنبّئات اليوم خليفاتهن. ومن هنا دعي زيوس بالبيلاسيغي. ولكنّ كينيوس يروي قصة أخرى أكثر أسطورية [...][*].



[*] - لم تبق خاتمة الكتاب VII.

مقاطع الكتاب السابع(*)

1- يقول كينيوس، إن في تساليا مدينة [ديدونا]، وإن شجرة البلوط ومقر تنبؤ زيوس نقلا من هنا إلى إبير (Steph. Byz. Dodone, s.v.).

1a- في الأزمنة الغابرة كان مقر النبوءات يقع عند سكوتوسا، مدينة بيلاسغيوتيدس. وبعد أن أحرق أحدهم الشجرة، انتقل مقرّ النبوءات بأمر من متنبّئ أبوللون، إلى دودونا. ولم يكن الكاهن ينقل النبوءات بالكلام، بل بإشارات معروفة، كما كان يفعل كاهن آمون في ليبيا. وربّما كانت تلك الإشارات سمات ما في طيران ثلاث حمامات يراقبها الكهنة ويعطون نبوءاتهم. ويروى في السياق، أن العجائز يدعين بلغة المولوسيين والثيسبروتيين pelioi[1]، ويدعى العجائز الذكور pelioi. وربّما لم تكن البيليادس السيّئات الصيت طيوراً البتة، بل ثلاث عجائز كن يعشن في المعبد (Exc. Vat.).

1b- وفيما يخصّ سكوتوسا، كنت قد أشرت إليها لدى وصفي لدودونا وكاهن تساليا المتنبّئ، لأنّ المدينة تقع على مقربة من هذا المكان. (Strabo IX, V, 20).

1C- بحسب الجغرافي[2]، أنهم يبجلون في دودونا شجرة البلوط التي كانوا يعدونها الأقدم في عالم النبات [وثمارها] أوّل الثمار التي استخدمها الناس في غذائهم. ويقول الكاتب نفسه عن ما يسمّى «حمامات التنبؤ» المحلّية، إنهم كانوا يراقبون طيران هذه الطيور لأغراض التنبؤ، مثلما كان هناك متنبّئون يتنبؤون بطيران الغربان (Eustath. ad Odyss XIV, 327).

2- وكما عند المقدونيين كذلك عند الثيسبروتيين والمولوسيين، كانت العجائز تدعى peliai، والعجائز من الرجال pelioi. وفي الأحوال كلّها كانوا يدعون الأشخاص الذين كانوا يشغلون عندهم مناصب تشريفية «بيليغوني»، ودعي مثل هؤلاء عند اللاكونيين والماساليين هيرونتي[3]. ويروى أن منشأ أسطورة الحمامات على شجرة بلوط دودونا يرجع إلى هنا (Exc. Vat.).

* لقد أُخذت مقاطع الكتاب السابع أساساً ممّا يدعى «بالخلاصات البالاتينية» و«الفاتيكانية»، وعن يوستافيوس المؤوِّل القديم لهوميروس، وعن واضع المعاجم ستيفان البزنطي، وعن أثينوس المدعو «بالمعجميّ الاشتقاقي الكبير» و...

3- لقد خرج المثل القائل «كالإناء النحاسي الدودوني»[4] على النحو الآتي: كان في المعبد إناء نحاسي تحته شكل بشري يحمل سوطاً نحاسياً، وكان تقدمة من الكوركيريين. وكان هذا السوط سوطاً ثلاثياً على شكل سلسلة نوى تتدلى إلى الأسفل، وكانت الريح تؤرجح هذه النوى دائماً لتضرب هذه الإناء النحاسي، فتصدر طنيناً يتواصل زمناً يستطيع خلاله من يقيس المدة الفاصلة بين بداية الطنين ونهايته أن يعدّ حتّى الأربعمئة. ومن هنا جاء المثل القائل: «كسوط الكوركيريين» (.Exc. ed).

4- تقع بيونيا إلى الشرق من هذه القبائل وإلى الغرب من الجبال التراقية، وإلى الشمال من المقدونيين، وتشكّل على الطريق التي تمرّ عبر مدينة غورتيني وستوبا معبراً [ضيّقاً نحو الجنوب][5]، يجري عبره نهر آكسي الذي يعوق العبور من بيونيا إلى مقدونيا، تماماً مثل بينييوس الذي يندفع من جهة اليونان عبر وادي تيمبييوس، فيقي مقدونيا. وفي الجنوب تجاور بيونيا بلاد الأفتارياتيين، والداردانيين، والأرديين؛ وتمتدّ حتّى ستريمون (.Exc. Vat).

5- يصبّ هالياكمون في خليج ثيرمييوس (.Exc. Vat).

6- أوريستيدا بلاد شاسعة؛ فيها جبل كبير يمتدّ حتّى جبل كوراكس في إيثوليا، وجبل بارناس. وحول هذا الجبل يعيش الأوريستيون أنفسهم، والتيمفيون، وكذلك الإغريق خلف البرزخ الذي يلتف حول بارناس، وإيتا، وبيند. ويدعى الجبل كلّه باسم مشترك واحد، هو بويون، لكنّ لأجزائه تسميات كثيرة. ويروى أنه يمكن رؤية بحر إيجة، والخليج الأمبراكي، والخليج الإيوني من أعلى قممه، ولكنّي أرى أن هذا الأمر مبالغ فيه كثيراً. ويعد جبل بتيليون الذي يرتفع عند الخليج الأمبراكي، جبلاً عالياً إلى حدّ ما؛ وهو يمتدّ من إحدى جهتيه حتّى خليج كوركيرا، ومن الجهة الأخرى حتّى البحر عند ليفكادا (.Exc. Vat).

7- لقد تحوّلت كوركيرا التي أنهكتها الحروب إلى مضرب مثل للسخرية (.Exc. Vat).

8- وفي الزمن القديم عاشت كوركيرا في بحبوحة، إذ كانت تملك قوة بحرية كبيرة، لكنّ عدّة حروب وعدداً من التيران أنهكوها ثمّ أهلكوها، وحتّى بعد أن منحها الرومان حريتها فيما بعد، لم تستطع أن تستثمر سمعتها الحسنة، وظهر في مجال المذمة المثل الآتي:

كوركيرا، أنت حرّة، حيث تريدين، يمكنك...[6]

(Exc. ed.)

9- وبقي لنا الآن أن نصف من أجزاء أوروبا، مقدونيا والأجزاء التي تجاورها من تراقيا حتّى بزنطا، ثمّ اليونان والجزر المجاورة. والحقيقة أن مقدونيا هي اليونان أيضاً، ولكنّني إذ التزم الآن الطابع الطبيعي والشكل الجغرافي لهذه البلدان، فقد عزمت على أن أفصلها عن باقي اليونان، وأصلها مع الجزء الذي يجاورها من تراقيا وصولاً إلى ثغر البونتس الإيفكسيني والبروبونتيدا. وبعد قليل يذكر [سترابون] كيبسيلا ونهر جيبر. كما يصف هيأة على شكل متوازي أضلاع تستقر فيه مقدونيا كلّها (.Exc.Vat).

10- ويحد مقدونيا من جهة الغرب ساحل البحر الأدرياتيكي؛ ومن جهة الشرق خطّ الزوال الموازي لهذا الساحل والذي يمرّ عبر مصبّ نهر جيبر وعبر مدينة كيبسيلا؛ ومن جهة الشمال خطّ وهمي مستقيم يقطع جبل بيرتيسك، وجبل سكارد، وجبل أوريول، وجبل رودوبا، وجبل جيموس. وابتداء من البحر الأدرياتيكي تمتدّ هذه الجبال على خطّ مستقيم حتّى البونتس الإيفكسيني مشكّلة بالاتجاه نحو الجنوب شبه جزيرة كبيرة تضم إضافة إلى تراقيا: مقدونيا، وإبير، وآخيا؛ ويحد مقدونيا من جهة الجنوب طريق إيغناتيوس التي تسير من مدينة ديراخيا باتجاه الشرق حتّى تسالونيكيا. وهيأة مقدونيا هذه تشبه متوازي الأضلاع شبهاً كبيراً (.Exc. ed).

11- في الأزمنة السابقة كانت مقدونيا المعاصرة تسمى إيماثيا. وقد أخذت اسمها هذا من اسم مقيدون، وهو أحد حكّامها القدماء. وكان ثمّة مدينة على البحر تدعى إيماثيا أيضاً. وقد شغل هذه البلاد جزئياً بعض من بيريين والإيلليريين، أمّا الشطر الأكبر منها، فقد سكنه البوتييون، والتراقيون. ويقولون[7]، إن البوتيين كانوا من أصل كريتي وإنهم جاؤوا من هناك تحت قيادة بوتون؛ ومن التراقيين سكن البييريون في بييريا والمنطقة المجاورة للأوليميب؛ وسكن البيونيون أراض تقع على ضفاف نهر أكسي، وفي مكان يدعى على اسم النهر أمفاكسيتيدس؛ وسكن الإيدونيون والبيسالتيون ما تبقى من البلاد حتّى نهر ستريمون. ولم يدع من هذه القبائل بيسالتيين سوى هذه القبيلة الأخيرة، أمّا الإيدونيون فبعضهم حمل اسم الميغدونيين، وبعضهم الآخر اسم الإيدونيين، وحمل بعضهم الثالث اسم السيفونيين. وقد فرض الأرغياديون[8] وكذلك الخلكيديون الذين جاؤوا من إيبيوس، سيطرتهم على هذه الشعوب كلّها؛ وكان الخلكيديون قد جاؤوا من إيبيوس إلى بلاد السيفونيين وبنوا هنا حوالي 30 مدينة. وعندما طرد سكّان هذه المدن منها فيما بعد سكن أكثرهم في مدينة واحدة، هي مدينة أولينث؛ وباتوا يسمون بالخلكيديين التراقيين (.Exc. Vat).

11a- ينطق الاسم القبلي لسكّان بوتيا i [9]، كما يشير سترابون في الكتاب VII. وتدعى المدينة[10] باسم الكريتي بوتون (Etym. Magn. p. 206,6).

11b- أمفاكسي. جزآ الكلام[11]. مدينة. والاسم القبلي لسكّان امفاكسي، هو الامفاكسيت. سترابون في الكتاب VII (Steph. Byz. Amphaxion, s.v.).

12- يفصل نهر بينيوس بين مقدونيا الدنيا، أو مقدونيا الساحلية، وتساليا، ومغنيسيا، أمّا هالياكمون ومعه إريغون، وآكسي والأنهار الأخرى، فهي تفصل بين مقدونيا العليا ومنطقة الإبيريين والبيونيين (Exc. Vat.).

12a- ولكن، إذا كانت مقدونيا تمتدّ بحسب الجغرافي، من بيليون التسالي وبينييوس حتّى بيونيا ومنطقة الشعوب الإبيرية، وإذا كان لدى الإغريق عند طروادا حلفاء من بيونيا، فإنه من الصعب أن نتخيّل أنه جاء إلى الطرواديين حلفاء من منطقة بيونيا المذكورة الأكثر بعداً (Eustath. ad. Ilid II, 848).

13- من الساحل المقدوني كلّه (ابتداء من منعطف خليج ثيرمييوس وتسالونيكيا)، يمتدّ شطر واحد نحو الجنوب حتّى سونيوس، ويمتدّ الآخر نحو الشرق حتّى كرسونيس التراقية ليشكّل مع المنعطف المذكور ما يشبه الزاوية. وتبعاً لامتداد مقدونيا بالاتجاهين، فإنه ينبغي علي أن أبدأ من الشطر المذكور أولاً. ففوق الشطر الأول، إلى الأعلى من منطقة سونيوس تقع أتيكا ومعها منطقة ميغارا حتّى الخليج الكريسي. ثمّ يأتي الساحل البيوتي المتجه نحو إيبيوس. وإلى الغرب، أعلى من هذا الساحل، وبموازاة أتيكا يقع الشطر المتبقي من بيوتيا. ويقول سترابون أيضاً، إن طريق إيغناتيوس التي تسير من الخليج الإيوني، تنتهي عند تسالونيكيا (Exc. Vat.).

14- وعن الأراضي الشريطية الشكل، يقول سترابون، إنني أبرز قبل كلّ شيء حدود الشعوب التي تسكن غير بعيد عن بينييوس وهالياكمون عند البحر. فبينييوس يجري من جبل بيندوس عبر وسط تساليا نحو الشرق، وإذ يعبر مدن اللابيثين، وبعض مدن البيريبويين، يصل النهر إلى وادي تيمبييوس. وكان بينييوس قد استقبل حتّى الآن عدداً من الروافد، منها يوروب؛ وقد دعا هوميروس هذا الأخير تيتاريسيوس[12]، لأنّ منابع هذا النهر تقع في جبل تيتاريوس الذي يتّصل مباشرة بجبل الأوليمب، الذي يبدأ من هنا بفصل مقدونيا عن تساليا. ووادي تيمبييوس، هو فج ضيّق بين الأوليميب وأوسا؛ ومن هذه الثغور الضيقة يجري بينييوس ما يقارب 40 مرحلة تاركاً على جهته اليسرى جبل الأوليميب، وهو أعلى جبل في مقدونيا، وعلى جانبه اليميني (على مقربة من مصبّه)، جبل أوسا. وغير بعيد عن مصبّ بينييوس (على الجهة اليمنى) تقع مدينة هيرتون، وهي مدينة بيريبية مغنيتية كان يحكم فيها بيريفوي

وإيكسيون. وعلى بعد حوالي 100 مرحلة عن هيرتون تقع مدينة كرانون. ويزعمون أنه عندما يقول هوميروس «كلاهما من تراقيا»[13] وما إلى ذلك، فإنه يقصد «بالإيثيريين» الكرانونيين، و«بالفليغيانيين» الهيرتونيين. وعلى الجانب الآخر [من بينييوس] تقع بييريا (Exc. Vat.).

15- يجري نهر بينييوس عبر وادي تيمبييوس، ويبدأ مجراه من جبل بيندوس؛ ومن ثمّ يمرّ مجراه عبر وسط تساليا وأرض اللابيثين والبيريبيين؛ وبعد ذلك يستقبل بينييوس رافده، نهر يوروب الذي دعاه هوميروس تيتاريسيوس، ويفصل مقدونيا في الشمال، وتساليا في الجنوب. وتبدأ ينابيع يوروب من جبل تيتاريوس المجاور للأوليميب. وينتمي الأوليميب لمقدونيا، وأوسا وبيليون لتساليا (Exc. Vat.).

15a- وبحسب الجغرافي أن بينييوس يبدأ مجراه من جبل بيندوس الذي يقطن عنده البيريبيون. وعن بينييوس يقول سترابون الآتي: يأخذ بينييوس مبتداه من على جبل بيندوس. ويجري تاركاً على جانبه اليساري تريكا، ليلتف حول أتراك ولا ريسا؛ ثمّ يستقبل أنهار تساليا ويمرّ عبر وادي تيمبييوس؛ وإذ يجري عبر وسط تساليا، فإن هذا النهر يستقبل كثيراً من الروافد؛ ومن ثمّ يأخذ بينييوس في مجراه جبل الأوليميب على يساره، وجبل أوسا على يمينه. وعند مصبّ بينييوس على الجهة اليمنى تقع مدينة الماغنيتيين هيرتون التي ملك فيها بيريفوي وإيكسيون. وغير بعيد عن هيرتون تقع مدينة كرانون التي دعي سكّانها على خلاف ذلك «إيثيريين» تماماً كما دعي سكّان هيرتون «فلغيانيين» (Eustath. ad Iliad. II, 750).

16- تحت منحدرات الأوليميب، وعلى طول مجرى نهر بينييوس تقع مدينة هيرتون، وهي مدينة بيريبية ماغنيتية، كان يحكم فيها بيريفوي وإيكسون. وتقع كرانون على بعد 100 مرحلة عن هيرتون؛ ويقال، إنه عندما قال هوميروس «كلاهما من تراقيا»، كان يقصد «بالإيثيريين» الكرانونيين، و«بالفليغيانيين» الهيرتونيين[14] (Exc. ed.).

16a- وعلى حدّ قول سترابون، إن مدينة كرانون تقع على بعد 100 مرحلة عن هيرتون (Steph. Byz. Homalion s.v.).

16b- هوموليوس، مدينة مقدونية وكذلك مغنيسيا، كما يقول سترابون في الكتاب VII (Steph. Byz. Homolion s.v.)

16c- لقد كنت أشرت في وصفي لمقدونيا، إلى أن هومووليوس تقع عند أوسا،

هناك حيث يبدأ بينييوس يسكب مياهه في البحر بعد أن يكون قد جرى عبر وادي تيمبييوس (Strabo, IX, V, 22).

16d- لقد كان هناك كثير من المدن التي تدعى إيثيرا، إذا كان الجغرافي قد أحصى فعلاً تسعاً منها (Eustath ad iliad, II, 659).

16e- يتحدّث الجغرافي عن المدينة الماغنيتية هيرتون الواقعة على مقربة من مصبّ بينييوس (Eustath. Ad illad, XIII, 301).

17- إن مدينة ديون الواقعة على منحدرات الأوليميب، لا تقع على ساحل خليج ثيرمييوس، بل على ما يقارب 7 مراحل عنه. وعلى مقربة من مدينة ديون تقع قرية بيمبلييا، حيث عاش أورفيوس. (Exc. ed).

18- عند سفوح الأوليميب تقع مدينة ديون؛ وغير بعيد عنها تقع قرية بيمبلييا. ويقال إن أورفيوس الكيكوني والساحر قد عاش هنا، ويروى أنه كان أوّل من بات يكسب المال من الموسيقا، والتنبؤات، وتأدية الطقوس السرية التي ترتبط بعملية التكريس في المسرحيات الدينية، ثمّ بعد أن رأى هذا أنه يستحق أكثر، جمع حشداً من المناصرين واكتسب أهمية كبيرة. وقد تبعه بعضهم طوعاً، لكنّ آخرين ارتابوا بوجود مؤامرة وعنف، فاتحدوا في عصيان وأهلكوه. وغير بعيد من هنا تقع مدينة ليبيثرا (Exc. Vat).

19- في الأزمنة الماضية كان المتنبّئون يمارسون الموسيقا أيضاً (Exc. ed.).

20- بعد ديون يأتي مصبّ هالياكمون؛ ثمّ بيندوس، وميثونا، وآلور ونهر إريغون، ونهر لوديوس. ويجري إريغون من منطقة التريكلاريين عبر أرض الأوريستيين وبيلييا[15]، تاركاً هذه المدينة على يمينه ليلتقي مع نهر أكسي؛ ونهر نوديوس نهر صالح للملاحة مع مجراه إلى فوق حتّى بيلا، مسافة 120 مرحلة. وتقع مدينة ميثونا بين نهر بيندوس ومدينة آلور: على بعد حوالي 40 مرحلة من الأول و70 مرحلة من الثانية. وتقع آلور في أقصى زاوية من خليج ثيرمييوس، وتدعى تسالونيكيا تبعاً للمجد الذي بلغته. ويعدون آلور مدينة بوتية، وبيندوس نهراً بييرياً. وتنتمي بيلا إلى مقدونيا الدنيا التي يشغلها البوتيون. وكانت تقع هنا في الأزمنة السابقة خزنة المقدونيين. وفي بادئ الأمر لم تكن لهذه المدينة أهمية تذكر، لكنّ فيليب أعلى شأنها، ففيها كان قد تلقى تربيته. وفي المدينة قلعة على بحيرة تدعى لوديوس. ومن هذه البحيرة ينبجس نهر لوديوس، أمّا البحيرة نفسها فيملؤها تيار مائي ما من نهر أكسي. ويصبّ أكسي في

البحر بين خالاسترا وثيرما. وثمّة على هذا النهر موقع حصين يدعى الآن أبيدون، ولكنّ هوميروس يدعوه أميدون. ويقول هـوميروس، مـن هنـا جـاء إلى طـروادا البيونيـون، حلفـاء للطرواديين [وكانوا].

يعيشون في بلدان أميدون، بعيداً،

حيث ينحدر أكسي الواسع.

(الإلياذا II، 849)

وقد دمّر الأرغياديون هذا الموقع (Exc. Vat.).

20a- أبيدون، أبيدونا، هو مكـان في مقـدونيا، كمـا يقـول سترابون (Steph. Byz. Abydon, s.v.).

21- يحمل أكسي مياهاً عكرة؛ ولكنّ هـوميروس[16] يـدعوه «أكسـي الأبهـى مياهاً»، وربّما كان ما قاله هوميروس هنا بسبب الينبوع المسمّى إيبيا؛ فهذا الأخير يحمل إلى هـذا النهـر أنقـى الميـاه، وهـذا مـا يؤكّـد عـدم صحّة القـراءة[17] المعتـادة الآن لهـذا المكان من ملحمة هوميروس. وبعد 20 مرحلة من أكسي يأتي نهر إيخيدور، ثمّ بعد 40 مرحلة مدينة تسالونيكيا التي أسّسها كاساندروس، ثمّ تـأتي طريق إيغناتيوس. وقد دعا كاساندروس هـذه المدينـة باسـم زوجتـه تسالونيكـي، وهـي ابنـة فيليب ابن أمينتا؛ فبعد أن دمّر في كروسيدا وخليج ثيرمييوس حوالي 26 مدينة، نقل سكّانها وأسكنهم في مدينة واحدة. وهذه المدينة هي المدينة الرئيسة في مقدونيا المعاصرة. وقد ضمت هـذه المدينـة الواحـدة أبوللونيـا، وخالاسـترا، وثيرمـا، وهاريسـك، وإينيبيـا، وكيسـوس؛ وربّمـا كانت لهذه الكيسوس علاقة مـا بكيسيوس الـذي يـأتي هـوميروس علـى ذكـره لـدى حديثه عن إيفيداماس:

لقد رباه كيسيوس منذ أن كان في المهد.

(الإلياذا XI، 223)

21a- كروسيدا؛ جزء من ميغدونيا. سترابون في الكتاب VII (Steph. Byz. Krusis s.v.).

21b- خالاسترا، مدينة في تراقيا عند خليج ثيرمييوس. ولكنّ سترابون يدعوها في الكتاب VII، مدينة مقدونية (Steph. Byz, Chlastra).

22- وبعد ديون يأتي نهر هاليـاكمون، الـذي يصبّ في خليج ثيرمييوس. وتقـع

على الساحل مدينة بيدنا التي تسمى الآن كيتر. ثمّ تليها مدينتا ميثونا، وآلور، وبعدهما نهر إريغون، ونهر لوديوس؛ ومن لوديوس[18] إلى مدينة بيلا النهر صالح للملاحة صعوداً مع التيار مسافة 120 مرحلة. ومن ميثونا إلى بيدنا 40 مرحلة، وإلى آلور 70 مرحلة. وبيدنا هي مدينة بييرية، أمّا آلور فهي مدينة بوتيية. وفي السهل الذي أمام بيدنا هزم الرومان برسيوس ودمّروا المملكة المقدونية[19]؛ وفي هذا السهل نفسه أمام ميثونا نزلت بفيليب ابن أمينتا في أثناء حصار هذه المدينة، نازلة: لقد اقتلعت عينه اليمنى قذيفة منجنيق (Exc. ed.).

23- ولم تكن مدينة بيلا كبيرة، لكن فيليب الذي تربى فيها، وسّعها إلى درجة ملحوظة. وأمام المدينة بحيرة ينبجس منها نهر لوديوس؛ والبحيرة نفسها تمتلئ من مياه أحد فروع نهر أكسي. ثمّ يأتي نهر أكسي الذي يقسم بيوتيا وأرض أمفاكسيتيدس؛ وبعد أن يستقبل نهر إريغون رافداً له، يصبّ أكسي في البحر بين خالاسترا وثيرما. ويقع على نهر أكسي مكان يدعوه هوميروس[20] أميدون ويقول، من هنا جاء إلى أسوار طروادا لمدّ يد العون، البيونيون [الذين]

يعيشون في بلدان أميدون بعيداً، حيث ينحدر أكسي الواسع

(*الإلياذا* II، 849)

وعلى أيّ حال، بما أن مياه أكسي عكرة، وثمّة ينبوع ما ينبع من أميدون، ويخلط «مياهه الصافية» بمياه النهر، لذلك فإنهم يغيّرون البيت التالي:

يروي أكسي إيبيا المقدّس بأنقى المياه

(*الإلياذا* II، 250)

ليصبح:

أكسي الذي يرتوي بمياه إيبيا المقدّس الأصفى.

وفعلاً تتسكب على وجه الأرض مياه أكسي التي ليست «الأنقى»، لكنّ مياه الينبوع تجري في النهر (Exc. ed.).

23a- بحسب بعضهم أن كلمة aia في قوله epikidnatai aiei أو[21] aian (لأنها تكتب بالوجهين)، لا تعني «أرضاً»، بل ينبوعاً معروفاً، وهذا ما يتّضح من قول الجغرافي: لقد كان أميدون يدعى من قبل عند هوميروس أبيدون، لكنّ المدينة دمّرت؛ وهناك على مقربة من أميدون ينبوع يدعى إيبيا[22]، يسكب مياهاً صافية نقية في نهر

أكسـي الـذي يمتلـئ بميـاه كـثير مـن الأنهـار، لكنّـه مـع ذلـك يحمـل أمواجـاً عكـرة. ولذلك فهو يقول: إن القراءة المعتادة المتعارف عليها

يحمل أكسي أنقى المياه إلى إيبيا المقدّس

ليست قراءة صحيحة، لأنه من الواضح أنه ليست مياه أكسي هي التي تصبّ في الينبوع، بل العكس. ثمّ يرفض الجغرافي بعد ذلك بشيء من النزق، التأويل الذي يدغم إيبيا والأرض، ومن الواضح أنه يريد أن يرمي نهائياً هذا التعبير من ملحمة هوميروس (Eustath ad Iliad. II, 850).

24- وبعد نهر أكسي تأتي مدينة تسالونيكيا التي كانت تدعى سابقاً ثيرما. وكان كاساندروس هو الذي أسّسها ودعاها باسم زوجته، ابنة فيليب ابن أمينتا. وقد نقل فيليب إلى هنا سكّان عدد من مدن الضواحي الصغيرة مثل خالاسترا، وإينييا، وكيسوس وبعض المدن الصغيرة الأخرى. وإلى هذه الكيسوس من المفترض أن ينتمي إيفيداماس الذي رباه كيسيوس في تراقيا (كما يقول هوميروس) التي تدعى الآن مقدونيا (Exc. ed.).

25- وفي مكان ما هنا يقع جبل بيرمي الذي كانت تشغله سابقاً قبيلة البريغيين التراقية. فتوجه قسم منها إلى آسيا وبدّل هؤلاء اسمهم فباتوا يدعون فريجيين. وبعد تسالونيكيا يأتي الباقي من أجزاء خليج ثيرمييوس وصولاً إلى كاناستري. وهذه رأس بحرية تشكّل شبه جزيرة قبالة ماغنيتيدا. وتدعى شبه الجزيرة هذه شبه جزيرة باللينا؛ وفيها برزخ عرضه 5 مراحل شقّت فيه قناة. وتقع على هذا البرزخ مدينة بوتيدييا التي أسّسها الكورينثيون، ثمّ سميت فيما بعد، كاساندرييا على اسم الملك كاساندروس نفسه الذي أعاد بناءها بعد أن دمّرت. ويبلغ امتداد الطريق البحرية حول هذه الشبه الجزيرة 570 مرحلة. ويقال إن العمالقة عاشوا هنا من قبل، وكانت هذه البلاد تدعى فليغرا[23]، ويصوّرهم البعض في الروايات الأسطورية، وبعضهم الآخر بروايات أكثر قرباً إلى الواقع، قبيلة بربرية كافرة كانت تملك هذا المكان لكنّ هرقل أبادها، بينما كان عائداً إلى مسقط رأسه بعد الاستيلاء على طروادا. وحسب الحكايات أن النسوة الطرواديات اللواتي اقترفن الجريمة، أحرقن السفن كي لا يحوّلن إلى إماء لدى زوجات أولئك الذين سيأخذونهن أسيرات[24] (Exc. Vat.).

25a- يشير الجغرافي إلى أن البريغيين كانوا يسمون فريجيين أيضاً (Eustath. ad Odyss. I 101).

26- وتقع مدينة بيرييا عند سفوح جبل بيرمي (Exc. ed.).

27- في الزمن القديم كانت شبه الجزيرة التي تقع على برزخها بوتيديبا السابقة، وهي الآن كاساندريا، كانت تدعى فليغرا. وقد سكنها العمالقة، وهم قبيلة مستهترة متهتكة أبادها هرقل. وفي شبه الجزيرة هذه أربع مدن: أثيتيس، وميندا، وسكيونا، وسانا (Exc. ed.).

27a- من الواضح أن [ديميتري] السكيبسيسي لا يستحسن ما يفترضه إيثور، ولا يوافق الكتّاب الذين يعتبرونهم[25] الغاليزونيين الذين يعيشون عند باللينا؛ وأنا كنت قد ذكرتهم لدى وصف مقدونيا (Strabo, XII, III, 22).

28- تقع أولينث على بعد 70 مرحلة من بوتيديبيا (Exc. Vat.).

29- محطة أولينث الشراعية، هي ميكيبيرنا التي على خليج تورونيوس (Exc. ed.).

30- غير بعيد عن أولينث ثمّة مكان في منخفض يدعى كونفاروليثون[26]، أي حشرة كونفار التي تكثر في الأطراف ولا تهلك إلا إذا اقتربت من هذا المكان (Exc.ed.).

31- بعد كاساندريا مباشرة يأتي ما تبقى من ساحل خليج تورونيوس حتّى ديريوس. وهذه الأخيرة هي رأس بحرية قبالة كاناستر، التي تشكّل الخليج. وقبالة ديريوس نحو الشرق تعلو رؤوس أفون البحرية[27]؛ وفي الوسط يقع الخليج السينغيتي المسمّى على اسم المدينة القديمة سينغ الواقع عليه، لكنّها الآن مدمّرة. وتأتي بعد هذه المدينة مدينة أكانث الواقعة على برزخ أفون، وكان الأندروسيون هم الذين بنوها؛ ويدعو كثيرون هذا الخليج بخليج أكانث (Exc. Vat.).

32- وقبالة كاناستر، ورأس باللينا البحرية، تقع ديريوس، وهي رأس بحرية واقعة على مقربة من ميناء كوف؛ وتفصل هاتان الرأسان معاً خليج تورونيوس. وإلى الشرق تقع رأس أفون أيضاً، التي تفصل الخليج السينغيتي، وهكذا فإن خلجان بحر إيجة يتتالى واحدها إثر الآخر مباشرة نحو الشمال، مع أن واحدها يبعد عن الآخر مسافة ملحوظة وفق الترتيب الآتي: خليج ماليوس، خليج باغاسيت، خليج ثيرمييوس خليج تورونييوس، خليج سينغيت، خليج ستريمون. أمّا فيما يخصّ الرؤوس البحرية، فإن بوسيديوس تقع بين الخليج الماليوسي والخليج الباغاسيتي، وبعده مباشرة نحو الشمال تقع رأس سيبيا؛ ثمّ تأتي رأس كاناستر في باللينا، تليها ديريوس، فنيمفييوس في أفون وعلى الخليج السينغيتي، وتقع على الخليج الستريموني رأس أكرانثوس؛ وبين هاتين الرأسين البحريتين الأخيرتين، يقع جبل أفون، وإلى الشرق منه، تقع جزيرة ليمنوس؛ ويحد خليج ستريمون من جهة الشمال نابولي (Exc. ed.).

33- أكانث مدينة ساحلية واقعة على الخليج السينغيتي على مقربة من قناة كسيراكس. وعلى أفون 5 مدن. ديون، كليونا، فيس، أولوفيكسي وأكروفون. وتقع هذه الأخيرة عند قمة أفون، ولجبل أفون هيأة تشبه شكل صدر المرأة، فهو حادّ جدّاً وعال جداً. والذين يعيشون فوقه يرون شروق الشمس قبل ثلاث ساعات من رؤية سكّان الساحل له. ويبلغ امتداد الطريق البحرية حول شبه الجزيرة من مدينة أكانث حتّى مدينة ستاغيرا، وهي مدينة أرسطو، 400 مرحلة. وثمّة على الساحل ميناء تدعى كابر، وجزيرة تحمل اسم الميناء نفسه. ثمّ يلي ذلك ثغر خليج ستريمون، وبعده فاغريس، وهاليبس، وأبوللونيا؛ وهذه كلّها مدن. ويأتي بعد ذلك مصبّ نهر نيست الذي يشكّل الحدّ الفاصل بين مقدونيا وتراقيا، كما حدّده في حينه فيليب والإسكندر. وهناك عند خليج ستريمون مدن أخرى، مثلاً ميركين، وآرغيل، ودرابيسك، ودات. وتتوفّر هذه الأخيرة على أراض خصبة رائعة، وترسانات لإصلاح السفن، ومناجم ذهب. ومن هنا جاء المثل القائل: «دات مليئة بالخيرات كلّها»، ومثله المثل الآخر الذي يقول: «كرات الخير» (Exc. ed.).

34- ويوجد كثير من مناجم الذهب في كرينيدا، حيث على مقربة من جبل بانغييوس تقع الآن مدينة فيليبا. وفي جبل بانغييوس نفسه مناجم ذهب وفضّة، كما على هذا الجانب وذاك من نهر ستريمون وصولاً إلى بيونيا، ويروى أنه حتّى الفلاحين في بيونيا يعثرون على فلذات الذهب وهم يحرثون أراضيهم (Exc. ed.).

35- إن جبل أفون جبل شاهق يشبه صدر المرأة. والناس الذين يعيشون عند قمته، لدى شروق الشمس يكونون قد تعبوا من الفلاحة، بينما بالكاد يكون قد صاح الديك في مثل هذا الوقت عند الذين يعيشون على الساحل. وكان يملك على هذا الساحل ثاميريس التراقي الذي كانت له مهنة أورفيوس عينها. كما يرونك هنا أيضاً قناة عند أكانث، يقولون إن كسيراكس كان قد أمر بحفرها عبر أفون، ثمّ بعد أن أطلق مياه البحر فيها قاد أسطوله عبر البرزخ من خليج ستريمون. ولكنّ ديميتري السكيبسيسي لا يرى أن القناة كانت صالحة للملاحة في أي زمن كان. والحقيقة أنه على الرغم من أن تربة البرزخ كانت جيّدة مسافة 10 مراحل، وملائمة للحفر، وأنه ثمّة قناة قد حفرت بطول بليفر، لكنّ صفحة صخرية امتدت بعد ذلك بطول يقارب المرحلة، وكانت هذه عالية وعريضة إلى درجة لو أمكن شقّ هذه الصخرة حتّى البحر، فإن ذلك لم يكن ممكناً إلى عمق يتيح أن تكون القناة صالحة للملاحة. ويضيف ديميتري أن الإسكندر ابن أنتيباتر قد أسّس هناك مدينة أورانوبوليس[28] بمحيط

امتداده، 30 مرحلة. لقد عاش على هذه الشبه الجزيرة بيلاسيغيس ما، جاؤوا من جزيرة ليمنوس، وانقسموا إلى خمس مشاعات: الكليونيون، والأولوفيكسيون، والأكروفوي، والديون، والفيسيون. وبعد أفون يأتي خليج ستريمون الذي يمتدّ حتّى نهر نيست الذي رأى فيه فيليب والإسكندر حدّ مقدونيا. وبكلام أدق، ثمّة رأس بحرية هنا تشكّل مع أفون خليج ستريمون، وهذه الرأس هي الرأس التي تقع عليها مدينة أبوللونيا[29]. وأوّل مدينة على الخليج بعد ميناء الأكانتيين، هي مدينة ستاغيرا الخالية اليوم من سكّانها، وهذه المدينة هي مسقط رأس أرسطو؛ وقد أسّسها الخلكيديون، ومثلها أيضاً ميناؤها كابر الذي يحمل اسم الجزيرة الصغيرة. ثمّ يأتي ستريمون الصالح للملاحة صعوداً مسافة 20 مرحلة حتّى أمفيبوليس. وهذه الأخيرة أسّسها الأثينيون؛ وتقوم هذه المدينة في المكان الذي يدعى إينييا غودوي[30]. ثمّ تأتي مدينتا هاليبس وأبوللونيا اللتان دمّرهما فيليب (Exc. Vat.).

36- يقول سترابون، إن المسافة من بينييوس إلى بيدني 120 مرحلة. وتقع على طول ضفّة ستريمون نابولي، مدينة الداتيين؛ ودات نفسها التي يقع في أراضيها سهل خصب، وبحيرة، ونهر، وترسانة إصلاح سفن، ومناجم ذهب ذات ريعية عالية. ومن هنا جاء المثل القائل: «دات[31]، هي [مجمع كل] الثروات»، ومثله المثل الآخر الذي يقول: «كرات الخير». ويشغل الأودومانتيون، والإيدونيون، والبيسالتيون البلاد على ذلك الجانب من ستريمون، أي ساحل البحر وضواحي دات؛ وهؤلاء السكّان بعضهم محلّيون، وبعضهم الآخر وافدون من مقدونيا، وقد ملك عليهم ريس. وإلى الأعلى من إمفيبوليس حتّى مدينة هيراقليا، سكن البيسالتيون وامتلكوا وادياً خصباً. وهذا الأخير يقسمه نهر ستريمون إلى شطرين، ويبدأ هذا النهر مجراه من منطقة الأغريانيين الذين يسكنون عند رودوبا. وتتجاور مع هذه المنطقة منطقة باروربيلييا التي تتبع مقدونيا؛ وفي شطرها الداخلي، على طول الوادي الذي يبدأ من إيدومينا، تقع مدن كالليبوليس، وأورفوبوليس، وفيليبوبوليس، وهاريسك. وفي منطقة البيسالتيين إذا صعدت إلى الأعلى مع مجرى ستريمون، تقع أيضاً قرية بيرغا على بعد 200 مرحلة تقريباً من أمفيبوليس. أمّا إذا سرت إلى الشمال من هيراقليا، بحيث يكون النهر على الجهة اليمنى، فإنك تصل إلى ثغور ضيّقة يجري عبرها نهر ستريمون. وعلى اليسار تقع بيونيا وضواحي دوبير، ورودوبا، وجبل جيموس، وعلى اليسار منطقة جيموس. وعلى هذا الجانب من ستريمون، عند النهر مباشرة، تقع سكوتوسا، وعلى بحيرة بولبا تقع مدينة أريفوسا. وإضافة إلى ذلك يدعى الذين يسكنون حول هذه البحيرة، بشكل

رئيس، ميغدونيين. ومن بلاد البيونيين لا ينبع نهر أكسي وحده، بل ينبع منها ستريمون كذلك. فهذا النهر يجري من منطقة الأغريانيين عبر أرض الميدويين والسينتيين ليصبّ في البحر بين منطقتي البيسالتيين والأودومانتيين (Exc. Vat.).

37- يبدأ نهر ستريمون مجراه من منطقة الأغريانيين الذي يسكنون حول جبل رودوبا (Exc. ed.).

38- ويرى بعضهم أن البيونيين وافدون جاؤوا من فريجيا، بينما يقر آخرون بأنهم الأسلاف المؤسّسون لهذه القبيلة، وبيونيا كما يقولون، كانت تمتدّ حتّى بيلاغونيا وبييريا، وكانت تدعى سابقاً أوريستيبيا؛ وهناك شيء من المشروعية في تسمية أحد الزعماء الذي قاد حملة إلى أسوار طروادا من بيونيا، ابن بيليغون، فالبيونيون أنفسهم كانوا يسمون بيلاغونيين (Exc. Vat.).

39- ووفق الروايات إن أستروبييوس[32] ابن بيليغون الذي ورد ذكره عند هوميروس، كان من بيونيا التي في مقدونيا. ولذلك دعوه ابن بيليغون. فالبيونيون أنفسهم كانوا يسمون بيلاغونيين (Exc.ed.).

40- بما أن الإغريق يسمون paianismos [33] التراقيين titanismos[34] محاكاة لنداء النفير في البيانات[*]، فإن الطيطانيس أيضاً كانوا يسمّون بيلاغونيين (Exc. ed.).

41- في الزمن القديم امتلك البيونيون، ومن الواضح أنهم يمتلكون الآن أيضاً، شطراً كبيراً من مقدونيا المعاصرة، فقد حاصروا بيرينثوس، بل وأخضعوا لسلطانهم كلّ كريستونيا وميغدونيدا، وكذلك أرض الأغريانيين حتّى جبل بانغييوس. وتقع فيليبا وضواحيها إلى الأعلى من ساحل خليج ستريمون، من هاليبس حتّى نيست. وكانت فيليبا تدعى في الماضي كرينيدا. وكانت هذه قرية صغيرة اتسعت بعد هزيمة بروتوس وكاسيوس[35] هنا (Exc. Vat.).

42- كانت مدينة فيليبا الحالية تدعى قديماً كرينيدا(Exc. ed.)

43- أمام هذا الساحل جزيرتان، هما ليمنوس وفاسوس. وخلف مضيق فاسوس تأتي أبديرا ومناطق ترتبط في الأساطير باسم أبديروس. وكان يعيش على الساحل البيستونيون التراقيون الذين كان يحكم فيهم ديوميدس. ولا يبقى نهر نيست دائماً في المجرى عينه، بل يغرق البلاد بفيضانه في كثير من الأحيان. ثمّ تأتي ديكييا، وهي

* - أناشيد النصر- ح. إ.

مدينة واقعة في الخليج، وهي ميناء أيضاً. وإلى الأعلى منها تقع بيستونيدا، وهي بحيرة يبلغ محيطها حوالي 200 مرحلة. ويقولون إن هذا السهل كان كلّه منخفضاً أدنى من سطح البحر. فعندما رأى هرقل إنه كفارس، أضعف من عدوه إذ جاء إلى هنا ليسرق مهرات ديوميدس، شقّ قناة عبر الشاطئ وانحدر بمياه البحر إلى السهل وهزم أعداءه. ويرونك هناك قصر ديوميدس الذي دعي كارتيرا كومي[36] بهذه المناسبة، بسبب حصانته الطبيعية. وبعد البحيرة التي تقع في وسط البلاد، تأتي مدن الكيكونيين: كسانتيا، ومارونيا، وإيسمار. لكنّ هذه الأخيرة تدعى اليوم «إيسمارا الواقعة قرب مارونيا». وغير بعيد من هنا تسكب بحيرة إيسماريدس مياهها. ويدعى تيار البحيرة أوديسيوس. كما تقع هنا أيضاً فاسيون كيثالايوس[37]. وفوق هذه القمم يعيش السابيون (Exc. Vat.).

44- وتقع توبيرا غير بعيد عن أبديرا ومارونيا(Exc.ed.).

44a- ويقال إن إيسمار التي ذكرت هنا، ثمّ باتت فيما بعد تدعى إيسمارا، هي مدينة صغيرة للكيكونيين، وتقع غير بعيد عن مارونيا، وثمّة بحيرة هناك أيضاً يدعى تيارها أوديسيوس؛ ويقول الجغرافي، إن معبد البطل مارون يقوم هنا (Eustath ad. Odyss. IX, 30).

45- والسينتيون شعب تراقي كان يقطن جزيرة ليمنوس، ولذلك يدعوهم هوميروس سينتيين:

هناك الرجال السينتيون [على الرحب والسعة] استقبلوني

(*الإلياذا* I، 594)

45a- ليمنوس: سكنها التراقيون أولاً، وبحسب سترابون أن هؤلاء كانوا يدعون سينتيين (Steph. Byz. Lemons, s. v.).

46- وراء نهر نيست إلى الشرق تقع مدينة أبديرا التي حملت اسم أبدير نفسه الذي افترسته أفراس ديوميدس. وبعدها على مقربة تقع مدينة ديكيا التي تقع إلى الأعلى منها بحيرة كبيرة، هي بحيرة بيستونيدا وبعد ذلك تأتي مدينة مارونيا(Exc. ed).

47- تتكون تراقيا كلّها من 22 شعباً، ولا يزال بإمكانها أن تجند على الرغم من الإنهاك التام، 15.000 فارس و200.000 جندي من المشاة. وتأتي بعد مارونيا مدينة أورفاغوريا، ومكان عند سرييوس (حيث الملاحة عند الشاطئ متعذرة). ثمّ مدينة

تيمبيدا، وهي مدينة صغيرة للساموتراقيين؛ فمدينة صغيرة أخرى، هي كاراكوما التي تقع أمامها جزيرة ساموتراقيا، وإيمبروس التي لا تبعد كثيراً عن ساموتراقيا. أمّا فاسوس فتبعد عن هذه الأخيرة ضعف المسافة تقريباً ويأتي بعد كاراكوما دوريسك حيث أعاد كسيراكس إحصاء جحافله؛ ثمّ يأتي نهر جيبر الصالح للملاحة صعوداً مع تياره مسافة 120 مرحلة، حتّى كيبسيلا. وعلى حدّ قول سترابون إن حدود مقدونيا كانت هنا؛ وهذه الأخيرة سلبها الرومان من برسيوس، ثمّ من فيليب المنحول[38]. فبعد أن انتصر باولوس[39] على برسيوس ألحق القبائل الإبيرية بمقدونيا وأعطى البلاد تقسيماً إدارياً رباعياً [جديداً]: ألحق شطراً بأمفيبوليس، وشطراً بتسالونيكيا، وشطراً ببيلا، وشطراً بالبيلاغونيين. وعلى ضفتي جيبر يقطن الكوربيليون، وإلى الأعلى مع مجرى النهر يقطن البرينيون، ويأتي البيسيون في الآخر، لأنّ النهر صالح للملاحة حتّى هذه المنطقة. وهذه القبائل كلّها تمارس النهب والسلب، خاصة البيسيين الذين يدعوهم سترابون جيران الأودريسيين والسابيين. وكانت بيزيا عاصمة الآستيين. ويدعو بعضهم كلّ الذين يعيشون على الساحل من جيبر وكيبسيلا حتّى أوديسيوس، أي القبائل التي ملك عليها أمادوك، وكيرسوبليبت، وبيريساد، وسيفث، وكوتيس، يدعونهم أودريسيين (Exc. Vat.).

47a- الأودريسيون: قبيلة في تراقيا. سترابون في الكتاب VII (Steph. BYZ. Odrysai, s.v.)

47b- وإذ يشير الجغرافي إلى امتداد تراقيا الشاسع يقول، إن تراقيا كلّها تتألف من 22 شعباً (Eustath ad. Iliad. II, 844).

48- ويحمل النهر التراقي اليوم اسم ريجينيا، بينما كان اسمه سابقاً إريغون. (Exc. ed.).

49- ياسيون وداردانوس شقيقان عاشا في ساموتراقيا. وبعد أن ضربت الصاعقة ياسيون عقاباً له على إهانته ديميترا، رحل داردانوس من ساموتراقيا وأقام عند سفح جبل إيدا؛ [والمدينة التي أسّسها هناك] دعاها داردانيا، وعلّم الطرواديين المسرحيات الدينية الساموتراقية. وكانت ساموتراقيا تدعى في الأزمنة السابقة ساموس(Exc. ed.).

50- يدغم كثيرون الآلهة التي يبجلونها في ساموتراقيا بالكبيري، بيد أنهم مع ذلك عجزوا عن توضيح ماهية الكبيري، أو الكيربانتي، أو الكوريبانتي؛ كما يدغم بهم على النحو عينه الكوريتي والداكتيلي الإيديون (Exc. Vat.).

50a- وبحسب الجغرافي أن هذه الجزيرة التراقية تدعى ساموس بسبب ارتفاعها. وعلى حدّ قوله فإن Samoi فعلاً تعني «ارتفاع» [....]. ويقول الجغرافي، إن الساموسيين الذين من ميكال قد سكنوا الجزيرة في الزمن القديم، ولكنّ هذه خلت من سكّانها بسبب شح القوت، لذلك دعوها ساموس [....]. ويخبرنا الجغرافي أن ساموتراقيا كانت تسمى في الأزمنة الماضية ميليتا، وأنها كانت غنية بالخيرات. وبحسب روايته، أن القراصنة الكيليكيين أغاروا على معبد ساموتراقيا واستولوا على أكثر من 1000 تالانت (Eustath ad. Iliad, XIII, 12).

51- عند مصبّ جيبر الذي يصبّ في البحر بفرعين في خليج ميلان، تقع مدينة إينوس التي أسّسها الميتيلينتيون والكوميسيون، وقبلهم الألوبيكونيسيون. وتأتي بعد ذلك رأس سابيدون البحرية وما يدعى كيرسونيس التراقية التي تشكّل البروبونتيدا، فخليج ميلان، والهليسبونت. فإلى الجنوب الشرقي تبرز الرأس البحرية التي تصل بين آسيا وأوروبا بمضيق عرضه 7 مراحل بين أبيدوس وسيستوس تاركة البروبونتيدا على يسارها وخليج ميلان على يمينها؛ وقد دعي الخليج بهذا الاسم نسبة إلى نهر ميلان الذي يصبّ فيه (كما يقول هيرودوت [40] وإيفدوكس). ويقول سترابون، إنه على حدّ قول هيرودوت[41] إن الماء في هذا النهر لم يكن كافياً لسد حاجات جيوش كسيراكس. ويغلق الرأس المذكورة برزخ بأربعين مرحلة. وتقع في وسط البرزخ مدينة ليسيماخيا التي حملت اسم الملك الذي أسّسها. وعلى جانبي البرزخ، في خليج ميلان، تقع مدينة كارديا، وهي أكبر مدن كيرسونيس. وقد أسّس المدينة الميلتوسيون والكلازوميتيون، وفيما بعد انضمّ إليهم الأثينيون؛ وعلى البروبونتيدا تقع مدينة باكتيا. ويأتي بعد كارديا دراب وليمنا، ثمّ آلوبيكونيس التي ينتهي عندها تقريباً خليج ميلان، وتلي ذلك الرأس البحرية الكبيرة مازوسيا؛ وبعدها في الخليج إيليونت[42]، حيث يقع معبد بروتيسيلايوس، وقبالته على بعد 40 مرحلة تقع سيغيبيوس، رأس طروادا البحرية. وهذه الرأس هي تقريباً آخر أطراف كيرسونيس، وهي تقع على مسافة أكثر بقليل من 400 مرحلة عن كارديا. وإذا ما أبحرت حول البرزخ نحو جانبه الآخر، فإن المسافة المتبقية ستكون أبعد من هذه بقليل (Exc. Vat.).

51a- إينوس، هي مدينة في تراقيا، تدعى ابسينث. سترابون في الكتاب VII. وتقع مدينة إينوس عند مصبّ نهر جيبر الذي له مصبّان؛ وهذه المدينة أسّسها الكوميسيون، ودعيت باسمها هذا لأنّ نهر إينيوس يجري هناك، وعلى مقربة من أوسا كانت تقع قرية تحمل الاسم نفسه (Steph Byz. Ainos, s.v.).

52- تشـكّل كيرسـونيس التراقيـة ثلاثـة بحـار: في الشـمال البروبونتيـدا، وفي الشرق الهليسبونت، وفي الجنوب خليج ميلان، الذي يصبّ فيه نهر ميلان حامل الاسم عينه (Exc. ed.).

53- وتقع على برزخ كيرسونيس ثلاث مدن: كارديا على مقربة من خليج ميلان، وباكتيا على مقربة من البروبونتيدا، وليسيماخيا في الشطر الداخلي من البلاد. ويبلغ عرض[43] البرزخ 40 مرحلة (Exc. ed.).

54- يستخدم اسم مدينة إيلينوت في صيغة المذكر؛ وربّما كان اسم ترابيزونت يستخدم بالصيغة نفسها أيضاً (Exc. ed.).

55- وإذ نبحر على طول شواطئ كيرسونيس، بعد إيلينوت نقترب أولاً من مدخل البروبونتيدا عبر مضيق ضيّق يدعى بداية الهليسبونت. وتقع هنا رأس كينوس-سيما[44]؛ مع أن بعضهم يسميها هيكابيس- سيما[45]؛ وفعلاً، بعد أن تتجاوز الرأس يرونك قبرها. ثمّ تأتي ماديت ورأس سيسيتيدا البحرية حيث كان يقع جسر كسيراكس، وبعدها تأتي سيستوس. ومن إيلينوت حتّى الرأس التي كان يقوم عندها الجسر 170 مرحلة. وبعد سيستوس بثمانين مرحلة تأتي إيجوسباتاما، وهي مدينة صغيرة مدمّرة يقال إن حجراً سقط [من السماء] هنا في أثناء الحروب الفارسية. وبعد ذلك تأتي كالليبوليس، ومن هنا إلى لامبساك معبر إلى آسيا يمتدّ 40 مرحلة؛ ثمّ بلدة كريفوت المدمّرة، وبعدها باكتيا؛ فماكرون وتيخوس[46]، وليفكي آكتي[47]، وهيرون أوروس[48]، وبيرينثوس التي أسّسها الساموسيون؛ وبعد ذلك سيليبريا. وإلى الأعلى من هذه الأماكن تقع سيلتا، وهيرون أوروس الذي يبجله السكّان المحلّيون؛ ويعدّ هذا المكان بمثابة أكروبوليس هذه البلاد. ويسكب هيرون اوروس إسفلتاً على مقربة من المكان الذي تصل فيه بروكونيس إلى أقرب نقطة من البر: مسافة 120 مرحلة فقط. وتوجد في هذه الجزيرة مناجم كبيرة وغنية بحجر المرمر الأبيض. ويأتي بعد سيليبريا نهر أثيروس ونهر بافينوس؛ ثمّ بزنطا والأماكن التي تليها وصولاً إلى صخور الكيانيس (Exc. Vat.).

55a- بخصوص سيستوس وكيرسونيس كلّها، كنت قد تحدّثت لدى وصفي للأماكن التراقية (Strabo XIII, 22).

55B- سيستوس مستعمرة لليسبيسيين، ومثلها مثل ماديت، وبحسب الجغرافي أنها مدينة كيرسونيسية تبعد 30 مرحلة عن أبيدوس، من الميناء إلى الميناء (Steph. Byz. Sestos, s. v.).

56- ومن بيرينثوس إلى بزنطا 630 مرحلة، ومن جيبر إلى كيبسيلا إلى بزنطا وصولاً إلى صخور الكيانيس 3100 مرحلة، كما يؤكّد أرتيميدور. وكامل المسافة من الخليج الإيوني عند أبولونيا حتّى بزنطا 7320 مرحلة؛ ولكنّ بوليبيوس يضيف إليها 180 مرحلة أخرى، لأنه يضيف $\frac{1}{3}$ مرحلة لكل 8 مراحل الميل الواحد. ويحسب ديميتري السكيبسيسي في مؤلّفه «عن تنظيم القوات المقاتلة الطروادية»[49]، المسافة من بيرينثوس إلى بزنطا في 600 مرحلة ومثلها حتّى باري. وهو يعتمد طول البروبونتيدا في 1400 مرحلة، وعرضه في 500 مرحلة. ويرى فيما يخصّ الهليسبونت، أن أضيق عرض له 7 مراحل[50]، وأن طوله 400 مرحلة (Exc. Vat.).

57- وليس ثمّة توافق بخصوص تسمية «الهليسبونت»، فقد طرح في هذا الخصوص عدد من الآراء. فبعضهم يدعو البروبونتيدا كلّه هليسبونت، وبعضهم الآخر لا يطلق هذه التسمية إلا على جزء من البروبونتيدا على هذا الجانب من بيرينثوس. ويلحق فريق ثالث بالهليسبونت جزء البحر الخارجي الذي يتّجه نحو خليج ميلان ومياه بحر إيجة المفتوحة؛ ويعتمد بعضهم في أثناء ذلك أحد التقسيمات، بينما يعتمد آخرون تقسيماً آخر؛ فبعضهم مثلاً، يلحق بهذا، كلّ الفضاء الممتدّ من سيغييوس حتّى لامبساك وكيزيك أو باري وبرياب؛ بل هناك كاتب لا يكتفي بهذا فيضيف إليه الفضاء الممتدّ من سيغريوس في جزيرة ليسبوس. وأخيراً هناك من لا يتردد في أن يرى أن الهليسبونت يشمل أيضاً كلّ فضاء البحر المفتوح حتّى بحر ميرتوي، لأنه على حدّ قول بينداروس في أناشيده، إن رفاق هرقل الذين أبحروا من تحت أسوار طروادا عبر «مضيق العذارء هيلا»، لم يبلغوا سوى بحر ميرتوي إذ ردتهم القهقهرى زفيروس التي هبت في وجههم، ودفعتهم إلى كوسوس. وعلى هذا النحو يريد هؤلاء أن يدعوا كلّ بحر إيجة حتّى خليج ثيرمييوس، والبحر التسالي والبحر المقدوني باسم الهليسبونت، ويدعون هوميروس ليشهد لهم على صحّة رؤيتهم. فهوميروس يقول:

غداً، إذا شئت، وإذا كان ذلك يهمّك،
ومنذ الصباح الباكر، يمكنك أن ترى كيف
تمخر الهلسبونت سفني كلّها...

(الإلياذا IX، 359)

لكنّ أبياتاً أخرى تنقض هذه الشهادة.
هذا البطل إيمبراسيد، القادم
من إينا إلى إيلون،

(الإلياذا IV، 520)

وكان هذا قائداً للتراقيين[52].

كل الذين يحتوي الهليسبونت العاصف بلدانهم.

(الإلياذا II، 845)

فالشّاعر يشير إلى أولئك[53] الذين كانوا يعيشون وراءهم [54] مباشرة خارج الهليسبونت. وفعلاً، إن إينوس تقع في إبسينفيدا سابقاً والتي تدعى اليوم كورپيليكا، بينما تقع بلاد الكيكونيين أبعد نحو الغرب (Exc. Vat.).

58- الكوربيليون: من التراقيين. سترابون في الكتاب VII؛ وكانت منطقتهم تدعى كوربيليكا؛ فإينوس تقع في ابسينفيدا سابقاً، والتي تدعى اليوم كوربيليكا (Steph Byz. Korpiloi, s.v.).

59- وبحسب سترابون في الكتاب VII، أن التتراخوريتيين من البيسيين. وقد دعوهم أيضاً تيتراكوميين (Steph Byz. Tetrachoritai, s.v.).

60- فسترابون يتحدّث في الكتاب VII عن المؤلّف[55] عينه، مؤلّف الفيلسوف الرواقي بوسيدونيدس، الذي كان يعرفه[56] (Athen. XIII، 75).

61- وفي تراقيا أيضاً نهر آريسب، كما كنت قد قلت سابقاً، وعلى مقربة منه يقطن الكيبرينيون التراقيون (Strabo XIII، I، 21).

62- ربّما تدعى ريبا في صيغة الجمع ريبي، إذا كان سترابون يقصد هذه الريبا عندما قال، إن ريبي ليست مسكونة. ويدعون هذه البلاد ريبيدا. ويقول سترابون في مكان آخر من غير أن يترك محلاً للشك، إن [المدن المذكورة في بيت شعر هوميروس]:

في ريبا، وستراتيوس كان الرجال يقطنون، وفي
إينسبا الصاخبة.

(الإلياذا II، 606)

العثور على هذه المدن ليس أمراً صعباً وحسب، بل إن التي عثر عليها منها، لا فائدة فيها، فهي خالية تماماً (Eustath. ad. Iliad II, 606).

63- وعلى حدّ قول الجغرافي، إن قبيلة الكافكونيين قد اندثرت تماماً. ويتابع الجغرافي قائلاً: في البيلوبونيز لم يطق الكافكونيون (فرع أركادي من القبيلة) سلطة سلالة ليبريبوس (لأن هذا الأخير كان شخصاً أحمق)، فنزحوا من هناك إلى ليكيا (Eustath. ad Iliad. II،716).

64- [يروي بورفيريوس أن سـكّان ميثونا الخاضعون لسلطة فيلوكتيتس كـانوا يدعون فتيين]. لكـنّ الجغرافي يقـول، لم يـدع سـكّان ضـواحي ميثونـا وحـدهم فتيين، بل، كما قيل سابقاً، دعيت بهذا الاسم القبائل التي كانت خاضعة لسلطة أخيلليس، وبروتيسلايوس، وفيلوكتيتس على وجه العموم (Eustath. ad Iliad. II،716).

65- ويقـول الجغـرافي نفسـه، إن إيسـتر حمـل في زمـن مـا اسـم «مـاتواس»، أي بالإغريقية «آسي»[57]. ومع أن السكيثيين عبروا إيستر مـرات مـن غير أي منغصات، إلا أن رزءاً حلّ مرّة فبدلوا اسم النهر وبات يدعى الدابيس أو داوسيس، وكأن النهر كان مذنباً في الخطأ الذي ارتكبوه (Eustath. ad Dionys. peiag., 298).

66- ويقول الجغرافي أيضاً، إن عبادة هاديس كانت شائعة جدّاً هنا (Eustath. ad Dionys. peieg., 409).



الكتـاب الثامن

الفصل الأول

1- لقد نظرت في القبائل البربرية الأوروبية كلّها وصولاً إلى تانايس، وشطر صغير من اليونان: مقدونيا، وكنت قد بدأت وصفي من الأجزاء الغربية لأوروبا بين البحر الداخلي والبحر الخارجي. وسوف أقدم الآن وصفاً لجغرافيا ما تبقى من اليونان. وكان هوميروس أوّل من تناول هذه المسألة، ثمّ تبعه آخرون كثيرون؛ وقد كتب بعضهم أبحاثاً خاصة تحت عنوان «الموانئ» أو «البيريبلوس»(*)، أو «وصف عام للأرض»[1] وسوى ذلك مما شابه؛ وقد تضمنت هذه الأبحاث وصفاً لليونان أيضاً. وعرض آخرون طبغرافيا القارّات في أجزاء خاصة من أعمالهم الشاملة في علم التاريخ، كما فعل إيثور وبوليبيوس مثلاً. وثمّة فريق ثالث ضمّن مؤلّفاته في الفيزياء والرياضيات شيئاً ما عن هذه المادّة، كما فعل بوسيدونيوس وهيبارخ على سبيل المثال. وإذا كان الحكم على ما أخبر به الآخرون سهلاً، فإن المعلومات التي ساقها هوميروس تتطلب معالجة نقدية، لأنه يتحدّث كشاعر، لا عن الواقع الراهن للأشياء، إنّما عمّا كانت الحال عليه في الزمن القديم، وأكثر هذا مخفي في ظلمات القرون. وفي الأحوال كلّها يجب علي أن أبدأ بحثي بحسب الإمكان، من النقطة التي كنت قد توقفت عندها. وكان وصفي توقف في الغرب والشمال عند القبائل الإبيرية والإيلليرية، وفي الشرق عند القبائل المقدونية وصولاً حتّى بزنطا. وبعد الإبيروتيين والإيلليريين تأتي القبائل الإغريقية الأخرى: الأكارنانيون، والإيثوليون، واللوكريون الاوزوليون؛ وغير بعيد عن هؤلاء يقطن الثوكيون والبيوتيون؛ وقبالتهم على الجانب الآخر من المضيق تقع البيلوبونيز التي تشمل مضيق كورينثوس الواقع في الفجوة الفاصلة، وهي لا تمنحه شكله فقط، بل تأخذ

---

* periploi = أبحاث في وصف السواحل.- ح. إ.

شكلها منه أيضاً. ويأتي وراء مقدونيا التساليون (وتمتدّ حدودهم حتّى الماليين) ومناطق باقي القبائل خارج إيستم، كما مناطق القبائل في داخله أيضاً.

2- لقد كان في اليونان كثير من القبائل؛ فقد كان هناك من القبائل التي تنتمي إلى أقدم الأزمنة، بقدر ما نعرف الآن من لهجات إغريقية. ومع أن اللهجات بحد ذاتها أربع، إلا إننا نستطيع القول، إن اللهجة الإيونية متطابقة مع اللهجة الأتيكية القديمة (لأن سكّان أتيكا الأوائل كانوا يدعون إيوليين؛ ومنهم خرج الإيونيون الذين استوطنوا في آسيا وكانوا يتكلّمون اللغة التي تسمى الآن إيونية)؛ واللهجة الدورية متطابقة مع اللهجة الإيولية، لأنّ كلّ الإغريق الذين كانوا يعيشون خارج إيستم، ما عدا الأثينيين، والميغاريين، والدوريين الذين يعيشون عند بارناس، لا يزالون حتّى اليوم يدعون إيوليين؛ ومن الطبيعي أن نفترض أن الدوريين أيضاً مع قلة أعدادهم، وعيشهم في بلاد قاسية، وعدم تواصلهم مع الآخرين، كانوا قد غيروا قبل ذلك لغتهم وعاداتهم الأخرى، وأنهم ما عادوا كما في الماضي ينتمون إلى القبيلة عينها. وهذا ما حصل للأثينيين أيضاً: لقد عاشوا في بلاد شحيحة قاسية، وهذا ما جنبها السلب والنهب، كما يقول ثوكيديدس[2]؛ وعد الأثينيون سكّانها الأصليين، والمالكين دائماً للبلاد عينها، لأنّ أحداً لم يطردهم منها، بل لم يسع أي كان إلى امتلاكها. وربّما تكون هذه الحال، بغض النظر عن قلة أعدادهم، هي السبب في عدم تشابه لغتهم وعاداتهم مع لغة الإغريق الآخرين وعاداتهم. ومن جهة أخرى كان العنصر الإيولي غالباً في المناطق الواقعة بعد إيستم، إلى حدّ جعل سكّان هذا الجانب منه إيوليين أيضاً؛ ولكنّ الإيوليين تخالطوا مع القبائل الأخرى بعد ذلك؛ أولاً، لأنّ الإيونيين من أتيكا استولوا على إيغيالوس، وثانياً، لأنّ الهيراقليين ردّوا معهم الدوريين من حيث أتوا، وقد أسّس هؤلاء مدينة ميغارا وكثيراً من مدن البيلوبونيز الأخرى. ومع ذلك سرعان ما طرد الآخيون الإيونيين، وكان هؤلاء الآخيون واحداً من أقوام قبيلة الإيوليين؛ وعلى هذا النحو لم يبق في البيلوبونيز سوى قبيلتين: قبيلة الإيوليين وقبيلة الدوريين. ولذلك فإن كلّ القبائل التي كان تواصلها مع الدوريين أقل، كما حصل للأركاديين والإيليين (كان الأركاديون قبائل جبلية بالكامل ولم يشاركوا في تقاسم الأراضي[3]، وعد الإيلييون مكرّسين لزيوس الأوليمبيي، لذلك عاش هؤلاء بسلام زمناً طويلاً، خاصة أنهم كانوا ينتمون إلى القبيلة الايولية واستقبلوا القوات التي كانت عائدة مع أوكسيل[4] لدى عودة الهيراقليين)، الذين كانوا يتحدّثون اللهجة الإيولية، بينما كان البيلوبونيزيون الآخرون يستخدمون لهجة ما خليطاً من هاتين، فريق خليط إيوليته أكبر، وفريق درجة إيوليته أقل. وحتّى يومنا هذا لا يزال سكّان كلّ مدينة يتحدّثون

لهجات مختلفة، مع أنه وبسبب غلبة الدوريين، يرون أن جميعهم يتحدّث الدورية. وعليه، تلك كانت قبائل الإغريق، وذلك كان توزّعها الإثنوغرافي في بخطوطه العامّة. وسوف ننظر فيها الآن بالتفصيل، وبالترتيب.

3- وهكذا يقول إيثور، إن أكارنانيا هي بداية اليونان في الغرب، لأنّ هذه البلاد، هي على حدّ قوله أوّل من يجاور القبائل الإبيرية. ولكن على النحو الذي يستخدم فيه إيثور ساحل أكارنانيا علامة ويبدأ من هناك (لأنه يسترشد بموقع البحر في وصفه للأماكن، وإلا لكان بإمكانه أن يتصوّر بداية اليونان المناطق المحاذية لمقدونيا وتساليا)، كذلك نحن ينبغي علينا بما يتماشى والخاصيات الطبيعية للأماكن، أن نجعل من البحر رائداً لنا. وينبثق هذا البحر من البحر الصقلي وينبسط حتّى خليج كورينثوس من جهة، ويشكّل من جهة أخرى شبه جزيرة البيلوبونيز الكبيرة التي يسيّجها برزخ ضيّق. وعلى هذا النحو تتكوّن اليونان من شطرين كبيرين من اليابسة: شطر على هذا الجانب من إيستم، وشطر على الجانب الآخر منه، وينبسط هذا الشطر الأخير عبر بيلا[5] حتّى مصبّ بينييوس (وهذا الشطر الأخير هو الشطر التسالي من اليونان)[6]؛ والشطر الذي على هذا الجانب من إيستم أكبر وأكثر تفوّقاً. وربّما أمكننا القول، إن البيلوبونيز هي أكروبوليس هلادا[7]؛ لأنه إضافة إلى مجد القبائل التي تسكن هناك وجبروتها، فإن طبغرافيا اليونان نفسها تعجّ بالخلجان، والرؤوس البحرية، وأشباه الجزر الكبيرة (وهو ما له أهمية خاصة)، التي تلي واحدتها الأخرى مباشرة؛ وهذا ما يحيلنا إلى فكرة تفوّق موقع اليونان. والبيلوبونيز هي الأولى بين أشباه الجزر، يسيّجها برزخ عرضه 40 مرحلة. وشبه الجزيرة الثانية تطوق شبه الجزيرة الأولى؛ ويمتدّ برزخها عرضاً من باغي في ميغاريدا حتّى نيسييا، محطة الميغاريين الشراعية، مسافة 120 مرحلة من البحر إلى البحر. وتطوق شبه الجزيرة الثالثة شبه الجزيرة الثانية؛ ويمتدّ برزخها عرضاً من منخفض الخليج الكريسي حتّى ثرموبل، ويبلغ طول الخطّ الوهمي المستقيم الذي ينصّف في داخل شبه الجزيرة كلّ بيوتيا ويقطع ثوكيدا ومنطقة الإيبيكنيميديين[8] بخطّ منحرف، يبلغ طوله 508 مراحل. وشبه الجزيرة الرابعة، هي التي يمتدّ برزخها من الخليج الأمبراكي عبر إيتا وتراخينيا إلى خليج ماليوس وثرموبل، وهو برزخ [عرضه] حوالي 800 مرحلة. بيد أن هناك برزخاً آخر عرضه أكثر من 1000 مرحلة، وهو يمتدّ من الخليج الأمبراكي هذا نفسه، عبر منطقة التساليين ومنطقة المقدونيين إلى منخفض خليج ثيرمييوس. وعلى هذا النحو فإن هذا التتالي في مواقع أشباه الجزر يوحي لنا بنظام ما يناسب العرض الذي نزمع تقديمه؛ وعليّ أن أبدأ عرضي هذا من شبه الجزيرة الأصغر، لكنّها الأشهر بين الأخريات.

الفصل الثاني

1- تشبه شبه جزيرة البيلوبونيز من حيث الشكل[1]، ورقة شجرة الدلب، طولها وعرضها متقاربان: حوالي 1400 مرحلة. ويحسب طولها من الغرب إلى الشرق، أي من هيلوناتوس عبر أوليمبيا ومنطقة ميغالوبوليس إلى إيستم، أمّا عرضها فيحسب من الجنوب إلى الشمال، أي من ماليا عبر أركاديا إلى إيجيوس. وتشكّل دائرة محيطها، إذا استبعدنا منحنيات الخلجان، 4000 مرحلة بحسب بوليبيوس، مع أن أرتيميدور يضيف إلى هذا الرقم 400 مرحلة أخرى، ولكن إذا أخذنا منحنيات الخلجان بعين الحسبان فإن هذا الرقم يتجاوز 5600 مرحلة. ويبلغ عرض إيستم عند «ديوكلس»[2]، حيث يجرون السفن جراً من بحر إلى بحر، كما كنت قد قلت[3]، 40 مرحلة.

2- يشغل الإيليون والميسينيون الشطر الغربي من هذه الشبه الجزيرة، وهي المناطق التي يشاطئها البحر الصقلي. وهي تشمل إضافة إلى ذلك جزءاً من الساحل بالاتجاهين، لأنّ إيليدا تلتفت نحو الشمال ونحو بداية خليج كورينثوس حتّى رأس أراكس (التي تقع قبالتها عبر المضيق أكرانانيا والجزر الواقعة أمامها: زاكينثوس، وكيثالينا، وإيثاكا، وإيخينادا التي ينتمي إليها دوليخوس أيضاً)، بينما الشطر الأكبر من ميسينا مفتوح نحو الجنوب والبحر الليبي حتّى ما يدعى ثيريدس[4] على مقربة من تينار. وعلى مقربة مباشرة من إيليدا تقطن قبيلة الآخيين التي تتّجه منطقتهم نحو الشمال، وتنبسط على طول خليج كورينثوس لتنتهي عند سيكيونيا. ثمّ سيكيون وكورينثوس؛ وتمتدّ حدود هذه الأخيرة حتّى إيستم. وتأتي بعد ميسينا لاكونيكا وأرغوليدا؛ وتقترب هذه الأخيرة بدورها من إيستم. وخلجان هذا الساحل هي: خليج ميسينا، وخليج لاكونيا، وخليج أرغوليدا، وخليج هيرميونيا، وخليج سارونيا الذي يسميه بعضهم خليج سالامين. وتملأ مياه البحر الليبي الخليجين الأولين من هذه الخلجان، بينما تملأ الأخرى منها مياه البحر الكريتي والبحر الميرتوي. ولكنّ بعضهم يدعو خليج سارونيا «مضيقاً» أو «بحراً». وتقع أركاديا في داخل شبه الجزيرة، وهي مجاورة لمناطق القبائل الأخرى كلّها.

3- ويبدأ خليج كورينثوس من إحدى جهتيه من مصبّ إيفنوس (مع أن بعضهم يقول، إنه يبدأ من مصبّ أخيلوي، وهو النهر الذي يفصل بين الأكارنانيين والإيثوليين)، ويبدأ من الجهة الأخرى، من أراكس؛ لأنّ شاطئي الخليج هنا يقترب أحدهما من الآخر لأوّل مرّة، ولمسافة قصيرة، ومن ثمّ يقتربان رويداً رويداً حتّى يلتقيا[5] تقريباً عند ريون، وأنتيريون، حيث يشكّلان هنا مضيقاً يقارب عرضه 5 مرحل. وريون

هذه، هي للآخيين، وهي رأس منبسطة فيها تجويف على شكل منجل (وهي فعلاً تسمى دريبان)[6]. وتقع هذه الرأس البحرية بين مدينة باترا ومدينة إيجيوس؛ ويقوم عليها معبد لبوسيدون. أمّا أنتيريون فهي تقع على الحدود بين إيثوليا ولوكريدس، وهم يدعونها ريون المولیكرية. ومن هنا يتباعد الخطّ الساحلي على الجانبين من جديد تباعداً كبيراً، وإذ يبلغ الخليج الكريسي ينتهي، حيث تغلقه الحدود الغربية لبيوتيا وميغاريدا. ويبلغ امتداد محيط خليج كورينثوس من إيفنوس إلى أراكس 2230 مرحلة، وإذا حسبته من أخيلوي فإنه يزيد ما يقارب 100 مرحلة على ذلك. ولكنّ الساحل من أخيلوي إلى إيفنوس يشغله الأكارنانيون، وبعد ذلك إلى أنتيريون يشغله الإيثوليون؛ وما تبقى من الساحل حتّى إيستم، يملكه (اللوكريون)[7]، والثوكيون، والبيوتيون، وميغاريدا، ويبلغ امتداده 1118 مرحلة. ويدعى البحر من أنتيريون إلى إيستم بالبحر الألكيوني، وهو يشكّل جزءاً من الخليج الكريسي. أمّا المسافة من إيستم إلى أراكس فهي 1030 مرحلة.

ذلكم هو بملامحه العامّة موقع البيلوبونير وأبعادها والمناطق الواقعة قبالتها حتّى منخفض الخليج؛ وتلكم هي خاصيات الخليج الواقع بين شطري القارّة هذين. وها نحن نصف الآن بالتفصيل كلّ جزء على حدة بدءاً من إيليدا.

الفصل الثالث

1- في وقتنا هذا يدعى كلّ الساحل الواقع بين مناطق الآخيين والميسينيين، والذي يمتدّ في داخل البلاد إلى مناطق الأركاديين عند جبل ثولويا وعند الآزانيين والباراسيين، هذا كلّه يدعى اليوم إيليدا، ولكنّ هذه البلاد كانت تنقسم في الأزمنة القديمة إلى أجزاء كثيرة، ثمّ انقسمت فيما بعد إلى شطرين: أحدهما للإيبيين، والآخر تحت حكم نسطور ابن نيلييوس؛ ويقول هوميروس إذ يدعو بلاد الإيبيين إيليدا:

[والسفينة] عبرت من الخلف في منطقة الإيبيين
المقدّسة، إيليدا؛

(*الأوذيسا* XV، 298)

والبلاد التي يحكمها نسطور أي بيلوس، وعبرها يجري ألثييوس:

الذي تجري مياهه شاسعة عبر أرض بيلوس.

(*الإلياذا* XV، 545)

ولا ريب أن هوميروس يعرف مدينة بيلوس:



تلك التي بلغوها أحياناً حتّى مدينة نيلييوس

في بيلوس المنعمة؛

(الأوزيسا III، 4)

ولكنّ ألثييوس لا يجري عبر المدينة ولا على مقربة منها؛ فهناك نهر آخر يجري على مقربة، بعضهم يدعوه باميس، وبعضهم الآخر يدعوه أماثون (ومن هنا جاءت صفة بيلوس، emathoeis)[1]، ولكنّ ألثييوس يجري عبر أراضي بيلوس.

2- لم تكن مدينة إيليدا الحالية موجودة في زمن هوميروس؛ فقد كان سكّان البلاد يعيشون في قرى. أمّا البلاد فقد كانت تدعى كيلي إيليدا[2] وفق ظرف طارئ، لأنّ شطرها الأكبر والأفضل عبارة عن «منخفض». وفي زمن متأخر إلى حدّ ما، ولكن بعد الحروب الفارسية، تجمّع السكّان بعضهم مع بعض من مختلف المشاعات وأقاموا في مدينة إيليدا الحالية. وعلى الأرجح أن مناطق البيلوبونيز الأخرى التي ورد ذكرها عند هوميروس، ما خلا بعض الاستثناءات القليلة، لا يدعوها مدناً، بل مناطق، وكل منطقة تحتوي على كثير من المشاعات التي تشكّلت منها فيما بعد عن طريق العيش معاً، المدن المعروفة. فمانتينييا التي في أركاديا مثلاً، سكنها معاً مستعمرون آرغوسيون من 5 مشاعات، وسكن تيغييا مستعمرون من 9 مشاعات، وسكن غيريا مستعمرون من 9 مشاعات. وعلى هذا النحو عينه اتحدت إيجيوس في مدينة من 7 أو 8 مشاعات، وباري من 7 مشاعات، وديما من 8 مشاعات، واتحدت إيليدا في مدينة تكونت من المشاعات التي كانت تسكن الضواحي ([أسّس][3] الأغرياديون إحداها). ويجري عبر المدينة، على مقربة من الجمنازيوم، نهر بينييوس. أمّا الجمنازيوم فقد بناه الإيلييون الذين كانوا تحت حكم نسطور.

3- وهذه المناطق هي: بيساتيدا التي تشكّل أوليمبيا جزءاً منها، وتريثيليا، وبلاد الكافكونيين. وقد دعي التريثيليون[4] بهذا الاسم، لأنّ ثلاث قبائل اختلطت مع بعضها في هذه المنطقة: قبيلة الإيبيين التي كانت تعيش هناك أولاً، وقبيلة المينيين التي سكنت هنا فيما بعد، وقبيلة الإيليين التي فرضت سيطرتها على البلاد في آخر الأمر. ولكنّ بعضهم يذكر الأركاديين بدلاً من المينيين، لأنّ الأركاديين غالباً ما أثاروا نزعات بهدف السيطرة على البلاد؛ ولذلك دعيت بيلوس نفسها أركادية، كما دعيت تريثيلية أيضاً. ويدعو هوميروس هذه البلاد كلّها حتّى ميسينا، بيلوس، أي باسم واحد مع المدينة. ولكنّ انفصال كيلي إيليدا عن المناطق الخاضعة لسلطة نسطور، واضح من أسماء الزعماء وتسميات المناطق الواردة في «سجلّ السفن»[5]. وأنا أؤكد هذا لأنني

قارنت الحالة الراهنة بوصف هوميروس. فلا بد من إجراء هذه المقارنة بسبب المجد الذي يحظى به الشاعر، وتبعاً لمعرفتنا الوثيقة به منذ نعومة أظفارنا، لأنّ أيّاً منّا لا يعترف بأن المسألة المطروحة قد وجدت حلها الصحيح إلاّ عندما لا يتعارض عرضنا لها نفسها في أي شيء مع ما حكم به الشّاعر بصدد المسألة عينها. وهكذا ينبغي الحديث عن الواقع الراهن للأشياء، وإذ نقارن كلمات الشّاعر فإننا نخضعها للدراسة، لأنها تتّصل بالموضوع المطروح.

4- وتقع في إيليدا رأس بحرية تدعى أراكس، وهي تتّجه شمالاً، وتبعد 60 مرحلة عن مدينة ديما الآخية. وأنا أعتبر هذه الرأس بداية ساحل الإيليين. وإذا اتّجهنا غرباً، تليه كيلينا، محطة الإيليين الشراعية التي تنطلق منها طريق طولها 120 مرحلة في داخل البلاد تقود إلى مدينة إيليدا الحالية. ويذكر هوميروس هذه الكيللينا أيضاً عندما يسمّي:

اوتوس الكيلليني، زعيم الإيبيين؛

(الإلياذا XV، 518)

فلم يكن بمقدوره أن يتخيّل قائداً للإيبيين ينتمي إلى منطقة تقع عند جبل أركادي. وكيللينا هذه عبارة عن قرية غير كبيرة فيها أسكليبوس صنعه كولوت، وأسكليبوس هذا تمثال رائع مصنوع من العاج. وتلي كيللينا رأس هيلوناتوس البحرية، وهي أقصى نقطة في غربي البيلوبونيز. وتقع أمام هذه الرأس جزيرة صغيرة، وأماكن ضحلة بين كيلي إيليدا ومنطقة البيساتيين؛ ومن هنا إذا أبحرت إلى كيثالينا، فإن المسافة ليست أكثر من 80 مرحلة. وفي مكان ما على مقربة على الحدود المذكورة، يجري نهر إيليسون، أو إيليسا.

5- وبين هيلوناتوس وكيللينا يصبّ نهر بينييوس [في البحر]، وكذلك نهر سيلييس الذي يجري من ثولويا. وتقع على نهر سيلييس هذا مدينة إيثيرا التي ينبغي التفريق بينها وبين إيثيرا الثيسبروتية، وإيثيرا التسالية، وإيثير الكورونثية؛ فهذه الإيثيرا، هي الإيثيرا الرابعة الواقعة على الطريق التي تقود إلى لاسيون، وهي كمدينة بيونيا نفسها (لأنهم هكذا يدعون إينويا)، أو الأخرى التي تقع على مقربة منها، على بعد 120 مرحلة عن مدينة الإيليين. وعلى الراجح أن هذه هي تلك الإيثيرا نفسها التي كانت كما يقول هوميروس، مسقط رأس والدة تليبوليموس ابن هرقل (لأن حملات هرقل جرت على أغلب الظنّ في هذه المنطقة):

لقد خطفها من إيثيرا التي عند مياه سيلييس

(الإلياذا II، 659)

فليس على مقربة من الإيثيرات الأخريات أي نهر يدعى سيلييس. ومن هنا أيضاً درع ميغيس:

... في الزمن الغابر حمل فيلييوس

هذه الدرع من مدينة إيثيرا، من مياه سيلييس

(الإلياذا XV، 530)

ومن هذه المدينة أيضاً العقاقير القاتلة؛ فهوميروس يقول، إن أوديسيوس جاء إلى إيثيرا:

بحثاً عن السم قاتل الناس، ليسقي به سهامه[6]؛

(الأوذيسا I، 261)

وعن تيليماخ يقول الخطّاب:

قد يحصل أن يزور الأرض الغنية إيثيرا،

ليحصل منها على السم القاتل الناس...

(الأوذيسا II، 328)

ففي قصته عن الحرب ضدّ الإيبيين يصف نسطور ابنة أفغيوس ملك الإيبيين التي تركّب العقاقير السامة:

لقد جندلت الرجل الأول...

موليوس المقاتل؛ صهر أفغياس الحاكم،

زوج ابنته الكبرى...

التي تعرف أعشاب المداواة كلّها، وكم تنجب الأرض منها

(الإلياذا II، 738)

ولكن عند سيكيون نهر آخر يدعى سيلييس، وغير بعيد عن النهر تقع إيثيرا الجديدة. وفي منطقة أغريوس الإيثولية تقع إيثيرا قديمة أيضاً؛ ويدعى سكّانها إيثيريين. وثمّة إيثيرات أخرى أيضاً: في منطقة البيريبيين الذين يعيشون على مقربة من مقدونيا، وإيثيرا الكرانونية، وكذلك إيثيرا الثيسبروتية التي خرجت من كيخيروس التي كانت تدعى من قبل، إيثيرا.

6- وفي معرض شرحه للطريقة التي اعتاد هوميروس أن يميّز بها تطابق أسماء الأماكن، يسوق أبوللودوروس المثال الآتي: مثلما يصف الشّاعر في حديثه عن أوركومين، أوركومين الأركادية بأنها «غنية بالقطعان»[7]، وأوركومين البيوتية بأنها «مينوية»[8]، ويصف ساموس بالتراقية، قارناً إياها بالجزيرة المجاورة:

بين ساموس [المقدّسة] وإيمبروس
[ذات الصخور المخيفة]

(الإلياذا XXIV، 78)

لكي يميّزها عن ساموس الإيونية؛ كذلك يميّز الشاعر، كما يقول أبوللودوروس، إيثيرا الثيسبروتية بقوله: «بعيداً عن»، أو بقوله: «عند نهر سيلييس»[9]، أو «من مياه سيلييس». وفي هذا لا يتّفق أبوللودوروس مع ديميتري السكيبسيسي الذي يقتبس عنه جل مادته. فديميتري يقول: ليس عند الثيسبروتيين نهر يدعى سيلييس، ويقع هذا النهر في إيليدا ويجري هناك على مقربة من إيثيرا كما قلت آنفاً[10]. ولكنّ زعم أبوللودوروس هذا يتطلب أن نتحقّق من صحّته، كما يجب أن نتحقّق أيضاً من صحّة ما قاله عن إيخاليا، لأنّ إيخاليا ليس اسماً لمدينة واحدة فقط؛ فعلى حدّ قوله لا توجد سوى إيخاليا واحدة، هي إيخاليا إيفريتوس- إيخاليا التسالية التي يقول هوميروس عنها:

و[الشعب] الذي يعيش في إيخاليا، مدينة الملك إيفريتوس.

(الإلياذا II، 370)

ولكن ما هي الإيخاليا التي توجه منها [ثاميريس]، عندما قابلته الميوزات عند دوريون وسلبنه موهبته،

إذ لقين ثاميريس التراقي وسلبنه الموهبة.

(الإلياذا II، 595)

لأن هوميروس يضيف:

بينما هو في طريقه من عند إيفريتوس ملك الإيخاليين

(الإلياذا II، 596)

إذا كانت هذه الإيخاليا هي إيخاليا التسالية، فإن ديميتري السكيبسيسي مخطئ مرّة أخرى عندما يؤكّد أن هذه كانت إيخاليا الأركادية التي تدعى الآن أندانيا؛ ولكن إذا كان ديميتري على حق، فإن إيخاليا الأركادية تدعى بدورها «مدينة إيفريتوس»، بالتالي لم تكن هناك إيخاليا واحدة فقط؛ ولكن بحسب ما يقوله أبوللودوروس، لم يكن هناك سوى إيخاليا واحدة.

7- لقد كانت بيلوس تقع بالقرب من جبل سكوليوس بين مصبّ بينييوس ومصبّ سيلييس، وليست هذه مدينة نسطور، بل بيلوس أخرى لا شيء مشترك بينها وبين ألثييوس أو باميس (أو أماثون إذا كان يجب أن يدعى هكذا). ولكنّ هناك من يحرف كلام هوميروس، ساعياً إلى تحقيق مجد، نسطور ومحتدّه النبيل، فالتاريخ يذكر ثلاث مدن في البيلوبونيز تحمل اسم بيلوس (كما يقول بيت الشعر التالي:

هناك بيلوس قبل بيلوس، ولكنّ ثمّة بيلوس أخرى أيضاً)[11].

إن بيلوس التي يجري الحديث عنها، هي بيلوس الميسينية الواقعة عند كوريفاسيوس؛ ويسعى سكّان كلّ بيلوس ليظهروا أن بيلوس التي في منطقتهم هي emathoeis[12]، ويعلنونها مسقط رأس نسطور. ولكنّ أكثر الكتّاب الأحدث عهداً، سواء كانوا مؤرّخين أو شعراء، يدعون نسطور ميسينياً، مؤيدين بذلك بيلوس التي بقيت حية حتّى زمنهم. أمّا الكتاب الذين يتعاملون مع ما قاله هوميروس بدقّة أكبر، فإنهم يقولون، إن بيلوس نسطور، هي بيلوس التي يجري عبر منطقتها نهر ألثييوس؛ ولكنّ هذا الأخير يجري عبر بيساتيدا وتريثيليا. ومع ذلك فإن الكتّاب الذين من كيلي إيليدا تحدّثوا بكثير من الحماس والغيرة لصالح بيلوسهم، بل لم يكتفوا بهذا، فألحقوا بها مواد مميّزة[13]، فأشاروا إلى منطقة هيرين، ونهر هيرونت، ونهر آخر يدعى هيرانوس، ومن ثمّ زعموا بجرأة أن صفة «الهيريني» التي أطلقها هوميروس على نسطور مشتقة من تسميات هذه الأماكن. وهذا ما فعله الميسينيون أيضاً، ويبدو أن حججهم أكثر مشروعية: إنهم يرون أن هيرينا التي لهم أكثر شهرة، كما كانت كثيرة السكّان في زمن ما. إن هذه هي الحالة الراهنة في كيلي إيليدا.

8- ولكن حينما يقسم الشّاعر هذه البلاد إلى أربعة أجزاء، ويتحدّث عن زعمائها الأربعة، فإن ما يقوله غير واضح:

في إثر البوبراسيين اندفعت شعوب إيليدا المقدّسة،
وسكّان تلك المناطق مثل هيرمينا، وميرسين الحدودية
والجرف الأوليني والهضبة الأليسية اتسعت لهم:
قادهم أربعة زعماء، وعشر سفن سريعة أبحرت وراء
كل منهم، وعساكر كثر من الإيبيين.

(*الإلياذا* II، 615)

وحينما يدعو البوبراسيين والإيليين، إيبيين، ولا يدعو البوبراسيين مرّة واحدة إيليين، ينشأ انطباع بأنه لا يقسم إيلييا إلى أربعة أقسام، بل على الأرجح أنه يقسم بلاد الإيبيين التي كان قد قسمها قبل ذلك إلى قسمين؛ وعلى هذا النحو فإن بوبراسوس لا يمكن أن تشكّل جزءاً من إيليدا، بل على الأغلب جزءاً من بلاد الإيبيين. فمن الواضح أنه يدعو البوبراسيين إيبيين:

سنيّهم كالإيبيين في بوبراسا أقاموا
للملك أمارينكوس ولائم الدفن...

(*الإلياذا* XXIII، 630)

وفيما يخصّ بوبراس فإنها الآن منطقة ما من مناطق إيليدا التي يسكنها سكّان يحملون الاسم نفسه، وهم يشكّلون جزءاً من إيليدا. ومن جهة أخرى، عندما يأتي على ذكرهما معاً- «بوبراسوس» و«إيليدا المقدّسة» - ، ثمّ يقسم البلاد إلى أربعة أقسام، عندئذٍ يبدو كأنه يخضع هذه الأقسام الأربعة لتسمية مشتركة واحدة، هي «بوبراسوس وإيليدا المقدّسة». ونحن نظنّ أنه في زمن ما كانت في إيليدا قرية كبيرة تدعى بوبراسوس، وقد اندثرت ولم يعد لها الآن وجود (مثل هذا الاسم لا تحمله الآن سوى أرض تقع على الطريق التي تقود من المدينة الحالية إلى ديما). ونحن يمكننا أن نفترض أن بوبراسوس كانت في ذلك الوقت تتفوّق بمعنى ما على إيليدا، مثلما كان الإيبيون يتفوّقون على الإيليين، وفيما بعد باتوا يدعون السكّان إيليين بدلاً من إيبيين. ومع أن بوبراسوس كانت تشكّل جزءاً من إيليدا، إلا أن هوميروس، كما يقولون، استخدم مجازاً شعرياً ما، ودعا الجزء إلى جانب الكل، عندما قال مثلاً:

عبر إيليدا والجزء الداخلي من آرغوس،

(*الأوذيسا* I، 344)

و **عبر هلادا وفتيا،**

(*الأوذيسا* IX، 496)

و **كانت شتائم بين الكوريتيين والإيتوليين [محبي الشتائم]**

(*الإلياذا* IX، 529)

و **عساكر من دوليخيا، وعساكر من الجزر الإيخينادية المقدّسة؛**

(*الإلياذا* II، 625)

فدوليخوس هي إحدى جزر إيخينادا. كما يستخدم الشعراء الأحدث عهداً بدورهم هذا المجاز، ومنهم على سبيل المثال هيبوناكس حينما يقول:

يأكلون الخبز من قبرص، وقمح الأماثوسيين

(*مقطع* 82، *بيرغك*)

فالأماثوسيون هم سكّان قبرص أيضاً؛ وألكمان إذ يقول:

تاركاً قبرص المرغوبة، وبافوس التي تغسلها الموجة،

(*مقطع* 21، *بيرغك*)

وإيسخيليوس[14] عندما يقول:

وقبرص وبافوس - كلّ شيء ملك لك

(*مقطع* 463، *ناؤوك*)

ولكـن إذا كـان هـوميروس لم يـدع البوبراسـيين إيلـيين [في أي مكـان]، فـإني أقول، إنه لم يأت على ذكـر كـثير من الحقـائق؛ وليس صمته عنهـا برهانـاً علـى عـدم وجودها، بل يعني فقط إنه لم يأت على ذكرها وحسب.

9- وبحسب هيكاتوس الميلتوسي أن الإيبيين كانوا يختلفون عن قبيلة الإيليين؛ وفي الأحوال كلّها فقد شارك الإيبيون في حملة هرقل ضدّ أفغيوس وعاونوه في الانتصار عليه وإخضاع إيليدا. ويقول هيكاتوس إن ديما مدينة إيبية وآخية. ولكنّ المؤرّخين القدماء يسوقون كثيراً من المعلومات غير الصحيحة، لأنهم يستخدمون الأساطير في مؤلّفاتهم، فقد نشؤوا على الكذب؛ وهذا هو سبب التباين فيما يسوقونه عن المسألة عينها. بيد أنه ليس هناك ما هو غريب في أن الإيبيين، حتّى لو كانوا في زمن ما على عداء مع الإيليين، وحتّى لو كانوا قد انتموا إلى قبيلة أخرى، قد عادوا واتحدوا معهم وشكّلوا نتيجة لغلبتهم دولة مشتركة، وسادوا على المناطق وصولاً إلى ديما. فهوميروس لم يأت على ذكر ديما، مع أنه ثمّة مشروعية لفرضية وجود ديما حينئذٍ تحت سلطة هؤلاء، فهي كانت في الأحوال كلّها تحت سلطة الآخيين الذين امتلكوا البلاد. ومن الأجزاء الأربعة التي تقع ضمنها بوبراسوس، لم يخضع لإيلييا سوى هيرمينا وميرسين، بينما كان الجزآن الباقيان يقعان على حدود بيساتيدا، كما يرى بعضهم.

10- لقد كانت هيرمينا مدينة صغيرة؛ وهي الآن غير موجودة، ولكن بالقرب من كيللينا تقع رأس بحرية جبلية تدعى هورمينا أو هيرمينا. أمّا ميرسين فهي الآن ميرتونتي، القرية التي تنبسط حتّى البحر وتقع على الطريق التي تقود من ديما إلى إيلييا على بعد 70 مرحلة عن مدينة الإيليين. ويرون في جبل سكوليوس الحالي الصخرة الأولينية. ونحن من واجبنا أن نعلن ما نرى أنه يمكن أن يكون قريباً من الواقع، لأنّ الأماكن وأسماءها قد تغيّرت، وفي غضون ذلك فإنّ الشّاعر نفسه يعطي في أحيان كثيرة إشارات ليست واضحة الوضوح كلّه. فسكوليوس هو جبل صخري، وهو الأرض المشتركة بين الديميين، والتريتيانيين، والإيليين؛ وهو يجاور جبلاً أركادياً ما يدعى لامبيا، الذي يقع على بعد 130 مرحلة عن إيليدا، وعلى بعد 100 مرحلة عن تريتيا، ومثلها عن ديما، وهما مدينتان آخيتان. وألسيوس هي أليسييا الآن، وهي أرض تقع عند أمفيدوليدا، حيث يتجمّع سكّان الضواحي كلّ شهر ليقيموا هنا معرضاً تجارياً. وتقع مدينة أليسيوس على طريق جبلية تقود من إيليدا إلى أوليمبيا. وفي الأزمنة الماضية كانت هذه المدينة هي مدينة بيساتيدا، لأنّ الحدود كانت تتغيّر بين زمن وآخر تبعاً لتغيّر الحكّام. والشّاعر بدوره يسمّي مدينة أليسيوس «هضبة أليسيوس»:

لم يسوقوا الجياد بعـد إلى بوبـراس الوفيرة الحنطـة،

حيث الصخرة الأولينية والتل المسمّى أليسيوس،

(الإلياذا XI، 756)

(ينبغي تأويل هذه الكلمات حالة من حالات تغيير نظام ترتيب الكلمات أي بدلاً من قوله، هناك حيث يقع المكان الذي يدعى هضبة أليسيوس). ويشير بعضهم أيضاً إلى نهر أليسيوس.

11- بما أن بعض القبائل في تريثيليا عند ميسينا يحمل اسم الكافكونيين، كما أن بعضهم يدعو ديما بالكافكونية أيضاً، وعلى أراضي ديما بين ديما وتريثيا يجري نهر يسمّى كافكون (بصيغة التأنيث)، فإن سؤالاً يبرز لدى الكتّاب: ألا توجد قبيلتان كافكونيتان مختلفتان إحداهما في منطقة تريثيليا والأخرى في منطقة ديما، وإيليدا، ونهر كافكون؟ إن هذا النهر يصبّ في نهر آخر يدعى (بصيغة المذكر) تيثييوس؛ وتيثييوس يحمل الاسم عينه الذي تحمله واحدة من المدن الصغيرة التي جرى نقلها إلى ديما، ما عدا أن اسم هذه المدينة تيثييوس بصيغة التأنيث ويكتب من غير السيغما، وينطق المقطع الأخير فيه ممدوداً[15]، وفي هذه المدينة الصغيرة معبد لأرطميس النيميدية[16]. ويصبّ نهر تيثييوس في نهر أخيلوي الذي يجري إلى ديما ويحمل الاسم عينه الذي يحمله النهر الأكارناني. ويدعى هذا النهر بيروس أيضاً. فهسيود يدعوه مثلاً:

كان يقطن عند السلسلة الأولينية، على طول الضّفّة العالية

لبيروس الواسع.

(مقطع 74، رجاخ)

ويكتب بعضهم اسم بيروس خطأ: بييروس. ويطرح هؤلاء مسألة الكافكونيين ويقولون، عندما تخاطب أثينا نسطور في «الأوذيسا» متخذة صورة مينتور:

غداً مع الفجر عليّ أن أمضي إلى شعب الكافكونيين البواسل

ينبغي على الناس هناك أن يؤدوا لي الدين القديم، وهو

ليس ديناً قليلاً. أرسل تيليماخ، بعد أن يضيف عندكم مع

ابنه، في مركبة، ومر أن يعطى جياداً...

(الأوذيسا III، 366)

فعلى الأغلب أن الشّاعر يحدّد هنا أرضاً معينة في بلاد الإيبيين التي كان يملكها الكافكونيون الذين يختلفون عن الكافكونيين التريثيليين، وربّما كانت هذه الأرض تمتدّ حتّى منطقة ديما. ويجب ألا نغفل في هذا السياق مسألة نشوء صفة ديما

«الكافكونية»، وتسمية نهر «كافكون»، لأنّ الكافكونيين بدورهم يثيرون مسألة: من هم أولئك الذين مضت إليهم أثينا لتتلقى منهم، بحسب قولها، الدين الذي لها عندهم؛ فلو أوّلنا كلمات الشّاعر بمعنى أنه يتحدّث عن الكافكونيين في تريثيليا عند ليبرييوس، فإني لا أفهم عندئذٍ كيف يمكن أن نثق بصحّة هذا القول. ولذلك فإن بعضهم يدقق هذا المكان:

يجب أن يؤدّي لي الناس الذين في إيليدا المقدّسة
الدين غير القليل[17].

وعلى وجه العموم تغدو هذه المسألة أكثر وضوحاً عندما سأصف المنطقة التي تلي هذه، وهي تحديداً بيساتيدا وتريثيليا وصولاً إلى حدود بلاد الميسينيين[18].

12- بعد هيلوناتوس على امتداد كبير يأتي ساحل البيساتيين، ثمّ رأس ثييا البحرية. كما كانت هناك مدينة صغيرة تحمل اسم ثييا:

عند حصون ثييا، غير بعيد عن تيارات ياردانوس

(*الإلياذا* VII، 135)

لأن جدولاً يجري هناك. ويرى بعضهم أن ثييا هي بداية حدود بيساتيدا. وتقع أمام ثييا جزيرة صغيرة وميناء، حيث أقرب مسافة من البحر إلى أوليميبيا 120 مرحلة تلي ذلك رأس بحرية أخرى، هي رأس إيختيس، ومثلها مثل رأس هيلوناتوس، تمتدّ هذه أيضاً عميقاً في البحر نحو الغرب؛ وتبلغ المسافة بينها وبين كيثالينا 120 مرحلة أيضاً. ويلي ذلك مصبّ ألثييوس الذي يبعد عن هيلوناتوس 280 مرحلة، وعن أراكس 545 مرحلة. وينبع ألثييوس من المناطق نفسها التي ينبع منها إيفروت، أي من المكان الذي يدعى أسيبيا (قرية على أراضي ميغالوبوليتيدا)، حيث يقع هناك ينبوعان قريب واحدهما من الآخر، ومن هناك ينبع النهران المذكوران. وبعد أن يجري هذان مراحل كثيرة[19] تحت الأرض، ينبثقان من جديد على سطح الأرض، ثمّ يجري أحدهما إلى لاكونيا، والآخر إلى بيساتيدا. إن نهر إيفروت الذي يخرج إلى سطح الأرض هناك حيث تبدأ حدود المكان الذي يحمل اسم بليميناتيدا، يجري على مقربة من إسبرطا نفسها، ويقطع وهدة طويلة على مقربة من هيلوس (مكان يذكره الشاعر)، ليصبّ أخيراً في البحر بين هيفيوس، ميناء إسبرطا، وأكرييا. أمّا الثييوس فإنه بعد أن يتلقى مياه لادون، وأريمانثوس وسواهما من الأنهار الأخرى الأقل أهمية، يجري عبر فريكسا، وبيساتيدا، وتريثيليا على مقربة مباشرة من أوليميبيا، ثمّ إلى البحر الصقلي حيث يصبّ فيه بين ثييا وإيبيتالوس. وعلى مقربة من مصبّ النهر يقع دغل مقدّس مكرّس

لأرطميس ألثيونيا أو ألثيوسا (لأن الصفة تكتب على الوجهين)، على مسافة تقارب 80 مرحلة من أوليميبيا. ويحتفل على شرف هذه الإلهة، كما على شرف أرطميس إيلاثيا وأرطميس دافنيا، بعيد سنوي في أوليميبيا. إن هذه البلاد مليئة كلّها بمعابد أرطميس، وأفروديت، والحوريات، وتقع كلّها في أدغال مقدّسة حيث تكثر الزهور عادة بسبب وفرة المياه. وثمّة معابد كثيرة لهرمس منتشرة على الطرقات، ومعابد لبوسيدون على الرؤوس البحرية. وفي معبد أرطميس ألثيونيا لوحات شهيرة جدّاً للرسامين الكورونثيين كليانثوس وأريغونتوس: «الاستيلاء على طروادا» و«ولادة أثينا» لكليانثوس، و«أرطميس على جناحي الرخم».

13- ثمّ يأتي جبل تريثيليا الذي يفصل ماكيستيا عن بيساتيدا، وبعده نهر آخر يحمل اسم خالكيدس، وينبوع كرونا، وقرية خالكيدا، وبعدهم ساميك حيث يقع معبد مبجل جدّاً لبوسيدون الساميكي. وثمّة عند المعبد دغل مقدّس فيه كثير من شجر الزيتون البري. ويعتني الماكيستيون بهذا الدغل؛ وهم الذين أعلنوا يوم المصالحة الذي يدعى ساميكياً. ويساهم التريثيليون كلّهم بالمال للإنفاق على المعبد.

14- وفي مكان ما على مقربة من هذا المعبد، فوق البحر، على مسافة 30 مرحلة أو أكثر بقليل تقع بيلوس التريثيلية التي تدعى أيضاً بيلوس الليبرياتية، التي يدعوها هوميروس emathoeis ويقدّمها على أنها مسقط رأس نسطور، وهو ما يمكننا أن نستخلصه من كلماته؛ وإذا كان النهر الذي يجري على مقربة من بيلوس نحو الشمال (وهو الآن مالايوس أو أركاديك)، قد دعى في الزمن السابق أماث، فإن بيلوس أخذت صفتها emathoeis من «أماث» هذا؛ أمّا إذا كان هذا النهر قد دعي باميس (ومثله أيضاً نهران في ميسينا)، فإن المعنى الأولي لصفة المدينة يبقى مبهماً؛ لأنّ ما يقولونه عن أن النهر والمنطقة المحيطة به، هي منطقة «رملية»، غير صحيح. كما أن معبد أثينا السكيلونتية القائم عند سكيلونت المجاورة لأوليميبيا قرب فيللون[20]، ينتمي إلى عداد المعابد الشهيرة. وقرب بيلوس شرقاً يقع جبل مسمّى على اسم مينفا، التي تروي الأساطير أنها جعلت نفسها خليلة هاديس فداستها كورا، ثمّ تحوّلت إلى نبات النعناع الذي يدعوه بعضهم «النعناع العطري»[21]. كما تقع قرب الجبل أرض لهاديس الذي يبجله الماكتستيسيون أيضاً، ودغل مكرّس لديميترا يقع فوق سهل بيلوس. ويتميّز هذا السهل بخصوبته، وهو يجاور البحر وينبسط على طول الفضاء الممتدّ بين ساميك ونهر نيدا. ولكنّ شاطئ البحر ضيّق ورملي، ولذلك لا يمكننا رفض فكرة أن تكون بيلوس قد نالت لهذا السبب، صفة «الرملية».

15- وإلى الشمال، على الحدود مع بيلوس، كان هناك مدينتان تريثيليتان: هيبانا وتيمباني؛ وقد اتحدت الأولى مع إيليدا، وبقيت الثانية على وضعها السابق. ويجري على مقربة من هذا المكان نهران: داليون وأخيرونت اللذان يصبّان في ألثييوس. وقد أخذ أخيرونت اسمه نتيجة لعلاقته الوطيدة مع هاديس؛ فهناك لم يبجلوا معابد ديميترا وكورا فقط، بل معابد هاديس أيضاً، ربّما بسبب «تناقضات التربة»[22]، كما يقول ديميتري السكيبسيسي. ومع أن تريثيليا خصبة، لكنّها تنتج القمح صدئاً مع البنج، ولذلك غالباً ما يحل القحط محل الموسم الوفير في هذه الأماكن.

16- وإلى الجنوب من بيلوس تقع ليبريبوس. وكانت هذه المدينة تقع إلى الأعلى من البحر بأربعين مرحلة. وبين ليبريبوس وأنيبوس[23] معبد لبوسيدون الساميكي على بعد 100 مرحلة من المدينتين. وكان هذا المعبد، هو المعبد نفسه الذي وجد تيليماخ البيلوسيين يقدّمون فيه الذبيحة، كما يقول هوميروس:

في ذلك الحين بلغت السفينة مدينة نيلييوس،

بيلوس العامرة. وقد اجتمع الشعب هناك على الشاطئ

ليقدّم الثيران السوداء قرباناً لبوسيدون، الإله

اللازوردي الأجعد الشعر.

(الأوذيسا III، 4)

وغني عن البيان القول، إنه يحق للشاعر أن يختلق حتّى ما ليس له وجود، بيد أنه ينبغي عليه أن يوائم كلماته، قدر الإمكان، مع الحقائق ويحافظ على مصداقية الرواية؛ لكنّ الموقف الأنسب هو الابتعاد عن التلفيق والكذب. لقد كانت أرض الليبرياتيين خصبة؛ وكان الكيباريسيون جيرانهم. وكانت المنطقتان معاً للكافكونيين، وكذلك ماكيستوس (التي يدعوها بعضهم بلاتانيستونت). ويتطابق اسم المدينة مع اسم المكان. ويقولون، إن في ليبرياتيدا شاهدة على قبر كافكون مؤسّس القبيلة، أو الشخص الذي لسبب ما حمل والقبيلة اسماً واحداً.

17- هناك كثير من الروايات عن الكافكونيين. فيرون أنهم كالبيلاسيغيس، قبيلة أركادية، وكالبيلاسيغيس قبيلة من البدو الرحل. وفي الأحوال كلّها يقول هوميروس[24]، إنهم جاؤوا إلى طروادا حلفاء للطرواديين؛ لكنّه لم يقل من أين جاؤوا؛ بيد أنهم جاؤوا على أغلب الظنّ من بافلاغونيا، لأنّ في بافلاغونيا قبيلة تدعى الكافكونياتيين، على الحدود مع منطقة الماريانيدينيين، وهؤلاء بافلاغونيون أيضاً. ولكنّني سأتحدّث عنهم بمزيد من التفصيل حينما انتقل إلى وصف هذه المنطقة[25]. أمّا

الآن فيجب علي أن أضيف إلى روايتي عن الكافكونيين في تريثيليا الآتي. بعضهم يقول، إن إيليدا الحالية كلّها من ميسينا حتّى ديما، كانت تدعى كافكونيا. فانتيماخ يدعو السكّان كلّهم إيبيين تارة وكافكونيين تارة أخرى. أمّا الآخرون فعلى العكس، إذ يؤكّدون أن الكافكونيين لم يشغلوا إيليدا كلّها، بل عاشوا فريقين منفصلين: فريق في تريثيليا على مقربة من ميسينا، وفريق في بوبراسيدا وكيلي إيليدا قرب ديما؛ وأرسطو يعرف[26] أيضاً أنهم عاشوا أساساً هنا. وفي هذه الحال، فإن هذا الرأي الأخير هو الأكثر توافقاً مع كلمات هوميروس ويفضي إلى حل المسألة المطروحة آنفاً، لأنه بحسب هذا الرأي أن نسطور عاش في بيلوس التريثيلية، وكانت المناطق الواقعة إلى الجنوب والشرق (أي الأراضي المجاورة لميسينا والبلاد اللاكونية) تحت سيطرته؛ وكان الكافكونيون يشغلون هذه المناطق، بحيث لو سرت براً من بيلوس إلى لاكيديمون، فإن الطريق ستمر بالضرورة عبر منطقة الكافكونيين. وعلاوة على هذا فإن معبد بوسيدون الساميكي والمحطة الشراعية الواقعة قربه، حيث رسا تيليماخ، يتّجهان نحو الشمال الغربي. ولو عاش الكافكونيون هنا فقط، لتعذر الاعتراف بصحّة رواية الشاعر. فبحسب سوتادس مثلاً، أن أثينا أمرت نسطور بإرسال تيليماخ إلى لاكيديمون «مع ولده في مركبة»، أي إلى المناطق الشرقية من البلاد؛ أمّا هي نفسها فتقول، إنها ستعود إلى السفينة لتبيت هناك، أي ستتّجه غرباً عائدة بالطريق التي جاءت منها:

غداً عليّ أن أمضي إلى شعب الكافكونيين البواسل،

(*الأوذيسا* II، 366)

لأحصل على الدّيْن، أي أنها ماضية إلى الأمام مرّة أخرى. فما هو شكل هذه التحركات؟ لقد كان يمكن لنسطور أن يعارض قائلاً: «إن الكافكونيين خاضعون لسلطاني، ويعيشون على الطريق التي يسلكها المتجهون إلى لاكيديمون. فلماذا لا تمضين أنت مع تيليماخ ومرافقيه بدلاً من أن تعودي أدراجك على الطريق عينها التي أتيت منها؟». وفي الوقت نفسه كان ينبغي على من يذهب إلى أناس خاضعين لسلطة نسطور لتحصيل دَيْن («غير قليل»، كما قالت)، أن يطلب عونه، إذا كان أولئك قد أخلوا بالشروط المتفق عليها (كما يحصل عادة)؛ بيد أن الإلهة لم تسلك هذا السبيل. وعليه لو أن الكافكونيين عاشوا هنا فقط، لكانت رواية هوميروس مجرّد لغو ساذج؛ ولكن إذا كان فريق من الكافكونيين قد عاش منفصلاً عن الآخرين في منطقة قريبة من ديما في إيليدا، عندئذٍ يمكن لأثينا أن تتحدّث عن رحلتها إلى هناك، وليس

ثمّة ما هو لغو ساذج في عودتها إلى السفينة ولا في تركها رفاق الرحلة، فطريق هذه تمتدّ في الاتجاه المعاكس. وعلى النحو نفسه يمكن أن نجد إجابات على الأسئلة المبهمة بخصوص بيلوس، عندما سأصل في وصفي إلى أراضي بيلوس الميسينية.

18- لقد دعي فريق من سكّان تريثيليا بارورياتيين؛ وشغل هؤلاء الجبال المجاورة لليبرييوس وماكيستوس، حتّى البحر قرب بوسيديا الساميسية[27].

19- وعند سفوح هذه الجبال يقع كهفان: كهف الحوريات الأنيغريادس، وكهف يمثل المكان الذي دارت فيه أحداث أساطير بنات أتلانتس، وولادة داردانوس. ويقع هنا أيضاً الدغلان المقدّسان: الدغل الإيوني، والدغل الإيفريكيدي. أمّا ساميك فليست الآن سوى حصن، مع أنها كانت في الأزمنة المنصرمة مدينة حملت اسم ساموس، ربّما بسبب موقعها المرتفع، فالأماكن المرتفعة تدعى Samoi، وربّما كان هذا هو أكروبوليس قرية أرينا، التي ورد ذكرها عند هوميروس في «سجل السفن»:

في بيلوس الرجال الذين عاشوا في أرينا السعيدة،

(*الإلياذا* II، 591)

وبما أنه لم يتسن العثور على أرينا في أي مكان، فقد افترضوا أنها تقع هنا على أرجح تقدير:إن نهر أنيغرس المجاور الذي كان يدعى سابقاً مينيوس، يعطي إشارة مبهمة على صحّة التخمين؛ فالشّاعر يقول:

وهنا نهر مينييوس، وهو يهوي في البحر الصاخب
قريباً من أرينا.

(*الإلياذا* XI، 722)

لأن على مقربة من كهف الحوريات الأنيغريادس ينبوع يجعل من المكان الواقع أدنى منه مستنقعاً موحلاً. ويتلقى أنيغرس الكم الأكبر من مياه الينبوع، وأنيغرس هذا، هو نهر عميق يجري ببطء شديد حتّى يتحوّل عند نهاية مجراه إلى مستنقع، وبما أن المكان مليء بالوحول الطينية،فإن رائحة كريهة لا تطاق تنبعث منه وتنتشر مسافة 20 مرحلة، أمّا أسماك النهر فهي غير صالحة للأكل. وتعزو الروايات الأسطورية حالة النهر هذه إلى أن القنطورات غسلوا هنا سم الهيدرا، ويعزوها آخرون إلى أن ميلامبوس استخدم هذه المياه المطهرة لتطهير بنات بريتوس[28]. ويشفي الاغتسال في مياه هذا النهر من «القوباء الشقراء»، وداء الفيل، والجرب. ويقال، إن ألثييوس دعي باسمه هذا لأنّ مياهه تشفي من «القوباء الشقراء». وبما أن بطء جريان أنيغرس وارتداد المياه من البحر يجعلان مياهه أقرب إلى الراكدة منها إلى الجارية، فقد دعي في الأزمنة السابقة، كما يقولون، مينييوس، مع أن بعضهم حرف اسمه ليجعله مينتييوس[29]. ولكنّ المعنى

الدقيق لهذه الكلمة له جذور أخرى يرجع إليها منشؤه: إمّا إلى المستعمرين الذين جاؤوا مع كلوريدا، ووالدة نسطور من أركومين المينوية، أو من المينويين أحفاد الأرغونيين الذين هربوا في أوّل الأمر من ليمنوس إلى لاكيديمون، ومن هناك إلى تريڤيليا وسكنوا عند أرينا في منطقة تدعى الآن هيسبيسيا، مع أنه لم يعد فيها قرى مينوية. وقد أبحر بعض هؤلاء المينويين مع ثيروس ابن أوتيسيوس (وكان من أحفاد بولينيكس)، إلى جزيرة[30] تقع بين قورينا وكريت.

كانت تدعى كالليستا من قبل، وباتت تدعى ثيرا الآن،

(مقطع 112، شنيدر)

(كما يقول كاليماخ)، وأسّسوا ثيرا، التي غدت ميتروبوليا قورينا، ودعوا الجزيرة والمدينة بالاسم نفسه.

20- ويرونك بين أنيغرس والجبل الذي ينبع منه، مرج ياردانوس وآكيي وقبرهما؛ وهذه الأخيرة عبارة عن صخور شديدة الانحدار في الجبل نفسه الذي كانت تقع عليه، كما قلت سابقاً[31]، مدينة ساموس بيد أن مؤلّفي «البيريبلوس»[32]لم يأتوا على ذكر ساموس البتة؛ ربّما لأنها كانت قد دمّرت منذ زمن بعيد، وربّما بسبب موقعها؛ لأنّ بوسيديا عبارة عن دغل مقدّس، كما أسلفت القول[33]، يقع على مقربة من البحر، ويرتفع فوق تل شاهق أمام ساميك الحالية، في المكان الذي كانت تقع فيه ساموس، وهكذا فإن ساموس لم تكن ترى من البحر. ويقع هنا أيضاً سهل يدعى سهل ساميك؛ وهذا ما يعطينا دليلاً أكثر يقينية على أنه في زمن ما كانت تقوم هنا مدينة تحمل اسم ساموس. ثمّ إن الملحمة التي تحمل العنوان «رادينا» (ويعدّ ستيسيخور مؤلّفها)، والتي مطلعها:

تعالي أيتها الميوزا العذبة الصوت، إيراتو، وابدئي أغنيتك،

تغنّي بأبناء ساموس كلّهم بمرافقة القيثارة المحببة،

(مقطع 44، بيرغك)

تخص أبناء هذا الساموس، لأنّ رادينا المخطوبة لتيران كورينثوس، قد أبحرت، على حدّ قول الشاعر، من ساموس (ومن البدهي أنها لم تبحر من ساموس الإيونية) لدى هبوب الريح الغربية؛ ومع هذه الريح نفسها، يضيف الشاعر، وصل أخوها إلى دلفي بصفته الثيور[34] الرئيس؛ أمّا ابن عمها الذي كان يحبها، فقد ركب مركبة وتوجه إلى كورينثوس لكي يزورها. فقتلهما التيران معاً وأرسل جثمانيهما في مركبة، بيد أنه ندم على ما فعل، فأعاد المركبة ودفنهما.

21- والمسافة من هذه البيلوس إلى بيلوس الميسينية وكوريفاسيوس (وهو حصن يقع على شاطئ البحر)، وإلى جزيرة سفاغيا التي تجاوره، حوالي 400 مرحلة؛ ومن ألثييوس 750 مرحلة، ومن هيلوناتوس 1030 مرحلة. وفي الفضاء الممتدّ بينهما يقع معبر هرقل الماكسيتي، ويجري نهر أكيدون. ويجري أكيدون هذا قرب قبر ياردانوس ومدينة كايوس التي كانت تقع في زمن ما عند لابرييوس حيث يقع سهل إيباسي. ويزعم بعض الكتاب أنه بسبب هذه الكايوس وقعت الحرب بين الأركاديين والبيلوسيين، التي تحدّث عنها هوميروس، ويرون أنه ينبغي أن نكتب:

فتياً كنت في تلك السنين، عندما تلاقى عند

أكيدونت بيلاسيوس الجامح، عساكر البيلوسيين والأركاديين...

عند حصن كايوس...

(الإلياذا VII، 133)

بدلاً من «كيلادونت» و«ثييا»[35]، لأنّ هذه المنطقة بحسب قولهم أقرب من الأخيرة إلى قبر ياردانوس وبلاد الأركاديين.

22- تقع كيباريسيا على البحر التريثيلي، ومثلها بيرغي؛ و[يصبّ في هذا البحر] نهرا أكيدون ونيدا. ويشكّل مجرى نيدا الآن الحد الفاصل بين تريثيليا وميسينا (إن نيدا نهر جامح يجري من الجبل الأركادي ليكييوس من الينبوع الذي، بحسب الأسطورة، أرغمته رييا بعد أن ولدت زيوس، أن يخرج إلى سطح الأرض لكي تغسل المولود بمائه)، ويجري نيدا عند فيغاليا قبالة المكان الذي يجاور فيه سكّان بيرغي، وهم الأخيرون من التريثيليين، سكّان كيباريسيان وهم أوّل الميسينيين؛ ولكنّ الحدود بين البلدين كانت تمرّ قديماً بشكل مختلف، فبعض المناطق الواقعة وراء نيدا كانت تحت سلطة نسطور؛ وليس كيباريسيينت وحده بل بعض الأماكن الأخرى وراء النهر؛ وعلى النحو نفسه يمد الشّاعر البحر البيلوسي إلى المدن السبع التي وعد آغاممنون أخيلليس بها:

كلّها على الساحل تجاور بيلوس الرملية،

(الإلياذا IX، 153)

لأن هذه الجملة توافق قوله «قرب البحر البيلوسي».

23- ومهما كانت الحال، فإنك إذا أبحرت بالقرب من كيباريسيينت نحو بيلوس الميسينية وكوريفاسيوس، فستبلغ إرانا (التي يرى بعضهم خطأ أنها كانت تدعى في الزمن القديم أرينا، أي بالاسم عينه الذي حملته أرينا البيلوسية)؛ ورأس بلاتاموديس البحرية؛ والمسافة من هذه الرأس حتّى كوريفاسيوس والمدينة التي تدعى

الآن بيلوس 100 مرحلة. وتقع هنا أيضاً جزيرة صغيرة، هي جزيرة بروتا وعليها مدينة صغيرة تحمل اسمها نفسه. وربّما كنت قد ابتعدت عن الغوص في تفاصيل مسائل الزمن القديم، واكتفيت بوصف تفصيلي للواقع الراهن للأشياء، لو لم تكن ترتبط بها الخرافات التي علمونا إياها منذ صغرنا؛ وبما أن مختلف المؤلّفين يتحدّثون عن هذا بشكل مختلف، فإنه ينبغي عليّ أن أبحث في آرائهم. وعلى وجه العموم يحظى الأشهر والأقدم والأكثر خبرة بينهم، بالثقة، وبما أن هوميروس يتفوّق على جميعهم في هذا، فإنه يجب علي أن أبحث فيما نقله وأقابله مع واقع الأشياء في الوقت الحاضر، كما كنت قد أسلفت منذ قليل[36].

24- كنت قد تناولت[37] بالنقد ما رواه هوميروس عن كيلي إيليدا وبوبراس. أمّا البلاد الخاضعة لسلطة نسطور، فقد قال عنها هوميروس الآتي:

في بيلوس الرجال الذين عاشوا في أرينا السعيدة
وثريوس، مخاضة ألثييوس، وإيبي بصرحها الماجد
ومدينة كيباريسيينت، ومدينة أمفيغينيا التي
سكنوا حولها؛ وبتيليوس، وهيليوس ودوريون،
المكان الذي إذ لاقت الميوزات فيه يوماً ثاميرس
التراقي بأغنيات الرجل الماجد، سلبنه الموهبة:
بينما كان آتياً من عند إيفريتوس، ملك الإيخاليين...

(الإلياذا II، 591)

وعلى هذا النحو فإن مسألة خلافية ترتبط ببيلوس، وسوف أتناولها مباشرة. وأنا كنت قد تحدّثت عن أرينا. والمدينة التي يدعوها الشّاعر هنا ثريون، يدعوها في مكان آخر ثريويسا:

توجد مدينة ثريويسا، على جرف شديد الانحدار تقع،
قصية على ضفّة ألثييوس.

(الإلياذا XI، 711)

فهو يدعو هذه المدينة «مخاضة ألثييوس»، لأنه على الأغلب كان يمكن عبور الثييوس هنا في مكان ضحل. وتدعى هذه القرية الآن إيبتالوس (موقع في ماكيستيا). أمّا فيما يخصّ «صرح إيبي الماجد [المبني جيداً]»، فإن بعضهم يحاول أن يحدّد: أي من الكلمتين للتعريف، وأيهما اسم للمدينة، ثمّ أليست هذه هي مارغالا الحالية التي في أمفيدوليا. وليست هذه قلعة طبيعية؛ إذ يشيرون إلى مكان آخر في ماكيستيا، هو الذي يعدّ قلعة طبيعية. وعلى هذا النحو فإن أولئك الذين يفترضون أن هوميروس يقصد هذا

المكـان الأخـير، يـرون أن «إيبي» («الشـديد الانحـدار»)، هـو اسـم المدينـة المـأخوذ مـن خاصيات المكان الطبيعية (قارن على سبيل المثال هيلوس[33]، وإيغيـالوس[39]، وأسماء كـثير من الأمـاكن الأخـرى)؛ أمّـا الـذين يـرون أن هـذه مارغـالا، فـإنهم علـى مـا يبـدو يفهمون الأمر على الضد[40]. فثريون[41] أو ثريويسا، كما يقولون، هـي إيبيتـالوس، لأنّ هذا المكان كلّه مغطى بنبات القصب، خاصة النهر، وهـذا ما يلفت النظر أكثر في الأمـاكن الـتي يمكـن عبـور النهـر فيهـا عبـر مخاضـة. لكـنّهم يقولـون، ربّـمـا يكـون هوميروس قد دعا المعبر «ثريون»، وإيبيتالوس- «إيبي ذات البنيان الجيـد»، لأنّ إيبيتـالوس حصن طبيعي. وهو فعلاً يتحدّث في أماكن أخرى عن «جرف شديد الانحدار»:

توجد مدينة ثريويسا، على جرف شديد الانحدار تقع،

قصية على ضفّة ألثييوس، نهاية بيلوس الرملية.

(الإلياذا XI، 711)

25- تقع كيباريسيينت بجوار ماكيستيا السابقة (عندما كانت ماكيستيا تمتدّ على الجانب الآخر من نيدا أيضاً). ولا يسكن هذه القرية الآن أحد، وكذا هـي الحـال في ماكيسـتوس. بيد أن هنـاك مكانـاً آخـر، هـو كيباريسـيا في ميسـينا؛ وهـي تـدعى الآن بالاسـم نفسـه الـذي تـدعى بـه الماكيسـتية، أي كيباريسـييا بصـيغة المفـرد المؤنث، بينما لا يحمل الاسم الآن سوء نهر كيباريسيينت. وتقع أمفيغينيا في ماكيستيا أيضاً، عند هيبسوينت حيث يقوم معبد لاتونا. وكانت بتيلييوس مستوطنة لمستعمرين من بتيلييوس التراقية، لأنّ بتيلييوس كما يقول هوميروس، كانت في تساليا أيضاً:

غنية بالمروج بتيلييوس وأنترون التي تغتسل بمياه البحر،

(الإلياذا II، 697)

ولكنّها الآن مكان تملؤه الأدغال ولا يسكنه أحد، وهـي تـدعى بتيليياسـوس. وفيما يخصّ هيلوس فإن بعضهم يطلق هذا الاسم على أرض ما على مقربة من ألثييوس، بينما يطلقه آخرون على مدينة سمية للاسم اللاكوني:

وهيلوس، المدينة الساحلية؛

(الإلياذا II، 584)

ويطلقه فريق ثالث على مستنقع قرب ألوريوس، حيث كان يقوم معبد أرطميس إيلييـا، الـذي كـان تحـت سـلطة الأركـاديين، لأنهـم كـانوا ينهضـون هنـاك بمهـام الكهنـوت. وفيما يخصّ دوريون فإن بعضهم يرى أنه جبل، بينما يرى آخرون أنـه سـهل؛ ولم يبـق منـه الآن أي أثر؛ بيد أن بعضهم يقول، إن دوريون هي مدينة أولـوريس الحاليـة أو مدينـة ألـورا

التي تقع في أفلون الميسيني. وفي مكان ما هنا تقع إيخاليا، مدينة إيفريتوس (هي أندانيا الحالية، مدينة أركادية صغيرة تحمل الاسم نفسه الذي تحمله مدينة في تساليا وأخرى في إيبيوس)، التي جاء منها، ثاميريس التراقي، على حدّ قول الشاعر، إلى دوريون وسلب موهبة الغناء.

26- ومن هنا يتّضح أن البلاد التي يحكمها نسطور، والتي يدعوها الشّاعر كلّها «أرض البيلوسيين»، كانت تمتدّ على جانبي[42] ألثييوس؛ ولكنّ ألثييوس هذا لا يجري في أي مكان عبر ميسينا أو عبر كيلي إيليدا. فمسقط رأس نسطور يقع في المنطقة التي ندعوها بيلوس التريثينية، أو الأركادية، أو الليبريوسية. فالبيلوسات الأخرى تقع على شاطئ البحر فعلاً، أمّا هذه البيلوس فتقع على بعد أكثر من 30 مرحلة عن البحر، كما يتّضح من أشعار هوميروس؛ فهم أولاً، يرسلون إلى رفاق تيليماخ رسولاً يدعوهم للضيافة، وثانياً، لدى عودته من إسبرطا، لم يأذن تيليماخ لبيسيستراتوس أن يسافر إلى المدينة، بل أمره أن يسرع بالانعطاف نحو السفينة، وهذا يعني أن الطريق إلى المدينة والميناء لم تكن هي نفسها. وعلى هذا النحو لا يمكن وصف رحلة عودة تيليماخ وصفاً صحيحاً إلا وفق هذا الافتراض.

لقد فاتوا كروني وخالكيس البهي؛
وكانت الشمس عندئذٍ قد غابت، وأظلمت الطرقات كلّها.
وخلّفت السفينة التي ترافقها ريح زيوس، ثيا وراءها
وعبرت منطقة الإيبيين المقدّسة، إيليدا.

(*الأوذيسا* XV، 295)

حتى الآن لا تزال طريق السفينة تسير نحو الشمال، لكنّها تنعطف من هنا نحو الشرق. وعلى هذا النحو تترك السفينة الطريق المباشر إلى أتيكا، الذي أخذته منذ بداية انطلاقها، لأنّ الخطّاب أعدّوا هناك حصاراً.

بين إيثاكا وسام...

(*الأوذيسا* IV، 671)

وأبحر من هناك إلى الجزر الحادة الأطراف،

(*الأوذيسا* XV، 299)

لكنّ الشّاعر يفهم كلمة thoia[43] بمعنى الجزر «الحادة الأطراف». وهي تنتمي إلى مجموعة الجزر الإيخينادية، وتقع قريبة من بداية خليج كورينثوس ومصبّ أخيلوي. وبعد أن فات إيثاكا بحيث باتت إلى الجنوب، انعطف تيليماخ مرّة أخرى ليأخذ طريقه

الصحيحة بين أكرانانيا وإيثاكا، ويرسو على الجانب الآخر من الجزيرة، على مسافة من المضيق الكيثالي الذي كان يحرسه الخطّاب[44].

27- وفي الأحوال كلّها، إذا ما افترضنا أن بيلوس إيلييا، هي بيلوس نسطور، فعندئذٍ لن يكون صحيحاً قوله، إن السفينة التي أبحرت من هنا فاتت كروني وخالكيدا قبل غروب الشمس، ثمّ بلغت ثييا ليلاً، وأخيراً عبرت على مقربة من إيلييا؛ فهذه الأماكن تقع إلى الجنوب من إيلييا: ثييا أولاً، ثمّ خالكيدا، وكروني، وبعد ذلك بيلوس التريثيلية وساميك. فتلك هي الطريق البحرية إذا أبحرت جنوباً انطلاقاً من بيلوس إيليا. أمّا إذا أبحرت شمالاً حيث تقع إيثاكا، فإن هذه الأماكن كلّها تبقى وراءك، وينبغي أن تبحر على مقربة من إيليدا نفسها قبل غروب الشمس، مع أن الشّاعر يقول، بعد غروب الشمس. وحتّى لو افترضنا أن بداية الإبحار من بلاد نسطور كانت انطلاقاً من بيلوس الميسينية أو الكورونثية، فإن المسافة سوف تكون كبيرة ويتطلب اجتيازها زمناً أكثر. وفي الأحوال كلّها فإن المسافة إلى بيلوس التريثيلية ومعبد بوسيدون الساميسي 400 مرحلة، ولا تسير المرحلة الأولى من الإبحار «قرب كروني وخالكيدا» وثييا (وهي أسماء أنهار صغيرة أو على الأرجح جداول لا أهمية لها)، إنّما قرب نيدا، ثمّ على مقربة من أكيدون، وألثييوس والأماكن الواقعة بينهما. وينبغي أن نذكر لاحقاً هذه الأماكن مرّة أخرى، لأنّ الإبحار كان على مقربة منها فعلاً.

28- وعلاوة على هذا كلّه، فإنّ رواية نسطور عن الحرب بين البيلوسيين والإيليين، التي عرضها باتروكلس تصبّ في صالح ما حاولت أن أبيّن صحّته، إذا ما أمعنا النظر في أبيات الشّاعر بانتباه. فالشّاعر يقول فيها: كان هرقل قد نهب الأرض البيلوسية من قبل ودمّرها، وأن شبابها كلّه أبيد[45]؛ ولم يبق من أبناء نيلييوس الاثني عشر على قيد الحياة إلا نسطور[46] (الذي كان فتى صغيراً عندئذٍ)[47]؛ لقد نظر الإيبيون إلى نيلييوس نظرة استخفاف، لأنه كان شيخاً مسناً ووحيداً، وأخذوا يتعاملون مع البيلوسيين بغطرسة ووقاحة. وفي سعيه للثأر من هذا التعامل الفظ، جمع نيلييوس قدر ما استطاع من أبناء شعبه، وهاجم إيليدا، كما يقول الشاعر، واستولى على غنيمة كبيرة:

قطيع من خمسين من الأغنام، ومثلها من الثيران،
ومثلها من الخنازير...

(الإلياذا XI، 678)

ومثلها من قطعان الماعز، و

... مئة وخمسين من الأفراس

وكلّها مهرات...

(الإلياذا XI، 679)

وأكثرها معها صغارها.

هذه الغنيمة الكبيرة سقناها كلّها إلى داخل المدينة ليلاً،

قال نيلييوس،

إلى بيلوس نيلييوس

(الإلياذا XI، 682)

وهو يقصد بهذا، أن الاستيلاء على الغنيمة، وتحوّل الذين جاؤوا للمساعدة إلى أناس أغنياء (عندما قتل إيتيمونيوس، كما قال)، قد حدث نهاراً، أمّا العودة فقد كانت ليلاً، أي أن الوقت كان ليلاً حينما عادوا إلى المدينة. وبينما كان البيلوسيون يتقاسمون الغنيمة ويقدّمون الذبائح، كان الإيبيون قد اجتمعوا في اليوم الثالث[48] بأعداد كبيرة، مشاة وفرساناً، وهاجموا العدو ونصبوا معسكرهم عند ثريون الواقعة على نهر ألثييوس. ولما علم البيلوسيون بذلك، خفّوا لتقديم العون؛ فأمضوا الليل عند نهر مينييوس غير بعيد عن أرينا وجاؤوا من هنا إلى ألثييوس «تحت قبة السماء»، أي عند منتصف النهار. وبعد أن قدموا الذبائح باتوا ليلتهم عند النهر، وعند بزوغ الفجر تماماً بدؤوا المعركة؛ وإذ حققّوا فيها نصراً باهراً وهزموا أعداءهم، لاحقوهم من فورهم يقتلونهم حتّى وصلوا بوبراسوس،

حيث الصخرة الأولينية والتل المسمّى أليسيوس.

من ميدانهم ردت بالادا البيلوسيين على أعقابهم

(الإلياذا XI، 757)

وبعد ذلك بقليل يواصل الشّاعر قائلاً:

... والرجال الآخيون

ردّوا الجياد السريعة على أعقابها

من بوبراس إلى بيلوس.

(الإلياذا XI، 759)

29- إذن، كيف يمكن انطلاقاً من هذا كلّه أن نفترض أن الشّاعر يقصد هنا إلى بيلوس إيلييا أو بيلوس الميسينية؟ فهو لا يقصد إلى بيلوس إيلييا: إذا كان هرقل قد نهب هذه البيلوس، فهذا يعني أنه جرى في الوقت نفسه نهب منطقة الإيبيين؛ لكنّ

هذه إيليدا. فكيف يمكن لأناس نهبت أرضهم معاً، وينتمون إلى القبيلة عينها، أن يبلغ تعاملهم مع من تعرضوا وإياهم للمهانة، هذه الدرجة من الغطرسة والوقاحة؟ كيف يمكنهم أن ينهبوا وطنهم ويسلبوا أرضهم؟ وكيف استطاع أفغيوس ونيلييوس أن يحكما معاً الشعب نفسه إذا كان كلّ منهما عدواً للآخر؟ وإذا كان لنيلييوس

دين كبير وقديم على إيليدا المقدّسة:

أربعة جياد غراء ظافرة في السباق، مع مركبتها،

رامحة لتسابق، ومكافأة السباق محمل ثلاثي القوائم،

لكنّ حاكم الشعب أوجياس انتزعها بوقاحة، وطرد

حوذي الجياد حزيناً.

(الإلياذة XI، 698)

وإذا كان نيلييوس قد عاش هنا، فيجب أن يكون نسطور قد عاش هنا أيضاً. فكيف استطاع الشّاعر أن يقول عن الإيليين والبوبراسيين، إن

أربعة زعماء كانوا يقودونهم، وخلف كلّ واحد عشر

سفن سريعة تبحر، وعساكر كثر من الإيبيين.

(الإلياذا II، 618)

وكذلك البلاد انقسمت إلى أربعة أجزاء؛ ولكنّ نسطور لم يكن يحكم أي جزء منها، لكنّه كان ملكاً على

الرجال الذين في بيلوس كانوا يعيشون، وفي

أرينا السعيدة يقطنون،

(الإلياذا II، 591)

وساد على المناطق وصولاً حتّى ميسينا. ومن جهة أخرى كيف تمكن الإيبيون الذين بدورهم هاجموا البيلوسيين، من التغلغل حتّى ألثييوس وثريون؟ وكيف نجحوا بعد المعركة وهم مهزومون مدمّرون في أن يهربوا إلى بوبراس؟ وأيضاً، إذا كان هرقل قد خرب بيلوس الميسينية، فكيف تمكن أناس يعيشون بعيداً عن الميسينيين، كما هي حال الإيبيين، إن يلحقوا بهم الإهانة، وكيف يمكن للإيبيين الذين لهم علاقات تعامل واسعة أن يخدعوهم ولا يؤدون لهم ديونهم، بحيث اشتعلت الحرب من أجل هذا أيضاً؟ ثمّ كيف تمكن نسطور الذي توجه لينهب بلاداً ويستولي على غنيمة مؤلّفة من خنازير وأغنام (ولا يمكن لمثل هذه الحيوانات أن تتحرك بسرعة إلى مسافات بعيدة)، أن يقطع رحلة تتجاوز 1000 مرحلة ليصل إلى تلك البيلوس التي تقع عند كوريفاسوس؟ ولكنّهم

في اليوم الثالث يصلون كلّهم[49]، إلى ثريوسا ونهر ألثييوس ليحاصروا القلعة! كيف يمكن أن تكون هذه الأماكن لحكّام ميسينا إذا كان يملكها الكافكونيون، والتريثيليون، والبيساتيون؟ وفيما يخصّ هيرين أو هيرينا (لأن هذه الكلمة تكتب بالوجهين)، فقد يكون بعضهم دعاها بهذا الاسم عامداً، مع أنها ربّما تكون قد دعيت به مصادفة. وعلى وجه العموم، بما أن ميسينا عدت[50] تحت سلطة منيلايوس، وكذلك لاكونيكا (يتّضح هذا من العرض الذي يلي)[51]، وباميس ونيدون يجريان عبر ميسينا، وألثييوس لا يلامسها في أي مكان (ألثييوس،

الذي تجري مياهه واسعة عبر الأرض البيليسية

(الإلياذا V، 545)

التي كان يسود عليها نسطور)، فأي مصداقية يمكن أن تكون للخبر الذي يرغم نسطور على أن ينزل في مملكة غريبة، وينتزع منها مدناً تنسب إليها في «سجل السفن»، ويخضع هذه الأماكن كلّها لمنيلايوس؟

30- بقي لي أن أتحدّث عن أوليمبيا، وعن انتقال السيادة على البلاد كلّها إلى الإيليين. ففي بيساتيدا معبد على مسافة أقل من 300 مرحلة عن إيليدا. ويقع أمامه دغل من شجر الزيتون البري فيه ميدان للتمارين والمباريات الرياضية. وعلى مقربة من المعبد يجري نهر ألثييوس الذي يبدأ في أركاديا، ويجري بين الغرب والجنوب في البحر التريثيلي. وفي بادئ الأمر حظي المعبد بشهرة واسعة بفضل موْحى زيوس الأوليمبيي؛ إلا أنه مع ذلك، وبعد أن توقف المتنبّئ عن إعطاء إجابات على أسئلة الناس، حافظ المعبد على مجده وضاعفه، وهذا ما نعرفه من الاحتفال الشعبي العام، ومن الألعاب الأوليمبيية، حيث كانت مكافأة الفوز إكليلاً؛ وكانت هذه الألعاب ألعاباً مقدّسة، كما كانت الألعاب الأعظم في العالم. لقد زين المعبد بكثير من التقدمات التي جاءت من مختلف أرجاء اليونان. ومن هذه التقدمات تمثال زيوس المصنوع من الذهب الذي قدمه كيبسيل، تيران كورينثوس. ولكنّ الأكثر قداسة بين التقدمات، هو تمثال زيوس الذي صنعه ثيديوس الأثيني ابن هارميدس؛ وقد صنع هذا التمثال من العاج، وهو ضخم إلى درجة أنه مع أن المعبد كان رحباً جداً، إلا أنه بدا كأن الفنان أخل بالمقاييس، لأنه صوّر زيوس جالساً ومع ذلك تكاد رأسه تلامس سقف المعبد، وعلى هذا النحو ينشأ انطباع بأنه لو استقام زيوس ووقف على قدميه لاخترق رأسه سقف المعبد. وقد وصف بعض الكتّاب أبعاد التمثال، فضمّنها كاليماخ قصيدة من القصائد اليامبية. وقدم الرسام بانين ابن أخت ثيديوس ومعاونه، مساهمة كبيرة في تلوين

التمثال، خاصة تلوين ملابسه وزخرفتها. ويعرض هنا عند المعبد كثير من اللوحات الرائعة التي رسمها بانين. ويروى أن بانين سأل ثيديوس وفق أي نموذج سيصنع صورة زيوس، فأجابه: وفق النموذج الذي ورد عند هوميروس في أبيات الشعر التالية:

أنهى كلامه، وفي إشارة أومأ زيوس بحاجبيه الأسودين:

ردّ مسرعاً، شعره المطيّب إلى الأعلى، فاستقامت رأس كرونيدس الخالدة، واهتزّ الأوليميب بتلاله الكثيرة.

(الإلياذا I، 528)

وواقع الحال أن هذا الوصف يبدو بارعاً، إن لجهة التفاصيل الواردة في هذا المقطع، أو لجهة «الحاجبين»، لأنّ الشّاعر يرغم مخيّلتنا على أن ترسم في الذهن صورة قوية موحية، وقوة خارقة تليق بزيوس، فعلى النحو الذي تعامل به مع هيرا، إذ التزم في الحالتين ما ينبغي على أيّ كان أن يراعيه، فقد قال عن هيرا:

تململتْ على العرش، فاهتزَّ الأوليميب بتلاله الكثيرة.

(الإلياذا XIII، 199)

إن ما وقع في حالة هيرا نتيجة لحركة جسدها كلّه، أحدثه زيوس بإيماءة من حاجبيه، مع أن شعره أيضاً تحرك بدرجة ما. وما قيل عن الشّاعر إنه «وحده رأى، أو أظهر صور الآلهة»، يتسم بذكاء حاد. إن الإيليين يستحقون أكثر من الآخرين كلّهم أن يعدوا متفضّلين بروعة المعبد الأوليميبي والتبجيل الذي حظي به. ففي زمن حرب طروادا، أو حتّى قبل ذلك، لم يكن الإيلييون قد حقّقوا أي نجاح يذكر، ففي بادئ الأمر كان البيلوسيون يضطهدونهم، وفيما بعد اضطهدهم هرقل، حينما أطيح بملكهم أفغيوس. والبرهان على هذا، هو الآتي: لم يرسل الإيلييون إلى شواطئ طروادا سوى 40 سفينة، بينما أرسل البيلوسيون ونسطور 90 سفينة. ولكن فيما بعد، بعد عودة الهيراقليين، حدث العكس، لأنّ الإيثوليين الذين عادوا مع الهيراقليين بقيادة أوكسيل، سكنوا مع الإيبيين الذين كانت تربطهم بهم أواصر قرابة قديمة، وجعلوا كيلي إيليدا أكثر قوة، إذ استولوا على شطر كبير من بيساتيدا، كما أخضعوا أوليميبيا لسلطانهم. وعلاوة على ذلك، فإن الألعاب الأوليميبية من ابتكارهم، فهم أوّل من احتفل بأول أوليميبياد، ولذلك ينبغي أن نستبعد الروايات القديمة عن إنشاء المعبد وتأسيس الألعاب؛ ويرى بعضهم أن هرقل، أحد الداكتيلوس الإيديين، هو مؤسّس هذه الألعاب، بينما يرى آخرون أن مؤسّسها، هو هرقل ابن زيوس وألكميني الذي كان أوّل من شارك في الألعاب وأحرز الفوز فيها؛ فهذه الروايات تروى بطرائق مختلفة، بيد أنه

ينبغي ألا نمنحها كثيراً من الثقة. فالأقرب إلى الحقيقة أن نقول، إنه من الأوليمبياد الأول (الذي فاز فيه كوريبوس بسباق العدو) حتّى الأوليمبياد 26 كانت إدارة المعبد وقيادة الألعاب في أيدي الإيليين. ولكن، في زمن حرب طروادا إمّا لم تكن الألعاب التي كانت مكافأة الفوز فيها إكليل قد وجدت بعد، أو أنها لم تكن قد باتت شهيرة عندئذٍ، أي لم يكن ثمّة ألعاب أوليمبية، ولا أي ألعاب أخرى من تلك تشتهر الآن[52]، فهوميروس لم يأت على ذكر أي من هذه المباريات، مع أنه يذكر نوعاً آخر من الألعاب ألعاب الجنازات[53]. ولكنّ بعضهم يظنّ أنه يذكر الألعاب الأوليمبية عندما يقول، إن أفغيوس سلب الحوذي «أربعة جياد ظافرة جاءت إلى المباراة»[54]. ويقولون، إن البيساتيين لم يشاركوا في حرب طروادا، لأنهم عدوا مكرّسين لزيوس. ولم تكن بيساتيدا التي تقع فيها أوليمبيا خاضعة حينئذٍ لأفغيوس، إذ لم تكن تخضع له سوى إيلييا؛ والألعاب الأوليمبية لم تنظّم يوماً في إيلييا، بل دائماً في أوليمبيا. ومن الواضح أن الألعاب التي سقت قبل قليل اقتباساً عنها من هوميروس، قد أقيمت في إيليدا، حيث كان على نيلييوس أن يحصل ديناً هناك:

دين كبير وقديم على إيليدا المقدّسة:

أربعة جياد غرّاء ظافرة في السباق...

(*الإلياذا* XI، 698)

ولم تكن هذه الألعاب، هي الألعاب التي مكافأتها إكليل (فالجياد كانت ستشارك في سباق مكافأته محْمل ذو ثلاث قوائم)، كما كان عليه الأمر في أوليمبيا. وبعد الأوليبمياد 26 استرد البيساتيون بلادهم، وأخذوا يقيمون الألعاب بأنفسهم، لأنهم رأوا أن المباريات تحظى بالاحترام والتشريف. وفي زمن متأخر وقعت بيساتيدا مرّة أخرى تحت سيطرة الإيليين، فعادت قيادة الألعاب إلى هؤلاء من جديد. وبعد أن أخضع اللاكيديمونيون الميسينيين نهائياً، مدوا يد العون للإيليين الذين حاربوا معهم كحلفاء ضدّ الأركاديين وأحفاد نسطور الذين اتحدوا مع الميسينيين. وقد قدم لهم اللاكيديمونيون عوناً كان على درجة كبيرة من الأهمية، إذ باتت البلاد كلّها حتّى ميسينا تدعى إيليدا، وقد بقي هذا الاسم حتّى يومنا هذا، بينما لم يبق حتّى مجرّد اسم للبيساتيين، والتريثيليين، والكافكونيين. لقد هجّر الإيليون سكّان بيلوس «الرملية» إلى لابريوس إرضاء للابريوسيين الذين انتصروا في الحرب ودمّروا كثيراً من القرى الأخرى، وفرضوا الإتاوات على كلّ من رأوا لديه ميلاً نحو الاستقلال.

31- قبل كلّ شيء حظيت بيساتيدا بشهرة واسعة بفضل حكّامها الذين

كانوا أقوياء جداً: إينومايوس ووريثه بيلوبس، وأبناء هذا الأخير الكثيرون. ويقال إن سالمونيوس[55] قد ملك هنا أيضاً، وعلى أي حال فإن واحدة من المدن الثماني التي انقسمت إليها بيساتيدا، كانت تدعى سالمونا. ولهذه الأسباب، إضافة إلى وجود معبد أوليمبيا، حظيت هذه البلاد بشهرة عظيمة. ولكن ينبغي علينا إذ نسمع روايات غريبة، أن نأخذها بتحفظ، لأنها لا تحظى بقبول عام؛ فالكتّاب المتأخرون يأخذون بالرؤى الجديدة في كثير من المسائل، بل يطلقون أحكاماً تناقض ما أخبر به القدماء؛ فهم يزعمون مثلاً، أن أفغيوس كان حاكماً على بيساتيدا، وأن إينومايوس وسالمونيوس حكما على إيلييا؛ وبعضهم يوحد هذه القبائل، وعلى وجه العموم ينبغي ألا نأخذ إلا بما يحظى بقبول من قبل جميعهم. وواقع الحال، هو أنه ليس ثمّة اتفاق بين الكتّاب حتّى على الاسم الأول الذي حملته «بيساتيدا»؛ فبعضهم يشتقه من اسم مدينة بيسا، سمية أحد الينابيع؛ وعلى حدّ قولهم أن الينبوع كان يدعى «بيسا»، وهذا ما يتوافق مع تسمية Pistra، أي Potistra[56]؛ ويحدّد هؤلاء المكان الذي كانت تقوم عليه المدينة فوق مرتفع بين أوسّا والأوليميب، سميّا جبلين في تساليا. أمّا الآخرون فيزعمون، أنه لم يكن هناك وجود لمدينة اسمها بيسّا (لأنه لو كان لها وجود لكانت واحدة من المدن الثماني)، بل كان هناك ينبوع يدعى الآن بيسا، وهو يقع عند كيكيسوس، المدينة الأكبر بين المدن الثماني؛ ويقول هؤلاء، إن ستيسيخور يدعو المنطقة التي تسمى بيسّا «مدينة»، مثلما يدعو هوميروس «مدينة ماكارا»[57] ليسبوس، أمّا يوريبيدس فيقول في «إيون»:

إيبيوس التي تجاور أثينا

(إيون، ص 294)

ويقول في «رادامانثوس»:

من يمتلك إيبيوس، المدينة- الجارة؛

(مقطع 658، ناؤوك)

ويقول سوفوكليس في «الميسينيين»:

البلاد كلّها تنادي، أيّها الرحالة أسيوس.

مدينة الميسينيين وحدها دعيت ميسينا.

(مقطع 377، ناؤوك)

32- تقع سالمونا غير بعيد عن ينبوع يحمل الاسم عينه، ومنه ينبجس إينيبييوس. ويصبّ هذا النهر في ألثييوس [وهو يحمل الآن اسم مارنيخوس][58]. ويروون أن تيرو أحبّت إينيبييوس:

جعلت تيرو قلبها أسيراً لدى إينيبييوس الإلهي.

(*الأوذيسا* XI، 238)

لأنـه يقـال، إن والـدها سـالمونيوس كـان ملكـاً، كمـا يقـول يوريبيـدس في «إيول»[59]. أيضاً. (بعضهم يكتب اسم إينيبييوس، وهـو نهـر في تساليا، «إينيسيبيوس»؛ ويجري هذا من جبل أوفريا ويستقبل تيار أبيدان الذي يجري من فارسال). وعلى مقربة من سالمونا تقع هيراقليا، وهي واحدة من المدن الثماني؛ وتبعد عن أوليمبيا ما يقارب 40 مرحلة، وهي قائمة على نهر كيفيروس، حيث يقع معبد الحوريات اليونيادس، اللواتي يظنّون أنهنّ يداوين الأمراض بالماء[60]. وعلى مقربة من أوليمبيا تقع أربينا، وهـي إحدى المدن الثماني أيضاً، وعبر منطقتها يجري نهر بارفينيوس على الطريق التي تقود إلى فيرييا. وتقع فيرييا في أركاديا فوق ديمييا، وبوبراس، وإيليدا، أي إلى الشمال من بيساتيدا. وهنا تقع كيكيسوس، واحدة من المدن الثماني، وديسبونتوس الواقعة في سهل على الطريق من إيليدا إلى أوليمبيا؛ لكنّ المدينة دمّرت، وهاجر أكثر سكّانها إلى إيبيدامنوس وأبوللونيا. كما يقع جبل فولويا الأركادي فوق أوليمبيا، وهو قريب جداً منها بحيث تقع سفوحه في بيساتيدا. إن بيساتيدا كلّها، والشطر الأكبر من تريثيليا يجاوران أركاديا؛ وتبعاً لهذا على أغلب الظنّ، يُعدّ الشطر الأكبر من منطقة بيلوس المذكورة في «سجلّ السفن»[61]، أركاديا؛ ولكنّ العارفين بحقائق الأمور يرفضون هذا، فهم يؤكّدون أن أريمانثوس، وهو أحد الأنهار التي تصبّ في ألثييوس، يشكّل حدود أركاديا، وأن هذه المناطق تقع وراء نهر أريمانثوس.

33- يقول إيثور، إن إيثول بعد أن طرده سالمونيوس ملك الإيبين والبيساتيين من إيلييا إلى إيثوليا، دعا هذه البلاد باسمه ووحّد مدنها. وأن أوكسيل خليفة إيثول وصديق تيمينوس والهيراقليين الذين كانوا يرافقونه، قد أرشدهم إلى الطريق لدى عودتهم إلى البيلوبونيز، ووزّع عليهم شطراً من البلاد التي كانت للأعداء، وقدم لهم نصائح بخصوص الاستيلاء على البلاد. وعرفاناً منهم بهذا الجميل أذنوا له بأن يعود إلى إيليدا، أرض أجداده؛ فجمع قوات وعاد إلى إيثوليا ليهاجم الإيبيين الذين كانوا يمتلكون إيليدا؛ ولكن لمّا خرج الإيبيون لملاقاته بالسلاح، وظهر أن قوى الخصمين متساوية، نحا الجانبان نحو المبارزة عملاً بالتقليد الإغريقي القديم، فخرج الإيثولي بيريكموس ليصارع الإيبي ديغمينوس. وكان هذا الأخير مسلّحاً تسليحاً خفيفاً: بالقوس فقط، إذ ظنّ أنه سيهزم خصمه المسلّح تسليحاً ثقيلاً، بسهم يرميه به من مسافة بعيدة؛ لكنّ بيريكموس أدرك خبث خصمه، فحمل معه مقلاعاً وجراباً مليئاً بالحجارة (لحسن

المصادفة أن الإيثوليين كانوا قد ابتكروا المقلاع لتوّهم). وبما أن المقلاع أظهر أنه سلاح أبعد مدى، فقد سقط ديغيموس قتيلاً وطرد الإيثوليون الإيبيين وامتلكوا البلاد؛ كما نالوا أيضاً حق إدارة شؤون معبد أوليمبيا (الذي كان عندئذٍ بين أيدي الآخيين)؛ وبفضل الصداقة التي كانت تربط بين أوكسيل والهيراقليين، حصل الإيثوليون بسهولة على موافقة جميعهم التي رسختها تأدية القسم، بأن تبقى إيلييا مكرّسة لزيوس، وأن كلّ من يهاجم هذه البلاد سيكون ملعوناً، وأن كلّ من لا يأتي لمساعدتها حسب قدراته، سيكون ملعوناً كذلك. ولذلك ترك مؤسّسو مدينة الإيليين مدينتهم التي بنوها فيما بعد، من غير أسوار، وكلّ من كان يعبر البلاد بجيوشه كان يسلّم أسلحته ثمّ يستردها عندما يخرج منها. وقد أنشأ إيثيتوس الألعاب الأوليمبية، فالإيلييون باتوا الآن شعباً مقدّساً. وتبعاً لهذه الظروف حقّق سكّان إيليدا مستوى عالياً من الازدهار، لأنه في الوقت الذين كانت فيه القبائل الأخرى يقاتل بعضها بعضاً، كان الإيلييون يعيشون بسلام، بل عاش بسلام معهم أيضاً الغرباء [الذين كانوا يقيمون بين ظهرانيهم]، وهكذا غدت بلادهم البلاد الأكثر سكّاناً بين البلاد الأخرى كلّها. لقد فاق ثيدون الآرغوسي، الخليفة العاشر لتيمينوس، حكّام زمنه الآخرين كلّهم قوة (واعتماداً على هذه القوّة استردّ تركة تيمينوس كلّها التي كانت قد تبعثرت إلى أجزاء، وابتكر معايير دعيت موازين ثيديوس، وسك عملة نقدية من الفضّة والمعادن الأخرى). وعلاوة على ذلك هاجم ثيدون المدن التي كان قد استولى عليها هرقل في زمن مضى، وطالب بحق تنظيم الألعاب التي كان قد أسّسها هرقل، وزعم أن الألعاب الأوليمبية كانت بين هذه الأخيرة. وبعد ذلك هاجم ثيدون إيلييا ونظّم الألعاب بالقوّة؛ وبما أن الإيليين لم يمتلكوا أيّ أسلحة بسبب عهد السلام الذي أعطي لهم، فقد عجزوا عن مواجهة ثيدون، أمّا الآخرون فقد خضعوا لسيطرته. ولكنّ الإيليين لم يدرجوا المباريات التي نظّمها ثيديون في السجلّات الرسمية؛ وقد ساعد اللاكيديمونيون الإيليين إمّا لأنهم حسدوهم على الازدهار الذي حقّقه لهم السلام، وإمّا لأنهم ظنّوا أنهم سيجدون فيهم حلفاء لهم في سعيهم لتدمير قوّة ثيدون (لأن ثيدون سلبهم سيطرتهم التي كانت لهم على البيلوبونيز)؛ وقد ساعدهم الإيلييون فعلاً لوضع حدّ لجبروت ثيدون؛ وبدورهم ساعد اللاكيديمونيون الإيليين لامتلاك بيساتيدا وتريثيليا. ويبلغ طول المعبر الممتدّ على طول سواحل إيلييا الحالية، من غير حساب الخلجان، حوالي 1200 مرحلة[62]. تلكم هي معطياتي عن إيليدا.

الفصل الرابع

1- وتجاور ميسينا إيليدا؛ لكنّ شطرها الأكبر يتّجه نحو الجنوب والبحر الليبي. وفي زمن حرب طروادا، عدت هذه البلاد تحت سلطة منيلايوس، لأنها كانت جزءاً من لاكونيكا وكانت تسمى ميسينا؛ لكنّ المدينة التي تحمل الآن اسم ميسينا التي لم تكن إيثوما أكروبولها قد تأسّست بعد[1]؛ وبعد موت منيلايوس، عندما ضعفت قوة خلفائه حكّام لاكونيكا، غدا النيليديون يحكمون في ميسينا. فأثناء عودة الهيراقليين واقتسام البلاد، كان ميلانثوس هو ملك الميسينيين الذين كان لهم استقلالهم عندئذٍ، مع أنهم كانوا قبل ذلك من رعايا منيلايوس والبرهان على ذلك هو الآتي: المدن السبع التي وعد آغاممنون أن يمنحها لأخيلليس، كانت تقع على خليج ميسينا والخليج الأسيني المجاور له، وقد دعي باسمه هذا نسبة إلى أسينا الميسينية؛ ومثل هذه المدن:

مدينة كارداميلا، وإينوبا، وهيرا الغنية بالأعشاب،
وثيرا المحببة للسماء، وآنفيبا بواديها العميق، وبيداس
المكلّلة بالعناقيد، وإيبيا المدينة الرائعة.

(*الإلياذا* IX، 150)

ومن الواضح أن آغاممنون ما كان ليعد بمنح مدن ليست له ولا لأخيه. ويشير الشّاعر بوضوح إلى أن رفاق منيلايوس كانوا من ثيرا[2]؛ كما يدرج في اللائحة اللاكونية مدينة إيتيل[3] التي تقع عند خليج ميسينا. وتقع منطقة ميسينا وراء تريثيليا؛ وثمّة رأس بحرية هناك مشتركة بين المنطقتين، تليها كيباريسيا وكوريفاسيوس. وفوق كوريفاسيوس، والبحر، على بعد 7 مراحل يقع جبل إيغاليوس.

2- وعلى هذا النحو فإن بيلوس الميسينية القديمة كانت مدينة واقعة على سفوح جبل إيغاليوس؛ وبعد أن دمّرت المدينة انتقل عدد من سكّانها ليسكن على رأس كوريفاسيوس البحرية؛ ولما أبحر الأثينيون بقيادة إيفريميدونت وستراتوكليس[4] في حملتهم الثانية إلى صقليا، أعادوا بناء المدينة وجعلوا منها موقعاً حصيناً في مواجهة اللاكيديمونيين. وتقع هنا أيضاً كيبارسيا الميسينية، وجزيرة تدعى بروتا، وجزيرة أخرى تدعى سفاغيا واقعة قبالة الشاطئ على مقربة من بيلوس (وتدعى هذه الجزيرة أيضاً باسم سفاكتيريا)، وقد فقد اللاكيديمونيون عندها 300 أسير من خاصتهم أرغمهم الحصار على الاستسلام للأثينيين[5]. وقبالة شاطئ الكيباريسيين، في عرض البحر، تقع جزيرتان تحملان اسم ستروفادس؛ وتبعد هاتان عن البر قرابة 400 مرحلة في

البحـر الليبي والبحـر الجنـوبي. ويقـول ثوكيديـدس[6]، إن هـذه البيلـوس كانـت محطـة شراعية للميسينيين، وهـي تبعد عن إسبرطا 400 مرحلة.

3- ثمّ تأتي ميثونا. ويقال إن هـذه واحـدة مـن المدن السبـع (لقـد دعاهـا هـوميروس بيداس)[7]، التي وعد آغامنون أخيلليس بها. وفي حـرب إكسيوم[8] استولى أغريبـا علـى هذا المكان بهجوم مـن البحـر، وقتـل فيـه بـوغخ ملـك الماوروسيين الـذي كـان يقـف إلى جانب أنطونيو.

4- وتجاور رميثونا[9] أكريتوس التي تعدّ بادئة الخليج الميسيني. وهناك من يـدعو هذا الخليج بالخليج الأسيني أيضاً، نسبة إلى أسـينا، وهـي أوّل مدينـة في الخليج وسمية المدينـة الهيرميونيـة. وبهـذا تشـكّل أسـينا بدايـة الخليج مـن جهـة الغـرب، بينمـا يشـكّل بدايته الشرقية مكان يدعى ثيريدس يجاور ذلك الجـزء مـن لاكونيكـا المعاصـرة الـذي يقع قرب كينيثيوس وتينـار. وبـين أسـينا وثيريـدس، ابتـداء مـن ثيريـدس تقـع إيتيـل (الـتي يـدعوها بعضـهم بيتيـل)، تليهـا ليفكـترا، مسـتعمرة ليفكـترا في بيوتيـا؛ وتـأتي بعـدها كارداميلا الواقعة على جرف صخري، أي أن الطبيعة هي التي حصنتها؛ تليها ثيرا الـتي تجاور فوريا وهيرينا، وهـي المكان الذي تلقى منه نسطور صفة «الهيريني»، لأنه نجـا مـن الموت هنا، كما كنت قد قلت سابقاً[10]. وفي هيرينا معبد أسكليبوس التريكي، وهـو نسخة طبـق الأصـل عـن المعبـد الـذي يقـوم في تريكـا التسـالية. ويـروى أن بيلـوس بعـد أن أعطـى أختـه زوجـة لأمفيـون، أسّـس ليفكـترا، وهـارادرا، وثالامـا (تـدعى الآن بيوتـا)، مصطحباً معه من بيوتيا عدداً من المستعمرين. ويقع عند ثيرا مصـبّ نهـر نيـدون؛ ويجـري هذا النهر عبر لاكونيكا، وهو يختلف عن نهر نيدا. وفي مكـان مـا هنـا يقـع معبـد أثينـا نيدوسـيا الشـهير. وفي بياسـا أيضـاً يوجد معبـد لأثينـا نيدوسـيا، وقـد حملـت هـذا اللقـب نسبة إلى مكان ما يحمل اسم نيدون الذي يقال، إن تيليكلوس استعمر بياسـا، وإيخـي وتراغيوس انطلاقاً منه.

5- ومن المدن السبع التي وعد آغاممنون أخيلليس بها، كنـت قـد تحـدّثت سـابقاً عن كارداميلا، وثيرا، وبيـداس. أمّـا فيمـا يخـصّ إينوبـا[11] فـإن بعضـهم يقـول، إن هـذه هي بيلانا[12]، ويرى فيها بعضهم الآخر مكاناً ما عند كارداميلا، وحسب فريق ثالـث إن هذه هي هيرينا نفسها. وفيمـا يخـصّ هـيرا، فـإنهم يشـيرون إلى موقعهـا عنـد جبـل يقـع عنـد ميغـالوبوليس في أركاديـا، علـى الطريـق الـتي تقـود إلى أنـدانيا، وهـي المدينـة الـتي قلت سابقاً[13]، إن الشّاعر دعاهـا إيخاليـا؛ ولكـن، علـى حـدّ قـول بعضـهم، إن ميسـولا المعاصرة هـي الـتي دعيـت هـيرا، وتمتـدّ ميسـولا هـذه حتّـى الخليج بـين تـايجين وميسـينا.

وتدعى إيبيبيا الآن فوريا، وتجاور، كما قلت من قبل[14]، فارا؛ وهي تقع على هضبة عالية، ومن هنا جاء اسمها[15]. ومن فوريا اشتق اسم الخليج الفوري، وليس في هذا الخليج سوى مدينة واحدة تدعى ريون، وهي تقع قبالة تينار. أمّا أنفيبيا فبعضهم يرى أنها هي فوريا نفسها، كما يرى هؤلاء أن إيبيبيا هي ميثونا؛ لكنّ آخرين يفترضون أنه من بين المدن الميسينية كلّها تتوافق صفة «الغنية بالمروج الزاهية»[16]، أكثر ما تتوافق مع أسينا الواقعة في الوسط، والتي تقع في منطقتها قرب البحر مدينة كورونا؛ ومع ذلك فإنّ الشّاعر دعا كورونا بيداس، على حدّ قول بعضهم:

تقع كلّها على الساحل؛

(*الإلياذا* IX، 153)

وكارداميلا تقع على شاطئ البحر مباشرة، بينما تقع فارا على بعد 5 مراحل عنه (وفيها محطة شراعية صيفية)، أمّا باقي المدن فهي تقع على مسافات متباينة عنه.

6- وعلى مقربة من كورونا، في وسط الخليج تقريباً، يصبّ نهر باميس في البحر. على يمين النهر تقع كورونا والمدن التي تليها (آخرها باتجاه الغرب: بيلوس، وكيباريسيا، وبينهما إرانا التي أخطأ بعضهم وعدها أرينا)[17]، وعلى يسار النهر تقع فوريا وفارا. وهذا النهر هو النهرالأكبر بين الأنهار على هذا الجانب من إيستم، مع أن طوله لا يزيد على 100 مرحلة ابتداء من منابعه حيث يبدأ مجراه عبر وادي ميسينا، أي عبر ما يسمّى ماكاريا. ويبعد هذا النهر عن مدينة الميسينيين المعاصرة 50 مرحلة[18]. وهناك باميس آخر صغير وصاخب يجري عند ليفكترا اللاكونية؛ وفي زمن فيليب ثار خلاف عليه بين الميسينيين واللاكيديمونيين. وأنا كنت قد تحدّثت عن باميس الذي يدعوه بعضهم أماث[19].

7- وبحسب إيثور أن كريسفونت، بعد أن امتلك ميسينا قسمها إلى 5 مدن؛ وجعل من مدينة ستينيكلار الواقعة في وسط هذه البلاد، عاصمة لها، وأرسل ملوكاً إلى المدن الأخرى: بيلوس، وريون، وميسولا وهياميتيس، وساوى في الحقوق بين الميسينيين كلّهم والدوريين؛ ولكنّ هذه الإجراءات أثارت سخط الدوريين، فألغى كريسفونت قراره، وأعلن أن ستينيكلا وحدها مدينة، وجمع الدوريين كلّهم فيها.

8- وتشبه مدينة الميسينيين مدينة كورينثوس، ففوق كلّ منهما جبل شاهق شديد الانحدار ومحاط بسور، وعلى هذا النحو يكون الجبل بمثابة أكروبوليس المدينة؛ ويدعى أحد الجبلين إيثوما، ويدعى الآخر أكروكورينثوس. ولذلك أرى أن ديميتري الفاروسي قد أصاب إذ قال لفيليب[20] ابن ديميتري ناصحاً إياه بالاستيلاء على

المدينتين إذا كان يريد أن يمتلك البيلوبونيز: «فبامتلاكك هذين القرنين، تمسك بالثور بيديك الاثنتين»، وهو قصد «بالقرنين» إلى إيثوما وأكروكورينثوس، وقصد «بالثور» إلى البيلوبونيز كلّها. وقد غدت هاتان المدينتان فعلاً موضع نزاعات، بسبب موقعيهما الملائمين، فكورينثوس دمّرها الرومان ثمّ أعادوا بناءها من جديد[21]. وميسينا نهبها اللاكيديمونيون، لكنّهم أعادوا إحياءها: الطيبيون أولاً، ثمّ فيليب ابن أمينتا بعد ذلك. وبقي الأكروبوليسان غير مسكونين.

9- ويقع معبد أرطميس في ليمنا (حيث يظنّون أن الميسينيين أهانوا الفتيات اللواتي جئن ليقدّمن الذبيحة)[22]، على الحدود بين لاكونيكا وميسينا، حيث تحتفل القبيلتان معاً بعيد شعبي وتقدمان الذبيحة؛ وبعد إهانة الفتيات، عندما رفض المسينيون تأدية التعويض المرضي، يقال، إن الحرب اشتعلت. وعلى اسم هذه الليمنا دعي معبد أرطميس في إسبرطا ليمنيون.

10- ومع ذلك غالباً ما يصل الأمر عندهم حدّ الحرب بسبب انتفاضات الميسينيين. وفي أقل تقدير يعلن تيرتيوس في أشعاره أن أوّل استيلاء على ميسينا تم في زمن الأجداد؛ والثاني عندما أعلن الميسينيون انتفاضتهم وتحالفوا مع الآرغوسيين، والإيليين، والبيساتيين، والأركاديين؛ وقد اختار الأركاديون أريستوقراط ملك أوركومين قائداً لهم، واختار البيساتيون بانتاليونت ابن أومفاليون قائداً لهم؛ وحسب قوله إنه كان في هذا الوقت قائداً للاكيديمونيين في الحرب[23]، لأنه يقول في مرثيته تحت عنوان «إيفنوميا»، إنه وصل إلى هناك

كرونيون نفسه، زوج هيرا الأزلية الجمال،
زيوس، الذي كان أعطى الهيراقليين هذه المدينة.
ومع ناسي تركت أرنيون المفتوحة على الرياح
ودخلت ساحل جزيرة بيلوبس الرحب.

(*مقطع 2، بيرغك*)

إمّا أن تكون هذه الأبيات منحولة، أو يجب ألا نثق بفيلوكور عندما يقول، إن تيرتيوس أثيني من ديموس أثيدنا، كما يجب أن نتخذ الموقف نفسه من كالليسفين وكتّاب آخرين كثيرين يزعمون أنه جاء من أثينا بطلب من اللاكيديمونيين نزولاً عند إرادة الكاهن المتنبئ باتخاذ أثيني قائداً لهم. وعلى هذا النحو تكون الحرب الثانية قد وقعت في زمن تيرتيوس؛ ويقولون إنه كانت هناك حرب ثالثة وحرب رابعة[24]، هُزم الميسينيون فيها. ويبلغ طول الإبحار على امتداد سواحل ميسينا، بما في ذلك الخلجان، 800 مرحلة تقريباً.

11- بيد أنني سأتجاوز حدود الاعتدال في عرضي التفصيلي للروايات الشائعة عن هذه البلاد، التي تشكّل الصحراء الشطر الأكبر منها الآن؛ وعلى وجه العموم فإن لاكونيكا نفسها خالية من الناس الآن، إذا ما قورنت بالكثافة السكّانية التي كانت تتوفّر عليها في الأزمنة القديمة؛ فباستثناء إسبرطا، فإن عدد الأماكن هناك حوالي 30 فقط، بينما في الزمن القديم كانت تدعى كما يقولون، «بلاد المئة مدينة»، فقد كانوا يقيمون هنا احتفالاً سنوياً يقدّمون فيه ذبيحة من 100 ثور.

الفصل الخامس

1- يلي الخليج الميسيني الخليج اللاكوني الواقع بين تينار وماليوس الذي ينعطف قليلاً من الجنوب نحو الشرق؛ ثمّ تأتي ثيريدس، الجرف القائم الانحدار الذي تغسله الأمواج، وهي تقع في خليج ميسينا على بعد 130 مرحلة من تينار. وفوق ثيريدس يقع تايجيت، وهو جبل شاهق شديد الانحدار غير بعيد عن البحر؛ وتلامس أجزاؤه الشمالية سفوح الجبال الأركادية، فيتشكّل في الوسط واد، حيث تتجاور ميسينا مع لاكونيكا. وتحت تاريجيت إلى الأسفل، في وسط البلاد تقع إسبرطا، وأميكلا التي يقع فيها معبد أبوللون، كما تقع هنا أيضاً مدينة ثاريدا. وعلى هذا النحو تقع أرض مدينة إسبرطا في منطقة أكثر عمقاً[1]، مع أنها تضم جبالاً داخل حدودها؛ وعلى وجه العموم ليس فيها مستنقعات قط، على الرغم من أن ضاحيتها كانت مستنقعية في الأزمنة القديمة، وقد دعوها ليمنا؛ وكان معبد ديونيسيوس في ليمنا يقوم في مكان رطب، بينما تقع أساساته الآن في أرض جافة. وتقع على منحنى الشريط الساحلي: أولاً، تينار، وهي رأس بحرية تمتدّ داخل البحر وعليها معبد لبوسيدون يقوم في دغل؛ ثانياً، ثمّة كهف على مقربة تروي الأسطورة أن هرقل أخرج عبره كيربيريوس من هاديس. ومن هنا يمتدّ معبر نحو الجنوب يصل حتّى ثيكونت، رأس قورينا البحرية، ويبلغ امتداد هذا المعبر 3000 مرحلة؛ وهنا أيضاً معبر نحو الغرب يصل حتّى باخين، وهي رأس بحرية في صقليا، ويبلغ امتداد هذا المعبر 4600 مرحلة، مع أن بعضهم يرى أن هذا الامتداد 4000 مرحلة فقط؛ ونحو الشرق وصولاً حتّى ماليوس 670 مرحلة؛ وحتّى أونوغناتوس[2]، وهي شبه جزيرة منخفضة على هذا الجانب من ماليوس 520 مرحلة، وأمام أونوغناتوس وقبالتها على مسافة 40 مرحلة تقع كيثيرا، وهي جزيرة فيها ميناء رائعة ومدينة تحمل اسمها نفسه، وفي زمننا هذا جعل إيفريكلس حاكم اللاكيديمونيين منها ملكية خاصة له؛ وتنتشر حول كيثيرا كثرة من الجزر

الصغيرة، وثمّة واحدة بالقرب منها، أمّا الأُخر فأبعد قليلاً؛ وأقصر معبر يجري هنا حتّى كوريك، وهي رأس بحرية في كريت، يشكّل 700 مرحلة.

2- وبعد تينار، إذا أبحرت من أونوغناتوس وماليوس، تأتي مدينة بسامافونت، ثمّ أسينا وهيفيوس، ميناء إسبرطا الواقعة على بعد 240 مرحلة من إسبرطا. ويروى أنهم حفروا هنا محطة للسفن. ويأتي بعد ذلك إيفروت الذي يصبّ في الخليج بين هيفيوس وأكريبا. وحتّى يومنا هذا يجري الإبحار على طول الساحل ما يقارب 240 مرحلة، ثمّ تأتي منطقة مستنقعات فوق الخليج، وقرية تدعى هيلوس[3]. وحسب هوميروس أن هذه كانت في الأزمنة الخالية مدينة:

... عاشوا داخل أسوار أميكلا وفي هيلوس، المدينة الساحلية

(الإلياذا II، 584)

ويقال إن هيلوس بن برسيوس هو الذي بناها. ويقع هنا أيضاً، سهل يدعى سهل ليفكا؛ ثمّ تليه مدينة كيباريسيا الواقعة في شبه الجزيرة؛ وللمدينة ميناء؛ وتأتي بعد ذلك مدينة بويا ثمّ ماليوس والمسافة من أونوغنتاتوس إلى ماليوس 150 مرحلة. وثمّة في لاكونيكا مدينة تدعى أسوبوس.

3- ويقولون إنه يتعذر الكشف عن مكان وجود ميسا في أي مكان كان، وهي واحدة من المدن التي ورد ذكرها عند هوميروس في «سجل السفن»[4]، أمّا ميسويا فلم تكن جزءاً من البلاد، بل جزءاً من إسبرطا نفسها، مثلها مثل ليمنا [....][5]. ويرى بعضهم أن messe صيغة مختصرة لـ messene، لأنّ ميسينا، كما أسلفت القول[6]، كانت جزءاً من لاكونيكا أيضاً. ويسوق الكتّاب أمثلة على الصيغ المختصرة مأخوذة عن هوميروس: maps و kri, do [7] والمقطع التالي أيضاً:

وفي الأثناء كان البطل أفتوميدون والجبّار ألكيمـ ...

بدلاً من ألكيميدون؛ وعن هيسيود الذي يستخدم bri بدلاً من brithy وbriaron؛ وعن سوفوكليس وإيون- rha بدلاً من rhadion؛ وإيبيهارموس- li بدلاً من lian وsyraco بدلاً من syracusai؛ وإيمبيدوكلس[8]- ops بدلاً من opsis[9]:

ops كلاهما يغدو واحداً؛

وعند أنتيماخ:

الـ ops المقدّس لديميترا الإيليفسينية

وalphi بدلاً من alphiton؛ بل إن يوثوريون يستخدم hel بدلاً من Helos[10]؛

تأتي الإماء بالـ eri[11] الأبيض، وفي السلة يضعنه،

ويقول إراتوس peda بدلاً من pedalia[12]:

Peda ضدّ الريح:

ويقـول سـيموس Dodo بـدلاً مـن Dodona. أمّـا بـاقي الأمكنـة الـتي جـاء الشّـاعر علـى ذكرهـا، فبعضـها تـالف تمامـاً، وأخـرى بقيـت آثارهـا؛ وبـدّل فريـق ثالـث التسـميات: أفغيـوس[13] إلى إيغـي، لأنـه لم يعـد لأفغيـوس وجـود في لوكريـدا كلّهـا. وفيمـا يخـصّ لاسـوس، يـروى أن الديوسـكوري حاصـراها يومـاً واسـتوليا عليهـا، فلقبـا بعـد ذلـك باللابيرسيين[14]. وفي مكان ما يقول سوفوكليس:

أقسم باللابيرسيين، وبإيفروت، الإله الثالث

وبآلهة آرغوس وإسبرطا...

(مقطع 871، ناؤوك)

4- وبحسـب إيثـور أن الهيراقلـيين إيفريسـفين وبـروكليس قـد اسـتوليا علـى لاكونيكـا[15]، وقسـما الـبلاد إلى سـتة أجـزاء، وأسّسـا المدن، وانتقيـا جـزءاً مـن هـذه الأجزاء، وهو أميكلا، وقدماه للشخص[16] الذي سلمهما لاكونيكـا ونصـح حاكمها الذي كـان يملكها، بعد أن عقد معه اتفاقـاً، أن يمضـي مـع الآخيين إلى إيونيـا؛ وجعـل الهيراقليان من إسبرطا عاصمة لهما، وأرسلا إلى باقي الأجزاء ملوكـاً سمحـا لهم بسبب ضعف الكثافة السكّانية، أن يقبلوا أن يقيم بينهم الراغبـون مـن الغربـاء؛ وقـد اسـتغلا لاسوس محطة شراعية لأنها كانت تتوفّر على ميناء ملائمـة جـدّاً؛ واسـتخدما إيجيس نقطـة انطـلاق لتحركاتهمـا القتاليـة ضـدّ أعـدائهما (لأن منطقـة إيجـيس تجـاور منـاطق القبائـل الطرفيـة)؛ وجعـلا مـن ثاريـدا مقـراً للخزنـة، لأنهـا كانـت آمنـة مـن الأعـداء الخارجيين [....][17]. ومع أن القبائل المجاورة كلّها كانت خاضعة للإسبرطيين، إلا أنها كانت تحظى بالمساواة بحقوق المواطنية، وشغل المناصب العامّة في الدولة؛ وقد دعي هـؤلاء بـالإيللوت. ولكـنّ آجـيس ابـن إيفريسـفين سـلبهم هـذه المسـاواة وأمـرهم بتأديـة الإتاوات لإسبرطا؛ وعلى هذا النحو خضعت القبائل الأخرى كلّها ما عدا الإيليين الـذين كانوا يمتلكون هيلوس؛ لكنّ هؤلاء أخضعوا بعد انتفاضتهم، وسقطت مدينتهم عنوة في أثناء العمليات القتالية، وحكم على السكّان بالعبودية مع تحفظ معيّن لم يسمح بموجبه لسيّد العبد أن يمنحه حريته، أو يبيعه إلى خارج البلاد؛ وقد دعيت هـذه الحـرب حرباً ضدّ الإيللوت. ونحـن يمكننـا القـول، إن آجيس ومسـاعديه هـم مـن أنشـأ مؤسّسـة الإيللـوت الـتي بقيـت قائمـة حتّـى فرضـت رومـا سـيطرتها علـى الـبلاد، فاللاكيـديميون كانوا يـرون في الإيللوت عبيداً للدولـة، وقـد فرضـوا علـيهم الإقامـة في أمكنـة محـدّدة وتأدية أعمال محدّدة.

5- وفيما يتعلّق ببناء الدولة عند اللاكونيين، والتغيّرات التي حصلت عندهم، فإننا نستطيع أن نسقط من دائرة اهتمامنا كلّ ما روي عن ذلك من روايات معروفة، بيد أنه من المفيد أن نذكّر بشيء منها. فيقال مثلاً، إن الآخين الذين جاؤوا مع بيلوبس من ثتييوتيدا ونزلوا في البيلوبونيز قد سكنوا لاكونيكا، وقد أظهروا في أثناء ذلك من البسالة ما جعل البيلوبونيز التي كانت تدعى منذ القدم آرغوس، تدعى الآن آرغوس الآخية؛ ولم تكن البيلوبونيز وحدها التي حملت هذا الاسم، بل حملته على وجه الخصوص لاكونيكا؛ وعلى أي حال، فإن بعضهم يؤوّل قول الشاعر:

أين كان منيلايوس؟

(*الأوذيسا* III، 249)

هل كان في آرغوس الآخية؟

(*الأوذيسا* III، 251)

على النحو الآتي: «أو لم يكن في لاكونيكا»؟ ولكن لدى عودة الهيراقليين، وعندما خان فيلونوم البلاد وباعها للدوريين، نزح الآخيون من لاكونيكا إلى بلاد الإيونيين التي لا تزال حتّى يومنا هذا تدعى آخيا. وسوف أتحدّث عنهم لدى وصفي لآخيا[18]. وفي بادئ الأمر عاش سادة لاكونيكا الجدد حياة متواضعة، بيد أنهم بعد أن عهدوا إلى ليكورغوس ببناء الدولة، حقّقوا تفوّقاً على الآخرين جعلهم وحدهم من الإغريق الآخرين سادة في البر والبحر، وقد حافظوا على سيادتهم على الإغريق حتّى انتزعها منهم الطيبيون أولاً، ثمّ المقدونيون مباشرة بعد هؤلاء. ومع ذلك لم يخضعوا كلياً حتّى للمقدونيين، بل حافظوا على استقلالهم، ودأبوا يصارعون الإغريق الآخرين وملوك مقدونيا على زعامة العالم الإغريقي. وبعد أن هزم الرومان هؤلاء الأخيرين، ألحق اللاكيديمونيون إهانات بسيطة بالقضاة الذين كان يرسلهم الرومان إلى هناك، لأنهم كانوا عندئذٍ تحت سلطة التيران وكانت بنية دولتهم سيّئة؛ وبعد أن أعادوا بناء قواهم، عادوا ليحظوا بالاحترام من جديد وبقوا أحراراً لا يؤدون أي إتاوات، ما عدا الالتزامات التي كانوا يأخذون على عاتقهم تأديتها بملء إرادتهم. لكنّ إيفريلكس أثار سخطهم بسلوكه الفظ واستغلاله السيّئ لصداقته مع قيصر لكي يدعم سلطته عليهم؛ ولكن سرعان ما أخمدت الاضطرابات[19]؛ واستسلم إيفريكلس لقدره[20]، أمّا ابنه[21] فلم يكن بالأصل يميل إلى مثل هكذا «صداقات»[22]. ونجح «اللاكونيون الأحرار»[23] بالحصول على دولة ذات بنية من النمط الجمهوري، لأنّ البيريئيكيين وكذلك الإيللوت[24]، أوّل من انحاز إلى الرومان عندما كانت إسبرطا تحت حكم التيرانية. ويقول غالانيكوس، إن إيفريسفين وبروكلس منحا إسبرطا بناء الدولة؛ لكنّ إيثور

يلوم غالانيكوس على هذا، ويقول إن هذا الأخير لم يأت على ذكر ليكورغوس في أي مكان، وينسب أعماله لأشخاص لا علاقة لهم بها. ويواصل إيثور قائلاً: على أي حال لم يبن الإسبرطيون معبداً إلا لليكورغوس، حيث يقدّمون فيه القرابين كلّ عام؛ ومع أن إيفريسفين وبروكلس هما اللذان أسّسا المدينة؛ إلا أن الإسبرطيين لم يمنحوهما حتّى شرف أن يدعى أحفادهما إيفريسفينيين وبروكلسيين؛ ولكن (بدلاً من هذا) دعي فريق من الأحفاد الملوك آجيسيين، نسبة إلى آجيس ابن إيفريسفين، ودعي الفريق الآخر منهم إيفريبونتيديين، نسبة إلى إيفريبونت ابن بروكلس؛ لأنّ آجيس وإيفريبونت كانا ملكين شرعيين، بينما اعتمد إيفريسفين وبروكلس على الغرباء لترسيخ سلطتهما؛ لذلك لم يمنح هذان الأخيران حتّى لقب «أرخيجيت»[25] الذي كان يمنح لكل من يؤسس مدينة. وبعد أن طرد بافسانيوس[26] بسبب كره الإيفريبونتيديين له، ألّف في منفاه خطاباً عن قوانين ليكورغوس (وكان هذا الأخير ينتمي إلى العشيرة التي طردت بافسانيوس) تحدّث فيه عن النبوءات التي لقنت لليكورغوس بخصوص أكثر قوانينه.

6- وفيما يتّصل بطبيعة إقليمي لاكونيا وميسينا، ينبغي أن نقر بما قاله عنهما يوريبيدس في المقاطع التالية، فعن لاكونيا قال:

فيها كثير من أراضي الحراثة، والعمل ليس سهلاً فيها
تقع عميقاً بين الجبال، إنها بلاد صخرية، لكنّها
عصية على غزوات الأعداء.

أما ميسينا فهي:

... خصيبة، ينابيع الري فيها لا عد لها،
ومراعي الثيران والأغنام وفيرة هناك،
ولا تجعل هبّات عواصف الشتاء منها بلاداً باردة،
ولا تضار منها مركبة ثيب

(مقطع 1083، ناؤوك)

وعندما يشير بعد قليل إلى رمي القرعة الذي أجراه الهيراقليون على البلاد، يقول، إن أوّل قرعة حكمت:

أن تكون الأرض اللاكونية الخصبة التربة، هي السيدة،

وحكمت القرعة الثانية بامتلاك ميسينا،

التي يعجز الكلام عن وصف جمالها؛

(مقطع 1083، ناؤوك)

ووصفتها القرعة الثالثة بهذه السمات نفسها. ولكن ينبغي ألا نوافق يوريبيدس عندما يقول، إن الحدّ بين لاكونيا وميسينا هو:

نهر باميس الذي يندفع نحو البحر،

(مقطع 1083، ناؤوك)

لأن هذا النهر يجري عبر وسط ميسينا، ولا يلامس لاكونيا المعاصرة في أي مكان. وليس يوريبيدس محقّاً عندما يزعم أن ميسينا تقع بعيداً عن طرق البحارة، بينما هي تقع على البحر، مثلها مثل لاكونيا؛ كما أنه يخطئ في تحديد حدود إيليدا:

بعيداً وراء النهر تقع إيليدا،

قريبة من زيوس،

(مقطع 1083، ناؤوك)

وإذا كان يقصد إلى إيليدا المعاصرة التي تتجاور مع ميسينا، فإن نهر باميس لا يلامس هذه المنطقة، كما لا يلامس لاكونيا؛ فهو، كما أشرت هنا، يجري عبر وسط ميسينا؛ أمّا إذا كان الشّاعر يقصد إلى كيلي إيليدا[27] القديمة، فإنه يبتعد عن الحقيقة أكثر بكثير، لأنه بعد عبور باميس، ينبغي عبور شطر صغير آخر من ميسينا، ثمّ كلّ منطقة الليبريين والماكستيين التي دعوها تريفيليا؛ ثمّ تأتي بيساتيدا وأوليمبيا، وبعد 300 مرحلة من هنا تقع إيليدا.

7- وبما أن بعض النقاد[28] يصفون لاكيديمون بأنها ketoessan، ويصفها بعضهم الآخر بأنها kaietaessan، فإن السؤال هو كيف ينبغي أن نفسر ketoessa. هل الكلمة مشتقة من kete[29] أم أن هذه الصفة تعني «الكبير»، وهو الاحتمال الأكثر قرباً من الحقيقة؟ أمّا كلمة kaietaessan فإن بعضهم يفسرها بمعنى «الغنية بالنعناع»، بينما يقول آخرون، إن kaietoi تسمية تطلق على الأخاديد التي تخلّفها الهزّات الأرضية في الأرض، وأنه من kaietoi تشتق kaietas، وهي كلمة يستخدمها اللاكيديمونيون بمعنى «السجن»، الذي يعدّ عندهم مكاناً ما كالكهف. بيد أن بعضهم يفضل أن يدعو مثل هذه الأماكن الكهفية kooi، ومن هنا جاء تعبير:

الوحوش oreskoioi[30]؛

ولاكونيا تتعرض فعلاً لهزّات أرضية متكررة؛ وبحسب بعض الكتاب إن بعض قمم تايجيت قد انقصمت فعلاً. وتقع هنا مقالع لنوع نفيس جدّاً من أنواع حجر المرمر: المقالع القديمة لمرمر تينار، في جبل تينار، ومنذ زمن قريب اكتشف بعض الناس مقلعاً واسعاً في جبل تايجيت، وقد لاقت سلعتهم هذه استحسان محبي البذخ من الرومان.

8- وقد أعطى هوميروس إشارة واضحة إلى أن البلاد والمدينة حملتا معاً اسم لاكيديمون (عندما أقول: «البلاد» فإني أضم ميسينا إلى لاكونيا). فعندما يتحدّث هوميروس عن الأقواس:

هذه القوس والسهام أهديت لأوديسيوس منذ
زمن بعيد في لاكيديمون، أهداه إيثيتوس بن
إيفريتوس عندما حل عنده ضيفاً،

(الأوذيسا XII، 13)

ثم يضيف بعد ذلك:

قابل واحدهما الآخر من قبل في ميسينا، حيث
كان عليهما أن يزورا معاً بيت أورتيلوخ...

(الأوذيسا XII، 15)

فإنه يقصد بذلك إلى البلاد التي تشكّل ميسينا جزءاً منها. ولذلك كان سياناً بالنسبة له أن يقول:

أهدي إليه عندما حل منذ زمن بعيد ضيفاً في
لأكيديمون،

أو: **قابل واحدهما الآخر من قبل في ميسينا**

فمن هذا المقطع يتّضح أن ثيرا كانت مسقط رأس أورتيلوخ.

وصل عابرا السبيل [تيليماخ وبسيستراتوس] إلى ثيرا، حيث
كان ديوكليس النبيل.. ابن أورتيلوخ يملك فيها بيتاً...

(الأوذيسا III، 488)

وثيرا تقع في ميسينا. ولكن حينما يقول هوميروس: بعد أن غادر تيلماخ ورفاقه ثيرا

يوماً كاملاً [رمحت الخيل] وعريش المركبة يهتز

(الأوذيسا III، 486)

ثم يضيف:

كانت الشمس في الأثناء قد غابت،
في المدينة الملكية لاكيديمون، التي تحتضنها الجبال[31]،
مضى الواصلون إلى بيت الملك منيلايوس، الأتريدس،

(الأوذيسا IV، 1-2)

فإنه ينبغي علينا أن نفترض أنه يقصد هنا إلى المدينة؛ وإلاّ فإنّ الشّاعر يتحدّث عن

وصـولهم إلى لاكيـديمون مـن لاكيـديمون، وعلـى أي حـال مـن غيـر المعقـول ألا يكـون مسكن منيلايوس في إسبرطا، وإذا لم يكن هناك، فإنه لأمر عبثي أن يقول تيليماخ:

أريد أن أزور إسبرطا وبيلوس الرملية.

(*الأوذيسا* II، 359)

ولكـنّ حقيقـة اسـتخدام هـوميروس لصـفة الـبلاد[32] تتنـاقض بوضـوح مـع وجهـة النظر هـذه، وأقسـم بزيـوس أنهـم سـوف ينسـبون هـذا إلى حريـة التصـرّف الشـعرية؛ لأنـه كان من الأفضل لو ضمت ميسينا لاكونيـا أو بيلـوس الخاضعة لسيطرة نسـطور، ولم تدرج في «سجل السفن» بصفتها لم تشارك في الحملة على طروادا.

الفصل السادس

1- بعـد ماليـا يـأتي خلـيج أرغوليـدا، ثـمّ الخلـيج الهيرميـوني؛ وإذا أبحـرت حتّـى سكيليبا يهيأ لك أن الأوّل يتّجه نحو الشرق تقريباً ونحو كيكلادا؛ أمّا الخليج الثـاني فيقـع شـرقي الأول ويمتـدّ حتّـى إيجينـا وإيبيـدافريا. ويشـغل اللاكونيـون بدايـة خلـيج أرغوليدا، ويشغل الآرغوسيون ما تبقى منه. ويقـع في المنـاطق التابعـة للاكـونيين: ديليـون المكرّس لأبوللون، وهو الاسم نفسـه الـذي تحملـه إحـدى منـاطق بيوتيـا، ومينويـا، وهـي قلعة تحمل الاسم نفسه الذي تحمله منطقـة في ميغاريـدا؛ وإيبيـدافروس ليميرا[1]، كمـا يقول أرتيميـدور. ولكـنّ أبوللـودوروس يلاحـظ، أن هـذه الإيبيـدافروس ليميرا تقـع قـرب كيـثيرا، وبسـبب مينائهـا الجيّـدة دعوهـا «ليمينيرا»، ثـمّ اختصـروا الاسـم إلى لـيميرا، وبذلك تغيّر اسمها. وسواحل لاكونيا بدءاً من ماليا مباشرة ولمسافة طويلـة، هـي سـواحل صخرية، لكنّ عليها محطات شراعية وموانئ. وعلى الشطر المتبقي مـن السـاحل مـوانئ ملائمة؛ وتقع قبالة هذا السـاحل كثرة من الجزر الصغيرة التي لا تستحقّ الذكر.

2- وتعود للآرغوسـيين مدينـة براسـي وتيمينـوس الـتي دفـن فيهـا تيمينـوس، وهنـا مكان آخر قبل تيمينوس يجري عبره نهر يدعى ليرنا، وهو الاسم عينه الذي يطلـق علـى المستنقع الذي يروى أنه يرتبط بأسطورة الهيدرا. وتقع تيمينوس فـوق البحـر علـى بعـد 26 مرحلـة مـن آرغـوس؛ ومـن آرغـوس إلى هيريـون 40 مرحلـة، ومـن هنـا إلى ميكينـا 10 مراحل. وتأتي بعد تيمينوس ناوبليا، وهي محطة شراعية للآرغوسيين؛ وقد اشـتق اسمهـا مـن الكلمـات «يصـلون بحـراً علـى متـون السـفن». ويـروى أن هـذا الاسـم شـكل باعثـاً للمؤلّفين المحدثين لتأليف أسطورة عن ناوبليوس وأبنائه، ولم ينس هـوميروس أن يـذكّر بهذا، لأنّ بالاميدس أدلى بكثير من الحكمـة والفطنـة، وأنـه قتـل ظلمـاً وغـدراً، كمـا

أفنى ناوبليوس كثيراً من الناس عند رأس كاثيروس البحرية. ولكن، عدّاك عن أن نسب ناوبليوس يحمل طابعاً أسطورياً، فإنه يخالف التسلسل الزمني أيضاً؛ وإذا افترضنا أنه ابن بوسيدون، فكيف أمكنه أن يكون في أثناء حرب طروادا، التي أدركها، ابناً لأميمونا؟[2]. وبعد ناوبليا مباشرة تأتي كهوف بنيتها كاللابيرينتيوم، وتدعى بالكهوف السيكلوبية[3].

3- وتأتي بعد ذلك الأماكن الأخرى، وبعدها مباشرة خليج هيرميونا؛ وبما أن هوميروس ينسب هذا الخليج إلى أرغوليدا، فمن الواضح أنه لزام عليّ أيضاً أن أؤكّد على هذا الجزء من وصف الرحلة. فالخليج يبدأ عند مدينة أسينا[4] الصغيرة. وبعد ذلك تأتي هيرميونا وتريزين، وإذا أبحرت على طول الساحل، فستلاقيك جزيرة كالافريا التي يبلغ محيطها 130 مرحلة، ويفصلها عن البرّ مضيق عرضه 4 مراحل.

4- بعد ذلك يأتي الخليج الساروني؛ بعضهم يدعوه بحراً، وبعضهم الآخر مضيقاً، ولذلك يحمل اسم البحر الساروني. والخليج الساروني اسم أطلق على المضيق كلّه، على الامتداد الذي يبدأ من البحر الهيرميوني والبحر الذي عند إيستم، والذي يتّصل ببحر ميرفوي وبحر كريت. وتتبع الخليج الساروني إيبيدافروس وجزيرة إيجينا الواقعة أمام إيبيدافروس، ثمّ كينكرييوس، وهي محطة الكورينثيين الشراعية الشرقية؛ وبعد إبحار طوله 45 مرحلة تصل إلى ميناء سيخنونت. ومن ماليا إلى هذه النقطة ما يقارب 1800 مرحلة على وجه العموم. وعند سيخنونت يقع ديوكليس[5]، وهو الجزء الأضيق من إيستم وفيه معبد بوسيدون الإيستمي. لكنّنا نترك الآن وصف هذه المناطق، لأنها تقع خارج حدود أرغوليدا، ونعود لكي نباشر وصف أرغوليدا.

5- وأذكّر بادئ ذي بدء بتنوّع المعاني الذي استخدم الشّاعر فيه اسم «آرغوس»، وليس الاسم بحدّ ذاته وحسب، إنّما مع الصفات التي رافقته كذلك، أي عندما يدعو آرغوس بآرغوس «الآخية»، و«الإياسية»، و«الهيبية»[6]، و«البيلاسغية» أو «الغنية بمراعي الجياد»[7]. لأنّ المدينة أولاً تدعى آرغوس:

آرغوس، هي إسبرطا [ذات الهضاب]...

(*الإلياذا* IV، 52)

الرجال الذين كانوا يعيشون في آرغوس،
الذين سكنوا تيرينث

(*الإلياذا* II، 559)

وثانياً، هكذا تدعى البيلوبونيز:

في آرغوس في بيتنا...

(الإلياذا I، 30)

لأن مدينة آرغوس لم تكن بيته[2]. وثالثاً، دعا اليونان كلّها باسم آرغوس؛ وهو في الأحوال كلّها يدعو الإغريق كلّهم أرغوليديين، تماماً كما يدعوهم دانائيين، وآخيين، ومع ذلك فإنّ الشّاعر يميّز بين الأسماء المتماثلة باستخدام الصفات، فقد دعا تساليا آرغوس البيلاسيغية:

الآن أحصي الرجال الذين كانوا يعيشون في آرغوس البيلاسيغية

(الإلياذا II، 681)

ودعا البيلوبونيز آرغوس الآخية:

إذا جئنا إلى آرغوس، إلى الطرف الآخي...

(الإلياذا IX، 141)

هل كان في آرغوس الآخية؟

(الأوذيسا III، 251)

وهنا يعني الشّاعر بهذا أن بين الأسماء التي دعي بها البيلوبونيزيون اسم الآخيين أيضاً. وهو يدعو البيلوبونيز «أرغوس الإياسية»:

لو رآك آخيو آرغوس الإياسية الآن...

(الأوذيسا XVII، 245)

وعلى وجه الخصوص بنيلوبي، لوجدتْ هناك مزيداً من الخطاب، فمن المستبعد أن يكون الشّاعر قد قصد بذلك إلى خطّاب من بلاد اليونان كلّها، إنّما عنى فقط الذين يعيشون على مقربة. ولكنّه يستخدم الصفتين: «غنية بمراعي الجياد»، و«هيبية» بالمعنى العام.

6- وفيما يتعلّق بتعبير «هلادا»، و«هللينيين»، و«بانهيللينيين»، فإن النقاد يختلفون. فثوكيديدس[9] يؤكّد أن هوميروس لم يتحدّث عن البرابرة في أيّ مكان، «لأن الهللينيين كانوا لا يزالون يدعون باسم مشترك واحد، خاص ونقيض لتسمية برابرة». أمّا أبوللودوروس فيقول، إن إغريق تساليا وحدهم كانوا يدعون هللينيين:

... المرميدونيين، والذين يدعون هللينيين.

(الإلياذا II، 684)

وبحسب قوله فإن هسيود وأرخيلوخ كانا يعرفان مع ذلك، أن الإغريق كانوا يدعون هللينيين وبانهللينيين أيضاً، لأنّ هسيود يقول عن بنات بريتوس، إن البانهللينيين سعوا لخطبتهنّ، وأرخيلوخ يقول:

كالبانهللينيين أجمعت الرزايا على فاسوس.

(مقطع 49، هيللر)

ويعترض آخرون زاعمين أن الشّاعر يذكر البرابرة أيضاً، لأنه في أقلّ تقدير، يتحدّث عن الكاريين، الناس الذين يتحدّثون لغة بربرية[10]، وعن الإغريق كلّهم بصفتهم هللينيين:

... عن الرجل

الذي ملأ بمجده هلاّدا وآرغوس؛

(الأوذيسا I، 344)

ومرّة أخرى:

إن كنت ترغب بزيارة آرغوس وتجول في هلاّدا.

(الأوذيسا XV، 80)

7- وهكذا فإن الشطر الأكبر من مدينة الأرغوليديين[11]، يقع في السهل، أمّا أكروبولها فهو لاريسا، وهي هضبة محصنة تحصيناً قوياً، ويقوم فوقها معبد لزيوس. وعلى مقربة من المدينة يجري نهر إيناخوس، وهو نهر جبلي صاخب ينبع من ليركييوس (جبل يقع قرب لينوريا في أركاديا)[12]. وكنت قد قلت سابقاً[13] عن منابعه التي ورد ذكرها في الأساطير، إنها اختلاق اختلقه الشعراء. وبدورها «آرغوس الخالية من المياه» تعدّ اختلاقاً أيضاً.

لقد خلق الآلهة آرغوس وفيرة الرطوبة[14]،

لأن البلاد تقع في وهدة تخترقها الأنهار وفيها مستنقعات وبحيرات، وفي المدينة وفرة من المياه التي تزوّدها بها كثرة من الآبار التي يصل مستوى الماء فيها إلى السطح. ويرى النقّاد سبب هذا الخطأ في البيت التالي:

سأعود مرهقاً بالخزي إلى آرغوس Polydípsion[15]

(الإلياذا IV، 171)

وقد استخدمت كلمة Polydípsion إمّا بدلاً من كلمة polypóthēton[16]، أو بدلاً من كلمة polyïpsion[17] بعد إسقاط الحرف d، بمعنى polýphthoron كما عند سوفوكليس:

وبيت البيلوبيدس polýphthoron[18] هنا؛

(إليكترا، 10)

فالكلمات proïápsai، وiápsai، وípsasthai تعني شيئاً ما بمعنى الهلاك.

لقد جرّب الآن وخفّ ليبيد[19] الآخيين

(الإلياذا II، 143)

وأبرقت[20] طراوة وجهها.

(*الأوذيسا* II، 376)

أودى[21] بهم إلى هاديس الحالكة.

(*الإلياذا* I، 3)

عدّاك عن هذا أن هوميروس لم يعن مدينة آرغوس (فآغاممنون لم يزمع العودة إلى هناك)، بل البيلوبونيز التي لا تعدّ بالتأكيد بلاداً «يضنيها الظمأ». وثمّة من يبقي على حرف d، ويؤوّل كلمة Polydípsion عن طريق إحداث خلل في ترتيب نظام الكلمات وكحالة اتصال مع حرف العطف de، بحيث يقرأ البيت على النحو الآتي:

سأعود مرهقاً بالخزي إلى poly d'ípsion آرغوس

أي سأعود إلى Aŕgosde polyipsion، حيث Aŕgosde بدلاً من eis Argos[22].

8- ومن الأنهار التي تجري عبر أرغوليدا، نهر إيناخوس، بيد أنّ هناك نهراً آخر في أرغوليدا، هو نهر إراسين. وينبع هذا النهر من ستيمفالوس في أركاديا؛ أي من البحيرة التي تدعى البحيرة الستيمفالية؛ فهناك كانت تعيش بحسب الأساطير، الطيور التي طردها هرقل بسهامه والدق على الرق؛ وتدعى هذه الطيور نفسها بالطيور الستيمفالية. ويقولون، إن إراسين يختفي تحت الأرض، ثمّ يظهر على سطحها بعد ذلك في أرغوليدا ويروي السهل. كما يدعى إراسين باسم أرسين أيضاً. وهناك نهر آخر يحمل الاسم عينه، وهو يجري من أركاديا نحو الساحل عند بورا؛ وهنا إراسين آخر، هو إراسين الإريتري، وكذلك في أتيكا عند برافورنوس. كما يرونك ينبوعاً عند أميمونا قرب ليرنا، وبحيرة ليرنا هي مسرح أحداث أسطورة الهيدرا، وهي تقع في أرغوليدا في منطقة ميكينا؛ وبسبب عمليات التطهير التي حصلت هناك شاع المثل القائل: «مصائب ليرنا». وعلى هذا النحو يتّفق الكتّاب على أن هذه المنطقة غنية بالمياه؛ مع أن المدينة نفسها تقع في منطقة تفتقر إلى المياه، ففيها كثرة من الآبار. وينسب حفر هذه الآبار إلى الدانائيدس، ومن هنا جاء، كما يقولون، بيت الشعر الآتي:

آرغوس العطشى جعلها أبناء دانائي وفيرة المياه،

(*هسيود، مقطع* 24، رجاخ)

ويضيف الكتّاب، إن أربعاً من الآبار أعلنت آباراً مقدّسة وحظيت بتبجيل خاص، إذ خلقت على هذا النحو تصوّراً بعدم وجود الماء حيث توجد وفرة منه.

9- وتقول الرواية إن دانائي هو الذي أسّس أكروبوليس الأرغوليديين ويبدو أنهم رأوا في دانائي هذا ملكاً أكثر سمواً من الملوك الذين سبقوه على هذه البلاد، إلى درجة أن البيلاسيغيس بحسب يوريبيدس:

الذين كانوا يدعون من قبل بيلاسيغيس
اتخذوا الدانائيدس اسماً لهم، فهو فرض
القانون في هلاّدا.

(مقطع 288، 7، ناؤوك)

ويقع قبر دانائي في وسط ساحة سوق الأرغوليديين، ويدعى باليئثوس. وأنا أظنّ أن مجد هذه المدينة هو الذي جعل البيلاسيغيس والدانائيدس، وكذلك الأرغوليديين، وباقي الإغريق كلّهم يتسمّون باسم دانائي. وحتّى الكتّاب الأحدث عهداً يتحدّثون عن الإياسيين، وآرغوس الإياسية، وعن آبيا والآبيدونيين، لكنّ هوميروس لم يذكر الأبيدونيين، وعلى أغلب الظنّ أنه عنى بكلمة apia[23]، البلاد البعيدة. ولكي نبرهن على أن الشّاعر عنى بآرغوس البيلوبونيز، يمكننا أن نضيف الأمثلة الآتية أيضاً:

يلينا الأرغوليدية،

(الأوذيسا IV، 296)

في أعماق آرغوس الشهيرة الجياد، هناك مدينة إيثيرا؛

(الإلياذا IV، 152)

و

عبر وسط آرغوس

(الأوذيسا I، 344)

و

بسلطة على جزر كثيرة وعلى آرغوس،
المملكة المترامية الأطراف

(الإلياذا II، 108)

وعند الكتّاب الأحدث عهداً أيضاً، يدعى السهل آرغوس، إلاّ أن هذا غير موجود عند هوميروس قط. ولكنّي أظنّ أن استخدام الكلمة بهذا المعنى، هو استخدام مقدوني أو تسالي.

10- بعد أن ورث خلفاء دانائي السيطرة على آرغوس، واتحد معهم الأميثاونديون الذين نزحوا من بيساتيدا وتريثيليا، لن نستغرب إذا كان هؤلاء بعد أن غدوا قبائل تربط بينها أواصر القرابة، قد قسموا البلاد إلى مملكتين، وجعلوا المدينتين الزعيمتين فيها عاصمتين (وأنا أعني هنا آرغوس وميكينا، مع أنهما كانتا تقعان قرب بعضهما بعض على مسافة لا تتجاوز 50 مرحلة)، وجعلوا هيريون[24] (قرب ميكينا) معبراً مشتركاً للمدينتين. وفي هذا المعبد تماثيل نحتها بوليكليتوس، وهي

من الوجهة الفنية أروع الأعمال على وجه الأرض، لكنّها من حيث القيمة والعظمة تقصر عن تلك التي نحتها ثيديوس. وبادئ ذي بدء كانت آرغوس أكثر قوّة وجبروتاً، لكنّ ميكينا حقّقت بعد ذلك مستوى أعلى من الازدهار بفضل نزوح البيلوبيدس إلى هنا؛ وعندما انتقلت المملكة كلّها إلى أبناء أتريوس تسلّم أكبرهم آغاممنون السلطة العليا، وإذ تقاطعت المصادفة السعيدة مع بسالة الرجل وشجاعته، امتلك آغاممنون إضافة إلى الأملاك السابقة، الشطر الأكبر من البلاد؛ وضمّ في غضون ذلك لاكونيا إلى أراضي ميكينا. وعلى هذا النحو نال منيلايوس لاكونيا، وأخذ آغاممنون ميكينا والمناطق الممتدّة حتّى كورينثوس، وسيكيون والبلاد التي كانت تدعى في ذلك الوقت بلاد الإيونيين والإيغياليين، وفيما بعد، الآخيين. ولكن بعد الحرب الطروادية، عندما دمّرت مملكة آغاممنون، تراجعت قوّة ميكينا وضعفت خاصة مع عودة الهيراقليين، لأنّ هؤلاء بعد أن امتلكوا البيلوبونيز، طردوا الحكّام السابقين، وأولئك الذين امتلكوا آرغوس، امتلكوا ميكينا بصفتها جزءاً لا يتجزّأ من الكلّ. وفي الزمن الحديث دمّر الأرغوليديون ميكينا تدميراً تاماً وسوّوها بالأرض بحيث يتعذّر الآن العثور حتّى على آثار مدينة الميكينيين. وبما أن هذا المصير المحزن حلّ بميكينا، فلا ينبغي أن نستغرب إذا كانت بعض المدن الخاضعة لآرغوس قد اندثرت الآن. ويحتوي «سجلّ السفن» على المدن الآتية:

الرجال الذين كانوا يعيشون في آرغوس،
الذين سكنوا تيرينث الحصينة،
ومدينة هيرميونا، وأسينا، الميناءين البحريين،
ومدن تريزينا، وإييون، وإيبيدافروس الوفيرة الأعناب،
والذين عاشوا في ماسيت، وإيجينا، الفتيان الآخيون
الشجعان.

(*الإلياذا* II، 559)

ومن بين المدن المذكورة هنا، كنت قد تحدّثت عن آرغوس فقط، وينبغي أن أصف الآن باقي هذه المدن.

11- فتيرينث على ما يبدو، شكّلت نقطة استناد لبريتوس، الذي أحاطها بالأسوار بمساعدة السيكلوب؛ وكان عدد السيكلوب 7 وقد دعوهم «ذوي الأيادي المنتفخة»، لأنّ مهنتهم كانت مصدر عيشهم الوحيد؛ وجاؤوا من ليكيا تلبية لدعوة وجّهت لهم. وربّما كانت الكهوف الواقعة قرب ناوبليوس والمنشآت التي بنيت فيها قد سميت باسمهم. ودعي أكروبوليس ليكيمنا باسم ليكيمنوس، وهو يقع على مسافة

تقـارب 12 مرحلـة عـن نـاوبليوس؛ لكنّـه الآن مـتروك مثلـه مثـل ميـديـيا الـتي تختلـف عـن ميدييا البيوتية؛ لأنّ الأولى مثل برونيا، بينما الثانية مثل تيغييا. وتجـاور ميـدييا بروسـيمنا [....][25]، ويقوم في هذه الأخيرة معبد لهيرا. ولكنّ الأرغوليديين خربوا العدد الأكبر من المدن التي عصتهم ولم تخضع لهم؛ أمّا السكّان فقد نزحوا من تيرينث إلى إيبيـدافروس، ومن ميدييا إلى غاليوس؛ وهجّر اللاكيديمونيون سكّان أسينا (وهي قرية في أرغوليـدا تقـع قـرب نـاوبليوس) إلى ميسـينا حيـث تقـع هنـاك مدينـة تحمـل اسـم أسـينا الأرغوليدية عينـه؛ فبحسـب مـا يقولـه ثيوبومبـوس، أن اللاكيـديمونيين بعـد أن اسـتولوا علـى شـطر كبير من أراضي القبائل الأخرى، أسكنوا فيها كلّ الفارين الذين لجؤوا إلـيهم. كمـا هـاجر إلى ميسينا أيضاً، سكّان ناوبليوس.

12- وهيرميونا واحدة من المدن المهمّة؛ ويشغل الذين يدعون بالغاليين[26] سـاحلها كلّه، وهؤلاء فئة من الناس تعيش على الأعمال البحرية. وتقـول الأسـطورة المعروفـة، إن في بـلاد الهيرميـونيين طريـق قصـيرة تقـود إلى هـاديس؛ ولـذلك لا يضـع هـؤلاء في أفـواه موتاهم قطعاً نقدية أجرة نقلهم[27].

13- ويـروى أن أسـينا [مثلـها مثـل هيرميونـا]، كـانـت مكـان إقامـة الـدريوبيين. وبحسب ما يفيد به أرسطو أن الأركـادي دريـوبس جـاء بهـم مـن ضـفاف سـبرخييوس إلى هنـا، أو أن هـرقل طردهـم مـن شـطر درويـدا الـذي يقـع عنـد بارنـاس. أمّـا رأس سـكيلييا البحرية الواقعة قرب هيرميونا، فيقال إنها دعيت باسم سكيلاّ ابنة نيسوس، ومن شـدّة حبّها لمينوس غـدرت هـذه الأخيرة بوالـدهـا، فرمـى بهـا في البحـر وحملتهـا الأمـواج ورمـت بجثتها على الشاطئ، وهنا كان قبرهـا. وكانت إيبونا قرية نهبها الميكينيون وجعلوا منهـا محطة شراعية لهم؛ وفيما بعد دمّرت تدميراً تاماً، وهي ليست الآن حتّى محطة شراعية.

14- أمّا تريزينا فهي مكرّسة لبوسيدون، وفي زمن ما كانـت تـدعى بوسـيدونيا تيمنـاً باسمـه؛ وهـي تقـع علـى بعـد 15 مرحلـة فـوق البحـر، وتعـدّ واحـدة مـن المـدن المهمّـة. وأمام مينائها التي تدعى بوغون، تقع كالافريا، وهـي جزيـرة صـغيرة يبلـغ محيطهـا 130 مرحلـة. ويقـوم هنـا ملجـأ مكـرّس لبوسـيدون؛ يقولـون إن هـذا الإلـه تبـادل مـع لاتونـا فأعطاها ديلوس بدلاً من كالافريا، كما تبادل أيضاً مع أبوللون فأعطـاه بيفـو[28] بـدلاً من تينار. وينقل لنا إيثور قول الكاهن المتنبّئ:

سواء بالنسبة إليك إن أقمت في كالافريا أو ديلوس

أو في بيفو المقدّسة أو تينار المفتوحة على الرياح.

لقد ارتبط بهذا المعبر شيء ما يشبه أمفيكتيونيا[29] سبع مدن كانت تشارك في

تقـديم قـرابين مشـتركة؛ وكـانـت هـذه المـدن هـي هيرميـون، وإيبيـدافروس، وإيجينـا، وأثينا، وبراسـي، وأوركـومين المينوية. ولكـنّ الأرغوليـديين كـانوا يـدفعون مسـاهمات عن سكّان ناوبليوس، بينما كـان اللاكيـديمونيون يـدفعون مسـاهمات عـن البراسـيين. لقد كـان تبجيل هـذا الإلـه عنـد الإغريـق عظيمـاً إلى درجـة أن المقـدونيين الـذين كـانـت سيطرتهم قد امتدت على المنطقة حتّى المعبد، قد أبقوا له إلى درجة ما، على حق حرمة اللجوء إليه وخافوا أن ينتزعوا بالقوة عن مذبحه الإيكيتيين[30] الذين كـانوا يهربون إلى كالافريا طلباً للجوء والحماية، وفي أقلّ تقدير لم يجرؤ آرخيوس وجنـوده أن يسـتخدموا القـوّة ضـدّ ديموسـفين، مـع أن انتيبـاتر كـان قـد أمـره أن يـأتي بـه حيـاً هـو والخطبـاء الآخـرين المـتهمين بجـرائم مماثلـة؛ لقـد حـاول آرخيـوس أن يقنـع ديموسـفين، لكنّـه لم يسـتطع، وهـدده ديموسـفين بأنـه سـينهي حياتـه بالسـمّ. وجـاء تريـزين وبيتفيـوس ولـدا بيلوبس، من بيساتيدا، فترك الأول بعده مدينة تحمل اسمه، أمّا الثـاني فقـد ورث عـرش أخيــه وغــدا ملكــاً. وأبحــر أنفــيس الحــاكم الســابق لهــذه المنطقــة منهــا، وأسّــس غاليكارناس، لكنّني سأتحدّث عن هذا في وصفي لكاريا وطروادا.

15- لقـد كـانـت إيبيـدافروس تـدعى سـابقاً إيبيكـاروس، فأرسـطو يقـول، إن الكـاريين كـانوا يملكونهـا كمـا كـانوا يملكـون هيرميونـا أيضـاً؛ ولكـن بعـد عـودة الهيراقليين سـكن فيها مع الكـاريين الإيونيون الذين رافقـوا الهيراقليين إلى آرغـوس مـن المـدن الأتيكيـة الأربـع. وليسـت إيبيـدافروس مدينـة مجهولـة، خاصـة بعـد ظهـور قـوّة أسـكليبوس العجيبية، فقد كـانوا يؤمنون بأن هـذا الرجل قادر على أن يشفي مـن شـتّى الأمراض، وكـان معبده مليئاً دائمـاً بالمرضـى، ولـوائح الاختيـار الـتي كـانـت تـدون فيهـا وسـائل المداواة، وكـانت هـذه موجـودة في كوسـوس كمـا في تريكـا. وتقـع إيبيـدافروس في منخفض الخليج الساروني، ومحيطها على طول الساحل 15 مرحلة، وهـي تتّجـه نحـو مشـرق الشـمس صـيفاً[31]. وتحـيط بالمدينـة حتّـى البحـر مباشـرة، جبـال عاليـة تجعلـها بطبيعتها مركزاً حصيناً. ويقع بين تريزين وإيبيدافروس موقع ميثانوس الحصين، وشـبه جزيـرة تحمـل الاسـم نفسـه، لكـنّ الاسـم يقـرأ في بعـض اللـوائح عنـد ثوكيـديـدس ميثونوس، كـاسم المدينة المقدونيـة الـتي فقـد فيليـب عينـه أثنـاء حصـارها. ولهـذا اخـتلط الأمر على بعض الكتّاب، كمـا يقول ديميـتري السـكيبسيسـي، فظنّـوا أن هـذه المدينـة كـانـت مدينـة ميثونـوس في تريزينيـا (الـتي اسـتنزل عليهـا اللعنـة مجنـدو البحـارة الـذين أرسلهم آغاممنون، كمـا يروى، بألا يرفع سـكّانها أسـواراً حولها إلى الأبـد)، فبحسـب رأيه أن هؤلاء لم يكونوا هم سكّان المدينة الذين رفضوا المشاركة في الحملة، فالـذين

فعلوا ذلك، بحسب ثيوبومبوس، هم سكّان المدينة المقدونية؛ إذ من المستبعد وفق رأيه، أن يعصي أمر آغاممنون أولئك الذين كانوا يعيشون على مقربة منه.

16- وإيجينا، هو اسم مكان في إيبيدافريا؛ وهو أيضاً اسم جزيرة تقع قبالة هذا الشطر من القارّة، وهذه هي الإيجينا التي يريد الشّاعر أن يتحدّث عنها في أبيات الشعر التي أوردناها منذ قليل[32]؛ ولذلك يكتب بعضهم:

... وجزيرة إيجينا

بدلاً من:

... الذين امتلكوا إيجينا،

(الإلياذا II، 562)

وهم على هذا النحو يقيمون فرقاً بين مكانين يحملان الاسم عينه. وعليه، هل تستحق هذه الجزيرة أن نقول عنها إنها واحدة من أشهر الجزر. فيروى أن إياكس والتابعين لسلطته ينتمون إلى هنا منشأ. لقد كانت هذه الجزيرة تسود على البحر يوماً، وقد نافست أثينا على الريادة في معركة سلامين البحرية أثناء الحروب الفارسية. ويقولون، إن محيط هذه الجزيرة يمتدّ على 180 مرحلة؛ وفيها مدينة تحمل اسمها عينه، وتتّجه نحو الجنوب الغربي، وتقع حولها أتيكا، وميغاريدا، والبيلوبونيز حتّى إيبيدافروس مباشرة؛ وتبعد الجزيرة ما يقارب 100 مرحلة عن كلّ من هذه الأقاليم؛ وتشاطئ ناحيتها الشرقية والجنوبية بحر ميرتوي وبحر كريت؛ وتنتشر حولها جزر صغيرة يقع كثير منها قرب البرّ، مع أن جزيرة بيلبا تقع بعيداً في عرض البحر. وأرض الجزيرة ترابية في العمق، وصخرية على السطح؛ وينسحب هذا على السهل خاصة؛ ولذلك فالبلاد كلّها محرومة من النباتات، مع أن الشعير ينمو فيها جيداً إلى حدّ ما. ويقولون، إن الإيجينيين لم يدعوا مرميدونيين لأنّ وباء قوياً اجتاح البلاد، كما تروي الأسطورة، فصلّى إياكس متوسلاً الآلهة أن يحوّلوا النمل[33] إلى بشر، بل لأنهم كالنمل يحفرون الأرض وينقلون التراب لينثروه على الصخر وتتوفّر لديهم بهذه الطريقة أراض زراعية، ولأنهم لكي يقتصدوا في استهلاك الآجر كانوا يسكنون في حفر. وفي الزمن القديم كانت إيجينا تدعى إينونا، والاسم عينه حمله ديموسان من ديموسات أتيكا؛ وكان أحدهما يقع على مقربة من إيليفثيرا:

.. مع إينونا

تشغل الحقول المجاورة ومع إيليفثيرا[34]؛

والآخر، هو أحد ديموسات المدن الماراثونية الأربع التي شاع عنها مثل يقول: لإينونا استجرّوا السيل الجبلي[35]. وقد استوطن هذه الجزيرة بعضهم إثر بعض كلّ من

الارغوليديين، والكريتيين، والإيبيدافريين، والدوريين؛ وفيما بعد وزّع الأثينيون أراضيها على مواطنيهم بالقرعة؛ وبعد أنتزع اللاكيديمونيون الجزيرة من الأثينيين، أعادوها إلى أصحابها السابقين. لقد أرسل الإيجينيون مستعمرين إلى كيدونيا في كريت، وبلاد الأمبريكيين. ويقول إيثور، إن ثيدون الإيجينية أوّل من سكّت النقود الفضية، لأنّ الجزيرة تحوّلت على حدّ قوله، إلى مركز تجاري، فبسبب شحّ التربة اشتغل سكّانها بالتجارة البحرية، فدعيت الخردوات «بالخردوات الإيجينية».

17- ويأتي الشّاعر على ذكر بعض الأماكن وفق الترتيب الذي هي عليه في واقع الحال:

... الساكنين في هيريا، في أوليدا الحجرية.

(الإلياذا II، 496)

الذين عاشوا في آرغوس... الذين سكنوا تيرينث الحصينة،
ومدينة هيرميونا ، وأسينا...
ومدن تريزينا، وإيبيون،

(الإلياذا II، 559)

لكنّه يتحدّث عنها أحياناً من غير ترتيب:

الرجال الذين سكنوا سخينوس وسكولوس...
وثيسبيا، وغريبيا...

(الإلياذا II، 497)

ويأتي على ذكر الأماكن مع ذكره للجزر في الوقت نفسه:

الرجال الذين سكنوا إيثاكا،
أبناء كروكيلييا...

(الإلياذا II، 632)

لأن كروكيلييا تقع في بلاد الأكارنانيين. وهنا أيضاً[36] يربط الشّاعر بين ماسيت وإيجينا، مع أن ماسيت تقع في أرغوليدا على البرّ. ولم يأت هوميروس على ذكر ثيرييا، مع أن الكتّاب الآخرين غالباً ما يذكرونها؛ فالصراع على ثيرييا أدّى إلى نشوب صراع مسلّح بين الأرغوليديين واللاكيديمونيين: 300 ضدّ 300[37]؛ وقد انتصر فيه اللاكيديمونيون الذين كان يقودهم أوثريادس. وبحسب ثوكيديدس أن هذا المكان يقع في كينوريا على الحدود المشتركة بين أرغوليدا ولاكونيا. وهيسوس أيضاً مكان معروف في أرغوليدا، وكذلك كينكرييا الواقعة على الطريق من تيغييا إلى آرغوس

عبر جبل بارفينيوس وجبل كريوبولس؛ ولكنّ هوميروس لا يعرفهما، كما لا يعرف ليركيبوس وأورنيوس، وهذه الأخيرة بلدة من بلدات أرغوليدا؛ وليركيبوس جبل يحمل الاسم نفسه الذي يحمله جبل آخر يقع على مقربة، والبلدة تحمل اسم أورنيوس التي تقع بين كورينثوس وسيكيون.

18- وعلى هذا النحو كانت آرغوس وإسبرطا، ولا تزالان حتّى الآن أهمّ مدن البيلوبونيز؛ وقد تحدّثوا عنهما كثيراً جدّاً، ولذلك لا أجد ضرورة في أن أسهب في الحديث عنهما، لأنّ هذا سيكون تكراراً لما قاله الكتّاب من قبل. لقد كانت آرغوس في الزمن القديم أكثر شهرة، ولكنّ اللاكيديمونيين حققوا فيما بعد تفوّقاً دائماً، وحافظوا على استقلالهم، ما خلا بعض الحالات التي ربّما ارتكبوا فيها بعض الهفوات[38]. والحقيقة أن الآرغوسيين لم يسمحوا لبيروس بدخول مدينتهم (لقد هلك أمام أسوار المدينة بضربة آجرّة رمتها على رأسه عجوز من أعلى السور)، لكنّهم وقعوا تحت سلطة ملوك آخرين؛ فانضمّوا بعد ذلك إلى الاتحاد الآخي ومع الآخيين دخلوا تحت سلطة روما؛ ولا تزال مدينتهم حتّى يومنا هذا المدينة الثانية من حيث الأهمية بعد إسبرطا.

19- وسأتحدّث بعد ذلك عن الأماكن المذكورة في «سجلّ السفن»، بصفتها تحت سلطة ميكينا وآغاممنون. تقول أبيات الشعر:

والذين كانوا يعيشون في ميكينا، المدينة المنظّمة جيداً،
وفي كورينثوس الغنية، وكليونا الباذخة التجهيز؛
والساكنون في مدينة أورنيوس؛ وأريثير السعيدة،
ومدينة سيكيون، حيث في الزمن الغابر ملك أدراستوس
سيّد ساحات الوغى؛
وأبناء هيبيريسيا كلّهم، وهونويسا ذات الصخور الشاهقة؛
والذين في بيللينا، والرجال الذين يقطنون حول إيغيون
على طول إيغيالوس كلّها وعبر هيليكا الشاسعة،

(*الإلياذا* II، 569)

لقد بادت ميكينا الآن ولم يعد لها وجود؛ وكان قد أسّس هذه المدينة برسيوس، الذي خلفه سفينيلوس، وخلف سفينيلوس إيفريسفيوس؛ وحكم هؤلاء ثلاثتهم في آرغوس أيضاً. وحسب الروايات أن إيفريسفيوس قاد حملة على الماراثون ضدّ أيولايبوس وأبناء هرقل ساعده فيها الأثينيون، لكنّه سقط في أرض المعركة؛ فدفن جسده في غارغيت، أمّا رأسه فقد احتزه أيولايوس ودفنه على حدة في تريكورينثوس عند نبع

ماكاريا على مقربة من طريق مطروقة. ويدعى هذا المكان الآن «رأس إيفريسفيوس». وانتقلت ميكينا لتصبح تحت سلطة البيلوبيديين الذين جاؤوا من بيساتيدا، ثمّ تحت سلطة الهيراقليين الذين امتلكوا آرغوس أيضاً. وبعد معركة سلامين البحرية، هاجم الأرغوليديون مع الكليونيين والتيغيين ميكينا، فدمّروها وسوّوها بالأرض ثمّ تقاسموا منطقتها فيما بينهم. وبما أن هاتين المدينتين تقعان بالقرب من بعضهما بعض، فقد دعاهما كتّاب التراجيديات باسم واحد، كما لو كانتا مدينة واحدة؛ ففي العمل الدرامي نفسه يدعو يوريبيدس المدينة عينها تارة ميكينا وتارة أخرى آرغوس، كما في «إيفجينيا»[39] و«أوريستوس»[40]، على سبيل المثال. وتقع مدينة كليونا على الطريق من آرغوس إلى كورينثوس، فوق تلّ تحيط به القرى من جهاته كلّها، والمدينة محصنة بشكل جيد، ولذلك أرى أن تسميتها «كليونا الباذخة التجهيز»، هي تسمية صحيحة تماماً. وهنا بين كليونا وفليونت تقع نيميوس، وأرض مقدّسة يقيم عليها الأرغوليديون وفق التقليد، الألعاب النيمية، كما كانت هذه الأرض المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة الأسد النيمي؛ وغير بعيد من هنا تقع بيمبينا. وتقع كليونا على بعد 120 مرحلة عن آرغوس، و80 مرحلة عن كورينثوس. وأنا نفسي تمعنت بالبلدة من فوق أكروكورينثوس.

20- لقد دعا هوميروس كورينثوس بالغنية بسبب تجارتها، بما أنها تقع على إيستم وتملك ميناءين تقود إحداهما إلى آسيا مباشرة، والأخرى نحو إيطاليا، وهذا ما يسهل تبادل السلع من البلدين اللذين يقع واحدهما بعيداً جدّاً عن الآخر. وكما كان مضيق صقليا غير ملائم للملاحة قديماً، كذلك كانت البحار المفتوحة غير ملائمة لها أيضاً، خاصة البحر الواقع وراء ماليوس بسبب الرياح المعاكسة، ومن هنا جاء المثل القائل:

إذ تتجاوز ماليوس، انس طريق العودة.

وعلى أي حال كان التجار الإيطاليون ومثلهم الآسيون، يفضلون إنزال بضائعهم هنا وتفادي الإبحار إلى ماليوس. أمّا رسوم إخراج البضائع من البيلوبونيز براً، وإدخالها إليها، فقد كان يحصلها القائمون على معبر إيستم. وقد بقيت هذه الحال بعد ذلك على ما هي عليه، لكنّ منافع أخرى جاءت الكورينثيين، لأنّ الألعاب الإيستمية التي كانت تقام هناك، كانت تستقطب حشوداً كبيرة من الناس. وقد شغل الباكخيادس، وهم سلالة بارزة كثيرة العدد، منصب رأس السلطة التيرانية في كورينثوس ما يقارب 200 عام، وأفادوا بهدوء من ثمار النشاط التجاري في البلاد؛ وعندما أطاح بهم كيبسيل، بات هو نفسه تيراناً، وتوارثت سلالته السلطة هنا على مدى ثلاثة أجيال؛ وتشهد التقدمة التي قدمها كيبسيل في أوليمبيا على مدى ثراء هذه السلالة: تمثالاً مهولاً لزيوس

مصنوعاً من الذهب المشغول. أمّا ديمارت الذي كان أحد الحكّام في كورينثوس، فقد حمل معه إلى تيرينيا، لدى فراره من الملاحقات المحلّية، ثروة طائلة مكنته من أن يغدو حاكماً للمدينة التي منحته اللجوء[41]، أمّا ابنه فقد غدا ملكاً على الرومان[42] وكان معهد أفروديت ثرياً إلى درجة أنه امتلك 1000 أمة - هيتيرا معبدية أهداها إليه رجال ونساء؛ وبفضل هؤلاء النسوة غدت المدينة غنية وكثيرة السكّان؛ فقباطنة السفن على سبيل المثال، كانوا ينفقون نقودهم هنا من غير حساب، ومن هنا جاء المثل القائل:

ليست طريق كورينثوس مفتوحة لأيّ كان.

ويروى في هذا السياق أن إحدى الهيتيرات ردّت على توبيخ إحدى النساء لها بأنها لا تحب العمل، ولا تنسج الصوف، فقالت: «أنا هكذا، ومع ذلك فقد نجحت خلال هذا الوقت القصير في أن أحطّم ثلاثة أنوال حياكة»[43].

21- وبحسب ما نقله هيرونيموس، وإيفدوكس وسواهما، وعلى أساس ما عاينته أنا ورأيته، فإن موقع المدينة التي أعاد الرومان بناءها منذ بعض الوقت، يبدو على النحو الآتي: جبل شاقولي عال ارتفاعه $3\frac{1}{2}$ مرحلة، ولدى الصعود حتّى 30 مرحلة ينتهي بقمّة حادّة تدعى أكروكورينثوس، جهته الشمالية هي الأكثر شاقولية؛ وفي الأسفل تقع المدينة في مكان مستو[44] على شكل معيّن عند سفح الأكروكورينثوس. وعلى هذا النحو بلغ محيط المدينة في زمن ما، قرابة 40 مرحلة، أمّا شطرها الذي لا يحميه الجبل، فقد أحيط بسور؛ بل حتّى جبل أكروكورينثوس نفسه كان محاطاً بحلقة من الأسوار شيّدت حيث كان ذلك ممكناً؛ فعندما صعدت الجبل كانت أطلال السور المحيط به ظاهرة للعيان. وعلى هذا النحو كان امتداد المحيط كلّه حوالي 80 مرحلة. والجبل من جهاته الأخرى أقلّ انحداراً، لكنّه يرتفع هنا أيضاً إلى مستويات عالية ويرى من كلّ مكان. ويقوم على قمّة الجبل معبد صغير لأفروديت؛ ويجري تحت القمة ينبوع يدعى بيرينا، ومع أنه لا مسيل له، إلا أنه مليء دائماً بمياه نقية صافية صالحة للشرب. ويقال إن نبعاً انبجس في سفح الجبل نتيجة لضغط مياه هذا النبع نفسه وبعض التجمّعات المائية الجوفية الأخرى، وهذا النبع هو النبع الذي يصبّ في المدينة، ويزوّدها بكمية وافرة من الماء. وعلاوة على ذلك تنتشر في المدينة كثرة من الآبار، وكذلك في الأكروكورينثوس كما يقولون؛ لكنّني لم أرها أنا بعيني. وعلى أي حال، عندما يقول يوريبيدس:

من موجة المدينة التي تغتسل حول أكروكورينثوس،
من تلّ أفروديت المقدّس أتيت،

(مقطع 1084، ناؤوك)

فإن صفة «تغتسل حول» ينبغي أن تفهم إمّا بمعنى المياه التي في جوف الجبل، لأنّ الآبار والينابيع الجوفية تمرّ عبره، أو ينبغي أن نفترض، أن بيرينا خرج في الزمن القديم إلى سطح الأرض وكان يروي الجبل. ويروى أن بيلليروفونت أمسك هنا بالحصان المجنح بيجاسوس عندما ورد الماء، وكان بيجاسوس قد قفز من عنق الميدوزا عندما قطعت رأسها. ويروى أيضاً، أن هذا الحصان عينه أخرج هيبوكرينا[45] إلى سطح الأرض على جبل هيليكون، إذ ضرب بحافره صخرة كانت موجودة تحت الجبل. وعند قدم بيرينا يقع سيزيفوس الذي يحافظ على أطلال مهمّة لمعبد ما، أو لقصر ملكيّ ما مبنيّ من حجر المرمر الأبيض. وإذا اتّجهت بنظرك من أعلى القمة شمالاً، يمكنك أن ترى الخليج الكريسي عند سفحيّ الجبلين تحيط به ثوكيدا، وبيوتيا، وميغاريدا، وأجزاء من منطقتيّ كورينثوس وسيكيون الواقعتين على ذلك الجانب من الخليج قبالة ثوكيدا نحو الغرب[46]. وترتفع فوق هذه البلدان[47] كلّها، جبال تدعى جبال أونيييوس[48]، التي تمتدّ من صخور سكيرون حتّى بيوتيا وكيثيرون، أي من الطريق التي تسير على طول هذه الصخور إلى أتيكا.

22- ويبدأ الشاطئ من الجانبين عند ليكيوس من جهة، وكينكرييوس من الجهة الأخرى، وتبعد القرية والميناء حوالي 70 مرحلة عن كورينثوس. والميناء مركز سكّاني مأهول تنقل البضائع عبره من آسيا، وعبر ليكيوس من إيطاليا. وتقع ليكيوس تحت المدينة بقليل، وليس فيها سوى بضع منازل سكنية؛ وعلى جانبيّ الطريق التي تقود إلى ليكيوس بنوا جدارين يقارب طولهما 12 مرحلة. ويمتدّ الشاطئ من هنا إلى باغي في ميغاريدا مشاطئاً خليج كورينثوس؛ وهو مجوّف ويشكّل مع الشاطئ المقابل عند سخينونت الواقعة قرب كينكرييوس، ديوكلس[49]. وبين ليكيوس وباغي كان يقوم في الزمن القديم مقرّ كاهن هيرا الأكريسية المتنبّئ، وتقع هنا أيضاً أوليميوس، وهي رأس بحرية تشكّل خليجاً، حيث تقع إينويا وباغي؛ وهذه الأخيرة هي حصن الميغاريين، أمّا إينويا فهي حصن الكورينثيين. وبعد كينكرييوس تأتي سخينونت حيث يقع القسم الضيّق من البرزخ- ديوكلس؛ ثمّ تأتي كروميّونيا. ويقع أمام هذا الشاطئ، الخليج الساروني والخليج الايليفسيني الذي يندغم إلى حدّ ما بالخليج الأول ويجاور الخليج الهيرميوني. ويقع على إيستم معبد بوسيدون الإيستمي تحت ظلال دغل من شجر الصنوبر، وهنا كان الكورينثيون يقيمون الألعاب الايستمية. وكروميوس بلدة في منطقة كورينثوس، مع أنها في الزمن القديم كانت تقع في ميغاريدا، وقد كانت المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة خنزيرة كروميّون التي كانت بحسب الأسطورة، والدة الخنزير الكاليدوني، وحسب الخرافة أن قتل هذا الخنزير كان

واحدة من مآثر ثيسيوس. وتينيا بدورها واحدة من بلدات منطقة كورينثوس، حيث يقع معبد أبوللون التينيّ؛ ويروون كذلك أن أكثر المستعمرين الذين تبعوا آرخيوس الذي أسّس مستعمرة في سيراكوزا، كانوا من هنا؛ وبعد ذلك حقّقت تينيا ازدهاراً أكبر من ذلك الذي عرفته البلدات الأخرى؛ بل لقد حظيت في آخر الأمر ببنية دولة مستقلّة. وبعد أن انفصلت عن الكورنثيين، انضمّت تينيا إلى الرومان، وبقيت على قيد الحياة حتّى بعد أن دمّرت كورينثوس، ويذكّرون أيضاً بإحدى نبوءات المتنبّئ لأحد الأشخاص الآسيويين[50] الذي سأل: أليس من الأفضل له أن ينتقل للإقامة في كورينثوس:

سعيدة كورينثوس، لكــنّي فلأبق تينياتياً.

ويحرّف بعضهم هذه الكلمات عن جهل لتصبح على النحو الآتي: «فلأبق تيجياتياً إذن». ويقولون، إن بوليب ربّى أوديب هنا. وقد تكون هناك صلة قرابة بين التندوسيين والتينياتيين عبر ثينّوس بن كيكنوس، كما يقول أرسطو[51]؛ ويعدّ التشابه في عبادة أبوللون لدى القبيلتين، دليلاً مهماً يدعم صحّة وجود مثل هذه الصلة.

23- عندما كان الكورينثيون تحت سلطة فيليب[52]، لم يكتفوا بالمشاركة إلى جانبه في نزاعاته مع الرومان، بل هم أنفسهم كانوا يكنون للرومان قدراً من الاحتقار وصل عند بعضهم إلى درجة أنهم كانوا يوجهون الشتائم إلى السفراء الرومان عندما كان هؤلاء يمرون بالقرب من منازلهم. ولكنّ مثل هؤلاء كانوا ينالون عقابهم في اللحظة عينها على مثل هذه الإهانات وغيرها، لأنّ الرومان أرسلوا ضدّهم قوّات كبيرة، وقد دمّرت المدينة نفسها تدميراً تامّاً على يديّ لوسيوس موميوس[53]؛ ووقعت البلدان الأخرى كلّها وصولاً إلى مقدونيا تحت سلطة الرومان؛ وكان هؤلاء يرسلون مختلف القادة العسكريين إلى مختلف البلدان؛ وكان السيكيونيون قد امتلكوا الشطر الأكبر من منطقة كورينثوس. ويلاحظ بوليبيوس في وصفه للأحداث التي ارتبطت بالاستيلاء على كورينثوس، مبدياً في أثناء ذلك أسفه على الاحتقار الذي تعامل به الجنود الرومان مع الأعمال الفنية والتقدمات التي كانت مكرّسة في المعابد. فقد قال إنه رأى بأمّ عينه اللوحات مرمية على الأرض والجنود يلعبون فوقها النرد. ويذكر بين تلك اللوحات واحدة رسمها أريستيد تصوّر ديونيسيوس، وبحسب بعض الكتّاب أن المثل القائل: «لا شيء يقارن بديونيسيوس»[54] قد قيل بهذه اللوحة؛ كما يذكر بوليبيوس أيضاً لوحة «آلام هرقل في رداء ديانيرا». بيد أنني لم أر هذه الأخيرة، لكنّني شاهدت ديونيسيوس، وهي العمل الأروع المعروض في معبد سيريس في روما؛ ولكنّ اللوحة هلكت عندما التهم حريق المعبد منذ بعض الوقت[55]. وأكثر التقدمات الأخرى التي جاءت إلى روما كان أعظمها وأكثرها ينتمي إلى كورينثوس؛ كما

امتلكت المدن المجاورة لروما بعض الأعمال الأخرى، لأنّ موميوس الذي كان رجلاً سخياً أكثر منه محبّاً للفنّ كما يقولون، كان يتنازل بسهولة عن مثل هذه الأعمال لمن يطلبها منه. وعندما بنى لوكولا معبد فورتونا والرواق، استأذن موميوس أن يستخدم التماثيل التي كان يملكها ليزين المعبد بها قبل تكريسه، ثمّ يعيدها إليه بعد ذلك، لكنّه لم يعد التماثيل، بل كرّسها تقدمة للآلهة وقال لموميوس: انتزعها منها إن شئت. لكنّ موميوس لم يبد أيّ اهتمام، لذلك نال احتراماً أعظم من ذلك الذي ناله من بنى المعبد وكرّسه. وبعد ذلك بقيت كورينثوس مدينة مهجورة لزمن طويل. ولكنّ قيصر الإلهي أدرك أهمية موقع المدينة[56]، فأعاد بناءها بمستعمرين أكثرهم من المعتوقين. وعندما رفع المستوطنون الجدد الأنقاض وحفروا المقابر، عثروا على كثير من المصنوعات الطينية التي تغطيها صور جانبية، كما عثروا أيضاً على آنية برونزية. وقد دفعهم الإعجاب الشديد بتلك المصنوعات إلى حفر مقابر المدينة واحداً واحداً؛ فاستخرجوا كثيراً من مثل هذه المصنوعات وباعوها بأسعار عالية، وملؤوا روما بما سمّوها «نيكروكورونثيات»[57]، خاصة الآنية الطينية. وفي بادئ الأمر ثمّنوا الأواني الطينية عالياً جدّاً، فكانت على مستوى المصنوعات الكورنثية البرونزية، لكنّ الطلب عليها ما لبث أن تراجع، لأنّ لقى المصنوعات الطينية توقّفت، زد إلى هذا أن أكثرها كان مصنّعاً بشكل رديء. لقد كانت مدينة الكورينثيين دائماً مدينة عظيمة وغنية فعلاً، فكان فيها كثير من رجال الدولة ذوي الخبرة والكفاءة، وكثير من الحرفيين أصحاب المهارات العالية، لأنّ فنّ الرسم والنحت وسواهما من الحرف المشابهة، قد بلغت هنا وفي سيكيون درجة عالية من التقدّم والازدهار. ولم تكن تربة منطقة كورينثوس خصبة[58]، فقد كانت متعرّجة وصخرية، ومن هنا دعوا كورينثوس «بالمتغضّنة» وشاع المثل القائل:

قطّبت كورينثوس حاجبيها وامتلأت
بالترّهات.

24- ودعيت أورنيوس باسمها هذا على اسم النهر الذي يجري على مقربة. والمدينة اليوم مهجورة، مع أنها كانت تعجّ بالسكّان من قبل؛ وكان يقوم هناك معبد مبجّل لبرياب، ولدى يوثرونيوس مؤلّف «البريابيات»[59]، الذي يدعو فيه هذا الإله أورنيوسياً. وتقع أورنيوس فوق سهل السيكيونيين، أمّا البلاد فقد كان يملكها الأرغوليديون. أمّا إريثيريا فهي بلاد تدعى اليوم فلياسيا؛ وعلى مقربة من جبل كيلوسّا تقع مدينة تحمل اسم البلاد عينه؛ وفيما بعد نزح السكّان من هناك وأسّسوا على بعد 30 مرحلة مدينة دعوها فليونت. ويعدّ جبل كارنياس جزءاً من جبل كليوسّا، ومن

الأول ينبع أسوبوس، النهر الذي يجري بالقرب من منطقة سيكيون ويشكّل منطقة أسوبوس التي تشكّل جزءاً من سيكيونيا. وثمّة أسوبوس آخر يجري على مقربة من طيبة، وبلاتيوس، وتاناغرا، وهناك أسوبوس ثالث في هيراقليا التراخينية يجري قرب قرية تدعى باراسوبيا، ويوجد اسوبوس رابع في جزيرة باروس. وتقع فليونت في وسط دائرة تشكّلها منطقة سيكيون، وأرغوليدا، وستيمفالوس. وفي فليونت وسيكيون معبد مبجّل لديا؛ وهو الاسم الذي تدعى به غيبا هنا.

25- في الأزمنة السابقة كانت سيكيون تدعى ميكونا، وقبل ذلك دعيت إيغيالا؛ وكان ديميتري[60] قد بناها من جديد على هضبة حصنتها الطبيعة جيداً، وتقع على بعد 30 مرحلة (بعضهم يقول 12 مرحلة) عن البحر، أمّا القرية القديمة ومرساها، فهما الآن محطة شراعية. ويشكّل نهر نيمييا الحدود بين منطقتيّ سيكيون وكورينثوس. وعلى مدى زمن طويل جدّاً كان الحكم في سيكيون تيرانياً، لكنّ التيران الذين حكموا هنا كانوا أشخاصاً عقلانيين ومتنوّرين؛ وكان أراتوس التيران الأبرز بينهم؛ فقد منح المدينة حريتها[61]، بل وتزعّم الآخيين الذين منحوه السلطة عليهم طوعاً بإرادتهم؛ لقد رسّخ أراتوس الاتحاد الآخي وقوّاه بضمّ مدينته الأمّ وباقي المدن المجاورة إليه. ولكنّ هيبيريسيا والمدن التي تليها، وهي المدن التي يذكرها هوميروس، إضافة إلى إيغياليوس وصولاً إلى ديما والأطراف الإيليية كانت قد باتت للآخيين.

الفصل السابع

1- في الزمن القديم كانت هذه البلاد تحت حكم الإيونيين المنحدّرين من الأثينيين؛ وقد دعيت قديماً إيغياليا، ودعي سكّانها إيغياليين؛ ثمّ حملت بعد ذلك اسم الإيونيين وباتت تدعى إيونيا، وكذلك أتيكا، نسبة إلى إيون ابن كسوثوس. ويقولون، إن هللين كان ابن ديفكاليون وسيّد قبائل تسكن بين بينييوس وأسوبوس؛ وقد منح السلطة عليها لابنه الأكبر، وأرسل الآخرين إلى أماكن شتّى خارج حدود البلاد ليجد كلّ منهم مكاناً يبني فيه مستوطنته. فوحّد ابنه دوروس الدوريين الذين كانوا يسكنون عند بارناس؛ وأسّس ابنه كوثوس الذي تزوّج ابنة أريختيوس، المدن الأربع في أتيكا: إيونيا، وماراثون، وبروبالينث، وتريكورينثوس. لكنّ أحد أبناء كسوثوس، المدعو آخيوس، ارتكب عن غير قصد، جريمة قتل، فهرب إلى لاكيديمون، وأعطى السكّان المحلّيين اسم الآخيين، أمّا إيون فبعد أن انتصر على التراقيين الذين كانوا تحت سلطة إيفمولبوس، حظي بشهرة واسعة دفعت الأثينيين لكي يعهدوا إليه بإدارة

شؤون بلادهم. وفي بادئ الأمر قسم الشعب إلى أربع قبائل، ثمّ إلى أربع فئات مهنية: فلاحين، وحرفيين، وكهنة، وحراس. وكان في البلاد حينئذٍ فيض سكّاني كبير، الأمر الذي اضطر الأثينيين إلى إرسال مستعمرين إيونيين إلى البيلوبونيز، فدعا هؤلاء البلاد التي استولوا عليها، إيونيا، على اسمهم، بدل اسمها الأصلي إيغيالوس؛ وقد توزّع الوافدون على 12 مدينة وباتوا يدعون إيونيين بدلاً من إيغياليين. ولكنّ الآخيين طردوهم بعد عودة الهيراقليين، فعادوا أدراجهم إلى أثينا؛ ومن هنا أرسلوا مع الكودريدس مستعمرة إيونية إلى آسيا وأسّسوا فيها 12 مدينة على ساحل كاريا وليدا، وانقسموا إلى عدد الأقسام نفسه والمدن نفسها التي شغلوها في البيلوبونيز. ومن حيث المنشأ كان الآخيون ثتيوتيين، لكنّهم عاشوا في لاكيديمون؛ وعندما امتلك الهيراقليون البلاد، حرضهم تيسامين ابن أوريستوس (كما قلت آنفاً)[1] على مهاجمة الإيونيين؛ وإذ ظهر أن الآخيين أقوى من أعدائهم، فقد طردوهم وامتلكوا البلاد؛ وابقوا على التقسيم نفسه الذي وجدوه فيها. لقد كانت قوة الآخيين عظيمة إلى درجة أنهم على الرغم من انفصالهم عن الهيراقليين الذين سادوا على باقي البيلوبونيز، واجهوا الآخرين كلّهم لوحدهم وأعطوا البلاد اسمهم، إذ باتت تدعى آخيا. وعلى هذا النحو بقي هؤلاء تحت حكم الملوك بدءاً من تيسامين حتّى أوجيجيس؛ وبعد ذلك حقّقوا في ظل الحكومة الديمقراطية شهرة ببناء دولتهم بلغت حداً جعل الإيتاليوتيين يقتبسون عنهم، بعد انتفاضتهم ضدّ الفيثاغورسيين، القسم الأكبر من قوانينهم. وبعد معركة ليفكترا[2] عهد إليهم الطيبيون بحلّ النزاعات بين المدن، وفيما بعد، بعد أن دمّر المقدونيون اتحادهم، أعادوا بناءه من جديد رويداً رويداً. فعندما قاد بيروس حملته إلى إيطاليا[3]، عقدت أربع مدن بينها باترا وديما اتحاداً جديداً فيما بينها، ثمّ أخذ هؤلاء يضمّون إلى اتحادهم بعضاً من المدن الاثنتي عشرة ما عدا أولين وهيليكا؛ فالأولى رفضت الاتحاد، والثانية دمّرتها أمواج البحر[4].

2- فنتيجة لهزّة أرضية ارتفع البحر وأغرق هيليكا ومعها معبد بوسيدون الهيليكوني الذي لا يزال الإيونيون يبجلوله حتّى يومنا هذا، ففيه[5] يقدّمون ذبائح إيونية مشتركة. ويظنّ بعضهم إن هوميروس أيضاً يأتي على ذكر هذه الذبائح إذ يقول:

كان يئنّ وهو يسلّم روحه، كالثور الأسود
يجأر في أرجاء مذبح الإله الهيليكوني الجبّار
والشبان يجرونه عنوة.

(الإلياذا XX، 403)

ويستنتجون من هذا أن الشّاعر قد عاش بعد زمن الاستعمار الإيوني، لأنه يذكر الذبيحة الإيونية المشتركة التي كان الإيونيون يقدّمونها تكريماً لبوسيدون الهيليكوني في منطقة البريينسيين؛ فهؤلاء أنفسهم يتحدّرون من هيليكا، على حدّ قول بعضهم؛ وهم فعلاً يختارون «ملكاً» لهذه الذبيحة شاباً من بريينا ليتابع دقّة تأدية الطقوس المقدّسة. وما يؤكّد هذا الزعم أكثر، هو أن الشّاعر يتحدّث عن ثور؛ فالإيونيون يظنّون أن الآيات المناسبة التي تظهر تبعاً لهذه الذبيحة، لا تظهر إلا إذا أطلق الثور المقدّم ذبيحة جئيراً. وينقل الذين لا يوافقون على هذه الفرضية، الرواية التي وردت هنا عن الثور والذبيحة التي تقدّم في هيليكا، وأن الشّاعر اقتبس مقارنته عن الطقوس التي تقام هنا. لقد غرقت هيليكا قبل عامين من وقوع معركة ليفكترا[6]. فإيراتوسفين يقول، إنه رأى هذا المكان بنفسه، وإن النوتية رووا له أن تمثال بوسيدون البرونزي لا يزال قائماً حتّى الآن في المضيق حاملاً بيده هيبوكامبوس[7] الذي يتوعّد الذين يصيدون الأسماك بالشبكات. أمّا هيراقليدس فيقول إن الكارثة وقعت في زمنه ليلاً؛ مع أن المدينة كانت تبعد 12 مرحلة عن البحر، إلا أن الأمواج غمرت هذه المنطقة كلّها ومعها المدينة؛ وأن الألفي شخص الذين أرسلهم الآخيون قد عجزوا عن جمع الجثث؛ وقد قسموا أرض هيليكا بين الجيران. لقد حدث الفيضان الغامر نتيجة لغضب بوسيدون؛ لأنّ الإيونيين الذين طردوا من هيليكا، أرسلوا يتوسلون سكّان هيليكا أن يعيدوا لهم تمثال بوسيدون، أو في أقل تقدير نموذجاً [صورة] للمعبد؛ وعندما رفض الهيليكيون تلبية مطلبهم، أرسل الإيونيون سفراء إلى الاتحاد الآخي؛ ومع أن الاتحاد استجاب لطلب الإيونيين، إلا أن الهيليكيين رفضوا الانصياع. وفي الشتاء الذي تلا حلّت بهم الكارثة المذكورة؛ وفيما بعد أعطى الآخيون نموذج [صورة] المعبد للإيونيين. ويذكر هسيود هيليكا أخرى في تساليا.

3- وعلى مدى 20 عاماً[8] كان للآخيين سكرتير عام واستراتيجيان يجري انتخابهما كلّ عام؛ وكان مجلسهم العام يعقد في مكان واحد (كان يدعى أماريون)، حيث كانوا، كما كان الإيونيون من قبل، يبحثون شؤونهم الاجتماعية؛ ثمّ قرروا فيما بعد أن ينتخبو إستراتيجياً واحداً. وعندما كان الإستراتيج هو أراتوس، انتزع من أنتيغون[9] أكروكورينثوس وضمّ مدينة كورينثوس إلى الاتحاد الآخي، وكذلك مدينته الأم، كما ضمّ الميغاريين؛ وبعد أن يقضي على النظام التيراني في كلّ مدينة، كان أراتوس يجعل من سكّانها المحررين أعضاء في الاتحاد الآخي. كما حرر البيلوبونيز من أنظمة الحكم التيرانية، فانضمّت آرغوس، وهيرميونا، وفليونت، وميغالوبوليس، أكبر من أركاديا، إلى الاتحاد، عندها بلغ الاتحاد قمة جبروته. وقد

كان ذلك في الوقت الذي طرد الرومان فيه القرطاجيين من صقليا[10]. وشنوا حملة على الغلاطيين[11] الذين كانوا يسكنون في حوض نهر باد. ومع أن الاتحاد الآخي بقي راسخاً حتّى إستراتيجيّة فيلوبومين، إلاّ أنه تداعى شيئاً فشيئاً، لأنّ الرومان كانوا قد استولوا عندئذٍ على اليونان كلّها؛ وكان موقف هؤلاء من كلّ دولة مختلفاً: دعموا بعضها ودمّروا أخرى. ثمّ يتحدّث[12] عن سبب عدم شهرة الآخيين الشهرة التي يستحقونها على الرغم من أنهم بلغوا درجة من القوة تفوّقوا بها حتّى على اللاكيديمونيين.

4- لقد توضّعت المناطق التي سكنها الآخيون بعد أن قسموا البلاد إلى 12 قسماً، وفق الترتيب الآتي: أولاً، بعد سيكيون تأتي بيللينا، ثمّ إيجيرا، والمدينة الثالثة هي إيجي؛ والرابعة بورا؛ وبعدها هيليكا، التي لجأ إليها الإيونيون بعد هزيمتهم أمام الآخيين، وقد طردوا من هناك في نهاية المطاف؛ وتأتي بعد هيليكا إيجيوس، وريبا، وباترا، وفارا[13]؛ ثمّ أولين التي يجري على مقربة منها نهر بيروس؛ وهو نهر كبير؛ وأخيراً تأتي ديما وتريتيا[14]. لقد عاش الإيونيون في قرى، بينما بنى الآخيون مدناً؛ وقد ضموا إلى هذه المدن فيما بعد مدناً أخرى نقلوها من مناطق أخرى: إيجي إلى إيجيرا (ومع ذلك كان السكّان يدعون إيجيين)، وأولين إلى ديما، على سبيل المثال. ويرونك آثار مستوطنة الأولينيين القديمة بين باترا وديما؛ ويقع هنا أيضاً معبد أسكليبوس الشهير الذي يبعد عن ديما 40 مرحلة، وعن باترا 80 مرحلة. وتحمل اسم هذه الإيجي نفسه إيجي أخرى تقع في إيبيوس، واسم أولين تحمله قرية تقع في إيثوليا لم يبق منها سوى أطلال. ولم يأت هوميروس على ذكر أولين الآخية، ولا على ذكر كثير من المراكز السكّانية في منطقة إيغيالوس، مع أنه يتحدّث عنها بمعنى ما أكثر شمولاً:

على طول إيغيالوس ومحيط هيليكا الشاسع

(الإلياذا II، 575)

ولكنّه يذكر أولين الإيثولية عندما يقول:

زمرة من الرجال المقاتلين الذين يسكنون في بليفرون وأولين...

(الإلياذا II، 639)

ويتحدّث عن هذه الإيجي وتلك؛ عن إيجي الآخية:

أولئك الذين في إيجي وفي هيليكا، كم من الأضاحي
والتقدمات التي تفرح قلبك قدّموا إليك.

(الإلياذا VIII، 203)

أمّا عندما يقول:

... بلغ أطراف إيجي؛

هناك في الخليج العميق، مسكن بوسيدون

(الإلياذا XIII، 21)

هناك ربط خيوله مزلزل الأرض، بوسيدون،

(الإلياذا XIII، 34)

فإنه من الأفضل أن نفهم بهذا إيجي التي في إيبيوس، وهي على أغلب الظنّ إيجي التي أعطت بحر إيجي اسمه: مع هذه المنطقة وافق الشّاعر نشاط بوسيدون في حرب طروادا، وبالقرب من إيجي الآخية يجري نهر كراثيس: بعد أن يجمّ مياه نهرين، يحمل النهر اسمه الذي اشتق من كلمة kirnasthai[15]؛ ومن هنا جاء اسم كرثيدس في إيطاليا.

5- لقد كان كلّ قسم من أقسام آخيا الاثني عشر يتألف من 7 أو 8 مشاعات؛ فقد كان عدد سكّان البلاد كبيراً إلى هذا الحدّ. وتقع بيللينا فوق البحر بـ 60 مرحلة، وتعدّ قلعة حصينة. وهناك مستوطنة أخرى تدعى بيللينا اشتهرت بصناعة الأردية البيللينة التي كانت تقدّم مكافآت في المباريات؛ وتقع هذه بين إيجيوس وبيللينا. وتختلف عن هاتين بيللينا أخرى، وهي مكان لاكونيّ تتّجه حدوده باتجاه منطقة ميغالوبوليس تقريباً. وتقع إيجيرا فوق تل. أمّا بورا التي ابتلعتها الأرض إثر هزّة أرضية، فهي تقع فوق البحر بحوالي 40 مرحلة؛ ويقولون، إن نهراً في إيطاليا قد أخذ اسمه من نبع سيباريس الذي يجري في هذه المدينة. وإيجا (لأن إيجي تحمل هذا الاسم أيضاً) الآن مدينة مهجورة غير مأهولة يملكها الإيجيون. أمّا إيجيوس فهي على الضدّ، ففيها عدد كبيراً من السكّان. ويروى أن العنزة أرضعت حلبيها زيوس هنا، كما يقول أراتوس:

حليباً تقول الرواية، أرضعت العنزة المقدّسة زيوس.

(الظاهرات، 163)

ثم يضيف إن

متنبّئي زيوس يدعون تلك العنزة أولينية،

(الظاهرات 164)

مشيرين بوضوح إلى أن هذا المكان يقع بالقرب من أولينا. وتقع هنا أيضاً كيرينيا[16]، الواقعة على جرف صخري عال. وهذه الأماكن هي للإيجيين، مثلها مثل هيليكا وأماريوس: دغل زيوس الذي يجتمع فيه الآخيون لبحث شؤونهم العامّة. ويجري عبر منطقة الإيجيين نهر سيلينونت؛ والاسم نفسه يحمله نهر آخر يجري في أفسس قرب

أرطميسيوس، وكذلك نهر في إيليدا الحالية يجري قرب مكان اشتراه كسينوفونت لأرطميس تلبية لإرادة الكاهن المتنبّئ، على حدّ قوله[17]. وهناك سيلينونت آخر؛ وهو يجري على مقربة من منطقة الميغاريين الجيبلائيين الذين طردهم القرطاجيون. أمّا باقي مدن الآخيين أو أجزاء منطقتهم، فإن إحداهما- ريبا- غير مأهولة، واستولى الإيجيون وسكّان فارا على الأراضي التي تدعى ريبيدا. ويقول إيسخيليوس في مكان ما:

بورا المقدّسة وريبا التي أحرقتها الصاعقة.

(مقطع 403، ناؤوك)

ومن ريبا يتحدر ميسكيلوس، مؤسّس كروتون. وليفكترون- ديموس ريبا- كانت في أراضي منطقة ريبيدا. وتأتي باترا بعد ريبا، وهي مدينة مهمّة، وتقع بينهما رأس ريون البحرية (وكذلك أنتيريون)، على بعد 40 مرحلة من باترا. ومنذ بعض الوقت؛ بعد الانتصار في أكسيوم[18]، أسكن الرومان عدداً كبيراً من جنود جيشهم في باترا؛ وهذه المدينة التي تعدّ الآن مستعمرة رومانية، تتوفّر على عدد كبير جدّاً من السكّان؛ وميناؤها في أحسن حال. تلي ذلك ديما، وهي مدينة من غير ميناء تقع بعد المدن كلّها نحو الغرب؛ ومن هنا أخذت المدينة اسمها[19]. فقد كانت تدعى في الأزمنة السابقة ستراتوس. وعند بوبراس يفصل هذه المدينة عن إيليدا نهر لاريس الذي يجري من الجبل. ويدعو بعض الكتّاب هذا الجبل باسم سكوليوس، بينما يدعوه هوميروس بالصخرة الأولينية. وعندما يدعو أنتيماخ ديما «بالكافكونية»، فإن بعضهم يرى أن كلمة «كافكونية»، صفة مشتقة من الكافكونيين، لأنّ هؤلاء الأخيرين انتشروا كما أشرت سابقاً، حتّى ديما مباشرة، بينما يشتقّها الآخرون من نهر كافكون، على النحو الذي يدعون فيه طيبة «بالديركية» و«الأسوبية»، وآرغوس «بالإيناخية، وطروادا «بالسيمونتية». وقبل قليل من وقتنا الراهن، وفدت إلى ديما جماعة من المستعمرين هي خليط من الناجين من حشود القراصنة الذين شتت بومبيوس شملهم وقضى على حركتهم[20]، وأسكن فريقاً منهم في سولا في كيليكيا، والفريق الآخر في أماكن مختلفة، خاصة في ديما. وتقع فارا على الحدود مع ديما. وقد دعي سكّان هذه الفارا فاريين، ودعي سكّان فارا الميسينية فارياتيين؛ ويقع في أراضي فارا نبع ديركا، وهو الاسم عينه الذي يحمله نبع في طيبة. أمّا أولين فإنها مدينة مهجورة، وهي تقع بين باترا وديما، لكنّ سكّان ديما يمتلكون أراضيها. ثمّ تأتي بعد ذلك أراكس، وهي رأس بحرية في إيليدا على بعد 1030 مرحلة من إيستم.

الفصل الثامن

1- تقع أركاديا في وسط البيلوبونيز؛ والشطر الأكبر من الأرض التي تشغلها جبلي. وأعلى جبال أركاديا، هو جبل كيلينا، وفي أي حال فإن بعضهم يزعم أن ارتفاعه العمودي يبلغ 20 مرحلة، بينما يرى آخرون أنه يقارب 15 مرحلة. والقبائل الأركادية، هي الآزانيون، والباراسيون وغيرهم، وهي على أغلب الظنّ أقدم قبائل الإغريق كلّها. ولكنّ خلو البلاد التام يجعل الحديث عنها بالتفصيل أمراً لا جدوى منه، فالمدن التي كانت ذائعة الصيت، خربتها الحروب المتواصلة، والفلاحون الذين كانوا يحرثون الأرض اختفوا منذ أن اتحد أكثر المدن فيما عرف «بالمدينة الكبرى»[1]. وحتّى هذه الأخيرة حل بها الآن المصير الذي وصفه الشّاعر الكوميدي بقوله:

المدينة الكبرى باتت الآن صحراء كبرى وحسب[2].

وتوجد هنا مراع شاسعة تسرح فيها القطعان، خاصة الخيول والحمير المنتجة. والخيول الأركادية مثلها مثل الأرغوليدية، والإبيبدافرية، هي الأفضل. ومثلها أيضاً الأراضي الإيتولية والأركادية الخالية، فهي ملائمة جدّاً لتربية الخيول، ليس أقل من أراضي تساليا.

2- لقد اشتهرت مانتينيا بفضل إيباميونندس الذي انتصر على اللاكيديمونيين في الموقعة الثانية[3]، التي سقط فيها قتيلاً. ولكنّ مانتينيا نفسها، وأوركومين، وهيريا، وكليتور، وثينيوس، وسيتمفالوس، ومينالوس، وميثيدروس، وكافيوس، ولينيثوس، لم يعد لها وجود الآن، أو لم يبق منها سوى آثار أو معالم مبهمة. أمّا تيجييا فقد سلمت كاملة؛ وبقي أيضاً معبد أثينا الأليادية؛ ومعبد زيوس الليكي الواقع على مقربة من جبل ليكييوس، ولا يزال يحظى ببعض التبجيل أيضاً. لكنّ ثلاث مدن يذكرها هوميروس:

في ريبا، وستراتيا كان الرجال يقطنون،

وفي إينيسبا الصاخبة،

(*الإلياذا* II، 606)

يصعب العثور عليها، ولن تفيد من يقع عليها في شيء لأنها غير مأهولة.

3- بالإضافة إلى كيللينا اشتهر أيضاً فولويا، وليكييوس، ومينال، وبارثينيوس الذي يمتدّ من منطقة تيجيا حتّى منطقة آرغوس.

4- وأنا كنت قد أشرت[4] إلى السمات الفريدة التي يتمتّع بها ألثييوس وإيفروت، وإراسين الذي يجري الآن تحت الأرض من بحيرة ستيمفالوس[5] إلى أرغوليدا، مع أنه لم يكن له سابقاً مخرج، لأنّ الهاويات التي يدعوها الأركاديون

Zerethra ، كانت مغلقة ولم تسمح بانبجاس المياه، ولهذا فإن مدينة الستيمفاليين تقع الآن على بعد 50[6] مرحلة عن البحيرة، مع أنها كانت تقع سابقاً على البحيرة مباشرة. وعرف لادون ظاهرة معاكسة، فقد توقف جريانه في زمن ما بسبب تراكم الأوحال في منابعه؛ لأنّ «مهاوي»[7] ثينيوس التي كان يجري عبرها، انهارت بفعل هزّة أرضية وسدت مجراه حتّى العروق الجوفية العميقة التي تغذي منابعه. وهذا ما يقوله بعض الكتّاب. أمّا إيراتوسفين فيقول، إن نهر آنيوس يشكّل على مقربة من ثينيوس بحيرة أمام المدينة ويغور في قنوات جوفية صناعية تدعى Zerethra ، وعندما تمتلئ هذه بالقاذورات، تغمر المياه الحقول أحياناً، وعندما تغدو سالكة من جديد، تسرع المياه عائدة من الحقول إلى مجرى لادون ومجرى ألثييوس، فمرة كانت الأرض قرب المعبد في أوليمبيا مغمورة بالمياه، بينما نقص منسوب الماء في البحيرة؛ أمّا إراسين الذي يجري بالقرب من ستيمفالوس، فإنه يغور تحت الأرض ويجري تحت الجبل[8] ثمّ يظهر من جديد في أرغوليدا؛ ولهذا فإن إيثيكراتيس عندما فشل في حصار ستيمفالوس، حاول أن يغلق فتحة خروج النهر، وقد استعد لذلك بجمع كمية كبيرة من الإسفنج، لكنّه تراجع عن عزمه هذا بعد آية سماوية أظهرها له زيوس. وتوجد على مقربة من ثينيوس مياه تسمى «مياه ستيكس»، وهو جدول صغير مياهه مميتة، ويعد الجدول مقدّساً.

إن هذا هو كلّ ما ينبغي قوله عن أركاديا.

5- لقد حدّد بوليبيوس المسافة من ماليوس نحو الشمال حتّى إيستر، بما يقارب 10.000 مرحلة؛ ولكنّ أرتيميدور يدقق حسابه هذا على النحو الموافق، ويزعم أن الطريق من ماليوس إلى إيجيوس تشكّل 1400 مرحلة، والإبحار من هنا إلى كيرا 200 مرحلة؛ والطريق من هنا عبر هيراقليا حتّى ثاوماكي تشكّل 500 مرحلة، وإلى لاريسا وبينيوس 240 مرحلة؛ وإلى تسالونيكيا 660 مرحلة؛ ومن هنا عبر إيدومينا، وستوبا، ودارداننيا حتّى إيستر 3200 مرحلة. وحسب أرتيميدور أن المسافة من إيستر إلى ماليوس 6540 مرحلة. ويكمن سبب الخطأ[9] هنا في أنه لم يورد قياس امتداد أقصر طريق، بل اختار طريقاً عشوائية قطعها أحد القادة العسكريين. وربّما يكون من الملائم أن نورد هنا أسماء مؤسّسي المدن التي كانت موجودة بعد عودة الهيراقليين إلى البيلوبونيز، والذين ذكرهم إيثور: أليتوس مؤسّس كورينثوس، وثالكوس مؤسّس سيكيون، وتيسامين مؤسس آخيا، وأوكسيل مؤسس إيليدا، وكريسفونت مؤسّس ميسينا، وإيفريسفين وبروكليس مؤسسا لاكيديمون، وتيمينوس وكيسوس مؤسّسا آرغوس، وإيجيوس وديفونت اللذان أسّسا مدناً قرب أكتا.

الكتـاب التاسع

الفصل الأول

1- بعد أن أنهينا وصف البيلوبونيز التي تعدّ، كما كنت قد أشرت[1]، أوّل وأصغر شبه جزيرة بين أشباه الجزر التي تشكّل اليونان، ننتقل الآن إلى أشباه الجزر المجاورة لها، فشبه الجزيرة الثانية بينها، هي شبه الجزيرة التي تصل ميغاريدا بالبيلوبونيز، وهكذا فإن كروميوس تتبع منطقة الميغاريين وليس منطقة الكورونثيين. أمّا شبه الجزيرة الثالثة فهي تلك التي تصل بهذه كلّها أيضاً أتيكا، وبيوتيا، وجزءاً من ثوكيدا ومناطق اللوكريين الإيبيكنيميديين. وعن هاتين الشبه الجزيرتين ينبغي أن نتحدّث الآن. فبحسب إيفدوكس، أننا إذا تخيّلنا خطاً مستقيماً يمتدّ شرقاً من الجبال الكيرافنية حتّى سونيوس، ورأس أتيكا، فعلى الجانب اليميني نحو الجنوب تبقى البيلوبونيز كلّها، وعلى الجانب اليساري نحو الشمال يبقى الساحل كلّه من الجبال الكيرافنية حتّى الخليج الكريسي، وميغاريدا، وأتيكا كلّها. وهو يفترض أن الساحل من سونيوس حتّى إيستم ليس مجوّفاً بما يكفي لتشكيل تجويف كبير، إذا لم نلحق بهذا الساحل المناطق المتاخمة لإيستم التي تشكّل الخليج الهيرميوني وأتيكا. وعلى هذا المنوال نفسه فإن إيفدوكس لا يرى أن الساحل من الجبال الكيرافنية حتّى خليج كورينثوس مجوّفاً إلى الحدّ الذي يسمح له أن يشكّل بحدّ ذاته خليجاً، لو لم تتلاق ريون وأنتيريون لتشكّلا معاً هذه الظاهرة. وعلى هذا النحو نفسه ينسحب الأمر على السواحل التي تحيط بمنخفض الخليج، حيث ينتهي البحر في هذه المنطقة.

2- ذلكم كان وصف إيفدوكس عالم الرياضيات الضليع في الأشكال الهندسية و«الأقاليم»[2]، والرجل الذي يعرف هذه الأماكن معرفة جيّدة. ولذلك يجب أن نتصوّر هذا الجانب من أتيكا مع ميغاريدا، من سونيوس إلى إيستم، مقوّساً، ولكن تقوّساً بسيطاً. وتقع هنا في وسط الخط المذكور تقريباً، ميناء أثينا: بيرييوس. وهي

فعلاً تبعد عن سيخنونت التي في إيستم ما يقارب 350 مرحلة، وعن سونيوس 330 مرحلة. والمسافة نفسها تقريباً من بيرييوس إلى بيغوس، كما إلى سيخنونت مع أنهم يقولون إنها أكبر بعشر مراحل. وإذ يتجاوزون سونيوس، يتّجهون شمالاً مع بعض الانعطاف نحو الغرب.

3- وتشاطئ آكتا(3) بحرين؛ بدايتها ضيّقة، ثمّ تتسع في داخل البلاد؛ وفي الوقت نفسه تشكّل منعطفاً يشبه شكله شكل القمر يتّجه نحو أوروب في بيوتيا، وفي غضون ذلك يتّجه الجانب المحدّب نحو البحر. وهذا الجانب هو الجانب الثاني، الجانب الشرقي من أتيكا. ويمتدّ الجانب المتبقي، الجانب الشمالي، من أوروبيا نحو الغرب حتّى ميغاريدا، أي أتيكا الجبلية التي تحمل تسميات مختلفة، والتي تفصل بيوتيا عن باقي أتيكا. ولذلك، كما ذكرت سابقاً(4)، لأنها تشاطئ بحرين وتفضي إلى المناطق الواقعة بالاتجاه نحو البيلوبونيز، أي إلى ميغاريدا وأتيكا. ويقولون، إن البلاد التي غيروا اسمها وباتت تدعى الآن أتيكا، كانت تدعى في الزمن القديم آكتا وأكتيكا(5)، لأنّ الشطر الأعظم منها ساحليّ وضيّق ويقع عند سفوح الجبال ويبرز لمسافة طويلة حتّى سونيوس. وهاأنذا أقدّم وصفاً لهذه الجوانب الثلاثة، وأبدأ مرّة أخرى من نقطة الساحل التي كنت قد توقفت عندها.

4- ترتفع فوق أتيكا، وراء كروميوس، صخور سكيرون التي لا تترك معبراً إلى البحر. وتمتدّ إلى الأعلى منها طريق تقود من إيستم إلى ميغارا وأتيكا. وتقترب هذه الطريق من الصخور إلى درجة أنها تسير في كثير من الأماكن على أطراف الجرف، لأنّ الجبل الذي يعلو فوقها عصيّ على العبور وشاهق. وهنا يوضّعون المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة سكيرون وبيتيوكامبوس اللذين نهبا البلاد الجبلية وخرّباها إلى أن قتلهما ثيسيوس. وقد أطلق الأثينيون اسم سكيرون على أرجستوس، الريح العاصفة التي تهبّ على يسار عابر السبيل من قمم هذه البلاد الجبلية. وبعد صخور سكيرون تبرز في عرض البحر رأس مينويا البحرية التي تشكّل ميناء في نيسييا. وتعدّ نيسييا محطة شراعية للميغاريين؛ فهي تقع على بعد 18 مرحلة من المدينة وتتّصل بها من الجهتين بأسوار. وقد دعي هذا المكان مينويا أيضاً.

5- وفي الزمن القديم كان يمتلك هذه البلاد أولئك الإيونيون أنفسهم الذين كانوا يعيشون في أتيكا كذلك، لأنّ ميغارا لم تكن قد بنيت بعد، ولذلك لا يذكر هوميروس هذه البلاد بشكل خاص، لكنّه عندما يدعو سكّان أتيكا كلّهم أثينيين، فإنه يلحق هؤلاء السكّان بالتسمية العامّة ويعدّهم أثينيين. فعندما يقول في «سجلّ السفن» مثلاً:

لكنّ الرجال الساكنين مدينة أثينا المنيعة،

(الإلياذا II، 546)

ينبغـي أن نـرى في الشـعب المـذكور الشـعب الـذي يـدعى الآن ميغاريـاً، ونفـترض أنهـم شاركوا في الحملة. والدليل على ذلك هو الآتي: في الـزمن القـديم كـانت أتيكـا تـدعى إيونيا وإيادا؛ وعندما يقول الشاعر:

... هناك البيوتيون البواسل، والإيونيون

ذوو الأردية الطويلة،

(الإلياذا XIII، 685)

فإنه يعني بذلك الأثينيين، لقد كانت ميغاريدا جزءاً من إيونيا أيضاً.

6- وإضافة إلى ذلك، بما أن البيلوبونيزيين والإيونيين غالباً ما كـانوا يتنـازعون بسـبب الحـدود الـتي كانـت تقـع عليهـا بـين المنـاطق الأخـرى، منطقـة كروميونيـا، فقـد توصـلوا إلى اتفـاق بشـأنها وأقـاموا عمـوداً في مكـان مفـترض غـير بعيـد عـن إيسـتم، وكتبوا على جهة العمود التي تتّجه نحو البيلوبونيز نصّاً يقول:

هذه هي البيلوبونيز، وليست إيونيا،

وكتبوا على الجهة التي تتّجه نحو ميغارا نصاً يقول:

هذه ليست البيلوبونيز، بل إيونيا.

ومع أن مؤلّفيّ «أرض أتيكـا»[6] يختلفون كثيراً فيما بينهم، إلاّ أنهم مع ذلك (في أقلّ تقدير الذين يسـتحقون الـذكر منهم) يتّفقـون علـى أنـه كـان لبانـديون أربعـة أبنـاء: إيجيـوس، وليكـوس، وبـالاّس، ونيسـوس؛ وبعـد تقسـيم أتيكـا إلى أربعـة أقسـام، نـال نيسـوس ميغاريـدا، وأسّـس فيهـا نيسـيبا. وعلـى هـذا النحـو امتـدت سـلطته، بحسـب فيلوكور، من إيستم إلى بيفوس[7]، وحسب أندرون إلى إيليفسين ووادي ثرياس. ومع أنّ مختلف الكتّاب يكتبون على نحو مختلف عن تقسيم أتيكـا إلى أربعـة أقسـام، إلاّ أنـه يكفـي أن نأخـذ الـنص التـالي مـن سـوفوكليس: يقـول إيجيـوس، إن والـده قـرّر لـه أن يمضي إلى المناطق الساحلية، مانحاً له، بصفته الابن الأكبر، الشطر الأفضـل مـن هـذه البـلاد؛ أمّا ليكـوس

فمنحه البستان الإيبي، الذي يقع في الجانب المقابل،

وخصص لنيسوس البلاد المجاورة،

ساحل سكيرون؛ والشطر الجنوبي جاء

من نصيب مهذّب العمالقة الصارم، بالاس

(مقطع 872، ناؤوك)

تكلّم كانت شهادات الكتّاب التي تؤكّد على أن ميغاريدا كانت جزءاً من أتيكا.

7- بعد عودة الهيراقليين وتقسيم البلاد، حدث أن طرد الهيراقليون والدوريون الذين جاؤوا معهم، كثيراً من سكّان البيلوبونيز السابقين من أرضهم الأم إلى أتيكا. وكان بين هؤلاء ميلانثوس ملك ميسينا. وكان هذا يملك أيضاً على الأثينيين برضاهم، بعد أن تغلب في المبارزة على ملك بيوتيا كسانثوس. ولكن بما أن عدد سكّان أتيكا قد زاد الآن كثيراً بفضل سيل المنفيين إليها، فقد شنّ الهيراقليون عليها حرباً دفعهم إليها خوفهم من فيض السكّان هذا، خاصة سكّان كورينثوس وميسينا: الأوائل بسبب مجاورتهم لأتيكا، وهؤلاء الأخيرون لأنّ ملك أتكيا كان عندئذٍ كودرس ابن ميلانثوس. ولكن مع ذلك هزموا في المعركة وأخلوا البلاد كلّها ما عدا منطقة ميغاريدا؛ فقد استولوا على هذه الأخيرة وأسّسوا هناك مدينة ميغارا[8]، وجعلوا سكّانها من الدوريين بدل الإيونيين. كما أزالوا العمود الذي كان يمثل الحدّ الفاصل بين الإيونيين والبيلوبونيزيين.

8- لقد عانت مدينة الميغاريين من صروف الدهر كثيراً، ومع ذلك بقيت على قيد الحياة حتّى يومنا هذا. وعرفت ميغارا في زمن ما مدارس فلسفية لفلاسفة عرفوا بالميغاريين، لأنهم كانوا أتباع إقليدس الميغاري تلميذ سقراط؛ ومثلهم كان الإيلييون أتباع ثيدون الإيليي الذي كان تلميذ سقراط أيضاً (وإلى هؤلاء ينتمي بيرّون)، والإريتريون أتباع مينيديم الإريتري. وتربة بلاد الميغاريين شحيحة كتربة أتيكا، وتشغل الشطر الأعظم منها جبال تدعى جبال أونيوس، وهي عبارة عن سلسلة تمتدّ من صخور سكيرون حتّى بيوتيا وكيثيرون، وتفصل البحر عند نيسيبا عن الخليج الألكيوني عند باغي.

9- إذا أبحرت من نيسيبا إلى أتيكا، فثمة على طريقك خمس جزر صغيرة؛ ثمّ تأتي سلامين التي يصل طولها إلى ما يقارب 70 مرحلة (مع أن بعضهم يقول 80 مرحلة)، وفيها مدينة تحمل اسم الجزيرة عينه، وهي مدينة قديمة باتت الآن مهجورة، وتتّجه نحو إيجينا ونحو الجنوب (كما قال إيسخيليوس:

تقع إيجينا هنا متهجة نحو عصفات نوتوس)؛

(*مقطع* 404، *ناؤوك*)

ولكنّ المدينة المعاصرة تقع على الخليج في منطقة لها شكل شبه جزيرة تجاور أتيكا. وفي الزمن القديم حملت سلامين أسماء أخرى مثل «سكيرادا»، «كيهريبا» وسوى ذلك من الأسماء التي كانت أسماء أبطال ما. وعلى اسم واحد من هؤلاء الأبطال[9]، تدعى أثينا «سكيرادا»، ويحمل مكان في أتيكا اسم «سكيرا»؛ وتكريماً «لسكيروس»

يقام هنا طقس مقدّس ويدعى أحد الأشهر سكيروفوريون. ومن اسم البطل الآخر اشتق اسم الثعبان «كيهريدس» الذي أطعمه كيهرييا، كما يقول هسيود، أمّا إيفريلوخ، فقد طرده من الجزيرة لأنه عاث فيها دماراً وتخريباً؛ ولكنّ ديميترا استقبلته في إيليفسين وجعلته خادماً لها. كما دعيت الجزيرة أيضاً باسم بيتييوسا، نسبة إلى شجرة[10] تحمل الاسم نفسه. وتدين الجزيرة بشهرتها إلى الإياكسيين، خاصة إيانتوس ابن تيلامون، كما تدين بها أيضاً إلى المعركة البحرية الشهيرة التي وقعت على مقربة منها وفيها هزم الإغريق كسيراكس الذي فرّ هارباً إلى بلاده. كما نال الإيجينيون بدورهم نصيباً من المجد في هذه الموقعة، لأنهم كانوا جيران السلامينيين وأعدّوا أسطولاً كبيراً شارك في المعركة. وفي سلامين نهر يدعى بوكار الذي يدعى الآن بوكاليا.

10- وفي وقتنا الراهن يمتلك الأثينيون سلامين، مع أن حرباً اشتعلت قديماً بينهم وبين الميغاريين للسيطرة على الجزيرة. ويقول بعضهم، إن بيسيستراتوس، وبعضهم الآخر يقول، إن سولون أدرج في «سجلّ السفن» بعد بيت الشعر الذي يقول:

إيانثوس التيلاموني الجبّار، اثنتي عشرة
سفينة سلامينية

(*الإلياذا* II، 557)

البيت الآتي مباشرة:

أخرجها ووقف مع مقاتليه حيث وقفت
الكتائب الأثينية،

ثم استخدم كلمات الشّاعر شهادة على أن الجزيرة كانت من أملاك الأثينيين القديمة الأولى. بيد أن النقاد لا يأخذون بهذا التأويل، لأنّ أماكن كثيرة أخرى تناقضه. بالفعل، لماذا يقف إيانثوس في المكان الأخير في محطة السفن مع التساليين الذين يقودهم برتيسلايوس، وليس مع الأثينيين:

هناك، حيث ترسو سفن إيانثوس وبروتيسلايوس

(*الإلياذا* XIII، 681)

وفي استعراض آغاممنون للقوات

ألفى هنا الفارس مينيثيوس ابن بتييوس
يقف مزهوّاً وحوله الأثينيون الخبيرون في المعارك.
وهناك أيضاً بالقرب من مينيثيوس كان يقف أوديسيوس الحكيم؛

وحوله صفوف الكيثالينيين...

(الإلياذا IV، 327)

ثم يعود الشّاعر إلى إيانثوس والسلامينيين، فيقول:

فاتّجه إلى الإيانثيين

(الإلياذا IV، 273)

ووقف إلى جانبه

إيدومينوس في الجهة الأخرى...

(الإلياذا III، 230)

وليس مينيثيوس. وعلى هذا النحو افترض الأثينيون أنهم يستندون إلى شهادة موثوق بها، هي شهادة هوميروس؛ لكنّ الميغاريين ردّوا عليهم بمثل هذا النوع من المحاكاة التهكمية:

أخرج إيانثوس السفن من سلامين، وبعد ذلك

من بوليخنا، ومن إيغيروسّا، ثمّ من نيسييا ومن

تريبودس.

وهذه كلّها أماكن في ميغاريدا؛ وتريبودس تدعى الآن تريبوديسوس، وعلى مقربة منها تقع الآن ساحة سوق الميغاريين.

11- ويزعم بعضهم أن سلامين ليست لأتيكا، ويستند هؤلاء في زعمهم هذا إلى سلوك كاهنة أثينا البوليادية التي لا تقرب الجبن الطازج المصنوع محلّياً في أتيكا، لكنّها تأكل الجبن المستورد من الخارج، والجبن السلاميني أيضاً. ولكنّ هذا ليس صحيحاً، لأنها تأكل الجبن الآتي من الجزر الأخرى التي يعترف جميعهم أنها تعود لأتيكا، لأنّ الذين أسّسوا هذا التقليد عدّوا كلّ جبنة آتية من وراء البحر، جبنة «أجنبية». بيد أن سلامين الحالية كانت في الأزمنة القديمة دولة مستقلّة، على أرجح تقدير، أمّا ميغارا فكانت جزءاً من أتيكا. وعلى الساحل المقابل لسلامين تقع حدود أراضي ميغارا وأتيكا: جبلان يدعونهما «قرنين»[11].

12- ثمّ تأتي مدينة إيليفسين حيث يقع معبد ديميترا الإيليفسينية ومحمية للمكرّسين بناها إيكتينوس؛ والمحمية واسعة بما يكفي لاجتماع حشد من المشاهدين. كما بنى إيكتينوس هذا البارثيون على الأكروبوليس تكريماً لأثينا، وقد سارت عملية البناء تحت إشراف بيريكلس. وتعدّ المدينة ديموساً من الديموسات.

13- يلي بعد ذلك سهل ثرياس، وساحل وديموس يحملان الاسم عينه. ثمّ تأتي رأس أمفيالا البحرية ومقلع حجارة يتوضّع فوقها، والمعبر عبر المضيق إلى سلامين عرضه

مرحلتان؛ وكان كسيراكس قد حاول ردم هذا المضيق[12]، لكنّ المعركة البحرية وفرار الفرس أوقفا إتمام هذه الخطّة. وتقع هنا أيضاً فارماكوسا، وجزيرتان صغيرتان؛ وفي الكبرى منهما يدلونك على قبر كيركا.

14- ويعلو فوق هذا الساحل جبل يدعى كوريدالوس، وديموس كوريدالا. ثمّ يأتي مرسى فورون، وبسيتاليا، وهي جزيرة مقفرة صخرية صغيرة دعاها بعضهم بياضاً في عين بيرييوس. وتقع هنا على مقربة جزيرة أتالانتا، سميّة جزيرة أخرى تقع قرب إيبيوس ولوكرا، وهناك أيضاً جزيرة أخرى تشبه بسيتاليا. وتأتي بعد ذلك بيرييوس التي تعدّ ديموساً من الديموسات، ثمّ مونيخيا.

15- ومونيخيا تلّ يشكّل شبه جزيرة؛ فيه كهوف وأنقاب[13] في أماكن كثيرة، بعضها طبيعي وبعضها الآخر من صنع الإنسان، وهذا يعني أن تحت التلّ مساكن؛ والدخول إلى هناك عبر فتحة ضيّقة. وتقع تحت التلّ ثلاثة مراس. وفي الزمن القديم كانت مونيخيا محاطة بسور، ومنظّمة ومجهّزة بصفتها مدينة للرودوسيين[14]؛ وقد أحاطت بالأسوار كلّ من بيرييوس والمراسي المليئة بترسانات إصلاح السفن وبنائها، ومنها ترسانة بناها فيلون. لقد كانت مونيخيا محطة شراعية مؤهّلة لاستقبال 400 سفينة، لأنّ الأثينيين لم يكونوا يجهّزون أقلّ من هذا العدد. وكانت تتاخم هذا السور أسوار أخرى، كأنها «أرجل» تتدلّى من المدينة؛ لقد كانت هذه الأسوار أسواراً «طويلة» (طولها 40 مرحلة) تصل المدينة ببيرييوس. ولكنّ الحروب دمّرت هذا السور وتحصينات مونيخيا، فتحوّلت بيرييوس إلى مستوطنة لا أهمية لها تنتشر حول المراسي ومعبد زيوس المخلّص. وفي أروقة هذا المعبد الصغيرة المفتوحة، لوحات مدهشة رسمها فنانون مشهورون، وفي الفناء تنتشر التماثيل، والأسوار بدورها متهدمة، ففي أوّل الأمر هدمها اللاكيديمونيون، وبعد ذلك الرومان، عندما حاصر سولاّ بيرييوس واستولى عليها وعلى المدينة نفسها[15].

16- إن مدينة أثينا نفسها عبارة عن صخرة تقع في سهل وتحيط بها المنشآت. ويقع على الصخرة معبد أثينا، المعبد القديم لأثينا البولياديّة[16]، حيث يشتعل شمعدان لا تنطفئ شعلته[17]، وهنا أيضاً يقع البارثيون الذي بناه إيكتينوس، وفيه تحفة ثيديوس: تمثال أثينا المصنوع من العاج. بيد أنني إذا ما استغرقت في وصف معالم هذه المدينة طولاً وعرضاً، فإنني أخشى أن أذهب بعيداً وأتحوّل عن الموضوع المكرّس لعملي هذا. لأنّ كلمات هيجيسيوس ترد إلى ذهني: «أرى الأكروبوليس وهناك رمز الحربة الثلاثية المهولة؛ أرى إيليفسين، وأتكرّس في أسرارها المقدّسة. ها هو ليوكوريوس

هناك، وهنا ثيسييون؛ إنني لا أستطيع أن أصف التفاصيل كلّها، لأنّ أتيكا ملك الآلهة الذين أخذوها وجعلوا منها معبداً لهم وللأسلاف الأبطال». ولذلك لم يذكر هذا الكاتب إلا تمثالاً واحداً من تماثيل الأكروبوليس وقد كتب بوليمون بيرييجستوس[18] أربع كتب «عن التقدمات المكرّسة» في الأكروبوليس فقط. وبما يتوافق مع ذلك فإن هيجيسيوس موجز في وصف الأجزاء الأخرى من المدينة والبلاد؛ مع أنه يذكر إيليفسين كواحد من 170 ديموساً (ويتحدّثون إضافة إلى ذلك عن أربعة ديموسات أخرى، لكنّه لا يأتي على ذكر أيّ من هذه الأخيرة).

17- ويرتبط بأكثر الديموسات، وليس بها كلّها، كثير من القصص ذات الطابع الميثولوجي والتاريخي. فترتبط بأثيدنا على سبيل المثال، أسطورة اختطاف ثيسيوس ليلينا، وتخريب الديوسكوري للديموس واستعادة أختهما؛ وترتبط بالماراثون ذكرى المعركة ضدّ الفرس، وفي رامنوت تمثال نيميسيس الذي يرى بعضهم أنه من أعمال ديودوت، بينما يرى آخرون أنه من أعمال آغوراكرتيس الباروسي، ويعدّ هذا العمل عملاً موفقاً جدّاً إن من حيث جماليته أو من حيث عظمته، وهو ينافس بجدارة أعمال ثيديوس؛ وكذلك ترتبط بديكلييا، نقطة استناد البيلوبونيزيين في حرب ديكلييا؛ وبفيلا التي منها قاد ثراسيبول حزب الديمقراطيين إلى بيرييوس، ومن هناك إلى أثينا. وعلى هذا المنوال يمكننا أن نسوق كثيراً من الأحداث التاريخية المرتبطة بكثير من الديموسات الأخرى؛ وترتبط ليوكوريوس وثيسييون بالأساطير، وكذلك ليكوس وأوليمبييكون (وهو أوليمبييوس نفسه) الذي بقي نصفه غير مبني بعد وفاة الملك[19] الذي كرّسه تقدمة. وعلى هذا النحو نفسه الأكاديميا وحدائق الفلاسفة، والأوديون، والرواق الفسيح[20]، ومعابد المدينة، فكلّها يحتوي على كثير من الأعمال الرائعة التي رسمها مختلف الرسامين.

18- وكان التعداد سيطول أكثر بكثير لو خطر لأحد أن يتناول مؤسّسي المستوطنات بدءاً من كيكروبس، لأنّ الكتّاب لا يتّفقون كلّهم في هذه المسألة، وهذا واضح حتّى من الأسماء التي أطلقت على البلاد. فيزعمون مثلاً أن أكتيكا أخذت اسمها من أكتيون، وأخذت أتثيدس، وأتيكا اسميهما من أتثيدس ابنة كرانايوس، وهو الاسم الذي حمله السكّان أيضاً، إذ دعوهم كرانائيين؛وأن موسوبيا أخذت اسمها من موسوبس، وإيونيا من إيون بن كسوثوس، وبوسيدونيا وأثينا من الإله والإلهة اللذين يحملان الاسمين عينهما. وكما قيل من قبل[21]، فإن قبيلة البيلاسيغيس قد سكنت هنا على أغلب الظنّ، وبسبب التيه أطلق عليها سكّان أتيكا اسم «بيلارغيين»[22].

19- بقدر ما يكون لدى الإنسان نـزوع أكبر لتقصي أحداث الماضي المجيدة، وبقدر ما يكثر الذين تحدّثوا عن هذا، بقدر ما يكون العار أعظم على أولئك الذين عجزوا عن امتلاك ناصية الحقائق التاريخية. فعلى حدّ قول كاليماخ في «سجلّ الأنهار»[23] مثلاً، إنه يستغرق في الضحك عندما يجرؤ أحدهم ويكتب أن البنات الأثينيات

يستقين الماء النقيّ من تيار إريدانوس المضيء[24]

الذي حتّى الحيوانات تأنف أن تشرب منه. وثمّة الآن كما يقولون ينابيع مياه عذبة وراء ما يدعى البوابات الديوكاروفية، قرب ليكيوس؛ أمّا في الزمن القديم فقد بنوا آباراً على مقربة من المياه النقية الوفيرة، وإذا كانت هذه المياه قد اختفت الآن، فما الغريب في أنها كانت فيما مضى موجودة بوفرة، ثمّ تبدّلت الحال بعد ذلك. ومع ذلك فإنه من غير المقبول الاستغراق في تفاصيل هذه المستوطنات كلّها، لكنّ تجاهلها، حتّى من غير وصف موجز، أمر غير جائز أيضاً.

20- وهكذا يكفي أن نضيف الآتي في أقلّ تقدير، فعلى حدّ قول فيلوكور إنه عندما خرّب الكاريون البلاد من البحر، والبيوتيون من البرّ، وكان هؤلاء يدعون عندئذٍ آونيسيين؛ أسكن كيكروبس الشعب كلّه لأول مرّة في المدن 12؛ وكانت أسماء هذه المدن هي: كيكروبيا، وتيترابوليس وإيباكريا، وديكلييا، وإيليفسين، وأثيدنا (ويستخدم أيضاً اسم أثيدني بصيغة الجمع)، وثوريكس، وبرافرون، وكيثير، وسثيبوس، وليثيسيا[25]. ويقولون إن ثيسيوس وحّد فيما بعد هذه المدن 12 في المدينة الحالية الواحدة. وفي الأزمنة الماضية كان الملوك يحكمون الأثينيين، ثمّ تحوّل هؤلاء إلى الديمقراطية، لكنّهم سقطوا بعد ذلك تحت سلطة التيرانيين: بسيستراتوس وأولاده؛ ثمّ ظهرت بعد ذلك سلطة الطغمة: طغمة الأربعمئة، وطغمة الثلاثين تيرانا الذين نصبهم اللاكيديمونيون؛ ولكنّ الأثينيين أزاحوا هؤلاء التيران من غير صعوبات تذكر وحافظوا على الديمقراطية حتّى بدء زمن الاستعمار الروماني. وإذا كانوا قد عانوا لبعض الوقت من تعسّف الملوك المقدونيين، وأُرغموا على الخضوع لهم، إلا أنهم استطاعوا مع ذلك أن يحافظوا على الملامح العامّة للصيغة السابقة لبنية نظام دولتهم. وبحسب بعضهم أنهم خلال 10 سنوات عاشوا في ظلّ أفضل إدارة، عندما كان كاساندروس هو ملك المقدونيين. ومع أنهم رأوا أن كاساندروس كان يتعامل مع الآخرين كتيران شديد الوطأة، إلا أن الرجل أظهر في تعامله مع الأثينيين كثيراً من الودّ، إذ أخضع المدينة له ووضع المواطنين تحت زعامة ديميتري الفاليري، وهو واحد من تلامذة الفيلسوف ثيوفراستوس؛ فديميتري لم يدمّر الديمقراطية، بل رسخها أكثر،

وهـو مـا يتّضـح جلياً مـن «المذكرات» الـتي كتبهـا عـن فـترة حكمـه. ولكـنّ الحسـد والبغض تجاه سيطرة الطغمة كانا شديدين إلى درجة أرغمت ديميتري على الفرار إلى مصر بعد وفاة كاساندروس؛ فقد حطّم الثائرون تماثيله وأعادوا صهرها، وكـان عـدد هـذه التماثيـل يتجـاوز 300 تمثـال، ويضـيف بعـض الكتّـاب إلى هـذا أنهـم صـنعوا منهـا مبولات ليلية. ومهما كان الأمر، عندما أخضع الرومان الأثينيين ووجدوا عنـدهم نظامـاً ديمقراطياً أبقوا لهم على استقلال ذاتي.وعندما ما انهالت على الأثينيين حرب ميتريدات، فرض هذا عليهم حكّاماً تيرانيين اختـارهم بنفسـه. وكـان الأقوى بـين هـؤلاء الـتيران، الـتيران أريسـتيون الـذي أنهـك المدينـة بالتعسـف والظلـم والجـور، فعاقبـه سـولاّ، القائـد الروماني بعد أن حاصر المدينة واستولى عليهـا، لكنّـه عفـا عـن المدينـة نفسـها. ولا تـزال المدينة حرّة حتّى يومنا هذا ويحيطها الرومان بكثير من الاحترام.

21- بعـد بيرييـوس يـأتي ديمـوس فـاليرا الواقـع غـير بعيـد علـى الشـاطئ، ثـمّ هاليموســي، وإيلســونييوس، وآلييــوس الإيكســونية، وأناغيراســيوس. وبعــد ذلــك فوريـيـوس، ولامبتريـيـوس، وإيغيليـوس، وأنافليسـتي، وآزينييـوس. إن هـذه الديموسـات تنتشر حتّى رأس سونيوس البحرية مباشرة. وتقـع بـين الديموسـات المذكورة رأس بحرية طويلـة (الأولى بعـد إيكسـونييوس)، هـي رأس زوسـتروس؛ تليهـا رأس أخـرى، هـي رأس أسـتيباليوس؛ وتقـع قبالـة الـرأس الأولى منهمـا، جزيـرة ثـابرا، وقبالـة هـذه الأخـيرة تقـع إيليوسّا؛ كما تقع هيدريوسا قبالة إيكسونيوس. وعلـى مقربـة مـن أنافليسـتي يقـع معبـد بان ومعبد أفروديت الكوليادية؛ ويـروى أن الأمـواج رمـت عنـد هـذا المكـان آخـر حطـام السفن التي دمّرت في معركة سلامين البحرية ضدّ الفرس؛ وبمناسبة هذا الحطام أطلق أبوللون النبوءة الآتية:

سوف تعدّ الكولياديات الطعام على نار المجاديف.

وتقـع أمـام هـذه الأمـاكن جزيـرة بيلبينـا، غـير بعيـد عنـد مدينـة بـاتروكليس. والشطر الأكبر من هذه الجزر غير مأهول.

22- وبعد أن نتجـاوز رأس سـونيوس نقترب مـن ديمـوس سـونيوس، وهـو ديمـوس كـبير؛ ثـمّ تـأتي ثـوريكس، وبعـدها ديمـوس يحمـل اسـم بوتـاموس، ويـدعى سـكّانه بالبوتاميين، ثمّ براسـي، وسـتيري، وبرافـرون حيـث يقـوم معبـد أثينـا البرافرونيـة وغـالي أراثيندس مع معبد أرطميس تافروبوليس، وميريونت، وبروباليـنثوس، ومـاراثون الـتي أبـاد فيهـــا ميليتيــادس جحافــل كــان يقودهــا الفارســي داتــيس، ولم ينتظــر وصــول اللاكيديمونيين الذي تأخروا بذريعة انتصاف القمر. وهنـا أيضـاً تـدور أحـداث أسـطورة

ثور الماراثون الذي قتله ثيسيوس. وبعد ماراثون تأتي تريكورينثوس؛ ثمّ رامنوت مع معبد نيميسيس، وبعدها بساثيس، أرض الأوروبيين. وفي جوار بساثيس يقع أمفيرايوس مقرّ الكاهن المتنبّئ الذي كان يحظى بالاحترام يوماً، وهنا، بحسب قول سوفوكليس، انشقّت الأرض وابتلعت أمفيرايوس الهارب

انشــقّت أرض طيبـة[26] وابتـلعتـه

مع سلاحه، ومركبته، والجياد الأربعة

(مقطع 873، ناؤوك)

وغالباً ما تشكّل أرض أوروب نقطة استناد؛ فهي واقعة على حدود أتيكا وبيوتيا. وأمام هذا الساحل تقع جزر: قبالة ثوريكس وسونيوس تقع جزيرة يلينا، وهي جزيرة صخرية مقفرة تمتدّ طولاً بموازاة الساحل 60 مرحلة تقريباً. ويقال، إن هوميروس يذكر هذه الجزيرة في المكان الذي يقول فيه الإسكندر ليلينا:

ولا حتى في ذلك اليوم السعيد، يوم هربت

وإياك من إسبرطا الزاهية مخطوفة، وحملتك

على سفني السريعة، وإلى كرانايا اصطحبتك،

وفيها كان حبنا الأول، ومضجعنا؛

(الإلياذا III، 443)

فهو يذكر كرانايا، وهي الجزيرة التي تدعى الآن يلينا، لأنّ فيها وقع الوصال بين يلينا وباريس. وتأتي بعد يلينا إيبيوس الواقعة أمام الساحل الذي يمتدّ إلى الأبعد. وهي بدورها جزيرة ضيّقة وطويلة، وتمتدّ طولاً بموازاة البرّ، مثلها مثل يلينا. وتدعى الطريق البحرية من سونيوس إلى الطرف الجنوبي لإيبيوس، ليفكا آكتا، ويبلغ امتدادها 300 مرحلة. لكني سأتحدّث عن إيبيوس لاحقاً[27]، أما فيما يخصّ الديموسات الواقعة في داخل البلاد، فإن الحديث يمكن أن يطول عنها كثيراً، لأنّ عددها كبير جدّاً.

23- ومن أشهر جبال هذه البلاد جبل هيميتوس، وجبل بريليس، وجبل ليكابيتوس، وكذلك جبل بارنيس وجبل كوريدالوس. وتقع على مقربة من المدينة مقالع حجارة رائعة يستخرج منها المرمر الهيميتي والبينتيليكوني. ويعطي هيميتوس أفضل نحاس. وفي بادئ الأمر كانت مناجمه في أتيكا ذات أهمية فائقة، أمّا الآن فقد نضبت. زد إلى هذا أن الذين كانوا يعدّنون هناك أخذوا، بعد أن بات استخراج الفلذات غير ذي جدوى، يصهرون النفايات القديمة والخبْث ويستخرجون منها الفضّة الخالصة،

لأنّ معدّني الأزمنة السابقة لم يعرفوا كيف يعدّنون الفلزات في الأفران. ومع أن نحاس أتيكا هو الأفضل في العالم، إلا أن نحاس بلاد مناجم الفضّة، هو كما يقولون، أفضل الأنواع: النوع الذي يدعى «اللادخانيّ»، حسب طريقة تعدينه[28].

24- وأنهار أتيكا هي: كيثيس الذي ينبع من ديموس ترينيميوس ويجري عبر السهل (من هنا جاءت الغمزات إلى «الجسر»، و«الطُّرف على الجسر»)[29]، ثمّ عبر الأسوار التي تصل المدينة ببيرييوس، ويصبّ في خليج فاليرا، وهو في أغلب أيام السنة سيل صاخب، لكنّه يجفّ تماماً في فصل الصيف. وأكثر من هذا ينطبق على إيليس الذي يجري من الطرف الآخر للمدينة إلى ذلك الجزء من الشاطئ نفسه الذي يشكّل جزءاً من المنطقة الواقعة فوق آغرا وليكيوس، ومن النبع الذي مجّده أفلاطون في «فيدرا»[30]. هذا عن أتيكا.

الفصل الثاني

1- وعلى مقربة تقع بيوتيا. وعندما أتحدّث عن هذه البلاد والقبائل التي تجاورها، فإنه ينبغي عليّ من أجل الوضوح أن أتذكر ما كنت قد قلته[1]. وأنا قلت، إن الساحل من سونيوس يمتدّ نحو الشمال حتّى تسالونيكيا، مع انعطاف خفيف نحو الغرب تاركاً البحر نحو الشرق؛ أمّا المناطق التي فوق هذا الساحل فإنها تقع باتجاه الغرب، كأنها شرائط مشدودة واحدتها بموازاة الأخرى على امتداد البلاد كلّها. وأوّل هذه المناطق، أتيكا مع ميغاريدا، كالشريط الذي له ساحله الشرقي الممتدّ من سونيوس إلى أوروب وبيوتيا، وساحله الغربي: إيستم والبحر الألكيوني، ويمتدّ على طول باغي حتّى حدود بيوتيا عند كريوسا؛ ويشكّل الشريطان الآخران الساحل الممتدّ من سونيوس حتّى إيستم والبلاد الجبلية التي تقع على موازاته تقريباً، والتي تفصل أتيكا عن بيوتيا. والمنطقة الثانية، هي بيوتيا التي تمتدّ على شكل شريط من الشرق إلى الغرب، من بحر إيبيوس حتّى الخليج الكريسي؛ وهي تقريباً تساوي أتيكا طولاً، أو أقلّ منها بقليل؛ ولكنّها تتفوّق عليها كثيراً بخصوبة تربتها.

2- ويعلن إيثور أن بيوتيا لا تتفوّق على القبائل المجاورة بخصوبة تربتها فقط، بل أيضاً بكونها تمتلك ثلاثة بحار وعدداً أكبر من المراسي الجيّدة؛ وعبر الخليج الكريسي وخليج كورينثوس تتلقّى البضائع من إيطاليا، وصقليا، وليبيا، في الوقت الذي تتّجه فيه جزئياً نحو إيبيوس، لأنّ ساحلها يتفرّع على جانبيّ يوريبوس، على أحد الجانبين نحو أوليدا ومنطقة تاناغروس، وعلى الجانب الآخر نحو سالغانيوس وأنثيدون،

وفي أحد الاتجاهين ينبسط البحر بلا انقطاع حتّى مصر، وقبرص والجزر، وينبسط في الاتجاه الآخر نحو مقدونيا وبلدان البروبونتيدا والهليسبونت. ويضيف إيثور، أن يوريبوس يبدو كأنه يشكّل من إيبيوس جزءاً من بيوتيا، لأنّ يوريبوس ضيّق جدّاً، فالجزيرة تتّصل به بجسر طوله بليفران(*) فقط. وعلى هذا النحو يمدح إيثور البلاد على هذه الميزات، وهي بطبيعتها مؤهلة للسيادة بحسب رأيه؛ ولكنّ الذين تسلّموا مقاليد السلطة في ذلك الحين، أهملوا التربية والثقافة، ومع أنهم حقّقوا النجاح أحياناً، إلا أنّهم فشلوا في الحفاظ عليه إلا لبعض الوقت، كما يُظهر مثال إيبامينوندس، فما كاد الطيبيون يتذوّقون طعم الزعامة، حتّى خسروها بعد موته مباشرة. وكان السبب في ذلك، هو ازدراؤهم العلوم والتواصل مع الآخر، وحصر اهتمامهم في الميادين العسكرية فقط. وكان حريّاً بإيثور أن يضيف، إن هذا كلّه جيّد عندما تتعامل مع الإغريق، بيد أن القوّة أكثر فاعلية في التعامل مع البرابرة فقط، فالرومان عندما حاربوا القبائل المتوحّشة قديماً، لم تكن بهم حاجة قط لوسائل التنوير وما شابه، ولكنّهم ما إن أخذوا يتعاملون مع شعوب وقبائل أكثر تحضراً، حتّى التفتوا لاكتساب الثقافة نفسها وصاروا بذلك إلى سادة الجميع.

3- وهكذا، كان البرابرة يقطنون بيوتيا في الأزمنة السابقة: الآونيون، والتيميكيون الذين كانوا يرتحلون من سونيوس، وسكنها أيضاً الليليغيس والجيانتيون. ثمّ استولى على البلاد الفينيقيون الذين كان يقودهم قدموس، وقد حصّن هذا قدموسيا وورّث السلطة لخلفائه. وإضافة إلى قدموسيا أسّس هؤلاء الأخيرون طيبة وحافظوا على سلطتهم بترسيخ سيطرتهم على أكثر البيوتيين حتّى اجتياح الإيبيغونيين. وفي زمن السيطرة الإيبيغونية تركوا طيبة لبعض الوقت ثمّ عادوا إليها. وعلى هذا النحو نفسه تصرّفوا عندما طردهم التراقيون والبيلاسيغيس، ففرضوا مع الأرنيين، سلطتهم لزمن طويل على تساليا، فبات كلّهم يدعونهم بيوتيين. ثمّ عادوا أدراجهم إلى وطنهم في الوقت الذي كان فيه الأسطول الإيولي يستعدّ ويتجهّز ويتسلّح عند أوليدا في بيوتيا، وهو الأسطول الذي أرسله أبناء أوريستوس إلى آسيا. وبعد أن ضمّوا البلاد الأركومينية إلى بيوتيا (لأن الأركومينيين لم يكونوا على وفاق في الزمن القديم، ولم يذكرهم هوميروس في سجلّ واحد مع البيوتيين، إنّما يذكرهم كقبيلة منفردة يدعوها قبيلة المينيين)، تعاونوا مع الأركومينيين وطردوا البيلاسيغيس إلى أثينا (حيث دعي شطر من

---

*- البليفر = 29.6 م.

المدينة بعد ذلك باسم بيلاسغيكون، مع أنهم عاشوا عند سفوح هيميتوس)، والتراقيين إلى بارناس، أمّا الهيانتيون فقد بنوا مدينة هيانتوس في ثوكيدا.

4- ويروي إيثور أن التراقيين عقدوا اتفاق سلام مع البيوتيين، لكنّهم غدروا بهم وهاجموهم ليلاً، فقد ظنّ هؤلاء أن السلام قد حلّ فعلاً وأقاموا بقليل من الحيطة. وعندما نجح البيوتيون في صدّ الهجوم، واتهموا التراقيين بانتهاك اتفاق السلام، ألحّ هؤلاء على أنهم لم ينتهكوا الاتفاق، لأنه ينص على السلام «نهاراً»، وهم هاجموا ليلاً؛ ومن هنا جاء المثل القائل: «خدعة تراقية». ويواصل إيثور قائلاً، إن البيلاسيغيس كانوا قد لجؤوا إلى الموْحى منذ وقت الحرب، كما لجأ إليه البيوتيون أيضاً. ويقول إيثور إنه لا يستطيع أن ينقل ما أجابت به المتنبّئة البيلاسيغيس؛ أمّا البيوتيون فقد أجابتهم المتنبّئة قائلة، إنهم إذ يقترفون إثماً، ويسلكون سلوكاً غير شريف، يحقّقون النجاح؛ ولكنّ السفراء الذين أرسلوا لسؤال الموْحى ارتابوا في صدّق ما قالته لهم المتنبّئة وعدّوا إجابتها لصالح البيلاسيغيس لأنها ترتبط معهم بصلة نسب (والحقيقة أن المعبد كان في بادئ عهده بيلاسيغياً)، فخطفوا المرأة ورموا بها في النار؛ فقد رأوا أنهم على حق في الحالتين، أي في حال خدعتهم أم لم تخدعهم: إذا كانت قد خدعتهم فقد استحقت هذا العقاب، وإذا كانت قد صدّقت ولم تخدعهم، فإنهم بقتلها حقّقوا ما أمرت به النبوءة. أمّا الكهنة المشرفون على إدارة شؤون المعبد، فقد رأوا إنه من غير الحكمة، بحسب قوله، قتل الناس الذين اقترفوا هذا الإثم من غير محاكمة، زد إلى هذا أنهم في المعبد، فقدّموهم للمحاكمة ودعوهم للإجابة على أسئلة الكاهنات: أسئلة الكاهنتين الأخريين اللتين بقيتا على قيد الحياة. ولكن عندما احتجّ البيوتيون قائلين، إنه لا يوجد تقليد في أيّ مكان يبيح للنساء أن يكنّ قاضيات، اختاروا عدداً مماثلاً من الرجال أضافوه للنسوة القاضيات. وعلى هذا النحو صوّت الرجال لبراءة المتهمين وصوّتت النساء لإدانتهم، وبما أن عدد الأصوات كان متساوياً، فقد غلبت أصوات البراءة، ونتيجة لذلك لم يعد الرجال في دودونا يتنبؤون إلا للبيوتيين؛ ولكنّ المتنبّئات أوّلن النبوءة وقلن، إن الإله يأمر البيوتيين بسرقة الحراب الثلاثية وإرسال واحدة إلى دودونا كلّ يوم؛ وقد فعل البيوتيون ذلك فعلاً، ففي كلّ ليلة كانوا يسرقون واحدة من الحراب الثلاثية المكرّسة تقدمة، فيغطونها برداء ويرسلونها إلى دودونا متظاهرين بأنهم يفعلون ذلك خفية.

5- وبعد ذلك مدّ البيوتيون يد العون لبينثيلوس[2] ومرافقيه في بناء مستعمرة إيولية، فأرسلوا معه أكثر ناسهم، بحيث باتت هذه المستعمرة تدعى بيوتية. وبعد مضيّ زمن طويل خرّبت الحرب الفارسية البلاد، عندما باتت بلاتيا مسرحاً للعمليات القتالية.

ولكنّ الطيبيين ما لبثوا أن تعافوا إلى درجة أنهم بعد أن انتصروا على اللاكيديمونيين في معركتين[3] متتاليتين أخذوا ينافسونهم على زعامة الإغريق. ولكن عندما سقط إيبامينوندس في أرض المعركة، فقدوا الأمل بالسيطرة، ومع ذلك واصلوا القتال باسم الإغريق ضدّ الثوكيين الذين نهبوا معبدهم المشترك. ولما هزموا في هذه الحرب، وفي حربهم مع المقدونيين عندما هاجم هؤلاء الإغريق[4]، خسر الطيبيون مدينتهم[5]، التي دمّرها المقدونيون، لكنّهم عادوا وتسلموها مبنية من جديد بأيدي هؤلاء المقدونيين أنفسهم[6]. ومنذ ذلك الحين حتّى يومنا هذا وحياة الطيبين من سيّئ إلى أسوأ؛ وليس لطيبة الآن حتّى الملامح العامّة لبلدة لها أهمية ما؛ والحال نفسها تنسحب على المدن البيوتية الأخرى ما عدا تاناغرا وثيسبيا اللتين تعدّان في حالة جيّدة بالمقارنة مع طيبة.

6- وينبغي بعد هذا أن نصف البلاد بدءاً من الشطر الساحلي المقابل لإيبيوس، وهو الشطر الذي يجاور أتيكا. والبداية من أوروب و«هيروس ليمين» الذي يدعى دلفينوس؛ وتقع قبالته إريتريا القديمة في إيبيوس، ويبلغ طول الطريق البحرية إليها عبر المضيق 40 مرحلة.

7- ثمّ تأتي ديليس، ومعبد أبوللون الذي يعدّ صورة طبق الأصل عن معبد ديلوس. وديليس مدينة صغيرة للتاناغريين واقعة على بعد 30 مرحلة عن أوليدا. وإلى هنا أسرع الأثينيون هاربين بعد أن هزموا مرّة في إحدى المعارك. وفي أثناء الهروب رأى سقراط الفيلسوف، وكان يخدم في سلاح المشاة (لأن فرسه هربت وتركته)، كسينوفونت ابن غريللوس الذي سقط عن فرسه مرمياً على الأرض؛ فحمله سقراط على ظهره بعناية وسار به لمراحل كثيرة إلى أن توقف الهروب.

8- ويأتي بعد ذلك خليج كبير يدعى الخليج العميق[7]؛ ثمّ أوليدا، وهي مكان صخري وقرية للتيناغريين. ولا يتسع الخليج لأكثر من 50 سفينة، لذلك ليس مستبعداً أن تكون محطة الإغريق الشراعية في الخليج الكبير. وعلى مقربة يقع أيضاً يوريبوس عند خلكيدا التي تبعد عن سونيوس 670 مرحلة؛ وثمّة جسر عبر يوريبوس طوله بليفران، كما كنت قد قلت[8]؛ ويقوم على الجانبين برجان: أحدهما على الجانب الخلكيدي، والآخر على الجانب البيوتي؛ وتقود إلى كلّ برج طريق بنيت تحت الأرض[9]. وفيما يتعلّق بالتيارات الارتدادية ليوريبوس يكفي أن نقول، إنها تتغيّر، كما يروى، سبع مرّات كلّ نهار وليلة[10]؛ وينبغي أن ننظر في سبب هذه الظاهرة في مكان آخر.

9- وغير بعيد عن يوربوس يتوضّع فوق مرتفع، مكان يدعى سالغانيوس. وهو يحمل اسم البيوتي سالغانيوس المدفون هنا؛ وسالغانيوس هو الذي أرشد الفرس عندما

خرجوا إلى القناة من خليج ماليوس. ويروى أن ميغاباس قائد الأسطول الفارسي قتله قبل أن يتسنّ للفرس بلوغ يوريبوس؛ فقد عدّه ميغاباس خائناً قاد الأسطول إلى مضيق بحري ضيّق ليس له مخرج. ولمّا أدرك البربري خطأه، أحسّ بندم شديد وبنى ضريحاً للرجل الذي أعدم وهو بريء.

10- وعلى مقربة من أوروب يقع مكان يدعى غرييا، ومعبد لأمفيرايوس، وتمثال للإريتري ناركيس الذي يدعى سيغيلي[11]، لأنّ الناس يعبرون بالقرب منه وهم صامتون. ولكنّ بعضهم يزعم أن هذا هو تاناغرا نفسه، أمّا منطقة بيماندرس[12]، فهي نفسها منطقة تاناغرا؛ كما يدعى التاناغريون جيفيريين أيضاً. وكان معبد أمفيرايوس قد نقل إلى هنا من كنوبيا تلبية لما أشارت به النبوءة.

11- ميكاليس قرية واقعة في منطقة تاناغرا، على الطريق بين طيبة وخلكيدا؛ وهي تدعى باللغة البيوتية ميكاليت. وتقع غارما بدورها في منطقة تاناغرا؛ وهي قرية مهجورة تقع على مقربة من ميكاليت، وقد أخذت اسمها من مركبة أمفيرايوس؛ وتختلف هذه القرية عن غارما الموجودة في أتيكا قرب فيلا، الديموس الأتيكي المجاور لمنطقة تاناغرا. ومن هنا جاء المثل القائل: «عندما يبرق البرق عبر غارما»، لأنّ البيثيائيين[13] كانوا ينظرون بأمر من الكاهنة باتجاه غارما ويلاحظون كلّ بريق لصاعقة في هذا الاتجاه بصفته إشارة؛ وعندما كانوا يرون بريق الصاعقة، كانوا يرسلون الذبيحة إلى دلفى مباشرة. وكانت المراقبة تستمرّ ثلاثة أشهر، وكلّ شهر ثلاثة نهارات وثلاث ليال من محراب زيوس حامل الصاعقة؛ ويقع هذا المحراب داخل الأسوار[14] بين معبديّ أبوللون البيثي وزيوس الأوليمبيي. ويُروى عن غارما البيوتية الآتي: عندما سقط أمفيرايوس في أثناء المعركة من المركبة[15] قرب المكان الذي يقوم فيه معبده الآن فركنت المركبة الفارغة إلى مكان يحمل الاسم نفسه؛ بينما يقول آخرون، إن مركبة أدراستوس تحطمت هنا أثناء الفرار، أمّا هو نفسه فقد نجا على صهوة الأريون[16]. ولكنّ فيلوكور يقول، إن سكّاناً من الريف هم الذين أنقذوا أدراستوس، ولهذا منحهم الآرغوسيون حقوق المواطنة على قدم المساواة.

12- أمّا تاناغرا فهي تقع على يسار العائد من طيبة إلى أثينا، وتقع [مدينة البلاتيين][17] على يمينه. وهيريا بدورها تعدّ الآن تابعة لمنطقة تاناغرا، مع أنها كانت في الأزمنة السابقة على أراضي طيبة. وهيريا هي المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة هيريوس وولادة الأريون، كما يقول بينداروس في مدائحه[18]؛ وتقع هيريا بالقرب من أوليدا. ومع ذلك فإن بعضهم يقول، إن هيسوس تدعى هيريا، وهي تتبع منطقة نهر

أسوبوس عند سفوح كيثيرون على مقربة من إريثرا في أعماق البلاد؛ ومستعمرة الهيريين هذه أسّسها نيكتيوس والد أنتيوبا. وهناك قرية في منطقة آرغوس تدعى هيسوس أيضاً، ويدعى سكّانها هيسوسيين. وإريثرا التي في إيونيا، مستعمر للإريثريين البيوتيين. وهيليون أيضاً قرية في منطقة تاناغرا، وقد أخذت اسمها هذا من المستنقعات[19].

13- بعد سالغانيوس تأتي مدينة أ نثيدون وميناؤها؛ وهي آخر مدينة في هذا الشطر من الساحل البيوتي المقابل لإيبيوس، وهذا ما يقوله الشّاعر أيضاً:

... أنثيدون القصية.

(الإلياذا II، 508)

وإذا ما سرنا إلى الأمام قليلاً، فسنرى مدينتين بيوتيتين صغيرتين: لاريمنا التي يقع عندها مصبّ كيفيس، وإلى الأعلى قليلاً غالا سميّة ديموسات أتيكية[20]. ويقال إنه قبالة هذا الساحل تقع إيجي التي في إيبيوس حيث يقع معبد بوسيدون الإيجي، وأنا كنت قد ذكرته سابقاً[21]. ويبلغ امتداد الطريق البحرية عبر المضيق، من أنثيدون إلى إيجي 120 مرحلة، ولكنّها من مناطق أخرى أقصر قليلاً. ويقوم المعبد فوق جبل عال، وفي زمن ما كانت توجد هناك مدينة. كما تقع أوروبي قرب إيجي أيضاً. وفي منطقة أنثيدون يقع جبل ميسابوس المسمّى على اسم ميساب الذي وصل إلى يابيغيا ودعا البلاد باسم ميسابيا[22]. وترتبط بهذا الاسم أيضاً أسطورة غلاوكوس الأنثيدوني الذي يقال[23]، إنه تحوّل إلى كائن بحريّ.

14- وبالقرب من أنثيدون يقع مكان مقدّس في بيوتيا يحفظ بقايا المدينة، ويدعى إيسوس (ينطق المقطع الأول من الاسم قصيراً). وبحسب بعضهم أنه ينبغي أن يكتب بيت الشعر على النحو الآتي:

... إيسوس المقدّسة، وأنثيدون القصية

(الإلياذا II، 508)

بمدّ المقطع الأول شعرياً ليستقيم الوزن[24]، بدلاً من:

... ونيسا المقدّسة،

لأنه لا وجود لنيسا في أيّ مكان في بيوتيا، كما يقول أبوللودوروس في كتابه «عن سجلّ السفن [الهوميروسي]»[25]؛ ولذلك لا يمكن أن تكون نيسا قراءة صحيحة، إذا لم يكن الشّاعر يعني بها «إيسوس»؛ فقد كانت ثمّة في ميغاريدا مدينة تحمل الاسم

عينه نزح سكّانها إلى منحدرات كيثيرون؛ وقد اندثرت هذه المدينة الآن. ومع ذلك فإن بعضهم يكتب:

... وكريوسا المقدّسة،

وهم يعنون بذلك كريوسا المعاصرة، محطة الثيسبسيين الشراعية الواقعة في الخليج الكريسي؛ ويقترح آخرون القراءة التالية:

... وفارا المقدّسة.

وفارا هي واحدة من «أربع قرى اتّحدت» حول تاناغرا، وهي: هيليون، وغارما، وميكاليس، وفارا. ويكتب آخرون إضافة إلى ذلك:

... ونيسا المقدّسة[26].

أمّا نيسا فهي قرية في هيليكون. وبذلك نكون قد قدّمنا وصفاً تقريبياً للساحل المقابل لإيبيوس.

15- وتلي هذا بالترتيب السهول الواقعة في عمق البلاد، وهي عبارة عن وهاد محاطة بالجبال من باقي الجهات[27]؛ من الجنوب بجبال أتيكا، ومن الشمال بجبال ثوكيا؛ ومن الغرب ينحدر كيثيرون لينحني إلى الأعلى قليلاً فوق البحر الكريسي؛ ويتاخم في البداية جبال ميغارا وأتيكا، ثمّ ينعطف في السهول لينتهي في منطقة طيبة.

16- وبعض هذه السهول سهول مستنقعية، لأنّ الأنهار تصبّ فيها، مع أن أنهاراً أخرى تغمر السهول ثمّ تجد مخرجاً لها؛ وهناك سهول جفّت، ولأن تربتها خصبة فإنهم يحرثونها بوسائل شتّى. وبما أن أعماق الأرض هناك مليئة بالكهوف والشقوق[28]. فغالباً ما كان يحدث أن تغلق الهزّات الأرضية مخارج وتفتح أخرى: بعضها إلى سطح الأرض، وبعضها الآخر عبر قنوات تحت الأرض فقط. وعليه فإن بعض التيارات المائية تجري عبر قنوات جوفية، وبعضها الآخر على سطح الأرض مشكّلة بحيرات وأنهاراً. وعندما تردم القنوات الجوفية، تفيض البحيرات لتصل مياهها إلى الأماكن المأهولة؛ ويحدث أن تبتلع البحيرات مدناً، بل مناطق بكاملها؛ وعندما تفتح هذه القنوات وغيرها، فإن هذه الأماكن تتحرّر مرّة أخرى من الغمر. وعلى هذا النحو فإنك في الأماكن نفسها يمكن أن تبحر على متون السفن تارة، أو تمشي راجلاً تارة أخرى، كما يمكن أن تقع المدن نفسها على ضفاف البحيرات[29] حيناً أو بعيداً عنها أحياناً أخرى.

17- ويحدث هذا على وجهين: إمّا تبقى المدن في أماكنها السابقة، إذا لم يكن الفيضان قوياً بما يكفي لإغراق المساكن بسبب علوّها؛ أو تهجر المدن أو تنقل إلى مكان آخر، فعندما يتعرض سكّانها بصورة متواترة للخطر بسبب قربها من

البحيرات، يتحرّرون من خطر الغرق بالنزوح إلى أمكنة أكثر بعداً، أو أكثر ارتفاعاً. وينتج عن هذا أن المدن التي انتقلت إلى أماكن أخرى وحافظت على أسمائها السابقة (مع أنها فيما مضى دعيت بأسمائها وفق خاصيات محلّية عرضية، وجاءت تسميتها صحيحة)، باتت الآن تحمل أسماء لا تتوافق توافقاً دقيقاً مع الواقع. «فبلاتيا» مثلاً، ربّما تكون قد أخذت اسمها من «عنفة»[30] المجداف، و«البلاتيون» هم أولئك الذين كانوا يحصّلون لقمة عيشهم من العمل مجذفين؛ ولكنّ بما أنهم يعيشون الآن بعيداً عن البحيرة، فإن هذا الاسم لم يعد متوافقاً بدقّة مع واقع الأشياء. وقد دعيت هيلوس، وهيليون، وهيليسيون بأسمائها هذه لأنها كانت تقع على مستنقعات[31]؛ ولكنّ الحال تغيّرت الآن، فهذه المدن انتقلت إلى أماكن أخرى، أو أن مستوى البحيرة انخفض انخفاضاً ملحوظاً بسبب تسرب المياه الذي حصل فيما بعد وهذا أمر يمكن أن يحصل أيضاً.

18- ويتّضح هذا بجلاء خاص على مثال كيفيس الذي يملأ بحيرة كوبايدس: عندما كان مستوى المياه يرتفع فيها إلى حدّ يهدد بإغراق كوبا[32] (يذكر هوميروس كوبا، وهي التي منحت البحيرة اسمها)، كانت الهاوية التي تتشكّل عند البحيرة قرب كوبا تفتح قناة جوفية يبلغ طولها 30 مرحلة تستقبل النهر في جوفها، ثمّ ينبجس النهر إلى سطح الأرض عند لاريمنا العليا في لوكريدا؛ وتوجد لاريمنا أخرى كنت قد أتيت على ذكرها[33]، وهي لاريمنا البيوتية الواقعة على البحر والتي ألحق الرومان بها لاريمنا العليا. ويدعى المكان أنخويا[34]؛ وثمّة بحيرة تحمل الاسم عينه. ومن هنا ينبجس كيفيس في البحر. وعلى هذا النحو عندما كان الفيضان يتراجع، كان يتراجع معه الخطر عن سكّان الأطراف، طبعاً ما عدا المدن التي كانت قد غرقت. وعندما امتلأت القنوات الجوفية من جديد، كان كراتيت، ميكانيكي التعدين الخلكيدي قد بدأ بتنظيف التراكمات التي تشكّلت، ولكنّه توقف عن العمل[35] بسبب النزاعات الأهلية بين البيوتيين؛ مع أنه كتب إلى الإسكندر يقول، إن أماكن كثيرة كانت قد جففت. وكان بين هذه الأماكن بحسب بعض الكتّاب، المكان الذي كانت تقوم فيه أوركومين، وحسب آخرين إيليفسين واثينا على نهر تريتون. ويروى أن كيكروبس هو الذي أسّس هذه المدن عندما كان يحكم بيوتيا (التي كانت تدعى حينئذٍ أوجيجيا)، لكنّ الفيضان دمّرها فيما بعد. ويزعمون أن هاوية تشكّلت عند أوركومين وابتلعت نهر ميلان الذي كان يجري عبر منطقة هاليارتوس[36] ويشكّل هناك مستنقعاً ينمو فيه القصب الذي يستخدم لصناعة المزامير. ولكنّ هذا النهر اختفى تماماً: إمّا لأنّ الهاوية التي ابتلعته شتّتته في القنوات الجوفية، أو أن المستنقعات والبحيرات التي في

ضواحي هاليارتوس ابتلعته مسبقاً، وقد دعت هذه الضواحي الشّاعر لكي يصف هذه المنطقة بأنها «كثيرة الأعشاب»، إذ قال:

... ومدينة هاليارتوس على المروج الكثيرة الأعشاب

(الإلياذا II، 503)

19- وتتدفع هذه الأنهار من الجبال الثوكية، وبينها كيفيس الذي ينبع من عند ليلييا، المدينة الثوكية، على حدّ قول هوميروس:

سكنوا في ليلييا لدى مخرج تياركيفيس الصاخب

(الإلياذا II، 523)

وبعد أن يجري كيفيس عبر هلاتيا، وهي أكبر مدن ثوكيدا، وعبر بارابوتاميا وثانوتيوس[37]، وهما مدينتان ثوكيتان أيضاً، يتّجه نحو كيرونيا في بيوتيا، ثمّ يجري عبر منطقة أوركومين وكورونييا ويصبّ في بحيرة لوبايدس. وينبع بيرميس وأولمييوس من هيليكون، ثمّ يلتقيان ويصبّان في بحيرة كابايدس نفسها على مقربة من هاليارتوس؛ وهناك أنهار أخرى تصبّ في هذه البحيرة. وعلى هذا النحو فإن هذه البحيرة بحيرة كبيرة محيطها 380 مرحلة؛ ولا تظهر لها أي مخارج ما عدا الهاوية التي تبتلع كيفيس، والمستنقعات.

20- ومن بحيرات الأطراف بحيرة تريثيا وبحيرة كيفيس التي يذكرها هوميروس:

الرجل الذي يعيش في جيلا، المهموم همّ

الجشع بالثروة، عند بحيرة كيفيس كان يعيش...

(الإلياذا II، 708)

فالشّاعر لا يعني هنا بحيرة كوبايدس، كما يرى بعضهم، بل يعني بحيرة جيليكا (والنبرة على المقطع الأخير كما في lyrice) التي أخذت اسمها من قرية مجاورة تدعى جيلا (والنبرة هنا كما في lyra وthyra)، وليس جيدا، كما يكتبها بعضهم:

الرجل الذي يعيش في جيدا

ولكنّ جيدا تقع في ليديا

حول تمولوس الذي تكسوه الثلوج، في قرية جيدا المزدهرة،

(الإلياذا XX، 385)

بينما جيلا في بيوتيا؛ وفي الأحوال كلّها، فإنّ الشّاعر يضيف إلى كلماته

عند بحيرة كيفيس كان يعيش

كلمات أخرى

... حـيث الآخـرون أيضـاً

عاش البيوتيون عائلات.

إن بحـيرة كوبايـدس بحـيرة عظيمـة، وهــي لا تقـع في منطقـة طيبـة أبـداً؛ بينمـا جيليكا بحيرة صغيرة تستمد مياهها من بحيرة كوبايدس عبر قنوات جوفية؛ وهـي تقع بـين طيبـة وأنثيـدون. وعلـى أيّ حـال فـإن هـوميروس يسـتخدم الكلمـة بصـيغة المفـرد، مستبعداً المقطع الأول في بعض الأحيان، كما في «سجلّ السفن»،

وجيلا وبيتيون

(الإلياذا II، 500)

وهو يفعل ذلك لضرورة الشعر؛ ويشدّدها أحياناً أخرى

الرجل الذي يعيش جيْلاَ

و

تيخوس، الدبّاغ الأشهر، الذي يعيش في جيْلاَ

(الإلياذا VII، 221)

وهنا أيضاً يكتب بعضهم خطأ: «في جيدا»، فإيانثوس لم يوص على ترسه في ليديا.

21- إن هاتين البحيرتين يمكـن أن ترشـدا إلى نظـام تتـالي الأمـاكن الـتي تـأتي بعدهما، بحيث يمكن تحديد مواقعها بوضوح في عرضنا هذا؛ فالشّاعر لا يلتزم نظاماً محدّداً في أسماء الأماكن، ولا يلقي بـالاً إلى مـا إذا كانـت هـذه تسـتحق الـذكر أم لا. وعلى وجه العموم، من الصعب جدّاً وأنت تورد هـذا العـدد الكـبير من أسمـاء الأمـاكن التي لا أهمية لأكثرها، والتي تقع في أعماق البلاد، ألا تخطئ في نظام تواليها. ولكـنّ للسـاحل ميّـزة في هـذا الميـدان: الأمـاكن أكـثر شـهرة، ويعطـي البحـر بـدوره إرشـادات أفضل لنظام توضّعها. ولذلك فإنني سأحاول أن أبدأ من الساحل، مع أنه ينبغي عليّ الآن أن أعزف عن عزمي هـذا وأقتفـي إثـر الشّـاعر في تعداد الأمـاكن وأضـيف كـلّ مـا هـو مفيد مما أخذته مـن مصـادر أخـرى أهملـها الشـاعر. فهوميروس يبـدأ مـن هيريـا وأوليـدا اللتين تحدّثت عنهما[38].

22- إن سخينوس[39] مكـان على أراضي طيبة، يقـع على الطريق مـن طيبـة إلى أنثيدون على مسافة تقارب 50 مرحلة عن طيبة؛ ويجري عبره نهر سخينونت.

23- وسـكولوس قريـة تقـع في المنطقـة الـتي تمتـدّ علـى طـول نهـر أسـوبوس عنـد سفوح كيثيرون، وهـو مكـان صخري غير ملائم لعيش الإنسـان، ومـن هنـا جـاء المثل القائل:

لا تذهب أنت نفسك إلى سكولوس،

ولا ترافق أحداً إلى هناك.

ومن هنا جاء قولهم: اقتدن بينفيوس ومزقنه[40]. كما كانت هناك مدينة بين المدن الواقعة حول أولينث تحمل بدورها اسم سكولوس. وكما كنت قد قلت[41] إن هناك قرية في هيراقليا التراخينية تحمل اسم باراسوبيا يجري بالقرب منها نهر أسوبوس؛ وثمّة في سيكيون نهر يدعى أسوبوس أيضاً، وهو يجري عبر منطقة تدعى أسوبيا؛ وهناك أنهار أخرى تحمل هذا الاسم عينه.

24- وغيروا اسم إيتيونوس فباتت تدعى سكارثا، وهذه بدورها تقع في منطقة على نهر أسوبوس، لأنّ أسوبوس وإيسمين يجريان عبر سهل يقع أمام طيبة. ويقع هنا نبع ديركا، ومدينة بوتني؛ وبهما ترتبط أسطورة غلاوكوس البوتني الذي مزقته المهرات البونتية على مقربة من المدينة. وكيثيرون بدوره ينتهي غير بعيد عن طيبة. ويجري أسوبوس بالقرب من كيثيرون، حيث يروي سفوح الجبل ويقسم الباراسوبسيين إلى كثرة من القرى التي تخضع كلّها لطيبة، مع أن كتّاباً آخرين يقولون، إن سكولوس، وإيتيونوس، وإريثرا تقع على أراضي البلاتيين، لأنّ النهر يجري بالقرب من بلاتيا ويصبّ في البحر غير بعيد عن تاناغرا. وتقع في منطقة طيبة مدينتا ثيرابنا وتيفميس، وقد تغنّى أنتيماخ بهذه الأخيرة في كثير من أشعاره[42] وأتى على ذكر كثير من السمات التي لا وجود لها في الواقع مثل:

هناك تلّ معتدل الارتفاع، تلعب عليه النسائم،

لكنّ هذه الأشعار غير معروفة.

25- ويدعو أنتيماخ ثيسبي المعاصرة ثيسبيا؛ وحقيقة الأمر أن هناك كثيراً من أسماء الأمكنة التي تستخدم بهذه الصيغة أو تلك (بصيغة الجمع أو صيغة المفرد)، وعلى النحو عينه بصيغة المذكر أو صيغة المؤنث، بينما لا تستخدم أسماء أخرى إلا بصيغة واحدة. وثيسبي مدينة واقعة عند جبل هيليكون، إلى الجنوب منه قليلاً؛ وتقع ثيسبي وهيليكون معاً على الخليج الكريسي. وللمدينة ميناء تدعى كريوسا، كما تدعى كريوسيدا أيضاً. وفي منطقة ثيسبي، في شطرها الواقع نحو هيليكون، تقع آسكرا أيضاً، وهي مسقط رأس هسيود؛ وتقع على يمين هيليكون في مكان صخري مربع يبعد 40 مرحلة عن طيبة. وقد سخر هسيود نفسه من هذه المدينة في أشعاره، عندما لام والده لأنه ترك كيما الإيولية وجاء ليقيم هنا:

في آسكرا، القرية الكئيبة، عند هيليكون أقام،

هي ثقيلة مضنية صيفاً، وسيّئة شتاء،

وغير محببة في أي وقت كان.

(الأعمال والأيام، 639-640)

ويتاخم هيليكون ثوكيدا في أجزائه الشمالية، وعلى امتداد صغير في أجزائه الغربية، في منطقة آخر موانئ ثوكيدا التي لهذا السبب دعيت ميكوس[43]؛ ففي الجهة المقابل تماماً، فوق هذا الخليج الكريسي يقع هيليكون وآسكرا، وكذلك ثيسبي ومحطتها الشراعية كريوسا. ويعدّ هذا الجزء المكان الأعمق في الخليج الكريسي، بل في خليج كورينثوس على وجه العموم. ويبلغ امتداد الخطّ الساحلي من ميناء ميكوس إلى كريوسا 90 مرحلة، ومن كريوس الرأس البحرية التي تدعى هولمي 120 مرحلة. وعليه فإن باغي وإينويا اللتين كنت قد تحدّثت عنهما[44]، تقعان في أعمق مكان في الخليج. وعلى هذا النحو فإن هيليكون لا يبعد كثيراً عن بارناس ولا يقلّ عنه علوّاً وحجماً، لأنّ الجبلين معاً تغطّيهما الثلوج، والصخور، ولا يشغلان حيزاً كبيراً. ويقع هنا معبد الميوزات، ونبع هيبوكريني، وكهف الحوريات الليبيثريدس؛ ونحن يمكننا أن نستنتج من هذا أن الناس الذين كرّسوا هيليكون للميوزات، كانوا تراقيين، وقد كرّسوا لهؤلاء الإلهات عينهن منطقة بيريدا ومدينتي ليبيثرون وبيمبلييا. وقد دعوا هؤلاء التراقيين بالبييريين. ولكن الآن، وبعد اندثارهم باتت هذه الأماكن من أملاك المقدونيين. ونحن كنا قد ذكرنا[45]، أن التراقيين، مثلهم مثل البيلاسيغيس والبرابرة الآخرين، قد سكنوا في زمن ما هذا الشطر من بيوتيا بعد أن طردوا البيوتيين من هناك. وفي الأزمنة الماضية نالت ثيسبي شهرة واسعة بفضل إروتوس براكسيتل؛ وإروتوس هو تمثال صنعه براكسيتل النحات، وقد أهدته الهيتيرا غليكيرا للثيسبيين لأنها هي نفسها كانت من ثيسبي (وكان النحات نفسه قد أهدى التمثال إليها). ولذلك كان الرحالة في الأزمنة الماضية يأتون إلى ثيسبي لكي يشاهدوا هذا الإروتوس، فالمدينة لم يكن فيها أيّ معلم آخر ذي أهمية، وهي نفسها لم تكن تمثّل أي أهمية تذكر. وفي الوقت الراهن لم يبق من المدن البيوتية سوى ثيسبي وتاناغرا؛ أمّا المدن الأخرى فلم يبق منها سوى أطلالها وأسمائها.

26- وبعد ثيسبي يذكر هوميروس غرييا وميكاليس اللتين تحدّثت عنهما سابقاً[46]. والشيء عينه يقوله الشّاعر عن المدن الأخرى:

والذين يسكنون حول إيليسوس وغارما

وحول إريثرا، وكلّ سكّان جيلا، وإيليون

وبيتيون.

(الإلياذا II، 499)

وبيتيون هي قرية في منطقة طيبة غير بعيدة عن الطريق إلى أنثيدون. وتقع أوكاليا في الوسط بين هاليارتوس وألالكومينا على بعد 30 مرحلة من هذين الموقعين، ويجري بالقرب منها نهر يحمل الاسم عينه. وتقع ميديون الثوكية على الخليج الكريسي على بعد 160 مرحلة من بيوتيا، بينما ميديون البيوتية التي دعيت بهذا الاسم بميديون الثوكية، تقع على مقربة مباشرة من أونخيستوس عند سفح جبل فينيكوس، وعلى اسم هذا الجبل أعيدت تسمية المدينة فباتت تدعى فينيكيدس. ويعدّ هذا الجبل جزءاً من أراضي طيبة، لكنّ بعضهم يلحق ميديون واوكاليا بمنطقة هاليارتوس.

27- ويتابع هوميروس قائلاً:

وكوبا، ويوتريس وفيسبا الجميلة ذات الحمام

(*الإلياذا* II، 502)

وأنا كنت قد تحدّثت عن كوبا. فهي تقع إلى الشمال على بحيرة كابايدس؛ والمدن الأخرى الموجودة في المكان هي: أكريفوس، وفينيكيدس، وأونخيستوس، وهاليارتوس، وأوكاليا، وألالكومينا، وتيليفوسيوس وكورونيا. وفي الأزمنة الماضية لم يكن للبحيرة اسم واحد، بل كانت تدعى بأسماء مختلفة تبعاً لمختلف القرى التي كانت تقع عليها، فقد دعيت كوبايدس تبعاً لاسم كوبا، وهاليارتوس تبعاً لاسم المستوطنة التي حملت الاسم عينه، وعلى هذا المنوال جاءت أسماؤها الأخرى؛ وفيما بعد دعيت البحيرة باسم كابايدس، وهو الذي غلب، لأنّ مكان مدينة كوبا هو أعمق أجزاء البحيرة. وقد دعا بينداروس هذه البحيرة باسم كيفيسيدا[47]. وعلى أيّ حال فهو يوضّح بالقرب منها نبع تيلفوسا الذي يجري عند سفح تيلفوسيوس بالقرب من هاليارتوس وألالكومين، ويقع عند النبع قبر تيريسوس؛ ويقوم هنا معبد أبوللون التيلفوسي.

28- وبعد كوبا يوضّح هوميروس بالترتيب يوتريسيا، وهي قرية ثيسبيسية صغيرة يقال إن زيتوس وأمفيون قد عاشا فيها قبل أن يملكا على طيبة. وفيسبا تدعى الآن فيسبي؛ وهي مكان يقع على البحر ولا تسكنه سوى قلة من الناس، وتجاور فيسبي منطقة الثيسبيين وأرض كورونيا؛ وتقع من جهتها الجنوبية عند سفح هيليكون؛ ميناؤها صخرية، يكثر فيها الحمام، ولذلك قال الشاعر:

... وفيسبي الجميلة ذات الحمام

(*الإلياذا* II، 502)

ويبلغ امتداد الطريق البحرية من هنا إلى سيكيون 160 مرحلة.

29- ثمّ يذكر هوميروس بعد ذلك كورونيا، وهاليارتوس، وبلاتيا،

وهليسانتوس. وتقع كورونيا على مرتفع قرب هيليكون. وكان البيوتيون قد استولوا عليها لدى عودتهم من آرنا التسالية بعد نهاية حرب طروادا، حينما استولوا على أوركومين أيضاً. وإذ فرضوا سيادتهم على كورونيا، بنى التساليون في السهل أمام المدينة، معبداً لأثينا الإيثونية حمل اسم المعبد التسالي عينه؛ أمّا النهر الذي يجري على مقربة من المدينة فقد دعوه كواريوس، وهو أيضاً اسم نهر في تساليا. ولكنّ ألكييوس يدعوه كوراليوس في الأبيات الآتية:

العذراء أثينا، صاحبة الدرع!

حيث تطوفين بمعبدك الكوروني

عبر المروج المقدّسة المروية،

هناك حيث يهدر تيار كوراليوس!

(*مقطع 3، بيرغك*)

وكانت تقام هنا البامبيوتيا عادة. ويقال إنهم لسبب ما ذي طبيعة صوفية كرّسوا في المعبد تمثاليّ هاديس وأثينا معاً. ويدعى سكّان كورونيا كورونيين، بينما يدعى سكّان كورونيا الميسينية كوروناييين.

30- ولم تعد هاليارتوس موجودة الآن، لأنّ الحرب ضدّ برسيوس سوتها بالأرض؛ أمّا البلاد فيمتلكها الأثينيون، وقد تلقوها تقدمة من الرومان. لقد كانت هاليارتوس تقع في حيز ضيق بين الجبل الذي يعلو فوقها وبحيرة كوبايدسن غير بعيد عن نهر بيرميس، ونهر اولمييوس، والمستنقع الذي ينمو فيه القصب الصالح لصناعة المزامير.

31- وتقع بلاتيا التي يتحدّث عنها هوميروس بصيغة المفرد، عند سفح كيثيرون، بينه وبين طيبة على الطريق إلى أثينا وميغارا، على الحدود بين أتيكا وميغاريدا؛ لأنّ إيليفتيرا تقع على مقربة، فبعضهم يلحق هذه المدينة بأتيكا وبعضهم الآخر ببيوتيا. وأنا كنت قد قلت[48]، إن أسوبوس يجري قرب بلاتيا. وهنا في هذا المكان أبادت القوات الإغريقية القوات الفارسية الـ 300.000 التي كان يقودها مردونيوس، فأقاموا معبداً لزيوس الإيليفتيري وأسّسوا ألعاباً رياضية ينال الفائز فيها إكليلاً، وقد دعوا هذه الألعاب بالألعاب الإيليفترية. وحتّى يومنا هذا يمكنك أن ترى الأضرحة التي أقاموها بتمويل من المجتمع تكريماً للذين سقطوا في تلك المعركة. وثمّة في منطقة سيكيون ديموس يحمل اسم بلاتيا أيضاً؛ ومن هناك ينحدر الشّاعر مناسالكوس:

هذا هو قبر مناسالكوس الذي ينتمي إلى بلاتيا.

ويدعو هوميروس هليسانتوس بلدة في جبل هيباتوس الذي يقع في منطقة طيبة غير بعيد عن تيفموس وقدموسيا. وتدعى الهضاب التي ينبسط تحتها السهل المسمّى سهل آوينوس، الذي يمتدّ من جبل هيباتوس حتّى طيبة، هضاب دريي[49].

32- ويرى بعضهم أن هوميروس يعني بقوله:

كل الذين يسكنون مدينة هيبوطيبة،

(*الإلياذا* II، 505)

مدينة ما تدعى هيبوطيبة، بينما يرى آخرون أنه يعني بها مدينة أخرى، هي بوتني؛ لأنّ طيبة كان سكّانها قد هجروها إثر حملة الإيبيغونيين ولم تشارك في حرب طروادا، كما يقول هؤلاء الأخيرون. ويؤكّد الفريق الأول أن الطيبيين شاركوا فعلاً في حرب طروادا، لكنّهم كانوا يعيشون عندئذٍ في منطقة منخفضة تقع في ضواحي قدموسيا؛ فبعد رحيل الإيبيغونيين لم يكونوا قادرين على إعادة بناء قدموسيا؛ وفي تلك الأثناء كانت قدموسيا قد باتت تدعى طيبة، بحسب هؤلاء، أمّا الشّاعر فقد دعا طيبيي ذلك الحين، هيبوطيبيين بدلاً من أن يقول «الساكنين في ضواحي قدموسيا».

33- وتقع أونخيستوس هناك حيث كان يلتئم عادة مجلس الأمفيكتونيين في منطقة هاليارتوس عند بحيرة كوبايدس وسهل تينيروس؛ وهي تقوم فوق مرتفع خال من الشجر وفيه رقعة من الأرض مقدّسة كرّست لبوسيدون، وهذه الأخيرة جرداء بدورها وليس فيها أي نباتات كانت. أمّا الشعراء فإنهم يجمّلون الواقع ويدعون كلّ أرض مقدّسة «دغلاً مقدّساً»، حتّى لو لم يكن فيها أي شجر. ومثل هذا ما قاله بينداروس عن أبوللون:

... جال مندفعاً جامحاً

عبر البر والبحر، وعلى الجبال الشاهقة توقف،

وإذ زعزع الصخور العظيمة، مهد الأرض

للأدغال المقدّسة.

(*مقطع* 101، *بيرغك*)

ولم يكن ألكييوس محقّاً عندما حرّف اسم نهر كواريوس، ولا عندما أعطى تصوّراً غير حقيقي عن موقع أونخيستوس التي وضّعها على أطراف هيليكون، مع أن المسافة كبيرة بين موقع المدينة وهذا الجبل.

34- لقد أخذ سهل تينيروس اسمه من تينيروس الذي تقول الأسطورة، إنه كان

ابناً لأبوللون انجبه من ميليا، ومتنبّئاً في موحى يقوم على جبل بتويوس الذي يسميه ذلك الشّاعر نفسه[50]، بذي القمم الثلاث:

وامتلك يوماً ثغر بتويوس ذي القمم الثلاث.

(مقطع 102، بيرغك)

وهو يدعو تيناروس

كاهناً معبدياً، نبيّاً سميّ الوديان.

ويقع بتويوس فوق سهل تينيروس وبحيرة كوبايدس عند أكريفوس. والموْحى والجبل ملكية للطيبيين. وأكريفوس نفسها تقع على مرتفع. ويقال إن هوميروس يدعوها آرنا، وهو اسم المدينة التسالية عينه.

35- وبحسب ما يقوله بعض الكتّاب، إن البحيرة أغرقت آرنا، وكذلك ميديا. ويبدو واضحاً أن زينودوت الذي يكتب مصححاً هوميروس:

... وآسكرا الوفيرة الأعناب[51]

(الإلياذا II، 507)

لم يقرأ ما كتبه هسيود عن موطنه، ولا ما نقله إيفدوكس الذي يكتب عن آسكرا ما هو أسوأ بكثير. فكيف يمكننا أن نصدّق أن الشّاعر قد وصف هذا المكان بأنه «وفير الأعناب». والخطأ نفسه يرتكبه أولئك الذين يكتبون تارنا بدلاً من آرنا؛ فليس لدى البيوتيين أي مكان يدعى تارنا، أمّا الليديون فلديهم مثل هذا المكان، وهوميروس يذكره:

إيدومينوس قهر الميوني ابن بورروس،

وفستوس الذي جاء إلى ميدان القتال من تارنا الخصيبة.

(الإلياذا II، 43)

ومن المدن البيوتية الأخرى الواقعة حول البحيرة تستحق الذكر: ألالكومينا، وتيلفوسيوس، وتستحق الذكر مما تبقى: كيرونيا، وليباديا، وليفكرتا.

36- ويأتي الشّاعر على ذكر ألالكومينا، ولكن ليس في «سجل السفن»:

هيرا الآرغوسية، وأثينا ألالكومينا

(الإلياذا IV، 8)

ففي المدينة معبد لأثينا يحظى بأعظم تبجيل؛ حتّى أنهم يقولون، إن الإلهة ولدت هنا على وجه التحديد، مثلما ولدت هيرا في آرغوس، ولذلك دعا الشّاعر كلاً منهما باسم مدينتها الأم. وربّما لهذا السبب لم يذكر هوميروس في «سجل السفن» أن الذين

من ألالكومينا قد أُعفوا من المشاركة في الحملة لأنهم أناس مقدّسون. والحقيقة أن ألالكومينا لم تتعرض يوماً للغزو، مع أنها مدينة صغيرة ولا تقع في مكان محصن تحصيناً جيداً، بل في سهل. ولكنّ تقديس الجيران للإلهة منعهم من استخدام القوة ضدّ سكّان المدينة؛ وفي زمن حملة الإيبيغونيين نزح الطيبيون من مدينتهم، ويقال إنهم بحثوا عن ملجأ آمن لهم في ألالكومينا وعلى جبل تيلفوسيوس في مكان حصنته الطبيعة نفسها؛ وثمّة في سفح الجبل ينبوع يدعى تيلفوسا وشاهدة قبر تيريسيوس الذي مات هناك أثناء الهروب.

37- وتقع كيرونيا على مقربة من أركومين. وهنا انتصر فيليب ابن أمينتا على الأثينيين، والبيوتيين، والكورونثيين في معركة كبيرة[52] غدا بعدها سيّد بلاد اليونان. ويقوم هنا أيضاً نصب تذكاري لضحايا تلك المعركة أقامه الناس على نفقتهم. وفي هذا المكان أيضاً دمّر الرومان قوّات ميتريدات التي كانت تعدّ عشرات آلاف المقاتلين، ولم ينج منها سوى قلّة قليلة نجحت في أن تصل إلى السفن، بينما وقع الباقي بين قتيل وأسير.

38- أمّا ليباديا فهي المكان الذي يقع فيه موْحى زيوس تروفونيوس، ويقود إلى الموْحى دهليز مؤلّف من أخاديد تحت الأرض. وينحدر وجه سائل الموحى نفسه نحو سرداب. ويقع الموحى بين هيليكون وكيرونيا على مقربة من كورونيا.

39- وليفكترا هي المكان الذي انتصر فيه إيبامينوندس على اللاكيديمونيين في معركة كبرى فاصلة وضعت بداية دمارهم. فمنذ ذلك الحين باتوا عاجزين عن إعادة فرض سيطرتهم على الإغريق خاصة بعد المعركة الثانية التي وقعت عند مانتينيا. ومع ذلك نجح اللاكيديمونيون في تفادي خضوعهم للآخرين حتّى لحظة استيلاء روما على اليونان. وحتّى الرومان أظهروا لهم احتراماً خاصاً بسبب نظام الدولة الذي بنوه. ويُرونك هذا المكان على الطريق من بلاتيا إلى ثيسبي.

40- ثمّ يورد هوميروس بعد ذلك سجلّ الأركومينيين الذين يفصلهم عن قبيلة البيوتيين. وهو يدعو أركومين «مينية» تبعاً لقبيلة المينيين. ويقولون، إن فريقاً من المينيين نزح من هنا إلى يولك، ولذلك دعي الأرغونيون مينيين. ويبدو أن أركومين كانت في الأزمنة القديمة مدينة عامرة غنية وجبّارة. ويعد هوميروس شاهداً على غناها، فهو يقول لدى تعداده الأماكن الغنية:

حتى لو كلّ ما يأتي به المصريون إلى طيبة وأركومين

(*الإلياذا* IX، 381)

ويشـهد علـى جبروتهـا أن الطيـبـيين كـانوا يـؤدون الإتـاوة لهـا ولحـاكمهـا الـتيران إرغينـوس الـذي يقولـون إنـه قتـل هرقـل. وكـان إيتيـوكلس، وهـو أحـد ملوكهـا الأوائـل الذي بنى معبد الهاريتيس، أوّل من أظهر هذا وذاك أي الغنى والجبروت، لأنـه بجّل آلهة الثروة وآلهة القوة بقبوله أو تلقيه هدايا أو أنـه كـان يشعر بالسعادة والرضا لهذا وذاك. فهذا الملك كان بطبيعته يميل إلى أعمال الخير، ولذلك كـان لا بـد لـه مـن أن يتّجـه إلى تبجيل هاتين الإلهتين بالضرورة، وعلى هذا النحو كان قد امتلك هذا الجبروت؛ بيد أنـه إضافة إلى السلطة كان يجب امتلاك مـوارد ماليـة، فمـن يملـك القليـل، ولا يسـتطيع أن يملك الـكثير، ليس بمقدوره أن يعطي الـكثير، ولا أن يتلقى الـكثير. ولـكن مـن يمتلك هـذا وذاك معـاً، يسـتطيع أن يعطـي ويأخـذ؛ إن الإنـاء الـذي يفـرغ ويمتلـئ في الآن عينـه، يكـون دائمـاً مملـوءاً لتلبيـة الحاجـات، أمّـا الـذي يعطـي فقـط ولا يأخـذ، فلـن يكـون بإمكانه أن يتابع طريقته هذه؛ وسيتوقف عن العطاء عندما تنضب خزنته؛ وعلـى النحـو نفسه فإن الذين يعطون سوف يتوقفون عن إعطاء من يأخذ فقط ولا يقدّم الشـكر علـى هذا العطاء؛ ولذلك لن يكـون بمقـدوره أن يكـون ناجحـاً بسـلوكه هـذا. والشـيء نفسـه يمكن أن نقوله بالنسبة للجبروت. وإلى جانب القول الشائع،

أثمن الكنوز عند الناس، هو المال،

والسلطة عندهم هي أعظم ما في الوجود،

ينبغي علينا أن نعالج هذه المسألة بالتفصيل. إننا نزعم أن الملوك يملكـون أكبر سلطة، ولـذلك نـدعوهم حكّامـاً آمـرين. فلـديهم الإمكانيـة كلّهـا لقيـادة الشـعب إلى حيـث يشاؤون، بالإقناع أو بالقوة. ولكنّهم يلجؤون إلى الإقناع عادة، مستخدمين أعمال الخير لبلوغ هدفهم، لأنّ الإقناع بالكلام ليس من صفة الملوك، بل الخطباء. ونحن نتحدّث عن قدرة الملوك على إقنـاع النـاس وتـوجيههم إلى حيـث يشـاؤون بوسـاطة الأعمـال الطيبـة. إن أعمال الخير هي وسيلتهم لإقنـاع النـاس، والقـوة أداتهـم لإرغـامهم. ويمكـن تحقيـق هـذه وتلك بالمال؛ فمن يملك أكبر الجيوش، هـو ذلـك الـذي يسـتطيع كفاية أكبر عدد مـن المقاتلين، وذلك الذي يملك أكبر الموارد، يستطيع أن يقدّم أعظم أعمال الخير.

ويقـال إن المكـان الـذي تشـغله بحيرة كوبايـدس الآن، كـان فيمـا مضـى أرضـاً جافة تحرث بوسـائل شـتّى، وكـانت تابعـة حينئـذٍ للأركـومينيين الـذين كـانوا يقطنـون على مقربة. ويسوقون هذه الواقعة برهاناً على ثرائهم.

41- ويـدعو بعضـهم إسـبليدون، سـبليدون، مسـقطين الحـرف الأول. وفيمـا بعـد أعيـدت تسـمية المدينـة ومعهـا المنطقـة كلّهـا فباتـت تـدعى إيفـديلوس، ربّمـا لأنّ المدينـة

كانت تتوفّر على ميّزة ما خاصة بسكّانها تحديداً بسبب «ميلها المسائي»[53]، حيث شتاءاتها خفيفة؛ ولكن ثمّة نقطتان طرفيتان أوّل النهار وآخره، هما الأكثر برودة، وفترة المساء منهما أبرد من فترة الصباح، لأنّ البرد يشتدّ مع هبوط الليل، لكنّ شدّة وطأته تتراجع عندما يقترب الليل من آخره. والشمس هي التي تجعل وطأة البرد تتراجع. وعلى هذا النحو فإن المكان الذي تسخنه الشمس أكثر في أكثر الأوقات برودة، هو المكان الذي يكون شتاؤه أكثر لطافة. وتقع إيفريلوس على بعد 20 محلة من أركومين ويجري بين المدينتين نهر ميلان.

42- وتقع إلى الأعلى من منطقة أوركومين مدينة بانوبيوس ومدينة هيامبوليس الثوكيديتين. وتجاور هاتين المدينتين مدينة أوبونت، متروبوليا اللوكريين الإيبيكنيميديين. ويقولون، إن أوركومين كانت في الأزمنة الماضية، تقع في سهل، ولكن عندما ارتفعت المياه إلى أعلى، نزح السكّان إلى جبل أكونتيا الذي يمتدّ 60 مرحلة إلى بارابوتاميوس في ثوكيدا. ويروى أن الآخيين الذين على البونت كانوا قد استعمروا الأوركومينيين الذين بعد الاستيلاء على طروادا تاهوا في هذه المنطقة. وقد قاد جموعهم يالمين. وكانت ثمّة أوركومين أخرى قرب كاريستوس. وقد زودنا بهذه المعلومات الغزيرة كلّها مؤلّفو المؤلّفات عن «سجلّ السفن»، ونحن نقتفي أثرهم عندما ينقلون مادّة تلائم موضوع مؤلّفنا هذا.

الفصل الثالث

1- بعد بيوتيا وأوركومين تأتي ثوكيدا التي تمتدّ إلى الشمال على طول بيوتيا من البحر إلى البحر تقريباً؛ هذا ما كان قديماً في أقلّ تقدير، فدافنوت في تلك الأزمنة كانت لثوكيدا، وكانت تقسم لوكريدا إلى شطرين، وتقع بين خليج أوبونت وساحل الإيبيكنيميديين. والبلاد الآن للوكريين (لقد سويت المدينة بالأرض)، بحيث لم تعد ثوكيدا تمتدّ هنا حتّى بحر إيبيوس، مع أنها تلامس الخليج الكريسي. فكريسوس نفسها تعود لثوكيدا، وهي واقعة قرب البحر مباشرة، مثلها مثل كيرا، وأنتيكيرا، والمناطق الواقعة أعلى منها في عمق البلاد، والمتاخمة لها قرب بارناس: دلفي، وكيرثيدا، ودافليدا، وبارناس نفسها التي تعود لثوكيدا وتشكّل حدودها من جهة الغرب. وكما أن ثوكيدا تقع قرب بيوتيا، كذلك اللوكريدتان تقعان جنباً إلى جنب مع ثوكيدا، لأنه ثمّة لوكريدتان تفصل بينهما بارناس: إحداهما في الجانب الغربي تقع على الحدود مع بارناس، فتضمّ جزءاً منها وتمتدّ حتّى الخليج الكريسي؛ وتقع

الأخرى في الجانب الشرقي وتنتهي عند بحر إيبيوس. ويدعى سكّان لوكريدا الغربية لوكريين وأوزوليين، وقد رسم هؤلاء على خاتم دولتهم صورة نجم سهيل. واللوكريون الآخرون أنفسهم منقسمون أيضاً: اللوكريون الأوبونتيون، وقد أخذوا اسمهم من اسم المتروبوليا التي خرجوا منها، ومنطقتهم تجاور الثوكيين، والبيوتيين؛ واللوكريون الأيبيكنيميديون الذين أخذوا اسمهم من اسم جبل كنيميدا، ويجاور هؤلاء اللوكريون، الإيتيين والماليين. وفي الوسط بين الفريقين (اللوكريين الغربيين واللوكريين الآخرين) يرتفع جبل بارناس الذي يمتدّ طولاً باتجاه الشطر الشمالي من البلاد من منطقة دلفي حتّى نقطة التقاء الجبال الإيتية والإيثولية وبلاد الدوريين الواقعة بينها في الوسط. لأنه كما أن لوكريدا ثنائية وتقع إلى جانب ثوكيدا، كذلك فإن بلاد الإيتيين مع إيثوليا وبعض المدن الدورية الأربع في الوسط بينها تقع إلى جانب شطريّ لوكريدا، وبارناس، وبلاد الدوريين. وإلى الأعلى من هؤلاء يقطن التساليون، والإيثوليون الشماليون، والأكارنانيون، وبعض القبائل الإيبيرية والمقدونية. وكما قلت سابقاً[1]، إنه ينبغي أن نتخيّل البلدان المذكورة على شكل شرائط مشدودة تمتدّ متوازية من الغرب إلى الشرق. وتعدّ بارناس كلّها مقدّسة، لأنّ فيها كهوفاً وأماكن أخرى مبجلة ومكرّسة للعبادة. والأشهر منها والأجمل، هو كهف كوريكوس، كهف الحوريات سميّ كهف مماثل في كيليكيا. أمّا فيما يخصّ جهات بارناس، فإن اللوكريين الأوزوليين، وبعض الدوريين والإيثوليين الذي يعيشون بالقرب من جبل إيثولي يدعى كوركاس، يشغلون جهته الغربية؛ ويملك جانبه الآخر الثوكيون وقسم كبير من الدوريين الذين يسيطرون على المدن الأربع التي تقع عموماً حول بارناس، لكنّها تمتدّ أبعد منه في الأجزاء التي تتّجه شرقاً. وعلى هذا النحو فإن الجوانب الطويلة من كلّ من البلدان المذكورة، وكذلك في كلّ شريط، هي جوانب متوازية: الجانب الذي يتّجه شمالاً وذلك الذي يتّجه جنوباً؛ أمّا الجوانب المتبقية فإن الغربية منها ليست متوازية مع الشرقية، ولكنّ أيّ خطّ ساحلي، حيث تنتهي مناطق هذه القبائل، وتحديداً منطقة الخليج الكريسي حتّى أكسيوم مباشرة وباتجاه إيبيوس حتّى تسالونيكيا، لا يقع في موازاة الخطّ الآخر. وينبغي أن نتخيّل الأشكال الهندسية لهذه المناطق، كأن في المثلث عدداً من الخطوط الممدودة بموازاة قاعدته؛ فهذه الأشكال إذا ما أخذناها كلاً على حدة، ستكون بموازاة بعضها بعض، وعلى هذا النحو عينه ستكون جهاتها الطويلة المتقابلة، ولكنّ جهاتها العريضة لن تكون متوازية. وبهذا أكون قد قدّمت عرضي العام عن البلاد التي ينبغي وصفها تالياً بالترتيب. وسنقدّم الآن وصفاً لكلّ جزء منها بالترتيب، بدءاً من ثوكيدا.

2- إن أهمّ مدن هذه المنطقة مدينتا دلفي وهلاّتيا. وتشتهر دلفي بمعبد أبوللون البيثي والموْحى القديم، إذا صحّ ما قاله هوميروس إن آغاممنون استوضحه؛ فهوميروس يميّز كيثاريدس الذي ينشد:

خصام أوديسيوس وابن بيلييوس أخيل،

الذي أشعلته بينهما يوماً الكلمات الجارحة،

وكان آغاممنون الرجل السيّد فرحاً لذلك الخصام،

فأبوللون كان قد تنبأ له في معبد الموحى البيثي

أن ذلك الخصام فأل طيّب

(*الأوذيسا* VIII، 75)

وإذا كانت دلفي تشتهر بهذا، فإن هلاّتيا تشتهر بكونها أكبر مدينة بين المدن المحلّية كلّها؛ وموقعها هو الموقع الأكثر ملاءمة لأنها تقع في ثغور ضيقة، ومن يمتلك هذه المدينة، يسيطر على المعابر إلى ثوكيدا وبيوتيا. لأنّ هناك أولاً، الجبال الإيتية، ثمّ جبال اللوكريين والثوكيين التي لا تستطيع القوات أن تعبرها أينما تشاء آتية من تساليا لتجتاح البلاد؛ فلهذه الجبال معابر ضيّقة متباعد بعضها عن بعض تحرسها الدول المجاورة. وعليه فإن من يمتلك هذه المدن، يسيطر في الوقت نفسه على هذه المعابر. ولكن بما أن أمجاد معبد دلفي تستند إلى تاريخ أكثر قدماً، وموقع هذه الأماكن يظهر في الوقت نفسه نقطة انطلاق طبيعية (لأن هذه هي أقصى الأطراف الغربية لثوكيدا)، لذلك يجب عليّ أن أبدأ وصفي هذا من هنا.

3- لقد قلت سابقاً، إن بارناس يرتفع على الحدود الغربية لثوكيدا. ويشغل اللوكريون الأوزوليون المنحدر الغربي لهذا الجبل، بينما المنحدر الجنوبي- دلفي- منطقة صخرية على شكل مدرّج؛ ويقع على قمته الموحى والمدينة التي تشغل رقعة محيطها 16 مرحلة. وإلى الأعلى من دلفي تقع ليكوريا؛ وفي هذا المكان، إلى الأعلى من المعبد، كانت تقوم قرية للدلفيين. أمّا الآن فإن هؤلاء يعيشون على مقربة مباشرة من المعبد، حول النبع الكاستالي. ويقع أمام المدينة من جهة الجنوب، جبل كيرثيدا، وهو جبل انهدامي فيه فجّ حراجي كثيف؛ وعبر هذا الفجّ يجري نهر بليستوس. وتقوم على سفح جبل كيرثا مدينة كيرّا. وهي مدينة قديمة تقع عند البحر مباشرة، وتتّجه منها إلى دلفي طريق صاعدة امتدادها 80 مرحلة. وتقع المدينة قبالة سيكيون. وينبسط أمام كيرّا السهل الكريسي الخصيب، وبعده مباشرة تأتي مدينة أخرى تدعى كريسا، ومنها أخذ الخليج الكريسي اسمه. ثمّ تأتي أنتيكيرا، سمية مدينة أخرى تقع على

الخليج المالي قرب إيتا. ويقال، إن في هذه المنطقة الأخيرة، ينمو نوع ممتاز من أنواع الحرْبَق(*) مع أن الحربق الذي في المنطقة الأولى أفضل إعداداً، وهذا ما يدفع كثيراً من الناس للمجيء إلى هنا للاستشفاء، لأنّ في أنتكيرا الثوكية نبات دوائي ما يشبه السمسم، ومن خليط منه ومن الحربق يحصلون على الحربق الإيتي.

4- ولا تزال أنتيكيرا على قيد الحياة حتّى يومنا هذا، أمّا كيرا وكريسا فقد دمّرتا، إذ دمّر الكريسيون كيّرا أولاً، وفيما بعد دمّر إيفريلوخ التسالي كريسا في أثناء الحرب الكريسية[2]. لأنّ الكريسيين إذ حقّقوا وفراً كبيراً من الرسوم التي كانوا يفرضونها على البضائع الآتية من صقليا وإيطاليا، أخذوا يفرضون جبايات عالية على الذين كانوا يأتون لزيارة المعبد[3]، وهذا ما كان يتعارض وتعليمات الأمفيكتيونيين. والأمر عينه وقع للأمفيسيين أيضاً؛ وينتمي هؤلاء للوكريين الأوزوليين. لأنّ هؤلاء بعد أن شنّوا هجوماً مباغتاً، أعادوا بناء كريسا من جديد، بل وحرثوا الحقل الذي كان الأمفيكتيون قد كرّسوه للإله، وأخذوا يعاملون الغرباء معاملة أسوأ من تلك التي كان الكريسيون يتعاملون بها مع هؤلاء. ولذلك عاقبهم الأمفيكتيون أيضاً وأعادوا الأرض المقدّسة للإله. وبدوره لا يحظى المعبد الآن بما يليق به من الاحترام، مع أنه كان فيما مضى يحظى باحترام وتبجيل استثنائيين. والبرهان على ذلك يتمثل في الخزائن التي بنيت على نفقة الشعوب والحكّام حيث كانوا يخزنون الكنوز والثروات التي كانت تقدّم هبات للإله، إضافة إلى أعمال كبار الرسامين؛ وهذا ما تشهد به كذلك الألعاب البيثية، وكثير من نبوءات الموحى وأقواله المأثورة.

5- ويقال إن الموحى عبارة عن كهف محفور عميقاً في الأرض له فتحة غير واسعة لخروج الأبخرة التي يثيرها الولع الإلهي من هناك؛ وتنتصب فوق الفتحة حربة ثلاثية شاهقة تصعد البيثيا إلى أعلاها وتزفر الأبخرة ثمّ تنطق النبوءات شعراً ونثراً؛ وكان الشعراء الذين يقيمون في المعبد ينقلون النبوءات النثرية شعراً. ويقولون، إن ثيمونويا كانت أوّل كاهنة بيثية؛ وقد أخذ كلّ من المتنبّئة والمدينة هذا الاسم[4] مشتقاً من كلمة Pythesthai[5]، مع أن المقطع الأول أسقط، كما في الكلمات: athanatos، akamatos، diakonos. وعلى هذا النحو فإن فكرة تأسيس المدن، وتبجيل معابد مشتركة تتلخص في الآتي: لقد كانت الناس تجتمع في المدن قبائل قبائل وفقاً لميل الإنسان الطبيعي إلى العيش في مشاعات، وفي الوقت نفسه من أجل المنفعة المتبادلة؛

* الحرْبَق: نبات سام أوراقه خضراء كبيرة مشرشرة، وأزهاره جميلة جداً، وهي إمّا بيضاء أو قرمزية.- (ح.إ).

وللأسباب عينها كانوا يلتقون عند المعابد المشتركة ويحتفلون بالأعياد ويعقدون اجتماعات عامّة؛ فمثل هذه اللقاءات يحمل على وجه العموم طابعاً ودياً، بدءاً من الولائم المشتركة، وسكب الزيت المشترك، والإقامة تحت سقف واحد؛ وبقدر ما يكون عدد المشاركين أكبر، والمناطق التي جاؤوا منها أكثر، بقدر ما تكون المنفعة من هذه اللقاءات أعظم.

6- وعلى هذا النحو، مع أن التبجيل الأعظم كان من نصيب هذا المعبد بسبب مَوْحاه، الذي كان الأصدق بين مواحي ذلك العالم الأخرى كلّها، إلا أن موقع المعبد أضاف شيئاً ما لمجده الذي كان يحظى به. فقد كان هذا المعبد يقع تقريباً في وسط اليونان كلّها، إن على هذا الجانب من إيستم أو على الجانب الآخر منه. واعتقدوا أيضاً أنه يقع في وسط المسكونة كلّها، ولذلك دعوه سرّة الأرض. وعلاوة على هذا أنشئت أسطورة رواها بيندا روس تقول، إن نسريْن التقيا هنا (بعضهم يقول إنّهما كانا غرابيْن) بعد أن أطلقهما زيوس: أحدهما من الشرق، والآخر من الغرب. ويعرضون في المعبد شيئاً ما يشبه السرّة ملفوفاً بأقطمة؛ وعليه رسم لقاء الطيريْن الأسطوريين.

7- وبفضل موقعها الملائم هذا سرعان ما اجتمع الناس في دلفي، خاصة سكّان الضواحي. ومن هؤلاء تحديداً تألف اتحاد الأمفيكتيونيين الذين كانوا يناقشون الشؤون العامّة، ويراقبون ما يخصّ المعبد من غير أيّ محاباة، لأنّ مبالغ مالية كبيرة كانت مخزونة فيه، إضافة إلى كثير من التقدمات، وكان هذا كلّه يحتاج إلى حراسة دقيقة وعناية نزيهة. ومع أن أقدم تنظيم لدلفي غير معروف، ولكنّ أغلب الظنّ أن أكريسوس كان أوّل شخصية يذكر التاريخ أنه نظّم شؤون أمفيكتيونيا، وحدّد المدن التي كان ينبغي أن تشارك في المجلس، ومنح كلّ مدينة حرية التصويت المستقل إمّا مع المدن الأخرى أو مع مدن أخرى كثيرة؛ كما أعلن عن حقوق الأمفيكتيونيين: كلّ الحقوق التي تتمتّع بها المدن في علاقاتها مع المدن الأخرى. وقد حصلت فيما بعد عدة محاولات أخرى لتنظيم شؤون المدينة، إلى أن تفرّق شمل هذا الاتحاد، كما حصل للاتحاد الآخي. ويقولون، إن المدن الاثنتي عشرة كانت أوّل من ألّف اتحاداً، وقد أرسلت كلّ منها بيلاغو(6)؛ وكان المجلس العام يلتئم مرتين كلّ عام: مرّة في الربيع، ومرّة في آخر الخريف؛ وفيما بعد انضمّت إلى الاتحاد مدن أخرى. وقد أطلق الأمفيكتيونيون على اجتماع مجلسهم العام اسم بيلييا، وينسحب هذا على اجتماع الربيع كما على اجتماع آخر الخريف، لأنهم كانوا يجتمعون في بيلا، التي كانت تدعى أيضاً ثرموبل؛ وكان البيلاغور يقدّمون الذبائح لديميترا. ومع أنه في بادئ الأمر

لم يكن يشارك في هذه الاجتماعات وفي إدارة شؤون الموحى سوى الذين كانوا يعيشون على مقربة، إلا أنهم فيما بعد أخذوا يتوافدون من أماكن بعيدة ليسألوا الموحى، كما أخذوا يرسلون التقدمات ويبنون الخزائن، وهذا ما فعله كريز، ووالده أليات، وبعض الإيتاليوتيين والصقليين، مثلاً.

8- إن الثروة تثير الحسد، ويصعب بعد ذلك صونها من الحسّاد حتّى لو كانت مكرّسة للآلهة. وإذا كان من المعروف أن معبد دلفي هو الآن معبد فقير جداً، من حيث موجوداته المالية في أقلّ تقدير، وأن بعض تقدماته قد نُهب، لكنّ أكثرها لا يزال باقياً، فإنه في الأزمنة الماضية كان المعبد معبداً ثرياً جدّاً، كما يقول هوميروس:

لا الكنوز، مهما احتوت منها الأقبية الحجرية

في معبد رامي السهام أبوللون، في

بيفوس الرهيبة بصخورها.

(*الإلياذا* IX، 404)

وتدلّ على ثراء دلفي بوضوح، الخزائن ونهب الثوكيين لها، وهو ما أدّى إلى اشتعال الحرب الثوكية، أو ما يعرف بالحرب المقدّسة. وكانت عملية النهب هذه قد وقعت في زمن فيليب ابن أمينتا، مع أن الكتّاب يعرفون عن عملية نهب أخرى وقعت في الأزمنة القديمة، عندما أُخرجت من المعبد الثروات التي ذكرها هوميروس. فلم يبق منها حتّى مجرّد أثر إلى الأزمنة المتأخرة عندما نهب المعبد أونومارخ وثائيلوس وقوّاتهما[7]، ولكنّ الكنوز التي نهبت [عندئذٍ] كانت تنتمي إلى زمن أحدث؛ لأنّ الخزائن كانت تحتوي على تقدمات مقتطعة من الغنائم الحربية وتحمل نصوصاً كتبها أولئك الذين وهبوها: هيجيس، وكريز، والسيبارتيون، والسبينيتيون الذين كانوا يقطنون على مقربة من البحر الأدرياتيكي، وعلى هذا المنوال باقي الكنوز [ولا ينبغي أن نفترض] أن الكنوز القديمة قد اختلطت مع هذه الكنوز الحديثة، وهذا ما تدل عليه بوضوح الأماكن التي نهبها هؤلاء الناس. أمّا بعضهم فإنهم إذ يفهمون كلمة aphetor[8] بمعنى «خزنة»، وكلمة aphetoros udon بمعنى «خزنة تحت الأرض»، يزعمون أن الثروات كانت تطمر في أرض المعبد وأن أونومارخ وقواته حاولا استخراجها من هناك ليلاً؛ ولكن بما أن هزّة أرضية قوية وقعت في تلك اللحظة، فقد فروا من المعبد هاربين وأوقفوا عملية الحفر، بينما دبّت محاولتهم الرعب في قلوب الآخرين وقطعت عليهم طريق القيام بأيّ محاولات أخرى مماثلة.

9- ومن المعابد التي بنيت هنا، ينبغي أن نلحق بميدان الأسطورة، المعبد الذي

بني من «الريش»، أمّا المعبد الثاني فيروى أن تروفونيوس وأغاميدس قد بنياه؛ والمعبد القائم الآن بناه الأمفيكتيونيون. ويرونك في الأرض المقدّسة شاهدة قبر نيوبتوليموس التي بنيت بأمر من الموحى؛ فقد قتله الدلفي ماكيريوس عندما كان يطلب من الإله تعويضاً عن مقتل والده، كما تقول الأسطورة؛ ولكنّ الاحتمال الأرجح أن ماكيروس قتله لأنه هاجم المعبد. ويقال، إن برانك الذي كان يدير شؤون المعبد في ديديماخ، كان حفيد ماكيريوس.

10- لقد كانت أقدم المباريات التي أقيمت في دلفي، هي مباراة الكيثاريدس الذين كانوا يؤدون البيان[9] (Pean) على شرف الإله؛ وكان الدلفيون هم الذين أسّسوا هذه المباراة. ولكن بعد الحرب الكريسية، وفي عهد إيفريلوخ أنشأ الأمفيكتيونيون مباراة سباق الخيول والمباريات الرياضية، وكان الفائز فيها ينال إكليلاً، وقد دعيت هذه الألعاب بالألعاب البيثية. وأضافوا إلى الكيثاريدس الزمارين والكيثاريسيين[10] من غير إنشاد، وقد كان ينبغي على هؤلاء أن يؤدوا اللحن الذي يدعى النوموس البيثي. وهو يتألّف من خمسة أجزاء: الأناكروسيس[11]، والأمبيروس[12]، والكاتاكيليفسموس[13]، واليامبوس، والداكتيلوس والسيرينغيس[14]. وقد وضع هذا اللحن تيموسفين، قائد أسطول بطليموس (الذي كتب كتاب «الموانئ»، وهو مؤلّف في 10 أجزاء)[15]. لقد أراد مؤلّف هذا العمل الموسيقي أن يخلد به قتال أبوللون ضدّ التنين؛ فهو يتخيّل المقدّمة كأناكروسيس، وبدء القتال، كأمبيروس، والقتال نفسه ككاتاكيليفسموس، وتخيّل نشيد النصر بعد تحقيق الانتصار كيامبوس وداكتيلوس (ومثل هذه الأوزان الشعرية التي يلائم أحدها - الداكتيلوس- أناشيد المدح، والآخر- اليامبوس- تمت ملاءمته مع الهجاء، مثله مثل كلمة iambizein)[16]؛ وأخيراً تخيّل احتضار الوحش كسيرينغيس، لأنّ العازفين كانوا يحاكون آخر أنفاس التنين المحتضر.

11- يظهر أن إيثور الذي استندت إليه أكثر من الآخرين كلّهم، لأنه يتميّز بدقّة خاصة لدى وصفه هذه الأشياء (وحسب شهادة بوليبيوس، أنه شخصية رائعة)، يتصرّف أحياناً على الضدّ من نواياه ووعوده الأولى. فبعد اللوم الذي يوجهه للمولعين بإدراج الأساطير في المؤلّفات التاريخية، وبعد أن يمدح الحقيقة يضيف إلى روايته عن هذا الموحى شيئاً ما يشبه التأكيد الاحتفالي المهيب، زاعماً أنه في الحالات كلّها يفضل الحقيقة، خاصة في هذه المسألة. فهو يقول، إنه من السذاجة الالتزام دائماً بمثل هذا المنهج عندما نتحدّث عمّا هو مغاير، بل عندما يدور الحديث عن الموحى الذي بأصدق ما يكون يستخدم هذه الروايات الملفقة الباطلة. مع أنه إذ يتطرق إلى هذا،

يضيف مباشرة رأي المؤرّخين عن أن أبوللون وثيميس أسسا الموحى، لأنّ الإله عزم على مساعدة جنسنا؛ ثمّ يزعم لدى حديثه عن المنفعة التي يقدّمها الموحى، أن الإله دعا الناس إلى الوداعة وألهمهم التواضع: منح بعضهم الموحى وأمرهم بأن يفعلوا هذا ويمتنعوا عن فعل ذاك، وأهمل الآخرين تماماً. ثمّ يقول إيثور، إن بعضهم يعتقد أن أبوللون يدير هذا كلّه بنفسه؛ بينما يفترض آخرون أن الإله نفسه يتخذ صورة إنسان، ويرى فريق ثالث أن الإله يهب لبعض الناس معرفة إرادته.

12- وبعد ذلك بقليل، وفي معرض حديثه عن أصول الدلفيين، يقول إيثور، لقد سكن بارناس في الأزمنة القديمة جماعات ما كانت تدعى البارناسيين، وهم السكّان الأصليون لهذه الأماكن. وفي هذا الوقت زار أبوللون هذه الأرض، فهذب أخلاق أهلها وطباعهم إذ أدخل المحاصيل الزراعية ميدان الاستهلاك، فتحوّل الناس إلى نمط العيش الحضري. وعندما توجه الإله من أثينا إلى دلفي، سار على الطريق عينها التي تسلكها الآن السفارة الأثينية البيثية المقدّسة[17]. ولدى وصوله إلى بلاد البانوبيين قتل الإله تيتوس (الذي كان يحكم هذه المنطقة)، لأنه كان ظالماً متعسفاً وطاغية لا يقيم وزناً لأي قوانين؛ فالتحق به السكّان المحلّيون وأرشدوه إلى طاغية آخر يدعى بيثون، وقد لقبوه بالتنين. وعندما قتله أبوللون بسهمه، هتف البارناسيون: «إيه بيان»[18] تعبيراً عن استحسانهم لما فعل أبوللون (وبحسب إيثور أنهم منذ ذلك الوقت أخذوا ينشدون بيان كتقليد قتالي قبيل الدخول في المعركة). لقد أحرق الدلفيون كوخ بيثون عندئذٍ، ولا يزالون يحرقونه حتّى يومنا هذا تخليداً لأحداث ذلك الزمن. ولكن ما الذي يمكن أن يكون خيالياً أكثر من أبوللون القاتل التنين بسهامه، والمقتص من التيتوسيين والبيثونيين، والسائح من أثينا إلى دلفي، والجائب الأرض كلّها؟ ولكن، إذا لم يكن إيثور قد رأى في هذه الروايات كلّها أساطير، فلماذا إذن كان ينبغي أن تدعى ثيميس الأسطورية امرأة، والتنين الأسطوري إنساناً. فهل أراد أن يجمع بين الصيغتين: التاريخ والأسطورة؟ ومثل هذه الرواية رواية الإيثوليين، لأنه بعد أن يخبرنا أن بلادهم لم تتعرض للنهب منذ زمن بعيد، يعود إمّا ليقول إن الإيوليين قد استوطنوا هناك بعد أن طردوا البرابرة الذين كانوا يملكون هذه البلاد، أو أن إيثول والإيبيين الإيليديين قد وجدوا ملاذاً لهم هناك، ولكنّ الإيوليين هزموهم، ثمّ هزم ألكيميون وديوميدس هؤلاء الأخيرين. ولكن لنعد إلى الثوكيين.

13- على ساحل البحر، بعد أنتيكيرا تأتي أولاً مدينة صغيرة تدعى أبيستومارث، وبعدها الرأس البحرية ثاريغوس بمحطتها الشراعية، ثمّ يأتي الخليج

الأخير الذي لهذا السبب يدعى ميكوس[19]؛ ويقع هذا الخليج عند سفوح هيليكون وآسكر. وغير بعيد عن هذه الأماكن تقع آبا، وهي مدينة فيها موْحى، تليها أمبريس وميديون سمية المدينة البيوتية. وبعيداً في أعماق البلاد، بعد دلفي بالاتجاه الشرقي تقريباً تقع مدينة دافليدا التي يقال، إن التراقي تيرييوس كان يحكم فيها (وترتبط بهذا المكان رواية فيلوميلا وبروكني، مع أن ثوكيديدس[20] يقول، إنها ترتبط بميغارا). وقد اشتق اسم المدينة من كلمة «أدغال»، لأنّ «الأدغال» تدعى Daulio. ودعا هوميروس هذه المدينة الصغيرة دافليدا، لكنّ الكتّاب المتأخرين دعوها دافليا. فقد فهموا كلمة «كيباريس» في قوله:

قبائلهم في كيباريس... سكنت

(*الإلياذا* II، 519)

بمعنيين: بعضهم يرى فيها اسم شجرة السرو، بينما يرى آخرون أن هذه الكلمة تعني مع بعض التحوير في النطق، مستوطنة تقع على سفح ليكوريا.

14- بانوبيوس. هي ثانوتيوس المعاصرة، تجاور منطقة ليباديا مسقط رأس إيبييوس. وإلى هنا تنتمي حكاية تيتوس. و يتحدّث هوميروس عن أن الثياكيين «حملوا» رادامانثوس إلى إيبيوس،

لكي يرى تيتوس، ابن الأرض

(*الأوذيسا* VII، 324)

ويرونك في الجزيرة كهفاً يدعى هلاريوس، على اسم هلارا والدة تيتوس؛ ومعبداً بني على شرف تيتوس البطل، وبعض الشواهد الأخرى على تبجيله. وغير بعيد عن ليباديا تقع تراكينوس سمية تراكينوس الإيتية، وهي مدينة ثوكية يدعى سكّانها بالتراكينيين.

15 - وأخذت مدينة أنيموريا اسمها من حالة ترتبط بها: تندفع عليها عصفات الرياح الهوجاء آتية من منطقة تدعى كاتوبتيريوس، وهي جرف صخري شديد الانحدار يمتدّ من بارناس. لقد كان هذا المكان يقع على الحدود بين الدلفيين والثوكيين عندما أرغم اللاكيديمونيون الدلفيين على الخروج من الاتحاد الثوكي المشترك وأذنوا لهم بتأسيس دولة خاصة بهم[21]. ولكنّ بعضهم يدعو هذه المدينة أنيموليا. ثمّ تأتي بعدها مدينة هيامبوليس (فيما بعد دعاها بعضهم جيا)، التي، كما قلت[22]، فر إليها الجيانتيون من بيوتيا. وتقع هذه المدينة في عمق البلاد، على مقربة من بارابوتاميا، وينبغي التفريق بينها وبين هيامبيا الواقعة على جبل بارناس؛ وعلى النحو نفسه تقع

هلاتيا، أكبر مدن الثوكيين التي لم يعرف هوميروس شيئاً عنها (لأنها أصغر سناً من الزمن الهوميري)، وهي تشغل موقعاً ملائماً جداً عند المعابر التي تؤدّي إلى تساليا. وقد أشار ديموسفين بوضوح[23] إلى ملاءمة شروطها الطبيعية عندما تحدّث عن البلبلة التي وقعت فجأة في أثينا لحظة وصل الرسول حاملاً إلى مجلس حكّام المدينة نبأ الاستيلاء على هلاتيا[24].

16- بارابوتاميوس. هي قرية في كيفيس قرب ثانوتيوس، وكيرونيا، وهلاتيا. وحسب ثيوبومبوس أن هذا المكان يقع على نحو 40 مرحلة من كيرونيا على حدود الأمبريسيين، والبانوبيين، والدافليين؛ وهو واقع على هضبة غير مرتفعة عند المعبر الذي يقود من بيوتيا إلى ثوكيا، بين جبلي بارناس و[غاديليوس]، اللذين يبقى بينهما حيّز بحوالي خمس مراحل؛ ويشكّل كيفيس الحدود تاركاً على الجانبين ممرّاً ضيّقاً. ويقول ثيوبومبوس، إن النهر يبدأ عند مدينة ليليا الثوكية (وكما يقول هوميروس أيضاً:

عاشوا في ليلييا، عند مخرج تيار كيفيس الصاخب)

(*الإلياذا* II، 523)

ويصبّ في بحيرة كوبايدس، ويمتدّ جبل غاديليوس على 60 مرحلة حتّى أكونتيا حيث تقع أوركومين. ويصف هسيود بدوره النهر وجريانه بالتفصيل، فيقول إنه يجري عبر ثوكيدا كلّها متعرجاً ومتمايلاً ومتلوّ كالثعبان:

على مقربة من بانوبيوس يجري وعبر غليكون الحصينة،

عبر أوركومين متلوياً كالتنين.

(*مقطع* 37، *رجاخ*)

لقد كانت الممرّات الضيّقة في ضواحي بارابوتاميوس أو بارابوتاميا (لأنهم يدعونها بالاسمين) محل صراع في زمن الحرب الثوكية، لأنها المدخل الوحيد إلى ثوكيدا. وكيفيس موجود في ثوكيدا وفي أثينا، وسلامين، والرابع والخامس في سيكيون وسكيروس، والسادس في آرغوس، ومنابعه في جبل ليركييوس؛ وثمّة في أبوللونيا التي عند إيبيدامنوس نبع قرب الجمنازيوم يدعى كيفيس.

17- أمّا دافنونت فهي الآن مدمّرة. وفي زمن ما كانت هذه مدينة ثوكيدا على الحدود مع بحر إيبيوس الذي كان يفصل اللوكريين الإيبيكنيميديين إلى فريقين: فريق نحو بيوتيا، وفريق نحو ثوكيدا التي تمتدّ من البحر إلى البحر. ودليل هذا هو وجود السخيديوس الذي يعدونه قبر سخيدوس في دافنوت. ولكن كما كنت قد قلت[25]، إن دافنونت «تفصل»[26] لوكريدا إلى جهتين، بحيث لا توجد أي حدود

مشتركة بين اللوكريين الإيبيكنيميديين واللوكريين الأوبونتيين؛ ولكنّ هذه المنطقة كانت تتبع في الأزمنة القديمة أرض اللوكريين الأوبونتيين. لقد تحدّثت عن ثوكيدا بما يكفي.

الفصل الرابع

1- وتأتي بعد ذلك لوكريدا، وهكذا ينبغي عليّ أن أقدّم وصفاً لهذه البلاد. فهي تنقسم إلى قسمين. قسم يتّجه نحو إيبيوس ويسكنه اللوكريون. وأنا كنت قد قلت إنهم في زمن ما كانوا فريقين يقطنان جانبي دافنونت. وقد أخذ اللوكريون الأوبونتيون اسمهم من أسماء المدينة الرئيسة[1]، أمّا اللوكريون الإيبيكنيميديون، فقد أخذوا اسمهم من جبل كنيميدا. ويستوطن اللوكريون الغربيون الذين يدعون بالأوزوليين أيضاً، القسم المتبقي من لوكريدا. ويفصل بارناس بينهم وبين اللوكريين الأوبونتيين واللوكريين الايبيكنيميديين، حيث يقع بينهم وبين المدن الدورية الأربع. ويجب علينا أن نبدأ الوصف من اللوكريين الأوبونتيين.

2- وهناك وراء هالاّ حيث ينتهي جزء الساحل البيوتي الذي يتّجه نحو إيبيوس، يقع الخليج الأوبونتي. وأوبونت هي المدينة الرئيسة، كما يشير بوضوح نقشٌ على مقربة من ثرموبل يحمله النصب الأول من النُّصب التذكارية الخمسة التي أقيمت في المكان الذي دفن فيه كثير من الأبطال[2]:

تبكي الذين سقطوا بأيدي الفرس دفاعاً عن هلاّدا

أُمّ مدن اللوكريين، أوبونت ذات العقل الراجح.

تقع المدينة على مسافة تقارب 15 مرحلة عن البحر، و60 مرحلة عن المحطة الشراعية. وكينوس، المحطة الشراعية، هي رأس بحرية في نهاية الخليج الأوبونتي، امتدادها حوالي 60 مرحلة. وينبسط بين كينوس واوبونت سهل خصيب؛ وتقع كينوس قبالة إيديبسوس التي في إيبيوس (حيث تتبجس ينابيع هرقل الحارّة)، يفصلها عنها مضيق عرضه 160 مرحلة[3]. ويروى أن ديفكاليون عاش في كينوس؛ ويرونك هنا قبر بيرّا، بينما قبر ديفكاليون في أثينا. وتبعد كينوس عن جبل كنيميدا 50 مرحلة تقريباً. كما تقع جزيرة أتالانتا أيضاً قبالة أوبونت وتحمل الاسم عينه الذي تحمله جزيرة تقع قبالة أتيكا. ويقال أيضاً، إن بعضاً من سكّان إيليدا يدعون أوبونتيين، إلا أنهم لا يستحقون الذكر، ما عدا أنهم يجددون صلة النسب القائمة بينهم وبين الأوبونتيين. ويقول هوميروس، إن باتروكليس ينحدر من أوبونت[4]؛ ولما ارتكب جريمة قتل عن غير قصد لجأ إلى بيليوس؛ أمّا والده مينتيوس فقد بقي في الوطن، لأنّ أخيلليس، كما

يقول، تعهّد لمينتيوس أن يعود بباتروكليس إلى دياره بعد عودته من الحملة مباشرة. ولكنّ مينتيوس لم يكن ملك اللوكريين، بل إيانتوس الذي يقال إن موطنه كان في ناريكوس. ويدعى الشخص الذي قتله باتروكليس، إيانوس؛ ويرونك أرضاً مقدّسة تدعى إيانيون، ونبع ماء يدعى إيانيدا، وقد دعيا باسميهما هذين تخليداً لذكرى إيانوس.

3- وبعد كينوس تأتي ألوبا ودافنونت التي كما قلت[5]، دمّرت تماماً ويقع هنا خليج على مسافة حوالي 90 مرحلة من كينوس، أمّا سيراً على الأقدام في عمق البلاد، فالمسافة 120 مرحلة عن هلاّتيا. وهذه الأماكن باتت تقع الآن على الخليج الماليوسي الذي يتاخم خليج أوبونت.

4- وبعد دافنونت تأتي كنيميدا، وهي موقع محصّن امتداده يقارب 20 مرحلة تقريباً إذا أبحرت بمحازاته؛ وتقع قبالته على جزيرة إيبيوس رأس كينيوس البحرية التي تتّجه نحو الغرب وخليج ماليوس، ويفصلها مضيق عرضه 20 مرحلة تقريباً. وقد باتت هذه المنطقة عائدة للوكريين الإيبيكنيميديين. وتقع هنا أمام الشاطئ جزر ثلاث تدعى الجزر الليخادية، التي أخذت اسمها من ليخوس؛ كما تلقاك جزر أخرى أيضاً لدى إبحارك بمحازاة الشاطئ، لكنّي أتجاهلها عن سابق قصد. وبعد طريق طولها 20 مرحلة من كنيميدا، يقع خليج فوقه على مسافة مماثلة في عمق البلاد، مدينة فرونيوس. ثمّ يليها نهر بواغروس الذي يجري على مقربة من فرونيوس ويصبّ في البحر؛ ويدعى النهر أيضاً باسم مانيس، وهو نهر شتوي، ففي بعض الأحيان يمكن عبوره سيراً على الأقدام من غير أن تبتلّ القدم، مع أن عرضه يبلغ بليفرين في بعض الأحيان. ثمّ تأتي سكارفيا بعد ذلك، وهي تقع فوق البحر بعشر مراحل، وعلى بعد 30 مرحلة من فرونيوس، وعلى مسافة أقلّ قليلاً عن الخليج نفسه. وتلي ذلك كلّ من نيقيا وثرموبل.

5- أمّا باقي المدن، فإن بعضها لا يستحقّ الذكر، ومن تلك التي يذكرها هوميروس، لم تعد كالليارس مأهولة؛ فهي الآن سهل زراعي جيّد؛ وكانت هذه المدينة قد دعيت باسمها هذا مصادفة[6]. وقرية بيسّا بدورها لم تعد موجودة، فهي الآن مكان حراجيّ. كما أن آفغيوس لم تعد على قيد الحياة ومنطقتها تعود الآن للسكارفيين. وينبغي أن تكتب بيسّا بالسين المدغومة (لأنها دعيت باسمها هذا تبعاً لموقعها الحراجي، وهي تعني بهذا ما تعنيه نابا[7] التي تقع في سهل ميغيمنا، والتي يدعوها هيلاّ نيكوس عن غير معرفة، لابا)، بينما يكتب اسم ديموس أتيكا الذي يدعى سكّانه بيسانيين، بسين مخففة.

6- وتقع تارفا على مرتفع، وهي تبعد 20 مرحلة عن فرونيوس، أرضها خصبة وحراجية؛ وقد دعيت تارفا باسمها هذا[8]، لأنها كانت دغلاً حراجياً. وهي تحمل الآن اسم فاريغي؛ ويقوم هنا معبد هيرا الفاريغية التي دعيت هكذا هنا على اسم هيرا الأرغوليدية؛ وكما يقولون فإن هؤلاء هم فعلاً مستعمرو الأرغوليديين.

7- لكنّ هوميروس لا يذكر اللوكريين الغربيين، أو في أقلّ تقدير لا يتحدّث عنهم بالتحديد، لأنه على ما يظهر، يعاكسهم باللوكريين الذين كنت قد تحدّثت عنهم:

اللوكريون، الرجال الذين يسكنون وراء إيبيوس المقدّسة،

(الإلياذا II، 535)

وكأني به يلمّح إلى وجود لوكريين آخرين. بيد أن كتّاباً آخرين كثر لا يأتون على ذكرهم أيضاً. لقد امتلك هؤلاء اللوكريون مدينتيّ أمفيسّا وناوباكتوس. ولا تزال هذه الأخيرة موجودة حتّى الآن قرب أنتيريون وقد دعيت باسمها هذا بسبب عملية بناء السفن التي كانت تجري هناك[9]، إمّا لأنّ الهيراقليين بنوا أسطولهم في هذا المكان، أو لأنّ اللوكريين كانوا يبنون السفن هناك من قبل (كما يقول إيثور). والمدينة الآن للإيثوليين الذين حكم لهم بها فيليب.

8- وهنا تقع أيضاً خلكيدا التي يذكرها هوميروس في «سجلّ» الإيثوليين[10]؛ وهي تقع تحت كاليدون. ويقع هنا تلّ تاثياس وعليه قبر نيسوس وسواه من القنطورات. ويروون أنه من تعفّن جثامينهم، تجري عند سفح التلّ مياه ذات رائحة كريهة تخالطها خثرات من الدماء. ولهذا تدعى القبيلة قبيلة الأوزوليين[11]. وموليكريا، مدينة إيثولية صغيرة تقع قرب أنتيريون. أمّا أمفيسا فهي تقع على أطراف السهل الكريسي؛ وأنا كنت قد قلت[12]، إن الأمفيكتيونيين دمّروها. وتعود للوكريين مدينتا إيانثيا ويوباليوس. ويبلغ طول الخطّ البحري على امتداد السواحل اللوكرية كلّها أكثر من 200 مرحلة بقليل.

9- وثمّة هنا أيضاً مكان يدعى ألوبا، ومثله عند اللوكريين الإيبيكنيميديين في ثتيوتيدا. ويعدّ اللوكريون الأوزوليوت مستعمري اللوكريين الإيبيكنيميديين، والإيبيزيفيريون بدورهم مستعمري الأوزوليين.

10- ويجاور الإيثوليون اللوكريين الغربيين، أمّا الإينيانيون الذين يشغلون جبل إيتا، فهم يجاورون اللوكريين الإيبيكنيمديين. وفي الوسط بينهما يقطن الدوريون. وعلى هذا النحو فإن هؤلاء الدوريين كانوا القبيلة التي استوطنت المدن الأربع التي يقال إنها كانت ميتروبوليا الدوريين كلّهم؛ فقد امتلكوا مدن إرينيوس، وبويون، وبيندس،

وكيتينوس. وتقع بيندس فوق إرينيوس؛ ويجري بالقرب منها نهر يحمل الاسم عينه، ويصبّ في كيفيس غير بعيد عن ليلييا. لكنّ بعضهم يدعو بيندس باسم أكيثانتوس. وقد سلبت السلطة من إيجموس، ملك هؤلاء الدوريين، لكنّ هرقل استردها فيما بعد، كما يروى. وبعد موت هذا الأخير في إيتّا، تذكر إيجيموس جميل هرقل عليه، فتبنّى هيللوس، الابن الأكبر لهرقل؛ وغدا هذا الأخير وخلفاؤه ورثة عرش إيجيموس. ومن هنا بدأ الهرقليون رحلة العودة إلى البيلوبونيز.

11- لقد حظيت هذه المدن بالإجلال لبعض الوقت، مع أنها لم تكن ذات أهمية تذكر، ولم تكن تربتها خصبة، ولذلك أهملت فيما بعد تماماً. وما يثير الاستغراب أن بقايا هذه المدن بقيت موجودة بعد الحرب الثوكية وسيطرة المقدونيين، ثمّ الإيثوليين والأثامانيين، وصولاً إلى العصر الروماني. والمصير نفسه حلّ بالإينيانيين، لأنّ الإيثوليين والأثامانيين دمّروهم أيضاً: الإيثوليون، عندما باتوا أقوياء جدّاً وحاربوا متحالفين مع الأكارنانيين، أمّا الأثامانيون، فعندما فرضوا هيبتهم واحترامهم (وهؤلاء الأخيرون من الإيبيروتيين، أمّا الباقون فقد باتوا عاجزين) وباتوا تحت سلطة ملكهم أميناندرس، يمتلكون قوة جبّارة. إن هؤلاء الأثامانيين هم الذين استولوا على إيتّا.

12- ويمتدّ جبل إيتا هذا من ثرموبل شرقاً حتّى الخليج الأمبراكي في الغرب. وهو يشكّل ما يقطع بزاوية قائمة البلاد الجبلية التي تمتدّ من بارناس حتّى بيندس والبرابرة الذين يقطنون وراءها. وشطر هذا الجبل الذي يتّجه نحو ثرموبل، يدعى إيتّا، طوله 200 مرحلة؛ وهو قسم صخري عال، ولكنّ أعلى نقطة في هذا الجبل، هي تلك التي تقع عند ثرموبل، فهو يبلغ هنا قمّة ارتفاعه وينتهي عند البحر بجرف حادّ شديد الانحدار، تاركاً ممرّاً ضيّقاً لأولئك الذين اجتاحوا بلاد اللوكريين انطلاقاً من تساليا.

13- ويدعى هذا الممرّ «بيلاّ» و«مضائق» و«ثرموبل»[13]، لأنه ثمّة على مقربة، ينابيع مياه حارّة تعدّ مقدّسة لأنها مكرّسة لهرقل؛ ويدعى الجبل الذي يرتفع فوق هذا الممرّ، كاالليدروم. ويطلق بعضهم هذا الاسم على الشطر المتبقي من الجبل أيضاً، وهو الشطر الذي يمتدّ عبر إيثوليا وأكارنانيا حتّى الخليج الأمبراكي. وعند ثرموبل في داخل المضائق، تقع حصون نيقيا؛ وفي الاتجاه نحو البحر اللوكري، ترتفع فوقها قلعة تيخيونت، ومدينة هيراقليا التي كانت من قبل تدعى تراخين التي أسّسها اللاكيديمونيون؛ وتقع هيراقليا على مسافة تقارب 6 مراحل من تراخين القديمة. ثمّ تأتي بعد ذلك رودونتيا، وهي حصن طبيعي.

14- إن الطبيعة المتعرّجة لهذه البلاد، وكثرة الأنهار والجداول والمسائل المائية

التي تشكّل مهاوي تجري هذه التيارات المائية عبرها، هذا كلّه يجعل الوصول إلى هذه الأماكن أمراً صعباً للغاية. لأنه إضافة إلى سبرخييوس الذي يجري قرب أنتيكيرا، هناك أيضاً نهر ديراس الذي يقال، إنه حاول أن يطفئ نار دفن هرقل، ونهر ميلان الذي يبعد 5 مراحل عن تراخين. وإلى الجنوب من تراخين يقع، كما يقول هيرودوت[14]، أخدود عميق يجري عبره نهر أسوبوس (سميّ أنهار أخرى ذكرناها) ليصبّ في البحر خارج بيلاّ بعد أن يستقبل نهر فينيكس؛ ويلتقي هذا الأخير مع أسوبوس في الجنوب، ويحمل اسم البطل فينيكس الذي يرونك قبره على مقربة. ومن أسوبوس إلى ثرموبل 15 مرحلة.

15- لقد بلغت هذه المناطق أوج مجدها حينما كانت تتحكم بالمعابر، وعندما دار الصراع على زعامة الأقوام التي تسكن الجانب الآخر من المضائق مع القبائل التي تقطن هذا الجانب منها. ففيليب أيضاً وصف خلكيدا وكورينثوس بأنهما «أغلال اليونان» بالنسبة لمقدونيا، كرأس جسر للتحركات العسكرية[15]؛ وفي زمن متأخر لم يصف الناس هذه المواقع وحدها بمثل هذه الصفة، بل وصفوا ديميترياادا أيضاً بأنها «أغلال»، لأنها كانت تسيطر على المعابر الواقعة عند وادي تيمبيوس بامتلاكها بيليون وأوسّا. وعندما خضعت الشعوب كلّها لسلطة واحدة فيما بعد أعفي جميعهم من تأدية الرسوم وباتت المعابر كلّها مفتوحة.

16- وعند هذه المضائق قاوم ليونيد ومقاتلوه وبعض السكّان المحلّيين جحافل القوات الفارسية، إلى أن نجح البرابرة بالالتفاف عليهم عبر الدروب الجبلية وأبادوهم. ولا تزال قائمة حتّى الآن مقابر كثير من الأبطال[16]، ونصب تذكارية، والنقش الشهير على نصب اللاكيديمونيين التذكاري، الذي يقول:

أيها الغريب أخبر الإسبرطيين عن موتنا:
مخلصين لقوانيننا رقدنا هنا عظاماً[17].

17- وثمّة هنا كذلك خليج كبير، ومعبد ديميترا، حيث كان الأمفيكتيونيون يقدّمون القرابين والذبائح عند التئام كلّ مجلس بيلييا. والطريق البرية من الخليج إلى تراخين الهرقلية 40 مرحلة، أمّا الطريق البحرية عبر بحر كينييوس فطولها 70 مرحلة. ويصبّ سبرخييوس في البحر بعد بيلاّ مباشرة. ومن يوريبوس إلى بيلاّ 530 مرحلة. وعند بيلا تنتهي لوكريدا، أمّا المناطقة الواقعة إلى الشرق وراء بيلا ونحو الخليج الماليوسي، فإنها تعود لتساليا، بينما تعود المناطق الغربية للإيثوليين والأكارنانيين. أمّا الأثامانيون أنفسهم فقد اندثروا.

18- لقد كان الاتحاد التسالي التجمّع الإغريقي الأكبر والأقدم، وكان

هـوميروس قـد تحـدّث عنـه، وكـذلك فعـل بعـض الكتّـاب الآخـرين. ويـدعو هـوميروس الإيثوليين دائمـاً باسـم جـامع واحـد، ويـوزّعهم بحسـب المدن لا بحسـب القبائـل، مـا عـدا الكـوريتيين الـذين ينبغـي عـدّهم جـزءاً مـن الإيثـوليين. ويجـب علـيّ أن أبـدأ الوصـف مـن تساليا، مستبعداً ما هو قديم جدّاً وميثولوجي، الذي غالباً ما يثير الخلافات (وهـذا مـا فعلته بالنسبة للشعوب الأخرى)، ومتحدّثاً فقط عمّا أرى أنه يتعلّق بالمسألة المطروحة.

الفصل الخامس

1- قرب البحر، تشمل تساليا أولاً، الساحل الذي يمتدّ من ثرموبل حتّى [مصبّ] بينييوس وأطراف بيليون، ويتّجه شرقاً ونحو الأطراف الشمالية من إيبيوس. ويشغل المناطق القريبة من إيبيوس وثرموبل، الماليون، والآخيون الثتيوتيون، أمّا المناطق الواقعة عند بيلون، فيشغلها الماغنيتيون. وسوف ندعو هذا الشطر من تساليا بالشطر الشرقي، أو الساحلي. وعلى جانبيّ تساليا من بيليون وبينييوس في عمق البلاد حتّى بيونيا مباشرة ومناطق القبائل الإيبيرية، تمتدّ مقدونيا؛ ومن ثرموبل بموازاة مقدونيا تمتدّ الجبال الإيتية والإيثولية متاخمة للمنطقة الدورية وبارناس. وسوف ندعو الجانب الأول الذي يجاور مقدونيا، بالجانب الشمالي، والجانب الآخر، بالجانب الجنوبي. يبقى الجانب الغربي الذي يحيط به الإيثوليون، والأكارنانيون، والأمفيلوخيون[1]، ومن الإيبيروتيين، الأثامانيون، والمولوسيون والمنطقة التي كانت تدعى يوماً أرض الإيفيكيين، قصارى القول، المنطقة المجاورة لبيندس. وأرض تساليا هي على وجه العموم أرض سهلية، ما عدا بيليون وأوسّا . فهذان الجبلان عاليان، ومع ذلك فهما لا يشغلان حيّزاً كبيراً، وينتهيان بمنبسطات.

2- وتشكّل هذه المنبسطات الأجزاء الوسطى من تساليا، الأرض الأكثر خصوبة في البلاد، إذا استثنينا المنطقة التي تتعرّض غالباً لفيضان النهر. فنهر بينييوس الذي يجري وسط البلاد يستقبل في مجراه تيارات مائية كثيرة، ولذلك غالباً ما يفيض؛ وبحسب الروايات أن السهل كان في الأزمنة القديمة بحيرة، لأنّ الجبال كانت تحيط به من الجهات كلّها، والساحل أعلى منه. ولكنّ هزّة أرضية شكّلت في مكان ما، يسمّى الآن وادي تيمبييوس ثغراً، وفصلت أوسّا عن الأوليميب، خرج بينييوس عبر هذا الثغر إلى البحر، فجفت الأرض. ومع ذلك بقيت حتّى اليوم في المكان بحيرة كبيرة، هي بحيرة نيسونيدا، وبحيرة أخرى أصغر من الأولى، هي بحيرة بيبييدا التي تقع قرب الساحل.

3- وإذ تميّزت تساليا بمثل هذه الميزات الطبيعية، فقد انقسمت إلى أربعة أقسام. قسم دعي ثتيوتيدا، والقسم الآخر هستيوتيدا، والقسم الثالث تساليوتيدا، والرابع بيلاسيغيوتيدا. وتشغل ثتيوتيدا الأجزاء الجنوبية التي تمتدّ على طول إيتا من الخليج الماليوسي أو خليج بيلييوس حتّى دولوبيا وبيندس مباشرة، وعرضاً حتّى فرسال والسهول التسالية. وتحتضن هستيوتيدا الأجزاء الغربية والأجزاء الواقعة بين بيندس ومقدونيا العليا. وتشغل أقسام تساليا الأخرى، أولاً، القبائل التي تقطن السهول الممتدّة تحت هستيوتيدا، والتي تدعى بالبيلاسيغيوتيين؛ ويجاور هؤلاء مقدونيا الدنيا؛ ثانياً، التساليون الذين يقطنون على التوالي، المناطق الممتدّة حتّى ساحل ماغنيتيدا. وسوف تذكر هنا أيضاً أسماء مدن عظيمة، وعلى وجه الخصوص لأنها وردت في ملحمتي هوميروس. ولم يحافظ منها على الأهمية التي كانت في زمن الأسلاف سوى عدد قليل، خاصة لاريسّا.

4- وإذ قسم البلاد كلّها (التي تدعى الآن تساليا) إلى عشرة أجزاء، أو سلالات، وضمّ إليها بعض أجزاء المنطقة الإيتية والمنطقة اللوكرية، وبعض الأجزاء الأخرى (الملحقة الآن بمقدونيا)، يلمح هوميروس[2] إلى بعض ظاهرة مشتركة بين البلدان كلّها: تتعرّض بلدان بكاملها أو أجزاء منها لتغيّرات ترتبط بمدى قوّة حكّامها.

5- وأوّل القبائل التي يذكرها هوميروس في «سجلّ السفن»، هي القبائل الخاضعة لسلطة أخيلليس، والتي كانت تشغل الأجزاء الجنوبية من البلاد، وتعيش على مقربة من إيتا واللوكريين الإيبيكنيميديين.

والآن سأعدّ الرجال الذين سكنوا آرغوس البيلاسيغية،

واستوطنوا كلّ مكان حول آلوس ومحيط آلوب وتراخين،

وفتيا الجبلية وهلادّا الشهيرة بجمال نسائها،

وكلّ الميرميدونيين، والآخيين والذين يدعون هللينيين.

(*الإلياذا* II، 681)

ويلحق هوميروس بهذه القبائل القبائل الخاضعة لفينيكس أيضاً، ويصوّر الحملة حملة مشتركة بين القائدين. ولم يأت الشّاعر أبداً على ذكر قوات الدولوبيين في سياق المعارك التي دارت حول إيليون؛ فهو لم يرغم قائدها فينيكس على أن يتعرّض لخطر المعارك، وعلى النحو نفسه تعامل مع نسطور، لكنّ الكتّاب الآخرين تحدّثوا عن هذا، كما فعل بينداروس مثلاً، إذ يأتي على ذكر فينيكس:

قاد فرقة الدولوبيين القاذفين بالمقاليع.

والدانائيين مروّضي الجياد

والماهرين برمي الرماح

(مقطع 183، بيرغك)

ومثل هـذا التأويل ينبغـي أن يعطـى مقطـع هـوميروس وفـق الصـيغة الـتي يـدعوها النحويون صيغة المسكوت عنه؛ فلو شارك الملك فينيكس في الحملة، لكان الأمر مثيراً للسخرية،

(وهناك، ملكت على الدولوبيين، وعشت في أطراف فتيا)

(الإلياذا IX، 484)

ولما كان الخاضعون لسلطانه معه، لأنه في مثل هذه الحال لا يمكن أن نرى في فينيكس شريكاً في الحملة مع أخيلليس، بل لحق به كأحد قادة وحدة صغيرة من قواته، أو كخطيب، وربّما كمستشار وحسب. وقد سعت أشعار[3] هوميروس لتوضيح ذلك، وهذا هو مغزى قوله:

لكي تغدو بارعاً في الخطابة، وبارزاً في شؤون رجل مهمّ

(الإلياذا IX، 443)

ومن الواضح أن هوميروس يعني بقوله هذا، كما كنت قد قلت، إنّ القوات التي كانت تحت قيادة أخيلليس وفينيكس كانت قوّات واحدة القوات نفسها. بيد أن الأقوال السابقة عن المناطق الخاضعة لسلطة أخيلليس، هي أقوال متناقضة. لأنّ بعضهم يرى في آرغوس البيلاسغية مدينة تسالية كانت تقع في زمن ما قرب لاريسّا، لكنّها الآن لم تعد موجودة، بينما يرى آخرون إنها ليست مدينة أصلاً، إنّما هي سهل تسالي لم يعط اسماً إلا بعد أن نزح أبانتس من آرغوس إلى هنا وأطلق عليه اسمه هذا.

6- وفيما يخصّ فتيا فإن بعضهم يدغمها بهلاّدا وآخيا. ولكنّ هاتين المنطقتين تشكّلان الشطر الجنوبي من الشطرين اللذين انقسمت إليهما تساليا كلّها. بيد أنّ بعضهم يفرّق بين فتيا وهلاّدا. ويهيّأ لي إن الشّاعر يرى في فتيا وهلاّدا منطقتين مختلفتين، إذ يقول:

... الرجال الذين سكنوا فتيا الجبلية، وهلاّدا...

(الإلياذا II، 683)

وكأن هناك منطقتين عندما يقول:

بعد أن عدوت بعيداً عبر سهول هلاّدا الشاسعة

وصلت إلى فتيا...

(الإلياذا IX، 479)

يوجد في هلاّدا كثير من الآخيات أيضاً، وفي فتيا السعيدة.

(الإلياذا IX، 395)

وعلى هذا النحو يرى الشّاعر فيهما منطقتين، لكنّه لا يوضّح ما إذا كانتا مدينتين أم إقليمين. وثمّة من الكتّاب المتأخرين من يدعو هلاّدا إقليماً ويقول، إنه يمتدّ من باليفرسال[4] حتّى طيبة الفتيّة. ويقع في هذا الإقليم معبد ثيطس أيضاً، على مقربة من فرسال القديمة وفرسال الجديدة؛ ويستنتجون من حقيقة وجود معبد ثيطس هناك، أن هذا الإقليم كان بدوره جزءاً من البلاد الخاضعة لسلطة أخيلليس. ولكنّ آخرين، كالفرساليين مثلاً، يرون أن هلاّدا مدينة، ويدلون على مدينة مدمّرة تقع على بعد 60 مرحلة من مدينتهم يعتقدون أنها مدينة هلاّدا، وثمّة ينبوعان على مقربة: ميسّييدا وهيبيريا؛ أمّا الميليتيون فيقولون، إن هلاّدا كانت تقع على بعد 10 مراحل عنهم على الجانب الآخر من إينيبييوس، عندما كانت مدينتهم لا تزال تدعى بيرا؛ أمّا الهللينيون فقد وفدوا إلى مدينتهم آتين من هلاّدا التي كانت تقع في منطقة منخفضة؛ والبرهان على ذلك، هو قبر هللين بن ديفكاليون وبيرا، الذي يقع في ساحة سوقهم. فهم يتناقلون أن ديفكاليون حكم في فتيا، بل في تساليا على وجه العموم. وإذ يجري إينيبييوس من أوفريا قرب فرسال، ينعطف ليصبّ في أبيدان الذي بدوره يصبّ في بينييوس. وبهذا أكون قد أنهيت حديثي عن الهللينيين.

7- يطلق اسم الفتيين على أولئك الخاضعين لسلطة أخيلليس، وبروتيسلايوس، وفيلوكتيتس. ويشهد بهذا هوميروس إذ يقول في «سجلّ» الخاضعين لسلطة أخيلليس:

أولـئك الذين يمتلكون فتيا...

(الإلياذا II، 623)

ويصوّرهم في المعركة التي وقعت قرب السفن، واقفين في الخلف مع أخيلليس في سفنهم لا يؤتون أي حركة؛ على الضدّ من الخاضعين لسلطة فيلوكتيتس الذين كان يقودهم[5] ميدونت، فهو يقدّمهم مشاركين في القتال، أمّا الخاضعين لسلطة بروتيسلايوس، فيقدّمهم وقد «نظم بوداركيس صفوفهم»[6]. وهو إذ يتحدّث عن هؤلاء بشكل عام يلاحظ:

هناك البيوتيون البواسل، والياونيون ذوو الأردية الطويلة
والفتيون واللوكريون والإيبيون الأماجد...

(الإلياذا XIII، 685)

ثمّ على وجه الخصوص:

لقد تقدّم ميدون الفْتيين، وبوداركيس الذي يتنفس قتالاً.
كلاهما في مقدّمة المقاتلين، الشبان الفْتيين
لقد قاتلوا دفاعاً عن السفن، مع البيوتيين سوية.

(الإلياذا XIII، 693)

وربّما يكون رفاق يوريبيلوس قد دعوا فتيين أيضاً، لأنهم جاوروا فتيا. ولكنّهم يرون الآن أن المنطقة التابعة لمغنيسيا لا تقتصر على محيط أورمينوس التابع لسلطة يوريبيلوس، بل تشمل كلّ البلاد الخاضعة لسلطة فيلوكتيتس. بيد أنهم يرون في البلاد التي يحكمها بروتيسلايوس جزءاً من فتيا، بدءاً من دولوبيا وبيندس حتّى البحر الماغنيتي مباشرة، بينما البلاد التي يحكمها بيلييوس وأخيلليس بدءاً من منطقتي تراخين وغيتا، تتحدّد عرضاً حتّى أنترون، المدينة الخاضعة لسلطة بروتيسلايوس (يكتب اسم هذه المدينة الآن بصيغة الجمع). ولخليج ماليوس الطول نفسه تقريباً.

8- وبالنسبة لغالوس وألوبا يجد الكتّاب أنفسهم في حيرة، إذ يجيزون ألا يكون الشّاعر يعني الأماكن التي تحمل هذا الاسم، والتي تتبع الآن منطقة فتيا، إنّما يعني المناطق الواقعة داخل حدود اللوكريين، لأنّ ممتلكات أخيلليس تمتدّ حتّى الآن إلى تراخين ومنطقة إيتا على حدّ سواء؛ وغالوس وغاليونتسو تقعان على الساحل اللوكري، مثلهما مثل أولوبا. وبعضهم يتصوّر غاليونتوس بدلاً من ألوبا ويكتبون على النحو الآتي:

الذين يسكنون كلّ مكان من غالوس، وغاليونتوس، وتراخين.

(الإلياذا II، 682)

وتقع غالوس الفْتية قرب نهاية أوفريا، وهو جبل يقع إلى الشمال من ثتيوتيدا على الحدود مع جبل تيفريست ومنطقة الدولوبيين (يمتدّ هذا الجبل حتّى منطقة خليج ماليوس). وتقع غالوس (يستخدم هذا الاسم بصيغتي المؤنث والمذكر)، على مسافة تقارب 60 مرحلة عن إيتون. وقد تأسّست غالوس على يديّ أثامانتوس، ولكن بعد أن هدّمت المدينة في زمن لاحق، بنى الفرساليون مستعمرة في هذا المكان. وتقع هذه المدينة فوق سهل كروكيا؛ كما يجري نهر أمفريس قرب أسوارها. وإلى الأسفل من سهل كروكيا تقع طيبة الفْتية. وتدعى غالوس مدينة فْتيّة وآخية في الوقت نفسه، وهي تجاور منطقة الماليين، وكذلك ذيول جبل أوفريا. ومثلها مثل فيلاكا الخاضعة لسلطة بروتيسلايوس والواقعة في ذلك الشطر من ثتيوتيدا الذي يقع على مقربة من منطقة الماليين، فإن غالوس تقع هناك أيضاً؛ وهي تبعد عن طيبة 100 مرحلة تقريباً، في

منتصف الطريق بين فرسال ومنطقة الثتيوتيين. ولكنّ فيليب انتزعها من الثتيوتيين وأعطاها للفرساليين. وأنا كنت قد قلت[7]، إن حدود القبائل واتحاداتها كانت تتغيّر دائماً. فسوفوكليس أيضاً يلحق تراخينيا بثتيوتيدا. أمّا أرتيميدور فهو يوضّع غالوس على الساحل إذ لا يعدّها واقعة في خليج ماليوس، بل تدخل قوام ثتيوتيدا؛ لأنه إذ يتّجه من هنا إلى الأمام نحو بينيوس، يوضّع بتيلييوس بعد انترون، ومن ثمّ غالوس، على بعد 110 مراحل من تيلييوس. أمّا تراخين فأنا تحدّثت[8] عنها، وكان الشّاعر قد أتى على ذكر اسمها.

9- وبما أن الشّاعر غالباً ما[9] يذكر سبرخييوس بصفته نهراً محلّياً تقع منابعه عند تيفريست، الجبل الدريوبي (الذي كان يدعى قديماً [....])[10]، ومصبّه قرب ثرموبل وبينهما وبين لاميا، فإنه يشير بوضوح إلى أن المناطق التي تقع على هذا الجانب (التي تتبع خليج ماليوس) وتلك التي تقع على الجانب الآخر من المعابر، كانت خاضعة لسلطة أخيلليس. ويقع سرخييوس على بعد 30 مرحلة تقريباً من لاميا، التي تقع فوق سهل ما ينحدر إلى خليج ماليوس. ويقول الشاعر، إن سبرخييوس كان نهراً تسالياً محلّياً؛ وليس هذا واضحاً من كلام أخيلليس وحده (الذي قال إنه أطلق شعره تقدمة لسبرخييوس) [11]، بل هو واضح كذلك من تسمية مينيسفييوس، أحد قادة قوات أخيلليس، ابناً لسبرخييوس وأخت أخيلليس[12]. ومن الطبيعي أن نفترض أن كلّ الذين كانوا خاضعين لسلطة أخيلليس وباتروكليس اللذين تبعا بيلييوس لدى فراره من إيجينا، قد دعوا مرميدونيين. أمّا الثتيوتيون فقد دعيوا آخيين.

10- ويحصي المؤلّفون عدداً من القرى في داخل الأراضي الفتْية، خاضعة لسلطة أخيلليس، ابتداء من الماليين؛ ومن هذه القرى: طيبة الفتْية، وإيخين، ولاميا (التي دارت عندها رحى الحرب اللامية التي خاضها المقدونيون تحت قيادة انتيباتر ضدّ الأثينيين؛ وقد سقط في هذه الحرب القائد الأثيني ليوسفين، وكذلك ليوناتوس أحد قادة قوات الملك الإسكندر)، ونارثاكوس، وإرينيوس، وكورونيا (سميّة المدينة البيوتية)، وميليتييا، وثاوماكي، وبرويرنا، وفرسال، وإريتريا (سميّة المدينة الإيبية)، وباراخيلويتا (سمية المدينة الإيثولية)، لأنّ نهر أخيلوي يجري هنا على مقربة من لاميا، وعلى ضفتيه يعيش البارا خيلوتيون. وتمتدّ هذه البلاد شمالاً نحو أقصى المناطق الغربية للإسكلبيادس، ويوربيلوس، ومنطقة بروتيسلايوس التي تتّجه كلّها نحو الشرق، وتميل جنوباً نحو المنطقة الإيتية التي قسمت إلى 14 ديموساً، كما ضمت كذلك هيراقليا، ودريوبيدا. وقد تألفت هذه الأخيرة في زمن ما، مثلها مثل دوريدا، من أربع

مدن، وعدت ميتروبوليا الدوريين الذين عاشوا في البيلوبونيز. وتنتمي إلى المنطقة الإيتية كلّ من أكيفا، وباراسوبيدا، وغينيادا، وأنتيكيرا سمية مدينة اللوكريين الغربيين، وأنا أتحدّث عن تقسيمات البلاد هذه، مع أنها لم ترد دائماً هي نفسها، إنّما كانت تخضع لتغيّرات شتّى. ولكن مع ذلك ينبغي أن نبرز التقسيمات الأكثر أهمية.

11- وفيما يخصّ الدولوبيين فإن الشّاعر نفسه يتحدّث عنهم بوضوح، إذ يقول إنهم كانوا يعيشون على أطراف فتيا، خاضعين لسلطة الحاكم نفسه، وهو بيلييوس، مثلهم مثل الفتْيين، لأنّ [فينيكس] يقول:

هناك، حيث ملكت على الدولوبيين، عشت أنا على أطراف فتيا،

(*الإلياذا* IX، 484)

التي أعطانيها بيلييوس. وتجاور هذه البلاد بيندس والأماكن المحيطة به التي يدخل أكثرها قوام تساليا. فنتيجة للمجد والتفوّق الذي حقّقه التساليون والمقدونيون، تحوّلت مناطق الإيبيروتيين الواقعة على مقربة مباشرة منهم (بعضها بإرادته وبعضها الآخر عنوة)، إلى أجزاء من تساليا ومقدونيا، ومثالنا على ذلك: الأثامانيون، والإيفيكيون، والتالاريون دخلوا قوام تساليا، أمّا الإدريستيون، والبيلاغونيون، والإيليميوتيون، فقد انضمّوا إلى مقدونيا.

12- إن جبل بيندس جبل عظيم، إلى الشمال منه تقع مقدونيا، وفي الغرب الوافدون البيريبيون، وفي الجنوب الدولوبيون، أمّا هستيوتيدا، فتقع في الشرق؛ وهذه الأخيرة هي جزء من تساليا. وعلى جبل بيندس نفسه عاش التالاريون (قبيلة مولوسية، جزء من أولئك الذين كانوا يقطنون بجوار جبل تومار)، ومثلهم مثل الإيفيكيين فقد طردهم[13] بيريفوي القنطور بحسب قول الشّاعر، إلى منطقتهم هذه؛ لكن المؤرّخين يقولون الآن، إنهم «اندثروا». ونحن ينبغي أن نفهم هذا «الاندثار» باتجاهين: إمّا أن يكون السكّان قد اختفوا وخلت البلاد تماماً، أو أن يكون اسم القبيلة قد خرج من التداول، وتحالفها لم يبق بالشكل الذي كان عليه. وهكذا، إذا كان ثمّة تحالف قديم قد نجا، فإنه الآن لا أهمية له، وهو بالتالي لا يستحق أن يذكر، كما لا يستحق أن يذكر أيضاً اسمه والتغيّرات التي طرأت عليه، وإذا ما كان ثمّة داع لذكره، فإنه من الضروري التأكيد على هذه التغيّرات.

13- لقد بقي لي أن أذكر بالترتيب توضّع الأماكن على الساحل الذي كان خاضعاً لسلطة أخيلليس، ابتداء من ثرموبل؛ وأنا كنت قد تحدّثت عن منطقتي لوكريدا وإيتيبيا. فثرموبل يفصلها عن كينيوس مضيق عرضه 70[14] مرحلة، ولكن،

إذا أبحرت على طول الساحل في الجانب الآخر من بيلا، فإن المسافة من سبرخييوس ستكون 60 مرحلة تقريباً: من هنا إلى فالارا 20 مرحلة؛ وإلى الأعلى من فالارا 50 مرحلة عن البحر، تقع مدينة اللاميين؛ ثمّ إذا أبحرت 100 مرحلة أخرى على طول الساحل، فإنك تقترب من إيخين الواقعة على البحر؛ وفي عمق البلاد، فوق الساحل الذي يلي، وعلى بعد 20 مرحلة منه، تقع لاريسا كريماستا (التي تدعى أيضاً، لاريسا البيلاسغية).

14- ثمّ تأتي جزيرة ميونيس، وأخيراً أنترون التي كانت خاضعة لبروتيسلايوس.

إن هذه هي المعلومات التي رأيت من الضروري أن أعرضها عن شطر من البلاد التي كانت تحت سلطة أخيلليس. وبما أن الشّاعر عندما أورد أسماء القادة والمدن الخاضعة لسلطة كلّ منهم، قسم المنطقة التسالية إلى كثرة من الأجزاء المعروفة جيداً، وفق ترتيب محدّد، فإنني بدوري سأحذو حذوه، وكما فعلت من قبل، سأنهي الشطر المتبقي من الوصف الجغرافي للبلاد. فبعد تعداد الخاضعين لسلطة أخيلليس بالترتيب، ينتقل الشّاعر إلى الخاضعين لسلطة بروتيسلايوس؛ وقد كان هؤلاء سكّان المنطقة التي تلي مباشرة الساحل الخاضع لسلطة أخيلليس وصولاً إلى أنترون. وعلى هذا النحو فإن المنطقة الواقعة تحت بروتيسلايوس تقع على حدود البلاد التالية مباشرة، أي أنها خارج خليج ماليوس، بيد أنها لا تزال ضمن حدود ثتيوتيدا، مع أنها خارج حدود شطر ثتيوتيدا الخاضع لسلطة أخيلليس. وهكذا تقع فيلاكا قرب طيبة الفتيّة الخاضعة هي نفسها لسلطة بروتيسلايوس. كما تخضع له أيضاً غالوس، ولاريسا كريماستا، وديميتريوس: كلّ المدن الواقعة إلى الشرق من جبل أوفريا، وديميتريوس يعرّفها الشّاعر بأنها «أرض ديميترا المقدّسة»[15]، ويدعوها «بيراسوس». كانت بيراسوس مدينة لها ميناء ملائمة؛ وعلى بعد مرحلتين منها تقع أرض ومعبد مكرّسان لديميترا؛ وتقع المدينة على بعد 20 مرحلة من طيبة. وتقع طيبة فوق بيراسوس. وفي عمق البلاد، فوق طيبة، يمتدّ عند آخر أوفريا، سهل كروكيا؛ وعبر هذا السهل يجري أمفريس. وفوق هذا النهر تقع إيتون، حيث كان يقوم معبد إيتونيا[16] (الذي دعي باسمه المعبد الذي في بيوتيا)، ويجري نهر كواريوس. وأنا كنت قد تحدّثت عن هذا النهر وعن آرنا لدى وصفي لبيوتيا[17]. وهذه الأماكن هي لتساليوتيدا، وهذه الأخيرة هي أحد أجزاء تساليا الأربعة التي كانت تقع فيها ممتلكات يوريبيلوس، وكذلك فيللوس، حيث كان يقع معبد أبوللون الفيللوسي، وإيخنا حيث تبجل ثيميس الإيخينية. كما ألحقت كييروس أيضاً بتساليوتيدا، مثلها مثل الأماكن الأخرى وصولاً إلى

أثامانيا. وعلى مقربة من أنترون في الخليج الإيبي تقع تحت الماء صخرة تدعى «حمار أنترون»؛ ثمّ تأتي بتيلييوس وغالوس؛ فمعبد ديميترا وبيراسوس المدمّرة؛ وفوق هذه الأخيرة تقع طيبة؛ وبعدها رأس بيرا البحرية وعلى مقربة منها جزيرتان صغيرتان تدعى إحداهما بيرا، والأخرى ديفكاليون. وفي مكان ما هنا تنتهي ثتيوتيدا.

15- ثمّ يعدّد الشّاعر القبائل الخاضعة لسلطة يميلوس، أي الساحل المجاور الذي يعود من هنا لمغنيسيا ومنطقة بيلاسغيوتيدا. وعلى هذا النحو فإن ثيرا تقع في آخر السهول البيلاسيغية باتجاه مغنيسيا، وتنبسط هذه السهول حتّى بيلييون مباشرة على 160 مرحلة. وتقع محطة ثيرا الشراعية- باغاسا- على مسافة 90 مرحلة منها و20 مرحلة من يولك. وكانت هذه الأخيرة قد دمّرت منذ القدم، فمن هنا أرسل بيلييوس ياسون والسفينة آرغو. وحسب الأسطورة أن هذا المكان دعي باغاسا[18]، لأنّ تصنيع السفينة آرغو جرى هنا، مع أن آخرين يرون أن الأكثر إقناعاً، هو أن هذا المكان دعي باسمه هذا نسبة لينابيعه[19] الكثيرة والغزيرة المياه. كما يقع على مقربة من المكان مدينة أثيتا، وكأنها «نقطة انطلاق»[20] الأرغونيين. وتقع يولك فوق البحر بسبع مراحل عن ديميتريادا (التي تقع على البحر بين نيلييوس وباغاسا). وقد أسّس ديميتريادا هذه، ديميتريوس بوليوركيت، وأطلق عليها اسمه، ثمّ أسكن فيها سكّان المدن المجاورة: نيليا، وباغاس، وأورمينوس، وريزونت، وسيبييادا، وأوليزون، وبيبا، ويولك التي تعدّ الآن كلّها قرى تابعة لديميتريادا. وعدا عن ذلك بقيت هذه المدينة لزمن طويل محطة شراعية ومقراً لملوك مقدونيا؛ وقد سيطرت على وادي تيمبييوس وجبليّ بيليون وأوسّا ، كما أسلفت القول[21]. ومع أنه لم يعد لهذه المدينة أيّ أهمية تذكر الآن، إلا أنها مع ذلك لا تزال تتفوّق على مدن مغنيسيا الأخرى كلّها. وغير بعيد عن ثيرا تقع بحيرة بيبييدا، التي تجاور حدود بيليون ومغنيسيا. وبيبا مكان يقع على البحيرة. وعلى النحو الذي أدت فيه الانتفاضات وسيطرة الأنظمة التيرانية إلى تقويض ازدهار يولك، كذلك أيضاً سقطت ثيرا التي أعلت التيرانية شأنها يوماً، لكنّها هي نفسها التي أضعفتها أيضاً. ويجري على مقربة من ديميتريادا نهر أنوار، كما يدعى الساحل البحري المجاور، يولك أيضاً. وهنا كانوا يحتفلون بالعيد الشعبي الذي يسمّى بيلييوس[22]. ويوضّح أرتيميدور خليج باغاسا بعد ديميتريادا، في منطقة خاضعة لسلطة فيلوكتيتس؛ وعلى حدّ قوله، إن جزيرة كيكينيثوس، وهو اسم مدينتها أيضاً في ذلك الوقت، تقع في الخليج.

16- ثمّ يلي ذلك تعداد المدن الخاضعة لحكم فيلوكتيتس. فميثونا تختلف عن

ميثونا التراقية التي دمّرها فيليب. وأنا كنت قد أشرت[23] سابقاً إلى تبدّل أسماء هذه الأماكن وبعض المناطق في البيلوبونيز. والمناطق الأخرى التي عدّدها الشّاعر هي: ثاوماكيا، وأوليزون، وميليبيا التي تتبع الساحل الذي يلي مباشرة. ويقع أمام منطقة الماغنيتيين كثير من الجزر؛ ولكنّ أيّاً منها ليس له أهمية تذكر سوى سكياثوس، وبيباريفوس، وإيكوس، وكذلك هالونيس وسكيروس ومعها مدن ذلك الزمن. وكانت سكيروس هي الجزيرة الأهمّ بينها، بسبب صلة القرابة العائلية التي كانت تربط بين ليكوميدس وأخيلليس. وفي الأزمنة التالية، عندما صار فيليب إلى قوة جبّارة، ورأى أن الأثينيين يسيطرون على البحر ويمتلكون جزراً كهذه وغيرها، جعل من الجزر القريبة منه الجزر الأكثر عظمة؛ لأنه في حربه لتحقيق زعامته كان دائماً يهاجم الأماكن القريبة منه؛ ومثلما ضمّ إلى مقدونيا الشطر الأكبر من ماغنيتيدا وتراقيا وأطراف البلاد الأخرى، كذلك استولى على الجزر الواقعة أمام مغنيسيا وأدخل هذه الأماكن التي لم تكن معروفة من قبل، أوار الصراع وجعلها ذات شهرة واسعة. فسكيروس المعروفة جيداً من الأساطير القديمة، تتوفّر على ميزات أخرى ترغم على الحديث عنها، مثل النوعية العالية للماعز السكيروسي، ومقالع الحجارة التي يستخرج منها المرمر السكيروسي المتنوّع الألوان، الذي لا يقلّ جودة وروعة عن المرمر الكاريستي[24]، والدوكيمي، أو السينادي[25]، والهيروبوليتي[26]. ويمكننا أن نرى في روما أعمدة منحوتة من قطع كاملة، أو صفائح كبيرة من المرمر الملوّن. ويجري تزيين المدينة بهذا المرمر على نفقة المجتمع أو على نفقة أشخاص، وهذا ما أدّى إلى تدنّي أسعار المرمر الأبيض.

17- ولكنّ الشّاعر بعد أن وصل في وصفه إلى هذا الموقع من ساحل مغنيسيا، صعد إلى تساليا العليا؛ فهو يصف بالتفصيل شطر دولوبيا وبيندس الذي يمتدّ على طول ثتيوتيدا وصولاً حتّى تساليا الدنيا:

الشعب الذي يمتلك تريكا وإيثوما ذات الجرف العالي.

(*الإلياذا* II، 729)

وتعود ملكية هذه الأماكن لهستيوتيدا، مع أنها كانت تدعى من قبل دوريدا؛ ولكن عندما استولى عليها البيرّيبيون (الذين كانوا قد أخضعوا هستيوتيدا التي في إيبيوس، ونقلوا سكّانها إلى البرّ)، دعوا هذه البلاد هستيوتيدا على اسم هؤلاء الهستيتيين لكثرة أعداد الذين سكنوا منهم هنا. وتدعى هستيوتيدا ودولوبيا، تساليا العليا التي تقع على خطّ مستقيم مع مقدونيا العليا، مثلهما مثل تساليا الدنيا ومقدونيا

الدنيا. وتريكا التي يقع فيها أقدم معابد إسكليبوس وأكثرها تبجيلاً، تجاور منطقة الدولوبيين والمناطق القريبة من بيندس. أمّا إيثوما، سميّة المدينة المسينية، فإن بعضهم يؤكّد أنه يجب ألا تدعى على هذا النحو، بل ينبغي استبعاد المقطع الأول من الاسم[27]؛ فهم يزعمون أنها دعيت هكذا من قبل، لكنّهم غيّروا اسمها الآن إلى إيثوما. وإيثوما مكان حصين بطبيعته، وهو فعلاً مكان «صخري»[28]. وهو يقع بين أربع قلاع تبدو كأنها تقع في مربّع: تريكا، وميتروبوليس، وبيلينييوس، وهومثا. وتتبع إيثوما أرض الميتروبوليسيين. وكانت ميتروبوليس قد تشكّلت سابقاً من اتحاد ثلاث مدن صغيرة لم تكن لها أهمية، ثمّ انضمّ إليها بعد ذلك عدد من الأماكن الصغيرة الأخرى التي كانت إيثوما واحدة منها. فكاليماخ يقول في «يامباته»، «من بين الأفروديت كلّهن (لأن هناك أكثر من إلهة تحمل هذا الاسم)، تعدّ أفروديت كاستنتيدا، هي الأكثر حكمة، لأنها وحدها التي تقبل الخنزير ذبيحة»[29]. وغني عن البيان القول، إنه كان إنساناً على درجة عالية جداً من العلم والمعرفة (أكثر علماً من أيّ آخر)، وقد قال هو نفسه، إنه عزم على أن يكرّس حياته كلّها لمثل هذه الأساطير[30]. ولكنّ الكتّاب المتأخرين أظهروا أن هذا الطقس لم تعتمده أفروديت واحدة، بل اعتمده أكثر من أفروديت؛ وكانت بين هذه الإلهات أفروديت الميتروبوليسية؛ وكانت إحدى المدن التي جمعت القرية مع هذه المدينة في كلّ واحد، هي التي نقلت هذا الطقس الأونفوري[31] إلى ميتروبوليس. وثاركادون بدورها تقع في هستيوتيدا، أمّا بينييوس وكورالوس فيجريان عبر هذه المنطقة. وكورالوس هذا يجري على مقربة من معبد أثينا الإيتونية ليصبّ في بينييوس، أمّا هذا الأخير نفسه، فيخرج من بيندس، كما أسلفت القول[32]، وإذ يترك تريكا، وبيلينوس، وثاركادون على يساره، يجري على مقربة من أتراك ولاريسا؛ ثمّ يستقبل أنهاراً في تساليوتيدا ويتابع مجراه عبر وادي تيمبييوس إلى مصبّه. أمّا إيخاليا التي تدعى «مدينة إيفريتوس»[33]، فلا يوضّعها الباحثون في هذه المنطقة فقط، بل في إيبيوس والبيلوبونيز أيضاً[34]. وفيما يخصّ هذه الإيخاليات يهتم هؤلاء بصورة أساس: أيّ إيخاليا استولى عليها هرقل، وأيّ إيخاليا عنى الشّاعر الذي كتب «الاستيلاء على إيخاليا»[35]. لقد ألحق هوميروس هذه الأماكن بالأراضي الخاضعة لسلطة الإسكليبيادس.

18- ثمّ يتحدّث الشّاعر عن البلاد الخاضعة لحكم يوريبيلوس:

الرجال البواسل الذين عاشوا في أورمينوس عند هيبيريا،

الذين في قبضتهم أستريوس وقمم تيتانوس البيضاء.

(الإلياذا II، 734)

وتدعى أورمينوس الآن أورمينيوس؛ وهي قرية عند سفح بيليون على مقربة من الخليج الباغاسي، وكما قيل سابقاً[36]، فإن هذه المدينة هي إحدى المدن التي انضمّ سكّانها لديميترياذا. وغير بعيد من هنا يجب أن تقع بحيرة بيبييدا، لأنّ بيبا، مثلها مثل أورمينوس، كانت واحدة من ضواحي ديميترياذا. فأورمينوس تقع على بعد 27 مرحلة من ديميترياذا برّاً، بينما مكان يولك الواقع على الطريق إلى هناك، يبعد عن ديميترياذا 7 مراحل، وعن أورمينوس العشرين مرحلة المتبقية. ويقول ديميتري السكيبسيسي، إن فينيكس يتحدر من أورمينوس، لكنّه هرب من هناك إلى فتيا خوفاً من والده أمينتور ابن أورمينوس، وجاء إلى الملك بيلييوس، لأنّ هذه المدينة، بحسب ديميتري، أسّسها أورمينوس ابن كركاثوس ابن إيولس؛ ويقول، إن أمينتور وكذلك إيفيمون كانا ولديّ أورمينوس، وكان فينيكس ابناً للأول منهما ويوريبيلوس ابناً للثاني. وقد نال يوريبيلوس حقّ وراثة العرش (مع أنه كان للاثنين الحق عينه)، لأنّ فينيكس غادر الوطن. ويكتب ديمتري السكيبسيسي أيضاً،

عندما تركت لأول مرّة أورمينوس الغنية بالقطعان

بدلاً من

... تركت هلاّدا الشهيرة بجمال نسائها.

(*الإلياذا* IX، 447)

ولكنّ كراتيت يجعل من فينيكس ثوكياً، مستنتجاً ذلك على أساس خوذة ميغيس التي استخدمها أوديسيوس في جولة استطلاع ليلية؛ ويقول الشّاعر عن هذه الخوذة إنها

... منذ القدم، من أسوار إيليون سرقها أفتوليكوس،

بعد أن هدم بيت أمينتور الحصين.

(*الإلياذا* X، 266)

فإيليون، كما يقول، مدينة على بارناس، وأمينتور ابن أورمينوس ليس أحداً آخر سوى والد فينيكس؛ وأفتوليكوس الذي يقطن بارناس، كان ينقب جدران منازل جيرانه (كديدن اللصوص)، وليس جدران منازل الذين يعيشون بعيداً عنه. ولكنّ ديميتري السكيبسيسي يعارض قائلاً، إنه ليس على بارناس أيّ إيليون، بل هناك نيون (زد إلى هذا أنها تأسّست بعد حرب طروادا)، عدّاك عن هذا أن نقب الجدران لا يقع للجيران فقط. وهناك آراء أخرى يمكن سوقها، لكنّني لا أريد أنْ أطيل وصفي هذا. ويكتب بعضهم «من هيليون»[37]، لكنّ هيليون مكان في منطقة تاناغرا، ومن شأن

مثل هذا القراءة أن تزيد هذا التعبير سخافة:

ثمّ عدوت بعيداً عبر هلاّدا،

ووصلت إلى فتيا.

(الإلياذا IX، 478)

ويقع نبع هسبيريا في وسط مدينة الثيرين العائدة ليميلوس. ومن السذاجة أن ينسب النبع ليوريبيلوس. وقد دعيت تيتانوس[38]. باسمها هذا تبعاً للسمة التي تميّزها؛ فالمنطقة القريبة من آرنا وأثيتا تربتها بيضاء. وأستريوس بدورها تقع غير بعيد عن هذه الأمكنة.

19-وتجاور هذا الشطر من تساليا المنطقة التي يعدّونها تحت حكم بوليبيتوس:

الرجال الذين عاشوا في أرغيسا، وسكنوا

كلّ مكان في هيرتون، وأورفا، وإيلون الشاسعة

وأولوسون المدينة ذات الحجارة البيضاء.

(الإلياذا II، 738)

وفي الأزمنة الماضية سكن هذه البلاد البيرّيبيون الذين كانوا يقطنون المنطقة الساحلية من تساليا، وعند نهر بينييوس وصولاً حتّى مصبّه مباشرة، وحتّى مدينة هيرتون البيرّيبية. وبعد ذلك أخضعوا البيرّيبيين وطرودهم إلى المنطقة النهرية في أعماق بلاد اللابيثيين واحتلوا بلادهم، وقد قاد هذا العدوان على البيرّيبيين اللابيثيان إيكسيون وبيريفوي؛ واستولى هذا الأخير على بيليون أيضاً بعد أن طرد قبيلة القنطورات المتوحّشة التي كانت تمتلك هذه المنطقة. وعلى هذا النحو يكون قد

... طردهم من بيليون، وساقهم حتّى شعوب الإيفيكيين؛

(الإلياذا II، 744)

وأعطى اللابيثيين السهول ملكاً لهم، مع أن البيرّيبيين احتفظوا ببعضها، خاصة عند الأوليميب، وعاشوا في بعض الأماكن مختلطين تماماً مع اللابيثيين. وتقع أرغيسا - أرغورا المعاصرة - على نهر بينييوس؛ وإلى الأعلى منها بأربعين مرحلة تقع إتراكس، على مقربة من النهر أيضاً. وكان البيرّيبيون يملكون المنطقة النهرية الواقعة بين هذين الموقعين. وقد وصف بعضهم أورفا بأنها أكروبوليس الثالانيين؛ وثالانّا هي مدينة البيرّيبيين عند نهر بينييوس، على مقربة من وادي تيمبييوس. فبعد أن هزم اللابيثيون البيرّيبيين، اضطر أكثر هؤلاء الأخيرين للنزوح إلى المنطقة الجبلية القريبة من بيندس، ومنطقة الأثامانيين والدولوبيين، أمّا بلادهم وكلّ من بقي من البيرّيبيين، فقد

أخضعهم اللاريسيون الذين كانوا يعيشون قرب بينييوس، أي أنهم كانوا جيرانهم؛ لقد كان اللاريسيون يقطنون أكثر أجزاء السهول خصوبة، ولكن ليس في المنخفض نفسه عند بحيرة نيسونيدا، إلى حيث كان النهر يجرف جزءاً من التربة الزراعية أثناء فيضانه. وفيما بعد نجح اللاريسيون بالتخلّص من هذا الأذى ببناء المنحدرات. لقد استولوا على بيرّيبيا وفرضوا عليها الإتاوة إلى أن غدا فيليب سيّد هذه المناطق. وثمّة مكان على جبل أوسّا يدعى لاريسا أيضاً؛ ولاريسا الأخرى، هي لاريسا كريماستا التي يدعوها بعضها لاريسا البيلاسغية؛ وفي كريت أيضاً مدينة تدعى لاريسا التحقت الآن بهيرابيتنا، ولذلك يدعى السهل الواقع تحتها الآن، سهل لاريسا؛ وفي البيلوبونيز قلعة للآرغوسيين تدعى لاريسا، كما أن فيها نهراً يدعى لاريس أيضاً، وهو يشكّل حدود إيليبا مع ديما. ويتحدّث ثيوبومبوس عن مدينة أخرى اسمها لاريسا تقع على تلك الحدود المشتركة نفسها؛ وثمّة في آسيا لاريسا الثريكونية قرب كيما؛ وثمّة لاريسا عند هاماكسيتوس في طروادا؛ كما توجد لاريسا الأفسسية، ولاريسا السورية؛ وعلى بعد 50 مرحلة عن ميتيلينا على الطريق إلى ميفيمنا تقع الصخور اللاريسية؛ وهناك لاريسا في أتيكا أيضاً؛ وعلى بعد 30 مرحلة من مدينة ترالا، فوق المدينة إذا سرت على الطريق عبر ميسوجيدا إلى سهل كايسترا على مقربة من معبد الأمّ إيسودروما[39]، تقوم قرية تسمى لاريسا؛ ومن حيث موقعها الطبغرافي وشروطها الطبيعية، تشبه هذه اللاريسا لاريسا كرماستا؛ فهي تتوفّر على وفرة من المياه وفيها كثير من كروم العنب؛ وقد يكون زيوس اللاريسي قد نال اسمه هذا من هذه الأماكن. وأخيراً، ثمّة قرية على الجهة اليسرى من البونتس تدعى لاريسا، وهي تقع بين نافلوخ [وأوديس][40] عند نهاية جبل جيموس؛ ثمّ تأتي أولودسوس التي وصفت «بالبيضاء» لأنّ تربتها تتكون من طين أبيض، وبعدها إيلون وغون مدينتا البيريبيين. وقد تغيّر اسم إيلون فباتت تدعى ليمونا، وهي الآن مدينة مدمّرة تماماً. وتقع المدينتان معاً عند سفوح الأوليميب غير بعيد عن نهر يوروب الذي يدعوه الشّاعر باسم تيتاريسوس[41].

20- ويتحدّث هوميروس عن البيريبيين وتياريسوس في قوله:

ومن كيفوس مع اثنتين وعشرين سفينة أبحر غونيوس،
على رأس الإينيانيين، والبيرّيبيين المقاتلين الأشداء،
وقبيلة الرجال الذين بنوا مساكنهم في ديدونا الصقيعية،
الذين يحرثون الأرض التي يصخب فيها تيتاريسوس المرح.

(الإلياذا II، 748)

وعلى هذا النحو يرى هوميروس أن هذه الأماكن تعود للبيرّيبيين، ويدعو ما وقع بين أيديهم جزءاً من هستيوتيدا. وكانت المدن الواقعة تحت حكم بوليبيتوس مدناً بيرّيبية إلى حدّ ما، ومع ذلك فإنّ الشّاعر ينسبها إلى اللابيثيين، لأنّ هذه القبائل تخالط بعضها مع بعض، ولأن اللابيثيين امتلكوا السهول، أمّا الفريق الذي بقي هنا من القبيلة البيرّيبية، فقد خضع أكثره للابيثيين. لقد شغل البيرّيبيون الأجزاء الجبلية الواقعة قرب الأوليميب ووادي تيمبييوس، مثل كيفوس، ودودونا والمنطقة القريبة من تيتاريسوس؛ وينبع هذا النهر من جبل تيتاريوس الذي يتّصل بالأوليميب، ثمّ يجري في منطقة البيرّيبيين على مقربة من وادي تيمبييوس، وفي مكان ما هنا يلتقي مع نهر بينييوس. ومياه هذا الأخير نقية صافية، أمّا مياه تيتاريسوس، فهي مياه زيتية بسبب اختلاطها برواسب ما، ولذلك فهي لا تختلط بمياه بينيييوس،

لكـنّها تطفو على السطح وتجري كالزيت.

(*الإلياذا* II، 754)

ولأن هاتين القبيلتين تقيمان بالتناوب، فقد دعا سيمونيدس البيلاسغيوتيين الذين شغلوا المناطق الشرقية قرب هيرتون ومصبّ بينيييوس، وجبل أوسّا وبيليون، والمناطق القريبة من ديمتريادا، والأماكن السهلية- لاريسا، وكرانون، وسكوتوسّا، وموبسيون، وأتراكس- والمناطق المحيطة ببحيرتيّ نيسونيدا وبيبييدا، دعاهم كلّهم بيرّيبيين ولابيثيين. ولا يذكر هوميروس إلا عدداً قليلاً من هذه الأماكن، لأنّ الأماكن الأخرى لم تكن قد استوطنت بعد أبداً، أو إنها استوطنت استيطاناً ضعيفاً بسبب الفياضانات. فالشّاعر لم يذكر بحيرة نيسونيدا، بل ذكر بيبييدا فقط (وهي أصغر بكثير من نيسونيدا)؛ لأنها تبقى دائماً، بينما نيسونيدا تمتلئ تارة وتجفّ تارة أخرى. أمّا سكوتوسّا فأنا كنت قد أشرت إليها سابقاً لدى وصفي لدودونا وموْحى تساليا، لأنّ المدينة تقع على مقربة من هذا المكان. ويقع في منطقة سكوتوسّا مكان يدعى كينوسكيفالا، حقّق الرومان عنده بقيادة تيطوس كوينكيوس وبالتحالف مع الإيثولويين نصراً في معركة كبيرة[42] خاضوها ضدّ فيليب ابن ديميتريوس، ملك المقدونيين.

21- وعلى النحو نفسه تقريباً يعالج هوميروس ماغنيتديا أيضاً. فمع أنه أتى على ذكر كثير من أماكن ماغنيتيدا، إلا أنه لم يأت على ذكر أيّ ماغنيتيين يقطنونها، ما عدا ذين المكانين، وحتّى حديثه عنهما جاء مبهماً:

عبر بينييوس وحول بيليون الصاخب

عاشوا كيفما اتّفق.

(الإلياذا II، 757)

ولكن، حول بينييوس وبيليون يقطن أيضاً الذين يملكون هيرتون، وكان هو قد ذكرهم[27]، الأورمينيين[28] وبعض الآخرين؛ وبعد بيليون كان هناك أيضاً الماغنيتيون، ابتداء من منطقة يميلوس، هذا وفق أحدث الشهود. ومع ذلك فإن هؤلاء الأخيرين، وبسبب النزوح الدائم، وتغيّر النظام السياسي، وتخالط القبائل، قد خلطوا على أغلب الظنّ، بين الأسماء، والشعوب، إلى حدّ خلق صعوبات أمام الكتّاب المعاصرين. وهذا ما يتجلّى بوضوح فيما يخصّ كرانون وهيرتون؛ ففي الأزمنة السابقة كانوا يدعون الهيرتونيين، فليغيين، نسبة إلى فليغوس أخ إيكسيوس، كما دعوا الكرانونيين أثيريين، وهذا ما خلق صعوبات في تحديد قصد الشّاعر عندما يقول:

كلاهما من تراقيا الجبلية، ويطلبان قتال الأثيريين

أو الفليغيين في ساحات القتال.

(الإلياذا XIII، 301)

22- ويصح هذا نفسه على البيرّيبيين والإيانيين أيضاً؛ لأنّ هوميروس يوحّدهم[45] بصفتهم يقطنون متجاورين. والكتّاب المتأخرون يؤكّدون فعلاً أن الإيانيين عاشوا زمناً طويلاً في سهل دوتيوس؛ ويقع هذا السهل على مقربة من بيريبيا، وأوسّا وبحيرة بيبييدا، في وسط تساليا تقريباً، ولكنّه مع ذلك محاط بهضابه هو نفسه. وقد قال هسيود عن هذا السهل ما يلي:

أو كتلك التي تعيش على هضاب ديديم المقدّسة

هناك في سهل دوتيوس، على امتداد أمير الوفيرة العناقيد،

التي تغسل قدمها بأمواج بحيرة بيبييدا، بحيرة العذراء[46].

(مقطع 122، رجاغ)

وفيما يخصّ الإينيانيين فإن القسم الأكبر منهم طرده اللابيثيون إلى إيتا؛ وقد رسخ هؤلاء سيطرتهم هناك أيضاً إذ انتزعوا من الدوريين أجزاء مهمّة من البلاد، وانتزعوا من الماليين حتّى هيراقليا وإيخين: بقي فريق منهم عند كيفوس، جبل البيرّيبيين مع القرية التي تحمل الاسم عينه. أمّا البيرّيبيون فقد طردوا جزئياً إلى منطقة تقع عند الأجزاء الغربية من الأوليميب، وأقاموا هناك بجوار المقدونيين، لكنْ بالكاد بقي الآن منهم أثر. وفي الأحوال كلّها ينبغي أن نرى في الماغنيتيين الذين يذكرهم الشّاعر بدلاً منهم في «السجلّ» التسالي، أولئك الذين شغلوا المنطقة الواقعة على هذا

الجانـب مـن وادي تيمبييـوس، ابتـداء مـن بينييـوس وأوسّـا وصـولاً إلى بيليـون، جيـران البيريسيين في مقدونيا، الـذين امتلكـوا المكـان علـى الجانـب الآخـر مـن بينييـوس حتّـى البحـر. وعلـى هـذا النحـو ينبغـي أن تكـون هومـوليـوس أو هومـولا (لأنهـا تـدعى بهـذين الاسمين) للماغنيتيين. وأنا كنت قد قلت في وصفي لمقدونيا[47]، إن هوموليوس تقع على مقربة من أوسّا؛ في ذلك المكـان الـذي ينبـع منـه بينييـوس لـدى عبـوره وادي تيمبييـوس. وإذا ما كان ينبغي التقدّم أكثر من ذلك حتّى الساحل الأقرب إلى هومولوس، فإنه ثمّة أسـاس لأن ننسـب إليـه ريزونـت وإريمينـا الـواقعتين في جـزء السـاحل الخاضـع لحكـم فيلوكتيتـوس ويميلـوس. بيـد أنـه ينبغـي أن تـترك هـذه المسـألة مفتوحـة. ويـأتي حـديث الشّاعر عـن تتـالي الأمـاكن الـتي تلـي وصـولاً حتّـى بينييـوس، حـديثاً عامـاً غـير محـدّد، ولكن بما أنه ليس لهذه الأماكن أهميـة تـذكر، فيجـب ألا نعطـي هـذه المسـألة أهميـة كبيرة. ولكن رأس سبيادا البحرية اشتهرت في التراجيديات والأناشيد، لأنّ الأسـطول الفارسـي دمّـر هنـاك. فسـبيادا رأس بحريـة صـخرية، بيـد أن بينهـا وبـين كاسـفانيوس القريـة الواقعـة علـى سـفح بيليـون، مضـيق بحـري حوصـر فيـه أسـطول كسـيراكس؛ وحينمـا هبـت ريـح شـرقية قويـة، قـذفت الأمـواج بعـدد مـن السـفن إلى الشـاطئ مباشـرة وحطمتها شظايا، ودفعت الأخرى على طول الشاطئ إلى إيبنا (مكان صخري يقع عنـد بينيـون)، وميليبيـا، أو إلى كاسـفانيوس وحطمتهـا نتفـاً. إن الإبحـار علـى طـول سـاحل بيليون خطر، ويبلغ طول هذا الساحل 80 مرحلة؛ كما أن الإبحار على طول ساحل أوسّا صعب وله الامتداد نفسه. ويقع بين هذين الجبلين خليج يفوق محيطـه 200 مرحلـة، وفيـه تقـع ميليبيـا. ويبلـغ طـول خـطّ الإبحـار كلّـه مـن ديميتريـادا إلى بينييـوس، بمـا في ذلـك الخلجان، أكثر من 1000 مرحلة، ومـن مصـبّ سـبرخييوس أطول بثمانمئـة مرحلـة؛ أمّـا طولـه مـن يوريبـوس فيبلـغ 2350 مرحلـة. ويعلـن هيرونيمـوس أن محـيط منطقـة تسـاليا وماغنيتيـدا السـهلية، يبلـغ 3000 مرحلـة؛ وقـد عـاش هنـاك البيلاسـغيون الـذين طـردهم اللابيثيون إلى إيطاليا[48]؛ وما يدعى الآن سهل البيلاسيغيس، هو السـهل الـذي تقـع فيـه لاريسـا، وهيرتـون، وثـيرا، وموبسـوس، وبيبييـدا، وأوسّـا، وهومـوليـوس، وبيليـون، وماغنيتيدا. ولم تدع موبسوس باسمها هذا على اسم موبسوس ابن مانتو ابنة تيريسيوس، بـل علـى اسـم موبسـوس اللابيثـي الـذي أبحـر مـع الأرغـونيين. وثمّـة شـخص آخـر يـدعى موبسوس، دعيت موبسوبيا الأتيكية على اسمه.

23- إن هذا هو الوصف التفصيلي لتساليا. وعلى وجه العموم يمكنني القول، إنها كانت تدعى في الأزمنة القديمة بيربيا، على اسم بيرّا زوجة ديفكـاليون، وهيمونيـا



على اسم هيمون، وتساليا على اسم تسالوس ابن هيمون. ولكنّ بعض الكتّاب إذ يقسمون تساليا إلى شطرين، يزعمون أن ديفكاليون نال الشطر الذي يتّجه جنوباً ودعاه باندورا على اسم والدته؛ وبقي الشطر الآخر لهيمون، فدعي هيمونيا على اسمه؛ ولكنّ التسمية الأولى تغيّرت إلى هلاّدا، على اسم هللين ابن ديفكاليون، وتغيّرت الثانية إلى تساليا، على اسم ابن هيمون. ويقول بعضهم، إن أحفاد أنتيفوس وثيديبوس ولديّ تسالوس ابن هرقل، هاجموا البلاد من جهة إيثيرا الثيسبروتية، ودعوها باسم جدّهم تسالوس. ويقولون، إن البلاد كانت تدعى يوماً، نيسونيدا، ومثلها دعيت البحيرة على اسم نيسون ابن تسالوس.



الكتـاب العاشر

الفصل الأول

1- بما أن إيبيوس تمتدّ بموازاة هذا الساحل كلّه، من سونيوس حتّى تساليا، باستثناء طرفي الجانبين[1]، فإنه من الملائم أن نضيف إلى ما سبق قوله، وصف الجزيرة، ثمّ نتحوّل إلى إيثوليا وأكارنانيا، أي إلى باقي أجزاء أوروبا.

2- تمتدّ جزيرة إيبيوس طولاً ما يقارب 1200 مرحلة من كينيوس إلى هيريستوس، أمّا عرضها فإنه ليس منتظماً: أقصاه حوالي 150 مرحلة. وتقع كينيوس قبالة ثرموبل، لكنّ حيّزاً صغيراً منها يقع خارج ثرموبل، بينما تقع هيريستوس وبيتالبا قبالة سونيوس. وعلى هذا النحو فإن الجزيرة تقع على ذلك الجانب من الخليج قبالة أتيكا، وبيوتيا، ولوكريدا، ومنطقة الماليين. وتبعاً لضيقها وطولها المشار إليه آنفاً، دعا القدماء إيبيوس، ماكريدا[2]. وأقرب نقطة بين الجزيرة والبرّ تقع عند خلكيدا، حيث تشكّل الجزيرة منعطفاً لتبرز نحو أوليدا ومناطق البيوتيين وتشكّل يوريبوس. وكان قد تسنى لي الحديث عن يوريبوس بتفصيل[3] أكثر، ومثله الحديث عن مناطق الخليج الواقعة واحدتها مقابل الأخرى في البرّ وعلى الجزيرة على جانبيّ يوريبوس، أي في الداخل والخارج[4]. وإذا كنت قد أغفلت شيئاً ما عندئذٍ، فإني سأضيفه الآن لتحقيق مزيد من الوضوح. وأشير أوّل ما أشير إلى أن شطر الجزيرة الواقع بين خليكيدا ومنطقة هيريستوس يدعى «تجويف»[5] إيبيوس، لأنّ الساحل ينعطف هنا نحو الداخل، ولكن مع اقترابه من خلكيدا يشكّل من جديد منحنى بارزاً يتّجه نحو البرّ.

3- ولكنّ الجزيرة لم تسمّ ماكريدا فقط، بل دعيت باسم أبانتيدا أيضاً. ومع أن هوميروس يذكر إيبيوس أيضاً، إلاّ أنه لا يدعو سكّانها إيبيين أبداً، بل أبانتيين:

ولكنّ الشعوب الإيبية، الأبانتيين الذين يتنفسون قتالاً...



لقد قاد هو[6] أولئك الأبانتيين...

(الإلياذا II، 536، 542)

وبحسب أرسطو[7] أن تراقيي آبا الثوكيدية، استوطنوا الجزيرة وأطلقوا على سكّانها اسم الأبانتيين. ويشتق الكتّاب الآخرون هذا الاسم من اسم بطل[8]، كما اشتقوا اسم إيبيوس من اسم بطلة[9]. ولكن قد تكون هذه التسمية جاءت على النحو الذي حصل فيه بووس آولي[10] والجزيرة[11] على اسميهما، وبووس آولي هذا كهف يقع على الساحل الذي يتّجه نحو إيجة (حيث يروى أن إيو ولدت إيباث هناك). كما دعيت الجزيرة أيضاً باسم أوخا، والاسم عينه يحمله أكبر الجبال المحلّية. وحملت الجزيرة إضافة إلى ذلك اسم إيللوبيا، نسبة إلى إيللوب ابن غيون (ويدعوه آخرون شقيقاً لآيكلس وكوفوس)، الذي يقولون إنه بنى إيللوبيا، وهي مكان في أوري الواقعة في هيستيوتيدا قرب جبل تيليفريوس، وضمّ إلى ممتلكاته هستيا، وبيريادا، وكيرينث، وإيديبسوس، وأوروبيا؛ ويقوم في هذا المكان الأخير الموْحى الأكثر صدقية (وهو موحى أبوللون السيلينونتي). أمّا الإيللوبيون فقد نزحوا إلى هستيا، ووسّعوا المدينة، وقد أرغمهم على ذلك، التيران فيليستيد بعد معركة ليفكترا. وبحسب ديموسفين[12]، إن فيليب وضع فيليستيد تيراناً على الأوريتيين أيضاً؛ وهذا هو الاسم الذي حمله الهستيون فيما بعد، أمّا مدينتهم فقد دعيت أوريوس بدلاً من هستيا. ولكنّ بعض الكتّاب يزعم العكس، إذ يقولون، إن أثينيين من ديموس أتيكا قد استوطنوا هستيا، كما سكن إريتريا سكّان ديموس الإرتريين. وبحسب ثيوبومبوس أنه بعد أن أخضع بيريكلس إيبيوس، نزح الهستيون بحسب الاتفاق، إلى مقدونيا، ونزل في أوريوس 2000 أثيني واستوطنوها (وكان هؤلاء من قبل هم سكّان ديموس الهستيين).

4- تقع أوريوس على سفوح جبل تيليفريوس، في المكان الذي يدعى دريموس والواقع على نهر كالاّنس، فوق صخرة عالية، وعليه ربّما تكون هذه المدينة قد حملت اسمها هذا[13]، لأنّ سكّانها السابقين الإيللوبيين كانوا جماعة جبلية. وربّما يكون أوريون الذي نشأ وتربى هناك، قد دعي باسمهم هذا. وعلى حدّ قول بعض الكتّاب، إنه كان للأوريين مدينتهم، ولكن بما أن الإيللوبيين شنّوا عليهم حرباً، فقد نزحوا إلى مكان آخر وسكنوا مع الهستيين؛ وبصرف النظر عن أن المدينتين اندغمتا في مدينة واحدة، إلا أنهما حملتا اسمين مثلما حملت المدينة عينها اسم لاكيديمون واسم إسبرطا. وأنا كنت قد قلت سابقاً[14]، إن هستيوتيدا في تساليا قد أخذت اسمها من الهستيين الذين طردهم البيرّيبيون من هناك.

5- وبما أن إيللوبيا أرغمتني على أن أبدأ بالوصف من هستيا واوريوس، فإني أتحوّل الآن إلى المناطق التي تلي هذه الأماكن. فعلى أراضي هذه الأوريوس تقع كينيوس، وعندها ديون[15] وأثينا ديادس، اللتان أسّسهما الأثينيون، والواقعتان فوق ذلك الجزء من المضيق حيث المعبر إلى كينوس. ومن ديون خرجت جماعة من المستعمرين إلى كانا الإيولية. وتقع هذه الأماكن قرب هستيا، وغير بعيد عنها تقع كيرينث، وهي مدينة صغيرة قريبة من البحر؛ وعلى مقربة منها يجري نهر بودور الذي يحمل اسمه جبل في سلامين عند شواطئ أتيكا.

6- وتقع كاريستوس عند سفوح جبل أوخا، الذي تقع على مقربة منه مدينة ستيرا ومدينة مارماريوس، حيث يقع مقلع حجارة أعمدة كاريستوس، ويقوم معبر أبوللون المارماريوسي. وثمّة معبر من هنا عبر المضيق يؤدّي إلى غالا الأرافيندية. ويستخرجون في كاريستوس حجارة تغزل وتنسج[16] وتصنع من غزولها مناشف؛ وعندما تتسخ هذه المناشف يرمى بها في النار فتغدو نظيفة كالقماش الكتاني بعد غسله. ويقال، إن هذه الأماكن يشغلها مستوطنون من مدن الماراثون الأربع والستيريون. وكانت ستيرا قد دمّرت في الحرب اللامية[17] على يدي القائد الأثيني ثيدروس؛ ويمتلك الإرتريون هذه المنطقة. وكاريستوس بدورها تقع في لاكونيكا، وهي مكان في إيجيوس نحو أركاديا، حيث يصنع النبيذ الكاريسي الذي يذكره ألكمان.

7- ولم يؤت على ذكر هيريستوس في «سجلّ السفن»، ومع ذلك فإن هوميروس يتحدّث عنها:

... مع هبوط الليل، وصلت السفن إلى هيريستوس،

(*الأوذيسا* III، 177)

ويشير إلى أن هذا المكان ملائم للعبور من آسيا إلى أتيكا، لأنه يقع على مقربة من سونيوس. وفي هيريستوس معبد لبوسيدون، وهو المعبد الأكثر شهرة في هذا الجزء من العالم، وفيها أيضاً مستوطنة كبيرة.

8- وبعد هيريستوس تأتي إرتريا، وهي أكبر مدن إيبيوس بعد خلكيدا. وتأتي بعد ذلك خلكيدا التي تعدّ بمثابة عاصمة الجزيرة، وهي تقع على يوريبوس مباشرة. ويقال، إن الأثينيين هم الذين أسّسوا هاتين المدينتين منذ ما قبل وقوع حرب طروادا؛ وبعد حرب طروادا، ترك آيكلس وكوفوس أثينا؛ فسكن أحدهما في إرتريا والآخر في خلكيدا. كما بقي على الجزيرة أيضاً بعض الإيوليين من قوّات بينثيلوس؛ وفي الأزمنة القديمة سكن هناك أيضاً العرب الذين رافقوا قدموس. ومهما كان الأمر فإن

تزايد جبروت هاتين المدينتين سمح لهما بإرسال جماعات كبيرة من المستعمرين إلى مقدونيا. فإرتريا سكنت المدن المتوضّعة حول باللينا وآفون؛ وسكنت خلكيدا المدن التابعة لسلطة أولينث، وهي المدن التي نهبها فيليب وخربها. وعلى نحو مماثل فعل الخلكيديون واستعمروا أماكن كثيرة في إيطاليا وصقليا. وبحسب أرسطو[18] أن الخلكيديين بنوا هذه المستعمرات عندما كانت السلطة هناك بين يدي حكومة الذين دعوهم بالفرسان. وقد كانت على رأس هذه الحكومة شخصيات انتخبت على أساس مقياس الملكية، وأدار هؤلاء شؤون الدولة بروح التوجهات الأرستقراطية. ولدى توجّه الإسكندر إلى آسيا[19] زاد الخلكيديون من امتداد محيط أسوار مدينتهم، فأدخلوا فيه هضبة كانيث ويوريبوس، وبنوا على الجسر الذي يمتدّ عبر المضيق برجاً وبوابة وسوراً[20].

9- فوق مدينة الخلكيديين يقع السهل المسمّى سهل ليلانس. وتقع في هذا السهل ينابيع مياه حارّة صالحة للاستشفاء من الأمراض. وقد أفاد القائد الروماني كورنيلوس سولاّ من هذه المياه. وكان يقوم هنا أيضاً منجم ممتاز احتوى على النحاس والحديد معاً، وهذا ما لا تجده في أيّ مكان آخر، كما يقولون. ولكنّ المنجم نضب من المعدنين الآن، مثله في هذا مثل مناجم الفضّة في أثينا. وتعاني إيبيوس كلّها (خاصة شطرها القريب من المضيق)، من الهزّات الأرضية القوية، ومن انطلاق الغازات التي تمرّ بين القنوات الجوفية، ومثلها أيضاً بيوتيا والمناطق الأخرى التي كنت قد قدّمت وصفاً تفصيلياً لها. ويقولون، إن ظاهرة مماثلة تسببت في ابتلاع الأرض للمدينة التي كانت تحمل اسم الجزيرة عينه. وقد أتى أسخيلوس على ذكر هذه المدينة في «فصل البونتس»:

إيبيدا التي قرب منحنى شاطئ زيوس الكيني،
عند قبر ليخوس التاعس الحظ.

(المقطع 30، ناؤوك)

وفي إيثوليا أيضاً مدينة تدعى خلكيدا:

وفي كاليدون الصخرية، وفي مدينة خلكيدا الساحلية،

(الإلياذا II، 640)

وفي إيليدا المعاصرة كذلك:

وهكذا ساروا قرب كروني وخلكيدا الصخرية،

(الإلياذا XV، 295)

أي تيليماخ ومرافقيه لدى عودتهم من عند نسطور إلى ديارهم.

10- أمّا إرتريا فيقول بعض المؤلّفين إن الذي أسّسها هو إرتريوس الماكيستي، من ماكيستوس الواقعة في تريثيليا، بينما يقول آخرون، إن مؤسّسيها هم مستعمرون من إرتريا الأفينية التي تقوم في مكانها الآن ساحة السوق. وهناك إرتريا أخرى قرب فارسال. لقد كانت تقع في أراضي إرتريا مدينة تامينا المكرّسة للإله أبوللون. ووفق الرواية أن المعبد القائم عند المضيق قد بناه أدميتوس، الذي يروى أن الإله نفسه قد خدم في منزله عاملاً مياوماً طول عام كامل. وفي الأزمنة السابقة كانت إرتريا تدعى ميلانيدا وآروتريا. وتتبع هذه المدينة قرية أمارينثوس الواقعة على بعد 7 مراحل عن أسوار المدينة. وكان الفرس قد دمّروا المدينة القديمة؛ وفي غضون ذلك، على حدّ قول هيروودت[21]، كان البرابرة يصطادون السكّان الذين تبعثروا حول أسوار المدينة جماعات بالشباك (وحتى يومنا هذا يرونك أساسات المباني، ويدعى هذا المكان إرتريا القديمة). وقد بنيت إرتريا المعاصرة فوق [أنقاض] المدينة القديمة. ويشهد على الجبروت الذي كان للإرتريين القدماء، نصب أقاموه في زمن ما في معبد أرطميس الأمارينثية. فالنص المحفور على النصب يقول، إنهم أقاموا عرضاً احتفالياً شارك فيه 3000 مقاتل مسلح تسليحاً ثقيلاً، و600 فارس، و60 مركبة قتالية. لقد امتدت سلطة الإرتريين لتشمل الأندروسيين، والتيوسيين، والكيوسيين وسكّان الجزر الأخرى. كما استقبلوا مستوطنين جدداً من إيليدا، وبما إنهم باتوا منذ ذلك الوقت يستخدمون غالباً حرف رو، لا في آخر الكلمات فقط، إنّما في وسطها أيضاً، فقد جعل منهم الكتّاب الهزليون بسبب ذلك محطّ سخرية. وثمّة على أراضي إرتريا قرية أخرى تدعى إيخاليا (وهي بقايا مدينة دمّرها هرقل)، وهي سميّة إيخاليا التراخينية، عند تريكا، وإيخاليا الأركادية التي دعيت بعد ذلك إندانيا، وإيخاليا الإيثولية الواقعة قرب اليوريتانيين.

11- وفي الوقت الراهن تشغل خلكيدا باعتراف جميعهم، المكانة الرائدة، وتعدّ ميتروبوليا الإيبيين؛ ثمّ تليها في المكان الثاني إرتريا. ولكنّ المدينتين كانت لهما في السابق أيضاً أهمية بارزة، إن في الحرب أو في السلم، ولذلك عدّتا مكانين هادئين ومريحين لإقامة الفلاسفة. وهذا ما تشهد به مدرسة الفلاسفة الإرتريين التي تزعمها مينيديموس وتلاميذه، وقبل ذلك أيضاً إقامة أرسطو في خلكيدا حيث بقي فيها حتّى وفاته[22].

12- وهكذا عاشت هذه المدن أكثر الأحيان في وفاق، وحتّى عندما تنازعت على سهل ليلانس لم يصل بها هذا النزاع حدّ حسم الأمور بالحرب، بل توافقت على كيفية إدارة الحرب وشروط اشتعالها. ويشهد على هذه الحقيقة نقش محفور على نصب

ما في معبد أمارينث يحرّم استعمال السلاح القاذف البعيد المدى. ومن المعروف أنه لم يكن للتقاليد القتالية أيّ ضوابط من قبل ولا في أيّ زمن كان. فبعضهم يستخدم السلاح القاذف البعيد المدى كالقوس والسهم، والمقاليع، والرماح المقذوفة؛ وآخرون يستخدمون سلاحاً للعراك، كالذي يستعمل السيف أو الرمح ليتفوّق على خصمه؛ فهم يستعلمون الرمح بطريقتين: أولاً، أثناء العراك باليدين، وثانياً، كمزراق، وعلى المنوال نفسه تستعمل خشبة الرمح للغرضين: للعراك بالأيدي، وللرمي عن بعد؛ وعلى النحو عينه يستعمل الساريسّا والمزراق[23].

13- لقد كان الإيبيون يجيدون القتال «المنتظم» الذي يدعى كذلك بالقتال «القريب» أو «العراك بالأيدي». وبحسب هوميروس أنهم كانوا يستعلمون الرماح الطويلة ليحقّقوا التفوّق:

والمقاتلون الذين تملؤهم الحمية، التوّاقون
لتمزيق دروع أعدائهم النحاسية بضربات
رماحهم الدردارية الطويلة...

(*الإلياذا* II، 543)

وربّما كانت الرماح المقذوفة نوع آخر من أنواع السلاح، على الأرجح «كرمح بيلوس الدرداري» الذي يقول هوميروس:

لم يكن بمقدور أيّ كان أن يزحزحه، لكنّ أخيلليس
كان يهزّه بسهولة.

(*الإلياذا* XIX، 389)

وعندما يقول أوديسيوس:

أرمي الرمح إلى أبعد مما يرمي الآخرون السهام،

(*الأوذيسا* VIII، 229)

فإنه يقصد بقوله هذا السهم المقذوف. وإذ يصف الشّاعر المتبارزين، فإنهم يتحاربون أولاً بالرماح المقذوفة، ومن ثمّ بالسيوف. وعلى أيّ حال لا تقتصر المبارزة على القتال بالسيف فقط، بل يستخدم فيها الرمح أيضاً، كما يقول الشاعر:

بالمزراق النحاسي طعنه، فدمّر أعضاء الجبّار.

(*الإلياذا* IV، 469)

على هذا النحو يصوّر هوميروس الإيبيين الذين يقاتلون بهذه الطريقة؛ لكنّ حديثه عن اللوكريين مغاير:

جاء اللوكريون إلى إيليون يحدوهم الأمل.

لم يكن لديهم الجلد في قتال المبارزة الذي يتطلّب الثبات.

لم يعتمدوا إلاّ على أقواسهم الأمينة والصوف المجدول

في مقاليعهم.

(الإلياذا XIII، 713، 716)

كما يروون أيضاً القول الشائع الذي قاله الموحى لسكّان إيجيوس:

جواد التساليين، والزوجة من لاكيديمون،

والرجال الذين يشربون ماء ينابيع أريفوسا المقدّسة،

وهو القول الذي يصف الخلكيديين بأنهم الأكثر شجاعة، فأريفوسا تقع في منطقتهم.

14- إن في إيبيوس الآن نهرين: كيريبوس ونيليبوس. وإذا ما شربت الأغنام من مياه النهر الأول فإنها تغدو بيضاء، أمّا إذا شربت من مياه الثاني فإنها تغدو سوداء. وأنا كنت قد تحدّثت سابقاً عن فعل مماثل تفعله مياه نهر كراثيدس.

15- وفي طريق العودة من حرب طروادا دفعت الأمواج بفريق من الإيبيين إلى شواطئ إيلليريا؛ ولما توجهوا من هناك إلى ديارهم عبر مقدونيا، استقر هؤلاء بجوار أديسّا وإذ قدّموا هناك عوناً عسكرياً للسكّان المحلّيين الذين قبلوهم بين ظهرانيهم، أسّسوا في المكان مدينة إيبيوس. كما كانت هناك إيبيوس أخرى أيضاً في صقليا، وقد أسّس هذه الإيبيوس الخلكيديون الصقلّيون؛ لكنّ هيلون طرد سكّانها، فتحوّلت بعد ذلك إلى موقع حراسة للسيراكوزيين. وفي كيركيرا وليمنوس كان ثمّة موقعان باسم إيبيوس، كما كان في منطقة آرغوس تلّ يحمل هذا الاسم نفسه.

16- وبما أن الإيثوليين، والأكارنانيين، والأثامانيين (إذا ما صح نسبهم للإغريق)، يعيشون إلى الغرب من التساليين والإيتيين، فإننا لكي ننتهي من وصف اليونان، بقي علينا أن نتحدّث عنهم. وينبغي أخيراً أن نضيف وصف الجزر، خاصة الجزر المجاورة لليونان والتي يسكنها اليونانيون الذين لم يتسنّ لي أن أتحدّث عنهم بعد.

الفصل الثاني

1- إن الإيثوليين والأكارنانيين يتاخم بعضهم بعضاً، لأنّ نهر أخيلوي واقع بينهما، وهو يجري من الشمال (من بيندس) إلى الجنوب عبر منطقة الأغريين، ومنطقة القبيلة الإيثولية، والأمفيلوخيين. ويشغل الأكارنانيون المنطقة الواقعة إلى الغرب من هذا النهر وصولاً حتّى الخليج الأمبراكي على مقربة من بلاد الأمفيلوخيين ومعبد أبوللون

الأكـتي؛ أمّـا الإيتوليـون فلـهم المنطقـة الواقعـة إلى الشـرق مـن أخيلـوي وصـولاً حتّـى اللوكريين الأوزوليين وبارناس الإيتي. وفي عمق البلاد، في المناطق الشمالية، إلى الأعلى من الأكارنانيين يعيش الامفيلوخيون، وإلى الأعلى منهم يعيش الدولوبيون ويعلو جبل بينـدس؛ وإلى الأعلـى مـن الإيتـوليين يعـيش البيرّيبيـون، والأثامـانيون، وفريـق مـن مـن الإينيـانيين الـذين يشـغلون إيتـا. ويشـاطئ الجهـة الجنوبيـة، تحديـداً جهـة أكارنانيـا وإيثوليا، البحر الذي يشمل خليج كورينثوس حيث يصبّ نهر أخيلوي؛ ويفصل هذا النهـر بـين شـاطئ الإيثوليين وشـاطئ الأكارنـانيين. وفي الأزمنـة القديمـة كـان أخيلـوي يـدعى ثوانس. وسميّ هذا النهر، كما قلت سابقاً[1]، النهـر الـذي يجـري قـرب ديمـا وكـذلك قرب لاميا. وأنا كنت قد أشرت[2] إلى أن بداية خليج كورينثوس هي مصبّ هذا النهر.

2- إن مـدن الأكـارنـانيين ومنـاطقهم هـي الآتيـة. أنـاكتوريوس الواقعـة في شـبه الجزيرة غير بعيد عن أكسيوم. وتعدّ هذه المدينة الميناء التجارية لنيكوبوليس المعاصرة التي تأسّست في زمننا هذا[3]. ثمّ تأتي ستراتوس التي ينبغي الإبحار إليها صعوداً في نهر أخيلوي أكثر مـن 200 مرحلـة؛ تليهـا إينيـادا الـتي تقـع علـى النهـر أيضـاً؛ ولم تعد مدينـة إينيادا القديمة مأهولة اليوم، وهي تقع على مسافة واحدة من البحر ومن ستراتوس، أمّـا إينيـادا الحديثـة فهـي تقـع علـى بعـد 70 مرحلـة تقريبـاً، إلى الأعلـى مـن مصـبّ أخيلـوي. وتوجـد هنـا مـدن أخـرى أيضـاً: بـالير، وأليزيـا، وليفكـادا، وآرغـوس الأمفيلوخيـة. وأمبراكيا، وقد تحوّل أكثر هذه المدن، بل كلّها إلى ضواحٍ تابعة لنيكوبوليس. وتقـع ستراتوس في منتصف الطريق من أليزيا إلى أناكتوريوس[4].

3- وللإيثوليين مدينتان، هما كاليدون وبليفـرون، وقـد تحوّلتـا الآن إلى مـدينتين خاويتين. ولكنّ هاتين المدينتين كانتا في الزمن القديم زينـة بـلاد اليونـان. والـذي حصـل فعلاً، هو أن إيثوليا انقسمت إلى شطرين دعي أحدهما إيثوليا القديمة، والآخـر إيثوليـا- إيبيكتيتوس[5]. وإيثوليا القديمة، هي السـاحل الممتدّ من أخيلوي حتّى كاليدون والموغل في عمق البلاد الخصبة المستوية؛ وتقع هناك ستراتوس وتريخونيوس التي تتوفّر على تربـة ممتازة. وفيما يخصّ إيثوليا- إيبيكتيتوس، فإنها تتاخم بلاد اللـوكريين في الاتجـاه نحـو ناوبـاكتوس ويوبـاليوس؛ وهـذه المنطقـة المتعرجـة القاحلـة تمتـدّ حتّـى إيتيـا مباشـرة، وإلى أرض الأثامانيين والجبال المحيطة نحو الشمال، والشعوب القاطنة هناك.

4- وأكـبر جبـال إيثوليـا جبـل كـواركس المجـاور لإيتـا؛ ونـذكـر مـن الجبـال الأخرى الواقعة غالباً في وسـط الـبلاد، جبـل أراكينثـوس الـذي أسّـس سـكّان بليفـرون القديمة حوله بليفرون الجديدة بعد أن هجروا المدينة القديمة؛ وكـانت هـذه الأخـيرة تقـع

قرب كاليدون في رقعة خصبة مستوية. وكان ديميتري الملقب بالإيثولي قد نهب البلاد في هذا الوقت وخربها. وبعد ذلك يرتفع فوق موليكريا تاثياس وخالكيدا، وهما جبلان شاهقان تقع عليهما بلدتا ماكينيا وخالكيدا (سميّ الجبل الذي يدعونه أيضاً هيبوخالكيدا). وأخيراً يرتفع قرب بليفرون القديمة جبل كوريوس الذي دعا بعض الكتاب البليفرونيين كوريتين تيمناً به.

5- يبدأ نهر إيفين من منطقة البوميين، وهم قبيلة إيثولية (مثلهم مثل اليوريتانيين، والأغريين، والكوريتيين وغيرهم) تقطن في بلاد الأوثيين. ولا يجري هذا النهر بداية عبر منطقة الكوريتيين (التي تدغم بالمنطقة البليفرونية)، بل عبر الأراضي التي تقع أبعد نحو الشرق، قرب خلكيدا وكاليدون، ثمّ ينعطف نحو سهول بليفرون القديمة، وهنا يبدّل مجراه ويتّجه غرباً، ثمّ ينعطف جنوباً ويمضي إلى مصبّه. وكان هذا النهر يدعى في الأزمنة السابقة ليكورما. ويقولون، إن هرقل قتل نيسوس النوتي هنا، لأنه حاول أن يغتصب ديانيرا بينما كان يعبر بها النهر.

6- كما يدعو هوميروس مدينتي أولين وبيلينا[6] مدينتين إيثوليتين. والأولى منهما سميّة المدينة الآخية التي دمّرها الإيوليون، وكانت تقع قرب بليفرون الجديدة؛ وقد أثار الأكارنانيون نزاعاً بسبب حدودها. أمّا المدينة الأخرى- بيلينا- فقد نقلها الإيثوليون إلى مكان أعلى وبدّلوا اسمها فباتت تدعى بروسخيوس. ولا يعرف هيلاّنيكوس حتّى تاريخ هذه المدن، إلا أنه يأتي على ذكرها كأنها لا تزال تعيش الحالة السابقة. ولم يذكر من المدن القديمة سوى المدن التي تأسّست في وقت متأخر، بعد عودة الهيراقليين، كمدينة ماكينيا ومدينة موليكريّا، ويعرض في بحثه حالة من الإهمال تسود في كلّ مكان تقريباً.

7- وهكذا أكون قد قدّمت المعلومات العامّة عن بلاد الأكارنانيين والإيثوليين. أمّا فيما يخصّ الساحل البحري والجزر الواقعة أمامه، فإنه ينبغي أن نزيد على ما قلناه عنها الآتي. إن الموقع الأول في أكارنانيا ابتداء من مدخل الخليج الأمبراكي، هو أكسيوم. والاسم نفسه يحمله معبد أبوللون الأكتي والرأس البحرية التي تشكّل ثغر الخليج مع وجود ميناء على الجانب الخارجي. وعلى بعد 40 مرحلة من المعبد تقع أناكتوريوس الواقعة في الخليج، وعلى بعد 240 مرحلة تقع ليفكادا.

8- وفي الزمن القديم كانت هذه الجزيرة تشبه جزيرة أرض الأكارنانيين، ولكنّ هوميروس يدعوها «شاطئ القارّة»[7]، لأنه يدعو الساحل الواقع قبالة أتيكا وكيثالينا «قارّة»، وهذه ليست سوى أكارنانيا. وعليه فإنّ الشّاعر عندما يتحدّث عن

«ساحل القارّة»، ينبغي أن يكون المقصود «ساحل أكارنانيا». وتقع في ليفكادا مدينة نيريتوس[8] التي استولى عليها لايرتس (كما يقول هو نفسه:

... عندما كنت على رأس القوات الكيثالية

وجندلت نيريتون المدينة القائمة على الجرف

الصخري للقارّة)،

(*الأوذيسا* XXXIV، 377)

كما تقع هناك أيضاً المدن التي ذكرها هوميروس في «سجل السفن»:

[لقد قاد الملك أوديسيوس...]

أبناء كروكيليا الذين كانوا يحرثون حقول

إيغيليبوس القاسية.

(*الإلياذا* II، 633)

وفيما بعد لم يكتف الكورونثيون الذين أرسلهم كيبسيل وغورغ بالاستيلاء على هذا الساحل، بل توغلوا حتّى الخليج الأمبراكي؛ وعلى هذا النحو يكون المستعمرون قد شغلوا أمبراكيا وأناكتوريوس؛ ونقلوا نيريتوس إلى المكان الذي كان البرزخ يقوم فيه في زمن ما، والذي تحوّل الآن إلى مضيق يصل جانبيه جسر، ثمّ بدّلوا اسم المدينة فباتت تدعى ليفكادا؛ ربّما نسبة إلى رأس ليفكاتا البحرية. وليفكاتا هي فعلاً صخرة بيضاء اللون[9] موجودة في ليفكادا، وهي تبرز في البحر باتجاه كيثالينا، ومن لون الصخرة هذا أخذت الجزيرة اسمها.

9- ويقوم في هذه الجزيرة معبد لأبوللون، وفيها أيضاً المكان الذي يدعى «الوثبة»[10]، والذي يطفئ بحسب الخرافة شهوة الحب.

حيث سابفو لأول مرّة - تقول الأسطورة -

(بحسب قول ميناندرس)

اقتنصت بولع عارم ثاونوس المتغطرس،

انقضّت من أعلى الصخرة البيضاء،

متوسلة إياك في صلواتها، أيها الربّ الملك.

وهكذا مع أن سابفو بحسب كلام ميناندرس، هي أوّل من قفز من أعلى الصخرة، إلاّ أن الكتّاب العارفون أكثر منه بالتاريخ القديم، يؤكّدون أن كيثالوس الذي أغرم ببتيريل ابن ديون، هو أوّل من فعل ذلك. وكان عند اللوكانيين تقليد متوارث يرمون بموجبه أثناء الاحتفال بعيدهم السنوي من على منصّة الحراسة في أعلى

الصخرة، أحد المجرمين المحكومين، قرباناً لأبوللون بغية تفادي غضب الآلهة، وكانوا يربطون إلى جسم الضحية مختلف أنواع الريش والطيور، لكي يسهلوا القفزة، وكان يصطفّ في الأسفل على شكل حلقة، كثير من الناس راكبين قوارب صيد، وفور وصول الضحية يلتقطونه؛ وعندما يستعيد المجرم المعني وعيه، يأخذونه ويرمونه خارج حدود البلاد جاهدين في أثناء ذلك ألاّ يتعرّض لأي أذى. وبحسب مؤلّف «الألكميونيدس»[11] أنه كان لإيكاريوس، والدبنيلوبي، ولدان: أليزييوس وليفكاديوس، وقد حكم هذان في أكارنانيا مع والدهما. وبحسب إيثور أن هاتين المدينتين حملتا اسميهما.

10- ويدعى سكّان جزيرة كيثاليا اليوم كيثاليين؛ ولكنّ هوميروس يطلق هذا الاسم على كلّ من هم تحت حكم أوديسيوس الذين ينتمي إلى عدادهم الأكارنانيون أيضاً. وفعلاً، بعد أن قال هوميروس:

قاد الملك أوديسيوس الكيثاليين ذوي الروح العالية

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا وضواحي نيريتوس التربتوليتية.

(*الإلياذا* II، 631)

(نيريتوس، هو جبل شهير في هذه الجزيرة؛ وعلى النحو الذي يقول فيه:

قوّة من دوليخوس، قوّة من جزر إيخينادا المقدّسة،

(*الإلياذا* II، 615)

مع أن دوليخوس نفسها واحدة من الجزر الإيخينادية، و

وفي إثر البوبراسيين اندفعت شعوب إيليدا المقدّسة،

(*الإلياذا* II، 625)

بينما تقع بوبراسوس في إيليدا؛ و

أولئك الذين استولوا على إيبيوس، ومراعي

إرتريا وخليكدا،

(*الإلياذا* II، 536)

مع أن هذه المدن تقع في إيبيوس، و

يا أبناء طروادا، أيها الليكيون، وأنتم أيها الداردانيون، سادة المبارزات،

(*الإلياذا* VIII، 173)

لأنهم كانوا طرواديين أيضاً)، وبعد أن ذكر نيريتوس تابع قائلاً:

أبناء كروكيليا الذين كانوا يحرثون حقول إيغيليبوس القاسية

الذين تحت سلطتهم زاكينثوس، وكانوا يسكنون كلّ مكان
من ساموس، الذين سكنوا القارّة أيضاً، على الشاطئ المقابل

(الإلياذا II، 632)

وعلى هذا النحو فإنّ الشّاعر يعني «بالقارّة»[12] الساحل الواقع قبالة الجزر، بما فيها ليفكادا والشطر الآخر من أكارنانيا الذي يقول عنه:

اثنا عشر قطيعاً من الأبقار على اليابسة ومثلها من الماعز

(الأوذيسا XIV، 100)

ربّما لأنّ إيبيروتيدا كانت تمتدّ في الزمن القديم حتّى هذه الأماكن وكانت تحمل اسماً واحداً هو «القارّة». أمّا كيثالينا المعاصرة، فإن هوميروس يدعوها ساموس، حينما يقول مثلاً:

بين إيثاكا في المضيق وساما الشديدة الانحدار...

(الأوذيسا IV، 671)

فباستخدامه الصفة يميّز الشّاعر بين الأشياء التي تحمل تسمية واحدة، فهو لا ينسب الاسم إلى المدينة، إنّما للجزيرة. لأنّ الجزيرة كانت تشكّل سياسياً أربع مدن، وقد حملت واحدة من هذه [المدن] الأربع، وهي المدينة السميّة الجزيرة، اسمين: ساموس وساما. وعندما يقول هوميروس:

كلّ الذين عندنا على الجزر أفذاذ وأقوياء،
وأولهم ناس دوليخوس، وساما، وزاكينثوس الغابية،

(الأوذيسا IV، 245)

فمن الواضح أنه يعدّد الجزر، وقد دعا الجزيرة التي تشغل المكانة الأولى[13]، ساموس، واسمها هنا ساما. ولكن عندما يزعم أبوللودوروس في مكان ما أن الشاعر، وسعياً منه لتفادي ازدواجية المغزى، يقول وهو يعني الجزيرة:

... وساما الشديدة الانحدار..

(الأوذيسا IV، 671)

وفي مكان آخر يطلب أن نقرأ

... دوليخوس، وساما

(الأوذيسا I، 246)

بدلاً من ساما، فمن الواضح أنه يرى أن المدينة كانت تسمى ساما وساموس على حدّ سواء، بينما لم تكن الجزيرة تدعى إلا ساموس فقط. وحسب أبوللودوروس أن ما

يؤكّد أن المدينة كانت تدعى ساما، هو أنه لدى تعداده الخطّاب من كلّ مدينة، يقول الشاعر[14]:

أربع وعشرون رجلاً جاؤوا إلينا من ساما،

(الأوذيسا XVI، 249)

ويتّضح هذا الأمر أيضاً من حكاية كتيمينا:

زوّجوها بعد ذلك لرجل من ساما.

(الأوذيسا XV، 367)

إن أفكار أبوللودوروس هذه لا يعوزها الأساس. فهوميروس لم يفصح بوضوح عن كيثالينا، وإيثاكا وسواهما من الأماكن المجاورة، ولذلك تختلف آراء المعلّقين والمؤرّخين في هذه المسألة.

11- وهاكم مثلاً عندما يتحدّث هوميروس عن إيثاكا:

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا وضواحي نيرتيوس التريبتولية

(الإلياذا II، 632)

فإن الصفة تشير بوضوح إلى أن المقصود هنا هو جبل نيريتوس، وهو يدعوه في أماكن أخرى جبلاً بالتحديد:

أعيش في إيثاكا المضيئة كالشمس، حيث يرتفع

هناك الجبل التربتوليمي، نيريتوس...

(الأوذيسا IX، 21)

بيد أنه يتّضح من بيت الشعر الآتي ما إذا كان الشّاعر يعني بإيثاكا المدينة أم الجزيرة:

الرجال الذين عاشوا في إيثاكا، وضواحي نيريتوس التريبتولية.

(الإلياذا II، 632)

فإذا أخذنا هذه الكلمة بمغزاها الحقيقي، فإنه ينبغي تأويلها بمعنى «مدينة»، كما لو قلنا مثلاً «أثينا وليكابيتوس»، أو «رودوس وأتابيريس»، أو «لاكيديمون وتايجيت». أمّا إذا أخذناها بالمغزى الشعري، فإن المعنى ينقلب إلى ضده. ومع ذلك فإن معنى الكلمة واضح في بيت الشعر الذي يقول:

أعيش في إيثاكا المضيئة كالشمس، هناك... نيريتوس..

(الأوذيسا IV، 21)

فالجبل يقع في الجزيرة وليس في المدينة. ولكن عندما يقول الشاعر:

نحن من إيثاكا الواقعة تحت منحدر نييون المكسي بالغابات،

(الأوذيسا II، 81)

فإنه من غير الواضح ما إذا كان الشّاعر يرى أن نييون هو نيريتوس عينه، أم أنه جبل آخر أو مكان آخر. ولكنّ من يكتب «نيريكوس» بدلاً من «نيريتوس» أو بالعكس، فإنه يقترف بذلك خطأ فاحشاً؛ فالشّاعر يدعو الثاني، تريبتوليمياً»[15]، بينما يأتي على ذكر الأول «كمدينة باذخة»[16]؛ ويقع الثاني «في إيثاكا»[17]، أمّا الأول فإنه «شاطئ القارّة»[18].

12- ومن الواضح أن التعبير الآتي يظهر بدوره بعض التناقض:

... هناك في الغرب

تقع إيثاكا في منخفض [chthamale] يحيط [panhypertate] بها البحر،

(الأوذيسا IX، 25)

فكلمة chthamale تعني «منخفضة» أو «واطئة»، بينما كلمة panhypertate تعني «عالية»، وهكذا يشير الشّاعر إلى الجزيرة في بعض الأماكن الأخرى، فيدعوها «بالأرض الصخرية»[19]. ويدعو الشّاعر الطريق التي تنطلق من الميناء

... درباً صخرية

تمتدّ عبر مكان غابي

(الأوذيسا XIV، 1)

نادرة فيها السهول وقد تغدو مشمسة [Eudeielos]

تلك التي تحتضنها الأمواج؛ وفي إيثاكا أقلّ من غيرها.

(الأوذيسا IV، 607)

هذه هي إذن التناقضات التي يحملها تعبير هوميروس، بيد أن لها تفسيراً مرضياً. أولاً، لا يرون أن كلمة chthamale تعني «واطئة» أو «منخفضة»، بل «المجاورة للقارّة» لأنها تقع على مقربة مباشرة منها؛ ثانياً، إن كلمة panhypertate لا تعني هنا «الأكثر علواً»، بل «الأكثر علوّاً في الاتجاه نحو الظلام»، أي التي تقع أبعد من غيرها نحو الشمال؛ لأنّ هذا ما رمى إليه الشّاعر بقوله: «في الاتجاه نحو الظلام»؛ والمعنى المغاير هو «بالاتجاه نحو الجنوب»:

والآخرون بعيداً (aneuthe) نحو الطرف الأقصى،

حيث تشرق إيوس وهيليوس؛

(الأوذيسا IX، 26)

لأن كلمة aneuthe تعني «بعيداً»، أو «بعيداً عن»، فالجزر الأخرى تقع في الاتجاه نحو الجنوب وأكثر بعداً عن القارّة. أمّا إيثاكا فإنها قريبة إلى القارّة وبالاتجاه نحو الشمال. وكون هوميروس يرمز على هذا النحو إلى المنطقة الجنوبية، واضح من قوله:

أتسرع الطيور يميناً نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،

أم يساراً تندفع ذوات الريش نحو الغرب الكئيب

(*الإلياذا* XII، 239)

والأوضح من هذا قوله:

إننا لا نعرف أيها الأصدقاء، أين يتوضّع الغرب، أين يظهر إيوس،

أين يهبط هيليوس حامل النور تحت الأرض، أين يصعد السماء.

(*الأوذيسا* X، 190)

فهذا التعبير يمكن تأويله بمعنى جهات الكون الأربع[20]، إذا ما أخذنا كلمة «الفجر» بمعنى المنطقة الجنوبية (وفي هذا بعض من الممكن)؛ بيد أنه من الأفضل أن نأخذها هنا بمعنى المنطقة الممتدّة على طول طريق الشمس، والتي تقع قبالة المنطقة الشمالية. لأنّ أوديسيوس أراد أن يشير في كلمته إلى تبدّل مهمّ ما في الظاهرات السماوية، وليس إلى كون جهات الكون مخفيّة عنّا وحسب. فحلول الظلام حتميّ في كلّ مرّة تتلبّد فيها السماء بالغيوم، سواء في الليل أو في النهار. ولكنّ تغيّر الظاهرات السماوية يكون أكبر بما لا يقاس لدى تقدّمنا أكثر أو أقل نحو الجنوب أو بالاتجاه المعاكس. بيد أن تقدّمنا لا يقصي الغرب أو الشرق من مجال الرؤية (لأن هذه الظاهرة تقع في الطقس الصحو أيضاً). فأقصى نقاط السماء شمالاً هي دائرة القطب. ولكن إذا كانت دائرة القطب تتحرّك، فتقع في السمت فوقنا تارة، وتحت الأرض تارة أخرى، فإن الدوائر القطبية تتغيّر بدورها تبعاً لها؛ ولدى مثل هذه الانتقالات، تختفي الدوائر القطبية تماماً في بعض الأحيان[21]، بحيث لا نستطيع أن نحدّد أين تقع جهة الشمال[22]، أو حتّى أين تبدأ. وفي هذه الحالة تكون الجهة المقابلة مجهولة أيضاً[23]. وعلى وجه العموم فإن امتداد محيط إيثاكا يبلغ 80 مرحلة. وهذه هي معلوماتي عن إيثاكا.

13- أمّا كيثالينا التي تشكّل أربع مدن، فإن هوميروس لا يدعو هذه الجزيرة باسمها المعاصر، وكذلك الأمر بالنسبة لكلّ مدينة من مدنها، ما عدا ساما أو ساموس التي والحق يقال لا وجود لها الآن، ولكن بقاياها ظاهرة في منتصف طريق البرزخ إلى إيثاكا. ويدعى سكّانها بالساميين. أمّا المدن الأخرى التي لا تزال موجودة حتّى اليوم، فهي مدن لا أهمية لها: بالا، وبرونيس، وكراني. وفي أيامنا هذه أسس

غـايوس أنطونيـو، عـمّ مـارك انطونيـو، مدينـة أخـرى هنـاك، عنـدما أنهـى قنصليته الـتي كان فيها رفيقاً لسيتسيرون الخطيب، ونُفي[24] إلى كيثالينـا الـتي وضعها كلّها تحـت سـلطته مـدّعياً أنهـا مـن أمـلاكـه الخاصـة. بيـد أنـه لم يتسـنّ لمـارك أنطونيـو أن يتمّ بنـاء المدينة، وإذ سمح له[25] بالعودة إلى وطنه توفى هناك وهو مشغول بقضايا أكثر أهمية.

14- وقـد تجاسـر بعـض الكتّـاب علـى إدغـام كيثالينـا بـدوليخوس، وتجاسـر آخرون على إدغامها بتافوس، ودعـوا الكيثـالينيين تافوسـيين، وكـذلك تيليبـويين. فهم يقولون، إن أمفيتريون شنّ حملة على هذه الجزيرة ومعه كيثالوس ابن ديونييـوس المنفـي من أثينا. وبعد أن استولى أمفيتريون على الجزيـرة منحهـا لكيثـالوس؛ فـدعيت كيثالينـا علـى اسمـه، وحملـت مـدنها أسمـاء أبنائـه. ولكـن هـذه الأخبـار لا تتوافـق مـع أخبـار هوميروس؛ فالكيثالينيون، وفق هوميروس، كانوا تحـت حكـم أوديسـيوس ولايـرتس، وكانت تافوس تحت حكم مينتيس:

الحكيم ابن أنخيالوس، مينتيس يدعونني، وأحكم
شعب التافوسيين المرح.

(*الأوذيسا* I، 181)

وتدعى تافوس الآن تافينونت. وهيلاّنيكوس بـدوره لا يحـذو حـذو هـوميروس، بـل يـدغم كيثالينـا بـدوليخوس؛ فهـوميروس يقـدّم دوليخـوس وبـاقي جـزر إيخينـادا تابعـة لحكم ميغيس، ومثلها أيضاً سكّانها الإيبيين الذين جاؤوا إلى هناك من إيليـدا. ولـذلك فإن هوميروس يدعو الكيلليني أوتوس:

صديق فيليدس، قائد مقاتلي الإيبيين الشجعان

(*الإلياذا* XV، 519)

لقد قاد الملك أوديسيوس الكيثاليين ذوي الروح العالية.

(*الإلياذا* II، 631)

وهكذا بحسب هوميروس أن كيثالينا ليست دوليخوس، إنّما هـذه الأخيرة جـزء مـن كيثالينـا، كمـا يقـول أنـدرون. فـدوليخوس امتلكهـا الإيبيـون، وتملـك كيثالينـا كلّها الكيثاليون الذين كانوا تحت سلطة أوديسيوس، بينمـا خضـع الإيبيـون لميغيس. وحتّى بالا لم يدعها هوميروس دوليخوس، كما يكتب ثيريكيـدس. وهـذا الأخير، هـو أكثر من يناقض هوميروس إذ يدغم كيثالينا بدوليخوس، إذا كان فعلاً «قد جـاء مـن دوليخوس اثنان وخمسون» خاطباً، ومـن «سـاما أربعـة وعشـرون»[26]. وفي واقـع الحـال مـا كـان الشّـاعر ليقـول، إن هـذا العـدد كلّـه مـن الخطّـاب قـد جـاء مـن مختلـف أنحـاء

الجزيرة، بل كان سيقول إنهم جاؤوا من واحدة فقط من مدنها الأربع، أي نصف هذا العدد ناقص اثنين. وحتّى لو سلّمنا بهذا، فإني أسأل، ما الذي يعنيه الشّاعر بكلمة ساما في البيت الآتي:

دوليخوس، وساما، وزاكينثوس الغابيّة

(الأوذيسا I، 246)

15- تقع كيثالينا قبالة أكارنانيا على بعد 50 مرحلة تقريباً (وحسب آخرين 40 مرحلة) من ليفكاتا، وما يقارب 180 مرحلة من هيلوناتوس. ويبلغ محيط الجزيرة حوالي 300[27] مرحلة، وهي تمتدّ طولاً باتجاه يفروس، وتغطي[28] الجبال أنحاء الجزيرة. وأكبر جبالها، هو جبل إينوس حيث يقوم معبد زيوس إينيسييوس. وفي المكان الذي تضيق فيه الجزيرة إلى أقصى حدّ، تشكّل برزخاً منخفضاً تغمره الأمواج من البحر إلى البحر في كثير من الأحيان. وتقع بالا وكراني في الخليج على مقربة من البرزخ.

16- وبين إيثاكا وكيثالينا تقع جزيرة صغيرة، هي جزيرة إستيريا (يدعوها هوميروس إستيريدا)؛ ويقول ديميتري إلسكيبسيسي عن هذه الجزيرة، إنها لم تبق على الحال التي وصفها الشاعر:

... للسفن هناك مرسى وملجأ

ومن الشاطئين تستقبلها.

(الأوذيسا IV، 846)

ولكنّ أبوللودوروس يزعم، أن هذه الجزيرة الصغيرة لا تزال باقية كما كانت، ويذكر فيها مدينة صغيرة اسمها ألالكومينا تقع على البرزخ مباشرة.

17- ويدعو هوميروس تراقيا باسم ساموس، وهذه التراقيا، هي التي ندعوها نحن الآن ساموتراقيا. ويبدو أن الشّاعر كان يعرف ساموس إيونية أيضاً، لأنه على أغلب الظنّ كان على علم بحركة النزوح الإيونية، وإلاّ لكان هوميروس قد خلط بين الأماكن التي تحمل الأسماء عينها، إذ يعاكس بعضها ببعض؛ فهو حينما يتحدّث عن ساموتراقيا، فإنه يميّزها تارة بصفة:

من قمم الجبال، من أعلى تيارات ساما الغابية

في تراقيا الجبلية،

(الإلياذا XIII، 12)

وتارة أخرى يوحدها مع الجزر القريبة:

إلى إيمبروس، إلى ساموس النائية، وإلى

ليمنوس الضبابية التي لا تحابي؛

(الإلياذا XXIV، 753)

أو:

بين ساما المقدّسة وإيمبرا ذات الجرف الخطر.

(الإلياذا XXIV، 78)

وهكذا يتّضح أنّ الشّاعر كان على معرفة بالجزيرة، مع أنه لم يذكر اسمها. والحقيقة أن الجزيرة لم تدع بهذا الاسم في الأزمنة السابقة، فقد كانت تدعى ميلامفيلوس، ثمّ أنثيميدا، وبعد ذلك بارثينيا (نسبة إلى نهر بارثينيوس الذي بات يدعى فيما بعد إيمبراس). وبما أن كيثالينا وساموتراقيا كانتا تحملان في زمن حرب طروادا اسم ساموس (وإلاّ لما جعل هوميروس هيكابي تقول، إن أخيلليس

... باع في إيمبروس، وساموس النائية

(الإلياذا XXIV، 752)

أبناءها الذين وقعوا لديه أسرى)، وساموس الإيونية لم تكن قد سُكنت بعد، فإنه من الواضح أن ساموس قد سميت على اسم واحدة من الجزر التي كانت تحمل هذا الاسم. ومن هنا يغدو واضحاً أن زعم بعض الكتّاب يناقض التاريخ القديم، إذ يزعم هؤلاء أنه بعد هجرة الإيونيين ووصول تيمبريون إلى الجزيرة، جاء المستعمرون من ساموس ودعوا سامو تراقيا باسم ساموس؛ فالساموسيون اختلقوا هذه القصة ليكسبوا جزيرتهم مجداً. ويستحقّ الثقة أكثر أولئك الكتّاب الذين يرون أن الجزيرة أخذت اسمها من المرتفعات التي كانت تدعى «سامات». ومن هنا جاء قول هوميروس.

... بان إيداً عظيماً،

وبانت طروادا بريام ومعسكر أسطول الآخيين

(الإلياذا XIII، 13)

وأخيراً، هناك فريق ثالث من الكتّاب يرى أن ساموس أخذت اسمها من اسم السائيين الذين سكنوا الجزيرة قبل التراقيين، والذين كانوا يمتلكون الشطر المجاور من القارّة أيضاً؛ ولكن هل كان هؤلاء السائيون هم السابيون أو السيناتيون عينهم (ويدعوهم هوميروس سينتيين)، أم هؤلاء كانوا قبيلة أخرى؟ الأمر لا يزال غامضاً. فأرخيلوخ يأتي على ذكر السائيين:

يحمل السائي الآن متفاخراً، ترسي الذي لا عيب فيه،

فرغماً عني رميته في الدغل

(مقطع 6، برغك)

18- لم يبق من الجزر الخاضعة لحكم أوديسيوس لكي نصفها سوى جزيرة زاكينوس. وهذه الجزيرة تتّجه بعض الشيء أكثر من كيثالينا نحو الجهة الغربية من البيلوبونيز، وهي أقرب إلى هذه الكيثالينا. ويبلغ امتداد محيط زاكينثوس 160[29] مرحلة. وهي تقع على ما يقارب 60 مرحلة من كيثالينا؛ ومع أن هذه الجزيرة جزيرة غابيّة إلاّ أنها خصبة؛ وفيها مدينة كبيرة تحمل اسمها عينه. والمسافة من هنا إلى هسبيريدس الليبية 3300 مرحلة.

19- وإلى الشرق من زاكينثوس وكيثالينا تقع جزر إيخينادا، وتنتمي دوليخوس إلى هذه الجزر (وهي تدعى الآن دوليخا)، وكذلك أوكسي التي يدعوها هوميروس ثوبي. وتقع دوليخا قبالة إينيادا ومصبّ نهر أخيلوي، بعد 100 مرحلة من أراكس، ورأس الإيليين البحرية؛ أمّا جزر إيخينادا الأخرى (وهي عدة جزر قاحلة صخرية)، فهي تقع أمام مصبّ أخيلوي؛ وتقع الأبعد منها مسافة 15 مرحلة، والأقرب على مسافة 5 مراحل من هذا المصبّ. لقد كانت هذه تقع، في الأزمنة الغابرة، في عرض البحر، لكنّ تراكم كميات كبيرة من الرواسب التي حملها أخيلوي، حوّل قسماً منها إلى برّ، والمصير نفسه سيحلّ بالقسم الآخر في المقبل من الأيام. وفي الزمن القديم جعل هذا الوضع من المنطقة التي تدعى باراخيلويتيدا، التي طمرها النهر، موضع نزاع، لأنّ الترسبات النهرية كانت تغيّر باستمرار خطّ الحدود المتفق عليه بين الأكارنانيين والإيثوليين. وبسبب عدم وجود طرف ثالث يحكم بين الطرفين، كانت هاتان القبيلتان تلجآن دائماً إلى السلاح لحسم النزاع الناشئ، ومن البدهي أن الطرف الأقوى هو الذي كان يحسم الخلاف لصالحه. وعلى خلفية هذه الأحداث، ظهرت أسطورة تحدّثت عن الهزيمة التي ألحقها هرقل بأخيلوي، ونال مكافأة على ذلك، ديانيرا ابنة إينيوس التي أنطقها سوفوكليس بقولها:

لقد خطبني إلـه النهر، أخيلوي نفسـه،
طلبني من والدي، إذ جاء في إهابات ثلاثة:
فرمح في هيأة عجل، وزحف في صورة ثعبان،
وظهر في إهاب رجل حرشفيّ له رأس ثور.

(*التراخينيات* 7-11)

ويضيف بعض الكتّاب إلى الأسطورة، أن القرن الذي اقتلعه هرقل من رأس أخيلوي وقدّمه إلى إينيوس مهراً لديانيرا، كان قرن أمالثيا. وسعياً منهم لاستشفاف الحقيقة في هذه الأسطورة يزعم كتّاب آخرون أن أخيلوي، مثله مثل الأنهار الأخرى،

دعوه «شبيه الثور» بسبب صوت هدير مياهه الذي يشبه صوت خوار الثور؛ ومن خيوط التيار التي دعيت بالقرون، جاءته تسمية «شبيه التنين»، بسبب طولها وشكلها المتعرّج؛ وأخيراً شبّهوه «برأس الثور» لأنهم تخيلوه في صورة ثور. ويقول هؤلاء عن هرقل، إنه على وجه العموم كان يميل لفعل الخير، خاصة عندما يتعلّق الأمر بإينيوس؛ فخدمة لإينيوس لجم هرقل تيار النهر المتنافر بالردميات والقنوات، فجفّف بذلك شطراً كبيراً من باراخيلويتيدا؛ وهذا هو قرن أمالثيا. ويقول هوميروس، إن إيخينادا وأوكسيي كانتا في زمن حرب طروادا تحت حكم ميغيس:

... ميغيس فيليدس،

ابن الفارس فيلييوس حبيب الآلهة، الذي

اختبأ من غضب والده يوماً في أطراف دوليخوس.

(*الإلياذا* II، 628)

لقد كان والده هو آفغيوس حاكم بلاد الإيليين والإيبيين؛ ولذلك امتلك الإيبيون الذين هاجروا مع فيلييوس إلى دوليخوس، هذه الجزر.

20- لقد كانت جزر التافوسيين، وفي الأزمنة الغابرة التيليبويين، التي تنتمي إليها تافوس (تدعى الآن تافيونت)، منفصلة عن جزر إيخينادا، ولم تكن المسافة هي الفاصل بينها، بل خضوعها لحكّام مختلفين هو الذي فصل بينها، فقد حكمها التافوسيون والتيليبويون. وفي الأزمنة الغابرة شنّ امفتريون حرباً عليهم ومع كيثالوس ابن ديونييوس، الأثيني المنفي، ثمّ منح هذا الأخير السلطة عليهم. ولكنّ هوميروس يقول، إنهم كانوا تحت حكم ميغيس[30]، ويصفهم بأنهم عصابات من قطّاع الطرق[31]، وعلى وجه العموم هكذا كانوا يرون في التيليبويين كلّهم. إن تلك كانت معلوماتي كلّها عن الجزر الواقعة أمام أكارنانيا.

21- وبين ليفكادا والخليج الأمبراكي تقع بحيرة مالحة تدعى مورتونتيوس. وبعد ليفكادا مباشرة تقع المدينتان الأكارنانيتان بالير وأليزيا؛ وتبعد هذه الأخيرة 50 مرحلة عن البحر؛ وهناك يقع خليج مكرّس لهرقل، وأرض مقدّسة. ومن هنا حمل أحد القادة الرومان «مآثر هرقل» إلى روما: وهي منحوتة نحتها ليسيبوس، وكانت تقوم هناك مهملة في مكان غير لائق. ثمّ تلي ذلك رأس كريفونت البحرية، وإيخينادا، ومدينة إستانك سميّة مدينة أخرى تقع قرب نيقوميديا والخليج الإستانكي (يستخدم هذا الاسم بصيغة المؤنث). وتحمل كريفونت الاسم عينه الذي تحمله مدينة صغيرة في كيرسونيس التراقية. وتقع على طول الشاطئ بين هذه النقاط موانئ ومراسٍ جيّدة.

وتأتي بعد ذلك إينيـادا وأخيلـوي؛ ثمّ بحيرة إينيـادا الـتي تـدعى ميليـت، طولها 30 مرحلـة وعرضها 20 مرحلة؛ تليها بحيرة كينيـا الـتي طولها وعرضـها ضـعف طـول بحـيرة ميليـت وعرضها؛ ثمّ بحيرة أوريا، وهـي أصـغر بكـثير من سابقتيها. وتصبّ كينيـا في البحـر، أمّا البحيرتان الأخريان فتقعان أعلى بما يقارب النصف مرحلة. ويـأتي بعـد ذلـك نهـر إيفنـوس الذي تبلغ المسافة بينه وبين أكسيوم 670 مرحلة. ويرتفـع خلـف إيفنـوس جبـل خالكيـدا الذي دعاه أرتيميدور خالكيوس. وتأتي بعد ذلك مدينة بليفرون، ومستوطنة هاليكيرنـا التي تقع فوقها في عمق الـبلاد (مسـافة 30 مرحلـة)، مدينـة كاليـدون. وعلـى مقربـة مـن كاليـدون يقـوم معبـد أبوللـون اللافـري. ثـمّ يعلـو بعـد ذلـك جبـل تافيـاس؛ وتليـه مدينـة ماكينيـا، ومولـيكريـا، وعلـى مقربـة تقـع منطقـة أنتيريـون الـتي تشـكّل الحـدود بـين إيثوليـا ولوكريـدا، والمسـافة بينهـا وبـين إيفنـوس حـوالي 120 مرحلـة. والحقيقـة أن أرتيميـدور لا يتحـدّث عـن هـذا الجبـل علـى هـذا النحـو (سـواء دعونـاه خالكيـدا أو خالكيوس)، فهو يوضّعه بين أخيلوي وبليفـرون؛ أمّا أبوللـودوروس فإنـه، كمـا ذكـرت سابقاً[32]، يوضّع خالكيدا وتافياس فوق موليكريا، أمّا كاليـدون فإنها تقـع بحسـب قوله، بين بليفرون وخالكيدا؛ وعلـى وجـه العمـوم، ربّمـا يكـون مـن الضـروري التفريـق بين جبل خالكيدا الواقع عند بليفـرون، وجبـل خالكيـدا الواقـع عنـد موليكريا. وتقـع عنـد كاليـدون بحـيرة كـبيرة وغنيـة بالأسمـاك يملكهـا المسـتوطنون الرومـان الـذين يعيشون في باترا.

22- وبحسب أبوللـودوروس أن في أعمـاق الـبلاد قبيلـة تـدعى قبيلـة الإريسـيخيين التي ذكرها ألكمان:

ليس الرجل إريسيخياً، ولا راعياً

بل من مرتفعات الساردية...

(*مقطع 24، بيرغك*)

وكـانت أولين تقع في إيثوليـا، وأولـين هـذه مدينـة ذكرهـا هـوميروس في «السـجلّ الإيثولي»؛ ولم يبق من هذه المدينة سوى آثار قرب بليفرون عند سفوح أراكينثوس. وغير بعيد كانت تقع ليسيماخيا (التي اندثرت بدورها)؛ وكانت هـذه تقـع علـى الـبحيرة الـتي تدعى الآن ليسيماخيا، وكانت تدعى في الأزمنة الغابرة هيـدرا، وهـي تقـع بـين بليفـرون ومدينـة إرسـينويا. وكانـت هـذه مـن قبـل مسـتوطنة صـغيرة تـدعى كونوبـا، ولكـنّ إرسينويا زوجة بطليموس الثاني وأخته، حوّلتها إلى مدينة، وقد جاء موقعها ملائماً عنـد معابر أخيلوي تقريباً. وما حصل لبيلينا، حصـل مـا يشـبهه لأُولـين أيضـاً. فعنـدما يتحـدّث

هوميروس عن كاليدون «الشاهقة العلوّ»[33]، و«الصخرية»[34]، ينبغي أن ننسب هذا إلى البلاد كلّها، وكما كنت قد قلت سابقاً[35]، فإن هذه البلاد تنقسم إلى قسمين: القسم الصخري (أو إيبيكتيتوس)[36]، وينسبونه إلى كاليدون، والقسم السهلي، وينسبونه إلى بليفرون.

23- وفي الوقت الراهن أنهكت الحروب المتواصلة وأضعفت الأكارنانيين والإيثوليين (كما هي حال كثير من القبائل). ولكنّ الإيثوليين ومعهم الأكارنانيون صمدوا طويلاً في الدفاع عن استقلالهم ضدّ المقدونيين وسواهم من الإغريق الآخرين، ثمّ ضدّ الرومان مؤخّراً. وبما أن هوميروس والشعراء الآخرين، ومعهم المؤرّخون، غالباً ما يأتون على ذكرهم بصيغ واضحة ومتطابقة أحياناً، وبكلمات مبهمة أحياناً أخرى (وهذا ما يظهر فيما قلته عنهم سابقاً)، فإن هذا يقتضي منّي أن أضيف شيئاً ما من الروايات الأقدم التي لها طابع القصص الأولى أو التي تثير الشك.

24- فأنا كنت قد قلت عن أكارنانيا مثلاً، أن لايرتس قد امتلكها، وكذلك فعل الكيثاليون. وقد أدلى كثير من الكتّاب بدلوه عمّن كان سكّان هذه البلاد السابقين، ولكن، بما أن أخبارهم وعلى الرّغم من أنها متضارب بعضها مع بعض، إلاّ أنها تحظى بانتشار واسع، فإنه يبقى عليّ أن أقول كلمتي الحاسمة بهذا الصدد. فبحسب قولهم، إن التافوسيين وكذلك التيليبويون عاشوا فيما مضي في أكارنانيا، وأن قائدهم، هو كيثالوس الذي جعل أمفتريون منه سيّد الجزر الواقعة عند تافوس، قد حكم هذه البلاد وساد عليها. ولذلك أخذت الأساطير تنسب إليه أنه أوّل من نفّذ القفزة الأولى من أعلى ليفكاتا، وهي القفزة التي غدت بعد ذلك تقليداً، كما كنت قد قلت سابقاً[37]. ولكنّ هوميروس لا يقول، إن التافوسيين حكموا الأكارنانيين قبل مجيء الكيثاليين ولايرتس إلى هنا؛ وما قاله هو فقط إنهم كانوا أصدقاء الإيثاكيين، وعليه فإنهم إمّا لم يسودوا على هذه المناطق البتة، أو إنهم تنازلوا عن البلاد طوعاً للإيثاكيين، وإما إنهم عاشوا هناك معهم بصفتهم مستوطنين. ويبدو أن مستعمرين من لاكيديمون قد استوطنوا في أكارنانيا: إيكاريوس، والد بنيلوبي ومرافقوه. ففي «الأوذيسا» يظهر إيكاريوس وأخوة بنيلوبي وهم على قيد الحياة بعد:

إنهم[38] يخشون الذهاب إلى بيت إيكاريوس
وكأن الشيخ لم يعطها، وهي التي كان مهرها كبيراً،
زوجة برضاه وموافقته.

(*الأوذيسا* II، 52)

وعن أخوتها يقول الشاعر:

فوالدها وأخوتها يحضّانها على الزواج من إيفريماخوس.

(*الأوذيسا* XV، 16)

والحقيقة أنه من المستحيل أن يكون هؤلاء قد عاشوا في لاكيديمون (وإلاّ لما نزل تيلماخ في بيت منيلايوس عندما جاء إلى لاكيديمون)، كما أننا لا نعرف لهم موطناً آخر كانوا يعيشون فيه. فما يروى، هو أن تينداروس وأخاه إيكاريوس قد جاءا إلى ثيستيوس سيّد البليفرونيين، بعد أن طردهما هيبوكوونتس من وطنهما الأم، وساعداه في الاستيلاء على منطقة شاسعة تقع على الضّفّة الأخرى لنهر أخيلوي، شريطة أن يكون لهما شطر منها. ولكنّ تينداروس عاد إلى دياره بعد أن تزوّج ليدا ابنة ثيستيوس؛ أمّا إيكاريوس فقد بقي مالكاً لشطر من أكارنانيا، وأنجب بنيلوبي وأخوتها من بوليكاستا ابنة ليغييوس. وأنا كنت قد قلت سابقاً[39]، إنّ الأكارنانيين قد ورد ذكرهم في «سجلّ السفن»، بين الذين شاركوا في الحملة على إيليون، وقد دعوهم في غضون ذلك «بأولئك الذين يعيشون على الشاطئ»[40]،

في الأرض الكبرى وعلى الشاطئ المقابل

(*الإلياذا* II، 635)

وعندئذٍ لم يكن البرّ قد دعي أكارنانيا بعد، ولم يكن الساحل قد دعي ليفكادا.

25- أمّا إيثور فإنه على الضدّ من هذا يؤكّد، أنهم لم يشاركوا في الحملة، فهو يقول، إن ألكيميون بن أمفيارايوس شنّ حملة مع ديوميدس والإيبيغونيين الآخرين، وبعد حرب ظافرة مع الطيبيين انضمّ إلى ديوميدس وأنزلا معاً العقاب بأعداء إينياس. وبعد أن أعطى ديوميدس وإينياس إيثوليا، اجتاح أكارنانيا وأخضعها. ثمّ يواصل إيثور روايته قائلاً: في تلك الأثناء كان آغاممنون قد هاجم الأرغيفيانيين ولم يجد صعوبة تذكر في الانتصار عليهم، لأنّ أكثرهم كان قد لحق بديوميدس. بيد أنه بعد أن مضى وقت قليل، وعندما شنت الحملة على طروادا، خشي آغاممنون من أن يستغلّ ديوميدس وأنصاره مشاركته في الحملة وغيابه عن الديار، فيعودون بالقوات (وقد وصلت إلى آغاممنون فعلاً، أخبار عن اجتماع أعداد كبيرة من القوات لدى ديوميدس)، ويسترد حقه الشرعي بالسلطة، لأنّ ديوميدس كان الوريث الشرعي لعرش أدراستوس، وألكيميون الوريث الشرعي لوالده، وإذ أخذ آغاممنون هذا كلّه بعين الحسبان، دعاهم ليعيد إليهم آرغوس وطلب منهم أن يشاركوا في الحرب على طروادا. فسمح ديوميدس لنفسه أن يستدرج إلى الحرب، أمّا الكيميون فقد رفض الطلب ساخطاً.

ولذلك كان الأكارنانيون وحدهم الذين لم يشاركوا في حملة الإغريق. وإذ التزم الأكارنانيون بهذه الرواية، نجحوا على ما يبدو في خداع الرومان وحصلوا منهم على استقلالهم مؤكّدين أنهم هم وحدهم الذي لم يشاركوا في الحرب ضدّ أسلافهم. والحقيقة أن ذكرهم لم يرد لا في السجلّ الإيثولي»[41] ولا في أي مكان آخر، حتّى في ملحمتي هوميروس لا يرد لهم اسم قط.

26- وعلى هذا النحو يقدّم إيثور أكارنانيا قائمة قبل حرب طروادا وخاضعة لحكم ألكميون، كما ينسب إلى هذا الأخير بناء آرغوس الأمفيلوخية؛ وبحسب قوله، إن أكارنانيا دعيت باسم أكارنان ابن ألكيميون، وإنّ الأمفيلوخيين دعوا باسم أخيه أمفيلوخ؛ ولذلك فإن رواية إيثور تعدّ من بين الروايات التي تناقض ما أورده هوميروس. ويروي ثوكيديدس[42] والكتّاب الآخرون، أن أمفيلوخ بعد عودته من تحت أسوار طروادا، لم يكن راضياً عن الأحوال في آرغوس، واستقرّ في هذه البلاد، وبحسب رواية بعضهم إنه جاء إلى هنا بصفته وريثاً شرعياً لسلطة أخيه، بينما يرى آخرون إنه جاء إلى هنا بناء على أسس أخرى. إن هذا هو ما رأيت ضرورياً أن أرويه عن أكارنانيا. وها أنذا أنقل الآن عنها أخباراً عامّة بما يتوافق وتداخلها مع تاريخ الإيثوليين، وسوف أنقلها بحسب توالي أحداث تاريخ هؤلاء، وأنا أفعل هذا لأنني أرى أنه من الضروري ضمّها إلى ما قيل سابقاً.

الفصل الثالث

1- يرى فريق من الكتّاب أن الكوريتيين هم أكارنانيون، بينما يرى فريق آخر أنهم إيثوليون؛ ويقول بعضهم إنهم خرجوا من كريت، ويقول آخرون إنهم من إيبيوس. وبما أن هوميروس يذكرهم، فإنه من المستحسن أن نناقش أخباره عنهم أولاً. ويفترضون أنّ الشّاعر يرى إنهم على الأغلب إيثوليون أكثر منهم أكارنانيين، هذا إذا كانوا فعلاً أبناء بورثاونوس:

آغريوس وميلاس، وثالثهما كان إينياس الفارس

(*الإلياذا* XIV، 117)

سكنوا بليفرون، والأرض الخصبة، وكاليدون الجبلية.

(*الإلياذا* XIV، 116)

إنهما مدينتان إيثوليتان ورد اسماهما في «السجلّ الإيثولي». وحتّى بحسب هوميروس من الواضح أن الكوريتيين عاشوا في بليفرون، وعليه فإنهم يجب أن يكونوا

إيثوليين. أمّا الكتّاب الذين يعتمدون وجهة النظر المغايرة، فإن أسلوب التعبير عند هوميروس قادهم إلى الوقوع في الخطأ. يقول هوميروس:

كان النزاع بين الكوريتيين والإيثوليين المولعين بالنزاع،
حول مدينة كاليدون.

(الإلياذا IX، 529)

ويتابع هؤلاء قائلين، إنه لم يكن بمقدور الشّاعر أن يقول تماماً هكذا: «لقد حارب البيوتيون والطيبيون بعضهم بعضاً» أو حارب «الآرغفيانيون والبيلوبونيزيون» بعضهم بعضاً. وأنا كنت قد أشرت من قبل[1] إلى أن أسلوب التعبير هذا أسلوب معتاد ليس لدى هوميروس وحده، بل غالباً ما يستخدمه الشعراء الآخرون أيضاً. وتفسيرنا هذا يمكن على هذا النحو تبريره بسهولة. ولكن فليشرح لنا الكتّاب الآخرون كيف استطاع هوميروس أن يضع البليفرونيين في «السجلّ الإيثولي»، لو لم يكن هؤلاء من أبناء قبيلتهم، أي من قبيلة الإيثوليين.

2- وبحسب إيثور أن الإيثوليين كانوا قبيلة لم تخضع يوماً لأيّ شعب آخر؛ فبلادهم لم تتعرّض لغزو أو نهب منذ الأزمنة الغابرة بسبب وعورة طبيعتها وامتلاك سكّانها لفنون القتال. ويضيف إيثور بعد ذلك، إن الكوريتيين امتلكوا البلاد كلّها أولاً؛ ولكن بعد أن جاء إيثول ابن إينديميون من إيليدا وهزمهم في الحرب، أُرغم الكوريتيون على أن يتراجعوا إلى المنطقة التي تدعى الآن أكارنانيا؛ وعاد الإيثوليون أدراجهم ومعهم الإيبيون وأسّسوا أقدم المدن في إيثوليا؛ وبعد انقضاء عشرة أجيال، استعمر أوكسيل ابن هرمون إيليدا، وهو الذي عبر من إيثوليا إلى البيلوبونيز. وللبرهان على هذا يسوق إيثور نصّي نقشين: أحدهما في ثيرما في إيثوليا (حيث معمول عندهم بالتقليد الأبوي لاختيار الأشخاص المسؤولين وكبار الموظفين)، وقد حفروا نصّ هذا النقش على قاعدة تمثال إيثول:

هذا الذي نظّم الأرض عند لجّة ألثيوس المنبت
وكان في يوم ما الجار القريب لسباقات الخيل الأوليمبية،
إيثول ابن إينديميون. فكرّس الإيثوليون هذا
التمثال له، لكي ينظر إليهم بعين البسالة.

ويقع النقش الثاني في ساحة سوق الإيليين على تمثال أوكسيل:

هذا للأسلاف الأوائل، حينما ترك إيثول الشعب،
وامتلك أرض الكوريتيين المجيدة بالرمح الرهيب.

وعشيرة الحفيد العاشر نفسه، ابن هيمون، أوكسيل
الباسل، أسّس في زمن ما هذه المدينة.

3- وعلـى هـذا النحـو يبـيّن إيثـور بهـذين النقشـين صـلة القرابـة بـين الإيلـيين والإيثوليين، لا لأنّ النقشين يثبتان معاً صلة القرابة بين القبيلتين وحسب، إنّما لأنهما من منشئين متبادلين. وعلى هذا الأساس يوفّق إيثور في إظهار خطأ الادعاء بأن الإيليين هم فعلاً مستعمرو الإيثوليين، وليس الإيثوليون مستعمري الإيليين. ففي الحالة المعطاة يبيّن إيثور بوضوح التناقض نفسه الذي ورد في وصفه وزعمه الذي كنت قد أشرت إليه[2] عنده فيما يخصّ موْحى دلفي. وواقع الأمر أنه بعد أن زعم إيثور أن إيثوليا لم تتعرّض للغزو منذ الأزمنة الغابرة، وبعد أن ذكر أن الكوريتيين امتلكوا هذه الأرض أولاً، كان ينبغي عليه وفق ما قيل، أن يضيف أيضاً، إن الكوريتيين حافظوا على ملكيتهم لهذه الأرض حتّى زمنه، لأنه في هذه الحالة فقط يمكن أن تدعى البلاد بحق بالبلاد «التي لم تتعرّض لغزو»، ولم تخضع يوماً لسيادة الغريب. ولكنّ إيثور الذي نسي وعده[3] تماماً، لم يضف هذا بل طرح زعماً مناقضاً مفاده أنه بعد وصول إيثور من إيليدا أو قهره الكوريتيين في الحرب، نأى هؤلاء وأقاموا منعزلين في أكارنانيا. فأيّ دليل على تعرّض البلاد للغزو وهزيمتها في الحرب أكثر وضوحاً من هجرة سكّانها منها؟ وهذا ما يشير إليه نقش عند الإيليين. فالنقش يقول، إن إيثول،

امتلك أرض الكوريتيين المجيدة بالرمح الرهيب.

4- وقد يعترض أحدهم على هذا فيقول: إن إيثور يريد أن يقول، إن إيثوليا بقيت «سالمة» منذ أن حملت اسمها هذا، أي بعد وصول إيثور إليها. ولكنّ إيثور يجرّد حتّى هذا الزعم من أسسه، عندما يزعم لاحقاً أن الفريق الأكبر من الناس الذين بقوا بين الإيثوليين كانوا من الإيبيين تحديداً؛ وفيما بعد، حينما نزح الإيثوليون مع البيوتيين من تساليا، واختلطوا مع هؤلاء الأخيرين، استولوا على هذه البلاد بالشراكة مع البيوتيين. وهكذا فإنه من المحتمل أن يكون هؤلاء، بعد أن هاجموا بلاداً غريبة، قد عاشوا فيها من غير حرب مع سكّانها السابقين الذين لم يكونوا في حاجة إلى هذا التعايش البتة. وإذا لم يكن مثل هذا الاحتمال قائماً، فهل يمكن أن يكون الذين هزموا بقوّة السلاح قد وجدوا أنفسهم في علاقات متباينة مع المنتصرين؟ فما الذي يمكن أن يكونه مثل هذا «الاجتياح» إن لم يكن هزيمة بقوة السلاح؟ يقول أبوللودوروس، إنه وفق التاريخ أن العمالقة خرجوا من بيوتيا واستوطنوا مع الإيثوليين. أمّا إيثور فظنّاً منه أنه عرض حججه كلّها عرضاً موفقاً، يضيف في الختام قائلاً: «إنني أخضع هذه المسائل وأمثالها عادة،

للتمحيص الدقيق في كلّ مرّة أصادف فيها أمراً ما مشكوكاً فيه تماماً، أو قائماً على تصوّر خاطئ».

5- وعلى الرغم من هذا كلّه يبقى إيثور، هو الأفضل بين الآخرين. حتّى بوليبيوس[4] نفسه، الذي يمدحه بحماس يؤكّد، أنّ إيفدوكس[5] قدّم عرضاً رائعاً عن التاريخ الإغريقي، لكنّ إيثور قدم أفضل رواية عن تأسيس المدن، وصلات القرابة، والهجرات، والمؤسّسين الأوائل. ثمّ يقول: «أمّا أنا فإنني لن أعكس سوى الحالة المعاصرة للأشياء، وسوف أتحدّث عن مواقع الأماكن، كما عن المسافات التي تفصل بينها؛ فهذه المادّة، هي الأكثر ملاءمة للكوروغرافيا». ولا شك في أنك أنت يابوليبيوس الذي تورد «آراء شائعة»[6] عن المسافات عندما تتعامل مع بلدان خارج اليونان، وفي داخل الأراضي اليونانية نفسها، فإنه يجب عليك أن تبرّئ ساحتك أمام بوسيدونيوس وأبوللودوروس، وكذلك أمام بعض الكتّاب الآخرين. ولذلك فإنه على القارئ أن يعذرني، وألاّ ينفعل إذا ما اقترفت بعض الهفوات (لأني آخذ أكثر أخباري التاريخية عن مثل هؤلاء الكتّاب)، بل يرضى عني لأني أعرض أكثر الحقائق التاريخية عرضاً أفضل من عرض الآخرين، أو أملأ ما سهوا عنه بسبب عدم اطلاعهم عليه.

6- وثمّة معطيات عن الكوريتيين في سياق الروايات الآتية أيضاً، وأحياناً ما تكون لهذه صلة قريبة جداً بتاريخ الإيثوليين والأكارنانيين، وأحياناً أخرى تكون أكثر ابتعاداً عنه. والصلة الأقرب إلى التاريخ هي تحديداً للروايات التي من نوع الذي يشبه ما عرضته سابقاً وقلت فيه، إن البلاد التي يدعونها الآن إيثوليا استوطنها الكوريتيون، وإن الإيثوليين الذين جاؤوا مع إيثور طردوهم منها إلى أكارنانيا. ومثلها أيضاً الروايات التي تقول، إنه في الوقت الذي كان يعيش فيه الكوريتيون في بليفرون (التي كانت تدعى حينئذٍ كوريتيدا)، اجتاح الإيثوليون هذه البلاد فاستولوا عليها وطردوا سكّانها السابقين منها. وبحسب أرخيماخ الإيبيوسي أن الكوريتيين سكنوا خلكيدا أولاً، ولكن بما أن أعداءهم أمسكوا بهم من الأمام بشعر رؤوسهم، أثناء الحروب المتواصلة التي أشعلها النزاع على سهل ليلانس، فقد شرع الكوريتيون يحلقون شعر رؤوسهم من الأمام ويطلقونه من الخلف. ولذلك دعوهم «كوريتيين»، والكلمة مشتقة من كلمة «جزّ»[7]؛ فنزحوا إلى إيثوليا وسكنوا فيها، وبعد أن استولوا على المنطقة المحيطة ببليفرون، أطلقوا على سكّان الضّفّة الأخرى لنهر أخيلوي اسم الأكارنانيين، لأنّ هؤلاء لم يكونوا يحلقون شعر رؤوسهم[8]. بينما يجزم بعضهم بالعكس تماماً، ويؤكّدون أن القبيلتين أخذتا اسميهما من اسمي بطلين؛ ويزعم

بعضهم الآخر أن الكوريتيين أخذوا اسمهم من جبل كوريوس الذي يعلو فوق بليفرون، وأن هـذه كانـت واحـدة مـن القبائـل الإيثولية، مثلـها مثـل الأوثـيين، والآغـريين، واليوريتانيين، وبعض القبائل الأخرى. ولكـن، كما أشرت سابقاً[9]، فعندما قسمت إيثوليا إلى شطرين وقعت المنطقة المحيطة بكاليدون، كما يقولون، تحت حكم إينياس، بينما امتلك أبناء بورثاونوس شطراً كبيراً من بليفرونيا، خاصة آغريوس وسلالته، إذا هم فعلاً:

سكنوا بليفرون، والأرض الخصبة، وكاليدون الجبلية.

(الإلياذا XIV، 116)

ثمّ امتلك بليفرونيا ثيستوس صهر إينياس ووالد ألثيا، وزعيم الكورياتيين. وعندما اندلعت الحرب بين أبناء ثيستوس من جهة، وإينياس وميلياغروس من جهة أخرى

(**على رأس الخنزير ذي الناب، وجلده الكثيف الشعر،**

(الإلياذا IX، 548)

كما قال الشّاعر آخذاً بأسطورة الخنزير البري، ولكن بسبب قطعة الأرض الصغيرة على أغلب الظنّ)، فإنّ

النزاع كان بين الكوريتيين والإيثوليين المولعين بالنزاع.

(الإلياذا IX، 529)

هذه هي الروايات التي لها أقرب صلات بتاريخ الإيثوليين والأكارنانيين.

7- أمّا الروايات التي صلتها بهذه المادّة أبعد (وبسبب تماثل الأسماء فإن المؤرّخين يصلون بعضها ببعض)، خاصة تلك التي على الرغم من أنها تدعى «القصة الكوريتية» و«قصة عن الكوريتيين» (تماماً كما لو كانت هذه تمثّل تاريخ الكوريتيين الذين عاشوا في إيثوليا وأكارنانيا)، فإنها لا تتميّز عن هذه القصص وحسب، إنّما هي أقرب إلى خرافات الساتير، والسيلينيس، والباخوسيات، والتيتير[10]. فعلى حدّ قول أولئك الكتّاب الذين يروون روايات من تاريخ قبرص وفريجيا، أن الكوريتيين، هم كائنات عفريتية، مثلها مثل هذه الكائنات المذكورة، أو إنهم أرواح من خدم الآلهة؛ وتتشابك هذه الروايات عندهم في غضون ذلك مع القصص التي تروى عن طقوس مقدّسة شائعة، هي قصص صوفية جزئياً، وتتّصل في جزئها الآخر بتربية زيوس الطفل في كريت، أو بالمسرحيات الدينية الطقوسية التي كانت تقام على شرف والدة الآلهة في فريجيا ومنطقة إيدّا الطروادية. ويظهر في هذه الروايات تنوّع لا أهمية له؛ ففي بعضها مثلاً، يدغم الكوريبانتي، والكابيري، والداكتيلي الإيدّيون، والتيلخينيون بالكوريتيين،

وفي بعضها الآخر توصف هذه القبائل بأنها قبائل تربط بينها صلة النسب مع بعض الاختلاف البسيط لبعضها عن بعضها الآخر. وقصارى القول، إنهم يرون فيها كلّها أناساً ما ذوي إلهام إلهي أصابهم الجنون الباخوسي، وفي صورة خدم الآلهة لدى تأدية الطقوس المقدّسة يدبّون الخوف في قلوب الناس برقصهم القتالي الذي يؤدّونه بكامل سلاحهم تحت صخب صوت الصنج، وقرع الطبول، وقعقعة الأسلحة، وبمرافقة المزمار، وأصوات العويل. ولذلك يرون في هذه الطقوس المقدّسة طقوساً بينها وبين طقوس الساموتراقيين في ليمنوس وبعض المناطق الأخرى صلة نسب؛ لأنّ خدم الآلهة يدعون هناك بالاسم عينه. وعلى أيّ حال، فإن أيّ بحث في هذه الشأن يندرج في ميدان التعاليم المكرّسة للآلهة وليست غريبة عن تأمّل الفيلسوف.

8- ولكن، بما أن المؤرّخين أنفسهم، وبسبب تطابق أسماء الكوريتيين، قارنوا بين مواد غير متشابهة، فإنني رغبت بدوري أن أتحدّث عنها نكوصاً، بتفصيل أكثر، فأضيف إلى التاريخ قصة ملائمة عن بنيتهم الفيزيائية. وعلى وجه العموم فإن بعض المؤرّخين يرغبون في أن يقاربوا سماتهم الفيزيائية، وربّما يكون لهم في هذا نصيب محدّد من الواقعية. فهم يزعمون على سبيل المثال، أن الكوريتيين الإيثوليين أخذوا اسمهم هذا، لأنهم كانوا «كالبنات»[11]، يرتدون فساتين؛ بيد أن هذا كان عند الإغريق شيئاً ما يشبه الموضة؛ فالإيونيون لقّبوا «بذوي الأردية الطويلة»[12]؛ أمّا جنود ليونيد فقد كانوا يخرجون إلى القتال «بشعر مسرّح»[13]، ولذلك يروى أن الفرس أبدوا احتقارهم لهم، مع أن بسالتهم أثارت دهشة هؤلاء. وعلى وجه العموم فإن فنّ العناية بالشعر يتلخص في تغذيته وقصقصته، وهي مهارة يتميّز بها الفتيان والفتيات على حدّ سواء[14]؛ ولذلك ثمّة كثير من الوسائل التي تمكّن بسهولة ويسر من تحديد المغزى الأول لكلمة «كوريتيين». ومن جهة أخرى يرجّح أن تكون الرقصة القتالية التي كان يؤدّيها بادئ ذي بدء أشخاص بتسريحة وملابس مماثلة (وكان هؤلاء يدعون كوريتيين)، قد أعطت المسوّغ للذين يتمتّعون بروح قتالية أكثر من الآخرين، ويعيشون حياتهم من غير أن يفارقوا السلاح قط، أن يتسمّوا باسم الكوريتيين نفسه: وأنا أعني هنا الكوريتيين في إيبيوس، وإيثوليا، وفي أكارنانيا أيضاً. وهوميروس يدعو المقاتلين الشبان بهذا الاسم:

أنت الذي انتقيت من معسكر الآخيين أنبل الشبان[15]،
وكلّ الهدايا التي تعهّدنا بالأمس أن نقدّمها لأخيلليس،
ائتني بها من السفينة السريعة...

(الإلياذا XIX، 193)

وفي مكان آخر:

... وفي الإثر حمل الشبّان[16] الهدايا الأخرى.

(الإلياذا XIX، 248)

هذه كانت معلوماتي عن اشتقاق اسم الكوريتيين. وعلى أيّ حال فإن الرقصة القتالية كانت رقصة الجنود. وهذا ما تؤكّده بيرّيخا[17]، وكذلك بيرّيخوس الذي يعدّونه مبتكر هذا التمرين للشبان، وواضع الإرشادات والتعليمات في فنّ القتال.

9- ولنر الآن كيف تتوافق هذه الأسماء كلّها والمادّة نفسها، وما هي عناصر التعاليم المكرّسة للآلهة، التي يتضمنها تاريخها. فالإغريق والبرابرة يشتركون في تقليد إقامة الطقوس المقدّسة وربطها باستراحة الأعياد؛ فبعض الطقوس يؤدى بحماس ديني، وبعضها الآخر من غيره؛ وفي بعض الأحيان بمرافقة موسيقية، وفي بعضها الآخر من غير موسيقا؛ ويكون بعض الطقوس سرّياً، بينما بعضها الآخر مفتوحاً. وفي الأحوال كلّها، فإن طابع هذه الطقوس تحدّده الطبيعة نفسها. فالاستراحة، تصرّف العقل عن الاهتمام بالشؤون البشرية وتوجه العقل المتحرّر من شؤون الدنيا فعلاً، نحو ما هو إلهي؛ ثانياً، إن الحماس الإلهي يقوم على أغلب الظنّ، على أساس إلهام إلهي ما، وهو قريب خاصّة إلى من وُهب نعمة التنبؤ، ثالثاً، إن الحرمة السرية التي للطقوس المقدّسة تضفي مزيداً من القداسة على ما هو إلهي، لأنها تحاكي الطبيعة الإلهية التي لا تدركها الأحاسيس البشرية؛ رابعاً وأخيراً، إن الموسيقا التي ترافق الرقصة، وكذلك الإيقاع والنغمة، تقودنا إلى الاتصال مع الإله إن عبر المتعة التي تثيرها أو عبر أدائها الفني، وهو ما يحصل للسبب التالي. فعلى الرّغم من صحّة المقولة التالية: إن الناس يشبهون الآلهة أكثر ما يشبهونها، عندما يفعلون الخير للآخرين، بيد أنه كان من الأصحّ لو قيل: عندما يكونون سعداء. ومثل هذه السعادة تخلقها الأفراح، والاحتفالات، وممارسة الفلسفة والموسيقا. وإذا ما تعرّضت الموسيقا للتشويه بدرجة ما، عندما يوجّه الموسيقيون مهاراتهم نحو المتع الحسّية في المآدب، والرقص، والمشاهد التي تؤدّى وما إلى ذلك من العروض، فينبغي ألاّ تلام الموسيقا على ذلك، إنّما من الأفضل أن نتقصّى محتوى التربية القائمة على أساسها.

10- ولهذا دعا أفلاطون وقبله الفيثاغورسيون الفلسفة موسيقا[18] وأكّدوا أن الكون تشكّل وفق قوانين الهارمونيا[19]. ورأوا في كلّ نوع من الموسيقا إبداعاً أبدعه الآلهة. ولذلك فالميوزات إلهات وأبوللون رائد الميوزات، والشعر كلّه تمجيد للآلهة. وعلى نحو مماثل ينسب هؤلاء إلى الموسيقي تشكيل القيم الأخلاقية، لأنهم يرون أن كلّ ما

يخدم تقويم العقل، قريب من الآلهة. لقد نسب أكثر الإغريق إلى ديونيسيوس، وأبوللون، وهيكاتي، والميوزات، وقبل كلّ شيء إلى ديميترا شتّى أنواع الاحتفالات السرّية التهتكية، والباخوسية، والجماعية، كما نسبوا إليهم الأصل الصوفي في احتفالات التكريس؛ وهم لا يدعون ديونيسيوس وحده ياكخوس، إنّما يطلقون هذا الاسم على العفريت- القائد مسرحيات ديميترا السرية أيضاً. إن حمل الأغصان، والرقصات الجماعية، والتكريس، هي العناصر المشتركة في عبادات هؤلاء الآلهة. أمّا أبوللون والميوزات، فإن الميوزات يقفن على رأس الجوقات، وأبوللون لا يقود هذه الأخيرة وحسب، بل تمتدّ قيادته لتشمل فن التنبؤ أيضاً. وخدم الميوزات، هم الناس المتنورون المثقفون كلّهم، خاصة الموسيقيين، وهم خدم أبوللون أيضاً، وكذلك الذين يمارسون فنّ التنبؤ، أمّا خدم ديميترا فهم حاملو المشاعل والإروثانتس[20]؛ وخدم ديونيسيوس هم السيلينيس، والساتير، والباخوسيات، وكذلك اللّيني، والثيي، والميماللوني، والنائيدس، والحوريات، وما يدعى تيتيرس.

11- وما عدا هذه الطقوس المقدّسة، كانوا يؤدّون في كريت طقوساً خاصة أخرى على شرف زيوس ترافقها احتفالات تهتكية؛ وكان يشارك فيها خدم هم الساتيري في عبادة ديونيسيوس. وكانوا يدعون هؤلاء الخدم كوريتيين؛ وكان هؤلاء شباباً مختارين يؤدون تمارين وهم يرتدون الدروع، وكانت تمارينهم هذه تترافق بتأدية رقصات يمثلون بها القصة الميثولوجية لولادة زيوس؛ وكانوا يصوّرون في هذا العرض كرونوس الذي يلتهم أولاده لحظة ولادتهم عادة، وريّا وهي مشغولة بإخفاء مولودها كي تبعده قدر الإمكان لتنقذه. ولتحقيق مسعاها هذا، يقولون، إنها استعانت بالكوريتيين الذين كان ينبغي أن يحيطوا بالإلهة ومعهم الطبول ومختلف أنواع آلات الصخب الأخرى، لكي يخيفوا كرونوس ويخطفون وليده خلسة عنه. وحسب الرواية أن هؤلاء هم الذين ربّوا زيوس الطفل بعناية فائقة. ولذلك استحقّ الكوريتيون مثل هذا الاسم المشرّف، إمّا لأنهم قدّموا هذه الخدمة وهم أنفسهم فتية، أو لأنهم ربّوا زيوس الطفل (يورد الكتّاب التفسيرين معاً). إن هؤلاء هم بمثابة الساتيري لدى زيوس. وعلى هذا النحو يبدو الأمر عند الإغريق في العبادات التهتكية.

12- وفيما يخصّ البيريكينتيين، وهم إحدى القبائل الفريجية، بل فيما يخصّ الفريجيين على وجه العموم، وكذلك الطرواديين الذين عاشوا في ضواحي إيدا، فإنهم يعبدون ريّا، ويقيمون احتفالاتهم، ويدعونها والدة الآلهة، والأغديّة، والإلهة الفريجية العظمى؛ كما يدعونها تبعاً لأسماء الأماكن: الإيديّة، والديندимينية، والسيبيلينية،

والبيسينونيتدا، وكيبلاّ، وكيبيبا[21]. ويدعو الإغريق خدمها بالاسم عينه: كوريتيين؛ بيد أنهم لا يقتبسون هذا الاسم من دائرة القصص الميثولوجية نفسها[22]، لكنّهم يرون فيهم ضرباً من ضروب الأرواح التي تشبه الساتير. فيدعونهم كوريبانتي.

13- ويشهد الشعراء شهادات لصالح هذه الافتراضات. فبينداروس على سبيل المثال يقول في إحدى مدائحه التي يبدؤها بقوله:

من قبل كانت تطول[23] كالحبل أغنية الديفيرامبي،

وإذ يتذكّر الأناشيد القديمة والحديثة التي أُنشدتْ على شرف ديونيسيوس، لينتقل منها ويقول:

لك نبدأ المطلع، أيّتها الأمّ العظيمة،
طبول الكيمفاليين مستعدّة وفي وسطهم
صخب الطنين والمشعل، وشجر الصنوبر
الأصفر الذي يضيء.

(هرقل أم كيربيربوس، إي. بيوس)

ويشير الشّاعر هنا إلى وحدة الطقوس التي أنشأها الإغريق في عبادة ديونيسيوس، والطقوس الفريجية في عبادة والدة الآلهة، كاشفاً في أثناء ذلك عن صلة القرابة بين الشعبين، والتقارب نفسه يورده يوريبيدس في «الباخوسيات» إذ يصل بين العادات الفريجية والليدية استناداً إلى تشابهها.

وأنتم، الذين تركتم تمولوس معي،
وأنتنّ يا ربيبات ليديا وصديقاتها
في الطريق والسلطة، أنتم الآن ترفعون
الدفّ فوق الرأس الفريجية،
تقدمة لريّا أمي أيضاً...

ثمّ يقول:

أوه، كم أنت سعيد أيها الفاني،
إذا ما تعايشت بسلام مع الآلهة
فتدرك كنه أسرارها،
إذا ما ابتهجت فوق المرتفعات
بأفراح باخوس النقية
وملأت روحك الوجلة،

كم ستكون سعيداً لو انخرطت

في احتفالات الأمّ كيبيلاّ؛

لو هززت الصولجان،

باللبلاب الأخضر ستتوّج،

وستخدم ديونيسيوس.

إلى الأمام أيتها الباخوسيات إلى الأمام!

فأنتنّ تقدن الإله وابن الإله

ديونيسيوس إلى البيت!

من الجبال الفريجية إلى ربوع هلاّدا الشاسعة.

(الباخوسيات 55، 72)

وبعد ذلك يربط الشّاعر في الأبيات الآتية بين الطقوس الكريتية والفريجية:

مبكى كريت المقدّس،

مأوى الكوريتيين الكئيب،

شاهدت مولد زيوس أنت،

بعرف ثلاثي على الخوذة.

هناك طوق الكوريبانتي[24]

مرتدياً جلداً عثروا عليه.

بدأ الدفّ يعوي بوحشية:

أراد أن يذوب في أنغام القيثارات

الفريجية العذبة؛ قدّموا الدفّ لريّا،

لكنّ الباخوسيات شرعن ينشدن على وقع عويله.

فأعطته ريّا للساتيري:

أصابهم الجلد الرنّان بالجنون.

في التريتيريادس[25] **المقدّسة**

يبهج صوته الجوقات،

وهي التي يحبها ملكنا ديونيسيوس.

وفي «البالاميدا» تقول الجوقة:

ثيسا ابنة ديونيسيوس،

الذي على إيدا يتعلل مع أمه المحبوبة

على إيقاع دقّ الدفوف.

(مقطع 586، ناؤوك)

14- عندما يقارن الشعراء بين سيلينوس، ومارسيوس، وأوليميبوس، ويقدّمونهم كمبتكري القيثارة، فإنهم يضعون بذلك الطقوس الديونيسية مرّة أخرى في علاقة مع الطقوس الفريجية؛ وليس نادراً أن يرغموا أسماء إيدّا وأوليميبوس على أن «تسمع»[26] بغير وضوح كأنهما جبل واحد. والحقيقة أن لإيدّا أربع قمم قرب أنتاندريا، تدعى أوليميبية؛ وهناك الأوليميبوس الميسي الذي يجاور إيدّا، لكنّه لا يندغم به. وفي «بوليكسينا» يصف سوفوكليس منيلايوس يخرج متعجلاً من تحت أسوار طروادا، بينما كان آغاممنون راغباً في أن يتأخر بعض الشيء لكي يسترضي أثينا، ثمّ يقول سوفوكليس على لسان منيلايوس:

لا تغادر الأرض الإيدّية، فهنا

تتجمّع قطعان أوليميبوس، فقدّم ذبيحتك.

(مقطع 47، 9، ناؤوك)

15- لقد ابتكروا أسماء خاصة لأنغام القيثارة، وصخب الصنوج، وطنين الكيمفاليين، وهزيم الدفوف، وصرخات الإعجاب والبهجة، ودقّ الأقدام على الأرض، كما استخدموا بعض الأسماء الأخرى التي دعوا بها خدم الآلهة، والمشاركين في مجموعات الإنشاد، والذين يؤدّون الطقوس المقدّسة، وهذه الأسماء هي: الكابيري، والكوريبانتي، والباني، والساتيري؛ ودعوا الإله باخوس، ودعوا ريّا كيبيلاّ أو كيبيبا وديندمينا، حسب أماكن عبادتها. كما ينتمي سابازيوس أيضاً إلى عداد الآلهة الفريجية، وهو بطريقة ما ابن والدة [الآلهة]، لأنه أيضاً نقل أسرار ديونيسيوس.

16- وهذه الطقوس تشبهها طقوس الكوتيتي والبينديدي عند التراقيين الذين ظهرت عندهم الطقوس الأورفية أيضاً. ويذكر إيسخيليوس الإلهة كوتيس التي يبجلها الإيدونيون، والآلات الموسيقية التي تستخدم أثناء إقامة احتفالاتها. فهو يقول:

كوتيس، قديسة الأرض الإيدونية،

أنتم يا مالكي الأدوات الجبلية،

ثم يذكر مباشرة خدم ديونيسيوس:

واحد يمسك الناس بيديه - صنعة القطّاع،

يملأ الأغنيات بمهارة أصابعه.

صوته يثير الجنون.

وفي الوقت نفسه يرنّ آخر بكفّتيّ النحاس.

ويقول بعد ذلك:

الأغنية رنّانة تبهج،

ومن مكان ما، من مخبأ ترعد الإيمائيات رهيبة

خوار ثور وجئير،

وصدى الدف كأنه هزيم الرعد

يندفع من مملكة العالم السفلي.

(*الإيدونيون، مقطع* 57، *ناؤوك*)

إن هذه الطقوس تشبه الطقوس الفريجية، ومن المحتمل جدّاً أن تكون قد جاءت إلى هنا من تراقيا، لأنّ الفريجيين أنفسهم نزحوا إلى هنا من تراقيا وحملوها معهم. وبالمقارنة بين ديونيسيوس وليكورغوس الإيدوني، يلمّح الشعراء إلى الطابع المتماثل لهذه الطقوس المقدّسة.

17- وعلى أساس لحن الإيقاع والآلات الموسيقية، يعدّون الموسيقا التراقية كلّها موسيقا آسيوية، وهذا واضح أيضاً من أسماء الأماكن التي عرفت فيها عبادة الميوزات. فبيرييا، وأوليميبوس، وبيمبلا، وليبيثرون كانت في الزمن القديم أماكن وجبال تراقية فعلاً، مع أنها تعود الآن للمقدونيين؛ وكرّس التراقيون الذين سكنوا في بيوتيا، جبل هيليكون للميوزات، وكرّسوا لهنّ أيضاً كهف الحوريات الليبيرثيادس. وعلى النحو نفسه كانوا يدعون الذين كانوا في الأزمنة القديمة يعملون في ميدان الموسيقا، تراقيين: أورفيوس، وموسيوس، وثاميريس؛ ومن هنا أخذ اسمه إيفمولبوس أيضاً. ويعيد الكتّاب الذين كرّسوا آسيا كلّها لديونيسيوس، منشأ القسم الأكبر من الموسيقا إلى هناك. فأحد الكتّاب على سبيل المثال يقول، «ضارباً على القيثارة الآسيوية»، ويدعو آخر المزمار «بيريكينتياً» و«فريجياً»؛ ويحمل بعض الآلات تسميات بربرية: نابلاس، سامبيكا، باربيتوس، ماغاديس، و...

18- لقد أظهر الأثينيون ميلاً دائماً للاقتباس عن الغرباء، إن على وجه الخصوص أو على مستوى عبادات الآلهة الغرباء. فاعتمدوا فعلاً كثرة من الطقوس الأجنبية، الأمر الذي جعل الكتّاب يسخرون منهم في العروض الكوميدية. وهذا يخصّ الطقوس الفريجية والتراقية. فأفلاطون[27] مثلاً يذكر البينديدي، ويذكر ديموسفين[28] الطقوس الفريجية في معرض انتقاده لوالدة إيسخين وله هو نفسه، لأنه حضر معها عروضاً سرية مقدّسة، وشارك في الموكب الديونيسي وهتف مراراً:

euoi saboi و hýēs áttēs hýes [29]. وتستخدم هذه الكلمات لدى إقامة شعائر خدمة سابازيوس والأم العظمى.

19- وعلاوة على ذلك، فيما يخصّ هذه الأرواح وأسماءها المتنوّعة، يمكننا أن نكتشف أنها لم تدع خدم الآلهة فقط، بل عدّت هي نفسها آلهة. فعلى حدّ قول هسيود مثلاً، إنه كان لهيكاتيروس وابنة فورونيوس خمس بنات:

منهنّ الحوريات الجبليات، إلهات ولدن

وجيل الساتيري التافهين، العاجزين عن العمل،

وجنس الكوريتيين، الآلهة المولعين باللهو والرقص.

(*مقطع* 198، *رجاخ*)

ويدعو مؤلّف «الفورونيدس»[30] الكوريتيين «بالزمّارين» و«الفريجيين»؛ بينما يدعوهم مؤلّفون آخرون «بالمولودين من الأرض»، و«حامليّ التروس النحاسية». وهناك من يدعو الكوريبانتي وليس الكوريتيين «بالفريجيين»، فهؤلاء الأخيرون يدعونهم «كريتيين» ويقولون، إن الكريتيين هم أوّل مَنْ حمل الدروع النحاسية في إيبيوس؛ ولذلك دعوهم «خلكيديين»[31]. ويزعم بعضهم أن العمالقة أعطوا ريّا خدماً مسلحين، وأن هؤلاء كانوا هم الكوريبانتي الذين جاؤوا من باكتريانا، بينما يقول آخرون إنهم جاؤوا من كولهيدا. وفي الحكايات الكريتية يدعى الكوريتيون «مطعمي زيوس» و«حرّاسه» الذين استدعتهم ريّا من فريجيا إلى كريت. وبحسب روايات بعضهم أنه كان في رودوس تسعة من التيلخينيين[32]، ولم يدع بالكوريتيين منهم سوى أولئك الذين رافقوا ريّا إلى كريت، وأقاموا على «تربية زيوس الطفل». وأسّس كيربانتوس، صديق الكوريتيين مدينة هيرابيتنا. وهو من أعطى الذريعة للبراسيين كي يشيعوا بين الرودوسيين، أن الكوريبانتي كانوا ضرباً من ضروب الأرواح: أبناء أثينا وهيليوس. وحسب آخرين، أن الكوريبانتي أبناء كرونوس؛ وأخيراً هناك من الكتّاب من يرى فيهم أبناء زيوس وكاليوبا، ويؤكّدون على أنهم هم الكابيري أنفسهم. وعلى حدّ قولهم، إن هؤلاء الأخيرون، غادروا إلى ساموتراقيا (التي كانت من قبل تدعى ميليتا)، وأن طقوس الكابيري كان لها طابع صوفيّ.

20- وقد جمع ديميتري السكيبسيسي هذه الروايات كلّها. لكنّه لم يأخذ بالزعم الأخير، لأنه لم يكن في ساموتراقيا على حدّ قوله، أيّ روايات عن الكابيري. لكنّه يسوق رأي ستيسيمبروس الفاسوسي الذي يفيد بأن طقوساً مقدّسة كانت تؤدّى على شرف الكابيري في تراقيا، ويرى أن الكابيري أخذوا تسميتهم من جبل كاثيروس

في بيريكينتيا. ويرى بعضهم أن الكوريتيين هم خدم هيكاتي، ويدغمونهم بالكوريبانتي. ولكنّ ديميتري السكيبسيسي يعارض هذا أيضاً (على الضدّ مما قاله يوريبيدس)[33] ويقول، إن عبادة ريّا في كريت لم تكن معتادة وشائعة كعبادة محلّية، وهي لم تكن كذلك إلاّ في فريجيا وطروادا؛ وحسب رأيه أن من يزعم مثل هذه المزاعم إنّما يروي أساطير ولا ينقل معلومات تاريخية؛ وعلى وجه العموم يمكن أن يفضي بهم إلى هذا الخطأ أيضاً، إدغام أسماء الأماكن مصادفة. فإيدّا مثلاً ليس جبلاً طروادياً فقط، بل هو كريتيّ أيضاً، وديكتا مكان في سكيبسيس وجبل في كريت. وقمّة إيدّا، بيتنا، اشتقّ منها اسم مدينة هيرابيتنا. وهيبوكورونا مكان في منطقة إدراميتين، أمّا هيبوكورونوس، فهو في كريت. وسامونوس، هي الرأس البحرية الواقعة في شرقيّ الجزيرة، وهو أيضاً اسم سهل في منطقة نيادرس ومنطقة الإسكندريين.

21- يرى آكوسيلايوس الآرغوسي أن كادميلوس هو ابن كابيرو وهيفستوس ووالد ثلاثة من الكابيري الذين انحدرت منهم الحوريات الكابيريدس. وبحسب قول ثيريكيدس أن تسعة كيربانتيين انحدروا من أبوللون وريتيا، وأن هؤلاء سكنوا في ساموتراقيا. ومن هيفستوس وكابيرو ابنة بروتييوس، خرج ثلاثة كابيري وثلاث حوريات - كابيريدس؛ وقد أنشئت على شرف هؤلاء وأولئك طقوس مقدّسة. وحظي الكابيري بأعظم تبجيل في إيمبروس وليمنوس على وجه الخصوص، ولكنّهم بجلوهم أيضاً في بعض مدن منطقة طروادا. وقد أحيطت أسماء هؤلاء بسرّية تامّة. ويذكر هيرودوت[34] وجود معبد للكابيري وآخر لهيفستوس في ممفيس؛ ولكنّ قمبيز هدمهما، كما يقول. وأماكن عبادة هذه الأرواح غير مسكونة: كوريبانتوس في هاماكسيتيا، في منطقة تتبع الآن للإسكندريين وتقع قرب سمينثوس، وكوريبيسّا في منطقة كيبسيس قرب نهر يفريينتوس وقرية تحمل الاسم عينه، وكذلك قرب جدول إيثالوينس. وحسب ديميتري السكيبسيسي يبدو إدغام الكوريتيين والكوريبانتي أمراً معقولاً؛ فقد عدّوهم فتياناً أو شباباً كانوا يدعونهم لتأدية الرقصات القتالية أثناء إقامة الاحتفالات بعيد والدة الآلهة، وأعياد «الكوريبانتس»، لأنهم أثناء وضعية الرقص «كانوا يتحرّكون وهم ينطح واحدهم الآخر برأسه»[35]. ويدعوهم هوميروس بالراقصين الماهرين[36]:

ادعوا إلى هنا الراقصين الثاياكيين المهرة.

(*الأوذيسا* VIII، 250)

وبما أن الكوريبانتي كانوا راقصين يدخلون طور النشوة الروحية، فإننا ندعو الذين يدورون بعنف شديد أنهم «يحاكون الكوريبانتيين».

22- وعلى حدّ قول بعضهم إنّ الديكتيلي الإيدّيين اسم حمله سكّان مرتفعات إيدّا الأوائل. لأنهم دعوا المرتفعات «أرجلاً» وقمم الجبال «روؤساً». وعلى هذا النحو دعيت بعض أطراف إيدّا (كلّها كان مكرّساً لأمّ الآلهة) داكتيلي. ويرى سوفوكليس(37) أن أوّل داكتيلي كانوا الرجال الخمسة الذين اكتشفوا الحديد وابتكروا طريقة تصنيعه، كما اكتشف هؤلاء أشياء كثيرة أخرى نافعة في الحياة؛ وكان لهؤلاء خمس أخوات؛ ووفق عددهم دعوهم كلّهم داكتيلي(38). ولكنّ آخرين يروون القصة الميثولوجية بطريقة مغايرة، فيجمعون فيها بين عنصر مشكوك فيه وآخر؛ وفي غضون ذلك جاء عدد الداكتيلي وأسماؤهم مختلفة عندهم؛ فدعوا أحدهم كالميس، والآخرين: دامنامينوس، وهرقل، وأكمون. ورأى بعضهم فيهم سكّان إيدّا الأصليين، بينما رأى آخرون أنهم وافدون إلى هنا. لكنّ جميعهم يتّفق على أنهم أوّل من أخذ يعدّن الحديد في إيدّا؛ ويرى كلّهم فيهم سحرة مشعوذين وخدماً لوالدة الآلهة عاشوا في فريجيا حول إيدّا. فهم يدعون طروادا فريجيا، لأنّ جيرانها الفريجيين استولوا عليها بعد دمارها. ويفترضون أن الكوريتيين والكوريبانتي هم أحفاد الداكتيلي الإيدّيين. وعلى أيّ حال، دعي أوّل مئة شخص ولدوا في كريت بالداكتيلي الإيدّيين؛ ويقولون، إن الكوريتيين التسعة كانوا أحفادهم؛ وقد أنجب كلّ منهم، على حدّ قولهم، عشرة أطفال دُعوا بالداكتيلي الإيدّيين.

23- ومع أن أقلّ ما أحب هو الغوص فيما هو ميثولوجي، إلاّ أنني مرغم على مثل هذه المناقشة لهذا الموضوع لأنه يخصّ تعاليم عن الآلهة. وكل تعاليم عن الآلهة يجب أن تبحث في المعتقدات القديمة والأساطير، لأنّ القدماء غلّفوا بصيغة مبهمة تصوّراتهم الطبيعية عن هذه المسائل، وكانوا دائماً يضفون العنصر الميثولوجي على محاكماتهم. وليس من السهل أبداً تخمين مثل هذه الألغاز تخميناً دقيقاً. بيد أننا إذا ما أخرجنا حشد القصص الميثولوجية كلّه إلى النور، تلك التي يوافق بعضها بعضاً، وتلك التي تناقض واحدتها الأخرى، فسيكون من الأسهل استناداً إليها أن نخمّن الحقيقة. فالأساطير التي تتحدّث عن تجوال خدم الآلهة الغيورين والآلهة أنفسهم في الجبال، وعن الإلهام الإلهي الذي يهبط عليهم، تروى على الأغلب، استناداً إلى الأساس عينه الذي يعتمده البشر لعدّ الآلهة كائنات سماوية تولي عنايتها لأشياء كثيرة، كما توليها على وجه الخصوص للتنبؤ بالأمارات والفؤول. وعلى هذا النحو من الواضح أن التعدين، والصيد، والبحث عن الأشياء الضرورية للعيش، هي نوع «التجوال في الجبال»، بينما الشعوذة، والسحر قريبان من الإلهام الديني، والطقوس الدينية، والكهانة. ومثلها مهارة [هؤلاء الناس] خاصة في فنون الديونيسية والأورفية. وعلى وجه العموم فإن هذا يكفي عن هذه الأشياء.

الفصل الرابع

1- بما أنني قدّمت في البداية وصفاً للجزر المنتشرة حول البيلوبونيز، مثلها مثل غيرها، وأوليت اهتماماً خاصة لتلك الواقعة في خليج كورينثوس وتلك التي أمامها، فإنه ينبغي على الآن أن أتحدّث بالترتيب عن كريت (وهي تنتمي إلى البيلوبونيز أيضاً) وبعض الجزر الأخرى الواقعة على مقربة منها. وإلى هذه الأخيرة تنتمي الكيكلادا والسبورادا، وبعضها يستحقّ الذكر، أمّا بعضها الآخر فأقلّ أهمية.

2- والآن سأتحدّث عن كريت أولاً. ومع أنها بحسب إيفدوكس تقع في بحر إيجة، إلاّ أنه لا يجوز التأكيد على ذلك، بل من الأفضل أن يقال، إنها تقع بين قورينائية وشطر اليونان الممتدّ من سونيوس إلى لاكونيكا؛ وتمتدّ كريت طولاً على موازاة هذه البلدان من الغرب إلى الشرق؛ وتشاطئ من الشمال بحر إيجة والبحر الكريتي، ومن الجنوب البحر الليبي الذي يجاور البحر المصري. ويقع الطرف الغربي من هذه الجزيرة عند ثالاسارنا؛ ويبلغ عرض كريت 200 مرحلة تقريباً، وتتقسم إلى رأسين بحريتين، الرأس الغربية منهما تدعى كريوميتوبون[1]، والشمالية تدعى كيمار، أمّا الرأس الشرقية، فهي رأس سامونوس التي تبرز أبعد قليلاً من سونيوس نحو الشرق.

3- وبحسب سوسكيراتوس (الذي يرى أبوللودوروس أن معطياته عن الجزيرة دقيقة)، أن طول كريت لا يزيد عن 2300 مرحلة، وأن عرضها أقلّ من طولها[2]، ويبلغ محيطها بحسب سوسيكراتوس، ربّما أكثر من 5000 مرحلة. وقد حدّده أرتيميدور بـ 4100 مرحلة. أمّا هيرونيموس فإنه على الضدّ من هذا، فإذ يعتمد طول الجزيرة بـ 2000 مرحلة، ويرى أن عرضها غير متماثل، يمكنه أن يحسب محيطها بأكثر مما حسبه أرتيميدور. لأنّ أكثر من ثلث طولها [....][3]، ويمتدّ من هنا برزخ طوله 100 مرحلة مع مستوطنات أمفيمالا على البحر الشمالي، وعلى البحر الجنوبي مع فينيكس التي تعود للامبيين. ويصل عرض الجزيرة أقصى مدى له في شطرها المركزي. ويلتقي شاطئاها هنا من جديد ليشكّلا برزخاً أضيق من البرزخ السابق (عرضه 60 مرحلة تقريباً)، يقع بين مينويا، مدينة الليكتيين، وهيرابيتنا والبحر الليبي؛ وثمّة في الخليج مدينة. وتنتهي الجزيرة برأس سامونوس البحرية الحادة التي تتّجه نحو مصر وجزر الرودوسيين.

4-وكريت جزيرة جبلية حراجية، لكنّ فيها ودياناً خصبة، وتدعى جبالها الغربية باسم ليفكا[4]، وهي ليست أقلّ علوّاً من تايجيت، وتمتدّ ما يقارب 300 مرحلة طولاً لتشكّل سلسلة جبلية تنتهي عند المضيق تقريباً. وفي وسطها، في أعرض جزء منها، يقع

جبل إيدّا، وهو أعلى جبل في كريت، شكله بيضوي ومحيطه 600 مرحلة؛ وتقع حوله أفضل مدن الجزيرة. وعلى وجه العموم ثمّة جبال أخرى في كريت يماثل علوها علوّ ليفكا تقريباً؛ ويقع بعض هذه الجبال في جنوبي الجزيرة، وبعضها الآخر في شرقيها.

5- وتستغرق الطريق البحرية من قورينائية إلى كريوميتوبون نهارين وليلتين؛ والمسافة من كيمار إلى تينار 700 مرحلة (تقع بينهما كيثيرا)؛ أمّا الإبحار من سامونوس إلى مصر فيستغرق 4 نهارات و4 ليال؛ ولكنّ آخرين يرون أن الرحلة لا تستغرق سوى ثلاثة أيام بلياليها. ووفق حسابات بعضهم أن مسافة هذه الرحلة تبلغ 5000 مرحلة، أمّا حسابات بعضهم الآخر فتجعلها أقلّ. ويرى إيراتوسفين أن المسافة من قورينائية إلى كريوميتوبون هي 2000 مرحلة، ومن هناك إلى البيلوبونيز أقلّ [....][5].

6- اللغات هناك متنوّعة ومختلطة.

يقول هوميروس:

... تجدين هناك الآخيين
مع فصيل طليعتهم القبلية[6]، والكريتيين
ذوي الروح القتالية، والكيدونيين
والدوريين الموزّعين على ثلاثة بطون،
وقبيلة البيلاسيغيس.

(*الأوذيسا* XIX، 175)

وبحسب ستافيلوس أن الدوريين من هذه القبائل شغلوا الشطر الشرقي من الجزيرة، وشغل الكيدونيون شطرها الغربي، والإيثيوكريتيون شطرها الجنوبي. وللإيثيوكريتيين مدينة براسوس حيث يقع معبد زيوس ديكتييوس. أمّا القبائل الأخرى الأكثر قوّة، فقد سكنت السهول. وقد يكون الإيثيوكريتيون والكيدونيون هم السكّان الأصليون، والآخرون وافدين جاؤوا، كما يقول أندرون، من تساليا، من شطرها الذي كان يدعى دوريدا، ويدعى الآن هستيوتيدا. فقد تحرّك الدوريون الذين كانوا يقطنون قرب بارناس، تحرّكوا من هذه البلاد، وأسّسوا كما يقول هذا الكاتب، أرينيوس، وبويون، وكيتينوس، ولذلك دعاها هوميروس[7] trichaikes[8]. ولكنّ رؤية أندرون هذه لم تحظ برضا الكتّاب، لأنه دعا المدن الدورية الأربع ثلاثاً، ودعا ميتروبوليا الدوريين مستعمرة التساليين. وقد رأوا أن معنى كلمة trichaikes مشتقّ إمّا من كلمة trilophia[9]، أو لأنّ الريش على خوذاتهم كان trachinoi[10].

7- وفي كريت عدد من المدن؛ أكبرها وأشهرها ثلاث: كنوسوس، وغورتينا،

وكيـدونيا. ويمجّـد هـوميروس منهـا كنوسـوس علـى وجـه الخصـوص (فقـد وصـفها «بالعظيمة» ودعاها «عاصمة مينوس»[11])، ثمّ حذا الكتاب المحدثون حذوه. والحقيقة أن المدينـة كانـت لـزمن طويـل الأولى بجبروتهـا بـين مـدن الجزيـرة كلّهـا؛ لكنّهـا فقـدت فيما بعد أهميتها بعد أن خسرت كثيراً من ميزاتها، وتحوّل مجدها إلى مدينتيّ غورتينا وليكتوس. ولكنّ كنوسوس استعادت هيبتها فيما بعد كميتروبوليا. وتقع هـذه المدينـة في سهل يمتدّ محيطه على 30 مرحلة بين منطقتيّ ليكتوس وغورتنيا؛ وتبعـد كنوسـوس عن هـذه الأخيرة 200 مرحلـة، وعـن ليتـوس 120 مرحلـة؛ ويـدعو هـوميروس هـذه الأخيرة ليكتوس[12]. وتبعد كنوسوس عـن البحـر الشـمالي 25 مرحلـة، أمّـا غورتينـا فهـي تبعـد عن البحر الليبي 90 مرحلة، وتبعد ليكتوس عنه 80 مرحلة. ولكنوسوس مرسى سفن، هو هيراقليا.

8- ويقولون، إن مينوس استخدم أمنيس، حيث يقع معبد إيليثيا، مرسـى لسـفنه. وكانت كنوسوس تدعى في الأزمنة الماضية كيراتـوس، وهـو الاسـم عينـه الـذي كـان يحمله النهر الذي يجري بالقرب منهـا. ويقـدّم التـاريخ مينـوس لنـا مشـرّعاً مرموقـاً، وأوّل من فـرض سـيطرته علـى البحـر[13]؛ وقسّـم الجزيـرة إلى ثلاثـة أجـزاء وبنـى في كـلّ جـزء مدينـة؛ وكنوسـوس في [....][14]، ضـدّ البيلويـونيز. وتقـع هـذه المدينـة[15] إلى الشـمال. وحسب إيثور أن مينـوس كـان يحـاكي المـدعو رادامـانثوس القـديم الـذي كـان شخصـاً عادلاً جدّاً وحمل اسم شقيق مينوس عينه؛ ويزعمـون أن رادامـانثوس أوّل مـن حضّـر هـذه الجزيرة، إذ وضـع القـوانين، ووحّـد المـدن كلّهـا تحـت سـلطة ميتروبوليـا واحـدة ومنحهـا معايير الدولة؛ وقد زعم في أثناء ذلك أنه يتلقّـى قراراتـه الـتي يصـدرها كلّهـا مـن زيـوس. ومحاكاة لما كان يفعله رادامانثوس، كـان مينـوس يصـعد إلى الجبـال كـلّ تاسـع عـام إلى كهـف زيـوس، فيمضـي هنـاك بعـض الوقـت ثـمّ يعـود حـاملاً معـه أوامـر وإرشـادات مكتوبة كان يدّعي أنها أوامر وإرشادات زيوس. ولذلك قال هوميروس:

... كان يحكم هناك مينوس

كلّ تاسع عام يحادث زيوس العظيم.

(*الأوذيسا* X، 19)

هذا ما يقوله إيثور. لكنّ الكتّاب القدماء ينقلون معلومات أخرى عن مينـوس، تنـاقض هـذه الكلمـات: لقـد كـان مينـوس حاكمـاً متسـلطاً مسـتبدّاً، اسـتخدم العنـف وفرض الإتاوات على الشعب. وفي غضـون ذلـك عكـس هـؤلاء الكتّـاب في تراجيـديات، قصصاً عن المينوتاوروس واللابيرينتيوم، ومغامرات ثيسيوس وديدادلوس.

9- ومن الصعب أن نجزم كيف كان واقع الحال فعلاً. فهناك حكاية أخرى تتضمن ما يناقض هذه تماماً، إذ يقول بعضهم إن مينوس كان من الغرباء، بينما يقول آخرون، إنه كان واحداً من سكّان الجزيرة الأصليين. ويهيأ لي أن هوميروس يميل أكثر إلى وجهة النظر الثانية عندما يقول:

هو، سيّد الرعد، أنجب مينوس، حارس كريت.

(*الإلياذا* XIII، 451)

وفيما يخصّ كريت، يتّفق الكتّاب كلّهم على أنه كان للجزيرة قديماً قوانين جيّدة، وأن أفضل الإغريق، وفي المقام الأول منهم اللاكيديمونيون، قلّدوهم في هذا الميدان، وهو ما يشهد به أفلاطون في «القوانين»[16]، وكذلك إيثور الذي يصف بناء دولة كريت في بحثه «أوروبا»[17]. ولكنّ القوانين الكريتية تغيّرت فيما بعد تغيّراً كبيراً نحو الأسوأ. وواقع الأمر أنه بعد التيرينيين الذين أنهكوا أكثر من جميعهم بحرنا[18] بغزواتهم، ورث الكريتيون عنهم أعمال القرصنة البحرية. وفيما بعد وضع الكيليكيون حدّاً لعربدتهم هذه. ولكنّ الرومان هزموا جميعهم، فاستولوا على كريت، ودمّروا قلاع القراصنة الكيليكيين. وفي كنوسوس الآن مستوطنة رومانية.

10 - إن ما قلناه عن كنوسوس يكفي. وهذه المدينة ليست غريبة عنّي، مع أن التغيّرات وتقلّبات مصير البشر قطعت التواصل بيننا. فدوريلايوس، أحد «أصدقاء»[19] ميتريدات يفيرجيت، كان رجلاً ماهراً في فنون التكتيك. وبفضل خبرته في المجال العسكري، أرسل ليجندّ المقاتلين المأجورين، وغالباً ما تأتّى له أن يزور اليونان وتراقيا؛ وغالباً ما زار أيضاً المأجورين الكريتيين قبل أن يستولي الرومان على هذه الجزيرة، فقد كانت هناك أعداد مهولة من المقاتلين المأجورين الذين كانت تجندّ منهم عصابات قطّاع الطرق كذلك. وصادف مرّة أثناء وجود دوريلايوس في الجزيرة، أن نشبت الحرب بين الكنوسوسيين والغورتينيين. فاختاروه قائداً عسكرياً، وبعد نصر سريع حققوه، قلّدوه أعلى أوسمة الشرف. وبعد بعض الوقت علم دوريلايوس أن «أصدقاء» يفريجيت دبّروا ضدّه مؤامرة دنيئة وقتلوه غدراً؛ وإذ علم أن السلطة آلت بالوراثة إلى أرملته وأبنائه، عزف في ظل تلك الظروف عن العودة إلى بلاده وبقي في كنوسوس. وأنجب من امرأة من ماكيتيس تدعى ستيروبا، ولديه لاجيتوس وستراتاركوس (وقد تسنّى لي شخصياً أن أرى ستراتاركوس هذا وقد بلغ من العمر عتيّاً)، وابنة واحدة. وكان ليفريجيت والدان؛ ورث العرش منهما المدعو ميتريدات الذي لقّب إيفباتور، منذ أن كان في 11 من عمره. وكان دوريلايوس بن فيليتروس أخاً له بالرضاعة، وكان فيليتروس

هذا شقيق دوريلايوس الذي ذكرناه آنفاً وقلنا إنه كان ضليعاً في فنون التكتيك. ولما غدا الملك ميتريدات رجلاً ناضجاً، ولأنه كان من قبل مرتبطاً بدوريلايوس ارتباطاً وثيقاً بحكم أنهما نشأا وتربيا معاً، لذلك أحاطه بأعظم آيات التكريم، واهتمّ بأقاربه وأمره بأن يستدعي الذين يقيمون منهم في كنوسوس لكي يعودوا إلى أرض آبائهم. وكان هؤلاء أفراد عائلة لاجيتوس وشقيقه الذين بقوا بعد وفاة الأب، وكانوا قد بلغوا سن النضج، فتركوا علاقاتهم وما يملكون في كنوسوس وتوجهوا إلى ميتريدات. لقد كانت ابنة لاجيتوس والدة والدتي. وهكذا عاش أقارب دوريلايوس يظللهم اليسر الذي كان يظلله؛ ولكن بعد سقوطه (فقد اتهم بأنه حاول أن يدفع المملكة إلى العصيان والانتقال إلى جانب الرومان بعد أن تلقّى وعداً بأنه سيكون على رأس الدولة)، سقط معه نفوذهم أيضاً وتراجعت مكانتهم إلى الحضيض. وفقدت أهميتها كذلك علاقتهم التجارية مع سكّان كنوسوس الذين عانوا بدورهم من آلاف التبدلات. هذه هي روايتي عن كنوسوس.

11- وتشغل مدينة الغورتينيين المكانة الثانية من حيث الأهمية بعد كنوسوس، كما أرى. فعندما كانت هاتان المدينتان توحدان جهودهما، كانتا تفرضان سلطتهما على المدن الأخرى كلّها؛ أمّا عندما كانتا تختلفان، فقد كانت الأوضاع تتردّى في الجزيرة كلّها. لقد كانت كيدونيا هي التي تقرر ميزان القوى لصالح الجهة التي تميل إليها. وتقع مدينة الغورتينيين في منطقة سهلية؛ وربّما كانت محاطة في الزمن القديم بسور. يقول هوميروس:

... في غورتينا المحصّنة بالأسوار؛

(*الإلياذا* II، 646)

ولكنّ أسوار المدينة هدمت فيما بعد من أساسها، وبقيت المدينة من غير أسوار إلى الأبد. ومع أن بطليموس فيلوباتور شرع يوماً بإعادة بناء أسوارها، إلاّ أنه لم يتسنّ له أن يبني أكثر من 80 مرحلة[20]. وفي زمن ما شغل الشطر المسكون من المدينة مساحة كبيرة بلغ محيطها ما يقارب 50 مرحلة. وكانت المدينة تبعد عن البحر الليبي عند ليبين (مينائه التجاري) 90 مرحلة. وهناك أيضاً ميناء آخر، هو مالتا، تبعد المدينة عنه 130 مرحلة. ويعبر نهر ليثيوس المدينة كلّها.

12- ومن ليبين ينحدر ليوكوكوم وخليله إيفكسينثيتوس اللذان يروي عنهما ثيوفراست في مؤلّفه «عن الحب»[21]. وبحسب قوله إن واحدة من أصعب المهام التي كلّف بها ليفكوكوم إيفكسينثيتوس تلخصت في الآتي: أن يأتي بكلبه من براس.

وكان البراسيون جيران الليبينيين، فهم يعيشون على بعد 70 مرحلة عن البحر و180 مرحلة عن الغورتنيين. وكما أشرت سابقاً[22]، فإن براس كانت للإيثيوكريتيين، ولذلك كان يقوم هنا معبد زيوس الديكتي. فديكتا تقع غير بعيد عنه، وليس «جبل إيدّا قريباً منه»، كما يقول أراتوس[23]. وحقيقة الأمر أن ديكتا تقع على بعد 1000 مرحلة من إيدّا نحو مطلع الشمس، وتبعد 100 مرحلة عن سامونيوس. وبين ساموتيوس وكيرونيس تقع براس على ارتفاع 60 مرحلة فوق البحر. وقد هدمها سكّان هيرابيتنا ولم يبقوا على أيّ أثر حتّى لأساساتها. ويقول إن كاليماخ جانب الحقيقة إذ روى أن بريتومارتيس الفارّ من ظلم مينوس قفز من ديكتا في شبكة صيد السمك[24]، ولذلك دعاها الكيدونيون ديكتينا، ودعوا الجبل ديكتا. ولكنّ واقع الحال، أن كيدونيا لا تقع على مقربة من هذه الأماكن كلّها، بل تجاور الأطراف الغربية للجزيرة. بيد أن في منطقة كيدونيا جبل يدعى تيتيروس، وفوقه معبد، لكنّه ليس الديكتيوس بل الديكتينيوس.

13- أمّا كيدونيا فهي تقع على البحر وتتّجه نحو لاكونيكا، وتبعد عن كلا المدينتين، كنوسوس وغورتينا ما يقارب 800 مرحلة، وحوالي 80 مرحلة عن أبتيرا، وعن البحر في هذه المنطقة 40 مرحلة. ومرسا أبتيرا، هو كيسام. والجيران الغربيون للكيدونيين، هم البوليرينيون الذين يقع في منطقتهم معبد ديكتينا. ويبعد هؤلاء عن البحر 30 مرحلة، وعن ثالاسارنا 60 مرحلة. وفي الأزمنة السابقة كان هؤلاء يعيشون في قرى، وفيما بعد شكّل الآخيون والداكونيون هناك مستوطنة مشتركة، وبنوا سوراً حول المكان الذي خلقته الطبيعة نفسها حصيناً يتّجه نحو الجنوب.

14- ومن المدن الثلاث التي وحّدها مينوس في ميتروبوليا واحدة، هدم الغورتينيون المدينة الأخيرة منها (وهي مدينة ثيستوس). وتقع ثيستوس على بعد 60 مرحلة عن غورتينا، و20 مرحلة عن البحر، و40 مرحلة عن مرسى ماتالوس. ويمتلك أرض المدينة اليوم الغورتينيون الذين دمّروها. وتعود لهؤلاء الأخيرين أيضاً ريتيوس وثيستوس:

ريتيوس الشاسعة وثيستوس

(الإلياذا II، 648)

وبحسب الرواية أن إيبيمينيدس الذي تطهّر بالشعر، ينحدر من ثيستوس. وبدورها ليسين تقع في منطقة ثيستوس. ومرسى ليكتوس (التي ذكرتها من قبل)[25]، هو كيرونيس، حيث يقع معبد بريتومارتيس. ولكنّ مدينتيّ ميليت وليكاستوس الوارد ذكرهما في «سجلّ السفن»[26] مع ليكتوس، لم يعد لهما الآن وجود؛ فقد استولى

الليكتيون على شطر من أراضيهما، واستولى على الباقي الكنوسوسيون بعد دمار المدينتين.

15- وتبعاً لهوميروس الذي يدعو كريت «ذات المئة مدينة»[27]، وأحياناً «ذات التسعين مدينة»[28]، يفترض إيثور أن الدوريين الذين رافقوا ألثمين الآرغوسي بنوا بعد حرب طروادا عشر مدن إضافية هنا. وعلى حدّ قوله إنه لهذا السبب دعا أوديسيوس الجزيرة «بذات المدن التسعين». وربّما يكون لهذا التعليل مشروعيته؛ بيد أن آخرين يؤكّدون أن أعداء إيدومينوس دمّروا هذه المدن العشر. ومع ذلك فإن هوميروس لا يقول: إنه كان في كريت مئة مدينة في زمن حرب طروادا، بل في زمنه هو على أرجح تقدير (فهو يتحدّث بصيغة المتكلّم، ولكن حتّى لو كانت هذه الكلمات لواحد من معاصريّ حرب طروادا، كما في «الأوذيسا»، حيث يدعو أوديسيوس الجزيرة «بذات المدن التسعين»، فإن هذا التأويل كان صحيحاً تماماً). ومن جهة أخرى، حتّى لو قبلنا هذا الزعم[29]، فإن ما يليه[30] لا يمكن تبريره. فليس من المعقول أن يدمّر أعداء إيدومينوس هذه المدن العشر مثلاً أثناء حملة أو بعد عودته من تحت أسوار طروادا. ولو كان الأمر على هذا النحو لكان هوميروس ذكّر بهذا الحدث عندما قال:

إيدومينوس (الذي لم يفقد في البحر أيّ رفيق من
الذين نجوا من الحرب معه) بلغ كريت،

(*الأوذيسا* III، 191)

وغنيّ عن البيان القول، إن أوديسيوس لم يكن قد علم بعد بدمار هذه المدن، لأنه لم يلتق أيّ إغريقي أثناء ترحاله، ولا فيما بعد؛ كما أن نسطور الذي حارب مع إيدومينوس سوية، ووفّق بالعودة إلى وطنه بسلام، لم يعرف شيئاً عمّا حدث في بلاد إيدومينوس خلال الحملة، أو لدى عودته من تحت أسوار طروادا، بل حتّى بعد عودته أيضاً. والحقيقة، إذا كان إيدومينوس قد نجا مع رفاقه كلّهم، فهذا يعني أنه عاد قوياً، على الأرجح بما يكفي لكي يمنع أعداءه من الاستيلاء على مدنه العشر هذه. إن هذا وصفي لمدن الكريتيين.

16- وفيما يخصّ بناء الدولة عند الكريتيين، الذي وصفه إيثور، فيكفي أن نقدّم هنا عرضاً سريعاً عنه. فحسب ما يقوله إيثور، يبدو أن المشرّع الكريتي انطلق من موضوعة رئيسة، هي أن الحرية، هي الخير الأسمى بالنسبة للدولة. لأنّ الحرّية وحدها تجعل الخيرات ملكية لأولئك الذين اكتسبوها، بينما الخيرات التي اكتسبت بالعبودية تبقى ملكاً للحكّام وليس للمحكومين. إن على الذين يتمتّعون بالحرية أن

يدافعوا عنها وألاّ يفرّطوا بها أبداً. ثمّ إن الوفاق لا يظهر إلاّ هناك حيث يجري استبعاد النزاعات التي تنتجها الأنانية والبذخ. والواقع أنه إذا ما عاش المواطنون باعتدال وبساطة، فلن يكون لديهم مكان للحسد أو الغطرسة، أو الكره تجاه الآخرين المساوين لهم. ولذلك أقرّ المشرّع أن يجتمع الفتيان فيما دعوها «فرقاً»[31]، والرجال في ولائم عامّة مشتركة (دعوها آندرييات) لكي يتمكن الفقراء الذين يأكلون على حساب المجتمع من أن ينالوا نصيباً متساوياً مع ما يناله الأثرياء. ولكي ينشأ الفتيان شجعاناً غير هيّابين، كانوا يدرّبونهم منذ نعومة أظفارهم على التعامل مع السلاح، والاعتياد على الأعمال الشاقة، لكي يعتادوا على ازدراء الحرّ والبرد، وتجاوز الطرقات الصخرية والمنحدرات الوعرة، وتحمّل الضربات أثناء الألعاب وفي المعارك القتالية. ولم يتدرّبوا على الرمي من القوس فقط، بل كانوا يتدرّبون على تأدية الرقصة القتالية (التي علّمها الكوريتيون، ثمّ نظّمها بعد ذلك الشخص الذي دعيت هذه الرقصة باسمه: بيرّيخا)[32]، وهكذا نرى أنه حتّى الألعاب عندهم لم تكن خالية من التمارين القتالية. وعلى نحو مماثل، كان ينبغي أن يستفاد في الأغاني من الإيقاعات الكريتية القتالية التي ابتكرها فاليس؛ وإلى هذا الأخير نسب الكريتيون تأليف البيبانات وسواها من الأغاني المحلّية الأخرى، كما نسبوا إليه أيضاً تكريس كثير من العادات. لقد كانوا ملزمين أن يرتدوا الرداء الحربي والحذاء الحربي، وأثمن الهدايا عندهم، هو السلاح.

17- وهناك من يزعم، على حدّ قول إيثور، إن أكثر العادات التي تعدّ كريتية، هي من منشأ لاكونيّ. لكنّ حقيقة الأمر، هي أن الكريتيين هم فعلاً أوّل من كرّسها، وأن الإسبرطيين هذّبوها وحسّنوها. وعندما تعرّضت المدن الكريتية، خاصة مدينة الكنوسوسيين للنهب والتخريب، ابتعد سكّانها عن العمل العسكري. وقد حافظ الليكتيون والغورتينيون وبعض المدن الصغيرة الأخرى، على القواعد والإرشادات الكنوسوسية، بشكل أفضل مما فعله هؤلاء أنفسهم. فمن يريد أن يثبت أن العادات اللاكونية هي الأقدم فعلاً، يسوق العادات الليكتية برهاناً على صحّة زعمه هذا. لأنّ الليكتيين بصفتهم مستعمرين حافظوا، كا يؤكّد هؤلاء، على عادات الميتروبوليا. وعلى وجه العموم فإنه من السذاجة تماماً أن نصف الذين لديهم أفضل القواعد والإرشادات، وأفضل بناء للدولة بأنهم يقلّدون أسوأ المؤسّسات. ولكنّ إيثور يقول، إن هذا الزعم زعم خاطئ، لأنه لا يجوز أن نسقط واقع الأشياء القائم اليوم على ما كان قائماً في الزمن القديم، وإلاّ فإن هذا وذاك ينقلب كلّ منهما إلى نقيضه. ففي الأزمنة القديمة مثلاً، ساد الكريتيون على البحر؛ بل شاع في هذا السياق مثل عن

الذين يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً عمّا هو معروف لهم فعلاً، يقول: «لا يعرف الكريتي البحر». بيد أنهم تركوا الأعمال البحرية اليوم. ومن جهة أخرى، أن تكون بعض المدن في كريت مستعمرات إسبرطية، فإن هذا لا يعني أنها كانت ملزمة أن تحافظ على العادات الإسبرطية. فكثير من المستعمرات لا يحافظ البتة على العادات الوطنية، وكثير من مدن كريت ليست مستعمرات إسبرطية، ولكنّ لها مع ذلك عادات وأعرافاً واحدة مشتركة معها.

18- ثمّ يروي إيثور بعد ذلك، أن المشرّع الإسبرطي ليكورغوس كان أصغر بخمسة أجيال من ألثمين الذي أنشأ مستعمرة في كريت. ويروي المؤرّخون أن ألثمين كان ابن كيسوس الذي أسّس آرغوس تقريباً في الوقت الذي شرع فيه بروكليس يستوطن إسبرطا من جديد؛ وكان ليكورغوس بحسب اعتراف جميعهم، الحفيد السادس لبروكليس. ومن المعروف أن النّسخ لا تكون قبل الأصول، كما لا يكون الجديد قبل القديم. فالرقصة التي كانت من عادات اللاكيديمونيين، ومثلها الإيقاعات والبيبانات التي أقرّ القانون تأديتها كلّها، إضافة إلى عادات وأعراف أخرى كثيرة كانت تدعى عندهم كريتية، كما لو أنها نشأت في كريت. وثمّة بين مناصب الدولة العليا مناصب لها الإدارات عينها والتسميات عينها التي كانت لها في كريت، كمناصب «الشيوخ»[33] و«الفرسان»[34] مثلاً (إلاّ أنّ «فرسان» كريت كانوا يمتلكون جياداً فعلاً؛ ومن هنا يستنتجون أن منصب «فارس» في كريت هو الأقدم لأنه حافظ هناك على الأهمية الحقيقية لتسميته؛ أمّا «فرسان» إسبرطا فلم يكن لديهم جياد). ولكنّ الإيفوروس الإسبرطيين كانوا يحملون لقباً مختلفاً، مع أنهم كانوا يؤدّون الوظائف نفسها التي كان يؤدّيها الكوسمي الإسبرطيون. ولا تزال الولائم المشتركة تدعى عند الكريتيين حتّى اليوم «آندريات»، أمّا عند الإسبرطيين فلم يبق اسمها الأول. وعلى أيّ حال فإننا نجد عند ألكمان ما يلي:

من المعتاد في الولائم والاحتفالات أن
ينشد المشاركون في الآندريات الأناشيد

(*مقطع 22، بيرغك*)

19- ويواصل إيثور روايته فيقول، إن الكريتيين يقولون، إن ليكورغوس جاء إليهم للسبب التالي. لقد كان لليكورغوس أخ أكبر يدعى بوليديكتس. وقد توفى هذا تاركاً وراءه زوجة حاملاً. فشغل ليكورغوس عرش أخيه لبعض الوقت، ولكن بعد ولادة الطفل الذي كان يجب أن يؤول العرش له، شغل ليكورغوس مكانة الوصي

علـى ولـي العهـد. ومـرّة قـال أحـدهم سـاخراً مـن ليكورغـوس، إنـه يعـرف جيـداً أن ليكورغوس سيكون ملكاً في يوم ما. عندئذٍ فكّر هذا الأخير أنه قد يتهم باطلاً بسبب مثل هذه الأقوال بأنه يضمر الشرّ للطفل؛ وبسبب خوفه من أن يحمّله أعداؤه المسؤولية إذا مات الطفل مصادفة أو لأيّ سبب كان، ترك البلاد ومضى إلى كريت. ويقولون، إن هذا هو سبب رحلة ليكورغوس. ولمّا وصل إلى كريت اقترب من فاليس، الشّاعر الميليتي الذي كان ضليعاً في التشريع. وقد أخذ ليكورغوس عن هذا الأخير النهج الذي كان قد اتبعه رادامانثوس، وبعده مينوس لنشر قوانينهما بين الناس، مدّعييْن أنها جاءتهما من زيوس. وزار ليكورغوس مصر، فدرس العادات المحلّية، ويقول بعضهم إنه التقى هوميروس الذي كان يعيش عندئذٍ في كيوس، وبعد هذا كلّه عاد ليكورغوس إلى وطنه. وهنا وجد على العرش، كاريلايوس ابن أخيه بوليديكتس، ثمّ شرع بوضع قوانينه، فزار إله دلفي وحمل من هناك تعليماته (كما كان مينوس قد حمل يوماً قوانينه من كهف زيوس)، التي يشبه أكثرها قوانين مينوس.

20- وبحسب إيثور إن أهمّ العادات الكريتية على وجه الخصوص هي الآتية: يرغم الكريتيون كلّ الشبّان الذين يُستبعدون من «فريق» الفتيان، على الزواج في وقت واحد؛ إلاّ أنهم لا يأتون بالفتيات إلى منازلهم مباشرة، إنّما بعد أن تغدو الفتاة الزوجة مؤهّلة لإدارة شؤون المنزل. وإذا كان للفتاة أخوة، فإن مهرها يعادل نصف نصيب أخيها. ويتعلّم الأطفال القراءة والكتابة، وكذلك الأناشيد التي أقرّ القانون تعليمها لهم، إضافة إلى بعض أنواع الموسيقا. ويقودون الأصغر سنّاً إلى الولائم المشتركة: «الآندريات». وهناك يتناولون الطعام مع الآخرين وهم جلوس على الأرض مرتدين الأردية الخشنة الرثّة نفسها صيفاً شتاء، ويقومون على خدمة الرجال الأكبر سناً وخدمة أنفسهم. ويفتعل المشاركون في المأدبة المشتركة نفسها عراكاً بعضهم مع بعض، وكذلك مع المشاركين في المآدب الأخرى. ويقف على رأس كلّ «آندريا» شخص يدعى بيدونوم[35]. ويوزّعون الفتيان الأكبر سنّاً على «فرق». ويجنّد هذه «الفرق» شبّان أعرق العائلات وأكثرهم نفوذاً، وكلّ منهم يجنّد قدر ما يستطيع. وفي غالب الأحيان يكون والد الشاب الذي جنّد الفتيان في فرقته، هو قائد الفرقة؛ وله الحق في أن يقودهم إلى الصيد، ومباريات السباق، ومعاقبة العصاة منهم. ويعيش هؤلاء على نفقة المجتمع. وفي أيام محدّدة تنطلق «الفرقة» بخطوة عسكرية موقّعة لتلتحم مع «فرقة» أخرى التحاماً قتالياً على وقع أصوات المزاهر والمزامير، كما يحدث وقت الحرب عادة، وهم في أثناء ذلك لا يسدد واحدهم للآخر لكمات بالأيدي فقط، بل ضربات بأسلحة حديدية[36].

21- وعنـد الكـريتيين عـادة فريـدة بالنسـبة للحـب. فهـم لا يحـوزون المعشـوق بالإقناع، بل يخطفونه. ويخبر العشيق أصدقاءه قبل ثلاثة أيام أو أكثر، أنـه ينـوي القيـام بعملية خطف. ومن العار على الأصدقاء أن يخفوا الفتى أو لا يسـمحوا لـه أن يسير علـى طريق محدّدة، لأنّ هذا يعني في عرفهم أن الفتى لا يستحقّ العشيق المعني. وإذا تبيّن أثناء اللقاء أن الخاطف يعدّ نظيراً للفتـى، أو حتّـى إذا كـان ينتمـي إلى فئـة اجتماعيـة أعلـى، عندئذٍ يلاحق الأصدقاء الخاطف ويوقفونه، ولكنّهم لا يلجؤون في أثنـاء ذلـك إلى كـثير مـن العنـف، إنّمـا يـؤدّون للعـادة حقّهـا وحسـب؛ وعلـى أيّ حـال يجيـز الأصـدقاء بعـد ذلـك اقتيـاد الفتـى. أمّـا إذا كـان الخـاطف لا يسـتحق، فـإنهم ينتزعـون منـه الفتـى. ولكـنّ الملاحقة تتوقف عندما يقودون الفتى إلى «آنـدريا» الخـاطف. والفتـى الـذي يسـتحق الحـب عندهم لـيس الفتـى الـذي يتميّـز بجمالـه الفيزيـائي، إنّمـا الـذي يتميّـز بالشـجاعة وحسـن الخلق. وبعـد أن يقـدّم الخـاطف الهدايا للفتـى، يقـوده إلى أي مكـان في الـبلاد. ويتبعهمـا الأشـخاص الـذين شـاركوا في عمليـة الخطـف؛ وبعـد ضـيافة شـهرين، ورحـلات صـيد مشتركة (لأنه لم يكـن مسموحاً احتجاز الفتى مدّة أطول)، يعـودون إلى المدينـة. فيطلـق الفتى محمّلاً بالهدايا التي كانت تتألّف من معدّات قتالية، وثور، وكـأس (وهـي الهـدايا الـتي أقـرّ القـانون تقـديمها)، وأشـياء أخـرى كـثيرة وثمينـة إلى درجـة أن نفقاتهـا تجعـل الأصدقاء يساهمون في تسديدها. فيقدّم الفتى الثور ذبيحـة لزيـوس، ويـولم للـذين عـادوا معهم جميعهم. ثمّ يروي لهم عن تواصله مع العاشق، وهل هو راض عن سلوك هذا الأخير أم لا، فالقانون كان يجيز له أن يتركه في حـال كـان هـذا قـد اسـتخدم معـه العنـف أو الخطف أثناء الاحتفال بهذا العيد. لقد كـان من العـار بالنسـبة للشـاب الجميـل المنظـر أو الذي ينتمي إلى سـلالة أرستقراطية، ألاّ يجد لنفسه عشيقاً، لأنّ ذلك كـان يعـدّ مؤشـراً علـى طبْـع رديء. وينـال parastathentes[37] (هـكـذا كـانوا يـدعون المخطـوفين) حقوقـاً تشـريفية: أثنـاء الرقصـات الجماعيـة ومباريـات السـباق، كـانوا يقـدّمون لهـم أكـثـر الأمـاكن تشـريفاً، ويجيـزون لهـم ارتـداء ملابـس خاصـة تميّـزهم عـن الآخـرين، وهـي الملابس التي أهداها لهم عشّاقهم؛ وحتّى بعد أن يبلـغ واحـدهم سـنّ النضـج كـان يرتـدي مـلابـس مميّـزة يعرفـون بهـا كـلّ مـن كـان kleinos[38]، فهـم دعـوا العشـيق kleinos، والعاشق philetor[39]. هذه كانت عادات الكـريتيين في شؤون العشق.

22- وينتخـب الكـريتيـون عشـر أرخونتـات. ويلجـؤون في الأمـور الـتي لهـا أهميـة خاصـة، إلى مشـورة مستشـارين يـدعونهم هيرونـتس. وفي مجلس الهيرونـتس هـؤلاء يطلـق لقب «كـوسمي» على الأفراد الذين يستحقونه، وعلى الذين يعدّونهم ذوي خبرات وتجربة

على وجه العموم. وأنا رأيت أن بناء الدولة الكريتية يستحق الوصف لفرادته وشهرته. ولكن لم يبق من هذه العادات والأعراف كلّها حتّى أيامنا هذه سوى القليل، وفي أغلب الحالات يتّبعون في إدارة شؤون الدولة الكريتية إرشادات المراسيم الرومانية، كما هي الحال في باقي الولايات الرومانية.

الفصل الخامس

1- وتقع على مقربة من كريت جزيرة ثيرا، وهي مستعمرة اللاكيديمونيين وميتروبوليا القورينائيين؛ وعلى مقربة من ثيرا تقع جزيرة أناثا التي يقع فيها معبد أبوللون الإيغليتي. وفي مكان ما يذكرها كاليماخ على النحو الآتي:

إيغليتوس أناثا مع ثيرا اللاكونية المجاورة،

(*مقطع* 113، *شنيدر*)

وفي مكان آخر لا يذكر سوى ثيرا.

الشهيرة بالجياد، وطني الأم.

(*مقطع* 112، *شنيدر*)

وثيرا جزيرة طويلة يبلغ امتداد محيطها 200 مرحلة؛ وهي تقع قبالة جزيرة ديا الواقعة عند هيراقليا الكنوسوسية، على بعد 700 مرحلة من كريت. وبالقرب من ثيرا تقع أناثا وفيراسا. وعلى بعد 100 مرحلة من هذه الأخيرة تقع جزيرة صغيرة هي جزيرة إيوس التي يقول بعضهم إن هوميروس دفن فيها. وإلى الغرب من إيوس تقع جزيرة سيكين، ولاغوسا، وفوليغاندرس التي يدعوها أراتوس «الحديدية» بسبب وعورتها. وبالقرب منها تقع كيمولوس ومن هنا جاء مصطلح «التربة الكيموليتية»[1]. ومن كيمولوس يمكن رؤية سيفنوس، وبسبب ضآلتها ذهبت هذه الجزيرة مثلاً يقول: «حجر النرد السيفنيسي»[2]. وأقرب إلى كيمولوس وكريت تقع ميلوس، وهي جزيرة أكثر أهمية من هذه الجزر، وتبعد 700 مرحلة عن رأس هيرميون سكيلوس البحرية، والمسافة نفسها تقريباً تفصلها عن ديكتينيوس. ومرّة أرسل الأثينيون جيشاً إلى هذه الجزيرة وأبادوا أكثر سكّانها القادرين على حمل السلاح[3]. إن هذه الجزر تقع في البحر الكريتي، أمّا ديلوس نفسها، وجزر كيكلادا الواقعة حولها، وكذلك جزر سبورادا (التي تدخل في عدادها الجزر التي ذكرنا أنها تقع على مقربة من كريت)، فإنها تقع على الأرجح في بحر إيجة.

2- وفي ديلوس مدينة تحمل الاسم عينه، وهي تقع مثلها مثل معبد أبوللون ومعبد

لاتونا، في سهل منبسط؛ ويعلو فوق المدينة جبل كينثوس الصخري الأقرع؛ ويجري عبر الجزيرة نهر صغير يدعى إينوبس، وحتّى الجزيرة نفسها جزيرة صغيرة. ومنذ القدم، منذ الزمن البطولي كانت ديلوس تحظى بالاحترام بفضل الآلهة الذين ذكرناهم، فالأسطورة تروي أن لاتونا تفادت آلام المخاض إذ ولدت هناك أبوللون وأرطميس.

في زمن ما هامت ديلوس في البحر،

يقول بينداروس[4]،

الأمواج تخضع وكلّ ريح للعصف تخضع،

لكن عندما أضنت آلام الولادة ابنة كيوس حتّى الجنون،

ولامست قدماها شطآنه،

ارتفعت في اللحظة عينها أربعة أعمدة،

من جذورها في الأرض على قاعدة فولاذية،

وعلى رؤوسها حملت جلموداً مهولاً.

هنا غدت أُمّـاً، وأبصرت ذريتها الطيّبة.

لقد أضفت جزر كيكلادا المجاورة على ديلوس مجداً ذائعاً، لأنّ هذه الجزر كانت ترسل على شرفها سفارات مقدّسة تمثل الدولة، وكان هؤلاء السفراء يقدّمون الذبائح ويعدّون فرقاً من الفتيات، ويقيمون في الجزيرة احتفالات شعبية كبيرة[5].

3- وفي الأوّل كانت الجزر الكيكلادية تعدّ 12 جزيرة، ثمّ انضمّ إليها بعد ذلك عدد آخر من الجزر. وفي الأحوال كلّها فإن أرتيميدور يعدّ 15 جزيرة، مذكّراً بأن جزيرة يلينا تمتدّ على ما يقارب 60 مرحلة طولاً بموازاة ساحل أتيكا من ثوريكس حتّى سونيوس. وحسب قوله إن جزر كيكلادا تبدأ من هذه الجزيرة. ويقول، إن كيوس أقرب جزيرة إلى جزيرة يلينا، تليها كيفنوس، وسيريفوس، وميلوس، وسيفنوس، وكيمولوس، وبريبيسينتوس، أوليـاروس، وإضافة إلى هذه هناك أيضاً باروس، وناكسوس، وسيروس، وميكونوس، وتينوس، وآندروس، وهياروس. وأنا أرى أن الجزر الأخرى كلّها ما عدا بريبيسينثوس وأولياروس، وهياروس، هي من ضمن الجزر الاثنتي عشرة. فعندما رست سفينتنا على ساحل واحدة من هذه الجزر، وكانت هذه جزيرة هياروس تحديداً، لم أر هناك سوى قرية صغيرة لصيادي الأسماك. وعندما أبحرنا من هناك أبحر معنا على السفينة أحد الصيادين المحلّيين الذي أعدّه مرسله وجهّزه لقيصر (كان قيصر توقف في كورينثوس وهو في طريقه إلى روما للاحتفال بانتصاره في أكيتوم). وفي أثناء الإبحار أجاب هذا على أسئلة الآخرين قائلاً، إنه مرسل

إلى قيصر ليطلب تسهيلات في تأدية الإتاوة. فقد قال، إنه ينبغي عليهم أن يدفعوا 150 دراخما، لكن بالكاد تمكنوا من دفع 100 دراخما. وأراتوس أيضاً أشار في «أشعاره الصغيرة»[6] إلى فقر هؤلاء:

آهٍ أيتها الإلهة لاتونا، يا شبيهة فوليغاندرس الحديدية،

أنت تعبرين على مقربة منّي، كهياروس البائسة.

4- ومع أن ديلوس باتت على هذا النحو جزيرة شهيرة، ولكن مع تدمير الرومان لكورينثوس[7]، زادت شهرتها أكثر. فتجار البحر اتّجهوا إليها، وقد جذبهم إلى هناك الإعفاء من الضرائب والإتاوات، الذي منح للمعبد، إضافة إلى أنّ ميناءها كانت ملائمة. وحقيقة الأمر، هي أن الجزيرة كانت تحظى بموقع مميّز بالنسبة للمبحرين من إيطاليا أو اليونان إلى آسيا. والاحتفال الشعبي، هو شيء ما يشبه النشاط التجاري، وكان الرومان يرتادونه أكثر من أي شعب آخر[8]، حتّى عندما كانت كورينثوس لا تزال على قيد الحياة بعد. وبعد أن استولى الأثينيون على الجزيرة، أخذوا يظهرون اهتماماً بالغاً إن بالتجار أو الطقوس الدينية على حدّ سواء. ولكن حينما جاء إلى ديلوس قادة قوات ميتريدات والتيران[9] الذي دفعها إلى الانتفاضة، نهبوها وخرّبوها تماماً؛ وبعد أن عاد الملك إلى بلاده، وأعاد الرومان سيطرتهم على الجزيرة من جديد، غدت هذه الأخيرة خالية من السكّان. وحتّى يومنا هذا لا تزال ديلوس في حالة مزرية. وهي الآن ملك للأثينيين.

5- رينيا. هي جزيرة صغيرة خاوية تقع على مسافة 4 مراحل من ديلوس، حيث النصب التذكاري للديلوسيين المتوفّين. فقد كان محرّماً أن يدفن أو يحرق جثمان أيّ ميت في ديلوس نفسها، كما كان محرماً تحريماً صارماً اقتناء أيّ كلب فيها[10]. وكانت ديلوس تدعى في الأزمنة السابقة أورتيغيا.

6- وكانت كيوس في زمن ما ذات أربع مدن؛ ولم يبق فيها الآن سوى مدينتين، هما يوليدا وكارثيا، إذ نزح إليهما سكّان المدينتين الأخريين: سكّان بييسّا إلى كارثيا، وسكّان كوريسيا إلى يوليدا. ومن يوليدا ينحدر الشّاعر المليتي سيمونيدس وابن أخيه باخوليدس، وفي الأزمنة المتأخرة، الطبيب إيراسيستراتوس والفيلسوف المشّائي أريستون نصير بيون البوريسفيني. ويُعتقد أنه كان لدى سكّان يوليدا في زمن ما، قانون يذكره ميناندرس أيضاً:

بين الكيوسيين عرف رائع سنّه فانيوس؛

ينبغي ألاّ يعيش عيشة سيّئة ذلك الذي لا يعيش عيشة جيّدة.

(*كيورتيه- تيرفيلدر* II، 797)

ويبدو أن هذا القانون قضى بوجوب أن يتجرّع السمّ كلّ عجوز تجاوز الستين من عمره، كي يبقى للآخرين ما يكفي من القوت. ويروى أن الأثينيين حاصروا الجزيرة يوماً، فقرر سكّانها قتل كبار السنّ منهم، عندئذٍ رفع الأثينيون الحصار. وتقع يوليدا على مرتفع يبعد ما يقارب 25 مرحلة عن البحر. ويقع مرساها في المكان الذي تقع فيه كوريسيا التي لا يبلغ عدد سكّانها الآن عدد سكّان قرية صغيرة. وغير بعيد عن كوريسيا وعن بييسّا يقع معبد أبوللون السمينثيسي. وبين هذا المعبد وأطلال بييسّا يقوم معبد أثينا النيدوسية الذي بناه نسطور بعد عودته من تحت أسوار طروادا. ويوجد هنا أيضاً نهر إيليكس الذي يجري حول كوريسيا.

7- وتأتي بعد كيوس ثلاث جزر مهمّة، هي ناكسوس، وآندروس، وباروس. وإلى باروس ينتمي الشّاعر أرخيلوخ. وقد أسّس الباروسيون فاسوس وباري، وهي مدينة في البروبونتيدا. ويقولون، إن في هذه المدينة مذبح شهير، لأنّ طول كلّ ضلع من أضلاعه مرحلة كاملة. ويوجد في باروس الحجر الذي يدعى «حجر باروس»، وهو أفضل منحوتة من حجر المرمر.

8- سيروس (المقطع الأول من هذه الكلمة ممدود)، إليها ينتمي ثيريكيدس ابن بابيوس (لقد عاش ثيريكيدس الأثيني في زمن لاحق). وكان هوميروس قد ذكر هذه الجزيرة باسم سيرا:

هناك جزيرة اسمها سيرا

فوق أورتيغيا.

(*الأوذيسا* XV، 403)

9- ميكونوس، هي الجزيرة التي تقول الأسطورة، إن آخر العمالقة الذين قضى هرقل عليهم، مدفونين تحتها. ومن هنا شاع المثل القائل: «كلّهم تحت ميكونوس واحدة»، والمقصود بذلك أولئك الذين يجمعون أشياء ذات طبيعة متباينة تحت عنوان واحد. ويدعو بعضهم الميكونوسيين بالصلعان، لأنّ هذه الظاهرة منتشرة على هذه الجزيرة انتشاراً واسعاً.

10- سيريفوس، هي الجزيرة التي يوافقون معها المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة ديكتوس. فقد رفع ديكتوس بشباكه صندوقاً كان في داخله برسيوس ووالدته دانايا اللذان رمى بهما والد دانايا، أكريسوس إلى البحر. ويقال إن برسيوس قد تربّى ونشأ هنا؛ ولمّا جاء برأس الغورغونا إلى هنا وأراه للسيريفوسيين، تحوّل هؤلاء كلّهم إلى حجارة. وقد فعل برسيوس ما فعله انتقاماً لوالدته، لأنّ ملك الجزيرة أراد أن

يتزوّجها عنوة، وقدم السيريفوسيون له العون في سعيه. وهكذا باتت الجزيرة صخرية، إلى حدّ قال فيه الشعراء الكوميديون، إن غورغونا نفسها التي فعلت بها ما فعلت.

11- أمّا تينوس فليس فيها مدينة كبيرة، لكنّ فيها معبداً كبيراً شهيراً لبوسيدونيوس يقوم على أرض مقدّسة تقع خارج المدينة. وقد شيدت هنا قاعات طعام واسعة جداً، الأمر الذي يشير إلى تدفّق أعداد كبيرة من الناس كانت تأتي من شتّى الأماكن المجاورة لتحتفل بالبوسيدونيا مع السكّان المحلّيين.

12- ومن جزر سبورادا جزيرة أمورغوس، موطن الشّاعر اليامبي سيمونيدس، وكذلك جزيرة ليبينث وليروس

هكذا يقول ثوكيديدس: الناس كلّهم حمقى،
ما عدا بروكليس، فبروكليس ليروسيّ أيضاً.

(*مقطع* I. *بيرغك*)

والحقيقة أن سكّان الجزيرة اتّهموا بمقاصدهم الشريرة.

13- وعلى مقربة تقع باتموس والجزر الكوراسية. وتقع هذه إلى الغرب من إيكاريا، وهذه الأخيرة إلى الغرب من ساموس. وإيكاريا جزيرة غير مسكونة؛ لكنّ فيها مراعي يستخدمها الساموسيون. وبصرف النظر عن خاصياتها هذه، فالجزيرة معروفة، فقد أُطلق اسمها على البحر المجاور لها والذي تقع فيه أيضاً ساموس وكوسوس، إضافة إلى الجزر الكوراسية التي ذكرناها قبل قليل، وكذلك جزيرة باتموس وجزيرة ليروس. ويُشتهر فيها جبل كيركيتيوس، فهو أكثر شهرة من مدينة آمبيل. وتقع هذه الأخيرة إلى الأعلى من مدينة الساموسيين. ويتّصل البحر الإيكاري في الجنوب بالبحر الكارباثي، ويتّصل هذا الأخير بدوره، بالبحر المصري، أمّا في الغرب فيتّصل البحر الإيكاري بالبحر الكريتي والبحر الليبي.

14- وتقع في البحر الكارباثي أيضاً كثرة من الجزر السبورادية، خاصة بين كوسوس، ورودوس، وكريت. ومن هذه الجزر، إستيباليا، وتيلوس، وخاليكا، والجزر التي ذكرها هوميروس في «سجلّ السفن»:

الرجال الذين يعيشون في نيسيروس، القاطنون كاسوس وكارباثوس،
ومدينة اليفريبيليين كووس، وشعب الجزر الكاليدنية.

(*الإلياذا* II، 667)

وأنا أضمّ إلى جزر سبورادا الجزر الأخرى كلّها ما عدا كوسوس ورودوس (اللتين سأتحدّث عنهما أدناه)[11]؛ وأنا أذكّر بهما هنا (مع أنهما لا تقعان قرب أوروبا،

بل قرب آسيا)، لأنني أسعى في وصفي هذا إلى أن أوحّد بشكل ما، سبورادا مع كريت وكيكلادا. لكنّني لدى وصفي لآسيا سأضيف وصف الجزر الشهيرة المجاورة لها، كقبرص، ورودوس، وكوسوس، وكيوس، ولسبوس، وتينيدوس. وها أنا انتقل الآن إلى النظر في باقي جزر سبورادا التي تستحقّ الذكر.

15- إستيباليا. تقع بعيداً في عرض البحر؛ وفيها مدينة. تيلوس. تمتدّ على طول منطقة كنيدس؛ وهذه الجزيرة جزيرة طويلة مرتفعة وقليلة العرض، امتداد محيطها 140 مرحلة؛ وفيها مرسى للسفن. خالكيا. تقع على بعد 80 مرحلة من تيلوس، و400 مرحلة من كارباثوس، أمّا عن استيباليا فهي تبعد ضعف هذه المسافة تقريباً. وفي خالكيا قرية تحمل الاسم عينه فيها معبد لأبوللون ومرسى للسفن.

16- وتقع نيسيروس إلى الشمال من تيلوس على مسافة تقارب 60 مرحلة، وهي تبعد المسافة نفسها عن كوسوس. ونيسيروس جزيرة بيضوية الشكل، مرتفعة وصخرية، وغنية بحجارة الرحى. وعلى أيّ حال فإن جيرانها يحصلون منها على وفرة من هذه الحجارة. وفي الجزيرة مدينة تحمل اسم الجزيرة نفسه فيها مرسى للسفن، وينابيع مياه حارّة، ومعبد لبوسيدون. ويبلغ محيط الجزيرة 80 مرحلة. وتقع بالقرب منها جزر صغيرة تدعى جزر النيسيريين. ويقولون، إن نيسيروس كسرة من كوسوس. ويسوقون أسطورة تقول، إن بوسيدون وهو يطارد العملاق بوليبوت كسر بحربته الثلاثية كسرة من كوسوس ورمى العملاق بها. وقد تحوّلت الكسرة إلى جزيرة نيسيروس التي يستلقي العملاق تحتها. وعلى أيّ حال هناك من يقول، إن العملاق يستلقي تحت جزيرة كوسوس.

17- أمّا كارباثوس (يدعوها هوميروس كراباثوس)، فهي جزيرة مرتفعة امتداد محيطها 200 مرحلة. وكان فيها في زمن ما أربع مدن، كما كانت جزيرة ذائعة الصيت. فقد دعوا باسمها بحراً، هو البحر الكارباثي. وكانت إحدى مدنها تدعى نيسيروس، وهي سميّة جزيرة النسيريّين. وتقع كارباثوس قبالة ليفكي آكتي التي في ليبيا، وتقع هذه على بعد 1000 مرحلة من الإسكندرية تقريباً، وما يقارب 4000 مرحلة من كارباثوس.

18- وتقع كاسوس على بعد 70 مرحلة من هناك، و250 مرحلة عن رأس سامونوس الواقعة في كريت. ويبلغ امتداد محيطها 80 مرحلة. وفيها مدينة تحمل الاسم نفسه، وتنتشر حولها عدة جزر تدعى جزر الكاسوسيين.

19- ويقال إن هوميروس يدعو سبورادا جزر الكاليدنيين، وإحدى هذه

الأخيرة، جزيرة كاليمنا. ومن الواضح أنه كما أن الجزر المجاورة للنيسيريين والكاسوسيين والخاضعة لحكمهم، دعيت باسم هؤلاء، كذلك الجزر الواقعة قرب كاليمنا دعيت جزر الكاليمنيين؛ وربّما كانت كاليمنا تدعى عندئذٍ كاليدنا. لكنّ بعضهم يزعم أنه ليس هناك سوى جزيرتين كاليدنيتيْن، هما ليروس وكاليمنا اللتان ذكرهما هوميروس. ويقول ديميتري السكيبسيسي، إن اسم الجزيرة استخدم بصيغة الجمع كاسم أثينا وطيبة؛ بيد أنه ينبغي بحسب رأيه، فهم كلمات هوميروس على أنها خلل في ترتيب الصيغة. فهوميروس لم يكن يريد أن يقول: جزر الكاليدنيين، بل:

الرجال الذين يعيشون في نيسيروس، القاطنين كاسوس وكارباثوس،

مدينة اليفريبيليين كووس، وشعب الجزر الكاليدنية.

إن أكثر نحاس هذه الجزر ذو نوعية عالية، ويمكن مقارنته بنحاس أتيكا، لكنّ النحاس الذي يستخرج من هذه الجزر فريد بجودته، خاصة النحاس الكاليمني.



الهــوامش

الكتــاب الأول

الفصل الأول

1- لقد حلّ مصطلح «جغرافيا» الذي أدخله علماء الإسكندرية ميدان التداول العلمي، محلّ المصطلح المبكر «gēs perjodos» (ومعناه الحرفي: «الطواف في الأرض») وهو المصطلح الذي أدخله أناكسيماندرس وهيكاتيوس ميدان الاستخدام العلمي. وكان إيفدوكس الكيندسي قد وضع أوّل gēs perjodos (خريطة الأرض وملحق وصفي لها) على أساس تصوّره عن الشكل الكروي للأرض، مستخدماً علم الفلك وعلم الرياضيات. ومنذ زمن إيراتوسفين (الذي حمل مؤلّفه عنوان Georaphika)، أخذوا يفهمون بمصطلح «جغرافيا» وصف الأرض وتعاليم بنيتها الفيزيائية (التي كانت تنسب إلى ميدان «الكوروغرافيا»، أي وصف البلدان كلّ على حدة)، وصفاً علمياً قائماً على علم الفلك وعلم الرياضيات. وربط بوليبيوس وبوسيدونيوس الجغرافيا بالتاريخ والإثنوغرافيا.

2- لقد عرض بوسيدونيوس جملة من الأفكار المشابهة في بداية مؤلّفه «بصدد المحيط». إن الموضوعة القائلة بوحدة الظاهرات المتناهية في البعد المكاني (epigeia- «الأرضية»، و«urania- «السماوية»)، ليست سوى تبرير لممارسة الفيلسوف- الجغرافيّ، للفيزياء، وعلم الفلك، وعلم الهندسة؛ وهو التبرير الذي يستند إلى تعاليم بوسيدونيوس عن «التجانس» (قارن: العمود RE, Strabon, 113).

3-لقد قسّم الإغريق القدماء المجال السماوي (وفق تقليد فيثاغورس وبارمينيدس)، إلى خمس دوائر (وكذلك الكرة الأرضية)، أو خمس مناطق: الدائرة القطبية الجنوبية، ودائرتان مداريتان (شمالية: صيفية، وجنوبية: شتوية؛ أي مدار السرطان ومدار الجدي)، وخطّ الاستواء (isēmerinos kyklos)، والدائرة القطبية الشمالية. وفي

المنطقة الواقعة بين المدارين تقف الشمس في السمت مرّة في أقلّ تقدير، بحيث لا يرمي الميل (الساعة الشمسية) ظلاً. وفي المناطق التي تعبرها الدائرة القطبية الجنوبية والدائرة القطبية الشمالية، لا ترتفع الشمس فوق الأفق مرّة واحدة في العام على أقلّ تقدير. وبين المدار والدائرة القطبية تقع منطقة مأهولة، لا تقف الشمس فيها في السمت أبداً ولا تبقى فوق الأفق (انظر: S. Günther. Handbuch der mathematischen Geographie. Berlin, 1890, p.244). وعن الدوائر- المناطق الأرضية انظر: 1، II، 2.

4- عند هيراقليط تعني مجموعة الدب الشمال، والصباح يعني عنده الشرق، والمساء الغرب، وتعني المنطقة الواقعة قبالة مجموعة الدب، جهة الجنوب..

5- مجموعة الدبّ ظاهرة دائماً ولا تغرب (الإلياذا XVIII، 489)، إنّ مجموعة الدبّ - نجم القطب أزيح عن القطب في الزمن الإغريقي - الروماني $12\frac{1}{2^\circ}$، والآن $1\frac{1}{4^\circ}$.

6- إن هوميروس يعرف الدائرة القطبية وميل طرق النجوم كلّها نحو الأفق (الإلياذا، XVIII، 489).

7- الإلياذا، XVIII، 607.

8- يخطئ سترابون هنا؛ فنصّ هوميروس يتحدّث عن هاريبدس وليس عن المحيط.

9- مثلها مثل رؤى سترابون الأخرى كلّها عن نشأة الكون وعلم الأرصاد، تستند تصوّراته عن الأبخرة التي «تمسك» الأجرام السماوية، إلى رؤى الرواقيين وبوسيدونيوس (قارن: العمود RE, Strabon, 113).

10- انظر III، V، 5.

11- يعطي هوميروس خريطة ميثولوجية أخرى للعالم. فالأرض وفق تصوّره، في النهر المحيط. وأطلس يحمل على كتفيه القبة السماوية: الكأس الحديدية أو النحاسية. وتظهر النجوم في الشرق ثمّ تغوص في المحيط غرباً. والأفق «دائرة تتخللها الجبال والبحر»، ولا حدود لها. ويرمز هوميروس للاتجاهات السماوية (جهات دائرة الأفق) - الشمال والجنوب، - بالرياح. وهو على علم بليالي الصيف القصيرة وليالي الشتاء الطويلة في المناطق الشمالية.

12- لقد حاول أناكسيماندرس وهيكاتوس في القرن VI، أن يضعا خريطة لحوض البحر المتوسّط. وقد سخر هيرودوت من محاولتهما تلك (التاريخ، IV، 36-40). لكنّ الخرائط المحلّية، كخريطة أتيكا مثلاً، كانت في ميدان الاستخدام منذ القرن V (أريستوفان، السُّحب 200 وما يلي).

13- إن مؤلّف أعظم علماء الفلك الإغريق هذا، لم يصل إلينا. أمّا النصّ المقتبس فهو مأخوذ عن بوسيدونيوس (عمود RE, Strabon, 130).

14- لقـد اعتمـد هيبـارخ لحسـاب دوائـر الطـول والعـرض، الخـطّ المـوازي لـدائرة العرض المارة عبر أعمدة هرقل وخليج إيس، وأخذ خطّ الطول المار عبر الإسكندرية خطّ الطول الرئيس. ثمّ مدّ خطّاً موازياً لدائرة العرض عبر أماكن مختلفة معروفة. وقد دعا هـذه الموازيـات (المنـاطق العرضيـة) «أقـاليم» (معناهـا الحـرفي «مَيْـل»). وحـدّد دائـرة عرض كلّ «إقليم»، وباقي الدائرة، و.... .

15- أي بمقارنة عمليات رصد الخسوف والكسوف نفسه، التي جرت في مراكـز مختلفة.

16- لقد رأى الإغريق أن مناخ المنطقة المعنية يرتبط بدائرة العرض الجغرافية، أي بارتفاع الشمس، وبكلمات أخرى، بزاوية (مَيْل) أشعة الشمس (ج. أو. تومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص 176، حاشية 1).

17- انظر المقطع 20 والحاشية.

18- علـم الأرصـاد الجويـة (= ميتيورولوجيـا- ح. إ)، هـو تعـاليم عـن الظـاهرات السماوية، تتدرج فيه علومنا في الفلك، والأرصاد الجوية (منـذ زمـن أرسـطو الـذي وضـع مؤلّفاً حمل هذا العنوان).

19- أي القرطاجيون.

20- يبدو أن سترابون يقصد حملتي مارك كراسـوس (53 ق.م)، ومـارك انطونيـو (38 ق.م).

21- حملات دروز (12-9 ق.م) وهزيمة كوينتيليوس فارّ في غابة تيفتوبورغ (9 م).

22- تعريف ينسب إلى الصوفي فراسيماخ (أفلاطون الدولة 1، 12، ص. 338).

23- تعاليم للرواقيين عن الشكل الكروي للعالم (هاريسبيس؛ انظر: مقاطع من مؤلّفات الرواقيين القدماء. أرنيم II، مقطع 547).

24- بحسب تعاليم الرواقيين أن الأرض ثابتة؛ والأجرام السماوية كلّها تدور حـول الأرض مـن الشـرق إلى الغـرب، وفي غضـون ذلـك لـيس للسـماء سـوى مركـز قـوة جـذب واحد (بلوتارخ. ليساندرس 12).

25- السـاعة الشمسية أو المَيْل، هـي مسمار شاقولي، يرمي ظلاً على سـطح مقعّـر (polos)، نمـوذج للقبـة السـماوية. والخـطّ المنحني الـذي يحـيط بـه ظـلّ مسـمار المَيْـل، يوافـق لحظـة الانقـلاب الشمسـي والاعتـدال الشمسـي، ويوافـق أيضـاً دوائـر العـرض الجغرافية.

26- انظر ص. 12.

27- في الأول لم يكن مصطلح «قطب» (polos) يعني إلاّ دوران السماء كلّها، ثمّ جرى سحبه على نهايات محور الدوران - الأقطاب السماوية (والأرضية).

28- «الموانئ» [Limēnes- إرشادات للملاحين (شيء ما يشبه كتب الإرشادات المعاصرة]، «الطواف» - إرشادات عملية تحتوي على وصف لبعض أو كلّ سواحل البحر الداخلي أو الخارجي التي جرى الإبحار حولها. فقد عرفت على سبيل المثال أطواف حول البونتس الإيفكسيني، والبحر الأحمر.

29- هذه السلسلة من العلوم كانت تتألف من علم قواعد اللغة، وعلم البلاغة، والحساب، والهندسة، والفلك، والموسيقا.

الفصل الثاني

1- استناداً إلى بوسيدونيوس، يدرس سترابون في الفصل الثاني مسائل تأويل هوميروس التي كان يبحثها الفقهاء اللغويون في الإسكندرية وبرغاموس: مثلاً، نقل رحلات أوديسيوس ومنيلايوس إلى المحيط، واتجاه هذه الرحلات والزمن الذي استغرقته وموضعة الإثيوبيين وسواهم من الشعوب الميثولوجية الأخرى، و... فسترابون يعارض إيراتوسفين ويجادل أريستارخ وكراتير، نجمي النقد الهوميروسي (1، II، 24). لقد كتب إيراتوسفين وهو بعد تحت تأثير الانطباع المباشر الذي أحدثته الإنجازات العظيمة لحملة الإسكندر، وكمية المعطيات الجديدة التي حملتها، ولذلك عزف عن الاشتغال «بالثرثرات» الفارغة لهوميروس وشارحيه (عمود 93 RE, Strabon,). إن أكثر النصوص المقتبسة عن هوميروس عند سترابون تعود لبوسيدونيوس (قارن: عمود 145 RE, Strabon,).

2- لقد كرّس بوليمون مؤلّفاً خاصّاً «عن إقامة إيراتوسفين في أثينا» (انظر: Christ-Schmid. Geschichte der griechischen Literatur,II München 1909,5).

3- بوسيدونيوس على وجه التحديد (قارن: عمود 133 RE, Strabon,).

4- لقد جاء بيت شعر هوميروس على النحو الآتي: «أي عضلات متينة تختبئ تحت أسمال هذا المتسوّل» (المقصود هنا هو أوديسيوس).

5- لم تصل إلينا مؤلّفات إيراتوسفين هذه.

6- أي مدرسة الرواقيين.

7- قول للرواقي ديوجينوس البابلي (انظر: مقاطع الرواقيين القدماء. أرنيم III، 241، 32).

8- قارن: هوراس. فنّ الشعر 333. «إمّا أن يكون الشعراء ذوي نفع، أو أن

يمتعونـا، وهــذا أضـعف الإيمــان». وبحســب و. آليــه (W. Aly. Strabon, von Amasia. München, 1960, p.381) أن سترابون اقتبس هـذه الرؤيـة عـن هـوراس مباشـرة، وكـان يمكنه أن يقابله في روما في منزل بيزون.

9- الإيرسـونا، هـي غصـن غـار أو زيتـون ملفـوف بالصـوف ومـزين بالثمـار أو أوانٍ صغيرة فيها زيت أو نبيذ. وكـان مـن عـادة الأثينـيين أن يحملـوا الإيرسـونا ويطوفـون بهـا على القرى وهم ينشدون الأغاني.

10- صدر البيت (الإلياذا IV، 323)، أمّا عجزه فغير موجود لدى هوميروس.

11- أي في أناشيد «الإلياذا» II وIII وIX.

12- بالإغريقية aeidein بدلاً من phrazein.

13- مـع كلمـة ōide «أغنيـة» جـرى تشـكيل الكلمـات rabsōidia, tragōidia, kōmōidie.

14- pharazin.

15- pharasis.

16- تعني pezós بالإغريقية «راجل»، ثمّ بعد ذلك «معتاد» و«عادي».

17- قارن: أفلاطون القوانين II. 663E

18- ربّمـا كـان المقصـود هنـا، مـؤلّفيّ «حوليـات» المـدن الأيوليـة والإيونيـة، الـتي اسـتندت إلى المـدونات القديمـة ثـمّ اكتسـبت بعـد ذلـك طابعـاً أدبيـاً» (قـارن: U.v. Wilamowitz. Die griechische Literatur des Altertums Berlin-Leipzig, 1907, p. 35).

19- أي رأس منيرفا (أثينا).

20- عقلنة الأساطير، وهي سمة نمطية طبعت الرواقيين بطابعها.

21- الغاليوت أو السمكة - السيف (xiphias gladius L.) مـن فصيلة xiphidae، مجموعة الأجنحة الشوكية (Acanthopteri).

22- ألثونوس (Thynnus thynnus L.S.Oricinius thynnus) سمكـة مـن فصيلة الإسـكمبري (Scombridae).

23- تعـود هـذه النظريـة لإريستوكسـين (انظـر: W.Aly. Strabon von Amasia. München, 1960, p.378).

24- في نشيد «الإلياذا» II.

25- يقتبس سترابون هنا من هيبارخ عن بوسيدونيوس. (عمود RE,Strabon, 130).

26- أي من شمال شرق.

27- أي من جنوب شرق.

28- أي من شمال غرب.

29- أي من جنوب غرب.

30- يدعو هوميروس نهر النيل باسم مصر، أي باسم البلاد (مثلاً، الأوذيسا IV، 483).

31- المحيط الأطلسي.

32- هيرودوت II، 5.

33- يطابق كراتيت حدود المحيط مع حدود المنطقة الحارّة.

34- منطقة البروج أو دائرة البروج، هي الطريق التي تسلكها الشمس في المجال السماوي. ويساوي ميل دائرة البروج الآن $23\frac{1}{2^\circ}$.

35- أي عن سجل هوميروس لسفن الآخيين بحسب النشيد II من «الإلياذا».

36- لم تصل المسرحية إلينا.

37- لم تصل المسرحية إلينا.

38- لقد شكّل مؤلّف إيثور «أوروبا» الكتاب الرابع من عمله «تاريخ اليونان العام» الذي يتألف من 30 كتاباً (لم يصل إلينا منها سوى مقاطع لا أهمية لها).

39- أي من النقطة السماوية الجنوبية الشرقية إلى النقطة الجنوبية الغربية.

40- انظر X، II، 11 وما يلي.

41- الحزام الجنوبي للأرض- مدار الجدي.

42- انظر: I، II، 10.

43- أي مع البحر المتوسّط.

44- هيرودوت II، 5.

45- انظر: XV، I، 16.

46- قارن I، II، 3.

47- أي أريستارخ وكراتيت.

48- لقد تحوّل العبد الفريجي إلى مثل بسبب جبنه.

49- يقصد بهذا الإيجاز الشفهي المنطوق والمكتوب الذي تميّز به الإسبرطيون («إيجاز، اختصار»).

50- نحن لا نعرف عن مجيء الشّاعر ألكييوس إلى مصر من مصدر آخر سوى ما ورد هنا عند سترابون، ومقطع وصل إلينا من قصيدة له (المقطع 109).

51- يقرب العلماء المعاصرون هـذا الشعب الميثولوجي مـن التـوراتي آرام، البـابلي آرامو، أي من الآراميين؛ وبحسب آخرين أن هـؤلاء عرب (أو من erebos «الظـلام» (قـارن: عمود RE, 1909, 6Bd., 416).

52- هـذا المؤلّف لم يبق.

53- هيرودوت II، 158، IV، 39.

54- في أواخـر العصـر الجليـدي كـان البحـر المتوسّـط لا يـزال يابسـة (كـان فيـه بحيرتان وفواصل عند صقليا وجبل طارق). ونتيجة لذوبان الجليد ارتفـع منسـوب المحيط الأطلسي وعبر الفاصل الجيري في المكان الذي يقع فيه مضيق جبل طـارق الآن (أعمـدة هـرقـل) وحـدث انخفـاض اليابسـة (الأمـر الـذي فـتح الطريـق أمـام المحـيط ليتوغـل إلى العمق)، بعد أن ارتفعت الجبال التي كانت تحيط بحوض البحر المتوسّط إحاطة السـوار بالمعصم (ج. تومسون تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص227، هامش 2).

55- عن العربية «السعيدة» انظر XVI، III، 1.

56- التروغلوديتي على الجانب الغربي للخليج العربي (1، I، 3).

57- الأوذيسا XV، 126.

58- الأوذيسا IX، 182.

59- الأوذيسا IV، 84.

60- أي ممثل «مدرستنا» الرواقية.

61- لقد أُخذ قول بوسيدونيوس هـذا مـن مؤلّفـه «عـن المحـيط ومركّـب المسـائل ذات الصلة». وقد أكّد بوسيدونيوس هنا على أن تحديد المعمورة «بالإقليم» (تبعـاً لـدوائر الطول الجغرافية)، غير كاف لأغـراض الإثنوغرافيـا: تـأثير «الأقـاليم» أقـوى علـى عـالم النبات، والحيوان، والمناخ، وأضعف على العلاقات اللغوية والإثنية. فهذه الأخيرة يحدّدها قبل كلّ شيء تجاور السمات الإثنوغرافية وتشابهها (قارن: عمود RE, Strabon, 122).

62- أي، يضربون في الأرض.

63- أي «سكّان الكهوف».

64- المقصود هنا مؤلّف هسيود «تصنيف النسـاء» اللـواتي كـنّ علـى علاقـات مـع الآلهة (لم يبق من هذا المؤلّف سوى مقاطع).

65- phoinix- «أرجواني»، «أحمر فاتح» ومن هنا «فينيقي».

66- سوفوكليس ويوريبيدس على سبيل المثال.

67- يذكـر إيسخيلوس مثل وحيد العين هذا في مؤلّف «بروميثيوس» (بيـت الشـعر 804).

68- مؤلّفو وصف الهند-ديماخ، وميغاسفين، وأونيكسيكريت، ونيارخس، و...

69- جزيرة تقع إلى الجنوب من صقليا (غوزو)؛ عدّها كاليماخوس جزيرة الحورية كاليبسو.

70- انظر I، II، 9.

71- أي كيبيلا.

72- كان هذا الاسم هو اسم سلالة ملوك كولهيدا (انظر: كسينوفونت. أناباسيس V، 6، 37).

73- عن هذا انظر XI، II، 18.

74- إيغليتوس - «المشعّ»، صفة أبوللون.

الفصل الثالث

1- كان ثوكيديدس قد نقل إلينا خرافة سيادة الملك الكريتي الميثولوجي مينوس، على البحر (1، 4).

2- ليس معروفاً على وجه اليقين متى ظهر الفينيقيون في المياه الغربية. فقد تأسّست قادس والمستعمرات الإفريقية في حوالي العام 1100 ق.م، وتأسّست قرطاجة في حوالي العام 813 ق.م (ج. تومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص 59).

3- بحسب أرسطو (الأرصاد الجوية 1، 14، 352b)، أن الوهدة الليبية ومعها واحة آمون كانت تغطيها بحيرات عظيمة على شكل بحار جفّت، وكان يفصل هذه الأخيرة عن المحيط حاجز من الترسبات (وهناك من افترض منذ بعض الوقت، أنه تم اختراق هذا الحاجز وخرجت البحار إلى المحيط (انظر: ج. او. تومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص 137).

4- تحمل نظرية ستراتون طابعاً نيبتونياً. وفي سياق انتقاده لها، يطرح سترابون السؤال التالي:كأننا يجب علينا لدى توضيح هذه المعطيات أن نختار بين احتمالين: نظرية ستراتون النيبتونية، ونظرية بوسيدونيوس البركانية (انظر: K. Reinhardt. Poseidonios Müncehn, 1921, p.100).

5- بحسب المعطيات المعاصرة أن مضيق جبل طارق (أعمدة هرقل) كان في زمن ما برزخاً، ثمّ غمر البحر في زمن لاحق مناطق اليابسة المعروفة الآن. وحملت الأبخرة من المياه أكثر مما كانت تأتي به الأمطار والأنهار (يحافظ على مستوى مياه البحر المتوسّط الآن تيار علوي أقل ملوحة يندفع إليه من المحيط الأطلسي). أمّا فيما يخصّ البحر الأسود (البونتس)، فإن ستراتون أقرب إلى الحقيقة: كمية المياه العذبة التي تصبّ في البحر الأسود تفوّق كمية المياه المتبخرة منه؛ وفي البسبور تيار أعلى أقل

ملوحـة، وتيـار أدنـى أكثـر ملوحـة (انظـر: ج. او. تومسـون. تـاريخ الجغرافيـا القديمـة. موسـكو، 1953، ص 227).

6- أي المدّ والجزر.

7- إن عنصر «الضغط»، أو الطارئة الطبيعية، يتألّف بحسب تعاليم الرواقيين من «الغازات»، وهي خليط من الهواء والنار. ونظرية المدّ والجزر هذه هي على أرجح تقدير لأثينودوروس الكاناني (انظر: K. Reinhardt. Poseidonios münchen, 1921, p. 124).

8- أي أن توازن الترسبات النهرية في البحر المتوسّط، يرتبط بهذه التيارات.

9- لقد قبل سترابون من قبل (المقطع 4) بأنه كان أعلى.

10- أي ستراتون وإيراتوسفين.

11- ربّما تكون الكثيبات الرملية الموجودة في مصبّ نهر إيستر (الدانوب)، التي لها شكل ثدي المرأة (A. Forbiger, Strabo's Erdbeschreibung, Bd.1. Stuttgart, 1856, p.79).

12- يقتفي سترابون هنا أثر بوسيدونيوس. فبحسب النظرية الحيوية لهذا الأخير، أنه ليس العالم ككل يعد كائناً حياً فقط، بل وكل عنصر من عناصره الأربعة يتسم بقدرة حيوية (zōtikē dynamis, vis vitalis)؛ وبمساعدة هذه القدرة الدافعة للكون، تؤثر السماء على الأرض. فالبحر مثله مثل الكائن الحي يمتلك قدرات جذب، وحفظ، وتغيير، وصد. وبهذه القوى الأربع تتلخص عمليات تشكّل الكائن الحي، والغذاء، والولادة، و.. إن قوى الجذب والحفظ موجهة نحو «سلالة» الكائن الحي (oikeia)، بينما تتوجه قوة الصد نحو الغريب عنه. ومن هنا تأتي «تنقية» البحر (katharsis)، و«الشهيق» و«الزفير» (المدّ والجزر)، والحركة العكسية وما إلى ذلك (K. Reinhardt Poseidonios. München,1921, p. 103-105,108).

13- يستخدم مصطلح «تنقية» (katharsis) بمعنى: 1) «تطهير» الروح بالقرابين، 2) تأثير التراجيديا الذي يطهر المعاناة الروحية، 3) كما يستخدم في الطب بمعنى «تطهير» الكائن الحي من مختلف العلل الجسدية.

14- مرّة أخرى يقترح سترابون الفرضية النيبتونية والفرضية البركانية كفرضيتين ممكنتين بالقدر نفسه.

15- بقي البحث ليصل إلينا.

16- أي برزخ كورينثوس.

17- من خلال مراقبته لحركة المدّ والجزر في المحيط الأطلسي، بيّن بوسيدونيوس ارتباط هذه الظاهرة بأطوار القمر. فبحسب نظريته أن بين المحيط والقمر

(نجم «حيوي») علاقة تفاعل «تعاطف فضائي»). و«تعاطف» القمر هذا يفسره التكرار الدوري اليومي، والشهري، والسنوي لحركات المدّ والجزر. فأعلى مدّ يتوافق دوماً مع انتصاف القمر. وفي الطور السنوي يبلغ المدّ والجزر أقصى قوتهما وقت الانقلاب الشمسي، ويبلغ انحسارهما أضعف لحظاته وقت الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي (K. Reinhardt. Poseidonios, München, 1921, p.122-123, قارن III, V, 8).

18- بحسب تعاليم الفيثاغورسيين أن «أجسام العناصر (أو البيئات، أي الماء، والتراب، والهواء والنار) كروية الشكل ما عدا النار التي لجسدها شكل مخروطيّ» (بلوتارخ. آراء الفلاسفة I، 14؛ قارن: H. L. Jones. The Geography of Strabo, I. London, 1917, p. 205, not.1).

19- أي المحيط الأطلسي والبحر المتوسّط.

20- أي خليج كورينثوس وخليج إيجينا؛ الغرب والشرق بالنسبة لبرزخ كورينثوس.

21- انظر: I، III، 4.

22- أي كاهن آمون المتنبّئ (انظر: I، III، 4).

23- وفق تعاليم الرواقيين وبوسيدونيوس «أن الاستغراب من سمات الذين لا يفكرون بطريقة سليمة، عندما يتعاملون مع أشياء تفوّق مستوى إدراكهم». ويرى بوسيدونيوس أن عدم «الاستغراب» (athaumastia)، هو الهدف النهائي لأبحاث العلوم الطبيعية (A. Kiesling. Horatius Flaccus. Berlin, 1908, p. 57).

24- انظر I، III، 10.

25- صفة تعني «الحارس وقت الأخطار»، خاصة أثناء الرحلات البحرية.

26- بالإغريقية- peran.

27- هيرودوت II، 10.

28- بخصوص ريغوس انظر VI، I، 6. وكان هيرودوت (VII، 129) قد تحدّث عن تشظي أوسا من أوليمبيوس وتشكّل وادي تمبيوس.

29- جذر الكلمة الإغريقية rhag.

30- العمل لم يصل إلينا.

31- بحسب ديودوروس (XII، 59) أن أطلنطس انشطرت عن اليابسة إثر هزّة أرضية وقعت في العام 426 ق.م (قارن: H. L. Jones. The geography of Strabo, I London, 1917, p. 226).

32- (قارن: H. Diels. Die Fragement der Vorsokratiker. Berlin, 1921, p.58).

33- كان الإغريق يعتقدون بأن دماء الثور لها فاعلية سمّية شديدة. وحسب الخرافة التي كانت شائعة عندهم أن رجل الدولة الأثيني الشهير ثيميستوكليس قد سمم به (قارن: أريستوفان. الفرسان 84).

34- انظر المقطع 16.

35- هيرودوت IV، 36.

36- أي «الجغرافيا». لقد حمل مؤلَّف إيراتوسفين عنوان: «ملاحظات جغرافية» (Geographika hyponnēmata).

الفصل الرابع

1- محيط الأرض على خطّ الاستواء 252000 مرحلة (II، V ، 7).

2- يرى سترابون أنه ينبغي على الجغرافيين أن يعتمدوا هذه الفرضيات مسبقاً.

3- يدغم العلماء المحدثون فولا بجزيرة مينلاند من مجموعة الجزر الشيتلاندية (Tozer. A History of Ancient Geography. Cambridge, 1897. P.159). دائرة عرض فولا 60° دائرة العرض الشمالية.

4- هي جزيرة في نهر النيل، تقع إلى الشمال من ميرويه، وهي الجزيرة التي يدعوها سترابون في مكان آخر «جزيرة المنفيين المصريين» (انظر: II، V، 14).

5- اعتماداً على سمعة بوليبوس وشهرته، يرفض سترابون ما ساقه بيفوس عن فولا، ويخضع للشك حتّى واقع رحلته إلى الأصقاع الشمالية. لكنّ إيراتوسفين وهيبارخ، وبوسيدونيوس أقرّوا بصحّة ما رواه بيفوس واستخدموا قياساته لدوائر العرض التي قاسها مستخدماً المَيْل (عمود RE. Strabon, 134). لقد حقّق بيفوس اكتشافات مذهلة، لكنّه تحدّث عنها بطريقة أسطورية.

6- يرجع قصب السبق في وضع المعطيات عن حجم بريطانيا، إلى بيفوس (انظر: W. Aly. Strabon von Amaseia. München, 1960, p. 387).

7- إن نسبة ارتفاع المَيْل بالنسبة إلى طول ظله في ماساليا هي: $120:41\frac{4}{5}=L19°12'+L$ انحراف دائرة البروج ($24°$) $=43°12'$ (ج. او. تومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة، موسكو، 1953، ص 223).

8- وفق تصوّرات الإغريق القدماء، أن المعمورة تمتدّ في نصف الكرة الشرقي بقوس عرضي؛ وإذا ما مددنا هذا القوس (إلى نصف الكرة الغربي) غرباً من إيبيريا

حتّى الهند، فإننا سنحصل على دائرة تامة. وكان أرسطو قد ناقش في حينه إمكانية وصل القوس العرضي لفراغ المعمورة من أعمدة هرقل حتّى الهند (أرسطو الأرصاد الجوية، II، 5 ,362b).

9- أي طول المعمورة 77800 مرحلة. وعلى هذا النحو فإن امتداد الأرض على دائرة عرض رودوس يساوي 200000 مرحلة.

10- يُعتقد أن دائرة عرض إيراتوسفين إلى الشمال من خطّ الاستواء ($\frac{1}{2''}$ 25 ′21 °36) تشكّل 25450 مرحلة، على افتراض 700 مرحلة لكل درجة. وفي هذه الحال فإن محيط دائرة العرض هذه يشكّل 202945 مرحلة (قارن: H. L. Jones. The Geography of Strabo, I. London, 1917, p. 241, not.3).

11- في الغالب أن سترابون طرح وجهة نظره هذه متأثراً ببوسيدونيوس، مع أن بوسيدونيوس نفسه لم يأخذ بالحسبان سوى معمورة واحدة فقط في المنطقة المعتدلة الشمالية. أمّا المعمورات الأُخر فهي مسكونة بأقوام من أعراق أخرى، ولم يلق الجغرافي لهؤلاء بالاً (قارن: II، V، 13). (قارن: RE. Geographie Supplbd. IV, 1924, col. 639-640). ولهذه التأملات مكانها الشهير في «ميديا» سينيكا (البيت 429 وما يليه)، حيث «نبوءة» اكتشاف أمريكا: «تمضي السنون، وبعد قرون كثيرة، يفك المحيط قيود الأشياء وتظهر للعين أرض عظيمة».

12- معناها الحرفي «ثلم»، «شقّ»، «وادي ضيّق»؛ تيار بحيرة سيربونيد في البحر المتوسّط.

الكتاب الثاني

الفصل الأول

1- القفقاس الهندي، هو هندو- كوش المعاصرة.

2- الشرق المعتدل، هو نقطة شرق على خطّ الأفق.

3- أي مكتبة الإسكندرية الشهيرة.

4- سلوقس الأول وأنطوخ الأول.

5- لقد كانت محطات البريد المنتشرة على طرقات الإمبراطورية الفارسية، بمثابة منزل بريد فيه فندق؛ وكانت واحدتها تقع على مسيرة نهار واحد عن التي تليها، فإذا ما غادرت صباحاً، فإنك تصل التي تليها في المساء. وكانت لائحة أسماء هذه المحطات تدعى Anagraphē tōn Stathmon. وقد استخدم إيراتوسفين نسخة عن لائحة المحطات كانت محفوظة في مكتبة الإسكندرية، أمّا باتروكليس فقد حصل على

نسخة منها من كسينوكلس، خازن خزنة الملك (انظر: W. Aly. Strabon von Amaseia München p. 146-147).

6- ميغاسفين وباتروكليس.

7- لقد شكّل مؤلّف «أعمال الإسكندر» جزءاً من كتاب سترابون «مذكرات تاريخية».

8- الإلياذا III، 6.

9- في نقده لهيبارخ وإيراتوسفين، يحذو سترابون في كثير من الأحيان حذو بوسيدونيوس. وفي الحالة المعطاة لم يفهم سترابون اعتراض بوسيدونيوس على هيبارخ: لم يعترض بوسيدوينوس على دقّة معطيات الأدوات، لكنّه أشار إلى أن هيبارخ لم يحصل على معطياته الخاصة دائماً بطريقة هندسية وباستخدام الأدوات (عمود 131 RE, Srabon,).

10- أي على المَيْل والأدوات الديوبترية (قارن: 35، I، II).

11- أي هل سيكون طول هذه الجبال، الذي شكّل في الخرائط القديمة زاوية حادّة نحو الشمال مع دائرة العرض، هل سيكون على امتداد مواز.

12- لم ينتقد هيبارخ إيراتوسفين فقط، بل ناهض كلّ العلماء الذين لم يستخدموا الطرائق الدقيقة، والأبحاث والمشاهدات الفلكية- المَيْلية. وإذ عد استنتاجات إيراتوسفين والجغرافيين الآخرين خاطئة، اقترح هيبارخ التخلّي عنها جملة وتفصيلاً، والاقتصار على الأساس الخرائطي للجغرافيا فقط (عمود RE, Strabon, 129).

13- أي تتّجه نحو خطّ الاستواء.

14- أي مصبّ البوريسفين. غالباً ما يكتب سترابون «البوريسفين» فقط، بدلاً من «مصبّ البوريسفين».

15- متوجّهة نحو الشمال.

16- يقصد سترابون بالقدماء إيراتوسفين، وبقوله «ناس الزمن الحديث» بوسيدونيوس. وعلى هذا النحو فإن اعتراضاته على هيبارخ في مسائل علم المناخ فيما يختص دوائر عرض الهند التي حدوها، تعود إلى بوسيدونيوس (قارن: RE, Strabon عمود 131).

17- الميتريت = 39 و39 غ.

18- الميديمن = 52 و53 غ.

19- الذراع = 0,492 م.

20- يستنتج من هذا أن نهر أوكس (أمو- داريا) الذي يصبّ الآن في بحر أرال،

كان يصبّ قديماً في بحر قزوين. ومن هنا كانت البضائع تنقل في نهر كور (كير) والأنهار الأخرى غرباً (انظر: XI، VII، 7، 3).

21- كي لا يتلفها الصقيع.

22- لقد حقّق إيفباتور نيوبتوليموس قائد قوات ميتريدات النصر على البرابرة في مضيق كيرتش (قارن: VII، III، 18).

23- الهيدريا، عبارة عن وعاء أحدب متضيّق تدريجياً وله ثلاث عرى.

24- قارن المقطع 13.

25- بحسب تصوّر سترابون أن لبحر قزوين معبراً إلى المحيط الشمالي.

26- أي وراء ثغر بحر قزوين داخل حدود المعمورة. يستخدم سترابون لدحض ديماخ طريقة «الدفع حتّى نقطة السخافة» (reductio ad absurdum).

27- على هذا النحو فإن السكيثيين بحسب سترابون لا يقطنون أبعد من ثغر بحر قزوين.

28- هذا رقم ديماخ. يواصل سترابون طريقته في الدحض: «الدفع حتّى نقطة السخافة» (reducto ad absurdum).

29- أي 3800 مرحلة المذكورة أعلاه.

30- المقصود هنا جبال أريانا، التي تدعى أيضاً القفقاس.

31- في سياق هذا المقطع انظر: II، V، 34-43.

32- الذراع الفلكي يساوي 2°.

33- أي 6300 مرحلة إلى الشمال من ماساليا.

34- يرى سترابون أن هذه المنطقة غير مأهولة.

35- لقد قسم الإغريق (اقتداء بالبابليين) اليوم إلى 12 ساعة مزدوجة (انظر هيرودوت II، 109). ولم يكن للساعات امتداد محدّد (لأن اليوم الشمسي لم يكن ثابتاً)، ولكنّ كلّ ساعة كانت تساوي $\frac{1}{12}$ من اليوم أو الليل، وتتراوح بالتوافق مع فصول السنة. والساعة المعتدلة (60 دقيقة)، هي ساعتنا نحن التي تساوي $\frac{1}{12}$ من النهار أو الليل في الاعتدال (hōra isēmerinē).

36- إلى الشمال. من هذا المكان وغيره عند سترابون ينتج أنه بحسب هيبارخ: البوريسفين 9 أذرع، 16 ساعة، 6300 مرحلة إلى الشمال من بزنطا (أو من ماساليا الواقعة معها على دائرة عرض واحدة)، 6 أذرع، 16 ساعة؛ 9100 مرحلة إلى الشمال من بزنطا (أو ماساليا)، 4 أذرع، 18 ساعة؛ «البلاد غير المأهولة» أقل من 3 أذرع، 19 ساعة.

37- انظر المقطعين 15-16.

38- أي نهار طوله 18 ساعة والشمس ترتفع 4 أذرع، و...

39- الخطأ في البرهان يدعى petitio principii (مقتضى الأساس). يرى سترابون أن كلاً من إيراتوسفين وهيبارخ على خطأ في مسألة دائرة العرض الشمالية للعالم المأهول نفسها، لأنّ حدود هذا الأخير عندها توغل بعيداً إلى الشمال. ومن هنا جاءت سخرية سترابون من هيبارخ.

40- تقوم نقطة الاعتدال الخريفي في برج الميزان. ويتوافق المدار «الشتوي» والمدار «الصيفي» مع مدار السرطان ومدار الجدي. ويمرّ المدار «الشتوي» عبر سيينا (24°).

41- أي في الجنوب وفي الشمال، وهو صحيح بالنسبة لمناطق الإقليم الحار كلّها.

42- دائرة خطّ الاستواء السماوي تحديداً.

43- إذا اعتبرنا أن لكلّ 700 مرحلة درجة، فإن أبعاد الأرض تشكّل بحسب إيراتوسفين 252.000 مرحلة، والمدار الذي يعبر سيينا عند 24°. يقلّ 16.000 مرحلة عن خطّ الاستواء.

44- بين المدار وخطّ الاستواء.

45- انظر حاشية الفصل الأول من الكتاب الأول.

46- 5000 مرحلة إلى الشمال من ميرويه. لأول مرّة تغدو مجموعة الدب الأصغر مرئية بوضوح في ميرويه (بحسب هيبارخ، انظر II، V، 35).

47- «سفراجيدس» = حرفياً «ختم»، «علامة»، «بصمة في حقل»، ثمّ «الحقل» نفسه الذي يعيّنه حجر الحدود؛ ثمّ صارت كلمة «سفراجيدس» تدل على عدد من قطع الأرض المتصل بعضها ببعض. وقد جاء هذا المصطلح من ميدان الاستخدام اليومي في مصر البطلمية. وبعد أن ترك إيراتوسفين التقسيم التقليدي إلى قارّات ثلاث، قسم المعمورة بسلسلة جبال طوروس إلى نصفين: جنوبي وشمالي (انظر مقطع 31)، وقد انقسم هذان بدورهما إلى «سفراجيدسات». «السفراجيدس» الأولى شغلتها الهند، والثانية شغلتها أريانا (الهضاب الإيرانية)، وشغلت الثالثة المنطقة الممتدّة بين جبال ميديا والفرات، وشغلت الرابعة المناطق الغربية: أوروبا والبحر المتوسّط. ومن الواضح أن سترابون يدرك فكرة إيراتوسفين المبتكرة، ولم يشر إلى القيمة النظرية والعملية لهذه الفكرة. (قارن: RE, Karten, Hbb. 20, 1919, col 2054; Bunbury. A History of Ancient Geogaphy. London, 1879, p.226). ولكنّ بعض العلماء يفترضون، أن إيراتوسفين أراد أن يقدّم فقط، تصوّراً عيانياً محدّداً عن الأقاليم الجغرافية، كما كان قد فعل الجغرافيون الإغريق من قبله، إذ قارنوا البلدان بالأشياء التي كانت معروفة جيداً. فقد شبهوا إيبيريا مثلاً، بجلد الثور، والبيلوبونيز بسعفة أفلاطون، و...

وهكذا أراد إيراتوسفين أن يعبر بكلمة sphragis «ختم»، وكلمة plinthia «آجر» عن مفهوم المربع غير المنتظم (XV، I، 11)، أو عن «الأضلاع الثلاث المناسبة لتشكيل متوازي أضلاع» (II، I، 22)، أي أن يرسم تصوّراً تعبيرياً عن مقاطع شكل الختم أو الآجرة المستطيلة الشكل (قارن: H. L. Jones, The Geography of Strabo, I. London, 1917, p. 332).

48- تعالج مسألة شكل الهند في الكتاب XV، I، 11.

49- سلسلة جبال طوروس.

50- السند.

51- أي أنها متداخلة من غير نظام حول حدود مشتركة بين «السفراجيدس» II وIII.

52- بخطّ منقط (الشكل 2). يرى سترابون (المقطعان 23-24) أن هيبارخ وضع (الشكل 2) استناداً إلى أرقام المسافات (بين النقاط المعطاة) التي أخذها عن إيراتوسفين، شكل مربع قائم الزاوية TCKM (موضّعاً فابساك في النقطة T، والبوابات القزوينية في النقطة C ونقطة حدود كارمانيا في النقطة K، وبابل في النقطة B). والشكل الذي ترسمه الخطوط المنقطة (الفرات ضمناً)، يعكس أرقام المسافات «بالحساب التقر يبي» (مقطع 23) لإيراتوسفين. ومن السهل أن نرى أن هذه الحسابات، هي في علاقاتها حسابات غير معقولة، إذا ما استخدمت كما استخدمها هيبارخ.

53- أي، من المحيط الهندي.

54- عن وضعية باريتاكينا انظر XV، III، 12.

55- أي في جنوب - شرق.

56- إذا ما وافقنا على ما يفترضه إيراتوسفين، فإن لحججه أسساً. فهيبارخ يقبل بأن أرقام إيراتوسفين تخص مسافات دوائر الطول والعرض. وإذ يرسم هيبارخ مربعاً تتألّف أضلاعه من خطوط طول ودوائر عرض تمرّ عبر فابساك والبوابات القزوينية وبابل، فإنه لا يجد أي عناء في اكتشاف تهافت إيراتوسفين. وعن طريق «الاستدراج إلى السخافة» يرغم هيابرخ إيراتوسفين على أن يوضّع بابل بعيداً إلى الغرب (انظر المقطع 36) أكثر مما يريد إيراتوسفين (شكل 4).

57- أي الخطّ الذي مدّ متعامداً على خطّ الطول عبر حدود كارمانيا.

58- أي بانحراف نحو الجنوب.

59- من البوابات القزوينية.

60- من حدود كارمانيا.

61- يشـير سـترابون في المقطـع 26 إلى أن إيراتوسـفين لم يقـل، إن الضـلع الغربيـة كانت خطّاً مستقيماً، لكنّ هيبارخ أباح هذا.

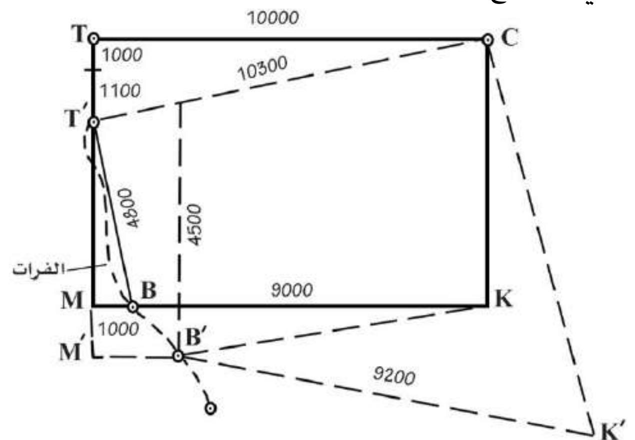
62- انظر المقطع 22، الحاشية 47.

63- انظر المقطع 22.

64- أي من سلسلة جبال طوروس.

65- أي من الشرق.

66- انظـر الشـكل 3. انطلاقاً مـن حسـاب لـيس صـحيحاً بعـض الشـيء، أجـراه إيراتوسـفين، ومـن تسـليم خـاطئ اسـتخدم هيبـارخ مـرّة أخـرى «طريقـة الاسـتدراج إلى السـخافة» لكـي يـدحض: لقـد طبـق أرقـام إيراتوسـفين علـى مسـافات دوائـر العـرض والطول. فهـو يوضّـح البوابـات القزيوينـة بحسـب إيراتوسـفين، علـى بعـد 4400 مرحلـة إلى الغرب من موقعها الحقيقي، ولذلك وقعت برسيا عنده في «السفراجيدس» II. ومع ذلـك، بحسب سترابون، أن خطّ إيراتوسفين من بابل إلى كارمانيا ليس الخطّ AD، بـل الخـطّ الممدود من A مع انحراف كبير إلى الجنوب من AD. وإذا مـا قبلنـا مـا سـلّم بـه هيبـارخ، فإن الهندوس سيكون موازياً ED، ويشكّل مع موازي EF زاوية أقلّ بقليل مـن 45°، مـع أن هذا النهر يجري في واقع الأمر نحو الجنوب.



الشكل 2. من كتاب H. L. Jones

(The Geography of Strabo, I. London, NewYork, 1917, p.296)

بحسـب سـترابون (المقـاطع 29-23) إن هيبـارخ يـبني علـى أسـاس أرقـام المسـافات (بـين النقـاط القصـوى) الـتي أخـذها علـى إيراتوسـفين المربّـع القـائم الزوايـا TCKM (يوضّـع فابسـاك في النقطة K، وبابل في النقطة B). ويعطي الشكل الذي تشكّله الخطوط المنقطة (بمـا في ذلـك الفـرات) أرقـام المسـافات "وفـق الحسـاب التقـريبي" (المقطـع 23) لايراتوسـفين. ومـن السـهل أن نلاحظ أن هذه الأرقام من حيث تفاعلها، غير ممكنة، إذا ما اعتمدناها كما اعتمدها هيبارخ.

67- إذا ما مددنا الخطّ EB (شكل 3) حتّى سوسا (التي تقع بحسب إيراتوسفين على الخطّ من A إلى كارمانيا، فإننا نحصل على مثلث قائم الزاوية AEC، يضمّ المثلث الحاد الزاوية AEB (انظر: H.L. jones. The geography of Strabo, I. London, 1917, p.328).

68- قارن المقطع 40.

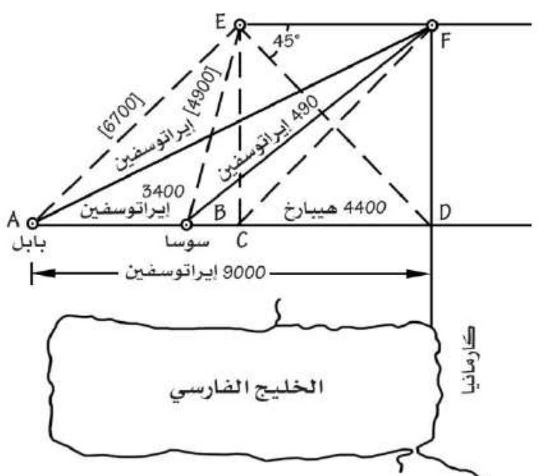
69- انظر الهامش 47.

70- بحسب إيراتوسفين وسترابون إن بيلوسي تقع على دائرة عرض أعلى من دائرة العرض التي تقع عليها بابل.

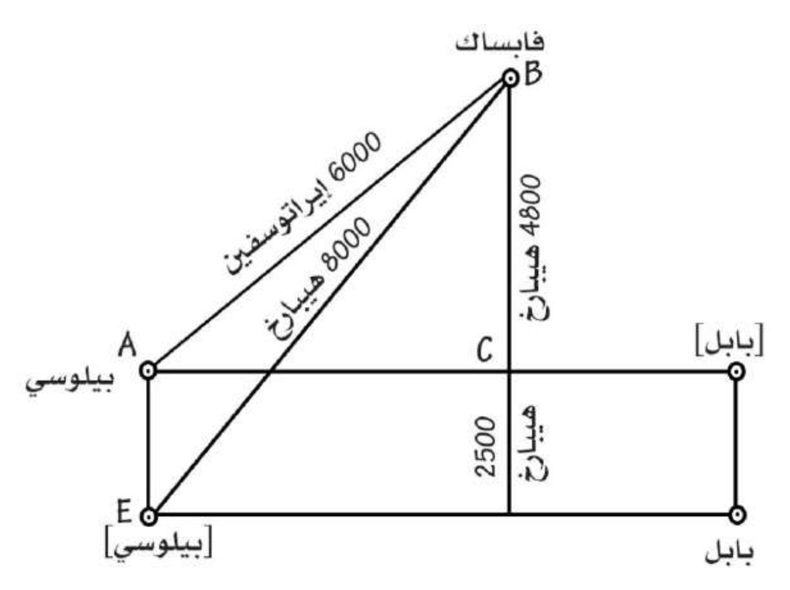
71- بحسب هيبارخ أن فابساك إيراتوسفين تقع على بعد 7300 مرحلة إلى الشمال من بيلوسي (شكل 4). ولذلك إذا عدينا المسافة بين هاتين النقطتين وتر المثلث القائم الزاوية، فإننا نحصل له على رقم يقارب 8500 مرحلة. وخطيئة هيبارخ الذي يستخدم مرّة أخرى طريقة «الاستدراج إلى السخافة» تكمن بحسب سترابون في أنه يسحب حسابات إيراتوسفين على دوائر العرض والطول.

72- وقبل ذلك (المقاطع 27-29) وضّع هيبارخ بابل إيراتوسفين على بعد 1000 مرحلة شمالاً.

73- في (الشكل 4) مدّت دائرة العرض عبر B (فابساك) وخطّ الطول عبر A (بيلوسي)، ولنفرض أنهما يتقاطعان في النقطة C، عندئذٍ AC (= BC=4800= مرحلة) تغدو أكبر من AB (6000 مرحلة)؛ إلى مثل هذه النتيجة تقود حسابات هيبارخ بحسب إيراتوسفين.



الشكل 3. من كتاب H. L. Jones
(The Geography of Strabo, I. London, NewYork, 1917, p.328)

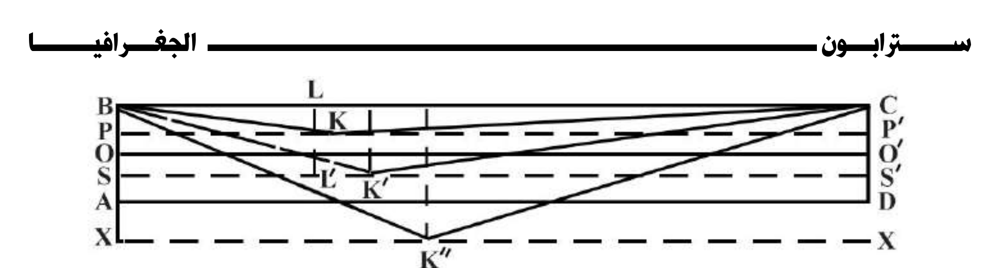


الشكل 4. من كتاب H. L. Jones
(The Geography of Strabo, I. London, NewYork, 1917, p.337)

74- ينبغي أن نرى في «الأشكال» (schemate) رسومات هندسية أو خريطة جغرافية. وإذ يقبل سترابون خريطة إيراتوسفين من حيث الأساس، فإنه يدفع عنه انتقاد هيبارخ الذي يستند إلى مسلّمات مغلوطة. لكنّ خريطة إيراتوسفين تتطلّب بحسب سترابون «مقياساً» ما، كان يمكن أن تجاز استناداً إليه تفاوتات مسموح بها أو تجاوزات في المقادير الهندسية والاتجاهات الخطية. إن استخدام هذا «المقياس» يحمي من اقتراف أخطاء مثل، وضع مصبّ النيل والبوابات القزوينية على دائرة واحدة، ومساواة المسافة بين نقطتين مع مسافة دائرة العرض. ثمّ يبين سترابون على متوازي أضلاع أن المسافة بين النقطتين A وB فعلاً تتناقص بما يتناسب وفرق خطوط الطول.

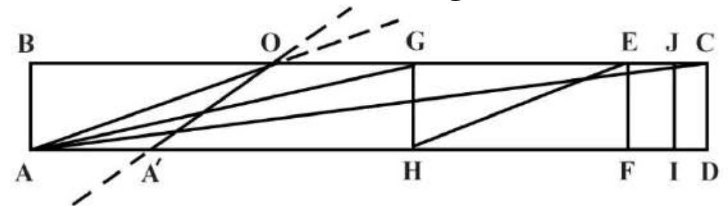
75- أي الخطّ الممدود نحو الشرق ونحو الغرب على طول الشريط، بما يقارب 70.000 مرحلة طولاً.

76- انظر الشكل 5. ABCD شريط مختار من الأرض OO′: الخطّ الشرقي والخطّ الغربي؛ PP′ وSS′ موازيان لـOO′؛ BK وKC (أو BK′ وK′C)، خطّان متقاطعان في الداخل؛ BK″ وK″C، خطّان متقاطعان في الخارج. ومن الأنسب أن نرى في PP′ خطّاً متطابقاً مع OO′، من أن نرى في BK+KC (كما على التوالي KP′ + PK) خطّين متطابقين مع OO′، ومن الأنسب أن نرى KC+BK، من K″C + BK″.



الشكل 5. من كتاب H. L. Jones
(The Geography of Strabo, I. London, NewYork, 1917, p. 343)

77- انظر الشكل 6. A′O، خطّ يخرج خارج BG وAH، وAO، خطّ يخرج إلى خارج BG. وليكن ABCD متوازي أضلاع كبيراً؛ عندئذٍ ستكون ABGH، وHGCD، وFECD، وJICD و... متوازيات أضلاع صغيرة.



الشكل 6. من كتاب H. L. Jones
(The Geography of Strabo, I. London, NewYork, 1917, p. 345)

78- إن سترابون يدرك الطابع المبدئي لانتقاد هيبارخ الموجه لا ضدّ إيراتوسفين وحججه، بل ضدّ كلّ من لا يستخدم طرائق بحث دقيقة. فهو يلوم هيبارخ لأنه يكتفي بالنقد الهدّام ولا يقترح أي شيء بنّاء، ويضيف باعتداد: «كما أفعل أنا» (II، I، 38).

79- ومرّة أخرى لم يحقّق «الاستدراج إلى السخافة» الذي اعتمده هيبارخ، هدفه، بحسب رؤية سترابون. أولاً، ينسب هيبارخ إلى إيراتوسفين حاصل (1000 مرحلة) الذي لم يقم على أساس تأكيداته، ثانياً، لقد توصل هيبارخ إلى استنتاج خاطئ من حسابات إيراتوسفين (2400 مرحلة)، وهذا ما يتبيّن من وصف إيراتوسفين لنهري دجلة والفرات.

80- صخور الكيانيس، أو السيمبليغادس: جزيرتان صغيرتان متجاورتان واقعتان عند مخرج البسبور التراقي إلى البونتس.

81- حتّى لو قبل هيبارخ مسافات إيراتوسفين على أنها مسافات خطوط الطول؛ فإن خطأ إيراتوسفين واضح في الأحوال كلّها.

82- باستخدام المَيْل، مثلاً.

83- لقد استخدم سترابون هذا المؤلّف عبر أرتميدور.

84- بسبب عدم امتلاكه خلفية متينة في ميدان الرياضيات لم ينجح سترابون

دائماً في أن يعطي بنفسه تقويماً صحيحاً لنقد هيبارخ. ومن هنا جاءت سرعة غضبه من «مماحكة» هيبارخ. ويرون أن أكثر حجج سترابون في دفاعه عن إيراتوسفين، مأخوذة عن بوسيدونيوس (قارن: عمود RE, Strabon, 140).

الفصل الثاني

1- لقد تألّف مؤلَّف بوسيدونيوس الشهير «عن المحيط»، من ثلاثة كتب. الكتاب الأول: تاريخ الجغرافيا، المسألة الهوميروسية، الملاحة في الزمن القديم، تغيّر سطح الأرض. الكتاب الثاني: دراسة الخريطة، تقسيم المعمورة إلى «سفراجيدسات» ووصف الأرض. ولم يلتقط سترابون من هذا المؤلّف سوى ما يعطي ذريعة للسجال، باحثاً فيه، وفق التقليد المدرسي، عن التناقض (enantion)، وعن ما هو صحيح (apithanon)، وعن غير الممكن (adynaton).

2- إنه المعيار الذي تحدّث عنه سترابون سابقاً (II، I، 37).

3- انظر الحاشية 21، للكتاب I، I، 20.

4- انظر الحاشية 3 للكتاب الأول، I.

5- أي العرض المزدوج الذي حدّده بوسيدونيوس وسترابون لكل منطقة، وتحديداً 35.200 = 17600×2 مرحلة. وعلى هذا النحو ينبغي أن تكون المنطقة الحارّة قد امتدت حتّى $25^{o}\ 8'\ 32\ \frac{2}{7''}$ (أي 700 مرحلة لكلّ 1^{o}). وليس التباين بين أرسطو وبوسيدونيوس كبيراً، إذا أخذنا بعين الحسبان أن الأول يوضّع المدارين على 24^{o} تقريباً.

6- علم الأرصاد الجوية (ميتورولوجيا) 2.5.

7- يصر بوسيدونيوس على المعنى الحرفي للكلمة الإغريقية = diakekaumene «المحروقة».

8- لقد دعيت المنطقتان المعتدلتان الشمالية والجنوبية، بالمنطقة الصيفية والمنطقة الشتوية، ومن هنا جاءت تسمية المدار الصيفي بالمدار الشمالي.

9- محيط الأرض بحسب إيراتوسفين يساوي 252.000 مرحلة.

10- المسافة بين المدار الشمالي وخط الاستواء.

11- أي 8800:16800: :17600:33600. والعلاقة 11:21، عرض المنطقة الحارّة 17600 مرحلة.

12- لقد دعا الإغريق دائرة العرض التي في المجال السماوي، بالدائرة القطبية، وكانت هذه تشمل فضاء متغيّراً حول القطب تبعاً للمكان الذي يقف فيه الراصد، أي مجموع النجوم التي ترى دائماً إذا لم تتجاوز الأفق. ويلحّ سترابون على أن حدود المنطقتين المعتدلتين، تبقى ثابتة لا تتغيّر.

13- إلى سبع مناطق.

14- أي المنطقة الباردة حيث تلفّ الظلال الإهليليج صيفاً.

15- أي المنطقة المعتدلة حيث تسقط الظلال عند منتصف النهار بالاتجاه المعاكس؛ وفي المنطقة الشمالية يسقط الظل على الشمال، وفي الجنوبية على الجنوب.

16- أي المنطقة الحارّة حيث يسقط الظل عند منتصف النهار بالنسبة لنقطة ما في جزء من السنة، على الشمال، وفي الجزء الآخر على الجنوب.

17- السلفيوم - Fepula tingitana - نبات خيمي كان عصيره يستخدم لتتكيه الطعام، ولأغراض دوائية.

الفصل الثالث

1- البذور مثلاً.

2- Eukrata، معناها الحرفي: « التي تتكوّن من المزج الصحيح للعناصر»، ثمّ «المعتدلة».

3- انظر II، II، والحاشية 12.

4- التي أشار إليها بوسيدونيوس منذ قليل.

5- أي على خطّ الاستواء، ودوائر العرض المجاورة له. لقد رأى بوسيدونيوس أن للشمس عندما تكون في السمت، تأثيراً عظيماً جدّاً على الأرض. ولذلك فإن المناخ في منطقة خطّ الاستواء أكثر اعتدالاً منه في المنطقة المدارية: إن تبدل وضعية نقاط السمت بالنسبة لدائرة العرض في هذه المنطقة، وكذلك تبدل لحظة شروق الشمس وغروبها من يوم ليوم يجري أسرع، لأنّ الحركة على الدائرة الأكبر، هي الأسرع (انظر: K. Reinhardt. Poseidonios, München, 1926, p.66).

6- لقد أنشئت «محاورات» هيراقليدس بأسلوب رائع، وتميّزت بمحتوى جذاب، وقد أدخل إليها مختلف القصص الخرافية.

7- لقد أخذ سترابون قصة إيفدوكس عن بوسيدونيوس (من فصل، البحر العالمي، في مؤلّف «عن المحيط») مثالاً على الأخبار غير الموثوقة (apithanon، انظر الهامش 1 في الفصل 1)، وهدفاً «لنقده».

8- لقد كان الاحتفال بعيد برسيفونا (كورا) ووالدتها ديميترا يجري في موسم البذار الشتوي (نهاية تشرين الأول بحسب التقويم القديم). السفير المقدّس وبشير السلام (spandophoros) كان يعلن لمشاعات الضواحي عن بدء الأسرار المقدّسة، ويدعوها إلى الكف عن النزاعات ووقف الحرب.

9- في المقطع الخامس يلعب سترابون على هذه «المصادفة المؤلمة».

10- أي الكيزكي.

11- إن السفينة «البيضوية»، هي سفينة شحن تجارية ذات مؤخرة دائرية، خلافاً للسفينة الحربية «الطويلة».

12- يشير بوسيدونيوس بقوله «من هذا كلّه» إلى شرح المسألة كلّها بالتفصيل (قصة إيفدوكس لم تكن سوى خاتمة).

13- شعر لمؤلّف مجهول (ترجمناه نحن).

14- انظر الحاشية 1، I، III.

15- يقول أفلاطون على لسان سقراط (في تيميه 26E) عن قصة أطلنطس: «وأي قصة أخرى (ما عدا قصة أطلنطس) تشبه الحقيقة أكثر لا الاختلاق؟».

16- بحسب أفلاطون أن الكاهن المصري روى لسولون، أن أطلنطس كانت أكبر من ليبيا وآسيا مجتمعتين. وفي أعقاب هزّة أرضية رهيبة، ابتلعها البحر (تيميه 24-25؛ كريتيوس 108E، 113C).

17- أي أن سولون لكي لا يواصل وصف قصة أطلنطس التي اختلقها، أغرقها، مثلما أرغم هوميروس بوسيدون وأبوللون على أن يدمّرا بالطوفان السور الذي بناه الآخيون في وجه السفن (الإلياذا، VII، 433، الإلياذا، XII، 1-33).

18- انظر I، II، 26 و I، II، 28.

19- الفرضية التي تقول، إن فريقاً من الإثيوبيين استوطن إلى الجنوب من خطّ الاستواء على الجهة الأخرى من المحيط (انظر I، II، 25).

20- انظر I، II، 28.

21- انظر I، II، 25.

22- أي غرباً.

23- أي المدرسة الرواقية.

الفصل الرابع

1- لقد أخذ سترابون حججه ضدّ بيفوس كلّها من بوليبيوس.

2- Pleumon thalattion- قنديل البحر، كائن بحري لا حشوي هلامي الكثافة، يشبه شكله الجرس أو قد يكون بيضوي الشكل.

3- أي هرمس إله الطرقات والخطوط البحرية.

4- انظر الحاشية 1، I، III.

5- أي ارتفاع المثلث الممتدّ من القمة التي عند ناربون حتّى خطّ السفح. وينسحب

هذا القبول- 1000 مرحلة- على باقي المسافة حتّى ليبيا ، وهي المسافة التي قيست على امتداد خطّ الارتفاع.

6- الأدق 436 مرحلة.

7- الأدق 21764 مرحلة.

8- أي أكثر من 21764 مرحلة. لقد رأى ديكيارخ أن منخفض البحر الأدرياتيكي أبعد عن البيلوبونيز من أعمدة هرقل.

9- من الواضح أن بوليبيوس لم يأخذ بالحسبان ساحل إيستر. وقد رأى سترابون أن حسابات بوليبيوس مبالغ فيها كثيراً.

10- انظر I، IV، 5.

11- «لأن الخطوط المتوازية الواقعة بين خطوط متوازية ، هي خطوط متساوية».

12- أي غرباً.

13- يمكننا أن نستعيد سياق استدلال بوليبيوس على النحو الآتي تقريباً: لنمد الخطّ (PP′) على موازاة خطّ الاستواء ابتداء من أعمدة هرقل حتّى الشواطئ الشرقية للهند ، على درجة العرض $36\frac{1}{2}°$ تقريباً. ولنرسم على هذا الخطّ نصف دائرة كأنه وتر ، وسيكون الخطّ (OO′) قطراً لها ممتدّاً على خطّ الاستواء. ولنمد من نقطة ما (A) على الوتر إلى الغرب من آسيا خطّاً يصل حتّى مصبّ نهر تانايس (T)؛ ولنواصل مدّ هذا الخطّ باتجاه شمال شرق مع مجرى النهر حتّى منبعه (T′) (مع أن موقع منبعه غير معروف). ثمّ نواصل خطّ النهر (TT′) حتّى الدائرة في النقطة S (الشروق الصيفي) لنسقط عموداً (T′B) على الوتر (PP′). فنحصل عندئذٍ على قطعة (BT′ SP′) من نصف دائرة تابعة لآسيا (لا نحدّد T′ وB بدقّة ، لأنّ منبع تانايس غير معروف). وحسب بوليبيوس أن أوروبا أقلّ طولاً من ليبيا وآسيا اللتين ترتبطان بالخطّ BP′ (المتغيّر) (قارن: H. L. jones. The Geography of Strabo, I. London, 1917, p.410).

14- قارن XI، II.

15- انظر II، I، 40.

الفصل الخامس

1- I، I، 13.

2- حرفياً aretē: «ماهية سامية ، موهبة».

3- انظر II، III، 1.

4- انظر II، II، 2 والحاشية 12.

5- انظر I، I، الحاشية 14.

6- I، I، 8.

7- أي يمكـن أن نجـوب حـول المعمـورة عـبر طرقـات أربـع: مـن الشـمال، ومـن الجنوب، ومن أعمدة هرقل، ومن السواحل الشرقية للهند.

8- بعد أن وضع هـذه المعمورة الجزيرية في داخل مربع ما كـروي لا يمثل سـوى شكلها المرئي وأبعادها، دقق سترابون شكل المعمورة وأبعادها داخل هـذا المربع نفسـه. فبالنسـبة لسـترابون إن كـلّ المسـائل الـتي طرحهـا بوسـيدونيوس: الشـكل الكـروي للأرض، تقسيمها إلى مناطق، ومدارات، و...، تنتمي إلى ميدان الفرضيات النظرية.

9- تقريباً شكل المخروط الناقص.

10- في زمـن سـترابون كـانوا يعتقـدون أن المعمـورة لهـا شـكل الكلامـس (رداء يوناني). وذيول الكلامس مستديرة، وياقته مستقيمة أو على شكل دائرة نصف قطرهـا كـبير وقوسـها أقصـر مـن الـذيول. وإذا كـان وصـف سـترابون صـحيحاً، فـإن أطـراف الكلامـس (أي أطـراف المعمـورة الشـرقية والغربيـة)، يجـب أن تضـيق نحو النهاية، بحيث يمرّ الخطّ الذي يصل بين الـذيول، عبر مركـز الكلامس. (H.L. Jones. The Geography of Strabo, I. London, 1917, p.435).

11- حرفياً eis myuron = «كذيل الفأر».

12- يتألف هذا المربع الكبير من المعمورة، والمنـاطق في منتصف عـرض منطقـة الحزام الحار و180° طولاً و«بقية». وتتألف البقية بـدورها مـن مـربعين صـغيرين، أحـدهما إلى الشرق من المعمورة والآخر إلى الغرب منها. ووفقاً للحساب أن منطقـة الحـزام الحـالي تشكّل أكثر من نصف المعمورة، و«البقية» أكبر مـن ذلـك. ولـذلك فـإن المعمـورة تشـغل أقل من نصف المربع الكبير.

13- لقد قسم إيراتوسفين محيط الأرض إلى ستين جـزءاً، وكـلّ جـزء يسـاوي 6°. وكان هيبارخ قد قسم الأرض لأول مرّة إلى 360°.

14- أي في فولا للدائرة القطبية المتغيّرة مقدار محدّد من المدار الصيفي. ولـذلك، بحسب بيفوس، فإن دائرة عرض فولا تعدّ تكملة لـدائرة عـرض المـدار الشـتوي. وإذ عـدّ بيفوس دائرة عرض هذا الأخير 24°، فقد وضع فولا على دائرة عرض 60°.

15- أي 3700 مرحلة.

16- انظر المقطع 6.

17- أي المربع.

18- لقـد رسمـت علـى كـرة كراتيـت معمورتـان متماثلتـان، في كـلّ نصـف مـن الكـرة الأرضـية واحـدة («يقسـم الكـرة محـيط مـزدوج»). وهـذا المخطـط علـى وجـه

التحديد، هو الذي انعكس في صورة انقسام الكرة الأرضية إلى ممالك كبرى: كرة تقسمها مياه المحيط بشرائط مائية متعامد بعضها على بعض على شكل صليب (انظر: طومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص. 292).

19- طولاً؛ وسوف يكون المدى معادلاً 70.000 مرحلة: طول المعمورة.

20- لقد دعيت جهات الأرض رياحاً.

21- أي أفضل من الذين سبقوهم.

22- في العامين 25 - 24 ق.م.

23- بعد انتفاضتهم ضدّ بسماتيخ في القرن 6 ق.م. فر السيمبريتيون إلى جزيرة في نهر النيل تقع إلى الشمال من ميرويه (انظر XVI، IV، 8 و XVII، I، 2).

24- أي باتجاه الشمال واتجاه الجنوب.

25- أي أنها «تقع على دائرة العرض عينها».

26- انظر الحاشية 10 للمقطع 6.

27- أي إلى الشمال وإلى الجنوب.

28- أي الرياح التي تهب في أوقات معينة.

29- أو من الأفضل أن يقال: «محوري الإحداثيات»، مستخدمين مصطلح الهندسة التحليلية.

30- الفيلبييات III، 117.

31- أي ميثونا، وأبوللونيا والمدن 32 الأخرى.

32- لقد قيل أعلاه، إن «بعض الجزر الكيكلادية تقع في بحر ميرتوي». النص متهدم.

33- بصدد مصطلح «إيفكسيني» انظر VII، III، 6.

34- كان القوس السكيثي يتألف من عود شجرة مرنة تدخل نهايتاه في قرني ماعز يلفهما قميصان من المعدن. وكان القرنان في أوّل الأمر مقعرين ونهاياتاهما مثنيتان إلى الأعلى.

35- انظر الحاشية 25، I.

36- قارن XII، III، 17.

37- انظر المقاطع 19-21.

38- جزر البليار.

39- أي «فريجيا الملحقة»، وهي التسمية التي أطلقها ملوك برغاموس على هذه البلاد.

40- قارن XI، I، 4.

41- سكّان كيليكيا التراخية (أي الصخرية).

42- أي النوميديين.

43- انظر II، V، 16.

44- انظر II، V، 5.

45- تمثل الدائرة القطبية السماوية المتغيّرة منظومة من الدوائر المركّزة التي تخصّ كلّ منها أفق الراصد ولها مركز هو القطب السماوي، ونصف قطرها ارتفاع هذا القطب فوق الأفق. وليس على خطّ الاستواء بالنسبة للراصد، دوائر قطبية. ومع ابتعاد الراصد عن خطّ الاستواء نحو القطب الشمالي، تتّسع الدائرة القطبية. فعلى دائرة عرض سيينا يدخل فيها الدب الأكبر كلّه تقريباً، و... .

46- عبر بلاد القرفة.

47- أي من جهة الشرق.

48- المسافة من ميرويه إلى خطّ الاستواء 11.800 مرحلة، وإلى الإسكندرية 10.000 مرحلة.

49- انظر المقطع 43 و II، II، 3.

50- انظر II، II، 3.

51- ستكون دائرة عرض الإسكندرية التي جرى حسابها على هذا الأساس $30^{o}\ 57'\ 50''$، والمسافة عن خطّ الاستواء 21.675 مرحلة (غني عن البيان أن هذه الأرقام تقريبية وحسب. فهيبارخ يعطي الرقم 21.800 مرحلة).

52-دائرة عرض قرطاجة $32^{o}28'16''$، والمسافة عن خطّ الاستواء 22.730 مرحلة.

53- عن كيليسوريا (=سوريا المجوفة. ح. إ) انظر XVI، II، 16، 21؛ XVI، III، 1. ويقصد سترابون بسوريا العليا آشور.

54- أي دائرة العرض $43^{o}\ 17'\ 9''$.

55- ما يوافق $48^{o}\ 42'\ 51''$.

56- قارن II، I، 18.

57- أي $\frac{7}{12}$ عن 30^{o} أو عن $17^{o}\ 30'$.

58- كانت الذراع الفلكية تساوي 2^{o}.

59- دائرة العرض $52^{o}\ 17'\ 9''$.

60- انظر II، II، 3 و II، V، 37.

61- من خطّ الاستواء حتّى 66^{o} كلّ إنسان إمّا أمفيسكي أو هيتيروسكي.

62- من 66° حتّى 90°.

63- تحديداً على دائرة العرض 66° حيث تبدأ المنطقة الباردة.

64- أي قطب دائرة البروج الذي يرسم كلّ يوم دائرة في السماء حول قطب خطّ الاستواء. ويميّز مسقط هذه الدائرة على الأرض، المنطقة الباردة ويعد عملياً ما ندعوه نحن الآن «الدائرة القطبية».

الكتاب الثالث

الفصل الأول

1- انظر II، V، 4.

2- انظر II، V، 26.

3- يتحدّث سترابون عن خليجين «غلاطيين»: أحدهما «يتّجه شمالاً ونحو بريطانيا» (II، V، 28)، والآخر (الليوني) إلى البحر المتوسّط. ويحتوي هذا الأخير بدوره على خليجين (III، I، 6) - «أكثر اتساعاً»، أي أكثر اتساعاً من الخليجين الواقعين على الجانب الإيبيري من البيرينيه.

4- «إسفين».

5- لقد كان «التأمل» في الأداء المقدّس أحد عناصر الدين الإغريقي.

6- قد تكون هذه كرات زجاجية مملوءة بالماء.

7- بحسب إيمبيدوكلس أن الأشعة البصرية تخرج من العين. لكنّ أرسطو عارض هذه النظرية (أرسطو. الشعور، الفصل 2).

8- لقد اعتقد بعض الناشرين أنه ينبغي تغيير النص ليصبح: «إن طولها 6000 بيت».

9- انظر I، II، 23 و XVII، I، 9.

10- phosphoros.

11- قد يكون نصّ تانوسيوس الذي اتّبعه سترابون أعطى lux divina- «النور الإلهي» بدلاً من lux dubia- «غسق» (انظر: W.Aly. Strabon Von Amaseia.München, 1960, P.127).

12- يقصد سترابون هنا الميل الروماني. 1 ميل روماني = 8 مراحل.

الفصل الثاني

1- يقصد سترابون هنا الطول والعرض الجغرافيين (II، I، 32).

2- يدغم العلماء المعاصرون هذه المدينة بأسيديغيس (أسيدو) أو بإيطاليكا.

3- أو إيسكوا.

4- في العام 45 ق.م.

5- بحسب ديون كاسيوس (LIX، 18)، في مدينة ميديا الفريجية.

6- لقد كانت مدينة استا واحدة من المدن القضائية (iuris dictiones) التي كان يجتمع السكّان فيها لعقد جلسات المحاكمات القضائية (قارن بليني. التاريخ الطبيعي، III، 1، 3).

7- أو ربّما كونستانسيا.

8- III، I، 9.

9- قراءة كوريه بدلاً من «ثماني مراحل» التي وردت في المخطوط.

10- ملوّن باللون القرمزي يستخرج حراشف الهوام kermes ilicis.

11- تراب سينوبس- دهان أحمر من قبدوقيا؛ كانوا ينقلونه إلى اليونان عبر سينوبس.

12- قارن XII، VIII، 16.

13- قارن، بليني، التاريخ الطبيعي VIII، 73.

14- انظر III، IV، 18.

15- وفق تعاليم بوسيدونيوس، أن تأثير المحيط (المد والجزر)، هو سبب «تمايز» عالم النبات والحيوان البحريين «وخاصياتهما».

16- Ostracion cornuta- من الرخويات البحرية، التي استخدمت صدفتها بوقاً.

17- الكوتيل = 0.2736 ل.

18- المينا = 436.6 غ.

19- التالانت = 26.196 كغ.

20- Loligo vulgaris.

21- الذراع = 0.492 م.

22- ربّما تكون Quercus coccifera.

23- كلمة إيبيرية (قارن: بليني. التاريخ الطبيعي XXXIII، 21).

24- يحتوي على الشبّ وحمض الكبريت.

25- سبيكة من جزء واحد من الفضّة و4 أجزاء من الذهب.

26- فعلاً، إن صهر السبيكة أسهل من انصهار المعادن التي تتألف منها.

27- لعب على الكلمات: يدغم إله العالم السفلي هاديس بإله الثروة بلوتون (بلوتوس).

28- في لافرينا.

29- أي بحلزون أرخميدس.

30- أي أن استخراج الفلزات من أتيكا بعد استنزاف المناجم يستهلك الرأسمال المنفق هناك كلّه ويتطلب نفقات إضافية. وعادة ما ينسب هذا اللغز إلى هيرودوت (انظر: حياة هوميروس، 35).

31- التالانت الإيبي = 26.196 كغ.

32- لا تزال طريقة فصل الخلطات البسيطة هذه عن طريق الغربلة مستخدمة حتّى يومنا هذا، وهي تدعى Jigging.

33- إيفريتون، هو راعي هيريون الذي قتله هرقل.

34- في موقف سلبي من بيفوس، يحذو سترابون حذو بوليبيوس (قارن: I، IV، 3-5؛ II، IV، 1؛ III، IV، 4).

35- في زمن هوميروس.

36- الأوذيسا XII، 61؛ XXIII، 327.

37- إشارة إلى أسطورة قدموس وأنياب التنين.

38- الإلياذا II، 852.

39- قارن، بليني. التاريخ الطبيعي. III، 3.

40- أي أنهم منحوا حقوق المواطنية اللاتينية، وهي أقل من حقوق المواطنية الرومانية.

41- أي الذين يرتدون الزي الروماني: التوغا. وكانت التوغا عندئذٍ رمز السلام.

الفصل الثالث

1- من الواضح أن الرقم الذي ورد في المخطوط غير صحيح. وقد تكون قراءته الصحيحة على النحو الآتي: «210 مراحل». (إذا كانت المسافة من بارباريوس)، أو «1000 مرحلة» (إذا كانت المسافة من الرأس المقدّسة).

2- لم يذكر سترابون البرج في نصّنا هذا من قبل.

3- III، II، 3.

4- نهر «النسيان».

5- ربّما كانت هذه الكلمة هي الكلمة اللاتينية المتهدّمة oblivio: «نسيان».

6- على الراجح أن المكان متهدم. وقد اقترح الناشرون مختلف الكلمات بدلاً من كلمة «شمع»: الخشب، المعدن، القرون.

7- النص متهدم.

8- ينسب هيرودوت هذه العادة إلى الآشوريين (I، 197)، وهذا ما يفعله سترابون أيضاً (XVI، I، 20).

9- قد تكون الكلمة متهدمة، وينبغي أن تقرأ «كونيكي» (الذين مرّ ذكرهم في III، IV، 12).

10- قبيلة غير معروفة.

الفصل الرابع

1- لقد أقيمت نصب النصر غير بعيد عن المكان الذي يدعى اليوم La Junquera.

2- بحسب بطليموس أن المدينة دعيت سيكس (II، 4، 7).

3- تيمناً باسم البطل الذي حمل الهلينيون اسمه.

4- قارن XIV، IV، 3.

5- الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م).

6- كلوديان.

7- من الكلمة اللاتينية iuncus = «قصب».

8- معناها الحرفي «سهل الماراثون».

9- باللاتينية Campus Spartarius.

10- في العام 45 ق.م.

11- لقد قتل سرتوريوس في العام 72 ق.م.

12- في العام 49 ق.م.

13- أغسطس.

14- قارن III، III، 5.

15- البلتاستيون: هم المقاتلون المسلحون بأسلحة خفيفة.

16- III، IV، 6.

17- الغاليوس، هو خامة صوانية زنكية؛ والكوبوروس، هو ملح حمض الكبريت، والرماد المعدني، هو زبد معدني.

18- أي ساحل المحيط الأطلسي.

19- قارن كاتول، XXXIX، 19.

20- قبعة على شكل الرق (أو شيء ما يشبه العمامة).

21- أي ينتفنه أو يزلنه كيميائياً (قارن ثيوفراست. تاريخ النباتات، IX، 20، 3).

22- أو «احتقارهم للألم».

23- لم يهزم الكانتابريون نهائياً إلا في العام 19 ق.م. على يديّ أغريبا.

24- وهذه العادة شائعة عند كثير من القبائل التي تعيش مستوى متدنياً من التقدّم.

25- فئران الحقل (قارن: III، II، 6).

26- قد يكون هذا أحد فروع فصيلة Apiaceae أو ورد الحب السام (Ranunculus Sceleratus).

27- III، IV، 13.

28- أي (مثل II، IV، 5): «إلى أجزاء صغيرة وأملاك مستقلّة».

29- لقد وردت أولى الإشارات عن إيبيريا لدى هيكاتوس (حوالي العام 540 ق.م)، وهيرودوت (I، 163). أمّا إيراتوسفين فقد فصل إيبيريا عن سلتيا (انظر III، II، 11). وحسب بوليبيوس أن اسم «إيبيريا» لم ينسحب على شبه جزيرة البيرينيه كلّها قبل نهاية القرن 2 ق.م.

30- أي بين إيبير وجبال البيرينيه.

31- بحسب هيرودوت أن ستيفان البزنطي يوضّع هذه القبيلة في جنوب - غربي إيبيريا (S.V. Iberiai).

32- لقد امتدت الحدود بين الإسبانيتين عبر إيبير، لكنّها لم تكن ثابتة. ففي زمن يوليوس قيصر شملت إسبانيا التي على هذا الجانب، شبه الجزيرة كلّها، ما عدا بيتيكا ولوسيتانيا.

33- انظر XVII، III، 25.

34- III، II، 15.

الفصل الخامس

1- التسمية الأولى إغريقية، والثانية محلّية ورومانية.

2- سطح الأرض، هو الذي يميل.

3- في العامين 121- 120 ق.م.

4- بدلاً من الترس.

5- مؤلّفات فيليتوس مفقودة؛ ولا نعرف شيئاً عن هذه الملحمة إلا المقطع الذي ساقه سترابون.

6- III، II، 6.

7- في زمن سترابون دعوا أعمدة هرقل باسم كالبا (صخرة جبل طارق)، وأبيليك (على الساحل الإفريقي) ولكن من غير المعروف ما الذي تمثله هذه الجزر الصغيرة، لأنه ليس ثمّة جزر في مضيق كالبا.

8- قارن V، I، 7.

9- لانتصاره على الجرمنتيين في العام 19 ق.م.

10- المدينة «التوأم».

11- يرى بعض العلماء، أن هذه الجزيرة الصغيرة قد اختفت الآن.

12- عند الرومان: Portos Gadiatanus.

13- قارن III، II، 11.

14- الصوريون (نسبة إلى مدينة صور- ح. إ) والإيبيريون.

15- في «الداخل» تعني «إلى الشرق من» وفي «الخارج» تعني «إلى الغرب من».

16- انظر I، VI، 15.

17- انظر I، I، 17.

18- وفي مكان آخر (XVII، III، 20) يوضّع سترابون هذا الموقع على ساحل سرت الكبرى. وقد أقيم المذبح على الحدود بين قرطاجة وقورينائية تخليداً لذكرى الأخوين فيليني اللذين وافقا طوعاً على أن يدفنا وهما على قيد الحياة، لكي يمنحا قرطاجة حدوداً تحقّق مصالحها أكثر (سالوستيوس. يوغورتا 79).

19- أي مع الإيوليين والدوريين.

20- للمزيد عن هذا انظر IX، I، 6-7.

21- بحسب ديودوروس (XVII، 95)، إن الإسكندر أقام 12 مذبحاً تكريماً لاثني عشر إلهاً.

22- كالبا وأبيليك على وجه الخصوص.

23- على أعمدة برونزية (انظر المقطع 5).

24- النموذج البرونزي للأعمدة تخليداً لذكرى مآثر هرقل، كان مكرّساً للبطل.

25- الهرقليون، هو معبد وقطعة الأرض المقدّسة التي تحيط به.

26- حرفياً antipatheia. لقد شرح بوسيدونيوس هذه الظاهرة مستنداً إلى نظريته عن التوافق والتنافر بين الأشياء وكانت هذه النظرية قد قامت على أساس اليقين

القديم بالعلاقة الطبيعية الداخلية القائمة بين الأشياء (الحية وغير الحية) التي يمكنها أن تشعر بالميل نحو بعضها بعض أو بالنفور بعضها من بعض.

27- لقد شكّلت التناقضات الظاهرية («ما يناقض الرأي المعتاد») مكوّناً أساسياً من تعاليم الرواقيين.

28- انظر الحاشية 7 و2 الكتاب I، III.

29- انظر I، III، 4-5، نظرية الفيزيائي ستراتون.

30- أي سكّان غادير.

31- انظر الحاشية 17 الكتاب I، III.

32- أي 30°.

33- أي عندما تلتقي الشمس والقمر أو يعبران في درجة منطقة البروج عينها.

34- الربع الأول.

35- الربع الثالث.

36- أي ابتداء من الربع الثالث حتّى الهلال الجديد، يزداد الفاصل الزمني بين المدّ العالي والجزر العالي (والمد المنخفض والجزر المنخفض)، وكذلك تزداد سرعتهما.

37- الاعتدال الخريفي.

38- يحاول سترابون أن يبيّن مخالفة بوسيدونيوس لمنطق الأشياء: فمن جهة يتهم بوسيدونيوس الغاديتانيين بالغباء، ومن جهة أخرى يؤسس هو نفسه نظريته عن المدّ والجزر على معلومات مستقاة منهم هم أنفسهم.

39- أي نسبية انتظام المدّ والجزر أو عدم انتظامهما.

40- أي الموقف من علامات الاعتدال أو الانقلاب الشمسي. ويتّضح من هذا النص أن سلوقس وضع القانون الذي يفسر عدم توافق المدّ والجزر نهاراً في المحيط الهندي.

41- أي الجنود الرومان.

42- بعض المخطوطات يقول 50 مرحلة.

43- قد تكون Dracaena Draco.

44- من الواضح أنها النخلة الأوروبية القزمة Chamaerops humilis، وهي شجرة من فصيلة الصفصاف (نوع Salix).

الكتاب الرابع

الفصل الأول

1- بعد إيبيريا.

2- هي عند الرومان، غاليا التي وراء الألب.

3- II، V، 28؛ III، I، 3.

4- انظر IV، I، 14.

5- II، V، 28.

6- قارن II، V، 28.

7- أي «مذكرات الحرب الغالية».

8- Gallia Lugdunensis (غاليا اللوغدونية».

9- Gallia Belgica «غاليا البلجيكية».

10- خطأ: لقد تحدّث سترابون عن هذا في المقطع 14.

11- قار ن IV، IV، 3.

12- لم يتحدّث سترابون عن هذا من قبل.

13- Aquae Sextae.

14- الأكسوانون، هو تمثال خشبي مغرق في القدم، وهنا بمعنى النموذج.

15- حرفياً «المتقلدون منصباً شرفياً».

16- هيميروسكوبيوس، وإيمبوريوس، ورودوس (III، IV، 6-8).

17- مدينة أكوي سيكستي (هي مدينة إيكس المعاصرة) التي أسّسها سيكستوس كالفين في العام 122 ق.م.

18- أي الفلاسفة معلميّ الفلسفة والبلاغة.

19- انظر IV، II، 2 والحاشية.

20- سمكة من فصيلة Mullitidae نوع Mugil (الشبوط- Mugil Cephalus).

21- هو الآن Plain de la Crau.

22- قارن بليني. التاريخ الطبيعي، XXI، 57.

23- يدعو أرسطو (الكون، 4). بهذا الاسم، الهزّات الأرضية التي ترتفع الأرض أثناء حدوثها وتنخفض عمودياً في زاوية قائمة.

24- «هذا» أي «السهل الحجري».

25- أي بوسيدونيوس.

26- لقد دمّر ماريوس هذه القبائل التي تحالفت مع القمريين عند اكوي سيكستي في العام 102، وقد ساعده الماساليون على ذلك.

27- حرفياً: «المستنقع الذي عند المصبّ».

28- وفق نهر فار (قارن: IV، I، 3).

29- مقاطعة ناربونيتيس.

30- هكذا يدعو سترابون المدن الإغريقية في إيطاليا.

31- معناها الحرفي، هو «المتوضّعة بالصف».

32- المكان تالف.

33- أو ويندالوم.

34- حرفياً «الجوية».

35- احتفل بالنصر في العام 120 ق.م. ونال اللقب الشريف «أللوبروغي» (قاهر قبيلة الأللوبروغيين- ح. إ).

36- انظر III، II، 15.

37- انظر حاشية الكتاب IV، II، 2.

38- انظر المقطع 3.

39- واحدة من ثلاث قبائل غلاطية انتقلت لتستوطن فريجيا الكبرى (في آسيا الصغرى)، وحافظت على اسم التيكتوساغيين الذي حملته من سلتيا (قارن: XII، V، 1).

40- في العام 278 ق.م اجتاح الغاليون (الغلاطيون) بقيادة برين، شبه جزيرة البلقان وهاجموا دلفي. وقبل مئة عام كان الغلاطيون بقيادة برين آخر، قد استولوا على روما.

41- في العام 95 ق.م حكم على سرفيليوس سيبيون قنصل العام 106 ق.م بالنفي.

42- في العام 354 ق.م.

43- IV، I، 2.

44- أي المحيط.

45- قطن الليكسوبيون إلى الجنوب من مصبّ نهر سيكوانا، والسلتيون إلى الشمال منه.

46- من ملتقى رودان مع أرار عند لوغدونوم.

47- ابتداء من لوغدونوم؛ ولكن من غير الواضح أي نقطة نهائية يقصد سترابون.

48- نهر أرار.

الفصل الثاني

1- هذا ما فعله الرومان لأغراض إدارية.

2- قارن IV، I، 1.

3- بمعنى التقسيم الإداري.

4- أو سوقاً.

5- ليس واضحاً مع أي سيبيون تحدّثوا، ربّما مع سيبيون الإفريقي الأكبر.

6- لقد كان هؤلاء مقاتلون من بقايا جيش سرتوريوس الذين جمعهم بومبييوس وأسكنهم هذه الأرض. وقد دعيت مدينة هؤلاء Lugdunum Convenarnum.

7- لقد كان الفولكيون، والأريكوميسكيون، والويلاويون، والفوكونتيون يتمتّعون باستقلال ذاتي ملحوظ، ولم يخضعوا لصلاحيات الوالي الروماني (قارن: IV، I، 12).

8- انظر المقطع 12.

9- بالرومان والغلاطيين.

10- لقد أخذ سترابون هذا المشهد عن بوسيدونيوس.

الفصل الثالث

1- لا يعرض سترابون هنا التقسيم السياسي للبلاد بل التقسيم الفيزيائي والإثني.

2- النص تالف؛ أخذنا بقراءة مينيكي.

3- IV، I، 11.

4- قارن: قيصر. مذكرات الحرب الغالية I، 33.

5- أي أسينيوس بولليون.

6- «هنا» - أي ليس في مصبّ سيكوانا أو مصبّ الرين، إنّما في ميناء إيتوس (ميناء Wissant المعاصر).

7- ليس واضحاً عن أي حرب يجري الحديث: عن حملة دروز جرمانيكوس قائد فوج فار، أم عن حملة جرمانيكوس الأصغر.

8- انظر: قيصر، مذكرات، II، 17.

الفصل الرابع

1- يفيد قيصر بأن سمك أخشاب سفنهم يبلغ قدماً (مذكرات III، 4).

2- يقصد سترابون الإيتنيين، وهم قبيلة بافلاغونية (قارن: I، III، 2؛ V، I، 4).

3- أي الاستقامة والنزاهة.

4- قارن III، IV، 5.

5- قارن: قيصر مذكرات I، 1.

6- قارن: قيصر مذكرات II، 4.

7- قيصر مذكرات II، 4.

8- IV، I، 2.

9- معطف من قماش خشن.

10- لذلك دعا الرومان غاليا التي وراء الألب، «غاليا الشعراء» (Gallia Comata).

11- من الجلد (قارن: بوليبيوس II، 30).

12- كلمة سلتية؛ وباللاتينية matara.

13- بحسب بوليبيوس أن الغروسيف، هو رمح له مقبض خشبي سماكته إصبع (= 18.5 مم.- ح. إ). (VI، 22).

14- في زمن قيصر لم تكن الفئات الشعبية تشارك في إدارة الحياة السياسية (انظر: قيصر مذكرات VI، 13).

15- قارن: ديودوروس V، 31، قيصر مذكرات VI، 13-16.

16- الفيثاغورسيون مثلاً.

17- بحسب قيصر (مذكرات VI، 14) وديودوروس (V، 28)، أن الدرويديين وعظوا بنزوح الأرواح (تناسخ الأرواح).

18- قارن III، III، 6؛ XI، IV، 7.

19- قارن: قيصر مذكرات IV، 6، 13.

20- قارن: قيصر مذكرات IV، 16.

21- «إيو- آ»- صرخة ابتهاج يطلقها الباخوسيون احتفاء بديونيسيوس، الذي كان اسم «إيواس» أحد أسمائه الدينية.

22- قارن: ديودوروس V، 28.

الفصل الخامس

1- I، IV، 2؛ II، V، 28.

2- قارن II، V، 8؛ IV، I، 1.

3- IV، III، 3.

4- قارن الوقت المعطى في IV، III، 4.

5- أي 40 ميلاً رومانياً.

6- يخبرنا ديودوروس (V، 21) أنه لدى البريطانيين كثير من الزعماء القبليين الذين يتعايش بعضهم مع بعض بسلام.

7- انظر: قيصر مذكرات V، 21.

8- يقول قيصر: «بسبب الانتفاضة المفاجئة في غاليا» (مذكرات V، 22).

9- وقع هذا الفشل قبيل عودة قيصر الأولى من الجزيرة (مذكرات V، 29-28).

10- يذكر أغسطس في «Monumentum Ancyranum»، زعيمين بريطانيين جاءا إليه «متوسلين».

11- حرفياً: Linguria، أي جوهرة من الكهرمان الأحمر كانت تستخرج في ليغوريا.

12- انظر II، V، 8.

13- انظر I، IV، 3.

14- أي العرض الجغرافي (من الشمال إلى الجنوب)، والطول الجغرافي (من الشرق إلى الغرب) (انظر: III، I، 32).

15- يقترح بعضهم أن نقرأ بدلاً من Polyphagoi، أي «شرهين»، Poephagoi، أي «الذين يقتاتون بالأعشاب».

16- انظر على سبيل المثال: قيصر مذكرات VII، 77.

17- وقت حصار بوتيدا مثلاً (ثوكيديدس II، 70).

18- انظر I، IV، 2 وما بعدها.

19- يلح سترابون (II، V، 8) على أن الحد الشمالي للمعمورة، هو هيرنا (إيرلندا)، وعلى هذا النحو تكون فولا خارج حدود المعمورة.

20- انظر I، IV، 3.

21- قارن I، IV، 3.

22- انظر I، I، 15.

23- يبدو أنه شراب ما يشبه الجعة (انظر: أثينوس IV، 36؛ ديودوروس V، 26- عن الغاليين).

الفصل السادس

1- قارن XVII، III، 4.

2- يقدّم ديوسكوريدس في (V، 48) وصفة خلط النبيذ مع اللبان. وبحسب Jones (Strabo's Geography, II. P.266)، أن «هذا النبيذ لا يزال حتّى يومنا هذا «عشرينيات القرن 20م) يستهلك في اليونان».

3- البغل خليط من مهر وأتان.

4- انظر الحاشية 10 في الفصل IV.

5- انظر الحاشية 11 في الفصل V.

6- الكلمة الإغريقية Monoikos تعني «زاهد، ناسك» (ومنها اشتقت الكلمة المعاصرة موناكو)، هي صفة هرقل. وقد تكون هذه الصفة تخص الموقع المنعزل لهذا المكان.

7- الاسم الإغريقي.

8- يستنتج مما يقوله سترابون أن ميناء مونيكوس كان يقع في دائرة نفوذ الماساليين.

9- لقد دعاهم الرومان ليغوريين.

10- انظر IV، I، 12؛ II، IV، 2.

11- أي أنهم مستقلون لهم «الحقوق اللاتينية» (انظر: III، II، 15؛ IV، I، 9).

12- لقد كان هناك نهران باسم دوريوس: دوريوس الكبير ودوريوس الصغير، ويصبّ كلاهما في نهر باد. وسترابون يتحدّث هنا عن دوريوس الصغير.

13- انظر IV، I، 3. دونوس والدكوتيوس.

14- إن قوله «وباد» يعني أن السالاسيين عاشوا إلى الشمال من هذا النهر.

15- في العام 43 ق.م.

16- ربّما «السيوف الخشبية» التي كانت تستخدم في التدريب (قارن: بوليبيوس X، 20).

17- في العام 100 ق.م. تحوّلت المدينة إلى مستعمرة رومانية (بليني، التاريخ الطبيعي III، 21).

18- الترجمة الإغريقية للتعبير اللاتيني sub hasta، هي «يبيع بالمزاد العلني». ويقصد «بالباقي» من الأسرى، أولئك العاجزين عن حمل السلاح.

19- أوغسطابريتوريا تأسّست في العام 24 ق.م.

20- لقد أخضع دروز هاتين القبيلتين في العام 17 ق.م.

21- ليس واضحاً أيّ جبل هذا.

22- يصبّ إيسار في إيستر (الدانوب)، وليس في البحر الأدرياتيكي. واسم النهر متهدّم في المخطوط.

23- يبدو أن سترابون (أو الناسخ) يخلط بين نهرين: إيتش وإيزاخ، ومن غير الواضح أيهما أتاغيس.

24- بعضهم يدغم هـذا النهـر بنهـر أتيسـيس، وبعضـهم الآخـر بنهـر إيـن (نهـر إيـن المعاصر).

25- بحيرة كونستانس.

26- أو اليابيديون.

27- قارن VII ، V ، 2.

28- كوركورا (قارن: VII ، V ، 2).

29- ربّما كان يجب أن تقرأ «السكورديسكيين» (انظر: VII ، V ، 2).

30- سيغيستيكا.

31- ربّما يقصد بوليبيوس هنا حيوان الأيل (Cervus Alces)، الذي لم يعد له اليوم وجود في جبال الألب، أو تيس الصخور(capra ilex).

32- قارن IV، VI ، 7.

33- قارن المقطع 9.

34- قارن III، II ، 10.

35- انظر III، II ، 8.

36- بوليبيوس II ، 14.

37- أي سهول إيطاليا.

38- لا يفيدنا بوليبيوس (III ، 56) بشيء عن المكان الذي عبر هنيبعل الألب فيه، لكنّه يخبر أن هنيبعل، بعد عبور الألب «انحدر إلى وادي باد في منطقة الإينسوبريين». قد يكون هنيبعل عبر سان- برنار الصغير.

39- يعطي بعض المخطوطات الرقم «50».

40- يعطي بعض المخطوطات الرقم «50».

الكتاب الخامس

الفصل الأول

1- نقرأ في المخطوطات «جينتيين» أو «إينيتيين».

2- بوليبيوس (II ، 14) على سبيل المثال (وربّما أرتيميدور أيضاً).

3- نحو المشارق الشتوية تحديداً.

4- انظر IV، VI ، 1؛ IV، VI ، 10.

5- قراءة كرامر؛ وتعطي المخطوطات الرقم «1000». ودعا بوليبيوس هذا الجزء من إيطاليا «مثلثاً»، وأعطى (II ، 14) الأرقام التالية: الضلع الشمالية 2200 مرحلة،

والجنوبية 3600 مرحلة، والقاعدة (ساحل الأدرياتيكي من سينا حتّى منخفض البحر الأدرياتيكي) 2500 مرحلة.

6- قارن II، V، 20.

7- XXXIV، 11.

8- حرفياً «الصخرة البيضاء» (الآن Capo Dell, Armi).

9- عند الرومان: Gallia Transpadana و Gallia Cispadana.

10- IV، IV، 1.

11- قارن III، II، 13 و V، I، 1.

12- ديونيسيوس الأكبر (430-367 ق.م).

13- انظر المقطع 4.

14- قد تكون بيرغي وليست Regium Lepidum.

15- في العام 14 م. تحديداً. فحسب Res Gestae divi Augusti أن عدد المواطنين بلغ وفق معطيات هذا الإحصاء 4037.000 نسمة.

16- ماريوتيس (مريوط الآن، قارن: XVII، I، 7).

17- لقد اكتشف الآثاريون الفرنسيون (1892-1897) بقايا هذا الكنز في دلفي انظر: Frazer Pausanias, vol, V, P. 258.

18- التسمية الإغريقية للخليج، هي Adrias.

19- قارن: بليني، التاريخ الطبيعي III، 20.

20- قارن IV، VI، 10؛ VII، V، 2.

21- قارن V، I، 12.

22- ليس سكّان أكويليا فقط، بل سكّان المدن الأخرى الواقعة على مقربة من منخفض البحر الأدرياتيكي أيضاً.

23- ليس معروفاً أي نهر يقصد سترابون.

24- في العام 113 ق.م.

25- Timavi Fons (Timavo المعاصرة).

26- VI، III، 9.

27- عن إيريدان الأتيكي، انظر IX، I، 19.

28- بحسب الأسطورة أن أخوات فايثون - الهليادس قد حُوِّلن إلى غرغرات، وتحوّلت دموعهن إلى عقيق.

29- قارن I، II، 15.

30- انظر المقطع 4.

31- انظر I، II، 39.

32- ربّما الإينسوبرويون.

33- انظر V، I، 6.

34- قد يكون وقع خطأ هنا، فوضع نهر دروينسيا بدلاً من نهر دوريوس.

35- هذا ما يقرؤه أكثر الناشرين بدلاً من الرقم «60» الذي ورد في المخطوط.

36- يرى مينيكي أن نهاية الجملة حاشية ويستبعدها من النص.

37- م. إيميليوس سكافروس (عاش في الأعوام 163-89 ق.م).

38- في العام 187 ق.م.

39- بحسب مصادر أخرى أن طريق إيميليوس بناها غ. فلامينوس الأكبر في العام 220 ق.م (انظر عمود 2493، «RE, Flaminia via»).

40- انظر IV، I، 13 وسواها.

الفصل الثاني

1- البحر التيراني.

2- بالإغريقية Tarkunia.

3- لقد غدا حاكم المدينة (انظر VIII، VI، 20).

4- بحسب الرواية أن لوكومون غدا ملكاً في العام 615 ق.م.

5- في العام 509 ق.م.

6- في العام 390 ق.م

7- أي حق التصويت (isu suffragii).

8- لقد كانوا يسجلون أسماء المواطنين الرومان المحرومين من حق التصويت في «لوائح الكيريتانيين» (Tabulae Caritum).

9- دلفي.

10- انظر IX، III، 8.

11- كلمة إغريقية توازي قولنا «حييت» (حرفياً «ابتهج»).

12- Bagni del Sasso المعاصرة.

13- قارن V، II، 9.

14- في كريت.

15- المقالات، المقطع 16 والمقطع 250.

16- هذه المسرحية لم تصل إلينا.

17- وآرغوس أيضاً.

18- هذه المسرحية لم تصل إلينا.

19- أتثيدس، هو الاسم القديم لأتيكا، على اسم ابنة الملك الأسطوري كراناي.

20- قارن IX، III، 8 و IX، II، 3.

21- حرفياً «الإيستيين».

22- من لونا إلى كوسا.

23- انظر V، III، 8.

24- حرفياً tagmata، مصطلح لا يتوافق دائماً مع الدلالة على الفوج الروماني.- الذين هدرت دماؤهم: هم خصوم سولا السياسيون الذين حكم عليهم بالإعدام. لقد حوصرت فولاتيري في العام 79 ق.م. بحسب غرانيوس لوسينيانوس، أن الذين أدينوا أعدموا بعد عودة سولا مباشرة.

25- يخبرنا أرسطو (الغرائب. الفصل 93)، أن مناجم المعدن التي كانت قد استنفدت في هذه الجزيرة، عادت بعد فاصل زمني طويل لتمتلئ بالحديد من جديد.

26-يعود سترابون مرّة أخرى هنا إلى موضوعته المحببة (قارن I، II، 9؛ I، II، 38؛ III، II، 30).

27- قارن: بليني، التاريخ الطبيعي III، 12.

28- يصعب أن نحدّد من الذي يقصده سترابون هنا وفي خمسة أماكن أخرى (V، II، 8؛ VI، I، 11؛ VI، II، 1؛ VI، II، 11؛ VI، III، 10) باسم «كوروغراف». فقد رأى أكثر العلماء، بدءاً من كازوبون أن هذا «الكوروغراف» هو أغريبا (ظهير أغسطس الذي وضع ما عرف «بخارطة أغريبا»). لكنّ إي. بايس، ونسين، ومؤخراً ف. آلي، عبروا عن شكوك جدية حيال هذه المسألة. (انظر: W. Aly. Strabon von Amaseia München 1960, p. 427).

29- أي الضأن البري (ovis musimon)؛ قارن: بليني، التاريخ الطبيعي VIII، 75.

30- يعطي بليني (التاريخ الطبيعي III، 13) رقماً قريباً من الواقع: 200 ميل.

31- رخوية سرطانية الشكل من فصيلة اللافقريات (Balanus tubicinella).

32- purpura murex.

33- قارن المقاطع 2-4.

34- يفرق الكتّاب القدماء عادة بين فاليسك المدينة وفاليسك القبيلة، فقد سميت المدينة أيضاً «فاليسك» أو «فاليري» (وهي الآن أطلال Santa Maria di Falleri.

35- قارن XII، II، 7؛ XV، III، 14-15.

36- Tufa Latifolia- أحد أنواع القصب.

37- من سلتيا الواقعة على الجانب الآخر تحديداً.

38- قارن V، I، 11.

39- قارن V، II، 3.

40- أو كاميرين.

41- باللاتينية Fanum Fortunae.

42- V، II، 1.

الفصل الثالث

1- باللاتينية Quirites.

2- لقد ذهبت سذاجة السابين القديمة وصرامتهم مثلاً (قارن هوراس، القصائد III، 6؛ الرسائل II، 1، 25). وبسبب مثل هذه السمات يرى بعض الكتّاب (ديونيسيوس الغاليكارناسي. العاديات الرومانية I، 1؛ على سبيل المثال) أن أصل السابين من لاكونيكا.

3- في العام 17 ق.م. أكمل أغسطس بناء الطريق حتّى البحر الأدرياتيكي.

4- باللاتينية aequi؛ وفي مكان آخر (V، III، 4). يدعوهم سترابون نفسه «إيكويين».

5- باللاتينية Amulius.

6- في أفضل المخطوطات Romus وليس Remus.

7- انظر V، III، 7.

8- ما يدعى «الأخوة الأرفاليين» (Fratres Arvales، أي «الأخوة- الفلاحون»): أخويات مؤلّفة من 12 كاهناً يقال إن رومولوس هو من أسّسها.

9- باللاتينية Ambarvalia. عيد كان يحتفل به في 27، 29، 30 أيار؛ وجاءت تسميته من مشهد الدوران بحيوانات الأضاحي «حول الحقول».

10- قارن: ليفيوس I، 7.

11- لقد كان يطلق على القطاع المقدّس من الأرض، أو على معبد إله، اسم (ملجأ» (asylon)؛ وكان يحرّم أن يُمس بسوء المجرمون والعبيد الفارون الذين يلجؤون إلى مثل هذا الملجأ.

12- قارن V، III، 7.

13- Lucius Coelius Antipater.

14- أو Carmentis.

15- قد تكون متهدمة من «أفرونكيين»؛ كما قد تكون كلمة «ريكيين» متهدمة من «أريكيين».

16- أي الدالية التي تلتف حول الشجر (شجر الدردار بشكل رئيس).

17- ديميتريوس بوليوركيتوس.

18- من هذه الجذور «السحرية» كان العرافون - السحرة القدماء يحضِّرون مختلف «العقاقير» (مشروبات الحب وما شابه). وكانت كيركا الساحرة، هي الإلهة الحارسة «للساحرات» العرافات.

19- انظر المقطع 4.

20- «الأتيلانات» (Fabulae Atellanae)، هي كوميديا شعبية تؤدّى بالأقنعة، وكانت قد ولدت عند الأوسكيين، وهي مرتبطة بمدينة أتيلا». والإيمائيات، هي مشاهد ضاحكة ساذجة مرتجلة. وربّما كان سترابون يقصد «بالمباريات الاحتفالية»، عروض الشباب الريفي في احتفالات جني المحصول وقطاف العنب وما يرافقهما من أغاني وأشعار هجائية.

21- بحسب سترابون أن اسم «تراخينا» مشتق من الكلمة الإغريقية Trachys- «غير مستوٍ، حجري، صخري».

22- ثمّة خطأ هنا: النهر الكبير ليس أفيدس، بل أوفينس (Ufente المعاصر)، والآخر أماسين (Amaseno المعاصر).

23- بالإغريقية Hormos).

24- هي كلمة لاكونية تعني «تجويف»، «شق» (انظر VIII، V، 7).

25- بحسب فرجيليوس أنهم دعوها كايتيس (الإينادا VII، 2).

26- بحسب بليني (XXXI، 4) أن النساء كن يستشفين هنا من العقم، والرجال من الجنون.

27- V، III، 2.

28- ما سمي «خطف السابينيات» (انظر V، III، 2).

29- انظر V، III، 2.

30- قارن: هوراس. الرسائل I، 1، 100.

31- الذين دعوهم Cohortes Vigilum، تعدادهم 7000 نفر، وقد جمع هؤلاء بين مهمّة رجال الإطفاء، ومهمّة الحراسة الليلية (انظر: سفيتونيوس. أغسطس 25).

32- عمّا بناه «أصدقاء» أغسطس انظر: سفيتونيوس أغسطس 29.

33- يبدو أنه Campus Agrippae.

34- تقع بقايا الأضرحة على Via de Pontitici.

35- انظر: سفيتونيوس أغسطس 100.

36- كاليس (Calvi المعاصرة).

37- La Solfatara الآن (المياه الكبريتية).

38- Bagni di Grotta Marozza الآن.

39- Arx Praenestina.

40- ماريوس الأصغر، في العام 82 ق.م.

41- في العام 63 ق.م عمل كاتيلينا على أن يجعل من برينيست قاعدة لانتفاضته.

42- الجبال الفولسكية.

43- أي ديانا.

44- العنصر «البربري»، هو على سبيل المثال، تقليد تقديم الغرباء قرابين للآلهة (انظر يوريبيدس يفجينيا التافرية).

45- لقد كرّس ج. فريزر في مؤلّفه «الغصن الذهبي» صفحات رائعة لتوضيح هذه العادة الغريبة.

46- Lacus Nemorensis - جافّة الآن. وكان القدماء يدعونها «مرآة ديانا» (Speculum Dianae).

47- Lacus Albanus (Lago di Albano الآن).

48- جففت في الأعوام 1855- 1869.

49- لقد اعتقل هناك مثلاً، سيفاكس، والملك النوميدي، وبرسيوس المقدوني (ليفيوس XXX، 17؛ IIV، 42).

الفصل الرابع

1- أي من الحدود الجنوبية لسلتيا على الجانب الآخر من الألب (قارن: V، I، 3).

2- ربّما كان نقار الخشب (Picus) طوطم هذه القبيلة.

3- كان اسم المدينة على المسكوكات النقدية، إيطاليا.

4- وفق النموذج الروماني، كان عندهم قنصلان واثنا عشر قاضياً. لقد استمرت الحرب الماريسية أو حرب الحلفاء من العام 90 حتّى العام 88 ق.م.

5- لقد قتل بومبيديوس سيلون في العام 88 ق.م، قبيل نهاية الحرب بقليل.

6- يبدو أن اسم المدينة متهدم في المخطوط.

7- خليج نابولي.

8- باللاتينية: رأس منيرفا.

9- «رأس» باللغة اللاتينية Caput.

10- بالإغريقية kymata

11- انظر VI، I، 6.

12- حرفياً «أضحية للأموات» (أي لأرواح الأموات)، لاستدعائها من هاديس- التسمية التقليدية لأحد عشر نشيداً في «الأوديسا» يروى فيها عن نزول أوديسيوس إلى هاديس، والطقوس السحرية لاستدعاء أرواح الأموات منها.

13- إن كلمة «أفيرن»، بالإغريقية aornos، تعني «المحروم من الطيور» (قارن: فرجيليوس. الإينيادا VI، 239، لوكريسيوس VI، 740).

14- لقد دعيت الأماكن التي كانت تتصاعد منها الغازات السامة، بالكهوف البلوتونية أو «البلوتونيات». وبحسب معتقدات القدماء، إن تلك الأماكن هي مراحل إلى العالم السفلي. وقد دعيت الكهوف نفسها «خارونية» (انظر XIII، IV، 14؛ XIV، I، 11 و 14).

15- أحد أنهار العالم السفلي.

16- الأرغيلا، هي مساكن طينية مبنية في جوف الأرض.

17- باللاتينية putei.

18- مشتقة من الكلمة اللاتينية puteo - «تفوح منها رائحة كريهة».

19- أي البلاد «الملتهبة، المشتعلة».

20- طف بركاني.

21- باللاتينية Forum Vulcani.

22- المدينة الجديدة.

23- الديمارخ، هو الموظف الرئيس لدى النابوليين.

24- المكان الذي يتدرب فيه الشباب (الإيفيبي).

25- اتحادات عشيرية.

26- المقصود هنا - بالمعنى الشامل - كلّ الفنون «الموسيقية».

27- لا يوجد الآن في Grotta di Posilipo أيّ كوى- إنارة. ويبدو أن سترابون خلط بين هذه الطريق النفق، وطريق كوما.

28- Herculaneum.

29- الحقيقة أن الرماد البركاني لا يحتوي بحدّ ذاته على مادّة «دهنية» تغني

التربة. لكنّ المادّة العضوية «الدهنية» تتراكم في الرماد البركاني أثناء عملية تحلّل طويلة في الهواء الطلق، وبعد مضي زمن طويل تتشكّل التربة الخصبة.

30- قارن V ، IV، 3.

31- على أساس ما نقله الكتّاب القدماء (بليني VIII ، 82؛ فاليريوس مكسيموس VII ، 6)، يدقق بعض العلماء كلمة «ميديمن» إلى «فأر».

32- V ، III، 9.

33- إلى ما كان يدعى Villa Publica.

34- بحسب سترابون أن كلمة «سابيليين» تعني «السابين الصغار»، لكن غني عن البيان القول إن مثل هذا الاشتقاق لأسماء العلم لا يمت إلى العلم بصلة.

35- وكأنهم ينحدرون بأصلهم من بيتانيا اللاكونية.

36- ربّما يجدر بنا أن نقرأ «لوكانيا» بدلاً من «كامبانيا» (المكان في المخطوط تالف).

الكتاب السادس

الفصل الأول

1- قارن: هيرودوت I، 167.

2- هنا لعب على الكلمات لا يمكن أن يترجم: كلمة "شعب" بالإغريقية Laos.

3- حرفياً Laoi.

4- أي البحر الادرياتيكي.

5- في العام 357 ق.م.

6- بحسب شهادة بافسانيوس (VI ، 6، 2) أنّ الموحى أمر أن تقدّم إتاوة سنوية للبطل زوجة تكون أجمل فتيات تيميسا.

7- انظر: VII ، III، 4.

8- بحسب كازوبون أن النبوءة تقول: احذر أيها الإياكي، إياك أن تقترب من أمواج أخيرونت || وباندوسيا ، إذ قدر لك الموت حيث قدرك.

9- أي إغريق صقليا.

10- قارن: VI ، III، 3؛ VIII ، IV، مقطع 4.

11- من الواضح أن النص تالف.

12- قارن VI ، I، 9.

13- قارن VI ، III، 3؛ VIII ، IV، 4، 9.

14- قارن I، III، 19.

15- Regium.

16- ديونيسيوس الأكبر.

17- على شرف فيبيوس- أبوللون.

18- الصخرة البيضاء.

19- أي، اللوكريين الغربيين.

20- في حوالي العام 734 ق.م.

21- النصّ تالف.

22- لقد نفي ديونيسيوس الأصغر في العام 357 ق.م.

23- هي محاور فولكلورية نموذجية. وينقلون قصصاً مشابهة عن "التيران"، مثلاً، عن البابا VI بورجيا، وعن إيفان الرهيب.

24- قارن: أفلاطون. الدولة 404 A40 SE.

25- زير الحصاد- Cicadidae s.Stridulantia، حشرة من طائفة Rhynchota ذوات الخراطيم، فصيلة Homoptera. يتألف جهازها الصوتي من أغشية. أمّا المعلومات التي ساقها سترابون عنها، فهي اختلاق صرف.

26- على وجه التحديد لمن عليه أن يبدأ أولاً.

27- قارن VI ، I، 6.

28- أي من دلفي.

29- Aulon.

30- VI ،I، 4.

31- لم يبق نص بوليبيوس، ولذلك لا يمكن قبول هذا الرقم.

32- 240 ميلاً رومانياً - 1920 و2000 مرحلة.

33- لقد جرى ترميم النص بدءاً من كلمة "مع أنه" حتّى كلمة "خليج" تقريباً.

34- نحو الجنوب الشرقي.

35- تشتقّ كلمة Neaithos في الإغريقية من كلمة neas aithen- "يحرق السفن".

36- يعتمدون عادة العامين 710 و734 ق.م تاريخين لتأسيس كروتون وسيراكوزا. وبحسب سترابون أن سيراكوزا تأسّست بعد كروتون مباشرة.

37- قارن VI ، I، 10.

38- قراءة مشكوك في صحّتها.

39- لدى سقوط طروادا لجأت كاساندرا إلى المعبد واحتضنت تمثال أثينا.

40- تخمين غروسكورد؛ وفي المخطوطات Teuthras.

41- لقد قتل هرقل 11 ولداً من أبناء نيلييوس الاثني عشر، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى نسطور.

42- سيريس وميتابونتي.

43- ابن سيزيف؛ وكان اسمه الآخر ("البربري") ميتاب.

الفصل الثاني

1- تريناكريا- "ذات القمم الثلاث"؛ وترينا كيديس- "ذات الانياب الثلاثة" (كالشوكة).

2- نحو الجنوب الشرقي.

3- الكوروغرافيا، هي وصف أماكن قائمة بذاتها (انظر V، II، 7).

4- الأقاليم، هي دوائر العرض؛ انظر I، I، 12، ملاحظة 14.

5- لقد حدّد بوسيدونيوس (بحسب ما يمكن استنتاجه) قمم المثلث اعتماداً على "الأقاليم" (إذ بيَّن دوائر عرضها ودوائر طولها). ورأى سترابون أن المعطيات التي حصل عليها بوسيدونيوس بهذه الطريقة، هي معطيات شديدة الغموض.

6- نحو الجنوب الشرقي.

7- أي عن باهين.

8- أي أن خطوط الزوايا القائمة على الضلع سوف تتّجه نحو الجنوب الشرقي.

9- لكي يستطيع الإنسان أن يرى السفن الصغيرة على مسافة 135 ميلاً، يجب أن يملك قدرة خارقة على الرؤية، كما يجب أن يكون واقفاً على علو لا يقلّ عن ميلين.

10- أي أن خطوط الزوايا القائمة على الضلع تتّجه نحو الشمال الغربي.

11- تأسّست في حوالي العام 734 ق.م؛ وهدمها ديونيسيوس في العام 403 ق.م.

12- تأسّست مع ناكسوس في وقت واحد تقريباً؛ ودمّرت في العام 214 ق.م.

13- بحسب ثوكيديدس (VI، 4) أن zanklion، هي كلمة صقلية محلّية.

14- قارن I، II، 36.

15- حرفياً "كومة نفايات".

16- في العام 476 ق.م.

17- لعب على الكلمات، فكلمتا "قرابين مقدّسة" تنطقان بالإغريقية hierōn (بصيغة الجرّ)، كما ينطق اسم هذا التيران.

18- في العام 467 ق.م.

19- في العام 461 ق.م.

20- III، V، 4.

21- انظر VI، I، 12.

22 - VI، I، 12.

23- بين البيلوبونيز وصقليا.

24- أيّ هوّة.

25- انظر VI، I، 3.

26- وكذلك إريكس.

27- أي بقايا المستوطنات.

28- ما يسمّى "مخروط الانفجار" في مركز نصف دائرة فوهة البركان.

29- V، IV، 9.

30- يبدو أن الكلمة متهدّمة.

31- قارن XVI، II، 7.

32- قارن: بليني، التاريخ الطبيعي VI، 31.

33- في أركاديا.

34- V، I، 8.

35- انظر: بليني. التاريخ الطبيعي XXXV، 52.

36- أي جزيرة هيفيستا "المقدّسة".

37- VI، II، 8.

38- قارن: بليني، التاريخ الطبيعي III، 14.

39- الاوذيسا X، 21.

40- I، II، 7-8.

41- النصّ تالف. قد يكون "عنصراً حقيقياً أو أسطورياً" أو "عنصراً يثير المتعة أو الدهشة".

42- حرفياً، "المستديرة".

43- "الثنائية". تتكون الجزيرة (سالينا المعاصرة) من مخروطين بركانيين.

44- حرفياً، نبات "الخلنج".

45- "نخلة أو "زوان".

46- "اليساري".

47- تحديداً من مدينة ليبارا.

48- كان قاضياً على صقليا في العام 90 ق.م. ويدقق بعض الكتاب اسمه فيغدو عندهم "فلامينين" - قاضي العام 123 ق.م)، ويعيدون الانفجار إلى العام 126 ق.م. (قارن: بليني، التاريخ الطبيعي. II، 88).

49- 88 ميلاً.

الفصل الثالث

1- أي إينوتريا (قارن VI، I، 15؛ V، I، 1).

2- الرقم غير صحيح؛ قد يكون 1200 أو 1220 مرحلة (انظر المقطع 5).

3- في الحرب مع هنيبعل أخذت تارانت جانب القرطاجيين، ثمّ أعاد الرومان الاستيلاء عليها في العام 209 ق.م.

4- أبوللون في دلفي.

5- أي، طريق العودة إلى كريت.

6- أي، نحو الجنوب الشرقي.

7- هو السائل الذي يجري في عروق الآلهة، كما كان يعتقد هوميروس.

8- VI، II، 1.

9- VI، III، 1.

10- VII، 170.

11- VI، III، 2.

12- الرقم غير صحيح. قد يكون "800 مرحلة".

13- حتّى باريوس.

14- قارن V، 1، 9.

15- كانوا يقدّمون للأبطال الذين يقيمون في العالم السفلي شاة أو خروفاً لونهما أسود قرباناً. وكان على سائل الموحى أن يقضي ليلة في كهف البطل ينام فيها على جلد، وينتظر رد الموحى الذي سيرد إليه في الحلم.

16- قارن I، II، 13؛ II، I، 7-8؛ II، IV، 3.

17- في العام 216 ق.م.

18- V، IV، 2.

الفصل الرابع

1- قارن II، III، 1.

2- أي المنطقة الباردة والمنطقة الحارّة.

3- يرى بعضهم في هذا المقطع ما يدعونها "مدائح إيطاليا" (Laudes Italiae) التي كانت شائعة في الأدب الروماني في زمن سترابون (لدى فارون، وفرجيليوس، وبروبيرسيوس). ولكنّ المقطع في حقيقة الأمر تطبيق عملي لتعاليم بوسيدونيوس عن الأعراق (قارن: عمود 380، RE, Poseidonios).

4- في العام 387 ق.م غزا الغال روما واستولو عليها.

5- في العام 146 ق.م.

6- في العامين 134-133 ق.م.

7- من مصطلحات قانون الدولة الرومانية (fides et amicitia)؛ قارن: Pap. OXY. 705, 31.

8- مصطلح في قانون الدولة الرومانية - amicitia.

الكتاب السابع

الفصل الأول

1- يقصد سترابون هنا إلى المحيط "الخارجي" أو المحيط "الشمالي".

2- البويين على سبيل المثال (انظر IV، III، 4).

3- تخمين كرامر، مذكرات حربية، مخطوط koldu̅on.

4- المعنى الحرفي: "بيت البويين"؛ ومن هنا جاءت تسمية "بوهيميا".

5- قتل في العام 9 ق.م، إثر حادث أليم (ليفيوس، إيبيتوما 140).

6- دعاها الرومان Fabaria (جزيرة الفول). (بليني. التاريخ الطبيعي، IV، 27).

7- في العام 9 م.، في غابة تيفتوبورغ.

8- وعلى غير ذلك: تيودوريخ.

9- قارن: تاسيت، مدونات تاريخية. 1، 55.

10- IV، VI، 9؛ VII، I، 3.

11- هي الآن بحيرة كانستان أو بودين.

12- أرقام المخطوط مشكوك بها. فبحسب المعطيات المعاصرة أن طول البحيرة 64 كم، وعرضها 14 كم (عمود 895، Meyers Neues Lexikon s.v).

الفصل الثاني

1- لقد كان المرجل يستخدم لدى تقديم الذبائح، وفيه كانت تسيل دماء الأسرى الذين يذبحونهم (انظر VII، I، 5).

2- قارن III، V، 9.

3- الامفورا = 196 ,26 ل.

4- قارن VII، II، 1.

5- VII، I، 1.

6- المحيط الشمالي "الخارجي".

7- انظر I، I، 12.

8- قارن II، V، 7؛ VII، III، 7.

9- II، V، 26.

10- II، V، 30.

11- هو عند سترابون المحيط الأطلسي والشمالي معاً.

الفصل الثالث

1- قارن: بليني، التاريخ الطبيعي IV، 26.

2- قارن، I، III، 2، 2.

3- نحو الغرب.

4- نحو الشرق.

5- نحو الجنوب. بحسب الجغرافيا الشعرية أن "مسكن" بورياس (ريح الشمال) يقع في الجبال الريبية أو البلقانية على "الصخرة الساربيدونية".

6- المقطع من تراجيديا مجهولة.

7- أفلاطون، فيدرا، 229.

8- المعنى الآخر لكلمة Palin، هو "من جديد، مرّة أخرى". ويستخدم هوميروس هذه الكلمة (حسب أريستارخ)، بالمعنى المحلّي، لا بالمعنى العابر.

9- "... والهيبيمولغيين، الرجال البارعين، الأبيين، الأكثر عدلاً بين البشر كلّهم" (XIII، 5-6).

10- تخمين مينيكي، بدلاً من BM. Liguriskoi.

11- حرفياً: "السائرون في الدخان"- صفة غير مفهومة؛ اقترحت لها تصحيحات: kapnobotai وkapnopatai "الذين يبتلعون الدخان"، أي، الذين يقتاتون على ما هو بائس وخفيف كالدخان.

12- وهي صفة غير مفهومة أيضاً؛ ومعناها الحرفي، هو "المؤسّسون".

13- الإلياذا II، 701.

14- الإلياذا XIII، 5.

15- Deisidaimonia - "الخوف الخرافي من الآلهة".

16- انظر رواية أخرى لقصة زاموكلسيوس لدى هيرودوت (IV، 94-96).

17- يدغم بعض العلماء هذا الجبل بجبل Gogany (في المجر).

18- ينطق هذا الاسم في بعض النصوص: بيريبيستا (VII، III، 11؛VII، III، 12).

19- والأصح: "عن سجل السفن الهوميروسي".

20- الإلياذا II، 496.

21- الإلياذا II، 497.

22- الإلياذا II، 502.

23- الإلياذا II، 503.

24- قارن XII، III، 26.

25- أي "غير المضياف".

26- "المضياف".

27- I، II، 25.

28- يرى بعضهم أن تعبير "كما يقولون" تعبير مضاف وليس من أصل النص، ولذلك يستبعدونه. وعن ذوي العين الواحدة انظر: بروميثيوس المقيد 804؛ وانظر أيضاً المقطع 431، والمقطع 441، ناؤوك.

29- قارن VII، III، 1.

30- يبدو أن القراءة متهدمة.

31- لقد قطن الميروبيون، بحسب ثيوبومبوس، في بلاد أسطورية أكبر من أوروبا، وآسيا، وليبيا معاً (إيليان. التاريخ المختلط III، 18).

32- انظر II، IV، 2.

33- لا تحتوي مؤلّفات أرسطو التي وصلت إلينا، مثل هذه الكلمات.

34- قارن I، II، 17-19.

35- I، II، 24.

36- مثلاً، XII، III، 26.

37- حلاّبو المهرات.

38- الذين يقتاتون باللبن الحامض.

39- الفقراء، الذين لا يملكون وسائل العيش.

40- يقصد بهم، القبائل التي كانت لا تزال تحافظ على سمات العلاقات البدائية الشيوعية.

41- أفلاطون، الدولة D- 460 B ,458 C-D. 457 D 543 ,540.

42- مقطع من مسرحية مجهولة.

43- قــارن VII، III، 14. في رده علــى تهديــد داريــوس، قــال الملــك الســكيثي إيرانثيرس: "إذا ما تجرأت ودنست مقابر أجدادنا، فسوف أريك!" (هيرودوت IV، 127).

44- في مؤلّفه المفقود "نمط العيش" (مقطع 691، أرنيم).

45- لقد وقع ليسماخ في الأسر ثمّ أطلق سراحه في العام 291 ق.م.

46- لقــد طــور أفلاطــون هــذه الفكــرة في كتــاب "القــوانين" (IV، 704-705)، وليس في كتاب "الدولة".

47- لم يبق ليصل إلينا.

48- علــى أغلــب الظــنّ أن هــذه الملحمــة تضــمنت الكتــاب الثالــث مــن "الإيــوي العظماء" (لكنّ الملحمة مفقودة).

49- المقصــود هنــا، هوكيريلــوس الساموســي، الشّــاعر الملحمــي (الــذي عــاش في القرن 5 ق.م). ولم تبق الملحمة لتصل إلينا. انظر XIV، V، 9.

50- أثناء الحملة السكيثية (انظر. هيرودوت IV، 83-93).

51- قنصل العام 4 م. (لعله حاكم مقدونيا).

52- انظر VII، III، 5.

53- VII، III، 5.

54- VII، III، 8.

55- الدانوبيّ الآن.

56- من بحر مرمرة عبر البسبور.

57- بحســب فــور بيجــر (Strabo's Erdeschreibung, Bd .3, p.89)، أن هــذا البــرج افتتح في العام 1850.

58- تيراسا، حيث تقع مدينة أكيرمان الآن.

59- أطلال على مقربة من نيقولاييف.

60- جزء من بيسارابيا المعاصرة.

61- هم بحسب هيرودوت (IV، 20)، السكيثيون الملكيون.

62- اســم القبيلــة تــالف في الــنص. فــالمخطوط A يحمــل في الحواشــي كلمــة Ungroi- "المجريــون"؛ ويقــترح الناشــرون أن تقــرأ georgoi ("الفلاحــون"، قــارن: VII، IV، 6).

63- الغانغاما- شيء ما يشبه الحربة.

64- اوستر (Acipenser Sturio)، قارن: هيرودوت IV، 53.

65- قارن II، I، 16.

66- لقد فسّر أرسطو ظاهرة "الشموس الكاذبة" (Parhelia). بانكسار أشعة الضوء (انظر: ميتيورولوجيا III، 2، 6؛ III، 6، 5).

67- انظر VII، III، 17.

68- البليفر = $\frac{1}{2}$ مرحلة (32.8 م).

69- في الشطر الجنوبي من خليج كاركينيت (بحيرة باكال الآن).

الفصل الرابع

1- بيريكوب المعاصر.

2- هو "البحر العفن" الآن، أو سيفاش.

3- قد يكون "كالوس ليمين" الذي يرد ذكره في "قَسَم كيرسونيس" (على مقربة من خور اكميتشيت).

4- شبه الجزيرة الهيراقلية المعاصرة.

5- أي، شبه جزيرة القرم.

6- أي، هيراقليا البونتية (قرب سيفاستوبل على شاطئ خوركاركينيت).

7- تدعم بأرطميس أو إيفجنينا (انظر: 185 .184 IOSPE, I,).

8- تدغم برأس فيولينت البحرية (أو برأس فاناريا).

9- "مرسا الإشارة" (خور بالاكلاق المعاصر).

10- خور سيفاستوبل الكبير (حرفياً: "مرسا المشط"، وربّما يكون المرسا قد أخذ اسمه هذا، لأنّ الشاطئ يخترق البحر هنا بعدد من الرؤوس الحادة).

11- كيرسونيس القديمة.

12- أي، وراء بيريكوب.

13- جبين الخروف.

14- قارن II، V، 22.

15- مضيق كيرتش.

16- على وجه التحديد باريساد الأول (347-309 ق.م).

17- باريساد الخامس.

18- تانايس، وهي مستعمرة ميلتوسية (قرب قرية تيدفيغوفكا).

19- بلدة اخيللوس (عند أوّل لسان اليابسة الشمالي في شبه جزيرة فونتان).

20- انظر XI، II، 3.

21- الذين يعيّنهم الرومان (انظر VII ، IV ، 7).

22- الميديمن = 52.53 غ.

23- عـن تجـارة البسـبور بالاقمـاح مـع أتيكـا : انظـر : ديموسـفين ضـدّ ليبـتين 32؛ وعن تصدير الأسماك المملحة من البونتس انظر: بوليبيوس IV، 38، 4.

24- أي "الفلاحين".

25- الإلياذا XIII، 6.

26- الإلياذا XIII، 6.

27- إلى الشرق من سيفاستوبل على الراس البحرية المقابلة بين مرسا سيفاسـتوبل وخور المدفعية.

28- هو بحسب هيسيخيوس (S.V) تيس ماعز كبير لا قرون له.

الفصل الخامس

1- انظر VII، III، 15.

2- VII، I، 1.

3- الشطر الجنوبي من دالماسيا، وكذلك جبال ارديا (انظر. VII، V، 5).

4- قارن VII، V، 6.

5- بحيرة بودين (انظر VII، I، 5).

6- تدعوهم المخطوطات "تينيين"؛ انظر VII، I، 2؛ وتصحيح ك. ميوللر.

7- VII، I، 11.

8- كلمة متهدمة؛ قد تكون "باتيس".

9- انظر VII، V، 1.

10- يصبّ نهر دراب (درافا) في الدانوب، وليس في نوار (وهذا النهر مجهول).

11- V، I، 1، IX؛ VI، III، 10.

12- نهر تيتيوس (كيركا المعاصر).

13- ب. كورنيلوس سيبيون ناسيكا كوركول، في العام 155 ق.م.

14- وتدعى كوركيرا أيضاً.

15- يرون فيهم أسلاف الكالابريين الإيطاليين (قارن: .RE, Galabri, s.v).

16- اسم المدينة مجهول.

17- قارن VI، II، 4.

18- هي الحشرة: (DactiLopius Vitis Nedzelsky). أو: .Pseudococcus Vitis

19 - يدعى Atrianus (انظر. بطليموس III، 1، 21).

20- الأدرياتيكي وإيجة.

21- جبل هيمون.

22- انظر: II، IV، 2؛ X، III، 5.

23- VII، III، 7؛ VIII، X، 13.

24- VII، IV، 5.

25- من الواضح أن اسم القبيلة قد تهدم. ويقترح بعض الناشرين أن يقرأ "أغريانيين".

الفصل السادس

1- كان ارتفاعه 30 قدماً، وثمنه 500 تالانت من الفضلة (بليني. التاريخ الطبيعي XXXIV، 18).

2- انظر VIII، III، 8، 14.

3- أحد المعبدين، هو معبد سارابي سارابيوم)، والمعبد الآخر معبد زيوس أوري (واهب الريح المواتية). (انظر: Roscher. MythoLogisches Lexicon. Leipzig, 1924, s.v Urios).

4- نوع من أنواع أسماك التتة.

5- في فارناكيا.

6- معناها الحرفي "كوخ". يدعوها كتاب آخرون كابيلا (بطليموس III، 11).

7- بحسب ثيوبومبوس (الذي ينقل عنه سفيدا، s.v Dulon Polis)، أن المدينة كانت تدعى بونيروبوليس ("مدينة الأشرار")، ولكن بحسب بطليموس (III، 11) وبليني (IV، 18)، كانت تدعى فيليبوبوليس.

الفصل السابع

1- يدغم سترابون الجيانتيين بالـ Syes (= hyes)، أي خنازير.

2- V، II، 4.

3- لم يبق من مؤلّف أرسطو هذا سوى مقاطع.

4- ثمّة في النصّ الإغريقي لعب على الكلمات: كلمة "شعب" تعني (laus)، وكلمة حجر تعني "Laas").

5- لجذر كلمة Leleges معنى "يجمع".

6- التي هجرها سكّانها.

7- هو ايميليوس باولوس المقدوني(قنصل العامين 182 ، 162ق.م) ، في العام 168ق.م.

8- أي أن الطريقين تلتقيان في نقطة تقع على المسافة نفسها من المكانين.

9- أي ردوا نسبهم إلى اياكس الأسطوري ابن زيوس.

10- "المرسا الحلو".

11- عند أكسيوم في العام 31 ق.م.

12- مدينة النصر.

13- II، 68.

14- موقع المدينة مجهول؛ فليس في إيبير مناجم فضّة (قارن: RE, Damastion).

15- المدن الثلاث.

16- V، II، 4.

17- مستتقع بالإغريقية hele.

18- وعلى غير ذلك: سيلينيس.

19- "المؤوِّلين".

حواشي مقاطع الكتاب السابع

1- حمام.

2- بكلمة "الجغرافي" كان المعلّقون ومصنفو المقتطفات المتأخرون، يعنون سترابون تحديداً.

3- معناها الحرفي "كبار السن"؛ كان هؤلاء يؤلفون "مجلس" الشيوخ (هيروسيا) في اسبرطا.

4- أطلق هذا المثل على الذين لا يكفون عن الثرثرة.

5- تخمين كرامر؛ وفي المخطوط، فرجة.

6- تأتي بعد ذلك كلمة غير منشورة.

7- قارن VI، III، 2.

8- التسمية مشتقة من كلمة آرغوس (المقدونية) (قارن: VII، VII، 8).

9- أي ليس بالـ e كما في كلمة Botteatēs، بل بالـ i، كما في كلمة Bottiaioi.

10- بوتّيا.

11- أي أن كلمة "امفاكسي" تتشكّل من حرف الجر amphi (حول، من الجهتين)، والاسم الموصوف (نهر آكسي).

12- الإلياذا II، 751.

13- الإلياذا XIII، 301.

14- انظر المقطع 14.

15- يقترح بعضهم أن تقرأ "بيلاغونيا" بدلاً من "بيليبيا". (لأن بيليبيا لا تذكر في أي مكان آخر).

16- الإلياذا XXI، 158.

17- انظر المقطع 23.

18- أي، من المصبّ.

19- في العام 168 ق.م.

20- الإلياذا II، 849.

21- إن كلمة Aia تعني "أرض" عند هوميروس.

22- وعلى ذلك، آيا.

23- V، IV، 4، 6.

24- قارن VI، I، 12.

25- أي، الامازونيس.

26- "الموت للجعلان".

27- رأس نيمفييوس البحرية.

28- "المدينة السماوية".

29- قارن المقطع 33.

30- "الطرقات التسع".

31- بحسب أبيان (في الحروب الأهلية IV، 105)، أن مدينة دات حملت بعد ذلك اسم فيليبا، واسم كرينيدا.

32- الإلياذا XXI، 141.

33- إنشاد "البيانا" (نشيد النصر)، على شرف أبوللون.

34- صرخة استنهاض للطيطانيس.

35- في العام 42 ق.م، وبعد المعركة تحوّلت فيليبا إلى مستعمرة رومانية.

36- أي، "القرية الصلبة".

37- معناها الحرفي "رؤوس الفاسيين"؛ والمقصود هنا، عدد من الرؤوس البحرية التي شغلها الفاسيون.

38- شقيق برسيوس الأصغر وولي عهده.

39- إيميليوس باولوس المقدوني الذي انتصر على برسيوس عند بيدني في العام 168 ق.م.

40- VII، 58.

41- VII، 58.

42- أو إيلايونت.

43- في المخطوط "طول" البرزخ (انظر المقطع 51).

44- "قبر الكلب".

45- "قبر هيكابا" التي تقول إحدى روايات الأسطورة إنها حولت إلى كلبة.

46- السور الطويل.

47- الشاطئ الأبيض.

48- الجبل المقدّس.

49- تعليقات على "سجل السفن" الهوميروسي (في الكتاب الثاني من "الإلياذا")، وكان المؤلّف يتألّف من 30 كتاباً (وهو الآن مفقود).

50- قارن II، V، 22.

51- المقطع 51. بيرغك.

52- الإلياذا II، 844.

53- إلى الكيكونيين على وجه التحديد.

54- وراء التراقيين الذين امتدت حدود منطقتهم حتّى إينوس.

55- أي، عن كتاب "الجغرافيا".

56- يعيد كايبل الضمير "هو" إلى بومبيوس، ويترجم النص على النحو الآتي: "كان بومبييوس يعرف... بوسيدونيوس".

57- "العكر".

الكتاب الثامن

الفصل الأول

1- لقد كانت تلك إرشادات متخصصة وضعت للبحارة تحديداً. "أوصاف عامّة" (periodoi) انقسمت إلى "بيريبيلوس" (وصف السواحل)، و"مراس" (limenes)، و"بيرييجيزس" (المنعطفات البرية) (انظر: ج. تومسون. تاريخ الجغرافيا القديمة. موسكو، 1953، ص 81. الهامش 3).

2- I، 2؛ II، 36.

3- قارن VIII، V، 6.

4- VIII، III، 33.

5- ثرموبل.

6- من ثرموبل حتّى مصبّ بينييوس.

7- يفترض بعضهم أن فراغاً يلي ذلك.

8- منطقة اللوكريين الإيبيكنيميديين.

الفصل الثاني

1- قارن II، I، 30.

2- معناها الحرفي "مضيق"، "أكثر أجزاء إيستم ضيقاً" (قارن VIII، VI، 4).

3- VIII، I، 3.

4- انظر VIII، V، 1.

5- تخمين كاب، بدلاً من المخطوط: "أكثر".

6- "منجل".

7- على أساس IX، III، 1 يفترضون أن كلمة "لوكريين" سقطت في المخطوط.

الفصل الثالث

1- "الرملي".

2- أي "الجوفاء، التي تقع في تجويف إيليدا".

3- النص تالف؛ تخمين جونز؛ يقرؤها. ميوللر "أنيغريادا" بدلاً من "أغريادا".

4- tre وphyle = "القبائل الثلاث".

5- في نشيد "الإلياذا" الثاني.

6- كلمات أثينا.

7- الإلياذا II، 605.

8- الإلياذا II، 511.

9- الإلياذا II، 659.

10- المقطع 5.

11- مثل؛ انظر: ستيفان البزنطي. Koryphasion s.v.

12- "الرملية"، هي الصفة التي وصف بها هوميروس بيلوس.

13- كالأمهات اللواتي يعلّقن على أعناق أطفالهن أشياء ما، لكي يميّزنهم بها

عن الأطفال الآخرين.

14- بدلاً من إيسخيليوس يقرأ مينيكيه "أرخيلوخ".

15- تغيير ترتيب الكلمات، تغيير نظام الكلمات في الجملة.

16- من الواضح أن الكلمة متهدمة؛ قد تكون هنا أرطميس النيمية.

17- قارن الإلياذا، XI، 698.

18- VIII، III، 17.

19- بحسب بوليبيوس (XVI، 17)، 10 مراحل.

20- ليس واضحاً ما إذا كانت هذه قرية أم نهراً.

21- Hedyosmos.

22- تخيب التربة هنا الآمال المعقودة عليها، وتعطي محصولاً سيّئاً.

23- يبدو أن الكلمة متهدمة؛ وبدلاً من "أنيوس" يقرأ بعضهم "أنيغرس" أو "ألثيوس".

24- الإلياذا، XX، 329.

25- XII، III، 5.

26- لا ذكر للكافكونيين في مؤلّفات أرسطو التي وصلت إلينا.

27- انظر VIII، III، 20.

28- ينقل بافسانيوس (V، 5، 5) أن ميلامبوس رمى ببنات بريتوس في نهر "التطهر" لكي يبرأن من الجنون.

29- ربّما يكون من الأفضل أن يقرأ "مينتيوس"؛ فعندئذٍ يرتبط هذا الاسم بجذر كلمة menein "ينتظر"، "يتأخر".

30- قارن I، II، 16.

31- VIII، III، 19.

32- انظر الهامش 1 في الكتاب VIII، 1، 1.

33- VIII، III، 13.

34- السفير المقدّس في دلفي.

35- يقول نص هوميروس: "عند شاطئ كيلادونت" و"بجوار حصون ثييا، وغير بعيد عن تيارات ياردانوس".

36- VIII، III، 3.

37- VIII، III، 8.

38- مستنقع.

39- شاطئ.

40- أي أنهم يدعون المدينة "إيفيكتيتوس" (الحسنة التجهيز والتنظيم)، وبذا يجعلون الكلمة الأخرى صفة.

41- Thryon- "قصب".

42- س. يا. لورييه (لغة العصر الميسيني وثقافته. موسكو- لينينغراد 1957. ص 193) يقترح أن تقرأ بدلاً من المخطوط: eph'hekatera epi thatera- "وراء ألثييوس".

43- يربط سترابون thoai بـ thoo- "شحذ"، ولا يربطها بـ thoos- "سريع"، "مندفع".

44- يدغم سترابون إيثاكا هنا بإيثاكا المعاصرة أو بثياكا؛ ومن الواضح أنه يدغمها في أماكن أخرى بليفكادا (كما في I، III، 20؛ II، 28 مثلاً).

45- الإلياذا XI، 691.

46- الإلياذا XI، 691.

47- الإلياذا XI، 670.

48- الإلياذا XI، 707.

49- أي، الإيبيين.

50- بحسب "سجل السفن" (الإلياذا II، 581- 586). VIII، V، 8.

51- VIII، V، 8.

52- الألعاب البيثية، والنيمية، والإيستمية.

53- الإلياذا XXIII، 255.

54- الإلياذا XI، 699.

55- الأوذيسا XI، 236.

56- "مسقى"، وفيما بعد "إناء لسقاية المواشي".

57- الإلياذا XXIV، 544.

58- يستبعد مينيكيه وكرامر الكلمات التي بين قوسين مربعين.

59- المقطع 14، ناؤوك.

60- بحسب بافسانيوس (VI، 22، 7)، بمياه الينبوع الذي يجري إلى نهر كيفيروس.

61- الإلياذا II، 591.

62- يصحّح ك. ميوللر هذا الرقم إلى 670 (VIII، II، 1؛ VIII، III، 12).

الفصل الرابع

1- أسّسها إيبامينوندس في العام 369 ق.م.

2- الإلياذا II، 582.

3- الإلياذا II، 585.

4- بحسب ثوكيديدس (VI، 3) أنهم كانوا تحت قيادة إيفريميدونت وسوفوكلس (في العام 425 ق.م).

5- ثوكيديدس IV، 30.

6- IV، 3.

7- الإلياذا IX، 152، 494.

8- في العام 31 ق.م.

9- أي تجاور منطقة ميثونا.

10- VIII، III، 28.

11- الإلياذا IX، 150.

12- وعلى نحو آخر: بيللينا.

13- VIII، III، 25.

14- VIII، IV، 4.

15- aipeia- مؤنث مشتق من aipys- "شديد الانحدار"، "عالٍ".

16- الإلياذا IX، 151.

17- انظر VIII، III، 23.

18- في المخطوطات 250 مرحلة.

19- VIII، III، 1.

20- فيليب الخامس (220- 178 ق.م).

21- دمّرها ل. موميوس (146 ق.م)، وأعاد بناءها يوليوس قيصر في العام 46 ق.م.

22- انظر VI، 1، 6.

23- المقطع 8، بيرغيك.

24- لا يذكر ديودوروس (XV، 66) سوى ثلاث حروب ميسينية.

الفصل الخامس

1- قارن الأوذيسا IV، 1: الواقعة في أعماق لاكيديمون.

2- معناها الحرفي "فك الحمار".

3- مستنقع.

4- الإلياذا II، 877 -484.

5- فراغ في المخطوط.

6- VIII، III، 29؛ VIII، IV، 1.

7- بدلاً من krithē,dōma mapsidon (قارن: أرسطو العرض الشعري، A 1458).

8- المقطع 88، ديلس.

9- "بصر"، "رؤية".

10- مستنقع".

11- بدلاً من erion - "صوف".

12- "مقود".

13- الإلياذا، II، 583.

14- "مدمّرو الغابات".

15- التاريخ التقليدي لاستيلاء الدوريين على لاكونيا، هو حوالي العام 1104ق.م.

16- لفيلونوم، انظر المقطع 5.

17- فراغ في المخطوط لحوالي 15 حرفاً.

18- VIII، VII، 1.

19- تخمين كوريه: tarachē بدلاً من archē (البداية).

20- أي، أنه طرد على أغلب الظنّ (ويقول آخرون إنه مات).

21- دعي غايوس يوليوس، تيمّناً بقيصر.

22- أي، للإخلاص لقيصر.

23- لقد أعاد أغسطس تنظيم اتحاد المدن البيريئيكية اللاكونية، أي مدن "اللاكونيين الأحرار" (eleutherolakones)؛ لقد ضم الاتحاد لدى تأليفه 24 مدينة تابعة لإسبرطا.

24- الإيللوت، هم أحفاد السكّان الأصليين المقهورين الذين استعبدهم المستعمرون الدوريون.

25- "المؤسّسان".

26- ملك إسبرطا (394 -408 ق.م).

27- انظر، VIII، III، 2.

28- أي، منتقديّ هوميروس.

29- "وحوش بحرية"، "حيتان".

30- أي، الوحوش "التي تعيش في الكهوف الجبلية".

31- على هذا النحو ينقل جوكوفسكي، الصفة ketoessan؛ "الذي تخدّده الثغور"، "الذي تكثر فيه الهاويات".

32- الأوذيسا IV، 1؛ والإلياذا II، 581؛ لكنّ هذه الصفة تغيب في الأوذيسا XXI، 13.

الفصل السادس

1- Limēra- "ذات المرسى الجيد".

2- يخلط سترابون هنا بين ناوبليوس ابن بوسيدون وأميمونا (جد بالاميدس)، وناوبليوس والد بالاميدس.

3- قارن VIII، VI، 11.

4- أسينا التي في أرغوليدا، وليس أسينا الميسينية.

5- انظر، VIII، II، 1.

6- أي، "ذات الجياد".

7- الإلياذا II، 287.

8- أي، بيت آغاممنون.

9- I، 3.

10- الإلياذا II، 867.

11- آرغوس.

12- يرى كرامر ومينيكيه أن الكلمات التي بين القوسين قد أُدخلت على النص وليست من أصله.

13- VI، II، 4.

14- البيت لشاعر مجهول.

15- "الظامئة جدّاً"، "اللاماء فيها".

16- "الذي به رغبة جامحة".

17- "الكثير الأذى"، "المهلك".

18- "مهلك".

19- ipsetai- "يحشر"، "يفني".

20- iapsei.

21- proiapsen.

22- "إلى آرغوس".

23- الإلياذا I، 270.

24- اكتشفه الآثاريون الأمريكيون (انظر: Waldstein. The Argive Heraeum. New York, 1920). هيريون هو معبد هيرا الذي التهمه حريق في العام 423 ق.م. (ثوكيديدس، IV، 133)، وأعيد بناؤه في العام 420 ق.م.

25- النصّ تالف.

26- معناها الحرفي: "صيادو الأسماك".

27- لهارون النوتي الذي ينقل الأموات عبر نهر هاديس الذي يسمّى ستيكس.

28- دلفي.

29- اتحاد دول المدن الإغريقية لتأدية طقوس العبادة، وفض النزاعات بالطرق السلمية.

30- معناها الحرفي" "الذين يتوسلون الحماية".

31- نحو الشمال الشرقي.

32- في المقطع 10.

33- Myrmēkes.

34- البيت لشاعر مجهول.

35- الديموس الأتيكي (منطقة) يدعى إينويا، وليس إينونا. والمثل هو لسكّان ديموس إينويا الذين استجروا مياه نهر "هارادرا" الجبلي لري مزروعاتهم، لكنّ هذا الأخير تسبّب لهم بدمار كبير.

36- الإلياذا II، 562.

37- انظر: هيرودوت I، 82.

38- ضدّ القضاة الرومان، مثلاً (انظر، VIII، V، 5).

39- إيفجينيا التافرية، 508، 510.

40- أوريستوس 98، 101، 1240.

41- أي، منحت اللجوء لتركويني.

42- تركويني بريسكوس.

43- لعب على الكلمة تتعذر ترجمته: المعنى الحرفي للكلمة histus:
1) "أنوال حياكة"، 2) "ساريات"، 3). "قباطنة السفن".

44- يرتفع هذا المكان المستوي 65 م فوق السهل الواقع بينه وبين خليج كورينثوس.

45- "ينبوع الجياد".

46- من أكروكورينثوس.

47- نحو الشرق.

48- "جبال الحمير". يخلط سترابون بينها وبين الجبال الهيرانية (هيرانيا- "جبال الغرانيق") الواقعة على الحدود مع ميغاريدا.

49- "مخاضة".

50- ربّما "من أسيبيا"، وهي مدينة أركادية.

51- غير معروف في أي مؤلّف يقول أرسطو هذا.

52- فيليب ابن ديميتري ملك مقدونيا (في الأعوام 178 - 220 ق.م).

53- انظر، VIII، IV، 8.

54- أي، لدى الحديث عن أعمال رسامين آخرين. ويقول التأويل الآخر لهذا المثل (انظر: بلوتارخ. موضوعات المائدة I، 615A): "ليس لهذا أي صلة بديونيسيوس"، بل يتعلّق بالتراجيديا ويعكس احتجاج المشاهدين الأثينيين ضدّ المستجدات التي جاء بها ثرينيكوس وإيسخيليوس اللذان وسعا أطر التراجيديا إلى حدود جعلت ديونيسيوس خارجها تماماً تقريباً.

55- في العام 31 ق.م.

56- في العام 44 ق.م.

57- معناها الحرفي: "المدفونات الكورونثية".

58- ophryōneta- "المقطّب الحاجبين"، ولذلك "كثير التلال"، "عالٍ".

59- أناشيد على شرف الإله برياب (وفيما بعد حملت دواوين الشعر الماجن هذه التسمية).

60- ابن أنتيغون (بوليوريكتوس) (انظر: بافسانيوس II، 7).

61- في العام 251 ق.م.

الفصل السابع

1- VIII، V، 5.

2- في العام 371 ق.م.

3- في العام 280 ق.م.

4- انظر I، III، 18.

5- في بانيونيا على رأس ميكال البحرية (انظر: هيرودوت I، 148).

6- أي في العام 373 ق.م.

7- جواد بحري أسطوري.

8- بحسب بوليبيوس (II، 43)، 25 عاماً.

9- أنتيغون هوناتوس.

10- في العام 241 ق.م.

11- في العام 224 ق.م.

12- أي، سترابون. من هنا وحتّى آخر الفصل يتقطع النص ويرد سرد العالم البزنطي إيبيتوماتور.

13- في المخطوط الأصل: الباتريون، والفاريون.

14- في المخطوط الأصل "التريتيون".

15- معناها الحرفي "يخلط بين".

16- يقرؤها الناشرون كلّهم تقريباً على هذا النحو بدلاً من "كيرافنيا".

17- أي على حدّ قول أناباسيس V، 3، 8.

18- في العام 31 ق.م.

19- من dýein - "يغوص"، (يغرب"، يغيب"، dýsme - "جهة الغرب".

20- في العامين 76 - 68 ق.م.

الفصل الثامن

1- ميغابوليس.

2- البيت لشاعر مجهول.

3- في العام 362 ق.م.

4 - VI، VI، 2، 9.

5- عبر قنوات جوفية.

6- يبدو أنه خطأ ارتكبه الناسخ؛ والصحيح "5 (أو أربع) مراحل".

7- Berethra.

8- جبل هاون (انظر: بافسانيوس II، 24).

9- في حساب بوليبيوس.

الكتاب التاسع

الفصل الأول

1- VIII، I، 3.

2- انظر I، I، 12.

3- أي، أتيكا.

4- IX ، I، 1؛ VIII ، I، 3.

5- أي، البلاد الساحلية.

6- انظر V ، 2، 4، الهامش.

7- قد يكون فيلوكور عنى بذلك معبد أبوللون البيثي الذي في إينويا، أو المعبد الواقع بين إيليفسين وأثينا.

8- قارن VIII ، I، 2.

9- سكيرا.

10- pitys - "شجرة الصنوبر".

11- kerata - قمّتا الذيل الجنوبي الشرقي لجبل كيثيرون، اللتان على شكل قرنين.

12- هذا بحسب كتيسيوس (التاريخ الفارسي 26)؛ ولكن بحسب هيرودوت (VIII ، 97)، أن كسيراكس حاول أن يفعل هذا بعد موقعة سلامين.

13- في الزمن القديم كانت تقع هنا مقالع حجارة.

14- لقد بنى بيرييوس المعماري الشهير هيبودام الميلتوسي الذي وضع فيما بعد مخطط بناء مدينة رودوس وبناها.

15- في العام 86 ق.م.

16- المعبد الذي يسمّى الأريختيون.

17- قارن: بافسانيوس I، 26، 7.

18- بيريجيستوس، هو مؤسّس الإرشادات الجغرافية التي تضمنت وصفاً تفصيلياً للأماكن ومعالمها.

19- الملك أنطوخ إيبيغان، 175 - 164 ق.م.

20- الرواق الذي تغطية اللواحات الجدارية التي حفرها بوليغنوتوس في أوساط القرن 5 ق.م.

21- V ، II، 4.

22- أي، الآيستيين (انظر V ، II، 4).

23- مؤلّف مفقود.

24- هذا البيت لشاعر مجهول.

25- أفضل المخطوطات لا تذكر سوى أسماء 11 مدينة.

26- لقد شقّت الأرض صاعقة زيوس الذي أنقذ البطل بهذه الطريقة.

27- X، I.

28- لقد كان الجزء الأعظم من العسل يستخرج قديماً بتدخين خلايا النحل.

29- Gephyra - "جسر"، gephyri smoi - "الطُّرف على الجسر"، هي الطُّرف التي كان يتبادلها المكرّسون في المسرحيات الدينية الإيليفسينية في أثناء المسيرة التي كانت تنطلق من أثينا إلى إيليفسين.

30- فيدر 229 D-A.

الفصل الثاني

1- II، V، 21؛ VII، VII، 4؛ IX، I، 2.

2- انظر XIII، I، 3.

3- قرب ليفكترا ومانتينيا.

4- في معركة هيرونيا (في العام 338 ق.م).

5- في العام 335 ق.م دمّر الإسكندر المقدوني طيبة.

6- في العام 316 ق.م. أعاد كاساندروس بناء المدينة.

7- Bathys Limen.

8- IX، II، 2.

9- حرفياً، "بني في البرج (برج الاتصالات) انبوب (أو ممرّ تحت الأرض)".

10- واقع الأمر، هو أن التغيّر لا يقع بانتظام. (H. L. Jons. The Geography of Strabo, IV London, 1932, p.291).

11- تمثال "الصامت".

12- دعيت باسم مؤسّسها تاناغرا- بيماندرس (بافسانيوس IX، 10).

13- الأشخاص الذين يسألون موْحى دلفي.

14- أسوار أثينا.

15- معنى كلمة مركبة بالإغريقية، هو hrma.

16- هو اسم حصان أدراستوس (الإلياذا XXIII، 346).

17- تخمين ديريس.

18- المقطع 73، بيرغك.

19- بالإغريقية hele.

20- الغالا الإيسكونيدية، والغالا الأراثيندية.

21- VIII، VII، 4.

22- انظر VI، II، 1.

23- انظر على سبيل المثال: أفلاطون. الدولة 611.

24- أي، بمد i ووضع العلامة التي تحدّد طريقة النطق، بدلاً من التشديد: أو عن طريق نطق الحرف S مشدداً، بمد المقطع.

25- انظر I، II، 24.

26- مع الحرف الإغريقي إيبسيلون - Nysán.

27- باستثناء الجهة الشرقية على بحر إيبيوس.

28- انظر VIII، VIII، 4.

29- أي، بحيرة كوبايدس التي جفت الآن.

30- بالإغريقية platē.

31- helos - "مستنقع"؛ helē - "مستنقع".

32- معناها الحرفي "مجاديف".

33- الإلياذا II، 502.

34- IX، II، 13.

35- anchoē - الجريان إلى الأعلى.

36- فراغ في المخطوط؛ النص الحرفي هو "كراتيت... أوقف عملية تنظيف التراكمات، و...".

37- إنّ هذا غير ممكن، لأنّ ميلان يجري شمالي البحيرة، أمّا هاليارتوس فيقع جنوبيها.

38- وتدعى أيضاً، بانوبيوس.

39- IX، II، 8 وIX، II، 12.

40- الإلياذا II، 497.

41- الباخوسيات.

42- VIII، VI، 24.

43- في القصيدة الملحمية "طيبائيدا".

44- معناها الحرفي: "تجويف".

45- VIII، VI، 22.

46- IX، II، 3.

47- IX، II، 10-11.

48- انظر IX، II، 20.

49- VIII، VI، 24.

50- أي، "الأدغال".

51- بينداروس.

52- عند هوميروس "آرنا".

53- وقعت في العام 338 ق.م.

54- Eudeielos- "الشمسي"؛ يربط سترابون خطأ هذه الكلمة بكلمة deile - "المساء"، منطلقاً على أغلب الظنّ من تصوّر مفاده أن قيظ الشمس يبلغ حده الأعلى مساء (deilē). وتستخدم كلمة Eudeielos للدلالة على الأماكن التي تتجّه نحو الجنوب، أكثر من تلك التي تميل نحو "المساء" (نحو الغرب) (قارن: بينداروس. أوليمبوس III، 111).

الفصل الثالث

1- IX، II، 1.

2- في حوالي العام 595 ق.م.

3- معبد أبوللون في دلفي.

4- بيثيا أو بيثو.

5- "يستفهم من الموْحى"؛ والاشتقاق الأكثر صحّة، هو اشتقاقها من pythesthai - "تعفّن" (لأنّ التنين الذي قتله أبوللون تعفّن وتحلّل في هذا المكان).

6- عضو المجلس، مستشار.

7- في العام 352 ق.م.

8- أي "قواس، رامي سهام".

9- نشيد جماعي يؤدّى على شرف أبوللون، وأرطميس والآلهة الآخرين.

10- الكيثاريدس، هم الذين يغنّون على أنغام القيثارة، والكيثاريون، هم الذين يعزفون على القيثارة.

11- المطلع.

12- البروفا.

13- الدعاء.

14- الصفير.

15- يبدو أنّ سترابون يقصد هنا إلى اللحن الذي كان يؤدّى في زمنه (أو في زمن الكاتب، الذي قد يكون إيثو الذي يقتفي أثره هنا). وينسب ابتكار النوموس البيثي إلى ساكادس (القرن 7 ق.م) (انظر: بوللوكس IV، 77).

16- Lambizein- "يوبّخ"، "يشتم".

17- انظر IX، II، 11.

18- صيحة ترحيب بأبوللون- الشافي (بيان).

19- "أقصى أجزاء الخليج"، "تجويف"، "وهدة".

20- يستند سترابون خطأ إلى ثوكيديدس. فالأخير يقول (II، 29): "في هذه البلاد (دافليدا) عانى إيتيس على أيدي فيلوميلا وبروكني".

21- في حوالي العام 457 ق.م. (ثوكيديدس I، 108 -107).

22- IX، II، 3.

23- عن التاج، 168.

24- استولى فيليب على هذه المدينة في العام 338 ق.م.

25- IX، III، 1.

26- schisai: يربط سترابون اشتقاق هذه الكلمة بسخيدوس.

الفصل الرابع

1- أوبونت.

2- polyandrion.

3- خطأ. ففي واقع الأمر أن عرض المضيق أقل بمرتين.

4- الإلياذا XXIII، 85.

5- IX، III، 1.

6- مأخوذ من كلمة kalos - "جميل، بديع"، وaroo - "يحرث".

7- أي، "الوادي الحراجي".

8- في زمن هوميروس؛ tarphos- "دغل" (انظر الإلياذا II، 533).

9- Naus- "سفينة" وجذر- pact - "يركّب"، "يبني".

10- الإلياذا II، 640.

11- من ozein - "فاح".

12- IX، III، 4.

13- "البوابات الحارّة".

14- VII، 198، 200.

15- أي، باستيلائه على هذا الموقع، استطاع أن يضع اليونان كلّها تحت رقابته، حتّى من وهو في مقدونيا البعيدة.

16- انظر IX، IV، 2.

17- هجائية الشّاعر المعروف سيمونيدس.

الفصل الخامس

1- في أماكن أخرى (VII، VII، 1 وVII، VII، 8) يلحق سترابون الأمفيلوخيين بالإيبيروتيين.

2- الإلياذا II، 756 - 685.

3- أي، الأشعار المتعلّقة بفينيكس.

4- فرسال القديمة.

5- الإلياذا II ، 727.

6- الإلياذا II ، 704.

7- IX، V، 4.

8- IX، IV، 13.

9- ثلاث مرات: الإلياذا، XVI، 174، 176 وXXIII، 144.

10- فراغ في المخطوط.

11- الإلياذا XXIII، 142.

12- الإلياذا II، 175 - 173.

13- من بيليون (انظر الإلياذا II، 144).

14- في المخطوطات "10"؛ تصحيح كرامر.

15- الإلياذا، II، 696.

16- أثينا الإيتونية.

17- IX، II، 3، 29، 33.

18- الجذر pag- "يبني"، "يبني السفن".

19- باللغة الدورية pagai.

20- Aphetērion.

21- IX، IV، 15.

22- على أغلب الظنّ أنه ثمّة خطأ هنا. وقد صححه غروسكورد إلى "بيليّ"، أي العيد الذي يقام على شرف بيلييوس.

23- انظر VIII، IV، 3-4.

24- انظر X، I، 6.

25- XII، VIII، 14.

26- انظر XIII، IV، 14.

27- أي، Thōmē.

28- Thōmos- حرفياً، "كوم من الحجارة".

29- المقطع .82B شنيدر.

30- يبدو أنّ النصّ تالف.

31- أونفوري، هي مدينة في تساليا، تقع على مقربة، من آرنا (ستيفان البزنطي، s.v).

32 - VII، المقطع 14، 15.

33- الإلياذا II، 596.

34- IX، V، 16.

35. انظر XIV، I، 18.

36- IX، V، 15.

37- بدلاً من "إيليون".

38- "الأرض البيضاء".

39- كيبيلا.

40- فراغ في المخطوط. ملأه جونز.

41- الإلياذا II، 751.

42- في العام 197 ق.م.

43- الإلياذا II، 738.

44- الإلياذا II، 734.

45- الإلياذا II، 749.

46- كورونيدا، والدة أسكليبوس.

47- VII، المقطع 16 b.

48- كرامر: بدلاً من "إلى إيثوليا".

الكتاب العاشر

الفصل الأول

1- رأس ثرموبل وسونيوس البحريتين.

2- أي "الجزيرة الطويلة".

3- IX، II، 2.

4- في الداخل، أي المنطقة السفلى أو الجنوبية الشرقية، وفي الخارج، أي المنطقة العليا أو الشمالية الغربية.

5- أو "جوف".

6- إيليثينور.

7- أرسطو من خليكدا (القرن 4 ق.م).

8- أبانت.

9- إيبيوس.

10- معلف البقر.

11- أي، من الكلمتين eu- "جيد"، وbous- "بقرة".

12- III، الفيليبية، 32.

13- oreios- "جبلي"، "من سكّان الجبال".

14- IX، V، 17.

15- الإلياذا II، 538.

16- حجر الإسبستوس، الحرير الصخري.

17- تخمين كازوبون، اللامية بدلاً من "الماليوسية".

18- انظر X، I، 3.

19- في العام 334 ق.م.

20- انظر IX، II، 8.

21- VI، 31.

22- في العام 322 ق.م.

23- الساريسا، هو رمح طويل كانت تستخدمه الكتائب المقدونية. أمّا المقصود بالمزراق هنا، فهو المزراق الروماني المقذوف (pilum).

24- VI، I، 13.

الفصل الثاني

1- VIII، III، 11.

2- VIII، II، 3.

3- أسّسها أغسطس في العام 31 ق.م. بعد انتصاره على أنطونيو.

4- خطأ. فأليزيا تقع في منتصف الطريق بين ستراتوس وأناكتوريوس.

5- أي، إيثوليا "المكتسبة".

6- الإلياذا II، 639.

7- لا يذكر هوميروس ليفكادا سوى مرّة واحدة دعاها فيها "ليفكادا الصخرية" (الأوذيسا XXIV، 11).

8- يقرؤها جونز: نيريكوس.

9- Leuka.

10- Halma.

11- مؤلّف كتاب مآثر ألكيميون مجهول.

12- Epeiros.

13- الإلياذا II، 634.

14- كلمات تيليماخ.

15- الإلياذا II، 632.

16- الأوذيسا XXIV، 376.

17- الأوذيسا IX، 21.

18- الأوذيسا XXIV، 377.

19- الإلياذا III، 201.

20- حرفياً Klimata.

21- لدى عبور خطّ الاستواء من الشمال إلى الجنوب تختفي أعداد لا عد لها من الدوائر القطبية الشمالية، كما يختفي أيضاً حيز السماء الجنوبية ذو الصلة، عندما يعبر عابر السبيل خطّ الاستواء بالاتجاه المعاكس، أي من الجنوب إلى الشمال.

22- Klima.

23- Klima.

24- في العام 59 ق.م.

25- على أغلب الظنّ أن قيصر من سمح له. عاد إلى روما في العام 44 ق.م.

26- الأوذيسا، XVI، 247، 249.

27- الأرجح خطأ. والأدق "700" بحسب بليني (IV، 9) أن الرقم هو 744 مرحلة.

28- أي نحو مطلع الشمس شتاء (الجنوب الشرقي).

29- الأرجح خطأ. والأدقّ "500".

30- الأوذيسا I، 180.

31- الأوذيسا XV، 427.

32- X، II، 4.

33- الإلياذا XIII، 217.

34- الإلياذا II، 640.

35- X، II، 3.

36- إيثوليا "المكتسبة".

37- X، II، 9.

38- أي، الخطّاب.

39- X ، II، 35؛ ومع ذلك فإن هوميروس يخصّ الأكارنانيين بالذكر.

40- "على ساحل القارّة" (الأوذيسا XXIV، 377).

41- الإلياذا II، 638.

42- II، 68.

الفصل الثالث

1- VIII، III، 8.

2- IX، III، 11.

3- انظر IX، III، 11.

4- XXXIV، المقطع 1.

5- من كنيدس (حوالي العام 350 ق.م).

6- انظر II، IV، 2؛ VII، V، 9.

7- Kúra.

8- Akúrus.

9- X، II، 3، 22.

10- هؤلاء كلّهم عفاريت غابات دنيا تشكّل حاشية ديونيسوس.

11- Korai.

12- انظر مثلاً: الإلياذا XIII، 685.

13- هيرودوت، VII، 208، 209.

14- صيغة هوميروس: Kurai- "بنات" - Kuroi - "شبان".

15- Kurētes.

16- Kurētes.

17- بحسب أثينوس (XIV، B 631)، أن الرقصة الحربية (بيرّيخا) كانت شيئاً ما يشبه الرقص الديونيسي. وكان الذين يؤدونها يحملون مشاعل وعصي ديونيسيوس ويرميها بعضهم لبعض.

18- أفلاطون، ثيون، 68.

19- فيلولايوس، المقطع 4 (ستوبيوس I، 460-458)، انظر: أفلاطون، ثيمييوس C32، D 36، A37، B41، الدولة B 617.

20- هـم المكرّسـون في المسـرحيات الدينيـة الإيليفسـينية؛ حملـة المشـاعل، أو الـدادوخي: خـدم عبـادة ديمـيترا الإيليفسـينية؛ الأروثـانتس: الكهنـة المرشـدون الـذين يشرحون الأسرار المقدّسة للعبادة الإيليفسينية.

21- على اسم جبل ديندبم، وجبل سيبيلوس، ومحلّة بيسينوت، وجبال كيبيلا وكيبيا.

22- عن الكوريتيين الكريتيين.

23- أي من الأفواه.

24- كهنة كيبيلا الفريجيون.

25- أعياد تقام كلّ ثلاث سنوات.

26- klypusin.

27- الدولة I 327؛ II، 354.

28- عن التاج 313.

29- هذه صيحات دينية، يقول أوزينير (Götternamen. Bonn, 1896, p.44)، إنها تعني: "المجد لك يا سابازيوس، أيها الرب سابازيوس، يا سابازيوس الرب" (انظر: Roscher. Mythologisches wörtesabazios, 264-265 عمود)

30- هلانيكوس الليسبوسي (حوالي العالم 430 ق.م).

31- من chalkeos - "نحاسي".

32- انظر XIV، II، 7.

33- انظر X، III، 13.

34- III، 37.

35- korybantes، يشتقّها سترابون من koryptein- "تناطح" (بالرأس)، bainein- يتمشى".

36- Betarmones.

37- في المسرحية المفقودة: "الساتيروس الصم". (المقطع 337، ناؤوك).

38- Daktylos- "إصبع".

الفصل الرابع

1- "جبين الخروف".

2- النصّ متهدّم.

3- النصّ متهدّم.

4- "الجبال البيضاء".

5- لقد أغفل عدد المراحل في المخطوط الأصل نفسه.

6- Eteókrētes.

7- الأوذيسا XIX، 177.

8- بحسب أندرون: "المقسومة إلى ثلاثة أجزاء"، "الثلاثية". لكنّ اشتقاقها الصحيح، هو من التسمية thrix و aisso-"الساحرات بجمال شعرهن"، "ذوات الريش المزخرف".

9- "الثلاثي الريش" (على الخوذة).

10- "كثيف الشعر".

11- الأوذيسا XIX، 178.

12- الإلياذا II، 647.

13- انظر: هيرودوت III، 122.

14- فراغ في المخطوط يملؤونه وفق ديودوروس الصقلي (V، 78)، الذي بدوره يرتبط بإيثور: "... في شطر الجزيرة الذي يتّجه نحو آسيا، فستوس على البحر تتجّه نحو الجنوب، وكيدونيا في المنطقة الواقعة غرباً قبالة البيلوبونيز".

15- كيدونيا مثلها مثل كنوسوس.

16- القوانين مقطع 631B، ومقطع 693E، ومقطع 751D.

17- بهذا الاسم دعي الكتاب الرابع من "تاريخ" إيثور.

18- أي، البحر المتوسّط.

19- أحد الألقاب في البلاط الملكي.

20- على أغلب الظنّ أن خطأ قد ارتكب هنا، والرقم الأدق، هو "8".

21- لم يبق ليصل إلينا.

22- X، IV، 6.

23- في الظاهرات 33.

24- Dictya.

25- X، IV، 7.

26- الإلياذا II، 647.

27- الإلياذا II، 649.

28- الأوذيسا XIX، 174.

29- يتحدّث هوميروس هنا عن زمنه.

30- لقد دمّر أعداء إيدومينوس المدن العشر.

31- حرفياً: "قطيع".

32- انظر X، II، 8.

33- Gerontes.

34- Hippeis.

35- مرشد الغلمان.

36- ربّما يكون قد وقع خطأ هنا فاستخدمت كلمة "حديدية" بدلاً من "خشبية".

37- معناها الحرفي: "المنتخبون يقفون على مقربة" (لمدّ يد العون في القتال).

38- "ماجد، جميل".

39-"عشيق، محبوب".

الفصل الخامس

1- هيدروسيليكات الألومينيوم (الكيموليت).

2- مثل يضرب عن الناس والأشياء الذين لا نفع فيهم.

3- في العام 416 ق.م (ثوكيديدس V، 115-116).

4- المقطع 58، بيرغك.

5- على شرف أبوللون ولاتونا (ثوكيديدس III، 104).

6- katalepton.

7- في العام 146 ق.م.

8- لقد كانت ديلوس أكبر مركز لتجارة العبيد (انظر XIV، V، 2).

9- بدعم من ميتريدات أصبح أريستيون تيراناً على أثينا في العام 88 ق.م.

10- بحسب ثوكيديدس (III، 104) أن المقابر كلّها نقلت من الجزيرة إلى رينيا في العام 426 ق.م.

11- XIV، II، 5-13.

المحتـــــــويات